

نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب

أ. د
راغب السرجاني

مؤسسة اقرأ
للنشر والتوزيع والترجمة



الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع: ١٩٧٨٨/ ٢٠١٠

بطاقة الفهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة

السرجاني، راغب.

المشترك الإنساني / تأليف/راغب السرجاني

القاهرة : مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٠

(٨٤٠ص)، ٢٤ سم تدمك: ٨-٧٩١-٤٤١ - ٩٧٧ -٩٧٨

١ - العلاقات الإنسانية

١٥٨,٢

مركز السلام للتجهيز الفني

عبد الحميد عمر

٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة

١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط

القاهرة ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ محمول:٠١٠٥٢٢٤٢٠٧ -٠١٢٦٣٤٤٠٤٣

E-mail:iqraakotob@yahoo.com

www.Iqraakotob.net



لن يحيا إنسان على ظهر هذا الكوكب دون أخيه الإنسان!

فالإنسان بطبيعته غير كامل، وبيئته كذلك..

ومن ثم..

فإما أن يتعارف مع أخيه الإنسان لتحقيق مصلحة مشتركة..

وإما أن يتصادم معه لتحقيق مصلحة ذاتية، مُعْرِضًا بذلك عن مصالح إخوانه في الإنسانية..

وهذه النظرية صيغت لزيادة فرص التعارف بين البشر، ولتقليل فرص التصادم بينهم، وذلك عن طريق البحث عن «مشتركات» يلتقي الناس جميعًا عليها..

إنها رؤية جديدة لعالم الإنسان..

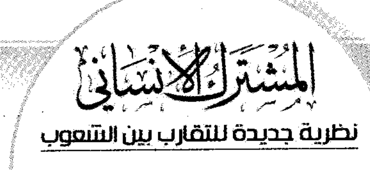
وأمل كبير في حياة أفضل للبشر..

أ.د راغب السرجاني



مقدمة





مقدمـــة

انتحاري يفجِّر نفسه في سوق..

صاروخ يسقط فوق ملجأ للأيتام..

قوات الاحتلال تقتل ستمائة..

سباق تسلُّح محموم يشمل أسلحة دمار شامل..

صراع حدودي خطير يرفع درجة الاستعداد إلى القصوى..

تَعَثُّر مباحثات السلام..

هذه بعض عناوين الجرائد في يوم واحد من عدد متفرِّق من بلدان العالم!

لم أجتهد كثيرًا في انتقاء هذه العناوين.. فبقية العناوين لا تختلف عنها كثيرًا!!

يا أيها الناس..

إلى أين أنتم متَّجهون؟!

إن العالم يسير بخطى حثيثة نحو عدَّة كوارث كونية تكفي الواحدة منها إلى إفناء النوع البشري.. وأكثر من ذلك فإن العالم في الحقيقة فَقَدَ «سعادته»! إن هناك حالة من التوتُّر والاحتقان والقلق والغضب أصابت كل بقاع العالم تقريبًا.. تفشَّى الظلم والقهر، وظهر الفساد في البر والبحر، وصار الناس شيعًا وأحزابًا يضرب بعضهم رقاب بعض..

إن العالم يُوَاجه أزمة خطيرة في العقود الأخيرة من عمر الدنيا.. وهذه الأزمة تتمثَّل في الأساس في تنامي شعور الكراهية بين الشعوب بشكل مخيف، وترسَّخت عند المعظم حالة من فقدان الثقة، والشكِّ في الآخرين، وحدث عكس ما كنَّا نتوقَّعه عندما شاهدنا تقدُّمًا مذهلاً في مجال المواصلات والاتصالات، فقد كنا نتوقَّع ازدياد العلاقات الحسنة بين شعوب الأرض لسهولة التواصل، فإذا بهذه الوسائل الحديثة تُصَدِّر الكراهية والحقد والحسد والشحناء والبغضاء بشكل أوسع وأسرع..

وأخطر من ذلك ظهور بعض النظريات والدراسات والبحوث، التي تحاول تأصيل الكراهية! وتسعى إلى إثبات أن الإنسان في مجتمع ما لا بُدَّ أن يصطدم مع الإنسان في المجتمعات الأخرى، وأنَّ تعارض المصالح يجعل الصراع حتميًّا، وبعض هذه النظريات تؤصِّل الكراهية تجاه شعب معين، وبعضها تؤصِّله تجاه عدة شعوب، وأخرى تؤصِّله ضد العالم أجمع!

ولقد رأينا آثار هذا الفكر المنحرف في مئات الآلاف من القتلى والجرحى والمشرَّدين.. ورأيناه في ملايين الفقراء والمعدمين.. رأيناه في الأرامل والأيتام.. ورأيناه في الجوعى والظمأى والأسرى والمحاصَرين..

لقد بدا العالم وكأنه فقد عقله!

ما السرُّ في هذه الحالة من فقدان السيطرة.. حتى صار الصدام في كثير من الأحيان عشوائيًّا ومتخبِّطًا؟!

يقولون: إن السبب هو «الاختلاف» بين الشعوب!

عشرات الأديان، ومئات العرقيات..

عدد هائل من الدول والدويلات والعشائر والقبائل..

مذاهب وأفكار، ومدارس وفِرَق..

أغنياء وفقراء، وأقوياء وضعفاء..

رأسماليون غربيون، وشيوعيون شرقيون..

ومترفون شماليون، ومعدمون جنوبيون..

مختلفون.. مختلفون.. مختلفون..

أهذا هو السرُّ فعلاً؟!

أنا لا أعتقد هذا؟!

تخيَّل أن هناك لوحة بها ألف شجرة وليس فيها شيء آخر..

ولوحة أخرى بها ثلاث شجرات وجدول رقراق منساب، وسماء زرقاء، وقليل من السحب هنا وهناك، وشلال بديع من بعيد، وطائر أو طيور، وكوخ أو أكواخ، وسهل منبسط، ووراءه جبل سامق، وفي قمَّته جليد، وتحت سفحه راعٍ يرعى عشرة أغنام!

أيُّ اللوحتين أبدع؟!

وفي أيهما ترغب؟!

إن النفس السوية تختار اللوحة الثانية..

قد تكون الأشجار في اللوحة الأولى أجمل من شجرات اللوحة الثانية، لكن السرَّ في جمال اللوحة الثانية كان في تنوُّع مظاهر الإبداع فيها!

وكذلك البشر!

إن العالم بحضاراته المختلفة، وتنوُّعاته الهائلة، وأعراقه وأجناسه، وأفكاره ولغاته، ليُمَثِّل منظومة رائعة متكاملة، تُعطي ثراءً لا نهاية له، وروعة لا حدَّ لها.. ولو كان البشر كلهم على شاكلة واحدة لعانى الناس من السآمة والملل، والكآبة والإحباط..

إذًا ليس «الاختلاف» هو سرَّ أزمتنا..

بل إنني أقول: إننا إذا تدبَّرنا في الأمر حقَّ التدبُّر، وأمعنَّا النظر بعمق في أحوال الشعوب والحضارات لوجدنا أننا كبشر متَّفقون في ما لا يمكن أن نُحصيه من أمور، و«مشتركون» في ما لا يمكن حصره من «مشتركات»..

نعم هذا أبيض وهذا أسود..

وهذا مسلم وهذا نصراني..

وهذا غني وهذا فقير..

لكن..

هذا «إنسان».. وهذا «إنسان»!!

ولكوننا جميعًا ننتمي إلى الإنسانية، فيقينًا نحن «نشترك» في أضعاف أضعاف ما نختلف فيه.. ولعلَّ هذا يتبدَّى لنا بوضوح مع كل صفحة من صفحات هذا الكتاب.

إذًا ما السرُّ في أزمة العالم.. وفي صراعه وصدامه؟ وحقده وكراهيته؟

إنني أرى أن السرَّ في ذلك هو «الجهل» بمن يُحيط بنا من أمم وشعوب!

قالوا قديمًا: «الإنسان عدوٌّ ما يجهل»..

وللأسف مع أن القول يصف «سطحية الإنسان»، إلاَّ أنه يُقرِّر حقيقة مرصودة، وواقعًا مشاهَدًا..

فليس من المفروض أن يُعادي الإنسان ما يجهل، ولكن من المفروض أن يقف الإنسان وقفة محايدة مما يجهل، ثم يدفعه فضوله إلى «استكشاف» ما يجهله، فلو كان حسنًا أحبه واقترب منه، ولو كان قبيحًا كرهه وابتعد عنه..

هذا هو الفكر الأمثل للإنسان الذي مُيِّز عن سائر المخلوقات بالعقل والحكمة..

لكن الواقع أن الناس -في معظمهم- يُعادون ما يجهلون، دون بحث ولا استكشاف، ولا دراسة ولا تنقيب..

والأسوأ من ذلك أن تُرَوَّج شائعات مغرضة، وأكاذيب مقصودة لوصف شعب من الشعوب بما ليس فيه، واتهام حضارة من الحضارات ببهتان وزور.. يقف وراء ذلك ثُلَّة من أصحاب المصالح والأهواء، ويسير العالم وراءهم معصوب العينين، مسلوب الإرادة، مخدوعًا، موهومًا، يرتكب المجازر والمآسي، وهو يظنُّ في نفسه النبل، ويُفسد الأرض ويُدمِّر، وهو يعتقد أنه من المصلحين..

إنه «الجهل» الذي نعانيه!

وما علاجه؟

كلمة واحدة.. «التعارف»!

بداية نجاة العالم، وصلاح البشرية، وتعايش الناس تعايشًا منطقيًّا سلميًّا نافعًا إيجابيًّا.. هو التعارف..

إذا تعارفنا رأينا «المشتركات» الكثيرة التي تجمعنا مع إخواننا في الإنسانية..

إذا تعارفنا أدركنا أن شعوب العالم، وحضارات الأرض، ليسوا كما صَوَّر لنا بعض المنحرفين مسخًا مشوَّهًا، أو خَلْقًا «آخر»، إنما هم بشرٌ لهم مشاعر كمشاعرنا، وأحاسيس كأحاسيسنا، ولهم نفس أحلامنا، ونفس آمالنا.. ما يُغضبنا يُغضبهم، وما يُسعدنا يسعدهم..

بل أكثر من ذلك..

إذا تعارفنا أدرك كل واحد منا احتياجه إلى أخيه الإنسان..

«نحن» نسير في صحراء قاحلة مترامية الأطراف.. أنا أعرف الطريق، وأنت معك الماء! بدوني تتوه وتهلك، وبدونك أظمأ وأهلك!

ألاَ يأتي علينا زمان أضع يدي في يدك فنتجاوز الصحراء المهلكة آمنين؟!

ليس لأحد منَّا فضل على الآخر..

لقد صار التعارف حتمية إنسانية من هذا المنظور..

وما أجمل أن تقرأ الآية القرآنية في ظلِّ هذه المعاني: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣].

إنه ليس خطابًا للمسلمين أو للمؤمنين.. إنه خطاب «للناس».. لكل الأعراق والأجناس والشعوب والحضارات.. في كل بقاع الأرض.. وفي كل مراحل التاريخ..

أيها الناس.. خُلِقتم مختلفين.. لا لتتشاحنوا وتتباغضوا ويأكل بعضكم لحم بعض..

ولكن «لتعارفوا».. ما أجمل هذا المعنى! وما أعمقه!

نحن نحتاج أن نفهم هذا المعنى وأن نستوعبه..

ونحتاج أن نبحث عن المشتركات الكثيرة التي تجمعنا مع إخواننا في الإنسانية، ونحتاج أن نتعارف على كل الحضارات والشعوب، ونحتاج أن نقرأ لكل المفكرين والفلاسفة من كل المدارس والمذاهب، ونحتاج أن نبحث عن «نبلاء» كل شعب؛ الذين يُدركون المخاطر التي يُقدم عليها العالم، ويعرفون آليات الحلِّ، وطُرق النجاة، ويفقهون قيمة التعارف وأهميته.. ويرغبون صادقين في وضع أيديهم في أيدي كل المصلحين من شتى الأجناس والأعراق؛ لنصل إلى غاية واحدة؛ وهي أن نعيش على هذا الكوكب آمنين مطمئنين، لا بغيَ ولا عدوانَ، ولا ظلم ولا طغيان..

قد تبدو أحلامًا عريضة.. وآمالاً واسعة..

قد يبقى حولنا مُحْبَطون يفقدون الأمل في صلاحٍ أو نجاةٍ.. لكني على خلاف ذلك..

أقول: ما فات الأوان..

ولن يموت في قلبي أمل، ما دامت على الأرض حياة.. ولهذا.. كان هذا الكتاب!

أ. د. راغب السرجاني

القاهرة: ٢٤ أغسطس ٢٠١٠م

١٤رمضان ١٤٣١هـ

الإنسان بين التعارف والتصادم

الفصل الأول: أصل القصة

الفصل الثاني: الطريق إلى الهاوية







الباب الأول

الإنسان بين التعارف والتصادم

منذ اللحظات الأولى للإنسان على هذه الأرض وهو يعيش ظروفًا صعبة، فلا بُدَّ من كَدٍّ وتعب حتى يأكل ويشرب، ولا بُدَّ من جهد ونصب حتى يلبس ويسكن، ولا بُدَّ من حذر وترقُّب حتى يأمن ويطمئنَّ.. إنه الكفاح منذ اللحظة الأولى، وقد جرت سُنَّة الله ﷻ أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، فكان لزامًا على الإنسان أن يكدح من أول أيام الدنيا وحتى آخرها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

ولم يَجِد الإنسان نفسه وحيدًا في هذه الأرض، بل وجد غيره من البشر يسكن إلى جواره على الكوكب نفسه، حتى آدم عليه السلام كانت معه امرأته، وسرعان ما أصبح له ذرية، وكلٌّ منهم يبحث عمَّا يُصلح حياته، وله مصالح وطلبات؛ ومن ثَمَّ كان على الإنسان أن يحرص على ما ينفعه، وهو يعلم أن غيره يطمع الطمع نفسه، ويرجو عين الرجاء.

وقد لاحظ الإنسان أنه على الرغم من اتفاقه مع مَنْ حوله من البشر في أشياء كثيرة؛ إلاَّ أنه يختلف عنهم في أشياء كثيرة كذلك، وأن هذا الاختلاف ليس في الشكل والمظهر فقط، ولكن في العادات والسلوك؛ فالبيئات التي نشأ فيها البشر مختلفة، والظروف التي ترعرعوا فيها متباينة، وهي سُنَّة ماضية.. قال ﷻ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]، وهذا الاختلاف له مزاياه ومنافعه، ولكن في الوقت ذاته يحمل في داخله بذور فتنة، فكثير من البشر لا يَقْبَلُون المخالف لهم، وقد ينشأ صراع وصدام، لا لشيءٍ إلاَّ للاختلاف، وما زال الأبيض ينظر إلى الأسود نظرة متوجِّسة حتى لو كثر مال الأسود، أو عزَّ سلطانه.

ولاحظ الإنسان كذلك أن قدرته محدودة، وإمكاناته لها نهاية، وأنه يستطيع أن يفعل أشياء بمهارة، ولكنه يفعل غيرها بصعوبة، وفي أمور أخرى هو لا يستطيع أن يفعل شيئًا ألبتة، فعلم أنه



خَلقٌ منقوص غير كامل، وأنه مهما بلغت قوَّته، وزادت حدَّة ذكائه يحتاج إلى عونٍ من أخيه الإنسان، فكان لزامًا عليه أن يتعامل معه، وأن يطلب ما عنده، فسلك البعض سبيل التودُّد والتلطُّف؛ ليحمل أخاه على مساعدته، وسلك آخرون سبيل القهر والسخرة؛ ليُجْبِرُوا بقية البشر على خدمتهم، والجميع في النهاية يعلم أنه لن يعيش بمفرده على هذا الكوكب ولا يستطيعه.

ولاحظ الإنسان كذلك أن الله ﷻ قد وزَّع الثروات على بقاع العالم المختلفة، وأنه يندر -بل يستحيل- أن تجد منطقة من الأرض تحمل كل خيرات الدنيا ولا تحتاج إلى غيرها، بل وجدنا أرضًا قد مُنِحت بترولاً ومعادن، ولكنها حُرمت ماءً وأشجارًا، ووجدنا مكانًا ساخنًا تنمو فيه نباتات معينة، وآخر باردًا تنمو فيه نباتات أخرى، ووجدنا بيئةً تصلح لحيوان ما، وبيئةً أخرى تصلح لغيره، ووجدنا في أماكن سحرَ الجمال في جبالها ووديانها، بينما سحر الجمال في أخرى يكون في بحارها وشواطئها، إنه تنوُّع بديع جعل الكل في النهاية مضطرًّا إلى النظر إلى ما حوله من بيئات ومناطق؛ ليُكمل النقص الذي عنده في بيئته، ومرَّة أخرى وجد الإنسان نفسه أمام طريق من اثنين لا ثالث لهما.. إمَّا أن يتودَّد ويتلطَّف، وإمَّا أن يتجبَّر ويتسلَّط.

إنهما منهجان أصيلان رأيناهما في قصة البشرية..

- منهج التعارف لتحقيق المصلحة المشتركة للطرفين..
- ومنهج التصادم لتحقيق المصلحة الذاتية على حساب مصالح الآخرين..

لا شكَّ أن المنهج الأول قاد إلى خير كثير، ونفع أممًا عديدة، ولا شكَّ كذلك أن المنهج الثاني قاد إلى حروب هائلة وكوارث مستطيرة.

وعقلاء العالم بحثوا في القضية ومحَّصُوها.. كيف السبيل إلى تعارف ينفع الأرض ويعمرها؟ وكيف السبيل إلى نبذ الصدام أو على الأقل تقليل حدَّته ووتيرته؟!

إنها معضلة لا شكَّ..

ولعلنا لكي نصل إلى الإجابة، لا بُدَّ أن نبحث في قصة الإنسان من البداية، ثم بعد أخذ العبرة من التاريخ نقف على أرض الواقع، فنقرؤه ونُحَلِّله، وعندها قد نخرج بمنهج يصلح البشرية، ويُنْقِذها من دركات الهاوية!

أصل القصة

(الاجتماع ضروري للنوع الإنساني، وإلاَّ لم يَكْمُل وجودهم، وما أراده الله من اعتمار العالم بهم، واستخلافه إياهم)

ابن خلدون







الفصل الأول

أصـــل القصـــة

عاش الإنسان الأول حياته وسط بيئة تحتاج إلى كل يد وعقل؛ لتُهَيِّئ له طموحاته ومتطلَّباته، والحقُّ أن تاريخ عصور ما قبل التاريخ -السحيقة منها واللاحقة- تكشف لنا كيف خطا الإنسان الأول خطواته الناضجة نحو الراحة والتقارب، وبعيدًا عن سجالات سخيفة لبعض علماء الأنثروبولوجيا [1] التي تصف الإنسان بأنه كائن متطوِّر من سلالة القرود إلى ما هو عليه الآن، وأنه لم يكن اجتماعيًّا في بادئ أمره، إلاَّ أننا نؤمن إيمانًا عميقًا أنه مخلوق اجتماعي بالفطرة، وأنه لا يستطيع الحياة دون أسرة يلتجئ إليها وتلتجئ إليه.

ولعلَّ صورة الأسرة هذه لأكبر دليل على أن المشترك الإنساني بين البشر قائم ومتواجد منذ وجود الإنسان على الأرض، وهذا ليس أمرًا غريبًا، بل الغريب ألاَّ نتوقَّعه؛ فإننا قد رأينا كل المخلوقات تعيش في مجتمعات، تستوي في ذلك الوحوش الضارية والحيوانات اللطيفة، وكذلك الطيور والأسماك، بل إن عالم الحشرات -وهو الأدنى في المرتبة- يشهد هذه المجتمعات بشكل متطوِّر بالغ التعقيد، ويكفي دراسة بسيطة لحياة النحل أو النمل لنُدرك عظمة هذه المجتمعات.. فإذا كانت كل هذه المخلوقات وهي أقل من الإنسان دون شكٍّ – قد اهتدت إلى أهمية حياة المجتمعات، وإلى وجوب التعاون للوصول إلى هدف مشترك، فهل يمكن للإنسان العاقل أن يُغفل هذه الحقيقة أو يتوه عنها؟!

لقد اتفقت الكثير من العلوم الإنسانية على أن وصول الإنسان إلى المدنية والتقدُّم الحالي وهي مصلحة بشرية مشتركة-لم يأتِ إلاَّ من خلال التقارب والتعارف، ويرى مؤسس علم الاجتماع ابن خلدون[2] أن تحقيق مصلحة الإنسان في الأرض من خلال تطويع هذه الأرض وتسخيرها

---

(١) علم الأنثروبولوجيا: هو علم دراسة البشر، في كل مكان وطوال الوقت.

(٢) ابن خلدون: هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢- ٨٠٨هـ=١٣٣٢- ١٤٠٦م)، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي، مولده ومنشؤه بتونس. انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٧/ ٧٦، والسخاوي: الضوء اللامع ٤/ ١٤٥-١٤٩.

لخدمته، قد جعلته يبحث عن مثيله وبني جنسه ليُساعده في تحقيق ما يُريد؛ ذلك أن الآخر كان يبحث عن حلٍّ ناجع لهذه المعضلة الكبرى، وبالفعل التأمت الجماعات البشرية الأولى فيما بينها مكونة مجتمعًا صغيرًا كبُر مع الزمن، وهذا ما يُوَضِّحه ابن خلدون بفكره الثاقب، ورؤيته العميقة بقوله: «الواحدُ من البشر لا تُقاوِم قدرتُه قدرةَ واحدٍ من الحيوانات العُجم سيما المفترسة؛ فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة، ولا تفي قدرتُه -أيضًا- باستعمال الآلات المُعَدَّة لها، فلا بُدَّ في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه، وما لم يكن هذا التعاونُ فلا يحصلُ له قُوتٌ ولا غذاءٌ، ولا تتمُّ حياته؛ لِمَا رَكَّبه الله -تعالى- عليه من الحاجة إلى الغذاء في حياته، ولا يحصل له -أيضًا- دفاعٌ عن نفسه؛ لفُقْدَان السلاح، فيكون فريسة للحيوانات ويُعاجله الهلاك على مدى حياته، ويَبْطُل نوعُ البشر، وإذا كان التعاونُ حَصَلَ له القوتُ للغذاء، والسلاحُ للمدافعة، وتمَّتْ حكمة الله في بقائه وحِفْظِ نوعه؛ فإذًا هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني، وإلاَّ لم يَكْمُل وجودهم، وما أراده الله من اعتمار العالم بهم، واستخلافه إياهم»[1]. فهو هنا يُقَرِّر أن الظروف الصعبة أجبرت الإنسان على العيش في جماعة مع بني جنسه، لكنه أشار في مضمون كلامه إلى أن هذا الاجتماع غريزة إلهية، تدفع الإنسان إلى تحقيقها بلا تفكير في كثير من الأحيان؛ ولذلك بحث الإنسان مع الآخر عن تحقيق المصلحة المشتركة من خلال التعارف والتعاون.

ومن اللافت أن هناك من علماء الأنثروبولوجيا مَنْ تصدَّى لمفهوم «البدائية» كمصطلح دلَّل على انفراد الإنسان وانعزاليته وسذاجته وقلَّة خبرته في الكون، وكان من هؤلاء الأنثروبولوجي الأميركي أشلي منتاجيو[2]، الذي دافع عن الإنسان البدائي في كتابه القيِّم (البدائية)، والذي يقول فيه: «نحن نتكلم عن الشعوب (البدائية)، عن شعوب الأرض اللاكتابية، فماذا نعني عندما نستخدم هذا الاصطلاح؟ نعني أن هذه الشعوب هي -بالمقارنة مع ما نحن عليه- غير متطوِّرة، وهذا من عدَّة وجوه صحيحٌ؛ فهو يصحُّ مثلاً في حالة القراءة والكتابة، وفي حالة التقدُّم التكنولوجي، ولربما صحَّ -أيضًا- بدرجات متفاوتة في عدَّة ثقافات على بعض جوانب تطوُّر

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص٤٣.

(٢) أشلي مونتاجيو: هو مونتاج فرانسيس أشلي مونتاجيو Montague Francis Ashley Montag (١٩٠٥ – ١٩٩٩م) مولده بأرض فلسطين ووفاته بلندن، عالم إنساني وأنثروبولوجي أميركي شهير، له أكثر من ستين كتابًا، أشهرها: (البدائية)، و(الوراثة البشرية).



الأخلاق والمؤسسات؛ لكن لا بُدَّ من الإشارة إلى أن هذه الثقافات هي -مَن بعض الوجوه- أشدُّ تطوُّرًا من أكثر الثقافات المتمدنة، وهي لهذا (أفضل) من الثقافات المتمدنة حسب المعايير التقويمية السائدة حول هذه الأمور في المجتمعات المتمدنة؛ فمثلاً يتَّصف الإسكيمو والأستراليون الأصليون -إنْ شئنا الاكتفاء بمثالين مما يُدعى بالثقافات البدائية المعروفة لدى علماء الأنثروبولوجيا- بالكرم والودِّ والتعاون أكثر من اتصاف غالبية أعضاء المجتمعات المتمدنة بهذه الخصال؛ لذلك يكون الإسكيمو والأستراليون الأصليون -بمعاييرنا نحن حول هذه الأمور- أفضلَ منا. إن أعضاء هاتين الثقافتين البدائيتين مخلصون، مرحون، شجعان، يُعتمد عليهم إلى حدود لا ترقى إليها إلاَّ قلَّة من المتمدنين، فمَنْ هم الأكثر تطورًا في هذه المجالات؟ أولئك الذين يدَّعون بألسنتهم اتِّباع هذه الخصال، أو أولئك الذين يمارسونها في حياتهم؟»[(١)].

بهذه الحقيقة الأنثروبولوجية المهمَّة لنا أن نتأكَّد أن الإنسان الأول كان إنسانًا اجتماعيًّا في سلوكه وأخلاقه، وبهذا الشاهد المهمُّ نستنتج أن ذاك الإنسان استطاع أن يُكَوِّن مشتركات بينه وبين الآخر منذ حقبة مبكِّرة من تاريخ الإنسانية، ظهرت أوَّل ما ظهرت مع أسرته الصغيرة وقبيلته.

الإنسان والقبيلة:

لا يمكن أن نتخيَّل الإنسان مهما كان تاريخه بدون وجود عاقلة[(٢)] تحميه، وعائلة ينتسب إليها؛ فالإنسان نتاج طبيعي لأب وأم، هذا الإنسان له إخوة وأخوات وأعمام وأخوال.. وبهذه الرابطة الفطرية التي جُبلت عليها الإنسانية كلها منذ آدم ﷺ وحتى انتهاء الدنيا، نجد أنه من الفطري أن توجد تجمعات بشرية تقوم على النسب، تتشابك فيما بينها لتُكَوِّن القبيلة التي هي المجتمع البدائي للمجتمعات المدنية لاحقًا.

ومن اللافت أن الإنسان يتميَّز بالنزوع إلى الإنسان، حتى ولو لم يقصد أو يُفكِّر فيما

---

(١) أشلي منتاجيو: البدائية، ص١٤، ١٥.

(٢) العاقلة: هُم العَصَبة، وهم القرابة من قِبَل الأَب الذين يُعْطون دية قَتْل الخطأ. ابن منظور: لسان العرب، مادة عقل ١١/ ٤٥٨، والمعجم الوسيط ٢/ ٦١٧.

يترتَّب على ذلك من التفاعل الخصب للتغلُّب على الصعاب، وحلِّ المشكلات التي تعترض حياته، وعلى أساس هذا الميل الغريزي عَبَرَت المجموعاتُ البشرية دروب الزمان، وتطوَّرت خلال ذلك علاقات الإنسان بالإنسان، وامتدَّت من الأسرة إلى العشيرة إلى القبيلة... وقد سلكت المجموعات البشرية هذا الطريق مارَّة بمراحل الصيد فالرعي فالزراعة، التي منحت الإنسان الاستقرار بجوار الأرض[1].

وبعيدًا عن الحديث عن مرحلة الزراعة التي تمثِّل المرحلة الأخيرة من مراحل تطوُّر الحياة البشرية الأولى، فإن القبيلة كانت عاملاً لا يمكن تجنُّبه في مرحلة تطوُّر الإنسان البدائي، وهي تُعَبِّر في حقيقة الأمر عن مشترك أوَّلِيٍّ للإنسانية، وما زالت القبائل التي تُوصف بأنها بدائية تملك مشتركات فيما بينها، تُمَثِّل اللغة والنسب والغاية المحرِّكة لها عواملها الأساسية.

وإن من أهمِّ ما يميِّز القبيلة البدائية -وما زال يميِّز مثيلاتها في يومنا هذا- التعاون على إنجاز المصالح المتنوِّعة؛ فقبائل العصور الحجرية المتأخِّرة، كانت تستخدم إبر العظام؛ حيث يستعملونها في خياطة الفراء، وقد كانوا يطبعون عليها رسومًا بواسطة أسطوانات من العظم، وهناك مَنْ يصف هذه القبائل بأنهم كانوا شعوبًا من المتوحشين العراة المنقوشي الأديم، وكانوا في مطاردتهم لحيوان الرنَّة يُشبهون هنود لبرادور[2]، ويتَّضح التعاون بصورته الواضحة في مرحلة الصيد، وهي أولى المراحل التي مرَّت بها البشرية[3].

ولقد كان لهذا التعاون الغذائي بين أبناء القبيلة الواحدة أثره الكبير في استقرار الأوضاع داخل القبيلة، وهو ما نتج عنه نموُّها وازدياد عدد أفرادها، لقد كانت تلك القبائل البدائية تنسج فيما بينها الشِّباك والمصائد والفخاخ من خيوط الحلفاء والليف، ويصطنعون من الوسائل عددًا لا يُحصى لاصطياد فريستهم من يابس أو ماء، ومن أبرز الصور التي تدلِّل على

---

(١) طاهر أبو فاشا: في معركة المصير العربي ص٢٥.

(٢) لبرادور: شبه جزيرة كبيرة، تقع في الشمال الشرقي من كندا بين المحيط الأطلسي شرقًا وخليج هدسون غربًا، ومساحتها نحو ٣٠٠,٠٠٠, ١كم٢، ونُسب الهنود القاطنون بها إليها.

(٣) هـ. ج. ويلز: معالم تاريخ الإنسانية، ١/ ١١٤.

التعاون داخل هذه القبائل ما يذكره ديورانت[١] بقوله: «لقد كان لأهل بولينزيا[٢] شِباكٌ طولها ألف ذراع، لا يستطيع استخدامها إلاَّ مائة رجل مجتمعين، وبمثل هذا تطوَّرت وسائل ادخار القوت جنبًا إلى جنب مع النظم السياسية، وكان اتحاد الناس في تحصيلهم للقوت مما أعان على قيام الدولة»[٣].

وهناك من العلماء مَنْ يقول بأن القبائل البدائية كانت تقوم على مبدأ الشيوعية في كل شيء، وأن الرابط الحقيقي الذي كان يربط بين أبنائها هو المصلحة والمنفعة المتبادلة، فضلاً عن الضرورة الحياتية التي كانت تجبر هؤلاء الأفراد على العيش في جماعات متحدة، واستند هؤلاء العلماء إلى بعض القبائل البدائية المعاصرة الموجودة في أواسط إفريقيا وفي آسيا، حيث تعيش هذه الجماعات على الشيوعية الجنسية والأسرة الأمية[٤]، كما اعتمد هؤلاء على بعض النظم التي سادت الشعوب القديمة وبقاياها الموجودة في القبائل البدائية المعاصرة؛ مثل زواج الأخ من أخته في مصر الفرعونية والإغريق وفارس وبيرو، وعادة إعارة الزوج، وزواج التجربة، ونظام المشاركة الأخوي.

وقد انتقد هذه النظرية كثير من العلماء؛ لأنها تقوم على تصوُّر مفترض لا وجود له، وأن العادات التي اعتمدوا عليها في القول بأنها بقايا لحالة الإباحية الجنسية يمكن أن تُفسَّر تفسيرًا آخر، وكذلك الحال بالنسبة لنظام الأسرة الأمية، وأضافوا أن بعض الشعوب الآرية كالإغريق والرومان لم يُخلِّفوا لنا ما يدلُّ على أنها عرفت نظام الأسرة الأمية، فضلاً عن أن حالة الشيوعية الجنسية ليست بالضرورة سابقة على مرحلة الأسرة الأبوية، بل قد تكون مرحلة تطوُّر لاحقة عليها، كما هو الحال في نظام الصداقة الشائع الآن في المجتمعات الغربية[٥].

---

(١) ول ديورانت Will Durant (١٨٨٥-١٩٨١م): مؤرخ ومفكر أميركي شهير، من أعظم كتبه: (قصة الفلسفة)، وموسوعته (قصة الحضارة) في ٤٢ مجلدًا، والتي تناول فيها تاريخ الحضارة منذ نشأتها وحتى العصر الحديث.

(٢) بولينزيا: عبارة عن خمس أرخبيلات بولينيزية تقع في جنوب المحيط الهادي، وهي تتبع دولة فرنسا، ومن أشهر جزرها جزيرة تاهيتي.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ١/ ١٢.

(٤) الأسرة الأمية: هي الأسرة المعتمدة على الأم فقط؛ لأنها لا تعرف الأب؛ لشيوع الجنس، وهي بخلاف الأسرة الأبوية التي يُعرف فيها الأب، وتكون أسرة متماسكة لها شكل محدَّد معروف.

(٥) صوفي أبو طالب: تاريخ النظم القانونية والاجتماعية ص٢٩.

لكن من أشهر النظريات التي تناولت القبيلة البدائية أو العشيرة الأولى، تلك التي تتحدَّث عن العشيرة الطوطمية، فقد ذهب فريق من علماء الأنثروبولوجيا إلى أن الإنسان الأول عاش في جماعة أكبر من الأسرة وأصغر من القبيلة، ويرتبطون فيما بينهم برابط هو أنهم جميعًا ينتسبون إلى طوطم (totem) واحد، وهو عبارة عن حيوان أو نبات أو جماد تعتقد الجماعة أنها تناسلت منه؛ ولذلك يشتركون في حمل اسمه، ويجعلونه موضع العبادة والتقديس، ويُحرِّمون صيده وذبحه وأكله[١].

ومع اعتراضنا على هذه الرؤية التي تخالف بوضوح ما جاءت به الأديان السماوية، والتي تقرِّر أن الإنسان عَلِم خالقه منذ الأزل، إلا أننا نلحظ من حديث الأنثروبولوجيين -المذكور آنفًا- أن هذه العشيرة -باعتبارها بنية اجتماعية أساسية- كوَّنت وحدة اجتماعية وسياسية واقتصادية قائمة بذاتها ومستقلَّة عن غيرها، وداخل هذه العشيرة تسود مبادئ عدَّة منها الاشتراك في الغذاء والقوت، ويفنى كيان الفرد داخل الجماعة ولصالحها، وتعيش هذه الجماعة حياة ترحال وتنقُّل.

ومهما يكن من أمر هذه النظريات، فإنها كلها تدور في فلك التخمين، ويصعب القطع بصحة إحدى هذه النظريات، لكننا يجب أن نُنبِّهَ على أن النظم التي أقرَّتها الكتب والرسالات السماوية تعتمد على نظام الأسرة الأبوية (التي يحكمها الوالد)؛ فالعائلة نشأت من رباط موثَّق بين الذكر والأنثى في بداية تاريخ الإنسان، كما كان آدم وحواء النموذج الأصلي للعائلة؛ ففي تجمعات الإنسان الأولى كانت هناك حاجة وضرورة لأنْ تُنجب الإناث صغارًا، وأن يقوم الذكور بحماية الاثنين، ثم ينتقل هذا التفسير إلى القول بأن الأزواج الأولى نشأت؛ لأن بني الإنسان يملكون «غريزة» الزواج[٢].

ومن الملاحظ أنه قبل الاستقرار وقيام الحضارات ونشأة الأمم، وفي مرحلة تلحق مباشرة حياة البدائية والإنسان البدائي، بحثت الشعوب القديمة عن مأوى تقيم فيه نهضتها، ومكانٍ تُحقق فيه مصالحها، يتسم هذا المكان بكل ما من شأنه توفير أقصى درجات الاستقرار

(١) خزعل الماجدي: أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، ص٤٠-٤٢.
(٢) بيتر فارب: بنو الإنسان، ص٢٩٦.

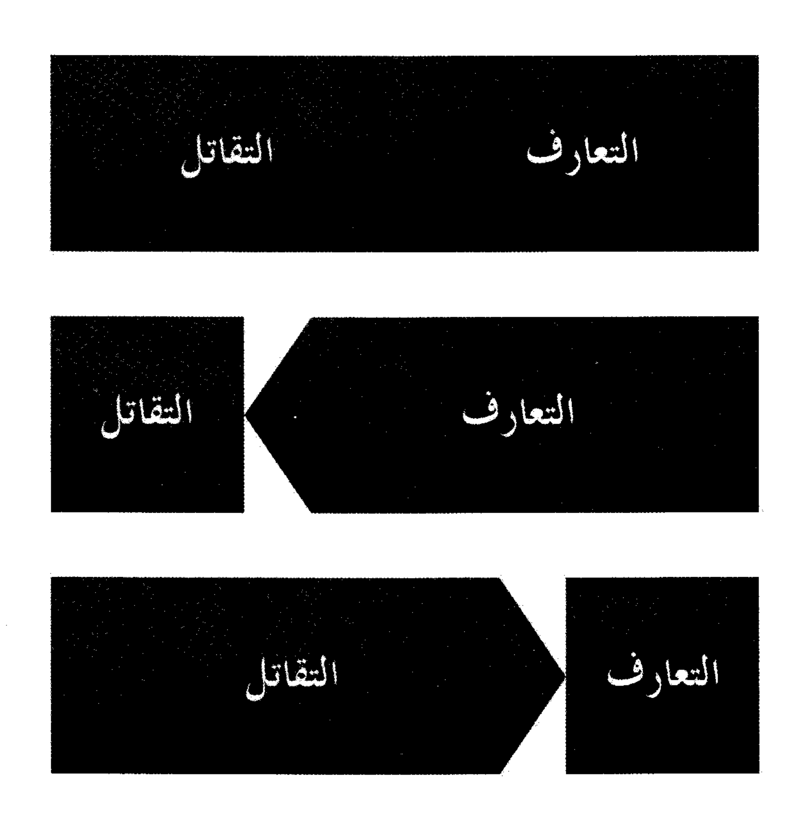
والدعة، فضلاً عن توفُّر الغذاء المناسب، والبيئة التي تتواءم معها. ولنا أن نتخيل كيف انساحت هذه الشعوب من مكان إلى آخر؛ ذلك أن الله ﷻ خلق البشر غير كاملين، لا في أشخاصهم ولا في بيئاتهم، ما حال دون قيام المصالح المبتغاة، فأصبح من العسير على العشيرة الإنسانية الأولى أن تُحقق ما ترجوه وحدها، وكان مما لا بُدَّ منه أن تتقاطع حياتها مع الآخرين، فلم يعُدْ أمام تلك الجماعات لاستكمال المصلحة المنقوصة إلا أحد طريقين: إما التعارف والتعايش، وإما التحايل والتصادم (**انظر: شكل رقم ١ الإنسان بين التعارف والتصادم**).

أولاً: التعارف لتحقيق المصلحة المشتركة:

لقد أضحى التعارف والتعايش عند عقلاء الأمم الأولى ضرورةً بشرية ملحة، وسوف نفهم قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾ [الحجرات: ١٣] فيما سنعرضه من حقائق إنسانية وتاريخية مهمة.

لقد كانت أولى الأماكن التي هاجرت إليها الشعوب البدائية تتمثل في مناطق الخصب الزراعي، فلقد اكتشف الإنسان البدائي كيفية الزراعة في بحثه عن القوت والغذاء، لكن العائق الذي كان يقف أمام هذه الشعوب قد تمثَّل في مياه عذبة ثابتة، وأرض طميية خصبة، ومن ثَمَّ كان البحث والترحال من أهم الآليات الموصِّلة إلى الهدف المنشود.

ولذلك كان من الطبيعي أن تتجه الجماعات البشرية الأولى تجاه المستنقعات وأماكن المياه، ثم الاستقرار، وكانت من أقدم الحضارات التي قامت في تاريخ البشرية على ما يقرر علماء التاريخ والآثار: الحضارة المصرية على ضفاف النيل، والحضارة السومرية في العراق على ضفاف نهري دجلة والفرات، ولقد كان لخصب التربة واعتدال البيئة في هذه الأقطار الفضل في ظهور هذه المدنية؛ لأن خصب التربة أفسح المجال لإمكان المعيشة في الأراضي التي تستقي من الأنهر الثلاثة، أي دجلة والفرات والنيل، وتخصب تربتها، وتقيت العائشين عليها؛ من أجل هذا كان الناس يتواردون على هذه الأقطار، يسكنونها، ويشتغلون بها، ويستثمرون مواردها الطبيعية، ويعيشون فيها عيشة جماعية، يتعاونون ويتبادلون، ويأكلون من خيراتها، ويتزاوجون، ويتوالدون، ويُؤلِّفون أول مجتمع إنساني في التاريخ المعروف (**انظر: خريطة رقم ١ حضارات العالم القديم**).



الإنسان بين التعارف و التصادم

شكل رقم (١)

حضارات العالم القديم

خريطة رقم (١)

ولقد أدرك أفراد هذه المجتمعات -وهم مجموعة من القبائل الوافدة- فائدة الزراعة والحراثة، وقيمة الأرض، ثم ألفوا الحياة الاجتماعية، وبدءوا في إنشاء المدن، وإقامة العمران(١).

فالمصلحة المشتركة هي التي حرّكت تلك الشعوب إلى أماكن الخصب والمياه، وكان من الرائع أن تتعارف هذه الشعوب وتتعايش، بل تتزاوج وتتوالد مكوِّنة المجتمع الإنساني الأول القائم على مبدأ التعايش السلمي.

ومن أقدم المدنيات في تاريخ البشرية -على ما يُقرِّر علماء الإنسان- تبرزُ مدنية أريحا في فلسطين، وقد كانت مدنية حقيقية ظهرت نتيجة هجرة مجموعة من القبائل إليها، كانت تقتات على القمح البري الذي وجدوه متوفرًا فيها، وقد استوطنت هذه القبائل بجوار ينابيع المياه، ثم ما لبثوا أن صنعوا أدوات لحصاد هذا القمح البري دون أن يعرفوا كيفية زراعته، ومن المفارقات المهمة، وأحد التفسيرات التي يقدمها برونوفسكي(٢) على قيام الحضارات القديمة، تكمن في وجود أنواع معينة من القمح نتجت عن طريق التهجين الذي كانت تنتجه الطبيعة من خلال فضلات الحيوان، أو الرياح، أو غير ذلك(٣).

لقد كان من الطبيعي أن تتطورَ الحياة البشرية الأولى من البساطة إلى التمدن والتحضر، ومن الترحال إلى الاستقرار، وقد كانت الأسباب التي أثَّرت في تقدم البشرية متنوعة ومتعددة، لكن اللافت أن الإنسان البدائي استطاع أن ينتقل إلى مرحلة جديدة تتسم بالرقي والهدوء، ومن ثَمَّ بناء الحضارة، ونشأة الأمة؛ ذلك أن الجماعات البشرية الأولى لم تكن متحدة في مكان بعينه، أو تحت لواء سياسي أو اجتماعي بذاته؛ فقد كانت منتشرة في أرجاء العالم، ولما كان التطور الاجتماعي والاقتصادي والمصلحي لهذه الجماعات في تلك الأعصر السحيقة

---

(١) جورج حنا: قصة الإنسان ص١٨، ١٩.

(٢) برونوفسكي: هو جاكوب برونوفسكي Jacob Bronowski (١٩٠٨-١٩٧٤م)، من أشهر العلماء البريطانيين الموسوعيين، له أبحاث شهيرة في الرياضيات والأنثروبولوجيا والبيولوجيا؛ منها: (العلم والقيم الإنسانية)، و(دفاع الشاعر أنثروب).

(٣) برونوفسكي: ارتقاء الإنسان، ص١٧، ١٨.

متقاربًا بصورة لافتة للانتباه، فإنها بحثت في الوقت ذاته عن الآخر؛ لتستكمل معه تلك الطموحات والمتطلبات والاحتياجات التي وضعها أسلافهم، واتضح فيما بعد أنها تكبر بكبر الجماعة؛ ولذلك كان انضمام هذه العشائر والقبائل إلى قبائل وعشائر أخرى أمرًا تمليه المصلحة المشتركة على الإنسان.

إذًا كان أمام العشائر الإنسانية أحد طريقين لتحقيق المصالح: إما التحايل والتصادم، وإما التعارف والتعايش، ولقد وجدنا أن التعارف كان الخيار الأفضل والأنسب لتلك القبائل «العاقلة» التي وعت جيدًا أن المصلحة التي يبحثون عنها، ويريدون تحقيقها إنما هي مصلحة مشتركة عامة، وهذا لا يعني أن التعارف المنطق السائد، فهناك من ارتأى المصلحة الذاتية الخاصة دون النظر إلى مصالح الآخرين؛ ولذلك كان التصادم والتحايل سبيله لتحقيق ما أراد.

ولقد استقر الإنسان في مناطق الخصب والمياه، وأنشأ علاقات اجتماعية مع الآخر تقوم على مبدأ المصلحة المشتركة، ولكن بقي أمر يجب أن ينظِّم العلاقات، ويحدِّد الغايات، وينمي الأفراد، ويكشف للأمم المجاورة أن هذه أمة مثلهم، لها من الإمكانات المادية والمعنوية ما يُبرز قيمتها، ويكشف عن هويتها وثقافتها.

لقد كانت المرحلة التي تفرض نفسها على الشعوب التي وصلت إلى تلك المنزلة، مرحلة إقامة الدولة، التي فيها تنصهر القبائل، وتتحد الهمم.

ولقد وضع علماء الاجتماع مجموعة من التفسيرات المنطقية لإقامة المجتمعات المدنية الأولى، وإن من أشهر هذه النظريات التي تناولت نشأة الدولة وإقامة المجتمع، ما عُرفت باسم «العقد الاجتماعي»، وهو عبارة عن اتِّفاق مجموعة من (الأفراد) فيما بينهم لتكوين (مجتمع)، بِناءً على قاعدة الفائدة المتبادلة وتجنُّب الأضرار، مقابل تسليم الفرد لإرادة الجماعة، ممثَّلة بالسلطة، وهو شكل من الأشكال الجديدة التي لم يعهدها الإنسان من قبلُ في التقارب مع الأجناس والأعراق والقبائل المختلفة داخل القطر الواحد.

ونظر الفيلسوف الإنجليزي جون لوك[١] (ت ١٧٠٤م) إلى أن الأصل في قيام الدولة يعود إلى المحافظة على الملكيات، ويقصد بها الحياة والحرية والمصير، ضد من تسوِّل له نفسه الاعتداء عليها؛ ولذلك فإن الاجتماع البشري لا بُدَّ أن ينتج نوعًا من القوة تستطيع أن تردع كل معتدٍ، وعلى ذلك فالأفراد الذين تجمعهم هيئة واحدة ويخضعون لقانون وسلطة شرعية عامة تفضُّ المنازعات بينهم، وتُعاقِب المجرمين، هؤلاء الأفراد يكوِّنون مجتمعًا مدنيًّا فيما بينهم، وأما هؤلاء الذين لا يجتمعون على شيء ثابت فهم من يعيشون في حالة الطبيعة، حيث يباشر الرجل كافة السلطات التشريعية والتنفيذية بنفسه[٢].

ويرى الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو[٣] (ت ١٧٧٨م) أن ثمة تفسيرًا آخر مهمًّا كان من شأنه أن يقيم دولة القانون في المجتمعات الأولى بأقصى سرعة؛ فالأفراد الذين كانوا يعيشون في الغابات تجمَّعوا تدريجيًّا، وكوَّنوا جماعات منفصلة، ثم في كل منطقة استقلت جماعة ببقعة معينة، تشابهت طبائعها ومشاربها نتيجة عوامل المناخ ووسائل الحياة، وليس عن تنظيمات أو قوانين موضوعة، ولم تكن مجاورة الجماعات بعضها لبعض لتظلَّ قائمة دون أن يحدث الاتصال أو التقارب بمرور الوقت بين العائلات المختلفة ثم تزاوج وانصهار، ثم بدأت هذه المجموعات التجمع أمام الأكواخ أو حول الأشجار؛ للتعارف والغناء يربطهم التآلف والمحبة.

ثم كانت الثورة الحقيقية التي أقامت الدولة، إنها ثورة الزراعة والتعدين، ويرى روسو أنه قد ترتّب عليها عواقب أخلاقية وخيمة؛ ففي بادئ الأمر كان استخدام الحديد، واستهلاك السلع يسير دائمًا بطريقة متوازنة، فلم يكن هناك ما يكفل المحافظة على هذا التوازن، وهكذا كان الأقوى يقوم بمعظم العمل، والأكثر مهارة يصل بعمله إلى أحسن

---

(١) جون لوك John Locke (١٦٤٢-١٧٠٤م) : فيلسوف تجريبي ومفكر سياسي إنجليزي، يُعَدُّ أهم فيلسوف إنجليزي تنويري في العصور الحديثة، وهو يعد أحد مؤسسي النظام الليبرالي الديمقراطي الحديث إن لم يكن مؤسسه الأول.

(٢) جون لوك: الحكومة المدنية، ص٧٥.

(٣) جان جاك روسو Jean- Jacques Rousseau (١٧١٢-١٧٧٨م): فيلسوف سويسري، أهم كاتب في عصر العقل أي القرنين ١٧ و١٨ الميلاديين، وكان لفلسفته أثر كبير على الأحداث السياسية في أوربا.

مستوى، والحاذق يبتكر أساليب جديدة في العمل، ثم احتاج المزارع إلى مزيد من الحديد، أو احتاج الصانع إلى مزيد من القمح، وبينما كان كلاهما يقوم بالعمل على قدم المساواة، كان لأحدهما الغُنْم والآخر الغُرْم[١].

ومن الواضح أن روسو يلمح إلى وجود الطبقية الأولى في تلك المجتمعات، والنتائج السلبية الخطيرة التي كانت تهدِّد أصل هذه التجمعات، وكان من أبرز هذه النتائج وأخطرها أن الحرب بين الطبقات الفقيرة والغنية قد بدأت بالفعل، وأن الفزع والرعب وعدم الاطمئنان للآخر قد حلُّوا محل الأمان والاطمئنان والسكينة؛ ولذلك «بدأ الفرد يصوغ أفكارًا ويُدلي بآراء من شأنها مسايرة ما يريده، فبدأ يُنادي: لنتكاتف ونوحِّد جهودنا لحماية الضعفاء من الظلم والاستبداد، لنقف في وجه الأطماع ونحقق لكل فرد نصيبه الذي هو جدير به، فلنضع أحكامًا للعدالة والسلام يخضع لها الجميع دون استثناء، أحكام تستهدف تعديل الأوضاع وإعادة توزيع الثروات، وبإخضاع القوي والضعيف لالتزامات وواجبات متقابلة. وبعبارة أخرى، بدلاً من أن نستنفد جهودنا وقوتنا في مقاتلة بعضنا البعض، علينا أن نوحِّدها ونجمعها وندافع عن كافة أعضاء الجماعة، ونقف في وجه العدو المشترك، ونعمل على إيجاد نوع من الانسجام والتآلف فيما بيننا»[٢].

إذًا سادت لغة العقل، وبحث الجميع عن آلية توحدهم وتجمعهم على ما يشتركون فيه، ومن ثَمَّ كانت القوانين الوضعية في تلك المجتمعات الأولى نتيجة حتمية للمواجهات أو شبه المواجهات الدامية بين أفراد تلك المجموعات، واستطاع الإنسان الأول بعبقرية فذَّة أن يحوِّل حياته من عدم الأمان والخوف والصراع إلى الوحدة والتقارب من الآخر، بفضل اختراع جديد تمثَّل في القانون الذي يجب أن يُحترم[٣].

ومهما يكن من رؤًى وتفسيرات لحقيقة قيام الدول، وطبيعة إنشاء القوانين؛ فإن الإنسان استطاع خلال وجوده على الأرض، وتعاقب أجياله، ونمو فكره، وكثرة اكتشافاته أن ينظِّم

---

(١) روسو: العقد الاجتماعي، ص١٢٦.
(٢) المرجع السابق ص١٣١.
(٣) صوفي أبو طالب: تاريخ النظم القانونية والاجتماعية ص٢٤، ٢٥.

لنفسه طبيعة العلاقة الاجتماعية مع الآخر، من خلال وضع القانون وإقامة الدولة، وهكذا أصبحت دولة القانون وقانون الدولة من المسلمات التي لا تستطيع أي أمة أن تنهض وتتقدم بدونها.

وثمة أمر يطرح نفسه بقوة، وهو إذا أردنا أن نعرف تاريخ أي حضارة، فضلاً عن تاريخ المشتركات بين البشر، فلا بُدَّ أن نملك من الوثائق ما يفضُّ الإشكاليات المتعلقة بها، هذه الوثائق هي التي تعبِّر عن كنه الحضارة التي نبحث عنها، ولا يمكن أن تعبر أي حضارة عن نفسها إلا بأيدي أبنائها الذين سطروا تاريخها، سواء كان ذلك على الرقاع أو الحجر أو الطين أو الورق أو على أي شيء كان.

وهذا يجرُّنا إلى سؤال مهم له علاقة كبيرة بقضيتنا، وهو: هل كان لاختراع الكتابة أي أثر في تقارب الشعوب وتعارفها؟ وكيف مثَّلت الكتابة نوعًا جديدًا ومهمًّا في مسيرة التواصل الإنساني؟!

إن الكتابة باختصار لصيقة بتطور الفكر الإنساني بكامله، ولا شكَّ في أن عملية التدوين (التسجيل أو الكتابة) مرتبطة إلى حد كبير باستقرار الإنسان وإنتاجه للقوت وتخزين فائض إنتاجه والمبادلة عليه أو التجارة به؛ فالكتابة إذًا نوع من التواصل الجديد بين الأمم والحضارات المختلفة لم يعهده الإنسان من قبل. وبالطبع فقد قام الإنسان منذ عصور ما قبل التاريخ بتنفيذ الأشكال والصور لأغراض أخرى غير اقتصادية كالعبادة والسحر، أو لأغراض جمالية، وإن كان لذلك كله أو بعضه مساسٌ بالإنتاج الإنساني. المهم أن الإنسان كتب -كما يقرر دونالد جاكسون[١]- لضرورة معيشية اقتصادية قبل كل شيء، وضرورة اجتماعية تمثلت في التواصل والتقارب والتعارف مع الآخر، والمسلَّم به حتى الآن أن مطالع الكتابة ظهرت في بلاد الرافدين أو الهلال الخصيب[٢] إجمالاً وفي مصر، وكان ذلك بسبب المناخ والبيئة الزراعية الصالحة التي

---

(١) دونالد جاكسون Donald Jackson (١٩٢٨م-..): كاتب وخطاط بريطاني شهير، مسئول الكتابة لمكتب ولي عهد المملكة المتحدة لبريطانيا وأيرلندا الشمالية، من كتبه: (تاريخ الكتابة)، و(الخطاط والفن).

(٢) الهلال الخصيب: مصطلح جغرافي أطلقه عالم الآثار الأميركي جيمس هنري برستد على حوض نهري دجلة والفرات، والجزء الساحلي من بلاد الشام.

ساعدت باكرًا على الاستقرار والإنتاج، ومن ثَمَّ الكتابة.

وقد تم ذلك في كلٍّ من المنطقتين بشكل مستقل، ولكن الكتابة فيهما لم تنشأ فجأة، أو بمعزل عن تراكم خبرات السنين، أو تطور حاجات المجتمع الإنساني وتفاعل الأقوام والشعوب فيما بينها.

ومن المهم أن نعرف أنه تفصل ثلاثون ألف سنة أو أكثر بقليل بين رسومات الكهوف في «لاسو» وأتلاميرا في جنوب أوربا وبين الرسومات الجدارية في مصر، وأننا بالكاد نعرف ما هي الخطوة التي ربطت سرد القصص عن طريق الصور وسردها بواسطة الرموز، غير أننا نعلم ما هي الدوافع التي حدت بالإنسان القديم إلى رسم فيل الماموث والأيل والثور الأميركي على جدران الملاجئ التي عاش فيها «قصة صيدها»، فقد حفر الإنسان القديم خطوط هذه الرسوم على العظام بواسطة حجارة مدببة، كما رسمها ولوَّنها على جدران الكهوف بواسطة الفحم وأرياش مصنوعة من عيدان وأغصان الأشجار، وصنع الألوان من أصبغة ترابية سحقها ومزجها بشحم الحيوانات.

إذًا يعتمدُ علماء الأركيولوجيا(١) والتاريخ على الآثار التي خلفتها الحضارات للإجابة عن الأسئلة السابقة، فقد كانت الإجابة الشائعة في الأوساط العلمية -على ما يقرر العالم الكرواتي ألكسندر ستيبتشفتش(٢)- أن السومريين هم أول الشعوب التي قامت بالتعبير عن فكرها من خلال كتابة تصويرية وجدت على رِقَمٍ طينية صغيرة تعود إلى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد، وقد يكون السومريون بدءوا الكتابة قبل هذا التاريخ على مواد أخرى ذات تركيبة عضوية، وأن تكون هذه المواد قد تلاشت وتحللت(٣).

ومن المحتمل أيضًا ألا يكون السومريون هم أول من توصَّل إلى تطوير الكتابة كوسيلة جديدة للتواصل، أي أن يكونوا قد أخذوا هذا الاختراع العظيم عن شعب آخر غير معروف كان يعيش قبلهم في الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين، وربما تجدر الإشارة إلى الفرضية التي

---

(١) الأركيولوجيا: علم الآثار.

(٢) ألكسندر ستيبتشفتش: عالم كرواتي، متخصص في عالم الكتب والمكتبات.

(٣) ألكسندر ستيبتشفتش: تاريخ الكتاب، ١/ ١٠.

تقول: إن السومريين قد تعلموا الكتابة من أحد الشعوب التي كانت تقطن على ضفاف نهر الدانوب، ولكنهم قاموا بدورهم بتطوير هذه الكتابة، وقد أصبحت هذه الفرضية مقبولة أكثر منذ أن تم العثور في عام ١٩٦١م على الرقم الطينية التي تعود إلى العصر الحجري الجديد في منطقة تارتاريا برومانيا؛ فالتشابه بين الإشارات الواردة في هذه الألواح وبين أقدم الكتابات التي خلفها السومريون واضحٌ للغاية؛ ولذلك فقد استخلص علماء الآثار أن هذه الإشارات، إضافةً إلى الكثير من أمثالها التي تم اكتشافها قبل عام ١٩٦١م في ضفاف نهر الدانوب، قد نشأت تحت تأثير الحضارات الكبيرة للشرق الأوسط إلا أن نتائج التحاليل الراديوكربونية قد فاجأت وحيَّرت الخبراء؛ لأنها أوضحت أن تلك الإشارات من ضفاف نهر الدانوب أقدم بمئات السنين من أقدم الرِّقَم السومرية(١).

فهذا التشابه الواضح بين الكتابة السومرية وكتابة تارتاريا في شرق أوربا يمكن أن تعبر بكل وضوح عن أن التواصل الإنساني والتعارف عن طريق الكتابة في تلك القرون الموغلة في القدم قد أتى بنتائج إيجابية تمثَّلت في التقاء شعبين متباعدين جغرافيًّا، ويمكن أن نقيس على هذا المثال أمثلة أخرى، ما يؤكد على أهمية الكتابة في ارتقاء الإنسان في تعامله مع الآخر، وتواصله معه، ومن ثَمَّ كانت الكتابة عاملاً مهمًّا من عوامل التقارب والتعارف الحضاري بين الأمم والشعوب.

والحق أن من جملة ما يميز الإنسان أنه كائنٌ سريع التأقلم والتكيف، فهو كائن اجتماعي يعيش ويتعايش، ويبحث أينما كان عن أضرابه وأشباهه من بني جنسه؛ فأينما كان الإنسان كان الاجتماع البشري، والتعارف بين الأسر الصغيرة، والعائلات الكبرى حتى يصل مستوى التعارف بين الإنسان والآخر إلى أعلى مراحله، وأرقى مستوياته بين الدول بعضها مع بعض.

ومن اللافت أن يتناول علماء الاجتماع موضوع التعارف والاختلاط بين الشعوب في دائرة ما يُسمى بـ(العلاقات الإيجابية) داخل العمليات الاجتماعية، فهم يُقررون أنه عندما ينشأ مجتمع ما -أيًّا كان نمط هذا المجتمع- فإنه من المسلَّم به أن تنشأ بين أفراده وجماعاته

(١) ألكسندر ستيبتفتش: تاريخ الكتاب ١/ ١١.



وهيئاته ومؤسساته علاقات اجتماعية متعددة الأشكال، متشابكة الأنواع، مركبة الأبعاد والألوان...

و«التعارف» كلمة ترادف -في المصطلح الاجتماعي- «العلاقات الاجتماعية»، وهي نموذج للتفاعل الاجتماعي المتبادل بين شخصين أو أكثر، وقد ارتأى بعض علماء الاجتماع أن العلاقات الاجتماعية تستند إلى الاتصال، ويشير الاتصال إلى ضرورة تبادل الاتجاهات بين الأشخاص أو الجماعات؛ لحدوث التفاعل الاجتماعي واستمراره[(١)].

فالتفاعل الاجتماعي المتبادل الذي يجعله علماء الاجتماع شرطًا في إتمام عملية التعارف، إنما هو دليل على الالتقاء على المصلحة المشتركة، ومبدأ المصلحة هو مبدأ يعرفه الإنسان بفطرته وغريزته ويقرِّره بعقله، بل تعرفه سائر الكائنات الحية التي تعيش في هذه الحياة بدافع من غرائزها، أو بتعبير الإمام الغزالي[(٢)]: «جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق، وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم»[(٣)].

وهو لهذا مبدأ قررته الشرائع والأديان والفلسفات على اختلافها الواسع، بل إن هذه الأديان والشرائع والمناهج وجدت في الأصل لتحقيق المصلحة، فللمصلحة -وحدها- أنزل الله الكتب وأرسل الرسل وقرر الشرائع، وللمصلحة -وحدها- فاضت عقول الفلاسفة والمنظرين والمفكرين بهذا التراث الإنساني الواسع، و«الحلال والحرام معروف في كل أمة من قديم، وإن اختلفوا في مقدار المحرمات، وفي نوعها، وفي أسبابها»[(٤)].

ويفصِّل الإمام الغزالي معنى المصلحة التي نزل لأجلها الشرع فيقول: «مقصود الشرع من الخلق خمسة وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، وماهم؛ فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة

---

(١) أحمد رأفت عبد الجواد: مبادئ علم الاجتماع ص٩١، ٩٢.

(٢) الغزالي: هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي (٤٥٠-٥٠٥هـ=١٠٥٨-١١١١م)، الملقب حُجَّة الإسلام، الفقيه الشافعي، الفيلسوف المتصوف، مولده ووفاته بخراسان. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٢١٦-٢١٨، والسبكي: طبقات الشافعية ٦/ ١٩١-٢١١.

(٣) الغزالي: المستصفى ص١٧٤.

(٤) يوسف القرضاوي: الحلال والحرام في الإسلام ص١٢.

ودفعها مصلحة»[١].

ويتضح هذا المعنى في وصف الله -تعالى- لنبيه محمد ﷺ بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وهو الوصف الذي كرره النبي ﷺ عن نفسه، فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»[٢].

ويُقر النبي ﷺ مبدأ المصلحة، بل يَحُثُّ على أن يطلب الإنسان ما يُصلح أمره، فيقول: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ»[٣]. ويعلق شيخ الإسلام ابن تيمية[٤] على هذا بقوله: في الحديث أمر بالتسبب المأمور به وهو الحرص على المنافع، وأمر مع ذلك بالتوكل وهو الاستعانة بالله[٥].

وفي الإسلام هجوم شديد على ترك الأخذ بالأسباب، والحرص على المصالح بدعوى التوكل على الله. وقد كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، يقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا -أي وصلوا مكة- سألوا الناس، فقال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى[٦]﴾ [البقرة: ١٩٧].

وفي القرآن الكريم أمر بالتعاون في أمر المصالح، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]، ويرى الإمام القرطبي[٧] أن هذا «أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر

---

(١) الغزالي: المستصفى ص١٧٤.

(٢) رواه الحاكم (١٠٠) وقال: حديث صحيح على شرطهما، فقد احتجا جميعًا بمالك بن سعير، والتفرد من الثقات مقبول، ووافقه الذهبي. والدارمي (١٥)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح ولكنه مرسل.

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله... (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٧٩).

(٤) ابن تيمية: هو أحمد بن عبد الحليم الحراني (٦٦١- ٧٢٨هـ = ١٢٦٣- ١٣٢٨م)، الشيخ الإمام العالم العلامة المفسر الفقيه المجتهد الحافظ المحدث شيخ الإسلام، وُلِدَ بحران وتوفي بدمشق. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٧/ ١١.

(٥) ابن تيمية: الفتاوى الكبرى ١/ ١٠٩. وحمل بعض العلماء الحديث على ما ينفع في الآخرة، قاله النووي (المنهاج ١٦/ ٢١٥) وغيره. ولا نرى ما يوجب هذا التخصيص في الحديث.

(٦) البخاري: كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧] (١٤٥١)، وأبو داود (١٧٣٠).

(٧) القرطبي: هو محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي المالكي القرطبي، من كبار المفسرين، وهو صاحب التفسير المشهور (الجامع لأحكام القرآن)، مات بمنية بني خصيب من الصعيد الأدنى في مصر سنة ٦٧١هـ. انظر: الأعلام ٥/ ٣٢٢.



والتقوى»[١]؛ ذلك أن التعاون عليها يكسب محبة تحصيلها، فيصير تحصيلها رغبة لهم، فلا جرم أن **يعينوا عليها كل ساعٍ إليها، ولو كان عدوًّا**، وإن كانوا كفارًا يُعَاوَنون على ما هو بر؛ لأن البر يهدي للتقوى[٢].

ويلاحظ أن الآية ذكرت البر والتقوى، وكما يقول الإمام الماوردي[٣] فإن البر هو رضا الناس، والتقوى هي رضا الله[٤]. فمن هنا نرى كيف أن التعاون لمصلحة الناس هو أمر من الله تعالى؛ ولذلك فالتعارف مبدأ إلهي سعى إلى توطيد أركان المصلحة المشتركة بين الإنسان وأخيه الإنسان.

وفي معنى التعاون يقول النبي ﷺ: «**الدَّالُّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ**»[٥]. وفي معنى تحقيق مصالح الآخرين يقول ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ**»[٦].

ومن اللافت أن أحكام الفقه الإسلامي قد قامت على مراعاة مصالح الناس، إلى الحد الذي تتغير فيه الفتوى بخضوعها لاعتبارات المصلحة، ولقد أفرد الإمام ابن القيم[٧] فصلاً في كتابه (إعلام الموقعين عن رب العالمين) -وهو الكتاب الذي يناقش أصول الفتوى والإفتاء- جاء عنوانه هكذا «فصل في تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد؛ بناء الشريعة على مصالح العباد في المعاش والمعاد»، وضح فيه هذه الفلسفة التي تقوم عليها الشريعة فقال: «الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٤٦.

(٢) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ٦/ ٨٧.

(٣) الماوردي: هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، (٣٦٤-٤٥٠هـ=٩٧٤-١٠٥٨م) أقضى القضاة، كان إمامًا في الفقه والأصول والتفسير، ولي قضاء بلاد كثيرة، من مؤلفاته: (أدب الدنيا والدين)، و(الأحكام السلطانية). انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٦٥، والزركلي: الأعلام ٤/ ٣٢٧.

(٤) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٤٦.

(٥) رواه أبو داود عن أبي مسعود الأنصاري: كتاب الأدب، باب في الدال على الخير كفاعله (٥١٢٩)، والترمذي (٢٦٧٠) واللفظ له، وأحمد (٢٣٠٧٧)، وقال الألباني في التعليق على أصحاب السنن: حسن صحيح، وقال شعيب الأرناءوط في التعليق على المسند: إسناده صحيح.

(٦) رواه أحمد (٩١٨٧)، والحاكم (٥٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٦٦٢).

(٧) ابن القيم: هو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي (٦٩١- ٧٥١هـ=١٢٩٢- ١٣٥٠م)، من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء، مولده ووفاته في دمشق، تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهو الذي هذَّب كتبه ونشر علمه. انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ٥٦.

العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة»[١].

ولقد قامت كل الفلسفات الاجتماعية على قاعدة تحقيق المصلحة بين الناس[٢]، فبخلاف الفلسفات التي تطرفت في التركيز على الفرد وأهملت النظر إلى المجتمع -كما هو الحال عند نيتشه[٣] على سبيل المثال- فإن «المصلحة المشتركة» كانت هي الأساس والمنطلق لبقية الاتجاهات الفكرية. ولا يدخل في كلامنا بطبيعة الحال الفلسفات البراجماتية[٤] والعبثية والنسبية الشاملة[٥]، تلك التي يسميها الدكتور عبد الوهاب المسيري[٦] بـ(العلمانية الشاملة)، حيث المركز الوحيد لكل هذه الفلسفات هي اللذة الشخصية الأنانية.

---

(١) ابن القيم: إعلام الموقعين عن رب العالمين ٣/ ٣.

(٢) ونعني بكلمة الناس هنا الدائرة التي بحث الفيلسوف فيها واعتبرها (الناس)، فكثير من الفلاسفة كان تفكيره منصبًّا على بني قومه فحسب، ولم يكن يرى بأسًا في اعتبار الأعراق الأخرى في مرتبة أقل، أو حتى إنها خُلقت لتكون عبيدًا لبني جنسه المتفوقين. سنغض الطرف عن هذا الاعتبار الآن؛ لأن سياقنا هو البحث في اعتباره لقيمة (المصلحة المشتركة) في ذاتها.

(٣) نيتشه: هو فريدريك فيلهيلم نيتشه Friedrich Nietzsche (١٨٤٤-١٩٠٠م)، فيلسوف ألماني وشاعر، متطرف في الإيمان بالفرد، معتقد في فلسفة القوة ومحتقر للأخلاق والضعفاء، مات بعد أن أصابه الجنون في آخر حياته، له عدَّة كتب؛ منها: (هكذا تكلم زرادشت)، و(وراء الخير والشر).

(٤) البراجماتية: هي إحدى مدارس الفلسفة نشأت في الولايات المتحدة في أواخر القرن التاسع عشر، تتميز البراجماتية بالإصرار على النتائج والمنفعة والعملية كمكونات أساسية للحقيقة، وتُعارض البراجماتية الرأي القائل بأن المبادئ الإنسانية والفكر وحدهما يمثلان الحقيقة بدقَّة، معارضةً مدرستي الشكلية والعقلانية من مدارس الفلسفة، ووفقًا للبراجماتية فإن النظريات والمعلومات لا يُصبح لها أهمية إلاَّ من خلال الصراع ما بين الكائنات الذكية مع البيئة المحيطة بها.

(٥) النسبية: هي وضع فلسفي يرى كل وجهات النظر أنها صحيحة متساوية، فكل الحقائق نسبية إلى الفرد؛ وهذا يعني أن كل الأوضاع الأخلاقية، وكل الأنظمة الدينية، وكل الأشكال الأدبية، وكل الحركات السياسية هي حقائق نسبية للفرد.

(٦) عبد الوهاب المسيري (١٩٣٨-٢٠٠٨م): واحد من أهم وأبرع الفلاسفة والمنظرين العرب في القرن العشرين، بدأ ماركسيًّا، ثم انتهى إلى الفكر الإسلامي، تخصص في الفلسفة الغربية والأدب الغربي، كما تخصص في دراسة الصهيونية، وهو مؤلف موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، أحد أهم الأعمال الموسوعية العربية في القرن العشرين.



كان حلم أفلاطون[١] متمثلاً فيما سماه (الجمهورية الفاضلة)، لم يكن له من هدف سوى «تحقيق الانسجام بين طبقاتها[٢] المختلفة؛ ولأجل هذا الانسجام الذي يأتي على الجميع بالسعادة طالب كل فرد أن يقوم بوظيفته على الوجه الأمثل في المكان الذي خلق له»[٣].

ولقد أتت ثورة مذهب المنفعة على يد بنثام[٤]، ثم تلميذه ستيوارت مل[٥]، ولكن ثمة ملاحظة مهمة ينبغي الالتفات إليها في سياقنا الآن، تلك هي أن واضع مذهب المنفعة بنثام كان قد «خرج تمامًا عن الدين (المسيحي)» [٦] فيما كان تلميذه المغرم به والمنظِّر الثاني لفلسفته ستيورات مل محتفظًا «بعقله الحكيم والكاثوليكي»[٧]. أي أن أصل المذهب وجوهره لم يكن يتناقض مع الدين، ما يعني أن الفكرة نفسها تستطيع أن تكون مشتركًا بين المؤمنين وغير المؤمنين.

وعلى رغم ما بين فلسفة «العقد الاجتماعي» وفلسفة «المنفعة العامة» من فوارق مؤثرة، إلا أنه من الواضح بمكان أن نظرة المصلحة المشتركة كانت الأساس الخفي في كلٍّ منهما.

غير أنه لا بُدَّ من التنبيه بأن المصلحة المقصودة -في رؤية الأديان والفلسفات الأخلاقية- هي المصلحة بمعناها الإنساني الواسع؛ ولذا فهي في أعماقها تعبير عن التعارف والتعايش الذي يحقق المنفعة للجميع، أو على أقل الأحوال البحث عن المصلحة التي لا تمثِّل مفسدة لآخرين، وذلك يختلف تمام الاختلاف عن تلك المصلحة الأنانية التي تجور وتعتدي على مصالح الآخرين لحساب منفعة الذات فقط. وعند هذه النقطة ينشأ الافتراق الكبير بين

---

(١) أفلاطون (٤٢٧ -٣٤٧ ق. م): فيلسوف ومعلم يوناني قديم، يُعَدُّ واحدًا من أهم المفكرين في تاريخ الثقافة الغربية، حتى إن الفلسفة الغربية اعتبرت أنها ليست إلاَّ حواشي لأفلاطون، وكلمة (أفلاطون) كنية تعني ذا الكتفين العريضتين، أما اسمه الحقيقي فهو «أرستوكليس»، من أشهر كتبه جمهورية أفلاطون.

(٢) لأن فلسفته قامت على التقسيم الطبقي الذي تدرج من الحكماء في أعلى الهرم، ثم المحاربين، ثم العبيد.

(٣) السيد محمد بدوي: الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ص٥٢.

(٤) يريمي بنثام Geremy Bentham: (١٧٤٨-١٨٣٢م)، رجل قانون ومفكر ليبرالي وفيلسوف إنجليزي، منظِّر مذهب المنفعة في الأخلاق.

(٥) جون: هو جون ستيوارت مل John Stuart Mill (١٨٠٦-١٨٧٣م)، فيلسوف واقتصادي بريطاني، وهو الفيلسوف الثاني لمذهب المنفعة بعد بنثام، من كتبه: (مبادئ الاقتصاد السياسي).

(٦) برتراند رسل: حكمة الغرب ٢/ ١٥٨.

(٧) رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث ص٣٣٩.



الأديان والفلسفات الأخلاقية وبين الفلسفة البراجماتية التي تُنَظِّر للمنفعة الشخصية التي تؤدي إلى التقاتل والفناء، وتُعدُّ أحد مظاهر الفلسفات المادية العبثية. إن رسالة الأديان والفلسفات الأخلاقية تتركز على تهذيب النفس، وكبح جماح مشاعرها الأنانية، وانطلاقاتها المفسدة، وهذا هو جوهر ما ترفضه فلسفة البراجماتية.

اتضح هذا الأمر في تعاليم الإسلام، من خلال القاعدة الإسلامية الشهيرة (لا ضرر ولا ضرار)، وهذه القاعدة هي نصُّ حديث نبوي؛ فعن أبي سعيد الخدري(١) رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا ضَرَرَ وَلا ضِرَارَ**»(٢). ونطالعها -أيضًا- في القرآن الكريم في آيات نفي الضرر، قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا**﴾ [النساء: ٢٩]، ﴿**وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ [البقرة: ١٩٥]، وغيرهما.

والفارق بين الضرر والضرار -كما قال ابن عبد البر(٣) وابن الصلاح(٤)- هو أنَّ الضرر في أن يُدخل الإنسان على غيره ضررًا في سبيل منفعته هو، وأمَّا الضرار فهو أن يُدخل على غيره ضررًا، ولو لم تكن له منفعة(٥).

وقد بلغ الحرص عند فقهاء الإسلام إلى الدرجة التي اختلفوا فيها حول الضرر الذي

---

(١) أبو سعيد الخدري: هو سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي، (١٠ ق. هـ- ٧٤ هـ = ٦١٣ - ٦٩٣ م)، صحابي، كان ملازمًا للنبي ﷺ، كان من أفقه أحداث الصحابة، وله ١٧٠ حديثًا، توفي في المدينة. انظر: ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٣/ ٧٨- ٧٩، والبغوي: معجم الصحابة ٣/ ١٨.

(٢) ابن ماجه: كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره (٢٣٤٠)، والموطأ - رواية يحيى الليثي (١٤٢٩)، وأحمد (٢٨٦٧). وقال شعيب الأرناءوط: حسن. والحاكم (٢٣٤٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٥٠).

(٣) ابن عبد البر: هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي المالكي (٣٦٨- ٤٦٣هـ = ٩٧٩- ١١٧١م): إمام عصره في الحديث والأثر، يقال له: حافظ المغرب. من مصنفاته: الاستيعاب في معرفة الأصحاب. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٧/ ٦٦-٧١، والذهبي: تذكرة الحفاظ ٣/ ٢١٧، ٢١٨.

(٤) ابن الصلاح: هو أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان (٥٧٧- ٦٤٣هـ = ١١٨١ - ١٢٤٥م)، أحد الفضلاء المقدَّمين في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال، وُلِدَ في شهرزور، وتوفي بدمشق. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٢٤٣-٢٤٦.

(٥) ابن رجب: جامع العلوم والحكم ص٣٠٤.

تُسَبِّبه دابَّة لدابَّة أخرى، هل يلزم صاحبها التعويض؟ يقول الإمام ابن قدامة المقدسي[(١)]: «وإذا بالت دابَّتُه في طريق، فزلق به حيوان فمات، فقال أصحابنا (أي الحنابلة): على صاحب الدابَّة الضمان إذا كان راكبًا لها أو قائدًا أو سائقًا لها؛ لأنه تَلَفٌ حصل من جهة دابَّته التي يده عليها، فأشبه ما لو جَنَتْ بيدها أو فمها. وقياس المذهب (الحنبلي) أنه لا يضمن ما تلف بذلك؛ لأنه لا يَدَ له (أي: لا سيطرة له) على ذلك، ولا يمكن التحرُّز منه، فلم يضمن ما تلف به، كما لو أتلفت برجلها، وكما لو لم يكن له يَدٌ عليها، ويفارق هذا ما أتلفت بيدها وفمها؛ لأنه يمكنه حفظها»[(٢)].

وتمثل الوصايا العشر في الكتاب المقدس محاربة للنفعية الأنانية التي تدفع الإنسان للقتل أو السرقة أو شهادة الزور، لا سيما أن يشتهي المرء زوجة آخر أو يتطلع للحصول على أملاكه؛ «لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد علي قريبك شهادة زور، لا تشته بيت قريبك. لا تشته امرأة قريبك، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئًا مما لقريبك»[(٣)].

وأضاف العهد الجديد -بعد أن أقر هذه الوصايا- مبدأ التكافؤ والمساواة، فنجد في رسالة القديس بولس[(٤)] إلى أهل روما قوله: «لا فرق بين اليهودي واليوناني؛ لأن ربًّا واحدًا للجميع غنيًّا لجميع الذين يدعون به»[(٥)].

وفي الديانة الزرادشتية[(٦)] ثمة قاعدة تُسمَّى (القاعدة الذهبية) تقول: «الطبيعة لا تكون خيِّرة إلا إذا منعت صاحبها أن يفعل بغيره ما ليس خيرًا له هو نفسه»[(٧)].

---

(١) ابن قدامة المقدسي: هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن قدامة المقدسي الحنبلي (٥٤١- ٦٢٠هـ=١١٤٦- ١٢٢٣م)، فقيه من أكابر الحنابلة، وُلِدَ في جماعيل من قرى نابلس بفلسطين، وتعلَّم في دمشق، وفيها وفاته، له تصانيف، منها: (المغني)، و(فضائل الصحابة). انظر: الزركلي: الأعلام ٤/ ٦٧.

(٢) ابن قدامة المقدسي: المغني ٩/ ٥٧٧.

(٣) سفر الخروج ٢٠/ ١٢: ١٧.

(٤) القديس بولس (ت ٦٤م): أحد قادة الجيل المسيحي الأول، ويعتبره البعض ثاني أهم شخصية في تاريخ المسيحية بعد المسيح نفسه، عُرف برسول الأمم، حيث كان من أبرز مَنْ بَشَّر بهذه الديانة في آسيا الصغرى وأوربا.

(٥) رسالة القديس بولس إلى أهل رومية ١٠/ ١٢.

(٦) الزرادشتية: نسبة إلى زرادشت وهو فيلسوف إيراني (عاش ما بين ١٥٠٠-١٦٠٠ ق. م) وهو مؤسس الديانة الزرادشتية، وهي ديانة مثنوية؛ أي أن أصحابها يعتقدون بوجود إلهين؛ أحدهما: أهورامزدا وهو إله للخير، والآخر: أهريمان وهو إله للشر، ولها كتاب مقدس عند أتباعها اسمه الأبستاق.

(٧) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٤٣٢.

كما نجد في التقاليد الصينية التي ترجع إلى خمسمائة عام قبل الميلاد سؤال جونج - جونج للمعلم كونفوشيوس[١] عن «الفضيلة الكاملة»، فإذا به يقول: «الفضيلة الكاملة ألَّا تفعل بغيرك ما لا تحب أن يُفعل بك»[٢]. وبعد أربعة قرون أخرى وقبل ميلاد المسيح بعشرين سنة، سنجد نفس هذه القاعدة في التراث اليهودي عبر تعاليم الحاخام اليهودي هيليل[٣] (Hillel)[٤].

وإذا تركنا مجال الأديان إلى مجال الفلسفة، فلقد تم إدراك أن البحث عن المصلحة أو المنفعة أو حتى السعادة قد يخلق في النفس نوعًا من الأنانية أو الأثرة، فيُغلِّب منفعته على منفعة الآخرين، مخالفًا بذلك ما تقضي به قوانين العدالة؛ ولهذا رأى دعاة مذهب المنفعة - وأبرزهم جون بنثام وستيوارت مِل- أن يستعيضوا عن مفهوم «اللذة» ومفهوم «السعادة» بمفهوم آخر يقوم على مراعاة مصلحة البشرية، فاتخذت كلمة «المنفعة» عندهم طابعًا اجتماعيًّا، واتخذ المذهب اسم «أخلاق المنفعة العامة»[٥].

لقد طور بنثام مفهوم «اللذة» -الذي بدأ في الفلسفة القديمة عند الأبيقوريين[٦]- فنظر إلى ضرورة الحديث عن مقدارها وامتدادها، وليس فقط عن قوتها وأنواعها وكيفياتها، ثم خلص من ذلك إلى أن بيت القصيد أن تشمل اللذة أكبر عدد ممكن من الأفراد؛ فالمنفعة العامة هي الأولى والأهم، ولا بُدَّ للباحث عن منفعته الشخصية ألَّا ينتهك -في سبيل نفسه- هذه المنفعة العامة، و«مهمة القانون هي التأكد من أن أي شخص في سعيه إلى سعادته القصوى لن يمسَّ حق الآخرين في السعي إلى نفس الهدف»[٧].

بهذه الضوابط التي أقرتها الأديان والعقلاء من بني البشر، يرتفع الإنسان إلى مستوى الإنسانية اللائق به، ويتمايز المجتمع الإنساني عن مجتمعات الغابة التي يمثِّل فيها الافتراس

---

(١) كونفوشيوس: أهم فلاسفة الصين وحكمائها، ظهر في القرن ٦ ق. م، وإليه تنسب الديانة الكونفوشية.
(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ٥٨.
(٣) هليل Hillel: زعيم روحي يهودي خلال القرن الأول الميلادي، وواحد من أكثر الشخصيات المهمة في التاريخ اليهودي، وهو يرتبط مع تطور الميشناه والتلمود.
(٤) هانس كونج: الإسلام رمز الأمل ص١٨.
(٥) زكريا إبراهيم: المشكلة الخلقية ص١٤٧، ١٤٨.
(٦) نسبة إلى أبيقور فيلسوف المذهب القائل بأن اللذة هي الغاية الإنسانية النهائية.
(٧) برتراند رسل: حكمة الغرب ٢/ ١٥٩.



القانون السائد، ذلك أن الحيوانات المدفوعة بغرائزها لا تملك من العقل والحكمة والتفكير ما تستطيع به أن تتوصل إلى حلول وسطى أو تتنازل في سبيل الاتفاق على تبادل المنافع وتحقيق المصالح المشتركة.

وإن كان ثمة مشاهدات تؤكد أن نوعًا ما من التلاقي على المصلحة المشتركة قائم في عالم الحيوان؛ فمن الملاحظات التي شوهدت معبرة عن هذا النوع من المصلحة المشتركة في عالم الحيوان، ما تقوم به قنافذ البحر، فإذا أرادت سمكة أن تنظِّف نفسها فإنها تذهب إلى قنافذ البحر، فيتسلق أحدها على السمكة ويقوم عن طريق مخالبه الصغيرة جدًّا بالتقاط وأكل الجلد الميت الموجود على السمكة فينظفها بذلك، وكذلك الأمر بالنسبة لطيور النقار التي تحط على أعناق الزرافات ووحيد القرن والحيوانات الضخمة. وهذه الحيوانات لا تبالي حينما يحط عليها هذا الطائر؛ لأنها تعرف أنه يلتقط الحشرات[1]. وكذلك ما يفعله نوع معين من العصافير تسمى عصفور التمساح، إذ يفتح له التمساح فمه حتى يأكل الفضلات الموجودة من الطعام العالق في فمه، والذي يتسبب في ألم له إذا نزل إلى جوفه. **(انظر: صورة رقم ١ من صور المصلحة المشتركة في الحيوان).**

إن اكتشاف هذا السلوك في عالم الحيوان، ولو بهذا القدر المحدود، ليؤكد بأن الإنسان إذا تخلَّى عن قضية التعاون والتعارف والبحث عن المصالح المشتركة، فإنه ينزل إلى المستوى الأدنى من عالم الحيوان[2].

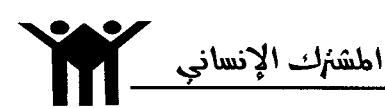
---

(١) مقال بقلم Amy Sarver، منشور بموقع مجلة: (nationalgeographic).
http://magma.nationalgeographic.com

(٢) لقد أدت الفلسفات المادية العبثية إلى نتائج كارثية في حياة البشر، لا سيما أنها انطلقت من رؤية زعمت أنها رؤية تفسيرية للكون وللإنسان، ثم إقرارها كأنماط راسخة لا يمكن إصلاحها، وفي هذا السياق يبرز دارون كواحد ممن ساهم في التنظير للصراع والدموية بمقولته عن البقاء للأقوى أو للأصلح، حتى إن فرويد تساءل عن حكمة الدعوة إلى فضائل مستحيلة مثل كبح جماح الرغبات الجنسية والعدوانية، بل إنه يتحدث -في لقطة متوحشة حقيقية- عن «فضل» اليهود على المدنية، فقد انتشروا في أرجاء العالم ومن ثم اتجه إليهم عدوان الشعوب التي عاشوا بينها، فأتاحوا لتلك الشعوب فرصة التنفيس عن طاقة العدوان. انظر: عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٨/ ٣٢٩.

من صور المصلحة المشتركة في الحيوان

صورة رقم (١)



وتاريخ البشرية حافل بالأحداث والوقائع التي تؤكد على أن الإنسان انطلق باحثًا عن المصلحة المشتركة من قاعدة راسخة صلبة هي التعارف والتعايش، فمن الملاحظ أنه قلما وجدت حضارة من جنس واحد أصيل؛ فغالبية الحضارات العالمية خليط من أجناس وعرقيات مختلفة، تعايشت وتعارفت وتكيفت فيما بينها لتكوِّن في نهاية المطاف دولة ثم حضارة، ومن أبرز الحضارات التي تُبرز أثر التعارف على مجريات نموها، نجد الحضارة الصينية القديمة وكذا الهندية، «فالجنس المغولي الحاضر مزيج معقد اختلطت فيه السلالة البدائية مرارًا وتكرارًا بمئات السلالات الغازية أو المهاجرة من منغوليا وجنوب روسيا (السكوذيين) ووسط آسيا؛ فالصين من هذه الناحية كالهند يجب أن نشبهها بأوربا بأكملها لا بأمة واحدة من أممها؛ فليست هي موطنًا موحدًا لأمة واحدة، بل هي خليط من أجناس مختلفة الأصول متباينة اللغات غير متجانسة في الأخلاق والفنون، وكثيرًا ما يعادي بعضها بعضًا في العادات والمبادئ الخلقية والنظم الحكومية»[1]، لكنها مع هذا كله فقد تمكنت من التعايش ووضع قيم الالتقاء والاتصال على رأس أولوياتها.

وبينما تكشف البحوث الأثرية النقاب عن الماضي الإنساني السحيق، نجد المناطق المتباينة التي تبدو كأنها كانت في عزلة عن العالم القديم تميل إلى الاندماج فيما يشبه الوحدة، وهي ظاهرة يزداد تلاميذ تاريخ الثقافة إدراكًا لها، ومنذ عشرات السنين جرت العادة على اعتبار الشعوب الكبيرة في العالم القديم: كمصر وبابل وآشور وفارس واليونان وروما، وحدات ثقافية لم تأخذ إلا قدرًا يسيرًا من الثقافات الأخرى التي سبقتها أو عاصرتها، ولكنَّا نعلم الآن أن تلك الثقافات كانت في الواقع امتزاجًا وتطورًا لخليط معقد من السمات التي ساهمت هذه الثقافات في تكوينها، وكل ثقافة من هذه الثقافات ترجع أصولها إلى ثقافة أقدم، كما استعارت كل منها نصيبًا وافرًا من جارتها، ولم يحدث أن ظلَّ أي تقدم عمراني أو ازدهار في الحياة الاجتماعية أو فكرة أخلاقية في عزلة، وما هذا إلا دليلٌ على أثر التعارف والامتزاج بين الشعوب الأولى في تكوين الحضارات الكبرى[2].

---

(١) ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ١٤.

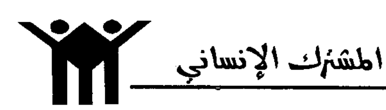
(٢) ولتر فيرسزفس: أصول الحضارة الشرقية، ص١٣، ١٤.

وكان لمدينة بابل في عهد الآكديين مكانة كبرى نتيجة الامتزاج الحضاري والثقافي بين الشعوب المختلفة، وكان الذي أدى إلى وجود مثل هذا الامتزاج موقع بابل المميز، فهي تقع من جهة على الطريق النهري الكبير الذي يشكله نهر الفرات، وكانت تربط بلاد بابل بسوريا وبالبحر الأبيض المتوسط، وكانت تتصل من جهة أخرى -بفضل تلك الطريق- بآسيا الصغرى وببلاد فارس، وتشرف على الطريق التي توصل إلى كرمنشاه عبر جبال زغروس؛ فقد كانت تقع في وسط الحوض الجنوبي لنهرين كبيرين يؤلفان بلاد ما بين النهرين، وبنيت على الضفة اليسرى للفرات الذي يحميها من الغرب في أقرب نقطة تفصله عن نهر دجلة الذي كان يقيها من جهة الشرق، وكان لهذا الموضع المميز أثر كبير في ازدهار حضارتها؛ نتيجة التقاء كثير من الشعوب المتنوعة فيها[١].

ولقد امتازت منطقة غرب وجنوب غرب آسيا بوجود المستنقعات والغابات، وكانت السيطرة على هذه الغابات إنجازًا اجتماعيًّا أكثر منه تكنولوجيًّا يقوم على المصلحة المشتركة، ومن ثَمَّ التعارف والتعايش، «وفي الواقع فإن كل الإنجازات التكنولوجية التي تمت على يد البشرية كانت إنجازات اجتماعية أيضًا، فالإنسان كائن اجتماعي... ويبدو أن محدودية الإنسان الاجتماعية هي التي كانت تحدُّ من تكنولوجيته غير المحدودة؛ فالاجتماعية هي الشرط اللازم لصنع حتى أبسط الأدوات واستعمالها... وكان على الإنسان في سبيل استغلال هبة الرافدين أن يطبق هذه التقنية التي حذقها في الري الصناعي على مقياس كبير يتطلب تعاونًا بين عدد من الناس أكبر بكثير من أي عدد من الناس تعاونوا في السابق، في أي مشروع كان، وهذا الفرق في مقياس التعاون لم يكن مساويًا للفرق في الدرجة فقط، بل كان فرقًا في النوع، وقد كانت هذه ثورة اجتماعية ولم تكن ثورة تكنولوجية»[٢].

إذًا كان لانتقال الشعوب من مكان لآخر أثره الكبير في التقارب والتعارف، ولا يمكن أن نغضَّ الطرف، أو نتجاهل الآثار الإيجابية التي ترتبت على حدوث مثل هذا التعارف؛ كازدهار الحضارة، وقيام الدولة، والتنوع العرقي، واتحاد اللغة، والسعي نحو القوة والتقدم

(١) مارجريت روتن: تاريخ بابل، ص٢٧.
(٢) أرنولد توينبي: تاريخ البشرية، ١/ ٧٦.



على الآخرين، وكل ذلك -بلا ريب- يندرج تحت مفهوم المصلحة المشتركة، ويمكن أن نلحظ هذا بوضوح في تاريخ المدنيات القديمة، كما في الحضارة المصرية أو البابلية أو اليونانية.

فالبيئة والبحث عن الموقع الجغرافي والمناخي الجيد كان السبب الرئيس في تعارف الشعوب وتقاربها، فهي العوامل الأولى المولِّدة لمبدأ المصلحة المشتركة، ولقد عقد المفكر العالمي جارودي[1] فصلاً رائعًا في كتابه (حوار الحضارات) أسماه اللقاءات القديمة، ويقصد تاريخ العلاقات بين الحضارات الموغلة في القدم، وخلُص في هذا الفصل إلى جملة من النتائج المهمة، منها أن الأرض بتنوعاتها الجغرافية والمناخية والبيئية كانت العامل الأساس في تعارف الإنسان بالآخر، وأن هذا التنوع قد أدَّى عن طريق التلاقي والتعارف إلى التكامل بين البشر، والوحدة بمعناها الأعمق، أي وحدة تقبلُ بالتنوع كالأرض تمامًا[2].

ولذلك كان التعارف الثقافي والعلمي من أبرز ما سجلته المؤلفات التاريخية في كل الأمم؛ إذ التاريخ شاهد على علاقة الإنسان بالإنسان على كل المستويات، ومنها بالطبع الأبستمولوجي[3] المعرفي الذي ينسى الإنسان في سبيل التحصُّل عليه كل حد فاصل بينه وبين بُغيته.

هذه الأدلة التاريخية -إضافةً إلى المؤلفات التي تتناول علم الاجتماع والأنثروبولوجيا بمختلف فروعها وأقسامها- تُثبت أن التعارف غريزة إنسانية متأصِّلة لدى الإنسان أيًّا كان جنسه وبيئته، وأن الأصل في تعامل البشر فيما بينهم يقوم على سمة اجتماعية غاية في الروعة والإبهار لا نجدها في غيره من الكائنات الحية الأخرى، هذه السمة هي التعارف.

فهل كانت الحضارة الإغريقية القديمة -التي هي أصل الفكر والفنون في أوربا والغرب حتى يومنا هذا- هي حضارة وحدويَّة ألهمت نفسها بنفسها فأخرجت ما تفخر به أوربا اليوم؟!

---

(١) روجيه جارودي: فيلسوف وكاتب فرنسي، وُلد في ١٧ من يوليه ١٩١٣م في مرسيليا بفرنسا، اعتنق الإسلام عام ١٩٨٢م، واشتبك مع السياسة الصهيونية من خلال كتاباته المتعددة، وفي ١٩٩٨م حكمت محكمة فرنسية عليه بتهمة التشكيك في محرقة اليهود في كتابه: (الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل).

(٢) رجاء جارودي: حوار الحضارات، ص١٥٥- ١٥٩.

(٣) الأبستمولوجيا: هي نظرية العلوم، أو فلسفة العلوم؛ ويعني ذلك دراسة مبادئ العلوم وفرضياتها ونتائجها، دراسة نقدية تُمكِّن من إبراز أصلها المنطقي، وقيمتها الموضوعية.

إن التاريخ ينفي مثل هذه المزاعم، بل يؤكد أن الحضارات العالمية ومنها الإغريقية ما هي إلا سلسلة من التعارف المطرد بينها وبين الحضارات الأخرى؛ فالثقافة إذًا نتيجة طبيعية للتعارف والتقارب، فأصل الثقافة الإغريقية الذي ازدهر أول ما ازدهر في الفلسفة الإغريقية التي ولدت في آسيا الصغرى مع «تاليس الميلي» و«انكسيمندر» و«انكسمين» و«كزيتوفون» و«هرقليط» و«ديمقريط» من الفلاسفة الذين سبقوا «سقراط[1]» حملوا جميعهم الطابع الآسيوي[2].

وثمة ينبوع آخر لتلك الحضارة نجد جذوره تتراوح بين «فينقية» و«كريت» و«مصر»؛ لقد كان الفلاسفة والمؤرخون اليونان يُعجبون بمصر إعجابًا عظيمًا، وتدين آراء أفلاطون لهذه البلدان بالشيء الكثير؛ لقد كان أفلاطون يحلم بدولة ذات استقرار سياسي، بينما كان يعيش في ظل ديمقراطية تحفل بالحركة، وكانت «مصر» أنموذجه، وقد ألهمت مصر الحضارة الإغريقية أيّما إلهام، وإذا قارنا فن اليونان في القرن السادس، قبل العصر المدرسي بالفن المصري لاحظنا أن النحت الإغريقي كان يُشبه كثيرًا النحت المصري، ونحن نجد مثل هذا التشابه في الفلسفة وفي السياسة أيضًا، فهل خرج هذا التشابه إلا من قبيل تعارف الأغارقة على الحضارة المصرية والفينيقية القديمة؟ نعم، هو ذاك[3].

وكان من الطبيعي أن تهتم الحضارة الإسلامية بالآخر، ونبع هذا الاهتمام من التشريع الإسلامي ذاته؛ إذ حضارةُ الإسلام نتيجة تطبيقية لتشريعاته التي حرصت على التعارف والتقارب، وكانت من جملة الوسائل التي اتبعها المسلمون في تقريب ثقافة الآخر، والتعرف عليه من قرب وبصورة صحيحة، أن اهتم الخلفاء المسلمون بالميراث العلمي للأمم الأخرى، وبدأت نهضة إسلامية قوية، وحركة علمية راقية، أنفقت عليها مؤسسة الخلافة الإسلامية الملايين من الأموال، هذه الحركة تمثلت في ترجمة ونقل ثقافة الآخر، واهتم المسلمون بترجمة المؤلفات اليونانية خاصةً في مجالي الفلسفة والعلم التجريبي، وكذلك المؤلفات الهندية

---

(١) سقراط (٤٦٩-٣٩٩ ق. م): فيلسوف ومعلم يوناني، وُلِدَ وعاش في أثينا، وهو من أبرز الأعلام في مجال العقل والفلسفة والمنطق.

(٢) جارودي: حوار الحضارات ص١٩.

(٣) المرجع السابق ص١٩.



والفارسية وغيرها؛ مما كان له دوره في التعريف بهذه الأمم لأبناء الحضارة الإسلامية. ومن ثَمَّ فقد أعانت هذه المعرفة المسلمين في حوارهم مع أبناء هذه الأمم، وكان لها أثرها في التقابل والتقارب، حتى غدت البلاد الإسلامية أرضًا خصبة لتقابل أبناء الأمم الأخرى، فتلافى المسلمون بسبب ذلك كثيرًا من المشاكل، وصدق من قال: الإنسان عدو ما يجهل[١].

والآليات التي تعمل على إثبات قيمة التعارف والتعايش بين البشر كثيرة كما رأينا في الحضارات الإنسانية المختلفة، لكن ثمة آلية إنسانية مهمة كان لها دورها في تعارف الشعوب والأمم، تمثَّلت هذه الآلية في الزواج، صحيح أن فلسفة الزواج تقوم على تحقيق مصلحة الإشباع الغريزي، وتكوين الأسرة، لكن هذه المصلحة المشتركة التي تسعى إلى تحقيقها البشرية صباح مساء قد ساعدت في تقريب الأمم والشعوب؛ فمن اللافت أن نجد ما يُسمَّى بـ«الزواج الخارجي» عند الشعوب البدائية، والقبائل المختلفة؛ فالزواج الخارجي عند هنود أميركا الشمالية كان موجودًا في كل قبيلة من قبائلها الستة التي كانت تشكل كونفدرالية سكان «الإيروكوا»، وقد وجد علماء الأنثروبولوجيا شيئًا لافتًا في هذه القبائل؛ فقد كانت كل واحدة منها تتكون من ثماني عشائر، وكانت القاعدة العامة التي تحكم أعرافها وعاداتها تقضي باستحالة زواج الرجل من امرأة تنتمي إلى أية مجموعة من عشيرته، فعليه أن يتزوج من خارج القبيلة بأكملها، ويقول لويس مورجان[٢] عن هذا الأمر: «كل من يخرق أو يخالف قوانين الزواج هذه يُعرِّض نفسه لأشد الأهوال، وأسوأ أنواع الاحتقار»[٣].

ويُفضِّل هنود «بيلاكولا»[٤] التزاوج مع أقرباء بعيدين نسبًا، أو حتى مع غير أقرباء لا تربطهم بهم أية علاقة نسب أو مصاهرة مهما كانت درجتها، ويحدثنا أحد المستكشفين والأنثروبولوجيين وهو «جاب» عن ثلاث قبائل تسكن السفح الأطلنطيكي لكوستاريكا

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ١/ ٤٨١.

(٢) هنري مورجان (Lewis Henry Morgan) (١٨١٨-١٨٨١م): عالم أنثروبولوجيا أميركي، وأحد أعظم علماء الاجتماع في القرن التاسع عشر في الولايات المتحدة.

(٣) إدوار ويسترمارك: موسوعة تاريخ الزواج ص٥٧٢.

(٤) بيلاكولا: هي قبيلة هندية في أميركا الشمالية، وهم قريبون من قبائل ساليش، ويسكنون ساحل كولومبيا البريطانية.

بقوله: «لم أستطع أن أحدد بدقة كيف يمكن حلُّ مشكلة انتماء كل فرد إلى العشيرة، وعمَّا إذا كان سيرث من أبيه أو من أمه، ولكن على حد معرفتي فإنه سوف يرثُ من أبيه، ويعتبر أبناء العمومة والخئولة، حتى من ذوي القرابة البعيدة إخوة وأخوات، ويحظر عليهم التزاوج فيما بينهم، علمًا بأن هذا القانون أو هذا العرف لم يتسرب إليهم من الخارج، بل تم تناقله فيما بينهم عن طريق التقاليد منذ أزمان قديمة. إن جزاء من يخالف هذا القانون أو ينقضه كان رهيبًا جدًّا، أقلُّه دفن المذنبين أحياء! ولم تكن هذه العقوبة تُطبق في حالة الزواج المحرَّم فقط، ولكن في حالة قيام علاقات جنسية غير مشروعة بين أشخاص مدرجين ضمن درجات القرابة الممنوعة»[١]. ومثل هذا النوع من الزواج الخارجي، قد وجده علماء الآثار والأنثروبولوجيا في كل أرجاء العالم تقريبًا.

ونذكر في هذا الأمر ما كان يقوم به الإسكندر الأكبر[٢]؛ إذ لم تكن أهدافه التوسعية تقتصر على إيجاد طرق الاتصال بين الشرق والغرب فقط، بل كان يهدف إلى جسور المحبة والتفاهم بين الشعوب؛ فتزوج من سيدة شرقية، وأمر رجاله بالزواج من سيدات فارسيات، وأُقيم لهذا الغرض حفل كبير تزوج فيه تسعة آلاف من المقدونيين من سيدات آسيويات؛ ليؤكد على أن رابطة التزاوج من أقوى الروابط التي تقرِّب بين الشعوب، مهما تباعدت الأقطار، وتناءت البلدان[٣].

وقد كان لزواج ملوك وأمراء أوربا في القرون الوسطى أثره الكبير في تقريب وتوطيد العلاقات فيما بينهم؛ فقد كانت التقاليد تقضي بأن يتزوج ملوك فرنسا من الأسرة الحاكمة في إسبانيا والعكس، وهذا ما قوَّى العلاقات الإسبانية الفرنسية سياسيًّا ودينيًّا أيضًا.

وقد تعارف العرب في جاهليتهم على زواج الأباعد وأهميته البالغة، وكانوا يَرَوْنَ أن ذلك أنجب للولد وأبهى للخلقة، وأحفظ لقوَّة النسل؛ لأن إنكاح الأهل والأقارب يضرُّ

---

(١) جاب: القبائل الهندية واللغات الخاصة بسكان كوستاريكا، نقلاً عن إدوار ويسترمارك ص٥٨٠.
(٢) الإسكندر الأكبر: الإسكندر الأكبر المقدوني (٣٥٦-٣٢٣ق. م) حاكم مقدونيا، قاهر إمبراطورية الفرس، وأحد أذكى وأعظم القادة الحربيين على مر العصور.
(٣) أبو اليسر فرح: تاريخ مصر في عصري البطالمة والرومان ص٣١.



بالمولود، ويَسِمُه بالضعف والهزل، وبهذا المعنى حضَّ الإسلام على زواج الأباعد، ورغَّب فيه، ونبَّه على النتائج الإيجابية المترتِّبَة عليه؛ منها: نتائج جسمانية تتعلَّق بصحَّة النسل الجديد، ونتائج اجتماعية تتعلَّق بالتعارف والتواصل، وقد أوصى حصن بن حذيفة بن بدر[1] قومه أن «ينكحوا الكفء الدريب، فإنه عزَّ حادث»، وقال عمر مخاطبًا آل السائب: «يا بني السائب؛ إنكم قد أضويتم، فانكحوا في النزائع». أي: تزوَّجوا في البعاد الأنساب، لا في الأقارب؛ لئلا تضوى أولادكم. والنزائع جمع نزيعة، وهي المرأة التي تُزَوَّج في غير عشيرتها، وأضوى: وُلِدَ له وَلَدٌ ضاوٍ؛ أي: ضعيف»[2].

ومن خلال هذه المشاهدات نتأكد من أن الزواج الخارجي كان عاملاً مهمًّا من عوامل تقريب القبائل والشعوب بعضها من بعض. ولنا أن نتخيل كيف التحمت هذه القبائل مكوِّنة أممًا كانت من القوة والمنعة ما حدَّ من تحركات الغزاة المعتدين، ومن ثَمَّ يجب أن نستثمر مثل هذه الآلية التي عرفتها الثقافة الإنسانية على مر العصور؛ ليحدث التقارب والتآلف بين الجنس البشري في عصرنا الحاضر.

وأمَّا النتائج المترتبة على التعارف فكثيرة كثيرة، منها قيام المدنية والدولة المنظمة وما يترتب على ذلك من إخضاع كل الأفراد لسلطة عليا تُقر القانون، وتضع الدستور في تعاملات الأفراد في هذا المجتمع الجديد ذي العرقيات المختلفة، ولكن قد يقول قائل: إن المدنية المترتبة على التعارف أوسع من ذلك، إنها أكثر من مجرد جهاز سياسي رسمي، إنها ثقافة واسعة معقدة، فالكلمة تستحضر إلى الذهن صورًا لمدن عظيمة، ولأبنية رائعة، ولجماهير كثيفة من السكان، ولكميات كبيرة من السلع، وعندما نسمع هذه الكلمة يطرأ على ذهننا نظام اجتماعي بديع النسيج يظهر فيه التجار والفلاحون والرهبان والعمال والأمراء.. كل هذا صحيح، لكن المدنية القائمة على تعارف القبائل والشعوب مجتمعٌ هائل، ومنقسم من الداخل في الوقت نفسه، سكانه كثيرون، وقد يكونون مختلفين عرقيًّا، منقسمين وظيفيًّا إلى مهن متخصصة، ونظرًا إلى اختلاف درجات

---

(١) حصن بن حذيفة بن بدر: هو حصن بن حذيفة بن بدر بن عمرو بن جوية بن فزارة الفزاري، زعيم قبيلة بني فزارة بغطفان، وهو والد الصحابي عيينة بن حصن الفزاري، ووالد خارج بن حصن الفزاري.

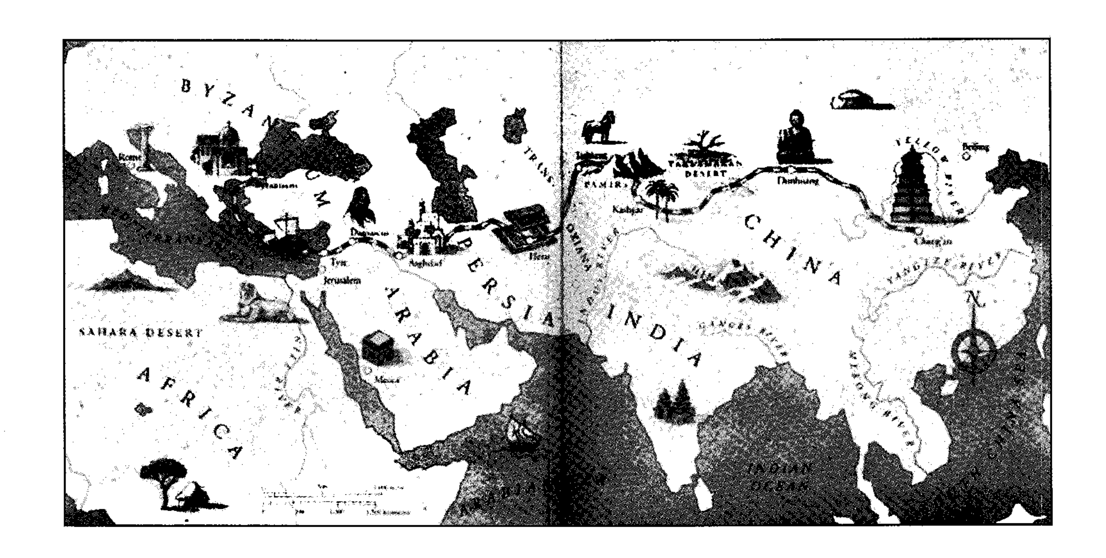
(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب ٨/ ٢٣٠.

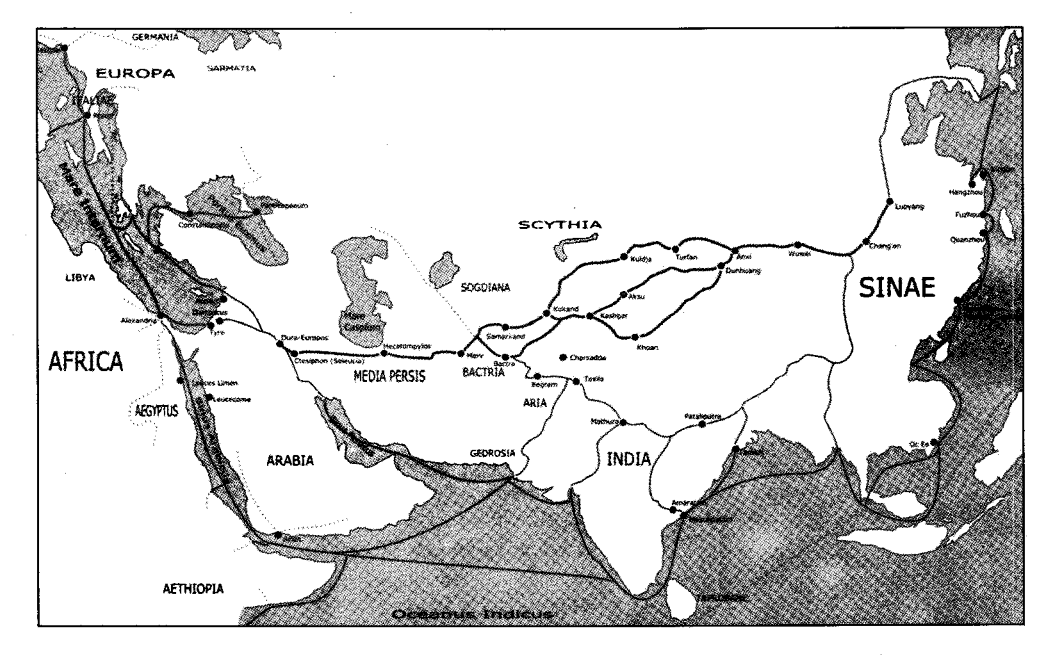
اكتسابهم لوسائل السلطة، فإنهم ينقسمون إلى طبقات متفاوتة الحظوظ، وتعتمد كل منجزات المدنية الثقافية على حجم هذا التنظيم وتعقده، لكن مثل هذا المجتمع الضخم، المختلف العناصر، المنقسم من الداخل، لن يدوم بلا وسائل للتحكم والالتحام. تأمَّل ماذا تكون عليه الحال لو تُرك كل امرئ لحماية نفسه، ومصالحه على خير ما يشتهي، لو أعلن كل فرد في الدولة: «الدولة أنا»، سينهار النظام إلى حريات فوضوية، وسيكون عرضة للتخريب والحرب الأهلية، هذا النظام الذي نراه في حياتنا المعاصرة، والذي جرَّبه آباؤنا الأولون هو ثمرة طيبة للتعارف بين الشعوب، والالتحام بين القبائل، وقد يُستفاد من هذا التعارف (العلاقة الإيجابية) في إحداث أنظمة اجتماعية وثقافية وحضارية جديدة بين الشعوب، سيكون لها دورها الرائع في التقريب والاشتراك حول مواضيع ووجهات نظر من شأنها التقاء الأمم والشعوب[١].

ومن ثمرات التعارف الواضحة بين الأمم والشعوب البعد عن التصارع والتقاتل، وتحقيق المصلحة العليا لكل الشعوب؛ فمن المعلوم أن طريق الحرير القديم (**انظر: خريطة رقم ٢ طريق الحرير**) الذي يربط بين الصين ودول آسيا الوسطى بدول أوربا والشرق الأوسط، كان سببًا للتعارف التاريخي بين هذه الأمم التي ربطت بينهم علاقات اقتصادية وثقافية عدة، وعلى الرغم من أن دول آسيا الوسطى مثل قيرغيزستان وكازاخستان وأوزباكستان كانت تابعة حتى القرن التاسع عشر للصين، وأن روسيا القيصرية استطاعت أن تضم هذه البلدان إلى إمبراطوريتها ثم ضُمَّت بعد ذلك إلى الاتحاد السوفيتي، وهو ما سبَّب عداءً بين الصين وروسيا، إلا أن كلتا الدولتين استطاعتا أن تتخطيا هذه المشاكل التاريخية؛ ليبنوا جسور الثقة والتعاون فيما بينهم بعد استقلال هذه الدول؛ فقد أنشأت هذه الدول منظمة شنجهاي للتعاون التي تأسست في يونيو عام ٢٠٠١م بين الصين وروسيا وكازاخستان وقيرغيزستان وطاجيكستان وأوزباكستان، وإجمالي مساحة هذه الدول ٣٠ مليون كم٢ أي نحو ثلاثة أخماس أوراسيا، وإجمالي سكانها ١,٤٥٥ مليار نسمة أي حوالي ربع سكان العالم، وطبقًا للميثاق وإعلان قيام المنظمة فإن الأغراض الرئيسة لمنظمة شنجهاي

---

(١) مارشل ساهنلز: فصل «القبليون في التاريخ والأنثروبولوجيا» ضمن كتاب (البدائية)، إشراف أشلي منتاجيو ص٢٢٩.

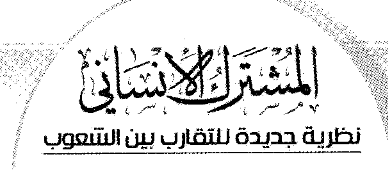




طريق الحرير

خريطة رقم (٢)





للتعاون هي تقوية الثقة المتبادلة وعلاقات حسن الجوار والصداقة بين الدول الأعضاء، وتطوير علاقات التعاون الفعالة في الشئون السياسية والاقتصادية والتجارية والعلوم والتكنولوجيا والثقافة والتعليم والطاقة والنقل وحماية البيئة ومجالات العلاقات الأخرى، والعمل معًا من أجل الحفاظ على الاستقرار والسلام والأمن الإقليمي، وتطوير إنشاء نظام سياسي واقتصادي دولي جديد يتسم بالديمقراطية والرشاد والعدالة(١).

ونلحظ في هذه المنظمة ذات الأغراض المهمة أنها قامت بين هذه الدول على أساس التعارف والصلة فيما بينها؛ إذ العلاقات التاريخية والاقتصادية والسياسية بين هذه الدول ساعدت بصورة مباشرة في التقارب والتعارف، وهو ما تُرجم في صورة منظمة شنجهاي للتعاون.

ويبدو أن الصين قد عرفت الطريق الصحيح السويَّ للتقارب بين الشعوب، من خلال التعارف القائم على مبدأ المصلحة المشتركة؛ فمنذ نصف قرن بدأت الصين في التعارف والتقارب مع القارة الإفريقية، والآن تنمو هذه الرابطة بقوة، فقد تأسس في عام ٢٠٠٠م منتدى التعاون الصيني الإفريقي، ومنذ ذلك الوقت ألغت الصين ديونًا على ٣١ دولة إفريقية مقدارها ١,٣٨ مليار دولار، وتوسعت في إلغاء التعريفات الجمركية على بعض الواردات إليها، كما منحت لـ٢٩ دولة إفريقية إعفاءات جمركية على ١٩٠ نوعًا من المنتجات، ويُنتظر أن تصل إلى ٤٤٠ نوعًا. وهذا في مقابل حصول الصين على مصدر رخيص للطاقة بعد الاكتشافات الجديدة لمصادر الطاقة الإفريقية، فالصين التي حافظت على معدل نمو يبلغ ٩٪ تحتاج إلى طاقة رخيصة للحفاظ على هذا المعدل، إضافةً إلى أن إفريقيا سوق جديدة لتصريف المنتجات الصينية، وقد ارتفع حجم التبادل التجاري أربع مرات خلال خمس سنوات، فمن ١٠,٥ مليار دولار في ٢٠٠٠م إلى ٣٩,٧ مليار دولار في ٢٠٠٥م. كذلك استفادت الصين من أصوات الدول الإفريقية في الأمم المتحدة(٢).

---

(١) مدحت أيوب: تقرير بعنوان «العلاقات الآسيوية في إطار منظمة شنجهاي»، ضمن كتاب (العلاقات الآسيوية الآسيوية)، تحرير هدى ميتكس ص٢٣٠، ٢٣١.

(٢) جورج ثروت فهمي: العلاقات الصينية الإفريقية.. شراكة اقتصادية دون مشروطية سياسية، مجلة السياسة الدولية - العدد ١٦٧، يناير ٢٠٠٧م، ص٨٩.



ومن الأمثلة الشهيرة في هذا السياق قضية النفط العربي، وهي القضية التي بدأت منذ أكثر من نصف قرن، واستمرت بأسلوب معروف: الشركة الأجنبية التي تملك الخبرة والوسائل والتقنية لاستخراج النفط من باطن الأرض، والدولة العربية التي تملك حقل النفط. إنه يمكننا استخدام هذه القضية لضرب المثال على استيعاب الدولة العربية والشركة الأجنبية -ومن ورائها الدولة الأجنبية- لمبدأ المصلحة المشتركة لكلا الطرفين، مما أنشأ هذا التعاون وحقق هذه الطفرة الاقتصادية في العالم العربي، لا سيما في بلاد الخليج. فهنا يبدو -وبوضوح- انعدام وجود مشترك بين الدولة العربية والدولة الغربية إلا هذه المصلحة المشتركة، فإذا أضفنا إلى ذلك عشرات الآلاف من العمال والمهندسين من شتى أجناس الأرض، قد جاءوا من أجل فرصة عمل، علمنا كيف يمكن أن يُؤَدِّي مثل هذا العمل إلى التعارف والاندماج بين عشرات العرقيات والجنسيات والعقائد.

ومن اللحظات التاريخية الفاصلة، ما حدث من توقيع ميثاق الأمن والتعاون الأوربي في باريس يوم ٢٠/ ١١/ ١٩٩٠م، بواسطة ١٦ دولة من دول حلف الأطلنطي + ٦ دول تشكل حلف وارسو + ١٢ دولة أوربية محايدة + الولايات المتحدة وكندا. هذا التوقيع يعتبر بداية مرحلة جديدة قام على أنقاض مرحلة قديمة، ومنه يبدأ ما عُرف بـ«النظام العالمي الجديد» الذي دعا إلى حل النزاعات بالمفاوضات، ودون استخدام القوة على أساسٍ من تبادل المصالح وتوازنها، مع ترك سباق التسلح والتحرك على أساس موازين القوى، وكذلك التزام الدول بالديمقراطية وسيادة القانون واحترام حقوق الإنسان[١].

إن المصلحة المشتركة كانت العامل الوحيد الذي دخل الكيان الصهيوني من خلاله إلى الدول الإفريقية حيث لا مشتركات أخرى، وهذا ما ذكرته جولدا مائير[٢] رئيسة وزراء الكيان الصهيوني في مذكراتها، وهي تسرد كيف تخلَّص الكيان الصهيوني من الوحدة التي عاناها، لا سيما مع توتر علاقاتها مع أميركا وروسيا ومع رفض الدول الآسيوية لقيام

(١) أمين هويدي: أزمة الخليج، أزمة الأمن القومي العربي ص٨٢.

(٢) جولدا مائير (١٨٩٨ - ١٩٧٨م): أوكرانية الأصل، ورابع رئيس وزراء لدولة الصهاينة في فلسطين بين ١٩٦٩ حتى ١٩٧٤م، قدَّمت استقالتها نتيجة للضغوط الداخلية عليها بعد أن مُنيت حكومتها هزيمة منكرة في حرب العاشر من رمضان.



علاقات طبيعية معها، قالت: «اعتدتُ على أن أجيل النظر حولي في الأمم المتحدة خلال عامي ٥٧، ١٩٥٨م قائلة لنفسي: ليست لنا عائلة هنا، فلا يوجد من يشاركنا ديننا أو لغتنا أو ماضينا. إن بقية العالم تبدو تكتلات وتجمعات نشأت بسبب التاريخ والجغرافيا، واجتمعت لتخلق اهتمامات مشتركة لديهم، لكن جيراننا -حلفاءنا الطبيعيين- لا يريدون أي صلة بنا، ونحن في الواقع لا نتتمي لأيِّ مكان، ولا لأي أحدٍ سوى أنفسنا... لكن العالم لم يكن مقصورًا على الأوربيين والآسيويين، فقد كانت هناك الدول الإفريقية الناشئة الساعية إلى الاستقلال، وكان لدى إسرائيل الكثير مما تعطيه... قد يقول قائل: إننا ذهبنا إلى إفريقيا لأننا كنا بحاجة إلى أصوات مؤيدة في الأمم المتحدة. وأقول: نعم! صحيح أن ذلك لم يكن العامل الوحيد، لكنه كان عاملاً مهمًّا»[(١)].

ومن النماذج الحية والتاريخية لقضية التعارف والتواصل نجد المنطقة الأكثر سخونة في العالم، ونقصد الشرق الأوسط ممثَّلاً في بلدانه العربية، فهذه المنطقة تقع في مجملها في المنطقة الصحراوية، وتعاني من ندرة المساحة في الأراضي الصالحة للزراعة، ولكن السودان -على سبيل المثال- يعاني من عجزه عن استثمار المساحات الهائلة من الأراضي الخصبة؛ تبلغ مساحة الأراضي الصالحة للزراعة في السودان ٢٠٢ مليون فدان، أي ثلث المساحة الكلية للسودان، لا يُستغل منها إلا خُمسها فقط (٢١٪) بواقع ٤٢ مليون فدان فقط، هذا إلى جانب الأراضي الأخرى التي تشغلها الغابات بمساحة ٦٥ مليون فدان، والمراعي بمساحة ٢١٥ مليون فدان، وتشكو كل هذه المساحات من ضعف التمويل والاستثمارات، وضعف البنى الأساسية، وتخلف التقنيات والنظم الإدارية[(٢)].

وبالرغم من كون المستثمَر من الأرض ليس إلا الخمس فقط، إلا أن الزراعة هي النشاط الرئيس والرائد في الاقتصاد السوداني، فهي تساهم في الناتج المحلي الإجمالي بنسبة تقترب من النصف، (في عام ٢٠٠٦م كانت نسبة القطاع الزراعي والحيواني ٣٩,٢٪، ومعدل النمو ٣,٨٪)، وأنه يستوعب ٧٥٪ من القوى العاملة، ويعيش عليه ٧٠٪ من السكان، ويساهم

(١) جولدا مائير: اعترافات جولدا مائير ص٢٤٢.
(٢) من تقرير منشور على موقع وزارة الزراعة والغابات السودانية: www.sudagric.gov.sd.

بحوالي ٩٠٪ من العائدات غير البترولية، وبحوالي ٩٠٪ من حصيلة الصادرات من النقد الأجنبي[(١)].

كما يمتلك السودان أعلى ثروة حيوانية بالنسبة للبلاد العربية والإفريقية، إذ يبلغ العدد ١٤٠ مليون رأس من الغنم والبقر والإبل، وهذه الثروة الحيوانية تعيش على المراعي الطبيعية التي تملأ الأرض السودانية، وهي تكفي -برأي المراقبين- لأنْ تجعل العالم العربي يعيش في وفرة[(٢)].

فها نحن أمام حالة لا تحتاج إلا إلى توافر في رأس المال والخبرة، وهو موجود لدى كثير من الدول العربية التي تفتقد هذه المساحات الهائلة من الأراضي الخصبة والمراعي؛ فالمنطقة العربية تعاني من ندرة الأراضي، إذ تُعدُّ نسبة ٨, ٥٤٪ (أكثر من نصف مساحة العالم العربي) من مساحتها أراضي خالية، وتمثل المراعي منها نسبة ٢٦,٨٪، ونسبة الأراضي الصالحة للزراعة ٥, ١٤٪ فقط، ولكن لا تمثل نسبة الأراضي المزروعة إلا ٢٩٪ من مساحة الأرض القابلة للزراعة، أي ٢, ٤٪ فقط[(٣)].

ولقد انتبهت بعض الدول العربية لهذا الجانب بالفعل؛ فقدمت الكويت في فترات سابقة حوالي مليار دولار لـ٢٤ مشروعًا استثماريًّا بمجالات الزراعة والصناعة في السودان، بجانب ٣١ مليون دولار لتمويل مشروعات قطاعية ودراسات جدوى. وكذلك تُعد من أهم المشاريع الاستثمارية الخليجية بالسودان الهيئة العربية للاستثمار والإنماء الزراعي، التي يتمثل نشاطها بالإنتاج الزراعي والحيواني كشراكة بين ١٩ دولة عربية بحوالي ٥ مليارات دولار، بلغ المدفوع منها حتى نهاية عام ٢٠٠٤م نحو ٣٣, ١ مليار دولار بنسبة استثمار بلغت ١٧٪ بالسودان، و٢٩٪ ببقية الدول العربية الأخرى. وبجانب ذلك مشروع سكر كنانة (في ولاية النيل الأبيض) الذي يُعد نموذجًا للمصانع الناجحة لتكامل رأس المال العربي، وسد مروى (في شمال السودان) الذي يُعتبر أحد أكبر السدود المائية بالمنطقة العربية والإفريقية لإنتاج

---

(١) من تقرير منشور بموقع بوابة الاقتصاد السوداني: www.sudaneconomy.com.
(٢) من موقع وزارة الثروة الحيوانية والسمكية السودانية: www.marf.gov.sd.
(٣) مصطفى كمال طلبة: التحديات البيئية الأساسية في البلدان العربية ص٣٤.

الكهرباء بتكلفة ٨,١ مليار دولار، إضافة لمصنع سيراميك رأس الخيمة[١].

وتعتبر العلاقة بين مصر والسودان نموذجًا لحالة المصلحة المشتركة التي تعمِّق وترسخ ما بين البلدين من مشتركات أخرى كالدين واللغة والأرض والتاريخ؛ إذ إن السودان يمثل عمقًا استراتيجيًّا لمصر، واستقراره هو جزء ركين من الأمن القومي المصري، كما تمثِّل مصر مظلَّة قوية وقوة دفعٍ كبيرة وسندًا عربيًّا وإفريقيًّا لا يمكن الاستغناء عنه.

ولقد برز جانب العمق الاستراتيجي -الذي لا غني عنه للأمن القومي المصري- في عام ١٩٦٧م حين لم تجد مصر إلا السودان لكي تنقل إليه المتبقي من سلاح قوات الجو حتى يكون بعيدًا عن متناول الكيان الصهيوني المتمتع بتفوُّق جوي كبير، إلى جانب أن السودان هو البلد الذي يستقبل النيل قبل أن يصل إلى مصر، واضطراب الأوضاع في السودان يُفضي إلى كثير من المتاعب بالنسبة إلى مصر؛ منها: تزايد حركات تهريب السلاح التي قد تُستخدم في عنف داخلي، وكذلك تزايد معدلات الهجرة غير الشرعية التي تمثِّل عبئًا على مرافق الدولة، إضافةً إلى اختلال التوازن الإقليمي الذي يسمح بصعود دول أخرى في منطقة القرن الإفريقي والبحر الأحمر، ولن تكون بطبيعة الحال أفضل لمصر من السودان، وكل هذا يُعدُّ هامشيًّا بالنسبة إلى التأثير على شريان الحياة في مصر: النيل. وكل هذا يؤدي إلى حصار مصر وتقلُّص دورها وتأثيرها ومكانتها الإقليمية[٢]. وبالرغم من هذه التأثيرات، فإن السؤال المحيِّر: ماذا تنتظر مصر؟ ولماذا تقف متفرجة على ما يجرى؟ [٣].

وإذا ابتعدنا عن الجانب الاقتصادي، فثمة ضرورات استراتيجية لا يمكن تجاوزها؛ فالعلاقة بين الشام وبين مصر، وكذلك بين الشام وبين الحجاز، ثم بين العراق والحجاز، وكذلك بين دول الخليج والحجاز.. كل هذه علاقات تحددها قاعدة عمق استراتيجي في مقابل خطوط دفاع متقدمة.

---

(١) تقرير منشور على شبكة الجزيرة الإخبارية، بتاريخ ١٠/ ١١/ ٢٠٠٦م، على الرابط: www.aljazeera.net.

(٢) هانئ رسلان: العلاقات المصرية السودانية.. نحو شراكة استراتيجية، مجلة السياسة الدولية - العدد ١٦٩ - يوليو ٢٠٠٧م، ص٢١٥.

(٣) فهمي هويدي: مقال «مصر في السودان.. غيبة أم غيبوبة؟»، موقع الجزيرة نت، على الرابط: www.aljazeera.net.



فكل نقطة متقدمة تمثِّل لمن خلفها خط دفاع أول، وكذلك النقطة المتأخرة تمثل عمقًا استراتيجيًّا وخطوط إمداد خلفية، ولا أدل على هذا من العلاقة بين الشام ومصر؛ «فوفقًا لمفهوم الأمن القومي المصري، كما تشكَّل عبر التاريخ، فإن الدفاع عن مصر يبدأ شمالاً من جبال طوروس جنوب الأناضول، مرورًا بسوريا وهو خط دفاعها الأول، ثم تشكِّل فلسطين خط دفاعها الثاني، ثم نأتي إلى سيناء وهي خط الدفاع الأخير عن مصر»[1].

وتبدو هذه القاعدة في غاية الوضوح إذا استرجعنا تاريخ المنطقة، ولا سيما في حالة الهجمة المغولية الكاسحة، فلقد مثَّلت مصر خط الإمداد لمنطقة الشام، ومثلت الشام خط الدفاع عن مصر، إلى أن انكسر المغول على أيدي الجيش المصري فوق الأرض الشامية. ومن قبل هذا كانت الوحدة بين مصر والشام هي الضربة القاصمة للوجود الصليبي في الشرق، ومن بعدها صارت المسألة مسألة وقت.

فالعالم العربي -على وجه الخصوص- نموذج مثالي لاجتماع عوامل الوحدة وعوامل المصلحة المشتركة، ولكن يبقى الاحتياج إلى إرادة سياسية تستثمر هذه العوامل لصناعة التقاء متين يكون له وزنه على الساحة العالمية؛ ولذلك يمكن أن نلحظ بكل وضوح مدى التقارب والتعايش والتعارف الذي وصلت إليه هذه البقعة الجغرافية، حينما تحققت تلك العوامل المهمَّة.

ولسنا نبالغ إن قلنا: إن القرن الماضي -لا سيما نصفه الأخير- كان مسلسلاً من التكتلات والتحالفات المبنية على قاعدة المصلحة المشتركة، فلقد سعى كل قوم تجمع بينهم نوع مصلحة إلى إنشاء رابطة أو حلف أو عقد معاهدة أو اتفاقية مشتركة لرعايتها؛ ولذا تعددت الروابط والهيئات والمنظمات وكثرت أسماؤها، فلدينا: الاتحاد الأوربي، حلف وارسو، حلف بغداد، الكومنولث المستقل، مجلس التعاون الخليجي، الاتحاد الإفريقي، جامعة الدول العربية، منظمة الفرانكفونية، منظمة دول حوض النيل، دول بحر قزوين... إلخ. حتى الدول التي لم ترد أن تكون تابعة لقطب في الشرق أو الغرب، قادت حركة «دول عدم الانحياز»!

(١) داليا عبد القادر عبد الوهاب: غزة والأمن القومي المصري، مجلة السياسة الدولية - العدد ١٧٥ -أبريل ٢٠١٠م.

والأصل أن «أعضاء مثل هذه النظم يكوِّنون عائلة واحدة تتفق مصالحها وتسعى فيما بينها إلى الأمن المتبادل.. في مثل هذه الأنظمة يتحرك الأعضاء بإرادات ناقصة ليحققوا معظم أغراضهم، ويوزعون فيما بينهم الأدوار، ويعملون كجبهة واحدة لمواجهة التهديدات الخارجية أو التحديات الداخلية»[١].

إن هذه المنظمات هي تعبير عن التواصل المستند إلى «المشتركات الخاصة» بين أعضائها، ثم تثبيتها وترسيخها وتطويرها عبر إضافة عنصر «المصلحة المشتركة» إلى علاقات الارتباط القائمة.

فبُعَيْد تفكُّك الاتحاد السوفيتي وحصول دول وسط آسيا على استقلالها عن الاتحاد السوفيتي، اشتركت هذه الدول منذ البداية في تحالف كانت موسكو -وريثة الاتحاد السوفيتي- من أعضائه، ما جعلها تبدو متحالفة معها، وحتى أوزبكستان التي خرجت من هذا التحالف بإغراء أميركي في عام ٢٠٠٢م، سرعان ما عادت إليه حين لم تعجبها قواعد اللعبة. ثم عقدت هذه الدول مع أرمينيا وأذربيجان وبيلاروسيا ومولدوفيا اتفاقية الأمن الجماعي في مايو ١٩٩٢م، هدفت إلى إقرار مبدأ الحماية المشتركة والرد الجماعي على أي اعتداء تتعرض له إحدى الدول الأعضاء، ثم تطورت الاتفاقية -في مايو ٢٠٠٦م- إلى مرحلة أعلى تتمثل في «بناء دولي متعدد الوظائف» له الحق في إنشاء قوة ردع سريعة، متبعة منهج حلف الناتو في هذا الشأن، وفي نهاية العام أعلنت أنها بصدد توحيد القوات الجوية بين الدول الأعضاء كخطوة أولى على طريق تشكيل تحالف عسكري مشترك[٢].

ولنا أن نعلم أن العالم العربي مضطر إلى التفاهم عن طريق المصالح المشتركة -مع الدول التي يشترك معها في الأرض وفي بعض التاريخ وبعض العرق- للحصول أو المحافظة على موارده المائية؛ فالحجم الإجمالي لموارد المياه المتوافرة في البلدان العربية بنحو ٣٠٠ مليار متر مكعب سنويًّا، تمثل منها موارد المياه السطحية ما يقدر حجمه الإجمالي بنحو ٢٧٧ مليار متر

(١) أمين هويدي: أزمة الخليج، أزمة الأمن القومي العربي ص١٣، ١٤.
(٢) عاطف عبد الحميد: روسيا آسيا الوسطى.. حماية المصالح واحتواء الأخطار، مجلة السياسية الدولية القاهرية - عدد ١٧٠ - أكتوبر ٢٠٠٧م، ص٨٣.



مكعب في السنة[١]، ولكن المهم -في سياقنا الآن- أن أكثر من نصف موارد المياه السطحية في العالم العربي مشترك مع دول أخرى (٥٧٪)، أي أن النهر قد يصدر في البلد العربي ويمر ببلاد أخرى، أو العكس[٢].

وعلى كلٍّ، فإن البحث عن الأسباب والآليات التي تقرِّب بين الشعوب، وتعمل على تعارفها ستأخذنا -لا محالة- إلى التجارة وآثارها باعتبارها من أعظم الوسائل المعبِّرة عن المصلحة المشتركة بين الشعوب؛ لقد كان لشركة الهند الشرقية الهولندية دور كبير في إنشاء العلاقات التاريخية بين الهولنديين والعرب، وخاصة شبه الجزيرة العربية، ويعود عمق هذه العلاقات إلى مدة تقارب الأربعة قرون، حيث بدأت تحديدًا في عام ١٦١٤م بإقامة علاقات تجارية بين جنوب وشرق شبه الجزيرة العربية، خاصة تجار جدة ومكة وعدن وبين الشركة.

ويبدو من خلال ذلك أن شركة الهند الشرقية الهولندية كانت من أوائل الشركات التي تُعرف بالمفهوم الحديث بالشركات «العابرة للحدود» كرمز من رموز العولمة، ونمطٍ اقتصادي يمد العلاقات بين الدول والشعوب والأنساق الاقتصادية. ومن اللافت أن يتبع «التعارف الاقتصادي» تعارف «ثقافي علمي» خاصة من الجانب الهولندي، حيث بدأ الاهتمام ببعض كتب التراث العربي المشهورة، وقد كان لقيام الشاعر الهولندي فان مارلانت[٣] بترجمة النص اللاتيني للكتابين العربيين «سر الأسرار» و«عروة وعفراء» الدافع الرئيس للعلماء الهولنديين لمعرفة روعة اللغة العربية، وأهمية تعلمها للاطلاع على الأبعاد الثقافية والعلمية لهذه الحضارة الشرقية الراقية، خاصةً في المجالات الأكثر تقدمًا: كالأدب والفلسفة وعلوم الطب والفيزياء والكيمياء والرياضيات والجغرافيا والفلك وغيرها، ومن جهة ثانية كان تعلم اللغة العربية ضروريًّا لتدعيم النشاطات التجارية المميزة التي اشتهرت بها هولندا في

---

(١) طبقًا لحسابات برنامج الأمم المتحدة الإنمائي - مكتب تقرير التنمية الإنسانية العربية، بالاستناد إلى قاعدة البيانات الإحصائية لنظام المعلومات العالمي عن المياه والزراعة (AQUASTAT) لدى منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة.

(٢) من تقرير المنظمة العربية للتنمية الزراعية، التابعة لجامعة الدول العربية لعام ٢٠٠٣م.

(٣) فان مارلانت: هو جاكوب فان مارلانت van Maerlant، أحد أكبر وأشهر الشعراء الهولنديين خلال العصور الوسطى، وعلى مدى قرنين (القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين) كان الأكثر شهرة من الشعراء الفلمنكين في هولندا.



تعاملاتها مع البلاد العربية وغيرها، وباتت مفردات اللغة الهولندية -وفق المصادر الرسمية- تتضمن أكثر من ١٦٠ كلمة من الكلمات ذات الأصل العربي، وتنوع التعارف الثقافي والعلمي، وزاد نشاطه في القرون المتأخرة، حتى توّج هذا التعارف والتواصل الحضاري بأن تولت جامعة لَيْدن تنظيم مؤتمر عالمي حول الإسلام في القرن الواحد والعشرين في الفترة من ٣- ٧ يونيو ١٩٩٦م بالتعاون مع وزارة الشئون الدينية الإندونيسية، وحضر المؤتمر ١٢٠ باحثًا من أنحاء العالم، وقد بحث المؤتمرون أوضاع العالم الإسلامي في القرن القادم من خلال ثلاثة محاور: الإسلام والمجتمع الدولي، والإسلام والتنمية، والإسلام والتعليم. وقد كانت هذه الفعاليات نتيجة مباشرة للتعارف الحضاري بين العرب وهولندا منذ بدايات القرن السابع عشر[1].

ومن أبرز الأمثلة التي تُدلل على أثر التعارف بين الأمم، ما قام به بعض المستشرقين من حفظ ونشر للتراث الإسلامي، وكان لمجهود هؤلاء دورٌ كبير في استعادة النصوص القديمة المفتقدة، وفتح الباب من جديد أمام تراثٍ أعاق نشره عنت المستعمرين فضلاً عن جهل المسلمين في العصور المتأخرة. ومن اللافت أن حركة نشر التراث التي حمل عبأها المستشرقون من علماء الغرب، قد ساعدت -بشكل كبير- في إحداث نوع من التقارب بين المسلمين وبعض هؤلاء المستشرقين المنصفين، فضلاً عن المعرفة الوثيقة التي نشرها المستشرقون ومن خلفهم أبناء جلدتهم وشعوبهم. كما أن كثيرًا من أبناء المشرق قد ذهبوا في بعثات علمية منذ بداية القرن العشرين للتخصص في العلوم المحضة، وكذا الإسلامية والعربية وتعلمها على أيدي المستشرقين وعلماء الغرب، وهو ما زاد من وتيرة التقارب والتواصل بين الجانبين[2].

ومن وسائل التقارب والتعارف والتواصل الإنساني الموجودة بالفعل، وجود أمم خوَّلها الموقع الجغرافي، والبنية الاجتماعية لأنْ تكون ملتقًى للشعوب، وجسرًا للتفاعل الحضاري بين الأمم، ومن هذه المناطق نجد بلاد البلقان، فلقد اعتبر هذا الموقع حتى وقت قريب حافزًا للتفاعل والتعاون، وكان يُشار إليه دائمًا باعتباره الجسر بالمفهوم الجغرافي والثقافي، وهكذا لم

---

(١) حميد الهاشمي: العرب وهولندا، الأحوال الاجتماعية للمهاجرين العرب في هولندا ص٨٥- ٨٧.

(٢) علي بن إبراهيم: المستشرقون ونشر التراث ص٤٧، ٤٨.

تمنع مطرانية فان نولي (١٨٨٢ - ١٩٦٥م) رأس الكنيسة الأرثوذكسية في ألبانيا ورئيس الحكومة فيها خلال عام ١٩٢٤م على أن يعتبر ألبانيا بالذات -لكونها تحتضن الإسلام والأرثوذكسية والكاثوليكية- هي التي تقوم بدور خاص يقوم على الإسلام والمسيحية، وكذلك كان الرئيس الألباني السابق صالح بريشا (١٩٩٢ - ١٩٩٧م) يرحب بأن تلعب ألبانيا دور الجسر بين أوربا والعالم الإسلامي[١].

وهذه الدعوة التي وجهها زعماء ألبانيا للتعارف والتقارب، نجدها في بلد يحوي تعددية مذهبية وطائفية وإثنية بشكل لافت وملحوظ، ونقصد لبنان؛ فرئيس وزراء لبنان الأسبق (سليم الحص[٢]) يُقَرِّر أن التعدُّدِيَّة «هي قوَّة لبنان، إنه ملتقى الأديان السماوية؛ ففيه المسلم والمسيحي يعيشان جنبًا إلى جنب في تفاعل اجتماعي وطني وثقافي بنَّاء. التعددية في لبنان طائفية: بوجود الإسلام والمسيحية، وكانت اليهودية حتى الحرب العربية الصهيونية عام ١٩٤٨م. وهي أيضًا مذهبية بوجود شتى المذاهب الإسلامية، وهي كذلك إثنية؛ فوسط أكثرية عربية تجد الأرمني والكردي والآشوري وخلافهم»[٣]؛ ولذلك توصف لبنان بأنها من أكثر دول الشرق الأوسط ديمقراطية، وأن التعارف والانفتاح الذي تشهده لبنان وتعايشه يوميًّا قد أتاح لها نوعًا من الثقافة لا نكاد نجده في دولة من الدول القريبة منها؛ ولذلك فالتجربة اللبنانية جديرة بالدراسة لمن أراد التعايش والتواصل والتعارف على الآخر بصورة قائمة على أسس سليمة، ومعايير واضحة، وتجربة سابقة.

ولقد أسهم التقدم العلمي والتكنولوجي بدوره الفاعل في التقارب والتعارف بين الأمم؛ إذ حملت الأعوام العشرون الماضية ثورة تقنية هائلة كان لها دورها الكبير في تقارب الشعوب وتعارفها، وقامت ثورة في الأقمار الاصطناعية التي أتاحت للعالم أن يتعرف على ثقافاته وتنوعاته

---

(١) محمد الأرناءوط: فصل بعنوان «البلقان ساحة للتفاعل/ عدم التفاعل بين الثقافات»، ضمن كتاب أوربا وحوار الثقافات الأورمتوسطية ص١٤٣، ١٤٤.

(٢) سليم الحص: هو سليم أحمد الحص (١٩٢٩م -...)، سياسي وأكاديمي ورجل أعمال لبناني شهير، شغل منصب رئاسة الوزراء خمس مرات، له مجموعة من المؤلفات؛ منها: (نحن والطائفية)، و(لبنان على مفترق الطرق). انظر: الموقع الشخصي: www.salimelhoss.com.

(٣) سليم الحصّ: تعالوا إلى كلمة سواء ص٣٠٥.

البشرية والعلمية الهائلة، فضلاً عن ثورة أخرى هي الإنترنت التي جعلت العالم قرية بل أسرة صغيرة، يتعارف كلٌّ منا على الآخر بيسر وسهولة.

ولقد باتت هذه التكنولوجيا الحديثة نوعًا مهمًّا من أنواع المصلحة المشتركة، والتي يأتي في مقدمتها «المعلوماتية»، فهناك كثير من المواقع التي تتيح لنا التوصل إلى المعلومات المجهولة، مثل موقع «الموسوعة البريطانية»، وموقع «ويكيبيديا» الذي يوضح لنا بصورة سريعة التعرف على الدول والملوك والشخصيات العامة والأديان والعلوم، فضلاً عن المواقع التي تتيحها كل دولة عن نفسها وثقافتها وأهم مزاراتها وجامعاتها والمجالات المتفوقة فيها، كل هذا يتم التوصل إليه بطرق عدة أشهرها عملاق البحث في الشبكة العنكبوتية ونقصد موقع (جوجل)، وهو محرك بحثي يطوف بك في أرجاء العالم في طرفة عين، وغير ذلك مما تتيحه الشبكة من وسائل تُعين على التعرُّف، مثل البريد الإلكتروني والقوائم البريدية وبرامج المحادثة الشهيرة مثل «ماسنجر» و«جوجل توك» و«بال توك»، وغيرها من البرامج الأخرى. وتوجد برامج أخرى رائعة تتيح لنا الاتصال هاتفيًّا بأي فرد في العالم، مثل برنامج «ويب فون».

ومن الرائع أن الإنترنت يتيح لنا عقد المؤتمرات العالمية من خلاله، ومتابعة الأحداث العالمية لحظة بلحظة من خلال المواقع الإخبارية العالمية مثل نيويورك تايمز، نيوزويك، واشنطن بوست، وسي إن إن، بي بي سي...، ومن اللافت أن خدمة التعليم عن بُعد أضحت موجودة الآن عن طريق الإنترنت، فيستطيع الباحث في مصر -على سبيل المثال- أن ينال شهادة معتمدة من جامعة في الولايات المتحدة عن طريق الإنترنت، وذلك عن طريق حضور المحاضرات التي تنزل تباعًا على الشبكة؛ فمن خلال هذه الشبكة الرائعة يوفِّر الباحث آلاف الأميال والجهد والمال، ليأخذ من العلم حاجته في نهاية المطاف وهو جالس في بيته لا يبرحه[(١)]!

ولا شكَّ في أننا لن نستطيع في هذا المقام الضيق أن نحيط علمًا بالوسائل الكثيرة التي تعين على تعارف الشعوب وتقاربها، وهذه الغزارة في الوسائل تُعدُّ حجة علينا -نحن البشر-

(١) بهاء شاهين: الإنترنت والعولمة ص٤٣- ٥٩، ص١٦٣- ١٦٧، ص٣٧٩- ٣٩٠.



في ضرورة البحث عن الآخر والتقارب معه، ولعل أنجح الدول العالمية هي من استطاعت أن تطبِّق هذه الوسائل على أكمل وجه وأفضله للتقارب مع الآخر الذي قد يبعد عنها آلاف الأميال.

ومع كل ما سبق من آليات التعارف والتقارب، إلا أننا نؤمن أن التصادم أمر حتمي الحدوث؛ ذلك إذا فشل الإنسان في التعارف، واستعاض عن المصلحة المشتركة بالتصادم في سبيل الحصول على المصلحة الذاتية، مجانبًا لمصالح الآخرين.

ثانيًا: التصادم طريق الأشقياء:

لا ريب أن الرؤية السابقة التي تدعو للتقارب والتعايش على مبدأ المصلحة المشتركة، إنما هي رؤية العقلاء من البشر على مدار التاريخ الإنساني كله، ولكن ليس كل ما يتمناه الإنسان يدركه؛ فالشر موجود في البشرية منذ وجود الإنسان الأول، ونتذكر في هذا السياق قصة ابني آدم، التي ذكرتها الكتب السماوية.

فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۞ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۞ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۞ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [المائدة: ٢٧- ٣٠]. فكلاهما بحث عن المصلحة، وكان الفيصل في تحقيق هذه المصلحة الالتجاء لله تعالى، ولما اختار الله قربان أحدهما وهو هابيل[١]، اغتاظ الآخر، وسعى بكل ما أوتي من قوة إلى تحقيق المصلحة الذاتية من خلال التقاتل والتحايل، وبالفعل قتل أخاه من أجل مبتغاه!

تلك التجربة الإنسانية الأولى إنما ذكرتها الكتب السماوية دليلاً على أن طريق الغاشمين الفاسدين واحد منذ بداية الخلق ووجود الإنسان على الأرض، وقد ذكرها القرآن الكريم قصةً ليُستقى منها العبرة والعظة لتلافي مثل هذا الجرم، لكن كثيرًا من البشر لا يزالون

---

(١) سفر التكوين ٤/ ١- ١٢.

متمسكين بطريق الجهل والحرب. ومهما سلك المصلحون طريق الإصلاح والتوعية والإرشاد، إلا أنه ستبقى الحروب قائمة في سبيل الحصول على المصالح الذاتية اللا أخلاقية.

ويقدم لنا التاريخ الإنساني الأدلة والبراهين التي تؤكد على ذلك؛ فالحرب ظاهرةٌ اجتماعية قديمة صاحبت الإنسان منذ نشأته على الأرض، وعبَّرت بجلاء عن طبيعته التي وإن كانت تميل إلى السلم؛ فهي تلجأ أيضًا -ولأسباب عدة- إلى الحرب؛ فلقد قام أحد الباحثين المعاصرين باستقصاء الحروب المعروفة منذ بدء تاريخ البشرية حتى عام ١٩٤٥م، فكانت النتيجة كالتالي: نشبت ٣٤٥٣١ حربًا خلال ٥٥٦٠ سنة، بمعدل ٦,٢ حرب كل عام، وخلال ١٨٥ جيلاً لم ينعم بسلم مؤقت إلا عشرة أجيال فقط[١].

وفي كتابهما المهم «أوقفوا الحرب» قدَّم كل من العالِمَيْنِ روبرت هندي وجوزيف روتبلات رؤيتهما في الأسباب الداعية إلى اندلاع الحروب، بقولهما: «إن أسباب الحرب متعددة، وثمة سلاسل من الأسباب التي تتفاعل، ويدعم بعضها بعضًا، وكثيرًا ما يمكن اقتفاء أثرها، حتى عبْر الأجيال، وفي الماضي البعيد.. تكمن بعض الأسباب في تاريخ الأطراف المقاتلة، والأضغان القديمة والمظلمة المكبوتة التي تنقلها الأجيال إلى الجيل الحاضر، وتكمن بعض الأسباب في الظروف الحالية؛ مثل الافتقار المستمر إلى النفط، والحاجة إلى التوسُّع، والنهضة الدينية. وهناك أسباب يمكن اعتبارها محرضة، ومعجِّلة لنشوب العنف. يُقال إن أرشيدوق (النمسا) قد أشعل الحرب العالمية الأولى. وتكون بعض الأسباب اجتماعية أو سياسية، والبعض الآخر فردية كطموحات قائد، وغالبًا ما تتأرجح الأسباب بين المجموعتين: كالتفاعل بين مجموعات سياسية متنافسة...»[٢]. فهما يؤكدان على أن فلسفة الحرب -وإن تعددت الأسباب- تقوم على مبدأ المصلحة الذاتية المحضة التي تتمثل في الحصول على النفط، والتوسع في البلدان الأخرى لجلب المنافع الذاتية. إذًا، المصلحة المحضة التي تعمي الأبصار هي أمُّ الحروب والشرور.

ومن الغريب أن أقدم الحضارات التي تكونت عن طريق التعارف والتعايش، كالحضارة

---

(١) عبد اللطيف عامر: أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية ص١٩.
(٢) روبرت هندي وجوزيف روتبلات: أوقفوا الحرب، ص٧٩، ٨٠.



السومرية في العراق نراها وقد حادت عن الجادَّة، وبحثت عن مصالحها الذاتية دون مراعاة لمشاعر الآخرين واحتياجاتهم؛ فقد «كان الملك يخرج إلى الحرب في عربة على رأس جيش مؤلَّف من خليط من المقاتلين مسلحين بالقِسِيِّ والسهام والحراب. وكانت الحرب تشن لأسباب صريحة هي السيطرة على طرق التجارة والاستحواذ على السلع التجارية؛ فلم يكن يخطر لهم ببال أن يستروا هذا الغرض بستارٍ من الألفاظ يخدعون بها أصحاب المثل العليا كما يحدث في عالمنا اليوم. من ذلك أن (منشتوسو ملك آكد) أعلن في صراحة أنه يغزو بلاد عيلام (في إيران)؛ ليستولي على ما فيها من مناجم الفضة، وليحصل منها على حجر الديوريت، لتُصنع منه التماثيل التي تخلد ذكره في الأعقاب»[1].

وكانت نتائج مثل تلك الحروب في غاية البشاعة؛ حيث «كان المغلوبون يُباعون ليكونوا عبيدًا، فإذا لم يكن في بيعهم ربحٌ ذبحوا ذبحًا في ميدان القتال. وكان يحدث أحيانًا أن يُقدم عُشر الأسرى قربانًا إلى الآلهة المتعطشة للدماء، فيقتلوا بعد أن يوضعوا في شباك لا يستطيعون الإفلات منها»[2].

ولا نكاد نقف على عصر من أعصر التاريخ إلا ونجد مثل تلك النزعة الهمجية متأصلة لدى كثير من الناس؛ ففي سبيل الحصول على المصلحة الذاتية تتقدم لغة الحرب على ما سواها من الحلول اللا محدودة.

ومن اللافت أن معظم من كتبوا في تاريخ الحروب الصليبية بحملاتها المتعددة على مدار التاريخ الوسيط، قد سوَّغوا الأسباب الداعية لها إلى أمرين اثنين: أوَّلهما طبيعة الصراع الديني، وثانيهما: الطمع في ثروات الشرق، حتى خُيِّل لآلاف العامة والفلاحين والفقراء من الأوربيين أن الشرق جنة الخلد؛ ولذلك حركتهم المطامع الشخصية الذاتية، فضلاً عن أحوالهم المزرية في بلدانهم، وكل هذا بتخطيط من الأمراء والكبراء وبابا الفاتيكان؛ مما ألهب عواطفهم، وأضحى الموت في بلاد الشرق نوعًا من أنواع المغفرة من الذنوب التي ارتكبوها في ماضيهم[3]!

---

(١) ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٢٧.

(٢) المرجع السابق ٢/ ٢٧.

(٣) راغب السرجاني: قصة الحروب الصليبية ص٣٩-٤٧.

لقد «نشأ عن عزم القوم على غزو فلسطين اشتعال النفوس حميَّة، وصار كل واحد يرجو إصلاح حاله، فضلاً عما يناله في ملكوت السموات، فغدا العبيد يطمعون في فكِّ رقابهم، وغدا أبناء الأسر الذين حُرموا الميراث بسبب نظام البكرية، والأمراء الإقطاعيون الذين كانت قسمتهم جائرة يطمعون في الاغتناء، وغدا الرهبان الذين أضنتهم حياة الأديار - وجميع المحرومين طيب العيش، وكان عددهم كبيرًا - يُعللون أنفسهم بأطيب الأماني. حقًّا لقد أصابَ القوم نوبةٌ حادَّة من الجنون، فرغب الإقطاعيون والعبيد والرهبان والنساء والأولاد وجميع الناس الزحف، وأخذ كل امرئٍ يبيع ما يملك ليتجهَّز، واستعد من الرجال ١٣٠,٠٠٠ مقاتل لغزو فلسطين حالاً»[1].

فماذا جنت أوربا من هذا النزاع؟!

لم يجنِ الأوربيون من تلك الحروب الهوجاء، والإبادة الجماعية لآلاف المسلمين والأوربيين أنفسهم، إلا الصراع والتصادم والحرب الضروس التي استمرت ما يقرب من ٢٠٠ عام متصلة، قُتل فيها من الجانبين مئات الآلاف من البشر، بل ظلَّ تاريخ تلك الحروب عاملاً من عوامل استثارة الأحفاد؛ هؤلاء الذين تجري الدماء في عروقهم غضبًا وحميَّة لأجدادهم ومقدراتهم وتراثهم المقدس الذي دُنِّس في تلك الحروب القديمة.

ويبدو أن سحر الشرق ظل ماثلاً في عقول وقلوب الأوربيين، فحالما اكتشف البرتغاليون طريقًا جديدةً في الملاحة العالمية هي رأس الرجاء الصالح في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي حتى انتعشت تجارتهم، ولو أنهم اتخذوا مبدأ المصلحة المشتركة في تعاملهم مع العرب والهنود والآسيويين لكان خيرًا لهم؛ فمن المعلوم أنهم -ولأجل مصلحتهم الذاتية المحضة- احتلوا مناطق في الهند والباكستان وعمان وهرمز وبعض المناطق في شرق إفريقيا، كل ذلك لنهب ثروات تلك المناطق، وجمع الضرائب، وتحقيق أقصى منفعة شخصية لهم؛ لذا قامت الثورة العربية الكبرى في هرمز وموانئ الخليج وعُمان ضد البرتغاليين في نوفمبر سنة ١٥٢١م، التي يمكن إجمال أسبابها في قرار ملك البرتغال بوضع موظفين

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٣٢٢، ٣٢٣.

برتغاليين في إدارة جمارك هرمز بدلاً من الهرامزة، كما نجد كذلك أن المعاملة القاسية للأهالي التي تسبب فيها مشرفو الجمارك هؤلاء قد قلّلت من أرباح الحكام والتجار معًا، ثم عرقلة السلطات البرتغالية للنشاط التجاري لسكان الخليج مع موانئ الهند، وفرض ضرائب باهظة أثقلت كاهل الناس والحكام، وعدم اهتمام البرتغاليين بالشكاوى حول تلك القضايا...»[(١)].

وعلى جانب آخر، كان البرتغاليون أول من تنبه لجزر إندونيسيا العامرة بالخيرات، وذلك خلال حركة الكشوف البحرية، وكان لسقوط دولة الإسلام في الأندلس سنة (٨٩٧هـ=١٤٩٢م) أثرٌ كبير في وثبة البرتغاليين والإسبان على العالم القديم، وخاصة البلاد الإسلامية منه.

وقد احتل البرتغاليون (مالاقا) سنة (٩١٧هـ=١٥١١م)، وأقاموا بها قاعدة حربية بحرية متقدمة للإغارة على الجزر الإندونيسية ونهب خيراتها واستعباد أهلها، وكانت جزر (الملوك) الغنية بالتوابل من أكثر الجزر الإندونيسية تعرضًا للحملات الصليبية البرتغالية، ومع توالي الحملات البرتغالية على إندونيسيا، سيطر البرتغاليون على شمالي سومطرة سنة (٩٢٨هـ=١٥٢٢م)، وجزيرة (سيليبس) سنة (٩٤٧هـ=١٥٤٠م).

ودخل الإسبان ميدان الصراع على خيرات البلاد الجديدة، فوصلوا إلى جزيرة (بورنيو) وجزر (الملوك) عام (٩٢٨هـ=١٥٢٢م)، وكانت تلك الجزر وقتها تحت حكم المسلمين، ولهم بها مملكة كبيرة هي مملكة (بيدور) وحاكمها السلطان جمال الدين، وقد استقبل هذا السلطان المسلم الوفد الإسباني وأكرم ضيافته وهو لا يعلم ما يخبئه له هؤلاء الحاقدون؛ إذ ما لبثوا أن احتلوا الجزيرة وعملوا على فرض النصرانية بالقوة على أهلها، وكذلك فعل البرتغاليون[(٢)].

إذًا كان سبيل البرتغاليين والإسبان في الحصول على المصلحة الذاتية، وما صاحبه من

---

(١) محمد حميد السلمان: الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة ما بين ١٥٠٧م إلى ١٥٢٠م، ص٢٩٢، ٢٩٣.

(٢) شريف عبد العزيز: مقال بعنوان «تاريخ الحروب الدينية المعاصر»، موقع مفكرة الإسلام، على الرابط: www.islammemo.cc.

عوامل القمع والاستهزاء والتنكيل بالآخر سببًا قويًّا في نشوب الصراع والتصادم بين الجانبين، والذي خرج البرتغاليون والإسبان على إثره منهزمين مدحورين، وللأسف فإن مثل تلك المشاهد التاريخية -التي قاربت أن تكون سننًا مكرَّرة- لا يكاد الإنسان يستفيد منها!

ولعلَّ قصة الولايات المتحدة، وخاصة قصة المستعمرات الأولى في تلك القارة، وعلاقة الأوربيين الوافدين بالسكان الأصليين «الهنود الحمر» كانت من أقسى القصص التي تعكس لنا أثر المصلحة الذاتية في مجريات التاريخ البشري، خاصة إذا كانت هذه المصلحة منطلقة من مبدأ تجاهل مصالح الآخرين.

لقد ترك الهنود الحمر الأوربيين يُكوِّنون مستوطناتهم على امتداد المحيط الأطلسي، ولما كثرت أعداد المهاجرين بدءوا في الانتشار باتجاه الغرب الأميركي، وأراد هؤلاء المستوطنون أن يستولوا على أراضي الهنود الحمر -الذين كانوا يقتاتون على الأراضي المزروعة والصيد- بالقوَّة والغصب، ولم يكن هناك مفر في ظل هذه الأجواء المشحونة أن يتقاتل الجانبان، وقد قتل المستعمرون والمستوطنون حتى عام ١٩٠٠م ما يقرب من ١١٢ مليون هندي، ولم يتبقَّ إلا ما يقرب من ٤٠٠ ألف هندي فقط؛ ما يُدلِّل على وحشية ودموية الحروب التي اشترك فيها الجيش الأميركي مع المستوطنين البيض في إبادة السكان الأصليين، ولو استعاض المستوطنون ثقافة الحرب بثقافة الحوار والتعارف، ومحاولة تعليم هذه القبائل سُبل التقدم والرقي المدني، وعملوا على اندماجهم في المجتمع الجديد؛ لأدى ذلك إلى تعددية رائعة تفخر بها أميركا الجديدة، التي نادت في عقودها الماضية بالحرية والسلام ونشر قيم الديمقراطية، وتناست أن ميراثها التاريخي مليء بالدم والنار[1]!!

ولقد وصف أحد شهود العيان وهو المطران «برتلومي دي لاس كازاس» دموية الإسبان في تعاملهم مع سكان أميركا الوسطى الأصليين في مذكراته (المسيحية والسيف)، بقوله: «خلق الله هذه الشعوب الغفيرة رضيَّة لا تعرف الشر والرياء، إنها شعوب طيعة بالغة الوفاء لأسيادها الطبيعيين وللمسيحيين الذين تخدمهم، بل إنها أكثر الشعوب تواضعًا وصبرًا

(١) منصور عبد الحكيم: الإمبراطورية الأميركية، البداية والنهاية ص٢٩- ٣٥.

ومسالمة وسكينة. إنها لا تعرف الضغينة ولا الصخب والعنف والخصام، شعوب تجهل الحقد وسوء الطويَّة، وتعفُّ عن الثأر والانتقام، شعوب مرهفة رقيقة الحاشية، ناحلة هزيلة لا تطيق أجسادها الرهق، وسرعان ما يهلكها المرض مهما كان... إن لهم ذهنًا ثاقبًا شديد الوضوح، وهم أذكياء منفتحون لكل عقيدة صالحة، وتراهم يُلحِّون على معرفة الشاردة والواردة. إن كثيرًا من الإسبان -غير الكهنة- يعترفون بأنهم لا يستطيعون أن ينكروا طيبة أنفسهم وحميد خصالهم، ولربما كانت هذه الشعوب أسعد أهل الأرض لو أنها عرفت الله. لقد غشي الإسبان هذه الخراف الوديعة غشيان الذئب والنمور والأسود الوحشية التي لم تجد طعامها أيامًا وأيامًا، ومنذ أربعين سنة وهم يفتكون بها ويعذبونها ويبيدونها، كل يوم فظاعة غريبة مختلفة لم نسمع ولم نقرأ عن مثلها من قبل، كانت هذه الفظائع شديدة لم تُبقِ في الجزيرة الإسبانية اليوم سوى مائتي هندي من أصل ثلاثة ملايين»[١].

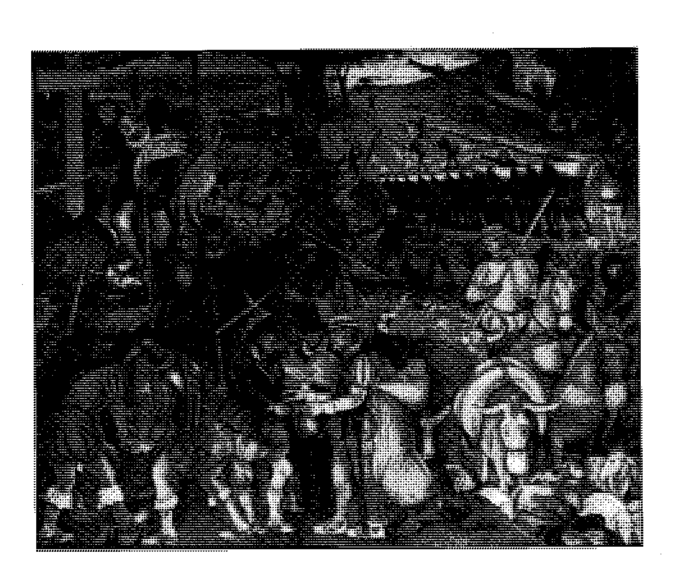
نعم، قتل الإسبان ما يقرب من ثلاثة ملايين إنسان بلا جريمة ولا جريرة، اللهُمَّ إلا أنهم أقل شأنًا في أعينهم، وأحقر ثقافة مقارنة بثقافة المحتل المتقدم، وتجاهلوا المشتركات الكثيرة بينهم وبين أولئك المستضعفين.

لقد قتل الإسبان أهل الجزر الأصليين، ولم يُراعوا المشتركات الإنسانية التي يأتي في أوَّلها وعلى رأسها إنسانية الإنسان وقيمته، لقد تناسى الإسبان لغة الحوار، وتجنبوا المميزات الكثيرة الموجودة في هؤلاء الهنود، تلك التي ذكرها المطران في مذكراته، هذه المميزات نلمس فيها بكل وضوح أنهم قابلون للتعارف، قابلون للآخر مهما كان لونه وثقافته وبيئته، لكن تكبُّر الرجل الغربي، وغروره أعماه عن احترام الحق الآدمي لهذه الشعوب الوادعة، فأخذ يقتلهم كأنهم داء عضال يجب التخلص منه! **(انظر: صورة رقم ٢ الاستعمار الإسباني لأمريكا اللاتينية).**

تلك الرؤية المخزية التي نلمسها في تلك القرون الغابرة لم تتغير -للأسف- في واقعنا وعصرنا الحاضر؛ فكثير من الصراعات العرقية والاضطرابات التي نشبت في عصرنا سواء

---

(١) برتلومي دي لاس كازاس: المسيحية والسيف، وثائق إبادة هنود القارة الأميركية على أيدي المسيحيين الإسبان، ص٢١- ٢٣.



الاستعباد الإسباني للهنود الحمر

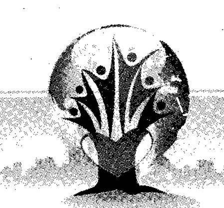


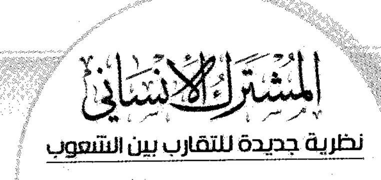
كتاب (المسيحية والسيف - مذابح الهنود الحمر)
اعترافات القس الإسباني لاس كازاس



الاستعمار الإسباني لأميركا اللاتينية

صورة رقم (٢)





بين الصرب والمسلمين أم بين الهوتو والتوتسي[1]، ليست في جوهرها حروبًا دينية، كما أنها ليست صراعات بين ثقافات أو حضارات، وليست ناتجة -أيضًا- عن أحقاد قومية قديمة، إنها في واقع الأمر حروب غذَّاها رجال العصابات الباحثون عن مصالحهم الذاتية، وأهل الجهل الذين لا يعترفون بالآخر، ولا يقبلون به، (**انظر: صورة رقم ٣ مجازر الهوتو والتوتسي في رواندا**).

لقد كانت الخرافة التي تُسوّغ لحروب المسلمين والصرب والكروات أنهم شعوب مختلفة، ولقد دحض كثير من العقلاء هذه الفكرة، منهم الصحفي المخضرم وأستاذ الصحافة الأميركي (كرس هدجز) الذي قال: «إن الولايات المتحدة في الواقع والدول الغربية اعتمدت في قرارها بعدم التدخل (لمنع الحرب بين المسلمين والصرب) على طائفة من الخرافات، منها أن الكروات والمسلمين والصرب يمثلون شعوبًا مختلفة، علمًا بأنك لا تكاد تميِّز أحدهم عن الآخر... لا تكمن جذور هذا الصراع في الخرافات التاريخية المتداولة، وإنما تكمن في أمراء الحرب الذين بسطوا سيطرتهم على البلقان، بقي ميلوسوفتش وأبواق دعايته ينشرون الكراهية والأكاذيب يوميًّا عبر محطات الإذاعة والتلفزة في بلجراد؛ مما حفَّز جماعات صربية على عبور الحدود إلى داخل البوسنة لتبدأ حملاتها الإجرامية التي أشعلت فتيل الحرب. لقد صُوِّرت الحرب للعالم الخارجي على أنها صراع بين حضارتين على طرفي نقيض، في حين تعكس في جوهرها رغبة كل من ميلوسوفتش في صربيا وفرانيو تدجمان في كرواتيا والقيادات الطائفية الأخرى في كبت أصوات المفكرين والمثقفين والكُتَّاب وتنصيب رجال على استعداد لأنْ يُحوِّلوا كل عمل أدبي أو فكري إلى أداة لنشر التعصب القومي والأساطير التاريخية»[2].

لقد أدى الغرور والصلف والأنانية المفرطة إلى تجاهل المشتركات الكثيرة بين هذه الشعوب القريبة من بعضها، والمتعايشة منذ أقدم العصور. إن تاريخ البلقان يؤكد على أن هذه الأمم -باختلاف أديانها- قد قَبِلَ كلٌّ منها الآخر دون تكلُّف أو مشقة، لكن ثقافة الحرب، والإيمان بالقوة الوحشية، والبحث عن السيطرة المطلقة من قبل «العصابات» -كما

---

(١) الهوتو والتوتسي: قبيلتان في رواندا حدث بينهم اقتتال عنيف، أدَّى إلى مجازر رهيبة قُتلت خلالها مئات الآلاف.

(٢) كرس هدجز: الحرب.. حقيقتها وآثارها، ص٣٦، ٣٧.

مجازر الهوتو والتوتسي في رواندا

صورة رقم (٣)

أطلق هدجز- حال دون كل تعارف ممكن، ولقد قتل في حصار سراييفو الشهير ما يقرب من ٢٥٠ ألف إنسان بلا ذنب أو خطأ.

وفي القارة الأوربية نجد التعددية في البنية الاجتماعية لكثير من دولها واضحة رأي العين، وكثير من هذه الدول تفتخر بهذه التعددية، وتعتبرها مصدر قوتها، بل إن بعضها قدَّر الأقليات وأعطاهم حقوقهم، وجعل لهم ممثلين في البرلمانات، وهذا ما نجده في فرنسا وإنجلترا على سبيل المثال، حتى إن هذه الأخيرة قد عينت وزيرًا مسلمًا في حكومة ديفيد كاميرون الأخيرة.

لكن تاريخ أوربا في العصر الحديث شاهد على مآسٍ لا تكاد تُحصى، من حيث إقصاء الآخر، وعدم الاعتراف به في تلك المجتمعات، وأبرز مثال على ذلك ما فعله هتلر[1] في ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية، فضلاً عما ارتكبه في تلك الحرب العالمية من قتلٍ لآلاف البشر، وإبادة كل من لم يقبل الفكر النازي الوحدوي في أوربا كلها، وكانت جرائمه فاجعة، ولقد أجبر الألمان على قبول الفلسفة النازية العجيبة، ولم يجرؤ أحدهم على أن يرفع رأسه محتجًّا، ولقد طبع كل شيء بالطابع النازي الإقصائي، لدرجة أن أحد الزعماء النازيين ويُدعى هرمان جورنج قال: «إن الألماني الحقيقي يُفَكِّر بدمه»[2]!

ولذلك ارتكب الألمان أفظع الجرائم في الحرب العالمية الثانية، حتى كان حلم هتلر السيطرة على العالم من منظار ألماني نازي، وإنه يمكننا أن نقول: إن الحرب العالمية الثانية دليل صارخ على عدم الاعتراف بالآخر وإقصائه.

ونحن لا نقول: إن تاريخ المسلمين لا يحمل مثل هذه المشاهد، فكم من الحكَّام الظالمين الذين تولَّوْا أمر المسلمين لم ينظروا إلاَّ لمصلحتهم الخاصة، مُعْرِضين عن مصالح الرعية

---

(١) هتلر: هو أدولف ألويس هتلر Adolf Hitler (١٨٨٩-١٨٤٥م)، سياسي ألماني نازي، وُلِدَ في النمسا، وزعيم الحزب النازي، واحد من بين مائة شخصية تركت أكبر الأثر في تاريخ البشرية في القرن العشرين.

(٢) جواهر لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم ص٤٧٨.

والشعوب! ولذلك كانوا وبالاً على المسلمين بل وعلى العالم؛ مثل محمد بن تومرت[١] الذي قوَّض أركان دولة المرابطين لتحقيق منفعته الذاتية، وغيره كثير، بل إن قيام الدولة العباسية كان قيامًا دمويًّا، وكان الأولى النصح والإرشاد للأمويين بدلاً من إراقة أنهارٍ من الدماء.. ولا يخفى على القارئ الكريم أن العالم الإسلامي الآن يُعاني من هذه الطائفة من الحكَّام -إلاَّ من رحم الله- هؤلاء الذين لا يبحثون إلاَّ عن مصالحهم الذاتية، فكم من الخسائر خسرتها البشرية جرَّاء فكر صدام حسين[٢]!

إن الشرَّ ليس له وطن، وكل بلاد العالم عانت من أولئك الذين نظروا إلى الدنيا من منظورهم الخاص، ولم يعتبروا بأي مصلحة لغيرهم، وكم يكون شقاء الناس إذا ابتُلُوا بأعداد من هؤلاء يسيرون بالعالم إلى المهالك.. [والسؤال: إلى أين نحن متجهون الآن؟ هل إلى تعارف يقود إلى مصلحة مشتركة تسعد بها الأرض وترقى بها الحضارات، أم إلى تصادم يُفسد الكون ويُدَمِّره، وينطلق بالبشر إلى هاوية مهلكة؟!

والإجابة عن مثل هذه الأسئلة هي موضوع الفصل القادم!

***

---

(١) محمد بن تومرت: هو أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن تومرت، (٤٨٥-٥٢٤هـ=١٠٩٢-١١٣٠م)، أصل دعوة الموحدين ببلاد المغرب والأندلس، ويُلَقَّب بالمهدي ابن تومرت. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ٤٥، وأبو العباس الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٢/ ٧٨، والزركلي: الأعلام ٦/ ٢٢٨-٢٢٩.

(٢) صدام حسين (١٩٣٧-٢٠٠٦م): رئيس جمهورية العراق، قاد حرب الخليج الأولى والثانية ضد إيران والكويت، ألقت القوات الأميركية القبض عليه بعد احتلال العراق، وأُعدم في ٣١ ديسمبر ٢٠٠٦م، والذي وافق أول أيام عيد الأضحى المبارك.



الطريق إلى الهاوية

(فلنحذر من القوس الشيطاني من الجزائر إلى باكستان)

جاك بوميل (Jacques Baumel)

الوزير وعضو البرلمان الفرنسي







الفصل الثانى
الطريق إلى الهاويــــة

مَرَّ بنا في الواقع المعاصر العديد من الأزمات والصراعات الدموية التي راح ضحيتها الملايين من البشر دون ذنب أو جريرة، إلاَّ لأنهم تواجدوا في زمان لا تعترف قواه الكبرى إلَّا بمنطق القوَّة المفرطة، ولا تُعلي أي قيمة قدر إعلائها لمصالحها الذاتية القريبة، وهي لا تتورَّع عن اقتراف أي فعل في سبيل تنحية أي عائق يُعَطِّلها عن بلوغ أهدافها.

لقد مرَّت البشرية في تاريخنا القريب بسلسلة من الحروب الاستعمارية الإجرامية، التي ما زالت آثار ظلمها تترك غُصَّة في حلق أبناء العديد من الدول، ذلك على المستوى الإنساني، أمَّا على أرض الواقع فنرى مظاهر التجبُّر التي تمارسها القوى الكبرى الجديدة، التي ورثت عصر الاستعباد والاستعمار، نرى الهيمنة، والاغترار بالقوة، نرى السطوة الإعلامية الجبَّارة، وكيفية صناعة الأعداء، وتأجيج الصراعات المذهبية والعرقية والحدودية لصالح أساطين تجارة السلاح في العالم..

كذلك نشاهد عمليات بسط النفوذ السياسي، بل والاحتلال العسكري للمناطق الغنية بالمواد الخام ومصادر الطاقة..

وعلى جانب آخر نرى الأزمة المالية العالمية وتداعياتها الضخمة على دول العالم أجمع الغنية منها والفقيرة..

كل ذلك وسط جوٍّ مشحون بمشاعر يملؤها الإحباط واليأس من المستقبل، وبأفكار صدامية تؤصِّل للعنف وتتخذه سبيلاً واحدًا للنجاة..

كما نُقَدِّر الخطر الذي يحيق بالبشرية كلها من جرَّاء إصرار القوى الكبرى «الجديدة» على

انتهاج النهج القبيح نفسه للقوى الغابرة..

وسوف نحاول في هذا الفصل أن نُلقي الضوء على «بعض» مظاهر الظلم والتجبُّر، والانتهاك الصارخ لحقوق الإنسان، وكذلك محاولات ترويضه والسيطرة على عقله بما يخدم مصالح «الكبار»؛ لكننا -أيضًا- نُطلق صيحة تحذير صادقة؛ فنحن نرى البشرية الآن تعيش فوق حمم بركانية مشتعلة، من مشاعر الاحتقان والتوتُّر والرغبة في الانتقام، وقد انفجرت هذه الحمم بالفعل في مناطق متفرِّقَة من عالمنا المعاصر، والبعض الآخر ينتظر الانفجار، لكنه لن يكون انفجارًا بسيطًا يسهل السيطرة عليه هذه المرَّة، بل سيكون انفجارًا كونيًّا ضخمًا، يُعيدنا إلى مآسي الحرب العالمية الأولى والثانية.

إن هذا الفصل يُعد صيحة تحذير نُطلقها للعقلاء.. لكل العقلاء في كل مكان بعالمنا..

***

هناك العديد من الأزمات التي يُعاني منها البشر في أيامنا الحالية، رغم أن مسبِّباتها تعود إلى عشرات بل مئات السنين؛ فيما نُسَمِّيه «ميراث الكراهية»، فما سنتحدَّثُ عنه من معاناة ومرارة يشعر بها الملايين من البشر -دون مبالغة- في العديد من دول العالم تعود أسبابها الحقيقية إلى أطراف أخرى، استخدمت قوَّتها العلمية والعسكرية لا للتعارف والتواصل بل للنهب والسرقة، والتوسُّع على حساب الآخرين!

ولعلَّ ما تُعانيه الآن معظم الدول الإفريقية من جهل وفقر ومرض، خير دليل على هذا الميراث الأسود، الذي خَلَّفته مرحلة الاستعباد والاستعمار من قِبَلِ العالم الغربي «المتقدِّم»، على مدار خمسة قرون متواصلة؛ إذ يعود الأمر إلى ما عرفناه في التاريخ بمرحلة «الكشوف الجغرافية»؛ فكانت الكشوف الجغرافية تعبيرًا عن انطلاق الطاقة الأوربية من سجن البحر المتوسط إلى المياه المحيطية الواسعة، فتمكنت أوربا من الوصول إلى القارة الإفريقية عن طريق جديد غير الطرق التقليدية، التي كانت تبدأ من الساحل الشمالي للقارة على البحر المتوسط، وتتَّجه جنوبًا أو غربًا، وتقف عند خط الاستواء، وكانت وسيلتها الوحيدة في هذا الانتقال هي القوافل والدوابّ، بينما أتاحت الكشوف الجديدة لأوربا طرقًا جديدة، أوصلتها إلى قلب

القارة السمراء من شواطئها غربًا وشرقًا[١].

وقد بدأت البرتغال المحاولات الأوربية لاكتشاف القارة الإفريقية منذ أوائل القرن الخامس عشر[٢]، وكانت هي البادئة في الكشف عن خبايا القارة البِكر لا سيما الثروة الإفريقية من معدن الذهب الخام، وأثناء قيامها بنقل الخام الثمين -المنهوب- إلى البرتغال لإعادة تصنيعه وبيعه بأعلى الأسعار، لفت نظر البحارة البِنْيَة الجسمانية القوية للأفارقة، وتخلُّفهم الشديد عن ركب الحضارة، فتفتَّق ذهنهم الشيطاني عن فكرة بشعة؛ وهي: لماذا لا نقوم باختطاف بعض من هؤلاء الرجال؛ لاستخدامهم في الأعمال الشاقَّة، التي لا يقدر عليها، بل ولا يقبلها أبناء الشعب الأوربي؟! وبهذا بدأت تجارة العبيد الأفارقة في أوربا، ثم مع توسُّع الاكتشافات الجغرافية في الأميركتين واستراليا زادت الحاجة للعبيد، وراجت تجارتهم، وألقت دولٌ أوربية أخرى بثقلِها وراء هذه التجارة، لتبدأ المأساة غير الإنسانية للأفارقة.

ويصف المؤرخ البريطاني الشهير بازيل ديفيدسون[٣] في كتابه الموسوعي «إفريقيا تحت أضواء جديدة» تجارة الرقيق الأوربية، بقوله: «فاقت تجارة الرقيق بعد اكتشاف السواحل الإفريقية أيَّ مدى عرفته هذه التجارة منذ القدم، واتخذت مع الأوربيين معنى جديدًا؛ حيث شرعت السفن الأوربية في نقل الأفارقة من الداخل، ومن الساحل لتُدْمِي الحياة في القارة الإفريقية، وأضحت النخاسة على يد الأوربيين تجارة أشبه ما تكون بالموت الأسود (الطاعون)، الذي اجتاح أوربا فقضى على ثلث سكانها، بل أسوأ؛ لأن النتائج الاجتماعية لتجارة العبيد في قارة إفريقيا كانت أقسى من الموت؛ فالوباء الذي تعرَّض له الأوربيون انتهى وانقضت آثاره، ولكن القهر الذي تعرَّض له الأفارقة والذلُّ الذي عاشوه لم تكن لتنقضي آثارهما، رغم مرور أربعة قرون كاملة على بداية هذه المأساة[٤]».

(١) إلهام محمد علي: التغلغل الفرنسي في النيجر، ص٢.

(٢) شوقي الجمل، وعبد الله عبد الرازق إبراهيم: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ص٢٥.

(٣) بازيل ديفيدسون Basil Risbridger Davidson (١٩١٤-٢٠١٠م): كاتب وناشط وصحفي ومؤرخ بريطاني شهير، مهتم بالشئون الإفريقية، وخاصة في مرحلة ما بعد الاستقلال، من كتبه: (الممالك الإفريقية)، و(إفريقيا في التاريخ).

(٤) بازيل ديفيدسون: إفريقيا تحت أضواء جديدة، ص١٩٣-١٩٥.



وفي الفترة من ١٦٤٠-١٧٥٠م اشتدَّت المنافسة على تجارة الرقيق وأسَّس الأوربيون عددًا كبيرًا من الحصون العسكرية والمراكز التجارية على شواطئ إفريقيا لتغطية الطلب المتزايد على العبيد الأفارقة، وكان اكتشاف أميركا وتعميرها من أكبر المحفِّزات لدى الأوربيين لاستعباد الأفارقة؛ إذ ظهر أن الإفريقي أكثر قوَّة ومقاومة وقدرة على تحمُّل العمل الشاقِّ، وتحمُّل الظروف المناخية المتشابهة بين أميركا الوسطى والجنوبية والقارة الإفريقية، وكانت الأرض الجديدة المكتشفة تحتاج آلافًا مؤلفة من العمالة؛ لاستغلال ثرواتها البكر من المناجم والمزارع وقطعان الماشية[1].

كما أنه بمرور الوقت تكشَّفَتْ لدى المستوطنين الجدد في غالب الأراضي المكتشفة صعوبة السيطرة على العمال البيض أو الهنود الحمر -السكان الأصليين- وقهرهم على العمل الشاقِّ في المزارع والمناجم، فتحوَّلُوا برغبة جامحة إلى استرقاق الزنوج المختطفين من إفريقيا.

وهنا لا يمكننا أن نُبَرِّئ أحدًا من الدول الأوربية الكبرى في ذلك الوقت؛ إذ تبارت كل الدول الاستعمارية وفي مقدمتهم البرتغال ثم الإسبان والهولنديون والإنجليز والفرنسيون في الاشتراك في هذه التجارة الدنيئة، التي باركتها الكنائس الأوربية[2]!

كما يمكننا القول: إن العبودية وأرباح تجارة العبيد، كانت الدِّعَامة التي قامت عليها الرأسمالية الأوربية الحديثة؛ فحيثما وُجدت مستعمرات جديدة وُجد العبيد الأفارقة، وكانوا يُسَمَّوْن «العاج الأسود»، وكانوا مصاحبين للغزاة البيض في حملاتهم التوسُّعية في المكسيك وبيرو.. وغيرهما من دول القارة المكتشفة الجديدة؛ ففي الأرجنتين بلغ عدد العبيد الأفارقة ربع السكان، وكذلك تمَّ بيعهم بكثرة في المناطق الشمالية من القارة الأميركية، لكن القسم الأساسي من العبيد الزنوج كان موجودًا في المناطق الاستوائية، وما يُحيط بها في أميركا الوسطى، وجزر الهند الغربية، وبلاد الكاريبي، والبرازيل، والأجزاء الجنوبية من الولايات الأميركية[3].

(١) عايدة العزب موسى: تجارة العبيد في إفريقيا، ص٣١، ١٨٥.

(٢) William Z. Foster, Out Line Political History of Amricans, International Publishers, New York, 1951, P. 71-75.

(٣) عايدة العزب موسى: تجارة العبيد في إفريقيا، ص٣٦، ٣٧.

انتشر العبيد الأفارقة في مزارع السكر والتبغ والقطن، وغيرها من المزارع الناشئة، وفَضَّلهم المُلَّاك لقوَّة بِنْيَتِهم وتحمُّلهم العمل في درجات الحرارة المرتفعة في المزارع الواسعة، ومقاومة أجسامهم للأمراض والأوبئة؛ ونتيجة لذلك كان سعرهم يفوق كثيرًا سعر العبيد من الهنود الحمر، وعلى سبيل المثال ففي الوقت الذي كان العبد الزنجيُّ يُقَدَّر ثمنه بـ ٧٥ دولارًا كان العبد الهندي يُشترى بحوالي ٥ دولارات[١].

وقد بلغت تجارة العبيد الأوربية عبر المحيط الأطلسي مداها في القرن الثامن عشر، ويُقَدَّر عدد العبيد المختطفين من القارة الإفريقية، الذين وصلوا أحياء ما بين ٣٠-٤٠ مليون إفريقي، وذلك دون حساب مَنْ هلكوا أثناء عمليات الإغارة بهدف الخطف والقنص، ودون حساب مَنْ قضوا بسبب أهوال رحلة السفر؛ حيث كان صائدو الأفارقة يُقَيِّدونهم بالسلاسل بعضهم ببعض، ويسيرون بهم مئات الأميال، ويدمغونهم بالأختام المحماة مثل الماشية باسم مالكهم من التجَّار، ويُكَدِّسُونهم داخل السفينة بصورة وحشية، وبما لا يدع لأحدهم مجالاً للحركة طوال فترة الرحلة[٢].

ويصف أحد الكُتَّاب ما رآه في إحدى سفن القرصنة، التي تُتاجر في العبيد الأفارقة، والتي وصلت إلى أحد الموانئ الأميركية في عام ١٨٢١م قائلاً: «إن المساحة التي كانت تُعطى للرجل الواحد ضيقة جدًّا؛ لدرجة أن أرجل الأفارقة كانت تتداخل بعضها في بعض، ولم تكن لأحدهم أية إمكانية لكي يرقد، أو يُغير وضعه ليلاً أو نهارًا، إلى أن تُنهي السفينة رحلتها»[٣].

إن الانحطاط الإنساني في سعيه وراء الربح لم يُغْرِق إلى هذه الأعماق المتدنِّية، بمثل ما حدث للإنسان الأوربي عندما جار على كافَّة حقوق الإنسان الإفريقي، وتَاجَرَ به كسلعة تُباع وتُشترى.

---

(١) عايدة العزب موسى: تجارة العبيد في إفريقيا، ص٣٧، ٣٨.

(٢) المرجع السابق ص٣٨، ١٨٦.

(٣) Out Line Political History of Amricans, William Z. Foster, International Publishers, New York, 1951, P.79.

وفي عام ١٧٩١م كانت هولندا تمتلك ١٥ زريبة من زرائب[١] الأوربيين على شواطئ إفريقيا، بينما كانت ١٤ تابعة لبريطانيا، و٤ للبرتغال، و٤ للدنمارك، و٣ لفرنسا[٢].

ويعكس ضخامة هذه التجارة الآثمة أنه في عشية حرب الاستقلال الأميركية عام ١٨٦٠م كان عدد السفن المحمَّلة بالأفارقة المختطفين من مواني غرب إفريقيا ١٩٢ سفينة[٣]! **(انظر: صورة رقم ٤ إعلان عن مزاد لبيع عبيد بالولايات المتحدة الأميركية).**

ويصف بعض المؤرِّخين الحالة التي كان يعيشها العبيد في أميركا اللاتينية -بعد وصولهم وبيعهم في الأسواق كعبيد- بقولهم: «تم وضع قوانين التعامل مع العبيد على أساس أنهم ممتلكات وليسوا آدميين؛ ففي الولايات المتحدة الأميركية كانت عقوبة الجلد تُفرض على كل أسود يملك بندقية، أو يشتري حصانًا، أو يتنزَّه، أو يمشي في جنازة، وكان ممنوعًا على العبيد تعلُّم القراءة والكتابة»[٤]!

ولم تكتفِ دول أوربا الاستعمارية بما قامت به في القارة الإفريقية من نهب ثرواتها، واستعباد أبنائها، فقرَّرت أن تستولي عليها وتضمَّها بالكامل إلى ممتلكاتها! فحتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم تكن هناك دوافع قويَّة تُحرِّك السياسة الأوربية نحو الاستعمار العسكري، بمعنى الاحتلال الكامل للقارة الإفريقية، ما دام أن أهدافهم التجارية تتحقَّق من الاستيلاء على ما يحتاجون من المواد الخام و«العبيد»؛ فإلى عام ١٨١٥م كانت الدول الأوربية تكتفي بالسيطرة على المناطق الساحلية من القارة الإفريقية، كمناطق ارتكاز لتسيير حركة النهب «التجارة».

وبالطبع ليست كل المناطق على الساحل الإفريقي متساوية في القيمة؛ فهناك أماكن متميزة؛ مثل منطقة طنجة المغربية، التي تتحكَّم في المدخل الغربي للبحر المتوسط، وهناك مصر وموقعها المهم المُطلُّ على البحرين المتوسط والأحمر، والتي بافتتاحها لقناة السويس عام

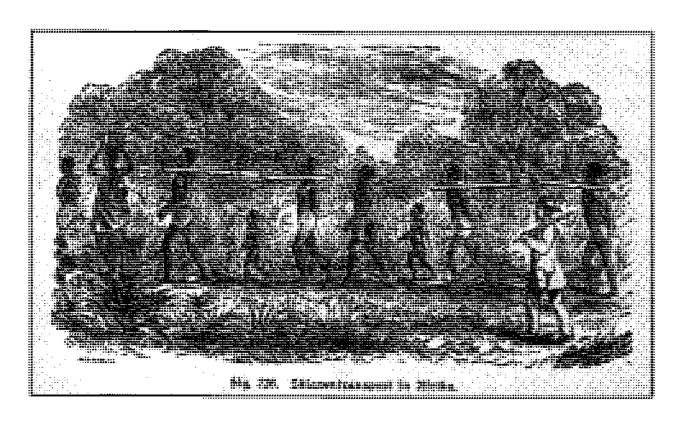
---

(١) الزرائب: جمع زريبة، وهي المكان الذي كان يُجمع فيه الأفارقة حتى يتم نقلهم إلى السفن، وكانوا يطلقون عليه أحيانًا لفظ الورشة.

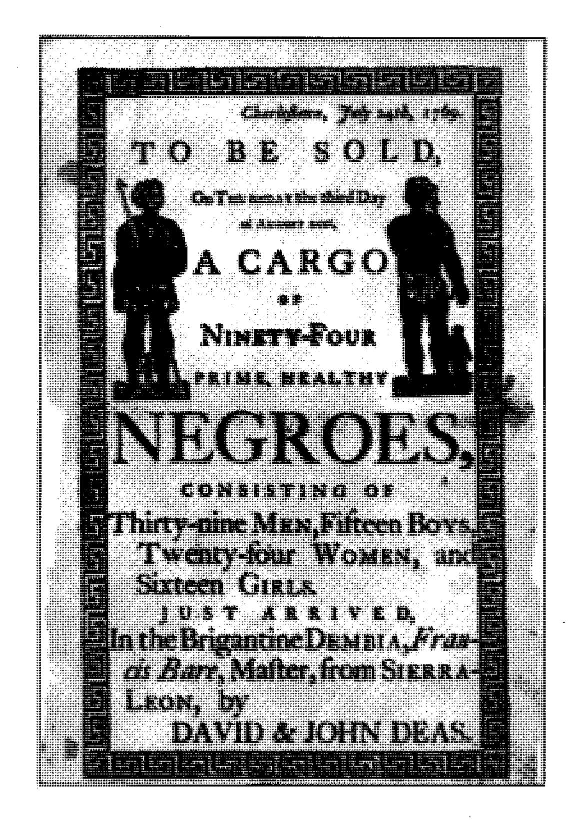
(٢) محمد إبراهيم نقد: علاقات الرق في المجتمع السوداني- النشأة-السمات-الاضمحلال، ص٦٨.

(٣) عايدة العزب موسى: تجارة العبيد في إفريقيا، ص١٨٦.

(٤) المرجع السابق ص٤٤.



أفارقة في طريقهم لسفينة الشحن



إعلان عن مزاد لبيع عبيد أفارقة في ولاية ساوث كارولاينا الأمريكية عام ١٧٦٩م

صورة رقم (٤)





١٨٦٩م فتحت شهية الدول الاستعمارية للاستيلاء عليها، والتحكُّم في هذه المنطقة الاستراتيجية، وكذلك الجزائر المُطلَّة على البحر المتوسط في مواجهة سواحل فرنسا الجنوبية، وقد أدَّى هذا التمايز إلى التطاحن بين الدول الأوربية؛ للإسراع باستعمارها العسكري لضمان السيطرة الكاملة عليها[(١)].

وما أن وَطِئَت أقدام المستعمرين الأوربيين إفريقيا حتى بدءوا في استغلال موارد القارة واستنزافها خالصة لأوربا، وصبُّوا وابل الطغيان الشديد والقهر على الأفارقة، الذين كان لهم النصيب الأكبر في تذوُّق أبشع ألوان الظلم والذلِّ الإنساني، الذي عرفته البشرية حتى الآن[(٢)].

فلقد وقعت إفريقيا بأكملها تحت الاحتلال الأوربي الغاشم، وكان لبريطانيا وفرنسا وألمانيا نصيب الأسد من هذه العملية الإجرامية، التي لا تَمُتُّ للإنسانية بصلة؛ فكان حجم المساحة التي اغتصبتها بريطانيا من الأراضي الإفريقية ٣,٢٥ مليون ميل مربع[(٣)]، ويعيش عليها ٤٦ مليون نسمة من السكان الأفارقة، و٤ ملايين ميل لفرنسا، وحوالي ٥٠ مليونًا من السكان، ومليون ميل واحد لألمانيا، و١٥ مليون نسمة من السكان[(٤)].

وقام المستعمر الأوربي بمصادرة أخصب الأراضي الإفريقية وأغناها، وطرد منها سكانها الأصليين، الذين لجأوا إلى الغابات والجهات الفقيرة، واتخذوها مأوى لهم، وفي الوقت نفسه شجَّع الاستعمار مواطنيه على الهجرة إلى إفريقيا، وأقطعهم هذه الأراضي وسخَّر لهم البلاد.

كما يُعَدُّ الاستعمار الأوربي السبب الرئيس لمشكلة الجوع التي تُعَاني منها القارة السمراء في واقعنا المعاصر؛ حيث جعل المستعمر كل دولة إفريقية تعتمد على إنتاج سلعة واحدة، أو سلعتين، أو ثلاث سلع على أكثر تقدير، ويعرض **الجدول رقم (١)** [(٥)] لعدد من الدول الإفريقية التي عندما انزاح عنها الاستعمار الأوربي ونالت استقلالها، كان اقتصادها يعتمد على إنتاج وتصدير سلعة واحدة فقط.

---

(١) شوقي الجمل، وعبد الله عبد الرازق إبراهيم: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ص٦٧.
(٢) الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي ٢/ ٣٦٠.
(٣) الميل يساوي ١,٦ كيلو متر.
(٤) إلهام محمد علي: التغلغل الفرنسي في النيجر، ص٧.
(٥) جمال عبد الهادي، وعلي لبن: المجتمع الإسلامي الإفريقي المعاصر، ص٥.

م	أقطار تعتمد على تصدير محصول واحد	النسبة المئوية من قيمة صادراتها	نوع السلعة المصدرة
١	ليبيا	٩٩٫٨٠%	بترول
٢	جامبيا	٩٧%	فول سوداني
٣	زامبيا	٩٣%	نحاس
٤	تشاد	٨٣%	قطن
٥	السنغال	٧٨%	بذور زيتية
٦	النيجر	٧٥%	بذور زيتية
٧	ليبريا	٦٩%	خامات الحديد
٨	الجزائر	٦٩%	بترول
٩	غانا	٦٩%	كاكاو

الدول الإفريقية التي يعتمد اقتصادها على سلعة واحدة وكانت تحت الاستعمار

جدول رقم (١)

ولا ريب أن هذا التاريخ المؤلم من الحروب والاحتلال والاستعباد يُعَدُّ سببًا رئيسًا لما نعانيه في واقعنا المعاصر من فقدان مشاعر الثقة بين الشعوب؛ إذ كيف يتسنَّى لشعب عانى من مرارة الاحتلال لمدَّة قرن أو قرنين من الزمان أن يثق يومًا في الدولة التي كانت تحتله، وتنهب ثرواته، بل وتقوم باستعباده، فبالتأكيد ستنظر الشعوب التي ذاقت مرارة الاحتلال بعين الريبة إلى أي مبادرة تأتيها عن طريق المحتلّ القديم، رغم مرور عشرات السنين على استقلالها، وبما يُنذر بصراعات جديدة في المستقبل القريب.

***

بعدما تحدَّثنا عن الميراث البغيض من الكراهية الذي ورثته البشرية من حقبة الاستعباد والاستعمار، نودُّ أن نلفت الانتباه إلى أن هذه الصفحة من تاريخ العالم لم تُطْوَ حتى الآن؛ إذ إنه وبنظرة متأنِّية إلى دول العالم في واقعنا المعاصر، سنجد الكثير من الدول والمناطق في مختلف أنحاء المعمورة ما زالت ترزخ تحت الاحتلال العسكري!

ولعلَّ ذلك يُفَسِّر لنا هذه الحالة من الاحتقان الشديد والتوتُّر الدائم في عالمنا المعاصر، فلا تفتأ تنتهي أزمة حتى تندلع وراءها أزمات، ولا نكاد نُطفئ حريقًا حتى تشتعل بدلاً منه حرائق، ومن الواضح أن هذه المناطق المشتعلة، التي ما زالت تئن من مرارة الاستعمار، لن تهدأ إلاَّ بِنَيْلِ حريتها.

وتأتي فلسطين في مقدمة هذه المناطق الساخنة؛ فقد أعلن الصهاينة تأسيس وطن قومي خاص باليهود على الأراضي الفلسطينية في ١٤ مايو ١٩٤٨م، فور انتهاء الانتداب البريطاني، وانسحاب القوات البريطانية من فلسطين، ومن هذا التاريخ وحتى يومنا هذا لم يتوقَّف الصراع في هذه المنطقة، التي تُعَدُّ من أسخن البؤر اشتعالاً في العالم؛ ففور الإعلان الصهيوني قامت حرب بين الفلسطينيين وجيرانهم العرب من جهة، وبين الصهاينة وأصدقائهم من الدول الاستعمارية الكبرى من جهة أخرى.

ورغم أن الصهاينة كسبوا هذه المعركة إلاَّ أنَّ الحرب لم تنتهِ، فتبعتها حرب ١٩٥٦م بتحالف صهيوني مع بريطانيا وفرنسا ضد مصر، ثم حرب ١٩٦٧م التي احتلَّت دولة الكيان

الصهيوني فيها كامل الأراضي الفلسطينية، وهضبة الجولان السورية وصحراء سيناء المصرية[١].

وقد استطاعت مصر بالتعاون مع سوريا، وبتحالف عربي الانتصار على الكيان الصهيوني في حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م، لكنها اكتفت بتحرير جزء من سيناء، ولم تُكمل الحرب لتحرير كامل الأراضي المصرية، مُفَضِّلَةَ الدخول في مفاوضات سلمية مع العدوِّ الصهيوني.

وطوال هذه الفترة لم تتوقَّف العمليات الفدائية الفلسطينية؛ الهادفة إلى تحرير كامل أراضيهم، وفي عام ١٩٨٧م تَفَجَّرَت في الأراضي الفلسطينية انتفاضة شعبية عارمة ضد الاحتلال الصهيوني، سُمِّيت انتفاضة الحجارة، واستمرَّت إلى عام ١٩٩٣م عندما عقد بعض الفلسطينيين اتفاقًا مع المحتل؛ يقضي بالاعتراف بدولته المغتصبة نظير سماحه لأصحاب الأرض الأصليين في العيش على جزء منها! ثم انطلقت الانتفاضة الثانية في عام ٢٠٠٠م، وسُمِّيَت انتفاضة الأقصى، واستمرَّت حتى عام ٢٠٠٥م[٢].

وأخيرًا في ديسمبر ٢٠٠٨م قامت القوات الصهيونية بإعلان الحرب على قطاع غزة -المحرر- الواقع تحت سيطرة أول حكومة فلسطينية منتخبة -منذ بدء الاحتلال الصهيوني- بقيادة حركة حماس[٣]، وتُعتبر هذه الحرب أكبر مذبحة يتمُّ ارتكابها من قِبَلِ الجيش الصهيوني ضد الفلسطينيين منذ حرب ١٩٦٧م؛ إذ استمرَّت ٢٢ يومًا، وخلَّفَت ١٣٣٠ شهيدًا فلسطينيًّا، من بينهم ٣٨٢ طفلاً و٩٧ امرأة، إضافة إلى ٥٤٠٠ جريح[٤].

إذًا رغم مرور أكثر من ستين عامًا على الاحتلال الصهيوني لفلسطين، يمكننا القول أن هذا الاحتقان الدائم لن يتوقَّف.

---

(١) انظر: مصطفى محمد الطحان: فلسطين والمؤامرة الكبرى، المركز العالمي للكتاب الإسلامي، الكويت، ط١، ١٩٩٤م.

(٢) للمزيد انظر: محسن محمد صالح: دراسات منهجية في القضية الفلسطينية، مركز الإعلام العربي، مصر، ط١، ٢٠٠٣م.

(٣) أحمد فهمي: لماذا يكرهون حماس؟ ص٥٩.

(٤) تقرير مؤسسة التضامن الدولي لحقوق الإنسان، الجزيرة نت، ٣ فبراير ٢٠٠٩م، على الرابط: www.aljazeera.net/News/archive/archive?ArchiveId=1168558

وكذلك الأمر بالنسبة لهضبة الجولان السورية التي احتلَّتها دولة الكيان الصهيوني منذ عام ١٩٦٧م، ولم تنسحب منها حتى يومنا هذا؛ مما يُشَكِّل أزمة دائمة بين سوريا صاحبة الحقِّ ودولة الكيان الصهيوني، وبما يُهَدِّد على الدوام بإمكانية اشتعال حرب جديدة بينهما في أي وقت[١].

وعلى جانب آخر تأتي مشكلة ولاية جامو وكشمير الواقعة في شمال الهند، ولها حدود مشتركة مع باكستان وأفغانستان والصين[٢]، وكانت ولاية جامو وكشمير تضمُّ أغلبية مسلمة وأقلية هندوسية، حتى استولت الهند على النصيب الأكبر من أرض الولاية، فأصبح الهندوس أغلبية تُؤَيِّد الانضمام للهند، وصار المسلمون أقلية تُريد الانضمام لباكستان؛ لتدخل هذه المنطقة من العالم في صراع بدأ مع استقلال الهند وباكستان عام ١٩٤٧م، ولم ينتهِ إلى يومنا هذا[٣].

وقد حدثت ثلاث حروب عسكرية بين الهند وباكستان على هذه المنطقة في عام ١٩٤٧م، و١٩٦٥م، وفي عام ١٩٧١م، وتسبَّبت في سباق تَسَلُّح محموم بين الدولتين، وصل إلى استحواذهما على السلاح النووي[٤]، وما زالت مشكلة إقليم جامو وكشمير قابلة للاشتعال في أية لحظة.

نذكر -أيضًا- حالة الاحتقان في منطقة الصحراء الغربية الواقعة في شمال غرب إفريقيا، وتحدُّها الجزائر من الشرق وموريتانيا من الجنوب، وهي -بحسب الأمم المتحدة- أرض متنازَع عليها بين المغرب وجبهة البوليساريو[٥]، يُسيطر المغرب على ٨٠٪ منها، ويقوم بإدارتها بصفتها من الأقاليم الجنوبية، بينما تُشَكِّل المنطقة العازلة بين المغرب وموريتانيا ٢٠٪ من مساحة الصحراء.

وقد بدأت مشكلة الصحراء الغربية قبل انسحاب الاحتلال الإسباني منها عام ١٩٧٥م؛

---

(١) ناريمان درويش: المشكلات السياسية المعاصرة، ص٢٠٢.
(٢) صفاء محمد صبره: إقليم جامو وكشمير، ص ١٧.
(٣) للمزيد انظر: محمد السيد سليم ومحمد سعد أبو عامود: قضية كشمير، مركز الدراسات الآسيوية، جامعة القاهرة، ٢٠٠٢م.
(٤) صفاء محمد صبره: إقليم جامو وكشمير، ص ٢٣-٢٨.
(٥) الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب المعروفة باسم البوليساريو (بالإسبانية: Polisario) هي حركة تسعى إلى انفصال الصحراء الغربية عن المغرب وتأسيس الجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية. تأسست في ١٠ مايو ١٩٧٣، وكلمة البوليساريو هي المختصر الإسباني المكون من الحروف الأولى لاسم «الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب» والذي يظهر من خلال الاختصار الإسباني للاسم: Frente Popular de Liberación de Saguía el Hamra y Río de Oro.

إذ طالب المغرب باسترجاع الصحراء الغربية من الاحتلال الإسباني؛ لأنها جزء من أراضيه، بينما دعت جبهة البوليساريو إلى إقامة دولة منفصلة في منطقة الصحراء الغربية (الجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية)، وذلك بدعم وتأييد من الجزائر، وتطوَّر الأمر إلى الصراع العسكري بين أفراد البوليساريو والمغرب حتى سنة ١٩٨٨م (مدَّة ١٣ سنة)، حتى تمَّت موافقة الطرفين على الجلوس للتفاوض السلمي في الموضوع، لكن حتى يومنا هذا لم يتم التوصل إلى تسوية نهائية تُنهي هذا الصراع بشكل كامل[1].

ولا يختلف الأمر كثيرًا في منطقة شمال القوقاز، التي تقع ضمن حدود روسيا الاتحادية، وتُعَدُّ بمثابة منطقة حدودية بين آسيا وأوربا، وتضمُّ كلاًّ من جمهوريات: داغستان وإنجوشيا والشيشان وأبخازيا وكاباردينو وبالكاريا وشركيسيا، بالإضافة إلى شمال أوسيتيا وجنوبها المنفصلين عن جورجيا في ٢٠٠٨م.

وتُعَدُّ تلك المنطقة المتعدِّدَة الأعراق والقوميات، إحدى أهم المناطق الاستراتيجية للأمن القومي الروسي، خاصة أنها تتميز بموقع يُؤَمِّن لروسيا الإطلال على كلٍّ من بحر قزوين والبحر الأسود، إضافة إلى قربها من طرق إمدادات النفط والغاز القادمة من آسيا الوسطى ومنطقة بحر قزوين، باتجاه تركيا وأوربا، وهو ما يُمَثِّل السبب الرئيسي لما يدور من صراعات تاريخية في تلك المنطقة،؛ فالروس يَسْعَوْنَ للسيطرة والتحكُّم بمصادر الغاز، وطُرق إمدادها لأوربا، ولم تنعم تلك المنطقة طوال تاريخها بأي شكل من أنواع الاستقرار الدائم[2].

وفي نهاية ثمانينيات وأوائل تسعينيات القرن الماضي عادت المنطقة بقوَّة إلى أشدِّ مراحل الصراع في تاريخها، وبالتحديد في منطقة الشيشان، التي طالبت بالاستقلال عن روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، ورفضت روسيا الاعتراف باستقلال الشيشان، ونشبت بين الروس وبين الشيشان بقيادة الجنرال جوهر دوداييف[3] حرب شديدة في عام ١٩٩٤م، وتلتها حرب

(١) للمزيد انظر: راغب السرجاني: بين التاريخ والواقع، ٣/ ١٣٥-١٦٦.
(٢) صحيفة الأهرام المصرية، ٥ يوليو ٢٠١٠م، العدد (٤٥١٣٦).
(٣) جوهر دوداييف (١٩٤٤-١٩٩٦م): رجل دولة وسياسة، وهو أول رئيس لجمهورية الشيشان، قاد حركة الجهاد الشيشاني منذ ١٩٩١م ضد الروس، حتى تم اغتياله في ٢١ أبريل ١٩٩٦م.

أخرى في عام ١٩٩٩م[١]، ولم تستطع الشيشان الحصول على استقلالها الكامل حتى الآن، وبالرغم من توقيع عدَّة اتفاقيات لوقف إطلاق النار، إلاَّ أن وتيرة العنف والمواجهات لم تهدأ بشكل نهائي.

نذكر أيضًا منطقة أوسيتيا الجنوبية الواقعة وسط جورجيا من ناحية الشمال، وحدودها محاذية لجمهورية أوسيتيا الشمالية، وقد قامت روسيا بالاستيلاء على أوسيتيا كاملة عام ١٨٧٨م، ثم قسَّمتها بعد الثورة البلشفية إلى كيانين، أُلحق الشمالي بالاتحاد الروسي والجنوبي بجورجيا[٢].

وبعدما انهار الاتحاد السوفيتي حالت جورجيا دون توحُّد أوسيتيا الجنوبية والشمالية، ومع بداية التسعينيات أعلنت أوسيتيا الجنوبية نيتها إعلان المنطقة تابعة للنفوذ الروسي، وهو ما اعترض عليه البرلمان الجورجي، لتبدأ المواجهات بين الانفصاليين في أوسيتيا والشرطة الجورجية.

وفي ٨ أغسطس ٢٠٠٨م قامت جورجيا بهجوم عسكري على مقاطعتي جنوب أوسيتيا وأبخازيا؛ ومن ثَمَّ ردَّت القوات الروسية بهجوم مضادٍّ سريع على جورجيا نفسها[٣]، لتدخل المنطقة في حلقة جديدة من التوترات، والتي لم تكن إلاَّ بداية مرحلة جديدة من الصراع في تلك المنطقة، ولكن هذه المرَّة كانت الولايات المتحدة الأميركية -حليفة جورجيا- طرفًا مهمًّا في إشعال الصراع بتلك المنطقة حتى ولو كان بشكل غير مباشر في محاولة أميركية للوجود بقوة في إحدى أهم مناطق النفوذ الروسي[٤].

ونختم هذه الأمثلة بتركستان الشرقية، التي احتلَّتها الصين الشيوعية في عام ١٩٤٩م، وأطلقوا عليها إقليم سينكيانج[٥]، وقد استخدمت الصين جميع وسائل القمع لإسكات أبناء

---

(١) للمزيد انظر: محمود عبد الرحمن: تاريخ القوقاز- نسور الشيشان في مواجهة الدب الروسي، دار النفائس، ط١، ١٩٩٩م.

(٢) الأطلس الآسيوي: مركز الدراسات الآسيوية، ص٢٤٥.

(٣) صحيفة الشرق الأوسط اللندنية، ٩ أغسطس ٢٠٠٨م، العدد (١٠٨٤٧).

(٤) محمود مكاوي: شمال القوقاز.. وصراعاته، صحيفة الأهرام المصرية، ٤ يوليو ٢٠١٠م، العدد (٤٥١٣٥).

(٥) عبد القادر طاش: تركستان المسلمة وأهلها المنسيون، ص ٧٨.

تركستان عن المطالبة بالاستقلال، وخاصة مع أوائل التسعينيات، وذلك عندما تحرَّرت الجمهوريات الإسلامية في جنوب الاتحاد السوفيتي، وبدأت تظهر دعوات «حقّ تقرير المصير» في التركستان الشرقية.

ورغم هذا الكبت والاضطهاد فقد استمرَّت مطالبات المسلمين، التي تعمل الصينُ على إخفاء أنبائها عن العالم، وتظهر من فترة إلى أخرى على هيئة مصادمات بين المسلمين في الإقليم وبين العرقيات الأخرى، التي تعمل الحكومة الصينية على توطينها في تركستان الشرقية لتغيير التركيبة السكانية؛ مثل الصدامات العنيفة التي حدثت في يوليو عام ٢٠٠٩م، وراح ضحيتها ١٥٦ شخصًا على الأقل، وجُرح أكثر من ٨٠٠ شخص، وما زال الوضع مرشَّحًا للانفجار في أي لحظة، حتى يتمَّ حلُّ هذه الأزمة بشكل عادل ونهائي[١].

وإلى جانب ما ذكرناه عن بعض الأماكن التي ما زالت ترزح تحت الاحتلال العسكري، نُريد أن نلفت الأنظار إلى وجود الكثير من دول العالم «الكبرى» الآن، وهي في واقع الأمر محتلة عسكريًّا؛ مثل اليابان وألمانيا وكوريا الجنوبية وإيطاليا!!

ففي ألمانيا توجد قاعدة رامشتاين (Ramstein) الجوية الأميركية، التي تُعَدُّ مقرَّ القوات الجوية الأميركية في القارة الأوربية[٢]! (**انظر: صورة رقم ٥ قاعدة رامشتاين العسكرية الأميركية في ألمانيا**)، وقد شاهدتُ بنفسي[٣] مدى عِظم القواعد الأميركية الموجودة على الأراضي الألمانية، وكذلك الإيطالية، ولفت نظري ضيق الشعب الألماني - المحافظ بطبعه- من عربدة الجنود التابعين للقوات الأميركية في شوارع ألمانيا، رغمًا عن الجميع بمن فيهم الشرطة الألمانية نفسها!

---

(١) للمزيد انظر: راغب السرجاني: بين التاريخ والواقع، ٤/ ٩٢-٩٥.

(٢) الموقع الرسمي لقاعدة رامشتاين على الإنترنت، على الرابط: www.ramstein.af.mil.

(٣) قام الكاتب بإلقاء العديد من المحاضرات عن الحضارة الإسلامية في ألمانيا وإيطاليا.



قاعدة رامشتاين العسكرية الأميركية في ألمانيا

صورة رقم (٥)

وهذه المعاناة نفسها يشعر بها المجتمع الياباني، ونذكر هنا الاحتجاج الذي قام به سكان جزيرة أوكيناوا اليابانية في مايو ٢٠١٠م، عندما سئموا من تواجد إحدى القواعد الأميركية على جزيرتهم، ووعدتهم الحكومة اليابانية بحلِّ المسألة، ولكنها لم تستطع القيام بشيء؛ إذ رفض «الحليف» الأميركي نقل القاعدة، وعادت الحكومة اليابانية إلى أهل الجزيرة تجرُّ أذيال خيبتها(١).

***

وعلينا أن ننتبه إلى أن الاحتلال أو الاستعمار لا يقتصر على شكله العسكري فقط، بل يتعدَّاه إلى أشكال وأنواع أخرى؛ منها: الاستعمار السياسي، والاقتصادي، والثقافي، وهذا يؤدي إلى إحساس متراكم بالقهر والظلم وانعدام الحرية..

فالاستعمار السياسي لا يتطلَّب قيام دولة ببسط سلطانها ونفوذها على مناطق أخرى من العالم؛ بهدف إخضاعها بصورة مباشرة، بل تكون العلاقة في هذا النوع من الاستعمار مجرَّد علاقة غير متكافئة بين دولتين؛ تكون إحداهما دولة قوية قادرة على التأثير على سياسات وقرارات الدولة الأخرى، بحسب ما تقتضيه مصالح الدولة القوية، والأمثلة على هذا النوع من الاستعمار كثيرة في عالمنا المعاصر، ولعلَّ أبرزها ما نُشاهده من هيمنة وسيطرة أميركية على تَوَجُّهَات القرارات السياسية والاقتصادية المهمة في العديد من الدول.

ولقد حدث الغزو الأميركي للعراق، ولم يستطع أحد من حكَّام الدول «الصديقة» أن يعترض، رغم الإجماع الشعبي منقطع النظير في هذه الدول على رفض هذا الاحتلال.

الأمر نفسه تكرَّر في الحرب الصهيونية على جنوب لبنان في يوليو ٢٠٠٦م، ثم على قطاع غزة في ديسمبر ٢٠٠٨م- يناير ٢٠٠٩م، ولم يستطع أحد حكام الدول «الصديقة» أن يعترض، ونقصد بالاعتراض اتخاذ مواقف وقرارات قوية، توازي الصلاحيات التي يملكها الحكام، لا مجرَّد الاكتفاء بالشجب والإدانة(٢).

---

(١) هيئة الإذاعة البريطانية، ٢٣ مايو ٢٠١٠م، على الرابط: www.bbc.co.uk.

(٢) محمد جمال عرفة: مقال بعنوان «عام على حرب غزة.. موات عربي وتواطؤ غربي»، شبكة إسلام أون لاين، ٢ يناير ٢٠١٠م، www.islamonline.net.

ولا يخفى علينا حالة الحنق والسخط والاحتقان التي تنتاب الشعوب في البلاد الواقعة تحت «الاحتلال» السياسي، بما يُرَشِّح هذه الدول «التابعة» لأن تكون مسرحًا لأعمال عنف واضطرابات داخلية ضد هذه الحكومات، التي لا تُلَبِّي طموحات شعوبها.

كذلك يُعَدُّ **الاستعمار الاقتصادي** شكلاً آخر من أشكال الاستعمار الحديث؛ ويكون بإبرام اتفاقيات غير متكافئة بين دولتين، يتمُّ بموجبها احتكار الطرف القوي لامتيازات استغلال الثروات الطبيعية للطرف الآخر الضعيف؛ ونجد هذا النوع من الاستعمار في العديد من مناطق العالم الثالث، التي حصلت على استقلالها في خمسينيات القرن الماضي؛ حيث زادت حدَّة التنافس بين الدول الكبرى الجديدة، الولايات المتحدة الأميركية والدول الأوربية والصين وروسيا، والقوى الاقتصادية الحديثة؛ مثل اليابان، لربط اقتصادها باقتصاديات الدول النامية المستقلَّة حديثًا، وتقييدها بالديون الخارجية والاستثمارات وغير ذلك، وتسعى هذه القوى، وخاصة الولايات المتحدة الأميركية، إلى الحصول على أكبر عدد ممكن من مناطق النفوذ في العالم؛ بهدف تأمين المصادر الأولية التي يمتلكها العالم الثالث، وتأمين الأسواق لمنتجاتها الصناعية[(١)].

وبالطبع يُقَابَل «الاحتلال» الاقتصادي بموجة عارمة من الغضب الشعبي الرافض للتبعية، والمنادي بحقِّه في الانتفاع الكامل بموارده؛ بما يُوَلِّد حالة من الاحتقان الدائم، ولعلَّ أحدث الأدلَّة على استمرار هذا النوع من الاحتلال في واقعنا المعاصر، وما يستتبعه من اضطرابات، قيام مئات الأشخاص بالتظاهر في العاصمة الفرنسية باريس، في ١٣ يوليو ٢٠١٠م، رافعين لافتات تُطَالب فرنسا بإنهاء علاقات التبعية التي تربطها بمستعمراتها السابقة في إفريقيا، على إثر دعوة الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي[(٢)] لقادة ١٣ بلدًا إفريقيا للمشاركة في احتفال فرنسا بعيدها الوطني، وهذا ما عدَّه المتظاهرون «تأكيد ولاء» تلك البلدان لباريس.

---

(١) حسن حمدان العلكيم: قضايا إسلامية معاصرة، ص١٢.

(٢) نيكولا ساركوزي Nicolas Sarkozy (١٩٥٥م- ...): الرئيس الحالي للجمهورية الفرنسية، وهو من أصول مجرية يهودية، وهو يرأس حزب الاتحاد من أجل حركة شعبية (UMP).



وقد دعت للمسيرة ٨٠ منظمة مدنية فرنسية وإفريقية، وردَّد المحتجُّون عبر مكبرات الصوت هتافات تُنَدِّد بـ«الاستعمار الجديد» الذي تمارسه فرنسا في البلدان الإفريقية، التي كانت تخضع لحكمها المباشر، وبتواطُؤ الحكومات الفرنسية المتعاقبة منذ ١٩٥٨م -أي ما يزيد على خمسين عامًا- مع الأنظمة الاستبدادية والانقلابية في القارة الإفريقية، واعتبروا أن ذلك النهج السياسي أدَّى إلى «نهب موارد البلدان الإفريقية من كبريات الشركات الفرنسية والحكام المحليين الفاسدين، وإبقاء الأغلبية الكاسحة من سكان تلك البلدان في حالة من الفقر المدقع والجهل المطبق»[1].

وإلى جانب الاحتلال السياسي والاقتصادي يأتي «**الاحتلال الثقافي**»، وفي هذا النمط الاستعماري تُحاول الدولة القوية احتلال عقول أبناء الدولة الضعيفة؛ فالاستعمار العسكري يستمدُّ قوَّته من آليات الإخضاع الخارجي، بينما يُيَسِّر الاستعمار الثقافي آليات الإخضاع الداخلي، مما يبدو وكأنه تعمية للحال، أو تجميل له، فيُقْبَل الإخضاع على أنه شيء آخر غير الإخضاع[2]؛ لكن هذا الأمر لا يستمرُّ طويلاً، فالصغير لا يظلُّ طوال عمره صغيرًا، ويأتي اليوم الذي يشبُّ فيه أبناء الدولة الضعيفة عن الطوق؛ ليُؤَكِّدُوا تمسُّكهم بهويتهم، ورفضهم لأساليب الاستعمار الثقافي المتنوِّعَة؛ مثل الغزو الفكري عن طريق الترويج بالقوَّة للأفكار العلمانية الغربية، أو الفكر الماركسي[3]، وهنا تتحوَّل هذه المناطق المحتلة ثقافيًّا إلى قنابل موقوتة قد تنفجر في أية لحظة.

***

ينبغي لنا قبل أن نختم حديثنا عن حقبة الاستعمار ومخلفاته البغيضة أن نلفت الانتباه إلى ما تركه خلفه من قنابل موقوتة، منتشرة في كل البقاع التي كانت خاضعة للاحتلال، ونقصد هنا الصراعات الحدودية التي اندلعت بين الدول المستقلَّة حديثًا.. واللافت للنظر أن هذه الصراعات عمَّتْ غالب البلدان التي حصلت على استقلالها، بما يكشف تعمُّد الدول الاستعمارية ترك مثل هذه

---

(١) الجزيرة نت، ١٤ يوليو ٢٠١٠م، على الرابط: www.aljazeera.net.

(٢) عبد الله أبو هيف: الغزو الثقافي والمفاهيم المتصلة به، مجلة النبأ، العدد (٦٣)، نوفمبر ٢٠٠١م.

(٣) حسن حمدان العلكيم: قضايا إسلامية معاصرة، ص١٣.

المشاكل ورائها كنوع من الانتقام! ويتضح ذلك بمعاينة ما تركه الغازي الأوربي من مشكلات مزمنة لأغلب الدول الإفريقية، إن لم تكن جميعها، بسبب الحدود المصطنعة التي ورثها الأفارقة عن حقبة الاستعمار؛ فبعض الدول أصبحت حبيسة بلا منفذ على الساحل الإفريقي، وبعض القبائل أصبحت تتبع دولتين أو أكثر؛ بسبب تقسيمات الاستعمار العشوائية، التي قَسَّمت القبيلة الواحدة بين أكثر من وحدة سياسية.

فكانت مشكلة الحدود من أعقد المشكلات التي خلفها مؤتمر برلين (١٨٨٤-١٨٨٥م) الذي قَسَّم إفريقيا فيما بين الدول الأوربية الغازية، وظلَّت هذه المشكلة حتى كانت أولى المشكلات وأخطرها، التي واجهت قادة إفريقيا في مرحلة الاستقلال؛ ففي مؤتمر الشعوب الإفريقية الأول، الذي عُقِدَ في غانا عام ١٩٥٨م، كانت هذه المشكلة هي المسيطرة على المؤتمر، حيث اتَّفق القادة الأفارقة على ضرورة تغليب روح الأخوَّة والتسامح فيما بين الدول المستقلَّة؛ لتجاوز مشكلة الحدود غير الواضحة، أو الظالمة بين الدول الإفريقية[١].

وقد جاء في تقرير اللجنة الاقتصادية التابعة للأمم المتحدة عن إفريقيا في عام ١٩٦٢م؛ أنه لا توجد مناطق أخرى في العالم بهذا العدد الكبير من الدويلات الصغيرة من حيث الإنتاج وعدد السكان؛ وحتى الإقليم الواحد -مثل الحالة الصومالية- تجزَّأ إلى خمسة أقسام: صومال إنجليزي، وآخر فرنسي، وثالث إيطالي، ورابع كيني، وخامس حبشي[٢]!

ويمكننا أن نرى العديد من المشكلات الحدودية بين الدول الإفريقية، التي ما زالت مستمرَّة حتى أيامنا الحالية، بعد مرور أكثر من خمسين عامًا على استقلال بعض الدول الإفريقية؛ نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مشكلة الحدود بين مصر والسودان، وبين تونس والجزائر، وبين الجزائر والمغرب، وبين المغرب وموريتانيا، وبين موريتانيا والسنغال[٣].

وهذا ليس بالنسبة للقارة الإفريقية فقط؛ بل إن غالب دول العالم قد عانت من مرارة الاحتلال، وذلك كله لصالح حفنة من الدول الكبرى، التي تُعَدُّ على أصابع اليد الواحدة،

---

(١) شوقي الجمل، وعبد الله عبد الرازق إبراهيم: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ص٤٥٣.
(٢) جمال عبد الهادي وعلي لبن: المجتمع الإسلامي الإفريقي المعاصر، ص١٢.
(٣) للاستزادة انظر: شوقي الجمل، وعبد الله عبد الرازق إبراهيم: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ص٤٥٢-٤٨٨.



وإن اختلفت أسماؤها من فترة تاريخية إلى أخرى.

***

انتهت الحرب العالمية الثانية بما خلَّفته من دمار وضحايا بالملايين، ومع ذلك لم تنتهِ بنهايتها المعاناة المستمرَّة لبني البشر؛ ففور إعلان انتهائها بانتصار الحلفاء (الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفيتي وبريطانيا وفرنسا)، برز على السطح مصطلح يُؤذن بدخولنا إلى عصر جديد ومرحلة أخرى من الصراع والتوتر والتنافس، عُرفت بـ«الحرب الباردة»..

أُطلق هذا المصطلح ليصف الوضع بين الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفيتي وحلفائهما، من فترة منتصف الأربعينيات حتى أوائل التسعينيات من القرن الماضي؛ حيث ظهرت خلال هذه الفترة «النِّدِّيَّة» بين القوَّتين العظميين من خلال التحالفات العسكرية والدعاية وتطوير الأسلحة، والتقدُّم الصناعي، وتطوير التكنولوجيا، وغير ذلك من مجالات التنافس، وفي ظلِّ غياب حالة حرب مُعْلَنة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي قامت القوَّتان بالاشتراك في عمليات عسكرية وصراعات سياسية من أجل مساندة الحلفاء، وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي كانا حلفاء في الحرب العالمية الثانية، إلاَّ أنَّ القوَّتين اختلفتا في كيفية إدارة ما بعد الحرب وإعادة بناء العالم.

وقد نتج عن هذه الحرب الباردة العديد من الأزمات، التي كادت في بعض الأحيان أن تُشعل الحرب العالمية للمرَّة الثالثة؛ ومن أبرز هذه الأزمات أزمة تقسيم ألمانيا في عام ١٩٤٩م؛ حيث استأثرت الولايات المتحدة الأميركية وحلفاؤها إنجلترا وفرنسا (المعسكر الغربي) على الجانب الغربي من ألمانيا، وأعلنوا قيام جمهورية ألمانيا الاتحادية في سبتمبر ١٩٤٩م، فقام الاتحاد السوفيتي هو الآخر بإعلان قيام دولة ألمانيا الديمقراطية في الجزء الخاضع لسيطرته بشرق ألمانيا في أكتوبر ١٩٤٩م[١].

تكرَّرت المواجهة -غير المباشرة- بين المعسكرين الشرقي بقيادة الاتحاد السوفيتي والغربي بقيادة الولايات المتحدة الأميركية في أزمة فيتنام، التي استمرَّت من عام ١٩٤٦ إلى

---

(١) عبد العظيم رمضان: تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، ص٢٧٠-٢٧٢.

١٩٥٤م، وبشكل أخطر في أزمة الكوريتين، التي بدأت في الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٣م؛ إذ حدث صراع بين كوريا الشمالية والجنوبية تطوَّر إلى الحرب، فيما يُعَدُّ إحدى النتائج المباشرة للحرب الباردة بين المعسكرين الغربي (الرأسمالي) والشرقي (الشيوعي)، كانت نتيجة الحرب: لا غالب ولا مغلوب، ومع ذلك لم ينتهِ التوتُّر في هذه المنطقة من العالم إلى يومنا هذا[١]، ومن المتوقَّع أن تندلع الحرب بين الكوريتين مرَّة أخرى، لكنها هذه المرَّة ستكون حربًا كارثية؛ نظرًا للتهديد الكوري الشمالي المتكرِّر باستخدام السلاح النووي[٢]، كل هذا التوتُّر بالرغم من انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي منذ قرابة عشرين عامًا!

***

وفي الوقت نفسه الذي يعمل فيه الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأميركية على تأمين احتياجاته من العالم العربي والإسلامي؛ إمَّا عن طريق الحرب أو عن طريق التهديد بها، نجد طرفًا آخر استغلَّ انشغال الغرب في الحروب والخطط العسكرية؛ ليعمل في صمت ودأب على بناء قوَّة اقتصادية أذهلت العالم؛ حيث أفاق الغرب على طوفان من البضائع الصينية ينافس بضائعه المحلية في مختلف دول العالم، بل ويغزوه في عقر داره، وتنبَّه العالم لما عُرف بالتنين الصيني[٣].

استطاعت الصينُ تكوين إمبراطورية اقتصادية عملاقة بناتج محلي بلغ ٤,٨ تريليون دولار أميركي في عام ٢٠٠٩م، وبمعدل نموٍّ ٨,٧٪، وبطاقة بشرية عاملة بلغت ٨١٣,٥ مليون نسمة، من إجمالي عدد سكان بلغ ١,٣٣ مليار نسمة في ٢٠١٠م، وبحجم صادرات بلغ ١,٢ تريليون دولار في ٢٠٠٩م[٤]، وبشعب مُثَقَّف وصل معدل القراءة والكتابة فيه إلى

---

(١) نذر حرب وتصعيد في شبه الجزيرة الكورية، صحيفة الشرق الأوسط اللندنية، العدد (١١٤٩٧)، بتاريخ ٢١ مايو ٢٠١٠م.

(٢) كوريا الشمالية تهدد باستخدام السلاح النووي، صحيفة الرياض السعودية، العدد (١٥٣٧٠)، بتاريخ ٢٤ يوليو ٢٠١٠م.

(٣) انظر: روبين ميريديث: الفيل والتنين صعود الهند والصين، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، العدد (٣٥٩)، يناير ٢٠٠٩م.

(٤) كتاب الحقائق الأميركي ٢٠١٠م: www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook.



٩٣٪ من عدد السكان في ٢٠٠٩م[١].

ومن ناحيتها لم تتعمَّد الصينُ أن تلفت انتباه الغرب، أو تحتكّ به في مناطق نفوذه الأصلية، وقامت بالتركيز على القارة الإفريقية كقاعدة ارتكاز؛ لكسر العزلة في مواجهة الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأميركية، ومناطحة الشرق بقيادة الاتحاد السوفيتي - السابق- في أعقاب نزاع فكري أيديولوجي.

ويأتي التأكيد الصيني على هذا الأمر بإقامة منتدى للتعاون الصيني الإفريقي، كتتويج لسلسلة من المواقف الصينية التي تجسَّدت في بداية الألفية الثالثة، وزيارات رسمية متكرِّرة من الرئيس الصيني «هو جين تاو[٢]»، في إطار صيغة التواضع الصيني، التي يفتقدها الأفارقة في تعاملهم مع الغرب، إضافة إلى شطب الصين لديون إفريقية، والمشاركة في عمليات حفظ سلام تابعة للأمم المتحدة؛ حيث كانت الصين أول دولة خارج إفريقيا تقوم بإرسال قوَّات حفظ سلام إلى إقليم دارفور بالسودان، وكذلك في القوة الدولية لمكافحة القرصنة قبالة شواطئ الصومال وخليج عدن، وتوقيع بروتوكولات تعاون في مجالات التعدين والبترول، والتنمية والتدريب، ونقل التكنولوجيا، والبنية التحتية والصحة وتأمين المنح التعليمية، والتبادل الثقافي والتعليمي وكذلك البشري، والسعي لتوطين وتزاوج الصينيين من الأفارقة؛ لحلِّ مشكلات الاختناق السكاني، ونشر الثقافة الكونفوشوسية عبر ١٦ معهدًا في إفريقيا[٣].

لقد تمكَّنت الصين على مدار العقود الستة الماضية من التمدُّد والتواجد في مربع مهم في القارة الإفريقية، يمتدُّ من نيجيريا شمالاً إلى غينيا الاستوائية والجابون وأنجولا غربًا، ثم السودان وتشاد شرقًا، فزامبيا ثم زيمبابوي وموزمبيق جنوبًا؛ لتصبح الصين أكبر مستثمر في إفريقيا، وثالث شريك تجاري لها بعد الولايات المتحدة وفرنسا... ويأتي ذلك كله في إطار سعي الصين للبحث والاستحواذ على المواد الخام ومصادر الطاقة، وخاصة البترول؛ حيث تُعَدُّ الصينُ

---

(١) مؤشرات البنك الدولي عام ٢٠٠٩م: http://data.albankaldawli.org.

(٢) هو جين تاو (Hu Jintao 1942م-..): الرئيس الحالي لجمهورية الصين الشعبية منذ عام ٢٠٠٣م، والأمين العام للحزب الشيوعي الصيني، ورئيس اللجنة العسكرية المركزية.

(٣) صحيفة الأهرام المصرية، العدد (٤٥١٠٨)، بتاريخ ٧ يونيو ٢٠١٠م.

ثاني أكبر مستهلك للبترول بعد الولايات المتحدة، التي تستحوذ على بترول الشرق الأوسط القريب، وهو ما دفع الصين لتأمين نحو ٢٥٪ من احتياجاتها النفطية من سبع دول إفريقية؛ وهي: الجزائر والسودان وتشاد والجابون وغينيا الاستوائية وأنجولا ونيجيريا، فضلاً عن استيرادها الحديد والبلوتينيوم من زيمبابوي وجنوب إفريقيا، وهو ما يُثير القلق في الغرب والشرق على حدٍّ سواء؛ لاستنفاد الموارد الطبيعية، ولتأثير ذلك على قضايا سياسية بعينها؛ كما حدث في دارفور؛ إذ دعمت الصين في البداية المتمرِّدين التشاديين عبر أراضي السودان؛ حتى تتراجع تشاد عن الاعتراف بتايوان، وهو ما تحقَّق بالفعل لتحظى بكين بدعم مشروعين بتروليين عملاقين في جنوب البلاد[1].

ولا يخفى على أحد رغبة الصين في الحصول على الدعم الإفريقي في المحافل الدولية في أية مواجهة محتملة مع الدول الكبرى؛ وهو ما دفع البعض للتحذير من دور الصين المتزايد في إفريقيا التي يجب ألا تقفز بصورة عمياء من نمط استعمار قديم إلى استعمار جديد آخر وفق النموذج الصيني[2].

نضيف إلى ذلك ما أظهرته الولايات المتحدة الأميركية في عام ٢٠٠٧م من تخوُّف من النموِّ المطرد للقدرات العسكرية الصينية، بعدما أعلنت الحكومة الصينية رفع قيمة المبلغ المخصَّص للميزانية العسكرية بحدود ١٨٪ ليبلغ نحو ٤٥ مليار دولار، ولكن الردَّ «الدبلوماسي» الصيني كان جاهزًا: «بأن هذا الرقم لا يُشَكِّل سوى جزء بسيط من المبلغ الأميركي المخصَّص للقوات المسلحة، الذي يوازي ٤٨١ مليار دولار -في حينها- من دون نفقات حربي أفغانستان والعراق»[3].

وما نخشاه أن يعود عالمنا مرَّة أخرى إلى عصر التنافس الاستعماري، أو عصر الحربِ الباردة بما فيهما من ظلمٍ وطغيانٍ أكثرُ مَنْ تعاني منه هي الشعوب التعيسة في ظلِّ عالم مليء بالصراعات والحروب الدموية.

***

(١) روبين ميريديث: الفيل والتنين صعود الهند والصين، ص٢٥١-٢٥٦.
(٢) صحيفة الأهرام المصرية، العدد (٤٥١٠٨)، بتاريخ ٧ يونيو ٢٠١٠م.
(٣) صحيفة الأخبار اللبنانية، بتاريخ ٦ أبريل ٢٠٠٧م.



كما نودُّ أن نلفت الانتباه إلى ما نراه في تاريخنا الحديث من سباق محموم نحو التسلُّح -كمًّا وكيفًا- فمن حيث الكمِّ نرى المليارات التي تُنفق سنويًّا لشراء الأسلحة وتكديسها، بما يُشير لما نحن مُقْبِلُون عليه من مستقبل دامٍ، ولعلَّ الجدول رقم (٢) [1] يُوَضِّح الكمَّ الهائل من الأموال التي يتمُّ رصدها لإحراز مكانة متقدِّمة في هذا السباق المحموم، والذي يعكس حالة التوتر وترقُّب الحرب لدى الكثير من دول العالم في واقعنا المعاصر!

هذا من ناحية الكمِّ، أمَّا من ناحية الكيف فنرى التطوُّر المذهل في تقنية الأسلحة؛ بما يجعلها أشدَّ فتكًا وتدميرًا بصورة مرعبة وتَفُوق التصوُّر؛ على غرار انتشار ما عُرِف بأسلحة الدمار الشامل، ورغم أنها مُحَرَّمة دُوَلِيًّا، ويُعْتبر مستخدمُها ضدَّ مدنيين مجرم حرب، إلَّا أنها أصبحت واسعة الانتشار، بأنواعها الثلاثة: (الأسلحة النووية، والأسلحة الجرثومية، والأسلحة الكيميائية).

فأمَّا السلاح النووي، ويُعَدُّ أشدَّ الأسلحة فتكًا، فيعتمد في قوَّته التدميرية على عملية الانشطار النووي أو الاندماج النووي؛ ونتيجة لهذه العملية تكون قوَّة انفجار قنبلة نووية صغيرة أكبر بكثير من قوة انفجار أضخم القنابل التقليدية؛ حيث إن بإمكان قنبلة نووية واحدة تدمير أو إلحاق أضرار فادحة بمدينة بكاملها؛ لذا تُعتبر الأسلحة النووية أسلحة دمار شامل، ويخضع تصنيعها واستعمالها إلى ضوابط دُولية حرجة، ومع ذلك يُمَثِّل السعي نحو امتلاكها هدفًا تسعى إليه غالب الدول في زماننا الحالي[2].

وقد استُعمِلَت القنبلة الذرية مرتين في تاريخ الحروب؛ وكانت كلتاهما أثناء الحرب العالمية الثانية عندما قامت الولايات المتحدة بإسقاط قنبلتين ذَرِّيَّتين على مدينتي هيروشيما وناجازاكي في اليابان، وذلك صباح يوم ٦ أغسطس ١٩٤٥م حينما ألقت الولايات المتحدة الأميركية قنبلتها الذرية الأولى على مدينة هيروشيما اليابانية، فمات على الفور ٧٠ ألف مواطن ياباني، والعجيب أنه بعد ثلاثة أيام فقط ألقت أميركا القنبلة الثانية على مدينة ناجازاكي، فمات على الفور ٦٠ ألف مواطن آخر!

---

(١) تقرير معهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام: أكبر ١٥ دولة في الإنفاق العسكري، عامي (٢٠٠٥، ٢٠٠٩م)، على الرابط: www.sipri.org.

(٢) للمزيد عن الدول النووية الكبرى، انظر: ناريمان درويش: المشكلات السياسية المعاصرة، ص٥٢.

الترتيب	الدولة	قيمة النفقات العسكرية عام ٢٠٠٥م – بالمليار دولار	الترتيب	الدولة	قيمة النفقات العسكرية عام ٢٠٠٩م – بالمليار دولار
١	الولايات المتحدة الأميركية	٥٤٧	١	الولايات المتحدة الأميركية	٦٦١
٢	بريطانيا	٥٩٬٧	٢	الصين	١٠٠
٣	الصين	٥٨٬٣	٣	فرنسا	٦٣٬٩
٤	فرنسا	٣٥٬٦	٤	بريطانيا	٥٨٬٣
٥	اليابان	٤٣٬٦	٥	روسيا	٥٣٬٣
٦	ألمانيا	٣٦٬٩	٦	اليابان	٥١
٧	روسيا	٣٥٬٤	٧	ألمانيا	٤٥٬٦
٨	السعودية	٣٣٬٨	٨	السعودية	٤١٬٢
٩	إيطاليا	٣٣٬١	٩	الهند	٣٦٬٣
١٠	الهند	٢٤٬٢	١٠	إيطاليا	٣٥٬٨
١١	كوريا الجنوبية	٢٢٬٦	١١	البرازيل	٢٦٬١
١٢	البرازيل	١٥٬٣	١٢	كوريا الجنوبية	٢٤٬١
١٣	كندا	١٥٬٢	١٣	كندا	١٩٬٢
١٤	أستراليا	١٥٬١	١٤	أستراليا	١٩
١٥	إسبانيا	١٤٬٦	١٥	إسبانيا	١٨٬٢

أكبر خمس عشرة دولة من حيث الإنفاق في المجال العسكري في العالم

جدول رقم (٢)

وقد صرَّحَ مجلس مدينة هيروشيما أن عدد قتلاها ارتفع في سنوات قليلة إلى ٢٣٠ ألف شخص؛ بسبب ما خلفته القنبلة من إشعاعات، كما وصل عدد الجرحى إلى ١٥٧ ألف شخص[١]! **(انظر: صورة رقم ٦ السحابة الناتجة من إسقاط قنبلة نووية على ناجازاكي في اليابان).**

ثم تأتي الأسلحة الكيميائية التي يُراد باستخدامها تدمير أو تحجيم أو الحدِّ من نشاط مجموعة بشرية مُعَيَّنة لتحقيق أهداف مختلفة؛ حيث إن ما تتميز به الأسلحة الكيميائية هو التأثير غالبًا على الكائنات الحيَّة فقط، بينما الأسلحة النووية يكون تدميرها شاملاً بل ومتعدِّيًا حدود المكان الجغرافية، وتُصَنَّف الأسلحة الكيميائية عدَّة تصنيفات؛ إمَّا حسب شدَّة تأثيرها، أو حسب إمكانية السيطرة عليها والحدِّ من سرعة انتشارها، وقد استُخْدِمت الأسلحة الكيميائية بكثرة في القرن الماضي، وفي العديد من الحروب؛ نذكر منها حرب فيتنام (١٩٦٤-١٩٧٥م)؛ التي شنَّتها الولايات المتحدة الأميركية ضد فيتنام الشمالية، ففي هذه الحرب وعندما استَخْدمت المقاومة الفيتنامية الغابات للتخفي من القوات الأميركية، قامت الولايات المتحدة الأميركية بشنِّ حرب كيميائية على منطقة الغابات الفيتنامية التي تبلغ مساحتها ٤٠ مليون فدان، وتقترب من نصف مساحة فيتنام الشمالية، فاستخدمت القوات الأميركية المبيدات القاتلة، التي أتت على الأخضر واليابس، ودمَّرَت هذه الغابات تمامًا، وظلَّت آثار هذه المبيدات لسنوات طوال امتدَّت لما بعد نهاية الحرب، ويكفي أن نعرف أن بعثة الأكاديمية القومية الأميركية للعلوم قد قامت بزيارة للمنطقة عقب انتهاء الحرب، وذكرتْ في تقريرها أن منطقة الغابات يلزمها أكثر من مائة عام لكي تعود لسابق عهدها[٢]! وقد بلغ عدد الضحايا عند نهاية حرب فيتنام ٣ ملايين قتيل فيتناميٍّ معظمهم من المدنيين[٣]!

ثم تأتي الأسلحة الجرثومية (البيولوجية) كثالث أسلحة الدمار الشامل، التي كَثُر استخدامها في العصر الحديث، وخاصة خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م)، وتتكوَّن الأسلحة البيولوجية من مكونات بكتيرية سامة أو سموم بكتيرية، وتكمن خطورتها

(١) هشام عبد الرءوف حسن: تاريخ اليابان الحديث والمعاصر ص٢٣٨-٢٤٠.
(٢) أمل خليفة: هزيمة أميركا في فيتنام، ص٧٢.
(٣) أحمد كنعان: ذاكرة القرن العشرين، ص١٠٠.

السحابة الناتجة من إسقاط قنبلة نووية على ناجازاكي في اليابان ١٩٤٥م وكان ارتفاعها ١٨كم

صورة رقم (٦)



في سرعة انتشارها، وتُعتبر أخطرها هي الجدري والجمرة الخبيثة، وتأتي روسيا في مقدِّمة الدول التي تمتلك أكبر ترسانة من الأسلحة البيولوجية في العالم، وقد نجحت روسيا في وضع رءوس حربية مملوءة بمزيج من الجدري والطاعون والجمرة الخبيثة على صواريخ عابرة للقارات، وزوَّدت تلك الرءوس الحربية بأجهزة تبريد تُبْقِي الفيروسات حيَّة خلال عودتها إلى غلاف الأرض الجوي، إلى أن تقترب من الهدف فتنطلق مظلات تُخَفِّف من سرعة الصاروخ، الذي يتفكَّك بعدئذٍ مطلقًا قنابل صغيرة تنفتح بدورها مطلقة العنان للفيروسات، كما تمكَّن الروس من إنتاج نموذج مُحسَّنٍ من فيروس الجمرة الخبيثة، تبلغ فعاليته أربعة أضعاف فاعلية الفيروس العادي(١).

كل هذه الأسلحة وغيرها الكثير على اختلاف قوتها التدميرية قابعة ومكدَّسة في انتظار صدور قرار بنشوب حرب جديدة!

***

كما نودُّ أن نُشير إلى ظاهرة خطيرة بدأت تتفشَّى في عالمنا المعاصر، وهي تنامي النزعات الانفصالية لدى العديد من الأعراق أو الفصائل داخل الدولة الواحدة، بما غدا يُشَكِّل خطرًا حقيقيًّا في العديد من دول العالم في الآونة الأخيرة..

ففي العالم العربي ظهر تحدِّي الحركات الانفصالية، التي تهدف إلى تفتيت الدول العربية؛ بعد أن تمَّ العبث الاستعماري بالعلاقات العربية العربية، وقد علا صوت هذه الحركات في أقطار متعدِّدة؛ مثل: السودان واليمن والعراق، وغيرها من الدول العربية بدرجات متفاوتة؛ ولا شكَّ أن هذه الظاهرة تُعلن عن حالة الوهن التي أصابت الجسد العربي، ومن ناحية أخرى فإن غالب الحركات الانفصالية تكون مدفوعة من الخارج، ويتمُّ تمويلُها وتسليحُها من جانب دول لها أجندات تتناقض بطبيعتها مع الوطن الواحد والمصلحة الوطنية.

والأمثلة على ذلك كثيرة؛ ففي دارفور تَمَّ تسليح وتدريب حركات التمرُّد من جانب الدول التي تطمع في خيرات السودان، والتي تُريد تقطيع أوصال السودان، وكذلك في

---

(١) للاستزادة انظر: عبد الهادي مصباح: الأسلحة الكيميائية والجرثومية، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ٢٠٠٠م.

العراق يُطالب الأكراد بدولة كردية تضمُّ كل الأكراد في العراق وسوريا وتركيا وإيران! إلى جانب تمرُّد الحوثيين على الحكومة اليمنية وحملهم السلاح عليها، أكثر من مرَّة، بما شجَّع أطرافًا يمنية أخرى -خاصة في الجنوب- على المطالبة بالانفصال[١].

كما أن هذه الظاهرة تشهد رواجًا مماثلاً في العالم الغربي، ونذكر على سبيل المثال النموذج الصارخ الذي تُمثِّله منظمة «إيتا» الانفصالية، التي أُنْشِئت عام ١٩٥٩م، وتنادي بانفصال إقليم الباسك، الذي يخضع بشقَّيْه لسيطرة كلٍّ من إسبانيا وفرنسا؛ فبعد قيامها بالعديد من العمليات الإرهابية والاغتيالات، التي خَلَّفت مئات القتلى والجرحى، جاء إعلان رئيس الوزراء الإسباني خوسيه ثاباتيرو[٢] أمام البرلمان الإسباني للبدء في مفاوضات مباشرة مع منظمة إيتا الانفصالية، ليتجدَّد أمل غالبية الإسبان في تفكيك منظمة يعتبرها الاتحاد الأوربي والولايات المتحدة حركة إرهابية[٣]، ولكن سرعان ما انهارت المفاوضات بين الحكومة الإسبانية والمنظمة، وعاد العنف من جديد ليُدمي قلب القارة الأوربية[٤]، ويُنذر بمستقبل تكثر فيه الصراعات وتتنوَّع أسبابها!

***

وذلك إضافة إلى الحروب الأهلية المتتالية، التي تندلع على فترات متقاربة في العديد من دول العالم، دون تفريق بين دولة متحضِّرة أو متأخِّرة، فقيرة أو غنية، رغم ما تتَّسم به هذه النوعية من الصراعات من عنف ودموية شديدة؛ فهي حرب داخلية تقوم بين جماعات مختلفة من سكان الدولة الواحدة، وكل فرد فيها يرى في الآخر عدوَّه، ومَنْ يُريد أن يبقى على الحياد يُعتبر خائنًا لا يمكن التعايش معه، فيتناسى الجميع أي علاقات أو مودَّة سابقة كانت

---

(١) عبد الله الأشعل: الحركات الانفصالية.. خطر يواجه العالم العربي، موقع الإسلام اليوم، ١٦ ديسمبر ٢٠٠٩م، على الرابط: http://islamtoday.net.

(٢) خوسيه ثاباتيرو: هو خوسيه لويس رودريغيس ثاباتيرو Jose Luis Rodriguez Zapatero (١٩٦٠م-...)، رئيس وزراء إسبانيا، انتخب عام ٢٠٠٤م، وأُعيد انتخابه ٢٠٠٨م، وهو ينتمي إلى حزب العمال الاشتراكي الإسباني.

(٣) صحيفة الأهرام المصرية، العدد (٤٣٦٤٠)، بتاريخ ٣١ مايو ٢٠٠٦م.

(٤) «إيتا» مستعدة للتغيير لكن دون إلقاء السلاح: صحيفة الشرق الأوسط اللندنية، العدد (١١٤٣٧)، بتاريخ ٢٢ مارس ٢٠١٠م.



بينهم يومًا، ويكون الهدف الغالب لدى الأطراف المتصارعة هو السيطرة على مقاليد الأمور وممارسة السيادة!

أمَّا أسباب الحرب الأهلية فهي متعدِّدَة؛ فقد تكون سياسية أو طبقية أو دينية أو عرقية، أو مزيجًا من هذه العوامل، وقد شهدنا على مرِّ التاريخ القديم والحديث -وما زلنا نشاهد- عددًا من هذه الحروب أو المآسي، ونتعجَّب من إمكانية حدوثها أو تجدُّدها في أي لحظة رغم الآلام التي شعر بها الجميع في التجارِب الأليمة السابقة؛ ونذكر على سبيل المثال ما حدث في الحرب الإسبانية (١٩٣٦-١٩٣٩م)، وهي حرب أهلية ضارية اندلعت في إسبانيا إثر صراع على السلطة استمرَّ ٣ سنوات، وكانت محصلتها ٦٠٠ ألف قتيل، منهم ٢١٠ آلاف أُعدموا من قِبَلِ الأطراف المتنازعة، وقد انتهى هذا الصراع الدامي باستيلاء الجنرال فرانشيسكو فرانكو[1] على مقاليد الحكم في عام ١٩٣٩م، ليبدأ فترة حكمه الدكتاتوري، الذي استمرَّ لمدَّة ٣٥ عامًا وانتهى بموته، ويتعجَّب المرء ويتساءل عن الهدف الذي يستحقُّ أن يُقتل ستمائة ألف إنسان من أجله، وما هي الجريرة التي تستوجب إعدام مائتي ألف إنسان[2]!

كما يُعَدُّ ما حدث للمسلمين في منطقة البلقان بأوربا، وما واجهوه من ظلم وقهر على يد الصرب علامة بارزة على حالة الاحتقان التي نُعاني منها في واقعنا الحالي؛ ولقد بدأت معاناة المسلمين في منطقة البلقان منذ عام ١٩١٣م، عندما بدأت سيطرة الصرب على هذه المنطقة، وهو الوقت الذي شهد نهايات الخلافة العثمانية وتراجع قوتها، وصار المسلمون غرباء في وطنهم، وأصبح الصرب هم أصحاب الديار، وكان الصرب يحلمون بصربنة المنطقة كلها، وتحويل سكانها إلى الديانة النصرانية بالقوَّة! وفي سبيل تحقيق هذا الحلم لاقى المسلمون الأهوال على أيدي الصرب؛ ففي عام ١٩٤٥م قام الصرب بذبح ٤٧ ألف مسلم من سكان إقليم كوسوفا، ثم قام الزعيم اليوغوسلافي الشهير تيتو[3] في عام ١٩٤٦م بإبادة ٢٤ ألف

---

(١) فرانسيسكو فرانكو Francisco Franco (١٨٩٢-١٩٧٥م): رئيس إسبانيا من عام ١٩٣٦م، بعد انتصاره ١٩٣٩م في الحرب الأهلية الإسبانية، بمساعدة هتلر وموسيليني، لَقَّب نفسه بالكوديللو أي زعيم الأُمَّة.

(٢) راغب السرجاني: أخلاق الحروب في السُّنَّة النبوية، ص٣٤٣.

(٣) تيتو: هو جوزيف بروز تيتو Josip Broz Tito (١٨٩٢-١٩٨٠م)، رئيس الحركة الشيوعية في يوغسلافيا، أحد مؤسسي حركة عدم الانحياز، يُعَدُّ من أشهر الدكتاتوريين الشيوعيين في العالم.

مسلم، كما ألغت الدولة الشيوعية المحاكم الشرعية، ومنعت الحجاب؛ مما دفع أربعة ملايين مسلم إلى الهجرة والفرار بدينهم[(١)].

ثم قام الصرب عام ١٩٩٢م بسلسلة من المذابح للمسلمين في مدينتي البوسنة والهرسك؛ مما أسفر عن عشرات الآلاف من القتلى[(٢)]، وإمعانًا في القهر شرع الجنود الصرب في اغتصاب نساء المسلمين، وقد قدَّرت الأمم المتحدة عدد ضحايا هذه الجريمة بأنهم ما بين ٢٠ إلى ٥٠ ألف امرأة[(٣)]، وقد اعترفت حكومة جمهورية صرب البوسنة أخيرًا في شهر يونيو ٢٠٠٤م بارتكاب أحد أبشع هذه المجازر، وهي مجزرة سربرينتشا - والتي حدثت في عام ١٩٩٥م - وراح ضحيتها ثمانية آلاف مسلم تمَّ إعدامهم دفعة واحدة[(٤)]! وليست سربرينتشا إلاَّ مثالًا من أمثلة كثيرة، ويكفي أن نُشير إلى أنه قد تـمَّ اكتشاف ثلاثمائة مقبرة جماعية مليئة بجثث المسلمين المشوهة[(٥)]!

على جانب آخر شاهدنا -خاصة العالم العربي والإسلامي- احتفال اللبنانيين في ١٣ أبريل ٢٠١٠م بذكرى مرور ٣٥ عامًا على اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، التي خَلَّفت وراءها آلاف القتلى والجرحى والمفقودين، وسط أجواء يملؤها التوتُّر والفزع من عودة اشتعالها مرَّة أخرى[(٦)].

فعلى الرغم من أن الحرب الأولى اشتعلت شرارتها يوم ١٣ أبريل ١٩٧٥م؛ نتيجة اعتداء استهدف حافلة تقلُّ فلسطينيين في منطقة عين الرمانة ذات الطابع المسيحي، واستمرَّت طيلة خمسة عشر عامًا كاملة، وجرف تيارها معظم القوى اللبنانية، لتُوقع أكثر من ١٥٠ ألف قتيل، وأكثر من ٢٠ ألف مفقود، وتسبَّب في تشريد مئات الآلاف من اللبنانيين على مختلف طوائفهم ومذاهبهم،

---

(١) محمود شاكر: محنة المسلمين في كوسوفا، ص١١٢-١١٨.

(٢) أحمد بن علي تمراز، وحسين عمر سباهيتش: جمهورية البوسنة والهرسك قلب أوربا الإسلامي، ص٦٩-٧٢.

(٣) تقرير أشكال العنف ضد المرأة ٢٠٠٦م، الجمعية العامة للأمم المتحدة، ص٦٠.

(٤) موقع هيئة الإذاعة البريطانية، بتاريخ ١١/ ٦/ ٢٠٠٤م، على الرابط: http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/news/newsid

(٥) هيثم هلال: موسوعة الحروب، ص٤٩٤.

(٦) أخبار الجزيرة، بتاريخ ١٣ أبريل ٢٠١٠م، على الرابط: www.aljazeera.net.



قبل أن تنتهي عام ١٩٨٩م بتوقيع اتفاق الطائف[1]، الذي أسَّس لما وُصف حينها بالجمهورية الثانية، ونجد اليوم ورغم مرور ٣٥ عامًا على تلك الحرب، أنه ما زال هناك تخوُّف من عودة شبحها إلى لبنان، ولا سيما أن الأسباب التي أسهمت في اندلاعها ما زالت قائمة، كالانقسام السياسي والتعدُّد الطائفي والتنازع المذهبي.

كما أن الأسباب التي أدَّت إلى وقفها لا تعود للبنانيين أنفسهم، بل إلى توافق خارجي إقليمي ودولي بإنهائها؛ مما يعني أن انهيار هذا التوافق يُهَدِّد بعودة الحرب الأهلية من جديد.

***

كذلك نُنبِّه إلى ظاهرة موجودة في عالمنا المعاصر وتُنذر بالعديد من الأزمات في المستقبل، وهي ظاهرة «البلدان الممزَّقة»، كما أطلق عليها المفكر الأميركي صمويل هنتنجتون[2]، وهنا لا نقصد التمزُّق السياسي للدولة، بل نتحدَّث عن فكرة الهوية؛ أي تشتُّت هوية الدولة؛ فنجد بلدانًا تعاني كثيرًا من الحيرة وعدم التجانس الثقافي والديني، وهذه الحيرة حتى وإن لم تُتَرْجَم إلى صراع أو توتُّر فإنها تحمل في ثناياها عوامل التفكُّك، ومن هنا سمَّاها هنتنجتون بلدانًا ممزقة.

وقد ضرب هنتنجتون العديد من الأمثلة للتدليل على فكرته؛ مثل: أستراليا، والمكسيك، وتركيا، ولعلَّ النموذج التركي من أبرز هذه الأمثلة؛ حيث عانت كثيرًا من الحيرة بين هويتها الثقافية والدينية الإسلامية بالأساس، وبين الرغبة الجامحة التي استحوذت على بعض النخب السياسية والفكرية في محاكاة الغرب حرفيًّا، فتسبَّبَتْ في حال من الانفصام، فلا هي بشرقية ولا هي بغربية، فأصبحت نصف العلمانية ونصف الإسلامية، نصف الشرقية ونصف الغربية، نصف الديمقراطية ونصف حكم العسكر[3].

---

(١) انظر: فوَّاز طرابلسي: تاريخ لبنان الحديث.. من الإمارة إلى اتفاق الطائف، رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٨م.

(٢) صمويل فلبس هنتنجتون Samuel Phillips Huntington (١٩٢٧-٢٠٠٨م): أستاذ علوم سياسية بجامعة هارفارد، اشتهر بتحليلاته وبحوثه في انقلابات الدول، وقد شغل هنتنجتون الرأي العالمي بصدور كتابه: (صراع الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي) سنة ١٩٩٦م.

(٣) صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات، ص٢٢٧-٢٤٧.

وإن كُنَّا الآن نرى تركيا تحاول الخروج من هذا التمزُّق وعلاج هذه النقطة بالعودة للتوجُّه الإسلامي، لكن بالطبع لن يكون هذا العلاج دون مشاكل جانبية، فبالتأكيد ستحدث مشاكل مع الكيان الصهيوني والولايات المتحدة الأميركية، فالتوتُّر لن ينتهي، ولكنه سيأخذ أشكالاً أخرى.

وبنظرة أخرى صَوْبَ العالم العربي سنجد بلدانًا تعاني من هذه الحيرة؛ مثل اليمن، الذي يعاني اليوم من أزمة بنيوية حادَّة، أزمة لو ظلَّت وطالت فقد تدفع بهذا البلد العربي دفعًا إلى قائمة الدول الممزَّقة في العالم؛ فالحكومة اليمنية المركزية تُقَاتِل فئات أخرى -من أبناء اليمن- من أجل تحقيق الأهداف التي تتراوح ما بين الحصول على مطالب طائفية أو طلب الانفصال عن الدولة كلِّيَّة[1]!

***

كما نود أن نتوقَّف عند ما تشهده الولايات المتحدة الأميركية من أزمة مالية عنيفة، انتقلت عدواها إلى الأسواق المالية لمختلف الدول، وبات علاجها عسيرًا، فيما عُرف بالأزمة المالية العالمية، ونُحَذِّر من تداعياتها على أمن العالم وسلامته.

تعود جذور هذه الأزمة إلى عام ٢٠٠٠م؛ حيث أخذت قيم العقارات وبالتالي أسهم الشركات العقارية المسجلة بالبورصة في الارتفاع بصورة مستمرَّة في جميع أنحاء العالم، وخاصة في الولايات المتحدة الأميركية، حتى بات شراء العقار أفضل أنواع الاستثمار في ذلك الحين، وأقبل الأميركيون أفرادًا وشركات على شراء العقارات بهدف السكن أو الاستثمار طويل الأجل أو المضاربة، واتَّسعت التسهيلات العقارية إلى درجة أن المصارف منحت قروضًا للأفراد غير القادرين على سداد ديونهم بسبب دخولهم الضعيفة!

وانتفخت الفقاعة العقارية، حتى وصلت إلى ذروتها، فانفجرت في صيف عام ٢٠٠٧م، عندما هبطت قيمة العقارات، ولم يَعُد الأفراد قادرين على سداد ديونهم، حتى بعد بيع عقاراتهم المرهونة، وفقد أكثر من مليوني أميركي ملكيتهم العقارية، وأصبحوا مُكَبَّلِين

---

(١) عماد جاد: أزمة الدولة اليمنية، صحيفة الأهرام المسائي، العدد (٧٠٢٩)، بتاريخ ٢٦ يوليو ٢٠١٠م.

بالالتزامات المالية طيلة حياتهم، وتضرَّرت المصارف الدائنة نتيجة عدم سداد المقترضين لقروضهم، فهبطت قيم أسهمها في البورصة، وأعلنت شركات عقارية عديدة عن إفلاسها[١].

لم يقتصر الانهيار عند العقارات؛ بل امتدَّ إلى الأسواق المالية، ومنها إلى جميع القطاعات الأميركية، ثم انتقلت عدوى الأزمة الأميركية إلى جميع أنحاء العالم؛ فقد بلغت قيمة الانخفاضات في القيمة السوقية للأسهم في كل بورصات العالم في ١٠ أكتوبر ٢٠٠٨م نحو ٢٥ تريليون دولار، من أصل ٦١ تريليونًا وهي قيمة الأسهم في نهاية عام ٢٠٠٧م[٢].

وبدأت دول العالم تباعًا تكشف عن مدى خسارتها بسبب هذه الأزمة؛ ففي كندا صرَّح مارك كارني محافظ بنك كندا في نوفمبر ٢٠٠٨م قائلاً: «إن خطر الركود يتزايد». وكذلك ألمانيا -صاحبة أكبر اقتصاد أوربي- سقطت بدورها في مرحلة من الركود لأول مرَّة منذ خمس سنوات؛ بسبب هذه الأزمة المالية، بل وأعلنت وكالة الأنباء الألمانية أن خبراء اقتصاد يخشون من تعرُّض الاقتصاد الألماني لأخطر ركود في تاريخه الحديث منذ الحرب العالمية الثانية[٣].

ولم يختلف الحال كثيرًا في بريطانيا؛ حيث وقف الاقتصاد البريطاني في عام ٢٠٠٨م على شفا أول ركود له منذ أكثر من ١٥ عامًا، وفي اليابان وبسبب الأزمة المالية العالمية دخل الاقتصاد الياباني دائرة أول ركود منذ سبعة أعوام، فدفع انخفاض الطلب على المنتجات اليابانية في العالم الميزان التجاري الياباني إلى عجز بمقدار ٦٦٥ مليون دولار، مقارنة مع فائض بلغ قرابة الألف مليار دولار في عام ٢٠٠٧م[٤].

إضافة إلى ما صرَّحت به مجموعة العشرين الاقتصادية في اجتماعها بكندا في يونيو ٢٠١٠م، أن التحديات الاقتصادية الكبرى ما زالت تفرض نفسها، ومخاوف العودة إلى

---

(١) صباح نعوش: خطورة الأزمة المالية الأميركية على الاقتصاد العالمي، دراسة منشورة على موقع الجزيرة نت، بتاريخ ٧ فبراير ٢٠٠٨م، (www.aljazeera.net).

(٢) أحمد السيد النجار: كراسات استراتيجية، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، العدد (١٩٤)، ديسمبر ٢٠٠٨م، ص١٦.

(٣) صحيفة الشرق الأوسط اللندنية، العدد (١١٠٤٦)، بتاريخ ٢٤ فبراير ٢٠٠٩م.

(٤) تأثيرات الأزمة المالية على دول العالم: الجزيرة نت، بتاريخ ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٨م، www.aljazeera.net.

الركود لم تتبدَّد بعدُ[1].

أمَّا عن آثار هذه الأزمة على الدول الفقيرة فقد أشارت دراسة أممية[2] إلى أن عدَّة صدمات اقتصادية ناجمة عن الأزمة المالية أخذت تُؤَثِّر بشدَّة على أشدِّ البلدان فقرًا؛ حيث تسبَّب هبوط معدلات التجارة العالمية في إلحاق أضرار كبيرة بالبلدان منخفضة الدخل، بجانب انخفاض تدفُّقَات رءوس الأموال من القطاع العالمي الخاصِّ العالمي إلى أشدِّ البلدان فقرًا إلى ٢١ مليار دولار أميركي في عام ٢٠٠٨م بعد أن كانت ٣٠ مليار دولار أميركي في عام ٢٠٠٧م، وذلك فضلاً عن الهبوط الضخم في حجم تحويلات العاملين إلى البلدان منخفضة الدخل.

كما توقَّع تقرير «الآفاق الاقتصادية العالمية ٢٠١٠م» أنه رغم أن أسوأ آثار الأزمة قد وقعت بالفعل، فإن تعافي الاقتصاد العالمي ما زال هشًّا، ويتوقَّع التقرير أن تُؤَدِّيَ آثار الأزمة إلى تغيير المشهد العام بالنسبة للتمويل والنموِّ على مدى السنوات العشر المقبلة، وجاء في التقرير تصريح للسيد جستن لين، النائب الأول لرئيس البنك الدولي لشئون اقتصاديات التنمية، ورئيس الخبراء الاقتصاديين، قائلاً: «للأسف! لا يمكننا توقُّع حدوث تعافٍ من هذه الأزمة العميقة والمضنية بين عشية وضحاها؛ فالأمر سيستغرق عدَّة سنوات حتى يمكن إعادة بناء اقتصادات البلدان، وخَلْق المزيد من فرص العمل، وستترك هذه الأزمة أثرًا بالغًا على الفقراء، وقد تحتاج البلدان الأكثر فقرًا في العالم -التي تعتمد على المنح أو الإقراض المدعوم- إلى ما يتراوح بين ٣٠ و٥٠ مليار دولار من التمويل الإضافي؛ حتى تتمكَّن فقط من الحفاظ على برامجها الاجتماعية، التي كانت قائمة قبل الأزمة»[3].

علاوة على ذلك، فمن المتوقَّع - بحسب التقرير - خلال الأعوام الخمسة إلى العشرة المقبلة أن تُؤَدِّيَ زيادة تفادي تحمُّل المخاطر، وتطبيق تدابير تنظيمية أكثر تحوُّطًا، والحاجة

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط اللندنية، العدد (١١٥٣٥)، بتاريخ ٢٨ يونيو ٢٠١٠م.

(٢) بيان صحفي رقم: ٢٠١٠/ ٦٤/ EXC، البنك الدولي، بتاريخ ١٦ سبتمبر ٢٠٠٩م، http://web.worldbank.org

(٣) بيان صحفي رقم: ٢٠١٠/ ٢٣٤/ DEC/AR، البنك الدولي، بتاريخ ٢١ يناير ٢٠١٠م، http://web.worldbank.org

لكبح بعض ممارسات الإقراض الأكثر خطورة - التي سادت خلال فترة الانتعاش قبل اندلاع الأزمة -إلى شحِّ رءوس الأموال، وارتفاع تكلفتها بالنسبة للبلدان النامية.

ونُضيف إلى ذلك شيئًا أخطر من امتناع الدول الكبرى عن تقديم مساعداتها للدول الفقيرة، وهو عودة التفكير الاستعماري من جديد عن طريق شنِّ حملات عسكرية لتعويض خسائر الأزمة المالية العالمية.

***

وبجانب العوامل التي صنعها الإنسان وأدَّتْ إلى نشوب الصراعات، وارتفاع درجة الاحتقان والتوتُّر في عالمنا المعاصر، تأتي مشاكل أخرى من البيئة الطبيعية المحيطة بنا، وتُنذر عند تفاقمها بحدوث نزاعات وحروب قد تكون أخطر وأقسى في نتائجها؛ ونضرب مثلاً بما تُنذر به مشكلة التصحُّر ونقص المياه العذبة من حروب مستقبلية طاحنة.

فقد عُقد مؤتمر قمة الأرض الثاني في مدينة (جوهانسبرج) بجنوب إفريقيا في الفترة من ٢٦ أغسطس إلى ٤ سبتمبر ٢٠٠٢م، وبحضور أكثر من ٩٣٠٠ شخص، من بينهم مائة من زعماء العالم، وقد برز من خلال قمة (جوهانسبرج) خطورة التحديات التي يُواجهها العالم؛ ومنها: مشكلة المياه، ومشكلة تصحر الأراضي الزراعية؛ حيث يتمُّ إهدار أكثر من ٢٠ مليار طن من التربة الخصبة سنويًّا، كما تتعرَّض ٧٠٪ من الأراضي الجافة التي تُستخدم في الزراعة -أي حوالي ثلث أراضي العالم- إلى مخاطر تحوُّلها إلى أراضٍ صحراوية، وتتعرَّض أكثر من ١١٠ دول -غالبيتها من الدول الفقيرة، إضافةً إلى ثلث الولايات المتحدة وخُمس إسبانيا- إلى مخاطر في هذا الصدد[١].

وأوضح المؤتمر أن تكلفة ظاهرة التصحر عالميًّا حوالي ٤٢ مليار دولار سنويًّا، ومن المتوقَّع أن يُهاجر ٦٠ مليون شخص بسبب هذه المشكلة من منطقة الساحل الإفريقي إلى شمال إفريقيا وأوربا بحلول عام ٢٠٢٠م[٢]، كما يُهدِّد التصحُّر نحو خُمس المساحة الكلية

---

(١) الموقع الرسمي لمنظمة الأغذية والزراعة، التابع للأمم المتحدة: www.fao.org.

(٢) تغطية صحفية لقمة الأرض الثانية، موقع الإسلام اليوم الإلكتروني، بتاريخ ٢٩ أغسطس ٢٠٠٢م، http://islamtoday.net

للبلاد العربية (٢,٨٧ مليون كم)، وتبلغ نسبة زحف الصحراء في شرق العالم العربي إلى نحو نصف الأراضي ٤٨,٦٪، وإلى نحو الثلث في وادي النيل والقرن الإفريقي ٢٨,٦٪[١].

وتتجلَّى أبرز آثار التصحُّر في القحط الناجم عن نضوب موارد المياه الجوفية، أو الكامنة في باطن الأرض، وفي تقلُّص المساحات وتدهورها جرَّاء قطع الأشجار، والرعي، والحرق، وفقدان خصوبة التربة وتماسكها في المناطق المجدبة.. كما أدَّت مشكلات الرعي غير المنظَّم مع تحوُّل الأرض إلى أسلوب الزراعة المستقرَّة في منطقة دارفور بغرب السودان إلى منازعات وتوترات بالغة[٢].

أمَّا على جانب الموارد المائية فنجد أن حجمها الإجمالي المتوفِّر في البلدان العربية يُقَدَّر بنحو ٣٠٠ مليار متر مكعب سنويًّا؛ تُمَثِّل منها موارد المياه السطحية ما يُقَدَّر حجمه الإجمالي بنحو ٢٧٧ مليار متر مكعب في السنة[٣]، وأكثر من نصف موارد المياه السطحية في العالم العربي مشترك مع دول أخرى (٥٧٪)، بمعنى أن النهر قد ينبت في البلد العربي ويمرُّ ببلاد أخرى، أو العكس؛ يمرُّ النهر أو يصبُّ في بلد عربي وهو ينبع ويمرُّ في دول أخرى؛ ولهذا فإن العلاقات القائمة بين هذه الدول المشتركة في الموارد يشوبها التوتُّر والاضطراب، ومعرَّضة لنشوب العديد من النزاعات مستقبلاً[٤].

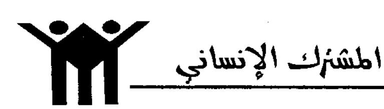
إضافة إلى النزاعات الناشئة بفعل أعداء الخارج؛ مثل تشجيع المحاولات الرامية لانفصال جنوب السودان عن شمالها، وتقديم جميع سبل الدعم لإقامة دولة جديدة ناشئة بهدف السيطرة على منابع نهر النيل، وذلك للضغط على مصر وشمال السودان سياسيًّا؛ حيث سيُصبح مصيرهما مرتبطًا بالدولة المسيطرة على مجرى النيل؛ ومن ثَمَّ مرتبطًا بالدول الكبرى ورغباتها، وعندها يصير القرار السياسي مرهونًا برغبات

(١) تقرير جامعة الدول العربية وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة لعام ٢٠٠٤م.

(٢) ضياء الدين القوصي: التهديدات البيئية التي يتعرض لها وادي النيل وتؤدي إلى التصحر ٢٠٠٨م، ص٤١.

(٣) طبقًا لحسابات برنامج الأمم المتحدة الإنمائي - مكتب تقرير التنمية الإنسانية العربية، بالاستناد إلى قاعدة البيانات الإحصائية لنظام المعلومات العالمي عن المياه والزراعة (AQUASTAT) لدى منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة.

(٤) من تقرير المنظمة العربية للتنمية الزراعية، التابعة لجامعة الدول العربية لعام ٢٠٠٣م.



هؤلاء، وتفقد مصر والسودان استقلاليتهما عمليًّا، أو تضطران إلى خوض غمار حربٍ أمام القوى الكبرى دفاعًا عن الحياة ذاتها[١].

إلى جانب توقُّع العديد من الخبراء في المؤتمر الدولي حول المياه، الذي عُقد في ستكهولم عام ٢٠٠٥م، أن تزداد بؤر التوتُّر الإقليمية المرتبطة بالسيطرة على المياه، مع تفاقم الجفاف في مختلف أنحاء العالم، وكان الأمين العام السابق للأمم المتحدة بطرس بطرس غالي[٢] حذَّر عام ١٩٨٨م -عندما كان وزيرًا للخارجية المصرية- من أن «النزاع المقبل في منطقتنا لن يدور حول السياسة، بل حول مياه النيل». وكذلك توقعت الأمم المتحدة من جانبها أن تُواجه مناطق مهمة في العالم؛ منها: الصين، ومعظم الدول العربية في غضون عقد أزمات حادَّة في التزوُّد بالمياه[٣].

***

كل ما ذكرناه من أزمات وصراعات مستعرة، أو متوقَّع حدوثها في المستقبل القريب يحدث في عصر يشهد ثورة في مجالات الاتصالات ووسائل المواصلات؛ جعلت العالم كأنه قرية صغيرة، ومع الإيجابيات الكثيرة لهذه الثورة إلاَّ أنها أسهمت في ظواهر خطيرة جدًّا، تساهم في دفع العالم إلى الهاوية؛ فما أن تحدث أزمة أو حربٍ في مكان إلاَّ وعَلِمَها العالم في ساعة وقوعها، وتابع تطوُّرَاتها لحظة بلحظة، مع ما يُسَبِّبه هذا البث المباشر من أثر بالغ على الشعوب؛ لا سيما متابعتنا لأحداث الغزو الأميركي للعراق، وللاعتداءات المتكرِّرة على فلسطين، وآخرها المجزرة الصهيونية الدموية لأهل قطاع غزة، وما سبَّبه هذا العمل الإجرامي من احتقان وتوترات عمَّت مظاهرها الشارع العربي والإسلامي[٤]..

ولنلحظ ما حدث من سرعة الاستجابة للأحداث السياسية، والردِّ السريع على التحديات في سرعة قياسية! فلم يَعُد الأمر يحتاج إلى سيارات تحمل أبواقًا وتجول في المدن

---

(١) راغب السرجاني: بين التاريخ والواقع، ١/ ٤٠.

(٢) بطرس بطرس غالي: هو بطرس يوسف بطرس غالي (١٩٢٢م-..)، حفيد بطرس نيروز غالي رئيس وزراء مصر في أوائل القرن العشرين، وهو دبلوماسي مصري، تولى منصب وزير الدولة للشئون الخارجية في عهدي السادات ومبارك، والأمين العام السادس للأمم المتحدة من عام ١٩٩٢-١٩٩٦م.

(٣) صحيفة أخبار الوطن المصرية، بتاريخ ٢١ سبتمبر ٢٠٠٥م: www.egyptiangreens.com.

(٤) صحيفة الشرق الأوسط اللندنية، العدد (١٠٩٩١)، بتاريخ ٣١ ديسمبر ٢٠٠٨م.

لدعوة الناس إلى مسيرة -سلميَّة أو غير سلميَّة- أو إنفاق مبالغ طائلة لترويج حدث سياسي في وسائل الإعلام التجارية، بل أصبح الأمر مجرَّد تحرير رسالة تعبئة واستنفار، وإرسالها إلى العناوين الإلكترونية لآلاف الناس في لحظة واحدة، أو نشرها على مواقع معينة في الشبكة الإلكترونية ليطَّلع عليها الآلاف، أو عبر قناة فضائية يراها العالم أجمع فيستجيبون للنداء[١].

ذلك إلى جانب استشعارنا الخوف من محاولات بعض القوى الكبرى لاستغلال هذه الثورة المعلوماتية في الترويج للغتها وثقافتها؛ لتمهيد الطريق أمام عصر تكون فيه هي المهيمنة على الشعوب كافَّة.. وعلى العكس تحاول بعض الفئات المستضعفة استثمار عصر المعلومات في الترويج لأفكارها وقناعاتها، التي قد تَتَّسم بالتطرُّف أحيانًا؛ فنرى الآن على شبكة المعلومات الدولية شرحًا لكيفية صنع القنابل والتخطيط للعمليات الإرهابية، وغيرها من أعمال العنف، متاحًا للجميع ولا يُكَلِّفه الحصول على هذه المعلومات سوى الضغط على زر صغير!

كذلك ما نراه من سهولة ويُسر أمام انتشار الأفكار الهدَّامة، التي تُشَجِّع على الانحلال والفجور، وتُنَاقِضُ كلَّ الأعراف التي تعارف عليها البشر؛ وعلى سبيل المثال فقد كشف متخصِّص سعودي في مجال الإنترنت أن ٩٣٪ من مستخدمي الإنترنت في السعودية يتصفَّحون المواقع الإباحية، و٧٪ يتصفَّحون مواقع محظورة؛ كالتي تُرَوِّج للمخدرات، أو تدعو إلى الإرهاب، أو الإساءة إلى الدين أو الدولة[٢].

***

فإذا أضفنا إلى ما ذكرناه تفشِّي مشاعر الإحباط واليأس وانتشارها بين أغلب الشعوب، والارتفاع الملحوظ لمعدلات الإصابة بمرض الاكتئاب، والإقدام على الانتحار في العالم -ولا فرق هنا بين شعوب فقيرة أو غنية، فأعلى نسب الانتحار نجدها في البلدان الغنية- نستشعر قدر الخطر الذي يحيق بمستقبل أبنائنا، ويدفعنا دفعًا نحو التفكير في سُبُل إنقاذهم، ومحاولة

---

(١) محمد بن المختار الشنقيطي: الإنترنت.. ثورة الفقراء في عصر التواصل، الجزيرة نت، ٧ أبريل ٢٠٠٥م، www.aljazeera.net

(٢) صحيفة دنيا الوطن، ٢١ ديسمبر ٢٠٠٤م، www.alwatanvoice.com.

إقناعهم بالتوقُّف عن السير نحو الهاوية.

فوَفقًا لتقارير منظمة الصحة العالمية أنه في كل عام يُوجد ما يقرب من مليون منتحر، وفي آخر ٤٥ سنوات ارتفعت معدلات الانتحار بنسبة ٦٠٪ في جميع أنحاء العالم، وأصبح الانتحار من بين الأسباب الثلاثة الرئيسة للوفاة بين الذين تتراوح أعمارهم من ١٥ إلى ٤٤ عامًا في بعض البلدان، والسبب الرئيس الثاني للوفاة في الفئة العمرية من ١٠ إلى ٢٤ عامًا في بلدان أخرى، علمًا بأن هذه الأرقام لا تشمل محاولات الانتحار الفاشلة! وأرجعت المنظمة السبب في هذه الظاهرة إلى ارتفاع نسبة الإصابة بالاضطرابات النفسية -خاصة الاكتئاب- واضطرابات تعاطي الكحول، يظهر ذلك بوضوح في حالات الانتحار في أوربا وأميركا الشمالية[1]، واليابان التي ليست ببعيدة عن هذه الصورة القاتمة!! (**انظر: شكل رقم ٢ ارتفاع معدلات الانتحار في اليابان**).

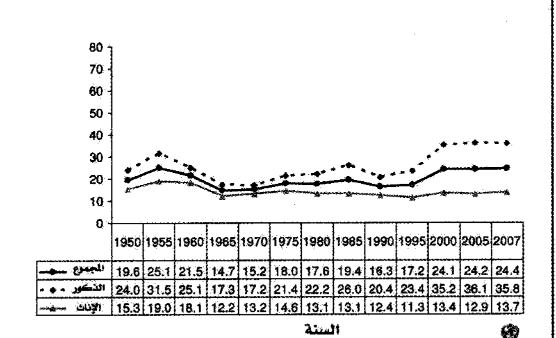
وأكثر ما نخشاه أن ارتفاع هذه النسب يُؤَدِّي إلى انتشار رُوح عامَّة من افتقاد الأمل والإحباط، بل ويدفع إلى تصرُّفات وردود أفعال غير متزنة، تدفع نحو المزيد من التوتُّر والاحتقان والصراعات بين الشعوب والبلدان.

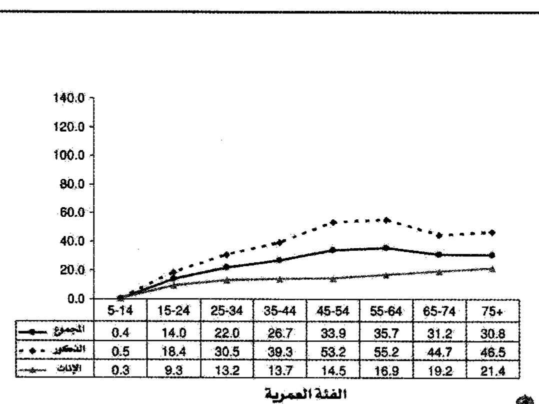
***

كما يمكننا إضافة مشاعر الخوف المَرَضِي من الإسلام -أو ما يُعرف بـ«الإسلاموفوبيا»- إلى الأسباب الداعمة لرؤيتنا بأن العالم -بأفكاره الحالية- يَتَّجه إلى المزيد من الصراع والشقاق، الذي يَتَّجِه به لا محالة إلى هاوية محقَّقة.. وكلمة «إسلاموفوبيا» -المنقولة عن اللغات الأجنبية هكذا بلفظها اللاتيني مكتوبًا بحروف عربية- تنطوي على معنى أنَّها ظاهرة مَرَضِيَّة، فهو خوف مَرَضِيٌّ من الإسلام، لا يُوجد ما يُسَوِّغه منطقيًّا، ولا يقتصر على حالات فردية، بل يعمُّ وينتشر، فهو أشبه بالوباء مع فارق أساسي، أنَّ الوباء ينتشر «رغمًا» عن الإنسان الذي يسعى لمكافحته، فإن لم يتراجع يُضاعِف الإنسان السويُّ جهوده، ويبتكر المزيد من وسائل المكافحة.

---

(١) الموقع الرسمي لمنظمة الصحة العالمية، www.who.int.





معدلات الانتحار في اليابان ١٩٥٠- ٢٠٠٧م

الفئة العمرية	5-14	15-24	25-34	35-44	45-54	55-64	65-74	75+	All
الذكور	31	1252	2596	3444	4155	5095	3088	2205	22007
الإناث	16	596	1084	1173	1129	1616	1492	1691	8820
المجموع	47	1848	3680	4617	5284	6711	4580	3896	30827

عدد حالات الانتحار في اليابان ١٩٥٠- ٢٠٠٧م

ارتفاع معدلات الانتحار في اليابان

شكل رقم (٢)





أما الخوف المرضي من الإسلام، فلم يَعُدْ مجرَّد خوف تلقائي لأسباب ما، بل أصبح في هذه الأثناء يُصنع صنعًا؛ أي: أصبح ناتجَ عمليةِ تخويف، ليُستخدم أداة من أجل تحقيق أغراض محدَّدَة، وهنا تجد هذه «الأداة» مَنْ يُرَكِّز عليها استغلالاً لها لتحقيق أغراضه، فإنْ رَصَدَ ضعفًا ذاتيًّا في مفعول الظاهرة، بذل الجهد بنفسه لزيادة مفعولها؛ أي: لمضاعفة حِدَّة الجانب المرضي فيها، وهو يزعم أنَّه يشكو منها ويُريد مكافحتها.

وللأسف نجد هذا الأمر في أوربا اليوم من خلال ما يُطلقونه من مصطلحات تُسَبِّب النفور والقلاقل بين الناس، لا سيما مصطلح «الإسلاموفوبيا»؛ الذي يُعَرِّف الإسلام على أنه دين إرهابي دموي، فهو الخطر الأخضر -كما يزعم بعضهم- **والجدول رقم (٣)** يرصد عدد مرات ظهور المصطلح في بعض أكثر الجرائد الإنجليزية والكندية والأميركية شهرة ونفوذًا؛ اعتمادًا على دائرة البحث الإلكترونية الأميركية Lexis Nexis[(١)]:

وهنا لا مفرَّ من طرح هذا التساؤل: لماذا ينظر الغرب هذه النظرة للإسلام؟!

وبعد بحث متعمِّق وجدنا أن هذه النظرة الغربية المتوجِّسة من الإسلام تعود إلى العديد من النقاط؛ التي يمكننا حصر أهمها فيما يلي:

أولاً: مسألة عقدية.. خاصة مع الصحوة الدينية:

إذ كما يجب على المسلم بحكم عقيدته أن يَذُبَّ عن دينه، ويدفع عنه أيَّ خطر محتمل، كذلك المسيحي يرصد بعين القلق الصحوة الإسلامية العارمة التي تجتاح العالم الإسلامي، ويخشى أن يأتي اليوم الذي تَتَهَدَّده هذه الصحوة، وقد حذَّر السير ألفريد شيرمان -المستشار السابق لرئيسة الوزراء البريطانية السابقة مارجريت تاتشر[(٢)]- في تصريح لجريدة الهيرالد تريبيون إنترناشيونال في ٩ فبراير ١٩٩٣م، من التهديد الإسلامي للغرب، في مقالة بعنوان: «الزحف الإسلامي الجديد على أوربا»؛ قائلاً:

---

(١) علاء بيومي: تقرير بعنوان «صعود الإسلاموفوبيا في المجتمعات الغربية»، منشور على موقع الجزيرة الإخباري، على الرابط: http://aljazeera.net.

(٢) مارجريت تاتشر Margaret Thatcher: (١٩٢٥م-..)، أول امرأة بريطانية تتسلم منصب رئيسة وزراء بريطانيا من ١٩٧٩- ١٩٩٠م، لُقِّبَتْ بالمرأة الحديدية والأكثر شعبية في بريطانيا.

الجريدة	٢٠٠١	٢٠٠٢	٢٠٠٣	٢٠٠٤	٢٠٠٥	٢٠٠٦
تايمز (بريطانية)	١٢	١٢	١٣	٣٤	٤٤	٩٢
جارديان (بريطانية)	١٤	٢٩	٢٠	٥٠	٤٤	٣٨
إندبندنت (بريطانية)	٢٢	١٥	١١	٣٧	٤٢	٣٠
تورنتو ستار (كندية)	٣	٣	١	١١	١٨	٣٨
نيويورك تايمز (أميركية)	٢	٢	٣	٧	٤	١٠
واشنطن بوست (أميركية)	٢	٣	٢	٢	٥	٥

عدد مرات ظهور مصطلح الإسلاموفوبيا في بعض أكثر الجرائد الإنجليزية والكندية والأميركية

جدول رقم (٣)

«يوجد تهديد إسلامي حيال أوربا المسيحية، هذا التهديد يتطوَّر ببطء، وما زال قابلاً للمراقبة، لكن سياسات البلدان الغربية هي المسئولة عن تصاعده نتيجة الشروط الملائمة التي تُوَفِّرها وتساعده على اتساعه؛ فالاستعمار المتدرِّج لأوربا الوسطى والغربية من جانب المسلمين ناتج عن الحيرة الاجتماعية والرُّوحية السائدة في أوربا، وانهيار القيم المسيحية والغربية»[(١)].

ثانيًا: انهيار الاتحاد السوفيتي:

إن انهيار الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٩١م -الذي يُعَدُّ بداية الإعلان عن الفوز الساحق لمعسكر الولايات المتحدة الأميركية وحلفائها- جعل الغرب يبحث عن بديل جديد يُعاديه؛ وقد تواترت التصريحات الغربية عن اختيار الإسلام كعدوٍّ جديد بديل عن الخطر الشيوعي، الذي طالما حشدوا طاقاتهم لمواجهته، ونذكر على سبيل المثال تصريح ويلي كلايس[(٢)] -الأمين العام السابق لحلف الأطلسي- لصحيفة الإندبندنت البريطانية:

«إن الخطر الذي يُشَكِّله الإسلاميون هو أهم التحديات التي تواجه الغرب بعد تفكك الاتحاد السوفيتي والكتلة الاشتراكية، وزوال خطر الشيوعية»[(٣)].

ثالثًا: أصحاب المصالح:

كما أن بعض الكيانات العسكرية -بما يُخَصَّص لها من اعتمادات مالية فلكية- لن تجد مُبَرِّرًا لوجودها إلاَّ في وجود قوَّة معادية، ومن هذه الكيانات حلف شمال الأطلسي، ونستدلُّ هنا بتصريح جاك بوميل (Jacques Baumel) -الوزير الفرنسي الأسبق، والعضو البرلماني، ونائب رئيس اللجنة الأولمبية- بأن:

«الحلف الأطلسي بعد أن حُرِمَ من أعدائه لم يَعُدْ له المنطق نفسه لوجوده كما كان في

---

(١) Fred Halliday «Les *fondements de* l'hostilité à l'islam» papier présenté à.

(٢) ويلي كلايس (Willy Claes 1938م-..): رجل سياسة بلجيكي الأصل، عضو في الحزب الاشتراكي، شغل منصب وزير خارجية بلجيكا في الفترة من ١٩٩٢ حتى عام ١٩٩٤، والأمين العام لمنظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو) (١٩٩٤-١٩٩٥م).

(٣) أحمد منصور: حلف الأطلسي يعلن الحرب على العالم الإسلامي، مجلة المجتمع، ٢٨ مارس ١٩٩٥م.

السابق؛ فالحصن الذي كان يمثله للغرب ضدَّ اعتداء محتمل من الشرق أصبح اليوم بلا جدوى.... فلنُحَذِّر من القوس الشيطاني من الجزائر إلى باكستان، ومن الدول التي تستعدُّ لامتلاك أو صناعة أسلحة دمار شامل؛ بيولوجية، وكيميائية، ونووية»[١].

وكذلك الجيش الأميركي وترسانته العملاقة، التي تستقطع مئات المليارات من الدولارات كل عام من الخزانة الأميركية؛ فقد بلغت مخصَّصَات وزارة الدفاع الأميركية في ميزانية عام ٢٠١٠م ٦٦٣,٨ مليار دولار[٢]!!

رابعًا: الفارق الكبير في المستوى الاقتصادي:

تكفي مجرَّد نظرة على التقارير السنوية التي ترصد حالة الاقتصاد في العالم لاكتشاف ذلك التباين الرهيب والتفاوت الواضح في القدرات الاقتصادية بين الدول الأوربية والغربية، وبين دول العالم الإسلامي بشكل عامٍّ؛ ومن واقع البيانات الواردة في تقرير التنمية البشرية في العالم عام ٢٠٠٩م وجدنا ما يلي:

نصيب الفرد من الناتج الإجمالي في النرويج بلغ ٨٢,٥ ألف دولار، وفي أيرلندا بلغ ٥٩ ألف دولار، وفي الدنمارك ٥٧ ألف دولار، وفي السويد ٥٠ ألف دولار، وفي هولندا ٤٧ ألف دولار، وفي الولايات المتحدة الأميركية بلغ ٤٥ ألف دولار، وفي فرنسا ٤٢ ألف دولار، وفي كندا ٤٠ ألف دولار، وفي إسبانيا بلغ ٣٢ ألف دولار..

بينما في اليمن بلغ ألف دولار، وفي السودان ١,١ ألف دولار، وفي مصر ١,٧ ألف دولار، وفي نيجيريا ١,٨ ألف دولار، وفي أوزبكستان ٨٣٠ دولارًا، وفي بنجلاديش ٤٣١ دولارًا، وفي جيبوتي ٩٩٧ دولارًا، وفي توجو ٣٨٠ دولارًا، وفي النيجر ٢٩٤ دولارًا فقط[٣]!!

هذا التفاوت الرهيب يُشعر الغرب برغبة هذه الدول الفقيرة في تحقيق مصالح مالية

---

(١) Jacques Baumel, La France,L,OTAN et les Etats-Unis, Le Monde,1/4/1993,P.2.

(٢) ميزانية الولايات المتحدة الأميركية لعام ٢٠١٠م، الموقع الرسمي للبيت الأبيض الأميركي، على الرابط:
www.whitehouse.gov/omb/budget/fy2010/assets/summary.pdf

(٣) تقرير التنمية البشرية في العالم عام ٢٠٠٩م، على الرابط:
http://hdrstats.undp.org/en/indicators/indicators_table.cfm

بطرق غير شرعية، أو على الأقل تحقيق الإيذاء بدوافع الحقد الطبقي المعروفة.

خامسًا: الأنظمة الدكتاتورية في العالم الإسلامي:

تأتي دول العالم الإسلامي في ذيل دول العالم من حيث تطبيق المبادئ الديمقراطية واحترام الحريات العامة؛ إذ تحكم الغالبَ الأعم من دول العالم الإسلامي النظمُ الدكتاتورية، وتخضع لحُكم الفرد؛ بما يجعل هذه الدول وكامل مُقَدَّراتها ملك يمين الحاكم؛ يُوَجِّهها كيف يشاء.. فإذا أراد السلام فهو السلام، وإذا أراد الحرب تكون الحرب؛ إذ إن المجموعات المعاونة له يتمُّ اختيارها بعناية لتكون أدوات لتنفيذ رغباته -ونزواته- وهذا مبعث للخوف بشكل عامٍّ من إمكانية تولِّي السلطة في هذه البلاد أحد الحكَّام الجانحين، أو الراغبين في الزعامة، فيُعلن الحرب على جيرانه لأي سبب تافه، بما يُهَدِّد السلام في العالم كله.

ويأتي مصداقًا لكلامنا تقرير الحرية في العالم عام ٢٠١٠م، الصادر عن منظمة دار الحرية في الولايات المتحدة الأميركية؛ إذ كشف أن جُلَّ دول العالم الإسلامي تُعتبر «غير حرَّة»؛ أي: تحكمها نظم دكتاتورية، على اختلاف درجة تسلُّطها.. ونضرب مثلاً بتقييم التقرير لمنطقة الشرق الأوسط والشمال الإفريقي؛ فنجد أنه وصف ١٤ دولة من إجمالي ١٨ دولة بأنها «غير حرَّة»، وثلاث دول من الأربعة المتبقية قال عنها: إنها تعطي لأحزابها السياسية هامشًا محدودًا من الحرية، وهي تركيا، ولبنان، وقبرص، بينما الدولة الوحيدة التي وصفها بالحرية هي للأسف دولة الكيان الصهيوني[1]! كما جاء في التقرير.

سادسًا: ظهور النزعات المتطرِّفة الحقيقية:

حيث ظهرت في العقود الأخيرة -كردٍّ فعل للعديد من المظالم التي ارتكبها الاستعمار، ونال نصيب الأسد منها العالم الإسلامي- بعضُ الدعوات الاستئصالية المتطرفة، التي تُنادي بتدمير العالم الغربي حفاظًا على الإسلام، ونجدها تجهر بالدعاء عليه بالهلاك! هكذا دون التفرقة بين المحاربين والمدنيين، وبين المنتفعين والمتربحين من نهب ثروات الدول الضعيفة في

---

(١) تقرير الحرية في العالم ٢٠١٠م، منظمة دار الحرية، الولايات المتحدة الأميركية، والتقرير متاح بصيغة Pdf على الرابط:
www.freedomhouse.org/uploads/fiw10/FIW_2010_Tables_and_Graphs.pdf

العالم وآخرين مُغَيَّبِين تحت وطأة إعلامٍ يَصُمُّ الآذان، ويقلب الحقائق، ويصف أبناء العالم الإسلامي بأشنع الصفات، ويُصَوِّرُهم كمجموعة بدائية من الهمج الأشرار.

وبالطبع نجد أصحاب المصالح يتلقَّفُون هذه الدعوات المتطرِّفَة -حتى وإن كانت صادرة عن فرد واحد أو مجموعة هزيلة- ويعملون على تضخيمها ويبرزونها إعلاميًّا؛ فنجد تصريحات متواترة؛ هذه من مسئول التنظيم في بلاد الشام، وتلك منسوبة لزعيم تنظيم آخر في بلاد المغرب العربي، وأخرى على لسان «أمير» الجماعة في شرق أوربا[(١)]، وهكذا باستمرار حتى يتسرَّب الفزع إلى قلوب كل أسرة غربية من الخطر القادم من العالم الإسلامي لسحقهم؛ فيُسارعون بالارتماء في أحضان حكوماتهم ليُفَوِّضوها بالتصدِّي لهذا الخطر الداهم!

سابعًا: ارتفاع معدلات الهجرة إلى الغرب:

أصبح ارتفاع معدلات الهجرة إلى دول العالم الغربي -خاصة من الدول الإسلامية- يُشَكِّل هاجسًا لدى العديد من مؤسَّسات صُنع القرار في الغرب، وتَعَدَّدت الدراسات التي ترصد هذه الظاهرة وتُنَبِّه من «خطورتها» على التركيبة السكانية خاصة في أوربا؛ فقد ذكرت دراسة أجرتها صحيفة الصنداي تليجراف البريطانية أن المسلمين شَكَّلُوا في عام ٢٠٠٨م نسبة ٥٪ من سكان دول الاتحاد الأوربي الـ(٢٧)، وأضافت الدراسة أن ارتفاع معدَّلات المهاجرين من الدول الإسلامية، وتَدَنِّي معدلات المواليد بين الأوربيين سيجعل هذه النسبة تقفز إلى ٢٠٪ مع حلول عام ٢٠٥٠م[(٢)].

كما رصد مركز «بيو» الأميركي المتخصص في أبحاث الدين والسكان في العالم أن الإسلام هو الدين الأسرع نموًّا في أوربا؛ حيث تضاعف عدد المسلمين في القارة الأوربية ثلاث مرات خلال السنوات الـ(٣٠) الماضية، وأرجع المركز ذلك إلى ارتفاع معدلات الهجرة، إضافة إلى زيادة أعداد المواليد في الأسر المسلمة المهاجرة[(٣)].

---

(١) نماذج من هذه التصريحات المتكررة، شبكة CNN الأميركية، على الرابط:
http://topics.edition.cnn.com/topics/terrorism

(٢) صحيفة صنداي تليجراف البريطانية، ١١ أغسطس ٢٠٠٩م، على الرابط: www.telegraph.co.uk.

(٣) مركز بيو لأبحاث الدين والسكان بواشنطن، على الرابط: http://pewforum.org.

ثامنًا: النمو السكاني في العالم الإسلامي:

فقد بلغ عدد المسلمين في العالم ١,٥٧ مليار نسمة في عام ٢٠٠٩م[١]، بما يُقارب ربع سكان العالم.. وتفيد الدراسات المتكرِّرة أن الإسلام هو الدين الذي يُحقِّق أكبر نموٍّ سكاني في العالم، مقارنة بأيٍّ من الأديان أو التيارات العقائدية الكبرى، وذلك بعد أن كان الإسلام يحتلُّ المرتبة الأخيرة على العالم من حيث عدد الأتباع بين الديانات والعقائد الأخرى في عام ١٩٨٠م، **والجدول رقم (٤)** يُوَضِّح معدل النمو السكاني في العالم الإسلامي مقارنة بكبرى الديانات والعقائد في العالم[٢].

تاسعًا: تاريخ العداء القديم بين الغرب والإسلام:

فالغرب لا يستطيع أن ينسى تاريخه الدامي مع المسلمين، وكذلك لا يمكننا أن نعتب على المسلمين مشاعر التوجُّس والارتياب من أي تحرُّك أوربي تجاه العالم الإسلامي.. ويمكننا أن نستشف هذا العداء التاريخي للمسلمين من خلال أقوال الساسة وصُنَّاع القرار في الغرب؛ حيث يتبنَّى معظمهم فكرة الصدام المرتقب مع العالم الإسلامي، هذه الفكرة التي أصبحت إحدى النقاط المركزية في استقراء تحوُّلات ما بعد الحرب الباردة.. ومن أمثلة هذه التصريحات الكاشفة مقولة ريتشارد نيكسون[٣] وزير الخارجية الأميركي الأسبق:

«إن بعض المراقبين يُنَبِّهُون إلى أن عالم الإسلام سوف يتحوَّل إلى قوَّة جيو سياسية[٤] موحَّدة ومتعصبة، وأنه بسكَّانه المتزايد العدد، وقوته المالية الكبيرة، سوف يُشَكِّل تحدِّيًا كبيرًا، وأن الغرب سوف يضطر إلى عقد تحالف جديد مع موسكو لمواجهة عالم إسلامي خصم عدواني»[٥].

---

(١) تقرير عن تعداد المسلمين في العالم عام ٢٠٠٩م، مركز بيو لأبحاث الدين والسكان بواشنطن، على الرابط:
http://pewforum.org/uploadedfiles/Topics/Demographics/Muslimpopulation.pdf

(٢) dans:Jean Bernard«Le Nombre des homes: Etats et prospective»J.B.Pichat,.

(٣) ريتشارد ميلهوس نيكسون (Richard Milhous Nixon) (١٩١٣-١٩٧٤م): الرئيس الأميركي رقم (٣٧) (١٩٦٩-١٩٧٤م)، أول رئيس أميركي يمنح الكيان الصهيوني مساعدات مالية تقدر بالمليارات، وأول رئيس أميركي يزور الصين، استقال من منصبه إثر فضيحة ووترجيت.

(٤) جيو سياسية؛ أي: جغرافية سياسية.

(٥) ريتشارد نيكسون: أميركا والفرصة التاريخية، ص١٨٧.

الأديان والعقائد الكبرى	١٩٨٠	١٩٨٥	٢٠٠٠	٢٠٢٥م
اليهودية والمسيحية	١٣٨٥	١٤٦٣	١٧٠٣	٢٠٦١
العقائد الصينية	١٠٠٣	١٠٦٣	١٢٥٦	١٤٦٠
الإسلام	٨٠٠	٨٥٧	١٤٢٩	٢٥٠٣
سكان العالم	٤٤٥٣	٤٨٤٢	٦١٢٧	٨١٧٧

معدل النمو السكاني في العالم الإسلامي مقارنة بكبرى الديانات والعقائد في العالم

جدول رقم (٤)

وكذلك العديد من المفكِّرين الاستراتيجيين الغربيين؛ كقول بول يالطا: «ونحن نوشك أن ندخل الألفية الثالثة لدينا شعور بأن المناخ يُؤَشِّر على المواجهة أكثر من التعايش بين العالم الإسلامي والحضارات التي تحيط به»[١]، وبخاصة الحضارة الغربية الأوروبية، فأوربا بسبب موقعها الجغرافي والاستراتيجي ستكون في مواجهة جغرافية سياسية مع الإسلام من أطرافها الجنوبية المتوسطية، فلا يمكن لنا من خلال مئات السنين من التاريخ المشترك تغييب هذه الحقائق أو إنكارها، ولا بُدَّ من أخذها بعين الاعتبار في جدلية المتغيرات المستقبلية الاقتصادية والثقافية والدينية[٢].

عاشرًا: اعتماد الحضارة الغربية على موارد العالم الإسلامي:

ونختم تحليلنا لأسباب ظاهرة الخوف المرضي من الإسلام بنقطة غاية في الأهمية؛ وهي الكميات الهائلة من الكنوز والثروات -لا سيما البترول- التي يمتلكها العالم الإسلامي، والتي تُعَدُّ من أهمِّ مصادر الطاقة والمواد الخام التي تقوم عليها الطفرة الصناعية في العالم الغربي.

ونذكر هنا واقعة التهديد العربي بوقف تصدير النفط إلى الدول المؤيِّدة للكيان الصهيوني في حرب ١٩٧٣م، بما شَكَّل تهديدًا استراتيجيًّا لمصالح الغرب[٣]، ونتج عنها إحساس معادٍ للمسلمين من الدول الغربية؛ حيث نظرت للأمر كنوع من الابتزاز والتهديد، ولم تبحث كثيرًا وراء الأسباب التي دفعت العرب والمسلمين لاتخاذ هذا الموقف.

وطالما ظلَّ -وتزايد- الاحتياج الغربي للموارد الإسلامية كعنصر أساسي لاستمرار النهضة الأوربية والغربية، سيظلُّ هاجس تأمين هذه الموارد -واحتكارها- وضمان تدفُّقها هاجسًا ملحًّا في عقل الشعوب الغربية.

***

---

(١) L,Islam dans, le monde,P.305

(٢) عبد الجليل التميمي: التسامح الإسلامي المسيحي، هل هي معادلة مستحيلة؟ ص١٠.

(٣) 35 Years After the Arab Oil Embargo- 6/10/2008- Journal of Energy Security, www.ensec.org.

كما نودُّ أن نشير إلى ظاهرة خطيرة أخرى، بل إننا نعدُّها الأخطر في كل ما ذكرناه من ظواهر تُؤَكِّد اندفاع العالم نحو الهاوية، ونقصد هنا ظاهرة انتشار الفكر التصادمي، ومحاولة «تأصيل الصدام» وتشريعه، وإظهاره بمظهر أخلاقي، وذلك للأسف من قِبَل بعض كبار الكتاب والمفكرين في عالمنا المعاصر!

وقد ساعدت الثورة الإعلامية الكبرى والأحادية القطبية التي نحيا في ظلِّها على انتشار أفكار هؤلاء المنظِّرين الصداميين من الأميركيين -خاصة- أو الأوربيين بشكل عامٍّ، ومن أشهر هؤلاء المنظِّرين الفيلسوف الأميركي فرانسيس فوكوياما[١] (Francis Fukuyama) الذي وضع نظرية بعنوان «نهاية التاريخ»، وقام بشرحها في مقاله الشهير «نهاية التاريخ» بقوله: إن ما نشهده الآن ليس نهاية للحرب الباردة، أو مرور فترة معينة لمرحلة ما بعد الحرب، وإنما نهاية للتاريخ، بوضع حدٍّ للأفكار الأيديولوجية في التاريخ الإنساني، معلنة انتصار قيم الليبرالية الديمقراطية الغربية التي تمثِّلها بالطبع الولايات المتحدة الأميركية[٢].

وبناء على هذه القناعة لدى فوكوياما قام بدعوة الرئيس الأميركي السابق بيل كلينتون[٣] إلى ضرورة التخلُّص من نظام الرئيس العراقي السابق صدام حسين، ووقَّع على خطاب مماثل وَجَّهَهُ إلى الرئيس بوش[٤] في أعقاب هجمات ١١ سبتمبر؛ حيث كان فوكوياما مؤمنًا بضرورة التخلُّص من الأنظمة الاستبدادية بالقوَّة خاصة في حالة الشرق الأوسط[٥]!

---

(١) فرانسيس فوكوياما: هو يوشيهيرو فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama (١٩٥٢م-..)، كاتب ومفكر أميركي، من أصول يابانية، يُعَدُّ من أبرز مفكري المحافظين الجدد، من كتبه: (نهاية التاريخ والإنسان الأخير)، و(الانهيار أو التصدع العظيم).

(٢) سوف تتم مناقشة هذا الموضوع بتوسُّع في فصل «وقفة مع الفكر الغربي الحديث» من الباب الثالث في هذا الكتاب.

(٣) كلينتون: هو ويليام جيفرسون بيل كليتُون William Jefferson Bill Clinton (١٩٤٦م-..): رئيس الولايات المتحدة الأميركية رقم (٤٢)، انتُخب لفترتين رئاسيتين متتاليتين بين عامي ١٩٩٣ و٢٠٠١م، وفي عام ٢٠٠٤م، أصدر سيرته بعنوان: (My Life).

(٤) جورج بوش الابن George W. Bush (١٩٤٦م -..): رئيس الولايات المتحدة الثالث والأربعون، اتسمت فترة حكمه بالعدائية والحرب الصليبية على الإسلام، وفي عهده احتلت أفغانستان والعراق ومساندته للصهيونية في فلسطين.

(٥) يمكن الاطلاع على نص الخطاب على هذا الرابط: www.newamericancentury.org/Bushletter.

وعلى النهج الصدامي نفسه صار صامويل هنتنجتون أستاذ العلوم السياسية الأميركي، الذي نشر في صيف عام ١٩٩٣م مقالاً بعنوان: «صدام الحضارات»، في مجلة الشئون الخارجية (Foreign Affairs) الأميركية، فأثار جدلاً واسعًا، ثم قام هنتنجتون بنشر هذه الفكرة في كتاب بعنوان: «صراع الحضارات» كنظرية جديدة للعلاقة بين الحضارات، وقد لاقى الكتاب شهرة واسعة، فتُرجم إلى ٣٣ لغة، وتمَّ توزيعه في مختلف أنحاء العالم[١].

واللافت في نظرية هنتنجتون ونظرته إلى حضارات العالم التي ترى أن ما يحكم العلاقة بين تلك الحضارات هو «الصدام»، وهذا الصدام أساسه الثقافة أو الهوية التي تحكم كل حضارة، ويعتقد هنتنجتون أن خريطة العالم بعد الحرب الباردة ستكون مرتبطة بالتفاعل بين سبع أو ثماني حضارات كبيرة تشمل: «الحضارات الغربية، الكونفوشيوسية، اليابانية، الإسلامية، الهندية، السلافية الأرثوذوكسية، والأميركية اللاتينية، وربما الإفريقية»..

وستكون أهم النزاعات الواقعة في المستقبل عند الحدود الثقافية الفاصلة بين هذه الحضارات، ويرى أن هناك احتكاكًا يحدث الآن وسيزداد في المستقبل على طول تلك الحدود، التي تُعَدُّ -في رأيه- بمثابة نقاط لانفجار الأزمات والحروب الحضارية!

ثمَّ يُبَيِّن هنتنجتون بشكل واضح أن البؤرة المركزية للصراع في المستقبل ستكون بين الغرب من جهة، والإسلام والكونفوشيوسية من جهة أخرى؛ حيث سيعقدان ما سمَّاه «الترابط الإسلامي الكونفوشيوسي» ضد قيم ومصالح الغرب[٢]..

ونحن نرى أن فكرة صراع الحضارات -وأمثالها- من الأفكار التصادمية مثَّلت الأساس النظري لشرعنة عدوان الغرب بقيادة الولايات المتحدة على العالم الإسلامي[٣].

وأخطر من ذلك ما جاء به المفكر الفرنسي جون كريستوف روفان[٤]

(١) صحيفة صنداي تايمز الأميركية، ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٨م: www.timesonline.co.uk.

(٢) محمد سعدي: مستقبل العلاقات الدولية، ص١٢٠، ١٢١.

(٣) سوف تتم مناقشة هذا الموضوع بتوسع في فصل «وقفة مع الفكر الغربي الحديث» من الباب الثالث في هذا الكتاب.

(٤) جون كريستوف روفان (Jean Christophe Rufin 1952م-..): طبيب ودبلوماسي ومفكر سياسي فرنسي، عمل سفيرًا لفرنسا في السنغال وجامبيا، وعمل مديرًا للصليب الأحمر الفرنسي، وأستاذًا في معهد الدراسات السياسية في باريس، من كتبه: (المتمردون في العالم).

(Jean Christophe Rufin) في كتابه «الإمبراطورية والبرابرة الجدد»؛ حيث يُقَسِّم العالم إلى عالم متحضِّر وبرابرة متخلِّفِينَ، وهذا الحال مثل حال الإمبراطورية الرومانية القديمة، التي يصفها بأنها كانت عادلة ومتحضِّرة، وجيرانها من الشعوب السلافية والبربرية يعيشون دون نظام أو تحضُّر.. ثُمَّ ينتقل إلى واقعنا الحالي فيقول: إن الغرب يمثل روما المتحضِّرَة بينما سكان الجنوب؛ مثل: أميركا الجنوبية وإفريقيا وجنوب آسيا، يُمَثِّلون البرابرة الهمج، ولضمان الحفاظ على الشمال الناهض المتقدِّم لا بُدَّ من وجود مناطق عازلة تفصله عن الجنوب المتخلِّف، وهذا ما تُمَثِّله بلاد الشمال الإفريقي في القارة الإفريقية، وتركيا ودول القوقاز في آسيا، والمكسيك وكوبا في أميركا اللاتينية، ولا مانع لديه من تقديم الدعم الغربي لهذه المناطق العازلة لتقوية وجودها، وبالتالي حمايته من الهمج المتخلِّفين[1]!

ولعلَّ هذا الطرح يُفَسِّر لنا أمورًا كثيرة نلمسها في واقعنا المعاصر؛ مثل: الدعم الأميركي لدول الشمال الإفريقي لا سيما مصر والمغرب، وكذلك يُفَسِّر سَرَّ الرفض الأوربي لضمِّ تركيا إلى دول الاتحاد الأوربي لتصبح من دول الشمال، بينما أوربا تُريدها حاجزًا وعازلاً عن الدول المتخلِّفة -في رأي روفان-. كما تُوَضِّح لنا فكرة روفان سِرَّ الدعم الغربي للكيان الصهيوني كمنطقة عازلة بينهم وبين الجنوب، إضافة إلى أنها تمتصُّ كل التوتُّرات والشحنات العدائية الآتية من الجنوب المتخلِّف.

لقد نسي أو تناسى جون كريستوف روفان وأمثاله من أين أتته العلوم التي يتباهى بها الآن، لقد جاءت من دول الجنوب التي يصفها بالجهل، بل إن الغرب لم يعرف علوم الأقدمين إلاَّ عن طريق المسلمين؛ فحضارة اليونان لم تُعرف إلاَّ من خلال الحضارة الإسلامية، وترجماتها[2]، ورأينا في هذا الفصل كيف حصل الغرب على المواد الخام التي بنى بها صناعته ونهضته، ومن أين أتى بالقوى العاملة -المسخَّرة- لخدمته، وكيف استعمر الشعوب وحال بينها وبين العلم، ثم ينعتها الآن بالجهل والتخلُّف، وكأنها وُلدت كذلك همجية ومتخلِّفَة!

---

(١) Jean-Christophe Rufin.L.Empire et les nouveaux barbares - Paris: J.C.Lattes.1991.

(٢) للمزيد انظر: راغب السرجاني: ماذا قدم المسلمون للعالم.. إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية، مؤسسة اقرأ - مصر، ط١: ١٤٣٠هـ=٢٠٠٩م.

ويستطرد روفان في شرح رؤيته قائلاً: «إذا لم ينجح الغرب في التنظيم الديموجرافي لدول الجنوب عن طريق التنمية والتخطيط العائلي، فلا مانع من أن يلجأ إلى طرق وحشية تكون خاصة بالجنوب فقط، ولا يُسمح بها في الدول المتقدِّمَة؛ فما دمنا فشلنا في مراقبة وتنظيم الزيادة الديموجرافية، فلماذا لا نترك الكوارث الطبيعية تفعل فعلها؟... مثل: الحرب، والمجاعات، والفيضانات، والزلازل، والأوبئة – وخاصة السيدا[١] – لتتكفَّل بالقضاء على الفائض الزائد من السكان في الجنوب[٢]»!

***

وفي النهاية:

نحن نتوقَّع أن العالم مقبل على انفجار كوني جديد..

قد يسحق عددًا هائلاً من البشر..

وقد تفقد البشرية تقدُّمها وتعود عشرات السنين إلى الوراء..

ومن ثَمَّ كانت هذه النظرية..

---

(١) السيدا: من الأمراض البكتيرية الفتاكة.

(٢) Jean-Christophe Rufin. Nord-Sud: C,est La nouvelle gerre froide, Match (Paris) (22aout 1991),P.5.

الباب الثاني

نظرية المشترك الإنساني

الفصل الأول : البناء الفكري للنظرية

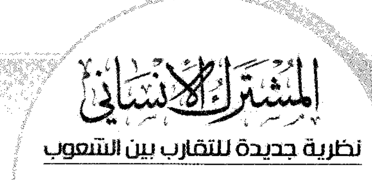
الفصل الثاني : المشترك الأسمى

الفصل الثالث : المشتركات الإنسانية العامة

الفصل الرابع : المشتركات الإنسانية الخاصة

الفصل الخامس : المشتركات الإنسانية الداعمة





الباب الثاني

نظرية المشترك الإنساني

تمهيد:

لا يعيش الإنسان بمفرده على ظهر هذا الكوكب.. إنما يُشارك غيره من البشر الذين ينتشرون في معظم اليابسة؛ وحيث إننا ذكرنا في الباب الأول أن الإنسان لم يُخلق كاملاً، وكذلك بيئته المحدودة التي يعيش فيها، فإنه كان لزامًا على الإنسان أن يتعامل مع غيره من البشر، الذين يُكملون له نقصه ونقص بيئته، وليس هنا فضل لأحد على أحد، بل الكل يحتاج إلى الآخرين، وهذا ما نفهمه من قول الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿**وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا**﴾ [الزخرف: ٣٢]، فشعب يمتلك البترول، وآخر يمتلك الماء، وثالث يمتلك التقنية، ورابع يمتلك الطاقة البشرية، وخامس يمتلك أرضًا خصبة، بل إن بعضهم لا يمتلك إلا منظرًا جميلاً يُريح النفس كشاطئ بحر أو جبل سامق.. والكل هنا مُسخَّر عند الآخر، ولا تستقيم حياة لشعب دون شعب.

ونتيجة هذه الصورة المتنوِّعة من الإبداعات والمواهب والإمكانيات والطاقات كان لزامًا على كل شعب أن يسعى للتعامل مع شعوب الأرض الأخرى، وهذا ليس أمرًا جديدًا نتيجة ثورة المعلومات أو الاتصالات، بل هو مزروع في فطرة الإنسان منذ أيامه الأولى على الأرض، وتاريخ الدنيا يُثبت هذه التعاملات بشكل يقيني لا شكَّ فيه.

وذكرتُ في الباب الأول -أيضًا- أن الإنسان في تعامله مع أخيه الإنسان لم يكن أمامه إلاَّ طريق من اثنين لا ثالث لهما.. فأما الطريق الأول فهو طريق الأسوياء؛ وهو التعارف على غيره من البشر والتعاون معهم للوصول إلى مصلحة مشتركة لكل الأطراف المتعاونة، وهذا يُحقِّق منافع لا يمكن حصرها، والطريق الثاني هو طريق الأشقياء، وهو التصادم مع الشعوب الأخرى المالكة



لبعض ما يُكمل عجز الطرف المعتدي، وهنا يتصرَّف الإنسان المعتدي بأنانية وصلف وغرور؛ ليُحقِّق مصلحته الشخصية دون النظر إلى مصالح الآخرين.

وهكذا فنحن حتمًا سنسير في أحد طريقين:

- إما التعارف لتحقيق مصلحة مشتركة.

- وإما التصادم لتحقيق مصلحة فردية، دون اعتبار لمصالح الناس.

وجدير بالملاحظة أن الإنسان عدو ما يجهل، فالذي لا أعرفه قد أتخذ منه موقفًا عدائيًّا صداميًّا دون شعور، وهذا يعني أنه كلما قلَّ التعارف بين الشعوب زادت وتيرة الحرب وحدَّتها، وعلى العكس فإنه إذا زاد التعارف بين شعبين فإن هذه المعرفة ستُحَوِّله من مجهول نخشى التصادم معه إلى معروف نأمل في التقرُّب إليه، وهذا -لا شَكَّ- سيُقَلِّل من الحروب وأزماتها.

تُصبح القضية إذًا هي البحث عن آليات للتعارف بين الشعوب؛ فهذا يضمن للعالم حياة أكثر أمنًا وسلامًا.

فإذا وضعنا في الأذهان ما ذكرته في الفصل الثاني من الباب الأول، عندما رصدتُ أمورًا كثيرة كلها تُشير إلى أن العالم يسير بخطى حثيثة نحو هاوية سحيقة، إذا وضعنا هذا في ذهننا أدركنا أننا في حاجة ملحَّة إلى منهج واضح يدفعنا إلى تعارف بنَّاء يقود إلى تحقيق مصالح مشتركة لكل البشر، وإلاَّ فالعواقب ستكون أكثر من وخيمة.. ومن هنا جاءت فكرة هذه النظرية.

***

لننظر نظرة متفحِّصة إلى الكون الذي نعيش فيه..

مَنْ يستطيع أن يقول: إن هذا الكون خُلق عبثًا؟!

حتى الملاحدة اللادينيون الذين يُنكرون أن للكون خالقًا لا يستطيعون وصف طبيعة الحياة في الكون بالعبثية..

إن الكون يسير وفق نظام دقيق، وقواعد ثابتة محددة ومعروفة..

لا تتصادم الشمس مع مثيلاتها من النجوم، ولا يطغى فلك على فلك..

لا تتصادم شجرة مع أخرى، ولا يتنازع نبات مع آخر.. بل يعيش الجميع في نظام بديع يُثري الكون بتنوُّعه.

حتى عالم الحيوان الذي يُوصف بأنه عالم الغابة التي يأكل فيها القوي الضعيف كما يقولون.. إنه ليس عالمًا شريرًا في واقع الأمر، وليس كما تصوِّره الأفلام الكارتونية الطفولية من أن جرادًا شريرًا يطغى على نمل طيب، أو أسدًا خبيثًا يتآمر على غزال بريء.. إنه مجتمع خالٍ من الشرِّ في الحقيقة.. إنما يتحرَّك كل منهم بغريزته لتحقيق حتمية لا يستطيع أن يختار غيرها.. فمعدة الأسد وأمعاؤه لا يستطيعان هضم الأعشاب والحشائش، ولو كانت تصلح لذلك، لكان أيسر عليه أن يأكلها بدلاً من التعب المضني وراء غزال سريع أو جاموس قوي..

إنهم جميعًا يعيشون بفطرتهم دون عداء أو صدام مدبَّر، ويشمل ذلك الحيوانات التي اشتهرت بالشرِّ في ثقافتنا كالذئب والضبع والحية والثعلب.. فكل هذه الأنواع تعيش حياة طبيعية لا شرَّ فيها.. ولذلك فالشرائع السماوية لا تضع عليهم تكليفًا أو حسابًا، وليس لهم جنة أو نار.

بل إن الإبداع في عالم الحيوان والأسماك والحشرات في أن ما يبدو لنا تصادمًا هو في واقع الأمر توازن! فلو أن الحيوانات التي «تَفْتَرِس» لم تأكل فريستها لحدث اختلال بيئي، قد يُؤَدِّي إلى كوارث طبيعية، وهذا عادةً لا يحدث لأن الكون يسير وفق نظام بديع، والحالة الوحيدة التي نرى فيها اختلالاً لهذا التوازن هي عندما يتدخَّل الإنسان «الشرير» فيُسرف من أجل مصالحه الخاصة في قتل أو اصطياد أحد الحيوانات، مما ينتج عنه هذا الاختلال الخطير، وكمثال على ذلك يمكن أن نُراجع عدَّة مجاعات حدثت في الهند، كان سببها انتشار الفئران بشكل وبائي.. ولماذا انتشرت الفئران؟ لأن الإنسان تدخَّل واصطاد عددًا كبيرًا من الثعابين والحيات؛ للاستفادة من جلودها في صناعة حقائب وأحذية للثريات من السيدات في الأقطار الغنية، وكانت هذه الثعابين تتغذى «دون شرٍّ» على طعامها الفطري من الفئران، فلما ذهبت



الثعابين توحشت الفئران، ودفع الفقراء في الهند الثمن!

إن هذا المثال يُعطينا فكرة عن الأزمة التي يعيشها العالم، حيث يُفكِّر بعض النفعيين في تحقيق مصالحهم الأنانية دون اكتراث بالمرة بالملايين التي ستعاني من جرَّاء هذه المبادئ النفعية المقيتة.

هذه صورة عن النظام البديع للكون..

فأين بنو البشر من هذا النظام؟!

أيُعقل أن هناك نظامًا للنمل والنحل والحية والفأر يحكم حياتهم ويُسيِّرها وليس للإنسان مثل هذا النظام؟!

إنني لا أشك لحظة في أن المنظومة الإنسانية بها هذا النظام الكوني البديع، بل وأرقى، وأن التوازن الذي رأيناه في عالم «الغابة» يمكن أن نجده بشكل أروع في عالم الإنسان الأعلى درجة، والأرقى منزلة..

إذًا أين المشكلة؟!

ولماذا يظلم شعبٌ شعبًا آخر؟! ولماذا تُفْنَى أمم من أجل سعادة أمم أخرى؟!

واقع الأمر أن الاختلاف الرئيس بين الإنسان وغيره من المخلوقات أن الإنسان يملك «الإرادة»، وهذه الإرادة تدفعه أن يختار، وهو لذلك الذي يحدِّد المسار، فقد يُصبح «شريرًا» ويبحث عن مصلحته غير عابئ بالآخرين، أو يُصبح «خيِّرًا» يحرص على مصالح الجميع مع مصلحته.. ومع الطائفة الأولى تشقى البشرية، ومع الطائفة الثانية يسعد الكون.. ومع الطائفة الأولى يحدث التصادم والقتال، ومع الطائفة الثانية يحدث التعارف والوئام.. والإنسان هو الذي «يختار» في النهاية.. وصدق الله ﷻ حيث قال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]..

لكن المهم في هذه الجزئية، وما أريد أن أخلص إليه في الحقيقة، هو أن النظام الذي يمكن أن ينصلح فيه الكون، ويقل التصادم فيه هو نظام موجود وواقعي، وليس خياليًّا، لكن الإنسان هو الذي «يختار» الفوضى، ويختار اللانظام، ويُعرض عامدًا عن الآليات التي تكفل للكون راحته، وتحقق سعادته..



هذا الكلام يعني أنه علينا أن «نكتشف» هذا النظام لا أن «نخترعه»!

إن الإنسان العاقل لن يخرج عن الدقَّة المتناهية التي يتمتَّع بها الكون بكامله، ومن هنا فإمكانية التعارف «أكيدة» وليست مجرَّد «محتملة».. والشرائع السماوية التي أمرتنا بالتعارف والتحاب والتآلف والتعاون والتعايش لم تطلب منا هذا الأمر وإمكانياتنا تعجز عن تحقيقه.. إننا فقط يمكن أن نعجز في مرحلة من مراحل حياتنا عن «اكتشاف» ما بثَّه الله ﷻ في الكون من آليات تدفع إلى التعارف والتعايش، وهنا يأتي دور المخلصين من المفكرين والعلماء والقادة، الذين يبحثون بصدق عن هذه الآليات ليحفظوا شعوبهم أولاً، ويحفظوا الكون كله معهم.. وهذا يعني أن دواء التصادم والتشاحن موجود لكن قد يخفى على بعض الناس، وأحيانًا يخفى على بعض الأجيال!

ولقد قال رسول الله ﷺ: **«مَا أَنْزَلَ اللهُ ﷻ دَاءً إِلاَّ أَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ»**[1].

فالدواء موجود، لكن المشكلة تكمن في الجهل به.. لكن واقع الأمر هناك مشكلة أعمق من ذلك!

وهو أن البشر كثيرًا ما «يعرفون» الدواء و«يُعْرِضون» عن أخذه! -وذلك كما ذكرتُ في البداية- بدوافع من الأنانية والأثرة وحُبِّ الذات، وهذا يُكلِّف البشرية الكثير من الدماء والدمار والخراب..

ودعوني أذكر حقيقة لم يُدركها هؤلاء الأنانيون..

إن المصلحة المادية التي يحققها هؤلاء الأنانيون على حساب مصالح الآخرين هي أقل -في الحقيقة- من المصلحة التي كانوا سيُحقِّقونها لو سعوا إلى تحقيق مصالح مشتركة لكل الأطراف!

إن ربحهم كان أقل عندما فكَّروا في ذواتهم فقط!

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣٩٢٢) عن عبد الله بن مسعود، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح لغيره وهذا إسناد حسن. وابن حبان (٦٠٦٢) وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. والحاكم (٨٢٢٠).

وأنا تعمَّدت أن أذكر المصلحة «المادية»؛ لأتكلم معهم من المنطق نفسه الذي يُفَكِّرون به، مع قناعتي التامَّة أن الحساب الأخروي سيُجازي أهل الخير بالخير، ويجازي أهل الشرِّ بمثله.

عندما احتلت الدولة الرومانية مصر، ولم تنظر إلاَّ لمصلحتها الأنانية فقط، وحوَّلت مصر -كما هو معروف- إلى مخزن للغلال لصالح الرومان، ولم يكن للرومان من همٍّ إلاَّ تحويل القمح وبقية المنتجات الزراعية إلى روما، عندما حدث كل هذا الفساد ماذا كانت النتيجة؟!

كانت النتيجة أولاً أن زهد الفلاحون المصريون في الزراعة؛ لأن مصلحتهم لم تتحقَّق من ورائها، وبالتالي قلَّت المحاصيل، وتأثَّرت الدولة الرومانية نفسها بهذا الأمر[1].

وكانت النتيجة الثانية -وهي أهم- أن كره المصريون الرومان، وصاروا ينتظرون لحظة الخلاص، وعندما دخلت الجيوش الإسلامية إلى مصر وجد الشعب المصري فيها فرصة للنجاة، وتعاون الشعب مع المسلمين الفاتحين ضد الرومان المحتلين، مع أن الرومان كانوا نصارى على دين أهل مصر، ونتيجة هذا التعاون أن انتصر المسلمون انتصارًا ساحقًا على الرومان، وخسر الرومان كثيرًا كثيرًا..

لقد كانت المصلحة الأعلى للرومان ستتحقَّق إذا فكروا من البداية في التعارف على المصريين بدلاً من الاحتلال من أجل مصلحة مشتركة، وعندها كان ربحهم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي سيتضاعف، وأهم من ذلك كانت ستنشأ بينهم وبين المصريين علاقة مودَّة ووئام، تكفل لهم وضعًا أمنيًّا مستقرًّا، وهذا ما كان يمكن أن يُطيل من عمر الدولة الرومانية أعوامًا أو قرونًا أكثر..

لقد كان ميراث الكراهية الذي زرعه الرومان في قلوب المصريين وغيرهم من الشعوب المحتلة سببًا في تقويض أركان إمبراطوريتهم..

لماذا حدث هذا الأمر؟ ولماذا لا تراعي بعض الشعوب هذه المسألة، فتنهار من حيث تُريد العلوَّ، وتسقط من حيث تُريد القيام؟

أهو الجهل بآليات التعارف ومنافعه؟!

---

(١) نفتالي لويس: الحياة في مصر في العصر الروماني، ص٢٢٩.

أهو غياب العالِم والمفكِّر والفيلسوف الذي يشرح لشعبه قيمة التعارف وخطورة التصادم؟!

أهو ظهور قائد أو مجموعة من القادة أعمى الجشع عيونهم، أو طمس الطمع على أفئدتهم فلم ينظروا إلا لمصلحتهم العاجلة الآنية، فسعوا لتحقيقها مع كونهم يُدركون أن هذا سيُؤَدِّي إلى دمار لاحق لشعوبهم قبل شعوب الآخرين؟ أم هو كل هذه الأسباب مجتمعة؟!

واقع الأمر أنه كل ذلك معًا..

شعب جاهل، وعالِم ساكت، وقائد طامع!

وفي ظلِّ هذه المنظومة لا بُدَّ أن يحدث صدام وخراب..

وأين بداية الطريق للخروج من المأزق؟!

أرى أن البداية عند العالِم والمفكِّر، فليس له أن يسكت؛ فالساكت عن الحق شيطان أخرس[1]، ولو تكلم بما يعلم لتعلَّم الشعب الجاهل، ولو خرج الشعب من جهله أفرز حاكمًا صالحًا يحرص على مصلحة شعبه، ومصلحة الشعوب عامة في التعارف وليس في الصدام، وفي السلام وليس في الحرب، فالبداية إذًا عند العلماء، ومن هنا كان التفكير في النظرية!

***

هل يُولد إنسان شريرًا بالفطرة؟!

وهل هناك شعوب «مظلومة» حكمها دكتاتور صدامي قادها لحرب العالم وتدميره؛ بحثًا عن مصالحه وأمجاده؟!

وهل عند ذلك تكون جريمة غياب التعارف وترسيخ التصادم هي مسئولية فرد واحد، أو عدة أفراد يمثِّلون حكومة طاغية؟!

إنها أسئلة تهدف إلى الوصول إلى إجابة سؤال آخر!

---

(١) قال النووي: «وروينا عن الأستاذ أبي القاسم القشيري ﷺ قال... إن النطق في موضعه من أشرف الخصال، قال: وسمعت أبا علي الدقاق يقول: من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس». انظر: النووي: المنهاج ٢/ ١٩، ٢٠.



وهو: هل «كُتب» على بعض الشعوب أن تتصادم؟ أم أن هناك مخرجًا لهذه الشعوب المنكوبة؟!

إن الإنسان لا يُولد شريرًا بالفطرة!

أحببت أن أصوغ هذه الجملة بهذا الشكل القاطع، مع علمي أن هناك بعض الباحثين الذين «يُروِّجون» لفكرة أن بعض البشر يُولدون وبهم جينات أو خلايا تجعلهم في مستقبلهم مجرمين..

إن فكرة «الحتمية» التي يواجهها إنسان بعينه فيخرج شريرًا رغمًا عن أنفه وأنف والديه ومربيه ومجتمعه هي فكرة مرفوضة من أوجه أربعة:

أما الوجه الأول: فهو لن يفهمه إلاَّ أصحاب الديانات السماوية الذين يُدركون أن هناك بعثًا بعد الموت، وحسابًا بعد العمل، والذين يُدركون كذلك أن الله عادلٌ لا يظلم مثقال ذرَّة، فلو كان «مكتوبًا» على هذا الإنسان أن يخرج شريرًا فليس هناك معنى إذًا أن يُحاسَب يوم البعث، فهو ليس له ذنب في هذه الحالة، وهو لم «يختر» الشرَّ بل «اضطر» إليه.

وأما الوجه الثاني: فهو أن التجربة تُثبت أن كل الناس قابلون للتربية والتوجيه والإصلاح، وأن الظروف البيئية التربوية الفاسدة هي التي تُخْرِج إنسانًا فاسدًا ظالمًا، ولو حرصت المنظومة التربوية على حُسن تربية المجتمع فستقلُّ حتمًا هذه النماذج، بل ستتحوَّل طوائف المفسدين إلى ضدها، والتجارب العملية في هذا الصدد كثيرة جدًّا.

وأما الوجه الثالث: فإن هؤلاء الذين يُنادون بفكرة حتمية الشرِّ عند بعض أفراد المجتمع دون إرادتهم لم يُفكِّروا -ولو للحظة واحدة- في إلغاء قوانين العقوبات في الدولة، فلو صحَّت نظرتهم لما جاز لنا أن نعاقب الأشرار على شرِّهم، ولا أن نُحَمِّل إنسانًا ذنب مخالفة قانون أو التعدِّي على حرمات الآخرين..

إن هذا كلام لا يقبله عاقل، وإذا فتحنا المجال لمثل هذا الفكر لتحوَّل المجتمع إلى حالة من الفوضى تضيع فيها كل الحقوق دون أن يجد المجرم مَنْ يردعه.

أما الوجه الرابع والأخير: فهو أن الدراسات العلمية -التي تُؤَيِّد فكرة ميلاد المجرمين



حاملين لسمات الإجرام- من البداية هي دراسات مترهلة للغاية، ولا ترتكن إلى حقائق علمية تُؤَيِّد هذه النتائج، وغاية ما هنالك هو أن بعض الناس قد يتَّصِفُون بعصبية زائدة، أو قلَّة صبر، وهذا يمكن أن يكون فعلاً في الجينات أو تركيبة العقل، لكن كل هذا يتلاشى بالتربية والتوجيه، وليس حتميًّا أبدًا في حياة الإنسان، وما أروع ما قاله رسول الله ﷺ في هذا الصدد! حيث أشار إلى دور التربية في مثل هذه الحالات، فقد قال ﷺ: «**إِنَّمَا العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وإِنَّمَا الحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ**»[١].

كل هذه الكلمات لأصل في النهاية إلى أنه ليس هناك قدر محتوم على إنسان ما أن يكون شريرًا أو فاسدًا، إنما يستطيع الإنسان أن «يختار» طريق الخير، وأن يبحث عن الصلاح فيجده، وأن يُرَجِّح التعارف على التصادم..

ومع ذلك فلن يختفي الأشرار من الدنيا، وستظل هناك أزمات كبرى في المجتمعات، بل وفي العالم، نتيجة وجود هؤلاء الأشرار، وخاصة إذا ما وصل أحدهم إلى أماكن صنع القرار في دولة، فصار على قمة هرمها وفي قيادة مجتمعها..

وهنا يبرز السؤال الثاني المهم: هل الشعوب التي يترأسها دكتاتور ظالم أخذها في اتجاه التصادم لا التعارف هي شعوب مظلومة مغلوبة على أمرها؟!

واقع الأمر أنني أعتقد أن هذه الشعوب ليست في الحقيقة مظلومة، وإنما الحقيقة التي أومن بها وأعتقدها هي أن الحكَّام إفراز طبيعي للشعوب، والحاكم المتسلط لا يحكم إلاَّ شعبًا جبانًا، والقائد الذي ينحرف بشعبه إلى المهالك لا يقود إلاَّ شعبًا جاهلاً، ورسول الله ﷺ يقول في الحديث: «**كَمَا تَكُونُوا يُوَلَّى عَلَيْكُمْ**»[٢]. والحديث وإن كان ضعيفًا إلاَّ أن معناه صحيح، والشواهد على هذا المعنى في التاريخ والواقع كثيرة، وعندنا في القرآن الكريم أن الله ﷻ قال وهو يحكي الواقع المرير الذي عاشته مصر تحت حكم الطاغية فرعون: ﴿**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾ [الزخرف: ٥٤]، والتعليق هنا لافت للنظر جدًّا، فقد

---

(١) الطبراني: المعجم الأوسط (٢٦٦٣) عن أبي الدرداء، والبيهقي: شعب الإيمان (١٠٧٣٩)، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٧/ ١٥١، وحسنه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٤٢).

(٢) البيهقي: شعب الإيمان (٧٣٩١)، وضعفه الألباني، انظر: السلسلة الضعيفة (٣٢٠).

كنَّا نتوقَّع أن يكون ختام الآية التي تصف استخفاف حاكم بشعبه أن يتهم الحاكم بالظلم أو الفساد أو الدكتاتورية، إنما جاء الاتهام للشعب الفاسق الذي قَبِل بحُكْم هذا الطاغوت دون أن يتحرَّك، أما كيف يكون التحرُّك فليس هذا مجال بحثنا الآن، إنما هو واجب كل شعب أن يبحث عن الآليات المناسبة لتغيير الحكَّام الظالمين، وتنصيب العادلين المنصفين..

والكل في النهاية يدفع الثمن، ليستوي في ذلك الحاكم والمحكوم، والقائد والمقود، وقد جاءت نهاية قصة الطاغية فرعون مأساوية للجميع في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا غرق الظالم والجنود المساكين «الفاسقون» معه.. قال ﷻ: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، وفي الآخرة يقول ﷻ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨].

إذًا لا يتحتم على إنسان، وكذلك لا يتحتم على شعب أن يكون صداميًّا، إنما يمكن «تعديل سلوك» الأفراد والشعوب حتى تصل إلى حالة من القناعة بمبدأ التعارف والتعايش، وأن يصبح هذا المبدأ مطلبًا عامًّا يُنادي به العلماء والمفكِّرون والقادة والشعوب.. وعندها سنصل إلى ما نريد من سلام في الأرض، وتعارف بين الشعوب.

وإذا كان على العلماء والمفكِّرين أن يبحثوا في الآليات التي تكفل تحقيق هذا التعارف، وأن يُسهموا بالأفكار والنظريات التي تفتح هذه الآفاق الرحبة من التواصل أمام الشعوب؛ فإنه يسبق ذلك ويوازيه ويلحق به رغبة حقيقية في تحقيق هذا التعارف والتواصل، وإلاَّ بقيت النظريات حبيسة الأدراج، أو في أحسن الأحوال تصبح مجالاً للمجادلات العقيمة في المحافل الأكاديمية، وليس هذا الذي يُصلح الشعوب، ولا الذي يفيد البشر..

ومع بنود النظرية نقضي الصفحات المقبلة..

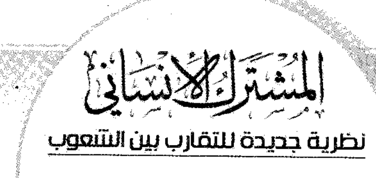
***

البناء الفكري للنظرية

"وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ"

القرآن الكريم (سورة هود: ١١٨)









الفصل الأول

البناء الفكري للنظرية

لا يختلف عالمان في أن الأبناء يشتركون مع بعضهم البعض في صفات كثيرة؛ لأنهم جاءوا من أب واحد وأم واحدة، فحملوا بذلك صفات متشابهة في أمور لا حصر لها، وإن كان هناك -لا ريب- أوجه كذلك للاختلاف بينهم..

ولو عدنا بالبشرية إلى بدايتها لعلمنا أن جميع البشر لهم أب واحد وأم واحدة، ويؤمن المسلمون والنصارى واليهود أن هذا الأب هو آدم عليه السلام، وأن هذه الأم هي حواء زوجته، ومعنى ذلك أن البشر جميعًا إخوة في الحقيقة؛ ومن ثَمَّ فالصفات المشتركة بينهم كثيرة ومتعدِّدة، وهذه حقيقة علمية لا يُجادل فيها أحد، حتى أولئك الذين يُنكرون الأديان السماوية يؤمنون أننا كلما درسنا حالة شعب أو قبيلة عدنا في النهاية إلى رجل معيَّن وامرأة معيَّنة كانا الأصل في تكوين هذا الشعب أو القبيلة، ولو عدنا في التاريخ أكثر وأكثر لاقتربت الدوائر، وتعانقت الأصول حتى نصل إلى أفراد قلائل كانوا مصدرًا لهذه الجموع البشرية الهائلة.

نحن جميعًا إذًا إخوة..

والدراسات العلمية والاجتماعية تُثبت هذا الأمر ولا تنفيه، بل إنها تُثبت بما لا يدع مجالاً للشكِّ أن أوجه التشابه بين البشر أكثر بمراحل من أوجه الاختلاف، بل إننا سنتعرَّض في فصل قادم إلى حقيقة علمية مذهلة؛ وهي أن جميع البشر يتَّفقون في شكل وتركيب الحامض النووي بنسبة ٩ ,٩٩٪، وأن الاختلاف بينهم لا يقع إلاَّ في حدود ١ ,٠٪ فقط! وهذا يعني أن هناك ما لا يُحصى من المشتركات بين كل البشر؛ سواء كانوا يعيشون في زماننا أو في زمان سابق أو لاحق، وسواء سكنوا قارة معيَّنة أو قارة أخرى تبعد عنها بآلاف الأميال..

إنها ليست مشاهدات فقط.. إنها حقيقة علمية!

ومع ذلك فالبشر يشعرون أنهم مختلفون كثيرًا عن بعضهم البعض، وتُرسِّخ بعض النداءات العنصرية، والأفكار الصدامية مثل هذا الشعور، فينتهي الأمر للأسف إلى شحناء وبغضاء في الوقت الذي تُملي فيه الفطرة الإنسانية على الجميع أن يتعارفوا، بل تُملي عليهم مصلحتهم المشتركة -كما قدمنا قبل ذلك- أن يتواصلوا ويتشاركوا..

إنه من ألزم أدوارنا في هذه المرحلة من عمر البشرية -وقد ظهرت بوادر صدام كوني مروع قد يذهب بجهد حضارات متعدِّدة- أن نسعى «لاكتشاف» ما نتشابه فيه مع غيرنا؛ ومن ثَمَّ لاكتشاف ما يمكن أن نتواصل عليه ونتعارف به.

ولقد قمتُ بالبحث في صفحات التاريخ المختلفة، ودرست حضارات متعدِّدة، ولم أقف فقط على الحضارة الإسلامية التي أنتمي إليها، بل تجاوزتها إلى دراسة كل الحضارات الإنسانية تقريبًا، فقرأت بإمعان عن الحضارات اليونانية والرومانية والمصرية والصينية والهندية والفارسية والبابلية.. وغيرها، بل قرأت عن الشعوب البسيطة التي لم تُكَوِّن حضارات ضخمة؛ مثل شعوب أواسط إفريقيا، أو الهنود الحمر، أو الإسكيمو، أو سكان أستراليا الأصليين، ووقفت على صفات هذه الشعوب، وسمات هذه الحضارات لأعرف ما الذي يجمعهم، وما الذي يختلفون فيه، وتجوَّلت -كذلك- في صفحات التاريخ الحديث لأقرأ صفات الشعوب المعاصرة، وما الذي تتشابه فيه مع بعضها البعض، وما الذي تتشابه فيه مع الشعوب القديمة والبائدة، وفوق ذلك درستُ تاريخ الحروب والنزاعات وأسبابها، وما أكثر الحروب دموية، وما أطولها عمرًا؛ لأفهم لماذا يختلف البشر حتى يصلوا إلى حدِّ إراقة الدماء وتخريب العمران، ودرستُ -كذلك- علاقات السلام والمعاهدات، وما المعاهدات التي طال عمرها وانتشر أثرها، وما المعاهدات التي انهارت فور عقدها، أو بعد عقدها بقليل، واهتممتُ جدًّا بتجارب الوَحدة والتكتُّل، سواء في الماضي أو الحاضر، وبحثتُ عن الأسباب التي تدفع كيانات كبرى إلى الاندماج في بعضها البعض؛ لتكوين قوًى مُوَحَّدة ضخمة، وبحثتُ -كذلك- عن أسباب انفراط عِقد بعض الكيانات العملاقة، وتفتُّتِهَا إلى شراذم لا وزن لها.



وصقلتُ كل هذه التجارب بقراءة متأنية في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية المطهرة، ولم يكن عندي تردُّد في قراءة التوراة والإنجيل -كذلك- لأفهم البناء الفكري لليهود والنصارى، ولأُدرك ما الذي يجمع البشر، وما الذي يُفرِّقهم، بل إنني سعيتُ لجمع ما أستطيعه من أقوال الفلاسفة والحكماء والمفكرين والعلماء من شتَّى الحضارات والمناهج لأستفيد بكل قول، ولأربط هذا مع ذاك؛ لأصل في النهاية إلى شكل مفهوم يُوَضِّح طبيعة العلاقة بين الشعوب المختلفة، وكيف يمكن أن «نكتشف» ما يجمع الناس داخل إطار واحد كبير يستوعب البلايين من الناس.

وأضفتُ إلى كل ذلك خبرتي في التعامل مع آلاف البشر من كل الجنسيات والأعراق العالمية من خلال السفر والترحال إلى عشرات الدول في العالم؛ من اليابان شرقًا إلى أميركا غربًا، ومن خلال التواصل مع كمٍّ كبير من العلماء والمفكرين المسلمين والنصارى واليهود وغيرهم من أصحاب الديانات الوضعية أو اللادينيين.

خرجتُ من كل ذلك بأن البشر يشتركون مع بعضهم البعض في عدد يصعب حصره من المشتركات، فجمعتُ ما أستطيعه، ثم اجتهدتُ في تبويب هذه المشتركات تحت عناوين محدَّدة تجمعها في أُطر معروفة، ثم بدأتُ في تصنيف هذه المشتركات في مجموعات لها سمات معينة، سيكون لها أثر كبير في فهم طبيعة هذه المشتركات وأثرها في التعارف والتواصل.. ومن ثَمَّ خرجتُ بهذه النظرية التي أسميتها «المشترك الإنساني»..

لقد وجدتُ أنه من الممكن أن نُقَسِّم هذه المشتركات الإنسانية إلى أربع مجموعات كبرى، لكل مجموعة سمات خاصة، ولها رابط واحد يجمعها، ويمكن أن نفهم علاقات معينة تبنى على هذا التصنيف.. ولقد قمتُ بضمٍّ بعض المشتركات إلى كل مجموعة بناءً على تحليلي لكل مشترك، وعلى مدى شيوعه في البشر، ومدى قوَّته في التأثير على العلاقات بين الناس، وكذلك مدى الأزمة التي يمكن أن تحدث إذا تمَّ تجاهل هذا المشترك أو الاعتداء عليه.

وأنا أعتقد أنه من خلال هذا التصنيف يمكن أن نفهم أمورًا كثيرة في التاريخ، وكذلك في واقعنا المعاصر، بل يمكن أن نستقرئ بعض أحداث المستقبل، كما أن هذا التصنيف سيُعيد

تفسير بعض المصطلحات الحديثة التي اختلف على معناها كثيرٌ من الفلاسفة والمنظِّرين، مما سيُعطي -بإذن الله- فرصة أكبر للالتقاء والتقارب؛ ومن ثَمَّ التعارف والتواصل.

هذه المجموعات الأربع هي: مجموعة المشترك الأسمى، ومجموعة المشتركات الإنسانية العامَّة، ومجموعة المشتركات الإنسانية الخاصة، وأخيرًا مجموعة المشتركات الإنسانية الداعمة، ولنا وقفة مع كل مجموعة، ثم التفصيل بعد ذلك إن شاء الله..

أولاً: مجموعة المشترك الأسمى:

وهذه المجموعة لا تضمُّ إلاَّ مشتركًا واحدًا فقط، وهو العقيدة، وأنا أحسب أن هذا المشترك هو أهم ما يميِّز الإنسان، وأغلى ما يمتلك، وأفضل شيء يُعطيه «هوية» معيَّنة، وهو أقوى رباط بين اثنين أو بين شعبين، وهو يتجاوز حدود الزمان والمكان، فيشعر أبناء العقيدة الواحدة بالانتماء إلى أبناء عقيدتهم الذين عاشوا قبلهم بألف عام، ويشعرون بالانتماء لأبناء عقيدتهم الذين ينتسبون إلى أعراق مختلفة، ويشعرون كذلك بالانتماء لأبناء عقيدتهم الذين يعيشون في أرض بعيدة، أو في ظروف اقتصادية مختلفة تمام الاختلاف.. إنه الرابط الأسمى الذي لا يعلوه رابط، خاصة في الأوساط التي تشهد صحوة دينية، وعودة إلى الأصول..

مرَّ مصعب بن عمير[(١)] ﷺ يوم بدر بأخيه أبي عزيز بن عمير بن هاشم[(٢)] في الأسارى لأحد الأنصار، فقال: شُدَّ يديك به؛ فإن أُمَّه ذات متاع لعلَّها أن تفتديه منك[(٣)].

ما قاله مصعب بن عمير ﷺ في هذه القصة ليس غريبًا ولا عجيبًا، فمن أجل العقيدة يترك الناس أهلهم وعشائرهم، ومن أجلها يتركون ديارهم وأوطانهم، ومن أجلها يدفعون

---

(١) مصعب بن عمير: هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف العبدري القرشي، من فضلاء الصحابة وخيارهم ومن السابقين إلى الإسلام، وقد امتحن في إسلامه وصبر، هاجر إلى الحبشة، وشهد بدرًا، وبعثه رسول الله سفيرًا إلى المدينة قبل الهجرة بعد العقبة الثانية يقرئهم القرآن ويعلمهم الدين. استشهد في غزوة أحد ٣هـ= ٦٢٥م. انظر: ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٦/ ١٣٢، ابن عبد البر: الاستيعاب ٤/ ١٤٧٣.

(٢) أبو عزيز بن عمير: أبو عزيز بن عمير بن هاشم بن عبد مناف العبدري القرشي، اسمه زرارة، له صحبة وسماع من النبي ﷺ، واتفق أهل المغازي على أنه أسر يوم بدر مع من أسر من المشركين، وذكر عنه قوله: كنت في الأسارى يوم بدر، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «استوصوا بالأسارى خيرًا». انظر: ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٧/ ٢٧٤، ابن عبد البر: الاستيعاب ٤/ ١٧١٤، ١٧١٥.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ١٩٥، وتاريخ الطبري ٢/ ٣٩، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٤٧٥.

أموالهم وثرواتهم، فلا غرو أن تكون أسمى ما يمتلك الإنسان؛ ولذلك أطلقتُ على هذه العقيدة اسم «المشترك الأسمى».

والعقيدة هي أصعب ما يمكن أن يُغَيِّره الإنسان؛ فقد يُغَيِّر الإنسان عمله أو بلده أو حتى شكله، لكن لا يقبل بتغيير عقيدته إلاَّ في ظروف ضيقة جدًّا، وعادة ما يكون هذا بعد تغيير كامل في قناعات الإنسان.

والعقيدة مشترك بين كل البشر، بمعنى أن كل إنسان لا بُدَّ أن يكون له عقيدة، نعم تختلف العقيدة من شعب إلى شعب لكنها موجودة في كل الأحوال، وليس هناك إنسان بلا عقيدة، حتى الذين ألحدوا وأنكروا وجود إله لهذا الكون يعتقدون ذلك الأمر: أنه لا إله. ولهم تصورات وفلسفات تفسِّر لهم ما يعتقدونه.. وهم يتعصَّبون جدًّا لمعتقدهم هذا، ويشعرون أنهم على حقٍّ وغيرهم على باطل.. والحاصل في النهاية أن لكل إنسان -أيًّا كان هذا الإنسان- عقيدة ودينًا، حتى لو كانت هذه العقيدة هي اللا عقيدة، وحتى إذا كان هذا الدين هو اللا دين! وقد قال الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

ويمكننا أن نُقَسِّم عقائد العالم إلى مجموعات ضخمة تُبرز لنا أهمية هذا المشترك الأسمى، وقدر ما يجمعه من بشر..

هناك مجموعة الأديان السماوية، وهي تشمل الإسلام والنصرانية واليهودية، وهؤلاء يتجاوزون نصف سكان الأرض (٥٤٪)، وهم يشتركون في أمور كثيرة، وإن كانت هناك -بلا شكٍّ- اختلافات جذرية بين العقائد السماوية الثلاث، لكنهم في النهاية يجتمعون في أكثر من مبدأ، وسنُفَصِّل هذا لاحقًا -بإذن الله- لكن المهم هنا أن نُشير إلى أن هذه الأفكار المشتركة بين هذه الأديان الثلاثة يمكن أن تجمع نصف سكان الأرض على شيء واحد! وهذا قد لا يحلم به مصلح أو فيلسوف، لكنه حقيقة واضحة.

وهناك مجموعة ثانية من الأديان التي تُعرف بالأديان الوضعية، وهم -أيضًا- أعداد كبيرة، ولعلَّهم يمثِّلون ما يقارب ثلث سكان العالم (٣٠٪)، ويأتي في مقدمتهم أتباع الديانة الهندوسية حيث يمثِّلون حوالي ١٤٪ من سكان العالم[1]، ثم تأتي ديانات أخرى كالبوذية

---

(١) سنتناول نسب توزُّع الأديان بين البشر وآثارها بتفصيل أكبر في فصل «المشترك الأسمى»، من الباب الثاني.



والشنتوية وأديان كثيرة محلية في كثير من أقطار العالم.

أما المجموعة الثالثة والأخيرة فهي مجموعة اللا دينيين أو الملاحدة الذين يُنكرون وجود إله بالكلية، وهؤلاء يقتربون من خمس سكان العالم (١٦٪)، أو لعلهم يزيدون؛ لأن كثيرًا ممن يُحسب على النصرانية في أوربا وأميركا هو في واقع الأمر ملحد، ولا يعترف بأي دين.

المهم أننا وجدنا أن البشر جميعًا «يشتركون» في أنهم يعتقدون اعتقادًا ما في قضية «الإله».. مَنْ هو؟ وما صفاته؟ وكيف نعبده؟ وماذا يُريد منا؟ كما أن هناك عددًا كبيرًا من البشر «يعتقدون» في عدم وجود إله.

ماذا يمكن أن نفعل بعد أن عرفنا هذا المشترك الأسمى؟!

إنه من الثابت حقًّا أنَّ تغيير جزئية في العقيدة أمر صعب للغاية، بل المفترض أنه مستحيل.. فأصحاب الأديان -سواء السماوية أو الوضعية- يعتقدون أن هذه العقائد والتشريعات هي من عند الإله، وبالتالي ليس هناك مجال لتغييرها، ولا نملك ذلك، ولا نقدر عليه؛ ومن هنا فليس هناك معنى أن نسعى إلى فكرة الالتقاء في منتصف الطريق، وليس هناك معنى لما يُسَمَّى بوحدة الأديان، أو دمج الأديان؛ لأن هذا يعني تكوين عقيدة جديدة لن يرضى عنها الجميع، كما أننا لا نستطيع أن نلتقي في منتصف الطريق مع الذين يُنكرون وجود الإله، ويرفضون مبدأ الدين من الأساس؛ فالذي يُؤمن بالإسلام أو النصرانية أو اليهودية أو البوذية لن يقبل مبادئ الملحد العقائدية، والملحد يرى كل أصحاب الأديان يعيشون في وهم كبير؛ ومن ثَمَّ فالالتقاء في منتصف الطريق -أيضًا- مستحيل.

فما الحلُّ؟!

هل أصبح الصدام حتميًّا هكذا؟!

أبدًا..

إن الحلَّ الأمثل هو أن «يقنع» كل البشر أن العنف والجبر لن يُغيِّر من عقيدة إنسان، بل سيقود إلى دمار وخراب، ومن هنا جاء قول الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي



الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وجاء كذلك قوله ﷻ: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، والذي يُعلن عن اعتناق عقيدة معينة تحت سيف القهر، ونتيجة ضغوط الإكراه ليس في الحقيقة معتنقًا لهذه العقيدة الإكراهية، إنما يعتقد عقيدته الأصلية في السرِّ، بل لعلَّه ازداد تمسُّكًا بها، وسينقلب لا محالة إلى قنبلة موقوتة تنتظر فرصة الانفجار.

إن الحلَّ الأمثل حقيقةً أن نلتزم بالتوجيه القرآني العميق، الذي قال فيه الله ﷻ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۞ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۞ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۞ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦].

ما أعمق هذا التوجيه.. إنه خطاب في منتهى الوضوح.. أنا سأظلُّ عابدًا ما أعبد.. وأنتم لكم مطلق الحرية أن تعبدوا ما تُريدون.. لكم دينكم ولي دين..

ولست مع مَنْ يقول: إن هذه السورة كانت تناسب مرحلة معينة، كان المسلمون فيها ضعفاء. بل إنني أجدها منهج حياة دائمًا، ويا ليتنا نلتزم به في كل الأزمان، فنحن لسنا مطالبين بإجبار الناس على تغيير عقائدهم، بل على العكس، فأنا أرى أن هذا المنهج هو -حقيقةً- من روائع الإسلام، وهو من الأشياء التي نفخر أن نُقدِّمها للبشرية.

وليس من قبيل المصادفة أن رسولنا ﷺ كان يُعلِّمنا أن نُكثر من ترديد هذه السورة خاصة «سورة الكافرون» في أوقات كثيرة من يومنا، ومن حياتنا، فكان يقولها ﷺ في أذكار الصباح والمساء(١)، وكان من سُنَّته أن يقرأ بها في صلاة الفجر «سنة صلاة الصبح»(٢)، وكان يقرؤها في سُنَّة المغرب(٣)، وكان يقرؤها في الركعتين خلف مقام إبراهيم ﵇ بعد الطواف

---

(١) عن نوفل الأشجعيِّ قال: قلت: يا رسول الله؛ أخبرني بشيءٍ أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت. فقال: «اقْرَأْ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ثُمَّ نَمْ عَلَى خَاتِمَتِهَا فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ». مصنف ابن أبي شيبة (٢٧٠٥٩).

(٢) عن أبي هريرة «أن رسول الله ﷺ قَرَأَ فِي رَكْعَتَي الْفَجْرِ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وَ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾». رواه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر (٧٢٦)، وأبو داود (١٢٥٦)، والترمذي (٤١٧)، والنسائي (٩٤٥).

(٣) عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «مَا أُحْصِي مَا سَمِعْتُ مِنْ رسول الله ﷺ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ وَفِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلاَةِ الْفَجْرِ بِـ(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) وَ(قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ)». الترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء في الركعتين بعد المغرب والقراءة فيهما (٤٣١)، والنسائي (٩٩٢)، وابن ماجه (١١٦٦)، وأحمد (٤٧٦٣) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

في العمرة أو الحج[١]، وكان يقرؤها في ظروف أخرى كثيرة..

إنها إعلان واضح رائع..

يقول فيه المسلم يوميًّا: أنا متميز عن غيري ولي عقيدتي التي أعتزُّ بها. وفي الوقت نفسه يقول: أنا محترِم لغيري متعايش معه، وأقبل أن يعبد ما يعبد، وأن يعتقد فيما يُريد أن يعتقد.

ولكن هل يعني هذا ألاَّ يدعو أحد إلى عقيدته؟!

أبدًا.. لا يعني هذا الكلام سكوت الناس عن التعريف بدينهم.. بل هو واجب عند معظم أتباع الديانات أن يَصِلُوا بعقيدتهم إلى العالم أجمع.. فما العمل؟

العمل هو الحوار الهادئ اللطيف الذي يعرض فيه كل طرف بنود عقيدته في سلاسة وبساطة، ولْنَتْرُك الناس يختارون ما يُريدون، فليس هناك وصي على أحد..

ويقول الله ﷻ في هذا الصدد: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فهو هنا لا يطلب المجادلة «بالحسنى» فقط، إنما يطلب المجادلة بالتي هي «أحسن»، بمعنى أنه كلما تبدَّت لك طريقة ألطف وأرق في الحوار فعليك بها، ولنترك الطرق الأقل لطفًا أو رقَّة، فضلاً عن النزاع والصدام.

وما البديل عن المجادلة بالتي هي أحسن؟

وما البديل عن الحوار الهادئ اللطيف؟!

إنها الحرب التي لا تنتهي، والدمار الذي ليس مثله دمار!

إن حروب العقيدة هي أشرس حروب الدنيا، وأشدها دموية.. لأن الإنسان ليس عنده مانع أن يفقد حياته في سبيل عقيدته، بل إن الموت في سبيل العقيدة غاية عند كثير من أتباع الديانات.. وبالتالي فموت بعض الأفراد ليس نهاية الحرب، إنما الحرب لا تتوقف إلاَّ بالفناء!

---

(١) قال جابر ﷺ: «... لسنا ننوى إلا الحج لسنا نعرف العمرة حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرمل ثلاثًا، ومشى أربعًا، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم ﷺ فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة: ١٢٥) فجعل المقام بينه وبين البيت... كان يقرأ في الركعتين: (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) و(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)، ثم رجع إلى الركن فاستلمه...». مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨).



ولذلك على العقلاء في العالم تجنُّب الحروب العقائدية قدر ما يستطيعون، فلا يُكره أحد أحدًا على تغيير دينه، أو تبديل عقيدته؛ لأن الطرف الذي أُكْرِه سيكون له كامل الحقِّ في الذَّوْدِ عن عقيدته في هذه الحالة، ولن تتوقف الحرب أبدًا.

ولهذا فإن مسعري الحروب كثيرًا ما يضغطون على هذا الوتر، فيُحرِّكون الشعوب بعامل الدين والعقيدة؛ لكي يضمنوا استمرارية الحرب لمصالحهم الخاصة، بينما تكون الحرب في الحقيقة أبعد ما تكون عن الدين، ولعلِّي لا أبالغ إن قلتُ: إنَّ نسبة الحروب الدينية العقائدية الخالصة في الدنيا قليلة جدًّا، وإن معظم الحروب كانت لأهداف أخرى -سنتعرض لها في نظريتنا بإذن الله- ومع ذلك فالذي يُعْلَن في الظاهر أسباب دينية لا لشيء إلاَّ لحشد الشعوب وقبول التضحيات.

لكل ما سبق فإنني أدعو العالم في هذه النظرية إلى أمرين يبدوان وكأنها متناقضان! وهما ليسا كذلك..

أمَّا الأمر الأول: فهو نداء إلى كل شعوب العالم أن تتوحَّد في المقام الأول على أساس عقيدتها، فهذا أقوى رباط يربط بين شعبين، ولو فعلنا ذلك لتكوَّنت في العالم تكتُّلات محدودة، وسيكون بين أفراد كل تكتُّل علاقة قوية، متحابة تُقَلِّل جدًّا من وتيرة الحرب والنزاع داخل التكتل الواحد.

ولو أخذنا على سبيل المثال الكتلة الإسلامية، فإننا نتكلم عن ما يقرب من مليار ونصف مليار إنسان، وهؤلاء إذا ارتبطوا على أساس العقيدة لتوحَّدوا وَحدة لا يُحَقِّقها أي عامل آخر من عوامل الوحدة المتعارف عليها بين الناس كعوامل الأرض والعرق.. وغير ذلك، ولقلَّتْ بذلك الصراعات داخل الكتلة الإسلامية الواحدة -وهي للأسف كثيرة- ونظرة على خريطة العالم الإسلامي ستوضِّح أن هناك صراعًا بين معظم الدول المتجاورة في هذه الكتلة، مع أنهم ينتمون إلى عقيدة واحدة؛ ذلك لأنهم لا يضعون العقيدة في أُولَى أولوياتهم، ولا ينظرون إليها نظرة «المشترك الأسمى»، ولهذا نجد صراعًا جزائريًّا مغربيًّا، وليبيًّا تشاديًّا، وعراقيًّا كويتيًّا، وتركيًّا كرديًّا، وسوريًّا لبنانيًّا.. وهكذا، مع أن الجميع ينتمون إلى أمة واحدة، وعقيدة واحدة.



وما قلناه عن الكتلة الإسلامية نقوله عن الكتلة النصرانية -كذلك- فالحرب العالمية الثانية -مثلاً- كانت كلها بين دول الكتلة النصرانية باستثناء اليابان والاتحاد السوفيتي، فالأولى بوذية شنتوية، والثانية ملحدة، وإذا تجمَّع الغرب تحت عقيدة واحدة لقلَّت حروبه بشكل لافت، وهكذا في كل بلاد العالم.

ولكن هناك خطورة كبيرة وراء هذه الفكرة.. وهي أنه في حالة حدوث صدام بين كتلة ضخمة كهذه وكتلة أخرى فإن الحرب ستكون كارثية بكل المقاييس؛ لأنها أولاً حرب عقيدة، وكما أسلفنا فحروب العقيدة حروب في غاية الدموية، وثانيًا لأنها بين كتل ضخمة مجمَّعة!

وهنا تبدو أهمية الأمر الثاني الذي أدعو العالم إليه مع دعوتي إيَّاه بالتوحُّد على أساس العقيدة، وهو ما قلتُه منذ قليل بوجوب عدم التعرُّض بأي شكل من الأشكال العنيفة إلى عقيدة الآخرين، بل عدم التعرُّض لها بالتعليقات السلبية التي من الممكن أن تُثير حفيظة قوم، فيردُّوا بالمثل، وتبدأ دوائر الصدام في الاتساع، ويجدر بنا في هذا المقام أن نذكر الآية القرآنية التي تؤكد لنا العلاقة مع العقائد المختلفة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

إذًا لا يُؤخذ الأمر الأول دون الثاني..

بمعنى أنه في الوقت الذي ننادي فيه كل كتلة عقائدية في العالم أن تتجمَّع على أساس عقيدتها؛ فتقلُّ بذلك حروب كثيرة داخل الكتلة الواحدة، فإننا ننادي كذلك بتجنُّب صدام كتلة عقائدية مع كتلة أخرى، حتى نحفظ العالم من صدام مروِّع.

إذًا خلاصة حديثنا في مجموعة المشترك الأسمى أن كل البشر له تصوُّر عن الإله، وهذا التصوُّر يُصبح عقيدة راسخة ليس من السهل التنازل عنها أبدًا، وهذه العقيدة يمكن أن تجمع تحتها عشرات العرقيات والأجناس والألوان، ولكنها في الوقت نفسه إذا كانت سببًا في صدام فإن هذا الصدام يكون مروِّعًا؛ ولذلك يجب عدم المساس مطلقًا بعقائد الآخرين.

ثانيًا: أمَّا المجموعة الثانية من المشتركات بين البشر فهي ما أسميه: «المشتركات الإنسانية العامة»، وهي الأمور التي يشترك في أصولها وفروعها كل الناس، لدرجة أنه من الممكن أن

يُقال: إن الذي لا يحمل هذا المشترك هو في الحقيقة ليس إنسانًا! وهذا يعني أن هذه المشتركات ضرورية تمامًا للحياة، والتعرُّض لها بالأذى أو الضرر لا يعني إلاَّ شيئًا واحدًا هو الحرب والصدام!

لكن في الوقت نفسه يمكن للبشر جميعًا بسهولة أن يجتمعوا على هذه المشتركات؛ لأنهم جميعًا يُقدِّرونها ويحرصون عليها.

إن هذه المشتركات العامة ميدان فسيح جدًّا للتعارف والتلاقي، وتحديد هذه المشتركات سيفتح لنا آفاقًا هائلة للتواصل بين الشعوب، وهو ما تسعى إليه هذه النظرية.

ولقد قمتُ بدراسة موسَّعة لطبائع البشر من كل الأعراق والأصول، وكذلك في معظم المراحل الزمنية التي مرَّ بها العالم، وقمتُ كذلك بعمل جلسات عصف ذهني كثيرة للغاية مع فرق من الباحثين المتخصصين في التاريخ والفكر[1]، لكي أخرج في النهاية بهذه المشتركات العامة، وما أكثر ما حذفنا مشتركًا بعد وضعه فيها، وما أكثر ما أضفنا جديدًا بعد أن كدنا نستقرُّ، حتى خرجت المشتركات الإنسانية العامة في تصوُّري وتصوُّرهم على هذا النحو الذي سأذكره، وأحسب أنه لو جلسنا لعصف ذهني جديد لقُمْنَا بتعديلات كثيرة! وأنا أقول هذا الكلام لأفتح المجال لكل مَنْ أراد أن يُضيف ما يراه مناسبًا، أو يحذف ما يراه غير مناسب، فإنما هذا جهد بشري مُعرَّض لكل نقائص البشر.

وهذه المشتركات الإنسانية العامة -في تصوُّرنا- ثمانية..

وتشمل هذه المشتركات: الاحتياجات الأساسية، والعقل، والأخلاق الأساسية، والتملُّك، والكرامة، والحرية، والعلم، والعمل.

إنها ثمانية مشتركات لا يمكن للإنسان أن يعيش بدونها..

وأعني بالاحتياجات الأساسية، الاحتياجات المادية للجسد الإنساني، والتي إن لم تُوَفَّر

---

(١) أخص من هؤلاء الباحثين الكرام بالذكر: الأستاذ محمود مصطفى، والأستاذ مصطفى الأنصاري، والمهندس محمد إلهامي، والأستاذ محمد شعبان، والأستاذ أحمد عبد الحافظ، وهم مرتبون في هذه السطور حسب أعمارهم، وكلهم أسهم بشكل مباشر في صياغة وتكوين هذه النظرية، فجزاهم الله خيرًا كثيرًا.

له فإن حياته تُعرَّض للخطر، وقد يُفْضِي الأمر إلى الوفاة؛ ولذلك فكل البشر على اختلاف ثقافاتهم ومشاربهم يحتاجون إليها؛ وهي تشمل: الطعام، والمياه، والسكن، والأسرة، والأمن، والملبس، وهذه الأشياء إن لم يجدها الإنسان سعى إليها فطريًّا، وإن منعها منه أحدٌ أو تعدَّى عليها حدثت حروب وصدامات لا محالة، لأننا لا نتصوَّر حياة بدونها.

وقد وضعتُ هذه الاحتياجات الأساسية على قمَّة المشتركات العامَّة، على الرغم من أن هذا قد يُغضب بعض العلماء والفلاسفة، الذين يرفعون القيم الأخرى فوق الطعام والشراب، وعلى الرغم كذلك من أن هذه المشتركات لا يشترك فيها الإنسان فقط مع أخيه الإنسان، بل يشترك فيها كذلك مع الحيوان، وهو الأدنى مرتبة من الإنسان.. وضعتُها - كذلك- لأنني نظرتُ إلى عدَّة أمور رجَّحت تقديمها على غيرها من المشتركات العامة الأخرى.

فأولاً: هذه الاحتياجات حتمية لا يمكن تأجيلها بحال من الأحوال، ولا يمكن الصبر على فواتها؛ ولذلك فالصراع عليها سيكون أعتى وأشدَّ، **وثانيًا**: شيوع هذه الاحتياجات في كل البشر، بينما يمكن أن تجد بعض الأقوام تنتكس فطرتهم فلا يهتمون ببقية المشتركات العامة -على عظم أهميتها- لكنهم لن يستطيعوا إغفال حاجتهم للاحتياجات الأساسية، **وثالثًا**: لأن بقية المشتركات العامة تحتاج إلى ذهن صافٍ، وعقل متَّقِدٍ، وبالٍ هادئ، ولا يمكن الوصول إلى هذه الحالة النفسية في ظلِّ تهديد الاحتياجات الأساسية، **ورابعًا**: لأن الله ﷻ عندما أدخل آدم الجنة - كما حكى القرآن الكريم - طمأنه على أهم ما سيشغله عند دخوله الجنة، فقال له: ﴿**إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى ۞ وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى**﴾ [طه: ١١٨- ١١٩]، وقال: ﴿**وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا**﴾ [الأعراف: ١٩]، فقد علم الله ﷻ أن هذا الخَلق الجديد سينشغل أول ما ينشغل بقضايا الطعام والشراب واللباس والسكن والزوجة، فوَفَّر له كل ذلك من البداية، ولتصبح هذه هي كبرى اهتمامات بني آدم بعد ذلك.

وليس في تقديم الاحتياجات الأساسية على غيرها من المشتركات أي نوع من التدنِّي في الإنسانية، فهذه غريزة يفنى الجسد بدونها، وتضيع نعمة «الحياة» كلها، وقد أمرت كل

الأديان بالحفاظ على النفس، ولم يخالف في ذلك عالم ولا فيلسوف.

والمشترك العام الثاني هو العقل، وهو الذي يُمَيِّز الإنسان على بقية المخلوقات، وبه يُصبح الإنسان مسئولاً عن تصرُّفاته وأفعاله، وغياب العقل يرفع التكليف والمسئولية من على الإنسان، وهذا متعارف عليه في كل الأديان والأعراف والقوانين، فليس هناك جُناح ولا محاسبة على طفل صغير لم ينضج عقله، ولا على شيخ كبير ذهب عقله، ولا على مجنون فقد عقله؛ فالعقل هو مناط التكليف إذًا؛ ومن ثَمَّ أصبح لازمًا لإنسانية الإنسان، والاعتداء عليه يُمَثِّل اعتداءً على الإنسانية في صميمها.

من هذا المنطلق فإن النظرية تدعو الشعوب إلى الالتقاء على الأمور التي يقبلها العقل بشكل عامٍّ، ولا داعيَ للتحاور والجدال في الأمور التي لا تقبلها عامة العقول، وأعني بذلك على وجه خاص بعض الأمور العقائدية والتشريعية المقبولة في عرف وعقيدة شعب ما، ولا تقبلها عامة عقول البشر، فالأَوْلَى من هذا المنطلق أن نؤخِّر الحديث عن هذه الأمور التي لن تُقْبَل إلاَّ إذا غيَّر الآخرون عقيدتهم، وليس في هذا نهج غريب، ولا فيه تهاون أو تفريط في مبادئ أحد، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرْنَا أَنْ نُخَاطِبَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ**»[1]. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «حدِّثوا الناس بما يعرفون»[2]. وقال عبد الله بن مسعود[3] رضي الله عنه: «ما أنت بمحدِّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلاَّ كان لبعضهم فتنة»[4]. وهذه الفتنة هي ما نُريد أن نتجنَّبه، وما هذه الفتنة إلاَّ صدام، قد يكون فكريًّا، وقد يكون دمويًّا، لكنه في النهاية صدام، وهو ضد هدف النظرية.

وهذه رسالة أتقدَّم بها إلى كل العلماء والمنظِّرين والفلاسفة وغيرهم ممن يُكَوِّنون حلقات

---

(١) الزرقاني: مختصر المقاصد ص١٦٢.
خلاصة حكم المحدث: حسن لغيره

(٢) البخاري: كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا (١٢٧).

(٣) عبد الله بن مسعود: صحابي، وأحد السابقين الأولين، أسلم قديمًا، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرًا والمشاهد كلها، وكان صاحب نعلي الرسول ﷺ، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة، وسادس من أسلم، وكان عالمًا ومقرئًا، مات بالمدينة سنة ٣٢ هـ. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٣٩٤- ٤٠٠، وابن حجر: الإصابة ٤/ ٢٣٣- ٢٣٥.

(٤) مسلم: مقدمة الإمام مسلم رحمه الله، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع (٥).

اتصال مع الشعوب والأقوام الأخرى، أن يختاروا من الموضوعات والأطروحات التي يتمُّ تناولها على موائد الحوار والمناظرة بحيث تكون مقبولة عقلاً عند كل الأطراف، وهنا يمكن أن نصل إلى نتيجة، ويمكن للحوار أن يُثمر تعارفًا وتعايشًا.

وقد عرض الله ﷻ قضية الألوهية ذاتها في القرآن الكريم بطرق عقلية بحتة، ليس المجال لتفصيلها الآن، لكنه لم يذكر للبشر أن هذه حقيقة مسلَّمٌ بها دون تفكير، وأن هذا أمر لا يمكن فيه إعمال العقل، بل على العكس من ذلك، فقد حفل القرآن الكريم بالدعوات إلى إعمال العقول، وذلك مثل: ﴿**أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾، ومثل: ﴿**أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ**﴾، ومثل: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾، والأمر لا يمكن حصره لكثرته.

إذًا دعوتنا الأولى في مسألة العقل كمشترك إنساني عامٍّ هو أن تلتقي الشعوب على الأمور العقلية لا على الأمور الروحية، وعلى الأدلة والبراهين لا على الانطباعات والغيبيات، وهنا يمكن أن يحدث التواصل والتعارف.

أمّا دعوتنا الثانية: فهي دعوة تحذيرية من أن يَحجر أحدٌ على هذا العقل، الذي تميَّز به الإنسان على سائر المخلوقات؛ لأن الحجر عليه يُمَثِّل انتكاسة في البشرية، وضياعًا للإنسانية، ولا شكَّ أن هذا سيقود إلى حروب وصدام.

إنه قد يأتي على ذهن بعض المصلحين أو القادة أنهم أوصياء على العالم، فيُفكِّرون هم، ويمنعون غيرهم من التفكير، ولقد ذكر الله ﷻ قصة واحد من هؤلاء، وهو فرعون، فحكى موقفه الذي كان سببًا في هلاكه وهلاك شعبه.. قال تعالى على لسان فرعون: ﴿**مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾ [غافر: ٢٩]، إن هذه الرؤية المتسلطة غير مقبولة حتى من أحكم الحكماء، وهي تقود إلى دكتاتورية مهلكة، وتقود إلى تهميش لعقول البشر؛ ومن ثَمَّ تكون النهاية كوارث صدامية داخلية وخارجية.. داخلية في الوطن الواحد، وخارجية مع الشعوب المختلفة.

كما أن لنا دعوة ثالثة بخصوص العقل، وهو عدم السخرية مطلقًا من عقول الآخرين، مهما بدا رأيهم عند السامعين غريبًا، فبعض الشعوب نتيجة أمور عقائدية تربوية معينة تقبل



بأشياء لا تُنكرها عقولهم بالمرة، بينما ترى شعوبٌ أخرى أن هذا أمر منكر تمامًا، فهنا يجب احترام عقول الآخرين، وعدم السخرية من أفكارهم ومعتقداتهم، ولْنَتْرُك هذه القضايا المحدودة، ولنبحثْ في الكمِّ الهائل من القضايا التي تتَّفق فيها عامة شعوب العالم.

ولعلِّي أضرب مثالاً في نهاية حديثي عن العقل أُوَضِّح فيه أثر عدم الاكتراث بهذا المشترك الإنساني المهم: يذكر مسلمٌ أنه كان يُحَدِّثُ غير مسلم في بلد غربي عن أن رسول الله ﷺ يأمرنا أن نبدأ باليمين حتى في ترجيل الشعر، فسخر غير المسلم من ذلك وقال: ما الفارق بين ترجيل الشعر من اليمين أو اليسار؟! وغضب المسلم لسخرية غير المسلم، وحدث الصدام!

مَن المخطئ في هذا الموقف؟!

الواقع أن كليهما مخطئ!

فالمسلم ما كان ينبغي له أن يُحادث غير المسلم في أمر لا يقبله عقله في المعتاد، وكان الأَوْلَى أن يُحادثه عن رحمة الرسول ﷺ بالمرأة أو الطفل أو الحيوان، أو أمره ﷺ بالنظافة والنظام، أو حثّه على طلب العلم، أو غير ذلك من أمور تستوعبها عقول البشر جميعًا.

وأخطأ غير المسلم بسخريته من قول المسلم، إنما كان عليه إذا سمع ما لا يقبله عقله أن يرفضه دون سخرية، وأن يُبدي عدم القناعة دون استهزاء.

ولقد وَضَعَتْ هذه القصة حواجز بين الاثنين بدلاً من أن تبني جسورًا، مع أنه أُتيحت لهما فرصة الحوار، الذي هو من أعظم وسائل التواصل والتعارف.. ولم تكن هذه الحواجز إلاَّ بسبب إهمالهما لمسألة العقل كمشترك إنساني عامٍّ بين كل البشر.

أمَّا المشترك الإنساني العام الثالث فهو الأخلاق الأساسية..

وهذا مصطلح جديد أدخلتُه في هذه النظرية لأُعبِّر به عن مجموعة معينة من الأخلاق أرى أنها مشتركة بين عامة البشر، وهي في رؤيتي أساس الأخلاق، ومَنْ عُدِمَ أحد هذه الأخلاق الأساسية فإنه سيتعذَّر عليه في الغالب أن يتَّصف بغيرها من الأخلاق.

وهذه الأخلاق الأساسية من وجهة نظري ثلاثة؛ هي: الصدق، والأمانة، والعدل. ومن المؤكَّد أنني لا أعني تهميش الأخلاق الأخرى؛ كالكرم والشجاعة والصبر والحلم، لكن من منطلق النظرية أبحث عن الشيء الذي لا يختلف عليه شعبان في الدنيا؛ ومن ثَمَّ أعتبره مشتركًا إنسانيًّا عامًّا، ويمكن عندها أن نلتقي عليه، وأن نتعارف على أساسه، ويمكن كذلك أن نُدرِك أن التعدِّي عليه لا يعني شيئًا سوى الصدام.

وسيأتي تفصيل في فصل قادم عن هذه الأخلاق الثلاثة وسبب اختيارها، ولكني في هذا المقام أقول: إن كل شعوب العالم تُقَدِّر هذه الأخلاق الثلاثة وتُعَظِّمها، حتى إن لم تكن تمارسها، والشعوب التي لا تحرص على هذه القيم الأساسية لا تتجرَّأ أن تُعلن أنها تكذب أو تخون أو تظلم، وإنَّما تبحث عن مبرِّرات لما تفعل، وقد تُدَلِّس على الناس بإعلانات ودعايات تُوهم بها السامعين أنها لم تُخالِف هذه الأخلاق الأساسية، فهذه الأخلاق من هذا المنظور مشترك إنساني عامٌّ يُعظِّمه كل البشر.

أضف إلى ذلك أننا إذا كنَّا نتحدث عن تواصل بين الشعوب، وتعارف مبنيٍّ على ثقة بين الأطراف المتواصلة، فإننا لا نتصوَّر أن تقوم مثل هذه العلاقة وقد كذب فيها طرف أو خان أو ظلم؛ لأن الطرف الآخر لن يقبل بهذه العلاقة تحت أي ظرف من الظروف، وبذلك فنحن نقضي بالفشل على هذه العلاقة؛ ومن ثَمَّ سيحدث الصدام.

وعمومًا فإنَّ الأُمَّة التي تفشَّت فيها أخلاق الكذب والخيانة والظلم هي أُمَّة تقترب من لحظاتها الأخيرة، وستنتهي دورتها في الحياة؛ ومن ثَمَّ لن يُصبح لها دور مُؤَثِّر في منظومة التواصل بين الشعوب، وإن كانت -لا شكَّ- ستُعطِّل مسيرة الإنسانية نحو التعارف فترة من الزمان حسب قوتها ومدى تأثيرها.

أمَّا بقية الأخلاق فهي مهمة جدًّا -كذلك- في التواصل، ولكن ليست كهذه الأخلاق الأساسية، كما أنها ليست موجودة أو مُقَدَّرة عند كل شعوب الأرض؛ ومن ثَمَّ فقد أطلقتُ عليها مصطلح «الأخلاق السامية»، وضممتها إلى المشتركات الإنسانية الخاصة، وليست العامة، وسيأتي الحديث عنها لاحقًا إن شاء الله.

ويأتي حُبُّ التملُّك كمشترك إنساني عام رابع يجتمع أهل الأرض جميعًا على الاهتمام به واحترامه.. وهو مشترك يبدأ من الأيام الأولى لأي طفل مولود، ويستمرُّ مع الإنسان حتى آخر لحظات حياته، بل يُؤْثِر الإنسان أن يجعل ملكية ما حَصَّله على مدار السنين لعقبه وأولاده من بعده، الذين هم جزء منه، فكأنه ما زال يملك بعد موته، بل إن بعض الأقوام -كالفراعنة مثلاً- كانوا يدفنون مع الميت المجوهرات والأشياء الخاصة التي كان يمتلكها الميت قبل وفاته؛ لتستمرَّ ملكيته لها حتى بعد مفارقته لحياة الناس!

إنها غريزة عند كل البشر!

غني عن البيان إذًا أن نُشير إلى أن التعدِّي على ملكية الآخر -سواء كان التعدِّي على مال أو دار أو أرض، أو شيء عيني آخر- سيُؤَدِّي إلى صدام حتمي؛ ومن ثَمَّ فلا يمكن أن تقوم علاقة سلام وتعارف بين شعبين تعدَّى أحدهما على الآخر، وجار أحدهما على ملكية الثاني، ومع بداهة هذا الأمر إلاَّ أن الواقع يشهد ما يُخالفه كثيرًا؛ ومن ثَمَّ ضاع السلام والوئام في هذا العالم، وكم من المرَّات نشاهد أطرافًا يجلسون على طاولة مفاوضات للوصول إلى آليات معينة لتطبيق السلام، بينما في الحقيقة نجد أن أحدهم اغتصب ممتلكات الآخر، فهنا يجب أن نعلم أننا نبحث عن سلام وهمي لا وجود له، وأن السلام الحقيقي لن يكون إلاَّ باحترام الملكية لكل شعب، بل ولكل إنسان، فهي مشترك إنساني عام لن يتخلَّى عنه بشر مهما كان.

وغني عن البيان -أيضًا- أن نُشير إلى المناهج الفكرية التي تُلغي مسألة الملكية وتجعل كل شيء ملكًا للدولة، وتحارب غريزة حُبِّ التملُّك عند الإنسان، هي مناهج تحمل بذور الفشل مع نشأتها، وهي مناهج لا تقبلها الفطرة، وتمجُّها النفس السوية؛ ولذلك فما أسرع انهيارها! وما أقل دوامها! وما أكثر الصِّدامات التي تُخَلِّفها مثل هذه الأنظمة والمناهج! وليس انهيار الاتحاد السوفيتي منا ببعيد، وقد ثارت شعوبه، واصطدمت صدامات مروعة مع قوادها ومع جيوشها؛ لأسباب كثيرة لعلَّ في مقدِّمتها أنهم حُرموا على مدار السنوات متعة التملُّك، التي لا يستطيع إنسان كائنًا مَنْ كان أن يتنازل عنها، وهي حقٌّ كفلته كل الأديان، وشجَّعته كل الشرائع، ولم تُنكره إلاَّ بعض المناهج الشاذَّة التي أثبتت فشلها للجميع؛ مثل:

المزدكية[1]، والشيوعية.

فالتملُّك بهذه الرؤية مشترك إنساني عام يمكن أن نتعارف على احترامه، ونتواصل على تقديره، ونحرص كل الحرص على عدم الاعتداء عليه.

أمَّا المشترك الإنساني العام الخامس فهو الكرامة، وهو مشترك بين كل البشر كذلك، ويعلو عند البعض، ويقل عند آخرين؛ نتيجة عوامل تربوية معينة، لكنه موجود على كل حال في كل الناس، ولقد ذكر الله ﷻ ذلك الأمر في حق كل الخَلْق، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وكل الناس بنو آدم، إذًا فالتكريم لكل الناس، بصرف النظر عن دينه أو لونه أو جنسه أو وطنه أو الزمان الذي عاش فيه؛ لذلك اهتم عقلاء العالم بالحفاظ على كرامة الآخرين، وهذا كان يكفل تعارفًا وثيقًا، وتواصلاً حميمًا، بل كان رسول الله ﷺ يحرص على كرامة الأسير المشرك، فرغم أنه ليس على دينه، ورغم أنه كان حريصًا على قتاله منذ لحظات قبل أن يتم أسره، إلاَّ أنه يُقَدِّر فيه إنسانيته، ويحترم كرامته، فيقول لأصحابه عن الأسير: «أَحْسِنُوا إِسَارَهُ»[2]. وكان بذلك يملك قلوب المخالفين، ويفتح الآفاق لحوار وتعارف وتواصل.

وماذا لو حدث انتهاك للكرامة؟

إنه تعدٍّ على مشترك إنساني عام، لا يمكن أن يقبله إنسان؛ ولذلك فهذا نذير حرب وصدام، وقد تفنى شعوب من أجل الحفاظ على كرامتها، وقد يكون سبب خدش الكرامة أمرًا بسيطًا في ظاهره ، لكن عواقبه تكون من القوة بحيث يمكن أن تستنزف إمكانيات أُمَّة أو أمم، ولقد رأينا الإمبراطورية البيزنطية -مثلاً- تتعدَّى على كرامة الأُمَّة الإسلامية فتقتل رسولاً من رسلها، الذين كانوا يحملون رسالة إلى أحد حكام دمشق، فقامت من جرَّاء ذلك موقعة مؤتة، ثم مواقع أخرى وصدامات، ثم حروب ومعارك استمرَّت أكثر من ثمانية قرون!

---

(١) المزدكية: نسبة إلى دعوة مزدك، الذي وُلِدَ سنة (٤٨٧م)، فأعلن أن الناس وُلِدُوا سواء لا فرق بينهم؛ فينبغي أن يعيشوا سواء لا فرق بينهم، ولمَّا كان المال والنساء ممَّا حرصت النفوس على حفظه وحراسته؛ كان ذلك عند مزدك أهمَّ ما تجب فيه المساواة والاشتراك، يقول الشهرستاني: أحلَّ النساء، وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ. الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ٢٤٨.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٦/ ٥١.



إن الكرامة لهي من أهم خصائص البشر، بل إنها تعلو عند بعض النفسيات، وعند بعض الشعوب حتى تربو على الاحتياجات الأساسية من طعام وشراب، وقديمًا قال العرب: «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها»[1]. فألم الجوع أهون ألف مرة من ألم خدش الكرامة، بل الموت أحيانًا يُصبح مرغوبًا إذا كان دفاعًا عن الكرامة، وما أروع ما قاله عنترة بن شداد وهو يصف تقديره لهذا المشترك الإنساني العام:

لا تَسْقِنِي مَاءَ الْحَيَاةِ بِذِلَّةٍ   بَلْ فَاسْقِنِي بِالْعِزِّ كَأْسَ الْحَنْظَلِ[2]

فالحياة الذليلة ليست في واقع الأمر حياة، ومَنْ لم ينظر إلى هذا المشترك بعين الاعتبار، فهو يبحث عن صدام لا نهاية له!

أمَّا المشترك الإنساني العام السادس فهو الحرية، وهي كذلك غريزية في كل إنسان، بل يشترك فيها مع الإنسان سائر المخلوقات، وما هذا الحيوان الذي يقبل بحبسه؟ وما الطائر الذي يرضى بتقييد حريته؟ فكيف بالإنسان؟!

كل سكان الأرض بلا استثناء يُقَدِّرون الحرية، بل ويُقَدِّرون الشعوب التي تجاهد من أجل حريتها، حتى إننا نرى كثيرًا من سكان الدول الاستعمارية يُنادون حكوماتهم أن يرفعوا أيديهم عن البلاد المحتلة، وأن يُعطوا شعوب العالم حريتهم.. إنها مطلب إنساني أصيل يمكن أن نجتمع عليه، ونتعارف على أساسه.

وجاءت الأديان كلها لتحرير الإنسان من العبودية لغيره، وأن تجعل هذه العبودية لله وحده، وحتى في الأديان الوضعية وعند الملاحدة لا يستطيع أحد أن يُدافع عن العبودية، ولا أن يُقِرَّ بتقييد الحريات، والشعب أو الفرد الذي تُقَيَّد حريته لا شكَّ أنه سيُناضل ويُكافح حتى ينال هذه الحرية، ومن ثَمَّ فالعلاقات التي تقوم بين الشعوب على أساس الاستعباد والقهر، هي علاقات فاسدة لا يمكن أن تستمرَّ، ولن تُورث إلا الكراهية والبغضاء.

---

(١) تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها: يُضْرَب مثلاً للرجل يصون نفسه في الضراء، ولا يدخل فيما يدنسه عند سوء الحال، ومعناه: أن الحرة تحتمل الجوع ولا تُرضع بالأجر فكأنها تأكل بثدييها وقد كان هذا من العار عند العرب. أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال ١/ ٢٦١، والميداني: مجمع الأمثال ١/ ١٢٢.

(٢) ديوان عنترة بن شداد ص٧٠.

ثم يأتي العلم كمشترك إنساني عام سابع..

ولا نُبالغ إن قلنا: إن الإنسان يفقد سبب تكريمه إن فقد العلم! ولعلَّنا نُدرك ذلك بوضوح إذا راجعنا قصة خَلق آدم عليه السلام في القرآن الكريم وفي الكتب السماوية، لنرى أن الله عز وجل ميَّزه بشيء واحد على الملائكة؛ ولذلك أسجد الملائكة له، وهذا الشيء هو العلم.. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١-٣٢].. فمن أجل هذا العلم رُفع قدر الإنسان، ومَنْ حُرم من العلم فقد حُرم أحد أهم أسباب تكريمه كإنسان.

والعلم في رؤيتنا الخاصة بتقارب الشعوب نوعان: علم خاص وعلم عام.. أما العلم الخاص فهو الذي تهتمُّ به أُمَّة دون غيرها من الأمم، فهو خاص بها، وليس مشتركًا عامًّا بين كل الأمم، وهذا العلم هو علم العقيدة والدين في الأساس، وينضمُّ إليه علوم القانون والحقوق والأعراف والتقاليد.. وأما العلم العام فهو العلم الذي يهتمُّ به كل البشر، على اختلاف أوطانهم وأعراقهم والزمان الذي عاشوا فيه، وهو العلم الخاص بتعمير الأرض وتمهيد الحياة فيها؛ مثل علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء والذرَّة والفضاء، ومثل علوم الصناعة والتجارة والزراعة، فهذه أُسمِّيها «علمًا عامًّا»، وأسميها كذلك «ميراث الإنسانية»، وهي علوم مرغوبة ومطلوبة عند عامة البشر، ولا تستقيم حياة بدونها، وهي تتطوَّر تبعًا للمكان والزمان والظروف البيئية والحياتية والاقتصادية وغيرها، ولكنها في الوقت نفسه ليس لها وطن معين، فمصباح اختُرِع في أميركا يستفيد منه أهل اليابان، وعلم كالجبر اختُرِع في بلاد المسلمين ينفع الناس في أوربا، وورق اختُرِع في الصين يستفيد منه البشر في إفريقيا.. وهكذا.

إن هذا العلم لمن أروع وسائل التواصل والتعارف بين الشعوب، وهو ميدان فسيح جدًّا جدًّا للتلاقي؛ لأنه ما من أمَّة -مهما صغرت- إلاَّ وعندها إتقان لنوع من العلوم يحتاجه بقية البشر، كما أن الأيام دول، والدولة العلمية الرائدة في زمان قد تُعاني في زمان آخر من تخلُّف وتدهور، فهي في الزمان الأول تُصَدِّر هذا النوع من العلوم لغيرها من البشر، وهي في الزمان

الثاني تستورده، وهكذا كل الأمم.

ولا شكَّ أن تعمُّد حرمان أُمَّة من الأمم من هذا العلم يُنذر بحرب ضروس؛ لأن هذا العلم هو الذي يبني الأمم، والحرمان منه يعني الانهيار، ولن يقبل شعب بذلك أبدًا، ومن ثَمَّ سيكون الصدام..

أما ثامن هذه المشتركات العامة فهو العمل، وهو كذلك غريزة في كل إنسان، والسماء لا تُمطر ذهبًا ولا فضة؛ ومن ثَمَّ وجب على كل إنسان أن يعمل حتى يُحَصِّل ما يكفل له احتياجاته الأساسية من طعام وشراب وملبس ودواء وغير ذلك، وقد يسعى للعمل للحصول على ما يُرَفِّه حياته ويُجَمِّلها، فلا يكتفي حينئذٍ بالضروريات، بل إن الإنسان ميسور الحال والذي يجد من المال ما يكفيه وأهله لعشرات السنين، هذا الإنسان لا يرغب أبدًا في الجلوس دون عمل؛ فهذا يُشعره بضياع قيمته، كما يُشعره بعدم فائدته لمن حوله في المجتمع، وهذا يقتله نفسيًّا؛ ولذلك نرى حالات الاكتئاب تنتشر جدًّا في كبار السنِّ، الذين أُحيلوا إلى المعاش، أو الذين تركوا أعمالهم لضعف قوَّتهم، وقد يُقدم بعضهم على الانتحار؛ لأن الحياة بالنسبة له لا تعني شيئًا دون عمل.

والعمل ليس له وطن، تمامًا كمشترك العلم، فالعلم والعمل غير مرتبطَيْنِ أبدًا بحدود دولة أو أُمَّة، إنما يُمَثِّلان في الغالب أشهر الأسباب لانتقال الإنسان من وطن إلى وطن آخر، ولعلَّ هذا الانتقال يكون أحيانًا هجرة بلا عودة؛ بحثًا عن تعلُّم علم معيَّن، أو بحثًا عن عمل أو وظيفة مُعَيَّنة، فهما هنا من أرحب ميادين التواصل بين الشعوب.

وما أكثر الشعوب التي تزخر بالمصانع والمناجم والمزارع وفرص العمل! وما أكثر الشعوب -كذلك- التي تزخر بالطاقات البشرية المعطَّلة والمفتقرة إلى فرصة عمل، ولو تعاونت هذه الشعوب مع الأخرى لتكوَّنت منظومات عالمية متعاونة؛ تهدف إلى حالة من السلم والتعارف والتواصل.. والسعي إلى تقنين ذلك يُهَدِّئ كثيرًا من حالات الاحتقان، التي نراها عندما نشاهد أقوامًا يعانون من البطالة في وطن يسعون لدخول وطن آخر بشكل غير شرعي، وبطرق غير قانونية؛ مما يُؤَثِّر على العلاقات بين الشعوب، فلو سعى المصلحون إلى

تذويب الحواجز بين الشعوب، وتوسيع الأفق، واعتبار العمل أحد أهم المشتركات الإنسانية العامة، وسنِّ القوانين التي تكفل الحقوق لكلا الشعبين؛ لتحقَّق تواصل وتلاحم بين معظم شعوب الأرض، ولقلَّت أسباب الحروب إلى حدٍّ كبير، خاصة أنني أعتبر الإنسان الذي يُعاني من البطالة إنسانًا قابلاً للانفجار في أية لحظة، وليس بالضرورة أن يكون انفجاره في بلده، بل قد يكون في أي مكان في العالم، وهذا يُنذر بصدام هائل لا يمكن توقُّع آثاره.

***

كانت هذه هي المشتركات الإنسانية العامة في نظريتنا، وهي -كما ذكرنا- ثمانية، وإن كنتُ على يقين أن هناك تقسيمات أخرى قد تقسم أحدها إلى اثنين أو ثلاثة، أو تضمُّ بعضها تحت عنوان واحد، أو تأتي بمشترك جديد، أو تحذف مشتركًا وضعناه.. إنما على كل حال أعتقد أن الفكرة قد وضحتْ، فهذه أمور لا يستطيع الإنسان بحال أن يعيش بدونها؛ ومن ثَمَّ فهي ضرورية تمامًا لأي إنسان، والاعتداء عليها لا يعني إلاَّ الصدام والحرب، كما أنها ميدان اتصال واسع الأرجاء بين كل البشر على اختلاف أنواعهم، فليس هناك واحد من البشر لا يحترم هذه المشتركات الإنسانية العامة؛ سواء على وجه الإجمال، أو حتى في التفصيلات الداخلية في كل مشترك، وهو ما جعلنا نُطلق عليها لفظ «العامة».

وإنني بعد تدبُّر في القرآن الكريم، وفي السُّنَّة المطهرة ألمح حبلاً يربط بين كل هذه المشتركات الثمانية، وهذا الحبل هو «الفطرة».. فهذه المشتركات في الحقيقة هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، بمعنى أنها زُرعت في الإنسان من لحظة خلقه، واتصف بها منذ يوم ميلاده، وتظلُّ معه إلى آخر أيام حياته، وليس له إرادة في استصحابها، ولا يقدر -حتى لو رَغِب- أن يتخلَّى عنها، والإنسان الذي يتخلى عنها هو في واقع الأمر مريض يحتاج إلى علاج، فرجل يعزف عن الطعام أو الشراب، أو رجل يطلب الإهانة أو العبودية، ورجل يسعى إلى جهل أو يرضى بالبطالة.. كل هؤلاء مرضى يحتاجون إلى تأهيل نفسي وتربوي؛ فالأصل أن جميع البشر مفطورون على تقدير هذه المشتركات واحترامها.. وقد جاء ذِكْر هذه الفطرة في القرآن الكريم مرتبطة بالناس جميعًا، وليست مرتبطة بقوم دون قوم، أو بشعب دون شعب.. قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وواضح بالطبع أن الله ذَكَر هنا

ارتباط الفطرة بالناس، وليس بالمؤمنين فقط، إنما هي شيء عام يربط كل البشر.

وقد يُطلق علماء النفس على هذا الرابط كلمة «الغريزة»، وهي تعني -أيضًا- الأمور اللاإرادية التي نجدها في كل إنسان، وهي التي تُعطيه صفة الإنسانية، وفاقدها مريض يحتاج إلى علاج.

***

مما سبق يمكن القول بأن هذه المشتركات الإنسانية العامة هي من الثوابت غير القابلة للتغيير، ومع أننا ذكرنا أن العقيدة هي المشترك الأسمى، وأنها أعلى من هذه المشتركات العامة إلاَّ أن العقيدة يمكن أن تتغيَّر، نعم لا يكون هذا إلاَّ بصعوبة بالغة، لكنها في النهاية يمكن أن تتغيَّر، خاصة إذا كان تغييرها نتيجة حوار هادئ غير متعنِّت يُبَدِّل القناعات دون إكراه.. لكن على الناحية الأخرى فإن المشتركات الإنسانية لا يمكن تغييرها لا بحوار هادئ ولا عنيف؛ ومن ثَمَّ فلا يجوز بحال من الأحوال أن يُفكِّر شعب في التواصل مع شعب آخر وقد تمَّ تهديد أحد هذه المشتركات العامة؛ لأن هذا يعني ببساطة فقد الحياة.. ولن يقبل أحد بفقد حياته!

ومن اللطيف أن نذكر هنا أن هذه المشتركات الإنسانية العامة هي الثوابت الوحيدة في كل المشتركات المذكورة في نظريتنا، وأن كل المشتركات الأخرى قابلة للتغيير الكامل، وإن كانت إمكانية التغيير وسهولته أو صعوبته تختلف من مشترك إلى آخر كما سيتبيَّن لنا.

***

ثالثًا: أمَّا المجموعة الثالثة من المشتركات فهي ما أسميتها «المشتركات الإنسانية الخاصة»، وهي في الحقيقة مشتركات موجودة في كل أُمَّة، ويُقدِّرها كل إنسان، ولكنها تختلف عن المشتركات الإنسانية العامة في أمرين جعلني أُفرد لهما مجموعة خاصة:

أمَّا الأمر الأول فهو أن البشر يشتركون في أصول هذه المشتركات، ولكنهم يختلفون في فروعها، بمعنى أن البشر يتَّفقون في المشترك كمبدأ، لكنهم يختلفون في طريقة تطبيقه، وكمثالٍ يُوَضِّح الصورة فإنني وضعتُ مع هذه المشتركات اللغة.. فكل البشر يحتاجون إلى لغة يتواصلون بها، لكن لكل شعب لغته الخاصة به، ولا يمكن جمع العالم على لغة واحدة، بل



جعل الله ﷻ من آياته اختلاف لغات العالم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢]، فاللغة عامة في كل البشر، لكنها خاصة لكل شعب، ومن هنا جاءت في المشتركات الخاصة.

أما عند حديثنا عن المشتركات الإنسانية العامة فإننا كنا نتكلم عن مشتركات يتفق البشر جميعًا في أصولها وفروعها، ويتفقون في المبدأ الذي بُنِيت عليه، وكذلك في طريقة التطبيق، فالعالم كله لا بُدَّ أن ينعم بالحرية والكرامة، ولا بُدَّ أن يُحترم عقله، ولا بُدَّ أن تُتاح له الفرصة لتعلُّم علوم الحياة والمعمار.. وهكذا.

هذا هو الفارق الأول بين المشتركات العامة والخاصة..

أمَّا الفارق الثاني فهو أن المشتركات الإنسانية العامة ضرورية وحتمية، بمعنى أنه لا يمكن بحال أن نعيش بدونها، وما دامت نُزِعَت من إنسان فإنه لا بُدَّ له أن يصطدم بمَنْ نزعها منه، لأنه نزع شيئًا يُهَدِّد حياته، وهي أغلى ما يملك.. أمَّا المشتركات الخاصة فهي -على الرغم من أهميتها- أقلُّ درجة من المشتركات العامة، ويمكن للإنسان أن يعيش بدونها، لكنها ستكون حياة تعيسة، وإذا نُزِعتْ من الإنسان فإنه سيصطدم مع مَنْ نزعها منه، لكن هذا الصدام سيكون أقلَّ دموية من الصدام على المشركات الأعلى؛ مثل المشترك الأسمى، أو المشتركات الإنسانية العامة.

لكنَّ هذين الاختلافين لا يُلغيان أهمية المشتركات الخاصة في الربط بين شعوب الأرض، لكنها ليست كالمشتركات العامة تربط كل سكان العالم، إنما هي تربط عددًا معيَّنًا من الناس، قد يضيق حتى لا يشمل إلاَّ شعبين أو ثلاثة، وقد يتَّسع حتى يشمل نصف سكان العالم مثلاً، لكنه لا يشمل كل السكان أبدًا.

والمشتركات الخاصة لا حصر لها، وقد تشترك عدَّة شعوب في أمور بسيطة جدًّا لكنها تكون مُؤَثِّرَة بالنسبة لها، وهي مشتركات تتجدَّد وتتغيَّر وتتطوَّر بشكل كبير؛ لذلك قلنا: إن حصرها صعب للغاية، ولذلك فإننا في هذه النظرية سنضرب بعض الأمثلة لهذه المشتركات الخاصة، والتي يجتمع عليها في العادة عدَّة شعوب، فهي تُعتبر في رؤيتي أهم هذه المشتركات الخاصة..

وهي تشمل ثمانية مشتركات -كذلك- وهي: الثقافة، والأرض، والعرق، والتاريخ المشترك، واللغة، والعادات والتقاليد، والقانون، والأخلاق السامية.

أمَّا المشترك الإنساني الخاص الأول فهو الثقافة، وأنا أُدرك أن الثقافة لها عشرات التعريفات، ولكنني أعني بها -ببساطة- الفكر الذي يمكن أن يُغيِّر سلوك الإنسان ومنهجه في الحياة، والثقافة هي نتاج العقل بهذا التعريف، ولما كان للعقل مكان متقدِّم -كما بيَّنَّا في المشتركات الإنسانية العامة- كان لا بُدَّ للثقافة والفكر أن يكون لهما هذا المكان المتقدِّم في المشتركات الإنسانية الخاصة، والثقافة شيء محترم ومُقَدَّر من كل الشعوب، بصرف النظر عن مكنوناتها أو نتاجها؛ لأنها في النهاية جهد بشري راقٍ، وعملٌ إنساني عظيم، حتى لو شابتها أخطاء، أو اعتراها نقص فهذا من طبيعة الأفكار الإنسانية.

والثقافة قد تكون محدودة بوطن معيَّن، لكن إن كانت منطقية ومقنعة فإنها سرعان ما تنتشر خارج الوطن الواحد حتى تشمل كثيرًا من دول العالم، وتُصبح بذلك من أقوى عوامل التعارف والالتقاء بين الشعوب، ولكنها في الوقت ذاته قد تُهيج شعوبًا أخرى بشكل قد يُثير صدامًا وعراكًا.

ولأن الثقافة هي نتاج العقل فمجال شموليتها واسع جدًّا؛ كاتساع العقل! والعقل له فكر في قضايا الاجتماع، وله فكر في قضايا السياسة، وله -كذلك- فكر في قضايا الاقتصاد، وكذلك في قضايا الأخلاق.. وهكذا، فما من مجال من مجالات الحياة إلاَّ وللإنسان فكر فيه؛ ومن ثَمَّ يكون هناك سلوك معيَّن في المجتمع ناتج عن هذا الفكر.

من هذا المنطلق فأنواع الثقافة لا نهائية، فمن الناحية الاقتصادية -مثلاً- هناك فكر (أو ثقافة) شيوعي -مثلاً- وهناك فكر رأسمالي، وداخل كل واحد من هذين القسمين عشرات التفريعات..

ومن الناحية الاجتماعية هناك فكر سلمي يسعى لتجميع الطاقات والتعايش بينها، وهناك -أيضًا- فكر صدامي يسعى للمواجهة والتحدِّي..

ومن الناحية الأخلاقية هناك فكر التزامي انضباطي، يدعو إلى العودة إلى الأخلاق

والاهتمام بها، ويُواجهه فكر إباحي تحرُّرِيٌّ، ينظر إلى الأخلاق على أنها قيود على الإنسان.

وعلى قدر هذه التقسيمات الكثيرة يتغيَّر سلوك المجتمع، وما أسرع أن تتجمَّع شعوب كثيرة حول فكر واحد! وما أسرع أن تصطدم -كذلك- شعوب كثيرة بسبب أفكار متعارضة!

والتعارف الفكري هو من أقوى أسباب التعارف والتواصل، بل إنه يُصبح في بعض الأماكن في العالم بديلاً عن المشترك الأسمى -وهو العقيدة كما بيَّنَّا- خاصة في الأماكن التي يقلُّ فيها الارتباط بالدين لسبب أو لآخر.. ومن هنا فالتعارف المبني على اتحاد الفكر تعارف قوي للغاية، ويتجاوز كثيرًا الحدود الجغرافية والاقتصادية والعرقية.. وغيرها، ونحن في هذه النظرية نحبِّذه وندعو إليه، فما أجمل وأقوى أن يلتقي الإنسان مع أخيه الإنسان حول فكرة واحدة نتعاون من أجل إنجاحها، ونلتقي من أجل تنميتها وتطويرها!

ولكن من المنطلق نفسه فالصدام بسبب الفكر يكون صدامًا داميًا، قد يقترب في قوَّته من الصدام حول المشترك الأسمى (العقيدة)؛ لأنه صدام من أجل فكرة، وقد لا يتغيَّر إلاَّ إذا غيَّر أحد الأطراف أفكاره، والأفكار عادة لا تتغيَّر بالقوَّة؛ ومن ثَمَّ فقد ندخل في حلقة مفرغة، ولا يقف الصدام.

ومن هنا فنحن نُحَذِّر أشدَّ تحذيرٍ من الحرب والصدام على أساس الأفكار، وندعو الشعوب إلى النظر إلى الأمور نظرة مختلفة، وهذه النظرة هي نظرة التكامل لا التنافس، فأنا مقتنع بفكرتي ومؤمن بها، لكن ما المانع أن أُنَقِّح فكرتي من أفكارك، وأن أُكَمِّل نقصي مما عندك.. هذه النظرة التكاملية، وهذا «الانفتاح الفكري» سيُؤَدِّي إلى ثراء عظيم بدلاً من التحجُّر الفكري العقيم، وسيقودنا إلى تعارف تكاملي بدلاً من الصدام التنافسي.

وثاني المشتركات الإنسانية الخاصة هو الأرض، وهي من أشهر الأسباب التي يتجمَّع عليها البشر ويتعارفون، بل لعلَّها الأشهر في زماننا، فقد برز في هذا الزمن المعاصر نظام الدول والأوطان، والدولة أو الوطن ما هو إلاَّ رقعة جغرافية معيَّنة لها حدود معينة معروفة، ويعيش عليها شعب هم المواطنون لهذه الدولة.. وصارت كل بقعة من «أرض» المعمورة

تابعة لدولة معينة، حتى البحار تمَّ تقسيمها دوليًّا؛ حتى تعرف كل دولة حدود مياهها الإقليمية، بل صار الجميع يتعارف على المجال الجوي لكل دولة، فصارت بذلك «الأرض» هي العامل الأكبر لتجميع عدد معيَّن من الناس في مكان واحد.

وتكبر بعض الدول حتى تشمل عدَّة ملايين من الكيلو مترات المربعة؛ مثل: روسيا وكندا والولايات المتحدة الأميركية، وتصغر بعضها حتى تُحسب بمئات الكيلو مترات المربعة فقط، وليس بالآلاف أو الملايين؛ مثل: موناكو ومالطا وسنغافورة، لكن في النهاية يتعارف الجميع أن هذه «الأرض» مجمِّعة لهذه المجموعة من البشر.

ولا يخفى علينا أن الأرض الواحدة تضمُّ فوقها عشرات التنوُّعات البشرية؛ ففيها عدَّة عقائد، وعدَّة أعراق، وعدَّة ألوان، وعدَّة مستويات اقتصادية، وكل هؤلاء مواطنون في هذه البقعة من الأرض.. يُحبُّونها ويُدافعون عنها.

الأرض من هذا المنظور من أقوى المشتركات الإنسانية الخاصة، والتي تجمع عددًا معينًا من البشر في مكان واحد.

ولا شكَّ أن ميدان التواصل والتعارف سيكون كبيرًا بين «الأراضي» المتجاورة، فهناك عشرات المصالح المشتركة بين الدول المتلاصقة؛ سواء مصالح متعلِّقة بمصادر المياه، أو حقولًا مشتركة للنفط والمعادن، أو احتياجًا للتواصل مع العالم الخارجي عبر طرق دولة مجاورة، أو عبر موانيها، أو مرور أنابيب ووسائل اتصال، كما لا شكَّ أن فرص العمل المشترك ستكون كثيرة، وليس غريبًا الآن في أوربا أن تجد رجلاً فرنسيًّا يعمل في ألمانيا على الحدود مع فرنسا، ويعود يوميًّا يبيت في بيته الفرنسي! إن مساحة التواصل بين الدول المتجاورة كبيرة للغاية، ويمكن لعقلاء كل دولة إذا فكَّروا في خَلْق فرص جديدة للتواصل مع الدول المحيطة لدولتهم أن يخرجوا بما لا يُحصى من مساحات الاشتراك.

ومع هذه الفرصة للتعارف والتقارب إلاَّ أن أشهر حروب العالم الآن تقوم من أجل الصراع على الحدود! وقد حوَّل الإنسان المشترك القوي الذي بينه وبين أخيه المجاور له إلى وسيلة صدام لا وسيلة تعارف.. وكم من الطاقات تضيع على الدولتين المتصارعتين! وكم

من الأرواح تُزهق! وكم من الأموال تُنفق! وكل هذا يزيد مئات المرات عن الربح المتحقِّق الناتج عن ضمِّ رقعة الأرض المختلَف عليها! فالجميع في النهاية خاسر، بالإضافة إلى فقدان الثقة، وضياع فرص التعاون والشراكة.

ولعلَّ أخطر من ذلك أن تقوم على «الأرض» الواحدة حرب بين سكانها، وأن يشتعل الصدام بين مواطنيها، فيما يُعرف بالحرب الأهلية؛ فهؤلاء كانوا أكثر حماقة، وأعمق جهلاً، فلم ينظروا إلى المشترك العظيم الذي يجمعهم وهو الأرض، بل صار هذا المشترك مفرِّقًا لهم، ومشتِّتًا لقوَّتهم، وبدلاً من أن يضعوا أيديهم في أيدي إخوانهم للحفاظ على الأرض والدفاع عنها، صاروا بصدامهم مُضَيِّعين لها، ومفرِّطين فيها.. ولا شكَّ أن بلدًا اشتعلت فيه حرب أهلية ضارية هو بلد افتقر إلى الحكماء، وهجره العقلاء!

أمَّا المشترك الإنساني الخاص الثالث فهو العرق.. وهو من المشتركات الإنسانية الأصيلة، ولعلَّه من أشهر المشتركات «التقليدية» التي دأب البشر على التجمُّع عليها، والعالم كله يعرف في تاريخه نظام القبائل والعشائر، ويشعر بالارتباط بشكل فطري وتلقائي لأفراد رحمه وقبيلته وعشيرته، وفي الوقت نفسه فإن المعارك بين الأعراق المختلفة معارك مشهورة، وقد تقوم معارك بين عرقين متقاربين جدًّا كبطنين في قبيلة واحدة، أو كعائلتين في عشيرة واحدة، وعندها يتحوَّل المشترك الإنساني إلى سبب صدام!

ومع أن دور العرق قد قلَّ كثيرًا مع حياة المدنية الحديثة، حتى صار معظم الناس لا يعرفون أصولهم، ولا يكترثون بالبحث عن أعراقهم، إلاَّ أنه ما زال له دور مهم في بعض المناطق، وخاصة إذا كان أصحاب العرق الواحد يشعرون بالغبن والاضطهاد في البلد الذي يعيشون فيه؛ ومن ثَمَّ فإنهم يبحثون عن رابطة أخرى غير رابطة الوطن تجمعهم، وقد تكون هذه الرابطة هي رابطة العرق، ولعلَّ من أبرز الأمثلة على ذلك مثال العرق الكردي، فالأكراد يبحثون عن رابط العرق ليربطهم، وينظرون إلى حلم يترقبونه، وهو تكوين دولة لم يشهد التاريخ مولدها حتى هذه اللحظة، وهي دولة «كردستان»، ولم يتنامَ عندهم هذا الشعور إلاَّ لشعورهم بالتهميش في الدول الخمس التي يعيشون فيها؛ وهي: العراق، وسوريا، وتركيا، وإيران، وأرمينيا، فصار العرق بذلك مجمِّعًا لهم، ومجدِّدًا لآمالهم.

وكما أنه ما زال للعرق دور في تجميع وتعارف مجموعات من البشر، فإنه ما زال كذلك سببًا كارثيًا من أسباب الصدام؛ فالحروب التي تقوم على أساس العرق حروب شرسة لا نهاية لها، وهي جريمة بكل المقاييس، وصار العالم يتعارف الآن على هذا التجريم لهذه الحروب، والتي تُعرف بجرائم «التطهير العرقي»؛ لأن البشر لا يد لهم في أعراقهم، ولا يملكون تغييرها، ولا يختارونها أو يستبدلونها؛ ومن ثَمَّ فهي حروب لا معنى لها، وليس هناك مبرِّر عقلي مقبول وراءها، وما أبلغ الوصف الذي وصف به رسول الله ﷺ مثل هذه الحرب العرقية، حين وصفها بأنها: «**دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ**»[1]. فمن الجهل حقًّا أن نتصادم لأن أعراقنا مختلفة، مع أنه لم يختر أحدنا هذا العرق أو غيره.

ومن هذا المنطلق فإنني أُنادي في هذه النظرية بإعادة النظر في مسألة العرق على أنها «مشترك إنساني» وليست سببًا للتصادم، فليس عندي مانع مطلقًا أن يتواصل أصحاب العرق الواحد سواء في وطن واحد، أو عبر الأوطان المختلفة، أو كجاليات قليلة في أوطان غريبة، وأن يكون هذا العرق الواحد سببًا في تجميع جهودهم وتعارفهم وتواصلهم وتعاونهم لتحقيق مصالح مشتركة، لكن في الوقت نفسه أدعو الجميع إلى عدم الاستعلاء على الآخرين بسبب عرق أو أصل أو جنس، وعدم التصادم على هذا الأساس، وإلاَّ فالنتائج قد تكون سلاسل من الصدامات الدموية التي يهلك فيها ما لا نحصيه من البشر!

ويأتي التاريخ المشترك بين شعبين كمشترك إنساني خاص رابع.. وهو مشترك في غاية الأهمية، وهناك علاقات حميمة يمكن أن تنشأ بين بعض الشعوب لا لشيء إلاَّ لأنهم أصحاب تاريخ مشترك قوي وإيجابي، والسياسيون الحكماء يدرسون التاريخ، ويقرءون مثل هذه العلاقات، ويضربون على أوتارها، والمفكِّرون الأمناء الحريصون على أمن وسلام العالم يُنَقِّبون في مراحل التاريخ المختلفة على نقاط التلاقي بين شعبين معينين أو عدَّة شعوب، ثم يُحرِّكون همَّة

---

(١) اقتتل غلامان؛ غلامٌ من المهاجرين وغلامٌ من الأنصار، فنادى المهاجر أو المهاجرون: يا للمهاجرين. ونادى الأنصاريُّ: يا للأنصار. فخرج رسول الله ﷺ فقال: «**مَا هَذَا دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ؟!**». البخاري: كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية (٣٣٣٠)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا (٢٥٨٤) عن جابر بن عبد الله.

الناس في التعارف والتواصل انطلاقًا من هذا التاريخ الإيجابي المشترك.

ولكن لا شكَّ أن هناك تاريخًا أسودَ يجمع شعبين أو أكثر، وأنه قد تكون هناك صدامات تاريخية أدَّت إلى جروح عميقة بين كيانين إنسانيين، والحلُّ هنا واحد من اثنين: إمَّا تجاهل هذا التاريخ كلية، والنظر في المشتركات الأخرى التي تجمع الشعبين؛ مثل: المشترك الأسمى، أو المشتركات الإنسانية العامة، أو بعض المشتركات الإنسانية الخاصة، وإمَّا الطريق الثاني -وهو أفضل- وهو صناعة تاريخ جديد إيجابي! ولا أعني به تزوير الأحداث الماضية، والعبث فيها؛ فإن هذا منهج مرفوض تمامًا، ولكن أعني وضع نقطة في نهاية السطر وبداية سطر جديد! نستطيع أن نتواصل اليوم تواصلاً إيجابيًّا فعَّالاً مع تجنُّب ذِكْر التاريخ القديم مطلقًا.. ثم مع مرور الوقت سيُصبح واقعنا الآن تاريخًا للأجيال المستقبلية، وقد يطغى هذا التاريخ الإيجابي القريب على التاريخ السلبي السحيق، والأمثلة التطبيقية على هذا التصوُّر كثيرة؛ فالتاريخ القديم يحمل على سبيل المثال عداوات متكرِّرة بين الإنجليز والفرنسيين، لكن التاريخ الحديث يحمل تعاونًا في الحربين العالميتين الأولى والثانية، فلينظر عقلاء الشعبين إلى هذا التاريخ التعاوني المشترك بدلاً من النظر إلى التاريخ العدائي السابق، وهنا يُصبح التاريخ مشتركًا إنسانيًّا لا سببًا من أسباب الصدام.

أمَّا المشترك الإنساني الخامس فهو اللغة.. وهي مشترك إنساني بارز؛ فالبشر جميعًا يحتاجون إلى لغة يتواصلون بها، ويجتمع في العادة كل مجموعة من البشر على لغة معينة يتكلمون بها ويُطَوِّرونها، تكون سببًا في تعارفهم وتعاونهم.. وكلما قويت الأُمَّة انتشرت لغتها، وسعى عدد أكبر من الناس لتعلُّم هذه اللغة ودراستها؛ ومن ثَمَّ «الاشتراك» مع أهلها في مشترك جديد، وقد كان العالم كله يسعى إلى تعلُّم اللغة العربية يوم كانت الحضارة الإسلامية في صدارة العالم، والآن العالم يسعى إلى تعلُّم الإنجليزية؛ لتصدُّر أميركا وقبلها بريطانيا للنهضة الحضارية المعاصرة، وغدًا تنتشر لغة أخرى.. وهكذا.

من هذا المنطلق يُصبح تعلُّم اللغات الأخرى غير اللغة الأم التي يتكلم بها أهل الوطن الواحد.. يُصبح هذا التعلُّم بابًا واسعًا للتعارف مع الشعوب الأخرى؛ ومن ثَمَّ فهو دور مهمٌّ -كذلك- للشعوب أن تُعَرِّف الآخرين بلغاتها، وذلك عن طريق فتح المراكز المختلفة لتعليم



هذه اللغة في كل أماكن الدنيا، وهنا سيعرف العالم طبيعة هذه الدولة وأفكارها عن طريق لغتهم، وهذا سيكون أبلغ في المعرفة، وأدقَّ في النقل.

بل إنه على الشعوب المختلفة أن تسعى إلى تبسيط لغتها وتسهيلها على الآخرين؛ حتى تفتح مجالاً أوسع لتعلُّمها، ولعلَّه من المناسب هنا أن أنقل المثال الياباني الذي وجد أن كتابة لغته الأصلية بالحروف الصينية يُمَثِّل مشقَّة كبيرة جدًّا على الذين يُريدون التعرُّف على اللغة اليابانية، حتى إنه يُمَثِّل مشقَّة على أهل اليابان أنفسهم! ومن ثمَّ لجأت اليابان إلى كتابة لغتها بالحروف الكورية الأسهل في الرسم والفهم، ومن ثَمَّ سهَّلت على العالم التعرُّف على اللغة اليابانية، وزاد مُتَعَلِّموها.

وإذا كنا نقول: إن حرص الدول على تعليم الآخرين للغتها سيكون وسيلة مهمة من وسائل التعارف والتقارب وحُسن التعايش. فإننا في الوقت نفسه نُحَذِّر من «قهر» الشعوب على تعلُّم لغة معينة، فإن هذا يُحدث خلاف ما رغبنا في تحقيقه تمامًا؛ لأنه لا شكَّ سيُشعل الصدام، ويُورث الكراهية، ويُؤَجِّج صراعًا مميتًا.. ولعلَّ مراجعة النموذج الفرنسي في إفريقيا، والإسباني والبرتغالي في أميركا الجنوبية يُؤَكِّد هذه الخطورة ويُوَضحها.

أمَّا المشترك الإنساني الخاص السادس فهو العادات والتقاليد، وهو كذلك من أقوى الروابط بين أفراد الشعب الواحد، وهو كذلك من أقوى الروابط بين أفراد شعبين أو أكثر إذا اتفقت هذه العادات والتقاليد، بل إنه أحيانًا عند بعض الشعوب تعلو العادات والتقاليد على دينهم وعقيدتهم، وتعلو على مصالحهم وحاجياتهم، ويُصبح من «العار» أن يتخلَّى فرد من أفراد الشعب عن العادات والتقاليد.

ودراسة عادات الشعوب وتقاليدها أمر ممتع حقًّا، وهو يُوَضِّح مدى الثراء في الفكر الإنساني، ووجود تشابه في العادات -حتى ولو كان التشابه بسيطًا وجزئيًّا- يُثير في النفس نوازع زيادة التعارف، ويرفع من درجة الفضول لزيادة التقارب، وهذا شيء طيب ولا شكَّ، وقد نفاجأ أن شعبًا في أقصى الأرض يتبع عادات وتقاليد تشبه إلى حدٍّ كبير عادات شعب يعيش على بُعد آلاف الأميال منه! وما ألطف ما قرأتُه عن عادات استقبال الضيوف وإكرام

المسافرين، وإطعام مَنْ لا يعرفهم أحد، فقد وجدتُ ذلك منتشرًا كعادةٍ وتقليدٍ في الجزيرة العربية واليمن، وكذلك في قبائل وسط إفريقيا، وأيضًا في الهنود الحمر في أميركا، وكذلك في الإسكيمو في شمال العالم!

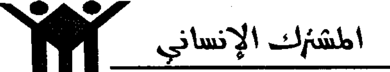
إنه اتفاق مذهل يُثبت جمال التجربة الإنسانية، ويُثبت في الوقت ذاته أهمية البحث عن المشتركات الكثيرة بين البشر جميعًا.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نلفت الأنظار إلى أن النقيض من هذا التعارف تمامًا يحدث عندما يسخر قوم من عادات وتقاليد قوم آخرين؛ لأن العادات تمثِّل للناس ميراث الآباء، وتراث الأُمَّة، وحصيلة الأجيال، وغالبًا ما تكون لها قداسة عند كثير من الناس، فإذا اعتدى عليها أحدٌ أو سخر منها فقد يكون الصدام المروع، والعراك الدامي، وعلى البشر أن يحذروا ذلك.

ويأتي القانون كمشترك إنساني خاص سابع.. وهو مشترك إنساني لا شكَّ في ذلك، ولا يستطيع أن يعيش شعب بلا قانون، مهما صغر هذا الشعب أو تخلَّف، ففي النهاية لا بُدَّ من نظام وأحكام وتشريعات تحكم كل طائفة تجمَّعت في مكان ما، فالقانون من هذا المنطلق مشترك إنساني أصيل، لكنَّ كل شعب له قانونه الخاص الذي يحترمه ويُبَجِّله وينصاع له ويتحاكم به، على أن هذه الخصوصية لكل شعب لا تمنع من وجود نقاط تقاطع كثيرة بين الشعوب المختلفة في مسائل القوانين، فكلما تشابه قانون دولة مع قانون دولة أخرى حدث التعارف والتقارب، وما أروع أن تستفيد الدول من قوانين المجتمعات الإنسانية الأخرى، التي تشاركها الحياة على ظهر هذا الكوكب! فهذا ميراث الإنسانية الذي بُذِل فيه فكر وجهد ووقت.

وقد يُطَوِّر البشر أنفسهم حتى يبتكروا قانونًا يُوَحِّد بين أرجاء المعمورة بكاملها! مثلما نرى في زماننا الآن بخصوص قوانين التجارة والمرور والملاحة العالمية، فهي قوانين تُقَرِّب كثيرًا بين شعوب العالم، وتجعل الإنسان لا يشعر بغربة عند وجوده في بلد آخر مهما بَعُد عن بلده الأصلي.

ومثلما ذكرنا في المشتركات الأخرى فإنَّنا نُحَذِّر هنا من عدَّة أمور؛ منها: أن تحاول دولة تغيير قوانين الدول الأخرى بالقهر والاستبداد، فإن القانون لكل دولة يعد روحها وعمودها



الفقري، والتعرُّض له تعرُّض لكرامة الدولة وعزَّتها، وهذا قد يُؤَجِّج صراعات خطيرة.

ومنها كذلك أن يحاول أحدٌ تعميم بعض القوانين التي تتعارض مع عقيدة قوم أو دينهم، فإن كثيرًا من الشعوب تستمد قانونها من دينها، ولعلَّ الأُمَّة الإسلامية هي أبرز الأمثلة على ذلك؛ ومن ثَمَّ فمحاولة تعديل قوانين دولة بما يخالف عقيدتها -ولو بطرق سلمية- قد ينتج صدامًا عنيفًا، ومن أبرز أمثلة ذلك ما حاوله مؤتمر السكان في القاهرة ثم بكين من فرض بعض القوانين التي لا تتفق مع دين الأُمَّة الإسلامية ولا أعرافها ولا تقاليدها؛ مثل قوانين الزواج المنحرفة أو قوانين الشواذ، فهذا أدَّى إلى ثورة شعبية عارمة، وحدوث شروخ في العلاقات بين الشعب المسلم والشعوب التي سعت إلى مثل هذه القوانين.

إن مساحات التقارب بين مختلف قوانين العالم كبيرة وموجودة، وعلى العقلاء أن يسعوا إلى الاستفادة من تجارب الآخرين، وإلى التقريب بين القوانين الموجودة في المساحة القابلة للتغيير، وفي الوقت نفسه عدم الاقتراب من المناطق المحظورة لكل شعب أو أُمَّة، وهي لا شكَّ مختلفة من وطن إلى وطن ومن قوم إلى آخرين.

أمَّا المشترك الإنساني الخاص الثامن والأخير فهو الأخلاق السامية..

ولكي نفهم المقصود من الأخلاق السامية لا بُدَّ أن نراجع ما قلناه عن الأخلاق الأساسية، والتي كانت مشتركًا عامًّا بين كل البشر، فالأخلاق الأساسية التي اخترنا أن تكون -الصدق والأمانة والعدل- هي أخلاق لا يمكن بحال من الأحوال أن نعيش بدونها، وتقديرها مزروع في قلب كل إنسان؛ فهي من الفطرة السوية، وهي مُبرَّرة عقليًّا ومنطقيًّا بشكل لا يحتاج إلى إقناع؛ ومن ثَمَّ فلا يُجادِل فيها عادةً أحدٌ.

أمَّا الأخلاق السامية فهي أخلاق الفضل، التي يتفضَّل بها الإنسان في تعاملاته، ولكنه ليس مجبرًا على التحلِّي بها، ولا تحدث حرب أو صدام عادة إذا ما تخلَّى عنها أحدٌ، بعكس الأخلاق الأساسية، ولكن هذه الأخلاق السامية تُجمِّل الحياة، وترفع من مستواها الإنساني، فهي من صور الرقي البشري الرائعة.

وكمثال لهذه الأخلاق السامية نجد أخلاق العفو والحلم وكظم الغيظ، ونجد أخلاق

الكرم والإيثار، ونجد أخلاق الصبر وقوَّة التحمُّل، ونجد أخلاق الشجاعة والمروءة، وكذلك نجد أخلاق الابتسام والسلام وطلاقة الوجه، وكل هذه أخلاق سامية رائعة لكن ليس كل البشر يفعلونها، وليسوا جميعًا مطالبين بها، لكنها أخلاق تُبرز جوانب إنسانية متميِّزة في البشر.

وهناك شعوب في العالم تتميَّز ببعض هذه الأخلاق أو جزء منها، ولا شكَّ أنها تجد تقاربًا عظيمًا مع الشعوب التي تُشبهها في هذه الأخلاق، بل إن الشعب الذي يغلب عليه مثل هذه الأخلاق السامية يُصبح من السهل عليه التعارف والتقارب مع غيره من الشعوب، حتى لو لم يتصفوا هم بالأخلاق نفسها؛ لأن مَن اتصف بهذه الأخلاق يكون من عادته أن يعفو عن الإساءة، بل وأن يردَّها بالإحسان، وهذا لا شكَّ يُذيب فوارق كثيرة بين الشعوب، ويفتح أرحب الطرق للتواصل والتعايش.

وكم من القلوب أُسِرَتْ بالكرم العربي الأصيل، وبالتواضع الماليزي، وبالتحية اليابانية، وبالبسمة الأميركية، وبحرارة الاستقبال السودانية..

إنه ميراث جميل ينبغي على البشر أن يسعوا للتحلِّي به، والتمتع بآثاره.

***

كانت هذه مشتركات إنسانية ثمانية أرى أنها تربط شعوبًا كثيرة في العالم، نعم هي لا تربط كل سكان الأرض برباط واحد، مثل الذي تقوم به المشتركات الإنسانية العامة، ولكنها على كل حال تربط شعبين أو أكثر، وبعضها قد يربط نصف سكان العالم أو أكثر في مرحلة من مراحل التاريخ.

وكما قلنا في مسألة المشتركات العامة أن هناك حبلاً يربط كل المشتركات العامة ببعضها البعض، وذكرنا أن هذا الحبل هو «الفطرة»، فإننا نقول الكلام نفسه هنا في المشتركات الخاصة، ونقول: إن هناك حبلاً يربط كل هذه المشتركات معًا، وهذا الحبل هو «الهوية».

فهوية الشعب هي شكله الذي يميِّزه عن غيره، وهي طبيعته الفريدة التي يعتزُّ بها، وهي خصوصيته التي ليست لأحد إلاَّ هو..

ومع أننا ذكرنا أن المشتركات الإنسانية العامة أهم؛ حيث إن الإنسان لا يستطيع بحال أن يعيش بدونها، إلاَّ أن المشتركات العامة لا تُعْطَى لشعب «هدية»؛ لأنها موجودة بشكل عام في كل الشعوب، فكل الشعوب تأكل وتشرب وتلبس وتسكن، وكل الشعوب تعقل وتفكر، وكل الشعوب تحب الحرية وتعتزُّ بكرامتها، ومن هنا فليس هناك فارق في هذا بين مسلم ونصراني، وليس هناك فارق بين إفريقي وآسيوي، وليس هناك فارق بين بدائي وحضاري..

لكن الوضع في المشتركات الخاصة مختلف، فهي ليست مشتركات بين كل البشر، إنما فقط في شعب واحد أو عدَّة شعوب كما أن التباديل والتوافيق تجعل كل شعب مختلفًا في شكل من الأشكال عن غيره، وبالتالي له هوية لا يُشبهه فيها أحد، فحتى لو اتفق معه شعب في لغة أو عرق فسيكون له تاريخ مختلف، أو قانون مغاير، أو عادة أو تقليد متفرِّد، وهكذا تجد آلاف الصور و«الهويات» في الدنيا، وهذا لا شكَّ يكون مشبعًا لرغبة كل شعب في التميُّز عن الآخرين..

ولكي تكتمل الصورة نذكر أن المشترك الأسمى -أيضًا- يُعطي جانبًا مهمًّا من هذه الهوية، فعقيدة كل شعب أو أُمَّة هي عقيدة متفرِّدة خاصة به، بل هي أهم ما يصبغه، وأقوى ما ينتمي إليه، ولهذا من خلال رؤية هذه النظرية فإن الهوية هي مجموع المشترك الأسمى (العقيدة) مع مجموعة المشتركات الإنسانية الخاصة، وقد تضمُّ إليهم -ولكن بشكل أقلَّ- المشتركات الإنسانية الداعمة، والتي سنتحدَّث عنها بعد قليل بإذن الله..

وهذه النظرة لهذه المشتركات تُعطيها قيمة كبيرة جدًّا، حيث إن أي محاولات لطمس هذه الهوية، أو العبث بأيٍّ من هذه المشتركات يعني طعنًا مباشرًا في غرَّة هذا الشعب، ومصدر افتخاره، ولا نتوقَّع أن تمرَّ الأمور دون صدام إذا مسَّ أحد هذه «الهوية»، خاصة إذا كان هذا المسُّ عنيفًا أو مستفزًّا.

***

ومع أننا نقول: إن هذه المشتركات الإنسانية الخاصة هي التي تصبغ «الهوية»، ولها هذا القدر من القيمة. إلاَّ أننا نقول: إنها ليست من الثوابت، بل هي قابلة للتغيير!

قد يستغرب هذا الكلام بعضنا! لكنه في الواقع ليس غريبًا، بل قلناه قبل ذلك على ما هو أهم، فقد ذكرناه على المشترك الأسمى «العقيدة»!

إن هذه المشتركات الخاصة كلها قابلة للتطوُّر حسب معطيات الزمان والمكان، وحسب الظروف البيئية والحياتية، وحسب تأثير القوى العالمية الكبرى، وحسب قوة الإقناع والحجة لدى المفكرين والمنظرين من أصحاب الحضارات المختلفة..

إنك لو قرأتَ شعرًا باللغة العربية الفصحى القديمة لعلَّك لا تستطيع أن تفهم معظم الأبيات، لقد تطوَّر الزمن واستُخدمت مصطلحات جديدة، وأصبح هناك دلالات مختلفة للكلمة نفسها، وهكذا صار الذين يتكلمون العربية الآن وكأنهم يتكلمون لغة أخرى، بل لم يمانع العرب أن تدخل إلى لغتهم ألفاظ أجنبية، تارة إيطالية ويونانية، وتارة أخرى فرنسية، وتارة ثالثة إنجليزية، حسب الظروف العالمية، وحسب البعثات العربية إلى البلاد الأخرى، وحسب الجاليات الأجنبية في البلد العربي، وحسب نوع الاحتلال، وغير ذلك من أمور تُغيِّر ببطء من أحد المشتركات الخاصة، وقد يكون التغيير بطيئًا إلى درجة لا يشعر بها المواطنون.

وهذا «التغيير الناعم» قد يحدث بتخطيط أو دون تخطيط! أي من الممكن لدولة مهيمنة من دول العالم أن تسعى لتغيير «هوية» بلد ما بهذا الأسلوب الناعم البطيء، فتبثُّ إعلامها وكتبها ومفكريها في هذا البلد، وتستقدم المبعوثين إليها، وتُصَدِّر إليه ثقافات وأفكارًا، وتُصَدِّر إليه -كذلك- فنونًا وألعابًا، وما هي إلاَّ عدَّة سنوات أو عقود حتى يتمَّ «مسخ» هوية البلد الضعيف.

وقد يكون هذا «التغيير الناعم» بدون خطة محددة، فالدولة القوية بطبيعة الحال تنشر ثقافتها بألف وسيلة، وشعوب العالم الضعيفة تنظر إلى الدول القوية على أنها القدوة في كل شيء، بل لا تمانع بعض الشعوب الخانعة أن تنقل ثقافات الآخرين بحلوها ومرِّها، وحسنها وسيِّئها؛ طمعًا في السير في ركاب المنتصرين، وهنا يحدث «المسخ» بإرادة الضعفاء، وليس تحايلاً عليهم ولا قهرًا لهم.

وهذا «التغيير الناعم» له عيوبه وله مزاياه.. مما يجعل المفكرين غير متحمسين للدفاع

عنه، وليسوا متحمسين كذلك للهجوم عليه!

فمن عيوبه القاتلة أنه يُحَوِّل شخصية الشعب المتميزة إلى شيء آخر، وهذا الشيء الجديد قد لا يكون مناسبًا لطبيعة الشعب ولا لبيئته، فتحدث أزمات ومشكلات، كما أن مجرَّد إحساس الشعب أنه لم يَعُدْ له شكل معروف، ولا هيئة متميزة يُرسِّخ عنده الشعور بالتبعية، وقد يُسَوِّغ له بعض مشاعر الذلِّ أو الإحباط.. وهذا الوضع الجديد قد يُؤَدِّي إلى تذويب الشعب تمامًا حتى لا يُصبح قادرًا على الدفاع عن وطنه، وقد يتطوَّر الأمر معه فيرغب في هجره وتركه، والسكنى في البلد الكبير الذي غلبت هويته على هوية وطنه، بل قد يصل الأمر أحيانًا في بعض الحالات المتردِّية إلى أن يسعى المواطن إلى مساعدة البلد الكبير في هضم واستيعاب الوطن الأصلي له!

إننا يمكن أن نقول بوضوح ووفق هذه النظرية: إن المشتركات الإنسانية الخاصة هي التي تدفع المواطنين إلى حبِّ الانتماء لوطنهم وشعبهم، فإذا ذابت هذه المشتركات، أو تغيَّرت، أو تميَّعت، فإن الانتماء يكون في خطر عظيم..

هذا من ناحية عيوب التغيير الناعم للهوية..

أمَّا من ناحية مزاياه فإنه يُقَرِّب بين الشعوب، ويُشَجِّع على التواصل بينهم؛ لأنه يجعل الشعوب تُشبه بعضها بعضًا؛ ومن ثَمَّ يقلُّ استنكار الأفكار والعادات والتقاليد، وغيرها من الأمور، فيزيد التعاون والتواصل.

لكني -مع ذلك ومع كون النظرية قد صيغت في الأساس لدعم التواصل والتعارف بين الشعوب- أرى أن العيوب أعلى بكثير من المزايا؛ ولذلك فأنا أدعو كل شعب أن يحافظ على هويته قدر ما يستطيع؛ ذلك أن الشعب الذي له هوية هو شعب محترم يقف على قدم المساواة مع الشعوب التي تُحيط به، وهذا الاحترام والاعتزاز بالنفس يكفل له قوَّة وهيبة تحافظ عليه، والشعوب التي تقبل «الذوبان» شعوب رخوة لن تستطيع مستقبلاً أن تُدافع عن نفسها، وهذا بالتبعية قد يقود إلى «طمع» الدولة القوية في الهيمنة العسكرية أو السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية.. أو كل ذلك معًا على «الدولة الذائبة».. وهذا في آخر المطاف

سيقود إلى صدام؛ لأن هذا كله سيعني في النهاية التعدِّي على «كرامة» الشعب، وكما ذكرنا قبل ذلك أن الكرامة من المشتركات الإنسانية «العامة» وليست «الخاصة»، وبالتالي لا يستطيع إنسان أن يعيش بدونها، فلو حدث اعتداء عليها صار الصدام واجبًا.

من هنا نقول: إن الحفاظ على «الهوية» في الحقيقة يمنع الصدام، ويُشَجِّع على التعارف، ولن تتعارف الشعوب مع بعضها البعض إلاَّ إذا كانت هناك ندِّيَّة بين هذه الشعوب، وهذه الندِّيَّة لا تكون إلاَّ بهوية مستقلَّة، وشخصية متفرِّدة.

ولعلَّ الحديث الآن ضروري عن «العولمة» وأثرها في مسألة «الهوية»، فالعالم في الواقع تحوَّل إلى قرية صغيرة عبر وسائل الإعلام والأقمار الصناعية وشبكات الإنترنت وتقنية الاتصال والمراسلة.. ولم يَعُدْ هناك شيء «خاص» في بلد لا يعرفه الآخرون في شتى بقاع العالم، وهذا من الواضح أن له خطورته في أن الأقوى سيكون أقدر على تسويق بضاعته في البلاد الضعيفة، والتي قد تنبهر بما عند الأقوياء فيذوبون فيهم، وهذا يُؤَدِّي -كما ذكرنا قبل ذلك- إلى مسخ الهوية، لكني في الوقت نفسه أدعو بقوَّة إلى «تلقيح الحضارات»، بمعنى أنه لا ينبغي أن تكون الحساسية في الحفاظ على الهوية مفرطة إلى درجة عدم الرغبة في تغيير الأخطاء أو تعديل المسار بغية التمسُّك بالذات، وبهدف تعزيز الانتماء.. فاطلاع الشعوب والمفكرين على ثقافات وعادات الآخرين قد يكشف عيوبًا في المجتمع توارثتها الأجيال دون تفكير، ولم يجرؤ أحد على الإصلاح، ومن هنا فإنه ينبغي التوازن العاقل بين الحفاظ على الهوية، وبين السعي إلى إصلاح العيوب والأخطاء، ومن هنا جاءت دعوتي إلى «تلقيح الحضارات»، بمعنى أنه على كل حضارة أن تُلَقِّح نفسها بما تراه مفيدًا وناجحًا في الحضارات الأخرى، ولا مانع من أخذ أصل الشيء مع تعديله وتحويره وتطويره بما يُناسب الحضارة الآخذة، وهكذا يمكن للبشر أن يُثْرُوا بعضهم البعض، ويمكن للدنيا أن تشهد حضارات تجمع بين جهود شعوب مختلفة، ولا مانع كذلك -بل ينبغي- أن تصبغ كل حضارة ما تأخذه من الآخرين بصبغتها الخاصة؛ حتى تظلَّ محتفظة بهويتها دون أن تُعَطِّل مسيرة التنمية فيها.

وآخر ما أختم به الحديث في مسألة المشتركات الإنسانية الخاصة هو التحذير الشديد من أي محاولة لطمس هوية الشعوب عن طريق القوة والجبر؛ فهذا ما لا يمكن أن يتمَّ معه

تواصل، والناس بشكل عام لا ترضى بالإكراه، حتى لو كان الإكراه لتحقيق المصالح، أو لتجميل الحياة!

***

وآخر المجموعات في نظرية المشترك الإنساني هي مجموعة «المشتركات الإنسانية الداعمة»، وهي تشبه المشتركات الإنسانية الخاصة في كون الناس يتفقون على أصولها وإن كانوا يختلفون في فروعها، وأنها ليست حتمية في حياة البشر، ولكنها تُحَسِّن من مستوى الحياة، وتُسعد الإنسان، وما جعلني أُفرد لها مجموعة خاصة ولا أضعها مع مجموعة المشتركات الإنسانية الخاصة، هو أنها أولاً نتاج لما سبق؛ أي أنها نتاج للمشتركات الإنسانية الخاصة، وليست موازية لها، وخاصة أنها تتشكل بوضوح نتيجة الثقافة والعادات والتقاليد، وقبل ذلك نتيجة العقيدة والدين، وثانيًا لأنه ليس في المعتاد أن تُقام بسببها صدامات أو حروب، وإن كان هذا يحدث «أحيانًا» بين بعض الشعوب، ولكن غالبًا ما تكون القشَّة التي قصمت ظهر البعير، ويكون الصدام حادثًا لا محالة نتيجة حالة احتقان وتوتُّر بين شعبين، ثم يحدث الاختلاف حول أحد هذه المشتركات الداعمة فينتج الصدام.

ولكن على الرغم من كونها تأتي في ذيل مجموعات المشتركات، وعلى الرغم من أنها تقلُّ في القيمة الروحية والنفسية عن المشتركات التي ذكرناها قبل ذلك؛ سواء المشترك الأسمى أو المشتركات العامة والخاصة، إلاَّ أن التقاء الشعوب على هذه المشتركات الداعمة يكون غالبًا كبيرًا للغاية، فلهذه المشتركات القدرة على تجميع عدد هائل من الشعوب، بل قد تستوعب بعض هذه المشتركات الداعمة الأرض بكاملها! فتكون بذلك مشتركًا عامًّا يجتمع حوله بنو آدم جميعًا!

وهذه المشتركات الداعمة كثيرة للغاية، ومتجدِّدة ومتطوِّرة، وسآخذ منها ثلاثة أحسبها في المقدمة، وأرى أن تجميع الشعوب حولها سيكون أسهل وألطف من كل المشتركات الأخرى.. بل إنني لا أُبالغ إن قلتُ: إن «سعادة» البشر بالالتقاء حول هذه المشتركات الداعمة تكون في أوقات كثيرة أكبر بمراحل من التقائهم حول مشترك عام أو خاص؛ مما

يجعل التواصل أمرًا ميسورًا، بل مطلوبًا ومرغوبًا.. وهذه المشتركات الداعمة هي الفنون والرياضة والسياحة.

فأول هذه المشتركات الإنسانية الداعمة هو «الفنون»، ولا يخلو شعب من فنٍّ، وقصة الفنون هي قصة الإنسان في الأرض، حتى إن الله ﷻ يقول في القرآن الكريم: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦]، فاللباس يُؤَدِّي الوظيفة، والريش يخدم الفنَّ، ومن أقدم ما وجدناه من آثار تدلُّ على حياة الإنسان البدائية كانت الرسوم في الكهوف، بل إن الإنسان كان -وما زال- يهتم بالناحية الفنية في المصنوعات التي خُصِّصت لوظيفة؛ مثل أطباق الطعام، أو أدوات الصيد، أو أكواخ السكن، أو حتى وسائل القتال!

والفن له صور متعددة لا نهائية، ويمكن أن يكون مشاهَدًا، ويمكن أن يكون مسموعًا، وألوانه تختلف من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى آخر، ومنه الرسم ومنه النحت، ومنه كذلك الكتابة ومنه التصوير، ومنه في عصورنا الأفلام والمسرحيات، ومنه منذ قديم الأزل الأشعار والنثريات.

وكل شعب له ضوابط في نوع الفن الذي ينتشر به، وطريقة التعبير به عمَّا يُريد، وكثيرًا ما يكون للعقيدة دور في تحديد هذه الضوابط، وبالتالي فأنواع من الفن قد تكون مسموحة في شعب، وممنوعة في شعب آخر.

والفن انعكاس صادق لثقافة المجتمع وفكره وعاداته وتقاليده؛ ومن هنا فالفن يُعَبِّر أيما تعبير عن الشعب، وهو بطاقة تعريفية مختصرة له، ولن تجد قيمة كبرى في المجتمع إلاَّ وتجد الفن قد تناولها من أكثر من وجه، ولن تجد أمرًا منكرًا إلاَّ وتجد الفن قد نبذه وحاربه.

والناس جميعًا يعشقون الفن؛ ومن ثَمَّ فالفن مرشَّح بقوَّة لأن يكون رسولاً بليغًا فصيحًا يُعَرِّف الشعوب على بعضها البعض، ويفتح آفاقًا رحبة للتواصل، ويُذيب الكثير من التوتُّرات بين الأقوام.. كل ذلك شريطة ألاَّ يصطدم هذا الفن مع ثوابت أمَّة، ولا يُسْتَخدم في السخرية من عقيدة أحد أو فكره أو تقاليده، وإلاَّ انقلب عندها الفن من واصل إلى قاطع، ومن مشترَك يُجَمِّع إلى أحمق يُفَرِّق!

أمَّا المشترك الداعم الثاني فهو الرياضة..

وأعتقد أن الرياضة أصبحت من أكثر المشتركات تطوُّرًا في الدنيا، فبعد أن كانت مجرَّد ترويح عن النفس يُذهب عنها الملل، ويُهَدِّئ من روعها، إذا بها تتحوَّل إلى مشاريع عملاقة تقف وراءها مؤسسات هائلة، وتقوم على رعايتها دول وحضارات، ويُنفق عليها كبار رجال الأعمال، وتُصبح من أكبر ميادين الالتقاء بين البشر.

لقد تحوَّلت الرياضة في زماننا إلى علم متخصِّص يبحث عن المواهب ويُنَمِّيها، ويجمع المعلومات ويُحَلِّلها، ويضع الخطط ويتابعها.. إنه علم قائم بذاته صارت له كليات ومعاهد، ويُدرِّسه أساتذة ومتخصِّصون.

ويمكنني أن أجزم أنه ليس هناك أحد من البشر لا يهتمُّ برياضة ما! إمَّا عن طريق الممارسة الاحترافية، أو الممارسة كهواية، أو على الأقلِّ الاهتمام بمتابعة لعبة معينة تلقى هوًى في النفس.

والرياضة من هذا المنطلق من أعظم المشتركات الإنسانية التي لها القدرة على تجميع عشرات الشعوب، بل إن العالم ابتكر الآن المسابقات التي تجمع أهل الأرض كلهم؛ مثل مسابقات كأس العالم في الرياضات المختلفة، أو مسابقات الأوليمبياد، وهي مسابقات تخطف بريق الإعلام، ويُتابعها الصغير والكبير، والرجل والمرأة..

وقد لا نجد حدثًا سياسيًّا أو اقتصاديًّا أو دينيًّا يُتابعه البشر مثلما يُتابعون حدثًا رياضيًّا عالميًّا!

إنها حقيقة لا ريب فيها، بصرف النظر عن المبالغات التي نراها في عالم الرياضة؛ سواء في الأموال المنفقة، أو في الأوقات المبذولة.

وأنا في هذه النظرية أقول: إن الرياضة «تدعم» بقوَّةٍ التواصل بين البشر، وتُحَبِّب الشعوب في الشعوب الأخرى، فكم من شعوب تُشَجِّع شعوبًا أخرى في بعض المجالات الرياضية، وهي بذلك تُذيب فوارق كبيرة بين الأمم، ويا ليتها تظلُّ ميدانًا محايدًا للتواصل بين الشعوب دون تسييس أو عنصرية، فلو بقيت محايدة لفتحت الكثير من الأبواب المغلقة، ولأذابت جبالاً من

الجليد نَمَتْ بين الشعوب، ولصارت من أعظم جسور التواصل بين الحضارات.

أمَّا المشترك الداعم الثالث والأخير فهو السياحة، وأنا أعتبرها غريزة في الإنسان يدفعه إليها الفضول الذي زُرع في كل البشر، فكل الناس يُريد أن يعرف أخبار الأقوام الآخرين وطريقة حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وما هو غريب وعجيب عندهم؛ ولهذا وُجدت الرحلات منذ قديم الأزل، ولم تخلُ حضارة من ذِكْر رحَّالة عظام كانوا في تاريخها جابوا الأرض، وسجَّلوا مشاهداتهم وعلَّقوا عليها، ومعظمهم كان يترك انطباعًا إيجابيًّا عن الشعوب التي زارها، فيذكر أمجادها، ويُعَرِّف برموزها، ويشرح جميل أخلاقها، وعجيب طباعها، وهذا كله يُقَرِّب الشعوب من بعضها البعض، ويُزيل الحواجز بينهم.

والآن أصبحت السياحة صناعة كبيرة للغاية، وهي لا تقتصر على الأهداف الترويحية، ولا على قضاء أوقات الفراغ والراحة والاستجمام، إنما صارت هناك أنواع كثيرة من السياحة العلمية والعلاجية والاقتصادية، بل وأشهر من كل ذلك وأهم السياحة الدينية؛ متمثِّلة في رحلات الحج، التي يقوم بها أتباع كل دين إلى مكان معين، وسيأتي تفصيل ذلك عند الحديث عن السياحة في فصل المشتركات الداعمة.

لكن الشاهد في الأمر أن فكرة السياحة في حدِّ ذاتها هي فكرة تعارف؛ فالسائح يذهب من بلد إلى بلد بغية التعرف على البلد الجديد، ويبحث عادة عن أجمل ما فيه، ويتعامل مع أفضل عناصره، ويستقبله أهل البلد المضيف بكل الترحاب والمودَّة؛ لأنه صار سببًا في دخل مادي عريض، ورواج تجاري ملموس.. كل ذلك جعل السياحة من أعظم المشتركات التي تساهم في تواصل الشعوب وفي تعارفها، وقلَّ أن تجد دولة الآن لا تسعى إلى تنويع الجوانب التي تجذب السياح إلى مدنها ومعالمها؛ ولهذا صارت السياحة ليست مجرَّد تعريف بالدولة، إنما صارت -كذلك- من أكبر مصادر الدخل، ومن أوسع أسباب الثراء!

***

لقد قلنا قبل ذلك: إن المشترك الأسمى هو «العقيدة»، وإن الرابط الذي يربط المشتركات الإنسانية العامة هو «الفطرة»، وإن الرابط الذي يربط المشتركات الخاصة هو «الهوية»، فما

الرابط الذي يربط المشتركات الإنسانية الداعمة؟!

أعتقد أن الرابط الذي يربطهم يمكن اختصاره في كلمة واحدة هي «الجمال»!

فحُبُّ الجمال شيء مزروع في غريزة وفطرة وكيان كل إنسان، وهو يسعى «لتجميل» حياته وتحسينها، ويسعى إلى أمور تُلطف عليه الأزمات الكثيرة التي يُعاني منها، ويحتاج إلى شيء «جميل» يفزع إليه كلما ازدادت عليه ضغوط الحياة، وحاصرته مشاكلها.

والجمال وإن لم يكن ضروريًّا لاستمرار الحياة، إلاَّ أن الحياة بدونه تكون بلا طعم، بل قد لا يستطيع الإنسان حقيقة أن يُكمل حياته بإيجابية إذا فقد هذا الجمال، وقد يدخل في حالات قلق أو اكتئاب تجعل كل شيء مظلمًا، فالدور الذي يُؤَدِّيه حُبُّ «الجمال» من هذا المنطلق هو دور ريادي في حياة البشر؛ ولذلك اجتمعت شعوب العالم عليه، وهذا لا شكَّ يخدم هدفنا الذي وضعناه من أول سطور هذه النظرية، وهو التعارف والتواصل بين الشعوب، ومع أن الجمال نسبي، وما يراه شعبٌ جميلاً، قد يراه آخرون عاديًّا، بل قبيحًا! إلاَّ أن هذه الفروقات تبقى هي الاستثناء، أمَّا القاعدة الأصيلة فهي أن الجميع «يتذوَّق» هذا الجمال ويستمتع به؛ ولذلك «تدعم» هذه المشتركات بقوَّة علاقة الإنسان بأخيه الإنسان.

***

وأنا أرى أن المشتركات الإنسانية الداعمة تسهم بشكل مباشر في تشكيل هوية الأوطان والشعوب.. فكما ذكرتُ قبل ذلك أنها ما هي إلاَّ انعكاس لثقافة المجتمع وعاداته وتقاليده، هي في الوقت نفسه منضبطة بشكل كبير بعقائد الشعب ودينه، فهي شديدة الارتباط بالهوية؛ ومن ثَمَّ فهي تتشكَّل بهذه الهوية وتُعَبِّر عنها.. وهذا له تطبيق كبير على الواقع.

فالفنُّ في اليابان أو الصين له طابع مختلف كل الاختلاف عن الفن الإيطالي أو الفرنسي، وكلهم مختلف -كذلك- عن الفن الإسلامي، وهذه صور أرى أنه من المصلحة أن تبقى متميِّزة؛ لأن هذا يُعطي ثراءً كبيرًا للإنسانية، وفي الوقت نفسه يُحافظ على الهوية التي يعتزُّ بها الشعب، ويُدافع عنها، ويُوَفِّر له النِّدِّيَّة التي تحفظ له احترامًا وتوقيرًا في قلوب الشعوب العالمية؛ مما يُقَلِّل من فرص الصدام مع هذا الكيان المحترم.

وما قلناه عن الفنِّ نقوله كذلك عن الرياضة، فلا شكَّ أن هناك رياضات تمثِّل هوية معينة لبعض البلاد، فلعبة البيسبول الأميركي، هي علامة وهوية للشعب الأميركي، وكذلك الكونغ فو والكاراتيه بالنسبة للصين أو اليابان، وكذلك ألعاب القوى بالنسبة لكينيا، وكرة القدم بالنسبة للبرازيل وهكذا.. فالرياضة وإن كانت صناعة عالمية تخدم قضايا المشترك الإنساني بقوَّة، إلاَّ أنها في الوقت نفسه صورة من صور التميُّز، وشكل من أشكال الهوية.

وليست السياحة بعيدة عن هذا التصوُّر، بل إنها من أبرز مظاهر الهوية، فكثير من المعالم السياحية تعتمد على الآثار التاريخية، التي هي جزء لا يتجزَّأ من المشتركات الإنسانية الخاصة، كما أنها تعتمد على جمال الأرض وروعتها، والأرض -كما وضحنا- من المشتركات الإنسانية الخاصة كذلك، ولكل شعب تميُّزه الخاص في مجال السياحة، وكل شعب له طرقه المميّزة في استقبال السائحين، وله وسائله المتفرِّدة في التسويق لبضائعه ومعالمه.

إننا بهذا التصوُّر يمكن أن نُعَرِّف الهوية في ضوء النظرية على أنها السمة الخاصة جدًّا لكل شعب أو قوم، والتي تنتج من تفاعل عدَّة أمور بعضها مع البعض، ويأتي على رأس هذه الأمور المشترك الأسمى، وهو العقيدة، ثم المشتركات الإنسانية الخاصة؛ كالثقافة والأرض والعرق والتاريخ واللغة والعادات والتقاليد والقانون والأخلاق، ثم أخيرًا تأتي المشتركات الداعمة كالفن والرياضة والسياحة.. وهذه الهوية هي الشكل الذي يحفظ لشعبٍ تميُّزَه وانفراده، ويُعطي له ندِّيَّة في التعامل مع غيره، وهي التي تزرع الانتماء في قلوب المواطنين، وبدونها تفقد الشعوب الحمية في الدفاع عن أوطانها.

***

كانت هذه جولة في جنبات النظرية بمجموعاتها الأربع، وسيأتي توضيح في الفصول القادمة للمشتركات التي أدرجتُها في داخل كل مجموعة؛ بحيث يكون هذا التفصيل كدليل على صحَّة ما اخترتُه من مشتركات تجمع بين الناس.

وقد يخطر على بال أحد سؤال عن سبب ترتيب هذه المجموعات بهذه الصورة، وعن سبب ترتيب المشتركات في كل مجموعة، وهنا أحبُّ أن أشير إلى المعايير التي كنتُ أُقَدِّم بها

مشتركًا وأُؤَخِّر غيره، وبالتالي خَرَجَت النظرية بهذا النسق.

أمَّا المعيار الأول فكان «حاجة الناس إلى المشترك».. ولا شكَّ أن كل هذه المشتركات مهمة للبشر، لكنها ليست بمستوى الأهمية نفسه، ولقد استفدتُ من قراءة التاريخ، وكذلك علوم النفس والاجتماع، فضلاً عن كُتب الدين والعقائد؛ لأَصِلَ إلى هذا الترتيب الذي أعتقده.

أمَّا المعيار الثاني فهو عمومية المشترك، وهل يُجْمِع عليه كل البشر، أم أن هناك طوائف من البشر لا تُعيرْه اهتمامًا كبيرًا؟ وهل هو في التاريخ مثلما هو في الواقع، أم تناقصت أهميته مع تطوُّر الدنيا؟ فالعمومية التي كنتُ أبحث عنها هي عمومية في المكان والزمان، أو إن شئتَ فقُلْ: عمومية في الجغرافيا والتاريخ!

وكان المعيار الثالث هو قوَّة التجمُّع على هذا المشترك؛ فالمشترك يُؤَدِّي إلى ترابط بين مجموعة أو مجموعات من البشر، فهل هذا الترابط على هذا المشترك قوي أم هشٌّ؟ دائم أم مؤقَّت؟ واسع أم محدود؟ وكلما ازداد المشترك قوَّة وديمومة واتساعًا ارتقى في سلم الأولويات في النظرية.

ويأتي المعيار الرابع والأخير وهو قوَّة الحرب إذا تعدَّى على هذا المشترك أحدٌ، فطول الحرب ودمويتها واحتلالها مساحة من فكر وجهد الشعب كانت معيارًا مهمًّا لقياس أهمية المشترك في حياة الشعوب.

لقد أخرج لنا كل معيار من هذه المعايير ترتيبًا مُعَيَّنًا للمشتركات، ثم بجمع نتائج كل معيار مع النتائج الأخرى لبقية المعايير وصلنا إلى هذا الترتيب الأخير، الذي جاء فيه المشترك الأسمى منفردًا على قمَّة كل المشتركات؛ حيث إنه على مستوى العالم وفي التاريخ والواقع يُعتبر أهمَّ ما يشغل الإنسان ويهمه، وهو عامٌّ على كل البشر، فلا تجد إنسانًا لا يبحث عن إجابة لسؤال: هل الإله موجود أم غير موجود؟ ولو كان موجودًا، فمَنْ هو؟ وما صفاته؟ وماذا يُريد منا؟ وماذا نُريد منه؟ وحتى البشر الذين يُلحدون الآن لا بُدَّ أن يُجيبوا على الأقل عن التساؤل الأول، وهم إذا أجابوا بالنفي، بمعنى أنه لا إله، فإنه يلزمهم أن يبحثوا عن

مبرِّرَات لهذا الخَلْق البديع للكون، لكن الشاهد أنهم لا يستطيعون أن يُهَمِّشُوا القضية، فلا ينظرون فيها، ولا يُدلون برأيهم في أبعادها.

والمشترك الأسمى هو أقوى رابطة تجمع بين مجموعة من البشر، وهو في الوقت نفسه يُمَثِّل أخطر الأسباب للحروب والصدامات، وكم من البشر يموت في معارك العقيدة!، وهي حروب لا تنتهي ما بقيت العقيدة في قلوب أبنائها.

لهذا كله جاءت العقيدة أو المشترك الأسمى على قمَّة سُلَّم الأولويات في النظرية، وأتت بعدها المشتركات الإنسانية العامة بهذا الترتيب، الذي بَيَّنْتُه عند ذِكْرِها، وكانت قناعتي بِنَاءً على المعايير التي أشرتُ إليها منذ قليل؛ أن هذه المشتركات لا يستطيع إنسان أن يعيش بدونها، ومع ذلك فبعضها أهمُّ من الآخر، فجاءت على القمَّة الاحتياجات الأساسية من طعام وشراب ولباس وسكن وأمن وزواج وصحة، ثم العقل، فالأخلاق الأساسية؛ وهي الصدق والأمانة والعدل، ثم التملُّك، ثم الكرامة، ثم الحرية، ثم العلم، وأخيرًا العمل.

ثم تأتي مجموعة المشتركات الإنسانية الخاصة، والتي يحتاجها الإنسان بقوَّة، ولكنه يستطيع أن يعيش بدونها، وإن كانت هذه الحياة الخالية منها تكون غالبًا حياة تعيسة ذليلة لا وزن لها.

وبناء على المعايير الأربعة التي ذكرتُها جاء ترتيب المشتركات الخاصة كالتالي: جاءت على القمة الثقافة، ثم الأرض، فالعرق، فالتاريخ المشترك، ثم اللغة، والعادات والتقاليد، ثم القانون، وأخيرًا الأخلاق السامية.

ثم تُختتم المشتركات الإنسانية بالمشتركات الداعمة، وقد جاءت في المؤَخِّرَة لأن الأمور كلها نسبية، فهي بالنسبة لما سبقها تأتي متأخِّرة، ولكنها في الوقت ذاته مهمة جدًّا، وحاسمة في التواصل والتعارف، وقد تقوم بسببها صدامات، ولكنها عادة ما تكون محدودة وغير دموية.. وقد جاءت بالترتيب الذي ذكرتُه عند الحديث عنها، حيث احتلَّ الفنُّ الدرجة الأولى، ثم الرياضة، وأخيرًا السياحة.

ولا شكَّ أن الترتيب الذي ذكرتُه ليس مطلقًا، بل لعلِّي لا أُبالغ إن قلتُ: إنني لو أعطيتُ



هذه المشتركات العشرين (مشترك أسمى واحد، وثمانية مشتركات عامة، وثمانية مشتركات خاصة، وثلاثة مشتركات داعمة)، لو أعطيتُ هذه المشتركات عشرة من المفكرين والمنظِّرين والفلاسفة ليُرتِّبوها حسب الأهمية لجاءت إلينا عشرة تقسيمات مختلفة! وهذا مردُّه إلى عدَّة أمور..

الأمر الأول أن المعايير التي وضعتُها أساسًا للترتيب تختلف من عالِمٍ إلى آخر، وقد يُضيف مفكر معيارًا خامسًا يقلب الترتيب رأسًا على عقب، وقد يحذف واحدًا يُؤَثِّر على الصورة، بل قد يضع معايير جديدة تمامًا..

والأمر الثاني أن الروابط التي تكون بين البشر، وكذلك الحروب التي تدور بينهم لا تكون عادة بسبب مشترك واحد، فنحن نتَّحد معًا لاتفاقنا في الدين والأرض والعرق والتاريخ المشترك، وقد نتصادم بسبب الاحتياجات الأساسية والكرامة واللغة، وهكذا تكون كل التكتلات، وكذلك تكون كل الحروب.. فتحديد السبب الأعلى والأهم قد يكون صعبًا للغاية، بل قد تكون الأسباب المباشرة للمعارك أسبابًا تافهة جدًّا، فإذا حلَّلْنَا الأوضاع بدقَّة وجدنا أن السبب الرئيس كان وجود حالة احتقان مزمنة بين شعبين، ثم جاء السبب الأخير التافه ليُثير الرماد ويُظهر نيران الحروب، ومن هنا فقد تقوم حرب بسبب مباراة رياضية، فلا ينبغي لمفكر أو محلِّل أن يظنَّ أن الأمر يرجع إلى المباراة فقط، أو يظنَّ أن الرياضة عند هذا الشعب أهم من كل المشتركات الأخرى، ولكن واقع الأمر أن أسباب الصدام كانت كثيرة قبل المباراة، ولكنها كانت كامنة، فلما جاءت مشكلة تافهة في المباراة حرَّكت الأسباب الكامنة فكان الصدام المروِّع، ولقد قامت حرب كبيرة بين قبيلتين عربيتين هما قبيلة عبس وقبيلة ذبيان، بسبب سباق كان بين فرسين، عُرفت في التاريخ بحرب داحس والغبراء[1]، كادت القبيلتان أن تفنيا في هذه المعارك المتتالية، وقد استمرَّت عدَّة عقود متتالية، فإذا حلَّلنا الأمر بدقَّة وجدنا أن السبب الرئيس للحرب ليس المباراة، وإنما أمور أخرى يأتي في مقدمتها سببان: الأول هو الكرامة، وهي أحد المشتركات الإنسانية العامة والمهمة؛ حيث اعتبر

(١) داحس والغبراء: اسمان لفرسين دخل صاحباهما سباقًا؛ فلطم أحدهما فرس الآخر؛ ليمنعه من الفوز، فقامت حرب بين القبيلتين قُتِلَ فيها الألوف. انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١/ ١٩٦-٢٠٤.



الطرف الخاسر أن هذه إهانة لكرامته، والسبب الثاني هو القبلية، والتي أدخلناها في المشتركات الخاصة تحت عنوان العرق، فانتصار عرق على عرق في هذه البيئة العربية القديمة يعني كارثة قد تسيل فيها أنهار الدماء، ومن هنا جاء الصدام، فتَعَدُّد الأسباب للترابط، وتعدُّد الأسباب للحروب يجعل الحكم على أهمِّ الأسباب شيئًا صعبًا، وأحيانًا يكون مستحيلاً!

أمَّا الأمر الثالث الذي من أجله يختلف المفكرون في ترتيب مثل هذه المشتركات هو أن الواقع يقول: إن البشر تبعًا لظروفهم التربوية والبيئية يُرَتِّبون أولوياتهم بشكل مختلف، فمع قناعتنا أن كل هذه المشتركات مهمة إلاَّ أن ما يهم الرومان أكثر قد يأتي في ذيل الاهتمامات بالنسبة للفرس، وما يموت من أجله المسلمون قد يُمَثِّل شيئًا هامشيًّا لغيرهم من الأمم.. وهكذا، فهذا الاختلاف الفكري بين الطوائف البشرية المتعدِّدَة يزيد من صعوبة الترتيب.

والأمر الرابع هو أمر مؤسف، وهو ما أُسمِّيه «بانتكاسة الفطرة»! فنتيجة عوامل كثيرة حدثت في العالم في قرونه الأخيرة، ونتيجة طغيان المادية على حياة الناس، حدثت انتكاسات كثيرة للفطرة الإنسانية، فضاعت قيم ومُثُل كانت في صدارة الاهتمامات الإنسانية، وهذا أدَّى إلى التباس كبير في الفهم عند كثير من المفكرين والفلاسفة، وما أكثر البشر الآن الذين يبيعون عقيدتهم «وهي المشترك الأسمى» من أجل دراهم معدودة أو وجبة طعام! وما أكثر البشر الذين يُقَدِّمون لهوهم ومتعتهم على أخصِّ خصائصهم! بل قد يُقَدِّمونها على طعامهم وشرابهم وعلمهم وعملهم، فتجد مَنْ يختار البطالة بإرادته، ومَنْ يشغل وقته بالجلوس في ساحات اللهو واللعب، بينما لا يجد ما يسدُّ رمقه ورمق أولاده، وما أكثر البشر الذين لا يكترثون بتكوين أسرة، ولا بحمايتها والذود عنها إن تكوَّنت، فهذا انتكاس جديد للفطرة، وأنَّى لرجل لا يبحث عن مشترك بينه وبين أسرة صغيرة أن يُفَكِّر في مشترك مع شعب آخر؟! هذه الانتكاسات الفطرية تُحَيِّر الفلاسفة والمفكرين؛ ومن ثَمَّ يأتي ترتيبُهم للأولويات متأثِّرًا بهذه الظواهر السلبية.

وأمر خامس يُؤَثِّر على طريقة الترتيب وهو اعتماد المفكِّر أو الفيلسوف على تحليل مرحلة معينة من مراحل التاريخ دون النظر إلى غيرها من المراحل، أو الاعتماد على التاريخ بشكل عامٍّ وإهمال الواقع، أو الاعتماد على تحليل الأحداث في بقعة جغرافية معينة كأوربا أو الشرق

الأدنى أو الشرق الأوسط، وإهمال بقية أرجاء العالم، أو البحث في الحضارات الكبرى، وعدم النظر في شئون القبائل البسيطة، والشعوب الكثيرة المنتشرة في أطراف العالم.. كل هذا يُؤَدِّي إلى نتائج مغايرة، وإحصائيات مختلفة.

والأمر السادس هو الافتقار إلى المعلومة؛ فكثير من أحداث التاريخ لم تُدَوَّن بشكل كافٍ؛ مما يجعل أسباب الترابط والتعارف، أو أسباب الصدام والتقاتل غير واضحة بشكل دقيق، وهنا تتدخَّل غلبة الظنِّ، وقوَّة الحدس للترجيح، وهذا لا شكَّ يختلف من عالمٍ إلى آخر.

وأمَّا الأمر السابع فأسمِّيه «تدليس المؤرخين والحكام والإعلاميين»! وهو يحدث لأن كثيرًا من هؤلاء يُسَجِّلون التاريخ لتحقيق أغراض معينة خاصة لهم أو لأممهم، وهم قد يُبرزون أسبابًا غير واقعية، ويرفعون من شأن أمور وهمية، ويُغفلون تمامًا الأسباب الحقيقية للصدامات، بل قد يُعطون صورة وردية لصدام ويُصوِّرونه على أنه انتصار كبير للعدالة، وتحقيق أكيد للإنسانية، بينما الأمر على خلاف هذا تمامًا، ونتيجة هذه «التدليسات» تخرج لنا المعلومات مشوَّهة، ويأتي الخبر كاذبًا، وتكون النتيجة اختلافات بَيِّنَة في التحليل بين مفكر وآخر.

أمَّا السبب الثامن والأخير لاختلاف المفكرين في ترتيب مثل هذه المشتركات فهو اختلاف التجارب الشخصية لكل واحد من هؤلاء المفكرين، فكل واحد منهم عاش في بيئة مختلفة، واحتكَّ بعشرات ومئات بل وآلاف الأشخاص والنفسيات، والتقى مع جموع هائلة من العلماء والفلاسفة، وشاهد تجارِب ناجحة وأخرى فاشلة، وكوَّن رؤًى خاصة بِنَاءً على هذه التجارِب وغيرها؛ ومن ثَمَّ أصبح كل مفكر أو عالِمٍ عبارة عن وحدة مستقلَّة لا تُشبه غيرها، حتى لو كان انتماء المفكر إلى مدرسة كبيرة تضمُّ عشرات المفكرين، وهذا في واقع الأمر شيء رائع وبديع، ودليل على ثراء النفس الإنسانية، وإبداع خَلقها.

لكل هذه الأسباب ولغيرها أنا مقتنع أن الترتيب الذي اخترته في هذه النظرية ليس الترتيب الذي سيتَّفق عليه عامَّة المحلِّلين لهذه المشتركات، بل إنني أُعلن صراحة أنني قد أُغيِّر



من هذا الترتيب بعد حوار أو مناظرة مع أحد المفكرين الناقدين للنظرية، بل أسعد بتضافر الجهود للخروج بالشكل الأمثل للنظرية، وأفتح المجال لكل المتجرِّدين لقضية التعارف والتقارب بين الشعوب أن يُدلوا بدلوهم، ويُسهموا بفكرهم في تعديل المسار، وخدمة القضية.

ولكن يبقى السؤال بعد كل هذا التحليل: لماذا الترتيب أصلاً؟! ولماذا الحرص على وضع عنصر قبل عنصر؟!

إنها محاولة لإعادة تنسيق أفكار الشعوب، ولفت أنظارهم إلى الأهم فالمهم، وليس المقصود هدفًا تربويًّا فقط، إنما المقصود الأساسي هو ما صيغت النظرية من أجله؛ وهو التعارف والتواصل، فكثيرًا ما تغفل الشعوب عن أهم الأسباب التي من الممكن أن تلتقي عليها، وتضيع بذلك عليها فرصة ترابط قوي، والتحام وثيق، ومن أظهر الأمثلة على ذلك ما يرتبط بالأُمَّة الإسلامية، فشعوبها المتعدِّدة كثيرًا ما تتوحَّد على أساس الأرض، أو على أساس العرق فيما يُطْلَق عليه القومية العربية، أو القومية التركية، أو غيرها من القوميات، أو يتجمَّعون على أساس التاريخ المشترك، أو يتجمَّعون على خلاف هذه الأمور، وتجمُّعُهم هذا -ولا شكَّ- أمر طيب؛ لكنهم قد يُغفلون التجمُّع على آصرة العقيدة، وهي المشترك الأسمى الأعلى من الجميع، والأقوى من كل المشتركات، والأوثق في الترابط، والأدوم في العلاقة، وهذا أحسبه غياب رؤية، وضعف بصيرة.

وقد تتصادم الشعوب بسبب الاختلاف على مشتركات هي أقل في الأهمية من مشتركات أقوى يتَّفقون فيها، وهذا -أيضًا- غياب رؤية، وضعف بصيرة، وأبلغ مِثَالٍ مباراةِ مصر والجزائر في تصفيات كأس العالم سنة ٢٠١٠م في هذا الصدد، فشعبان اختلفا على مسألة هي في المشتركات الداعمة، نسيا في لحظات المشتركات الكثيرة التي تجمعهم، وعلى قمَّتها المشترك الأسمى، ثم المشتركات الإنسانية العامة، وكثيرًا من المشتركات الإنسانية الخاصة، ولو قام عقلاء كل بلد ليُخاطبوه بما في هذه النظرية من بنود، لوجد الشعب أن هذا الصدام قام لأسباب تافهة، إذا ما قُورنت بأسباب التعارف والتواصل الموجودة بين الشعبين.

إذًا تهدف النظرية إلى مخاطبة عقلاء كل شعب ومفكِّريه وإعلامييه أن يلفتوا أنظار شعوبهم إلى سُلَّم الأولويات هذا، ويُشجِّعوهم على الارتباط مع الشعوب التي تتوافق معهم في أعلى سلَّم الأولويات، كما يُحذِّرونهم من الصدام على المشتركات العليا في سُلَّم الأولويات؛ لأن قوة الحرب ودمويتها تكون أشدَّ في هذه الحالة من الصدامات الناتجة عن الاختلاف في المشتركات الأدنى. (انظر: **شكل رقم ٣ ، علاقة قوة الحرب ودمويتها بسبب الخلاف**).

***

تَعَرَّضنا في هذه النظرية إلى ذِكْر كلمة «الشعوب» كثيرًا، ومع أن المعنى واضح في أذهان كل مَنْ يقرءون الكلمة، إلاَّ أن واقع الأمر أن اللفظ محيِّر للغاية! فعن أي شعب نتحدَّث؟!

إن الشعوب تُقَسَّم في الحقيقة إلى تقسيمات عديدة تجعل الأمر في غاية التعقيد، كما أن هناك تداخلات لا نهائية بين الشعوب تجعل الأمر أكثر تعقيدًا.

فمثلاً يمكن أن نُقَسِّم الشعوب تقسيمًا عقائديًّا، فيُصبح عندنا شعوب إسلامية، وشعوب نصرانية، وشعوب يهودية، وشعوب بوذية، وأخرى كونفوشيوسية.. وهكذا، وهذا تقسيم واقعي له عشرات التطبيقات في واقعنا، واستخدمه كثير من المنظِّرين عند تحليلهم لأحوال العالم.. ونحن إذا دخلنا في تفصيلات كل عقيدة اكتشفنا أن هناك شعوبًا داخل الشعوب! فداخل الشعوب النصرانية -مثلاً- هناك شعوب كاثوليكية، وأخرى أرثوذكسية، وثالثة بروتستانتية، ورابعة أرمنية، وغير ذلك من فروع داخل العقيدة الأم، وكذلك عند المسلمين تجد شعوبًا سُنِّيَّة، وأخرى شيعية، وثالثة خارجية[1]، وتفريعات أخرى عقائدية كثيرة، وهذا التقسيم يرفضه البعض من قبيل محاولة التجميع لا التفريق، لكنه تقسيم واقعي له تطبيقات ملموسة، بل إن هناك بعض صراعات وصدامات كبرى بين أفراد الشعوب المنبثقة من العقيدة الأم، والتاريخ يشهد صدامات الكاثوليك مع الأرثوذكس، وصدامات الكاثوليك مع البروتستانت، كما يشهد صدامات المسلمين السُّنَّة مع الشيعة، وسواء قَبِلْنَا ذلك أم رفضناه، فإنه واقع نراه ونعاني منه.

---

(١) نسبة إلى الخوارج.

المشتركات	
المشترك لأسمى	العقيدة
المشتركات الإنسانية العامة	الاحتياجات الأساسية
	العقل
	الأخلاق الأساسية
	التملك
	الكرامة
	الحرية
	العلم
	العمل
المشتركات الإنسانية الخاصة	الثقافة
	الأرض
	العرق
	التاريخ المشترك
	اللغة
	العادات والتقاليد
	القانون
	الأخلاق السامية
المشتركات الإنسانية الداعمة	الفنون
	الرياضة
	السياحة

المشتركات

الحرب

علاقة قوة الحرب ودمويتها بسبب الخلاف

شكل رقم (٣)

هذا تقسيم!

وتقسيم آخر للشعوب على أساس القومية أو الوطنية، وهو يعتمد على الشكل الحديث للدول في العالم، فهناك شعب سوري، وشعب فيتنامي، وشعب إسباني، وآخر هولندي، وخامس برازيلي.. وهكذا.

وهذا تقسيم مهم وفعَّال، لكنه لا يُلغي الأول، بل يتداخل معه بشكل عجيب، فالشعب الهولندي -مثلاً- به كاثوليك وبروتستانت ويهود ومسلمون وبوذيون.. وغيرهم، والشعب الكاثوليكي به هولنديون وبرازيليون ونيجيريون.. وغيرهم!

وهناك تقسيم ثالث للشعوب على أساس العرق، فهذه شعوب عربية، وأخرى كردية، وثالثة آرية، ورابعة هانية[1]، وهذا تقسيم مهم كذلك، لكنه لا يُلغي ما قبله، إنما يتداخل معهما في تشابك معقَّد.

وهناك تقسيم رابع جغرافي يتَّسع عن التقسيم القومي أو العرقي، ليشمل عدَّة شعوب تعيش في منطقة جغرافية معينة؛ فهناك شعوب إفريقية -مثلاً- أو على سبيل التخصيص هناك شعوب شمال إفريقية، أو شرق أوسطية، وهناك شعوب جنوب شرق آسيوية، وهناك شعوب شرق أوربية، أو غرب أوربية، وكلٌّ من هذه الشعوب له خصائصه وصفاته التي تجعل تقسيمهم على هذا الأساس الجغرافي تقسيمًا علميًّا سليمًا.

وهناك تقسيم خامس مهم؛ وهو التقسيم الفكري أو الثقافي، الذي يُقَسِّم شعوب العالم حسب الثقافة المنتشرة بها، فهناك شعوب شيوعية -مثلاً- أو شعوب رأسمالية، أو شعوب مُتَدَيِّنَة، أو شعوب علمانية.. أو غير ذلك من الانتماءات الفكرية التي تتغيَّر تبعًا للزمان والمكان.

فكل هذه تصانيف صحيحة ومنطقية، فوق أنها واقعية وليست نظرية، والنتيجة هي وجود عشرات التداخلات بين الشعوب، وهذه التداخلات تجعل الشكل النهائي معقَّدًا للغاية، ولنضرب مثالاً يُوَضِّح لنا هذه الصورة العجيبة..

---

(١) نسبة إلى عرق الهان وهو أحد أكبر الأعراق الصينية.

إنسان مسلم من عرق كردي يعيش في تركيا.. هذا الإنسان ينتمي إلى الشعب الإسلامي بوصفه مسلمًا، وهو كذلك ينتمي إلى الشعب الكردي حسب عرقيته، وينتمي في الوقت نفسه إلى الشعب التركي بواقع قوميته ووطنه وجنسيته، وهذا الإنسان لو هاجر إلى إنجلترا -مثلاً- وعاش بها، ثم أخذ جنسيتها بشكل أو بآخر، صار منتميًا إلى الشعب الإنجليزي فوق انتماءاته السابقة!

فهذا المثال به إنسان ينتمي -دون تكلُّف- إلى شعوب أربعة!

وهذا ليس مثالاً نادرًا!

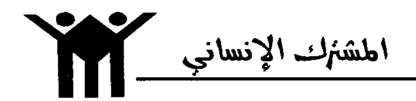
بل إن الأصل أن ينتمي كل إنسان في العالم إلى عدَّة شعوب، إذا نظرنا واقعيًّا إلى التقسيمات التي ذكرناها، مع أنه يحمل في النهاية جواز سفر واحدًا.. بل إن بعض الدول تُجيز لمواطنيها أن يحملوا جواز سفر لدولة أخرى دون أن يتنازل عن جنسيته الأصلية، فيُصبح قانونيًّا منتميًا إلى دولتين!

ماذا يمكن أن يحدث إزاء هذه التداخلات اللا نهائية؟!

واقع الأمر أن هذه الصورة المتشابكة تحمل في داخلها فرصة، كما أنها تحمل في داخلها أزمة!

أمَّا الفرصة فهي اتساع دائرة التواصل والتعارف بشكل ضخم للغاية، ففي المثال الذي ذكرناه منذ قليل، يستطيع هذا الإنسان المسلم الذي يعيش في تركيا أن يتواصل مع كل الشعوب الإسلامية في العالم؛ لأنها تشترك معه في المشترك الأسمى وهو العقيدة؛ فهو قريب جدًّا من شعب إندونيسيا، ومن شعب مصر، ومن شعب المغرب، وهو كذلك قريب جدًّا من المسلمين الذين يعيشون في الأقطار غير الإسلامية.. إنه بهذه الصورة قريب من مليار ونصف مليار إنسان في الدنيا!

والإنسان نفسه يستطيع أن يتواصل بقوَّة مع ٧٧,٨ مليون إنسان تركي يحملون جنسيته نفسها، ويعيشون معه على الأرض نفسها، وينتمون معًا إلى القومية نفسها، ويُدافعون معًا عن البلد نفسه.



والإنسان نفسه يمكن أن يتواصل مع ستين مليون كردي تقريبًا في عدَّة دول من دول العالم؛ لأنه من ناحية العرق قريب منهم، وينتمي إليهم، وتربطه بهم روابط تاريخية ولغوية، فضلاً عن روابط العرق، وكذلك روابط العادات والتقاليد.

وهذا الإنسان لو هاجر إلى إنجلترا وحمل جنسيتها -أو حتى عاش على أرضها دون التجنُّس بجنسيتها- فتُصبح له روابط وقنوات تعارف مع الشعب الإنجليزي، وقد يكون ذلك مع الشعوب الأوربية بشكل عامٍّ!

إنها في الحقيقة عشرات الدوائر من الاتصال تجعل فرصة التعارف بين الشعوب كبيرة وقريبة.

كانت هذه هي الفرصة!

فأين الأزمة؟!

الأزمة تحدث عند تداخل الأولويات، وتعارض المصالح، وتضارب الانتماءات!

عند هذا التعارض فأي الانتماءات نُقَدِّم؟!

إن هناك عشرات التباديل والتوافيق في هذا الشأن، وستجد اختلافًا جمًّا بين المفكرين والمنظِّرين، والأجمل -لا شكَّ- أن نستطيع التوفيق بين كل الانتماءات دون تصادم، لكن ليس كل ما يتمنَّاه المرء يُدركه، وكثيرًا ما تحدث مفاضلة، فإمَّا أن تنتمي لهذا الشعب أو لغيره! وهنا قد يحدث صدام غير مرغوب فيه أبدًا؛ لأنه في النهاية يحدث مع أناس قريبين جدًّا! سواء كانت القرابة عقائدية أو قومية أو عرقية.. أو غير ذلك.

هناك مفكِّرون وشعوب يُقَدِّمون القومية على كل شيء، فانتماؤهم إلى الوطن الذي يعيشون على أرضه أعلى من أيِّ انتماء، وقد تكون فرنسا مثالاً جيدًا لهذا، وهناك مَنْ ينتمون لعرقهم أكثر من انتماءاتهم لأي شيء آخر، وهذا قد نراه في عدَّة دول متقدِّمة؛ مثل: ألمانيا والصين، لكننا نراه كذلك في المناطق الصحراوية والبدوية والجبلية، وهناك مَنْ يُقَدِّم العقيدة، فليس عنده مانع أن يهجر وطنه في سبيل الحفاظ على عقيدته، كما رأينا في قصة المهاجرين المسلمين الذين هاجروا من مكة إلى الحبشة ثم إلى المدينة المنورة، وكذلك قصة البروتستانت

الذين هاجروا من أوربا إلى أميركا.

وأنا ماذا أرى في هذه القضية؟!

واقع الأمر أنني أرى ما قَدَّمْتُه في النظرية!

فالمشتركات الأعلى في بناء النظرية يكون لها الانتماء الأشدُّ والأقوى، وإن كنتُ أُعيد التذكير بأن الأفضل هو الجمع بين الانتماءات دون صدام إن أمكن ذلك..

والأعلى في النظرية هو المشترك الأسمى، وهو العقيدة؛ ولذلك فأنا أرى أن أعلى الانتماءات قيمة، وأسبقها أولوية هو العقيدة والدين، وكل ولاء دون هذه العقيدة يُؤَخَّر، وفي سبيل العقيدة يُضَحَّى بكل ما هو تحتها.. يعني يُضَحَّى بكل شيء!

ولا يُفْهَم من هذا أن العقيدة تأمر أهلها بالعدوان على أقوامهم وأوطانهم، بل إن العقائد السماوية تأمر دائمًا بصلة الأرحام، وقوَّة الرابطة الأسرية، والدفاع عن الأوطان، لكن كل هذا في حال عدم وجود تعارض مع العقيدة..

وما الانتماء الثاني بعد العقيدة؟!

في النظرية تأتي المشتركات الإنسانية العامة بعد المشترك الأسمى، لكن هذه المشتركات عامة على كل البشر، ولا يحدث لها انتماء، ولا تُرسَم بها هوية.. فلننظر إذًا إلى المشتركات الإنسانية الخاصة لنُحَدِّد ولاءنا تبعًا لها.

يأتي في مقدِّمة هذه المشتركات -حسب النظرية- مسألة الثقافة والفكر؛ ومن ثَمَّ فالولاء الثاني في الأولوية هو الولاء الفكري، وقد يُصبح هذا الولاء هو الولاء الأول إذا غاب الدين تمامًا عن حياة شعب فصار ملحدًا، أو كالملحد! والولاء الفكري بهذه الصورة أعلى من كل الولاءات الأخرى بخلاف العقيدة طبعًا.

وهنا ملاحظة دقيقة قبل أن ننتقل إلى الولاء الثالث.. وهو أن الولاء أو الانتماء الأول «وهو العقيدة» والثاني «وهو الفكر» يختارهما الإنسان بإرادته وعقله.. فهما لم يُفرضا عليه فرضًا، مثل مسألة الميلاد من أب وعرق معين، أو الميلاد على أرض معينة، فكاثوليكي رأسمالي

يعيش على أرض ألمانيا وهو من عرق آري، واضح أنه اختار الكاثوليكية عقيدة، واختار الرأسمالية فكرًا، لكنه لم يختر أن يُولد على أرض ألمانيا، ولم يختر أن يُولد من عرق آري، ولو وُلد على أرض فرنسية لكان فرنسيًّا، ولو وُلد من عرق كردي لصار كرديًّا، فهو فاقد الاختيار في الحالتين الأخيرتين، وله كامل الاختيار في الحالتين الأوليين، فهنا تبرز أهمية هذا الترتيب، وأهمية احترام هذا الترتيب لعقل الإنسان وقدراته ومواهبه.

وإضافة إلى هذا فالإنسان يستطيع أن يُغَيِّر من عقيدته ومن فكره؛ إذا تبيَّن له عجزهما، فالكاثوليكي مُخَيَّر أن يبقى على دينه أو يختار الإسلام مثلاً، وهو مُخَيَّر أن يبقى رأسماليًّا أو يُصبح شيوعيًّا.. أو غير ذلك من المناهج، بينما لا يستطيع بحال أن يُغَيِّر عرقه أو موطن ميلاده.

ثم ما الانتماء الثالث؟!

حسب ترتيب النظرية تأتي الأرض في المرتبة التالية للثقافة في المشتركات الخاصة؛ فهي تمثِّل الانتماء الثالث إذًا! والأرض تعني الوطن أو الدولة، والانتماء إليها مُقَدَّم على ما بعدها، ولكنه ليس مقدَّمًا على العقيدة والفكر.

فالأرضُ تسبق في النظرية العرقَ؛ ولذلك فالانتماء إلى الوطن أعلى من الانتماء إلى العرق.. وهذا منطقيٌّ من وجهين: أمَّا الوجه الأول فهو أكثر حفاظًا على السلام والأمن في العالم؛ لأن معظم بقاع العالم تعيش فيها أعراق كثيرة مختلطة، وقليل من أماكن الدنيا التي يعيش فيها عرق واحد لا يختلط مع أحد، فلو قدَّمنا العرق على الأرض لنَعِمَ بالأمن عدد قليل من سكانه، ولكن لو قَدَّمنا الأرض على العرق لنَعِمَت بالأمن معظم شعوب العالم، وخاصة أن هناك شعوبًا يغلب عليها التعدُّد العرقي الكبير جدًّا؛ مثل أميركا وكندا وأستراليا.

وأمَّا الوجه الثاني فهو أن الإنسان يمكن في حالات معينة أن يُغَيِّر وطنه، فلو حدث له في وطنه اضطهاد أو قهر، أو حتى تضييق في أمور معيشته، فإنه من الممكن أن ينتقل إلى غيره، وهذا قد يستهجنه البعض نظريًا، لكن واقع الأمر أنه موجود بكثرة في العالم، وفي صور محترمة وطيبة، بل قد تكون صورًا مبجَّلة ومُعظَّمة! ومثال ذلك ما ذكرناه آنفًا من قضية هجرة

المسلمين عندما اضطُهدوا في مكة إلى المدينة المنورة، فقد صارت دولة المدينة المنورة هي دولتهم، وانتقلت حياتهم كلها إليها، وصار انتماؤهم واضحًا للمدينة لا لمكة، بل عندما فُتحت مكة لم يعودوا إلى ديارهم وأرضهم، إنما أكملوا حياتهم في المدينة.. فقد «اختاروا» هذا الوطن الجديد، وهذا اختيار مُبَجَّل ومُعَظَّم؛ لأنه كان حفاظًا على ما هو «أسمى» وهو العقيدة.

وكذلك رأينا هجرة أي إنسان من أي بلد إلى أميركا؛ ليعمل فيها ويبحث عن مصدر لرزقه، فهذا كفاح ليس فيه بأس، بل قد يُشكر الإنسان على سعيه في طلب الرزق -وعدم استكانته لظروف معيشية صعبة- في مكان آخر، فرجل صيني أو هولندي أو كيني هاجر إلى أميركا منذ عشرات السنين أصبح الآن أميركيًّا يُدافع عن هذا الوطن، ويتبنَّى قضاياه، وينتمي إليه، ويعتزُّ به، وها نحن أولاء نرى رجلاً من عرق كيني أسود -وهو باراك أوباما[1]- يصعد إلى أعلى منصب في الولايات المتحدة الأميركية وهو منصب الرئاسة!

فهؤلاء جميعًا غيَّروا أوطانهم بإرادتهم، سواء كان هذا التغيير محمودًا أم مذمومًا، له مبرر معقول أو دون مبرر.

أمَّا العرق.. فكيف نُغَيِّره؟!

إنه أصعب في التغيير لا شكَّ من تغيير الوطن.. ونحن لا نملك تغييره لأنفسنا، إنما نملك جزءًا من تغييره لأولادنا وأحفادنا، عن طريق التزاوج من عرقيات أخرى، فتخرج عرقيات مختلطة، وهذا حسن، ويُذيب فوارق كبرى بين الشعوب.. لكن الشاهد أن العقل يتدخَّل بصورة أكبر في «اختيار» الوطن، ونحن نُقَدِّم في الانتماء ما اعتمد على العقل والاختيار قبل الذي يعتمد على الجبر والإكراه.

فهنا في ضوء النظرية يُصبح الانتماء مرتَّبًا بهذه الصورة: العقيدة فالثقافة فالوطن ثم العرق.. أما بقية المشتركات فقَلَّ أن تُقَسَّم الشعوب على أساسها، وإن حدث هذا التقسيم

---

(١) باراك أوباما: هو باراك حسين أوباما الابن (٤ أغسطس ١٩٦١م -...)، رئيس الولايات المتحدة الأميركية رقم (٤٤)، وأول رئيس من أصول إفريقية يصل إلى البيت الأبيض.

فهو يكون أضعف من هذه الانتماءات السابقة.

ولا أحب أن أترك هذه النقطة دون أن أُكرِّر أن الأَوْلى هو الجمع بين كل الانتماءات، والحرص عليها كلها، وإقامة علاقة الودِّ والتعارف والتواصل مع كل الشعوب التي تنتمي إليها، وليس في هذا الجمع تعارض مع الأديان، بل على العكس، فالإسلام -مثلاً- يُعلي جدًّا من شأن العقيدة، ويُقَدِّمها على كل شيء، لكنه يحُضُّ -كذلك- على الفكر الراقي البنَّاء، وفي الوقت نفسه يُشَجِّع على حماية الأوطان والذود عنها، وكذلك يحُضُّ على صلة الأرحام والاهتمام بالأقوام، والجمع بين كل هذا يكفل سلامًا أوسع، وأمانًا أدوم، وتعارفًا يُقَلِّل من وتيرة الصدام أو يُلغيه..

***

وإذا كنا قد حَلَّلْنا مفهوم «الشعوب» في ضوء النظرية، فإنه يجدر بنا -كذلك- أن نُحَلِّل مفهوم «الحضارة»..

ولسنا بصدد أن نُعَرِّف الحضارة تعريفًا كاملاً شاملاً في هذا الكتاب، فليس هذا هو الهدف، خاصة أن الحضارة من المصطلحات المختلَف عليها جدًّا بين العلماء والمفكرين، وقد أشرتُ في أحد كتبي السابقة إلى مفهوم الحضارة في عيون الفلاسفة والمنظِّرين، وذكرتُ تعريفًا خاصًّا بي هناك فليُرْجَعْ إليه[1].

أمَّا ما نُريده في هذا الكتاب فهو أن ننظر إلى الحضارات من منطلق النظرية، ومن حيث الاهتمام بقضايا التعارف والتواصل..

بناء على النظرية يمكننا أن نُصنِّف حضارات العالم إلى ثلاثة أنواع..

أمَّا النوع الأول من الحضارات فهو «الحضارات التعارفية»، وهي الحضارات التي تقبل في داخلها التنوُّع الإنساني بشتى فصائله، فيمكن أن تعيش فيها عقائد مختلفة، وثقافات متعدِّدة، ويمكن أن تستوعب أعراقًا كثيرة، وألوانًا شتى من البشر، بل يمكن أن يتكلم الناس في داخل هذه الحضارات التعارفية أكثر من لغة، ويُعَبِّرون عن أنفسهم بطرق مختلفة تبعًا

(١) راجع راغب السرجاني: ماذا قدم المسلمون للعالم، ١/ ٣-١٤.

للطبائع المتعدِّدة التي يتميَّزون بها.

هذه الحضارات التعارفية تشهد استقرارًا داخليًّا لافتًا، وينعم فيها سكانها بكل إمكانيات الحضارة دون تفرقة ولا تمييز، ويُبرِز فيها المواطنون انتماءً واضحًا لحضارتهم، ويتكلمون عنها بفخر واعتزاز.

وعادةً ما يكون لهذه الحضارة هوية مستقلَّة تمامًا، ومتفرِّدة عن غيرها كلية؛ ذلك لأن هذه الهوية صيغت من تمازج شعوب كثيرة مندرجة في الحضارة نفسها، فصار كل شعب من هؤلاء يُضيف شيئًا، حتى صار المُخرَج الجديد شيئًا فريدًا تمامًا لا تُشبهه حضارة أخرى، وهذه في رأيي أرقى الحضارات، وهي الحضارات التي حقَّقت الغاية من التنوُّع البشري، وهي غاية «التعارف»، وهي حضارات يسعى سكان العالم على الالتحاق بها، واللجوء إليها، والتعامل معها.

وهناك في تصوُّري نوعان من «الحضارات التعارفية»؛ أمَّا النوع الأول فهو الحضارات «المتعارفة داخليًّا»، وهي الصورة التي ذكرناها منذ قليل، حيث تستوعب الحضارة في داخلها شعوبًا كثيرة تسمح الحضارة بتعارفهم جميعًا تعارفًا إيجابيًّا.

أمَّا النوع الثاني من الحضارات التعارفية فهو الحضارات «المتعارفة خارجيًّا»، وهي نوع أكثر تطوُّرًا، وأعظم نضجًا من النوع الأول، وهي الحضارات التي تنفتح على العالم أجمع، وتتعارف على كل الشعوب الخارجة عن نطاقها مهما اختلفت هذه الشعوب في طبائعها وخصائصها.

وقد تنجح بعض الحضارات في تحقيق النوعين معًا، وقد تقتصر بعض الحضارات على النوع الأول دون القدرة على الوصول إلى النوع الثاني، ولكن في الغالب لن تكون هناك حضارات مقتصرة على النوع الثاني دون تحقيق النوع الأول؛ بمعنى أنه لن تكون هناك حضارات لها القدرة على التعارف الخارجي مع الحضارات الأخرى دون أن تكون قد حقَّقت سلامًا داخليًّا في حدود حضارتها.

وأنا أرى أن أميركا كمثال للحضارات التعارفية التي اقتصرت على تحقيق النوع الأول

من التعارف، وهو التعارف الداخلي، دون أن تقدر -حتى هذه اللحظة- على تحقيق التعارف الجيد والفعَّال مع الحضارات المحيطة.

لقد شهدت أميركا تنوُّعًا كبيرًا في داخلها، واستطاعت أن تتجاوز الفترة السوداء التي مرَّت بها في تاريخها؛ حيث كانت في البداية عنصرية من الدرجة الأولى، فقد مارست العنصرية ضد الهنود الحمر، وهم السكان الأصليون لأميركا، ثم مارستها ضد الأفارقة الذين جاءت بهم كعبيد يعملون في أعمال السخرة والخدمة.. تجاوزت أميركا هذه المرحلة لتشهد الآن مجتمعًا تعارفيًّا يضمُّ عدَّة أعراق وعقائد وألوان وأجناس، بل إننا نشهد فيه عدَّة لغات، فعلى الرغم من أن اللغة الرسمية والأوسع انتشارًا هي اللغة الإنجليزية، فإن هذا لم يُلغِ وجود لغات أخرى متداولة داخل الحضارة نفسها، فرأينا اللغة الإسبانية تنتشر بشكل كبير في أميركا، خاصة في الولايات الجنوبية التي تشهد كثافة من سكان أميركا الوسطى والجنوبية، إضافة إلى المكسيكيين، وكل هؤلاء يتكلمون الإسبانية، وقد شاهدتُ بنفسي أن لافتات الطرق والإعلانات، وإرشادات المستشفيات والمطارات، والهيئات الحكومية.. وغيرها كل ذلك يُكتب باللغتين الإنجليزية والإسبانية، كما لا تمانع الحكومة من تعليم اللغات الأخرى، وتنتشر المدارس الخاصة التي تُعَلِّم كل لغات العالم، وتشهد بعض مناطق أميركا تركيزًا للسكان من جالية معينة، فتجد أن معظم اللافتات والإرشادات في هذا المكان باللغة الأصلية لهذه الجالية، مثل اللغة الكورية في الحي الكوري بنيويورك، وكذلك اللغة الصينية في الأحياء الصينية المختلفة في نيويورك ولوس أنجلوس وغيرها، وكذلك اللغة العربية في ديترويت ونيوجيرسي ونيويورك.. وغيرها، كما لا يلحظ أحد بشكل كبير في جانب الحقوق وجود تفرقة بين الأعراق المختلفة، وإن كان الاهتمام بالأفارقة السود لم يرقَ بعدُ للمستوى الأمثل.

كل هذا في إطار الحضارة الأميركية من الداخل..

لكن الوضع خارجيًّا يختلف كثيرًا عن هذه الصورة!

فأميركا لم تستطع بعدُ أن تُقيم علاقات تعارفية قوية مع حضارات العالم المختلفة، بل إن الواقع يشهد أن علاقة أميركا بالعالم الخارجي متوترة للغاية، وليست هناك بقعة إلاَّ وتشهد

احتقانًا مع الحضارة الأميركية، وليس هذا خاصًّا بالمسلمين كما يتصوَّر البعض، بل التوتر موجود بقوة مع دول أميركا الجنوبية، وهو أكثر وأشدُّ مع دول آسيا، وخاصة روسيا والصين حتى بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، بل إن علاقاتها متوترة مع أوربا نفسها، مع أن أوربا هي الامتداد التاريخي الطبيعي لأميركا، فلا نجد شعبًا أوربيًّا يتعارف بتجانس مع الحضارة الأميركية، اللهم ما نراه من بريطانيا.

وهذا الوضع هو ما يدفع الحكومات الأميركية الأخيرة، سواء في أواخر عهد جورج بوش الابن، أو في عهد أوباما إلى ما يُسَمَّى «بتحسين صورة أميركا خارجيًّا» وهم يبذلون جهدًا مضنيًا في هذا المجال، ويُنفقون أموالاً طائلة، ويُحَرِّكون إعلامًا جبَّارًا، ويُرسلون معونات، ويستقبلون بعثات، لكن كل هذا لم يُحَقِّق المطلوب بعدُ.. ولعلَّ مردَّ ذلك كله إلى شعور العالم بالغطرسة الأميركية المتمثِّلة في فرض الرأي بالقوَّة على حكومات العالم المختلفة، وعلى الشعوب كذلك.. وهذا يُمَثِّل تعدِّيًا على كرامة الشعوب، والكرامة -كما ذكرنا في النظرية- من المشتركات الإنسانية العامة التي لا يمكن للإنسان أن يعيش بدونها، فلن يُجدي مع إهدار الكرامة أن تُقَدّم معونة غذائية أو عسكرية.

وليس معنى هذا الكلام أن الشعب الأميركي غير قابل للتعارف خارجيًّا، بل إنني أرى -وقد لمستُ ذلك بنفسي في زياراتي المتعددة لأميركا- أن غالب الشعب الأميركي طيب القلب، لطيف المعاملة، دمث الخلق، لكنه للأسف يُسَلِّم قياده تمامًا للسياسيين والإعلاميين، وهؤلاء يبحثون عن مصالحهم وأهوائهم، ولا مانع عندهم من سَوق البلد إلى صدامات متعددة في سبيل الوصول إلى المجد الذي يحلمون به.

وقد يرى المراقب للأحداث العالمية أن الوفود الأميركية لا تهدأ في التواصل مع شتى شعوب العالم، وأن الحكومة الأميركية لها علاقات قوية جادَّة مع كل الأمم، فيستغرب حينئذٍ من كلامي بخصوص الفشل الأميركي في التعارف الخارجي.. ولذلك فأنا أودُّ أن ألفت أنظار القرَّاء إلى أمر دقيق.. بل هو في غاية الدقَّة!

إننا ذكرنا في بداية هذا الكتاب أن الإنسان يحتاج غيره، وأن بيئة كل إنسان منقوصة،

ويحتاج أن يتعامل مع الآخرين حتى يُكمل النقص الذي عنده، وأن الإنسان أمامه أحد طريقين لتحقيق مراده، إمَّا «التعارف لتحقيق مصلحة مشتركة»، وهذا طريق الأسوياء، وإمَّا «التصادم لتحقيق مصلحة ذاتية»، وهذا طريق الأشقياء..

لكن واقع الأمر أن ثمة طريقًا ثالثًا موجودًا بين الطريقين، وهو طريق الخبثاء! وهذا الطريق هو «التعارف لتحقيق مصلحة ذاتية»!

فالعلاقات الأميركية الخارجية ليست علاقات بريئة فوق الشبهات، والمعونات الأميركية الغزيرة لا تُقَدَّم من أجل الأخلاق والفضيلة، والوفود الطائرة من وإلى أميركا صباح مساء لا تهدف إلى إسعاد البشرية!

إن كل هذه العلاقات التعارفية لم تنشأ إلاَّ لتحقيق مصالح أميركا دون النظر -في غالب الأمر- إلى مصالح الآخرين، وهذا أمر تظنُّ أميركا أنها استطاعت أن تخفيه وراء بسمتها وأموالها وإعلامها، لكن هذا الظنَّ ليس في محلِّه، فمعظم شعوب العالم قرأت هذا السيناريو، وفهمت العلاقات الخارجية الأميركية؛ ومن ثَمَّ فما زالت شعوب العالم لا تقبل أميركا مع كل عطائها ومنحها، وليس هذا جحودًا من الشعوب، إنما هو حصافة وذكاء وقدرة على قراءة الأحداث.

وهكذا صارت العلاقات الأميركية الخارجية تعتمد أحد طريقين كليهما أسوأ من الآخر؛ فالأول هو التصادم لتحقيق مصلحة ذاتية، مثلما حدث في العراق وأفغانستان، ومثلما تُؤَيِّد أميركا فيه الصهاينة في فلسطين، والطريق الثاني هو التعارف لتحقيق مصلحة ذاتية كذلك، مثلما تفعل مع بقية شعوب العالم.. وهذه ليست طرقًا سوية في التعامل؛ ومن ثَمَّ تزرع الكراهية في قلوب الناس.

وليس معنى هذا أننا نُغفل النموذج التعارفي الجيد الذي تُقَدِّمه أميركا الآن «داخل» حضارتها، ولعلَّ هذا هو الذي يُثير اللبس والاضطراب عند العلماء والمفكرين الذين زاروا أميركا، أو عاشوا فيها؛ فهم يرون صورة باهرة في «الداخل» تجعلهم يرفعون الحضارة الأميركية إلى السماء، ثم يُبَاغَتُون برؤية الصدامات الأميركية الخارجية، وازدراء مصالح



الشعوب الأخرى، فيشعرون أن هناك فصامًا في الشخصية الأميركية، والواقع أنه ليس هناك فصام ولا غيره، إنما الحقيقة أن المحللين لا يُفَرِّقون بين الشعوب والحكومات؛ فالشعوب قد تكون تعارفية للغاية، لكن الحكومات -وخاصة القوية- قد تكون متكبرة ومتغطرسة؛ مما يجعلها لا ترى إلاَّ نفسها، وأحيانًا تقع الشعوب في الأزمة نتيجة التصوير الإعلامي الزائف للحقائق، وقد مرَّ بنا -على سبيل المثال- في فصل «الطريق إلى الهاوية» أن الإعلام الغربي والأميركي -على وجه الخصوص- يُرَوِّج لفكرة «الإسلاموفوبيا»، أو الخوف من الإسلام، ولما كانت الشعوب الغربية والأميركية أسيرة لإعلامها فإنها تلقائيًّا تصل إلى مرحلة من الفزع تمنعها من التفكير في التعارف على المسلمين.. وهذا مثال، والأمثلة التي تُشبهه كثيرة، وهذا -للأسف- يُفَوِّت على الشعوب فرص تعارف هائلة.

كان هذا مثالاً لحضارة استطاعت أن تُحَقِّق تعارفًا داخليًّا لكنها فشلت في ذلك على المستوى الخارجي.

ومن المناسب أن نضرب هنا مثالاً عن حضارة استطاعت أن تحقق التعارف على المستويين الداخلي والخارجي، ويمكن أن تكون كندا من الأمثلة الجيدة في حضارات العالم المعاصر، فعلى المستوى الداخلي فإنها تشهد التعارف بشكل فعَّال ومؤثِّر؛ حيث إنها مكوَّنة من جنسيات وأعراق كثيرة جدًّا، لعلَّها أكثر من أميركا، ومع ذلك فالاستقرار الداخلي فيها أعلى من أميركا، ومسألة التعارف بين العرقيات والأجناس المختلفة أمر طبيعي وتلقائي، وأما على المستوى الخارجي فعلاقات كندا مع دول العالم علاقات تعارف حقيقية، فيها البحث عن المصالح المشتركة، سواء كانت هذه المصالح اقتصادية أم ثقافية أم علمية.. أم غيرها.

والفارق بين الصورتين -صورة أميركا وصورة كندا- ليس هو الفارق بين الشعبين، فطبيعة الشعبين متقاربة للغاية، إنما الفارق الحقيقي هو القوة المفرطة لأميركا، التي تجعلها تُفَكِّر من منظور المصلحة الذاتية، حتى لو تحققت خسائر فإنها - لقوتها- تستطيع أن تتعامل معها، أما كندا فقوتها متوازنة نسبيًّا مع قوى كثيرة في العالم، وليس عندها هذا الإفراط الذي رأيناه في أميركا؛ ومن ثَمَّ فهي تزن الأمور بالتعقُّل لا بالتجبُّر، وهذا فارق جوهري في التعامل.



وعلى المدى البعيد فإن مصالح الحضارات التي تتعارف على المستويين الداخلي والخارجي تتحقق بشكل أكبر؛ لأنها تُصبح أكثر استقرارًا وأمانًا، ولا تتعرَّض لغضبات الشعوب الأخرى؛ مما يحفظ لها عمرًا أطول، وهي رسالة أتمنى أن تصل إلى الشعب الأميركي!

أما التاريخ فيشهد أن الحضارة الإسلامية في فترات كثيرة من عمرها كانت حضارة تعارفية على المستويين الداخلي والخارجي، فداخليًّا ضمَّت الحضارة الإسلامية عشرات الشعوب من شتى أجناس الأرض، وشهدت تعارفًا وتمازجًا وتواصلاً رائعًا بين كل هذه الشعوب، وأثمر كل ذلك حضارة فريدة جمعت خيرات وعلوم العالم، ولقد شهد بذلك المؤرخون المنصفون؛ فقال توماس أرنولد[1] على سبيل المثال: «إنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمين قد نعموا -بوجه الإجمال- في ظلِّ الحكم الإسلامي بدرجة من التسامح لا نجد معادلاً لها في أوربا قبل الأزمنة الحديثة، وإن دوام الطوائف المسيحية في وسط إسلامي يدل على أن الاضطهادات التي قاست منها بين الحين والآخر على يد المتزمتين والمتعصبين كانت من صنع الظروف المحلية، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح»[2].

وهذا الكلام له ثقله، ليس لأنه فقط أتى من مستشرق أوربي غير مسلم، ولكن لأنه يتحدث عن حضارة قامت على أساس عقائدي وديني، ومع ذلك سمحت لشتى الأديان والفلسفات أن تستمر داخل كيانها دون أي نوع من التعصب أو الاضطهاد.

وأما على المستوى الخارجي فالعلاقات الإسلامية مع العالم كانت في غاية النبل والتعارف، ولقد وصل الإسلام سلمًا إلى معظم شعوب العالم في شرقه وفي غربه، وحتى الدول التي اصطدمت مع الحضارة الإسلامية فإنها كانت تشهد فترات سلم وهدنة طويلة كان يجري فيها التعامل والتعارف بشكل متواصل، ولعل من أبلغ الأمثلة على ذلك؛

---

(١) توماس أرنولد Thomas Walker Arnold (١٨٦٤ - ١٩٣٠م): مؤرخ إنجليزي شهير، من أعظم المستشرقين البريطانيين، كان عميدًا لمدرسة اللغات الشرقية بلندن سنة ١٩٠٤م، من أشهر أعماله كتاب (الدعوة إلى الإسلام).

(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص٧٢٩، ٧٣٠.

العلاقات التعارفية والتواصلية مع الدولة البيزنطية على الرغم من الحروب المتتالية معها، وهذه العلاقات التعارفية نجم عنها ترجمة أعداد هائلة من الكتب اليونانية في شتى مجالات العلوم إلى اللغة العربية، ولم يكن هذا يتم دون اتفاق يبحث عن المصالح المشتركة، فقد كان المسلمون يشترون هذه الكتب بما يوازي وزنها ذهبًا، بل كانوا أحيانًا يبادلون الأسرى بهذه الكتب[(١)]، فتتحقق مصالح فكُّ الأسرى بالنسبة للبيزنطيين، وتتحقق مصالح البحث العلمي بالنسبة للمسلمين.

ولا ينسى التاريخ علاقات الخلافة العباسية –على سبيل المثال- مع مملكة فرنسا، والتي كانت قائمة على التعارف، والتعاون المستمر لتحقيق مصالح مشتركة.

وليس معنى هذا أن تاريخ الحضارة الإسلامية تاريخ ملائكة بلا أخطاء، فلا شك أن حضارة مثل الحضارة الإسلامية شملت في بعض فتراتها قرابة نصف العالم، وضمت عشرات الشعوب، وتعرضت لآلاف التحديات، لابد أن تمر بفترات ينفلت فيها الزمام، وتضطرب فيها الأمور، ويحل التصادم، الداخلي أو الخارجي محل التعارف..

نعم هذا يحدث، لكنه لا يمكن أن يلغي المثال الحضاري الراقي الذي ضربته الحضارة الإسلامية خلال عدة قرون متتالية.. وهذه ليست شهادتي وحدي، إنما هي شهادات الكثير من الغربيين الذين درسوا تاريخ الحضارة الإسلامية، ويمكن للقارئ أن يعود إلى كتابي «وشهد شاهد من أهلها»[(٢)]، ليراجع مجموعة من هذه الشهادات.

كان هذا هو النوع الأول من الحضارات تبعًا لرؤية النظرية.

أما النوع الثاني من الحضارات فهو «الحضارات التصادمية»!

وهي الحضارات التي يغلب على طابعها التصادم مع الآخرين، وهذه في الواقع لا ينبغي أن يُطلق عليها لفظ «حضارات»، لكننا نطلق هذا اللفظ مجازًا ليرسم لنا صورة مجتمع معين له صفات محددة.. وهي يمكن أن تُصنَّف إلى نوعين كما صنفنا «الحضارات التعارفية»، فهي

---

(١) انظر: كتاب «وشهد شاهد من أهلها» ص٢٥٣، ومحمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٣٩.

(٢) راغب السرجاني: «وشهد شاهد من أهلها»، نهضة مصر للطباعة والنشر – مصر.

يمكن أن تكون متصادمة داخليًّا أو متصادمة خارجيًّا.

أما الحضارات المتصادمة داخليًّا فهي الحضارات التي تشهد صراعًا بين أفراد شعبها أو شعوبها، وهذا أخطر أنواع الصدام، حيث تكون الآثار شديدة، والجروح عميقة، وهي ما نعرفه «بالحروب الأهلية»، وهذا مثل الذي رأيناه في التاريخ في يثرب بين الأوس والخزرج قبل هجرة الرسول ﷺ إليها، وكالذي رأيناه في روما قبل سقوطها، وكالذي رأيناه في واقعنا المعاصر في لبنان أو في رواندا، أو كما نراه الآن في العراق..

وغالبًا ما تكون هذه الشعوب غير مستقرة أبدًا؛ ولذلك فهي لا تقوى على الصدام الخارجي، وتغرق في العادة في مشاكلها الداخلية..

أما النوع الثاني من الحضارات التصادمية فهي الحضارات المتصادمة خارجيًّا، وهذه في الغالب تكون متجانسة داخليًّا، ومستقرة إلى حدٍّ كبير، مما يعطيها الفرصة أن تفكر في العالم الخارجي، ولكنه للأسف تفكير منحرف يقود إلى صدام دائم..

أما لماذا يصطدمون مع الآخرين ولا يبحثون عن المصالح المشتركة فإن هذا يكون مرجعه حالة من الكِبْرِ والغطرسة الشديدة التي تعمي أبصارهم عن رؤية أي حقوق لبقية البشر.. وهذا الكِبْرُ يأتي نتيجة سبب من سببين، أو نتيجة كلا السببين معًا..

أما السبب الأول فهو الإفراط في القوة، وذلك كما ذكر الله ﷻ في القرآن، وهو يحكي عن حضارة صدامية هي حضارة «عاد»، فيقول: ﴿**فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً**﴾ [فصلت: ١٥]، وكما هو واضح في الآية فإن السبب وراء الكِبْر كان شدة القوة.

وأما السبب الثاني فهو العلوُّ العنصري؛ بمعنى أن يرى قوم أنفسهم أعلى عرقيًّا من الآخرين؛ ولذلك فهم يعتقدون أن البحث عن المصالح المشتركة هضمٌ لحقوقهم! حيث إنهم أعلى قدرًا، وأعظم قيمة؛ ولذلك يجب على العالم أن يخدمهم ويرعى مصالحهم!

وهذه وإن كانت رؤية مستهجنة جدًّا وغير منطقية، إلاَّ أنها موجودة، بل إن بعض شعوب العالم تتصف بهذا الأمر على مدار مراحل كثيرة من التاريخ.

ولعلَّ من أبرز الأمثلة على الحضارات المتصادمة خارجيًّا ما رأيناه في قصة التتار[1]، حيث تحرَّكت جيوش التتار من شرق آسيا مخترقة دول العالم، ومحطِّمة كل شيء في طريقها، ومخرِّبة لكل البلاد، ولم تَسْعَ إلى أي تعارف أو تواصل قط، إنما كان الهدف هو الإحراق والإغراق وإفناء النوع البشري!

إنه مثال صارخ على الروح التصادمية الشريرة التي لا تعرف إلاَّ الخراب.

أمَّا النوع الثالث من الحضارات فهو «الحضارات المنغلقة».. وهذه الحضارات هي التي تعيش في عزلة عن العالم الخارجي، فلا هي تتعارف مع الحضارات المعاصرة، ولا هي تتصادم معها، إنما تنكفئ على نفسها فقط.

وهذه يمكن -أيضًا- أن نصنفها إلى نوعين:

أمَّا النوع الأول فهو «الحضارات المنغلقة دون اختيار»، وهي الحضارات التي أدَّت ظروف معينة إلى عزلها عن العالم.. وقد تكون هذه الظروف جغرافية؛ مثل وجودها في مكان ناءٍ جدًّا، مثل الهنود الحمر قديمًا، أو مثل الإسكيمو، أو مثل القبائل الإفريقية التي عزلها سوء المواصلات والطرق، وقلة الإمكانيات.

وهذه الحضارات «لا تستطيع» أن تتعارف على غيرها، وإن كانت من الممكن أن تتميز بروح تعارفية لكن الظروف الجغرافية منعتها.

وقد تكون الظروف المانعة لغوية.. وذلك مثل الحضارة الصينية، التي شهدت تعارفًا داخليًّا جيدًا جدًّا، لكنها «لم تستطع» أن تتواصل مع العالم الخارجي بقوة على مدار قرون طويلة؛ لأسباب كثيرة يأتي في مقدمتها صعوبة اللغة الصينية، فهذه شعوب إن توفَّرت لها وسائل التعارف أقدمت عليها، وبالتالي حققت نجاحًا في التعاملات.

أمَّا النوع الثاني من الحضارات المنغلقة فهي «الحضارات المنغلقة اختياريًّا»! وهذه حضارات اختارت «بإرادتها» أو إرادة حكوماتها أن تنغلق على نفسها ولا تتعارف على الآخرين، وهذا الانغلاق له أسباب كثيرة..

---

(١) راجع كتاب «قصة التتار من البداية إلى عين جالوت»، راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ - القاهرة.

من هذه الأسباب الإحساس بعلو العنصر، وأنا أعتقد أنه يكون هنا أعلى من الشعور الموجود عند الشعوب المتصادمة، لدرجة أن هذا الشعور يدفعهم إلى ازدراء بقية الشعوب، وعدم الرغبة في التعامل معهم، ولا التزاوج منهم.

ومن هذه الأسباب -أيضًا- وجود نوع من الشكِّ والريبة في الآخرين، وبالتالي يفقد هذا الشعب الانغلاقي الثقة في كل الشعوب الأخرى، ويُفَضِّل التقوقع على نفسه.

وأنا أعتقد أن الحالتين السابقتين هي حالات مَرَضِيَّة تحتاج إلى علاج؛ لأن المنطق لا يُؤَيِّدها، والخسارة من وراء هذا السلوك كبيرة..

وقد يكون الانغلاق اختيارًا حكوميًّا، وليس شعبيًّا، وهنا يجبر الدكتاتور شعبه على الانغلاق، فلا يعرف شيئًا مطلقًا عن العالم الخارجي، ليسهل على الحاكم المتسلط قيادة شعبه.. وهكذا كانت معظم الأنظمة الشيوعية في آسيا وفي شرق أوربا، بل ما زال بعضها يمارس المنهج الانغلاقي نفسه، ولعلنا رأينا في كأس العالم لكرة القدم سنة ٢٠١٠م أن حكومة كوريا الشمالية سمحت ببث تليفزيوني مباشر لمباراة كوريا الشمالية مع البرتغال، وكانت هذه -كما نقلت وسائل الإعلام[1]- المرة الأولى في تاريخ كوريا الشمالية التي تنقل فيها أمرًا على الهواء مباشرة! لأن الأصل هو عدم التواصل مع الخارج!

وأخطر أنواع الانغلاق أن يكون نابعًا من عقيدة تُحَرِّم التعارف مع الناس، وتمنع الاختلاط بهم، وتحضُّ على العزلة التامة عن البشر، وهذا خطير لأن الذي يمارسه لا يشعر بأي نوع من الألم؛ لبعده عن المجتمعات والبشر، بل على العكس من ذلك هو يشعر بالسعادة؛ لأنه يُطَبِّق بنود عقيدته كما يفهمها، ومن ثَمَّ فهذه حالة انغلاق دائمة، وعلاجها عسير.. ومن أمثلة ذلك بعض المناهج الانحرافية التي خرجت عن خطِّ الإسلام، والذي هو دين يحضُّ أتباعه على التواصل مع الناس ودعوتهم للخير، فإذا بالفكر المنحرف يُبعد المسلمين عن واحدة من أهم الوظائف التي كلَّفتهم بها شريعتهم، وهي إيصال الخير للناس، وهداية البشر إلى الله، وكأنهم لم يعرفوا حديث رسول الله ﷺ الذي قال فيه: «**الْمُؤْمِنُ الَّذِي**

---

(١) صحيفة الاقتصادية الإلكترونية، ٢٢ يونيو ٢٠١٠م، العدد (٦٠٩٨): www.aleqt.com.

يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَلاَ يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»[١].

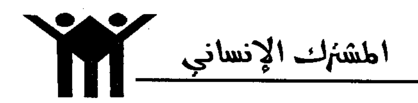
ولعلَّ هذا الفكر قد تسرَّب إلى بعض المسلمين نتيجة تأثُّرهم ببعض الفلسفات الهندية الداعية إلى العزلة، وكذلك نتيجة التأثر ببعض المذاهب الفارسية كالمانوية[٢]، التي تحضُّ على هجر الحياة، والعزلة التامَّة، وعدم التعامل مع الناس، بل عدم الزواج أصلاً، وكل هذا مخالف بداهة للإسلام..

ومن خلال رصدي لهذه الحضارات الانغلاقية، خاصة التي اختارت الانغلاق بإرادتها، أقول: إنها في الغالب تسير نحو صدام قريب مع حضارة أخرى، وقد لا تسعى هي للصدام، ولكن الحضارات المحيطة غالبًا ما تتوجَّس خيفة من هذه الحضارات الانغلاقية، وتتوقَّع منها دومًا الشرَّ، وقد تُنْسَج حولها قصص وأساطير وأوهام، ثم قد يأتي حدث بسيط لا يأبه به أحد عادة، بيد أنه بفعل الجهل بدواخل الحضارة الانغلاقية وطبيعتها قد يكون سببًا في صدام كبير، وعند التحليل واكتشاف وهم الأسباب تكون الفرصة قد فاتت للإصلاح، ويخسر الجميع!

إذًا انطلاقًا من النظرية نحن أمام ثلاثة أنواع من الحضارات؛ فالأولى هي الحضارات التعارفية، وهذه منها ما هو متعارف داخليًّا فقط، ومنها ما هو متعارف على المستويين الداخلي والخارجي، وهذا النوع الأخير هو الأفضل في كل الحضارات، ثم هناك نوع ثانٍ من الحضارات وهي الحضارات التصادمية، والتي يمكن أن تكون تصادمية داخليًّا، وهذا هو أسوأ أنواع الحضارات، أو تكون تصادمية خارجيًّا، وهذا سيئ كذلك، ولكنه أقل من الذي قبله، ثم النوع الأخير من الحضارات وهي الحضارات الانغلاقية، وهذه إمَّا أن تكون

(١) أحمد في مسنده (٥٠٢٢) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين. والبيهقي (١٩٩٦١).

(٢) المانوية: هم أصحاب ماني الذي ظهر في زمان سابور بن أردشير، أحدث دينًا بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام، وزعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين: أحدهما نور والآخر ظلمة. انظر: الشهرستاني: الملل والنحل ٢٩٠-٢٩٣، وقال القنوجي: وكانت المانوية والمترهبة من النصارى يتقربون إلى الله بترك النكاح. الروضة الندية شرح الدرر البهية ٢/ ٣.



انغلاقية دون اختيار لظروف قهرية تعرَّضت لها، أو تكون قد اختارت الانغلاق لأحد الأسباب التي ذكرناها.. (**انظر: شكل رقم ٤ أنواع الحضارات بناءً على النظرية**).

وأنا أعتقد أن هذا التصنيف الذي ذكرتُه سيُضيف بعدًا جديدًا مهمًّا في تعريف كلمة «الحضارة»، وفي شرح مدلولاتها، وفي تقويم الحضارات وتحديد درجة رُقِيِّها، وهذا في رأيي من أفضل النتائج لهذه النظرية.

***

بناء على ما سبق من نتائج في مسألة الحضارات، فإنه يمكننا أن نُرتب الحضارات من الأعلى إلى الأدنى فيما أسميه بـ «سلم الحضارات»، والذي تكوَّن نتيجة رؤيتنا لقضية التعارف والتصادم، وقضية المصالح المشتركة أو المصالح الذاتية.

وهذا «السلم الحضاري» يتكوَّن من ست درجات..

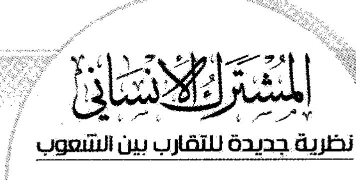
أما أعلى درجات السلم الحضاري، وأفضل الحضارات بناء على رؤية النظرية فهي الحضارات التعارفية داخليًّا وخارجيًّا، فهذه هي الحضارات التي تسعد البشرية حقًّا في وجودها، وهي التي ينعم أهلها في الداخل بالأمان والاستقرار، ويشعرون بالانتماء الكامل لحضارتهم، ولهم هوية معروفة ومحدَّدة، وفوق ذلك فهذه الحضارة تسعى للتعارف الإيجابي مع الخارج بحثًا عن مصالح مشتركة لها ولغيرها من الحضارات، ومن ثَمَّ فإن خير هذه الحضارات لا يعود عليها فقط، بل يستفيد منه كل مَنْ تعامل معها..

أنواع الحضارات
بناءً على النظرية

- حضارات انغلاقية
  - دون اختيار
  - باختيار
- حضارات تصادمية
  - داخليًا
  - خارجيًا
- حضارات تعارفية
  - داخليًا
  - خارجيًا

شكل رقم (٤)





أمَّا الدرجة الثانية من السلم فهي الحضارات التي تتعارف داخليًّا، ولكن ليس لها علاقات كثيرة جيدة على المستوى الخارجي، فهذه حضارات مستقرة إلى حدٍّ كبير، وقدرة هذه الحضارات على استيعاب الشعوب والعرقيات المختلفة داخلها ستدفعها يومًا ما إلى حُسن التعارف مع غيرها، وحتى لو قادها حكامها إلى صدام مع غيرها، فهذا يكون مؤقتًا في الغالب؛ لأنهم بطبيعتهم غير صداميين، وقد يرفضون الحكومات التي تدفع بهم إلى مثل هذا السلوك..

وفي الدرجة الثالثة من السلم تأتي الحضارات الانغلاقية دون اختيار، فهذه الحضارات انغلقت دون رغبة، وقد تكون تعاملاتها حضارية جدًّا في الداخل، لكنها «لا تستطيع» أن تصل للآخرين، ويوم تتغيَّر الظروف فتُسَهِّل هذا الوصول إلى غيرها، قد تبدأ هذه الحضارات علاقات تعارفية مثمرة.

وفي الدرجة الرابعة تأتي الحضارات الانغلاقية باختيار؛ فهذه الحضارات وإن لم تلتفت إلى الغرض من التنوع البشري إلاَّ أنها كفَّت شرَّها عن الناس، ولكن يجب الحذر من أن الناس لن يتركوا هذه الحضارة هكذا دون استكشاف، وقد تكون النتيجة صدامًا بسبب التوجُّس، فعلى هذه الحضارات أن تسعى حثيثًا للصعود في سلم الحضارة، وإلاَّ سقطت إلى الدرجات الأسفل؛ لأن الاستقرار في درجة الانغلاق عسير للغاية!

أما الدرجة الخامسة فهي درجة الحضارات المستقرَّة داخليًّا المتصادمة خارجيًّا، والذي يغلب على طبعها وطبع شعوبها حب التصادم مع الآخرين، فهذه حضارات تؤذي العالم وتضرُّه، وتحقق من المفاسد ما يربو ويزيد جدًّا عن المنافع، وتكون وبالاً على الإنسانية، وعلى العالم أن يحذر من مثل هذه الحضارات.

أمَّا الدرجة السادسة والأخيرة فهي الحضارات المسكينة، التي فشلت في تحقيق السلام الداخلي بين ربوعها، وتقوم فيها الحروب الأهلية بشكل متكرِّر، وهي بالتالي ضعيفة للغاية، ولا ترقى إلى التعامل مع الخارج لا بالتعارف ولا بالتصادم، وهي أسوأ الحضارات مطلقًا، ولا نُطلق عليها لفظ الحضارة إلاَّ مجازًا، وهي أسوأ من الحالة التي قبلها؛ أي: الدرجة

الخامسة؛ لأن هناك بصيصًا من الأمل بالنسبة للحضارات التصادمية مع الخارج أن يشعر أهلها المستقرون داخليًّا بمغبة الصراع مع الناس، وبالتالي يبحثون عن آليات جديدة من التعامل قد يكون منها التعارف، أمَّا الحضارات التي «رسبت» على المستوى الداخلي والأهلي فكيف يمكن أن تُفَكِّر في علاقات سوية مع الخارج؟!(انظر: شكل رقم ٥ **السُّلَّم الحضاري**).

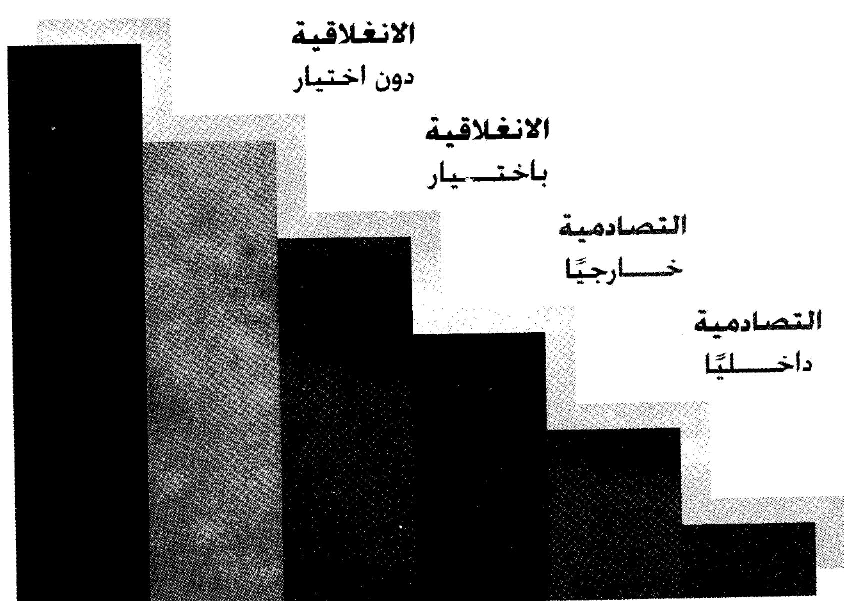
وجدير بالذكر أن هذا التصنيف الذي ذكرتُه، وهذا الترتيب للحضارات يقوم في الأساس على مسألة التعارف والتصادم، وليس مراعيًا لكل بنود الحضارة وعلاماتها وآلياتها، ومن ثَمَّ فهو ليس الشكل الكامل الذي يُصَنِّف الحضارات، لكنه يُضيف بعدًا مهمًّا مع غيره من الأبعاد التي لا بد أن تدرس بشكل مفصل حتى يمكن في النهاية أن نتصور أفضل الحضارات مطلقًا وأسوأها مطلقًا، وليس هذا موضوع الكتاب الذي بين أيدينا، وإن كنا سنفرد له -بإذن الله- كتابًا مستقلاً.

***

بدهي نتيجة التصنيف السابق للحضارات، ونتيجة شرح منظومة «السلم الحضاري» أن نتوقَّع أن الدول أو الحضارات التي ستكون في أعلى السلم ستبقى مدَّة أطول، وهذا البقاء سيكون مستقرًّا وآمنًا، أما الدول أو الحضارات التي ستقبع في أسفل السلم، «وتقنع بذلك»، فهي لن تبقى على قيد الحياة طويلاً!

وهذا يعني أن النظرية تعالج أمرًا جديدًا مهمًّا، وهو الإسهام في تفسير مسألة «قيام الأمم أو سقوطها»..

لا شك أن عوامل بناء الأمم كثيرة ومتعددة، وهي وإن كانت تختلف من مكان إلى مكان، أو من زمان إلى زمان، إلاَّ أن هذا الاختلاف ليس كبيرًا في المعتاد، فهناك في العادة قواعد معينة تقوم على أساسها الأمم بشكل عامٍّ، وقواعد أخرى تسقط بسببها الأمم كذلك، بل أنا على قناعة أن قيام وسقوط الأمم هو جزء من السنن الكونية الثابتة، ومن ثَمَّ فيمكن أن نُحَدِّد له أطرًا معروفة، وأسبابًا واضحة..



السلّم الحضاري

شكل رقم (٥)

وبناء على النظرية يمكن أن نقول:

إن من أبرز العوامل التي تساعد الأمم على القيام هو قدرة هذه الأُمَّة على استيعاب الشعوب والعرقيات المختلفة داخلها، وتَوَفُّر المنهج الصالح الذي يهدف إلى التعارف بين الأطياف البشرية المختلفة الموجودة في الأُمَّة، والذي يُتيح لهذه الأمة أن تُكَوِّن علاقات سوية مع مَنْ حولها مما يكون له أبعد الأثر في بقائها واستقرارها، وإذا عدنا إلى ما ذكرناه في النظرية في موضوع المشتركات الإنسانية المختلفة، وتذكَّرنا الترتيب الذي ذكرناه من حيث إن المشترك الأسمى - وهو العقيدة - يأتي من القمة، ثم المشتركات العامة، فالخاصة، وأخيرًا الداعمة، إذا تذكرنا ذلك أدركنا أن الأمة التي تحرص على هذه المشتركات ستقوم أسرع وأقوى، وكلما كان الاهتمام بالمشتركات الأعلى كان البقاء أطول، وهكذا..

وعلى النقيض من ذلك؛ فالأُمَّة التي ستُهمل بعض هذه المشتركات، وينشأ في داخلها أو خارجها صدام هي في الواقع تُعَجِّل بسقوطها، ولو أهملت كل المشتركات سقطت لا محالة، وإذا راجعنا تاريخ سقوط الحضارات الكبرى لوجدنا فيه تعديًا صارخًا على المشتركات الإنسانية، وكلما كان التعدِّي أكبر، وعلى مشترك أعلى، كان السقوط أسرع وأفجع، ولعلَّه من النادر أن تجد حضارة سقطت تخرج عن هذا التصوُّر، ويمكن أن تراجعوا التاريخ، وكذلك الواقع.

إذا راجعنا تاريخ الدولة الرومانية، وجدنا تعديًا على معظم المشتركات الإنسانية، إن لم يكن كلها، وظهر بجلاء في تتبُّع النصارى واضطهادهم في كل أرجاء الدولة الرومانية، ولم تنظر بعين الاعتبار للمشتركات العامة أو الخاصة.. كل هذا أدَّى إلى سقوطها وتشرذمها، ولقد كانت تضمُّ عشرات الشعوب في داخلها، لكنها فقدت القدرة على التعارف الداخلي، فحدث التفكك، وزاد الأمر تعقيدًا اصطدامها خارجيًّا مع القبائل الجرمانية في غرب أوربا فكان الانهيار!

وسقوط الخلافة الإسلامية العثمانية لم يكن بعيدًا عن هذه الصورة؛ فقد اختلفت فيها

الصورة تمامًا عن السنوات العظيمة التي بدأت فيها القيام ثم الازدهار، فمن دولة تضمُّ عشرات الأعراق وتتكامل بتناسق رائع إلى دولة لا تستطيع استيعاب التنوعات الداخلية إلى حدّ هزَّ الاستقرار بشكل لافت، ومن ثَمَّ بدأت العرقيات المختلفة في التململ، ثم الانقلاب والصدام الداخلي، ولا نعني فقط العرقيات غير المسلمة؛ كالتي في اليونان وبلغاريا وصربيا.. وغيرها، بل إن الخلافة العثمانية فشلت في استيعاب العرقيات المسلمة كالعربية والكردية.. وغيرها، ثم زاد الأمر تعقيدًا بصدامات خارجية متتالية مع إنجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا، فكان الانهيار!

وما قلناه عن الدولة الرومانية والخلافة العثمانية يمكن أن نقوله عن الاتحاد السوفيتي الحديث، بل إن الاتحاد السوفيتي كان أظهر في تعديه على المشتركات الإنسانية، وخاصة المشترك الأسمى، وكذلك المشتركات الإنسانية العامة، ونتيجة هذا التعدِّي على قمة المشتركات كان سقوطه مروعًا ومفاجئًا.

إذًا تُوَضِّح لنا النظرية سببًا قويًّا من أسباب قيام أو سقوط الأمم، وهو قدرة الأُمَّة أو فشلها في التعامل مع المشتركات الإنسانية..

ونعود إلى «السلم الحضاري» وتصنيف الحضارات إلى تعارفية في الدرجتين الأعلى، ثم الانغلاقية في الدرجتين الأوسط، ثم التصادمية في الدرجتين الأدنى..

إننا في هذا السلم الحضاري، وبعد أن ذكرنا دور التعارف أو التصادم في قيام أو بناء الأمم يمكن أن نتصوَّر قيام الأمم على أنه صعود في السلم الحضاري، ونتصوَّر سقوط الأمم على أنه نزول في السلم الحضاري، وهذا يعني أن الأُمَّة الواحدة يمكن أن تُرْصَد مرَّة في المرحلة التعارفية، ومرَّة في المرحلة الانغلاقية، ومرَّة في المرحلة التصادمية، وعلى هذا فليست هناك أُمَّة تبقى أبد الدهر في إحدى هذه الدرجات، بل إن التقلب بين أنواع الحضارات هو سُنَّة ماضية من سُنَنِ الكون، كما أن الارتقاء والهبوط للأمم سُنَّة ماضية كذلك، وهذا ما نقرؤه في قول الله تعالى:

﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ولنراجع معًا هذا التصور..

كيف قامت الدولة الإسلامية الأولى التي أنشأها رسول الله ﷺ؟

لقد كان العرب قبل الإسلام أُمَّة تصادمية على المستويين الداخلي والخارجي، فكان يُغِير بعضهم على بعض، ويأكل القوي منهم الضعيف، ولا كرامة لعاجز، ولا حرية لعبد، بل وكانت هناك صدامات داخلية كثيرة؛ كالتي كانت بين الأوس والخزرج، أو بين بني هاشم وبني مخزوم، حتى وصل الأمر إلى أن قال قائلهم[1]:

وَأَحْيَانًا عَلَى بَكْرٍ أَخِينَا ... إِذَا مَا لَمْ نَجِدْ إِلاَّ أَخَانَا

فهذه حضارة لا وزن لها تقبع في ذيل السلم الحضاري..

ثم كانت البعثة النبوية، وبدأ تأسيس نواة الدولة من مجموعة من المسلمين داخل مكة المكرمة، وهذه مرحلة الحضارة الانغلاقية، والتي عكف فيها الرسول ﷺ على تربية النواة الأولى للدولة، ولم يسعَ بشكل حثيث للخروج من مكة أو إقامة علاقات تعارفية مع الخارج..

ثم تطوَّر الأمر إلى تكوين حضارة تعارفية على المستوى الداخلي في المدينة المنورة؛ حيث وَحَّد رسول الله ﷺ بين الأطياف المختلفة والأعراق المتعدِّدة، بل والعقائد المختلفة.. وَحَّد كل ذلك في كيان ناشئ جديد اسمه «الدولة الإسلامية»، ويضمُّ في داخله مسلمين ويهودًا ومشركين، ويضمُّ مهاجرين قرشيين عدنانيين، وأنصارًا أوسًا وخزرجًا قحطانيين، ويضمُّ عربًا وغير عرب، كما يضمُّ الأغنياء والفقراء، والرجال والنساء، والكبار والأطفال، وكلٌّ يجد نفسه دِعامة للدولة، وبلغ التعارف والتعايش ذروته بمسألة المؤاخاة المشهورة.

ثم تطوَّر الكيان الجديد مع الوقت حتى دخل في مرحلة التعارف الخارجي؛ أي: مرحلة الحضارة التعارفية الأعلى التي تنجح على المستويين الداخلي والخارجي، وهذه قمة السلم

---

(١) البيت للقطامي، وهو لقب غلب عليه، واسمه عمير بن شيم، وهو شاعر إسلامي مُقِلّ، وكان نصرانيًّا فأسلم، وكان فحلاً في الشعر، رقيق الحواشي، كثير الأمثال. انظر: ديوان الحماسة ١/ ١٢٨، المبرد: الكامل ص١٧، المرزوقي: شرح ديوان الحماسة ١/ ١٠٤.



الحضاري، وفيها راسل رسول الله ﷺ ملوك العالم وتعارف عليهم.

إن ما حدث مع دولة رسول الله ﷺ ما هو إلاَّ نموذج لقيام الحضارات.. وقد حدث هذا على المساحة الصغيرة التي كان يعيش فيها رسول الله ﷺ، لكن هذا النموذج قابل للتطبيقات مع كل الكيانات، الكبرى منها والصغرى كذلك.

فالصعود بإيجاز هو صعود من حضارة تصادمية إلى حضارة انغلاقية، ثم إلى حضارة تعارفية داخليًّا ثم خارجيًّا.. هكذا تُبْنَى الأمم..

وأمَّا السقوط فعكس ذلك! تفقد الأُمَّة القوية قدرتها على التعارف الخارجي، ثم تفقده على المستوى الداخلي، ثم تدخل في مرحلة التقوقع والانغلاق، وتكون النهاية بصدام خارجي وداخلي يُفَتِّت الأُمَّة إلى شراذم..

ولنأخذ مثالاً على ذلك من سقوط دولة عبد الرحمن الناصر[١] رحمه الله وابنه الحكم بن عبد الرحمن الناصر[٢]..

لقد كانت هذه الدولة في مجدها من أعظم دول العالم، إن لم تكن أعظمها مطلقًا، وكانت لها القدرة الكاملة على التعارف العالمي، والتواصل مع كل ملوك الأرض وشعوبها، وكانت كذلك مستقرَّة داخليًّا، ومتمتعة بدرجة كبيرة من التعارف الداخلي بين أطيافها المختلفة.. (من ٣٠٠ إلى ٣٦٨هـ)..

ثم تقلَّصت هذه العلاقات التعارفية تدريجيًّا، بل وتقلَّصت على المستوى الداخلي، ودخلت الدولة في طور «الحضارة الانغلاقية»، وهي الفترة التي عُرفت في التاريخ بعهد

---

(١) عبد الرحمن الناصر: هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد الأموي (٢٧٧- ٣٥٠هـ=٨٩٠- ٩٦١م)، أول من تلقب بالخلافة في الأندلس، بنى مدينة الزهراء سنة ٣٢٥هـ، حكم خمسين سنة وستة أشهر، وقد افتتح سبعين حصنًا رحمه الله. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٦٥- ٢٦٩.

(٢) الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٣٠٢- ٣٦٦هـ=٩١٤- ٩٧٦م): خليفة أموي أندلسي، ولد بقرطبة، وولي الخلافة بعد أبيه سنة ٣٥٠هـ. له جهاد وفتوحات، وكان عالمًا بالدين ملمًّا بالأدب والتاريخ، محبًّا للعلماء يستحضرهم من البلدان النائية، فيستفيد منهم ويحسن إليهم، جمَّاعًا للكتب، فقيل: إن مكتبته بلغت ٤٠٠,٠٠٠ مجلد. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٦٨- ٢٧١، الزركلي: الأعلام ٢/ ٢٦٧.

الدولة العامرية نسبة إلى محمد بن أبي عامر[(١)] (٣٦٨-٣٩٩هـ)..

ثم أخيرًا دخلت في مرحلة التصادم غير السوي؛ سواء على مستوى الخارج، أو حتى الداخل، فتَفَتَّت الدولة إلى دويلات كثيرة متصادمة لا وزن لها، وهو العهد الذي عُرف بعهد «ملوك الطوائف» (٣٩٩ إلى ٤٧٩هـ).

لقد انتقلت الحضارة من المرحلة التعارفية إلى الانغلاقية ثم التصادمية.. وهذا هو سقوط الأمم!

وبالطبع فليس الصعود أو الهبوط حادًّا كما قد يتصوَّره القارئ؛ فالانتقال من مرحلة إلى أخرى لا يعني أن الحضارة انتقلت كلية دون أي رواسب أو بقايا.. بمعنى أن الحضارة يمكن أن تنتقل من الحالة التعارفية إلى الانغلاقية، لكن يظلُّ لها بعض العلاقات التعارفية، ويظلُّ في قصتها بعض الصور التي تدلُّ على التعارف الإيجابي، وقد يكون على العكس فيها بعض صور التصادم إلى جوار التعارف.. فحديثنا هنا عن الصورة «الأغلب»، التي تكون عليها الحضارة، وعادة لا تكون هذه الصورة خالصة تمامًا.

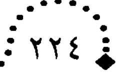
وعامل الزمن وإن كان مهمًّا في الصعود والهبوط، أو القيام والسقوط، إلاَّ أنه ليس هو العامل الأهم والأعظم، فقد تبقى أُمَّة في إحدى المراحل فترة طويلة جدًّا قد تصل عشرات أو مئات السنين! وقد تتجاوز إحدى هذه المراحل في سنوات قليلة.

مما سبق يتبيَّن لنا أننا يمكن أن نرصد أُمَّة من الأمم في أي حالة من الحالات الحضارية الثلاث الذي ذكرناها؛ ومن ثَمَّ فنحن لا نستطيع أن نحكم حكمًا إجماليًّا على حضارة من الحضارات، إنما نحكم عليها في زمن معين، وقد يتغيَّر حكمنا عليها في زمن آخر، وهي قد تتحرَّك من النقيض إلى النقيض، وليس الخلافة العباسية في زمان هارون الرشيد[(٢)] كالخلافة

---

(١) محمد بن أبي عامر: هو محمد بن أبي عامر المعافري القحطاني (٣٢٦- ٣٩٢هـ= ٩٣٨- ١٠٠٢م)، كان حاجبًا للخليفة هشام المؤيد بن الحكم المستنصر، فحكم بنفسه، غزا بضعًا وخمسين غزوة لم يهزم فيها مرة واحدة، وكان آية من آيات الله في الكفاءة والذكاء والهمة والطموح. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٢٣.

(٢) هارون الرشيد: هو أبو جعفر هارون الرشيد (١٤٩-١٩٣هـ=٧٦٦-٨٠٩م)، الخليفة العباسي الخامس، وهو من أشهر ملوك الإسلام وأعلاهم ذكرًا وأعظمهم، كان يحج سنة ويغزو سنة، ولم يُرَ خليفة أجود منه. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٨٦- ٢٩٥.



العباسية في زمان المستعصم بالله(١)، وليس التتار في عهد جنكيز خان(٢) هم التتار في عهد بركة خان(٣)!

***

تحدَّثنا في الصفحات السابقة عن أمور كثيرة جدًّا انبثقت من النظرية؛ مثل: تعريف الهوية، والشعوب، والحضارات، وقيام الأمم وسقوطها.. وغير ذلك من معانٍ تُغَيِّر من مسار الإنسانية كلها.. إنها أمور يمكن أن تسعد البشر أيما سعادة، ويمكنها كذلك -إن لم يُنْظَر إليها- أن تشقى البشر كل الشقاء!

هذه التغيرات الكونية من ارتقاء وهبوط، ومن قيام وسقوط لحضارات ودول، ولشعوب وأمم.. هذه التغيرات الهائلة.. من أين تبدأ؟!

إن من أعجب العجب أنها تبدأ من جزء صغير لا يزيد حجمه عن قبضة اليد! وهذا الجزء هو القلب!

وأنا لا أسعى في هذا الكتاب إلى طرح أفكار روحية لا يقتنع بها عامة البشر، إنما أناقش هذا الأمر مناقشة علمية، يجتمع عليها المسلمون والنصارى واليهود، بل ويجتمع معهم على هذه المعاني أتباع الديانات الوضعية والملاحدة.

إنها نظرية صيغت لتقارب شعوب الأرض مهما اختلفت عقائدهم وأعراقهم.. ومن هنا فإنني لا أسعى إلى مناقشة الفرق بين القلب والعقل، ولا أسعى إلى تعريف تشريحي

---

(١) المستعصم: المستعصم بالله عبد الله بن منصور بن محمد (٦٠٩- ٦٥٦هـ= ١٢١٢- ١٢٥٨م) آخر خلفاء الدولة العباسية في العراق، ولي الخلافة والدولة في شيخوختها، وكان اعتماده على ابن العلقمي الوزير الخائن أحد أسباب انهيار دولته، ثم مقتله على يد هولاكو، وبموته انتهت الدولة العباسية. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٧٤- ١٨٤.

(٢) جنكيز خان: هو تيموجين بن يسوكاي بهادر (٥٤٩- ٦٢٤هـ= ١١٥٥- ١٢٢٧م)، واحد من أقسى الغزاة الذين ابتليت بهم البشرية، وأكثرهم سفكًا للدماء، وإقامة المذابح لآلاف من النساء والولدان والشيوخ، وهو مؤسس الإمبراطورية المغولية، التي أسقطت الخلافة العباسية، ودُفن في منغوليا، وخلفه على الإمبراطورية ابنه «أوكتاي».

(٣) بركة خان: هو السلطان بركة خان بن جوجي بن جنكيز خان (٦٥٤- ٦٦٤هـ= ١٢٥٦- ١٢٦٦م)، ابن عم هولاكو، سلطان القبيلة الذهبية وأول حكامها اعتناقًا للإسلام. حارب بني جنسه المغول لأجل بني دينه، استطاع أن يكسر هولاكو في أكثر من معركة، وكانت بينه وبين الظاهر بيبرس مراسلات وهدايا.



فسيولوجي لهذه الأعضاء، إنما القلب الذي أقصده، قد يكون هو العقل في فلسفات أخرى.. فالمهم هو الوصول إلى المراد، والمراد هو: لماذا يختار الإنسان التعارف أحيانًا؟ ولماذا يختار التصادم أحيانًا أخرى؟ ولماذا يشيع «الحب» في مجتمع؟ ولماذا تشيع «الكراهية» في مجتمع آخر؟ وأين يتَّجه البشر إذا تحابوا؟ وأين يتَّجهون إذا تباغضوا؟

إنها وقفة مهمة لا بد لكل عقلاء العالم وعلمائه ومفكريه أن يقفوها مع شعوبهم، ولو أدركت الشعوب هذه المعاني، لتغيَّر شكل الأرض كثيرًا!

ماذا يحدث في القلب؟

إنه يحدث نزاع دائم بين رغبتين.. أما الرغبة الأولى فهي رغبة تبحث عن الخير، والخير المقصود هو خير عام، للإنسان ولمن حوله من البشر، ومن ثَمَّ فهذه الرغبة تدفعه إلى البحث عن خير نفسه، وكذلك عن خير الآخرين، أو حسب ما تناولناه في النظرية تبحث هذه الرغبة عن «المصلحة المشتركة»! وعلاقة المصلحة المشتركة هذه علاقة خَيِّرَة، وليست علاقة شريرة كما يظن البعض، فهي ليست علاقة «مادية»، إنما علاقة «واقعية»، بل إنني أراها علاقة «أخلاقية»، فما الضير أن أبحث عن مصلحتي؟! لكن شريطة ألا أضرَّ بمصالح الآخرين، ومن هنا يمكن أن أفهم حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه للمؤمنين: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**»[1]. وليس المقصود هنا النفع الأخروي فقط، بل اللفظ عام، ويشمل نفع الدنيا والآخرة، لكننا نفهم هذا الحديث في ضوء التوجيه القرآني الجامع الذي قال فيه الله ﷻ: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [البقرة: ١٩٠]، وفي ضوء قوله تعالى: ﴿**وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ**﴾ [القصص: ٧٧]، فالحرص على ما ينفعني لا بد أن يكون مقرونًا بعدم الاعتداء على حقوق الآخرين، ويكون مقرونًا كذلك بعدم الفساد في الأرض.. وهذه هي المصلحة المشتركة التي أعنيها.

فهذه هي رغبة الخير في القلب..

تتنازع مع هذه الرغبة في القلب رغبة أخرى شريرة، تدفع الإنسان إلى البحث عن

---

(١) مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله (٢٦٦٤) عن أبي هريرة، وابن ماجه (٧٩)، وأحمد (٨٧٧٧)، والبيهقي (٢٠٦٦٨).

مصلحته الذاتية دون النظر إلى مصالح الآخرين، وهذا هو المذهب النفعي البراجماتي الذي نرفضه كلية..

وهاتان الرغبتان موجودتان في قلوب كل البشر!

بل إنني أزعم أنه ليس هناك قرار، أيًّا كان هذا القرار صغيرًا أو كبيرًا، إلاَّ ويؤخذ بعد النزاع بين هاتين الرغبتين في القلب! لأنه ما من عمل يعمله الإنسان إلاَّ ويتأثر به غيره، سلبًا أو إيجابًا.

بل أكثر من ذلك قد ينظر الإنسان إلى منفعته الأخروية، فيضرُّ بمصالح الآخرين الدنيوية، فلا يرضى الله ﷻ عن هذا الاختيار، الذي ضحَّى فيه العبد بمصالح الناس، حتى ولو كان العمل تعبديًّا أخرويًّا بحتًا!

ولعلَّ في قصة سلمان الفارسي[١] ﷺ مع أبي الدرداء[٢] ﷺ ما يُفَسِّر لنا ذلك الأمر، فقد انتهى الموقف بتقرير حقيقة أقرَّها رسول الله ﷺ، وهذه الحقيقة هي: «**إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**»[٣]. فمع أن أبا الدرداء ﷺ كان مشغولاً بعبادة الله ﷻ من صيام وقيام، إلاَّ أنه ليس مسموحًا له أن يُضَيِّع حقَّ الزوجة ولا حقَّ الأولاد، ولا حق الضيف.. ليس مسموحًا له أن

---

(١) سلمان الفارسي: هو أبو عبد الله سلمان الفارسي، صحابي جليل، يُعرف بسلمان الخير مولى رسول الله ﷺ، سئل عن نسبه فقال: أنا سلمان ابن الإسلام. أصله من فارس من رامهرمز، وقيل من أصفهان، وهو من أشار على رسول الله بحفر الخندق لما جاءت الأحزاب سنة ٥هـ، قال فيه الرسول: «سلمان منا أهل البيت». توفي سنة ٣٦هـ= ٦٥٦م. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٤٨٧ - ٤٩٢.

(٢) أبو الدرداء: هو عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري (ت ٣٢هـ=٦٥٢م) صحابي، أسلم يوم بدر وشهد أُحدًا وأبلى فيها، وكان فقيهًا عاقلاً حكيمًا، آخى رسول الله ﷺ بينه وبين سلمان الفارسي، ولاَّه معاوية قضاء دمشق في خلافة عمر. انظر: ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٧٤٧، وابن الأثير: أسد الغابة ٦/ ١٠٤ - ١٠٥.

(٣) آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: إن أخاك أبا الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. قال: فلما جاء أبو الدرداء قرَّب إليه طعامًا، فقال: كُلْ. قال: فإني صائم. قال: ما أنا بآكل حتى تأكل. قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم، قال له سلمان: نَمْ. فنام، ثم ذهب يقوم، فقال له: نَمْ. فلما كان عند الصبح، قال له سلمان: قُم الآن. فقاما فصلَّيا، فقال: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ». فأتيا النبي ﷺ فذكرا ذلك، فقال له: «صَدَقَ سَلْمَانُ». البخاري: كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له (١٨٦٧)، والترمذي (٢٤١٣) عن ابن أبي جحيفة واللفظ له.

يبحث عن مصلحة فردية ذاتية - ولو كانت أخروية- دون أن يُراعي مصالح الآخرين.. إنما كان عليه أن يبحث عن «المصلحة المشتركة» التي تُحَقِّق نفعًا للجميع.

إذًا هناك «صراع قلبي» بين رغبتين أصيلتين: مصلحه مشتركة أم مصلحة ذاتية.. ماذا يحدث في المجتمع والعالم إذا تغلَّبت إحدى الرغبتين على الأخرى؟!

تعالوا نتتبَّع سلسلة الأحداث عند غلبة إحدى الرغبتين..

إذا انتصرت رغبة الخير، وبدأ الإنسان الخيِّر يبحث عن «المصلحة المشتركة»، فإنه لا بد أن يبحث عن آليات «التعارف» مع هذا الشريك، الذي سيتبادل معه المصلحة، فلا يمكن أن أُحَقِّق مصلحة مشتركة مع أحد إلاَّ إذا «عرفتُ» كيف يفكر، وماذا يريد، وما طموحاته، وما مصالحه، وما مخاوفه، وما فكرته عني، وما أخلاقيات التعامل في أعرافه وتقاليده.. إنه تعارف كامل يُتيح للإنسان -لو كان صادقًا في رغبته- أن يُحَقِّق مصلحته ومصلحة الآخرين؛ أي: المصلحة المشتركة..

وكلما زاد التعارف قوة، زاد تحقيق الهدف نجاحًا؛ أي: زاد تحقيق مصالح مشتركة أكثر وأكثر..

والعلاقة في الوقت نفسه تبادلية؛ بمعنى أنه كلما زاد تحقيق المصالح المشتركة زادت الرغبة في توثيق التعارف؛ وذلك بحثًا عن نتائج إيجابية أكثر وأكثر.. أي: أن التعارف يزيد المصالح المشتركة نجاحًا، والمصالح المشتركة تزيد التعارف نجاحًا! إنها إذًا دائرة مغلقة! وهي ما أسميها «بالدائرة النبيلة»!

فإذا استمرَّت هذه «الدائرة النبيلة» فترة من الزمان، وترسَّخ عند الطرفين ثقة في صدق النوايا، وتحققت مصالح كثيرة، وتم التعارف بشكل أوثق وأعمق، فإن عنصرًا ثالثًا، غير التعارف والمصلحة المشتركة، يدخل في «الدائرة النبيلة».. وهذا العنصر هو «الحب»!

فالإنسان بشكل عامٍّ لا يحب مَنْ يجهله، ولكي تحب إنسانًا لا بد أن تعرفه، بل لكي تحب «الله» لا بد أن تعرفه؛ لذلك نجد في القرآن الكريم ذكر الصفات الكثيرة الجليلة لله ﷻ حتى «يحبه» خلقه، وهكذا نجد -أيضًا- في كل الأديان السماوية أو الوضعية، فلن يحب الإنسان



أحدًا إلاَّ إذا عرفه.. والحب ثمرة طبيعية للتعارف، وكلما ازداد التعارف قوَّة، زاد الحب عمقًا.. وكم من البشر كنا نكرههم لاختلاف في المناهج والأفكار والعادات.. وغير ذلك، فلمَّا «تعارفنا» عليهم وجدنا فيهم بذور خير كثيرة لم نكن «نعرفها»، فانقلبت كراهيتنا إلى حب، وعداوتنا إلى صداقة!

واللطيف أن هذا الحب المتزايد يدفع إلى بحث عن مصالح مشتركة أكثر وأكثر؛ لأن الإنسان يحب المصلحة والخير لمن أحبَّ، وهو مصداق للقاعدة التي قرَّرها رسول الله ﷺ حين قال: «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[1].

وهذا يعني أن «الدائرة النبيلة» أصبحت ثلاثية! البحث عن المصلحة المشتركة يدفع إلى التعارف، والتعارف يورث الحب، والحب يدفع إلى مصالح مشتركة أكثر، فتدفع المصالح المشتركة الإنسان إلى تعارف أكثر، وهكذا!

فإذا دارت هذه «الدائرة النبيلة» فترة من الزمان بشكلها الجديد، وازداد الحب في القلب ازديادًا حقيقيًّا دون تكلف ولا اصطناع، دخل عنصر رابع في الدائرة، وهو عنصر الكرم! ولا يدخل هذا العنصر السامي في الدائرة إلاَّ إذا كان الطرفان محافظين تمامًا على كل المشتركات الإنسانية بينهما..

والكرم هو عطاء بلا مقابل.. فهنا يُصبح أحد الطرفين على استعداد أن يُعطي الطرف الثاني أكثر مما يستحق، لا لشيء إلاَّ لأنه يحبه حبًّا جمًّا!

هذا خلق سامٍ -لا شكَّ- يجعل العلاقة رائعة وممتعة، ويُصبح البحث عن مصالح مشتركة أمرًا فطريًّا تمامًا وتلقائيًّا، فأنت لو تعاملت بكرم مع أحد الأطراف، فإنك تأسره بهذا الكرم، ومِن ثَمَّ سيبحث هذا الطرف عن مصالح مشتركة جديدة مع هذا الكريم، والمصالح المشتركة ستدفع إلى تعارف، ثم إلى حب، ثم من جديد إلى كرم..

فإذا استمرَّت هذه «الدائرة النبيلة» فترة أطول من الزمان، وأصبح الكرم عنصرًا أصيلاً

(١) البخاري: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه... (٤٥) عن أنس بن مالك.



فيها، فإنه قد يدخل فيها عنصر خامس وأخير، وهو في الحقيقة نادر، وهو عنصر «الإيثار»! والإيثار خلق عجيب، حيث يرتقي فيه الإنسان إلى سموٍّ نادر، يُشجعه على العطاء للآخرين حتى لو تسبب هذا العطاء في ضرر ذاتي له! والإيثار بهذا يختلف كثيرًا عن الكرم؛ فالكريم يُعطي من فضل ماله وملكه للآخرين دون مقابل، أمَّا في الإيثار فالمعطي هنا يُعطي من المال أو الملك الذي يحتاجه، فهذا عطاء ينفع الآخرين، ويضرُّه هو!

وإذا كنا قلنا: إن الكريم يأسر الناس بكرمه، فما بالكم بالذي يُؤْثِر الناس على نفسه؟! إنه ما من شكٍّ أن الجميع سيسعى إلى التعامل معه، والتعارف عليه، وتقوية العلاقة به، وسيُصبح شكل الأرض مختلفًا، وستكتمل «الدائرة النبيلة»، وتسعد الدنيا باكتمالها! **(انظر: شكل رقم ٦ الدوائر النبيلة)**.

هذا كله يحدث إذا غَلَّب الإنسان رغبة المصلحة المشتركة، وهي رغبة الخير في قلبه، على رغبة المصلحة الذاتية، دون النظر إلى مصالح الآخرين، وهي رغبة الشرِّ في القلب..

فماذا يحدث لو غَلَّب الإنسان رغبة المصلحة الفردية؟ ولم ينظر إلى المصالح المشتركة مع البشر؟ وماذا سيكون شكل الأرض حينئذٍ؟

إن نظر الإنسان إلى مصلحته الفردية دون النظر إلى مصالح الناس سيؤدي لا محالة إلى «التصادم»، فكما ذكرنا قبل ذلك أنه ليس هناك قرار يأخذه إنسان إلاَّ ويتأثر به غيره، فلو لم «يحرص» الإنسان على تجنب الضرر للآخرين فإنه -أي الضرر- سيقع بهم على وجه التأكيد.

وإذا وقع الضرر على الناس، بمعنى إذا تعدى أحد على المشتركات الإنسانية التي ذكرناها في النظرية، فإنه لا شكَّ سينتفض لذلك، ويحدث الصدام.. ولو تكرَّر الأمر، ووقع ضرر جديد، وبحث الإنسان نفسه عن مصلحته الفردية دون مراعاة مصالح الآخرين، فإن الصدام سيتكرر..

وتكرار الصدام سيؤدي إلى تحدٍّ وعنادٍ عند الطرف الأول، ومن ثَمَّ يعود مرة ثانية للبحث عن مصلحته الفردية بشكل أكبر غير مكترث بالصدام وآثاره، وهذا بلا ريب سيزيد من وتيرة الصدام.. وهكذا وهكذا حتى ندخل فيما أسميه «بالدائرة الخبيثة»! وهي دائرة

مصلحة فردية
مصلحة مشتركة

١
مصلحة مشتركة
تعارف

٢
تعارف
حب
مصلحة مشتركة

٣
حب
تعارف
كرم
مصلحة مشتركة

٤
كرم
حب
تعارف
إيثار
مصلحة مشتركة

الدائرة النبيلة

شكل رقم (٦)



مغلقة كذلك، مثل الحالة التي رأيناها في الدائرة النبيلة.. فالبحث عن المصلحة الفردية يؤدي إلى تصادم، والتصادم يستفز الآخرين للبحث عن المصلحة الفردية بشكل أكبر، فيدفع هذا إلى صدام جديد.. وهكذا.

فإذا استمرت هذه الدائرة الخبيثة فترة من الزمان، وصار الصدام متكرِّرًا، وحدث اعتداء متزايد على المشتركات الإنسانية التي ذكرناها في النظرية، فإن عنصرًا ثالثًا يدخل في الدائرة، وهو عنصر الكراهية!

فمن البدهي أن الصدام المتكرِّر، وخاصة إذا كان نتيجة التعامل مع أشخاص أنانيين لا ينظرون إلا لمصالحهم، لا بد أن يؤدي إلى بغض وكراهية، وفي هذا الجو من الكراهية لن يبحث أحد عن المصالح المشتركة أبدًا، بل سيترسخ عند الناس البحث عن المصالح الفردية، ومن ثَمَّ يزيد الصدام، وكذلك الكراهية.. وهكذا، فإذا استمرت هذه «الدائرة الخبيثة» في الدوران دون أن يقطعها عاقل أو مصلح أو حكيم، دخل في الدائرة عنصر رابع هو البخل!

والبخل خلق ذميم، فيه يضنُّ الإنسان بما يملك عن المحتاجين، حتى لو كان هذا الذي يملكه فائضًا عليه، أو غير محتاج إليه.. وهو من أسوأ الأخلاق؛ لأنه يمنع خيرًا عن الناس، في حين أن هذا الخير لا يضرُّه..

والتعامل مع البخلاء أمر بشع، ويكرهه عامة الخلائق، فظهور مثل هذا الخلق يدعو الناس إلى التنافر والتباعد، وهنا لن يبحث أحد إلاَّ عن مصلحته الفردية فقط، وهذا سيزيد وتيرة الصدام، فتزداد الكراهية، ويزداد الناس بالتبعية بخلاً!

فإذا استمرَّت «الدائرة الخبيثة» أكثر وأكثر، وعَمَّ البخل في المجتمع، وسادت أجواء التباغض والتشاحن، دخل عنصر خامس قاتل في الدائرة، وهو كفيل بتدمير أي مجتمع، وبنسف أي حضارة، وهو عنصر «الحسد»!

والحسد أشدُّ من البخل ضررًا بالمجتمع؛ فالبخيل يمنع ما يملكه من خير عن الناس، حتى لو لم يكن هذا الخير يضرُّه هو، أمَّا الحسود فهو يتمنى زوال النعمة عن الناس، حتى لو لم يكن له هو علاقة بالأمر! وهذا من أبشع الأخلاق.. وهو مهلك للفرد والجماعة.. ومجتمع

ساد فيه الحسد لن تُوجد فيه أي مصالح مشتركة من أي نوع، ولن يبحث فيه الناس إلاَّ عن المصلحة الفردية، وسيتكرر فيه الصدام، وتنتشر الكراهية، ويسود البخل، ومن جديد يتكرَّر الحسد..(**انظر: شكل رقم ٧ الدوائر الخبيثة**).

إنها دائرة شيطانية خبيثة، تهلك الأمم، وتُسقط الحضارات..

فأي الدوائر نُريد؟

إمَّا دائرة نبيلة، وإمَّا دائرة خبيثة، وليست هناك دائرة ثالثة!

وما قلناه في هذه الفقرات عن قلب الإنسان وما فيه من رغبات، ينطبق تمامًا على الشعوب والحضارات.. فما هذه الشعوب ولا تلك الحضارات إلاَّ مجموعة من الأفراد.. فإذا غلب على قوم حبُّ الخير والبحث عن المصالح المشتركة، فإنهم يلجئون إلى «التعارف»، الذي يقود إلى الحب فالكرم ثم الإيثار.. وإذا غلب على قوم حبُّ الشرِّ والأثرة، فإنهم يبحثون عن مصالحهم الفردية، ومن ثَمَّ يلجئون إلى «التصادم»، والذي يقودهم إلى الكراهية فالبخل ثم الحسد.

والإنسان هو الذي يختار في النهاية..

فماذا تُريد أيها الإنسان؟ وما شكل الحياة التي تتمناها؟!

* * *

تمثِّل الكلمات والألفاظ والمصطلحات دورًا كبيرًا في إيصال المعاني إلى الناس، ومن البلاغة أن يختار الإنسان اللفظ المناسب، حتى ولو كان له عشرات المترادفات، ولقد اشتهر بين الناس أن العرب كانوا يُطلقون على الشيء الواحد أسماءً كثيرة جدًّا، قد تتجاوز المئات أحيانًا! ولكن فاتهم أن يذكروا أن هذه التعريفات العربية الكثيرة للشيء الواحد لم تكن أبدًا متساوية، بمعنى أن كل تعريف له دلالاته الخاصة، وليس مساويًا تمامًا للتعريف الآخر، فعلى سبيل المثال نحن نقرأ قول الله ﷻ: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤].

مصلحة مشتركة
مصلحة فردية

١
مصلحة فردية
تصادم

٢
تصادم
كراهية
مصلحة فردية

٣
كراهية
بخل
مصلحة فردية
تصادم

٤
بخل
حسد
مصلحة فردية
تصادم
كراهية

الدائرة الخبيثة

شكل رقم (٧)





ونقرأ قوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، فيظن البعض أن الكلمتين مترادفتان، ويظهر ذلك بوضوح عند الترجمة؛ ففي اللغة الإنجليزية -مثلاً- نجد أن هذه الكلمة قد تُرجمت في الحالتين إلى «Creator»، بينما الحقيقة أن كل كلمة لها دلالتها الخاصة، ومعناها اللغوي العميق، والفرق الطفيف الذي بينهما ما قد يحدث أثرًا مختلفًا تمامًا عند السامع، خاصة إن كان عليمًا باللغة وأسرارها.. [(١)].

وما قلناه على اللغة العربية نقوله كذلك على اللغات..

ومن ثَمَّ كان لزامًا على المفكرين والفلاسفة أن يُراعوا هذا جيدًا عند إطلاق المصطلحات التي تُعَبِّر عن أفكارهم؛ لأنه كثيرًا ما يخالف التعبير اللغوي ما يقصده المفكر والفيلسوف، فيحدث خسارة من حيث يرجو الربح، ويحقق ظلالاً سلبية، بينما كان الغرض السير بإيجابية نحو معنى معين.. ولا بأس بالعودة إلى علماء اللغة المتخصصين، وإشراكهم في مثل هذه المسائل حتى تخرج الكلمة معبِّرة تعبيرًا دقيقًا عن كوامن نفس العلماء والمفكرين..

قَدَّمْتُ هذه المقدمة لأتناول بالنقد مصطلحًا صار شائعًا بين العلماء والمفكرين، المهتمين بقضايا التواصل بين الشعوب، والحوار بين الحضارات، ومع أَنِّي على يقين أن الذين استخدموا هذا اللفظ يريدون معاني إيجابية في هذا الشأن، وتحمل كتبهم مضامين رائعة في التواصل، إلاَّ أن دلالات المصطلح قد تكون مغايرة تمامًا للمقصود، ومن ثَمَّ رأيتُ أنه من الواجب -في ظلال النظرية- أن نقف عنده ونحلله.. وهذا المصطلح المقصود هو مصطلح «الآخر»!

لقد تداول كثير من العلماء المهتمين بقضايا التواصل والحوار بين الشعوب هذا اللفظ معبِّرين به عن الشعوب التي نرغب في التواصل معها، ولعلَّه يذكر في كلماته كل التقدير والاحترام له، لكنه نسي أنه من البداية يُعَرِّفه على أنه «آخر»!

وكلمة «الآخر» بدلالاتها اللغوية المعروفة توحي بالمغايرة والاختلاف، فنحن شيء، وهم شيء «آخر»، وهذا من البداية يضع حواجز بين الفريقين.. حتى لو كانت هذه الحواجز لا شعورية، أو غير متعمدة..

---

(١) راجع في ذلك كتاب الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص٤٠٧.

ونحن في نظريتنا هذه أثبتنا أن الاشتراك بين البشر كبير جدًّا ومتعدد، وأن معظم هؤلاء «الآخرين» مثلنا، وأن أوجه التشابه لا حصر لها، وذلك على كل المستويات الفكرية والاجتماعية والدينية والحياتية.. وغيرها، فلماذا الحديث عن غيرنا من الشعوب والحضارات على أنه «آخر»؟!

إنني -انطلاقًا من النظرية- أُرَشِّح مصطلحًا بديلاً أراه مناسبًا عند الحديث عن الحضارات أو الشعوب أو الأفراد، والذين لا يُكَوِّنُون جزءًا من مجتمعاتنا، إنما ينتمون إلى مجتمعات غيرنا، وهذا المصطلح البديل هو: «الشريك»!

فواقع الأمر أن أي إنسان هو شريك لغيره من البشر في هذه الحياة، وأي شعب هو شريك للشعوب الأخرى على هذا الكوكب، وهذه الشراكة هي التي تُعَمِّر الأرض وتُنَمِّيها والكلمة تُلقي بظلالها التعاونية والتواصلية على العلاقات بين الشعوب، وهي تفتح القلوب حتى قبل أن تشرح وتتكلم.. فما أجمل أن تبدأ كلامك بأن هذا الموضوع يخصنا ويخص شركاءنا في الحياة، فكم من جبال الجليد ستذوب، وكم من الحواجز ستسقط عند هذا الاستهلال الهادئ.

ولقد تناولنا في نظريتنا كثيرًا كلمة «المشترك»، وهي ليس تخديرًا للناس، بل هي الحقيقة، فالناس «شركاء» في أمور كثيرة ذكرناها في النظرية، بل إن هذا اللفظ تحديدًا استخدمه رسول الله ﷺ عند حديثه عن العلاقة بين الناس عامة، والذين لا تربطهم ببعضهم البعض روابط دم أو نسب، فقال ﷺ: «**النَّاسُ شُرَكَاءُ فِي ثَلاثٍ: الْمَاءِ وَالْكَلأ وَالنَّارِ**»[(١)].

ولقد بنينا العلاقة السليمة في هذه النظرية على مسألة تحقيق المصلحة «المشتركة»، فهي نوع متواصل من الشراكة مع الناس، وأظهرنا مدى النجاح الذي يحققه المجتمع الذي يُبْنَى على تحقيق المصالح المشتركة، ومدى رقي الحضارات التي تتعامل بهذا المنطلق، ووضح لنا أن الحب والكرم، والإيثار هي النتائج المباشرة لسيادة مبدأ تحقيق المصلحة «المشتركة» في

(١) أورده ابن حجر العسقلاني في بلوغ المرام (٢٧٢) وقال: رجاله ثقات. وهو بلفظ: «المسلمون شركاء...» رواه: أبو داود (٣٤٧٧)، وابن ماجه (٢٤٧٢)، وأحمد (٢٣١٣٢) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والبيهقي (١١٦١٢).

المجتمع، والمصلحة المشتركة تعني شراكة بين اثنين أو أكثر، فصار كل واحد منهم شريكًا لأخيه الإنسان، وليس «آخر» لا نعرفه ولا يعرفنا.

إنني على قناعة تامَّة أن القلوب القاسية قد تلين بكلمة طيبة، وأن الأبواب المغلقة تُفتح بمثل هذه الكلمة، وعلى قناعة كذلك أن كلمة «الشريك» من الكلمات الطيبة التي قد تُوَثِّق العلاقات بين الدول والحضارات، حتى قبل أن يبدأ الحوار!

***

ماذا لو فقه الناس جميعًا هذه النظرية؟!

هل ستنتهي الحروب من الدنيا؟

وهل سيأتي زمان يعمُّ فيه السلام فلا ينقطع؟ وينتشر فيه الأمن فلا يتزعزع؟!

هذا -والله- حلم جميل..

لكنه للأسف لن يتحقَّق!

هل هذا إحباط؟ أم هو تشاؤم؟

إنه ليس هذا ولا ذاك..

إنه واقعية!

إن الشرَّ لن ينتهي من الدنيا، وسيظل هناك أناس يُقَدِّمون مصلحتهم الفردية على مصالح العالمين، وسيظل هناك مَنْ يسعى للتصادم، ويزرع الكراهية، مهما تكلَّم الوعاظ والمصلحون، ومهما اجتهد المفكرون والمنظِّرون..

إنها سُنَّة من سنن الكون لن يخرج منها البشر إلاَّ بنهاية الدنيا، بل إن الواقع يشهد أن الأحوال تتجه إلى الأسوأ، وقد فَصَّلنا ذلك في فصل الطريق إلى الهاوية، فمعنى ذلك أننا سنرى في المستقبل حروبًا كثيرةً على الرغم مما ذكرناه في النظرية، وعلى الرغم من أننا نحسبه مقنعًا، ولكن السنن الكونية لا تتبدَّل ولا تتغيَّر لمجرد أننا «نحلم» بمجتمع جميل لا شقاق



فيه، و«نحلم» بأرض سعيدة لا تشهد حروبًا!

أعلم أن هذا كلام قد يُحبط البعض، ولكني أقوله على الرغم من آلامه؛ لكي نتعامل معه تعاملاً واقعيًا صحيًّا، ولا تكون ردود أفعالنا وهمية أو مَرَضِيَّة..

ماذا سيفعل هؤلاء الأشرار؟! الراغبون في الصدام والساعون إليه؟

إن الطمع والجشع يعمي الأبصار؟ فلا يكترث هؤلاء بمصالح الناس، ولا بآمالهم، ولا بآلامهم، ومن ثَمَّ يتعدون على المشتركات الإنسانية، وهي أمور -كما ذكرنا- فائقة الأهمية لكل إنسان، ولكل أُمَّة، ولكل حضارة، فعند التعدي عليها لا بد أن تنشأ حرب، ولا بد أن يحدث صدام..

وأنت أيها الإنسان الطيب!

ماذا لو تعدى أحد الظالمين على أحد حقوقك في الحياة؟

ماذا لو تعدى أحدهم على أحد المشتركات الإنسانية العشرين التي ذكرناها في هذه النظرية؟

هل الخُلق الحميد يفرض عليك أن تحلم عليه؟ وأن تتركه يعبث بمقدَّراتك ومقدَّرات أُمَّتك؟ أم أن الخلق الحميد هنا يفرض عليك أن تقاتله؟ وأن تقف في وجهه؟ وأن تحمي حقوقك وحقوق أُمَّتك؟ وأن تدافع عن المشتركات الإنسانية التي وهبها الله لك؟

إنني أرى أن الحرب في هذه الحالة ضرورة!

بل إنني أسميها «الحرب النبيلة»!

وهذا أمر منبثق -أيضًا- من النظرية..

فالحرب النبيلة -في تعريفي- هي الحرب التي يقوم بها الإنسان -أيّ إنسان- دفاعًا عن المشتركات الإنسانية العشرين، إذا تعدَّى عليها أحد..

أما الحرب الخبيثة فهي الحرب التي يتعدَّى بها أي إنسان على أحد المشتركات الإنسانية

العشرين لأي بشر على وجه الأرض!

وفي مقابل الحرب الخبيثة لا بد أن تُوجد حرب نبيلة..

والخبيث هو من بدأ، والنبيل هو مَنْ يَرُدُّ العدوان..

وقد استنكر الله عَجَّلَ على المسلمين تردُّد بعضهم في قتال مَنْ تعدى على مشتركاتهم الإنسانية فقال: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٣]،إن الكلام في منتهى الوضوح.. لقد تعدَّى هؤلاء القوم على بعض المشتركات الإنسانية فكان لا بد من القتال..

تَعَدَّوْا على خُلق الأمانة فخانوا العهد، وخُلق الأمانة من الأخلاق الأساسية، وهي من المشتركات الإنسانية العامة.

وتَعَدَّوْا على الاحتياجات الأساسية للرسول القائد ﷺ، أو لأي إنسان في الأُمَّة الإسلامية، فهَمُّوا بإخراجه من داره وأهله وماله في المدينة، بل فعلوا ذلك من قبلُ عندما أخرجوه وأصحابه من مكة المكرمة، والاحتياجات الأساسية من المشتركات الإنسانية العامة، بل إنهم تَعَدَّوا على المشترك الأسمى، وهو العقيدة، ففتنوا المسلمين عن دينهم.

ثم الأوضح من ذلك والأجلى أنهم هم الذين بدءوا الصدام: ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾..

إن الذي بدأ القتال هو الأخبث.. والنبيل هو مَنْ يُقاومه..

وليس في الشرائع السماوية ما يدعو أتباعها أن يبدءوا الناس بالحروب، حتى لو كان الناس على غير دين الله عَجَّلَ، وحتى لو كانوا يشركون معه غيره، ويكفرون به، أو حتى يُنكرون وجوده! وما أعظم ما قاله فقهاء المالكية والحنفية والحنابلة، من أن مناط القتال هو الحرابة والمقاتلة والاعتداء وليس الكفر، فلا يُقتل شخص لمجرَّد مخالفته للإسلام، إنما يقتل لاعتدائه على الإسلام، وغير المقاتل لا يجوز قتاله، وإنما يلتزم معه جانب السلم[1].

الحرب النبيلة إذًا هي حرب الدفاع عن المشتركات الإنسانية..

---

(١) الشوكاني: فتح القدير ٤/ ٢٩١، والإمام مالك: المدونة الكبرى ٣/ ٦.

بل إن الرسول ﷺ يرفع كثيرًا من أجر من حارب هذه «الحرب النبيلة»!

فلم تَعُد القضية مجرَّد «جواز» له أن يقاتل، بل إنه يرفعه لدرجة الشهداء، وهي درجة سامية سامقة في الإسلام، فقال ﷺ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[(١)].

فهذا الشهيد دافع في كل مرَّة عن شيء من المشتركات الإنسانية، فهو في الأُولَى يدافع عن ماله؛ أي: عن مشترك التملك وهو من المشتركات الإنسانية العامة، والثانية يُدافع عن دينه، وهو المشترك الأسمى، وفي الثالثة والرابعة يدافع عن حياته وحياة أسرته وهو من المشتركات الإنسانية العامة، وفي ذلك يُدافع عن كرامته، وعن حريته، وهما كذلك من المشتركات الإنسانية العامة؛ فهو في كل هذه الحالات محقٌّ في حربه، نبيلٌ في مقصده، ولو قُتِلَ صار شهيدًا..

بل إن رسول الله ﷺ يُوسع دائرة الدفاع عن المشتركات الإنسانية في لفظ جامع شامل فيقول: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[(٢)].

وهو هنا لا يشير فقط إلى التعدي على خلق «العدل»، وهو من الأخلاق الأساسية في المشتركات الإنسانية العامة، بل يشير إلى التعدي على أي مشترك من كل المشتركات التي أشرنا إليها في النظرية؛ لأن أي تعدٍّ على هذه المشتركات يُعتبر ظلمًا، والتصدي لهذا التعدي شرف، والدفاع عن المشترك نبل..

وماذا لو لم يتحرَّك «النبلاء» للدفاع عن مشتركاتهم؟

وماذا لو آثروا الدعة والسكون؟ أو آثروا السلامة والعافية؟!

إن الفساد حينئذٍ ينتشر في الأرض!

---

(١) الترمذي: كتاب الديات، باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد (١٤٢١) عن سعد بن زيد، وقال الترمذي: حديث حسن. وأبو داود (٤٧٧٢)، والنسائي (٤٠٩٥)، وأحمد (١٦٥٢).

(٢) النسائي: كتاب تحريم الدم، باب من قتل دون ماله (٤٠٩٣) عن أبي جعفر، و(٤٠٩٦) عن سويد بن مقرن، وأحمد (٢٧٨٠) وقال شعيب الأرناءوط: حسن لغيره وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح إلا أنه منقطع. وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٦/ ٣٦٦.

إنه لا بد للظالم من نبيل يردعه، ولا بد للحق من نصير يظهره، ولا بد للأرض من كريم يصلحها، ولا بد للأمانة من حفيظ يحملها.

بغير هذا تفسد الأرض!

وهذا ما ذكره الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]..

من فضل الله على العالمين أنه خلق نبلاء يقفون في وجه الظالمين.

ولو اختفى هؤلاء النبلاء من حياة البشر في مرحلة من مراحل التاريخ، فإنها تكون مرحلة سوداء كئيبة على الإنسانية، وهذا ما يُصَوِّره رسول الله ﷺ حين يقول بعد أن نَبَّه على اللعنة التي أصابت بني إسرائيل لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «**كَلاَّ والله لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ**[1] **عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ يَلْعَنُكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ**»[2].

إن المرحلة التي تسكت فيها الإنسانية على تعدِّي الظالمين على المشتركات الإنسانية، هي مرحلة كئيبة تستحقُّ اللعنة من رب العالمين!

***

هل أنا أناقض نفسي بالكلام الذي ذكرتُه عن الحرب النبيلة؟!

هل فهم أحد أن مقصود النظرية هو إقرار السلام بين الشعوب مهما كان الثمن؟

هل أنا أشجع النبلاء على الحرب في وقت تحتاج الأرض فيه إلى السلام؟!

وهل من الأولى أن نبحث عن السلام في وقت يبحث فيه أصحاب المصالح الفردية عن الصدام؟

إنني أُجيب عن هذه الأسئلة بأنني أريد سلامًا قويًّا وليس هشًّا، وأريد سلامًا دائمًا وليس

(١) لتأطرنه؛ أي: لتردُّنَّه على الحق، وأصل الأطر العطف والتثني. العظيم آبادي: عون المعبود ١١/ ٣٢٧.

(٢) أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٣٧)، والطبراني: المعجم الكبير ١٠/ ١٤٦ (١٠٢٩٠) عن ابن مسعود واللفظ له، وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ١٦/ ٢٠.

مؤقتًا، وأريد سلامًا عادلاً وليس ظالمًا.

هذا هو السلام الذي أريده، ومن أجله وضعتُ النظرية..

السلام هو اتفاق بين طرفين أو أكثر، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يكون من طرف واحد، والسلام لا يمكن أن يستمرَّ إلا إذا حقق مصالح مشتركة للطرفين، والسلام لا يمكن أن يكون عادلاً إذا صاحبه تعدٍّ على أحد المشتركات الإنسانية..

إنه نوع من الهراء والسفاهة أن تدعو المظلوم إلى الجلوس مع الظالم؛ لإقامة علاقة سلام مع «بقاء الوضع على ما هو عليه»!

إن الحقوق لا تسقط بالتقادم، وإن سياسة الأمر الواقع التي ينتهجها الخبثاء والأشقياء هي سياسة لا يمكن أن يدوم معها سلام..

إذا أردنا أن نُقيم علاقة سلام قوية فالبداية هي إعادة «كل» الحقوق إلى أصحابها، ثم بعدها نجلس جلسة واضحة للبحث عن المصالح المشتركة، أمَّا إعادة بعض الحقوق دون الأخرى، أو إهمالها بالكلية، فهذا يقتل السلام في مهده!

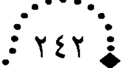
إذا فقهنا ذلك أدركنا أن كثيرًا من دعوات السلام في العالم هي في الأصل دعوات خبيثة لا تهدف في الواقع إلى سلام حقيقي، إنما هي تهدف إلى ترسيخ الظلم، ونصرة الظالم، وطحن المظلومين وسحقهم، وهذا لا يمكن أن يكون سلامًا، إنما هو صدام في ورق سوليفان!

ولقد جلس عدد من كبار العلماء في العالم يبحثون عن إمكانية السلام في العالم، وذلك في مدينة إشبيلية بإسبانيا في سنة ١٩٨٦م، وأصدروا بيانًا عُرِف ببيان إشبيلية قالوا فيه: «السلام ممكن، والحرب ليست حتمية بيولوجية، لكنها ابتكار اجتماعي يجب أن يترك مكانه لابتكار السلام»[1].. وهي غاية نبيلة سعى إليها هؤلاء العلماء، ولكن لي استدراكان على هذا البيان..

أمَّا الاستدراك الأول فهو أنهم لم يُعَرِّفوا السلام المقصود، فكان السلام الذي يُريدون، هو وضع الحرب والامتناع عنها فقط، ولم يُشيروا إلى أن عدم إرجاع الحقوق إلى أصحابها هي

---

(١) ديفيد أدمز: بيان إشبيلية عن العنف، التمهيد لبناء السلام، منشورات المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو – باريس ١٩٨٩م، ص٧، ٨.



حالة «لا ينبغي» أن يكون فيها سلام..

وأمَّا الاستدراك الثاني فهو قولهم: إن الحرب ليست حتمية بيولوجية. وأنا أقول بناء على استقراء التاريخ، وكذلك الواقع: إن الحرب للأسف الشديد حتمية بيولوجية! لأنه -كما ذكرت آنفًا- سيظل هناك من البشر مَنْ يُرَجِّح مصلحته الفردية على مصالح الناس، ومَنْ يسعى إلى الاعتداء على المشتركات الإنسانية، فبيولوجيًّا لن يقبل الإنسان الطبيعي بهذا، ومن ثَمَّ ستقوم «الحرب النبيلة»، و«يتحتَّم» الصدام!

هل يعني هذا أنني أشتهي الحرب؟!

أبدًا؛ ليس الأمر كذلك، فإنني على العكس من ذلك تمامًا..

إن من أسعد الفترات التي تمر على البشرية هي الفترات التي تنعم فيها بسلام حقيقي؛ يُعيد «كل» الحقوق إلى أصحابها.. نعم هي فترات قليلة، لكنها فترات سعيدة، وصياغة النظرية تدعو إلى إطالة هذه الفترات، وإلى البحث عنها حال غيابها..

ولكنني في الوقت نفسه أمقت تخدير الشعوب، وأبغض خداعها؛ ولذلك فأنا أرفض الوعود الكاذبة التي تهدف إلى تركيع الشعوب الضعيفة، وأرفض كذلك الآمال الوهمية، التي يتعلق بها المساكين لعلَّ الأقوياء يتصدقون عليهم بلحظة سلام!

دعوني أكن واضحًا جدًّا في هذه النقطة..

لا يقوم سلام حقيقي -في معظم الأحوال- بين قوي وضعيف! إن النوازع الشريرة تتغلَّب على قلوب معظم الناس إذا رأوا ضعيفًا مستكينًا؛ ومن ثَمَّ يطغى القوي ويتكبَّر، وخاصة لو كان مفرطًا في القوة، وكان الضعفاء مفرطين في الضعف.

نعم هناك في التاريخ مَنْ كان قويًّا جدًّا، ومع ذلك لم يطغَ على حقوق الضعفاء، ولكن هذه أمثلة نادرة لا يمكن أن نُؤَسِّس عليها نظرية، أو نبني عليها منهجًا..

لا يقوم السلام إلاَّ بين أنداد!

وويل للضعيف لو جلس على مائدة سلام مع قوي، خاصة إذا كان القوي لا يحتكم إلى خلق أو فضيلة..



ولذا فأنا أنادي في هذه النظرية أهل الأرض جميعًا.. وأقول لهم: كي تحظوا بالسلام الذي تريدون لا بد أن تكون لكم القدرة على الدفاع عن مشتركاتكم الإنسانية، ومن هنا فالسعي لإعادة القوة الرادعة ليس في الحقيقة سعيًا للحرب، إنما هو سعي للسلام.. وهو مفهوم دقيق يحتاج إلى تفصيل أكثر، ولعلي أفرد له كتابًا مستقلاً، إن شاء الله..

***

أتدرون ما أسوأ شيء في هذا الموضوع؟!

أن يلتقي «النبلاء» مع «نبلاء آخرين» في صدام قد لا ينتهي!

لقد تحدَّثنا في الفقرات السابقة عن مفهوم «الحرب النبيلة»، وقلنا: إنه إذا تعدَّى ظالم على أحد المشتركات الإنسانية نتيجة نوازعه «الشريرة» وطبيعته الأنانية، فإن الطرف المعتدى عليه من حقِّه أن يُحارب، وتُصبح حربه في هذه الحالة حربًا نبيلة.. لكن ماذا لو كان الطرفان يبحثان عن العدل وعن الحق، لكن «ظن» كل طرف منهما أن غيره قد ظلمه وتعدى عليه فقام يقاتل؟

إنه أحيانًا -ليست بالقليلة- يكون الطرفان نبيلين، لكن تحدث الحرب، بل وقد تكون حربًا شديدة يسقط فيها صرعى كثر، ويعتقد كل فريق أن قتلاه شهداء!

كيف يحدث هذا؟!

يمكن أن يحدث لأسباب كثيرة..

يمكن أن يكون هناك اختلاف في «الاجتهاد»، فهذا فريق مصلح يُريد أن يُصلح إلى الحق فاجتهد اجتهادًا ما، وهذا فريق آخر -قد يكون على درجة الصلاح نفسها- اجتهد لكي يصل إلى الحق في القضية نفسها فسلك طريقًا معاكسًا! وقد يحدث الصدام بين الفريقين ليصل كل واحد منهما إلى الحقِّ الذي يُريد، وكل منهما يرى أن حربه نبيلة، ويعجب للفريق الآخر كيف لا يتبين الهدى!

هذا يحدث كثيرًا، وإن شئتم فراجعوا قصة الصدام بين فريقين من أصحاب رسول الله



ﷺ، كل منهما كان يرى نفسه على الحقِّ[(١)]، وكل منهما لا يرى بأسًا مطلقًا في أخلاق الفريق الآخر، ولكن هذا لم يمنع من الصدام!

وقد يكون السبب في الصدام بين النبلاء هو سوء الفهم لحدث ما، فقد لا يقصد طرف مطلقًا أن يجرح مشاعر الآخر، أو يهين كرامته، أو يتعدى على مشتركاته الإنسانية، لكن سوء التأويل لبعض الأحداث العادية، والتضخيم لبعض الأحداث البسيطة قد يكون وراء صدام كبير.

وقد يكون السبب هو دسُّ الأشرار لمكيدة توقع الصدام بين نبيلين، وكثيرًا ما يحدث هذا في التاريخ والواقع، ولعلَّ مراجعة قصة «شاس بن قيس» وكيف فرَّق بين الأوس والخزرج، وكاد أن يُوقع بينهما صدامًا مؤلمًا.. لعلَّ مراجعة هذه القصة كفيل بإيضاح المعنى[(٢)].

وقد يكون السبب معلومة خاطئة وصلت إلى أحد الفريقين، ولم يُحسن التثبُّت منها، فيهبُّ طرف نبيل للصدام مع طرف نبيل آخر، لهذه الشائعة الكاذبة، ولهذا يقول الله ﷻ في كتابه: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾** [الحجرات: ٦].

وقد يكون السبب جهلًا بالدين أو العقيدة، فيعتقد نبيل أن دينه يأمره بالصدام مع المخالفين، ويُؤَوِّل الأحكام تأويلاً خاطئًا؛ ومن ثَمَّ يحمل سلاحه ويقاتل قومًا قد يكونون في غاية النبل، أو على الأقل ليسوا أشرارًا، وهو بذلك يتقرَّب إلى الله، ويبحث عن الحق، ويدافع عنه..

بل إن هذه الأنواع من الصدام كثيرًا ما تحدث في الأُمَّة الواحدة بين نبلاء يُريدون جميعًا غاية واحدة، ولكنهم اختلفوا في الوسائل! ولعلَّ من أبرز الأمثلة على ذلك ما نشاهده كثيرًا من صراع بين التيارات الإسلامية المختلفة في داخل الأُمَّة الإسلامية؛ بين جماعات من النبلاء، كلهم يبحث عن الخير، وكلهم يُريد نشر الدين، وكلهم يبغي إرضاء الله، ولكن في

(١) أقصد الفتنة التي دارت بعد قتل عثمان بن عفان ﷺ، وانقسم فيها الصحابة إلى فريقين كبيرين، والقصة مشهورة.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٩٤.

ظلَّ سعيهم وراء هذه المعاني «النبيلة» يصطدمون بغيرهم من النبلاء!

كيف الخروج من هذه المآزق؟

إنني أرى أنه لو كانت كل هذه الأطراف نبيلة، ونواياها حسنة، فإن حلَّ القضية يكون في «الحوار الهادئ»، وفي هذا الحوار سيبحث المتحاورون أول ما يبحثون عن المشتركات الإنسانية الكثيرة التي تجمعهم، وذلك قبل الحديث عن نقاط الاختلاف، وعند رؤية هذا الاشتراك الهائل مع المتحاورين في أمور لا حصر لها ستخفُّ وتيرة الصدام جدًّا، وفوق ذلك فإننا في هذا «الحوار الهادئ» سنعرف المعلومة الصحيحة، وسنفهم التأويل السليم، وسنُبعد الوسطاء الأشرار؛ لنسمع القضية من أصحابها، ونفهم الحجَّة من المدافعين عنها..

عندئذ يمكن أن يقف الصدام بين النبلاء!

***

من وحي الكلمات والمعاني السابقة، ومن خلال قناعتي أن الحرب للأسف الشديد حتمية كونية، ليس لأنها جميلة أو رائعة، ولكن لأنها قد تكون أحيانًا وسيلة وحيدة للدفاع عن المشتركات الإنسانية، وفي الوقت نفسه هي حتمية؛ لأن البشر دائمًا يعتريهم نقص وقصور، وبالتالي لن ينتهي من العالم سوء التفاهم، وخطأ التأويل، وغياب المعلومة، وسوء الاجتهاد، وغير ذلك من أمور تدفع إلى حروب وصدامات، هذا كله فضلاً عن حتمية بقاء الشر في الدنيا، ووجود أناس يُرَجِّحون دومًا مصالحهم الذاتية على مصالح البشر..

من وحي هذه الكلمات، وهذه القناعات لا بُدَّ أن أطرح للنقاش -في ظلال هذه النظرية- مسألة جدلية بين العلماء؛ لنحاول أن نُقَدِّم فيها رؤية جديدة..

والمسألة في غاية الدقة والحساسية!

هل الأصل أن العالم في حالة استقرار تتخلَّلها مراحل انتقالية مؤقتة من الفوضى والاضطراب؟ أم أن العالم في حالة اضطراب تتخللها أحيانًا مراحل استقرار وهدوء؟

أهي حالة سلام وأمان تتخللها حرب؟ أم حالة حروب وصدام يتخللها سلام؟



إن السؤال في غاية الدقة.. وهو يُعَبِّر عن قصة الإنسان في الأرض، وفي الوقت نفسه يُعَبِّر عن سلوكياته وطبائعه وغرائزه وميوله.. وقد نحتاج للإجابة عن هذا السؤال لعلماء في عدَّة مجالات كالتاريخ والاجتماع والأنثروبولوجيا والنفس والدين.. وغير ذلك..

البعض يرى أن الأصل هو الاستقرار؛ مثل المفكر وليام هايلاند[1] (William Hyland)، وأن الاضطرابات هي مجرَّد استثناءات ثم لا تلبث أن تعود الأمور إلى الاستقرار[2].

وآخرون يرون أن الأصل في الأمور هو الفوضى؛ وأن العالم في خلال هذه الفوضى قد ينعم ببعض لحظات السلام..

وأنا -وإن كنتُ أقف موقفًا متوسطًا بين الرأيين- إلا أنني أميل نسبيًّا إلى الرأي الثاني!

إننا إذا نظرنا نظرة سريعة على تاريخ الدنيا؛ سواء التاريخ القديم أو الحديث، وكذلك إذا نظرنا للواقع، اكتشفنا أن قصة الإنسان في الأرض تشهد الصراعات والصدامات في معظم فتراتها.. واكتشفنا -كذلك- أن معظم الأقوياء من الأشخاص أو الحضارات يطغون على حقوق الآخرين، وحيث إنه لا بُدَّ من وجود أقوياء في كل مرحلة من مراحل الحياة، فلا بُدَّ إذًا أن يوجد طغيان وعدوان! واكتشفنا أن معظم شعوب الأرض تقاوم المصلحين بها! وأن غالب مَنْ يقول كلمة الحق يتعرَّض للإيذاء!

هذه قراءات صادقة للتاريخ والواقع.. وهي وإن كانت مُرَّة، إلا أنها حقيقة..

نعم هناك فترات يظهر فيها مصلحون، ونبلاء يُعَدِّلون المسار، ويأخذون البشرية إلى مرحلة الراحة والسكون والعدل والرحمة، لكن تظلُّ هذه المراحل الهائنة فترات محدودة في داخل الصراع الطويل.. وراجعوا قصص الأنبياء والمرسلين؛ لتروا مدى التكذيب والإعراض مع أن رسالاتهم كانت نبيلة، وحججهم كانت قاهرة، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا

---

(١) وليام هايلاند William Hyland (١٩٢٣م-..): تخرج في كلية الحقوق بجامعة بنسلفانيا، وهو محامٍ ومفكر سياسي أميركي، شغل منصب النائب العام في ولاية نيوجرسي.

(٢) William Hyland, Du Pragmatisme en Politique etrangere, Dialouge, no. 98 (avril 1992).P. 69.

مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزخرف: ٦، ٧].

لا.. إنها نظرة واقعية!!

وهل إذا كان الأصل هو الاضطراب فلا داعي إذًا للإصلاح؟

مرة ثانية: لا.. إنما على المصلحين والنبلاء أن يُضاعفوا جهودهم، ويُكَثِّفوا نشاطهم لتقليل الاضطراب، وتوسيع دائرة السلام والأمان..

إنني لا أدفع المصلحين إلى السكون والاستسلام، بل إلى الحركة والمقاومة..

ولكنني مع هذه النظرة -التي تبدو مظلمة- أرى بصيصًا رائعًا من النور في ثنايا الظلام! وهو أن هذه الحالة من الاضطراب والفوضى «ذاتية الوقوف».. بمعنى أنها تحمل في ثناياها بذور الاستقرار والأمان؛ بحيث نطمئن إلى أن الاضطراب والعنف مهما استمرَّا وطالا لا بد لهما من نهاية واستقرار! وهذا يدعوني إلى إدخال مصطلح - أحسبه جديدًا - وهو مصطلح «الفوضى المنظمة»!!

إن حالة الفوضى والاضطراب التي نراها هذه تتبع في الحقيقة نظامًا ثابتًا في الكون لا يتغيَّر، وبتعبير القرآن فهذه «سُنَّة» من سنن الكون؛ قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٦٢].

وهذا النظام الدقيق يقضي بأن هذه الاضطرابات المتزايدة تقود بدورها إلى حالة من الاستقرار فيما بعد.. فكيف يحدث ذلك؟!

إن هذه الاضطرابات تنشأ غالبًا -كما ذكرنا- نتيجة وجود أقوياء لا ينظرون إلى أية أبعاد أخلاقية، فيمارسون الطغيان على حقوق البشر.. وكلما ازدادوا قوة ازدادوا انهيارًا في الأخلاق، وازدادوا طمعًا وجشعًا.. وكلا الأمرين من مهلكات الأمم؛ فالأمم التي انهارت أخلاقها تتفسَّخ تلقائيًّا، وتبدأ في السقوط، والأمم التي زاد جشعها وطمعها تتوسع بما لا يتناسب مع إمكانياتها، وتدخل في مرحلة من الكِبر الذي يعمي أبصارها؛ وبالتالي تبدأ في السقوط والفشل..

إذًا هذا الانهيار الخلقي وهذا الطمع يقودان ذاتيًّا إلى «تقليص» القوة الهمجية، التي

طغت ونشرت الفساد، وبالتالي يُفْسَح المجال «تلقائيًا» إلى ظهور قوة جديدة تُحْدِث توازنًا واستقرارًا..

وهذا ما قصدته بمصطلح «الفوضى المنظمة»!

فنَعَمْ الأصل أن حالات الفوضى كثيرة وطاغية، إلاَّ أن نظام الحياة والكون وطبائع الأشياء تقضي بأن هذه الفوضى تقف ذاتيًّا مع مرور الوقت؛ ومن ثَمَّ فهي تتبع «نظامًا» ثابتًا.. هل معنى هذا أن «ننتظر» حتى تتوقَّف الفوضى ذاتيًّا، فلا داعي لإرهاق أنفسنا بالإصلاح؟

ليس هذا هو المقصود بالطبع.. إنما المقصد ألاَّ يُحبط المصلحون والنبلاء من رؤية طغيان القوة، بل عليهم مضاعفة الجهد حتى تأتي بالسلام أسرع، وحتى يدوم في عالمنا فترة أطول، وهذا في حدِّ ذاته من آليات «النظام» الذي يُفضي إلى توقُّف «الفوضى»!

***

يقولون: إن إبداع الإنسان لا يظهر إلاَّ في وجود عدوٍّ! وإن الإنسان لذلك «يحتاج» إلى أعداء كما يحتاج إلى أصدقاء[1]!

وأنا أريد أن أُعيد صياغة هذا المفهوم وفق النظرية لنُحَقِّقَ النفع الأمثل للبشرية.. حيث أرى أن الإنسان الطبيعي لا يحتاج إلى «عدو»، إنما يحتاج إلى «منافس»، فضلاً بالطبع عن احتياجه إلى «شريك».

إن حاجتنا «للشريك» مفهومة، فنحن نتعاون معًا في شراكة إيجابية لتحقيق مصلحة مشتركة مفيدة للطرفين، و«الشريك» قد يرتفع إلى درجة «صَدِيق» تبثُّ له أسرارك، وتشكي له همومك، وتحكي له أخبارك، ويقف إلى جوارك في الأزمات، وتُرَوِّح معه عن نفسك، وغير ذلك من منافع تتحقَّق بوجود «الصديق».

أما «المنافس» فشيء آخر!

إننا نحتاج حقيقة إلى من يتسابق معنا في أحد الميادين؛ حتى نُبْدِعَ في هذا الميدان، ولن

---

(١) هذه الفكرة منتشرة في كثير من الكتابات الفلسفية الغربية، وهي تشكل الأساس الفكري الذي وقفت وتأسست عليه نظرية «صدام الحضارات» التي وضعها هنتنجتون«.

يُطَوِّر الإنسان نفسه بالقدر المطلوب إلاَّ إذا رأى تطوير غيره من البشر، وعند ذلك تتحرَّك دوافع المنافسة في قلبه فيُبدع أكثر، ويُجَمِّل أكثر في إنتاجه..

نرى ذلك في عالم التجارة، ونراه في عالم الإعلام، ونراه في عالم العلاقات، ونراه في أكثر وجوه حياتنا..

حتى إننا نراه في عالم العبادة!

فوجود أمثلة تنافسية تتسابق معك إلى مرضاة الله تدفعك إلى زيادة التعبُّد، ومحاولة التفوق والإبداع؛ ولذلك قال الله ﷻ عندما ذكر أمر الجنة التي أعدَّها للمؤمنين به: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، فالأمر ليس مستهجنًا، بل هو في الواقع مطلوب.

لكن المشكلة الكبرى أن يتحوَّل التنافس إلى صراع وصدام؛ ومن ثَمَّ ينقلب المنافس عدوًّا، وقد يحدث هذا – للأسف- مع النبلاء، فيكون سببًا مؤلمًا للصدام يُضاف إلى ما ذكرناه من أسباب في الفقرة السابقة.

وما حلُّ هذه المشكلة؟!

إنني أطرح هنا حلاًّ قد يراه البعض وهميًّا أو «خرافيًّا»، لكن لا أراه طبيعيًّا وحقيقيًّا فقط، بل أراه بدهيًّا ومنطقيًّا!

وهذا الحلُّ هو: لماذا لا نبحث جميعًا عن «عدو مشترك»؟!

إن الإنسان مجبول على التحدِّي وحبِّ الانتصار، والنبلاء يُوَجِّهون هذه الرغبة في ناحية «التنافس» الشريف، لكن كثيرًا ما ينقلب إلى تنافس عدواني يُؤَدِّي إلى صدام، وهذا مرجعه إلى أن الإنسان بداخله طاقات عنيفة نسبيًّا تحتاج إلى إخراج، وقد اعترف علماء الأخلاق بهذه الطاقات؛ فأطلقوا عليها «الأخلاق السبعية»[1] نسبة إلى حيوان السبع -أي الأسد- وفيها قد يصل الأمر إلى رغبة في «افتراس» غيره!

إذا كان الأمر كذلك، وإذا كان الإنسان لا بُدَّ أن يتحدَّى، ولا بُدَّ أن ينتصر، ولا بُدَّ أن

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ١/ ٤٩، وابن القيم: مدارج السالكين ١/ ٩٦.

يُخرج طاقته العنيفة، فلماذا لا يفعل كل ذلك مع «عدو مشترك»، بدلاً من فعله مع النبلاء الشركاء في الكون؟!

لكن من هذا «العدو المشترك» الذي نقاتله جميعًا؛ ومن ثَمَّ لا نجد حاجة لقتال بعضنا البعض؟!

الأشرار يختارون قومًا معينين، أو حضارة من الحضارات، أو شعبًا من الشعوب، ليفعلوا معه ذلك، ويجعلونه عدوًّا لأُمَّتهم؛ ومن ثَمَّ يُفرِّغُون فيه طاقتهم السبعية!

لكن هذا عكس ما ننادي به في النظرية من نبذ الصدام، وتشجيع التعارف والسلام؛ ولذلك فإنني أقترح على النبلاء عدوًّا مشتركًا جديدًا!

وهذا هو «الشيطان»!

وأنا أعلم أن بعض العلمانيين واللادينيين قد يرون في هذا الطرح سخفًا، وقد يعتبرونه استخفافًا لا يليق بعقولهم، ذلك أنهم «لا يَرَوْنَ الشيطان»! لكني أودُّ أن أناقش بهدوء هذه المسألة، وسيكون من ورائها – فيما أراه – خير كثير.

أكثر من نصف سكان الأرض «يعتقدون» اعتقادًا جازمًا بوجود الشيطان وجودًا ماديًّا، وليس معنويًّا، وهؤلاء الذين يعتقدون هذا الأمر هم أتباع الديانات السماوية المختلفة، وهو من التفصيلات التي يَتَّفِقُون عليها في المشترك الأسمى «العقيدة»؛ ففي القرآن يقول الله ﷻ على سبيل المثال: ﴿**وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ**﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فهو كيان حقيقي يتكلَّم ويَعِدُ ويُغوي، وفي العهد الجديد (الإنجيل) نجد: «فَطُرِحَ التنين العظيم، الحية القديمة المدعو إبليس والشيطان، الذي يُضل العالم كله، طُرِحَ إلى الأرض، وطُرِحَت معه ملائكته»[(١)]. وفي العهد القديم (التوراة) نجد: «قال الرب للشيطان: لينتهرك الرب يا شيطان»[(٢)].

بل إن الشعوب الوثنية التي اتبعت أديانًا وضعية، كانت تعتقد هي الأخرى في وجود

---

(١) سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي، ١٢/ ٩، ١٠.

(٢) سفر زكريا، ٣/ ٢.

الشيطان بشكل أو بآخر، ولعلَّ هذا تسرَّب إليهم من أتباع ديانة سماوية يجاورونها؛ فنجد - مثلاً- أن البابليين كانوا يعتقدون أن الخطيئة لم تكن مجرَّد حالة معنوية من حالات النفس، بل كانت كالمرض تنشأ من سيطرة «شيطان» على الجسم في مقدوره أن يُهلكه(١)!

ويعتقد الزرادشتيون أن هناك صراعًا يدوم اثني عشر ألف عام بين الإله آهور - فردا و«الشيطان» أهرمان(٢).

فالفكرة ليست مستهجنة في ثقافات الشعوب المختلفة، والشيطان عند كل هؤلاء يستهدف إيذاء الإنسان وإغواءه.

بل إن القرآن الكريم ينادي البشر جميعًا أن يجعلوا الشيطان عدوًّا لهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٥- ٦].

ولعلنا نلاحظ في هذا النداء أنه لم يخص أتباع الرسالة الإسلامية، بل جاء النداء بـ«يا أيها الناس» لخطاب كل البشر، وهي دعوة مباشرة بجعل الشيطان «عدوًّا مشتركًا» للإنسانية جميعًا..

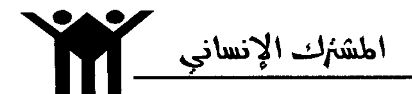
وفي آية أخرى يؤكد على أن الحروب والصدامات بين البشر، وأن النزاعات بين الإنسان وإخوانه على الأرض، إنما هي غاية وهدف عند الشيطان، فيقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ٩١].

فالقضية في العقائد السماوية، وفي بعض الديانات الوضعية واضحة وجلية.. لكن دعوني أوسع الدائرة حتى أشمل كل الإنسانية في مشترك واحد.. ألاَ يقتنع عامَّة الخلق بجميع عقائدهم وثقافاتهم وانتماءاتهم أن «الشرَّ» موجود في الدنيا؟!

أعتقد أن الجميع يعتقدون بوجوده، وأن له أتباعًا ومؤيِّدين، وأن له آثارًا ونتائج.. و«الشر» في معتقد الأديان السماوية قد يأتي من «الشيطان» أو من«الإنسان» نفسه، فيقول الله

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٢٢٦.
(٢) المرجع السابق ٢/ ٤٢٧.



ﷺ مثلاً في القرآن الكريم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وأمَّا اللادينيون، أو أصحاب الديانات الوضعية الذين لا يؤمنون بوجود الشيطان فهم يجعلون «الشرَّ» معنى رمزيًّا يضمُّ كل عمل خبيث أو مفسد في الدنيا..

فليكن إذًا «عدوُّنا المشترك» هو «الشرّ»!!

لن يختلف أحدٌ من النبلاء في العالم -بصرف النظر عن عقيدته- أن «الشرَّ» شيء خبيث يجب أن نحاربه، وأن نُفَرِّغ فيه طاقاتنا الداخلية المحبة للصدام!

لكن تبقى مشكلة قد يطرحها أحد الناقدين للنظرية، وهي أن تعريف «الشرِّ» مختلف من بيئة إلى بيئة، ومن مجتمع إلى مجتمع، ومن ثقافة إلى أخرى، ومن زمن إلى غيره.. فما العمل؟

أقول: إنني أوافق على ذلك تمامًا، وأُدرك إدراكًا أكيدًا أن هناك بعض الأمور التي يراها شعب من الشعوب شرًّا محضًا يراها غيره على أنها من أفضل أنواع الخير، وعلى سبيل المثال فحجاب المرأة الذي يراه اللادينيون والعلمانيون ظلمًا وتقييدًا لها، يراه المسلمون فضيلة عظيمة، وحماية ووقاية وسترًا، وحفظًا للمرأة، بل إن النصرانية واليهودية في حقيقتها ترى ذلك، وإلا فلماذا ترتدي الراهبات اللاتي وهبن أنفسهن لطاعة الإله هذا الزي إن كان اضطهادًا لهن؟!

فهذا أمرٌ حمل دلالتين مختلفتين عند الشعوب العالمية..

أقول: إن هذا فعلاً موجود.

لكن أقول في الوقت نفسه: إن هناك عشرات ومئات الأمور التي يتفق «جميع البشر» على أنها شرٌّ لا بُدَّ من مقاومته.. ويا ليت المفكرين والفلاسفة والمبدعين والعلماء من كل أقطار الدنيا يجتمعون لتحديد «الشرِّ المشترَك» الذي يجب أن يتَّخذه النبلاء من العالم أجمع «عدوًّا مشتركًا».

ألا يتفق علماء العالم على أن المخدرات شرٌّ؟!

ألا يتفقون على أن الأمية والجهل شرٌّ؟!

ألا يتفقون على أن خطف الأطفال وبيعهم في الأسواق شرٌّ؟!

ألا يتفقون على أن القتل والسرقة والاغتصاب شرٌّ؟!

ألا يتفقون على أن الكذب والخيانة شرٌّ؟!

ألا يتفقون على أن إهدار الماء، وتبوير الأراضي، وتسميم البيئة شرٌّ؟!

إن هذه مجرَّد أمثلة لشرور كثيرة تحتاج إلى جهود مضنية لمحاربتها والصدام معها.. ألا ينبغي أن يضع الإنسان -أيًّا كان عرقه، وأيًّا كانت عقيدته- يده في يد أخيه الإنسان ليقاوما هذا العدوَّ المشترك الذي يهدف إلى إيذائهما معًا؟!

إنها دعوة نبيلة في ظلال هذه النظرية أرى أنها ستجمع ملايين البشر في منتدى واحد، وفي اتجاه هدف واحد، سيقاوم الشرَّ في العالم ويُحجِّمه، فضلاً عن أنه سيصرف طاقات النبلاء إلى أعمال الخير والصلاح بدلاً من الصدام مع إخوانهم في الإنسانية!

***

هذه هي نظرية «المشترك الإنساني»!

ولعلَّ الفصول القادمة من هذا الباب تحمل بعض الأدلَّة التي تُوَثِّق كل عنصر من عناصر هذه النظرية.. لكن لا يعني هذا أن النظرية قد أحاطت بكل ما هو مطلوب في هذا الباب.. بل إنني أنظر إليها على أنها حلقة في سلسلة طويلة من الأعمال والدراسات والنظريات، التي استهدفت جميعًا سعادة الإنسان في هذه الأرض، وبحثت عن راحته، واهتمَّت بحقوقه ومطالبه، وسعت إلى الحفاظ عليه وحمايته..

والنظرية في الوقت نفسه قراءة جديدة للقرآن الكريم، وللسُّنَّة النبوية المطهرة، وللتوراة والإنجيل، ولأقوال الفلاسفة والعلماء والمفكرين من شتَّى بقاع الدنيا، وفي كل مراحل التاريخ.. فليس الـمُخْرَج منها هو جهد فرد أو أفراد، إنما هو نتاج جهود البشر جميعًا في فهم كتبهم السماوية، وفي تقييم تجاربهم الإنسانية في الحياة.



وهي في ذاتها استكمال لجهود السابقين من العلماء الأجلاء الذين أبدعوا نظريات وفلسفات تهدف إلى نشر ثقافة السلام، وإلى الحفاظ على الإنسان، وإلى الرحمة به، والعناية بأمره.

ولعلِّي أُشير هنا أنني وجدتُ -على غير اتفاق وترتيب- توافقًا كبيرًا بين نظريتي هذه ونظرية «مقاصد الشريعة»[1] التي تكلَّم عنها أبو حامد الغزالي ﷺ، وتبعه في ذلك خَلق كثير من علماء أصول الفقه وغيرهم.

فمقاصد الشريعة في رؤية الغزالي خمسة؛ هي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.

وقد توافقت معها في قطاع كبير من النظرية؛ حيث إن حفظ الدين تمثَّل عندي في المشترك الأسمى وهو العقيدة، وحفظ النفس والنسل تمثَّل لديَّ في مشترك من المشتركات العامة، وهو مشترك الاحتياجات الأساسية، والذي منها كل شيء يحفظ النفس من الهلاك، ومنها كذلك حفظ الأسرة التي تُعتبر من الاحتياجات الأساسية للإنسان، وأمَّا حفظ العقل فجاء عندي بشكل مباشر في المشتركات العامة، تحت عنوان «العقل»، وأخيرًا حفظ المال رأيناه متمثِّلاً في مشترك «التملك»، وهو من المشتركات الإنسانية العامة في النظرية.

وهذا يعني أن مقاصد الشريعة الخمسة في رؤية الغزالي، ومَنْ وافقه من العلماء، قد استوعبتُها في نظريتي في المشترك الأسمى، وفي بعض المشتركات العامة، والتي أوضحتُ أن التعدِّي عليها يمثِّل جرمًا كبيرًا يقود حتميًّا إلى صدام.

لكنني في الوقت نفسه اختلفتُ مع نظرية مقاصد الشريعة في عدَّة أمور أحسب أن مناقشتها مهمة..

فأنا أرى في هذه النظرية أن مقاصد الشريعة الإسلامية تحديدًا، وكذلك مقاصد الأديان السماوية بشكل عامٍّ، أوسع من هذه المقاصد الخمسة فقط..

فلو قلتَ: إن المقاصد الرئيسة للشريعة هي عبارة عن المشترك الأسمى والمشتركات

---

(١) الغزالي: المستصفى ص١٧٤.

الإنسانية العامة؛ باعتبار أن الإنسان لا يستطيع بحال أن يعيش بدونها، لتبيَّن لنا أن مقاصد الشريعة أكثر من هذه الخمسة المذكورة..

فمن مقاصد الشريعة -مثلاً- موضوع الأخلاق، وخاصة الأخلاق الأساسية، وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ»[1]. فهذا مقصد مباشر صريح في كلامه ﷺ؛ ومن ثَمَّ صار حفظ الأخلاق من مقاصد الشريعة! ومن مقاصد الشريعة -كذلك- تكريم الإنسان، ومظاهره في الشريعة لا تُحصى، وبالتالي يُصبح حفظ الكرامة من مقاصد الشريعة..

ومن المنظور نفسه سنجد أن الشريعة جاءت لتحفظ للإنسان حريته، وعلمه، وعمله..

فهذه خمسة جديدة أُضيفت لمقاصد الشريعة: حفظ الأخلاق، والكرامة، والحرية، والعلم، والعمل. فتُصبح مقاصد الشريعة عشرة!

أعلم أننا من الممكن أن نُدخل هذه الخمسة الجديدة تحت أحد العناوين التي اقترحها الغزالي رحمه الله؛ فيدخل العلم -مثلاً- تحت العقل، ويدخل الخُلق تحت الدين، لكني في الواقع أرى أن هذه الخمسة الجدد كليات كبرى لا ينبغي أن تُذكر كعنوان جانبي تحت عنوان أعمَّ.

بل إنني يمكن أن أقول: إن الشريعة جاءت كذلك لتحفظ «هوية» الإنسان، المتمثِّلة في المشتركات الإنسانية الخاصة؛ فهي تحفظ له أرضه التي يعيش عليها، وتحفظ له عِرْقَه المتمثِّل في أسرته ورحمه وعائلته الصغرى والكبرى، وتحفظ له لغته التي يعتزُّ بها، وغير ذلك من مشتركات.. بل تحفظ له عاداته وتقاليده التي لا تتعارض مع الشريعة، بل أكثر من ذلك تُعتبر هذه العادات والتقاليد جزءًا من الشريعة نفسها، إذا راعت أصول الشريعة ولم تتعدَّ عليها، وهو ما يُعرف في أصول الفقه «بالعُرف».

ولا تعجبوا إن قلتُ: إن من مقاصد الشريعة -كذلك- حفظ المشتركات الإنسانية الداعمة، التي تُرَوِّح عن الإنسان، وتزيل الملل عن قلبه، وتعينه على أداء مهامه الكبرى في

---

(١) الحاكم عن أبي هريرة: كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، من كتاب آيات رسول الله ﷺ التي هي دلائل النبوة (٤٢٢١)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. والبيهقي في سننه الكبرى (٢٠٥٧١).

الدنيا، بشرط ألاَّ تخالف بندًا من بنود الشريعة.

إن مقاصد الشريعة تتَّسع بهذا المنظور حتى تُصبح عشرين! وهي المشتركات التي ذكرتها في النظرية!

ولعلَّ هناك بعض الأسباب التي أدَّت إلى هذا الاختلاف والتباين بين نظرية المشترك الإنساني ونظرية مقاصد الشريعة..

من هذه الأسباب -مثلاً- أن نظرية الفقيه الجليل أبي حامد الغزالي كانت منصبَّة على الجوانب الفقهية، التي يجب أن ينظر إليها الفقيه والحاكم ليُوَفِّرُوها لكل إنسان في المجتمع المسلم، بينما نظرتُ في رُؤيتي إلى الجوانب الإنسانية الأخرى في حياة البشر؛ كالأخلاق والاهتمامات والآمال والرؤى.

ومنها كذلك أنه كان كعادة الفقهاء ينظر إلى الجوانب المادية في نظريته، ولا يشمل في هذه الرؤية الجوانب الروحية، وإن كان الغزالي ﷬ في كتاباتٍ أخرى كثيرة -لعلَّ من أهمها «إحياء علوم الدين»- ينظر إلى الجوانب الروحية والأخلاقية بشمول عجيب، لكنه في النظرة الفقهية يتعامل بطريقة الفقهاء العلمية، فهم حين يتحدثون -مثلاً- عن الصلاة يكون محور اهتمامهم أركانها وسننها ونواقضها، وغير ذلك من أبواب فقهية، بينما لا يشملون رُؤيتهم هذه جوانبَ الخشوع والتفكُّر ورُوح الصلاة، وهل تنهى عن المنكر أم لا؟ وما إلى ذلك من جوانب يهتم به علماء الرقائق والأخلاق.

فهو ليس قصورًا إذًا في رؤيته ﷬، بقدر خدمتها مجالاً محددًا، بينما تخدم نظريتي مجالاً أوسع..

ومن أسباب الاختلاف -أيضًا- أن الغزالي ﷬ كان ينظر في هذه الرؤية إلى الفرد في الأساس، وليس إلى المجتمع، ولم يُعَلِّق على المجتمع كثيرًا معتمدًا على أن صلاح الفرد سيُؤَدِّي إلى صلاح المجتمع، لكن الواقع أن هناك بشرًا كثيرين يكونون على حالة من الانضباط الفردي الشديد، لكنهم لا يُحسنون التعامل مع حقوق الآخرين؛ ومن ثَمَّ فالنظرة إلى المجتمع لا بُدَّ أن تكون واضحة في الرؤية.. وأنا في نظريتي لم أنظر إلى المجتمع المسلم



فقط، بل نظرتُ إلى كل مجتمعات الإنسانية، ولم يكن همي هو علاقة المسلم بأخيه المسلم فقط، ولا حتى علاقة المسلم بغير المسلمين في مجتمعه، بل كان همي هو علاقة المجتمعات الإنسانية ببعضها البعض، حتى إنني كثيرًا ما خرجتُ عن المجتمعات الإسلامية كلية، وضربت الأمثلة من تعاملات مجتمعات غير مسلمة مع مجتمعات أخرى غير مسلمة كذلك، فلم تكن مساحة نظريتي هي الأُمَّة الإسلامية، ولكن مساحة النظرية كانت تشمل الأرض بكاملها..

وأخيرًا فإن الإمام الغزالي ﵀ كان ينطلق من الشريعة الإسلامية فقط، وهذا رائع -لا شكَّ- عند الحديث عن الفقه الإسلامي والأحكام داخل الأُمَّة الإسلامية، لكنني -ولكوني أتعامل مع قضية إنسانية عالمية- حرصتُ على تتبُّع آراء المفكرين والمنظِّرين والفلاسفة من كل بقاع الأرض، وليس في مرحلة تاريخية محدَّدة، بل في كل مراحل التاريخ؛ لأبحث متجرِّدًا عن طموحات كل البشر، وعن أحلامهم، وعن رؤيتهم للكون الذي يعيشون فيه؛ ومن ثَمَّ أستطيع أن أجد «شيئًا مشتركًا» بينهم يمكن أن يجتمعوا عليه.

إن هذه المقارنة لا ينبغي بحال أن يُنظر إليها على أنها انتقاص -حاشا لله- من علماء أجلاء أَثْرَوْا تاريخ الإنسانية كلها، وليس تاريخ المسلمين فقط، إنما هو جهد فكري قُصد من ورائه لفت النظر إلى حاجتنا إلى التجديد المستمرِّ في نظرتنا في الشريعة والفقه، وكذلك في أفكار وأقوال العلماء، وعندها سيظهر لنا في كل يوم جديد، وهذه هي روعة الشريعة، وكذلك هي دعوة للاستفادة من ميراث الإنسانية كلها، ومن أفكار كل المصلحين من كل الأجناس ومراحل التاريخ، بشرط ألاَّ تتعارض هذه الأفكار مع أصول العقيدة والشريعة، وألاَّ تهزَّ ثوابت الأُمَّة.

وأنا على يقين أنَّ مَنْ يقرأ النظريات السابقة في فهم أصول التعامل بين المجتمعات الإنسانية، ثم يقرأ نظريتي، فإنه سيأخذ من هذا وذاك، ثم يُبدع في إخراج نظرية جديدة اعتمدتْ على ما سبقها من جهود، وهكذا يظلُّ الإنسان الرشيد بادئًا من حيث انتهى إخوانه في الإنسانية، وشركاؤه في الحياة..

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل..



المشترك الأسمى

"لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ"

القرآن الكريم (سورة البقرة: ٢٥٦)







الفصل الثاني

المشترك الأسمى

ثمة سؤال كبير يُلِحُّ على العقل الإنساني في كل العصور، نراه في إنتاج المفكِّرين وأدب الأدباء، وشعر الشعراء، وفلسفة الفلاسفة، وهذه الفلسفة تحديدًا نستطيع أن نقول بأنها تقوم كلها على هذا السؤال الكبير، إنه سؤال الإله! ذلك السؤال الذي تنبع منه أسئلة الكون والوجود والحياة والإنسان والروح والموت والخلود، وما بعد الموت، وما قبل الوجود، فإذا أُجيب عن سؤال الإله فقد أُجيب عن هذه الأسئلة جميعًا، وإن ظلَّ هذا السؤال مجهولاً ظلَّت هذه الأسئلة تضرب الإنسان بأمواجها المتحيِّرة، التي لا تستقرُّ إلى شاطئ.

ولعلَّ قصيدة «الطلاسم» التي ألفها إيليا أبو ماضي[1] بارعة في وصف هذه الحيرة؛ ففيها طرح أسئلة الوجود والحياة والروح والموت والنفس بأسلوب أدبي بسيط وبليغ، وهي قصيدة طويلة نلتقط منها هذه المقاطع:

سؤال الوجود:

جِئْتُ، لا أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ، وَلَكِنِّي أَتَيْتُ ... وَلَقَدْ أَبْصَرْتُ قُدَّامِي طَرِيقًا فَمَشَيْتُ

وَسَأَبْقَى مَاشِيًا إِنْ شِئْتُ هَذَا أَمْ أَبَيْتُ ... كَيْفَ جِئْتُ؟ كَيْفَ أَبْصَرْتُ طَرِيقِي؟

لَسْتُ أَدْرِي!

أَجَدِيدٌ أَمْ قَدِيمٌ أَنَا فِي هَذَا الْوُجُودْ؟ ... هَلْ أَنَا حُرٌّ طَلِيقٌ أَمْ أَسِيرٌ فِي قُيُودْ؟

---

(١) إيليا أبو ماضي: هو إيليا بن ضاهر أبي ماضي (١٣٠٦ - ١٣٧٧هـ = ١٨٨٩ - ١٩٥٧م)، لبناني الأصل، وهو من كبار شعراء المهجر، ومن أعضاء (الرابطة القلمية) فيه، أصدر جريدة (السمير) ١٩٢٩م، له: الخمائل، وديوان أبي ماضي. انظر: الزركلي: الأعلام ٢/ ٣٥.

هَـلْ أَنـا قَائِـدُ نَـفْسِي فِي حَيَـاتِي أَمْ مَقُـودْ؟ أَتَمَنَّـى أَنَّنِـي أَدْرِي وَلَكِـنْ...

لَسْتُ أَدْرِي!

أَتُـرَانِي قَبْلَمَا أَصْبَحْتُ إِنْسَانًا سَـوِيًّا أَتُـرَانِي كُنْتُ مَحْـوًا أَمْ تُـرَانِي كُنْتُ شَـيًّا؟

أَلِهَذَا اللَّغْـزِ حَـلٌّ أَمْ سَـيَبْقَى أَبَـدِيًّا لَسْـتُ أَدْرِي.. وَلِمَـاذَا لَسْـتُ أَدْرِي؟

لَسْتُ أَدْرِي!

***

سؤال الموت:

أَيُّهَا الْقَبْرُ تَكَلَّمْ، وَأَخْبِرِينِي يَا رِمَامْ[1] هَلْ طَوَى أَحْلامَكِ الْمَوْتُ وَهَلْ مَاتَ الْغَرَامْ؟

مَنْ هُوَ الْمَائِتُ مِنْ عَامٍ وَمِنْ مِلْيُونِ عَامْ أَيَصِـيرُ الْوَقْـتُ فِي الأَرْمَـاسِ[2] مَحْـوًا؟

لَسْتُ أَدْرِي!

إِنْ يَكُ الْمَوْتُ رُقَادًا بَعْدَهُ صَحْوٌ طَوِيـلْ فَلِمَاذَا لَيْسَ يَبْقَى صَحْوُنَا هَذَا الْجَمِيلْ؟

وَلِمَاذَا الْمَرْءُ لا يَدْرِي مَتَى وَقْتُ الرَّحِيلْ؟ وَمَتَـى يَنْكَشِـفُ السِّرُّ فَيَـدْرِي؟

لَسْتُ أَدْرِي!

أَوَرَاءُ الْقَـبْرِ بَعْـدَ الْمَـوْتِ بَعْـثٌ وَنُشُـورُ فَحَيَـاةٌ فَخُلُـودٌ أَمْ فَنَـاءٌ وَدُثُـورُ؟

أَكَلامُ النَّاسِ صِـدْقٌ أَمْ كَـلامُ النَّـاسِ زُورُ؟ أَصَحِيحٌ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَـدْرِي؟..

لَسْتُ أَدْرِي!

***

(١) الرِّمَام: العظام البالية. ابن منظور: لسان العرب، مادة رمم ١٢/ ٢٥١، والمعجم الوسيط ١/ ٣٧٤.

(٢) الأرماس: القبور، مفردها رَمْس، وهو: القبر مستويًا مع وجه الأرض، والتراب الذي يُحثى عليه. لسان العرب، مادة رمس ٦/ ١٠١، والمعجم الوسيط ١/ ٣٧٢.

سؤال ما بعد الموت:

إِنْ أَكُنْ أُبْعَثُ بَعْدَ الْمَوْتِ جُثْمَانًا وَعَقْلاَ ... أَتُرَى أُبْعَثُ بَعْضًا أَمْ تُرَى أُبْعَثُ كُلاًّ؟

أَتُرَى أُبْعَثُ طِفْلاً أَمْ تُرَى أُبْعَثُ كَهْلاَ؟ ... ثُمَّ هَلْ أَعْرِفُ بَعْدَ الْمَوْتِ ذَاتِي؟

لَسْتُ أَدْرِي!

***

سؤال النفس:

إِنَّنِي أَشْهَدُ فِي نَفْسِي صِرَاعًا وَعِرَاكَا ... وَأَرَى ذَاتِيَ شَيْطَانًا وَأَحْيَانًا مَلاكَا

هَلْ أَنَا شَخْصَانِ يَأْبَى هَذَا مَعْ ذَاكَ اشْتِرَاكَا ... أَمْ تُرَانِي وَاهِمًا فِيمَا أَرَاهُ؟

لَسْتُ أَدْرِي!

بَيْنَمَا قَلْبِيَ يَحْكِي فِي الضُّحَى إِحْدَى الْخَمَائِلْ ... فِيهِ أَزْهَارٌ وَأَطْيَارٌ تُغَنِّي وَجَدَاوِلْ

أَقْبَلَ الْعَصْرُ فَأَمْسَى مُوحِشًا كَالْقَفْرِ قَاحِلْ ... كَيْفَ صَارَ الْقَلْبُ رَوْضًا ثُمَّ قَفْرًا؟

لَسْتُ أَدْرِي!

***

سؤال الخطأ والصواب:

رُبَّ قُبْحٍ عِنْدَ زَيْدٍ هُوَ حُسْنٌ عِنْدَ بَكْرِ ... فَهُمَا ضِدَّانِ فِيهِ وَهْوَ وَهْمٌ عِنْدَ عَمْرِو

فَمَنِ الصَّادِقُ فِيمَا يَدَّعِيهِ؟ لَيْتَ شِعْرِي ... وَلِمَاذَا لَيْسَ لِلْحُسْنِ قِيَاسٌ؟

لَسْتُ أَدْرِي!

***

سؤال الخير والشر:

قَدْ رَأَيْتُ الْحُسْنَ يُنْسَى مِثْلَمَا تُنْسَى الْعُيُوبُ ... وَطُلُوعُ الشَّمْسِ يُرْجَى مِثْلَمَا يُرْجَى الْغُرُوبُ

وَرَأَيْتُ الشَّرَّ مِثْلَ الْخَيْرِ يَمْضِي وَيَؤُوبُ فَلِمَاذَا أَحْسَبُ الشَّرَّ دَخِيلاً؟

لَسْتُ أَدْرِي!

قَدْ يَقِينِي الْخَطَرَ الشَّوْكُ الَّذِي يَجْرَحُ كَفِّي وَيَكُونُ السُّمُّ فِي الْعِطْرِ الَّذِي يَمْلأُ أَنْفِي

إِنَّمَا الْوَرْدُ هُوَ الأَفْضَلُ فِي شَرْعِي وَعُرْفِي وَهْوَ شَرْعٌ كُلُّهُ ظُلْمٌ وَلَكِنْ...

لَسْتُ أَدْرِي!

***

حاصل الحيرة:

أَنَا لاَ أَذْكُرُ شَيْئًا مِنْ حَيَاتِي الْمَاضِيَةْ أَنَا لاَ أَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ حَيَاتِي الآتِيَهْ

لِيَ ذَاتٌ غَيْرَ أَنِّي لَسْتُ أَدْرِي مَا هِيَهْ فَمَتَى تَعْرِفُ ذَاتِي كُنْهَ ذَاتِي؟

لَسْتُ أَدْرِي!

إِنَّنِي جِئْتُ وَأَمْضِي وَأَنَا لاَ أَعْلَمُ أَنَا لُغْزٌ... وَذَهَابِي كَمَجِيئِي طَلْسَمُ

وَالَّذِي أَوْجَدَ هَذَا اللُّغْزَ لُغْزٌ مُبْهَمُ لا تُجَادِلْ ذَا الْحِجَا مَنْ قَالَ إِنِّي...

لَسْتُ أَدْرِي[1].

***

بدون الإجابة عن سؤال الإله تتهاطل أسئلة الحيرة الأبدية، التي ستنتهي دائمًا بـ «لست أدري!»، أو لا بُدَّ من إيجاد إجابة أخرى تستطيع أن تُفَسِّر هذا الكون وهذه الحياة وذلك الوجود وتلك النفس، وإذا قُلنا بأن ثمة إلهًا لهذا الكون الكبير، فمن هو؟ وما صفاته؟ وماذا يفعل؟ وما علاقته بهذا الوجود؟.. إلى آخر هذه الأسئلة المحيرة.

وفي إطار إجابات الناس عن هذه الأسئلة سنجد ثلاث إجابات كبرى، تضعنا أمام ثلاثة أقسام كبرى هي:

(١) راجع نص القصيدة كاملة في: إيليا أبو ماضي: ديوان إيليا أبي ماضي ص١٩١ وما بعدها.

١- الديانات السماوية.

٢- الديانات الوضعية.

٣- اللادينيون أو الملاحدة.

وفي داخل هذه الأقسام نجد اختلافات مُؤَثِّرَة ومحورية، غير أن التصوُّر العامَّ يجمع بينها:

فالديانات السماوية -وهي الإسلام والمسيحية واليهودية- تَتَّفق في أنَّ الإله ذاتٌ قائم بنفسه ليس كمثله شيء، يَتَّصف بالقدرة والقوَّة والعلم والإحاطة، ويُدَبِّر أمر المخلوقات، ويصرف شئون الحياة، وأنه اختار من بين عباده رسلاً وأنبياء، وأوحى إليهم كتبًا تُمَثِّل العقيدة الصحيحة، وأنه يترك للناس حرية الإيمان أو الكفر، ثم يبعثهم من بعد الموت في حياة أخرى خالدة، فيُنعم على الذين اتبعوا العقيدة الصحيحة بالنعيم الخالد، ويُجازي الذين كفروا بهذه العقيدة أو مَنْ لم يَتَّبِعوها -فظلموا وأفسدوا وأجرموا- ما يستحقُّون من عذاب.

وأمَّا الديانات الوضعية فهي تُجيب عن سؤال الإله بأنه موجود، غير أنها لا تَتَّفق على تصوُّر أبعد من هذا؛ فالإله يمكن أن يكون رُوح الأسلاف، أو النار أو الشمس أو القمر أو النجوم أو الأوثان، أو المعاني المجرَّدة كالخير والشرِّ والظلمة والنور، أو قد يكون أكثر من إله يَتَّفِقُون أو يتنازعون أو يتقاسمون هذا الكون بصلاحيات لكلٍّ منهم، لكن يجمع بينهم أنَّ لهم معابد وطقوسًا تعبدية، ولهم أعياد في أيام ذات «قداسة» مميزة، ولهم منظومات فلسفية تُجيب عن أسئلة الكون والحياة والوجود، وينبثق عنها منظومة أخلاقية، وغالبًا ما ينبثق عنها -أيضًا- تشريعات وقوانين لا سيما في الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق وما إلى ذلك.

وأمَّا اللادينيون أو الملاحدة فهم الذين يُجيبون بأنه لا إله، ويُفَسِّرون الوجود والحياة بتفسيرات مادية تستبعد أي ظواهر مما لا يُدركها الحسُّ، كتفسير الصدفة الذي يتوقَّع بأن هذا الكون نشأ بالصدفة، أو بنظرية الأزلية والأبدية حيث تستبعد وجود بدايات أو نهايات لهذا الوجود، أو بغير هذا من النظريات التي تستبعد وجود «ما وراء الطبيعة».

وكما تُنْشِئ التصوُّرات الدينية عقائد ومنظومات فلسفية، فإن الاتفاق بين اللادينيين في



عدم وجود الإله وبالتالي انتفاء وجود الدين، إنما هو يُنشئ أيضًا -بالتبعية- عقائد ومنظومات فلسفية، يكون لها أثرها الواضح في التشريعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فالإنسان -بطبيعته- لا بُدَّ له من تصوُّرات أو قناعات، وهذه التصورات والقناعات لا بُدَّ أن تنعكس على أعماله وسلوكه.

***

الأديان السماوية:

تتَّفق الأديان السماوية في مجموعة من السمات من أبرزها: الإله، الخَلق، الوحي إلى الأنبياء والرسل، البعث، العبادات، القصص، الدعوة إلى الأخلاق والقيم.

الإله:

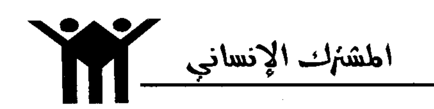
في شأن دعوة الأنبياء -المتقدِّمين على موسى عليه السلام- إلى التوحيد تضمَّنت التوراة حكاية ما كانوا عليه من التوحيد والدعاء إليه ونفي الشرك، فإنها قد حكت ما وقع منهم من عند أبينا آدم عليه السلام، ومَنْ بعده من الأنبياء كنوح وإبراهيم ولوط وإسحاق وإسماعيل ويعقوب ويوسف إلى عند قيام موسى سلام الله عليهم أجمعين[(١)].

ففي القرآن الكريم: ﴿**اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۞ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ۞ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ۞ إِنَّ اللهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ۞ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ...**﴾ [آل عمران: ٢- ٧].

وجاء في العهد القديم: «أنا الرَّبُّ إلهك الَّذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبوديَّة. لا يكن لك آلهةٌ أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالاً منحوتًا، ولا صورةً ما مِمَّا في السَّماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهنَّ ولا تعبدهنَّ، لأنِّي أنا الرَّبَّ إلهك إلهٌ غيورٌ، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع

---

(١) الشوكاني: إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات ١/ ٩.



من مبغضيَّ»[١].

وفي العهد الجديد، من إنجيل مرقس: «فجاء واحدٌ من الكتبة وسمعهم يتحاورون، فلمَّا رأى أنَّه أجابهم حَسَنًا، سأله: أيَّة وصيَّةٍ هي أوَّل الكلِّ؟ فأجابه يسوع: إنَّ أوَّل كلِّ الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل؛ الرَّبُّ إلهنا ربٌّ واحدٌ. وتحبُّ الرَّبَّ إلهك من كلِّ قلبك، ومن كلِّ نفسك، ومن كلِّ فكرك، ومن كلِّ قدرتك. «هذه هي الوصيَّة الأولى»[٢].

وفي موضوع الإله، نكاد نلمح عبارات متطابقة في الكتب المقدسة للأديان السماوية؛ فالآية القرآنية تقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، هي ذاتها الواردة في سفر التثنية: «لَيْسَ مِثْلَ الله»[٣]. والآية القرآنية ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، هي ذاتها الواردة في إنجيل يوحنا: «اللهُ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ»[٤].

الوحي إلى الأنبياء والرسل:

واجتمعت الأديان السماوية في أمر الوحي إلى الأنبياء والرسل، فاتفقت على أن الله تعالى أنزل تعاليمه إلى الأرض عبر مَلَك الوحي، الذي ينزل من عند الله تعالى على أُناس قد اختارهم الله تعالى؛ ليحملوا أمانة التبليغ وأداء الرسالة إلى الناس؛ لإخراجهم من ضلالاتهم إلى طريق الله تعالى.

فجاء في الرسالة إلى العبرانيين: «بالإيمان نُوحُ لما أُوحِيَ إليه عن أمور لم تُرَ بعد خافَ، فبنى فُلكًا لخلاص بيته، فبه دان العالم، وصار وارثًا للبرِّ الذي حَسَبَ الإيمان. بالإيمان إبراهيم لما دُعِيَ أطاع أن يخرج إلى المكان الذي كان عتيدًا، أن يأخذه ميراثًا، فخرج وهو لا يعلم إلى أين يأتي»[٥].

ويحكي سفر حبقوق في ثلاثة إصحاحات عن «الوحي الذي رآه حبقوق النبي»[٦].

---

(١) سفر الخروج ٢٠/ ٢-٥.
(٢) سفر مرقس ١٢/ ٢٨-٣٤.
(٣) سفر التثنية ٣٣/ ٢٦.
(٤) سفر يوحنا ١/ ١٨.
(٥) الرسالة إلى العبرانيين ١١/ ٧، ٨.
(٦) سفر حبقوق ١/ ١.

ويقول القرآن الكريم عن حقيقة الوحي: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ۞ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤].

بل كان الاتفاق قائمًا -أيضًا- في اسم المَلَك الموكل بالوحي، وهو جبريل عليه السلام؛ جاء في إنجيل لوقا: «فأجاب الملاك وقال له: أنا جبرائيل الواقف قُدَّام الله، وأُرسلت لأُكلِّمك وأُبشِّرك بهذا»[١].

وفي سفر دانيال: «وسمعت صوت إنسان بين أولاي، فنادى وقال: يا جبرائيل فهم هذا الرجل الرؤيا»[٢].

وفي القرآن الكريم: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

البعث:

واتفقت الأديان السماوية على إثبات الدار الآخرة، ووجود الجنة والنار، والمعاد والقبر والحساب، وأن الله تعالى أعدَّ للمحسنين جنات أبدية، وأعدَّ للعاصين نارًا أبدية كذلك، وهو ما أَكَّدَتْهُ نصوص التوراة والإنجيل والقرآن[٣].

ففي القرآن الكريم: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ۞ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۞ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۞ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۞ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۞ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ۞ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ۞ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا ۞ إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۞ جَزَاءً وِفَاقًا ۞ إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا ۞ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ۞ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۞ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ۞ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۞ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۞ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۞ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۞ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ كِذَّابًا ۞ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾
[النبأ: ١٧- ٣٦].

---

(١) إنجيل لوقا ١/ ١٩.
(٢) سفر دانيال ٨/ ١٦.
(٣) الشوكاني: إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات ١/ ١٠-٢٤.

وفي إنجيل متى: «وأمَّا أنا فأقول لكم: إنَّ كلَّ مَنْ يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم، ومَنْ قال لأخيه: رَقَا. يكون مستوجب المجمع، ومن قال: يا أحمق. يكون مستوجبَ نارِ جهنَّم»[١]. وفي إنجيل مرقس: «وإن أعثرتك يدك فاقطعها. خيرٌ لك أن تدخل الحياة أقطعَ من أن تكون لك يدان وتمضي إلى جهنَّم، إلى النَّار التي لا تُطفأ. حيث دُودُهُمْ لا يموت والنار لا تُطفأ»[٢]. وفي إنجيل يوحنا: «الحقَّ الحقَّ أقول لكم: إنَّ مَنْ يسمع كلامي ويُؤمن بالذي أرسلني فله حياةٌ أبديَّةٌ، ولا يأتي إلى دينونةٍ، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.. فَيَخْرُجُ الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السَّيِّئات إلى قيامة الدَّينونة»[٣].

وفي سفر التكوين في العهد القديم: «غرس الرَّبُّ الإله جنَّةً في عدنٍ شرقًا.. وأنبت الرَّبُّ الإله من الأرض كلَّ شجرةٍ شهيَّةٍ للنَّظر وجيِّدةٍ للأكل، وشجرةَ الحياة في وَسَط الجنَّة، وشجرةَ معرفة الخير والشَّرِّ»[٤]. وفي سفر دانيال: «وكثيرون من الرَّاقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبديَّة، وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبديِّ»[٥].

العبادات:

والعبادات مجالها رحب، ولا يخلو دين من وجود مناسك وشعائر يُؤَدِّيها أتباعه، غير أن التشابه في العبادات بين الديانات السماوية الثلاث من الوضوح بمكان.

الصلاة:

تتَّفق أصول الديانات على أداء الصلاة الواجبة لله تعالى، وتتشابه في كثير من العناصر؛ منها: السجود، وصلاة الجماعة، ولفظ «آمين» بمعنى اللهم استجب، وهدفها واحد وهو الخضوع والتذلُّل والحاجة للقدرة الإلهية[٦]، وقد ورد في التوراة «كان لما انتهى سليمان من

(١) إنجيل متى ٥/ ٢٢.

(٢) إنجيل مرقس ٩/ ٤٣-٤٤.

(٣) إنجيل يوحنا ٥/ ٢٤، ٢٩.

(٤) سفر التكوين ٢/ ٨-٩.

(٥) سفر دانيال ١٢/ ٢.

(٦) للدكتورة هدى درويش كتاب في تفصيل هذا الأمر عنوانه: «الصلاة في الشرائع القديمة والرسالات السماوية» صادر عن دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠٦م.

الصلاة إلى الرب بكل هذه الصلاة والتضرُّع أنه نهض من أمام مذبح الرب من الجثو على ركبتيه، ويداه مبسوطتان نحو السماء»[١]. كما ورد في الإنجيل: «وكل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين تنالونه»[٢]. ونقرأ كذلك في القرآن الكريم: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٢].

الزكاة:

وهي ملزمة في سائر الأديان والشرائع؛ ففي اليهودية: «إذا حصدت حصيدك في حقلك ونسيت حزمة في الحقل فلا ترجع لتأخذها، للغريب واليتيم والأرملة تكون؛ لكي يباركك الرب إلهك في كل عمل يديك»[٣]. وأيضًا: «وعندما تحصدون حصيد أرضكم لا تُكمل زوايا حقلك في الحصاد. ولقاط حصيدك لا تلتقط. وكرمك لا تعلله، ونثار كرمك لا تلتقط. للمسكين والغريب تتركه. أنا الرب إلهكم»[٤]. وفي الإنجيل: «احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قُدَّام الناس لكي ينظروكم. وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السموات. فمتى صَنَعْتَ صدقة فلا تُصوِّت قدَّامك بالبوق كما يفعل المراءون في المجامع وفي الأزقة؛ لكي يُمَجَّدوا من الناس. الحقَّ أقول لكم: إنهم قد استوفوا أجرهم. وأما أنت فمتى صنعتَ صدقة فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك. لكي تكون صدقتك في الخفاء. فأبوك الذي يرى في الخفاء هو يُجازيك علانية»[٥]. وجاء في القرآن الكريم ما يُثبت أن الزكاة كانت من الأمور المفروضة على بني إسرائيل من قبلنا:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: ١٢]، وجاء فيه فرض الزكاة على المسلمين في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

---

(١) سفر الملوك الأول ٨/ ٥٤.
(٢) إنجيل متى ٢١/ ٢٢.
(٣) سفر التثنية ٢٤/ ١٩.
(٤) سفر اللاويين ١٩/ ٩-١١.
(٥) إنجيل متى ٦/ ١-٤.

الصوم:

جاء في التوراة: «وناديت هناك بصوم على نهر أهوا لكي نتذلل أمام إلهنا؛ لنطلب منه طريقًا مستقيمة لنا ولأطفالنا ولكل ما لنا»(١). ومثل ذلك في الإنجيل حينما سُئل المسيح: «حينئذٍ أتى إليه تلاميذ يوحنا قائلين: لماذا نصوم نحن وَالْفَرِّيسِيُّونَ كثيرًا، وأما تلاميذك فلا يصومون؟ فقال لهم يسوع: هل يستطيع بنو الْعُرْسِ أن يَنُوحُوا ما دام العريس معهم. ولكن ستأتي أيام حين يُرْفَعُ العريسُ عنهم فحينئذٍ يصومون»(٢). وفي القرآن الكريم إثبات لحقيقة وجود الصيام فيمن قبلنا من الأمم، وفرضه علينا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

الدعاء:

في الكتب السماوية الثلاثة كثرت الابتهالات والأدعية، وفيها ذات القدر من تقديس الإله الحقِّ واللجوء وإليه والاستعانة به، ويُعَدُّ من المصائب النازلة بالعباد ألاَّ يستجيب الربُّ لدعائهم، ولا يستمع إليه، من ذلك ما جاء في التوراة: «إذا بنى الرب صهيون يرى بمجده. التفت إلى صلاة المضطر ولم يرذل دعاءهم»(٣). وورد في سفر آرميا: «وأنت فلا تُصَلِّ لأجل هذا الشعب، ولا ترفع لأجلهم دعاء ولا صلاة، ولا تُلِحَّ عليَّ لأني لا أسمعك. أما ترى ماذا يعملون في مدن يهوذا، وفي شوارع أورشليم»(٤). وجاء في الإنجيل: «لا تهتموا بشيء، بل في كل شيء بالصلاة والدعاء مع الشكر، لِتُعْلَم طلباتكم لدى الله. وسلام الله الذي يفوق كل عقل، يحفظ قلوبكم وأفكاركم في المسيح يسوع»(٥). ومما جاء في القرآن الكريم قوله ﷻ: ﴿قَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

---

(١) سفر عزرا ٨/ ٢١.
(٢) إنجيل متى ٩/ ١٤، ١٥.
(٣) سفر المزامير ١٠٢/ ١٦، ١٧.
(٤) سفر آرميا ٧/ ١٦، ١٧.
(٥) رسالة القديس بولس إلى أهل فيلبي ٤/ ٦، ٧.

وعلى هذا المنوال تتشابه الكثير من الأصول التعبدية بين الأديان السماوية الثلاثة، وهذا ما يجعل ما بينها أقرب مما بين أحدها وغيرها من الديانات؛ لذا سماهم القرآن الكريم تسمية محببة، فقال عنهم: ﴿أَهْلَ الْكِتَابِ﴾، وخاطبهم بهذه الصفة[1].

القصص:

ومن الأشياء المميزة كذلك في الأديان السماوية الثلاثة ذلك التشابه الذي يصل كثيرًا إلى حدِّ التطابق في القصص، لا سيما قصص الأنبياء، والأنبياء هم الأشخاص أنفسهم في الأديان السماوية الثلاثة، إذا تجاوزنا الخلاف القائم على المسيح عليه السلام لدى اليهود، وعلى محمد ﷺ لدى اليهود والمسيحيين، كما أنَّ القرآن ذَكَرَ نَبيَّين آخرين لا وجود لهما في الكتب القديمة؛ هما: هود وصالح عليهما السلام. وفي غير هذا تتَّفق الأديان في النبوات، فنوح وإبراهيم ولوط وموسى وداود وسليمان عليهم السلام هم شخصيات كبرى في كل الأديان السماوية، وجوهر القصص المروي عنهم واحد في الكتب الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن.

ففي سفر التكوين عن نوح عليه السلام: «كان نوحُ رجلاً بارًّا كاملاً في أجياله. وسار نوحُ مع الله.. وقال الرَّبُّ لنوحٍ: ادخل أنت وجميع بيتك إلى الفُلك، لأنِّي إيَّاك رأيتُ بارًّا لديَّ في هذا الجيل»[2].

وفي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، وقال أيضًا: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ۞ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٧٩- ٨١].

وفي سفر العدد عن موسى عليه السلام: «وأمَّا الرَّجل موسى فكان حليمًا جدًّا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض»[3].

وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ۞ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ

---

(١) سنتناول التشابه في الحج عند الديانات في مبحث «السياحة» من فصل «المشتركات الإنسانية الداعمة».
(٢) سفر التكوين ٦/ ٩، ٧/ ١.
(٣) سفر العدد ١٢/ ٣.

الْعَظِيمِ ۞ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ۞ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ۞ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ۞ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ۞ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١١٤- ١٢٢].

وعن نبي الله زكريا عليه السلام يحكي الإنجيل: «فظهر له ملاك الرب واقفًا عن يمين مذبح البخور. فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف. فقال له الملاك: لا تخف يا زكريا؛ لأن طِلْبَتَكَ قد سُمعت، وامرأتك أَلِيصَابَات ستلد لك ابنًا وتسميه يُوحَنَّا. ويكون لك فرح وابتهاج، وكثيرون سيفرحون بولادته. لأنه يكون عظيمًا أمام الرب وخمرًا ومسكرًا لا يَشْرَبُ. ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس. وَيَرُدُّ كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم. ويتقدَّم أمامه بروح إيليا وقُوَّته؛ لِيَرُدَّ قلوب الآباء إلى الأبناء، والعصاةَ إلى فكر الأبرار؛ لكي يُهَيِّئَ للرب شعبًا مستعدًا. فقال زكريا للملاك: كيف أعلم هذا؛ لأني أنا شيخ وامرأتي متقدمة في أيامها؟ فأجاب الملاك، وقال له: أنا جبرائيل الواقف قدام الله، وأُرسلتُ لأُكَلِّمك وأُبَشِّرك بهذا. وها أنت تكون صامتًا ولا تقدر أن تتكلَّم إلى اليوم الذي يكون فيه هذا؛ لأنك لم تُصَدِّقْ كلامي الذي سيتم في وقته. وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجِّبين من إبطائه في الهيكل. فلما خرج لم يستطع أن يُكَلِّمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل. فكان يُومئ إليهم وبقي صامتًا»(١).

وعن هذا يقول القرآن الكريم: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۞ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۞ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۞ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۞ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۞ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۞ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۞ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٢- ١١].

(١) إنجيل لوقا ١/ ١١-٢٢.

وثمة مشهد يمكن أن نأخذه كمثال على مدى التشابه، ذلك هو مشهد قصة نزول إبراهيم عليه السلام بزوجته سارة إلى أرض مصر: «وحدث جوع في الأرض. فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك. لأن الجوع في الأرض كان شديدًا. وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته: إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر. فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته. فيقتلونني ويستبقونك. قولي: إنك أختي. ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك. فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدًا. ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون. فأُخذت المرأة إلى بيت فرعون. فصنع إلى أبرام خيرًا بسببها. وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال. فضرب الربُّ فرعونَ وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام. فدعا فرعون أبرام وقال: ما هذا الذي صنعت بي؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟ لماذا قلتَ هي أختي. حتى أخذتها لي لتكون زوجتي. والآن هوذا امرأتك. خذها واذهب. فأوصى عليه فرعون رجالاً فشيعوه وامرأته وكل ما كان له»[١].

هذا المشهد يحكيه النبي ﷺ فيقول: «بَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةُ إِذْ أَتَى عَلَى جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ هَا هُنَا رَجُلاً مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْهَا، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: أُخْتِي. فَأَتَى سَارَةَ، قَالَ: يَا سَارَةُ؛ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرَكِ، وَإِنَّ هَذَا سَأَلَنِي، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِي؛ فَلاَ تُكَذِّبِينِي. فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِهِ، فَأُخِذَ فَقَالَ: ادْعِي اللهَ لِي وَلاَ أَضُرُّكِ. فَدَعَتِ اللهَ فَأُطْلِقَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ، فَأُخِذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ، فَقَالَ: ادْعِي اللهَ لِي وَلاَ أَضُرُّكِ. فَدَعَتْ فَأُطْلِقَ، فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتِهِ فَقَالَ: إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بِإِنْسَانٍ، إِنَّمَا أَتَيْتُمُونِي بِشَيْطَانٍ. فَأَخْدَمَهَا هَاجَرَ فَأَتَتْهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ مَهْيَا[٢]، قَالَتْ: رَدَّ اللهُ كَيْدَ الْكَافِرِ أَوِ الْفَاجِرِ فِي نَحْرِهِ. وَأَخْدَمَ هَاجَرَ»[٣].

الدعوة إلى الأخلاق والقيم:

وهنا يبلغ التشابه بين الأديان حدًّا كبيرًا، وكثيرًا ما نجد في إرث هذه الأديان نصوصًا قد

---

(١) سفر التكوين ١٢/ ١٠-٢٠.

(٢) مهيا: كلمة يستفهم بها معناها: ما حالك وما شأنك، وما الخبر؟ ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٦/ ٣٩٤.

(٣) البخاري: كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء: ١٢٥) (٣١٧٩) عن أبي هريرة، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام (٢٣٧١).



تصل إلى حدٍّ أن تكون متطابقة، وسنضرب على هذا أمثلة سريعة:

حرصت الأديان على التآخي والتآزر فنقرأ -مثلاً- في رسالة بطرس[(١)]: «قبل كل شيء لتكن محبتكم بعضكم لبعض شديدة؛ لأن المحبة تستر كثرة من الخطايا. كونوا مضيفين بعضكم بعضًا بلا دمدمة»[(٢)]. كما نقرأ في رسالة بولس إلى أهل رومية: «المحبة فلتكن بلا رياء. كونوا كارهين الشر ملتصقين بالخير. وادين بعضكم بعضًا بالمحبة الأخوية. مقدمين بعضكم بعضًا في الكرامة»[(٣)].

وهذا المعنى نفسه هو ما نجده في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، و﴿حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۞ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢- ٦٣].

وحرصت الأديان -أيضًا- على العفاف والحشمة، فجاء في الشريعة اليهودية في سفر التكوين قصة «تامار»، التي قعدت في بيت أبيها بعد طلاقها، ولما طال الزمان «خلعت عنها ثياب ترملها وتغطت ببرقع وتلففت»[(٤)]. وجاء في سفر أشعيا: «وقال الرب: من أجل أن بنات صهيون يتشامخن، ويمشين ممدودات الأعناق، وغامزات بعيونهن، وخاطرات في مشيهن ويخشخشن بأرجلهن. يصلع السيد هامَة بنات صهيون ويعري الرب عورتهن»[(٥)]. وتوجد في الكيان الصهيوني اليوم قوانين تُسَمَّى قوانين الاحتشام، وتوضع على لافتات في شوارع الكيان الصهيوني، يمشي الرجال في ناحية والنساء في الناحية الأخرى[(٦)].

وتدعو المسيحية النساء إلى التزام الحشمة والفضيلة، فمِنْ أقوال بولس: «وأمَّا كلُّ امرأةٍ تصلِّي

---

(١) بطرس الرسول Simon Peter: هو القديس بطرس أو سمعان بطرس (ت ٦٤م)، يلقب بالصخرة، وقد نال لقبه هذا من السيد المسيح -بحسب رواية الكتاب المقدس- وهو أحد رسل المسيح الاثني عشر. انظر: الموسوعة العربية المسيحية.

(٢) رسالة بطرس الأولى ٤/ ٨، ٩.

(٣) رسالة بولس إلى أهل رومية ١٢/ ٩، ١٠.

(٤) سفر التكوين ٣٨/ ١٤.

(٥) سفر أشعيا ٣/ ١٦، ١٧.

(٦) هدي درويش: تقارب الشعوب، ص٥٤، ٥٥.

أو تتنبأ ورأسها غير مغطًى، فتشين رأسها، لأنَّها والمحلوقة شيءٌ واحدٌ بعينه. إذ المرأة، إن كانت لا تتغطَّى، فَلْيُقَصَّ شعرها. وإن كان قبيحًا بالمرأة أن تقصَّ أو تحلق، فلتتغطَّ»[1]. كما حرَّمت المسيحية -أيضًا- النظر إلى المرأة، وحظرت مخالطة الزناة، وجاء في الإنجيل أن المسيح عليه السلام قال: «قد سمعتم أنَّه قيل للقدماء: لا تَزْنِ. وأمَّا أنا فأقول لكم: إنَّ كلَّ مَنْ ينظر إلى امرأةٍ ليشتهيها، فقد زنى بها في قلبه»[2].

وبهذا أيضًا جاء القرآن الكريم؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۞ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢].

ومما اتفقت عليه الأديان السماوية كذلك تحريم شرب الخمر، فقد جاء في سفر اللاويين: «وكلَّم الرَّبُّ هارون قائلاً: خمرًا ومسكرًا لا تشرب أنت وبنوك معك عند دخولكم إلى خيمة الاجتماع لكي لا تموتوا. فَرْضًا دَهْرِيًّا في أجيالكم.. وللتَّمييز بين المُقَدَّسِ وَالمُحَلَّلِ وبين النَّجس والطَّاهر، ولتعليم بني إسرائيل جميع الفرائض الَّتي كلَّمهم الرَّبُّ بها بيد موسى»[3].

كما ورد في رسالة بولس إلى أهل غلاطية، وهو يُحَذِّرهم من معاصي الجسد والروح: «وأعمال الجسد ظاهرةٌ، الَّتي هي: زنًى عهارةٌ نجاسةٌ دعارةٌ.. عبادة الأوثان سحرٌ عداوةٌ خصامٌ غَيْرَةٌ سَخَطٌ تَحَزُّبٌ شقاقٌ بدعةٌ.. حسدٌ قتلٌ سكرٌ بطرٌ، وأمثال هذه الَّتي أسبق فأقول لكم عنها كما سبقتُ فَقُلْتُ أيضًا: إنَّ الَّذين يفعلون مثل هذه لا يَرِثُونَ ملكوت الله»[4].

وفي القرآن وردت الآيات محذِّرة من الخمر، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠- ٩١]، وقال رسول الله ﷺ يقول: «أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ لَعَنَ

---

(١) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ١١/ ٥، ٦.

(٢) إنجيل متى ٥/ ٢٧، ٢٨.

(٣) سفر اللاويين ١٠/ ٨-١١.

(٤) رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٥/ ١٦-٢١.

الْخَمْرَ، وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا، وَشَارِبَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ، وَبَايِعَهَا، وَسَاقِيَهَا، وَمُسْقِيَهَا»[(١)].

وهذه الأمثلة السريعة قُصِد بها بيان مدى قوَّة الاتفاق والارتباط بين الديانات السماوية، وقد جاء هذا المعنى في القرآن الكريم، في قوله ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

فهذا الذي اتفقت عليه الأديان السماوية وعظم على المشركين فلم يطيقوا حمله، وهؤلاء المشركون هم -في كتابنا هذا- أصحاب الديانات الوضعية.

***

الأديان الوضعية[(٢)]:

يقع أصحاب الديانات الوضعية بين أصحاب الديانات السماوية الثلاث وبين اللادينيين؛ فهم يُؤمنون بمعتقدات تُفَسِّر وتُجيب عن أسئلة الوجود والحياة والموت.. وما إلى ذلك، وهذه المعتقدات تدور -أيضًا- حول آلهة؛ سواء كان إلهًا واحدًا أم آلهة متعددة، وسواء أكانت الآلهة متكاملة أم كانت متصارعة متشاكسة، وسواء تجسَّدت هذه الآلهة في بشر أو حيوان أو حجر أو نار، أو أنها ظَلَّت غير متجسِّدة كالأرواح والأشباح.. فالخلاصة أن ثمة آلهة تمتلك من القوى والقدرات ما يفوق إمكانات البشر، وهي آلهة يُتوجَّه إليها بالدعاء والرجاء أو يُخشى منها؛ فهي -في رؤيتهم- تملك أن تمنح وتمنع، وأن تصل وتقطع، وأن تخفض وترفع.

---

(١) الحاكم: كتاب البيوع (٢٢٣٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد. وقال الذهبي: صحيح، وقد روي نحو هذا عن ابن عباس وابن مسعود وابن عمر عن رسول الله ﷺ، وكلها أحاديث حسنة صحيحة، انظر: المستدرك حديث (٢٢٣٥)، وسنن ابن ماجه بتعليق الألباني، حديث (٣٣٨١)، وسنن الترمذي بتعليق الألباني، حديث (١٢٩٥).

(٢) انظر لمزيد من التوسع: الشهرستاني: الملل والنحل، وابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ومحمد أبو زهرة: الديانات القديمة، وسامي بن عبد الله المغلوث: أطلس الأديان، ومانع الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، وكامل سعفان: معتقدات آسيوية، وأحمد شلبي: أديان الهند الكبرى، وجون كولر: الفكر الشرقي القديم، وفيليسيان شالي: موجز تاريخ الأديان، وجيفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب.

لها معابد وطقوس وشعائر، وكهنة وسدنة وخدام، ولها كتب مقدَّسَة أو تعاليم محفوظة، ولها حكماء ومصلحون وزعامات فكرية، غير أن التفاصيل شديدة الاتساع والاختلاف بين كل ديانة وأخرى، ولا نكاد نجد بينها في الأفكار الكبرى العامة -فضلاً عما سواها من الأفكار- ما تتفق فيه، على العكس مما نجده بين الأديان السماوية، بل إن بعضها نشأ كردٍّ فعلٍ على البعض الآخر، كالجينية نشأت كردٍّ فعل على الهندوسية، التي تُرَسِّخ الطبقية القاسية بين المجتمع، وكالمانوية الزاهدة كرد فعل على المزدكية المفرطة في المادية.

ولا يمنع هذا من أن نجد تشابهًا في طقوس أو في معتقدات أو في تقاليد أو حتى في بعض الأفكار التي تتشابه أو تتطابق؛ كما تلتقي الخطوط المختلفة الاتجاه في نقطة، فبالوسع أن نجد عبادة الأسلاف موجودة في أكثر من ديانة، كذلك فكرة الحلول والاتحاد مع الإله، كذلك فكرة تناسخ الأرواح.. وهكذا.

وقد نجد أحيانًا شبهًا كبيرًا بين إحداها وبين معتقدات يُؤمن بها أتباع ديانة سماوية؛ فالبوذيون على سبيل المثال يعتقدون أن بوذا[1] هو ابن الله، وهو المخلِّص للبشرية من مآسيها وآلامها، وأنه يتحمَّل عنهم جميع خطاياهم، وأن تجسُّده تمَّ بواسطة حلول رُوح القدس على العذراء مايا، وأنه نطق وهو طفل صغير قائلاً لأمه: إنه أعظم الناس. وأنه في آخر أيامه أحاطت به هالة من الضوء وأنارت حول رأسه، وأنه صَعِد إلى السماء بعد أن أكمل مهمته على الأرض وله عودة ثانية. وما أشبه هذا بمعتقد المسيحية! لولا أن بوذا أنكر الألوهية والنفس الإنسانية، وقال بتناسخ الأرواح[2].

***

اللادينيون:

وهم مَنْ لا يؤمنون بدين، ولا يعتقدون في إله على الإطلاق، وهذه الفئة ظلَّت تُمَثِّل

---

(١) بوذا: (٥٥٨-٤٨٣ ق. م)، مؤسس الديانة البوذية إحدى الديانات الكبرى، وديانته غير ألوهية، ولكنها عبارة عن التعاليم التي تركها بوذا (المتيقظ).

(٢) سامي بن عبد الله المغلوث: أطلس الأديان ص٦٣٠. وانظر موقع «عن بوذا»: (www.aboutbuddha.org).



الشذوذ البشري طوال التاريخ الإنساني[١]، ولكن الأمر أخذ في التصاعد منذ تزايد الصراع مع الكنيسة في أوربا، وهذا ما حَدَا بكثير من الفلاسفة والمؤرخين أن يُهاجموا الدين كله ويرمونه عن قوس واحدة، ويُنتجون فلسفات تُحاول تفسير الحياة والوجود بغضِّ النظر عن الإله.

كان اكتشاف نيوتن[٢] لقوانين الحركة[٣] ضربة قاسية للمعتقدات الكنسية، التي تقول بأن كل شيء يحدث في هذا الكون إنما يتمُّ بقدرة الله؛ إذ إنها تقول بأن الحركة الموجودة في الكون تتمُّ طبقًا لقوانين محدَّدة، ولا تتمُّ برعاية الله، ولا تتدخَّل فيها السماء، ثم ما لبث نيوتن أن تكلَّم عن قانون الجاذبية الذي فسَّر حركة الأجسام الرأسية أيضًا.

وبعد أن نفت آراء كوبرنيكوس[٤] (ت ١٥٤٣م) وبرونو[٥] (ت ١٦٠٠م) وجاليليو[٦] (ت ١٦٤٢م) بشكل ضمني قيمة الأرض بالنسبة للكون، وبالتالي احتمال نزول إلهٍ إليها دون غيرها، إذا بنظرية نيوتن تُدَمِّر وجود الإله نفسه، وتنفي أن هناك مشيئة تُسَيِّر الكون، بل إنها قوانين حركة صارمة وطبيعية، ولا علاقة لها لا بالخير ولا بالشر ولا بالإيمان ولا بالكفر.

لم يلبث الأمر طويلاً حتى ظهر في ساحة المعركة، عالم الأحياء الشهير تشارلز دارون[٧]

---

(١) مانع الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ٢/ ٨٠٣.

(٢) نيوتن: السِّير إسحاق نيوتُن (١٦٤٢ - ١٧٢٧م): عالم رياضيات وفلكي إنجليزي، اكتشف نظرية جاذبية الأرض، كما اكتشف أسرار الضوء والألوان، وابتكر فرعًا من الرياضيات يسمَّى حساب التفاضل والتكامل.

(٣) مع الاكتشافات العلمية للتراث العلمي العربي تبيَّن أن آراء كوبرنيكو وجاليليو وبرونو ونيوتن قال بها قبلهم بمئات السنين العلماء المسلمون.

(٤) نيكولاس كوبرنيكوس (١٤٧٣-١٥٤٣م): وُلِد في مدينة ثورن في مقاطعة بروسيا، درس في بولندا وأكمل دراسته في جامعة بولونيا الإيطالية، كان فلكيًّا ماهرًا، يُعتبر أول من صاغ نظرية مركزية الشمس وكون الأرض جرمًا يدور في فلكها.

(٥) برونو (١٥٤٨ - ١٦٠٠م): فيلسوف ورياضي وفلكي إيطالي، قال بأن الأرض ليست هي مركز الكون، حكمت عليه الكنيسة الكاثوليكية بالهرطقة، وأحرقت كتبه، عُدَّ رمزًا لحرية التفكير في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

(٦) جاليليو (١٥٦٤-١٦٤٢م): عالم فلكي، وفيزيائي إيطالي، كان يُدعى مؤسس العلوم التجريبية المعاصرة، استدعته الكنيسة الرومانية مرتين للتحقيق معه في صحة مناصرته لنظرية كوبرنيكوس، وحكمت عليه عام ١٦٣٣م بالسجن المؤبد.

(٧) دارون: هو تشارلز روبرت دارون Charles Robert Darwin (١٨٠٩-١٨٨٩م)، عالم حيوان شهير، إنجليزي الجنسية، اشتهر بنظرية التطور ومبدأ الانتخاب الطبيعي، حول نشأة الإنسان، وهو أشهر علماء الأحياء في القرون الماضية.

(ت ١٨٨٢م)، وهو الذي قاده عمله -في مراقبة العلاقة بين الكائنات الحية وتفاعلاتها، وكيف تنسجم مع بيئتها وتتكيف معها -إلى أن يقول بأن الكائنات تتطوَّر تبعًا لظروفها وحاجاتها المعيشية، وأنها ترتقي إلى كائنات أفضل. ونحن نتوقَّع أنه لولا أجواء الصراع التي اعْتُبِرَ فيها العلمُ ضدَّ الدين، والدينُ ضدَّ العلم لما تطوَّرت أفكار داروِن إلى هذه النتيجة التي تُخالف رُوح البحث العلمي، وتقترب من الرأي العقيدي، فلو كانت الأجواء هادئة لكانت النتيجة الطبيعية أن يُقال: سبحان الذي خلق فسوى وقَدَّر فهدى.

ومن الدلائل على هذا أن مندل[1] الذي تُنسب إليه قوانين الوراثة، كانت أبحاثه تُثبت أن الأنواع لا تتغيَّر ولا تتطوَّر، بل يمكن تحسين صفاتها فقط عن طريق التهجين، غير أن أجواء الصراع كانت تتقبَّل قوانين داروِن وتُهمل قوانين مندل؛ لأن المعركة الدائرة لا تقبل بالحلِّ الوسط فإمَّا الدين وإمَّا العلم.

وبين هذه المراحل الثلاث (كوبرنيكوس وجاليليو، ثم نيوتن، ثم داروِن) كانت هناك غابة كثيفة من الفلاسفة والأدباء والمفكرين، الذين كانت آراؤهم في مجملها تهاجم الكنيسة بعنف، وهذه هي المرحلة التي وُلد فيها الفكر الغربي، الذي يرفض وجود الإله، ويعتمد مبادئ الصدفة أو التطور أو الشكِّ، ويُعلي من قيمة العقل، وينقل السلطة والتشريع من الإله إلى الشعب.

ومن ثَمَّ استقرَّ الفكر الأوربي على نظريَّتَيْن لتفسير الكون: الأولى استمدَّها من أرسطو[2]، الذي قال بأن الإله قد خَلق الكون، وخلق بداخله القوانين التي تُنَظِّمه، ثم تركه؛ لأنه أعظم من أن يهتمَّ بشيء أقل منه. ويُمثَّل لهذه الحالة بصانع الساعة الذي وضع فيها قوانين الحركة وتركها. والثانية: أن الإله -في الحقيقة- ليس إلاَّ جزءًا من الطبيعة ذاتها وخاضعًا لقوانينها، أو هو قانونها وسرُّ قوَّتها الذي - بمزيد من المعرفة - يمكن فهمه وإدراكه من خلال دراسة قوانين الطبيعة

(١) مندل Mendel: هو جريجور يوهان مندل (١٨٢٢ - ١٨٨٤م)، عالم وراهب نمساوي، يُعَدُّ أبو علم الوراثة، أجرى الكثير من التجارب، واكتشف القوانين الأساسية للوراثة، وكانت تجاربه هي الأساس لعلم الوراثة الذي يشهد تقدُّمًا في عالم اليوم.

(٢) أرسطو طاليس: (٣٨٤-٣٢٢ ق. م)، فيلسوف يوناني، يلقب بـ (المعلم الأكبر)، كان أحد تلاميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر. كتب في مواضيع متعددة تشمل المنطق، والفيزياء، والشعر، والأحياء، وأشكال الحكم.



وسُنَّة الكون؛ وسواء تجلَّى الإله في مخلوقاته حتى يكاد يتوحَّد معها، أو انسحب من الدنيا تمامًا وتركها وشأنها، فإنَّ هذا يعني تهميش الإله[١].

لكن بقيت في هذا الإطار حلقة رابعة، ألا وهي كارل ماركس[٢]، وهو الذي تأثَّر هو وصديقه فريدريك إنجلز[٣] (ت ١٨٩٥م) بداروين، فتجمَّعت السلسلة التي قادت إلى الفكر المادي، ليُقال في صراحة بمبدأ الشيوعية الكبير: «لا إله - الحياة مادة - الدين أفيون الشعوب - كل التاريخ البشري يمكن تفسيره وَفق حاجات مادية فقط». وكانت الحاجة المادية عند ماركس هي الجوع والمسألة الاقتصادية، هذا الاتجاه بُنِيَتْ عليه الثورة الشيوعية، التي أحدثت انفجارًا في زيادة عدد الملحدين في العالم إلى هذه اللحظة.

ولا شكَّ أن الإلحاد يمثِّل رابطة تجمُّع بين معتنقيه على اختلاف رؤاهم التفصيلية، وهي رابطة تتَّفق في استبعاد الإله، كما تتَّفق في إحلال الإنسان أو العقل الإنساني في مكان المرجعية التي تتولَّى أمر التفسير والتشريع.. وما إلى ذلك.

***

وأيًّا ما كانت الإجابة عن هذا السؤال الفارق الكبير، فإن المجموعات التي اختارت إجابة واحدة يتشكَّل بينها ارتباط هو أعمق الارتباطات الموجودة في الكيان البشري، ولهذا اخترنا له اسم «المشترك الأسمى»؛ حيث لا تبلغ رابطة أخرى بين مجموعة من البشر من القوة والمتانة مثل ما تبلغه بينهما رابطة الدين.

وكلما اتفق الناس في تفاصيل الإجابة كان ارتباطهم أقوى وأمتن وأسمى، وكان الاعتداء على هذا الرباط من أخطر الأشياء التي تُنشئ توترات وأزمات دائمة؛ فأتباع الديانات السماوية أقرب بعضهم إلى بعض من أتباع الديانات الوضعية ومن اللادينيين،

---

(١) عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ١/ ١١٨، ١١٩.

(٢) كارل ماركس: هو فيلسوف ألماني يهودي الأصل، وُلِدَ في ٥ مايو ١٨١٨م، عمل بالسياسة والصحافة، وهو صاحب النظرية الاشتراكية، والمنظِّر الأول لها، توفي في لندن عام ١٨٨٣م.

(٣) فريدريك إنجلز Frederich Engels (١٨٢٠-١٨٩٥م)، ألماني من أصل يهودي، وهو صديق كارل ماركس وزميله، وقد وضعا معًا الفكر الماركسي.



فحتى في ظلِّ التوترات الحالية بين الغرب «المسيحي» والشرق «الإسلامي» يتَّخذ المسلمون الذين يعيشون في العالم الغربي جانب الأحزاب المسيحية في كثير من الأحيان؛ ذلك أن ثمة اتفاقًا على كثير من الأمور الأخلاقية المشتركة بين الدينيين يمثِّل تهديدها شيئًا غير مقبول من كليهما؛ مثل: إباحة الشذوذ الجنسي، وزواج المثليين.. وما إلى ذلك.

وأتباع الديانات الوضعية أقرب إلى بعضهم أيضًا، على خلاف واسع في التفاصيل والتنويعات والطقوس والشعائر، إلاَّ أنهم ككيان عامٍّ لا يقبلون اللادينيين، كما لا ينسجمون مع أتباع الديانات السماوية.

واللادينيون مثل هذا، فإنهم ينظرون إلى أصحاب الديانات نظرة المتعلِّم إلى الجاهل، والمتحضِّر إلى المتخلِّف، وصاحب العلم إلى صاحب الخرافة، وثمة احترام يُوليه كلُّ لاديني نحو المتفق معه في أن الأديان خرافة، وأنها من صنع البشر، أو من صنع حكامهم الطواغيت في العصور السحيقة؛ ليسهل من خلالها السيطرة على الناس، وتسخيرهم نحو رغباته ولذَّاته الخاصة.

هذا الارتباط العام القائم يزداد متانة ورسوخًا وقوَّة كلما كان الاتفاق قائمًا في التفاصيل داخل هذه الأقسام الكبرى؛ ففي الديانات السماوية نجد المسلمين والمسيحيين واليهود، وكل منهم أقرب إلى المتفق معه في الدين من المخالف له، بل تجمعهما رابطة قوية ومتينة، كذلك الديانات الوضعية؛ فالبوذيون والهندوس والكونفوشيوسيون والصابئة و.. و.. إلى آخر هذه الأديان، كلٌّ من هؤلاء يرتبط بالمتفق معه في العقيدة -التي هي إجابة أكثر تفصيلاً وتحديدًا عن غيرها من الإجابات عن سؤال الإله- رابطةً أقوى وأمتن من رابطته مع ما سواه. وعند اللادينيين يتكرَّر الأمر، فالذين يعتنقون فكرة النشوء والارتقاء والتطوُّر أقرب إلى بعضهم ممن يرى بأن الكون نشأ بالصدفة، وهؤلاء أقرب إلى بعضهم ممن يرى بأن الكون خلقه إله لكنه تركه ولم يحفل به، ثم هؤلاء أقرب إلى بعضهم ممن يعتنق تفسيرات أخرى.

وكلما أوغلنا في التفاصيل نشأت روابط أكثر قوَّة ومتانة؛ إذ يتفق المذهب في داخل الدين، فبالنسبة للمسلمين يُكوِّن السُّنَّة رابطة أمتن، وكذلك الشيعة، ثم في داخل الشيعة

والسُّنَّة مذاهب فقهية تفصيلية تنشئ بين أتباعها روابط أكثر قوَّة وأكثر صلابة، وبالنسبة للمسيحيين نجد الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت، وفي التفاصيل روابط أكثر قوَّة كذلك، وكذلك بالنسبة لليهود.

والخلاصة المستنتجة من كل هذا أن رابطة الدين أقوى من غيرها من الروابط، كما أن رابطة العقيدة أقوى من رابطة الدين، كما أن رابطة المذهب هي إضافة أخرى للقوة في رابطة العقيدة، ثم الاتفاق في المدرسة داخل المذهب قوَّة جديدة تُضاف إلى قوة هذه الروابط.. وهكذا.

هذه الرابطة هي أقوى أنواع الروابط، وأقوى أنواع التوحُّد، ويمكنها أن تجمع فيما بينها أناسًا لا يشتركون في شيء، اللهم إلاَّ في المشتركات الإنسانية العامة[1]، فتصنع بينهم رابطة تتحدَّى الانفصام، وتمثِّل محورًا تلتقي عنده مشاعر التقارب والتوحُّد والتعاطف والتناصر والتعاون.

وإننا لنُدرك ببساطة تعاطف أصحاب الدين الواحد مع بعضهم، مهما تباعدت بينهم باقي الروابط؛ فالاعتداء على المسلم في إندونيسيا أو الصين -وهما في أقصى الشرق- يُثير المسلمين في المغرب والجزائر وهما في أقصى الغرب، وكذلك إذا وقع اضطهاد للمسيحيين أو اليهود أو الهندوس في أي مكان، فإن هذا يُشعل ويُثير مناطق أخرى أبعد ما تكون عن منطقة الأزمة، لا يُشعلها ولا يُثيرها إلاَّ رابطة الدين.

***

وحيث وصلنا إلى أن الرابطة الدينية أقوى أنواع الروابط بين البشر، فعلينا أن ننظر إلى هذا الأمر من زاويته الإيجابية، حينها سنرى أن المسيحية -التي يعتنقها ٢,١ بليون يمثِّلُون ٣٣٪ من مجموع البشر- قد استطاعت أن تجمع بين أطياف مختلفة من البشر، في اللغة والعرق وعلى مساحة الأرض شرقًا وغربًا، وعلى تباين التاريخ والعادات والتقاليد وما إلى ذلك، كذلك فعل الإسلام مع ١,٥ بليونًا يمثِّلُون ٢١٪ من البشر، وبشكل أقلَّ من هذا فعلت

(١) سنفصلها في الفصل التالي.

الهندوسية مع ٩٠٠ مليون يمثِّلُون ١٤٪ من البشر.. وهكذا[1]. **(انظر: شكل رقم ٨ الأديان على مستوى العالم).**

إننا نُبصر في هذا رابطة استطاعت أن تُوَحِّد بين كثير من التباينات الإنسانية، وإنه لأمر يدعو إلى الإعجاب، بل والحرص على استمراره، ونستطيع إذا توسعنا قليلاً أن نرى أن الديانات السماوية الثلاث تجمع بين أكثر من ٥٤٪ من الناس.. إن هذا الرقم لا يجتمع على رابطة أخرى، ألا يمكن أن يكون هذا بابًا فريدًا في التواصل الإنساني؟!.

فإذا أضفنا إلى هذا الكم من الناس المترابطين، ما بينهم من روابط أخرى؛ كاللغة والعرق والأرض والثقافة، والتاريخ المشترك، والعادات والتقاليد، فإننا حينها نستطيع تخفيض ما يمكن أن يكون سببًا في النزاعات إلى الحدِّ الأدنى.

إن الرابطة الدينية -التي هي أقوى الروابط الإنسانية- بإمكانها أن تكون أساسًا متينًا تنمو عليه كثير من الروابط الأخرى، ويمكنها أن تكون معبرًا لتجاوز الاختلافات الأخرى كذلك.

***

هي كذلك أخطر وأشرس أنواع الصراعات..

وهذا شيء بدهي، يسوق إليه المنطق العقلي: فأقوى أنواع الترابط لا بُدَّ أن ينشأ عن محاولات كسرها أشرس أنواع الصراعات، كما يسوق إليه حديث التاريخ؛ فأشدُّ الحروب الإنسانية ضراوة وأطولها عمرًا هي الحروب التي اشتعلت بسبب الاعتداء على هذا المشترك الأسمى.. الدين؛ الحروب التي نشأت بسبب العقيدة كانت أشدَّ من الحروب الناشئة على أي سبب آخر، حتى الحروب التي نشأت على الطعام والشراب والموارد الاقتصادية، أو نشأت لتوسيع النفوذ وزيادة رقعة الدولة أو الإمبراطورية، لا شيء أكثر إلهامًا وإثارة وتحفيزًا للطاقات في النفس الإنسانية من العقيدة والدين.

(١) إحصائية موقع (Adherents.com) المتخصص في الجغرافيا الدينية لعام ٢٠٠٥م.

السيخ ٠,٣٦%

اليهودية ٠,٢٢%

المسيحية ٣٣%

البونية ٦%

أخرى

الصينية ٦%

الوثنية ٦%

الهندوسية ١٤%

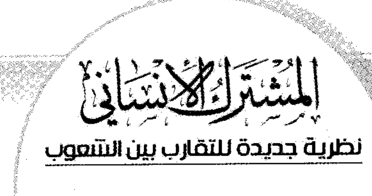
اللا دينين ١٦%

الاسلام ٢١%

الأديان على مستوى العالم

شكل رقم (٨)







ويمكن للحرب الدينية أن تنشأ بين عقيدة وأخرى داخل الدولة الواحدة، وبين دولة وأخرى داخل الحضارة الواحدة، ثم بين حضارة وأخرى؛ ومن الأمثلة على الحرب داخل الدولة الواحدة ما كان من الحرب الأهلية اللبنانية.

كانت الحرب اللبنانية -التي بدأت في عام ١٩٧٥م، وانتهت باتفاق الطائف الشهير في عام ١٩٩٠م- من أبرز الأمثلة الدالَّة على ما للنوازع العقدية من دور لا يُستهان به في إشعال الصراع كلما خفي أو خفت، صحيح أن الحرب بدأت بين القوى المسيحية في لبنان والحركات الفلسطينية؛ إلاَّ أن الصراع قد طال كافَّة العناصر والطوائف الأخرى، التي رأت ضرورة الوقوف بجوار هذا أو ذاك، ثم ما لبث الأمر أن أضحى عقديًّا في أحد جوانبه؛ ليستمرَّ ١٥ عامًا سقط خلالها الآلاف من الضحايا الأبرياء[١].

ولقد أدَّى مولد البروتستانتية في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، إلى الحرب بين الكاثوليك والبروتستانت، حرب هائلة نشأت في داخل الحضارة الواحدة بين الطوائف التي تعتنق هذين المذهبين، وكان من عنفها أن استمرَّت لأكثر من مائة عام، ولا يزال شعور الكراهية يسود بين الكاثوليك والبروتستانت في أجزاء من أوربا حتى هذه اللحظة، وعلى سبيل المثال، فلقد أدَّى الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت في أيرلندا الشمالية إلى كثير من أعمال العنف في المنطقة منذ الستينيات من القرن العشرين[٢].

وأمَّا ما نشأ بين حضارتين لكل منهما دين مختلف، فأبرز مثال له ما كان من الحروب الصليبية، التي كان الدافع العقدي والديني واضحًا فيها؛ ومن ثَمَّ اشتركت فيها جميع الأطياف والطبقات الأوربية، وكانت خطبة البابا أوربان الثاني[٣] في جنوب فرنسا في نوفمبر عام ١٠٩٥م دليلاً واضحًا على هذا الحشد الديني، ولقوَّة هذا الدافع فقد استمرَّت الحروب الصليبية ما يقرب من ٢٠٠ عام متصلة، سقط فيها مئات الآلاف من الجانبين، قُتل فيها -كما يقول ول ديورانت- «خيرُ ما في الشرق والغرب»[٤]. **(انظر: صورة رقم ٧ الحروب الدينية)**.

---

(١) انظر: فواز طرابلسي: تاريخ لبنان الحديث من الإمارة إلى اتفاق الطائف ص٣٥٠-٣٧٠.

(٢) الموسوعة العربية العالمية (أوربا).

(٣) أوربان الثاني: هو البابا أوربانوس الثاني (١٠٤٢ - ١٠٩٩م).

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٣٨٦.



مذبحة باريس

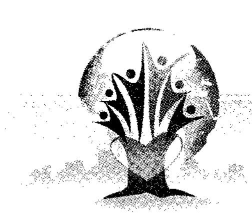


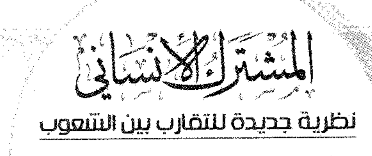
الحرب الأهلية في لبنان

الحروب الدينية

صورة رقم (٧)

الصراع الكاثوليكي البروتستانتي
في أيرلندا الشمالية





وإدراكًا لحقيقة أن الدين هو أقوى الروابط، وأكثر العناصر الفعَّالة لإثارة الطاقات وتفجير المواهب الإنسانية، فإن كثيرًا من الزعماء يستعملونه كغطاء لمصالحهم الذاتية العاجلة، التي تقتضي أن يحشدوا الناس إلى حرب تضيع فيها أرواحهم ودماؤهم؛ لذا فإن كثيرًا من المعارك تتحوَّل من حرب لأهداف غير عقدية إلى معارك عقدية بعد مرور وقت، فتأخذ بُعْدًا أكبر من بُعدها الأصلي، فلا تنتهي حتى لو تحقَّقت المصلحة.

كل الحروب والصراعات تدور حول المصالح، لكن المصالح لا تسير وحدها عارية من الأفكار والعقائد والفلسفات والأيديولوجيات؛ فالجيوش التي تحارب -في سبيل المصالح- لا بُدَّ لها من «عقائد قتالية» تدفعها للتضحية في سبيل تحقيق «المصالح»، والجماهير التي تُجيِّش الجيوش وتُنفق على التسليح وتضحِّي في الحروب، لا بُدَّ لها من أفكار وأيديولوجيات وعقائد تشحنها وتُحرِّضها على تقديم التضحيات، ولهذه الحقيقة ارتبطت حروب المصالح وصراعاتها بحروب الأفكار والعقائد والأيديولوجيات[1].

ولهذا تسير الجيوش الأميركية بعددها وعُددها فتعبر المحيطات، وتشقُّ الأجواء، وتنزل إلى الصحراء تحت عناوين «تحرير الكويت»، أو «القضاء على الإرهاب»، أو «نشر الديمقراطية»، ثم إنها قبل كل ذلك وبعده تحرص على عقود الإعمار وآبار البترول، لكنَّ رئيسها حين يجد نفسه في موطن يجب فيه أن يحشد الناس فإن لسانه -بقصد أو بغير قصد- يندفع قائلاً: «إنها حرب صليبية».

وهو ما يُعيد إلى الذاكرة ما حدث قبل قرن من الزمان عند دخول الجنرال الإنجليزي إدموند ألنبي[2] إلى القدس عام ١٩١٨م قائلاً: «الآن انتهت الحروب الصليبية». وبعده بعامين ١٩٢٠م حين دخل الجنرال الفرنسي هنري جورو[3] إلى دمشق بعد انتصاره في معركة

(١) محمد عمارة: الإسلام في مواجهة التحديات، ص٢٦.

(٢) إدموند ألنبي Edmund Allenby: هو إدموند هنري هاينهان ألنبي، (١٨٦١-١٩٣٦م)، من أشهر قادة الحرب العالمية الأولى، واحتل سوريا وفلسطين.

(٣) هنري جورو Henri Gouraud: هو الجنرال هنري جوزيف أوجين جورو (١٨٦٧-١٩٤٦م)، قائد عسكري فرنسي في الحرب العالمية الأولى، وهو مَنْ تولى إعلان دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠م.

ميلسون، ثم رَكَل قبر صلاح الدين الأيوبي قائلاً: «ها قد عدنا يا صلاح الدين».

وهكذا استطاع الدين إبقاء العاطفة مشتعلة متوقِّدة، تعمل تحت الرماد والركام، حتى تنفجر في اللحظة المناسبة، حتى لو كان هذا بعد انتهاء سلطة الدين في أوربا التي صارت علمانية، وحتى لو كانت هذه الحروب استعمارية قَصَد بها الساسةُ توسيع أملاكهم ونفوذهم وثرواتهم.

***

في النصف الأول من القرن العشرين كان المثقَّفُون يعتقدون أن التحديث الاقتصادي والاجتماعي سيُؤَدِّي إلى ذبول الدين، وكانت ثمة مخاوف وانزعاجات في المقابل من انتهاء الدين، ودخول البشر في فوضى شاملة، لكن النصف الثاني من القرن العشرين أثبت أن آمال المثقفين، ومخاوف المنزعجين لا أساس لها؛ فالتحديث الاقتصادي والاجتماعي تعاظم، وصار كونيًّا من ناحية الحجم، وفي الوقت نفسه حدثت صحوة دينية كبرى، انتشرت في كل قارة وكل حضارة وكل دولة، وبدلاً من أن تظهر توجهات دينية تحاول التكيف مع العلمانية، ظهرت التوجهات التي تُريد استعادة الأساس المقدَّس لتنظيم المجتمع، بل وتغيير المجتمع، فلم تَعُد القضية قضية تحديث، وإنما «أنجلة[1] ثانية لأوربا»، ولم يَعُد الهدف تحديث الإسلام، وإنما «أسلمة الحداثة»، لقد اتسعت رقعة الأديان وكسبت أرضًا جديدة ومعتنقين جددا، وعاد أناس كثيرون إلى قيم مجتمعاتهم الدينية، وظهرت في كل الأديان والحضارات حركات أصولية ملتزمة بتنقية للعادات والتقاليد الدينية، وإعادة تشكيل السلوك الشخصي والاجتماعي العام بما يتَّفق مع العقائد الدينية[2].

بدا العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين وكأنه في فراش الموت، ثم أُعلن -في لحظة تاريخية قاسية- نبأ إلغاء الخلافة الإسلامية قبل انتهاء الربع الأول من هذا القرن (١٣٤٢هـ=١٩٢٤م)، وهو الحدث الذي يقع لأول مرَّة في كل التاريخ الإسلامي، الذي كان حدثًا مدوِّيًا في كل أنحاء العالم، إلاَّ أن هذا العالم في نهاية القرن العشرين كان يعيش صحوة

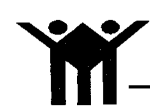
(١) بمعنى العودة إلى الإنجيل.

(٢) صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات، ص١٥٨.

إسلامية هائلة، واستطاعت صحوته هذه أن تُغَيِّر من خريطة العالم، ومن موازين قوته في هذه الفترة الأخيرة، وخاضت الصحوة الإسلامية تجارب كثيرة، فنجحت وأخفقت، وصعدت وسقطت، وأنتجت كثيرًا من الأفكار والرؤى بل والدول، ولربما كان النصف الثاني من القرن العشرين عنوانًا على هذه الصحوة، التي تندفع بقوَّة فتواجهها جحافل الجيوش ومطارق الاستبداد، حتى صار الالتهاب والاشتعال والمواجهة عنوانًا على هذه المنطقة الإسلامية.

بدأت الصحوة من مصر بعد قليل من إلغاء الخلافة، ثم في الهند وباكستان في الأربعينيات والخمسينيات، ثم ساد صمت ثقيل في الستينيات مع جلبة المدِّ الشيوعي، ثم انفجار هائل في السبعينيات في مصر ثم البلاد العربية، ولم تنتهِ السبعينيات حتى كان رجال الدين في إيران قد استطاعوا القيام بثورة وحكم الدولة، واستمرَّت الصحوة في الثمانينيات في السودان والجزائر ودول الخليج العربي وأفغانستان، التي كانت تُواجه الاحتلال الروسي، ولم تنتهِ الثمانينيات حتى كان العالم أمام خريطة أخرى: انقلاب إسلامي في السودان، وفوز الإسلاميين في الجزائر، وانتفاضة ملتهبة في فلسطين، وهزيمة مدوية للدب الروسي في أفغانستان، التي ستكون من أسباب انهياره بعد قليل.

ثم تزيد الحوادث من نموِّ الصحوة الإسلامية في التسعينيات؛ فحروب البوسنة والهرسك، والشيشان، وكشمير، وسحق الإسلاميين في الجزائر رغم فوزهم بالانتخابات، واستمرار الممارسات الصهيونية في فلسطين، ثم حرب كوسوفا في نهاية التسعينيات.. كل هذا وغيره جعل بداية الألفية الثالثة بداية حافلة، وانتصار المقاومة في لبنان وإجبارها الكيان الصهيوني على الانسحاب من الجنوب اللبناني، وبعدها بأربعة أشهر تنفجر انتفاضة هائلة تُعيد الحديث عن مصير دولة الكيان الصهيوني، ثم وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر، واحتلال أفغانستان ثم العراق، ثم حرب ثانية في لبنان ٢٠٠٦م، ثم ثالثة على قطاع غزة ٢٠٠٨-٢٠٠٩م.. وبين هذا إساءات متعمدة للإسلام وللنبي ﷺ وللقرآن في البلاد الغربية..



كل هذا وغيره يزيد من الشعور الإسلامي بوجود حالة من المؤامرة على أرضه وبلاده وثرواته ودينه، كما أن عدم تحقق رغبة هذه الشعوب في أن تحكم بالشريعة الإسلامية[1] يجعل التمسُّك بالدين والهوية والحفاظ عليها أشد منه في الحالات الطبيعية. (انظر: **شكل رقم ٩ العودة إلى الدين**).

وأمَّا العالم المسيحي، الذي تقوده اليوم أميركا، فإن المُراجِع لتاريخ أميركا الحديث يجد أن هناك صحوة دينية بروتستانتية، كان لها أثر مباشر على الرؤساء والشعب الأميركي، حتى أثمرت نتيجة تقول بأن الرئيس الأميركي أحد رجلين: متدين، أو علماني مضطر إلى احترام المتدينين جدًّا؛ وكلاهما من البروتستانت، ويكفي أن نعرف أن جميع رؤساء أميركا في القرن العشرين بروتستانت، باستثناء الكاثوليكي جون كيندي[2]، الذي قُتل في ظروف غامضة!

وفي السبعينيات زادت الحركة الدينية نشاطًا في أميركا، وظهر ما يُعرف بالكنائس التليفزيونية، كما ازدادت الطوائف الأصولية قوَّة، كالطائفة المعمدانية (Babtist)، والمنهجية (Methodist)، بل نما جدًّا تيار «المسيحيين المولودين من جديد» (Born Again Christians)، وهو أكثر التيارات اعتقادًا بقدسية اليهود وعصمتهم، وإليه ينتمي الرئيس جيمي كارتر[3]، الذي أعلن صراحةً في خطاب له أمام الكنيست سنة ١٩٧٩م أن العلاقة بين أميركا والكيان الصهيوني هي علاقة دينية في الأساس، وكان مما قاله: «هي علاقة لا يمكن تقويضها؛ لأنها متأصِّلة في وجدان وأخلاق وديانة ومعتقدات الشعب الأميركي».

---

(١) في الاستطلاع الذي أجرته مؤسسة جالوب الأميركية ونشرت نتائجه على موقعها في ١٠/ ٧/ ٢٠٠٨م، بعد استغراق ٦ سنوات على شعوب مصر وتركيا وإيران، بدا أن الأغلبية الساحقة تريد تطبيق الشريعة الإسلامية، ورغم ما نأخذه على هذا الاستطلاع من أسئلة مراوغة، وأحيانًا غير واضحة، نتوقع أنها إن جُليت لكانت آراء المستطلعين بغالبية أعلى، إلاَّ أن النتائج تظلُّ شاهدًا واضحًا على رغبة الشعوب في أن تُحكم بالشريعة الإسلامية. انظر: موقع مؤسسة جالوب على الرابط: www.gallup.com.

(٢) جون كيندي (١٩١٧ - ١٩٦٣م): رئيس الولايات المتحدة الأميركية رقم (٣٥)، وهو أصغر رئيس أميركي منتخب، والرئيس الأميركي الكاثوليكي الوحيد، تعرض لعملية اغتيال في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣م.

(٣) جيمي كارتر (١٩٢٤م -...): رئيس الولايات المتحدة رقم (٣٩)، في الفترة من ١٩٧٧ إلى ١٩٨١م، عن الحزب الديمقراطي، أهم أحداث فترته الرئاسية توقيع اتفاقيات كامب ديفيد للسلام.

أى من العبارات الآتية هى الأقرب لوجهة نظرك حول الشريعة الإسلامية كمصدر للتشريع؟

- يجب أن تكون الشريعة هى المصدر الوحيد للتشريع
- يجب أن تكون الشريعة أحد مصادر التشريع ولكنها ليست الوحيدة
- لا يجب أن تكون الشريعة أحد مصادر التشريع
- لا أعلم

إيران: ٪١٤ ‏– ٪٦٣ ‏– ٪١٣ ‏– ٪١١

مصر: ٪٦٤ ‏– ٪٢٤ ‏– ٪٩

تركيا: ٪٧ ‏– ٪٢٦ ‏– ٪٤١ ‏– ٪٢٦

استبيان مؤسسة جالوب ٢٠٠٨م

الأغلبية الساحقة من الشعوب الإسلامية تريد تطبيق الشريعة الإسلامية

العودة إلى الدين

شكل رقم (٩)



ومن بعد كارتر جاء (رونالد ريجان[١])، الذي أعلن سنة ١٩٨٠م أنه سيُؤَيِّد تمامًا الأجندة الأخلاقية لليمين المسيحي، وكان من نتيجة ذلك أن قامت منظمة «الأغلبية الأخلاقية» -وهي منظمة مسيحية متشدِّدَة، أسَّسها القس الأميركي (جيري فالويل) سنة ١٩٧٩م- بحشد ثلاثة ملايين ناخب لصالح ريجان، كما أعلن ريجان أمام المنظمة اليهودية «بناي برث» في واشنطن أن «إسرائيل ليست أُمَّة فقط، بل هي رمز؛ ففي دفاعنا عن حقِّ إسرائيل في الوجود، إنما نُدَافِع عن ذات القيم التي بُنيت على أساسها أُمَّتنا». وكان ريجان طوال السنوات الثماني -كما يقول الكاتب الأميركي جيمس ميلز- ينطلق في سياسته من إيمانه بتنبُّؤَات الكتاب المقدس، وخاصة سِفر حزقيال، وما جاء فيه من أن الرب سيأخذ أولاد إسرائيل إلى الأرض الموعودة. وخطب أمام إيباك[٢] فكان من كلامه: «عندما أعود بالذاكرة لأنبيائكم الأقدمين في التوراة، والعلامات التي تتنبأ بالمعركة الفاصلة هرمجدون[٣]، أجدني أتساءل: إذا كنا نحن الجيل الذي سيشهد وقوعها».

وسار على الطريق نفسه جورج بوش الأب[٤]، الذي قدَّم أجلَّ الخدمات للكيان الصهيوني، وللتيار المسيحي المتشدِّد؛ وذلك بالتواجد العسكري الدائم في منطقة الشرق الأوسط؛ ليُصبح حُلم هرمجدون قريب الحدوث، ولتتحرَّك العواطف بشكل أكبر من دولة اليهود، ثم هدأت لغة الخطاب الديني إلى حدٍّ ما في عهد الرئيس كلينتون (١٩٩٣-٢٠٠١م)، إلاَّ أنها عادت، وبقوَّة أشدَّ من كل الفترات السابقة، عندما اعتلى عرش أميركا الرئيس الأميركي المتشدد جدًّا جورج بوش الابن! ولم يكن تشدُّده واضحًا فقط في شخصه، بل وفي كل حكومته؛ فقد كانت أصولية

---

(١) رونالد ريجان: هو رونالد ويلسون ريجان (١٩١١ - ٢٠٠٤م)، رئيس الولايات المتحدة الأميركية رقم (٤٠)، ويُعتبر أحد أكبر رؤساء أميركا عمرًا.

(٢) إيباك: (AIPAC) هي «لجنة الشئون العامة الأميركية الإسرائيلية American Israel Public Affairs Committee».

(٣) هرمجدون: المعركة الفاصلة بين الخير والشر، أو بين الله والشيطان، وهي التي يكون على إثرها نهاية العالم كما في الأدبيات التوراتية، وتقع في منطقة هضبة «مجدو» أو «مجيدو» إلى الشمال من القدس بحوالي ٩٠ كم، وإلى الجنوب من حيفا بحوالي ٣٠ كم.

(٤) جورج بوش الأب: هو جورج هربرت واكر بوش (١٢ يونيو ١٩٢٤-...)، رئيس الولايات المتحدة الأميركية رقم (٤١)، في عهده نزلت الجيوش الأميركية إلى الشرق الأوسط تحت ذريعة تحرير الكويت، وبهذه الخطوة تغيرت الكثير من الموازين والاستراتيجيات لصالح أميركا على حساب العرب.

من الدرجة الأولى، وهو الذي لم يتردَّد في أن يُعلن أن اليهود هم الشعب الوحيد الذي اختاره الله، وكان يرى أن الضفة الغربية وقطاع غزة منحة ربانية لليهود، لا يجوز التنازل عنها! ولم يكن يبدأ يومه -كما أعلن بنفسه- إلاَّ بقراءة صفحات من الكتاب المقدس، بل إنه لم يتردَّد أن يُعلن -كما سمع الجميع- أن حربه ضد المسلمين هي حرب صليبية! وأنا لا أعتبرها سقطة ينبغي الاعتذار عنها، ولكنها صراحة شديدة، وأمانة في نقل الأفكار والمشاعر! (انظر: **صورة رقم ٨ إشعال الحروب الدينية**) ومع أن باراك أوباما ديمقراطي ليبرالي، إلاَّ أنه لا يستطيع أن يخرج عن المسار، ومع أن جذوره مسلمة إلاَّ أنه يُعلن أنه بروتستانتي يُؤمن بكل معتقدات البروتستانت، ولن يعمل ضدها أبدًا؛ إمَّا رغبة وإمَّا رهبة(١)!

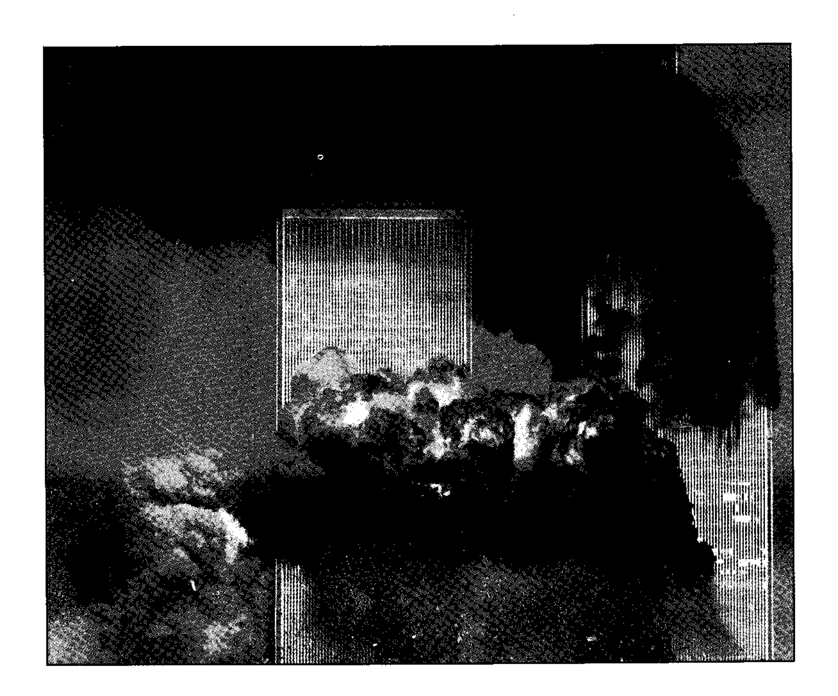
وفي روسيا التي كانت معقل الشيوعية ومركز نفوذها وانتشارها، تعود أصوات أجراس الكنائس لتملأ الجوَّ مرَّة أخرى، وتلمع قباب مذهَّبة جديدة في الشمس، ويتردَّد الإنشاد الديني في الكنائس، التي كانت أنقاضًا حتى وقت قريب.. وهي أكثر الأماكن ازدحامًا(٢).

وأمَّا الصحوة اليهودية فلا تُخْطِئُها العين؛ فالدولة التي زُرِعت في قلب العالم الإسلامي زرعت في الأساس بناء على المبادئ الدينية: وَعْد الرب، وأرض المعاد، وجبل صهيون، بل إنها اختارت لنفسها اسمًا توراتيًّا يُعلن عن الهوية الدينية للدولة.

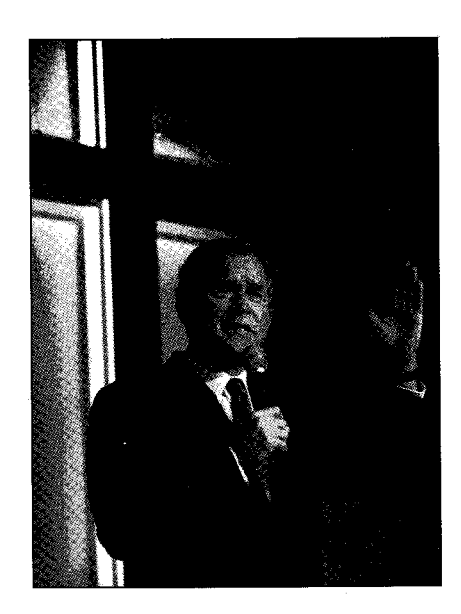
وهذا برغم كون معظم أولئك الصهاينة الأوائل علمانيين، لا يؤمنون بالمعتقدات اللاهوتية، إلاَّ أنهم عمدوا إلى توظيف الصور اليهودية الدينية التقليدية في التعبير عن مثلهم، فاعْتُبِر هرتزل «الحلم الذي تعلَّق به شعبنا مدة ألفي عام وقد تحقق أخيرًا، وأن المسيح المخلِّص ابن داود يقف أمامنا». على حدِّ قول موردخاي بن آمي فيما بعدُ، وهرتزل هذا ليس غير متدين فحسب، بل لقد فكَّر في اعتناق المسيحية، وهو لم يكن يُفكِّر في البدء إلاَّ في توطين اليهود في مجتمعاتهم، إلاَّ أنه تراجع عن رأيه هذا حين اكتشف هشاشة وضع اليهود في المجتمعات الغربية، والتي لا تسمح باستقرارهم في أوربا(٣).

---

(١) راغب السرجاني: بين التاريخ والواقع ص١٩٧ وما بعدها.
(٢) صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات، ص١٥٩.
(٣) كارين أرمسترونج: القدس.. مدينة واحدة وعقائد ثلاث، ص٥٨٧، ٥٨٨.

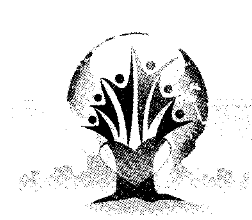


أحداث الحادي عشر من سبتمبر



إشعال الحروب الدينية

صورة رقم (٨)





ثم كان لا بُدَّ للدولة التي زُرعت بالقسر في محيط لا يقبل بها أن تحافظ على وجودها، بل وعلى مصدر دائم للطاقة يجعل هذا الشعب -الذي يحارب منذ ثلاثة أرباع القرن- قادرًا دائمًا على مواصلة الحرب، وعلى البذل لها والإنفاق على تسليحها، حتى لقد صار الشعب كله عسكريًّا، وصار الكيان الصهيوني -كما يُقَال بحقٍّ- الجيش الذي له دولة، لا الدولة التي لها جيش. وكل هذا ما كان بالإمكان أن يتمَّ لولا الجهود الهائلة التي تُبذل في إثارة المسألة الدينية.

ثم كان لا بُدَّ من صحوة يهودية أخرى على مستوى العالم الخارجي؛ لجلب مزيد من الدعم والمساندة من كل الأماكن حول العالم، وهذا يستلزم قيام المؤسسات والهيئات والفعاليات ومراكز الضغط حول العالم، ولا يفعل كل هؤلاء إلاَّ شيئًا واحدًا؛ ألا وهو إذكاء الروح الدينية القادرة على استخراج الحدِّ الأقصى من أموال التبرعات.

وفي شبه الجزيرة الهندية ومنذ وصل الائتلاف الحكومي بزعامة حزب الشعب الهندي (بهاريتا جاناتا)، ذي النزعة القومية الهندوسية، ازدادت حدَّة التوتر بينه وبين المسلمين والمجموعات المسيحية، خاصة بعد انتعاش حركة المتطوعين الوطنيين، التي تدعو إلى الصحوة الهندوسية من خلال التعرُّف على تاريخ وأمجاد الهند القديمة؛ وإعادة كتابة تاريخ الهند -بما يجعل الهنود سكانًا أصليين للهند، وليسوا من المهاجرين الآريين القادمين من القوقاز وآسيا الوسطى، وبما يمحو تاريخ الإسلام وسلاطين المغول العظام من المسلمين- وإرساء نمط حياة على الطريقة الهندية في أعماق المجتمع، وذلك في أفق إنشاء دولة قومية هندوسية، وإحياء دولة بهارات التي «دنَّسها المسلمون والسيخ»؛ حسب شعارات الأصوليين الهندوس، وقد خاض حزب جاناتا الحملة الانتخابية في عام ١٩٩٧م، على أساس التعهُّد بمشاريع معادية للمسلمين؛ مثل: إعادة بناء معبد الإله الهندوسي راما على موقع المسجد البابري بأيوديا، إلغاء التشريعات القانونية الخاصة بالمسلمين، إنهاء الوضع الخاص بمقاطعة كشمير؛ وكشمير هي بؤرة النزاع الديني المشتعلة، التي لم تتوقَّف منذ انفصال الهند عن باكستان منذ ما يقرب من ثلثي قرن، والتي تسبَّبت في حربين من الحروب الثلاث التي

خاضتها الهند وباكستان[١].

الصحوة الدينية حقيقة واقعة.. وهي منتشرة في كل مكان..

بعبارة ألفين وهايدي توفلر: «فإن التأثير المتزايد للأديان العالمية من الإسلام وحتى الأرثوذكسية الروسية، مرورًا بطوائف العصر الجديد المتكاثرة بسرعة، ليست في حاجة إلى توثيق، فالكل سيكون لاعبًا أساسيًّا في النظام العالمي للقرن الحادي والعشرين»[٢]. ليست بحاجة إلى توثيق لأنها حقيقة كما يقول جورج ويجل[٣]: «نزع العلمنة عن العالم هو إحدى الحقائق السائدة في أواخر القرن العشرين»[٤].

وبعبارة روبين رايت[٥] التي تُؤَكِّد بأنه «في نهاية القرن العشرين أصبح الدين قوَّة حيوية للتغيير على النطاق العالمي، فبين المجتمعات المناضلة لتحرير نفسها من الأنظمة المفلسة وغير الكفيَّة، وإيجاد بدائل قابلة للبقاء، يُوَفِّر الدين المُثُل، الهوية المشروعية، والبنية التحتية بدرجات متباينة؛ البوذيون في شرق آسيا، الكاثوليك في شرق أوربا، أميركا اللاتينية والفلبين، السيخ والهندوس في الهند، وحتى اليهود في إسرائيل، كلهم عادوا إلى إيمانهم الديني؛ كي يُجَدِّدُوا أهدافهم ويتعبَّئُوا»[٦].

***

(١) محمد سعدي: مستقبل العلاقات الدولية، ص٢٥٠، ٢٥١.

(٢) ألفين توفلر وهايدي توفلر: «النظام العالمي في القرن الحادي والعشرين»، ترجمة عصام الشيخ، مجلة الثقافة العالمية- العدد ٧٠، مايو ١٩٩٥- ص٢١. نقلاً عن: محمد سعدي: مستقبل العلاقات الدولية ص٩٢.

(٣) جورج ويجل George Weigel (١٩٥١م-...): كاتب وناشط سياسي واجتماعي أميركي، وهو زميل معهد الأخلاق والسياسة العامة، ولاهوتي كاثوليكي، وكاتب سيرة البابا يوحنا بولس الثاني، من كتاباته: (رسائل إلى الشباب الكاثوليك)، و(الكاثوليكية وتجديد الديمقراطية الأميركية).

(٤) صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات، ص١٥٩.

(٥) روبين رايت Robin Wright: كاتبة صحفية ومحللة سياسية، ذات اهتمام خاص بالشرق الأوسط، وخاصة بدول العالم الإسلامي، وإيران وأفغانستان خاصة، نُشرت لها العديد من الدراسات السياسية في الواشنطن بوست ولوس أنجلوس تايمز، وصحيفة صنداي تايمز في لندن، نُشر لها: مستقبل الشرق الأوسط.. أحلام وظلال.

(٦) Robin Wright, Islam, Democracy and the West Foreign Affairs, vol. 71, no. 3 (summer 1992), p. 133.

نقلاً عن: محمد سعدي: مستقبل العلاقات الدولية ص٩٤.

والحقيقة أن عودة الناس إلى الدين ليست أمرًا مستغربًا، بل المستغرب أنهم كانوا بعيدين في فترة الخمسينيات والستينيات؛ فالدين مزروع في فطرة البشر ومقترن به منذ بداية الخَلْق، أو على حدِّ تعبير كارين أرمسترونج: «الإنسان كائن ديني»[١]. إلاَّ أن كثيرًا من العوامل التي عاشتها البشرية في القرون الأخيرة دفعتها نحو العودة إلى الدين بشكل أعظم.

لقد أسفرت الحقبة المادية عن تغيُّر مؤثِّر في التركيبة الأسرية والاجتماعية؛ فالمجتمعات التي تخلَّت عن الدين، وسعت نحو المادَّة أفاقت لتجد نفسها قد خسرت أوثق الروابط الإنسانية قاطبة.. رابطة الأسرة، لقد تحوَّل أعضاء الأسرة بالتدريج إلى أعضاء مستقلِّين، لكلٍّ حقوقه الفردية، وتتحوَّل الأسرة إلى حقوقٍ للمرأة، حقوق للطفل، وتختفي العائلات الكبيرة وتسود العائلات الصغيرة ذات الأفراد (الاثنين أو الثلاثة)، بل ظهرت الأسر التي بأب دون أم، أو التي بأم دون أب، وتحلُّ العلاقات التعاقدية محلَّ العلاقات التراحمية، حتى وصل الحال إلى أن يعيش الذكر مع الأنثى بدون عقد زواج، في مساحة من الحرية تُتيح لكل منهما أن يواصل العلاقة يومًا آخر أو ألاَّ يفعل[٢].

ووصلت معدَّلات الطلاق في أميركا إلى ٧٢, ٦٤٪[٣]، بينما سجَّلت سويسرا أعلى المعدلات في دول الاتحاد الأوربي بنسبة طلاق تصل إلى ٤٦٪[٤]، فيما بلغ متوسط نسب الطلاق في دول الاتحاد الأوربي ٤٠٪[٥].

وتعليقًا على هذا الارتفاع في نسب الطلاق، نقرأ في تحليل خبراء الاجتماع السويسريين، الذين اهتمُّوا بالبحث في دلالات التقرير السالف الإشارة إليه قولهم بأن «تلك الزيادة في حالات الطلاق تعكس حالة من التوتُّر الاجتماعي، تُؤَدِّي إلى فشل الطرفين في تحقيق حياة

---

(١) نشرت الكاتبة البريطانية المتخصصة في مقارنة الأديان كارين أرمسترونج في سبتمبر ٢٠٠٩م كتابًا عن التاريخ الإنساني المتعلق بالإله وأعطته عنوان «الله لماذا؟»، تُرجم إلى العربية، ونُشر في إصدارات سطور الجديدة، وهو كتاب قيم كعادة كتبها.

(٢) انظر: عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ١٥٧ وما بعدها.

(٣) تقرير بعنوان «Divorce Rate - U.S.A» من موقع «aboutdivorce»، (www.aboutdivorce.org).

(٤) تقرير المكتب الفدرالي السويسري للإحصاء، عرض له موقع الجزيرة نت، (www.aljazeera.net).

(٥) تقرير منشور بشبكة الأمان الإخبارية، (www.amanjordan.org).



زوجية مستقرَّة، لاختلاف رؤية كل منهما لمفهوم الأسرة والهدف من الزواج؛ إذ لا تزال أغلبية المجتمعات الأوربية تبحث منذ سنوات عن تفسير لمصطلح الزواج وأهميته، وهذه النتيجة هي محصلة طبيعية لسنوات من التقليل من شأن كيان العائلة وغالبية القيم والمبادئ، فلم يَعُدْ هناك اهتمام بمفهوم الانتماء للوطن أو الدين، وسيطرت الفردية والانعزالية على تفكير أجيال متعدِّدة، حتى الحب تحوَّل إلى علاقة مرتبطة بحسابات الربح والخسارة.

كما أنه ليست هناك مشاعر متبادلة تحثُّ الطرفين على تحمُّل المسئولية، وعندما يحاول الرجل والمرأة بناء كيان أُسَرِيٍّ مشترك، فإن قيم الفردية تكون هي المسيطرة في خلفية كل منهما، وبالتالي لا يمكن انتظار تقديم أي طرف منهما لتضحيات؛ لإنقاذ الأسرة، إذا ما تعرَّضت لمشكلة ما، فيكون الطلاق هو الحل الوحيد»[(١)].

وعاد الناس إلى الدين بعد الانهيار الكبير الذي أصاب المنهج الشيوعي، الذي كان يستبعد الأديان، لا بل يهاجمها، ويراها «أفيون الشعوب»، فترتب عليه انهيار أخلاقي كبير كان نتيجة منطقية لغياب الإله والدين والقيم، وكان لا بُدَّ بعد فشل التجربة -التي لم تُحَقِّق لا الرخاء الاقتصادي ولا الإشباع النفسي الروحي- أن يعود الناس إلى الدين.

أو كما يُقَرِّر صمويل هنتنجتون -بحقٍّ- فإنه «بشكل أعمَّ، فإن الصحوة الدينية في أرجاء العالم هي ردُّ فعل ضدَّ العلمانية، والنسبية الأخلاقية، والانغماس الذاتي، وإعادة تأكيد لقيم النظام والانضباط، والعمل والعون المتبادل والتضامن الإنساني. الجماعاتُ الإنسانية تُلَبِّي الاحتياجات الاجتماعية التي أهملتها بيروقراطيات الدولة (الأجهزة الإدارية)، وهي تتضمَّن توفير الخدمات الطبية والعلاجية، ودور الحضانة والمدارس، ورعاية المسنين، والإغاثة السريعة بعد الكوارث الطبيعية.. وغيرها، والمساعدة الاجتماعية أثناء فترات الحرمان الاقتصادي. انهيار النظام والمجتمع المدني يُحدث فراغًا تملؤه الجماعات الدينية والأصولية غالبًا»[(٢)].

وكان من الطبيعي -أيضًا- أن يكون ردُّ الفعل هذا بشكل عنيف غير ناضج، متطرِّف

---

(١) تقرير: «سويسرا تتصدر قائمة معدلات الطلاق في أوربا»، منشور بموقع الجزيرة نت بتاريخ ٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٥م.
(٢) صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات، ص١٦٢.

في كثير من الأحيان، وعلى حسب قوَّة الفعل تكون قوَّة ردِّ الفعل، وعلى قدر الحاجة تكون شدَّة الاندفاع إليها، وحين يُحرم الناس من «المشترك الأسمى» -الذي يُمَثِّل بالنسبة لهم جوهر الوجود وفائدته وغايته- فلا بُدَّ أن نتوقَّع حدَّةً وعنفًا في الانعتاق من هذا الحرمان.

إن المادية الطاغية التي عاشت وسادت بقيمها طوال الفترات الماضية -ولا تزال تؤثِّر تأثيرًا مفزعًا- هي نفسها قوة تُفَسِّر انتشار المناهج الروحية في الغرب، فازدادت نسب الدخول في الإسلام، وكذلك نسبة الذين يعتنقون البوذية الوثنية، هذا يحدث مع ضعف الدول التي ينتمي إليها هذا الدين، مقارنة بالدول التي يكسب فيها أرضًا، بل إن كثيرًا من الذين يدخلون الإسلام في الغرب يندرجون في الطرق الصوفية.

لقد نشرت صحيفة هاآرتس الصهيونية على صفحة كاملة تقريرًا يقول: إن أجهزة المخابرات الأوربية والأميركية والموساد الإسرائيلي قدَّموا تقارير مطولة إلى وكالة المخابرات الأميركية، يُحَذِّرون من ارتفاع معدل انتشار الإسلام في الغرب، تفيد بأن العامين الماضيين شهدا اعتناق أكثر من خمسين ألف شخص أوربي للإسلام أغلبهم من النساء، وأن الإسلام أصبح ينتشر بطريقة مخيفة، وأن المسلمين الجدد يعملون على تأدية جميع شعائر وطقوس الإسلام بمنتهى الدقة، ويُصبحون أكثر تديُّنًا من المسلمين بالوراثة، وأن العالم كله يجب أن يحترس من هذه الظاهرة المخيفة والرهيبة في آنٍ واحد، خاصة في ظلِّ إقبال المرأة الأوربية والأميركية على الدخول في الإسلام، وما يُمَثِّله هذا من خطر جسيم؛ باعتبار أن المرأة تدخل الإسلام ومن خلفها أسرة بأكملها، لا يقلُّ متوسط عدد أفرادها عن خمسة أفراد[1].

***

كما تسبَّب تفتُّت القوى والتكتلات الكبرى في تشرذم وتشظٍّ للشعوب، التي كانت منضوية تحتها، وكان لا بُدَّ لهذه الشراذم أن تبحث عن مظلَّة أخرى، أو هوية أخرى تعود وتنتمي إليها، وغالبًا ما كانت هذه الشراذم تختار المظلَّة الواسعة للدين.

---

(١) عرض للتقرير موقع إسلام ويب في تحقيق بعنوان: «مسلمات الغرب والمخابرات الأميركية»، بتاريخ ١٦/ ١٢/ ٢٠٠٤م.

حين انهارت الخلافة الإسلامية في الربع الأول من القرن العشرين، توقَّع البعض أن ثمة رابطة أخرى يمكنها أن تكون بديلاً: الرابطة القومية، ثم الرابطة القطرية، ثم الرابطة الجغرافية، فمصر يمكن أن تكون من العرب، أو من دول إفريقيا، أو من دول المتوسط، وإيران دولة فارسية، أو هي من دول الخليج، أو من دول بحر قزوين، وتركيا دولة طورانية، أو من دول أوربا، أو من دول الأرخبيل أو بحر مرمرة أو البحر الأسود.

إلاَّ أن كل هذه الدول بعد فترات من الابتعاد عن الرابطة الإسلامية -وهو الابتعاد الذي لم تكن اليد الخارجية بعيدة عنه- تعود عن غير ترتيب إلى الهوية الإسلامية والانتماء الإسلامي، ومعها من القوميات: العرب والطورانيين والفرس والأفارقة والمغول وغيرها، ومعها من اللغات: العربية والفارسية والتركية والهندية والإندونيسية، ولغات محلية كثيرة في إفريقيا وآسيا، ومن الأقطار بلاد من الساحل الغربي للمحيط الهادي إلى الساحل الشرقي من المحيط الأطلسي.

كذلك انهيار الاتحاد السوفيتي؛ حين تشظَّى هذا المارد الكبير الذي كان يأكل نصف آسيا تقريبًا غير شيء من أوربا، ثم وراءه نفوذ في شرق أوربا ووسط وجنوب وغرب آسيا، وشمال إفريقيا. حين تشظَّى هذا المارد، عادت شظاياه إلى دينها، حتى قلبه -الذي كان عاصمة الشيوعية ذات يوم- عاد مرَّة أخرى إلى المسيحية الأرثوذكسية، فإذا نظرنا إلى خريطة الأديان من قَبْلِ الثورة الشيوعية ومن بعدها، لربما ظننا لوهلة أن شيئًا لم يحدث طوال مائة عام، فلقد أعاد الدين نفسه إلى الخريطة على النحو السابق، وكأنما استردَّ من التاريخ والجغرافيا ما كانت الشيوعية قد سرقته منه في غفلة من الزمن.

وليس ببعيد عن هذا ما نتج من تفكك الاتحاد اليوغوسلافي، لقد عادت الخريطة الدينية نفسها إلى ما قبل عهد تيتو، بل وترتب عليها حروب ومذابح ومجازر بالغة العنف، ليس إلاَّ لأن قومًا لم يَتَّعِظُوا، فحاولوا المرَّة أخرى توحيد الاختلاف الديني قهرًا، ثم إنهم -أيضًا- لم ينجحوا.

لقد عاد الناس إلى الدين لتفتُّت القوى الكبرى إلى عرقيات كثيرة؛ فظهرت عشرات

العرقيات التي تدور بينها الحروب والنزاعات، وفي هذا الإطار فَسَّر وزير الدفاع الفلبيني أورلند ميركادو (Orland Mercado) الوضع في بلاده -التي حفلت بالاضطرابات- بقوله: «إن للمشكلة عدَّة أسباب؛ مع نهاية الحرب الباردة، فإن الصراعات التي نراها اليوم لها أساس ديني إثني، بل فيها نوع من الصدام بين الحضارات والثقافات، المشكل معقد والحلُّ لا يمكن إلا أن يكون معقدًا»[١].

***

الخلاصة المهمة في هذا السياق بعد رؤيتنا لهذه الحقيقة هي أن نُدرك خطورة أن ينشب صراع ديني في عالمنا الآن، الذي هو في هذه اللحظة عالم متديِّن، يشهد صحوة دينية في كل حضاراته ودوله؛ لذا فإن على العقلاء أن يَحْذَروا وأن يُحذِّروا من اشتعال مثل هذا الصراع المرعب، الذي تهلك فيه الإنسانية لا لشيء إلاَّ لأن مجنونًا -أو بضعة مجانين- يُريد أن يفرض على الناس بالقوة عقيدته هو، ومهما كان حُسن مقصده بالنسبة إلى مقاييسه، فإنَّ هذا لا يغفر له أن يُشعل صراعًا كهذا؛ لا تتوقف فيه الدماء على هذا الجيل، بل تتوارث الأجيال القادمة ثارات[٢] آبائها وأجدادها.

وكما يجب على العقلاء أن يُحذِّروا من الصراع على أساس الدين، فإنه يجب عليهم أن يَحْذَروا هم من فرض «وحدة دينية» جديدة؛ فلقد حاول البعض عن حسن نية -فيما نظن- أن ينادي بفكرة «وحدة الأديان»، وهي الاعتقاد بصحة جميع المعتقدات الدينية وجميع العبادات، وتوحُّدها تحت غطاء دين الإبراهيمية، وهذا الرأي يدعو إلى وحدة الأديان السماوية الثلاثة؛ باعتبار أن إبراهيم عليه السلام هو جدُّ الأنبياء جميعًا، والمتكلِّمُون في هذه الوحدة يُنادون بطباعة القرآن الكريم والتوراة والإنجيل وضمِّهم معًا في كتاب واحد بين دفتين، وببناء مجمّع لأماكن العبادة يضمُّ مسجدًا وكنيسة ومعبدًا، تتبادل الزيارات بين عمَّار المساجد،

---

(١) حوار مع صحفية لوموند الفرنسية بتاريخ ٥/ ٧/ ٢٠٠٠م، نقلاً عن: محمد سعدي: مستقبل العلاقات الدولية ص٢٥١.

(٢) الثارات: الثأرات جمع الثأر، وهو الدم نفسه، والمطالب به، ابن منظور: لسان العرب، مادة ثأر ٤/ ٩٧، والمعجم الوسيط ١/ ٩٣.

ومرتادي المعابد؛ مما يقلل الفجوة ويُوَلِّد المودَّة، وإقامة الصلوات المشتركة في أماكن العبادة لمختلف الأديان؛ سواء بابتداع صلاة يشترك فيها الجميع، أو بأن يُصَلِّيَ كل واحد صلاة الآخر[١].

إنها محاولة فكرية إجبارية، ولكنها تُجْبِر الناس على دين جديد، فهي لا تختلف -في جوهرها- عن محاولة إجبار الناس على دين قديم موجود، وهي عقيدة جديدة لا يقبل بها أحد من أتباع الديانات المراد توحيدهم، فمحاولة إنهاء الخلاف وتبسيطه، أو حتى اختزاله هي محاولة ذاهبة في طريق الفشل؛ إذ إن كل أتباع دين يرون في الدين الآخر أفكارًا وعقائد مرفوضة، إلى الحدِّ الذي لا يمكن قبولها؛ ومن ثَمَّ فإن دينهم هو الذي يُقَدِّم البديل المعقول والمقبول بالنسبة لهم، فإذا أتى مَنْ يُريد إنهاء الخلاف وسَوْق كل فريق ليقبل ما يراه «خرافات وأضاليل» الأديان الأخرى، بل أن يعتنقها ويتوحَّد مع مَنْ كان منذ قليل يُفارقه في خلافات جوهرية وأساسية.. فإنه يرتكب حماقة مؤكَّدة!

ومن دلائل هذا أن أحدًا لم يستمع إليه من قبلُ؛ ذلك أن النداء بالوحدة العقدية ليس جديدًا، فلقد نادى المفكر الهولندي اسبينوزا[٢] -منذ قديم (ت ١٦٧٧م)- بتوحيد اليهودية والمسيحية؛ ولم يكن يُفرِّق في كتاباته بين التوراة والإنجيل، وكان ينظر إلى اليهودية والمسيحية على أنهما دين واحد، ومما قاله بهذا الخصوص: «لقد كانت تأخذني الدهشة كثيرًا عندما كنتُ أرى بعض الناس يُفاخرون بتعاليم الديانة المسيحية -وخاصة بالحبِّ والسعادة والسلام والاعتدال- يُقاتل بعضهم بعضًا بمثل هذه الكراهية المريرة، التي أصبحت مقياسًا لعقيدتهم بدلاً من الفضائل التي يدعون بها ويُعلنون عنها، لقد احتفظ اليهود ببقائهم إلى مدًى كبير بسبب كراهية المسيحيين لهم، ودفعهم الاضطهاد إلى الوحدة والتماسك لاستمرار بقاء جنسهم، وكان من الممكن - لولا هذا الاضطهاد - دمجهم وصهرهم مع الشعوب الأوربية عن طريق الزواج وغيره، وابتلاعهم وسط الأكثرية الساحقة التي تُحيط بهم من كل جانب،

---

(١) هدى درويش: تقارب الشعوب، ص٤١، ٤٢.

(٢) اسبينوزا Spinoza (١٦٣٢-١٦٧٧م): فيلسوف هولندي من أهم فلاسفة القرن ١٧م، يهودي الأصل، وهو من عائلة برتغالية، يظهر في فكره تأثُّره بالفيلسوفين الحلاج وابن العربي، من كتبه: رسالة في اللاهوت والسياسة.



ولا سبب يمنع الفلسفة اليهودية والمسيحية من الوصول إلى اتفاق حول عقيدة تمكّنهم من العيش في سلام وتعاون، وخصوصًا بعد إزالة هذه الخلافات التي لا معنى لها..» (١). لكن فكرة اسبينوزا هذه لم تجد صداها في المجتمعات الأوربية، وظلّت الحروب والمناوشات دائرة بين المختلفين في العقيدة، كما دار بين الكاثوليك والبروتستانت وغيرهم.

غير أنه من الممكن التماس بعض التبرير لاسبينوزا على أطروحة دمج العقيدتين اليهودية والنصرانية في عقيدة واحدة؛ ذلك أن الديانة النصرانية جاءت لتغيير بعض الأمور المحدَّدة والمعروفة في الديانة اليهودية مع الإقرار بمعظم العقائد اليهودية، وكذلك القوانين والتشريعات، وحكى ذلك القرآن الكريم بقوله تعالى على لسان المسيح ﷺ: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وما زال النصارى يُؤمنون بالعهد القديم «التوراة» مع العهد الجديد «الإنجيل».. فالدمج هنا يبدو مسوَّغًا إلى حدٍّ ما، وإن كان اليهود سيرفضون حتمًا؛ لأنهم يكفرون بالمسيح ﷺ، بل يُكفِّرونه ويرونه محرفًا لتوراتهم.

أمَّا دمج الإسلام معهم فمستحيل بكل المقاييس؛ لأن التشريع الإسلامي منظومة متكاملة تحكم الحياة كلها، ولا يترك أمرًا صغيرًا أو كبيرًا إلاَّ وله فيه قواعد وأصول.. يقول تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وليس القرآن مجرَّد قصص وروايات وقواعد كما هو الحال في كتابي التوراة والإنجيل، وهما اللذان حُذفت منهما أغلب التشريعات، وصار لزامًا على اليهود والنصارى بعد هذا التحريف أن يضعوا قوانينهم بأنفسهم فيما عُرف بفصل الدين عن الدولة، وهو المبدأ الذي تبنَّتْهُ الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م، وكانت سببًا في انتشاره في أوربا ثم العالم بعد ذلك.

ومن هنا ففكرة الدمج هذه مستحيلة في حقِّ المسلمين، وفي واقع الأمر هي مستحيلة كذلك بالنسبة لعموم العقائد الأخرى.

ونحن في هذه اللحظة نقول -وبتجرُّد كامل- بأن خير ما نُقَدِّمه للبشرية في هذه النقطة

---

(١) ول ديورانت: قصة الفلسفة ص٢٠٥، ٢٠٦.

الحساسة هي ما جاء به القرآن الكريم في قوله ﷻ: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وبأن يبتعد الناس عن النزاع في هذه القضية، إلاَّ على أساس من الحوار اللين الهادئ اللطيف: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

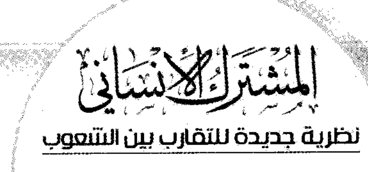
* * *

المشتركات الإنسانية العامة

" فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ"

القرآن الكريم (سورة الروم: ٣٠)







الفصل الثالث

المشتركات الإنسانية العامة

لا شكَّ أن حياة الإنسان تدفعها وتُحرِّكها أمور عدَّة؛ منها على سبيل المثال الفطرة والغريزة والعقل والطبع، وغير ذلك من الأمور التي توصَّلت إليها العلوم الإنسانية الحديثة، ونحن في هذا الباب الذي يتناول المشتركات الإنسانية العامة رأينا أن الدافع الأكبر، والمحرِّك الرئيس لهذه المشتركات البشرية العامة هي الفطرة الإنسانية، ومن ثَمَّ لا يمكن أن نتصوَّر حياة البشر بدون مشترك من هذه المشتركات، فهي الضرورات الأولية والأساسية لقيام الإنسان، وهي -إن صحَّ التوصيف- مناط البشرية ومدارها، عليها تقوم، وبها نستكمل مسيرة الآباء والأجداد، وبدونها تنعدم الحياة، والاعتداء عليها اعتداء مباشر على الإنسان ماديًّا ومعنويًّا.

وقد قسمنا هذه المشتركات تبعًا لأهميتها وأولويتها لدى البشر، وسوف نتناولها في هذا الباب من خلال ما يلي:

أولاً: الاحتياجات الأساسية.

ثانيًا: العقل.

ثالثًا: الأخلاق الأساسية.

رابعًا: التملك.

خامسًا: الكرامة.

سادسًا: الحرية.

سابعًا: العلم.

ثامنًا: العمل.

الاحتياجات الأساسية

رغم اختلاف الطبائع البشرية، وتنوُّع المجتمعات الإنسانية، وتشتُّت غايات البشر بين الخير والشرِّ، والصلاح والفساد، إلاَّ أنَّ لكل إنسان على ظهر الأرض حاجات أساسية لا يمكن غضُّ الطرف عنها أو تجاهلها.

وإننا إذا أردنا إجراء دراسة استقصائية لمعرفة الحاجات الأساسية لدى الشعوب، فستبرز مجموعة من العناصر الأولية التي تُعَدُّ في نظر الملايين من المُسَلَّمات التي تخزنها ذاكرتنا؛ فهل يُتَصَوَّر أن نعيش بدون طعام أو ماء؟! وهل يمكن أن نعيش بلا أمن واطمئنان؟!

ومن الملاحظ أن مفهوم الحاجات الضرورية قد يختلف من شعب لآخر، فثمة شعوب وصلت إلى الرقي والتقدُّم والتمدُّن بحيث أصبح الإنترنت - على سبيل المثال - من ضروراتها الأساسية، وثمة شعوب أخرى تعتبر الخبز المصنوع من الشعير الرديء من أقصى أمانيها، لكن مع هذا الاختلاف الجوهري في مفهوم الضروري والحاجات، إلاَّ أننا نعلم على وجه اليقين أن كلتا الحضارتين أو الأمتين لن يكون له شأن إلاَّ إذا حقَّق ضروراته الغذائية والأمنية.

وما من شكٍّ أن الطعام والشراب من أبسط الاحتياجات الأساسية لكل الشعوب، ولا يستطيع أيُّ عاقل أن يتغافل دور هذين العنصرين في تحقيق الأمن والسلم والتعايش في كل المجتمعات، وما من شكٍّ أن التعدِّيَ على هذين العنصرين، وتهديد الشعوب الفقيرة المحتاجة لهذه الحقوق سياسةٌ غير مقبولة من الدول المانحة، وهذا للأسف ما نراه ونعاصره في عالمنا اليوم.

أولاً: الطعام:

«إن للطعام ثقلاً أخلاقيًّا هائلاً في مجتمعنا وهذا صواب، وتقاسم الطعام جزء من تاريخ طريقة حياتنا، ولا شكَّ في أن التأكُّد من أن لدى الجميع ما يكفي من الطعام هو جزء من

جميع التقاليد الدينية التي تشكل أميركا»[١].

بهذه الكلمات تصفُ عالمة الأنثروبولوجيا الأميركية ألين ميسير ما للطعام من دور أخلاقي محتوم على الدولة الأميركية العظمى، باعتبارها قطبًا رئيسًا في المجتمع الإنساني المعاصر؛ بيد أن الطعام في حقيقة الأمر أكبر من أن يكون مجرَّد دور أخلاقي تُمليه متطلَّبات سياسية ودولية مُعَيَّنَة على أُمَّة ما؛ إنه ببساطة شديدة ضرورة من ضرورات الإنسان في الحياة، فبغيره يموت، وبدونه تنعدم حياته من أساسها، وكم من ملايين ماتوا في إفريقيا وآسيا نتيجة انعدام الطعام.

إننا نريد حياة تُلبي الضرورات الأولية لكل الشعوب، وكل عقلاء الأمم نادوا منذ عهود سحيقة بضرورة تلبية مثل هذه المتطلبات؛ فمن ألف وأربعمائة عام نادى نبي الإسلام محمد ﷺ بهذا الأمر؛ فقال: «**لا حَقَّ لابْنِ آدَمَ إلا فِي ثَلاثٍ: طَعَامٌ يُقِيمُ صُلْبَهُ، وَثَوْبٌ يُوَارِي عَوْرَتَهُ، وَبَيْتٌ يُكِنُّهُ، فَمَا زَادَ فَهُوَ بِحِسَابٍ**»[٢]. وإننا بقدر ما نؤمنُ بأنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، إلاَّ أننا نوقن -أيضًا- بأنه بغير الخبز لا يحيا الإنسان، وبأن مَنْ يتحكَّم في خبزه قادر على التحكُّم في فكره وواقعه.

وإن أشدَّ ما يثير اليأس والقنوط -اللذين نحاولُ بكل جهدنا من خلال هذا العمل أن نمحوهما من حياتنا- أن يلتقط أحدُنا من رفوف الأسواق إحدى المعلبات التي تحمل اسمًا يبدو بريئًا ومغريًا لشركة عالمية، لكنه يُدرك بعد بُرهة قصيرة أن ما يكمن وراء الغلاف الزاهي البراق هو المآسي والمظالم والنكبات، التي لحقت بأولئك الذين عرقوا وكدُّوا؛ لكي يُنتجوا ما في المعلبة الصغيرة من غذاء، ولكنهم في الأغلب الأعمِّ لم يستمتعوا بشيء من ثمار ما أنتجوا، ولم يذُقْ أطفالهم المحرومون طعم محصولهم الوفير الذي تحمله لك المعلبة الصغيرة في

(١) مقال بعنوان: «علاقة الأمن الغذائي بتحقيق الاستقرار والحد من النزاعات المسلحة»، جريدة الصباح العراقية.

(٢) أحمد بن حنبل: كتاب الزهد ص٣٩٦، ومسند ابن الجعد ١/ ٤٦٥ (٣٢٠٨)، والغزالي: إحياء علوم الدين ٤/ ٢٠٩، والمعافى بن عمران: الزهد ص١٦٦ (١٥٧)، وقد أخرج هذا الحديث الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الأحياء»، وأخرجه الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال: «وجلف الخبز والماء». بدل قوله: «طعام يقيم صلبه». وقال: صحيح. انظر: العراقي: تخريج أحاديث الإحياء ٨/ ٤٤٦، والعراقي: المغني عن حمل الأسفار ٢/ ١٠٩٤.



إطارٍ زاهٍ يصعُب مقاومة إغرائه[١]!

فالتعدِّي على حقوق الشعوب الغذائية يُؤَدِّي بطبيعة الحال إلى فساد كبير، وإنه مما يُثير العجب والدهشة والانفعال في آن واحد أن نجد مفكِّري ومنظِّري الدول المتقدمة -التي تُسيطر على مقاليد السياسة والاقتصاد في العالم المعاصر- يُروِّجُون لفكرة خطيرة جدًّا تكمن في الانفجار السكاني الذي يُؤَدِّي إلى نتيجة واحدة؛ هي انعدام الغذاء والطعام والماء بعد أعوام قليلة[٢]!

لكن ظهر من العلماء في هذا المجال مَنْ فنَّد هذه الفكرة الخطيرة من أساسها، وأوضح الغايات والأهداف التي تقف خلف هذه الشائعات؛ فالمشكلة في أساسها تكمن في سوء التنظيم، وعدم تقدير الأولويات الغذائية للدول الزراعية، فبعض الدول الزراعية استعاضت عن المحاصيل الغذائية محاصيل أخرى مربحة؛ كتايلاند التي أصبحت من أكثر دول العالم تصديرًا للمنيهوت، وهو طعام الماشية، وكذلك البرازيل التي تزرع فول الصويا، ثم لا يأكله فقراؤها؛ فهو يُصَدَّر لإطعام ماشية أوربا وتسمينها!

وقد أثبتت بعض البلدان -ذات الكثافة العالية من السكان لكل فدان- قدرة طيبة على تغذية شعوبها تغذية مناسبة؛ وذلك عن طريق التنظيم ومعرفة الأولويات الغذائية لمواطنيها؛ ففرنسا والصين والهند من هذه الدول التي استطاعت أن تستأصل الجوع خلال ما يزيد على خمس وعشرين سنة، وأصبح لدى فرنسا – على سبيل المثال – ضعف ما لدى الهند من سكان لكل فدان مزروع، ومع ذلك تتمتَّع بقدر مناسب من التغذية الجيدة لمواطنيها[٣].

على أن ما يهمنا في هذا السياق أن نبرهن على أن التعدِّي على الحاجات الأساسية لدى الأمم، يُؤَدِّي إلى نهاية مأساوية غير معلومة العواقب، وهذا ما يضرب القيم الإنسانية المشتركة في مقتل.

وإن التأمُّل في تاريخ الإنسان منذ بدايته الأولى، ليأخُذُنا إلى حقيقة مهمة جدًّا، تكمن في

---

(١) صناعة الجوع، مقدمة المترجم، ترجمة أحمد حسان، ص٨، ٩.

(٢) انظر: فرانسس مور لابيه وجوزيف كولينز: صناعة الجوع ص١٢، ١٣.

(٣) صناعة الجوع ص٢١.



أن وصف التاريخ البدائي وتقسيمه لدى علماء التاريخ والأنثروبولوجيا مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بتطوُّر آليات الإنسان البدائي في بحثه عن الغذاء؛ فالتاريخ إذًا لصيق الغذاء؛ فقبل قيام الحضارات والمجتمعات الأولى بحث الإنسان عن القمح والجذور واللحوم التي تُعينه على قيام حياته، وعمارة الكوكب الذي يعيش فيه، ولا يمكن أن نتصوَّر أُمَّة بدون الكشف عن أوضاعها الاقتصادية التي تقوم في الأساس على الطعام والشراب.

وإذا كان عدم الاستقرار سمة من سمات المرحلة البدائية، فإننا لا يجب علينا أن نعزوها أو نقصرها على سذاجة الإنسان في تلك الفترة، وعدم تكيُّفه مع واقعه، فلنا أن ننتبه إلى أن أحد أهم الأسباب التي أودت بحياة الملايين من البشر، بحيث لم ينجُ جيل من ويلات الحروب، يكمن في التعدِّي الذي أفرزه الجشع، وهو ما يُقرِّره ديورانت بقوله: «وأمَّا جرائم الافتئات والاعتداء فهي قديمة قِدَم الجشع؛ فتقاتُل الناس على الطعام والأرض والمرأة قد روى الأرض بدماء البشر، ولم ينجُ من ذلك جيل واحد من الأجيال، وغشى نور المدنية الواهن المتقطع ببطانة من ظلام»[1].

وبمنطق الاحتياجات الأساسية فقد راعت أقدم الحكومات البشرية في العالم المتطلبات الأساسية لشعوبها؛ فقد سأل أحد حكام الصين القدماء ويُدعى تزه - كونج الحكيم كونفوشيوس عن الحُكم، فكان ردُّه: «(لا بدَّ للحكومة) من أن تحقق أمورًا ثلاثة: أن يكون لدى الناس كفايتهم من الطعام، وكفايتهم من العتاد الحربي، ومن الثقة بحكامهم». فقال تزه - كونج: «فإذا لم يكن بُدٌّ من الاستغناء عن أحد هذه الشروط، فأي هذه الثلاثة يجب أن تتخلَّى عنه أولاً؟ فأجاب المعلم: العتاد الحربي»[2]. وهذا الحوار من أبرز الأدلة التاريخية وأقدمها على ضرورة مراعاة الحاجات الأساسية للأمم.

ولعلَّ من أعظم الأمثلة التي تُؤَكِّد لنا أن التعاون على إنتاج الغذاء وتوزيعه بطريقة عادلة يُؤَدِّي إلى نشر السلام، وحلول التفاهم والانسجام بين الأمم، ما نجده واضحًا في حياة النبي يوسف عليه السلام ؛ فقد عُيِّن وزيرًا للزراعة والمالية في مصر القديمة، وقد حَلَّت بمصر وما حولها من

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١/ ٩٢.

(٢) المصدر السابق ٤/ ٦٠.

الدول سبع سنين عجاف، فما كان منه -والدولة من خلفه- إلاَّ وقد وضع استراتيجية للحيلولة دون حدوث المجاعة، وتصف الكتب السماوية الثلاث أنه استطاع أن يُوَفِّر الطعام والغذاء للرعايا في مصر والدول المجاورة لها؛ كفلسطين وغيرها، وحال هذا دون وقوع الحرب التي تفرضها مثل هذه الظروف القاسية[١].

لكن مجاعات إفريقيا -التي تقع منذ مائة عام وأكثر- لا تجد لها -ونحن في القرن الحادي والعشرين- من الدول العظمى مَنْ يضع الخطط والحلول لِيُنقذها من مآسيها وآلامها، بل على عكس ذلك تمامًا؛ إذ تُشير عشرات التقارير والوقائع إلى ضلوع بعض هذه الدول في مؤامرة مخزية على القارة السمراء، فمن المعروف أن النظام الماركسي في إثيوبيا في ثمانينيات القرن العشرين قد شنَّ حربًا لا هوادة فيها ضد إريتريا المجاورة بسبب إقليم أوغادين الغني، وقد تزامن ذلك مع تفاقم المجاعة في هذه الدولة الفقيرة في شرق إفريقيا؛ مما أدَّى إلى عرقلة وصول المساعدات، لكن جريدة «ساوث» في عدد ديسمبر عام ١٩٨٤م أكدَّت أن منظمات الإغاثة الأميركية تتجنَّب إرسال المعونات إلى إريتريا بسبب الحرب هناك، لكنها عادت وكذَّبت هذا الادعاء، فقالت: إن السبب الحقيقي هو وجود استثمارات أميركية في إثيوبيا، وأن الولايات المتحدة لا تُريد المغامرة بتلك الاستثمارات؛ ولذلك فإن الولايات المتحدة رفضت على الإطلاق إرسال أية مساعدات للإقليم، رغم أن نصف عدد من يتهدَّدهم الجوع في إثيوبيا هم إريتريون»[٢]! **(انظر: صورة رقم ٩ مجاعات إفريقيا).**

وماذا جنت مثل هذه الحرب على إريتريا أو حتى إثيوبيا؟ لم تجن إلاَّ الخراب والدمار والقتل، فضلاً عن المجاعة والفساد الدائم بين الشعبين.

---

(١) العهد القديم: سفر التكوين، الإصحاح الحادي والأربعون والثاني والأربعون، والقرآن الكريم: سورة يوسف (٤٥-٥٠).

(٢) جمال عبد الهادي، ووفاء محمد رفعت: إفريقيا يُراد لها أن تموت جوعًا ص١٤٦.







مجاعات إفريقيا

صورة رقم (٩)

إن دعوتنا هي أن يضع المتعقِّلون من أبناء الأمم مجموعة من الخطوط الحمراء عند تعاملهم مع الآخر، أهمها ضرورة احترام طعامه وشرابه، وعدم التعرُّض لهما من قريب أو بعيد، فالتعدِّي على هذه الضرورات يُعَدُّ تهديدًا صارخًا لأمنه القومي، ينتج عنه مقاومة شرسة تدفعها عوامل الغريزة الإنسانية في البقاء.

وتجدر الإشارة إلى أن سياسة المحتلِّ في أي زمن تقوم على استنزاف ثروات البلد الذي يحتله، وخاصة الاحتياجات الأساسية كالطعام والشراب، وهذا ما يترتَّب عليه ازدياد الكراهية بين الطرفين مع مرور الوقت؛ ومن ثَمَّ بداية الحركات المسلَّحة ضد هذا الغاصب، ولنضرب على ذلك مثلاً مهمًّا، وهو العلاقة بين مصر المحتلة والإمبراطورية الرومانية، فمؤلفات التاريخ الروماني تصف الفرد المصري في هذه المرحلة بالفقر والعوز والحاجة، وتصف الإمبراطورية الرومانية بالقوَّة والعظمة والسؤدد، هذا التردِّي الاقتصادي إذا أنعمنا النظر فيه وجدنا أن أحد عوامله الرئيسة يكمنُ في الرؤية الرومانية لولاية مصر؛ إذ إنها في نظر هؤلاء الرومان العظام سلة لغلال إمبراطوريتهم، وهو ما أدَّى إلى استنزاف جُلِّ ما تنتجه مصر من القمح، الذي هو غذاؤها الأول، ويُطالعنا نفتالي لويس الأكاديمي الأميركي في كتابه «الحياة في مصر في العصر الروماني» بمعلومة مهمة جدًّا تُفيد بأن المصريين في هذا العصر قد أكثروا من إقامة الثورات والانتفاضات الشعبية؛ نتيجة المجاعات المتوالية التي لحقت بهم في ظلِّ الحكم الروماني الغاشم[(١)].

وهذا دليل آخر على أن التعدِّي على مُقَدَّرات الشعوب الأساسية يُؤَدِّي في نهاية الأمر إلى القتال والتنافر، وهذا لا يخدم ما نصبو إليه من البحث عن المشتركات الإنسانية، التي تقوم على فلسفة التعاون والاحترام.

وإننا إذا أردنا معرفة سِرِّ الجوع الذي يُصيب القارة الإفريقية – ذات الأرض الخصبة، والمياه المتدفِّقة – فستقابلنا مفاهيم العنصرية البيضاء التي تفسِّر سِرَّ التخلُّف الإفريقي في كل شيء بما في ذلك الغذاء، فهؤلاء الرأسماليون – القدماء منهم والمحدثون – يَرَوْنَ أن فشل

---

(١) نفتالي لويس: الحياة في مصر في العصر الروماني، ص٢٢٩.

الزراعة الإفريقية في التقدُّم يعود إلى مُرَكَّب النقص المتأصِّل في الأفارقة!

لكن تفسير هذه الظاهرة ليس بهذه البساطة والسذاجة في التحليل التي تتمسك بنظريات بائدة تقسِّم البشر إلى عناصر سامية وآرية، فمن الأصوب أن نقول: إن ذلك يرجع إلى الدخلاء والمتعدين البيض، فالفشل في تحسين أدوات الزراعة وأساليبها نيابة عن الفلاحين الأفارقة، لم يكن مسألة قرار سيئ اتخذه صُنَّاع السياسة الاستعمارية؛ لقد كان سمة ملازمة للاستعمار بشكل عامٍّ، قائمة على مفهوم يرى أن التقسيم الدولي للعمل عليه أن يضع المهارات المتخصِّصة في دول المركز، والعمالة المتدنية في الدول التابعة لها... ولقد كان الرأسماليون في ظلِّ الاستعمار لا يدفعون للإفريقي ما يكفي للإبقاء على حياته وحياة عائلته، ويمكن إدراك ذلك بسهولة إذا تأمَّلنا في المبالغ التي يكسبها الفلاحون الأفارقة من المحاصيل النقدية وقتئذٍ، وعلى الرغم من أن الزراعات المنتشرة في إفريقيا تتمثَّل في الكاكاو والبن -وهي محاصيل مربحة- لكن الإفريقي لم يحصل مطلقًا على نقود بما يكفي غذاءه وكسوته، فضلاً عن توفير مسكن آمن له ولأهله، وبدلاً من ذلك استمرَّت زراعة الكفاف من البطاطس والموز كشيء إضافي، وبتلك الطريقة كان الفلاح يُدير الغذاء، ومن اللافت أن الشلنات القليلة التي كان يكسبها كانت تُستخدم لدفع الضرائب، وشراء المتطلبات التي لا يتمُّ التحصُّل عليها إلا من خلال الأموال[1]!

ولذلك فطبيعة التخلُّف الزراعي والصناعي -الذي ما زالت تعاني منه إفريقيا حتى يومنا هذا- تعود جذوره الأولى إلى الاستعمار، الذي وطَّده في قلب القارة السمراء؛ من استغلال لكل شيء بدءًا بالأرض والإنسان، وانتهاءً بتهديد مصادر غذائه وقُوتِه، التي ما زالت آثارها شاهدة للعيان؛ ومن ثَمَّ فإن ترسيخ مفهوم المشترك الإنساني بين إفريقيا وأوربا على وجه الخصوص لن يتأتَّى إلاَّ من خلال احترام الحاجات الأساسية للقارة السمراء، بل إن توفير هذه الضرورات من شأنه نهضة هذه القارة من رقدتها وتخلُّفها، وعندئذ ستتعامل إفريقيا مع الآخر من منطلق التفاهم والتعاون، ولن نرى وقتها ما يُصيب هذه القارة من أمراض تفتك بها كالإيدز والملاريا والتيفود... فضلاً عن تبديد حلم الأفارقة بالهجرة عن

---

(١) والتر رودني: أوربا والتخلف في إفريقيا، ص٢٨٤-٢٨٨.

مواطنهم، وهو ما تسميه أوربا عبثًا بالهجرة غير الشرعية، التي هي نتيجة طبيعية لما جنته أوربا في هذه القارة الحالمة!

بيد أن الاستعمار بمعناه التقليدي لم يَعُدْ متواجدًا في واقعنا المعاصر، لكن التعدِّي على الحاجات الأساسية للشعوب ما زال قائمًا، ونراه مثلاً في احتكار الدول الكبرى والشركات العالمية لأسعار الغذاء، وهو ما يترتَّب بالسلب على الدول الفقيرة والنامية، وقد عبَّر الأمين العام للأمم المتحدة عن هذا الخطر القائم بقوله: إن ارتفاع أسعار المواد الغذائية تهديدٌ لاستقرار العديد من البلدان النامية، ولجهود مكافحة الفقر. واعتبر مبعوث الأمم المتحدة المكلف بشئون الغذاء عالم الاجتماع السويسري جان زيجلر أن ارتفاع أسعار المواد الغذائية في العالم سيُؤَدِّي إلى وقوع مذبحة جماعية صامتة، وإن الجوع ليس تحت السيطرة منذ مدَّة، وأن العولمة وسياسة «احتكار الثراء في الأرض» هي المسئولة عن «العنف البنيوي»؛ وعلَّل ذلك بقوله: لدينا قطيع من متعاملي البورصات ومن المضاربين ومجرمي المال، الذين ازدادوا شراسة وأنشأوا عالمًا من اللا مساواة والفظاعة، علينا أن نضع حدًّا لهذا. والوقود الحيوي الذي يُستخلص من النبات، والمضاربة في الأسواق، والمساعدات التي يمنحها الاتحاد الأوربي للصادرات مسئولة عن تجويعٍ جماعيٍّ للبلدان الفقيرة؛ ولذلك فإن قيام ثورة الجياع ممكن الحدوث مثل الثورة الفرنسية[١].

إن مثل هذه الممارسات الاحتكارية -التي تقوم بها البلدان الكبرى للسيطرة على البلدان الفقيرة سياسيًّا واقتصاديًّا- لن تجني من ورائها إلاَّ حقد هذه الشعوب وغضبها، وعدم قبولها لتلك الممارسات اللا أخلاقية، فكيف ينظر المصري إلى الولايات المتحدة التي قامت في عام ٢٠٠٣م بشراء فائض القمح من دول أوربا الشرقية بأسعار أعلى من التي عرضتها مصر، من أجل أن تضطر مصر لشراء القمح الأميركي؟! وكيف تنظر الدول الإفريقية والجوعى في العالم إلى أميركا، التي تُلقي بفائض إنتاجها من القمح في المحيط للأسماك؛ حتى لا يتدنَّى سعره العالمي؟! لن ينظر هؤلاء ولا أولئك للولايات المتحدة بعين الرضا والحب، بل بالكره

---

(١) مقال بعنوان: «ارتفاع أسعار الغذاء يُقلق الأمم المتحدة»، ٢٠ أبريل ٢٠٠٨م، على موقع بي بي سي العربي.



والسخط والحقد، وهذا ما نسعى لتلافيه وتحاشيه والابتعاد عنه[١].

إذًا فكثير من دول العالم مهدَّدة بالجوع والفقر، بل بعضها كذلك بالفعل؛ ومن ثم فالبحث عن مشترك إنساني فيما بيننا لن يتحقَّق في ظلِّ غياب الحاجات الأساسية للشعوب؛ كالطعام والشراب بصفة عامة.

ولكن مشروعًا عملاقًا كمشروع جنوب شرق الأناضول -الذي يُفترض الانتهاء منه هذا العام (٢٠١٠م)- قادر على تلبية المتطلبات الغذائية لدول الشرق الأوسط، وقادر على تجميع هذه الدول حول مائدة واحدة؛ لتوثيق أواصر المحبة والعلاقات الاقتصادية والغذائية، فتركيا صاحبة المشروع[٢] تُؤَكِّد أن تنمية الإنتاج الزراعي في هذه المنطقة سيحلُّ أيَّ أزمة محتملة في دول الشرق الأوسط، التي تُنفق ٢٤ مليار دولار سنويًّا على استيراد الأغذية، وبالفعل فإنَّ كثيرًا من دول الخليج العربي متحمسة للاستثمار في هذا المشروع المهم[٣].

إن مثل هذه المشاريع الغذائية العملاقة لا تقتصر على الدولة صاحبة المشروع، وإنما تمتدُّ آثارها إلى دول الجوار، وهو الأمر الذي يُعَزِّز أواصر العلاقات السياسية والاقتصادية، فضلاً عن ازدياد مساحة المشترك بين هذه الدول، وهذا ما نصبو إليه، ويُدَلِّل على إمكانية حدوثه مثل هذه الأدلة والشواهد المهمة التي أتينا بها.

ثانيًا: المياه:

من الملاحظ أنَّ الحدود السياسية للدول المتجاورة قد تتسبَّب في أوضاع غير مقبولة عند طرف دون الآخر، خاصَّة في الحاجات الأساسية؛ كالماء مثلاً، فإذا افترضنا أن نهرًا ما ينبعُ من دولة «أ»، وتعتمد عليه دولة أخرى هي «ب»، ثم اكتشفت الدولة «ب» أن الدولة «أ» قد شقَّت قنوات للاستفادة القصوى من نهرها، وهذا الأمر تسبَّب بشكل سلبي خطير على الدولة «ب»، خاصة في

---

(١) عبد الحافظ الصاوي: مقال بعنوان «أزمة الغذاء.. المحتكرون أشعلوها والفقراء اكتووا بنارها». على موقع إسلام أون لاين على الرابط: www.islamonline.net.

(٢) يتعيَّن في هذا المشروع الذي بُدئ العمل فيه في عام (١٩٨٣م)، والذي يُفترض إتمامه في عام (٢٠١٠م)، بناء ٢٢ سدًّا و١٩ محطة لتوليد الطاقة الكهربائية بالماء على نهري دجلة والفرات، فمن المقرَّر أن يتمَّ ريُّ ١,٧ مليون هكتار من الأراضي - أي ما يساوي ١٧٠٣٤كم٢.

(٣) تقرير بعنوان: «خطة تركية لتوفير الغذاء للشرق الأوسط تنتظر التمويل»، ٢/ ٥/ ٢٠٠٨م، موقع الجزيرة نت.



مجال الزراعة التي تعتمد عليها اعتمادًا كليًّا، فماذا يمكن أن نتوقع منها؟ لا ريب أنها ستدافع عن حقِّها الطبيعي من النهر الذي يجري في أراضيها منذ مئات السنين.

إن الاستيلاء والسطوة والنظرة الأحادية للثروات، التي يشترك فيها الجميع قد تتسبَّب - إذا ما تُرجمت هذه الرؤية إلى واقع - في مجزرة بشرية، وفتكٍ بالآخر، وانظر على سبيل المثال إلى الحرب العراقية الإيرانية التي استمرَّت ثماني سنوات، وهذه الحرب كما يُقَرِّر خبراء العسكرية الحديثة، لتُعَدُّ من أطول الحروب في تاريخ العالم الثالث الحديث، فبدلاً من أن تبحث هاتان الدولتان عن التوافق والتعايش السلمي، وتقريب المشتركات الكثيرة بينهما؛ كالدين والثقافة والجغرافيا، نراهما وقد اشتعلت الحرب بينهما مدَّة ثماني سنوات أو تسع متصلة؛ منذ عام ١٩٨٠م حتى أواخر عام ١٩٨٨م، وقد خسر الجانبان فيها ما يقربُ من مليون ونصف مليون قتيل، كل هذا بسبب صراعات يأتي التعدِّي على المياه على رأسها وفي قمتها، وقد انتهت الحرب ولا منتصر فيها ولا مهزوم[1]!

ومن المهم أن نعلم أن حرب المياه بين العراق وإيران ترجع إلى خمسينيات القرن العشرين، وأن التعدِّي الإيراني والتعسُّف في استخدام المياه، وتحويل مجاري كثير من الأنهر، أو إقامة السدود الكثيرة عليها أدَّى إلى ضعف الكمية التي تصل إلى شرق العراق وجنوبه؛ ولذلك لا نستغرب الحرب العراقية الإيرانية التي استمرَّت ثماني سنوات متصلة، إذا علمنا أن الصراع على الماء كان أحد أسبابها الأصيلة.

فنهر كارون -كمثال- ينبع من مرتفعات «بختياري» الإيرانية، ويصبُّ في شط العرب عند ميناء «خرمشهر»، ويبلغ معدَّل تصريفه السنوي نحو ٢٠ مليار م، وقد سيطرت الحكومة الإيرانية على النهر وروافده منذ عام (١٩٦٢م)، وشيدت سد دز (محمد رضا بهلوي[2] سابقًا) على نهر دز أحد فروع نهر كارون؛ لأغراض الري وتوليد الطاقة الكهرومائية، وقد أثَّر هذا السد على كمية المياه الواردة إلى شط العرب، لا سيما في فصل الصيف، ويبلغ طول النهر

---

(١) عبد الحليم أبو غزالة: الحرب العراقية الإيرانية ص٥.

(٢) محمد رضا بهلوي (١٩١٩-١٩٨٠م): آخر شاه يحكم إيران، وقد أطاحت به الثورة الإسلامية الإيرانية في ١٦ يناير ١٩٧٩م، وفد بعدها إلى مصر، حتى توفي فيها.

الإجمالي ٨٩٠كم، ويعتبر من أهم وأغنى الأنهار الإيرانية، وسعة حوضه كبيرة جدًّا، أمَّا سد (كارون ٣) فيروي نحو ٦٠ ألف هكتار، وعند إكمال كافَّة السدود المقرَّرة على نهر كارون ستحول دون وصول مياهه إلى شط العرب.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ بعض روافد نهر كارون تصبُّ في الأراضي العراقية، وقامت إيران من خلال مشاريعها المائية على نهر كارون بتحويلها نحو الأراضي الإيرانية؛ بزعم الاستفادة منها لتطوير المساحات المروية في غرب إيران، ولكن تلك المزاعم والحجج سقطت إبَّان التسعينيات من القرن الماضي، حين عرضت إيران بيع مياه نهر كارون على كلٍّ من قطر والكويت؛ وذلك من خلال مدِّ أنابيب تحت مياه الخليج لتزويد الدولتين بالمياه، وأُطلق على المشروع اسم «مياه الإيمان»، وقُدِّرت تكلفة المشروعين على الجانب القطري بنحو ١٥ مليار دولار، وعلى الجانب الكويتي بنحو ١,٥ مليار دولار[١].

ومن المؤسف أن أزمة المياه لا تكاد أن تخلو في بقعة من بقاع العالم، ويكشف تقرير صادر عن الأمم المتحدة عما يترتَّب عليها من عواقب وخيمة؛ فقد كشف هذا التقرير الصادر عام ٢٠٠٣م عن أن الخلافات حول المياه قادت إلى ٢١ تحرُّكًا عسكريًّا خلال الأعوام الأخيرة، ١٨ منها بين الكيان الصهيوني وجيرانها[٢].

ولذلك فقضية الماء من الإشكاليات الحساسة جدًّا في السياسات المعتمدة بالشرق الأوسط، لا سيما وأن المنطقة تقع تحت طائلة ضغط مائي في العالم، كما تُشير كثير من التقارير، ولا ننسى أن سوريا تصارعت بالنار والسلاح مع الكيان الصهيوني على مشروع تحويل نهر الأردن في ستينيات القرن الماضي، كما أن أول قمة عربية جعلت هذه القضية على رأس جدول أعمالها آنذاك.

ويُشكِّل جنوب لبنان والجولان مستودعين للمياه العذبة، وهما متواجدان على التخوم المتنازع عليها بين العرب والكيان الصهيوني، وإذا كان الكيان الصهيوني أُرغم على الانسحاب من

---

(١) صاحب الربيعي: مقال بعنوان «حرب المياه بين العراق وإيران.. الدوافع والأسباب»، جريدة الحوار المتمدن، العدد (٢٧١٢)، بتاريخ ١٧/ ٩/ ٢٠٠٩م.

(٢) مقال بعنوان: «تقرير دولي.. الخلافات حول المياه»، جريدة الشرق الأوسط السعودية، العدد (٨٨٦٣)، بتاريخ ٥/ ٣/ ٢٠٠٣م.

جنوب لبنان؛ فإنه ما زال يتمسَّك بعناد بحقوق مدعاة في الجولان، وإلى الآن لم يتمُّ التوصُّل إلى حلٍّ فيما يخصُّ إشكالية المياه بين العرب والكيان الصهيوني، علمًا بأن المياه غدت سلاحًا استراتيجيًّا، سياسيًّا وعسكريًّا.

فالكيان الصهيوني يسحب ثلث حاجياته من الماء من بحيرة طبرية، التي يصبُّ فيها نهر الأردن، ومن مصادر هذا النهر ينابيع «بانياس» الجنوبية المتواجدة في أرض الجولان، وهذا يُوَضِّح أن الجولان بالنسبة للكيان الصهيوني شُريان حياة.

فإذا كانت المخاطر الأمنية تهدِّد منطقة الشرق الأوسط، فإن المخاطر المائية منها بلا شكٍّ، لاسيما وأن الصهاينة لا يرتاحون لأي شكل من أشكال الاتفاق فيما يتعلَّق بالمياه، ويُفَضِّلُون استمرار الاحتفاظ بمنابع المياه عن طريق الاحتفاظ بالجولان.

كما أن الكيان الصهيوني يسحب ثلثًا آخر من احتياجاته من طبقة مائية تحت الضفة الغربية، ويصل معدَّل الاستهلاك الفردي من الماء في الكيان الصهيوني إلى أربعة أضعاف استهلاكه بالنسبة للعربي؛ ففي الضفة الغربية حوالي ١٨٠ ألف مستوطن يهودي يضخُّون من المياه الجوفية نصف الكمية التي يسمح بها لمليوني فلسطيني.

هكذا يبرز دور الماء بهذه المنطقة؛ إذ لا يقلُّ أهمية عن دور النفط، لا سيما وأن ثلثي الاستهلاك الصهيوني من المياه يتمُّ السطو عليه من الأراضي العربية ومن دول المنطقة: سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن. ومما سبق يمكن أن نكشف بُعْدًا جديدًا في طبيعة الصراع العربي الصهيوني، وهذا تأكيد آخر على أن التعدِّي على الحاجات الأساسية للشعوب يجعل الصراع والشقاق قائمًا لا ينطفئ[1].

وهنا ينبغي أن يأتي دور المؤسسات الدولية، وفي مقدمتها الأمم المتحدة في التقليل من حدَّة الصراعات المائية؛ فقد يُؤَدِّي الجفاف ونقص المياه داخل دولة ما بنزوح السكان عنها إلى غيرها من الدول المجاورة، وهذا الذي ينتج عنه صراعٌ وقتال شرس بين الأُمَّتين في سبيل الحصول على شربة ماء؛ ومن ثَمَّ فالمؤتمرات التي تُنَادي بضرورة توفير المياه للجميع لا بُدَّ من ازدياد عددها، وتطبيق

---

(١) إدريس ولد القابلة: مقال بعنوان «إشكالية الماء في العالم»، مجلة الحوار المتمدن - العدد (٥٧٨)، بتاريخ ١/٩/٢٠٠٣م.



قراراتها، ففي عام ٢٠٠٦م عُقد بالمكسيك المنتدى العالمي للمياه، الذي وضع مشاركوه شعارًا مهمًّا هو «المياه للجميع»، فنحو ٤٠٪ من سكان العالم الذين يبلغ عددهم أكثر من ستة مليارات نسمة، لا يحصلون إلاَّ على كمية ضئيلة من المياه، أو لا يتمتَّعون بنظام صرف صحي؛ ويُؤَثِّر هذا الوضع بالسلب على الصحة العامة بوفاة ٣٩٠٠ طفل يوميًّا، وعلى النشاط الاقتصادي وتعليم النساء والفتيات اللواتي يُكَلَّفن بنقل المياه إلى المنازل، وكذلك على البيئة، ومنذ المنتدى الأخير حول المياه في كيوتو عام ٢٠٠٣م، لم تتغيَّر هذه الأرقام، لكن الأفكار تغيَّرت؛ فاليوم يبرز إجماعٌ على ضرورة تكثيف الاستثمارات وجعل إدارة المياه لا مركزية؛ للتمكن من العمل مع المجموعات المحلية لتلبية احتياجاتها[١].

هذه الاستثمارات المائية التي توفِّر الاحتياجات الأساسية للشعوب من شأنها إقامة جسور التواصل بين الشعوب والأمم، ففي النيجر – وهي دولة معرَّضة للجفاف في السنوات القليلة المقبلة - تسعى الأمم المتحدة إلى إقامة المشاريع المائية، التي من شأنها سدّ العجز المائي لهذه الدولة الفقيرة؛ كحفر الآبار النقية، ولكن تكلفة الحصول على المياه تظلُّ مرتفعة للغاية في النيجر؛ فهي تبلغ في المتوسط ما يتراوح بين ٨ آلاف دولار و١٤ ألف دولار لحفر بئر وسط الصخور الصلبة، أو لإقامة بئر أسمنتية حديثة، وقد يكون الوصول إلى سطح المياه صعبًا؛ لأنه قد يكون على عمق يتجاوز مائة متر أحيانًا، ومن ثَمَّ فهذه الدولة ما زالت في حاجة إلى استثمارات مائية من الأمم المتحدة أو من الدول المتقدمة، ومن المهم أن نعرف أن إقامة مثل هذه المشروعات من شأنه أن يفتح نافذة المشترك الإنساني دون إغلاق[٢].

ثالثًا: السكن:

سعى الإنسان منذ أن وُجد على ظهر الأرض إلى السكن والالتجاء إلى ما يَكُنُّه ويحميه من عوامل الطبيعة والبيئة، وإن تاريخ الإنسانية وما خلفته آثار أقدم الأمم لتُؤَكِّد على أن السكن ضرورة إنسانية لم يستغنِ الإنسان عنها أبدًا.

---

(١) تقرير بعنوان «المنتدى العالمي في المكسيك ناقش مشكلة نقص المياه في العالم»، مجلة الجزيرة الإلكترونية، العدد ١٦٨، بتاريخ ١١/ ٤/ ٢٠٠٦م.

(٢) تقرير بعنوان: «عبء كيليا: يمثل الحصول على المياه صراعًا يوميًّا للمرأة في النيجر»، موقع الأمم المتحدة على الإنترنت، على الرابط: www.unicef.org.

ويصف لنا ول ديورانت الأشكال المتنوِّعة للسكنى لدى الإنسان البدائي، بقوله: «ومن الطين الذي جفَّفته الشمسُ صنعت القبائل البدائية الآجُرَّ وأقامت الدُّور، ثم سكنت فيما يصحُّ أن نُسَمِّيه بيوتًا من خزف، لكن هذه البيوت الخزفية لم تكن أول صورة من صور البناء، التي أخذتْ تتطوَّر في رُقِيِّها من الكوخ الطيني الذي سكنه «الهمجي»، إلى أن بلغت أحجار البناء الراقية في مباني نينوى وبابل؛ ولقد تسلسل هذا التطوُّر حلقة بعد حلقة بتماسك بعضها ببعض؛ بحيث تُؤَدِّي الواحدة إلى التي تليها؛ فبعض الشعوب البدائية... -مثل أهل تسمانيا- أوَوْا إلى جذوع الشجر الخاوية؛ وبعضها - مثل سكان جنوبي ويلز الجديدة - اتخذوا الكهوف مسكنًا؛ وبعضها -مثل البوشمن[1]- كانوا يتَّقُون الريح بحواجز يقيمونها هنا وهناك من أغصان الشجر، وأحيانًا نادرة كانوا يغرزون في الأرض أحجارًا ثم يُغطونها بالطحلب وفروع الشجر؛ ومن هذه الحواجز التي أُقيمت لاتقاء الريح، خرجت الأكواخ حين أُضيفت إلى الحواجز جوانب عند أطرافها؛ وإنك لترى الكوخ في كل مراحل تطوُّره ماثلاً بين سكان أستراليا الأصليين، تراه من بدايته حيث كان يُقام صغيرًا من الغصون والأعشاب والتراب، ولا يسع إلاَّ شخصين أو ثلاثة، إلى الأكواخ الكبيرة التي تُثوى ثلاثين شخصًا أو يزيد. وأما البدوي -صائدًا كان أو راعيًا- فقد آثر لنفسه خيمة في مستطاعه حملها معه أينما انتهى به طِرَادُه لصَيْدِه، لكن الطبقات العليا من القبائل الفطرية، مثل الهنود الأميركيين، استخدمت الخشب في بنائها؛ وكذلك كانت قبيلة «إراكوا» تبني من الحطب، الذي لا يزال مغطًّى بقشوره، أبنية فسيحة طولها خمسمائة قدم»[2].

ولذلك أقرَّ القانون الدُّولي بالحقِّ في السكن الملائم واعترف به، كما في المادة ٢٥ (١) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، كما أقرَّت المعاهدات الدولية الأساسية لحقوق الإنسان بالحقِّ في السكن؛ فالعهد الدولي الخاصُّ بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية -على سبيل المثال- ينصُّ في المادة ١١ (١) على أنه: «تُقِرُّ الدول الأطراف في هذا العهد بحقِّ كل

---

(١) البوشمن: مجموعة عرقية بدائية تعيش في صحراء كالهاري، التي تتوزع بين بتسوانا وناميبيا وجنوب أنجولا، يبلغ عددهم الآن حوالي ٨٢ الف نسمة.
(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ١/ ٢٦.

شخص في مستوى معيشي كافٍ له ولأسرته، يُوفِّر ما يفي بحاجتهم من المأوى، وبحقِّه في تحسين متواصل لظروفه المعيشية»[١].

ومن ثَمَّ فإن احترام الدول لهذا العهد المهم من شأنه أن يبنيَ جسور التواصل والتقارب بين الشعوب، وأن يُوجد نوعًا من الحبِّ وقبول الآخر، فانظر إلى علاقة الصينيين بإفريقيا الآن؛ فهم لم يحتلُّوا إفريقيا، ولم يكن لهم مستعمرات في أراضي القارة السمراء، وإنما يتعامل الصينيون مع الأفارقة من منطلق التعاون المتبادل، وعن طريق تقديم المنح، وإسقاط ديون الدول الإفريقية المتعثرة، ومن أبرز المشاريع الصينية في إفريقيا مشاريع البنى التحتية؛ ومنها المساكن والبيوت والعقارات؛ كما في ليبيريا والكونغو والسودان وغيرها، هذا التعاون المثمر قد أدَّى إلى احترام الأفارقة للصين وحبِّهم لهم، وشعورهم بأنهم أكثر احترامًا لكرامتهم، وعن هذا التعاون قال الرئيس السوداني عمر البشير: «إن الاستثمارات الصينية حقَّقت منافع ملموسة للشعب السوداني». وأشاد الرئيس السوداني بموقف الصين ومساعداتها الإنسانية لدارفور؛ مُعربًا عن أمله في تعاون الدولتين في مجالات مثل: الطاقة، والزراعة، والبنية التحتية[٢].

ومن اللافت أن هناك من التقارير ما تقول بأن: الشركات الفرنسية لا تستطيع التنافس مع الشركات الصينية في إفريقيا؛ لتمسُّك الأفارقة بالصينيين رغم تحدُّث كثير من دول إفريقيا باللغة الفرنسية، فضلاً عن التاريخ الطويل بين فرنسا وإفريقيا[٣]!

وكذلك لن ينسى الإندونيسيون ما قَدَّمه العالم لهم، وخاصة الدول المانحة بعد كارثة تسونامي العالمية في العام ٢٠٠٤م، فقد استفادت إندونيسيا بمنحٍ بلغت ٦ مليارات دولار أشرفت عليها منظمات الأمم المتحدة، وبعض الوكالات الإندونيسية الحكومية منها وغير الحكومية، خاصة وكالة إعادة تأهيل وبناء أتشيه «ونياس»؛ فقد بنت أكثر من ١٢٠ ألف

---

(١) دائرة الحقوق: الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المعينة ص٢٥٠.

(٢) صحيفة «الشعب الصينية» باللغة العربية، على الرابط:
http://arabic.people.com.cn

(٣) تقرير بعنوان: «الصين صديقة أفريقيا الجديدة»، على موقع «فرنسا ٢٤» الإخباري الفرنسي، على الرابط:
www.france24.com/ar

مسكن، وأكثر من ألفي مدرسة، فكل هذه الجهود لإسكان المتضرِّرين لن ينساها الإندونيسي المستظلُّ ببيته الجديد، بل سيَكِنُّ في أعماقه كلَّ حبٍّ وتقدير لمن أعانوه على إعادة إعمار بيته، وإسكانه من جديد(١).

هذا التواصل الإنساني نراه كذلك في أقوال بعض زعماء العالم؛ فالرئيس الأميركي الأسبق بيل كلينتون دعا -خلال تَسَلُّمه لجائزة تيد العالمية في عام ٢٠٠٧م- إلى رفع المعاناة الصحية والسكانية عن سكان رواندا، وكانت كلمته تدور في مجملها حول المشترك الإنساني الذي يجمع البشرية كلها، وضرورة الترابط ورفع المعاناة عن المحرومين والجوعى(٢).

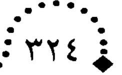
ومع وجود مثل هذه النماذج التي تضرب لنا أمثلة جيدة للتواصل مع الآخرين، فإن إهمال قضية الإسكان والتعدِّي عليها من شأنه أن يقطع الروابط والأواصر الإنسانية، وهذا للأسف موجود في عالمنا المعاصر؛ ذلك أن الهوَّة كبيرة بين الأغنياء الذين يعيشون في عقارات فارهة، وبين الفقراء المعدمين، الذين قد لا يجدون المأوى، أو يعيشون في مساكن الصفيح، التي باتت منتشرة في معظم الدول الفقيرة وحتى النامية.

وإن مثل هذا الفارق في المستوى السكني بين الأغنياء والفقراء في العالم يُؤَدِّي إلى صراعات وصدامات كبيرة بين الأمم، ولنشاهد العراق وماذا فعلت الحرب في مجال الإعمار والسكن فيها؛ فأزمة السكن في العراق هي أزمة مستديمة، وظاهرة اجتماعية تفاقمت في العهد الجديد بعد التغيرات السياسية التي حدثت في العراق، ونتيجة لعوامل عدة؛ منها: انهيار الدولة العراقية بعد سقوط نظام صدام حسين، ودور الاحتلال الأميركي والصراعات السياسية بين النخب السياسية العراقية فيما بينها من جهة، والنخب السياسية العراقية التي تقود العملية السياسية وأعداء العهد الجديد في الداخل والخارج من الجهة الأخرى، والتي كادت أن تصل بالعراق إلى حرب أهلية مدمرة بين مكونات الشعب العراقي؛ مما أَثَّر تأثيرًا

---

(١) تقرير بعنوان: «الدول المانحة تشيد بإعادة إعمار إندونيسيا بعد تسونامي ٢٠٠٤م»، مجلة (أخبار) المغربية الإلكترونية، على الرابط: www.akhbar.ma.

(٢) موقع مؤسسة «تيد» على الإنترنت، على الرابط: www.ted.com.



مباشرًا على قطاع الإسكان والإعمار[١].

إذًا كيف يرى العراقيُّ الاحتلال الذي هدم بيته، وشرَّد أسرته، وقتل أبناءه؟! هل سيحبه ويتودَّد إليه؟ أم يُقاومه وقد يُفني نفسه في إخراجه من أرضه ومسكنه؟! بالطبع سيمقت العراقي كل مَنْ هدم بيته الآمن، بل سيُدافع عن حقِّه في العيش في مسكن لائق، وهذا ما نراه ونشاهده كل يوم تقريبًا في القنوات الفضائية والتلفزيونية عن الحرب الضروس بين الاحتلال الأميركي والدولي، وبين المقاومين العراقيين المدافعين عن حقِّهم الطبيعي في المسكن اللائق والآمن.

وفي داخل الدولة الواحدة، قد لا تستطيع الدولة أن تُوَفِّر المسكن المناسب لسكانها، بل قد ترمي بهم في قارعة الطريق لأجل استثمارات، أو لتحسين صورة المدينة؛ ولكنها في الوقت ذاته لا تستطيع أن تُوَفِّر مساكن بديلة لهؤلاء، ومن ثَمَّ يأتي دور المنظمات الإنسانية في المساعدة، وهذا ما يحدث في مساكن الصفيح في كينيا؛ إذ تُزمع الحكومة طرد آلاف السكان دون توفير مساكن مناسبة لهم، تقول ويلتر نياباتي -عضو في «منتدى سويتو»، وهو منظمة تدافع عن حقوق سكان شرق سويتو، وهي إحدى القرى في كيبرا، حي الصفيح الضخم في نيروبي-: إن «أعضاء منظمة العفو الدولية يستطيعون مساعدتنا في نضالنا من أجل ضمان عدم إلقاء سُكَّان الصفيح على قارعة الطريق، أو عدم إهمالهم من قِبَل الحكومة، وينبغي أن يناضلوا من أجل وقف عمليات الإجلاء». وبالفعل فقد قامت منظمة العفو الدولية بإرسال خطاب إلى رئيس الجمهورية الكينية تُدين فيه عملية نقل سكان الصفيح دون وجود بديل لهم[٢]. **(انظر: صورة رقم ١٠ أزمة الإسكان)**

ومن هنا نرى أن قضية المسكن في غاية الأهمية؛ إذ المسكن ضرورة إنسانية ملحَّة، وحقٌّ طبيعي من حقوق الإنسان؛ فالتعدِّي على هذا الحقِّ يُعَدُّ إشعالاً للعداوة مع الآخر.

---

(١) كامل الشطري: مقال بعنوان «إشكاليات أزمة السكن المتفاقمة في العراق.. أسبابها وإمكانية معالجتها»، مجلة الحوار المتمدن، العدد (٢٧١٦)، بتاريخ ٢٣/ ٧/ ٢٠٠٩.

(٢) تقرير بعنوان: «أوقفوا عمليات الإجلاء القسري في أحياء الصفيح في نيروبي»، موقع منظمة العدل الدولية، على الرابط: www.amnesty.org/ar.

أزمــة الإسكان

صورة رقم (١٠)

رابعًا: الأسرة:

إن تكوين الأسرة أمر فطري يسعى الإنسان إلى تكوينه منذ وجوده على الأرض، وتحكي الكتب السماوية، وكثير من المؤلفات التاريخية والثقافية في مختلف بلدان العالم أن أول إنسان وُجد على الأرض هو آدم عليه السلام، وقد خلق الله حواء؛ ليترابطا ويتزوَّجا لتبدأ الإنسانية في الوجود والتطوُّر[١].

وقد حَذَت الإنسانية حذو آبائها الأوَّلين، في البحث عن شريك الحياة، فلم يخلُ مجتمع إنساني من المرأة، وتكوَّنت الأسرة التي هي المكوِّن الرئيس للمجتمع، ثم انتشرت الأجناس والأعراق على ظهر الأرض، ولقد كان غرض الزواج متعدِّدًا ومتنوِّعًا تبعًا لاختلاف الأجناس والعرقيات والثقافات، ورغم تنوُّع هذه الأغراض – والتي يأتي على رأسها الإشباع الغريزي – فإن غريزة البحث عن الشريك كانت – وما زالت – المسيطرة على الإنسان.

وإنَّ مَنْ يقول – من علماء الأنثروبولوجيا – بوجود مرحلة بدائية من النسب الأمومي لم يكن فيها للأب حقوق ولا واجبات، يصطدمون بالواقعة المهمة التي تُوَضِّح أنه حتى عند البدائيين الأكثر تخلُّفًا، والذين يعيشون بصورة أساسية أو حصرية على القنص ومن المنتجات الطبيعية، التي يستطيعون الحصول عليها دون زراعة الأرض أو تربية الحيوانات الداجنة؛ فإن الأسرة المكوَّنة من الزوجين والأبناء هي وحدة اجتماعية محدَّدة بوضوح، وإن الأب هو سيدها وحاميها[٢].

وهذا ما تُقِرُّه الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة مُفَنِّدة بذلك مزاعم مَنْ قالوا بالإباحية والشيوعية الجنسية في المجتمعات البدائية الأولى؛ وهو يُدلل على أن رابطة الزواج وتكوين الأسرة لصيق الصلة بوجود الإنسان على الأرض.

لقد كان الزواج -ولا يزال- نظامًا أساسيًّا في كل المجتمعات البشرية، صحيح اختلفت مضامينه وأشكاله من مجتمع لآخر بحسب الثقافات والمفاهيم المتنوِّعة من بيئة لأخرى، ومن

---

(١) سفر التكوين، ٤/ ٢٠، ٢١، ورسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، ٣/ ١٣-١٥، والقرآن الكريم: سورة البقرة (٣٥).

(٢) إدوار ويسترمارك: موسوعة تاريخ الزواج ص٤٦.

عصر لآخر، لكنه نظام ثابت أَقَرَّتْهُ كل المجتمعات والأعراف منذ وجود الإنسان على الأرض، ففي نهاية العصر البدائي الأول كان نظام «الزواج الذي يُضيف الزوج إلى أسرة زوجته» قائمًا متعارفًا عليه؛ إذ يقضي هذا النظام أن يهجر الزوج قبيلته ليعيش مع قبيلة زوجته وأسرتها، ويعمل من أجلها أو معها في خدمة والديها؛ فالأنساب في هذه الحالة يُقتَفَى أثرها في جانب الإناث، والتوريث يكون عن طريق الأم؛ حتى حقّ العرش أحيانًا كان يهبط إلى الوارث عن طريق الأم لا عن طريق الزوج؛ على أن هذا الحَقَّ الذي للأمومة ليس معناه سيطرة المرأة على الرجل؛ لأنه حتى إن وَرَّثَت الأم أبناءها، فليس لها على مِلْكها هذا الذي تُورثه إلاَّ قليل من السلطان؛ وكل ما في الأمر أن الأم كانت وسيلة تَعَقُّب الأنساب؛ لأنه لو لا ذلك لأدَّى إهمال الناس عندئذ في العلاقات الجنسية وإباحيتهم إلى طمس معالم القُربى[١].

لكن من جملة الأسباب التي دفعت الإنسان في كافَّة الأزمنة والأمكنة ناحية تكوين الأسرة، نجدُ إنجاب الأطفال، ولم تخلُ المصادر التاريخية للحضارات العالمية القديمة من سعي تلك الأمم إلى تكوين أسر، وإنجاب أطفال كثر وأقوياء، فلقد اعتبر قدماء اليونان أن إنجاب الأطفال واجب مقدس[٢]، ومما يُلاحظ أن «الصينيين قد حرصوا على إنجاب أبناء أقوياء كانوا من القوة بحيث يجعلهم يسمحون عادة للقادرين منهم بأن يتخذوا لهم سراري. أمَّا تعدُّد الزوجات فكان في نظرهم وسيلة لتحسين النسل؛ وحجتهم في هذا أن مَنْ يستطيعون القيام بنفقاته منهم هم في العادة أكثر أهل العشيرة قدرة على إنجاب الأبناء، وكانت الزوجة الأولى إذا ظلَّت عاقرًا تحثُّ زوجها على أن يتخذ له زوجة ثانية»[٣] لإنجاب الأولاد.

من هذا المنظور الديني والتاريخي نرى أن الزواج مشترك إنساني عامٌّ، لا يخلو مجتمع من المجتمعات - قديمها وحديثها - من وجود هذه الرابطة المقدسة، التي تجمع بين الرجل والمرأة على قيم سامية؛ مثل: الرحمة، والمودَّة، والطمأنينة، والسكن.

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١/ ٥٩.
(٢) المرجع السابق ٦/ ٣٦٦.
(٣) المرجع السابق ٤/ ٢٧٠.



وإننا لا نحتاج إلى التأكيد والتدليل على كون الزواج غريزة إنسانية، ومطلبًا بشريًّا، لكن التعدِّي على هذا الاحتياج الإنساني يُعَدُّ إهدارًا لمشترك إنساني يسعى الإنسان إليه بدافع وإرادة قويين، ولا شكَّ أن إعانة الدولة لمواطنيها لأجل تحقيق هذا الغرض المهم لَمِن الأولويات التي يجب أن تُوضع على قائمة اهتماماتها، ولقد كان الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز[(١)] (ت ١٠١هـ=٧٢٠م) له منادٍ في كل يوم يُنادي: «أين الغارمون؟ أين الناكحون (طالبو الزواج)؟ أين المساكين؟ أين اليتامى؟» حتى أغنى كلاً من هؤلاء[(٢)]؛ ولذلك بلغت الحضارة الإسلامية في عصره أوجها وقمَّتها.

وللأسف فقد وُجدت عادات اجتماعية وتاريخية كان لها أثرها السيئ على قضية الزواج؛ فجريمة الإخصاء تتنافى مع حقِّ الإنسان الفطري في التزاوج والتكاثر؛ فلقد استعمل اللخميون والغساسنة السقاة الخصاة لإسقائهم الشراب ولإسقاء ضيوفهم أيضًا، ولا يُستبعد وجود «الخصيان» في قصور الملوك والأشراف، فقد كان من عادة الناس في ذلك الوقت استخدامهم في البيوت، فكانوا يدخلون على نساء الملوك والسادات، ويتصلون بهن لخدمة البيت، ولهذا لجأ الملوك إلى شراء الخصيان، أو إخصاء مماليكهم؛ حتى يكونوا بمأمن من اتصالهم بالقصر ودخولهم على نسائهم[(٣)].

وقد وُجدت مثل هذه الحالات في ظلِّ الحضارة الإسلامية وحضارات العالم القديم؛ مثل الخصيان والمجبوبين المستخدمين في العصور الإسلامية المختلفة؛ مثل: الطواشية في العصر المملوكي، والانكشارية في العصر العثماني؛ فقد كانوا يُستخدمون في الجيوش وخدمة السادة في القصور والحريم، لكن نبي الإسلام محمدًا ﷺ نهى عن هذا الفعل الشنيع؛ لأنه مخالف لحكمة الخالق من خلقه، ومناقض لمقصد من مقاصد التشريع الإسلامي وهو حفظ النسل؛ فعن عبد الله ابن مسعود ﷺ قال: «**كُنَّا نَغْزُو مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْسَ لَنَا نِسَاءٌ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَلا**

---

(١) عمر بن عبد العزيز بن مروان (٦٠-١٠١هـ): وُلِدَ ونشأ بالمدينة، تولى الخلافة الأموية ٩٩هـ، فأحسن السيرة والعدل، قال عنه أنس بن مالك: ما صلَّيتُ وراء إمام أشبهَ برسول ﷺ من هذا الفتى، توفي عمر بدير سمعان. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٢/ ٣١٢-٣١٤، والزركلي: الأعلام ٥/ ٥٠.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٢٢٥.

(٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٩/ ٢٩٦.

نَسْتَخْصِي[(١)]؟ فَنَهَانَا عَنْ ذَلِكَ»[(٢)]. وهذه نظرة الإسلام العامة لهذه القضية المهمَّة.

ومع مرور الزمن وُجدت من العوائق الاقتصادية والمادية ما يعوق نظام الزواج؛ مما يترتب على ذلك سلبيات لا تحصر؛ فسيطرة الدول الغنية على مجريات الأمور في العالم، وتقسيم السياسة الدولية إلى دول غنية مسيطرة ودول ضعيفة فقيرة لا تقوى على سدِّ احتياجاتها من الطعام والشراب، من شأنه إحداث هزَّة اجتماعية عنيفة خاصة في الدول المحافظة؛ إذ لن يستطيع الفقراء المُعْوزون توفير المال الكافي لتكاليف الزواج وأعبائه؛ ومن هذه البلدان مصر؛ فقد كشفت دراسة رسمية أعدَّها الجهاز المركزي المصري للتعبئة العامَّة والإحصاء -المسئول عن تعداد المصريين- أن هناك نسبة متزايدة لغير المتزوجين بين الشباب المصريين تصل إلى ٣٧٪ منهم، فيما كشفت دراسة جزائرية أخرى أن ٣١٪ من الجزائريات عوانس لم يتزوَّجن؛ والمعروف أن الظروف المعيشية المرتفعة التكاليف، فضلاً عن انتشار البطالة، وارتفاع أسعار السكن لأرقام فلكية تُعَرْقِل زواج الكثير من الشبان المصريين[(٣)].

ونظرةٌ سريعةٌ لدول جنوب الصحراء الكبرى في إفريقيا تُسبِّب لنا فاجعة كبرى؛ إذ إن هذه الدول الإفريقية لتُعَدُّ من أفقر دول العالم، ولا يكاد الفرد فيها يجد قوت يومه، فضلاً عن إعالة أسرته وعائلته، وكان من النتائج المترتبة على هذا الأمر، عزوف الشباب عن الزواج، والاتجاه صوب العلاقات غير الشرعية، وأصبحت القاعدة المتعارف عليها في هذه الدول وجود العلاقات غير الشرعية؛ وهذا الذي أدَّى إلى انتشار مرض خبيث قاتل هو «الإيدز»، ويُشير تقرير صادر عن منظمة الصحة العالمية إلى أن «مجموع المصابين بالإيدز وعدوى فيروسه في العالم، والذين قُدِّروا في نهاية عام ١٩٩٩م بنحو ٣٤,٣ مليونٍ، فإن ٢٤,٥ مليونٍ منهم (٧١,٥٪) يعيشون في المنطقة الواقعة جنوب الصحراء الإفريقية الكبرى؛ إذ إن البلدان الثلاثة والعشرين -التي كان معدل الانتشار المصْلِي لفيروس الإيدز بين البالغين فيها عام

(١) ألا نستخصي؛ أي: ألا نستدعي من يفعل لنا الخصاء أو نعالج ذلك أنفسنا، والخصاء: هو الشق على الأنثيين وانتزاعهما. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٩/ ١١٨، ١١٩.

(٢) البخاري: كتاب النكاح، باب تزويج المعسر... (٤٧٨٤)، ومسلم: كتاب النكاح، باب نكاح المتعة وبيان أنه أبيح ثم نسخ... (١٤٠٤).

(٣) موقع المركز العربي للمصادر والمعلومات (أمان) على الرابط: www.amanjordan.org/aman_studies.

١٩٩٩م يزيد على ٥ ٪ في العالم- تقع جميعها في المنطقة الواقعة جنوب الصحراء الإفريقية الكبرى، وفي ٨ من هذه البلدان (جميعها في إفريقيا الجنوبية)، يزيد معدل الانتشار المصْلِي لفيروس الإيدز بين البالغين فيها على ١٥٪، وعلى ذلك فإن ذلك الجزء من إفريقيا الواقع جنوب الصحراء الإفريقية الكبرى يتحمَّل معظم وطأة وباء الإيدز والعدوى بفيروسه[١].

ماذا -إذًا- لو كانت هذه الدول الموغلة في القارة الإفريقية (غنية أو نامية) يستطيع أبناؤها إعالة أسرة، وتكوين عائلة؟ بالطبع لم يحدث ما نراه الآن من فتك بأبناء هذه القارة، الذين يموتون بالآلاف كل عام، كلُّ هذا ليُؤَكِّد على أن الزواج حقٌّ طبيعي وفطري في كل مجتمعات الدنيا، وأن الممارسات الاحتكارية والسلطوية واللا أخلاقية تُؤدي في نهاية المطاف إلى الهلاك المحقق.

خامسًا: الأمن:

يُعدُّ الأمن من أبرز المتطلبات الحياتية للأمم كافَّة؛ فانعدام الأمن في أي أُمَّة من شأنه القضاء نهائيًّا عليها؛ ومن ثَمَّ فليس من المستغرب أن نجد عالم النفس الأميركي إبراهام ماسلو[٢] يضع الأمن بكافَّة عناصره في المستوى الثاني من هرمه الشهير الموسوم بـ«هرم ماسلو للاحتياجات الأساسية»[٣]، بل نجد من اللافت أن مقاصد الشريعة الإسلامية تتمحور حول حفظ مجموعة من الضرورات الكلية؛ منها الحفاظ على النفس والمال والنسل والسكن[٤]، وعند المقارنة اليسيرة بين النظرتين نجد أن هناك تقاربًا كبيرًا بين العلم الحديث وما أقرَّه التشريع الإسلامي من مئات السنين، فما سرُّ تطابق النظرتين؟

تكمن الإجابة في أن غايات البشر ومتطلَّباتهم واحدة عبر مسيرة الزمن؛ فالإنسان هو الإنسان من حيث الغايات والعواطف والمشاعر والاحتياجات، مهما تقدَّم مجتمعه وأمته، أو مهما تخلَّف واندحر؛ ولذلك فليس مستغربًا أن نجد توافقًا بين رسالة سماوية ربانية وعت

(١) موقع منظمة الصحة العالمية على الإنترنت، على الرابط: www.emro.who.int/arabic.

(٢) إبراهام ماسلو Abraham Maslow (١٩٠٨-١٩٧٠م): عالم نفس أميركي، ويُعتبر مؤسس علم النفس الإنساني، وصاحب التسلسل الهرمي للاحتياجات البشرية، ونظرية في الدافعية الإنسانية.

(٣) Abraham H.masow, motivation and personality, pp56-63

(٤) راجع الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام ٣/ ٣٠٠.

جيدًا متطلبات الإنسان واحتياجاته، وما توصَّلت إليه العلوم الإنسانية الحديثة، وعلى رأسها علم النفس والاجتماع من خلال المنهج العلمي الموضوعي، الذي يضع الأشياء في نصابها.

على أن ما يهمُّنا يتمركز في ضرورة احترام الأمم لبعضها وعلى رأسها الأمن؛ فالتجرُّؤ على النفس والمال والأبناء والمسكن من شأنه - بلا أدنى شكٍّ- أن يُقيم العداوة بين الناس، فهل يُعقل أن أحبَّ وأحترم مَنْ يقتحم عليَّ بيتي؛ سواء كان اقتحامه بليل أو نهار؟! بالطبع لا يُعقل ذلك، وكذلك لا يُعقل أن تحترم أُمَّة مقهورة - لا تَنْعَمُ بالأمن - أُمَّةً أخرى اقتحمت أرضها، وقتلت أبناءها، واستلبت أموالها! فالتعدِّي على الأمن يعني إشعال الحرب، وإقامة العداوات التي لا تنتهي.

وإن التأمُّل في حروب العالم القديم والحديث ليأخذنا إلى حقيقة مؤلمة، تكمن في أنه من أشدِّ الحروب دموية تلك التي قامت على استلاب ثروات الأمم وأموالها، وإن الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) لأكبر شاهد على ذلك؛ فأهم أسباب اندلاعها التنازع على المستعمرات بين كلٍّ من إيطاليا وألمانيا واليابان وبين بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة؛ إذ لم تَرْضَ دول المحور بما أخذه الحلفاء، وكلهم في نهاية المطاف على خطأ؛ إذ تحاربوا على ما لا يملكونه من الأساس، ومن اللافت أن أحد أهم أسباب الحرب العالمية الثانية أن اعتبرت دول المحور نفسها فقيرة مقارنة بدول الحلفاء، التي كانت تملك ٨٠٪ من الذهب العالمي حينئذٍ؛ ولذلك قامت الحرب في أكثر من ٧٠ دولة وفي ثلاث قارات هي: أوربا وآسيا وإفريقيا، واشترك فيها ما يقرب من مائة مليون إنسان من العسكريين والمدنيين(١).

وتُؤَكِّد الحرب الفرنسية البروسية (ألمانيا) التي وقعت في صيف عام ١٨٧٠م، أنَّ تهديد الأمن القومي لأي أُمَّة من شأنه أن يُشعل حربًا قوية، كتلك التي قامت بين فرنسا وبروسيا، فعلى الرغم أن الدولتين متجاورتان جغرافيًّا، وتنعمان بالقدر نفسه من التمدُّن والتقدم، الذي حظي به الأوربي في القرن التاسع عشر، فضلاً عن المشترك الثقافي بينهما، فكثيرًا ما تأثَّرت الحركات العمالية والنخب الثقافية في فرنسا بالمذاهب الفلسفية والتاريخية في ألمانيا، والعكس

---

(١) منير الموسى: مقال بعنوان: «سبعون عامًا على الحرب العالمية الثانية.. فمـــن يتعـظ؟!»، صحيفة الثورة السورية ١٤/٩/٢٠٠٩م.

صحيح؛ إلاَّ أن حربًا طاحنة قامت بينهما لسبب وجيه جدًّا، تمثَّل في تهديد ألمانيا لأمن فرنسا من خلال تعيينها للأمير ليوبولد أحد أمراء الإمبراطورية البروسية وليًّا لعرش إسبانيا، وهو ما اعتبرته فرنسا محاولة من المستشار البروسي بسمارك[1] لتطويق وإذلال الأُمَّة الفرنسية، وقامت الحرب واحتلت ألمانيا أجزاءً من الإلزاس واللورين الفرنسية، وقد ترتَّب على ذلك عداوة ظلَّت باقية لمدَّة تزيد على السبعين عامًا، حتى انتهت الحرب العالمية الثانية، وهذا المثال من أبرز الأدلَّة على أن تهديد الأمن لأي أُمَّة من شأنه أن يُؤَدِّي إلى التقاتل والتناحر؛ لأن حماية الوطن وأمنه جزء لا يتجزَّأ من عقيدة المرء وثقافته[2].

ويُعَدُّ الاستعمار الفرنسي للجزائر من أقدم الاستعمارات في القارة السمراء، فقد بدأ منذ عام ١٨٣٠م، وخرج قافلاً إلى بلده في عام ١٩٦٢م، هذه الأعوام الطويلة التي قضتها فرنسا في احتلالها للجزائر أدَّت إلى انعدام الأمن عند الجزائريين، بل والفرنسيين أيضًا؛ إذ قُتل فيها ما يزيد على مليون و٣٠٠ ألف جزائري، وأدَّى استخدام القوات الفرنسية للتعذيب على نطاق واسع إلى فرار كثير من الجزائريين من بلادهم، وكان الفرنسيون يُقيمون معسكرات كبيرة ومخيمات للمهجَّرين من بلادهم، ولتجنُّب هذه المعسكرات فرَّ آلاف الجزائريين عبر الحدود إلى تونس والمغرب، وازداد عدد الجزائريين الهاربين في أغسطس عام ١٩٥٧م، ففي خلال عامين فرَّ من الجزائر أكثر من ٣٠ ألف جزائري.

واضطر بسبب هذه الحرب أكثر من مليون أوربي مقيم في الجزائر إلى الفرار من البلاد، وفقد الجيش الفرنسي أكثر من ٢٤ ألف جندي، وقُتل نحو ٦ آلاف مقيم فرنسي، وتسببت الحرب بصورة مباشرة أو غير مباشرة في إسقاط ستة رؤساء وزراء وانهيار الجمهورية الرابعة، وكادت تتسبب في الإطاحة بالرئيس شارل ديجول[3]، وإغراق فرنسا في حرب أهلية[4].

---

(١) بسمارك Otto von Bismarck (١٨١٥-١٨٩٨م): رئيس وزراء بروسيا، مؤسس المملكة الألمانية أو الرايخ الألماني الثاني، اشتهر بلقب «المستشار الحديدي»، له كتاب (أفكار وذكريات).

(٢) هربرت فشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث ص٢٩٠-٢٩٣.

(٣) شارل ديجول Charles de Gaulle (١٨٩٠-١٩٧٠م): جنرال ورجل سياسة وقائد عسكري فرنسي كبير، ورئيس جمهورية فرنسا الراحل، قاد فرنسا في الحرب العالمية الثانية، من مؤلفاته: (خيط السيف)، و(فرنسا وجيشها).

(٤) مفوضية الأمم المتحدة لشئون اللاجئين: تقرير عام ٢٠٠٠م بعنوان «حالة اللاجئين في العالم، خمسون عامًا من العمل الإنساني»، ص٣٨، ٣٩.

فالاستعمار الفرنسي للجزائر تسبب في مشاكل اقتصادية وسياسية وإنسانية، ظلَّت آثارها ماثلة حتى وقتنا هذا، وما زالت الجزائر تطالب فرنسا بالاعتراف بجرائمها، مع المطالبة بتعويضات عما لحق بها طيلة ١٣٢ عامًا من التنكيل والعذاب، فضلاً عن نهب الثروات، ومن اللافت أن هذا المثال الصارخ الذي يُوَضِّح فلسفة الاستعمار الأوربي في القرنين التاسع عشر والعشرين، يعكس بجلاء ما تعنيه فرنسا في ضمير كل جزائري؛ ولذلك يجب أن يكون هذا النموذج مثالاً لنا في معرفة طبيعة التقارب الإنساني، والمشتركات العامة بين الشعوب، فالتعدِّي على ثروات الوطن، وقتل المواطنين من قِبَلِ المغتصب لن يُحَقِّق له إلاَّ فوائد مادية قريبة الأجل؛ لكنها تكون مثل السم في العسل!

ويمثِّل الصراع الصهيوني الفلسطيني شاهدًا مأساويًّا متكرِّرًا في حياتنا اليوم، إلاَّ أن الأمن لن يتحقَّق للجانبين ما لم تُحل المشكلة جذريًّا، فكيف يهنأ الصهاينة بأمن وهم مغتصِبون أرضًا بقوة السلاح، والتاريخ والقانون خير شاهد على ذلك؟! وكيف يتعامل الفلسطيني مع الصهيوني وأرضه مغتصبة، وإخوانه في السجون، فضلاً عن القتل اليومي لأسرته وأطفاله؟!

ومن الغريب أنَّ الكيان الصهيوني يحاول أن يستردَّ أمنه المفقود عن طريق إقامة الحواجز التي تفصله عن الفلسطينيين، فضلاً عن إقامة الجدار العازل الذي يقسم الضفة الغربية ويعزله عن العالم الخارجي، فهل يمكن في ظلِّ هذه الإجراءات أن يتعايش الشعبان بعضهما مع بعض؟! وهل يمكن أن يكون هناك مشترك إنساني بينهما؟!

بالطبع لن يكون هذا إلاَّ إذا ردَّ الكيان الصهيوني الحقوق المغتصبة، والأرض المسلوبة، والاعتراف بحقِّ عودة اللاجئين الفلسطينيين المتشرذمين في الأردن وسوريا ولبنان ومصر وأوربا وأميركا، هؤلاء الذين فقدوا أرضهم منذ الحرب الصهيونية الفلسطينية التي وقعت عام ١٩٤٨م، فإذا أقرَّ الكيان الصهيوني أنه سيعيش كشعب في ظلِّ دولة فلسطين، وقتها سينعم شعب الكيان الصهيوني بأمنه، ويمكن أن يتعايش مع الفلسطينيين كما عاش اليهود في أكناف الحضارة الإسلامية أكثر من ألف عام.

ومما يستلفت الانتباه أن التعامل بين الشعوب من منطلق الاحترام المتبادل، وحفظ الأمن وعدم التعدِّي على الآخر للسيطرة على موارده وثرواته؛ من شأنه أن يُضفي نوعًا من المشترك، الذي قد يُفَسِّره البعض بأنه نوع من الإعجاز البشري بين شعبين مختلفي الثقافات والمشارب، فقبل أن تُفَكِّر بريطانيا في احتلال أي رقعة في العالم، كانت حياتها المادية تقوم على التجارة والصناعة، فكيف كانت تُسَوِّق نفسها في هذين المضمارين المهمين، هل كانت تُجبر الآخر على قبول تجارتها وصناعتها؟! هل كانت محتلَّة ومستعمرة لأي دولة كانت؟!

لا؛ فقد كتب الفيلسوف الألماني الشهير هيجل[١] في عام ١٨٢٠م عن الإنجليز وتعاونهم الباهر مع الآخر، وقدرتهم الفائقة -وقتئذٍ- على تكوين مشتركات إنسانية سريعة وبصورة لائقة، بقوله: «إن حياة الإنجليز المادية تقوم على التجارة والصناعة، وقد أخذ الإنجليز على عاتقهم عبء نقل الحضارة إلى العالم؛ فإن روحهم التجارية تُحَفِّزهم على الطواف في كل بحر، والتنقُّل في كل مكان، وإنشاء صلات وروابط مع الشعوب المتبربرة، وخَلق الحاجات، وإنعاش دولاب الأعمال، وتهيئة الأحوال الضرورية فيما بينهم -أولاً وقبل كل شيء- لقيام التجارة، وهذه الأحوال هي: نبذ حياة العنف غير المشروع، واحترام الملكية، واتباع آداب اللياقة والسلوك مع الغرباء»[٢].

فهيجل يرى أن الأحوال الضرورية -أو الحاجات الأساسية- يأتي في مقدِّمتها نبذ حياة العنف، وكان الإنجليز حينها متشبِّعين بهذه الثقافة، لكن الطمع أعماهم عن اتباع السبل الصحيحة في التعاون مع الآخر، فاستبدلوا تلك الثقافة القديمة بثقافة الاستعمار في الهند، ثم احتلالهم لمصر عام ١٨٨٢م، ثم بقية المستعمرات التي لا تغيب عنها الشمس!

مما سبق نتيقَّن من أن الحاجات الأساسية؛ وهي: حفظ الطعام والشراب، والأمن بمختلف قطاعاته وفروعه من أهم الضروريات الحياتية لأي أُمَّة، وأن التعدِّي على هذه

---

(١) جورج وليام هيجل Georg Wilhelm Hegel (١٧٧٠-١٨٣١م): فيلسوف ألماني، وأهم مؤسسي حركة الفلسفة المثالية الألمانية في أوائل القرن ١٩م، من كتبه: العقل في التاريخ، محاضرات في تاريخ الفلسفة، محاضرات في فلسفة التاريخ.

(٢) هربرت فشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث ص١٣٢.

الضرورات من قِبَل المستعمر أو المحتلّ لن يُحقِّق له إلاَّ الدمار والخراب والعداوة؛ ومن ثَمَّ فإن الحاجات الأساسية مشترك عام بين كل الشعوب؛ البدائية منها والمتقدِّمة.

سادسًا: الملبس:

وفي ظلِّ حديثنا عن الاحتياجات الأساسية لا يمكن أن نتجاهل الملبس؛ إذ إن أحد حقوق الإنسان الأساسية أن يكون له ملبس لائق يحفظه من الجوِّ المتقلِّب، ويمنع جسده من كل ضرر قد يلحق به إذا تُرك عاريًا، ونلاحظ أن الله ﷻ قد أغنى آدم عليه السلام في الجنة عن الاحتياجات الأساسية والسؤال عنها؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى ۞ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى**﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]، ولقد رأى المفسرُ الكبير الفخر الرازي[١] في تفسيره لهذه الآية الكريمة أن «الشبع والري والكسوة والاكتنان في الظلِّ هي الأقطاب التي يدور عليها أمر الإنسان؛ فذكر الله تعالى حصول هذه الأشياء له في الجنة من غير حاجة إلى الكسب والطلب، وذكرها بلفظ النفي لأضدادها التي هي الجوع والعري والظمأ والضحى؛ ليطرق سمعه شيئًا من أصناف الشقوة التي حذَّره منها، حتى يُبَالغ في الاحتراز عن السبب الذي يُوقعه فيها، وهذه الأشياء كلها كأنها تفسير الشقاء المذكور في قوله: ﴿**فَتَشْقَى**﴾[طه: ١١٧]»[٢]، فلفظة الأقطاب التي ذكرها الرازي في تفسيره لهذه الآية إنما يقصد بها أن مدار حياة الإنسان لا يقوم إلاَّ عليها، فهي القطب؛ أي مركز[٣] حياة الإنسانية، والملابس أحد هذه المراكز الكبرى التي لا يمكن لأحد أن يستغني عنها.

فالملبس من الأساسيات التي لا تستقيمُ حياة الناس إلاَّ بها، ولعلَّ ذِكْرَ الله ﷻ لهذه المادَّة الأساسية في قصة آدم عليه السلام في الجنة لمن أكبر الأدلَّة على أنه أمر غريزي فطري لدى كل الشعوب والأمم، وقد تناول ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) أقدم الحضارات بالتحليل

---

(١) فخر الدين الرازي: هو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن فخر الدين الرازي (٥٤٤-٦٠٦هـ=١١٥٠-١٢١٠م)، من أئمة المفسرين، والعلامة سلطان المتكلمين في زمانه، وأحد أعلم أهل زمانه في المنقول والمعقول وعلم الأوائل، وُلِدَ بالري، وتوفي بهراة، له: (مفاتيح الغيب) في تفسير القرآن الكريم. انظر: ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ٢/ ٦٥- ٧٦، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٢٤٨-٢٥٢.

(٢) فخر الدين الرازي: التفسير الكبير ١٠/ ٤٨٧.

(٣) ابن منظور: لسان العرب ١/ ٦٨٠.

والدراسة، وكان حديثه عن عادات وتقاليد تلك الشعوب القديمة لا يخلو من ذِكْر أنواع الأردية والملابس التي اعتادوا عليها، فعند وصفه للسومريين - وهم من أقدم الحضارات العالمية - يقول: «كانوا يتخذون ملابسهم من جلود الغنم، ومن الصوف المغزول الرفيع، وكانت النساء يسدلن من أكتافهن اليسرى مآزر على أجسامهن، أمَّا الرجال فكانوا يشدُّونها على أوساطهم، ويتركون الجزء الأعلى من أجسامهم عاريًا، ثم علت أثواب الرجال مع تقدُّم الحضارة شيئًا فشيئًا، حتى غطَّت جسمهم كله إلى الرقبة»[١].

وكذلك كان الحال عند المصريين القدماء، فقد عُثِرَ على كَتَّان يعود لعصر الأسرات القديمة في مصر الفرعونية في منطقة الفيوم، ما يُدلِّل على أن المصري القديم كان يهتمُّ بالملابس اهتمامًا كبيرًا، وأن الصورة النمطية التي اعتدنا أن نراها في الأفلام عن المصريين القدماء بأنهم كانوا عرايا أو شبه عرايا لهو أمر غير صحيح، وهذا ما تُثبته الاكتشافات الأثرية الحديثة؛ حيث يقول عالم المصريات سيريل ألدريد[٢]: «طوال الفترة التي استغرقتها الحضارة (المصرية) القديمة تطوَّرت عمليات نسج الكتان، وتحسَّنت كثيرًا؛ نظرًا لاستخدامه في صناعة الأردية والملابس، وقد استُخدمت جلود الحيوان -أيضًا- في تلك الصناعة، حيث تحسَّنت مهارة الفلاحين في تنعيم ودباغة الجلود وخياطتها مع بعضها باستخدام إبر مصنوعة من العظام، ويدلُّ على ذلك ما عُثر عليه من آثار تلك الحضارة في منطقة البداري»[٣].

وحتى الحضارات النائية مثل الهنود في أميركا الشمالية والوسطى قد عرفوا الملابس، بل كانت قبائل الهنود في المكسيك وجنوب الولايات المتحدة معتادة على زراعة القطن؛ ومن ثَمَّ صناعة الملابس منذ أقدم العصور؛ حتى إن الولايات المتحدة الأميركية بعد ذلك قد عرفت زراعة القطن وصناعته عن طريق هؤلاء الهنود[٤].

ومن ثَمَّ فإن الإنسان جُبل على ارتداء الملابس، وصناعتها وزراعة الموادِّ التي هي أصلها

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ١٥.

(٢) سيريل ألدريد Cyril Aldred (١٩١٤-١٩٩١م): مؤرخ وفنان وكاتب وعالم مصريات بريطاني، من أعماله: (جواهر الفراعنة)، و(إخناتون ونفرتيتي).

(٣) سيريل ألدريد: الحضارة المصرية من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة، ص٥٢.

(٤) ب. راوين: الحضارات الهندية في أميركا (الأنتيك، المايا، الإنكا)، ص٢٩.

ومنبتها، ولا يخلو مجتمع من المجتمعات الإنسانية من الملابس، وحتى القبائل البدائية التي وُجدت عارية في إفريقيا، واعتبرت ذلك من عاداتها وتقاليدها المتوارثة لا يمكن أن نتَّخذها أسوة أو أنموذجًا لحياة البشرية الأولى، بل هم أناس شذُّوا عن العرف البشري، الذي رأى أن الملبس من ضرورات الإنسان واحتياجاته، ولعلَّ ظروف الحرارة القاسية التي يعيشون فيها هي التي دفعتهم لذلك.

ولذلك فالاعتداء على الملبس، وعدم توفيره للبشر هو اعتداء قاس على الإنسان ذاته، فحينما نقرأ أن وزارة الأسرى والمحررين في الحكومة الفلسطينية تُناشد المنظمات الدولية الإنسانية والحقوقية بالتدخُّل والضغط على سلطات الكيان الصهيوني للسماح بإدخال ملابس وأغطية شتوية لأسرى القطاع في سجون الاحتلال، فإننا لا نرى إلاَّ أن هذا التصرُّف المشين من الكيان الصهيوني هو هدر للكرامة البشرية، وتعدٍّ صارخ على أبسط الاحتياجات البشرية[١].

وقد يتبادر إلى أذهاننا سؤال مهمٌّ، وهو: هل ينبغي ونحن في القرن الحادي والعشرين أن نناقش قضية ملبس الإنسان؟!

إن الإجابة عن هذا السؤال في غاية البساطة؛ ذلك أن عالم القرن الحادي والعشرين لا يزال فيه ملايين من الفقراء والمشرَّدين، فبحسب إحصاءات البنك الدولي فإن عدد الفقراء في العالم بلغ في عام ٢٠٠٧م نحو ٩٨٥ مليون شخص[٢]؛ أي أن سدس سكان العالم يعيشون في فقر، والفقر هو عدم استطاعة الإنسان كفاية نفسه من الطعام والشراب، فما بالنا بالملابس والأردية، وهي أمور تتبع -بلا شكٍّ- الطعام والشراب في الأهمية والمكانة.

وللأسف فليس الفقراء وحدهم هم المعوزين للملبس بجوار الطعام والشراب؛ فإن المشرَّدين جرَّاء الصراعات الداخلية والكوارث الطبيعية -وما أكثرهم- في حاجة كذلك إلى هذا العنصر الأساسي المهم، ولنأخذ على ذلك مثالاً، ففي الأزمة العرقية التي حدثت في

---

(١) جريدة أخبار العالم التركية الإلكترونية على الرابط:
www.akhbaralaalam.net/news_detail.php?id=32439.

(٢) تقرير البنك الدولي على الرابط: http://web.worldbank.org.

قيرغيزستان في شهر يونيو ٢٠١٠م؛ وَشُرِّد آلاف من البشر، وعاش كثيرون منهم أيامًا صعبة في فقر وحرمان واحتياج للضرورات الأساسية ومنها الملبس، حتى إنَّ إحدى المشرَّدات وهي السيدة ميسيريو اعتبرت أن بقاء الملابس عليها وعلى عائلتها أمر لافت للنظر، فقالت: «لقد فقدنا الآن كل ما كان لدينا، ولم يعد لدي سوى الملابس التي كنت أرتديها وزوجي وابنتي»[1]!

* * *

(١) روب ماكبرايد: تقرير بعنوان «اليونيسف تساعد الأسر النازحة في أن تبدأ من جديد بعد أعمال العنف في أوش بقرغيزستان» على الرابط: www.unicef.org/arabic/infobycountry/uzbekistan.

العقـــل

ميَّز الله ﷻ الإنسان عن غيره من المخلوقات بالعقل، فبه يُمَيِّز الإنسان بين الصواب والخطأ، وبين الصالح والطالح، وبين الضارِّ والمفيد، وبين ما فيه صلاح للإنسانية وما فيه خرابها؛ فالعقل هو أعظم النعم التي أنعمها ﷻ على عباده؛ فمَنْ تمَّ له عقله تمَّ له كل شيء، ومَنْ فَقَدَ عقله فقد فَقَدَ كل شيء؛ فالعقل هو زينة الحياة للإنسان؛ إذ الحياة بلا عقل جحيم لا يُطاق، وعذاب لا نهاية له.

والعقل مزيَّة أودعها الله ﷻ في جميع البشر، وبقدر وفرة العقل في الإنسان بقدر ما تعلو منزلته بين البشر، فتهفو إليه النفوس وتُنصت له الأسماع، وتطرب إليه القلوب؛ لذلك قالت الهند قديمًا: ما من شيء كثر إلاَّ رخص، ما خلا العقل فإنه كلما كثر غلا[١].

***

رفعت الأديان السماوية كثيرًا من قيمة العقل؛ إذ هو شرف الإنسان ومناط تكليفه، وبه تميَّز عن بقية المخلوقات، وقد تعدَّدت النصوص في الكتاب المقدس التي تُعلي من قدره ومنزلته، ومنها: «فَالْعَقْلُ يَحْفَظُكَ، وَالْفَهْمُ يَنْصُرُكَ»[٢]. وقد ربطت النصوص بين الوقوع في المعصية وبين قلَّة العقل وعدمه، ومن ذلك: «أَمَّا الزَّانِي بِامْرَأَةٍ فَعَدِيمُ الْعَقْلِ، الْمُهْلِكُ نَفْسَهُ هُوَ يَفْعَلُهُ»[٣]. كما أن الكتاب المقدس قد أعلى من منزلة مَنْ يستعملون عقولهم ومَنْ حباهم الله عقلاً راجحًا، وجُعِلَتْ منزلتهم بين الناس كبيرة؛ من ذلك: «العاقل يكتم كلامه إلى حين، وشفاه المؤمنين تُثني على عقله»[٤].

---

(١) الجاحظ: التبصرة بالتجارة ص٢.
(٢) سفر الأمثال ٢/ ١١.
(٣) المصدر السابق ٦/ ٣٢.
(٤) سفر يشوع بن سيراخ ١/ ٣٠.

«اجعل عشرتك مع العقلاء، وكلَّ حديثك في شريعة العليِّ»[١].

«ليس من الحقِّ أن يُهان الفقير العاقل، ولا من اللائق أن يُكْرَم الرجل الخاطئ»[٢].

وللعقل في الإسلام منزلة كبيرة، وقد تعدَّدت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحثُّ على التعقُّل والتفكُّر وإعمال العقل في الأمور كلها؛ فقد كرَّم الإسلام العقل حين جعله مناط التكليف.

وبالعقل يؤمن الإنسان؛ إذ العقل هو الذي يُنير سُبل الحقّ والخير والهدى، ويُبعد عن سُبل الضلال والغواية؛ لذلك يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، وقد عاب الله على الذين لا يستخدمون عقولهم في التعرُّف على الإيمان الحقِّ؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ الله الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، ويقول الله ﷻ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ ۞ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لاَ يُبْصِرُونَ﴾

[يونس: ٤٢، ٤٣].

والقرآن مليء بالآيات التي تُحفِّز الإنسان على التفكُّر والتأمُّل؛ ليهتدي به إلى الحقِّ، يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

[البقرة: ١٦٤].

وللمنزلة الرفيعة للعقل في الإسلام فقد نهى الله ﷻ ورسول الله ﷺ عن كل ما يُفسده ويعتدي عليه؛ فقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠،

---

(١) سفر يشوع بن سيراخ ٩/ ٢٣.

(٢) المصدر السابق ١٠/ ٢٦.

٩١]، وعن النعمان بن بشير[١] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْخَمْرَ مِنَ الْعَصِيرِ وَالزَّبِيبِ، وَالتَّمْرِ وَالْحِنْطَةِ، وَالشَّعِيرِ وَالذُّرَةِ، وَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ»[٢]. وعن ابن عمر[٣] رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا فَمَاتَ وَهُوَ يُدْمِنُهَا لَمْ يَتُبْ، لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الآخِرَةِ»[٤]. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي ﷺ: «لاَ تَشْرَبِ الْخَمْرَ؛ فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ»[٥].

والعقل هو مناط التكليف فإذا ذهب العقل رُفع التكليف، فعن عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلاَثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبَرَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ أَوْ يُفِيقَ»[٦].

***

تعدَّدَتْ واختلفت أقوال الفلاسفة والمفكِّرين حول ماهية العقل وأهميته بالنسبة للإنسان، وإنْ كان لكل منهم نظرته الخاصة نحو العقل، إلاَّ أنهم مُتَّفقون على أن العقل خير ما تمتَّع به الإنسان وتميَّز به عن غيره.

---

(١) النعمان بن بشير الأنصاري: وُلِدَ قبل وفاة النبي ﷺ بثمان، وقيل: بست سنين. وكان أميرًا على الكوفة لمعاوية، ثم أميرًا على حمص لمعاوية، ثم ليزيد، فلما مات يزيد، خالفه أهل حمص وقتلوه، وذلك بعد وقعة مرج راهط ٦٤هـ. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ٦٠، وابن الأثير: أسد الغابة ٤/ ٥٣٠.

(٢) أبو داود: كتاب الأشربة، باب الخمر مما هي؟ (٣٦٧٧)، وابن حبان (٥٣٩٨) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. والبيهقي (١٧١٢٦)، وقال الألباني: حسن. انظر: السلسلة الصحيحة (١٥٩٣).

(٣) عبد الله بن عمر: هو عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي، أسلم صغيرًا، وأول مشاهده الخندق، كان رضي الله عنه من أهل الورع والعلم، وكان كثير الاتباع لآثار الرسول ﷺ، شديد التحرِّي في فتواه، مات بمكة سنة ٧٣هـ. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٣٤٧.

(٤) مسلم: كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام (٢٠٠٣)، وأبو داود (٣٦٧٩)، والترمذي (١٨٦١)، وأحمد (٥٧٣٠).

(٥) ابن ماجه: كتاب الأشربة، باب الخمر مفتاح كل شر (٣٣٧١)، والحاكم (٧٢٣١)، والبيهقي (١٤٥٥٤)، والطبراني: المعجم الأوسط (٧٩٥٦)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه شهر بن حوشب وحديثه حسن وبقية رجاله ثقات. مجمع الزوائد ٤/ ٣٩٣، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٧٩٨).

(٦) أبو داود: كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حدًّا (٤٤٠١)، والترمذي (١٤٢٣) وقال: حديث حسن غريب. والنسائي (٣٤٣٢)، وابن ماجه (٢٠٤١) واللفظ له، وأحمد (٩٥٦)، وقال الألباني: صحيح، ١/ ٦٥٨.

وكلمة العقل كلمة قديمة، ومن أوائل مَن استعملها الفيلسوف اليوناني أنكساجوراس(١) (٤٩٩-٤٢٨ق. م)، وتبعه الفيلسوف أنباذوقليس(٢) (٤٩٥-٤٣٥ق. م)، وقد استخدماها بالمعنى نفسه الذي تُستخدم به؛ لتُغَطِّي عمليات الوعي والفهم المختلفة، وقد حصر الفلاسفة المتأخِّرون العقل للدلالة على تلك القوَّة التأمُّلية التي تتَّسع إلى أبعد حدٍّ يمكن أن تمتدَّ إليه المعرفة الإنسانية وتُوَضِّحه(٣).

أمَّا عن العقل في فلسفة أرسطو فهو يرى أن العقل هو الملكة التي يتميَّز بها الإنسان عن الحيوان، وقد سَلَّم أرسطو بهذا القول في كتاباته؛ ففي مؤلَّفه (دعوة للفلسفة)، يقول أرسطو: إن الإنسان هو أسمى الكائنات الحية التي تعيش على الأرض. ويُقَرِّر أرسطو أنَّ آخر ما ينشأ من ملكات النفس ملكة العقل، فهي آخر ما يتكَّون عند الإنسان؛ لذلك فهي الشيء الوحيد الذي تطمح الشيخوخة إلى امتلاكه؛ بل إن أرسطو يُقَرِّر أن ملكة العقل هي هدفنا من الحياة، وأن استخدامها هو الغاية التي من أجلها نشأنا، وإذا صحَّ القول بأننا قد وُجدنا وَفقًا للطبيعة فقد اتَّضح -أيضًا- أننا نعيش لكي نُفَكِّر في شيء ولكي نتعلَّم(٤).

***

وقد كثرت أقوال فلاسفة ومفكري الشرق في الإعلاء من قيمة العقل، وقد أورد الماوردي في كتابه (أدب الدنيا والدين) أقوال العديد من العلماء في فضل العقل وأهميته للإنسان؛ منها قوله: «اعلم أن لكل فضيلة أُسًّا، ولكل أدب يَنْبُوعًا، وَأُسُّ الفضائل وينبوع الآداب هو العقل، الَّذي جعله الله تعالى للدِّين أصلاً، وللدُّنيا عمادًا، فأوجب الدِّين بكماله، وجعل الدُّنيا مُدَبَّرَةً بأحكامه، وأَلَّف به بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم، وَتَبَايُن أغراضهم ومقاصدهم، وجعل ما تَعَبَّدَهُمْ به قسمين: قسمًا وجب بالعقل فَوَكَّدَهُ الشرع،

---

(١) أنكساجوراس: (٤٩٩-٤٢٨ ق. م)، فيلسوف يوناني عاش في أثينا، وهو أول مَنْ أدخل فكرة «الغائية» إلى الفلسفة، وقام مذهبه على وجود عقل يُدير العالم نحو غاية محدَّدة.

(٢) أنباذوقليس: (٤٩٥ – ٤٣٥ ق. م)، أول مَنْ قال بنظرية في الإدراك الحسي، وقال بأن النباتات لها عقل وذكاء، وأن العناصر الأساسية التي تتكون منها الأشياء في العالم هي (التراب – الهواء – الماء – النار).

(٣) مصطفى النشار: نظرية المعرفة عند أرسطو ص٦٩.

(٤) أرسطو: دعوة للفلسفة ص٣٦، ٣٧.

وقسمًا جاز في العقل فأوجبه الشرع؛ فكان العقل لهما عمادًا»[١].

***

أمَّا عن لفظة العقل في الفلسفة الغربية الحديثة، فلها -كما يقول جون لوك- في اللغة الإنجليزية دلالات مختلفة؛ فهي تدلُّ أحيانًا على المبادئ الصحيحة والواضحة، وأحيانًا على العلَّة وبوجه خاصٍّ العلَّة الغائية، ولكن جون لوك يعتبرها ذات دلالة مختلفة عن ذلك كله، فهو يعني بها تلك المَلَكَة في الإنسان التي يتميَّز بها عن السائمة، ويكون من الجليِّ أن يتخطَّاها بفضلها، وقد اتفق جون لوك في نظرته تلك تمامًا مع أرسطو، الذي يرى أن العقل هو الملكة التي يتميَّز بها الإنسان عن الحيوان[٢].

ويتَّفق فلاسفة الغرب مع فلاسفة الشرق في كون العقل مناط تكليف الإنسان، وسرَّ وجوده، وهذه هي الحقيقة التي انتهى إليها ديكارت[٣] بعبارته الشهيرة: «أنا أُفكر إذًا أنا موجود»[٤]. فقد ربط ديكارت وجود الإنسان بالتفكير والتعقُّل في أمور الحياة، وبذلك يُعتبر ديكارت -بالنسبة للفكر الغربي- أبا الفلسفة الحديثة، بإخضاعه إدراك الوجود لأولوية الكائن المفكِّر[٥]، ونجد ديكارت في مستهلِّ مقالته عن المنهج يُقَرِّر أن العقل موجود في كل إنسان بالفطرة، ويُقَرِّر كذلك أن اختلاف الآراء لا ينشأ من أن البعض أعقل من الآخر، وإنما ينشأ من أننا نُوَجِّه أفكارنا في طرق مختلفة، ولا ينظر كلٌّ مِنَّا فيما ينظر فيه الآخر؛ لأنه لا يكفي أن يكون للمرء عقل، بل المهم هو أن يُحسن استعمال العقل، ويُقَرِّر كذلك أنه لا زيادة ولا نقصان في العقل، وإنما الزيادة والنقصان في الأعراض أو طبائع الأفراد[٦]. **(انظر: صورة رقم ١١ أرسطو- ديكارت)**

---

(١) الماوردي: أدب الدنيا والدين، تحقيق: محمد كريم راجح ص٦-٨.

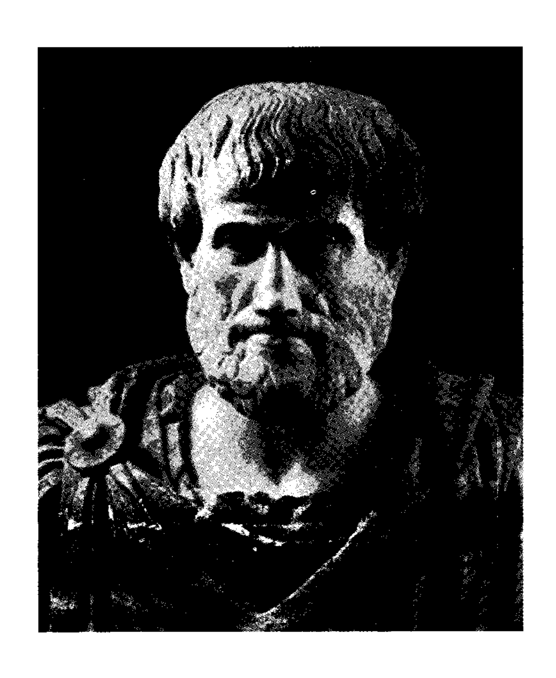
(٢) مصطفى النشار: نظرية المعرفة عند أرسطو ص٦٩.

(٣) رينيه ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠م): فيلسوف ورياضي وعالم فرنسي كثيرًا ما يُلَقَّب بأبي الفلسفة الحديثة، وينسب إليه ابتكار الهندسة التحليلية، وكان أول فيلسوف وصف الكون المادي من حيث المادة والحركة.

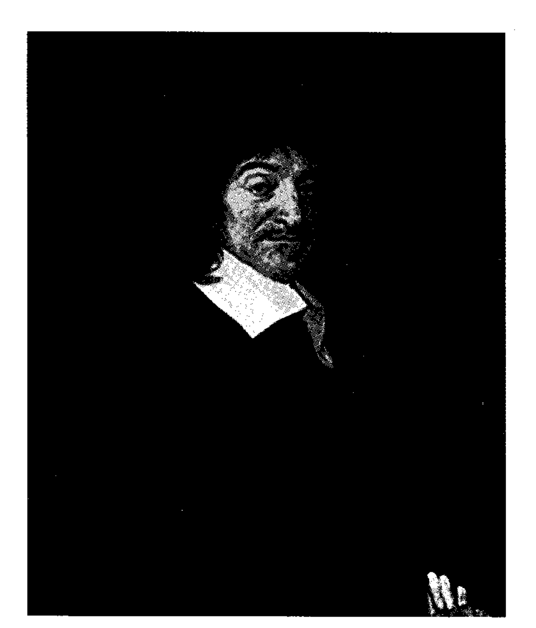
(٤) ديكارت: مقال عن المنهج ص٥١، ٥٢.

(٥) جنفياف روديس لويس: ديكارت والعقلانية ص١٠.

(٦) ديكارت: مقال عن المنهج ص٤، ٥.



أرسطو



ديكـارت

صورة رقم (١١)

إن مثل هذه الآراء وغيرها جعلت من ديكارت أبا الفلسفة الحديثة، وأول فيلسوف حديث ظهر في القرن السابع عشر بمعنى الكلمة، وقد ظهر في هذا القرن فلاسفة ومفكِّرُون وعلماء ابتكروا نظريات جديدة وأعلنوها على الملأ، مستخدمين في ذلك عقولهم؛ مما فتح باب الصراع الحديث والظاهر بين العلم والدين، وقد ظهر هذا الصراع على أشدِّه في تحدِّي الكنيسة لآراء كوبرنيكوس وجاليليو، وقد فتح هذا الصراع أبواب الفكر على مصراعيه خلال ذلك القرن؛ فكان القرن السابع عشر في تاريخ الفلسفة هو عصر العقل، أو العصر الذهبي للعقلانية؛ لأن معظم الفلاسفة العظام في ذلك العصر -تقريبًا- قد حاولوا إدخال صرامة البرهان الرياضي في جميع الميادين، بما في ذلك الفلسفة نفسها[١]، وقد ألَّف المفكر الإنجليزي السير ستيوارت هامبشاير[٢] مؤلَّفه (عصر العقل)، جمع فيه فلاسفة ومفكري القرن السابع عشر الميلادي؛ أمثال: بيكون[٣] وجاليليو وهوبز[٤] وديكارت وباسكال[٥] واسبينوزا ولايبنتز[٦].

وقد اقترنت الفلسفة الغربية خلال القرن السابع عشر الميلادي بالعقل، وظهر نوع من الفلسفة هو الفلسفة المثالية، ويُعَدُّ الفيلسوف الألماني لايبنتز أوَّل مَن استخدمها، عندما أطلقها على فلسفة أفلاطون؛ تمييزًا لها عن الفلسفة المادية، ولقد ارتبطت الفلسفة المثالية ارتباطًا وثيقًا بالعقل، فمن أهم مبادئها أن العقل هو منشأ الوجود والمعرفة، كما أنها فلسفة رُوحية ترى في العقل رُوحًا خالدة جاءت من الوجود وتعود إلى الخلود، إمَّا في النعيم وإما في

---

(١) ستيوارت هامبشاير: عصر العقل، ص١٢-١٤ بتصرف.

(٢) السير ستيوارت هامبشاير (١٩١٤-٢٠٠٤م): فيلسوف وناقد أدبي، ورئيس جامعة إكسفورد، واحد من أصحاب الاتجاه الأخلاقي والسياسي في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، من مؤلفاته: عصر العقل، الأخلاق والصراع.

(٣) فرانسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١-١٦٢٦م): فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي، معروف في الغرب بأنه مؤسس العلم التجريبي القائم على الملاحظة والاستنتاج، والرافض لأنْ يكون منطق أرسطو صالحًا للحكم العلمي.

(٤) توماس هوبز (١٥٨٨-١٦٧٩م): عالم رياضيات وفيلسوف إنجليزي، وأحد أكبر فلاسفة القرن السابع عشر بإنجلترا ومن أكثرهم شهرة، له اهتمامات في الفلسفة السياسية، التاريخ، الأخلاق، الهندسة، من كتبه: لفياثان.

(٥) بليس باسكال: (١٦٢٣-١٦٦٢م) فيزيائي، ورياضي، وفيلسوف فرنسي اشتهر بتجاربه على السوائل في مجال الفيزياء، وبأعماله الخاصة بنظرية الاحتمالات في الرياضيات.

(٦) جوتفريد لايبنتز Leibniz (١٦٤٦-١٧١٦م): فيلسوف ألماني شهير، احتلَّ مكانة كبرى في تاريخ الفلسفة وتاريخ الرياضيات، يقال: إنه اخترع حساب التفاضل والتكامل متناهية الصغر بشكل مستقل عن نيوتن.



الشقاء[١]، وإلى الفلسفة المثالية ينتمي أعلام وفلاسفة كبار في القديم والحديث؛ أمثال: سقراط، وأفلاطون، وكانت[٢] (Kant)، وديكارت، وفيخته[٣]، وشيلنج[٤]، وهيجل، وكلهم رفعوا من قيمة الفكر والعقل؛ حتى إن هيجل -أبا الفلسفة المثالية الألمانية في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي- في حديثه عن التاريخ ذكر أن فلسفة التاريخ لا تعني شيئًا سوى دراسة التاريخ من خلال الفكر؛ فالفكر شيء جوهري للإنسان، فالفكر عنصر ضروري ملازم للإحساس والمعرفة والتعقُّل وإراداتنا وغرائزنا بقدر ما نكون بشرًا على الحقيقة، بل يُقَرِّرُ هيجل أن الفكرة الوحيدة التي تجلبها الفلسفة معها -وهي تتأمَّل التاريخ- هي الفكرة البسيطة عن العقل، التي تقول: إن العقل يُسيطر على العالم، وإن تاريخ العالم بالتالي يتمثَّل أمامنا بوصفه مسارًا عقليًّا[٥].

***

الحجة بالعقل:

فطن الدعاة إلى الإسلام إلى أهمية العقل في نشر الإسلام؛ ففي منهج الدعوة الإسلامية أن المسلمين عندما يتحدَّثُون مع غير المسلمين سواء في قضايا العقيدة أو غيرها من القضايا المتعلِّقة بالدين، فإن المسلمين يحرصون على التواصل بالعقل وليس بالنقل؛ لأن غير المسلمين لا يؤمنون بالنقل، إنما يؤمنون بالعقل ويحترمونه، وقد استخدم القرآن هذا المنهج في العديد

---

(١) يوسف حامد الشين: الفلسفة المثالية.. قراءة جديدة لنشأتها وتطورها وغاياتها ص١٣-١٥ بتصرف.

(٢) إيمانويل كانت Immanuel Kant (١٧٢٤-١٨٠٤م): فيلسوف من القرن الثامن عشر، ألماني من بروسيا، نشر أعمالاً مهمة عن نظرية المعرفة، كذلك أعمالاً متعلقة بالدين والقانون والتاريخ، ومن أكثر أعماله شهرة: نقد العقل المجرد.

(٣) جوهان جوتليب فيخته Johann Gottlieb Fichte (١٧٦٢-١٨١٤م): فيلسوف ألماني، أثَّر على العلوم الألمانية في مجالات الميتافيزيقا وعلم الجمال والفكر الاجتماعي، تأثَّر به شيلنج وهيجل، كان فيخته من أتباع إيمانويل كانت، وهو واحد من أبرز مؤسسي الحركة الفلسفية المعروفة بالمثالية الألمانية، ومن أشهر مؤلفاته كتابه الوطني: خُطب للأمة الألمانية.

(٤) فريدريتش ولهلم جوزيف فون شيلنج Friedrich Wilhelm Joseph von Schelling, (١٧٧٥-١٨٥٤م) : فيلسوف ألماني، تعد أعماله حلقة وصل مهمة بين كانت وفيخته من جانب، وهيجل من جانب آخر، وكانت هذه الأعمال تُصَوِّر المثالية والرومانسية الألمانية.

(٥) هيجل: العقل في التاريخ، ١/ ٧٧، ٧٨.

من المواقف؛ منها قصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود عندما أعلن الأخير ألوهيته من دون الله، فما كان من إبراهيم عليه السلام إلاّ أن أفحمه بالعقل وألجمه بالبرهان؛ يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقد كان لهذا الأسلوب الدعوي المعتمِد على الحجة العقلية أثر كبير في دخول الكثيرين في الإسلام، بعدما اقتنعوا بوجود الخالق تعالى، فقد كان أبو حنيفة[١] رحمه الله سيفًا على الدهرية[٢]، وكانوا ينتهزون الفرصة ليقتلوه، فبينما هو يومًا في مسجده قاعد، إذ هجم عليه جماعة بسيوف مسلولة، وهمُّوا بقتله، فقال لهم: أجيبوني عن مسألة، ثم افعلوا ما شئتم. فقالوا له: هات. فقال: ما تقولون في رجل يقول لكم: إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال، مملوءة من الأثقال، قد احتوشها[٣] في لجَّة البحر أمواجٌ متلاطمة ورياح مختلفة، وهي من بينها تجري مستوية، ليس لها ملاح يُجريها، ولا متعهِّد يدفعها، هل يجوز ذلك في العقل؟! قالوا: لا، هذا شيء لا يقبله العقل. فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله! إذًا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير متعهِّد ولا مُجْرٍ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغيُّر أعمالها، وسعة أطرافها، وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ؟! فبكوا جميعًا، وقالوا: صدقت. وأغمدوا سيوفهم وتابوا[٤].

وقد سألوا الشافعي[٥] رحمه الله: ما الدليل على وجود الصانع (الله سبحانه)؟ فقال: ورقة

---

(١) أبو حنيفة: هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي (٨٠-١٥٠هـ=٦٩٩-٧٦٧م): إمام الحنفية، جمع الفقهَ والعبادة والورع والسخاء، أصله من أبناء فارس، ووُلِدَ ونشأ بالكوفة، أدرك أربعة من الصحابة وتوفي ببغداد. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ٤٠٥-٤١٤.

(٢) الذين يُنكرون وجود الله تعالى، ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

(٣) احتوش الشيء: أي أحاط به. الجوهري: الصحاح، باب الشين فصل الحاء ٣/ ١٠٠٣، وابن منظور: لسان العرب، مادة حوش ٦/ ٢٩٠، والمعجم الوسيط ١/ ٢٠٧.

(٤) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب ٢/ ١٠٨.

(٥) الشافعي: هو أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي (١٥٠-٢٠٦هـ)، أحد الأئمة الأربعة، وهو أوَّل مَنْ دوَّن علم أصول الفقه، وُلِدَ بغزة ومات بمصر. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥.

الفرصاد[١]؛ طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم؟ قالوا: نعم. قال: فتأكلها دودة القزِّ فيخرج منها الإبريسم[٢]، والنحلُ فيخرج منها العسل، والشاة فيخرج منها البعر، ويأكلها الظباء فينعقد في نوافجها[٣] المسك، فمَن الذي جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد؟! فاستحسنوا منه ذلك، وأسلموا على يده، وكان عددهم سبعة عشر[٤].

فهذه بعض مواقف كان فيها العقل هو الوسيلة التعارفية التي حالت دون وقوع صدام بين الأطراف المختلفة.

***

العقل وسيلة للتواصل بين الشعوب:

يتَّضح مما سبق أن كل البشر يُقَدِّرون عقولهم ويحترمونها، ويعترفون بمزية العقل وأهميته في حياة الإنسان، فما معنى أن يعيش الإنسان بلا عقل، هل سيشعر بلذَّة الحياة أو حقيقة الوجود؟! فبالعقل عرف الإنسان ربه وخالقه، وبالعقل استطاع الإنسان أن يُمَيِّز ما يُصلحه في الكون وما يُفسده؛ فاخترع الآلات وابتكر الوسائل الجديدة التي تُعينه على الاستفادة من مُقَدَّرات الطبيعة، التي حباها الله له، وبالعقل استطاع الإنسان أن يتعرَّف على أقربائه ومعارفه وأهله، وبالتالي استطاع أن يتواصل معهم.

فإذا كان العقل مشتركًا بين جميع البشر، فإنه وسيلة مهمَّة للتواصل بين أبناء الشعوب جميعًا؛ إذا ما احترمت الشعوب عقول الآخرين، وإن التاريخ خير شاهد على أن المسلمين كانوا يحترمون عقول الآخرين؛ فالحضارة الإسلامية لم تكن يومًا من الأيام داعية إلى العزلة أو الانغلاق الفكري، بل فتحت أبوابها على مصراعيها للثقافات الأخرى، فقد كان شعار المفكِّرين الإسلاميين في القديم والحديث أن الحكمة ضالَّة المؤمن، وأن الحكمة تراث البشرية

---

(١) الفرصاد: اسم يطلق على التوت. المعجم الوسيط ٢/ ٦٨٢.

(٢) الإبريسم: أحسن الحرير. المعجم الوسيط ١/ ٢.

(٣) النوافِج: مُؤَخَّرات الضُّلوع، ووعاء المسك في جسم الظبي، واحدها نافج ونافجة. الجوهري: الصحاح، باب الجيم فصل النون ١/ ٣٤٥، وابن منظور: لسان العرب، مادة ٢/ ٣٨١، والمعجم الوسيط ٢/ ٩٣٨.

(٤) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب ٢/ ١٠٨، ١٠٩.

المشترَك؛ فالإنسان أخو الإنسان، ولأن العقل وُهب للإنسان من حيث هو إنسان، وأن شرعة الأنبياء والرسل واحدة؛ لأنها تدعو إلى الخير والبرِّ والعدل، وأن المعرفة وإن كانت يونانية عمدنا إلى ترجمتها وتحليلها وانتقاد ما فيها من زيف، والردِّ على ما شابها من أوهام وزيغ عن الحق أحيانًا، وتحكُّم في افتراض بعض الفروض الواهية والمصطلحات الجوفاء؛ لقلَّة بضاعة العلم يومئذٍ، وكل ذلك لا يحول دون انتقاء خير ما فيها وأصدقه، وإن كانت المعرفة صينية شُدَّت الرحال إليها، وإن كانت في الغرب الأوربي أو الأميركي لم نتكبَّر عليها؛ فإن ينابيع الفكر متعدِّدَة، وتعدُّدها يدعو إلى التعاون بين جميع الثقافات، والاعتراف لكل ثقافة بما لها من فضل، فلا نستبيح نقدها دون الاعتراف لها بفضلها ومزاياها، ومن مزايا الثقافة الغربية المعاصرة أنها منهجية، وأنها تُؤمن بحرية الفكر، وحُرمة الحرية وكرامتها؛ لأن كل ذلك من جوهر الكرامة الإنسانية التي نُؤمن بها جميعًا(١).

وإن من أكبر الأدلَّة على احترام المسلمين لعقول الآخرين حركة الترجمة، التي انتشرت في ربوع الدولة الإسلامية خلال القرون الأولى من عمر الحضارة الإسلامية، فمما لا شكَّ أنه كانت هناك علوم كثيرة متداولة قبل المسلمين، ساهمت فيها الحضارات السابقة بآثار طيِّبة، وهو ما اتَّكأ عليه المسلمون -ولهم الفخر في إعلان ذلك والتصريح به- عند بَدْء نهضتهم وقيام حضارتهم، فقد كانت هناك علوم في الفلسفة والكيمياء والرياضيات والفلك.. وغيرها، غير أنهم -وهذا هو المعيار والأساس- لم يقتصروا على مجرَّد النقل عن غيرهم ممن سبقوهم، وإنما توسَّعوا وأضافوا إضافات باهرة من ابتكاراتهم واكتشافاتهم، واستطاعوا أن يسطروا في تلك العلوم -التي كانت متداولة قبلهم- تاريخًا ناصعًا مُشَرِّفًا.

ففي علم البصريات -مثلاً- أخذ أبو يوسف الكندي(٢) بنظريَّة الانبعاث الإغريقيَّة، إلاَّ أنه أضاف -كذلك- وصفًا دقيقًا لمبدأ الإشعاع، وصاغ من خلال ذلك أساس نظامٍ تصوُّريٍّ جديد يحلُّ في نهاية الأمر محلَّ نظريَّة الانبعاث، وكان لكتابه (علم المناظر) صدًى في المحافل

---

(١) صلاح الدين عبد اللطيف الناهي: الخوالد من آراء أبي الحسن البصري البغدادي الماوردي ص١٣ - ١٤.

(٢) أبو يوسف الكندي: هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (١٨٥-٢٥٦هـ)، فيلسوف العرب والإسلام في عصره، نشأ بالبصرة، وانتقل إلى بغداد، فتعلَّم واشتهر بالطب والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك. انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ١٧٢-١٧٧.



العلميَّة العربيَّة، ثم الأوربيَّة خلال العصور الوسطى[١]، كما أن علم الهندسة دخل إلى علوم المسلمين عبر الترجمات للأعمال الإغريقية، وخاصة كتاب إقليدس[٢] (أصول الهندسة)، ويرصد دونالد ر. هيل[٣] تطوُّر علم الهندسة في الحضارة الإسلامية فيقول: «وأعقبت مرحلة الترجمة مرحلة الإبداع، وعلى الرغم من أن أساتذة مثل إقليدس، وأبولونيس[٤]، وأرشميدس[٥] نالوا احترامًا يبلغ حدَّ التوقير والتبجيل، إلاَّ أن العلماء العرب لم يتهيَّبُوا أن يُفَنِّدُوا نتائجهم، بل ويُصَوِّبوها في بعض الحالات، كذلك قدَّم العلماء العرب إسهاماتٍ فَذَّة في مجال الهندسة النظرية»[٦].

وأمَّا علوم الطبيعة والفيزياء فقد اتَّكأ المسلمون في البدء على كتب السابقين؛ مثل كتاب (الطبيعة) لأرسطو الذي تحدَّث فيه عن علم الحركة، وكذلك مؤلفات أرشميدس التي تحوي معلومات عن الأجسام الطافية في الماء والوزن النوعي لبعض الموادِّ، ومصنفات أكتسبيوس التي تتضمَّن نتائج علميَّة عن المضخَّة الرافعة والساعات المائيَّة، وكذلك هيرون السكندري[٧] الذي تحدَّث عن البكرة والعجلة وقانون الشغل[٨]، ثم ما لبث العلماء المسلمون أن طوَّروا نظريات وأفكار السابقين الفيزيائية، واستطاعوا أن يُخرجوها من طور النظريَّة المجرَّدة إلى طور التجربة العمليَّة، والتي هي عماد هذا العلم، فكان منهم أبو الريحان

---

(١) دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ص١٠٢، ومحمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٣٨.

(٢) إقليدس (Euclid 325-265 ق. م): رياضي يوناني عاش في مدينة الإسكندرية، ويعدُّ أبا الهندسة، وقد كانت أعماله - بصورة عامة - تشكل أهمية كبيرة في تاريخ الرياضيات.

(٣) دونالد ر. هيل (Donald R. Hill): باحث غربي معاصر، وخبير في التراث العلمي العربي، حقق العديد من كتب علماء الحضارة الإسلامية، وله العديد من المؤلفات التي تبرز الأثر العلمي للحضارة الإسلامية في الهندسة والكيمياء والرياضيات والعمارة.

(٤) أبولونيس (Apollonius 262-190 ق. م): عالم رياضيات يوناني من مدرسة الإسكندرية، وتبحر في الهندسة حتى تلقب باسم «الهندسي الأكبر»، له رسالة في المخروطات.

(٥) أرشميدس (Archimedes 287-212 ق. م): عالم طبيعة ورياضيات، يُعَدُّ من أعظم علماء الرياضيات في العصور القديمة، وهو أبو الهندسة.

(٦) دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية ص٤٦.

(٧) هيرون السكندري: (ت ١٥٠ م) عالم رياضيات ومهندس مصري، يُعَدُّ أول من اخترع الإبر وجهازًا لتوليد طاقة الرياح، ومُوَلِّدًا يعمل بالطاقة الحرارية.

(٨) علي بن عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص١١٥.

البيروني[١] الذي شرح أسباب خروج الماء من العيون الطبيعيَّة، والآبار الارتوازية بنظرية الأواني المستطرَقة[٢]، ومنهم ابن سينا[٣] مكتشف القانون الأول للحركة، وهبة الله بن ملكا[٤] مكتشف القانون الثاني والثالث للحركة.

إنَّ هذه النماذج وغيرها كثير لا يُحصى لأَبْرَزُ دليل على احترام المسلمين وتقديرهم لعقول الآخرين، وإن كانوا مخالفين لهم في الجنس واللون والاعتقاد؛ إذ الحكمة ضالَّة المؤمن أنَّى وجدها؛ فهو أحقُّ الناس بها، والمعرفة -وخاصة العلوم التجريبية- ميراث الإنسانية جميعًا.

***

لم يقف المسلمون وحدهم في هذا المضمار، وإنما كان للحضارة الغربية أثر ملموس في احترام عقول الآخرين، فما أن طفق الفكر الغربي يبتعد عن التعصب المذموم، الذي وُصم به خلال العصور الوسطى ويُصغى لما أسهمت به الحضارات الأخرى وخاصة الحضارة الإسلامية، حتى وجدنا قنوات الاتصال تتزايد بين الغرب والشرق؛ إذ اعترف كبار المفكِّرين والفلاسفة الغربيين بما للحضارة الإسلامية من فضل، فأخذوا عنها علومهم ونهلوا منها؛ مما كان له عظيم الأثر في إحداث النهضة الأوربية الحديثة، والتي شملت جميع المجالات.

هذا وقد أشاد كبار العلماء والمفكِّرين الغربيين بعقول علماء المسلمين؛ فالعالم المسلم أبو

---

(١) البيروني: هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي (٢٦٢-٤٤٠هـ)، فيلسوف رياضي مؤرخ، من أهل خوارزم، اطلع على فلسفة اليونانيين والهنود، وعلت شهرته، وارتفعت منزلته عند ملوك عصره. انظر: السيوطي: بغية الوعاة ١/ ٥٠، ٥١.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ١٨٦، وانظر: محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٣٣.

(٣) ابن سينا: هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا (٣٧٠-٤٢٨هـ=٩٨٠-١٠٣٧م) الفيلسوف الرئيس، صاحب التصانيف في الطب والمنطق والطبيعيات والإلهيات، وُلِدَ في إحدى قرى بخارى، ومات بهمذان. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ١٥٧-١٦١.

(٤) هبة الله بن ملكا: هو أبو البركات هبة الله بن علي بن ملكا البَلَدي (ت٥٦٠هـ=١١٦٥م)، المعروف بأوحد الزمان، طبيب، من سكان بغداد، كان يهوديًّا وأسلم في آخر عمره، وكان في خدمة المستنجد بالله العباسي، وحظي عنده. انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ٣١٣-٣١٦، والزركلي: الأعلام ٨/ ٧٤.



الريحان البيروني يقول عنه مايرهوف[١]: «إن اسم البيروني لأبرُّ اسم في موكب العلماء الكبار واسعي الأفق، الذين يختال بهم العصر الذهبي للإسلام»[٢]. وقال عنه المستشرق الألماني سخاو[٣]: «البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ»[٤]. ولقد أطلق علماء الغرب على البتَّاني[٥] لقب (بطليموس العرب) بسبب دراسته لكتاب المجسطي، كما اهتمَّ الغرب بكتاب (الزيج الصابئ) حيث تُرجم إلى اللغة اللاتينية والقشتالية -الإسبانية القديمة- وقد أوصى ألفونسو العاشر[٦] ملك قشتالة بترجمته عام (١٦٤٦م) مع شروحه وتعليقاته العلمية والعملية[٧].

ويشهد موريس كلاين[٨] للعالم المسلم أبي بكر الكرخي[٩] في كتابه (تطور الرياضيات من الغابر إلى العصر الحاضر) قائلاً: «إن الكرخي البغدادي العالم المشهور الذي عاش في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي يُعتبر مفكِّرًا من الدرجة الأولى، وهذا يظهر من كتابه (الفخري) في الحساب؛ فطوَّر هذا الحقل إلى درجة يمكن التعرُّف على عقليته الجبارة خلالها»[١٠].

---

(١) ماكس مايرهوف Max Meyerhof (١٨٧٤-١٩٤٥م): مستشرق وطبيب عيون ألماني، وأحد أبرز المستشرقين الغربيين، تعلم العربية وزار مصر عام ١٩٠٣م واستقر بها، وتوفي بالقاهرة، اهتم اهتمامًا خاصًّا بتاريخ الطب والصيدلة في الحضارة الإسلامية.

(٢) صبري الدمرداش: قطوف من سير العلماء ٢/ ٤١٩.

(٣) كارل إدورد سخاو Karl Edward Sachau (١٨٤٥-١٩٣٠م): مستشرق ألماني، أستاذ اللغات الشرقية في برلين، ومما نشره بالعربية: (الآثار الباقية عن القرون الخالية)، و(تحقيق ما للهند من مقولة) وكلاهما للبيروني.

(٤) مصطفى وهبة: نوابغ المسلمين ٢/ ٥٣.

(٥) البتَّاني: هو أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحراني (ت ٣١٧هـ=٩٢٩م)، فلكي مهندس، أول من كشف السمت Azimuth والنظير Nadir وحدَّد نقطتيها من السماء، وتوفي بسامراء. انظر: القفطي: إخبار العلماء ص١٨٤، ١٨٥، والصفدي: الوافي بالوفيات ٢/ ٢٠٩.

(٦) ألفونسو العاشر Alfonso X the Wise (١٢٢١-١٢٨٤م): ملك قشتالة وليون، اشتهر بالحكيم، وتميز بسياسة الانفتاح على الفكر الشرقي وخاصة الإسلامي.

(٧) أحمد محمد عوف: صناع الحضارة العلمية في الإسلام ٢/ ٥-٧.

(٨) موريس كلاين Morris Kline (١٩٠٨-١٩٩٢م): أستاذ الرياضيات بجامعة نيويورك، وهو كاتب في التاريخ والفلسفة، وتدريس الرياضيات، من مؤلفاته: الرياضيات والبحث عن المعرفة وتطور الرياضيات من الغابر إلى العصر الحاضر.

(٩) أبو بكر الكرخي: هو محمد بن الحسن الكرخي (ت٤١٠هـ=١٠٢٠م) رياضي مهندس، اتصل بفخر الملك (وزير بهاء الدولة البويهي)، وصنف له كتاب (الفخري) في الجبر والمقابلة. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٢٥، وفؤاد سُزكين: تاريخ التراث العربي ١/ ٥٦٢.

(١٠) علي عبد الله الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية ص٢١١.

بل يقول المؤرخ الأميركي بريفولت: «ليس ثمة مظهر واحد من مظاهر الحضارة الأوربية، إلاَّ ويعود فيه الفضل للمسلمين بصورة قاطعة!»[(١)]. ويقول ماكس فانتيجو: «كل الشواهد تُؤَكِّد أن العلم الغربي مَدِينٌ بوجوده إلى الحضارة العربية الإسلامية، وأن المنهج العلمي الحديث القائم على البحث والملاحظة والتجربة، والذي أَخَذَ به علماء أوربا، إنما كان نتاج اتِّصَال العلماء الأوربيين بالعالَمِ الإسلامي عن طريق دولة العرب المسلمين في الأندلس»[(٢)]. ويقول دونالد ر. هيل: «لقد اعْتُبِرَ الرازي بحقٍّ واحدًا من المؤسِّسِينَ الرئيسيين للكيمياء الحديثة؛ بفضل مقارنته المنهجية وإصراره على ضرورة العمل التجريبي»[(٣)]. ويقول فلورين كوجوري المؤرِّخ المشهور في العلوم: «إن العقل ليندهش عندما يرى ما عَمِلَهُ العرب والمسلمون في علم الجبر؛ فلقد كان كتاب الخوارزمي في حساب الجبر والمقابلة مَنْهَلاً نهل منه علماء المسلمين وأوربا على السواء، واعتمدوا عليه في بحوثهم، وأخذوا عنه كثيرًا من النظريات؛ لذا يحقُّ القول بأن الخوارزمي هو واضع علم الجبر على أُسُسِه الصحيحة»[(٤)]. أمَّا الموسوعة البريطانية فتقول: «والحقُّ أن كثيرًا من أسماء الأدوية، وكثيرًا من مُرَكَّبَاتها المعروفة حتى يومنا هذا، وفي الحقيقة المبنى العامّ للصيدلة الحديثة -فيما عدا التعديلات الكيميائية الحديثة بطبيعة الحال- قد بدأه العرب»[(٥)].

إن هذه الشهادات لتُوحي بالاحترام والتقدير من علماء الغرب؛ مما جعل رُوح التواصل بين الحضارتين كبيرًا.

***

احترام العقل:

إذا كانت شهادات الحضارة الإسلامية، ومن بعدها شهادات المنصفين من الحضارة

---

(١) رويلت بريفولت: بناء الإنسانية، نقلاً عن أنور الجندي: مقدمات العلوم والمناهج ٤/ ٧١٠.

(٢) ماكس فانتيجو: في كلمة له أمام مؤتمر الحضارة العربية الإسلامية المعقود في جامعة برنستون في واشنطن عام (١٩٥٣م). انظر: شوقي أبو خليل، وهاني المبارك: دور الحضارة العربية والإسلامية في النهضة الأوربية ص١٢٥.

(٣) دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ص١٠٢.

(٤) علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٦٤.

(٥) الموسوعة البريطانية ١٨/ ٤٦.



الغربية تُوحي بالاحترام والتقدير المتبادلين لأصحاب العقول والفكر الآخرين؛ وكان من نتيجة ذلك زيادة الانسجام الحضاري والتواصل الفكري بين الشعوب؛ فإن ذلك دليلٌ على أن احترام الفكر والرأي هو احترام للعقل الذي أنتج ذلك الفكر، وإن شهادة سخاو للبيروني دليلٌ على احترام العقل الذي أنتج ذلك الفكر وهذا العلم، الذي أفاد البشرية كلها.

وإذا كان احترام الإنتاج الفكري هو احترامًا للعقل، فإن احترام الرأي والتعبير هو احترام للعقل، كما أن تقدير الساسة والمفكِّرين وأصحاب القرار لشعوبهم هو احترام لعقولهم.

فالدول التي تحظى باحترام الإنتاج الفكري للآخرين، هي الدول الأكثر نماءً وتطوُّرًا من غيرها، وإن الدول التي تسمح للآخرين بإبداء آرائهم والتعبير عن أفكارهم، هي الدول الأكثر تقدُّمًا واستقرارًا، وإن الدول التي يحترم فيها الساسة وأصحاب القرار شعوبهم هي الدول الأكثر تكاتفًا بين الجميع؛ ومن ثَمَّ يكون النموُّ والازدهار.

***

تسفيه العقول سبيل الصراعات والحروب:

إن من حقِّ العقول احترامها وتقديرها، وعدم تسفيهها والاستخفاف بها، واتهامها بالقصور وعدم الإدراك، وتعجيزها عن الوصول إلى المراد، الذي من أجله وهبها الله للبشر.

فإذا كان احترام العقل يزيد التواصل والتفاهم بين الحضارات والشعوب؛ فإن تسفيه عقول الشعوب واتهامهم بالسطحية وعدم الفهم والوعي والإدراك، لهو سبيل الحروب والنزاعات والصراع.

ولنأخذ مثالاً على هذا القمع الذي لا بُدَّ وأن يقود إلى صدام، وهي تجربة القمع الشيوعي لعقول الشعوب المختلفة، والتي تمثَّلت في الممارسات القمعية التي اتخذتها الشيوعيون في سبيل نشر أفكارهم، وخاصة تلك الممارسات التي اتخذوها لنشر مبادئهم في دول العالم الإسلامي خلال القرن العشرين، فما أن أحكم الحزب الشيوعي قبضته على البلاد في الاتحاد السوفيتي، حتى عمد إلى استئصال شأفة الدين، ولم يُرَاعِ في ذلك حرمة الإنسان،

فقام الشيوعيون بقتل القضاة والمفتين والوعاظ وأئمة المساجد والمؤذنين، وألغوا في بلاد القرم والبلاد الإسلامية الأخرى المحاكم الشرعية وديار الإفتاء، ثم حَوَّلُوا المساجد والجوامع إلى مسارح وإصطبلات للخيول، أو مخازن للمؤن والذخيرة، أو إلى أندية أو دور للسينما، وقد جمع البلاشفة نُسخ القرآن والكتب الدينية وأحرقوها، ولم يجرؤ أحد من المسلمين في بلادهم على أداء شعائره الدينية؛ لِمَا فيه من خطر هلاكه.

وفي التركستان الغربية الخاضعة لروسيا، والتركستان الشرقية التابعة للصين الشيوعية اسمًا ولروسيا الشيوعية فعلاً، أقام الشيوعيون عمليات إبادة بشرية، فبعد أن كان عدد المسلمين يتجاوز الأربعة والأربعين مليونًا، تناقص على يد الإبادة السوفيتية إلى ستة وعشرين مليونًا، وقد استخدم الشيوعيون السوفيت أبشع أنواع التعذيب ضد المستضعفين المسلمين[1]. **(انظر: صورة رقم ١٢ القمع الشيوعي في تركستان المسلمة).**

إن التاريخ يشهد على أن النظم الدكتاتورية والاستبدادية هي التي تعمل على حجر العقول، وتحريم التعبير عن الرأي والفكر، وهو المنهج الذي اتخذته الشيوعية في إبادتها للمسلمين في كل مكان؛ لذلك اشتعلت الحروب والثورات في كل مكان من المسلمين وغير المسلمين، الذين ذاقوا ويلات الشيوعية، ولم تهدأ تلك الحروب والثورات حتى سقط الاتحاد السوفيتي في تسعينيات القرن العشرين.

تُرى كم من الأرواح ذهبت لأن أحدهم لم يفهم كيف يحترم الاختلاف الإنساني في شأن العقل! وكم ينبغي أن تبذل الإنسانية من أرواح أبنائها؛ لأن بعضهم لا يُريد حتى الآن أن يفهم أن العقل من فطرة الإنسان التي يجب احترامها، والابتعاد عن قسرها وقهرها وإلزامها باعتناق ما لا تقبله ولا تقتنع به؟

---

(١) سيد قطب: دراسات إسلامية ص٢٠١-٢٠٦، بتصرف.





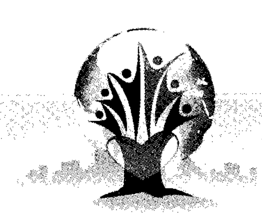






القمع الشيوعي في التركستان المسلمة

صورة رقم (١٢)



الأخلاق الأساسية

يقول ول ديورانت: «ما الأخلاق سوى تعاون الجزء مع الكلِّ، ثم تعاون كلِّ جماعة مع كلٍّ أعظم؛ فالمدنية -بطبيعة الحال- كانت تستحيل بغير أخلاق»[١].

وصحيح من غير شكٍّ أن وجود المدنية ونشأة الحضارات هي إحدى ثمرات الأخلاق التي يتمتَّع بها الكائن الإنساني؛ فالمدنية دليل على وجود الأخلاق، إلاَّ أن العكس ليس صحيحًا، فلا يمثل انعدام وجود الحضارة دليلاً على انتفاء الأخلاق؛ ثمة أقوام لم يستطيعوا بناء حضارة أو إيجاد مدنية وكانوا يتمتَّعون بأخلاق، بل يحلو للفلاسفة والمؤرخين أن يُؤَكِّدوا على أن الأخلاق الفاضلة أرسخ عند البسطاء والهمج والبدائيين منها لدى أبناء المدنيات الحديثة؛ ينقل ديورانت أن الهمج البدائيين في أبسط صورهم كانوا أكثر الناس أمانة؛ فالكلمة يقولونها مقدسة، وهم لا يصطنعون شيئًا مما تعرفه أوربا من وسائل الفساد والخيانة، وأن الرجل البدائي كان كريمًا إلى حدٍّ غريب؛ حيث كان مستعدًّا لاقتسام ما معه حتى مع الغرباء، ولتقديم الهدايا لأضيافه[٢].

ولم يُشَكِّك أحد من الفلاسفة وعلماء الأخلاق -فيما نعلم- في أن الإنسان يتمتع بـ«وجود الأخلاق»، ولكنهم سلكوا في تفسير هذا الوجود ومحاولة فهمه مسالك شتى، فحتى القرن التاسع عشر الميلادي كان علم الأخلاق يبحث عن المبادئ وترتيبها واستنباطها، والكشف عن أهميتها للحياة الأخلاقية، مع بيان الواجبات التي يلتزم بها الإنسان؛ بمعنى أن يتَّجه البحث نحو سلوك الإنسان قياسًا إلى مَثَل أعلى؛ حتى يمكن وضع قواعد عامَّة للسلوك والأفعال؛ تُعين على فعل الخير والابتعاد عن الشرِّ[٣]، وبهذا كان علم الأخلاق من العلوم

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١/ ٦٥.

(٢) المصدر السابق ١/ ٩١، ٩٤.

(٣) مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام ص١٥.



المعيارية؛ بمعنى أنه لا يدرس ما هو كائن، بل ما ينبغي أن يكون[١]؛ ولذا فمهمَّته هي وضع الشروط التي يجب توافرها في الإرادة الإنسانية وفي الأفعال الإنسانية؛ لكي تُصبح موضوعًا لأحكامنا الأخلاقية[٢].

كان هذا التعريف مستقرًّا إلى ما قبل القرن التاسع عشر الميلادي، حتى ظهرت في فرنسا مدرسة من علماء الاجتماع اتجهت اتجاهًا اجتماعيًّا، صَوَّرت فيه علم الأخلاق كفرع من علم الاجتماع موضوعًا ومنهجًا؛ أي: نظرتْ إلى علم الأخلاق باعتباره تفسير ما هو كائن، لا باعتباره معيارًا لما ينبغي أن يكون[٣]، لقد فَصَل ليفي بريل[٤] وأستاذه دور كايم[٥] -ومن تابعهما- علم الاجتماع عن الفلسفة، وأطلقَا عليه اسم «علم العادات»؛ حيث جعلوا الأخلاق دراسة موضوعية تجريبية لقوانين العادات الخُلقية عند الإنسان، وبهذا تحوَّلت الأخلاق لديهم إلى «القواعد السلوكية التي تُسَلِّم بها جماعة من الناس في حقبة من حقب التاريخ»، فنزعوا عن القيم الأخلاقية فكرة الثبات والدوام[٦].

لكن على أية حال، ومهما كان تباعد ما بين التعريفين، فإن جوهر الموضوع يُرَسِّخ أن الأخلاق مكون أساسي من مكونات الإنسان، يمارسها ويخضع لها، ويُدير بها حياته (عند مَنْ يتَّجِه نحو تفسير ما هو كائن)، أو يتطلَّع نحو صورة أعلى من الواقع (عند مَنْ يتَّجِه نحو إقرار ما ينبغي أن يكون).

كانت تلك مقدمة موجزة لموضع كبير ومهمٌّ في موضوعنا عن المشترك الإنساني؛ حيث سنحاول تحديد الأخلاق التي يمكن أن يتَّفق عليها البشر، فتُشَكِّل قاعدة أساسية للحياة فيما بينهم.

---

(١) زكريا إبراهيم: مشكلة الفلسفة ص٢٠٥.
(٢) مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام ص١٥.
(٣) زكريا إبراهيم: مشكلة الفلسفة ص٢١٠، وما بعدها.
(٤) لوسيان ليفي بريل Lucien levy- bruhl (١٨٥٧-١٩٣٩م)، فيلسوف وعالم اجتماع وأنثروبولوجيا فرنسي، من مؤلفاته: عقلية البدائي، الأساطير البدائية.
(٥) دور كايم: (١٨٥٨ - ١٩١٧م) فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي، يعتبر أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث، وشرح دور كايم نظرياته في كتاب قواعد المنهج الاجتماعي.
(٦) مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام ص١٧، ١٨.

الإنسان والأخلاق:

اختلفت تعريفات الأخلاق عند الفلاسفة والمفكِّرين، كلٌّ بحسب اتجاهه ورؤيته وزاوية نظره للموضوع، لكن كلمة «الأخلاق» احتفظت لنفسها بمعانٍ متشابهة إلى حدِّ التطابق في اللغات المختلفة، ففي أشهر معاجم اللغة العربية وأوسعها نرى أن الخُلُق هو «الطَّبْعُ وَالسَّجِيَّةُ، وَحَقِيقَتُهُ أَنَّهُ لِصُورَةِ الإِنْسَانِ البَاطِنَةِ، وَهِيَ نَفْسُهُ وَأَوْصَافُهَا، وَمَعَانِيهَا المُخْتَصَّة بهَا بِمَنْزِلَةِ الخَلْقِ لِصُورَتِهِ الظَّاهِرَةِ وَأَوْصَافِهَا وَمَعَانِيهَا، وَلَهُمَا أَوْصَافٌ حَسَنَةٌ وَقَبِيحَةٌ»[1].

فالمعاني اللغوية لكلمة «الأخلاق» تدلُّ على أن للأخلاق جانبين؛ أحدهما: نفسي باطني، والآخر سلوكي ظاهري؛ أي أن الأخلاق نفسية معنوية، ومظهرها الخارجي هو ما نُسَمِّيه المعاملة أو السلوك؛ فالأخلاق مصدر والسلوك مظهر[2].

وحول هذا المعنى دار الفلاسفة في تعريفهم للأخلاق، ونلتقط من هذه التعاريف ما قاله أرسطو في «الأخلاق النيقوماخية»[3]؛ حيث قال بأن «الفضيلة الخلقية تنشأ عن العادة».

ويُوافق هذا ما قاله -من بعدُ- الإمام الفيلسوف الإسلامي أبو حامد الغزالي، قال: «الخُلق هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويُسر، من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعًا سُمِّيت تلك الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سُمِّيَت الهيئة التي هي المصدر خلقًا سيئًا»[4].

الأخلاق فطرة بشرية:

إننا نعتقد أن كل إنسان بداخله ذلك الشيء الذي يُسَمَّى «الضمير»، وهو ذلك الشيء الذي يفيض جوًّا من الراحة والسعادة والفرح إذا ما أتى الإنسان عملاً حسنًا، وهو الذي

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة خلق ١٠/ ٨٥، والزبيدي: تاج العروس، باب القاف فصل الخاء ٢٥/ ٢٥٧، ٢٥٨.
(٢) محفوظ عزام: الأخلاق في الإسلام بين النظرية والتطبيق ص١٢.
(٣) وهو كتاب الأخلاق الذي كتبه أرسطو لابنه نيقوماخوس؛ فلهذا نسب إليه ويعرف بـ«الأخلاق النيقوماخية».
(٤) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ٣/ ٥٣.

يقلب النفس حزنًا وكآبة بل وجحيمًا إذا ما أتى الإنسان عملاً سيئًا (من وجهة نظر منظومته الأخلاقية)، وكلُّ هذا بغضِّ النظر عما إذا كان العمل الحسن يُحقِّق منفعة أمْ يأتي بالمتاعب، وعما إذا كان العمل السيِّئ يُفسد المنفعة أمْ يأتي بها، وإنَّ هذا «الضمير».. هو مشتركٌ إنساني عامٌّ.

لقد أمدَّتْنَا المعرفة الإنسانية بكثير من المعلومات التي تُفيد بهذا التنوُّع الهائل وغير القابل للحصر للمظاهر الأخلاقية عند الشعوب المختلفة؛ فلقد «كان لكل جماعة تشريع أخلاقي تُلَقِّنه لأفرادها»(١)، ولكننا نستطيع القول بأنه بعدد ما نعرف من أقوام وشعوب تُوجد تشريعات أخلاقية؛ إلاَّ أن هذه التشريعات المختلفة تعود في جوهرها إلى أصول واحدة، بما يجعل تعدُّد الأخلاقيات بين الشعوب ظاهرة تنوُّع فقط، يقول الدكتور زكريا إبراهيم: «نحن لا نُنكر أن تاريخ الحضارة البشرية حافل بالشرائع الأخلاقية المختلفة، والمعايير الاجتماعية المتباينة، ولكننا نلاحظ أن الدراسات الأنثربولوجية الحديثة قد كشفت لنا عن وجود تقارب كبير بين هذه الشرائع الأخلاقية المختلفة»(٢).

ثم يضرب بعض الأمثلة لهذا، فيقول: «صحيح أن البشرية حتى القرن السابع عشر كانت ترى في المبارزة حقًّا مشروعًا للفرد؛ فكان الرجل يثأر لكرامته أو شرفه عن طريق الانتصار على خصمه في هذا الصراع المسلح، ولكننا -مع ذلك- ما زلنا نُسَلِّم بمبدأ (الدفاع عن الشرف) أو الكرامة، على الرغم من أننا قد أصبحنا نستنكر اليوم فعل المبارزة، وقد كانت المرأة الهندية قديمًا تحرق نفسها بعد وفاة زوجها؛ لكي ترقد إلى جوار شريكها في كفنه، ولكننا اليوم حتى إذا استنكرنا هذه الفعلة، فإننا مع ذلك ما زلنا نعدُّ وفاء الزوجة لزوجها - حيًّا كان أم ميتًا - فعلاً أخلاقيًّا له قيمته»(٣).

وهذا المعنى نفسه يرصده ديورانت بعد رحلة قضاها في الحديث عن الاختلافات الواسعة في أخلاق الناس في الزواج والعفَّة، قال: «نعم إنه من الحقِّ في الأساس» -كما قال

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١/ ٩٤.

(٢) زكريا إبراهيم: المشكلة الخلقية ص٦٢.

(٣) المرجع السابق ص٦٢.



أناتول فرانس[1] في سخرية- «إن الأخلاق هي مجموعة أهواء المجتمع»؛ وكما قال «أناقارسيس» Anacharsis اليوناني[2]: إنه إذا ما جَمَعْنَا كل التقاليد التي تُقَدِّسها جماعة ما، ثم حذفنا منها كل التقاليد التي تمَجُّها جماعة أخرى، ما بقي لنا منها شيء؛ لكن ذلك لا يدلُّ على تفاهة الأخلاق في قيمتها، إنما يدلُّ على أن النظام الاجتماعي قد احتفظ بكيانه بطرائق شتى؛ ولا يُقَلِّل اختلاف الطرق هذا من ضرورة النظام الاجتماعي؛ فلا بُدَّ من قواعد يرعاها الناس في اجتماعهم بعضهم ببعض»[3].

والحقُّ أنه مهما يكن من أمر تغيُّر الظواهر الأخلاقية، فإنَّ من المؤكَّد أن الشرائع الأخلاقية لا تُمَثِّل مجموعة من القواعد التعسُّفِية والاعتباطية، التي لا تخضع لأي منطق ولا تصدر عن أية معقولية؛ بل هي مبادئ إنسانية عقلية تستمدُّ أصولها من قاعدة أوَّلية عامَّة؛ هي احترام الشخص البشري، وتقديس القيم الإنسانية[4].

وهذا ما دعا هانس كونج[5] أن يقول بأن الديانات في العالم - سواء كانت ذات أصل شرقي ويميزها «الشكل النبوي» كاليهودية والمسيحية والإسلام، أو ذات أصل هندي كالهندوسية والبوذية، أو ذات أصل صيني؛ حيث لا نبي ولا رسول، وإنما تنتمي إلى «الرجل الحكيم»؛ مثل: كونفوشيوس ولاو تسو[6] -ترجع إلى قيم أخلاقية واحدة بشكل أساسي؛ ما تجده في الكتاب المقدس اليهودي في الديكالوج (الوصايا العشر)، وخاصة الجزء الثاني؛ ما تجده -أيضًا- في

---

(١) أناتول فرانس (Anatole France) (١٨٤٤-١٩٢٤م): روائي وناقد، من أكبر أدباء وروائيي فرنسا، من رواياته: «جريمة سلفستر بونار»، و«الزنبقة الحمراء»، و«تاييس»، و«ثورة الملائكة»، و«الآلهة عطشى»، حصل على جائزة نوبل في الأدب لسنة ١٩٢١م لمجموع أعماله.

(٢) أناقارسيس: فيلسوف يوناني من القرن السادس قبل الميلاد.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ١/ ٨٣.

(٤) زكريا إبراهيم: المشكلة الخلقية ص٦٣.

(٥) هانس كونج Hans Kueng (١٩٢٨م-..): عالم لاهوت سويسري، طُرِدَ من الفاتيكان، بعد اعتراضه على مفاهيم مسيحية رأى الفاتيكان أنها أساسية، واهتم فيما بعد بمشروع الأخلاق العالمية والتي يدعو فيها إلى ميثاق أخلاقي عالمي، وكان عميدًا لكلية اللاهوت بجامعة توبنجن الألمانية، من كتبه: «الحياة كمسيحي»، والذي دعا فيه إلى فهم جديد لتعاليم المسيح، و«الإسلام: الماضي والحاضر والمستقبل».

(٦) لاو تسو: حكيم وفيلسوف صيني، اختلف العلماء حول الزمن الذي عاش فيه، لكن معظمهم ذهب إلى أنه عاش في عام ٣٢٠ ق. م، ويقال: إنه وُلد في القرن السادس قبل الميلاد في الصين الوسطى، يعتبر مؤسس الديانة الطاوية.



القرآن؛ ستجد وصايا مماثلة للغاية في التراثَيْنِ الهندي والصيني، وفي وقت مضى ذاع عن باتانجالي مؤسس اليوجا مقولة: «لا تقتل، لا تسرق، لا تستغل جنسيًّا». نجد هذه المبادئ -أيضًا- في مجموعة القوانين البوذية، وتجدها كذلك في التراث الصيني، إنك بالفعل تجد وصايا من هذا النوع في كتاب حمورابي(١)، كما تجده في تقاليد الأروميين في أستراليا(٢).

فالخلاصة -التي أردنا التأسيس لها- أن الأخلاق من صميم الطبيعة الإنسانية، وقد وُجِدَت عند كل البشر ابتداءً، ثم إنَّ جوهرها واحد مهما اختلفت العادات والبيئات.

الأخلاق.. هل يمكن أن تُكتسب؟

كما اختلف العلماء في تفسير نشأة الإنسان وبداياته الأولى، اختلف علماء الأخلاق في تفسير الأخلاق تبعًا لاختلافهم في هذه النشأة، ولكن وكما يقول ديورانت: «ينبغي أن نتذكَّر مرَّةً أخرى أننا لا نعرف من بدايات الأشياء إلاَّ قليلاً»(٣)؛ ذلك أن هذه «البدايات هي أسرار التاريخ، التي سنظلُّ نضرب حولها بمجرَّد الإيمان والحدس، لكننا يستحيل أن نعلم عنها علم اليقين»(٤).

انسحب جهل العلماء بالبدايات على موضوع الأخلاق ليُنتج نظرتين كبيرتين لتيَّارين حول الموضوع؛ التيار الأول: تيار «اللادينيين الماديين» -إذا صحَّ الوصف- وهم الذين جاد عليهم العلم بقليل من المعلومات العلمية الثابتة؛ فهم يملأون فراغ الصورة بكثير من الحدس والتخمين والافتراض، وهم يرون تاريخ البشرية في تطوُّر مستمرٍّ؛ فالإنسان قد بدأ متخلِّفًا في كل شيء؛ في عقله وتصوراته وإدراكاته وأخلاقه، ثم واجه الحياة التي تتطوَّر هي الأخرى من البساطة إلى التعقُّد، فما يزال الإنسان يُطَوِّر الحياة ثم تُطَوِّره في علاقات تفاعلية متبادَلة، فتَطَوَّر عقله وتصوراته وأفكاره وأخلاقه.

---

(١) حمورابي Hammurabi (ت١٧٥٠ ق. م): كان الملك السادس لبابل من (١٧٩٥-١٧٥٠ ق. م)، وهو صاحب شريعة حمورابي، التي تُعَدُّ من أقدم وأشمل القوانين في وادي الرافدين بل والعالم.

(٢) هانس كونج: الإسلام رمز الأمل ص١٩.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ١/ ٧٠.

(٤) المرجع السابق ١/ ١٦.

التيار الثاني: تيار «أصحاب الديانات»، وهم الذين يعتقدون بأن لهذا الكون الفسيح خالقًا ومدبِّرًا، وأن الإنسان هو أحد مخلوقات هذا الإله، وأنَّ الإنسان خُلِق وفي صميم فطرته مجموعة من القيم والمبادئ والأخلاق، أمَّا أنَّ معرفة الإنسان الآن لم تتوصَّل -في دراستها لفجر التاريخ- إلى أبعد من أقوام بدائية همجية ذات اختلاف قيميٍّ هائل، وذات عادات واسعة التشعُّب، فهذا لا يعني قط أن ما لم نعرفه -من حياة الإنسان الأولى- كان أكثر بدائية وأكثر همجية وأقلَّ أخلاقية، بل التفسير الأصوب أن الفترات المجهولة لنا من التاريخ، هي التي تحمل سرَّ انحراف هذه الأقوام والشعوب والقبائل عن بداية الإنسان الإيمانية السوية الأخلاقية كما خلقها الله في الإنسان الأول (آدم عليه السلام)، الذي هو من عباد الله الصالحين.

يقول الدكتور مصطفى حلمي[1]: «أمَّا عن افتراض الحياة البدائية كمظهر أول للحياة الاجتماعية، فإنه يمكن القول بأنها أبسط ما وصل إلى علمنا من حالات، لا أنها الحالة الأولى تاريخيًّا؛ فالاجتماعيون يعدُّون البسيط قديمًا وليس هذا بالضروري»[2]. وهذا -أيضًا- ما اعترف به ول ديورانت بشكل ضمني، فتلك الثقافات التي عرفناها «لم تكن بالضرورة الأصول التي تفرَّعت عنها مدنيَّتنا؛ فليس ما يمنع أن تكون بقايا متحلِّلَة لثقافات أعلى تدهورت»[3].

وما يزال الفريقان في شدٍّ وجذب، ولكن الشاهد من هذا الحديث هو اتفاق الجميع على أن الأخلاق يمكن اكتسابها؛ فالذي يرى أن الأخلاق صنعتها الحياة، فهي نسبية متطوِّرة خاضعة لظروف الزمان والمكان والحاجات والغرائز، ويعترف بأن الإنسان يكتسب مع تقدُّمه أخلاقًا جديدة لم تكن لديه من قبلُ، وأمَّا أصحاب الديانات فهم يؤمنون بأن الأخلاق فطرة مركوزة في أعماق الإنسان، وأن رسالة الأديان أن تعود بالإنسان إلى الطبيعة الأخلاقية السوية، وكفى بهذا تأكيدًا على أن الإنسان قادر على اكتساب أخلاق والتخلُّص من أخلاق أخرى.

---

(١) مصطفى حلمي: (١٩٣٢م-..) من كبار المفكرين الإسلاميين في العصر الحديث، ويُعَدُّ صاحب أهم الدراسات الفلسفية عن السلفية في العالم العربي والإسلامي، من مؤلفاته: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام.

(٢) مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام ص٧٧.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ١/ ١٥٣.

وهذه القاعدة يُجملها فيلسوف الأخلاق المسلم ابن مسكويه[1] فيقول: «الخُلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية؛ وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعيًّا من أصل المزاج؛ كالإنسان الذي يُحرِّكه أدنى شيء نحو غضب، ويهيج من أقلِّ سبب، وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء، كالذي يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه، أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكًا مفرطًا من أدنى شيء يُعجبه، وكالذي يغتمُّ ويحزن من أيسر شيء يناله، ومنها ما يكون مستفادًا بالعادة والتدرُّب، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمرُّ عليه أولاً فأولاً حتى يصير ملكة وخلقًا»[2].

ما الأخلاق الأساسية؟

شهد التاريخ الإنساني اختلافًا واسعًا في المنظومات الأخلاقية للشعوب، ثم أتى عصر الكتابة والتدوين والتفكير والفلسفة، فتوسَّع في نقاش هذه المنظومات الأخلاقية، وصنع جدالاً لا يبدو أنه سينتهي حول الأخلاق، كان من ضمن عناصره الحيَّة والثرية والمُحْتَمِلة للجدل فكرة «ترتيب الأخلاق»، أو وضع الهيكل للمنظومة الأخلاقية البشرية؛ أيُّ الأخلاق يستحقُّ أن يكون في موقع الصدارة، وأيُّها يمكن أن يحتلَّ المواقع الخلفية؟ وأيُّ الأخلاق يسع الإنسانية أن ترفضه، أو حتى تهمله وتتخلَّى عنه؟ ثم أيُّها الذي يُمَثِّل غيابه تهديدًا خطيرًا ومؤثِّرًا؟ وما الذي جعل البشر يختلفون في منظوماتهم الأخلاقية؛ فلا يتَّفِقُون على منظومة واحدة؟ وهل ثمة تفسير أخلاقي -أي من زاوية المنظور الأخلاقي- يستطيع أن يقول: لماذا بقي بعض الناس آلاف السنين في الشكل البدائي لا يكادون يتطوَّرون؟ ولماذا استطاع غيرهم أن يتطوَّر، وبسرعة أحيانًا، لكي يُقيم حضارات واسعة وعريقة؟ ثم هل ثمة تفسير أخلاقي يُفَسِّر سقوط الحضارات الكبرى وانهيارها؟

وما زالت جوانب البحوث تتَّسع ويُؤخذ منها ويُرَدُّ، وما زال العلماء والفلاسفة والمؤرخون يُحاول كلٌّ منهم أن يُدلي بدلوه في صناعة تفسير وصياغة إجابات لهذه الأسئلة،

---

(١) ابن مسكويه: هو أبو علي أحمد بن يعقوب بن مسكويه الخازن (ت ٤٢١هـ=١٠٣٠م) اشتغل بالفلسفة والتاريخ والأدب، وهو أكبر علماء الحيوان في عصره، من كتبه: تجارب الأمم، وتعاقب الهمم، والفوز الأصغر.

(٢) ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق ص٢٥.



ومن منطلق قراءتي للتاريخ ومسار الحضارات واستنادًا إلى القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، أستطيع أن أُميِّز بين نوعين، أو - بالأحرى - مستويين من الأخلاق.

المستوى الأول: الأخلاق التي لا بُدَّ منها لحياة مجموعة من البشر، والتي إذا غابت تصير هذه المجموعة في حالة من القلق والاضطراب يُؤَشِّر إلى الفناء. والمستوى الثاني: الأخلاق التي يُمَثِّل وجودها إضافة إنسانية مهمَّة في حياة الجماعة البشرية، بينما يُؤَثِّر غيابها بالسلب على جمال الحياة ومستواها الإنساني، ولكنه غياب لا يُؤَدِّي إلى المراحل المتأخِّرة من القلق والاضطراب؛ ومن ثَمَّ الفناء.

وعلى هذا فنحن أمام تقسيم كبير للمنظومة الأخلاقية البشرية؛ تقسيم يَخُطُّ حدَّ الضرورة ثم يخطُّ حدَّ الجمال والكمال، ونستطيع أن نقول باطمئنان: إن المجتمعات البشرية القائمة والتي قامت ذات يوم على هذه الأرض، استطاعت الاحتفاظ لنفسها بمجموعة من الأخلاق التي مَثَّلَت الحدَّ الأدنى للوجود البشري، ثم قامت الحضارات بالبناء على هذا الحدِّ الأدنى لتصل إلى الجمال والكمال، ولكن تظلُّ المحاولة بحاجة إلى مزيد من التحديد والتوضيح، فما تلك الأخلاق التي تُمَثِّل الحدَّ الأدنى للوجود البشري؟ ومن ثَمَّ تمثِّل الحدَّ الأدنى من مستوى التعاون بين الناس، وهي بالتالي تمثِّل الإطار الذي نتخوَّف من انتهاكه أو الخروج عليه.

ومن واقع ما خَلُصت إليه عبر القراءة في التاريخ والواقع، فإني أرى أن هذه الأخلاق التي يمكن أن يتَّفق عليها جميع الناس، وتصلح لأن تمثِّل قاعدة ينطلق منها التعاون الإنساني، تنحصر في ثلاثة أخلاق أساسية: الصدق، والأمانة، والعدل. إنني أجد في جميع الثقافات البشرية بما فيها الأديان السماوية، والفلسفات القديمة، وحتى ثقافات الشعوب التي عاشت في عزلة حضارية ما يُؤَسِّس لهذه الأخلاق الأساسية.

أولاً: الصدق:

لقد دعا الإسلام إلى تحرِّي الصدق في الأقوال والأفعال، فآيات القرآن الكريم وأقوال النبي محمد ﷺ متكاثرة في هذا الجانب؛ والبداية من الكذب في أمور الدين الذي سُمِّيَ كذبًا



على الله، قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ الله وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]، ثم بالكذب على الناس ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى الله الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى الله الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]، وقال ﷻ يصف الذين احترفوا الكذب واعتادوه، حتى إنهم يُقسمون بالأيمان ليُصدِّقهم الناس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۞ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ الله شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۞ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٤- ١٨].

وفي ثناء الله على الصدق يقول ﷻ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]، ومنزلة الصادقين في الإسلام هي المنزلة الثانية في التعظيم بعد منزلة الأنبياء مباشرة: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

بل لقد حارب الإسلام الكلام بناء على الظنِّ؛ حيث قال النبي ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ! فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»[(١)]. وكان هذا صدى لما في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]؛ ولهذا حثَّ القرآن الكريم على محاربة الإشاعات ومطلقيها بالتثبُّت من صحَّتها ودقَّتها، قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

بل حتى في أثناء اندلاع الحرب، لو عَنَّت بادرة أو إشارة تُفيد بأن الحرب في غير وجهها، وأن ثمة خطأ ما في المعلومات، فيجب التوقُّف والتبيُّن، قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ الله فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ الله مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ

---

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر (٥٧١٧) عن أبي هريرة، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها (٢٥٦٣).

خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

وورد -أيضًا- في وصايا النبي محمد ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ! عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»(١).

ولقد طلب محمد ﷺ من أتباعه ستَّة أمور؛ إذا فعلوها فإنها تضمن لهم الجنة، وكان أولها «اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ»(٢).

وفي الكتاب المقدَّس بعهديه القديم والجديد تكرَّرت الوصايا بقول الصدق والتحذير من الكذب؛ ففي سفر اللاويين وردت الوصية: «لا تكذبوا»(٣). وفيه -أيضًا- النهي عن القسم بالله كذبًا: «ولا تحلفوا باسمي للكذب فتدنِّس اسم إلهك»(٤).

كما جاء في رسالة القديس بولس إلى أهل كولوسي: «لا تكذبوا بعضكم على بعض»(٥). وفي سفر الرؤية أُعلن بوضوح: «الكذابون لا يرثون ملكوت السموات»(٦).

ومن قديمٍ نجد الصدق والكذب حاضرًا في الوصايا الأخلاقية الخمسة التي وضعها بوذا في الهند القديمة؛ حيث تقول: «لا يقولنَّ أحد كذبًا». وبعد بوذا بحقبة من الزمان روى المؤرِّخ اليوناني الذي سجل حملات الإسكندر الأكبر أن الهنود صادقون إلى أبعد الحدود(٧).

---

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (٥٧٤٣)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٢٦٠٧) عن عبد الله بن مسعود، واللفظ له.

(٢) أحمد في مسنده (٢٢٨٠٩) عن عبادة بن الصامت، وقال شعيب الأرناءوط: حسن لغيره وهذا إسناد رجاله ثقات. وابن حبان (٢٧١)، والحاكم (٨٠٦٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الألباني: حسن. انظر: صحيح الجامع (١٠١٨).

(٣) سفر اللاويين ١٩/ ١١.

(٤) المصدر السابق ١٩/ ١٢.

(٥) رسالة بولس إلى أهل كولوسي ٣/ ٩.

(٦) سفر الرؤية ٢١/ ٢٧، ٢٢/ ١٥.

(٧) ول ديورانت: قصة الحضارة ٣/ ٢٧، ٧٧.

وفي فلسفة حكيم الصين الأشهر كونفوشيوس نجد الصدق -حتى في حالة الغضب- من بين الشروط التي وضعها لكي يكون الإنسان نبيلاً[١]، بل لقد قَدَّم الصدق عن الحاجة إلى الطعام والشراب، وعن الحاجة إلى العتاد الحربي؛ فحين كان يصف الشروط التي يجب أن تتوفَّر في الحكومة الصالحة لتقود الشعوب وضع ثلاثة شروط؛ قال: «(لا بُدَّ للحكومة) من أن تحقق أمورًا ثلاثة، أن يكون لدى الناس كفايتهم من الطعام، وكفايتهم من العتاد الحربي، ومن الثقة بحكَّامهم». فقال تزه - كونج: «فإذا لم يكن بُدٌّ من الاستغناء عن أحد هذه الشروط، فأيُّ هذه الثلاثة يجب أن تتخلَّى عنه أولاً؟» فأجاب المعلم: «العتاد الحربي». وسأله تزه - كونج مرَّة أخرى: «وإذا كان لا بُدَّ من الاستغناء عن أحد الشرطين الباقيين فأيهما يجب أن تتخلَّى عنه؟ أجاب المعلم: «فلنتخلَّ عن الطعام؛ ذلك أن الموت كان منذ الأزل قضاء محتومًا على البشر، أمَّا إذا لم يكن للناس ثقة (بحكَّامهم) فلا بقاء (للدولة)»[٢].

ويُجْمل الدكتور زكريا إبراهيم اتفاق الإنسانية على ضرورة الصدق فيقول: «ربما اختلفت الشرائع الأخلاقية -أيضًا- في تحديد «الحالات» التي يكون فيها الكذب أهون الشَّرَّيْنِ، ولكنها تُجْمِع - بلا استثناء - على اعتبار «قول الصدق» في الحالات العادية، عملاً أخلاقيًّا صائبًا»[٣].

ثانيًا: الأمانة:

ومثلما قلنا في الصدق أنه وُجِدَ عند كل الشعوب والحضارات الإنسانية، فكذلك الأمانة؛ وإنَّا لنرى في القرآن الكريم أن كل الأنبياء حين حملوا رسالة الله إلى الناس، كانوا يُكَرِّرُون العبارة ذاتها: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[٤]، فلقد قالها نوح عليه السلام لقومه، وقالها من بعده هود عليه السلام، وصالح عليه السلام، ولوط عليه السلام، وشعيب عليه السلام، وموسى عليه السلام.

وفي هذا التكرار بالعبارة ذاتها لكلِّ قوم دليل واضح على تقدير الشعوب على اختلاف

---

(١) هالة أبو الفتوح: فلسفة الأخلاق والسياسة.. المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس ص١٠٢.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ٦٠، ٦١.

(٣) زكريا إبراهيم: المشكلة الخلقية ص٦٢.

(٤) (الشعراء: ١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨)، (الدخان: ١٨).

الزمان والمكان والأحوال لقيمة الأمانة؛ فهم أقرب إلى الاستماع إلى الأمين وإلى اتِّباعه.

وفي الإسلام كان المسلم مطالبًا بأن يعتبر دينه أمانة يحملها، ويجب عليه أن يُوَفِّيها، وأنها أمر عظيم لم تَقْوَ السموات ولا الأرض ولا الجبال عن حملها، قال ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وكانت الصيغة القرآنية شديدة اللهجة في الحديث عن الأمانة؛ حيث قال ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وكان من الصفات التي يرفضها الإسلام، ويصف القائم بها بالمنافق أنه: «إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[(١)].

وجاء في الوصايا الستة عن النبي ﷺ: «وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ»[(٢)].

وكان التأكيد على الأمانات عظيمًا في القرآن الكريم؛ فلقد كان العقد بين اثنين من الأمور التي لا يُقبل فيها التساهل، وتُعَدُّ عهدًا بين الإنسان وبين الله، قال ﷻ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١]، وقال ﷻ: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

وفي الكتاب المقدس نقرأ في سفر المزامير: «اتَّكِلْ على الربِّ وافعل الخير، اسْكُنِ الأرض وَارْعَ الأمانة»[(٣)]. وأيضًا جاء في سفر يشوع بن سيراخ: «كل رشوة ومظلمة تمحى والأمانة تبقى إلى الأبد»[(٤)].

وقد وُصفت الأُمَّة التي يحبها الله بالحافظة للأمانة، كما في سفر أشعياء: «افتحوا الأبواب

---

(١) البخاري: كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من عاهد ثم غدر (٣٠٠٧) عن عبد الله بن عمرو، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق (٥٩).

(٢) أحمد في مسنده (٢٢٨٠٩) عن عبادة بن الصامت، وقال شعيب الأرناءوط: حسن لغيره وهذا إسناد رجاله ثقات وابن حبان (٢٧١)، والحاكم (٨٠٦٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجه. وقال الألباني: حسن. أنظر: صحيح الجامع (١٠١٨).

(٣) سفر المزامير ٣٧/ ٣.

(٤) سفر يشوع بن سيراخ ٤٠/ ١٢.

لِتَدْخُلَ الأمَّة البارَّة الحافظةُ الأمانةَ»[١].

ولقد كانت الأمانة والشرف عملاً وقولاً، في المرتبة الثانية في أعظم الفضائل عند الديانة الزرادشتية؛ إذ تلي التقوى التي كانت الفضيلة الأعظم[٢].

وكما كان الصدق حاضرًا في الوصايا الأخلاقية الخمسة لبوذا، فلقد كانت الأمانة كذلك؛ إذ ورد فيها: لا تأخذ ما لم يُعط لك[٣]، أو ما لا يخصك[٤]. وكان من مفاخر الشعب الهندي -التي رواها المؤرخ اليوناني الذي أرَّخ لحملات الإسكندر- أنهم بلغوا من الأمانة حدًّا يُغنيهم عن الأقفال لأبوابهم، وعن العهود المكتوبة تسجيلاً لما اتفقوا عليه[٥].

وفي الصين نرى كونفوشيوس يُعلن عن خمسة أشياء تحدِّد خيرية الفرد؛ منها: «إذا كان أمينًا؛ فإن أتباعه سوف يثقون به»[٦].

ولأجل أن الأمانة قيمة أساسية وخُلق أصيل لا تستقيم حياة البشر من دونه، نجد أن جميع الأديان والفلسفات قد حاربت الغشَّ والخداع والغدر والخيانة، والسرقة والسلب والنهب، وكل ما يمكن أن يُناقض قيمة الأمانة، فأنزلت بهذه الجرائم العقوبات التي تراها كافية لئلاَّ تتكرَّر.

وعلى سبيل المثال نذكر أن الآشوريين كانوا يُعاقبون بالإعدام على بعض أنواع السرقة[٧]، وجاء في الوصايا من الكتاب المقدس: «لا تسرق»[٨]. وفي سفر اللاويين -أيضًا- وردت الوصية: «لا تسرقوا»[٩].

ويُعاقب الإسلام على السرقة التي تُرتكب دون داعٍ من احتياج أو اضطرار أو فقر بقطع

---

(١) سفر أشعياء ٢٦/ ٢.
(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٤٣٢.
(٣) كامل سعفان: معتقدات آسيوية ص٢٠٦.
(٤) السيد محمد بدوي: الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ص٢٩.
(٥) ول ديورانت: قصة الحضارة ٣/ ٢٧.
(٦) هالة أبو الفتوح: فلسفة الأخلاق والسياسة. المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس ص٨٣.
(٧) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٢٧٥.
(٨) سفر الخروج ٢٠/ ١٥، وسفر التثنية ٥/ ١٩، وإنجيل متى ١٩/ ١٨، وإنجيل مرقس ١٠/ ١٩.
(٩) سفر اللاويين ١٩/ ١١.

اليد، ونجد ذلك القرآن الكريم في قوله ﷻ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

وظلَّت قيمة الوفاء مفخرة وفضيلة اجتمعت عليها كل الأمم، لقد كان الوفاء بالدَّيْنِ واجبًا مقدَّسًا في الشريعة الأبستاقية التي هي نصوص الديانة الزرادشتية، وكان من دواعي فخر ملوك فارس ومظاهر تباهيهم أنهم لا ينقضون كلمتهم، وكان الوفاء من القيم التي سجَّلها التاريخ بإعجاب للفرس الذين كان من العسير على المؤرِّخ أن يجد في تاريخهم فارسيًّا قد استؤجر ليحارب الفرس(١).

وما يزال ذلك أمرًا طبيعيًّا في حياتنا المعاصرة؛ إذ لا نجد قانونًا يمكنه أن يرضى أو يُبَرِّر خيانة الوطن، بل يُطلق على هذه الجريمة «الخيانة العظمى».

لكن يلفت أنظارنا ونحن في مسرح أخلاق التاريخ أن الوفاء داخل نطاق الأسرة؛ والوفاء الزوجي تحديدًا كان من القيم التي حرصت الإنسانية عليها، ووُوجِهَ منتهكوها بالرفض والعقوبة؛ ففي الوفاء للأمِّ عند قدماء المصريين نقرأ في إحدى البرديات القديمة: «ينبغي لك ألا تنسى أمك؛ فقد حملتك طويلاً في حنايا صدرها، وكنت فيها حملاً ثقيلاً؛ وبعد أن أتممتَ شهورك ولدتك، ثم حملتك على كتفها ثلاث سنين طوالاً، وأرضعتك ثديها في فمك وغذَّتك، ولم تشمئزّ من قذارتك، ولَمَّا دخلت المدرسة وتعلَّمْتَ الكتابة كانت تقف في كل يوم إلى جانب معلمك ومعها الخبز والجعَّة(٢)، جاءت بهما من البيت»(٣). وهذا الوفاء حتى إلى ما بعد المهات، يقول الحكيم المصري آني(٤) ناصحًا ولده: «قدِّم الماء لأبيك وأمك اللذين انتقلا إلى قبرهما في الصحراء، وإيَّاك أن تغفل هذا الواجب؛ حتى يعمل لك ابنك بالمثل»(٥).

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٤٣٢-٤٣٩.
(٢) الجعة: نبيذ الشعير والقمح. المعجم الوسيط ١/ ١٢٦.
(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٩٧، ومحرم كمال: الحكم والأمثال والنصائح عند قدماء المصريين ص٩٣.
(٤) آني: حكيم مصري عاش في عهد فرعون مصر توت عنخ آمون، وقد كتب عدة نصائح لتلميذه خونسو حتب، وهي نصائح مكتوبة باللغة الهيراطيقية، عُثر عليها في سنة ١٨٧٠م.
(٥) محرم كمال: الحكم والأمثال والنصائح عند قدماء المصريين ص٩١.

وفي الوفاء للزوجة نقرأ -عند قدماء المصريين- في نصيحة بتاح حوريب لابنه: «إذا كنتَ ناجحًا، وأَثَّثْتَ بيتك، وكنت تحب زوجة قلبك، فاملأ بطنها واكسُ ظهرها... وأدخل السرور على قلبها طوال الوقت الذي تكون فيه لك؛ ذلك أنها حرث نافع لمن يملكه... وإذا عارضتها كان في ذلك خرابك»[(١)].

وعاقبت الشريعة السومرية المرأة المتزوِّجة إذا زنت، فسمحت للزوج بأن يتَّخِذَ له زوجة ثانية، وأن يُنْزِل الزوجة الأولى منزلة أقلَّ من منزلتها السابقة، وعاقبتها بالقتل أيضًا[(٢)].

وعند قدماء المصريين نرى عقوبتين؛ إحداهما: القتل حتى ولو لم يُقبض عليها بالجرم المشهود[(٣)]، والأخرى -وهي الأخفُّ- تتمثَّل في أنه بإمكان الزوج أن يُخرج زوجته من داره دون أن يُعَوِّضَها بشيء إذا زَنَت؛ أمَّا إذا طلَّقها لغير هذا السبب فكان عليه أن يُخَصِّصَ لها جزءًا كبيرًا من أملاك الأسرة[(٤)].

وفي بابل ورغم وجود إباحية لم يرفضها المجتمع البابلي قبل الزواج، إلاَّ أن ذلك كان يَتْبَعُه «إرغام شديد على الاستمساك بالوفاء الزوجي بعده، وكان القانون ينصُّ على إغراق الزوجة الزانية ومَنْ زنت معه، إلاَّ إذا أشفق الزوج على زوجته[(٥)] فآثر أن يستبدل بهذه العقوبة إخراجها إلى الطريق عارية إلاَّ من القليل، الذي لا يكاد يستر شيئًا من جسمها»[(٦)].

وعند الآشوريين كان يُشَدَّدُ على المرأة المتزوِّجة أن تكون جدَّ أمينة على عرضها، وإذا قَتَل الذي يُزْنى بامرأته الزانيَ وهو متلبس بجريمته عُدَّ ذلك من حقِّه[(٧)].

ونقرأ في سفر التثنية أن الفتاة إذا زنت قبل أن تتزوَّج فهي خائنة لأسرتها ولأبيها، وعقابها: «يخرجون الفتاة إلى باب بيت أبيها ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت؛

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٩٧.
(٢) المرجع السابق ٢/ ٢٨، ٣٣.
(٣) أندريه إيمار، وجانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام.. الشرق واليونان القديمة ١/ ٧٤.
(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٩٦.
(٥) أندريه إيمار، وجانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام.. الشرق واليونان القديمة ١/ ١٥٣.
(٦) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٢٣٢.
(٧) المرجع السابق ٢/ ٢٨١.





لأنها عملت قباحة في إسرائيل بزناها في بيت أبيها، فتنزع الشرَّ من وسطك»[(١)].

وفي المسيحية لا يُسمح بالتفريق بين الزوجين لأي سبب كان؛ باعتبار أن الزواج رباط مقدَّس قد عقده الله فلا يُحُلّه الإنسان، غير أن سببين فقط أجازت فيهما المسيحية فسخ هذا الزواج؛ هما علة الزنا وتغيير الملة أو الديانة، حتى وإن كان ثمة خلاف بين المسيحيين في تحديد هذين السببين فقط للطلاق، إلاَّ أن الشاهد المقصود أن الزنا بين المتزوِّجين تحديدًا من الكبائر التي قد تُعادل في المسيحية تغيير المِلَّة والديانة.

وفي الإسلام تُقَرِّرُ الشريعة الإسلامية عقاب الزوج الزاني أو الزوجة الزانية بالرجم بالحجارة، وهي عقوبة أشدُّ من عقوبة الشابِّ أو الفتاة غير المتزوِّجَيْنِ؛ لما في هذا من معنى الخيانة وتعمُّدها.

ثالثًا: العدل:

ونرى العدل كذلك من الأخلاق التي اتَّفقت عليها الإنسانية عبر العصور والحضارات؛ إننا نجد في الإسلام أمرًا صريحًا وبلهجة قوية في القرآن الكريم: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ**﴾ [النحل: ٩٠]، وهذا فيما بين المسلمين أو فيما بين غيرهم؛ قال ﷻ: ﴿**وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾ [النساء: ٥٨].

ولا مكان في ساحة العدالة لأي صلات نسب أو قُربى أو مودَّة؛ فقد قال ﷻ: ﴿**وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ**﴾ [النساء: ١٣٥].

بل لقد أمر الإسلام بالعدل حتى مع كراهية الخصوم؛ قال ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [المائدة: ٨].

واعتبر الإسلام قول الزور جريمة؛ فأوصى القرآن الكريم المسلمين باجتنابه، قال ﷻ: ﴿**وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ**﴾ [الحج: ٣٠].

---

(١) سفر التثنية ٢٢/ ٢١.

وصرَّح النبي ﷺ بأن شهادة الزور من أكبر الكبائر، قال ﷺ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» ثَلاَثًا، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «الإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ». قال: فما زال يكرِّرها حتَّى قلنا: لَيْتَهُ سَكَتَ[١].

ومن ارتكب ظلمًا فقد باء بالخسران الكبير يوم القيامة؛ قال ﷻ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١]، وقال ﷻ: ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩]، وقال ﷻ: ﴿وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

وقد دعا الإسلام إلى التعاون على الخير وما فيه نفع الإنسانية، ولم ينسَ في الوقت نفسه أن يُشَدِّدَ في النهي عن الاجتماع على الظلم والتعاون على مخالفة العدل؛ قال ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]. بل لقد لعن الله الذين تتفشَّى فيهم الأفعال والأخلاق السيئة، ثم لا يبذلون محاولة في القضاء عليها، قال ﷻ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وكتب الله في القرآن الكريم أن الذي قتل نفسًا واحدة بظلم كان كمن قتل كلَّ الناس، قال ﷻ: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، وعبَّر النبي ﷺ عن خطورة القتل في الدين بأن المرء ما يزال متعلِّقًا بأمل شديد في الله أن يغفر له ذنوبه ما لم يرتكب جريمة القتل، قال ﷺ: «لاَ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا»[٢].

وإن الأمر بعدم القتل هنا والتحذير منه عامٌّ؛ يشمل نفوس المسلمين وغير المسلمين؛ إذِ العدل في الشريعة مطلق لا يتجزَّأ؛ ومن ثَمَّ فلكلِّ إنسان حقُّه في الحياة الحرَّة الكريمة، وفي صيانة العرض والأموال وجميع الحقوق من أي عدوان[٣].

---

(١) البخاري: كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور (٢٥١١) عن أبي بكرة، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٧).

(٢) البخاري: كتاب الديات (٦٤٦٩) عن عبد الله بن عمر، وأبو داود (٤٢٧٠)، وأحمد (٥٦٨١)، والحاكم (٨٠٢٩).

(٣) راغب السرجاني: التعامل مع غير المسلمين في السنة النبوية ص٥١.

وقرَّر القرآن العدالة في العقوبة، قال ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى﴾ [البقرة: ١٧٨].

وجاء في الوصايا من الكتاب المقدس: «لا تقتل»[١]. وفيه أيضًا: «لا تقتل البريء والبار؛ لأني لا أُبرِّر المذنب»[٢]. وفي الوصايا كذلك: «لا تشهد بالزور»[٣].

ونقرأ في سفر اللاويين: «لا تغصب قريبك ولا تسلب، ولا تُبِتْ أجرة أجير عندك إلى الغد. لا تشتم الأصم، وقدَّام الأعمى لا تجعل معثرة، بل اخش إلهك، أنا الرب. لا ترتكبوا جورًا في القضاء، لا تأخذوا بوجه مسكين ولا تحترم وجه كبير، بالعدل تحكم لقريبك»[٤].

وبعد ذلك بقليل تتكرَّر الوصية: «لا ترتكبوا جورًا في القضاء لا في القياس ولا في الوزن ولا في الكيل. ميزان حق، ووزنات حق، وإيفة حق، وهين حق تكون لكم»[٥].

. وفي سفر التثنية نجد التنبيه على العدل مؤكدًا: «العدل العدل تتبع لكي تحيا وتمتلك الأرض التي يعطيك الرب إلهك»[٦]. وفي المزامير يُوصف الربُّ بأنه عادل يحبُّ العدل: «الربُّ عادل ويحب العدل»[٧]. كما يُوصف بأنه «الرب مُجْرِي العدل والقضاء لجميع المظلومين»[٨].

ومما وصلنا من تراث المصريين القدماء -أقدم الحضارات الكبرى المعروفة- مقطوعة شعرية معبِّرة عن خُلق العدالة، تقول:

«لا تطمع في ذراع من الأرض، ولا تعتدِ على حدود أرملة... واحرث الحقل حتى تجد

---

(١) سفر الخروج ٢٠/ ١٣، وسفر التثنية ٥/ ١٧، وإنجيل متى ٥/ ٢١، ١٩/ ١٨، وإنجيل مرقس ١٠/ ١٩، وإنجيل لوقا ١٨/ ٢٠.
(٢) سفر الخروج ٢٣/ ٧.
(٣) إنجيل متى ١٩/ ١٨، وإنجيل مرقس ١٠/ ١٩، وإنجيل لوقا ١٨/ ٢٠.
(٤) سفر اللاويين ١٩/ ١٣: ١٥.
(٥) المرجع السابق ١٩/ ٣٥، ٣٦.
(٦) سفر التثنية ١٦/ ٢٠.
(٧) سفر المزامير ١١/ ٧.
(٨) المصدر السابق ١٠٣/ ٦.

حاجاتك، وخذ خبزك من بيدرك[١]، وإن قدحًا من الحَبِّ يُعطيكه الله لخير من خمسة آلاف تنالها بالعدوان»[٢].

وكان من مهمات الفرعون في مصر إشاعة العدل، ويتجلَّى هذا بوضوح في الخطبة الفصيحة التي ألقاها الفلاح المصري في حضرة الملك بصيغة ناصحة تقترب من الآمرة، والتي بقيت من ذلك التراث القديم؛ إذ يقول فيها: «يا مولاي... أَجْرِ عدلَ مُلْكِ العدل، واسلك عدالة العدل... واعمل بحسب القول المأثور الذي خرج من فم رع نفسه... قُلِ الحقَّ، وأْتِ العدل؛ فالعدل قوَّة، والحق شيء عظيم، فكلاهما راسخ رسوخ الجبال الشوامخ»[٣].

ومنذ أقدم نصٍّ نعرفه في أدب العالم القديم، وهو نصائح الحكيم المصري القديم بتاح حتب[٤]، نرى فيها العدل: «حَصِّل الأخلاق، وَارْعَ الحقَّ، واعمل على نشر العدالة، وعامل الجميع بصدق»[٥].

وفي أقدم الشرائع التي وصلتنا -شريعة حمورابي- قام العقاب في أول الأمر على مبدأ قانون القصاص؛ فإذا كسر إنسان لرجل شريف سنًّا، أو فقأ له عينًا، أو هشم له طرفًا من أطرافه، حلَّ به نفس الأذى الذي سَبَّبه لغيره، وإذا انهار بيتٌ وقتل مَنِ اشتراه حُكم بالموت على مهندسه أو بانيه، وإذا تسبَّبَ عن سقوطه موت ابن الشاري، حُكم بالموت على ابن البائع أو الباني؛ وإذا ضَرَب إنسان بنتًا وماتت لم يُحْكَمْ بالموت على الضارب بل حُكِم به على ابنته، ثم استبدل بهذه العقوبات النوعية شيئًا فشيئًا غرامات مالية، وبدأ ذلك بأن أُجيز دفع فدية مالية بدل العقوبة البدنية، ويحكم على المرأة بالقتل إذا قتلت زوجها لتتزوَّج بغيره[٦].

---

(١) البيدر: الجرن، والقمح ونحوه بعد دياسه وتقويمه. المعجم الوسيط ١/ ٧٨.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ١٠٠.

(٣) أندريه إيمار، وجانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام.. الشرق واليونان القديمة ١/ ٥٣.

(٤) بتاح حتب: حكيم مصري فرعوني، يُعرف بحكيم الدولة القديمة، عاش من حوالي ٤٥٠٠ عام. انظر: نبيلة محمد عبد الحليم: معالم التاريخ الحضاري والسياسي في مصر الفرعونية ص١٥٧.

(٥) محرم كمال: الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء ص١٠.

(٦) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٢٠٨، ٢٠٩.

ومن فارس القديمة وصل إلينا منشور ملكي يُعلن فيه الملك دارا[(١)]: «لقد أحببتُ العدل وأبغضتُ الكذب، وإرادتي هي ألاَّ يلحق ظلم بالأرملة واليتيم، لقد جازيتُ الكذَّاب وكافأتُ الفلاح». وهذا لم يكن مجرَّد إعلان، بل إنَّ هذا الملك الإخميني شهد له حتى بعضُ اليونان -وهم خصومه- بأنه كان مشرِّعًا عادلاً ونشيطًا[(٢)].

وفي الصين القديمة لما سُئِلَ كونفوشيوس: ما قولك في المبدأ القائل بأن الإساءة يجب أن تُجْزَى بالإحسان؟ أجاب بحدَّة: وبأي شيء إذًا تَجْزِي الإحسان؟! لتكن العدالة جزاء الإساءة، وليكن الإحسان جزاء الإحسان»[(٣)].

***

تلك هي الأخلاق الأساسية التي أرى أن البشرية تحملها في أعماقها منذ القديم؛ بل كان لا بُدَّ للبشرية أن تحملها لكي تستطيع أن تحيا على هذه الأرض، وإلاَّ لاستحالت الحياة شيئًا أبشع من حياة الكائنات المفترسة؛ إذ إن الفصائل المتوحِّشة لا تفترس بعضها، وقد رأينا كيف أن الحضارات المختلفة والفلسفات التي تكاد تتناقض، لا تلبث أن تتَّفق على هذه الأمور وتتبنَّاها بألفاظ مختلفة، وطرائق متنوعة، وأساليب متباينة؛ مما يُؤَكِّد أن الحاجة إلى هذه الأخلاق كانت قائمة ودائمة في كل العصور وعلى اختلاف البيئات، ومهما تنوَّع الطيف الإنساني في الطبائع والعادات.

إن هذا المستوى من الأخلاق إنما يُمَثِّل الحدَّ الأدنى الذي ينبغي أن يتوفَّر في البشر جميعًا، لكي يتحقَّق الحدُّ الأدنى من الحياة، التي يمكن أن تُسَمَّى «إنسانية»؛ هذا الحدُّ الأدنى الذي داعب خيال الفلاسفة والمصلحين والزعماء المخلصين، فاستطاع بعضهم أن يُحَقِّقَه داخل الدائرة التي استطاع التأثير فيها، فيما نجح البعض الآخر بشكل جزئي، بينما بقيت من سيرة بعضهم بعض الكلمات التي تذكر أنهم سَعَوْا ليُحَقِّقُوا هذه الحياة، وإن خلود هذه الكلمات

(١) دارا الأول، داريوس الأول: ملك أخميني فارسي حكم في الفترة (٥٢١-٤٨٦ ق. م)، وهو مؤسس الإمبراطورية الإخمينية الفارسية، وهو من سمح لليهود بإتمام بناء الهيكل من جديد في عام ٥١٥ ق. م بعد السبي البابلي.
(٢) أندريه إيمار، وجانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام.. الشرق واليونان القديمة ١/ ٢١٩.
(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ٥٨.

لدليلٌ آخر يُضاف إلى أدلة إثبات الحاجة البشرية الدائمة التي تتوقُ لتحويل هذه المبادئ إلى واقع حيٍّ.

لكن ثمة أخلاق أخرى كثيرة ومتنوِّعة، فضَّلتُ أن أُسميها «الأخلاق السامية»، وهي تلك الأخلاق التي تتجاوز ذلك الحدَّ الأدنى لتضع حدودًا ودرجات أخرى في مدارج السموِّ الإنساني؛ هذه الأخلاق لم تشترك فيها كل الحضارات ولا كل الفلسفات؛ مما يجعلها خارجة عن «المشترك الإنساني العام»، ومنتمية إلى ما أسميناه «المشتركات الإنسانية الخاصة»؛ حيث نجد أقوامًا اتَّفقت على بعض منها، فيما اتَّفق آخرون على بعض آخر، وبين كلِّ «قوم» و«آخرين» مساحة من المشترك تكبر أو تصغر في بعض الأخلاق، فهذه نناقشها -إن شاء الله- في الفصل الرابع «المشتركات الإنسانية الخاصة».

***

التملــــــك

يبدو الشعور بالامتلاك شعورًا غريزيًّا وعميقًا في فطرة الإنسان، وتلبية هذا الشعور تُفضي إلى الإحساس بالراحة والرضا والنجاح، وغياب هذا الشعور يُورث الحاجة إليه ويُشعل الطاقة الدافعة لتعمل في سبيل إشباعه، إنه شعور إنساني لا يكاد أحد يجادل فيه.

حتى الطفل الصغير -وهو الصورة المثلى للإنسان في حالته الفطرية الطبيعية- يسعى لامتلاك الألعاب والحاجيات المحببة إليه، ويمارس عليها ما يستطيع من الحماية بإمكاناته الضعيفة؛ لئلاَّ يمتلكها أحد إلاَّ هو، «ثم يتعلم الأطفال -بالتدريج وبسرعة كافية- أنه ليس بوسعهم الحصول على كل شيء يُريدونه، مفترضين أنه ليس لديهم مَنْ يُلَبِّي كل نزوة لهم»[1].

***

والتاريخ البشري -في كل مراحله- دليل على أن التملك غريزة إنسانية، حتى إنَّ بعض المذاهب تُفَسِّر التاريخ كله على أنه صراع على الملكية، وإذا تجاوزنا الظنون التي فسَّر بها المؤرخون وعلماء الإنسانيات تطور قصة الملكية وتوقُّعاتهم لنشأتها، وركَّزنا على التاريخ المعروف؛ فسنرى حينئذٍ أننا أمام قصة الإنسان التي هي -في أحد جوانبها- قصة التملُّك.

بل إننا قد نجري مع ول ديورانت شيئًا وهو يناقش القول بأن الملكية ليست فطرية في الإنسان، فهو يرى بأنه ليس دقيقًا ويقول بأن: الملكية -في المراحل الاقتصادية الأولى- كانت محصورة -في الأعم الأغلب- في حدود الأشياء التي يستخدمها المالك لشخصه، وكان معنى الملكية هذا من القوَّة بحيث لازمت الأشياء المملوكة مالكها، فغالبًا ما دُفنت معه في قبره، وأمَّا الأشياء التي لا تتعلَّق بشخص المالك فلم تكن الملكية مفهومة بالنسبة إليها مثل هذا الفهم القوي»[2].

---

(١) كارل سيميلروث: عادة الغضب في تربية الأولاد، ص٦٧.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ١/ ٣١.



ثم يُقَرِّر بأن «الأرض في كل الشعوب البدائية ملكًا للمجتمع بأسره؛ فالهنود في أميركا الشمالية، وأهالي بيرو، وقبائل الهنود التي على تل تشيتاجونج، وأهل بورنيو، وسكان الجزر في البحر الجنوبي، مثل هؤلاء -فيما نُرجح- كانوا يملكون الأرض جماعة ويحرثونها جماعة ويقتسمون الثمار جماعة، وفي ذلك قال هنود أوماها: «إن الأرض كالماء والهواء لا يمكن أن تباع». وكذلك لم يكن بيع الأرض معروفًا في ساموا قبل قدوم الرجل الأبيض»[١].

إن هذا نوع من التملك، وإن بدا في جانب منه على العكس من هذا، فهذه ليست شيوعية بقدر ما هي قيم من التكافل والتراحم الإنساني؛ ذلك التكافل الذي ينبغي أن نعترف أن المدنيات الحديثة دفعت به جانبًا وهي تنهب طريقها في الحصول على الثروات بشكل محموم؛ وعليه فلا يكون الحل أن نتوقَّع وجود شيوعية بدائية، فذلك أبعد بكثير من أن نتوقَّع وجود إنسان فطري طبيعي تحكمه القيم الإنسانية التكافلية المتراحمة، فيكون اقتسامه لما يملك نزولاً إنسانيًّا عن بعض حاجته لمن هو أكثر حاجة إليها.

لقد كانت الملكية السائدة في الشعوب البدائية -حسبما يقول بعض علماء الاجتماع- هي الملكية الجماعية لا الفردية. فكانت هيئة العشيرة هي التي تملك في صورة شائعة جميع ما يقع في حوزتها من مساكن وأفنية ومزارع وأراضٍ زراعية ومساحات للصيد، ومختلف مرافق الحياة الأخرى، وحيوان ونبات وجماد، وقد تضمَّنت الملكية الجماعية عند الشعوب البدائية عدَّة أشياء، فكان من أقدم ما دخل في نطاقها ومن أهمه مساكن الأحياء من العشيرة ومقابر الأموات من أفرادها، إلاَّ أن الملكية الفردية كانت قائمة -أيضًا- في حدود الأشياء والأدوات، ثم إنها توسَّعت لتشمل الأرض الزراعية والرقيق[٢].

وعرفت الشعوب البدائية نظام حماية الملكية، سواء الفردية أو الجماعية، وكانت الملكية الجماعية محمية بقوَّة العشيرة حتى لو وصل الأمر إلى حروب طاحنة مع المعتدين، كما كانت الملكية الفردية محمية بمجموعة من القواعد والعقوبات التي قرَّرتها العشيرة بالتوافق فيما بينها

---

(١) ول ديورانت قصة الحضارة ١/ ٣١.

(٢) عبد الله مختار يونس: الملكية في الشريعة الإسلامية ودورها في الاقتصاد الإسلامي، ص٩، وهو ينقل عن: علي عبد الواحد وافي: قصة الملكية في العالم ص٢٣.

لمواجهة الغصب والسرقة وما إلى ذلك[١].

هذه هي النتائج التي أدَّت إليها الدراسات العلمية المجرَّدة التي لا تعترف بالمعطيات الدينية، أن التملك وُجد منذ نشأة الإنسان، بشكل فردي محدود في مجال من الملكية الجماعية.

ثم إننا إذا عدنا إلى بداية قصة الإنسان -كما تحكيها الكتب السماوية- فسنجد أن الملكية وُجدت منذ وُجد الإنسان في هذه الأرض؛ ففي قصة ابني آدم دليل على التملك ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ [المائدة: ٢٧] فهما قد قدَّما قُرْبانيْن واحد لكل منهما، وذكر المفسرون أن أحدهما كان صاحب زرع وأن الآخر كان صاحب ضرع؛ أي غنم وماشية، وهذا قول صريح في إثبات قِدَم التملك في حياة الإنسان[٢]. فالرواية الدينية لبداية الإنسان تُؤَكِّد -أيضًا- وجود الملكية منذ اللحظات الأولى للحياة البشرية.

***

وثمة دليل آخر على أن التملك غريزة إنسانية تمثل مشتركًا إنسانيًّا عامًّا، ذلك هو اعتراف الديانات السماوية والفلسفات والمناهج الإنسانية بهذه الغريزة واحترامها ووضع القواعد الضابطة لها، وأمَّا الفلسفات التي قامت على نفي الملكية فهي تمثِّل شذوذًا في مسار التاريخ، سواء من ناحية العدد الضئيل، أو من ناحية بقائها في الزمن.

فالمناهج والشرائع والقوانين إذ ترفض الغصب والسرقة والاحتيال، تعترف بالحقِّ الأصيل في الملكية، ولكنها تضبط طرقه ووسائل اكتسابه، كذلك هي حين تأمر بالإنفاق على الفقير ومساعدة المحتاج والتكافل والتراحم فإنها -لمرَّة ثانية- تُؤَكِّد على الحقِّ الأصيل في التملك، وأيضًا حين تُنَظِّم شأن الاستدانة والإقراض فإنها -ولمرَّة أخرى- تُراعي الحقَّ في التملك.

ففي القرآن الكريم نقرأ تأسيسًا صريحًا للحقِّ في الملكية في قوله تعالى ضمن آيات تُنَظِّم

---

(١) المرجع السابق ص١١.

(٢) انظر: الطبري: جامع البيان ١٠/ ٢٠٧، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ١٣٣، ١٣٤، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٨٢، والسيوطي: الدر المنثور ٣/ ٥٤.



أحكام الميراث: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧]، ونهيًا عن استلاب حقوق وأموال الآخرين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [الذاريات: ٢٩]، كذلك نرى حثًّا على الإنفاق والإحسان للمحتاج في قوله تعالى عن صفات عباده المؤمنين: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩].

وقال النبي ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ». فقال له رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال: «وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ»[(١)]. ثم وضع قاعدة عامَّة هي قوله ﷺ: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»[(٢)]. ودعا ﷺ ورَغَّب في التصدُّق فقال: «أَحَبُّ النَّاسِ إلى الله أَنْفَعُهُمْ للنَّاسِ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إلى الله ﷻ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ على مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عنهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عنهُ جُوعًا»[(٣)].

ومما جاء في الوصايا العشر التي أقرَّتها التوراة والإنجيل: «لا تسرق».

ولقد أقرَّت التوراة الملكية على اختلاف أنواعها؛ إذ فيها تُوجد الملكية الفردية، والملكية الأسرية، والملكية الجماعية.. وغيرها، وقد كانت أهم مظاهر الملكية عند بني إسرائيل تظهر في: قطعان الأنعام على اختلافها، والمراعي والمياه التي تعيش عليها هذه الأنعام، وملكية المنقول والنقود[(٤)].

ومن هذا ما جاء في سفر صموئيل الأول عن قصة نابال «وكان رجل في معون وأملاكه في الكرمل، وكان الرجل عظيمًا جدًّا، وله ثلاثة آلاف من الغنم وألف من المعز، وكان يجز غنمه في الكرمل»[(٥)]. كذلك عن قصة خروجهم من مصر وقد طلبوا أن يخرجوا بما يملكون

---

(١) رواه مسلم: كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار (١٣٧)، والنسائي (٥٤١٩)، وأحمد (٢٢٢٩٣).

(٢) رواه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٧١٣).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ٦/ ١٣٩، وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١٧٦).

(٤) عبد الله مختار يونس: الملكية في الشريعة الإسلامية ص١٧.

(٥) سفر صموئيل الأول ٢٥/ ٢، ٣.

من الأغنام والشياه كما يحكيها سفر الخروج: «خذوا غنمكم -أيضًا- وبقركم كما تكلمتم واذهبوا»[١].

ونهى الإنجيل عن الشرور، وأدرج فيها -كما في إنجيل مرقس- السرقة والطمع والمكر والحسد: «من الداخل من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة؛ زنى فسق قتل. سرقة طمع خبث مكر عهارة عين شريرة تجديف كبرياء جهل. جميع هذه الشرور تخرج من الداخل وتنجس الإنسان»[٢]. كما اغتبط المسيح لفعل رجل أنفق نصف أمواله على المساكين: «فوقف زكا وقال للرب: ها أنا يا رب أُعطي نصف أموالي للمساكين، وإن كنت قد وشيت بأحد أرد أربعة أضعاف. فقال له يسوع: اليوم حصل خلاص لهذا البيت»[٣]. ونجد أن «من سقى أحد هؤلاء الصغار كأس ماء بارد فقط باسم تلميذ فالحق أقول لكم: إنه لا يضيع أجره»[٤].

***

والتملك الذي أقرَّته الديانات السماوية، أقرَّته -أيضًا- الفلسفات والمناهج الوضعية، ورأيناه في سائر التراث الإنساني الحضاري على اختلافه في الزمان والمكان.

وقد مرَّت بنا[٥] المقطوعة الشعرية التي وصلت إلينا في التراث المصري القديم، والتي تقول: «لا تطمع في ذراع من الأرض، ولا تعتدِ على حدود أرملة... واحرث الحقل حتى تجد حاجاتك، وخذ خبزك من بيدرك، وإن قدحًا من الحَبِّ يعطيكه الله.. لخير من خمسة آلاف تناها بالعدوان..»[٦].

واعترفت البوذية بحقِّ التملك، برغم أنها ديانة تدعو إلى الصفاء الروحي والزهد في الدنيا؛ فهي لم تُحرِّم التملك إلاَّ على الرهبان، وكانت البوذية ردَّ فعل على البرهمية التي غالت في مسألة التملك؛ حتى جعلت البشر كلهم أربعة طوائف؛ وجعلت طائفة البراهمة -التي هي

(١) سفر الخروج ١٢/ ٣٢.
(٢) إنجيل مرقس ٧/ ٢٢.
(٣) إنجيل لوقا ١٩/ ٨، ٩.
(٤) إنجيل متى ١٠/ ٤٢، وإنجيل مرقس ١١/ ٤١.
(٥) راجع «الأخلاق الأساسية» من هذا الفصل.
(٦) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ١٠٠.

في المرتبة الأولى- تملك كل شيء، كما جعلت طائفة العمال -التي هي في المرتبة الأخيرة- طبقة مملوكة دائمًا، بل وأخس من الحيوانات والدواب(١). وكذلك أباحت الزرادشتية الملكية ووقفت بجانبها وحمتها، ونادت بضرورة الاكتساب وجمع الثروات(٢).

وأمَّا الحضارات القديمة، فكلها عرفت التملك وإلاَّ ما استطاعت أن تُكَوِّن حضارة أساسًا، بل إن الحضارة -من حيث هي نظام- كانت مضطرة للتعامل مع مسألة الملكية بتنظيم مواردها، وكذلك مصارفها -لا سيما حقوق الإله التي يقوم على أخذها الكهنة، وحقوق المملكة التي يقوم عليها جند السلطان ونظامه- وكذلك حمايتها عبر القوانين والقواعد التي تكفل الأمان ضد السرقة والغصب والاحتيال.

فحتى في أقدم القوانين التي وصلت إلينا -وهو قانون حمورابي- وجدنا اعترافًا واضحًا بالحقِّ في التملك، ومكافحة لجريمة السرقة بلا هوادة، وقد تطرَّقت المواد (٧، ٨، ٩، ١٢، ١٦، ٢٣، ٢٤) إلى مناقشة هذه الجريمة؛ فمنها مثلاً ما ورد في المادة السابعة: «إذا سرق رجل حاجة تعود إلى إله أو قصر يُقتل ذلك الشخص، ويُقتل الذي استلم المسروقات من يده». وفي المادة الثالثة والعشرين: «إذا قام رجل باللصوصية وضبط، يُقتل ذلك الرجل»(٣).

***

هذا الاتفاق البشري على الاعتراف بالملكية، وهو الذي حدث -يقينًا- دون قصد لا يُعَدُّ دليلاً على أن الملكية من الفطرة البشرية فحسب، بل يُعَدُّ -كذلك- دليلاً على أن النظام البشري لا يمكن أن يستقيم إذا لم يُراع هذا الأمر.

وعلى حدِّ علمنا فلا يوجد مذهب أو فلسفة حاربت الملكية الشخصية عبر التاريخ إلاَّ المزدكية والشيوعية(٤)، المزدكية التي نشأت في فارس في القرن الخامس للميلاد، والشيوعية

---

(١) للتفصيل انظر: الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٥١.

(٢) عبد الله مختار يونس: الملكية في الشريعة الإسلامية ص٢٨، ٢٩.

(٣) حسيب إلياس حديد: السرقة في القوانين البابلية القديمة، منشور بموقع مركز النور الثقافي (www.alnoor.se) بتاريخ ١٥/ ٣/ ٢٠١٠م.

(٤) ونحن نقصد هنا المذاهب التي استطاعت أن تصنع لنفسها واقعًا على الأرض، ولا يدخل في قصدنا المذاهب والفلسفات التي ظلَّت أفكارًا أو أحلامًا ولم تنجح في إقامة نفسها على الأرض، كما في المدينة الفاضلة لأفلاطون، أو اليوتيوبيا لتوماس مور، وأمثالها.

التي نشأت في أوربا فكريًا من قِبَل ماركس ثم نفَّذها عمليًّا لينين[١] في روسيا. وكلتا التجربتين أفضتا إلى فشل محقَّق؛ فلقد انقرضت المزدكية وانتهت، وكذلك انهارت الشيوعية، حتى الدول التي بقيت منها وما زالت تنتمي إليها تسير في الاقتصاد على احترام الملكيات الخاصة.

حاول مزدك أن يحلَّ المشكلة الإنسانية التي تؤدي بالناس إلى التباغض والتقاتل والاختلاف، «ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال أحلَّ النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيهما»[٢].

وقد بلغ مزدك في هذا الأمر حدًّا فظيعًا، لا سيما وقد وجد في قباذ[٣] ملك الفرس مثل ما وجده ماركس من بعد في لينين، وجده مؤمنًا بمبادئه، فأورد المؤرخون أنه «نكح نساء قباذ لتقتدي به العامة فيفعلون في النساء مثله، فلما بلغ إلى أمِّ أنو شروان (ولي عهد قباذ) قال لقباذ: أخرجها إليَّ فإنك إن منعتني شهوتي لم يتم إيمانك. فَهَمَّ بإخراجها، فجعل أنو شروان يبكي بين يدي مزدك ويُقَبِّل رجله بين يدي أبيه قباذ، ويسأله أن يهب له أُمَّه. فقال قباذ لمزدك: ألست تزعم أن المؤمن لا ينبغي أن يُرَدَّ عن شهوته؟ قال: بلى. قال: فلِمَ تردُّ أنو شروان عن شهوته؟ قال: قد وهبتها له»[٤].

ولم ينسَ أنوشروان هذا الموقف، فما لبث حين اعتلى العرش إلاَّ أن قتل مزدك وقضى على المزدكية، إلاَّ أنه موقف صريح الدلالة في مخالفة المزدكية لفطرة النفس الإنسانية، ليس في موقف أنوشروان وتوسُّله فحسب، بل كذلك في موقف قباذ نفسه الذي استخرج من مبادئ مزدك ما استطاع به أن يُفحمه ويمنعه من إتيان زوجته الأثيرة لديه.

---

(١) لينين: هو فلاديمير أليتش أوليانوف المعروف بـ(لينين) Vladimir Ilyich Lenin (١٨٧٢-١٩٢٤م)، ثوري روسي، كان قائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية، كما أسس المذهب اللينيني السياسي، لينين رفع شعار: «الأرض والخبز والسلام»، من مؤلفاته: (الدولة والثورة).

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ٢٤٨.

(٣) قباذ بن فيروز: من ملوك الساسانيين، حكم ثلاثًا وأربعين سنة (٤٨٨- ٥٣١م)، وحارب مملكة الخزر في مواقع فاصلة، وحارب الروم أيضًا، وكان قد أظهر الزندقة تأثرًا بمزدك.

(٤) ابن الجوزي: تلبيس إبليس ١/ ٦٩.

ولو أن مزدك التزم بمبدئه هذا فَحَرَّم على نفسه وأتباعه أن يقربوا امرأة حين لا يرضى زوجها أو ابنها أو وليُّها لانهارت المزدكية قبل أن تقوم، ولكن -وكما يروي الطبري[1]- «افترص السَّفَلَة ذلك واغتنموه، وكانفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم، فابتُلِيَ الناس بهم، وقوي أمرهم، حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم». وما كان مثل هذا الحال بالذي تحتمله الشعوب، فخرج أشراف الفرس على قباذ وخلعوه من الملك، وولَّوْا مكانه أخاه جاماسب، إلاَّ أنه لجأ إلى الهياطلة -وهم المجاورون لحكمه- فاستجار بهم فأعانوه واستردَّ عرشه بعد ستِّ سنين، ثم كان القضاء التامُّ على المزدكية بيد أنوشروان بن قباذ[2].

كذلك كان إلغاء الملكية الخاصة إحدى الخصائص العامَّة التي قامت عليها الاشتراكية الماركسية؛ لهذا فإنها تحتلُّ المركز الأول في الدساتير الشيوعية باعتبار أن هدم النظام الرأسمالي لا يتمُّ إلاَّ بإلغاء الملكية الفردية لوسائل الإنتاج، وكان هذا المبدأ يُمَثِّل البند الأول[3] في الدستور السوفيتي[4].

وكما نصَّ البند الرابع على إلغاء الملكية الخاصة، فقد عملت المواد ٧، ٨، ٩، ١٠ على تضييق الملكية الخاصة إلى أبعد حدٍّ، فقصرتها على الاستهلاك الشخصي وأدوات العمل والأعمال الزراعية والصناعية الصغيرة والمحدودة، ويُؤَكِّد الدستور السوفيتي على القاعدة الأثيرة «من كلٍّ حسب قدرته، ولكلٍّ حسب عمله».

وكانت الحصيلة التي أنتجها إلغاء الملكية أن «النظام الشيوعي يُضعف الإنتاج بقدر ما يُحرج المنتجين، إنه يوهي العمل والعمال جميعًا؛ لأنه يقتل مبدأ الملكية، ويشلُّ غرائز الكفاح،

(١) الطبري: هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤- ٣١٠هـ= ٨٣٩- ٩٢٣م)، صاحب التفسير الكبير والتاريخ الشهير، كان إمامًا في فنون كثيرة، منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك، وُلِدَ في آمل طبرستان، وتوفي ببغداد. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ١٩١، ١٩٢.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١/ ٤١٩ وما بعدها.

(٣) الصحيح أنه يمثل البند الرابع، كما رجعنا إليه في نصوص الدستور السوفيتي الصادر عام ١٩٣٦م، انظره على هذا الرابط:

(www.departments.bucknell.edu/russian/const/36cons01.html)

(٤) الموسوعة السياسية ٦/ ٣١٠.

التي غرسها الله في دماء الناس»[١].

الشيوعية تُؤَدِّي إلى ضعف العمل وتكاسُل العامل؛ لأنه لا يأخذ بقدر ما أعطى، فيما يرى بجواره مَنْ أخذ ولم يُعْطِ.. هذا المبدأ البسيط هو الذي فسَّر به المؤرخون وعلماء الاجتماع -ممن يقولون بأن الإنسان البدائي كان يعيش في مجتمع شيوعي- اختفاء هذه «الشيوعية البدائية»؛ ذلك أنها لا تستطيع أن تستمرَّ بالحياة.

يعتقد سمنر Sumner أنها -أي الشيوعية البدائية- دلَّت على أنها ليست بيولوجية في اتجاهها؛ لأنها عقبة في سبيل تنازع البقاء، وأنها لم تُحَفِّز الناس بما يكفي لتشجيعهم على الاختراع والنشاط والاقتصاد، وأن عدم مكافأتها للأقدر وعقابها لِمَنْ هو أقلّ قدرة سَوَّى بين الكفايات تسوية تُعاند النموَّ، وتُعارض التنافس الناجح مع سائر الجماعات، وكتب لوسكيل Loskiel عن بعض القبائل الهندية في الشمال الشرقي يقول: «إنهم من الكسل بحيث لا يزرعون شيئًا بأنفسهم، بل يعتمدون كل الاعتماد على احتمال أن غيرهم لن يرفض أن يقاسموه في إنتاجه؛ ولما كان النشيط لا يتمتَّع من ثمار الأرض بأكثر مما يتمتع الخامل، فإن إنتاجهم يقلُّ عامًا بعد عام»[٢].

ولقد حاول محمد على الكبير في مصر - في إطار سعيه لإحكام قبضته على الدولة- أن يسلك قريبًا من هذا، فجرَّد الفلاحين من أملاكهم، وجعلها ملكًا للدولة، وأعطى لهم البذور والماشية ليزرعوا الأرض مقابل أجر معلوم، وكانت تجربة مُصَغَّرة فاشلة للتجربة السوفيتية فيما بعد؛ لأن الفلاح فَقَدَ حافز الربح، ثم أُضيف عليه رقابة صارمة - وكثيرًا ما تكون ظالمة- من الدولة، ثم ضرائب على الأرض وكثيرًا ما تكون باهظة، ما جعل من الظواهر الشائعة في تلك الفترة أن يترك الناس أرضهم وديارهم ويهجرونها هربًا من الفقر وجامعي الضرائب، ثم ما لبث الأمر أن عاد تدريجيًّا إلى الملكية الخاصة في العهود اللاحقة[٣].

(١) محمد الغزالي: الإسلام في وجه الزحف الأحمر ص٧٣.
(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ١/ ٣٣.
(٣) من أكثر الأشياء التي نقدها المؤرخون والمصلحون على سياسة محمد علي الكبير أنه اختزل الوطن في الدولة، وأسس للدولة المركزية القوية التي تقبض على كل شيء بيد من حديد، حتى لا تكاد تترك أي مساحة لحركة الشعوب، يُنظر في هذا تاريخ الجبرتي، وكتابات الشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا.

إلاَّ أننا ينبغي أن نذكر -على الجانب الآخر- أن الإسراف في الملكية -أيضًا- لا يُؤدِّي إلى مصلحة، بل هو يخلق قدرًا من تَرَكُّز الثروة في يد مجموعة من الناس، ثم بحساب تلقائي بسيط تزداد هذه الثروة تركُّزًا في يد مجموعة أقلَّ ثم أقلَّ؛ ذلك أن صاحب الثروة سيمتلك القوَّة؛ ومن ثَمَّ يمتلك النفوذ الذي سيُهَيِّئ له بعد قليل أن يضع النظام والقوانين، التي تجلب له المزيد من الثروة، القوة، النفوذ.. وهكذا في دائرة مغلقة!

هذه الدائرة المغلقة هي التي عَبَّر عنها القرآن الكريم -في معرض الحديث عن توزيع المال على الفقراء والضعفاء والمحتاجين- بقوله: ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧]؛ أي: لئلاَّ يتداوله الأغنياء، ولا ينال أهلَ الحاجة نصيب منه[١]، وهذا مبدأ إغناء الجميع، وتحقيق السيولة للكل[٢].

وهنا نجد أنفسنا في مواجهة الرأسمالية الطاغية، والتي كما قيل بحقٍّ: تزيد الأغنياء غنًى والفقراء فقرًا، وتتسبَّب حركة المال فيها - إذ هي قائمة على الربا والاحتكار- إلى أزمات مالية عاصفة، لن تكون آخرها هذه الأزمة التي أصابت العالم في خريف ٢٠٠٨م وما بعدها، حتى لقد كتب الخبير الاقتصادي الألماني أولريش شيفر في تحليلها كتابه المهم «انهيار الرأسمالية: أسباب إخفاق اقتصاد السوق المحررة من القيود»[٣].

وفيه يُهاجم الكاتب ما آلت إليه «أخلاقيات» الرأسمالية من تفاوت بشع في توزيع الثروة إلى الحدِّ الذي جعل «١١٢٥ فردًا على مستوى العالم، يملكون ثروة تُعادل دخول الأفراد في كلٍّ من الهند، وباكستان، وبنجلاديش، وتايلند، وماليزيا، وفيتنام، والفلبين، والقارة الإفريقية برمتها»، ثم هو لا يرى مِن حلٍّ إلاَّ أن تكون ثمة قيود على التجارات عالية المخاطر، وألاَّ تُترك لظروف السوق، ثم يُؤَكِّد على ضرورة أن تتغيَّر أخلاق المجتمع، وعلى الجميع إدراك أن مبدأ المسئولية الاجتماعية لا يقلُّ أهمية عن مبدأ السوق الحرَّة، وإذا تمَّ تجاهل هذه الحقائق فإن مصير النظام الرأسمالي مُعَرَّض للمصير نفسه الذي آلت إليه الاشتراكية، وهو

---

(١) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ٢٨/ ٨٤.

(٢) وهبة الزحيلي: التفسير المنير ٢٨/ ٨١.

(٣) صدرت ترجمته العربية في سلسلة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير ٢٠١٠م.

الانهيار والاختفاء من الوجود.

إنه لا بُدَّ من أن يكون ثمة قدرٍ من الشيوع، لا سيما في الأشياء التي تعود بالنفع على المجموع، أو التي يُلْحِق غيابها ضررًا كبيرًا بحياة الإنسان؛ لذا جاء حديث النبي ﷺ: «المُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ: المَاءِ، وَالْكَلَإِ، وَالنَّارِ»[(١)].

واعتمادًا على هذا الحديث فَرَّق العلماء بين حالات:

١- الأنهار العظيمة أو العامة كالنيل ودجلة والفرات (وتدخل البحار الكبرى باعتبارها موارد مائية في هذا التقسيم)، فهذه ملكية عامة للدولة.

٢- الأنهار العامَّة التي لم يحفرها أحد، ولكنها ليست كبيرة كالنيل والفرات؛ بحيث تكفي جميع الناس، فالأحقُّ بالانتفاع منها الأقرب فالأقرب، وهكذا.

٣- الأنهار التي أنشأها واحد أو مجموعة من الناس، فهو (أو هم) صاحب الحقِّ في الانتفاع به قبل غيره، ولكن لا يَمْنَع العطشى والدوابَّ من الشراب، إلاَّ إذا خيف على فساد النهر من كثرة الدوابِّ، أو كان الماء لا يكفيه.

٤- الأنهار في الأرض المملوكة، وخلاصة ما فيها أنها من حقِّ صاحب الأرض، وله أن يبيع منها الماء للمسافرين وأصحاب الحاجات، إلاَّ أن يكون صاحب الحاجة يُخشى عليه الهلاك، وليس معه ثمن، فحينئذٍ لا يجوز له أن يمنعه من الماء، كما لا يجوز أن يشْتَطَّ في الثمن، وهذا أدنى المواقف الفقهية، فمن العلماء مَنْ قال بأنه لا يجوز له أن يمنع فضل الماء مطلقًا[(٢)].

وما يُقال على الماء يُقال -أيضًا- على الكلأ -وهو العشب رطبه ويابسه[(٣)]- ويُقال -

---

(١) رواه أبو داود (٣٤٧٧) وابن ماجه (٢٤٧٢) وأحمد (٢٣١٣٢) وصححه الألباني في التعليق على سنن أبي داود وسنن ابن ماجه، وصحح إسناده الشيخ شعيب الأرناءوط في التعليق على مسند أحمد.

(٢) انظر في تفصيل هذا: ابن عبد البر: التمهيد ١٩/ ١ وما بعدها، والمباركفوري: تحفة الأحوذي ٤/ ٤٠٩، والصنعاني: سبل الإسلام ٣/ ٨٦ وما بعدها، وقال بالإجماع في هذا، البغوي: شرح السنة ٨/ ٢٧٩، والعظيم آبادي: عون المعبود ٩/ ٢٦٨، وابن حجر: فتح الباري ٥/ ٣٢ وما بعدها، المناوي: فيض القدير ٣/ ٤١٢وأيضًا ٦/ ٣٥٣، وانظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٤١/ ٣٨٥ وما بعدها. وفي كتب الفقه المذهبي المطولة تفاصيل أخرى وخلافات تدور في مجملها حول المصلحة والموازنة بين الحق الخاص والنفع العام.

(٣) المعجم الوسيط ٢/ ٧٩٤.

أيضًا- على النار التي هي الوقود بمصطلحات عصرنا الحديث.

وجاء من الوعيد الشديد في أمر استغلال حقِّ الملكية قوله ﷺ: «**ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِطَرِيقٍ يَمْنَعُ مِنْهُ ابْنَ السَّبِيلِ**»... الحديث[١]. وفي رواية مسلم[٢] ذَكَر مَنْ يمنع الماء في الفلاة؛ أي: في الصحراء، وفي رواية أخرى عند البخاري[٣]: «**فَيَقُولُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْيَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي؛ كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ**»[٤].

وعلى هذا فالمنهج القويم في معالجة هذه الغريزة - غريزة التملُّك- يكون بضبطها وتهذيبها، لا بنفيها وإقصائها كما فعلت المزدكية والشيوعية، ولا بإشباعها إلى الحدِّ الذي تتضخَّم فيه وتصير وحشًا نهمًا يأكل حقوق الناس كما فعلت المناهج والفلسفات الملكية المستبدَّة؛ كالفرعونية، والبرهمية، وأنظمة الإقطاع، وأخيرًا الرأسمالية.

***

«النظام الإسلامي نظام يُبيح الملكية الفردية، ولكنه ليس هو النظام الرأسمالي، كما أن النظام الرأسمالي ليس منقولاً عنه، فما يقوم النظام الرأسمالي إطلاقًا بدون ربًا وبدون احتكار، إنما هو نظام خاص من لدن حكيم خبير، نشأ وحده، وسار وحده، وبقي حتى اليوم وحده، نظامًا فريدًا متوازن الجوانب، متعادل الحقوق والواجبات، متناسقًا تناسق الكون كله، مذ كان صدوره عن خالق الكون، والكون متناسق موزون!»[٥].

---

(١) البخاري: كتاب الشهادات، باب اليمين بعد العصر (٢٥٢٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة... (١٠٨).

(٢) مسلم: هو مسلم بن الحجاج، الإمام الحافظ حجة الإسلام أبو الحسين القشيري النيسابوري، يقال: وُلد سنة ٢٠٤هـ، وهو صاحب الصحيح الذي هو تلو صحيح البخاري عند أكثر العلماء، توفي سنة ٢٦١هـ بنيسابور. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٣، والذهبي: تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٨٨.

(٣) البخاري: هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤- ٢٥٦هـ= ٨١٠- ٨٦٩م)، شيخ الإسلام، وإمام الحفاظ، وُلد في بخارى ونشأ يتيمًا، رحل كثيرًا في طلب العلم والحديث الشريف، توفي في منفاه سمرقند، أشهر كتبه: صحيح البخاري، والأدب المفرد. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ١٠٤، ١٠٥، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٤، ٢٥.

(٤) البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢، ٢٣) (٧٠٠٨).

(٥) سيد قطب: في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٢٥.

الكرامـــــة

طبيعة الإنسان تأبى أن تُنتهك حرماته، أو تُصادر ممتلكاته، أو تُغتصب أرضه، أو يُطرد من بيته وموطنه، أو يتعرَّض جسده للتعذيب والامتهان في غياهب السجون والمعتقلات، أو يعترَّضه أحد بظلم أو عدوان؛ لذلك لا يختلف اثنان - مهما اختلف طبعهم ولونهم وعقيدتهم- على أن كرامة الإنسان هي أعزُّ ما يملكه.

كرامة الإنسان والحضارات:

المقرَّر أن طبيعة البشر واحدة؛ فهم من أصل واحد ومن أب واحد، لا اختلاف بينهم إلاَّ باختلاف اللون والجنس والدين، ومن هنا فكلُّ ما يتَّصل بفطرة الإنسان، هو مما تتوافق عليه الإنسانية كلها، وكان أول ذلك كرامته وما يتصل بشخصه وعزَّته؛ فكرامة الإنسان هي سرُّ وجوده في هذا الكون، كما هي سرُّ حياته وإنتاجه وإبداعه، وأساس كرامة الإنسان هي حماية حقوقه وممتلكاته، وعدم المساس بها أو الانتقاص منها؛ لأنها جزء لا يتجزَّأ من طبعه وخَلقه وخُلقه.

فكرامة الإنسان هي حياته، فهل ينعم الإنسان بحياة مليئة بالظلم والاضطهاد، وسلب الحريات والحقوق؟! والكرامة الإنسانية هي الحرية والأمن والعدل والمساواة؛ إذ إن الكرامة هي أساس ومصدر حقوق الإنسان، والحرية هي المظهر الخارجي لهذه الكرامة، فلا كرامة للإنسان إلاَّ بالحرية، والمساواة تكون بين الناس في تمتُّعهم بالحقوق المقرَّرة لهم، وإقامة العدل تُحقِّق المساواة بين الناس، والمساواة هي قمة العدل[1]، وكل ذلك يُوَفِّر الأمن أو ينفيه.

ولا تتحقَّق للإنسان هذه الكرامة إلاَّ من خلال تعامله مع غيره من بني البشر؛ فالكرامة هي خلاصة العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وذلك من خلال تعاملاته الاجتماعية

---

(١) محمد بن أحمد بن صالح الصالح: حقوق الإنسان في القرآن والسنة وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية ص٢٩.

والاقتصادية والسياسية.. وغيرها، فكل إنسان لا يرضى في معاملاته أن تُنتهك حرماته، بل يجب أن تُحفظ كرامته وتُصان عزَّته، وإلا لماذا اندلعت الحروب وظهرت النزاعات؟! أليس ذلك بعد أن انتُهكت الحقوق ونُزعت كرامة الإنسان، أمام أصحاب المطامع الشخصية، والنزعات الفردية؛ لذلك فاحترام الكرامة الإنسانية شيء ثابت ومقرَّر لدى الحضارات الإنسانية كلها.

وكرامة الإنسان حقٌّ مكفول له، وليست مِنَّة لأحد على أحد؛ فالبشر سواء في التمتُّع بها واستحقاقها، والاعتزاز بامتلاكها، يتَّفق في ذلك جميع شعوب العالم، مع اختلاف ثقافاتهم وحضاراتهم وموروثاتهم الاجتماعية والثقافية، فليس من معتَقَدٍ من المعتقدات أو حضارة من الحضارات أو ثقافة شعب من الشعوب تجعل كرامة البشر على هامش مبادئها وتقاليدها؛ إذ لا حضارة بلا كرامة.

ولا نقول هذا الكلام عبثًا، بل هو ما قرَّرته مبادئ معظم المعتقدات الدينية، التي أعلنها أصحابها، والتي تُعَبِّر عن فكر وثقافة العديد من الحضارات القديمة، التي ما زالت آثارها شاهدة عليها، فأقدم الوثائق القانونية -التي عُثِرَ عليها حتى الآن- كانت من نصيب حضارة بلاد الرافدين، والتي قدَّمها (أوركاجينا[١])، والذي كانت له مآثر تُشير إلى إصلاحاته، وجَبِّ الضرائب، وإزالة الظلم عن الطبقات الفقيرة، والتحكيم بالعدل بين الناس جميعًا[٢].

كما أن أقدم وثيقة أكَّدت على احترام الإنسان -بشكل واضح- وصون كرامته، وحفظ حقوقه، ما جاء في شريعة حمورابي (١٧٢٨ق. م-١٦٨٦ق. م)، التي تتَّجه بشكل عامٍّ نحو تحقيق العدالة بين الناس، ففيها أحكام صارمة لحماية الضعيف من ظلم القوي، كما حدَّد أجور كثير من الأعمال، ووضع أجرًا رسميًّا للعامل أكثر مما كان يتقاضاه سابقًا، كما أقرَّ بعض الحقوق للرقيق، خاصَّة فيما يتعلَّق بالزواج والميراث، وممارسة التجارة والعمل، فله أن يتزوَّج من طبقته، أو حتى من طبقة الأحرار[٣].

---

(١) الملك أوركاجينا: من أشهر ملوك العراق، هو أحد ملوك سلالة لكش الأولى، وصاحب أكبر إصلاح اقتصادي واجتماعي في التاريخ، يرجع تاريخ تلك الإصلاحات إلى ٢٣٥٥ق. م.

(٢) كامل سعفان: معتقدات آسيوية ص٧٠، ٧١، بتصرف.

(٣) شعيب أحمد الحمداني: قانون حمورابي ص٣٥، ٣٦.

وقد تضمَّنت تعاليم الملك حمورابي مجموعة من المواد التي استهدفت حفظ حقوق الإنسان وصونه والدفاع عنه، فقد بحث في الجرائم التي تمسُّ العدالة، وأيضًا عقود الزراعة والعارية المضمونة برهن وفي عقود المزارعة، وفي الوديعة وفي جرائم الإيذاء، وتحدَّث عن مسئولية حارس الحيوان، وعن مسئولية أصحاب المهن الحرة؛ كالأطباء والمهندسين والبحارة، وقد اعترف بالملكية الفردية، كما أنه اعترف بحرية التعاقد، وبأهلية المرأة قانونيًّا للتصرُّف، لقد حمى هذا القانون الضعيف ضدَّ القوي، كما سادت فيه رُوح العدالة والديمقراطية، وقد جاء خاليًا من الأحكام الدينية(١).

إن معنى العدالة السابق هو نفسه ما أكَّدته مبادئ الحضارات الأخرى، فقد وُجِدَتْ نقوش على قبر الملك الفارسي الشهير (دارا) الأكبر، تُحَدِّد المثل الأعلى للسلوك، والرغبة في أن تسود العدالة، وفي ذلك يقول: «لقد أحببت الصواب، وأما الخطأ فلم أحبه، وكانت إرادتي عدم ارتكاب أي ظلم ضد أية أرملة أو يتيم، ولم تكن إرادتي أن يحيق ظلم باليتامى أو الأرامل، ولقد عاقبتُ الكاذب عقابًا صارمًا، وأما الذي يكدُّ فإني كافأته مكافأة حسنة». وكان نصُّ القانون يُحَرِّم على أي إنسان حتى الملك نفسه أن يحكم على إنسان بالقتل عقابًا على جريمة صغرى، لكنه يحلُّ القتل عقابًا على خيانة الوطن، أو هتك العرض، أو اللواط أو القتل أو الاستمناء، أو حرق الموتى، أو دفنهم سرًّا(٢).

كما أن الإله «رع» عند المصريين القدماء يُمَثِّل الشمس، وقد ارتبطت فكرة العدالة واحترام الإنسان باسمه، ونظر المصريون إلى الإلهة ماعت «ربَّة العدالة والحقيقة والتوافق» على أنها ابنته(٣).

وهذا المعنى نفسه هو ما أكَّدته التعاليم الكونفوشية، التي تُعَدُّ أشهر المعتقدات الصينية، والتي كان لها عظيم الأثر في تكوين الحضارة الصينية؛ وذلك من خلال تعاليم الفيلسوف الصيني الشهير كونفوشيوس، والتي تُعَبِّر عن مدى حُبِّه للجنس البشري، ودفاعه عن

---

(١) أميرة أبو مراد: تاريخ القانون ص١٠، ١١.

(٢) كامل سعفان: معتقدات آسيوية ص٩٨-١٠٠.

(٣) جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص٣٩.

حقوقه، وتدعو -كذلك- إلى الاحترام المتبادل بين الناس، ونشر الأخلاق السامية والحميدة في الأرض.

يقول كونفوشيوس: «حيثما يذهب المرء عليه أن يُعامل كافَّة الناس كما لو كان يستقبل ضيفًا هامًّا، وإذا صار موظفًا في الحكومة وجب أن يتعامل مع الناس كما لو كان يُقَدِّم قربانًا عظيمًا». ويقول: «الرجل الفاضل حقًّا هو مَنْ يرغب في تثبيت أقدام الناس كما يرغب في تثبيت قدميه، يُريد لنفسه النجاح ويكافح ليساعد الآخرين لينجحوا، ويجد في أمنيات قلبه المبدأ لسلوكه تجاه الغير في منهج من الفضيلة الحقيقية»(١).

وقد سأله أحد تلامذته: كيف يجعل الحاكم رعاياه يُجِلُّونه ويثقون به، ويتواصون بالخير فيما بينهم؟ فأجاب كونفوشيوس: «إذا قابلهم بالسمت(٢) والوقار أجُلوه، وإذا كان بارًّا بوالديه، شفيقًا على قومه أخلصوا له، وإذا رفع الصالحين وأعان العاجزين تواصوا بالخير»(٣).

وحينما انتشرت الزرادشتية في بلاد فارس وأصبحت الديانة الأولى، جعلت عدم احترام الآخرين والعادات السيئة من الخطايا! في حين أن استمتاع المرء ذاته بالحياة، ومساعدة الآخرين على أن يفعلوا ذلك مسألة أساسية في الدين، ولا بُدَّ للزرادشتي أن يسلك باعتدال في كل ما يفعله؛ سواء أكان رجلاً أم امرأة، فبذلك يقضي التشريع الزرادشتي (٤).

وأما عن العرب فعلى الرغم من أنهم عاشوا في جاهليتهم قبل الإسلام حياة السطو والقتل والربا ووأْد البنات، وانتشار الفواحش والمنكرات، إلاَّ أن التاريخ حفظ لنا بعضًا من المواثيق التي تدلُّ على أنهم تمسَّكُوا بمبادئ الكرامة والعزَّة ونصرة المظلوم، ومن هذه المواثيق ما يُعرف بحلف المطيبين، الذي تمَّ عقده إثر النزاع بين بني عبد الدار وبني أعمامهم من بني

---

(١) كامل سعفان: معتقدات آسيوية ص٢٧١.

(٢) السمت: حسن السيرة. وهو تهيئة وتحسين وجه الكلام والرأي والعمل. ابن منظور: لسان العرب، مادة سمت ٢/ ٤٦، والمعجم الوسيط ١/ ٤٤٧.

(٣) كامل سعفان: معتقدات آسيوية ص٢٧٥.

(٤) جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص٩٤.

عبد مناف، على أن لا يتخاذلوا ولا يُسلم بعضهم بعضًا[(١)].

ومن أشهر الأحلاف في تاريخ العرب ما يُعرف (بحلف الفضول)، وهو أكرم حلف سُمع به وأشرفه في العرب، وهو حلف فريد من نوعه في تاريخ البشرية؛ فهو ليس حلفًا ضدَّ عدوٍّ للمتحالفين، ولا موجَّهًا ضد طرف معين يخشون منه، أو عدو معروف بذاته، بل إنه حلف إنساني ضد الظالم، وإن كان مِن بين المتحالفين أنفسهم، ومكان تطبيقه مكة المكرمة، فإذا ظُلِمَ أحد مواطنيها أو أجنبي دخل مكة، وظلم من قِبَلِ سكان مكة أو من قِبَلِ أجنبي، فإن على كل مواطن في مكة أن يهبَّ لمساعدة المظلوم وأَخْذِ حقِّه من الظالم... وهو دليل على المستوى الإنساني الرفيع الذي كان عليه مجتمع مكة[(٢)]، فالعرب في هذه الأحلاف ارتفعوا بإنسانيتهم فوق الجميع، فهم يُدافعون عن الإنسان -أي إنسان- مهما اختلف جنسه ولونه، حرًّا كان أم عبدًا، فهم مع المظلوم وضد الظالم، حتى لو كان الظالم زعيم مكة كلها، والمظلوم أقلَّ عبد فيها.

بل إن هناك حضارات -بعينها- عُرفت بحفظ كرامة الإنسان بعد مماته؛ كالحضارة المصرية القديمة، وما نبوغهم في هندسة بناء الأهرامات والمقابر عمومًا، إلا مجرَّد دليل واحد يقطع بصحة ذلك[(٣)]، كما أن معتقداتهم الدينية توجب على المصريين الاهتمام الشديد بالاحتفال بدفن الموتى؛ إذ اعتقدوا أن سعادة الشخص الميت في المستقبل تتوقَّف على هذا الاحتفال، وعلى المعتقدات المرتبطة بالطقوس، وكان الميت يُدفن دائمًا ولا تُحرق جثته أبدًا[(٤)].

كرامة الإنسان في الشرائع السماوية:

يبدو واضحًا أن من أعظم الحقائق التي أنزل الله ﷻ من أجلها الشرائع السماوية الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلامية) هي الحفاظ على كرامة الإنسان، وضمان حقوقه وحرياته، وَفق تشريعات إلهية جعلت كرامة الإنسان جزءًا لا يتجزأ من الإيمان بها والتصديق بمبادئها؛

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٢٦٢، وابن كثير: السيرة النبوية ١/ ١٠١، والسهيلي: الروض الأنف ٢/ ٤٢.
(٢) سهيل حسن الفتلاوي: حقوق الإنسان في الإسلام ص١٢، ١٣.
(٣) أحمد الرشيدي: حقوق الإنسان.. دراسة مقارنة في النظرية والتطبيق ص٥٦.
(٤) جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص٤٤، ٤٥.

لذلك تعدَّدت النصوص وكثرت النداءات السماوية في هذه الشرائع، التي تُقَدِّر كرامة الإنسان وتحفظ حقوقه.

فبداية من اليهودية نجد أن القوم الذين أُهدرت كرامتهم لا يمكن أن يقوموا بأمر الدين؛ ولذلك فإن المهمة الأولى لموسى عليه السلام -وقبل أن تنزل عليه التوراة- هي أن يُخْرِجَ اليهود من بيت العبودية إلى تحقيق الكرامة والحرية، فإذا تَمَّ له ذلك نزلت عليهم بعد ذلك التوراة، وصاروا مُؤَهَّلين لحمل الأمانة، أما قبل تحقُّق الكرامة فهذا مستحيل؛ لذلك يمتنُّ الله عليهم بذلك في التوراة كثيرًا، مثل قوله: «أخرجكم الرَّبُّ بيدٍ شديدةٍ، وفداكم من بيت العبوديَّة من يد فرعون ملك مصر»[1].

وهذا المعنى الذي رأيناه في قصة موسى عليه السلام رأيناه كذلك في قصة محمد رسول الله ﷺ؛ فالمجتمع الجاهلي قبل الإسلام شهد إهدارًا كبيرًا لكرامة الإنسان، فقد كانت الأحوال متردِّية ساقطة هابطة في العالم الإنساني بأسره، وقد عمَّ الفساد كل جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية على السواء، وباتت الدنيا في ظلام دامس، لا يحكمها إلاَّ الجهل، الذي أغرقها في بحر متلاطم من الخرافات والأوهام، ولا يُسَيِّرُها إلاَّ الشهوات والأطماع؛ فعبد الناس الأحجار والشمس والقمر والنار حتى الحيوان، وانقسموا إلى سادة وعبيد، وقد أكلوا مال اليتيم، وقطعوا الأرحام، وقامت معاملاتهم على القتل والسلب والنهب، كما افتخروا باقتراف الفواحش والآثام.. فليس هناك شريعة تحكم، اللهم إلاَّ شريعة الغاب؛ فالقوي يأكل ويُفْنِي الضعيف، والغني يستعبد الفقير، والكلُّ في ظلام لا يجدون معه نهاية ولا مخرجًا!

وقد أنتج ذلك كلُّه إنسانًا حائرًا ضائعًا، ليس في قلبه إلاَّ الخوف والجزع، وليس في عقله إلاَّ الخواء والخرافات.. وكان هذا هو حال إنسان ما قبل شريعة الإسلام[2]!

في هذا الجوِّ المفعم بالاستعباد والاستبداد أرسل الله رسوله محمدًا ﷺ فأعاد إلى الإنسانية كرامتها المهدرة، وشرفها الضائع، وردَّ إليها اعتبارها وقيمتها، وأعلن أن الإنسان أعزُّ مخلوق

---

(١) سفر التثنية ٧/ ٨.

(٢) وللمزيد انظر: راغب السرجاني: ماذا قدم المسلمون للعالم، فصل: (الحضارات العالمية عند ظهور الإسلام)، ١/ ١٧-٣٦.

في الكون، وأغلى جوهر في العالم، وكان الشعار العام الذي رفعه القرآن -رسالة الله إلى العالمين- واضحًا جليًّا: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠][١].

لقد ضمن الإسلام كرامة الإنسان من خلال تشريعاته، وجعل هذه التشريعات جزءًا من عقيدة المسلم، لا يكتمل إيمانه إلاَّ بها، وربط كل ذلك بالثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، فلا يحيف أحد عنها إلاَّ بقدر ما يحيف عن دينه وعقيدته، فليس في الإسلام فضل لأحد على أحد؛ فتعاليم الإسلام تكفل للإنسان -أي إنسان- حقوقه، مهما اختلف لونه وطبعه وجنسه ودينه، قال رسول الله ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلاَ لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلاَّ بِالتَّقْوَى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٢] أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟**» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**فَيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ**»[٣].

والتاريخ شاهد على أن أول من رفع الأذان فوق الكعبة عند فتح مكة، ليس شريفًا من شرفاء مكة أو المدينة أو عظيمًا من عظماء القريتين -مكة أو الطائف- بل بلال بن رباح[٤] العبد الحبشي أسود اللون؛ لكنه بالإسلام فاق عظماء قريش وسادة مكة.

بل إن هذه الكرامة محفوظة لغير المسلمين في الدولة الإسلامية؛ لأنَّ لهم حقَّ الإنسانية، والتعايش السلمي، وقد وردت النصوص تُنذر بالويل لمن يتعدَّى على حقوق المعاهدين من أهل الكتاب وغيرهم من أصحاب الملل المختلفة، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**»[٥].

---

(١) عدنان سعد الدين: البعد الإنساني في الرسالة الإسلامية ص٢٧.

(٢) (الحجرات: ١٣).

(٣) أحمد (٢٣٥٣٦)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والبيهقي: شعب الإيمان (٥١٣٧) واللفظ له، والطبراني: المعجم الكبير (١٤٤٤٤)، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد ٣/ ٢٦٦، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠).

(٤) بلال بن رباح: صحابي، كان عبدًا وأعتقه الصديق، وهو من السابقين إلى الإسلام، وهو مؤذن رسول الله ﷺ، وشهد سائر المشاهد مع رسول الله ﷺ، وأُوذِي كثيرًا في مكة، وكان يُطاف به في شعاب مكة وهو يقول: «أحد أحد». مات بدمشق ٢٠هـ وهو ابن ٦٣ سنة. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ٢٥٨، وابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٢٨٣.

(٥) البخاري: أبواب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم (٢٩٩٥) عن عبد الله بن عمرو، وأبو داود (٢٧٦٠)، والنسائي (٤٧٤٧).

وكانت سيرة النبي ﷺ خير دليل على تقديره للكرامة الإنسانية، يحكي الصحابي الجليل أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ فيقول: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلاَمًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خلفي: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ**». فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ. قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ الله ﷺ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ**». قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي فَقَالَ: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلاَمِ**». قَالَ: فَقُلْتُ: لاَ أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا[١].

وما أعظم تربية الرسول ﷺ للصحابي الجليل أبي ذرٍّ الغفاري[٢]، فقد رآه أحد أصحابه وعليه حُلَّة وعلى غلامه حلة، فسُئِل عن ذلك، فقال: إني ساببت رجلاً فشكاني إلى النبي ﷺ، فقال لي النبي ﷺ: «**أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ**». ثم قال: «**إِنَّ إِخْوَانَكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**»[٣].

أما عن معالجة الإسلام لقضية الأسرى فقد جاء التوصيف الإلهي من عند الله لعباده المؤمنين: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا**﴾ [الإنسان: ٨، ٩]. وعن أبي موسى[٤] ﷺ قال: قال رسول الله: «**فُكُّوا الْعَانِيَ -يَعْنِي الأَسِيرَ- وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ وَعُودُوا الْمَرِيضَ**»[٥]. وعن أبي هريرة[٦] ﷺ أنه قال: خرجتْ خيل لرسول الله ﷺ فأخذت رجلاً من بني حنيفة لا يشعرون مَنْ هو، حتى

---

(١) مسلم: كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده (١٦٥٩)، وأحمد (٢٢٤٠٨)، والبيهقي (١٥٥٧٢).

(٢) أبو ذر الغفاري: هو جندب بن جنادة، صحابي، (ت ٣٢هـ بالربذة)، كان خامس خمسة في الإسلام، وكان يفتي في خلافة أبي بكر، وعمر، وعثمان، وشهد فتح بيت المقدس مع عمر، قال النبي ﷺ: «مَا أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ أَصْدَقَ لَهْجَةً مِنْ أَبِي ذَرٍّ». الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٦-٧٨.

(٣) البخاري: كتاب العتق، باب قول النبي ﷺ: «الْعَبِيدُ إِخْوَانُكُمْ فَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ». (٢٤٠٧)، ومسلم: كتاب الأيمان والنذور، باب إطعام المملوك مما يأكل (١٦٦١).

(٤) أبو موسى الأشعري: هو أبو موسى عبد الله بن قيس بن سليم، صحابي، ولد باليمن وقدم مكة، فأسلم، ثم عاد إلى اليمن داعيًا إلى الإسلام، استعمله رسول الله ﷺ وعمر في خلافته، قال له النبي: «لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ». توفي سنة ٥٢ أو ٤٢ ودفن بمكة، وقيل بالكوفة. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٣٧٦.

(٥) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير (٢٨٨١)، وأحمد (١٩٦٥٨)، والدارمي (٢٤٦٥).

(٦) أبو هريرة الدوسي: صاحب رسول الله ﷺ وأكثرهم حديثًا عنه، وهو دوسي من دوس، أسلم عام خيبر، وشهدها مع رسول الله ﷺ، ثم لزمه، وواظب عليه رغبة في العلم، توفي سنة ٥٧ وقيل: ٥٨ أو ٥٩هـ، وهو ابن ثمان وسبعين سنة. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٤/ ١٧٦٨-١٧٧٢، وابن الأثير: أسد الغابة ٦/ ٣٣٦-٣٣٩.

أَتَوْا به رسول الله ﷺ، فقال: «أَتَدْرُونَ مَنْ أَخَذْتُمْ؟ هَذَا ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ الْحَنَفِيُّ، أَحْسِنُوا إِسَارَهُ». ولما رجع رسول الله ﷺ إلى أهله، قال: «اجْمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَكُمْ مِنْ طَعَامٍ فَابْعَثُوا بِهِ إِلَيْهِ»[(١)]. وأمام هذا المنهج النبوي الرائع ما كان من ثمامة[(٢)] إلاَّ أن أسلم وأصبح من الدعاة إلى الإسلام، وهذا أبو عزيز بن عمير وهو من أسرى غزوة بدر يحكي فيقول: وكنتُ في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدَّموا غداءهم وعشاءهم خصُّوني بالخبز، وأكلوا التمر؛ لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلاَّ نفحني بها. قال: فأستحيي فأردُّها على أحدهم فيردُّها عليَّ ما يمسُّها[(٣)].

والقرآن الكريم يَعُدُّ إزهاق الرُّوح جريمة ضد الإنسانية كلها، ويعُدُّ نجاتها من الهلاك نعمة على الإنسانية كلها؛ قال تعالى: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢][(٤)]. وقد جاءت لفظة ﴿نفس﴾ في الآية الكريمة نكرة؛ أي لعموم الناس جميعًا، وقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ»[(٥)].

وروى مسلم في صحيحه أن سهل بن حنيف[(٦)] وقيس بن سعد بن عبادة[(٧)] كانا بالقادسية،

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٦/ ٥١.

(٢) ثمامة بن أثال: هو أبو أمامة ثمامة بن أثال بن النعمان بن مسلمة الحنفي، صحابي، أسره الرسول ﷺ، ثم أعلن إسلامه، وقاطع قريشًا اقتصاديًّا، وثبت على إسلامه لما ارتدت اليمامة، ولحق بالعلاء بن الحضرمي في قتال المرتدين بالبحرين، وهناك قُتل. انظر: ابن حجر: الإصابة ١/ ٤١٠- ٤١١.

(٣) السهيلي: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ٥/ ١١٨.

(٤) محمد الغزالي: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة ص٣٨، ٣٩.

(٥) البخاري: كتاب الحدود، باب ظهر المؤمن حمى إلا في حد أو حق (٦٤٠٣)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩) عن أبي بكرة واللفظ له.

(٦) سهل بن حنيف: هو سهل بن حنيف بن واهب، صحابي، شهد بدرًا وكل المشاهد مع رسول الله ﷺ، استخلفه عليُّ بن أبي طالب حين خرج من المدينة إلى البصرة، كما شهد مع علي صِفِّين وولاه على فارس، مات بالكوفة سنة ٣٨هـ. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ٢٢٣، وابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٣٣٥.

(٧) قيس بن سعد بن عبادة: صحابي، أحد دهاة العرب وأهل الرأي والمكيدة في الحروب، وكان شريف قومه، وكان من النبي ﷺ بمكان صاحب الشرطة من الأمير، وقد أعطاه الرسول الراية يوم فتح مكة، ومات بها سنة ٥٩ أو ٦٠ هـ. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ٣٥٠، وابن الأثير: أسد الغابة ٤/ ٢٧٢.

فمُرَّ عليهما بجنازة فقامَا، فقيل لهما: إنها من أهل الأرض[١]. فقالاَ: مُرَّ على رسول الله ﷺ بجنازة فقام، فقيل له: إنه يهودي. فقال: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا»[٢]. فما أعظم تربية رسول الله ﷺ لصحابته الكرام على حفظ كرامة الإنسان! ليس مع المسلمين فقط؛ بل مع اليهود والمجوس أيضًا.

وتظهر عظمة التشريع الإسلامي في ذلك من خلال ما سَنَّه رسول الله محمد ﷺ في تعامله مع هذا الجسد الهامد، ويبدأ ذلك بغُسله؛ فقد جعل الإسلام غُسل الميت فرض كفاية، وجعل في ذلك أجرًا عظيمًا ومحفزًا كبيرًا للثواب في الدنيا والآخرة، كما جعل الإسلام من كرامة الإنسان بعد موته تكفينه وحمله والصلاة عليه ودفنه، قال رسول الله ﷺ:«مَنْ غَسَّلَ مَيِّتًا فَكَتَمَ عَلَيْهِ غَفَرَ اللهُ لَهُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً، وَمَنْ كَفَّنَ مَيِّتًا كَسَاهُ اللهُ مِنَ السُّنْدُسِ وَإِسْتَبْرَقِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ حَفَرَ لِمَيِّتٍ قَبْرًا فَأَجَنَّهُ فِيهِ أُجْرِيَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ كَأَجْرِ مَسْكَنٍ أَسْكَنَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٣]. وقد جعل الإسلام من كرامة الميت عدم إفشاء ستره وأسراره؛ لقول رسول الله ﷺ:«مَنْ غَسَّلَ مَيِّتًا فَسَتَرَهُ سَتَرَهُ اللهُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَمَنْ كَفَّنَهُ كَسَاهُ اللهُ مِنَ السُّنْدُسِ»[٤].

وقد جعل الإسلام من كرامة الإنسان بعد موته زيارته والدعاء له، قال رسول الله ﷺ: «إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى الْمَيِّتِ فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ»[٥]. ومن مظاهر تكريم الميت النهي عن إيذائه بأي وجه من الوجوه؛ كالصراخ والعويل والنياحة، وإقامة المآتم والولائم، وهذا ما يُرهق كاهل أهل الميت، وقد نهى الإسلام عن سبِّ الأموات، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «لاَ تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ فَتُؤْذُوا الأَحْيَاءَ»[٦].

---

(١) من أهل الأرض؛ أي: من أهل الذمة، وقيل لأهل الذمة: أهل الأرض. لأن المسلمين لما فتحوا البلاد أقرُّوهم على عمل الأرض وحَمْل الخراج. وقيل: معناه جنازة كافر من أهل تلك الأرض؛ أي من المجوس. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٣/ ١٨٠، والنووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٧/ ٣٠.

(٢) البخاري: كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي (١٢٥٠)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة، (٩٦١)، واللفظ له.

(٣) الحاكم: كتاب الجنائز (١٣٠٧)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. والطبراني: المعجم الكبير (٩٢٩) ١/ ٢٩٦، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٣ / ١١٤، وصححه الألباني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٣٤٩٢).

(٤) الطبراني: المعجم الكبير (٨٠٩٣)، ٨/ ٢٨١، وحسنه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٣٥٣).

(٥) أبو داود: كتاب الجنائز، باب الدعاء للميت، (٣١٩٩) عن أبي هريرة، وابن ماجه (١٤٩٧)، وابن حبان (٣٠٧٦)، والبيهقي (٧٢١٥)، وقال الألباني: حسن. انظر: صحيح الجامع (٦٦٩).

(٦) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشتم، (١٩٨٢)، وأحمد (١٨٢٣٤) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وابن حبان (٣٠٢٢)، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٨ / ١٤٥، قال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٧٣١٢).

ويبلغ الإسلام مداه في ذلك من حيث تكريم الميت، وهو ينهى عن القعود على قبره؛ لقول النبي ﷺ: «لأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَى جَمْرَةٍ فَتُحْرِقَ ثِيَابَهُ فَتَخْلُصَ إِلَى جِلْدِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى قَبْرٍ[(١)]»[(٢)].

كرامة الإنسان والتواصل بين الشعوب:

بعد أن استعرضنا في الصفحات السابقة موقف الحضارات والمعتقدات من الكرامة الإنسانية، وبَيَّنَّا كيف كان تقديرها لكرامة الإنسان؛ فقد نَصَّت على ذلك مبادئها ومعتقداتها، ما يجعلها مشتركًا إنسانيًّا عامًّا تتلاقى عليه الشعوب وتتواصل من خلاله الحضارات، وهذا من جانبه يُعَزِّز روح التفاهم والمشاركة بين تلك الشعوب والأمم، وخاصة في أوقات الحروب والنزاعات وتداخل المصالح الشخصية، وقد دلَّت المواثيق الدولية في العصر الحديث على أهمية مبدأ الكرامة؛ كوسيلة مهمة تُحَقِّق التواصل بين الشعوب، وأول هذه المواثيق هو توقيع ميثاق الأمم المتحدة في ٢٦ يونيه ١٩٤٥م في سان فرانسيسكو في ختام مؤتمر الأمم المتحدة الخاص بنظام الهيئة الدولية، وأصبح نافذًا في ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥م[(٣)].

وإذا كانت كرامة الإنسان هي حياته وإنسانيته، فإن الاعتداء عليها هو اعتداء على شرفه وبشريته، وهو ما لا يرضاه إنسان كامل الإنسانية لنفسه أو لشعبه، وإن هذا الاعتداء من جانبه يُورث الكراهية والعداوة أبدًا، حتى تُرَدَّ للإنسان أو للشعب كرامته، وهل اندلاع الحروب والنزاعات في القديم أو الحديث إلاَّ من أجل رَدِّ الكرامة المُعْتَدَى عليها؟! وهل الاستعمار والاضطهاد إلاَّ شكل من أشكال الاعتداء على الكرامة الإنسانية؟! وهل قامت الثورات في شعوب إفريقيا وأميركا وآسيا وأوربا إلاَّ بعد أن انتُهكت كرامتهم، وطفح بهم الكيل من جرَّاء ما يعانون؟!

---

(١) مسلم: كتاب الجنائز، باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه (٩٧١) عن أبي هريرة، وأبو داود (٣٢٢٨)، وابن ماجه (١٥٦٦)، والنسائي (٢٠٤٤)، وأحمد (٨٠٩٣).

(٢) محمد بن أحمد بن صالح الصالح: حقوق الإنسان في القرآن والسنة وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية ص٣٤٥.

(٣) ميثاق الأمم المتحدة على موقع الأمم المتحدة باللغة العربية، على الرابط:
www.un.org/ar/documents/charter.

الحريـــــة

الحرية معنى إنساني:

تُعتبر النزعة إلى الحرية والتخلُّص من القيود والأغلال لدى الإنسان، من النزعات الأصيلة والعميقة في وجوده الطويل، وتُعتبر حياة الإنسان السوي كلها، بحثًا مستمرًّا عن معنى الحرية المتأصِّل في وجوده وكيانه، والمتجذِّر في مختلف مستويات تجربته الإنسانية[١].

وعلى هذا فالحرية ضرورة لقيام الحياة البشرية على الأرض، وليست حقًّا يمكن التنازل عنه من الفرد أو الجماعة؛ فبالحرية يستقيم معنى الحياة، وإذا كان العدوان على الحياة من صاحبها بالانتحار، أو من الآخرين بالقتل جريمة كاملة ومؤثمة، فكذلك العدوان على أيٍّ من الضرورات اللازمة لتحقيق جوهر هذه الحياة[٢].

وكما أن حياة الإنسان لا تستقيم إلاَّ بحريته، كذلك لا تستقيم إلاَّ بحفظ كرامته، وهو ما بيَّنَّاه عند الحديث عن الكرامة كمشترك إنساني عامٍّ تهتم به وتتلاقى عليه الشعوب والحضارات؛ فالعلاقة بين الحرية والكرامة علاقة تلازم؛ فالإنسان غير الحرِّ لا يمكن أن يعيش كريمًا، ومن فقد حريته فقد كرامته؛ لأنها تنبع من نفسه أولاً.

ويستوي في ذلك جميع البشر، بغضِّ النظر عن اختلاف النوع أو الجنس أو اللون، أو المكانة الاجتماعية، أو الحالة الاقتصادية، فكل البشر متساوون في حقِّ الحرية والكرامة.

قيمة الحرية في الحضارات والمعتقدات:

تُعَدُّ الحرية من المطالب الحضارية المهمة التي تُقَدِّرها وتهتم بها جميع الحضارات بمعتقداتها، والأديان السماوية بشرائعها؛ إذ لا تقوم حضارة أُمَّة من الأمم وأبناؤها مستعبدون في الأرض، لا يملكون من أنفسهم شيئًا؛ لذلك كان من شأن المشرِّعين لهذه

---

(١) محمد المحفوظ: مقال بعنوان: «في معنى الحرية»، على الرابط: www.rasid.com.

(٢) محمد عمارة: الإسلام وحقوق الإنسان ص١٥.



الحضارات أن يُبَيِّنُوا في وثائقهم القانونية أو التشريعية تلك المبادئ، التي تضمن للناس حريتهم، وعليها سار نظام الدول وأفرادها.

فمسألة الحفاظ على الحريات الأساسية للإنسان كانت منذ بداية الحضارة البشرية هي محلّ اهتمام وغاية كل مجتمع مدني إنساني، منذ الحضارة المصرية القديمة وحضارات الشرق القديم إلى الحضارة اليونانية، وظلَّ هذا الحفاظ على الحريات الأساسية هو القاسم المشترك لكل العقائد الدينية التي ظهرت بعد ذلك، وتعاظم شأنها على وجه الخصوص في ظلِّ الدين الإسلامي الحنيف(١).

ومن أقدم هذه الإصلاحات تلك التي نادى بها أوركاجينا وهو أحد ملوك سلالة لكش الأولى في بلاد الرافدين، وهو يُعَدُّ صاحب أقدم إصلاح اجتماعي واقتصادي معروف إلى الآن؛ حيث يرجع تاريخ تلك الإصلاحات إلى ٢٣٥٥ق.م، وقد اكتُشِفت تلك الإصلاحات في مدينة لكش عام ١٨٧٨م، وترجمها لأول مرَّة العالم الفرنسي تورو دانجان، ويظهر من تلك الإصلاحات أن أوركاجينا قَنَّن القوانين التي وفَّرت للشعب الحرية والعدالة بين المواطنين، وأزال عنهم المظالم والاستغلال(٢).

كما اهتمت مدوَّنة الملك حمورابي -سادس ملوك سلالة بابل الأولى، وقد حكم في الفترة (١٧٩٢-١٧٥٠ ق. م)- بحرية الإنسان فضمَّنت نصوصَهَا الحريات العامة للشعب، وعملت على تجفيف منابع الرقِّ، وأعطت للرقيق حقوقًا لم تكن موجودة في ذلك العصر، ومنها قُدرته على تحرير نفسه مقابل مبلغ يدفعه لسيده(٣).

ومن بلاد الرافدين إلى بلاد فارس حيث انتشار الزرادشتية، وهي التعاليم التي نادى بها زرادشت، وكان منها أن للناس حرية الاختيار، والكفاح في سبيل الخير، أو الخضوع لمغريات الشرِّ. وأهمية تواريخهم ترتكن من ناحية على استخدامهم لحريتهم تلك(٤).

---

(١) مصطفى النشار: حقوق الإنسان المعاصر بين الخطاب النظري والواقع العملي ص٢١.
(٢) شعيب أحمد الحمداني: قانون حمورابي ص١٤.
(٣) المرجع السابق ص٨٦.
(٤) كامل سعفان: معتقدات آسيوية ص١٠٩.

ومن الملوك الذين عرفوا قيمة الحرية في بناء الدول والحضارات، وأهميتها في إيجاد قناة للتواصل مع الشعوب الأخرى، وخاصة حرية التدين والاعتقاد، قورش الفارسي[١] مؤسِّس الإمبراطورية الفارسية خلال القرن السادس قبل الميلاد؛ فقد كانت أولى القواعد السياسية التي أقام عليها دولته أن يترك للشعوب المختلفة -التي تتألف منها إمبراطوريته- حرية العبادة والعقيدة الدينية؛ لأنه كان عليمًا كل العلم بالمبدأ الأول، الذي يُبْنَى عليه حكم الشعوب، وهو أن الدين أقوى من الدولة؛ ومن أجل ذلك لا نراه ينهب المدن ويخرب المعابد، بل نراه يحترم اعتقاد الشعوب المغلوبة، ويساهم بماله في المحافظة على أضرحة آلهتهم؛ بل إن البابليين أنفسهم -وهم الذين قاوموا طويلاً- قد التفوا حوله وتحمَّسوا له؛ حين رأوه يحافظ على هياكلهم ويُعَظِّم معتقداتهم[٢].

وهذا -بلا شكٍّ- نموذج راقٍ لإفساح المجال للحرية الدينية لأفراد الشعب الواحد والشعوب المختلفة، وعلى هذا يكون السبيل لإطلاق الحريات الأخرى سهلاً واضحًا؛ كحرية الرأي والتعبير، والحرية الاقتصادية، والحرية الفكرية، والحرية المدنية، والحرية السياسية، وكل أنواع الحريات الأساسية.

وهذه المعاني السابقة هي نفسها ما اهتمت بها مبادئ الحضارة الصينية القديمة، التي وضعها حكماء الصين وعظماؤها، وتُعَدُّ تعاليم معلم الصين كونفوشيوس أشهر ما يُعَبِّر عن ذلك، ولقد أوصى كونفوشيوسُ الحاكمَ بأن يستمع إلى نصيحة الشعب؛ «لأن ما تراه السماء وتسمعه ليس شيئًا آخر غير ما يراه الشعب ويسمعه وما يعدُّه الشعب جديرًا بالثواب والعقاب، فهناك اتصال وثيق مستمرٌّ بين السماء والشعب، وعلى مَنْ يُدَبِّرون شئون الشعب أن يُرَاعوا ذلك ويتدبَّروه»[٣].

فالحاكم الناجح هو مَنْ يكفل لشعبه حريته في إبداء رأيه والتعبير عنه في جميع الأمور

---

(١) قورش الثاني أو الكبير: (بالفارسية: كوروش بُزُرْگ) (٥٧٦ أو ٥٩٠ ق. م-٥٣٠ ق. م) مؤسس الإمبراطورية الفارسية الإخمينية، وأعظم ملوك فارس، واليهود يحترمونه أعظم الاحترام؛ لما نجاهم من الأسر البابلي، وأرجعهم إلى بلادهم.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/ ٤٠٤.

(٣) كامل سعفان: معتقدات آسيوية ٢٧١-٢٧٤ بتصرف.

العامة في الدولة، وبيان الصحيح من قوانينها والخاطئ؛ وهذه الحرية السياسية التي أوصى بها كونفوشيوس للحكام جعلت من ضمن حقوق الشعب خلع الحاكم إذا ما ساءت إدارته وقلَّت كفاءته، فهو يقول: «إن بقاء الحاكم أو الأمير يتوقَّف على رغبة الله أو إرادته، وإرادة الله هي إرادة الشعب، فإذا نال الحاكم عطف الشعب وحبه، فإن الله العلي السامي ينظر إليه بعين الرضا، ويوطِّد عرشه، أما إذا فقد حبَّ الشعب وعطفه، فإن الله العلي السامي يصبُّ غضبه عليه؛ ومن ثَمَّ يفقد دولته»[1].

قيمة الحرية في الشرائع السماوية:

وأعظم من كل ذلك ما جاءت به الشرائع السماوية من إشارة إلى أن الحرية هي أغلى ما يمتلكه الإنسان، وأنها من الحقوق الفطرية الطبيعية التي فطره الله عليها، وأنها لا تُنتزع منه حتى موته، فلا تَسَلُّط ولا استعباد ولا تكبُّر لإنسان على إنسان، ما داموا في الإنسانية والحرية سواء، ولعلَّ من أعظم الأهداف التي من أجلها أرسل الله رسله هو تحقيق الحرية التي سلبها المستبدُّون المتجبِّرُون في الأرض؛ ومن ثَمَّ فقد جعل الله ﷻ الحرية سبيلاً لإدراك الوحدانية الإلهية، من خلال إعمال العقل والتفكير السليم؛ ليقود العقل إلى الإيمان بالله الواحد الأحد.

وهذه المعاني أكَّدتها رسالة السماء المنزلة على موسى عليه السلام ، بل إن جوهر الديانة اليهودية تحقيق الحرية التي سلبها فرعون مصر من بني إسرائيل، فقد ذبح أبناءهم واستحيا نساءهم وسامهم سوء العذاب والنكال، إنها ظروف قاسية عاشها المستضعفون من بني إسرائيل، تفاصيل محزنة أوردتها نصوص الكتاب المقدس، فقد تكرَّرت لفظة العبودية ومشتقاتها في الكتاب المقدس كثيرًا؛ تصويرًا للحالة التي كانوا عليها، فمن ذلك:

«فاستعبد المصريُّون بني إسرائيل بعنفٍ، ومرَّروا حياتهم بعبوديَّةٍ قاسيةٍ في الطِّين واللِّبن وفي كلِّ عمل في الحقل. كل عملهم الَّذي عملوه بواسطتهم عنفًا... ثمَّ أمر فرعون جميع شعبه قائلاً: كلُّ ابنٍ يُولد تطرحونه في النَّهر، لكنَّ كلَّ بنتٍ تستحيونها»[2]. ثم أمر الرب موسى عليه السلام أن يتوجَّه إلى فرعون، ويقول له: «الرَّبُّ إله العبرانيِّين أَرْسَلَني إليك قائلاً: أطلق

---

(١) كامل سعفان معتقدات آسيوية ص٢٧٤.

(٢) سفر الخروج ١/ ١٣، ١٤، ٢٢.



شعبي ليعبدوني في البرِّيَّة. وهوذا حتَّى الآن لم تسمع»[١]. وخاطب الرب موسى - أيضًا- قائلاً: «ادخلْ إلى فرعون وقُلْ له: هكذا يقول الرَّبُّ: أطلق شعبي ليعبدوني»[٢].

وفي النصرانية نجد المعاني نفسها فقد جاء المسيح وقد امتلأت الأرض جورًا واستعبادًا، فجاء مناديًا رافعًا صوت الحرية: «أنا صوتُ صارخ في البرِّيَّة: قوِّموا طريق الرَّبِّ»[٣]. ويقول المسيح: «وَتَعْرِفُونَ الْحَقَّ، وَالْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ»[٤].

وإذا كانت قيمة الحرية قد علت في تعاليم اليهودية والمسيحية؛ فإنها في التشريع الإسلامي قد وصلت إلى مكانة كبرى ومنزلة عالية، فالحرية الإنسانية بالمعنى الفردي والجماعي والاجتماعي في عرف الإسلام، واحدة من أهم الضرورات، وليس فقط من الحقوق اللازمة لتحقيق إنسانية الإنسان.. ولقد بلغ تقديس الإسلام للحرية الإنسانية أن جعلها غاية من غايات الرسالة النبوية المنزَّلة على محمد رسول الله ﷺ، فقال ﷻ في القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف: ١٥٧].

ومقام الحرية يبلغ في سلم الأولويات والأهمية مقام الحياة المؤسَّس عليها عمران الدنيا وإقامة الدين جميعًا، فلقد اعتبر الإسلام الرقَّ بمثابة الموت، واعتبر الحرية إحياء وحياة، فعِتْقُ الرقبة -أي تحرير الرقيق- هو إخراج له من الموت الحكمي إلى حكم الحياة، وهذا هو الذي جعل عتق الرقبة -إحياءها- كفارة للقتل الخطأ، الذي أخرج به القاتل نفسًا من إطار الأحياء إلى عداد الأموات، فكان عليه كفارة عن ذلك أن يُعيد الحياة إلى رقيق بالعتق والتحرير! يقول ﷻ: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، وبعبارة إمام من أئمة التفسير

---

(١) سفر الخروج ٧/ ١٦.
(٢) سفر الخروج ٨/ ١.
(٣) إنجيل يوحنا ١/ ٢٣.
(٤) المرجع السابق ٨/ ٣٢.

وهو الإمام النسفي[١] في تفسيره للآية: لما أخرج نفسًا مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يُدخل نفسًا مثلها في جملة الأحرار؛ لأن إطلاقها من قيد الرقِّ كإحيائها من قبيل أن الرقيق ملحق بالأموات؛ إذ الرقُّ أثر من آثار الكفر، والكفر موت حكمًا: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢][٢]، فالإسلام عندما يهدي إنما يحرِّر، وعندما يحرِّر إنما يُحقِّق للإنسان الضرورة المحقِّقَة لمعنى الحياة وحقيقة الحياة[٣].

والمفهوم الأساسي للحرية في الإسلام ينبع من التوحيد الخالص لله ﷻ، وإفراده سبحانه بالعبودية، وطرح ما دون ذلك من تقديس للأصنام والأوثان، وتحرُّره من طغيان الشهوات والملذات، فالحرية هي التوحيد والخضوع التام لأوامر الله ﷻ؛ فهو سبحانه صاحب السيادة المطلقة في الكون؛ يقول الله سبحانه: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وعلى هذا النهج أطلق رِبْعِيُّ بن عامر[٤] كلمته الخالدة في وجه رستم قائد الفرس في موقعة القادسية، عندما قال له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنُخرج مَنْ شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام[٥]. وهي الكلمة نفسها التي أطلقها خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ﷺ في وجه عمرو بن العاص وهو حاكم مصر عندما ظلم ابنه رجلاً قبطيًّا على غير ملة الإسلام؛ حيث قال له: «مذ كم تعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا»[٦].

لذلك عمل الإسلام على تضييق جميع روافد الرقِّ وتوسيع منافذ العتق؛ لتحقيق الحرية الشاملة لجميع البشر، مهما اختلف جنسهم ولونهم وطبائعهم، وقد وردت عن رسول الله ﷺ

---

(١) النسفي: هو حافظ الدين أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، فقيه حنفي، مفسر، من أهل إيذج بأصبهان، ووفاته فيها، نسبته إلى (نسف) ببلاد السند، له مصنفات جليلة، منها: (مدارك التنزيل)، و(كنز الدقائق)، توفي سنة (٧١٠هـ=١٣١٠م). انظر: الزركلي: الأعلام ٤/ ٦٧.

(٢) أبو البركات النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل ١/ ٢٣٣.

(٣) محمد عمارة: الإسلام والأمن الاجتماعي ص٨٧.

(٤) ربعي بن عامر: صحابي جليل، شهد فتوح فارس، وبعثه سعد بن أبي وقاص إلى رستم رسولاً، وولاَّه الأحنف لما فتح خراسان على طخارستان. انظر: ابن حجر: الإصابة ٢/ ٤٥٤.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ٧/ ٤٦، ٤٧.

(٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ١/ ١٨٣.

جملة من الأحاديث تُبيِّن فضل عتق الرقاب في بيئة كانت روافد أموالها من تجارة الرقيق؛ فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً، أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ، حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ»(١).

وعن أبي ذرٍّ ﷺ قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «إِيمَانٌ بِاللهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ». قلت: فأي الرقاب أفضل؟ قال: «أَعْلاَهَا ثَمَنًا وَأَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا»(٢).

وعن أبي نَجِيحٍ السُّلَمِيِّ، قال: حَاصَرْنَا مع رسول الله ﷺ بقصر الطائف فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَيُّمَا رَجُلٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ رَجُلاً مُسْلِمًا، فَإِنَّ اللهَ ﷻ جَاعِلٌ وِقَاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهِ عَظْمًا مِنْ عِظَامِ مُحَرَّرِهِ مِنَ النَّارِ، وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ أَعْتَقَتِ امْرَأَةً مُسْلِمَةً، فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ وِقَاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهَا عَظْمًا مِنْ عِظَامِ مُحَرَّرِهَا مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٣).

أما عن جانب التطبيق العملي للحريات المختلفة داخل الدولة الإسلامية فصوره كثيرة، ربما لم تتكرَّر في حضارة من الحضارات، أو مجتمع من المجتمعات؛ فقد كفل الإسلام حرية العقيدة ولم يُجبر أحدًا على اعتناقه، فقال ﷻ: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]؛ وبذلك فإن الإسلام ضمن حرية الاعتقاد ليس للمسلمين فحسب، بل إنها تُمْنَح لغير المسلمين كذلك، وفي هذا المبدأ يتجلَّى تكريم الله للإنسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختصُّ بالهدى والضلال في الاعتقاد، وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه، وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني.. فإن حرية الاعتقاد هي أول حقوق (الإنسان) التي يُثْبِت له بها وصف (إنسان).

فالذي يسلب إنسانًا حرية الاعتقاد، إنما يسلبه إنسانيته ابتداءً.. ومع حرية الاعتقاد حرية

---

(١) البخاري: كتاب كفارات الأيمان، باب قول الله تعالى: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، (٦٣٣٧)، ومسلم: كتاب العتق، باب فضل العتق، (١٥٠٩).

(٢) البخاري: كتاب العتق، باب أي الرقاب أفضل، (٢٣٨٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (٨٤).

(٣) أبو داود: كتاب العتق، باب أي الرقاب أفضل، رقم (٣٩٦٥)، وأحمد (١٧٠٦٣)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. والبيهقي (١٨٢٩٠)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٢٧٢٦).

الدعوة للعقيدة، والأمن من الأذى والفتنة.. وإلاَّ فهي حرية بالاسم لا مدلول لها في واقع الحياة[١]. ومع توفير الحرية الدينية للمسلمين وغير المسلمين حرصت الدولة الإسلامية على الدفاع عنهم وحمايتهم؛ فقد كان عمر بن الخطاب ﷺ يبثُّ العيون على ولاته؛ ليعرف مقدار إقامتهم للعدل في رعاياهم، وأول ما يهتمُّ بالسؤال عنه معاملتهم لأهل الذمة[٢]، وقد قال أبو يوسف[٣] -في كتاب الخراج- لأمير المؤمنين هارون الرشيد: وقد ينبغي -يا أمير المؤمنين أيَّدك الله- أن تتقدَّم في الرفق بأهل ذمَّة نبيك وابن عمِّك محمد ﷺ، والتقدُّم لهم حَتَّى لا يُظلموا ولا يُؤْذَوْا ولا يُكَلَّفوا فوق طاقتهم، ولا يُؤْخذ شيء من أموالهم إلاَّ بحقٍّ يجب عليهم. فقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ ظَلَمَ مُعَاهَدًا**[٤]**، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ؛ فَأَنَا حَجِيجُهُ**»[٥]. وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب ﷺ عند وفاته: «أُوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يُكَلَّفُوا فوق طاقتهم»[٦].

إضافة إلى حرص الدولة الإسلامية على توفير الحياة الدينية في المجتمع، حرصت كذلك على توفير جميع **أشكال الحريات السياسية**، والتي تعني **حرية كل إنسان في التعبير عن رأيه**، وحقَّه كذلك في تولِّي الوظائف العامة والخاصة في الدولة مع توفُّر الكفاءة والأمانة فيه، ومن أبلغ أشكال الحرية السياسية في المجتمع المسلم حرية إبداء النصيحة للحاكم والجهر بالحقِّ والصدع به دون خوف أو اتقاء عقوبة، فالله تعالى يقول: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ**

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ١/ ٢٩١.

(٢) محمد أبو زهرة: المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ص٢٧٢.

(٣) القاضي أبو يوسف: هو أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري البغدادي القاضي (١١٣-١٨٢هـ=٧٣١-٧٩٨م)، صاحب الإمام أبي حنيفة، وتلميذه، وأول من نشر مذهبه، كان فقيهًا علاَّمة، من حُفَّاظ الحديث، وُلِدَ بالكوفة، وتفقَّه بالحديث والرواية، وهو أول من دُعِيَ قاضي القضاة، من أهم كتبه: (الخراج). انظر: الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ٢٩٢، ٢٩٣، والزركلي: الأعلام ٨/ ١٩٣.

(٤) المعاهد: أكثر ما يطلق على أهل الذمة، وقد يطلق على غيرهم من الكفار إذا صولحوا على ترك الحرب. انظر: المناوي: فيض القدير ٦/ ١٥٣.

(٥) أبو داود: كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات (٣٠٥٢)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٢٦٥٥).

(٦) أبو يوسف: كتاب الخراج ١/ ١٢٥.

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وعن تميم الداري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ». قلنا: لمن؟ قال: «لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»[١]. ويقول رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلاَ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ»[٢].

فالإسلام حثَّ على حرية التعبير عن الرأي وقول الحق ولو كان مُرًّا، كما حثَّ الحُكَّام على قبول النصيحة ولين الجانب، فعندما بايع الناس أبا بكر الصديق ﷺ قام فيهم فقال: أمَّا بعدُ.. أيها الناس؛ فإني قد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأتُ فقوِّموني.. والضعيف منكم قوي عندي حتى أزيح علَّته -إن شاء الله-،والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق -إن شاء الله-.. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم»[٣]. وقد اعترضت امرأة من عامة المسلمين على قرار خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ﷺ بتحديد حَدٍّ أعلى للمهور فلا يزيد على أربعمائة درهم، واستشهدت بقول الله تعالى في القرآن: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: ٢٠]، فرجع الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ عن قراره، وقال: اللهم غَفْرًا، كُلُّ الناس أفقه من عمر. ثم رجع فقال: إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صداقهن على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يُعطي من ماله ما أحب[٤].

وكما أن الإسلام حفظ للناس جميعًا حرياتهم السياسية والدينية وحرية الرأي والتعبير، كذلك كفل لهم الحرية الفكرية، ومَنَحَ كُلَّ امرئ حَقَّ الإبانة عن رأيه كما تَكَوَّن في نفسه[٥]، وقد ضرب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ أروع الأمثلة في قبول الفكر الآخر على الرغم

---

(١) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (٨٢)، وأبو داود (٤٩٤٤)، والنسائي (٤١٩٧)، وأحمد (١٦٩٨٢).

(٢) الترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢١٦٩) وقال: هذا حديث حسن. وأحمد (٢٣٣٤٩)، وقال الألباني: حسن. انظر: صحيح الجامع (٧٠٧٠).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ٢٦٩.

(٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٤٣، ٢٤٤.

(٥) محمد الغزالي: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، ص٥٨.

من خروجه عن الفكر العام لعامة المسلمين، وذلك في موقفه مع مَنْ خرجوا على خلافته وسُمُّوا بالخوارج، فقد بعث إليهم عبد الله بن عباس[١] فناظرهم فرجع إلى صفوف الإمام علي رضي الله عنه أربعةُ آلاف منهم، وأصرَّ أربعة آلاف على عدم الرجوع، فكتب إليهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «قد كان من أمرنا وأمر الناس ما قد رأيتم، فقفوا حيث شئتم حتى تجتمع أُمَّة محمد ﷺ بيننا وبينكم أن لا تسفكوا دمًا حرامًا، أو تقطعوا سبيلاً، أو تظلموا ذِمَّة؛ فإنكم إن فعلتم فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء»[٢].

وهذا بلا شكٍّ مكرمة لشريعة الإسلام، التي كفلت الحريات العامة والأساسية لجميع أبنائها، مما كان له بعيد الأثر في بناء حضارة هي أرقى الحضارات الإنسانية على مرِّ العصور، والتي بُنِيَتْ بسواعد أجيال متعاقبة من المسلمين وغير المسلمين، وقد جنت الحضارة الإسلامية ثمار ذلك الأسلوب الرفيع؛ إذ استطاعت أن تُكَوِّن قنوات اتصال قوية بأتباع الديانات الأخرى التي تعيش في ظلِّها، وبذلك استفادت من إمكانياتهم العلمية والبدنية، وعاش الجميع في رغد من العيش والأمان.

الحرية في الفكر الأوربي:

المتأمِّل في مسيرة التاريخ الأوربي يجد أن قيمة الحرية كانت ذات أهمية خاصة، لدى أتباع دعوات الإصلاح السياسي خلال القرن الثامن عشر الميلادي، كما ارتبطت قيمة الحرية بأطروحات فلاسفة وساسة عديدين قبل ذلك التاريخ بقرون، من أشهرهم على سبيل المثال دون الحصر مارسيليو دي مينارديني (ت ١٣٤٢م)، الذي دعا إلى مجتمع جمهوري قائم على السيادة الشعبية، وكذلك جون فورتيسكو[٣] (ت ١٤٧٦م)، الذي دعا إلى الحدِّ من سلطة الملكية، واعتبرها مرتبطة بإرادة الشعوب، وتابعه جورج بوخينان (ت ١٥٨٢م)،

---

(١) عبد الله بن عباس: هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، صحابي، ابن عم رسول الله ﷺ، يُلَقَّب بحبر الأمة وفقيهها وإمامها في تفسير القرآن، دعا له رسول الله ﷺ بقوله: «اللهم فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ». توفي سنة ٦٨ هـ بالطائف. انظر: ابن حجر: الإصابة في معرفة الصحابة ٤/ ١٥١، ابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٢٦٥- ٢٩٩.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٧/ ٣١١.

(٣) السير جون فورتيسكو JOHN FORTESCUE (١٣٩٤-١٤٧٦م): محامٍ وقاضٍ إنجليزي.

أما نيقولو مكيافيللي[١] (ت ١٥٢٧م)، فمع أنه قد اشتهر بفلسفته النفعية، وتطبيقها في حياته السياسية، إلا أنه تميَّز بدور فعَّال عبر مجلس السلام والحرية في فلورنسا؛ حيث قام حكم جمهوري مستقلٌّ عن روما القريبة، ورغم ما عُرف عن نفعيَّة مكيافيللي، إلاَّ أنَّ «العقد الاجتماعي» يُصَنِّفه بين أوائل مَن دَعَوْا إلى حرية الشعوب[٢].

وتوالت هذه الأفكار في فكر وفلسفة الأوربيين جيلاً بعد جيل، وكان أهمهم الفيلسوف جان جاك روسو، فقد كان لكتابه (العقد الاجتماعي) -الذي أخرجه عام ١٧٦٢م- أثر كبير في تشكيل الحرية في المجتمع الأوربي كله، وكلنا يعرف الصيحة الجريئة التي استهلَّ بها الفصل الأول: «وُلد الإنسان حرًّا، وهو في كل مكان مكبل بالأغلال». وقد افتتح روسو كتابه بمبالغة مقصودة؛ لأنه يعلم أن للمنطق سلطانًا منوِّمًا قويًّا، وقد أصاب في ضربه على هذه النغمة العالية؛ لأن هذه العبارة أصبحت شعار قرن بأكمله.. واتهم الدولة القائمة بتدمير تلك الحرية، واقترح بديلاً عنها «إيجاد شكل من المجتمع يُدافع عن شخص كل عضو فيه وعن متاعه، ويحميهما بكل ما أُوتي من قوة مجموعة، مجتمع يظلُّ الإنسان فيه رغم اتحاده مع الجميع يطيع نفسه فقط، ويبقى حرًّا كما كان من قبلُ»... تلك هي المعضلة الأساسية التي يُقَدِّم لها العقد الاجتماعي الحلَّ[٣]. (**انظر: رقم ١٣ جان جاك روسو وكتابه العقد الاجتماعي**).

والحرية عند روسو تعني أن يتمتَّع الفرد بجميع حقوقه السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية والثقافية والفكرية في إطار قانوني، وقد كانت أفكار روسو بعيدة الأثر في ميدان الفكر الأوربي والأميركي على السواء، إن روسو كما قالت مدام دي ستال[٤]:

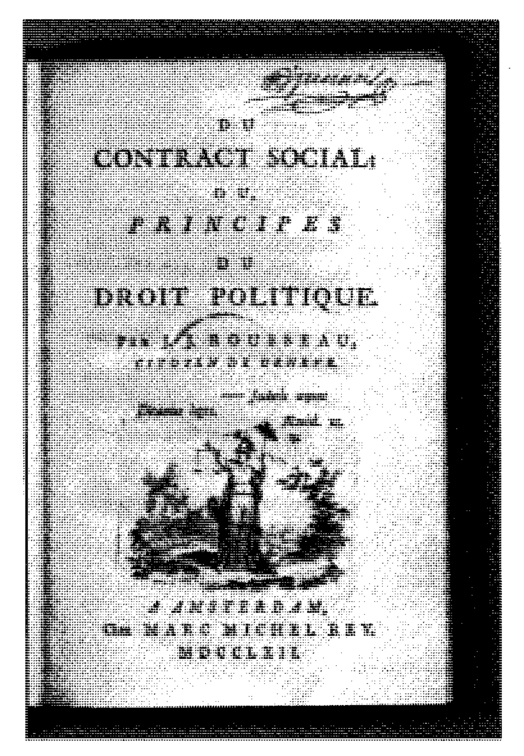
---

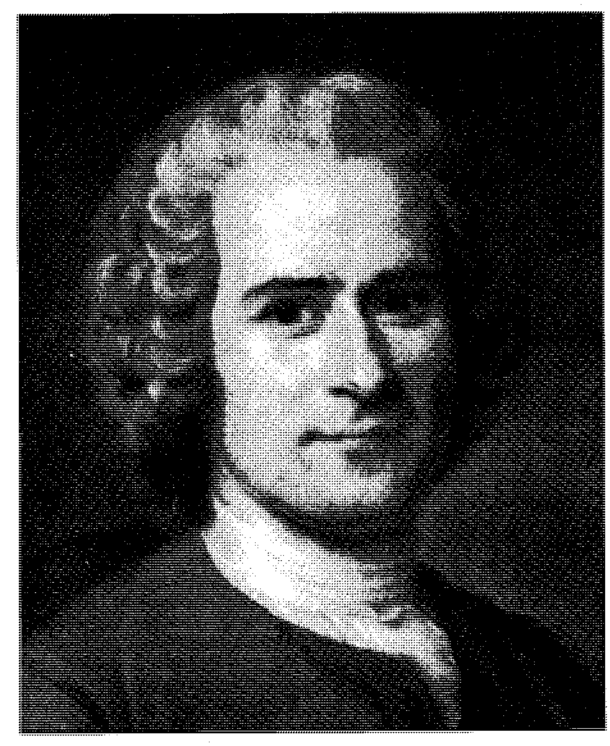
(١) نيقولو مكيافيللي (Niccolo Machiavelli): وُلد ومات بفلورنسا (١٤٦٩-١٥٢٧م)، مفكر وفيلسوف إيطالي شهير، أشهر كتبه على الإطلاق كتاب (الأمير)، والذي كان عملاً هدف مكيافيلي منه أن يكون كتيب تعليمات للحكام، من أقواله: الغاية تبرر الوسيلة.

(٢) نبيل شبيب: مقال بعنوان: «الحرية الغربية.. الجذور والمنطلقات»، على الرابط: www.islamonline.net.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ٣٩/ ٢٨٢.

(٤) مدام دي ستال (١٧٦٦-١٨١٧م): ناقدة فرنسية وروائية شهيرة في مطلع القرن ١٩م، أثر عملها الأدبي في ازدهار المذهب الرومانسي في الأدب الفرنسي، وهي من أوائل الذين اهتموا بما يُعرف الآن بالأدب المقارن.


DU
CONTRACT SOCIAL;
OU,
PRINCIPES
DU
DROIT POLITIQUE.
PAR J. J. ROUSSEAU,
A AMSTERDAM,
Chez MARC MICHEL REY.
MDCCLXII.



جان جاك روسو وكتابه (العقد الاجتماعي)

صورة رقم (١٣)



«لم يخترع شيئًا، ولكنه أشعل النار في كل شيء»[١]. فعلى أفكاره قامت الثورة الفرنسية، التي أعلنت مبادئها إلى الحرية والعدل والمساواة، وقد اقتبس جفرسون[٢] في أميركا إعلان الاستقلال من روسو كما اقتبسه من لوك ومونتسكيو[٣]، بل إن نابليون[٤] عَزَا الثورة الفرنسية إلى روسو، كما أن نجاح الثورة الأميركية رفع كثيرًا من مكانة فلسفة روسو السياسية[٥].

الحرية والتواصل بين الشعوب:

تمثِّل الحرية -من خلال ما استعرضناه- قيمة مهمة وغاية عظيمة نادت بها العقائد المختلفة والحضارات المتعدِّدة، مع اختلاف تنوُّعاتها الفكرية والعقائدية، وهذا من جانبه يُعطي انطباعًا صادقًا بأن قيمة الحرية من القيم المشتركة بين الإنسانية جميعًا، وقد كانت الحرية والسعي لتحقيقها والنضال من أجلها، ومقاومة الاستعمار بشتى أنواعه وسيلة واضحة في التواصل بين الشعوب، وهو ما رأيناه أثناء الثورة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي، والتي دامت سبع سنوات، فقد شهدت تأييدًا ودعمًا دبلوماسيًّا وعسكريًّا وشعبيًّا واسعًا من البلاد العربية والإسلامية المختلفة، فعندما أدرك العرب والمسلمون مدى جدِّيَّة وأهمية الثورة الجزائرية، كانت القاهرة ودمشق وبغداد وكل العواصم العربية والإسلامية معتزة بها أيما اعتزاز، وكانت إذاعة صوت العرب من القاهرة صوتًا ناطقًا باسم الثورة، داعيًا لها مدافعًا عنها، مُرَغِّبًا في الالتفاف حولها والانضمام إليها، وكان له تأثير على المستمعين، حتى إن الجزائريين أصبحوا يعتبرونه الناطق الرسمي للثورة الجزائرية[٦].

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤٢/ ٣٧٢.

(٢) توماس جفرسون Thomas Jefferson (١٧٤٣-١٨٢٤م): فيلسوف سياسي، والرئيس الثالث للولايات المتحدة (١٨٠١-١٨٠٩م)، والمؤلف الرئيس لإعلان الاستقلال الأميركي سنة ١٧٧٦م.

(٣) مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩-١٧٥٥م): فيلسوف فرنسي صاحب نظرية فصل السلطات الذي تعتمده غالبية الأنظمة حاليا، من كتبه: روح القوانين.

(٤) نابليون بونابرت (١٧٦٩-١٨٢١م): من أشهر القادة العسكريين الأوربيين في العصر الحديث، قاد الحملة الفرنسية ضد مصر، وخاض معارك طاحنة في أوربا، ولم يهزم في واحدة، إلا معركة واترلو، والتي نُفِيَ بعدها إلى جزيرة سانت هيلينا، حيث توفي.

(٥) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤٢/ ٣٧٧، ٣٧٨.

(٦) عبدلي لخضر: مقال بعنوان «الثورة الجزائرية.. تحدٍّ ونجاح»، موقع الفسطاط، على الرابط: www.fustat.com.

وهو ما رأيناه كذلك في التعاطف الإسلامي الواسع في كل مكان على وجه الأرض مع المسلمين في فلسطين من أجل الحرية من المستعمر الصهيوني، ومع المسلمين في بلاد البوسنة والهرسك من أجل الحرية من الاضطهاد الصربي، وكذلك التعاطف الدولي والإسلامي مع المسلمين المستضعفين في بلاد الشيشان وداغستان من الاضطهاد الشيوعي، ورأينا التعاطف الأميركي والدولي والإسلامي مع المسلمين في أفغانستان خلال حربها ضد الدبِّ الروسي، كذلك مساندة مصر لحركات التحرُّر في إفريقيا من الاستعمار البريطاني والفرنسي وغيرها، إلى غير ذلك من النماذج المتعدِّدة التي كانت الحرية وسيلة للتواصل والانسجام بين الدول.

وقد أكَّدت المواثيق الدولية أهمية الحرية في التواصل بين الشعوب والدول، فمع اختلاف الدول الموقِّعة عليها في العرق واللون والجنس والدين، إلاَّ أن قيمة الحرية وغيرها من القيم الإنسانية العامَّة مثَّلت قاسمًا مشتركًا بينهم، وهذا كفيل بمفرده أن يُقيم علاقات ودٍّ وصداقة بين تلك الدول بعضها مع بعض، والعكس هو الصحيح؛ إذ عندما أهملت الدول الكبرى في العالم أهمية هذه القيم الإنسانية العامة، اندلعت الحروب والصراعات العالمية والإقليمية، وما أحداث الحربين العالميتين منا ببعيد! لذلك فعندما تكون ثقافة الشعوب قائمة على احترام القيم الإنسانية وعلى رأسها الحرية، يكون ذلك طريقًا لانتشار السلام والأمان، وإنهاءً للحروب والنزاعات.

ومن أشهر المواثيق الدولية التي نصَّت على احترام الحريات الأساسية والحقيقية للإنسان ما يُعرف بميثاق الأمم المتحدة، وما تفرَّع عنه من مواثيق أخرى؛ كالإعلان العالمي لحقوق الإنسان، إضافة إلى مواثيق واتفاقيات أخرى دولية راعت جانب الحريات الأساسية للإنسان، دون النظر إلى عرق أو لون أو جنس.

العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية[١]:

وقد اتفقت الدول الموقِّعة على هذا العهد على أن السبيل الوحيد لتحقيق المثل الأعلى المتمثِّل

---

(١) اعتُمد هذا العهد وعُرض للتوقيع بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ٢٢٠٠ ألف (د-٢١) المؤرَّخ في ١٦ ديسمبر ١٩٦٦م، تاريخ بدء النفاذ: ٢٣ آذار / مارس ١٩٧٦م، وهذا العهد كغيره من المواثيق الدولية الأخلاقية، والتي تحتاج إلى تفعيل دولي لتحقيق الغاية التي من أجلها أُبرم. انظر موقع الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان: www.anhri.net.

وفقًا للإعلان العالمي لحقوق الإنسان، هو أن يكون البشر أحرارًا، ومتمتعين بالحرية المدنية والسياسية، ومتحرِّرين من الخوف والفاقة، وكذلك متمتعين بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكان من ضمن هذه المواد:

المادة (١):

١- لجميع الشعوب حقُّ تقرير مصيرها بنفسها. وهي بمقتضى هذا الحق حرَّة في تقرير مركزها السياسي، وحرَّة في السعي لتحقيق نمائها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

٢- لجميع الشعوب -سعيًا وراء أهدافها الخاصة- التصرُّف الحرُّ بثرواتها ومواردها الطبيعية، دونما إخلال بأية التزامات منبثقة عن مقتضيات التعاون الاقتصادي الدولي، القائم على مبدأ المنفعة المتبادلة وعن القانون الدولي، ولا يجوز في أية حال حرمان أي شعب من أسباب عيشه الخاصة.

٣- على الدول الأطراف في هذا العهد -بما فيها الدول التي تقع على عاتقها مسئولية إدارة الأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي والأقاليم المشمولة بالوصاية- أن تعمل على تحقيق حقِّ تقرير المصير وأن تحترم هذا الحقَّ، وفقًا لأحكام ميثاق الأمم المتحدة.

المادة (٨):

١- لا يجوز استرقاق أحد، ويحظر الرقُّ والاتجار بالرقيق بجميع صورهما.

٢- لا يجوز إخضاع أحد للعبودية.

٣- (أ) لا يجوز إكراه أحد على السخرة أو العمل الإلزامي.

المادة (٩):

١- لكل فرد حقٌّ في الحرية وفى الأمان على شخصه، ولا يجوز توقيف أحد أو اعتقاله تعسفًا، ولا يجوز حرمان أحد من حريته، إلاَّ لأسباب ينصُّ عليها القانون وطبقًا للإجراء المقرَّر فيه.

المادة (١٠):

١- يُعامل جميع المحرومين من حريتهم معاملة إنسانية، تحترم الكرامة الأصيلة في الشخص الإنساني.

المادة (١٨):

١- لكل إنسان حقٌّ في حرية الفكر والوجدان والدين. ويشمل ذلك حريته في أن يَدِين بدين ما، وحريته في اعتناق أيِّ دين أو معتقدٍ يختاره، وحريته في إظهار دينه أو معتقده بالتعبُّد وإقامة الشعائر والممارسة والتعليم، بمفرده أو مع جماعة، وأمام الملأ أو على حِدَة.

٢- لا يجوز تعريض أحد لإكراه من شأنه أن يُخِلَّ بحريته في أن يَدِينَ بدين ما، أو بحريته في اعتناق أي دين أو معتقد يختاره.

٣- لا يجوز إخضاع حرية الإنسان في إظهار دينه أو معتقده، إلاَّ للقيود التي يفرضها القانون، والتي تكون ضرورية لحماية السلامة العامة، أو النظام العام، أو الصحة العامة، أو الآداب العامة، أو حقوق الآخرين وحرياتهم الأساسية.

٤- تتعهَّد الدول الأطراف في هذا العهد باحترام حرية الآباء، أو الأوصياء عند وجودهم في تأمين تربية أولادهم دينيًّا وخُلقيًّا وَفقًا لقناعاتهم الخاصة.

المادة (١٩):

١- لكل إنسان حقٌّ في اعتناق آراء دون مضايقة.

٢- لكل إنسان حقٌّ في حرية التعبير. ويشمل هذا الحق حريته في التماس مختلف ضروب المعلومات والأفكار، وتلقِّيها ونقلها إلى آخرين دونما اعتبار للحدود؛ سواء على شكل مكتوب أو مطبوع، أو في قالب فني، أو بأية وسيلة أخرى يختارها.

٣- تستتبع ممارسة الحقوق المنصوص عليها في الفقرة (٢) من هذه المادة واجبات ومسئوليات خاصة؛ وعلى ذلك يجوز إخضاعها لبعض القيود، ولكن شريطة أن

تكون محدَّدة بنصِّ القانون، وأن تكون ضرورية:

(أ) لاحترام حقوق الآخرين أو سمعتهم.

(ب) لحماية الأمن القومي، أو النظام العام، أو الصحة العامة، أو الآداب العامة.

وبجانب الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والعهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية هناك الكثير من الوثائق ذات الطابع الدولي، والتي كان لها أثر كبير في إقرار الحريات العامة الخاصة بحقوق الإنسان؛ منها: العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، الموقَّع عليه في ١٦ ديسمبر ١٩٦٦م، والاتفاقية الأوربية لحقوق الإنسان الصادرة في روما (٤ نوفمبر ١٩٥٠م)، والميثاق الإفريقي لحقوق الإنسان والشعوب الصادرة في كينيا (يونيو ١٩٨١م)، وإعلان القاهرة لحقوق الإنسان في الإسلام الصادر في القاهرة (٥ أغسطس ١٩٩٠م)، والميثاق العربي لحقوق الإنسان الصادر في تونس (٢٣ مايو ٢٠٠٤م).

الاعتداء على الحرية:

بعد أن تَبَيَّنَتْ لنا -من خلال ما استعرضناه- القيمة الكبرى التي تُمَثِّلها الحرية في حياة الإنسانية، وضرورتها في تحقيق رُوح الانسجام والتعايش بين الشعوب، ينبغي لنا أن نعلم خطورة الاعتداء على الحرية؛ سواء على مستوى الفرد أو مستوى الشعوب؛ فهذا من جانبه يُورِثُ العدوان والعداوة والبغضاء؛ وبذلك تندلع الحروب، فيعمُّ الخراب والدمار، ليس على المعتَدَى عليهم فقط، بل على الإنسانية كلها، وإن أحداث الحربين العالميتين وما أعقبتها من خسائر بشرية واقتصادية وعمرانية تُقَدَّر بالملايين لأبرز دليل على ذلك، وإن الدول التي عانت من الاستعمار ما زال أبناؤها يتوارثون البغضاء والكراهية لتلك الدول التي أذاقتهم ويلات العبودية والذلِّ والمهانة، وإن الدول التي تشنُّ الحروب من أجل استعمار الدول المستضعفة لا تهنأ بالعيش، وتعيش منبوذة من دول العالم.

العلم

ربما تنهض الأمم والمجتمعات بأشكال مختلفة وبسبل متعدِّدَة؛ فلكل حضارة طبيعتها المتميِّزة عن الحضارة الأخرى، لكن المتأمِّل في تاريخ قيام الحضارات يتبيَّنُ له أن العلم وأخذ طُرق المعرفة المختلفة من الأمور المشتركة بين كل الحضارات القديمة والحديثة، بل والبدائية منها؛ مما يجعلنا نُقَرِّر أن العلم يمثِّل عنصرًا مهمًّا من عناصر المشترك الإنساني العامِّ، الذي تشترك فيه الإنسانية كلها.

العلم مقام تشريف آدم عليه السلام:

بالرجوع إلى نصوص الكُتب المقدسة لدى أتباع الديانات السماوية الثلاث؛ سواء القرآن لدى المسلمين، أو التوراة لدى اليهود، أو الأناجيل لدى المسيحيين، نجد أن الله عز وجل شرَّف آدم عليه السلام على جميع المخلوقات -ومنهم ملائكته- بالعلم؛ ففي القرآن يقول الله عز وجل: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١- ٣٣].

وقد أطنب المفسرون في بيان ماهية هذا العلم، الذي تشرَّف به آدم عليه السلام ؛ منها ما رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان، ودابَّة، وسماء، وأرض، وسهل، وبحر، وجمل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيره. وعن مجاهد[1] رحمه الله أنه قال: عَلَّمَهُ

---

(١) مجاهد: هو مجاهد بن جبير، ويقال: ابن جبر، أبو الحجاج المكي (٢١- ١٠٤هـ=٦٤٢- ٧٢٢م)، تابعي، مفسر من أهل مكة، قال عنه الذهبي: شيخ القراء والمفسرين. أخذ التفسير عن ابن عباس، قرأه عليه ثلاث مرات، يقال: إنه مات وهو ساجد. انظر: الزركلي: الأعلام ٨/ ١٧٧.



اسم كل دابَّة، وكل طير، وكل شيء[١]. وعلى أية حالٍ فإنَّ كلَّ هـذه التفسيرات لا تخرج عن أنَّ كنه العلم هو مراد تشريف الله ﷻ لآدم عليه السلام، وأن الله ﷻ عَلَّمَهُ كُلَّ العلوم التي بها ينصلح حاله هو وذريته.

وجاء في سفر التكوين من أسفار التوراة: «وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها. فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء، وجميع حيوانات البرية»[٢].

أي أن الله ﷻ عَلَّمَهُ العلوم الطبيعية، التي سيحتاج إليها للحياة فوق الأرض وعمارتها، أمَّا الملائكة فهي لا تعلم هذه الأسماء وتلك العلوم؛ لأنها لن تُستخلف على الأرض؛ ومن ثَمَّ فهي ليست في حاجة إليها.

وفي الهاجادا[٣]: «بعد أن أسكن الله آدم في الجنة، أراد أن يُثْبِتَ للملائكة تَفَوُّقَه عليهم، فجمع حيوانات الأرض وعرضها عليهم زوجًا زوجًا؛ ليُنبئوه بأسمائها، ولكنهم عجزوا، فعرضها على آدم بعد أن عَلَّمه أسماءها وحيًا، فسمَّاها آدم بأسمائها»[٤].

وذكرت بعض كتب (الميدراش)[٥]: «جمع الله بهائم العالم أمام آدم وكذلك الملائكة،

---

(١) انظر: البغوي: معالم التنزيل ١/ ٨٠، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/ ١٠٩، ٢٢٢، ٢٢٣، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٨١، ٢٨٢.

(٢) سفر التكوين: ١٩ / ٢٠.

(٣) الهاجادا: كلمة عبرية معناها: (القص) أو (القول)، وهي الصيغة الثابتة التي تُروَى بها قصة الخروج في الليلة الأولى من احتفالات عيد الفصح، وهي مجموعة الصلوات والأدعية والتعليقات التي تحكي قصة العبودية في مصر والخروج منها، وإلى شكر الإله على تخليص اليهود من العبودية، والتوسُّل إليه أن يُخَلِّصهم في العام القادم، والغرض من الهاجادا تقريب المفاهيم السماوية إلى اليهود؛ ولذلك شملت كثيرًا من الأساطير وهي محلاة بالصور، كما تُعتبر تفسيرًا لبعض نصوص التوراة، وكانت الهاجادا تمثِّل مادة خصبة للصلوات والاحتفالات الدينية وأيام السبت، وتأتي بعد الصلوات، ويتمُّ ترديدها بشكل جماعي كذلك في الأفراح والأحزان. عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٢/ ٨٧.

(٤) فراس السواح: «قصة خلق الإنسان بين القرآن والتوراة»، مقال منشور بمجلة أوان الإلكترونية: www.alawan.org.

(٥) (مدراش): من الكلمة العبرية (درش)؛ أي: (استطلع)، أو (بحث)، وهي منهج في تفسير العهد القديم يحاول التعمُّق في بعض آياته وكلماته، والتوسع في تخريج النصوص والألفاظ، والتوسُّع في الإضافات والتعليقات، وصولاً إلى المعاني الخفية. عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٢/ ٣٥.

وسُئِلَت الملائكة أن تذكر أسماء تلك الأنواع فلم تقدر، أمَّا آدم فذكر الأسماء بدون تردُّدْ: يا إله العالمين؛ الاسم الصحيح لهذا الحيوان؛ ثور.. حصان..»[1].

والملاحظ في قصة آدم عليه السلام أن الملائكة أدركت أن آدم هو المخلوق الذي يعرف ويعلم، وهذا أشرف شيء فيه؛ أي: قُدرته على التعلُّم والمعرفة، فكان ذلك هو السرّ الأعظم ليكون هذا المخلوق جديرًا بعمارة الأرض، والتحكُّم فيها بالعلم والمعرفة.

أنواع العلوم:

قبل الحديث عن مكانة العلم والدور الذي يُقَدِّمُه في طريقة التواصل بين الحضارات والشعوب، يجدر بنا أن نُوَضِّح أن كلمة العلم تشمل كل علمٍ نافعٍ يهدف إلى خير الدنيا وعمارة الأرض.. وكلّ علمٍ يهدف إلى صلاح الناس، والقيام السليم بواجبات الخلافة البشرية على هذا الكوكب، وتنقسم العلوم إلى قسمين كبيرين؛ هما: العلوم العقائدية، والعلوم الحياتية.

أمَّا العلوم العقائدية فهي العلوم التي تَعْرِف بها كل حضارة الإله الذي تعبده، وتشمل كل العلوم المتعلِّقة بدراسة الدين والعقيدة، وهذه ليست من المشتركات الإنسانية العامَّة؛ إذ لكل حضارة دين ومعتقد تؤمن به، ليس لأحد إكراهها على تركه واعتناق غيره، وهو ليس محلَّ دراسة هنا.

أمَّا النوع الآخر من أنواع العلوم فهو العلوم الحياتية، ويُقصد بالعلوم الحياتية تلك العلوم النافعة التي يحتاج إليها الإنسان ليُصلح بها حياته، ويُعَمِّر بها أرضه، ويستكشف بها كونه وبيئته.. وذلك مثل علوم الطب، والهندسة والفلك، والكيمياء والفيزياء، والجغرافيا وعلوم الأرض، والنبات والحيوان.. وغير ذلك من العلوم المشابهة، وهذا النوع من العلوم أدَّى دورًا بارزًا كنقطة تواصل لتحقيق المصالح المشتركة بين الشعوب، على نحو ما سنُوَضِّحه.

---

(١) أ/ هشام طلبة: قصة آدم في نصوص اليهود النادرة.. دراسة مقارنة، مقال على موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة
http://55a.net/firas/arabic/?page=show_det&id=1568&select_page=1

مكانة العلم بين الحضارات:

هناك حقيقة أثبتها التاريخ، وهي أن الاهتمام بالعلم لم يكن مقصورًا على تلك الشعوب التي عاشت في زمن المدنية والحضارة؛ أي: قبل أربعة آلاف سنة تقريبًا، بل كان محلَّ اهتمام الشعوب البدائية التي عاشت في عصور ما قبل التاريخ؛ فلولا العلم وإعمال الفكر ما استطاع الإنسان البدائي أن يقضي حاجته من الطعام والشراب وغيرها من الضروريات، التي بها يكون قِوَام الحياة، ولقد حرص الإنسان في بدايات وجوده على الأرض أن ينقل تراث قبيلته إلى أبنائه، وما تراث القبيلة إلاَّ مجموعة الأنظمة والعادات الاقتصادية والسياسية والعقلية والخلقية، التي تَعَلَّمها ومارسها على مدار السنوات، وإننا لو أحصينا أسس المدنيَّة ومقوِّمَاتها لوجدنا أن الأمم قد أدركتها ثم بقي أن تُدْرِكَ الكتابة، ثم ظهر علم الكتابة منذ أكثر من أربعة آلاف سنة قبل الميلاد[١].

وكانت الكتابة في بدايتها - كما لا تزال عند أهل الصين واليابان - ضربًا من الرَّسم؛ أي: كانت ضربًا من الفنِّ؛ فكما أن الإنسان كان يستخدم الإشارات حين كانت تتعذَّر عليه الكلمات، فكذلك استخدم الصور لينقل أفكاره؛ فكلُّ كلمة وكلُّ حرف مما نستعمله اليوم كان فيما سبق صورة[٢]، ولعلَّ أهم ما يُمَيِّز إنسان العصور البدائية استعمال عقله وفكره، فيما يُصلح به أمور حياته وأغراضه الشخصية أو الجماعية، فكان اختراع الكتابة واكتشاف النار واستحداث أدوات الصيد والقتال وابتكار الفنون والزراعة والقوت والطهي وصناعة أدوات الصيد والسماكة، وبناء الأكواخ واستخدام الطين اللبن.

كما ظهرت وسائل اللهو لدى الشعوب البدائية؛ فمن وسائل اللهو المحبَّبة إلى الإسكيمو[٣] أن يذهبوا إلى أماكن وعرة مهجورة، ثم يتسابقون هناك في ابتكار الوسائل التي يُواجهون بها ضرورات الحياة، التي ليس لديهم ما يستعينون عليها به من أدوات[٤].

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١/ ٩، بتصرف.

(٢) المرجع السابق، ص١٣١.

(٣) الإسكيمو: شعب يسكن في المناطق القطبية الشمالية، عند السواحل الشمالية لأميركا الشمالية، ويُطلقون على أنفسهم «إنويت»، ويفضلونها عن الإسكيمو؛ لأنهم يعتبرونها مهينة.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ص٢٤.

هذا عن الإنسان البدائي فما بالنا بإنسان المدنيَّة والحضارة، إنه بلا شكٍّ جعل للعلم مكانته وأولويَّته؛ فالمُتَتَبِّع لسير الحضارات القديمة -مثلاً- يجد أنها ارتقت بعلمائها فسادت العالم قرونًا طويلة، ولعلَّ أشهر هذه الحضارات الحضارة الصينية، والرومانية، والفارسية، واليونانية، والمصرية القديمة، والهندية، والحضارة الإسلامية، ولقد قَدَّمَتْ هذه الحضارات منجزات حضارية عظيمة في مجالات العلوم والصناعة لا يُنكرها أحد؛ كالطب والفلك والصيدلة، والهندسة والفيزياء، والرياضيات والاكتشافات الجغرافية، والطباعة واختراع الكتابة والورق، وغيرها من مجالات العلوم المختلفة.

وربما كان الدافع الأول لهذا الاهتمام لدى هذه الحضارات ذلك النتاج الفكري والثقافي لمفكِّري هذه الحضارات ومُثَقَّفِيهَا، الذين شَجَّعُوا العلم بحِكَمِهم وأقوالهم، وأقاموا مجالسهم لجمع طلبة العلم والثقافة من كل مكان، وبلا شكٍّ كان لهذا الأسلوب كبير الأثر في تغيير ثقافة المجتمع نحو التقدُّم والرقي.

فالحضارة الصينية -مثلاً- ترتقي بمُعَلِّمِهَا الأول كونفوشيوس وتجعله «مُعَلِّمَ الجنس البشري وأعظم مُعَلِّم أنجبته العصور»[1]. وكانت تعاليمه هي المدرسة الأولى التي تخرَّج فيها مفكِّرُو الحضارة الصينية، والتي جمعت آلاف الطلاب، ومن تعاليمه: **على الإنسان أن يطلب العلم ولا يشبع.**

ويقول: سَلِّحْ عقلك بالعلم خير من أن تُزَيِّنَ جسدك بالجواهر.

وقد اهتمَّت الديانات السماوية بالعلم اهتمامًا كبيرًا، ووردت في الكتب المقدسة ما يحثُّ كثيرًا على العلم، وكان أول ما نزل من القرآن على الرسول محمد ﷺ: **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾** [العلم: ١- ٥]. يقول الله تعالى في القرآن: **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾** [فاطر: ٢٨]، وقال سبحانه أيضًا: **﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾** [الزمر: ٩].

(١) كامل سعفان: معتقدات آسيوية ص٢٧٠.

وقد وردت أحاديث نبوية شريفة عن رسول الله محمد ﷺ تحثُّ على العلم والاهتمام به، منها: عن أبي الدرداء ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ المَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[(١)].

وفي سفر الأمثال: «قائلةً: إلى متى أيُّها الجهَّال تحبُّون الجهل، والمستهزئون يسرُّون بالاستهزاء، والحمقى يبغضون العلم؟»[(٢)]. وفيه أيضًا: «إِذَا جَاءَ خَوْفُكُمْ كعاصفةٍ، وأتت بليَّتكم كالزَّوبعة، إذا جاءت عليكم شدَّةٌ وضيقٌ، حينئذٍ يدعونني فلا أستجيب، يُبَكِّرُونَ إِلَيَّ فلا يجدونني؛ لأنَّهم أبغضوا العلم ولم يختاروا مخافة الرَّبِّ»[(٣)]. وفي سفر يشوع بن سيراخ: «إن العلي ألهم الناس العلم؛ لكي يُمَجَّد في عجائبه»[(٤)].

واللافت للنظر أن تلك الحضارات ارتقت في أوقات متقاربة ومتزامنة، وكان العلم وسيلة مهمَّة من وسائل التواصل بينها، فكان ينظر إلى الهند -مثلاً- حتى من روما القيصرية - على أنها أمهر الأمم جميعًا في صناعات كيماوية؛ مثل: الصباغة والدبغ، وصناعة الصابون والزجاج والأسمنت، كما أن الفرس قد نقلوا بدورهم عن الهند سِرَّ صناعة السيوف الدمشقية[(٥)].

ونجد أن فولتير[(٦)] (Voltaire) وهو أحد ممثلي الحضارة الأوربية يثني بِشِدَّة على الحضارة الصينية؛ فيقول: «لقد دامت هذه الإمبراطورية أربعة آلاف عام، دون أن يطرأ عليها

---

(١) أبو داود: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٢١٧٦٣)، والدارمي (٣٤٢)، وابن حبان (٨٨)، قال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٦٢٩٧).

(٢) سفر الأمثال ١/ ٢٢.

(٣) المصدر السابق ١/ ٢٧-٢٩.

(٤) سفر يشوع بن سيراخ ٣٨/ ٦.

(٥) ول ديورانت: قصة الحضارة ٣/ ٢٤٠.

(٦) فولتير Voltaire (١٦٩٤-١٧٧٨م): أحد أشهر الكتاب والفلاسفة الفرنسيين وأكثرهم تأثيرًا، ويُعتبر كتابه كانديد (١٧٥٩م) أشهر أعماله؛ إذ تُرجم إلى أكثر من مائة لغة.

تغيُّر يذكر في القوانين، أو العادات، أو اللغة، أو في أزياء الأهلين... وإن نظام هذه الإمبراطورية لهو في الحقِّ خير ما شهده العالم من نظم»[١].

وأمَّا الحضارة الفارسية فكان لها اهتمام خاصٌّ بالعلم؛ لذلك قَدَّمَتْ حضارة علمية لا يُستَهان بها، وكان أبرز ما عُرِفَت به الحضارة الساسانية علم نظم الإدارة، والتنظيمات السياسية، وقد نَقَلَتْ عنهم كثيرٌ من أمم الأرض -بما فيهم المسلمون- هذه النظم والعلوم.

وأمَّا الحضارة المصرية القديمة فجعلوا للعلم نصيبهم الأكبر؛ حيث يُعَدُّ أعظم ما قام به المصريون الأولون من جهود حضارية هو اختراع الكتابة؛ وسواء أكانوا هم أوَّل من اخترعها، أم سبقهم في ذلك السومريون أو الصينيون فهذه مسألة موضع جدل ونظر، ولكنهم على أية حال اخترعوها مستقلين عن غيرهم.

وبالنسبة للحضارة اليونانية فقد عُرِفُوا بالتقدُّم العلمي مبكرًا في تاريخ الحضارة الإنسانية؛ إذ يذكر ول ديورانت (Will Durant) في قصة الحضارة أن العصر الذهبي للحضارة القديمة كان عند اليونان؛ حيث ظهر النشاط الثقافي في ثلاثة أشكال رئيسة؛ هي: الفن، والتمثيل، والفلسفة، ونشط فيهم علماء كثيرون، وكان عصر (بركليس[٢]) تحديدًا هو عصر النهضة البارزة علميًّا على مختلف مجالات العلوم[٣].

أمَّا بخصوص الحضارة الإسلامية فقد قَدَّمَتِ الكثير والكثير للإنسانية كلها، ولم تكن إنجازاتها مقصورة على أبناء ديانة معيَّنة أو جنس بعينه فقط، بل شملت كلَّ مَنْ عاش في كنفها مسلمًا كان أو غير مسلم، عربيًّا كان أو غير عربي؛ ممَّا يُعطي انطباعًا بأنها حضارة إنسانية جامعة.

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ٩.

(٢) بركليس: رجل دولة وأشهر حاكم لأثينا، عاش في الفترة من ٤٩٥: ٤٢٩ ق. م، يُعَدُّ عصره العصر الذهبي لأثينا؛ إذ قام بإصلاحات دستورية كثيرة من خلال برنامج إصلاحي شامل، يمنح الشعب مزيدًا من الديمقراطية، وشهدت أثينا في عهده نهضة كبيرة في كل العلوم والفنون والعمارة، والعلوم الإنسانية وخاصة التاريخ، وأشهر مَنْ نبغ في عهده الطبيب الشهير أبقراط، والمؤرخ اليوناني هيرودوت. انظر: فوزي مكاوي: تاريخ العالم الإغريقي وحضارته ص١٤٨.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ٧/ ١٧٤.

ولعلَّ من أبرز إنجازات المسلمين الحضارية كانت الحضارة العلمية؛ حيث حفظت للعالَم تراث البشرية في هذا المجال، عندما قام رُوَّاد الحضارة الإسلامية بترجمة ما وصل إليهم من كتب اليونانيين والفرس والهنود والصينيين، ولكنهم لم يكتفوا بذلك، بل نقدوا وصوَّبُوا، ثم ابتكروا وأبدعوا في مجالات العلوم والفنون والآداب؛ ليُسَطِّروا بعد ذلك في مسيرة الإنسانية تاريخًا ناصعًا مشرِّفًا، وحلقة مهمَّة من حلقاتها، لا يمكن تجاهلها.

مما لا شَكَّ فيه أن هذه العلاقة بين الحضارة والعلم ليست في الحضارات القديمة فقط، فالولايات المتحدة الأميركية -مثلاً- لم تتفوَّق على دول العالم لقوتها العسكرية فقط، بل ومع اعترافنا بقدرة الآلة العسكرية الأميركية إلاَّ أن أهم ما يميز النهضة الأميركية أنها نهضة شاملة قِوَامها العلم، فهو القاعدة التي ارتكزت عليها هذه النهضة.

وتجربة اليابان الحديثة تُوَضِّح لنا السبيل الذي أَدَّى إلى هذه الإنجازات العلمية والتقنية والاقتصادية، والذي جعلها قدوةً ونموذجًا لمعظم دول شرق آسيا، ألا وهو الاهتمام بالعلم وتشجيع العلماء، وتبنِّي نظرياتهم وأفكارهم، وترجمتها إلى واقع عملي.

وعلى غرار التجربة اليابانية كانت التجربة الكورية الجنوبية، واللافت في تلك التجربة هو الدور المحوري للعلم فيها؛ فلقد أدركت كوريا مبكرًا أنه لا أمل لنهضتها إلاَّ بتحقيق طفرة علمية وتكنولوجية تمكِّنها من تعويض افتقارها الشديد للموارد الطبيعية.. كما أنَّ من أهم الدروس الجليَّة التي يمكن استخلاصها من النهضة العلمية لكوريا الجنوبية - أيضًا - عملها بقاعدة: البداية من حيث انتهى الآخرون، وقد قادتها هذه القاعدة إلى اتِّباع سياسة نقل التقنية الحديثة، ثم دراستها والاستفادة منها، وأخيرًا تطوير هذه التقنية وسبقها[1].

إن كل ما سبق يجعلنا نُقَرِّرُ أن العلم كان مشتركًا إنسانيًّا عامًّا بين اهتمامات تلك الحضارات، التي عندما انتهج محرِّكُوها منهج العلم وأخذوا بأسبابه، ارتقت في مدارج السماء؛ لتصبح شعلة تضيء سماء الإنسانية، وعلى العكس، فعندما حاد محرِّكُو تلك الشعوب والأُمَم عن الاهتمام بالعلم، وانتهجوا منهج الجهل والخرافات؛ فإن هذا يقود الأُمَّة إلى

(١) راغب السرجاني: العلم وبناء الأمم.. دراسة تأصيلية في بناء الدولة وتنميتها ص٤٣٠-٤٥٣.

الانهيار، ولعلَّ أبرز دليل على ذلك ما وصلت إليه أوربا في القرون الوسطى، فمع السيطرة الكنسية على مقاليد الأمور في أوربا الغربية كلها، ساد الجهل وعمَّت الخرافة، فقد ارتكبت الكنيسة الكاثوليكية أكبر الجرائم الإنسانية عندما حاربت المخالفين لها باسم الدين والإله، فأعلنت الحرب على كلِّ فكر خارج عن إرادة الكنيسة، فحاربت العلم والعلماء وأذلَّتْهم وأحرقتهم، وأقامت لهم محاكم التفتيش، وصادرت كتبهم وأحرقتها، وأصدرت منع القدَّاس والغفران عن كل مَنْ يعتقد بآرائهم وأقوالهم، وأشهرهم العالم الفلكي الشهير جاليليو والمصلح يان هوس[(١)].. وغيرهم كثير، لقد خرجت الكنيسة عن معاني الفطرة الإنسانية بتشجيعها الجهل وتخويف الناس من العلم، وهذا منافٍ للفطرة السليمة التي تُشَجِّع العلم والاستنارة، وإعمال الفكر والتدبُّر في الطبيعة، والإنسانُ بطبعه يقبل العلم ويشجِّعه؛ فالعلماء هم ورثة الأنبياء والمرسلين، وأكثر الناس معرفة بالإله الخالق.

العلم نقطة تواصل بين الشعوب:

أَدَّت العلوم الحياتية دورًا بارزًا في مسيرة الالتقاء الحضاري بين الشعوب على الرغم من التباعد النسبي بين تلك البلاد، بما يُحَقِّق المصالح المشتركة لترتقي كل حضارة بعلم الآخرين.

فالحضارة اليونانية -مثلاً- شهدت تقدُّمًا فريدًا في مجال الطب، وقد نال أبقراط شهرة كبرى، حتى كان من بين مرضاه حُكَّام؛ مثل: برديكاس[(٢)] (Perdiccas) ملك مقدونيا، وأردشير الأول[(٣)] ملك الفرس[(٤)].

وفي الوقت الذي شهدت فيه الحضارة الفارسية نجاحًا كبيرًا في مجال العلوم الطبية، كان الأطباء الرومان يُقَاومون حملة اضطهاد ضِدَّهم في رومانيا، وهذا ما دفعهم إلى اللجوء للعيش وسط المجتمع الساساني، الذي لم يجد غضاضة من الانتفاع علميًّا بهم، وقد سهَّل

---

(١) يان هوس (١٣٧٢-١٤١٥م): مفكر ديني، وفيلسوف ومصلح تشيكي، قاد حركة الإصلاح الكنسي في أوربا ضد الكنيسة الكاثوليكية، فاتهمته الكنيسة بالزندقة ومات حرقًا.

(٢) برديكاس Perdiccas (ت ٣٢١ ق. م): أحد كبار جيش الإسكندر الأكبر، وكان حاكمًا على ولاية مقدونيا.

(٣) أردشير الأول: هو أردشير بن بابك بن ساسان، مؤسس الإمبراطورية الساسانية الفارسية، حكم في الفترة (٢٢٦-٢٤١م)، في عهده أصبحت الديانة الزرادشتية هي دين الإمبراطورية الساسانية الرسمي.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ٧/ ١٨٦.



ذلك تحقيقَ إنجاز فريد، وهو إنشاء مدرسة لتخريج الأطباء؛ فكانت أفضل مدارس الطب في جنديسابور آنذاك، وظلَّت هذه المدرسة مزدهرة، وتُخرِّج العديد من الأطباء حتى بدايات العصر الإسلامي[١].

وفي عهد الإمبراطور الروماني فسبازيان[٢] افتُتحت مُستَمَعات (Auditoria) لتعليم الطب، يتولَّى التعليمَ فيها أساتذة تعترف بهم الدولة، وتؤدِّي إليهم رواتبهم، وكانت اللغة اليونانية لغة التعليم في هذه المعاهد، كما أنَّ اللغة اللاتينية هي اللغة التي تُكتَبُ بها تذاكرُ الدواء[٣].

فكل هذه النماذج دليل على عمق التواصل بين هذه الحضارات فيما هو سبب للتقدُّم والرقي؛ ولعل البعثات العلمية بين الدول والحضارات أبرز مظاهر ذلك التلاقي، فعلى الرغم من الاختلاف العرقي والجغرافي والعقدي، إلاَّ أن نقطة التلاقي هي التعاون المشترك من أجل الرقيِّ والمدنية، والنموذج الراقي لتلك العلاقة تمَثَّل قديمًا في اتِّصال الحضارة الإسلامية بالغرب الأوربي المسيحي خلال العصور الوسطى -والتي كانت تمرُّ خلالها أوربا بفترة ظلام دامس- يكاد يُجْمِعُ المؤرِّخون على أن هذا الاتصال تَمَّ من طرق ثلاث رئيسة، اختلفت فيما بينها من حيث النشاط وكَمِّيَّة المنقول الثقافي، وهي الأندلس (إسبانيا والبرتغال) وصقلية والحروب الصليبية.

يقول المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون[٤] (Gustav Lebon): «ولم يَكَدِ العرب يُتِمُّونَ فتح إسبانيا حتى بدءوا يقومون برسالة الحضارة فيها؛ فاستطاعوا في أقلَّ من قرن أن يُحْيُوا مَيت الأرضين، ويُعَمِّرُوا خراب المدن، ويُقيموا فخم المباني، ويُوَطِّدُوا وثيق الصلات

---

(١) حسن بيرنيا: تاريخ إيران القديم ص٣٠٠ وما بعدها.

(٢) فسبازيان Vespasian (٩-٧٩م): إمبراطور روماني، ازدهرت روما في عهده اقتصاديًا، أسس درجة الأستاذية في الجامعات لتشجيع العلم والتعلم.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٠/ ١٩٥.

(٤) جوستاف لوبون Gustav Lobone (١٨٤١-١٩٣١م): مستشرق فرنسي، قام بدراسات متخصصة في علم النفس والاجتماع، من أشهر كتبه: حضارة العرب، الذي يعدّ من أمهات الكتب التي صدرت في العصر الحديث في أوربا لإنصاف الحضارة العربية الإسلامية.

التجارية بالأمم الأخرى، ثم شرعوا يتفرَّغون لدراسة العلوم والآداب، ويُتَرْجِمون كتب اليونان واللاتين، ويُنْشِئُون الجامعات التي ظَلَّتْ وحدها ملجأً للثقافة في أوربا زمنًا طويلاً»[(١)].

وبفضل هذا التفوُّق والإبداع غدت جامعات العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه مطلبًا لملوك أوربا، والأمراء يَفِدُون إليها رغبة في العلم تارة، وفي العلاج تارة أخرى، وهو ما دعا جوستاف لوبون يتمنَّى لو أن المسلمين استولوا على فرنسا؛ لتغدو باريس مثل قرطبة في إسبانيا المسلمة[(٢)]! وقال تعبيرًا عن عظمة الحضارة العلميَّة في الإسلام: «إن أوربا مَدِينَةٌ للعرب (المسلمين) بحضارتها»[(٣)].

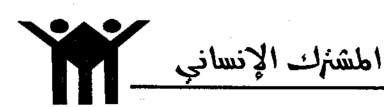
وتدلُّنا جميع الوثائق التاريخية على أن جميع الأطباء والمؤلفين الأوربيين في الطب في القرون الوسطى استقوا معظم كتاباتهم وأهمَّها عن العرب لا عن اليونان[(٤)].

لقد اعتاد ملوك أوربا أن يُرسلوا بين الحين والحين البعثات العلمية إلى الديار الإسلامية لدراسة علوم المسلمين ونقلها إلى اللغات الأوربية؛ ومنها علم الطب، ومن البعثات العلمية المبكرة التي أُرْسِلَتْ إلى العالم الإسلامي من أوربا تلك البعثات المتواصلة التي كانت تَفِدُ إلى الأندلس من الأقطار الأوربية؛ كإيطاليا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا حتى بلغت سنة ٣١٢هـ في عهد الخليفة الناصر زهاء سبعمائة طالب وطالبة، وكان من بين تلك البعثات بعثة علمية فرنسية برئاسة الأميرة إليزابث ابنة خال الملك لويس السادس ملك فرنسا آنذاك[(٥)].

وإذا كانت الحضارة الإسلامية قَدَّمَتِ النموذج الأمثل في مسيرة التواصل بين الشعوب المختلفة (الأعراق والديانات)، فإنها ضربت النموذج الأمثل كذلك في تعميق روح التواصل بين أبناء الأُمَّة الواحدة مع اختلاف الدين والعرق، وهو نموذج ربما لم ولن يتكرَّر في حضارة أخرى؛ فقد كان الخلفاء المسلمون وأبناؤهم من الأمراء وأعوانهم من الوزراء يستعينون

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٢٧٣.
(٢) المرجع السابق ص١٣، ٣١٧.
(٣) المرجع السابق ص٥٦٦.
(٤) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، ص٣٢١.
(٥) سعد البشري: الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، ص٥٣٢-٥٣٣.



بالعديد من العلماء النابغين في مجالاتهم العلمية المختلفة، ويتقرَّبون إليهم ويُشَجِّعونهم دون النظر إلى العقيدة أو العرق أو الأصل؛ فالتاريخ شاهد على تلك المكانة التي نالتها عائلة بختيشوع[١] النصرانية، وقد كانت لهذه العائلة مكانة خاصَّة في قلوب خلفاء بني العباس؛ فقد كان منهم الوزراء والأطباء البارزون المحنَّكُون، وقد ظَلَّتْ هذه الأسرة مهتمَّة بالطب حتى القرن الخامس الهجري تقريبًا؛ ومنهم: جرجيس بن جبرائيل صاحب كتاب الكُنَّاش الشهير، وهو طبيب الخليفة العباسي المنصور[٢]؛ ومنهم: جبرائيل بن بختيشوع الطبيب الخاصُّ لجعفر بن يحيى البرمكي، كما كانت له منزلة كبيرة لدى المأمون[٣]؛ ومنهم: بختيشوع بن جبرائيل وهو سرياني المذهب، الذي كان قريبًا من الخليفة المتوكل[٤]، وكان المتوكل يُجِلُّه؛ لذا حصل منه على المال الكثير؛ حتى إنه كان يُضاهي المتوكل في لبسه ومظهره، على أن التاريخ الإسلامي قد شهد العديد من هذه النماذج المتوارثة، وخاصة في مجال العلوم الطبية، فهناك آل ثابت بن قرة وآل حنين بن إسحاق، وآل ماسويه أبو يوحنا، وكل هؤلاء كان لهم فضل وعلم وشهرة في مجال العلوم الطبية[٥].

وكان من أشهر العلماء كذلك السموأل بن يحيى[٦]، الذي كان يهوديًّا وأسلم، وهو ابن حبرٍ من أحبار اليهود، ومن كُتبه (الباهر) في الجبر؛ ومنهم: أوحد زمانه هبة الله بن ملكا،

---

(١) معنى بختيشوع: عبد المسيح؛ لأن في السريانية البخت هو العبد، ويوشع هو المسيح ﷺ.

(٢) المنصور العباسي: هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن العباس المنصور (٩٥ - ١٥٨هـ = ٧١٤ - ٧٧٥ م) ثاني خلفاء بني العباس، وأول من اعتنى بالعلوم من ملوك العرب، وهو باني مدينة بغداد، وهو والد الخلفاء العباسيين جميعًا، توفي مُحْرِمًا بالحج، ودُفن بمكة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٧/ ٨٣- ٨٩.

(٣) المأمون العباسي: هو عبد الله بن هارون الرشيد المأمون العباسي (١٧٠-٢١٨هـ=٧٨٦-٨٣٣م)، سابع خلفاء بني العباس في العراق، وأحد أعاظم الملوك في سيرته وعلمه وسعة ملكه، وكان فصيحًا مفوَّهًا، واسع العلم. انظر: الزركلي: الأعلام ٤/ ١٤٢.

(٤) المتوكل على الله العباسي: هو أبو الفضل جعفر بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد، المتوكل على الله العباسي، (٢٠٦-٢٤٧هـ=٨٢١-٨٦١م)، قالوا: الخلفاء ثلاثةٌ: أبو بكرٍ يوم الرِّدَّة، وعمر بن عبد العزيز في ردِّ المظالم من بني أميَّة، والمتوكِّل في محو البدع وإظهار السُّنَّة. الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٠-٤١.

(٥) ذكر ابن أبي أصيبعة هذه العائلات في كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء)، مع ترجمة مفصلة لهم.

(٦) السموأل بن يحيى المغربي: طبيب مسلم، نبغ في علوم كثيرة؛ منها: الجبر، والطب، والهندسة، وغيرها، توفي بأذربيجان عام (٥٧٠ هـ=١١٧٤ م)، من كتبه: المفيد الأوسط في الطب، الباهر في الجبر. انظر: ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٣/ ١٥٤- ١٥٥.

وكان يهوديًّا متعصِّبًا وقد أعلن إسلامه، وكان مُقَرَّبًا من الخليفة العباسي المستنجد بالله[1]، وله الفضل في اكتشاف قانوني الحركة الثاني والثالث (كما سماهما نيوتن فيما بعد).

فالتاريخ يُثبت أن الحضارة الإسلامية حضارة إنسانية متفوِّقة استطاعت استيعاب كلِّ مَنْ كانوا في ظِلِّها الرغيد، ووَفَّرَتْ لهم فرصة أن يَتَفَوَّقُوا وينبغوا، دون أن تنظر بحساسية لاختلاف الدين أو العرق.

وقد شهد التاريخ على سعة الأفق التي تمتع بها النورمانديون، عندما دخلوا صقلية وأسقطوا الحكم الإسلامي فيها، فعلى الرغم من أن الحكم الإسلامي للجزيرة قد انتهى في أواخر القرن الحادي عشر، إلاَّ أن الحضارة الإسلامية فيها استمرَّت في ظِلِّ رعاية خلفائهم النورمان، الذين عاش في كنفهم العديد من العلماء المسلمين؛ أمثال العالم الجغرافي محمد الإدريسي[2]، الذي رسم لروجر الثاني[3] (١١٣٠-١١٥٤م) خريطة للعالَم المعروف في عصره، كما أَلَّف له كتاب: (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)[4]، كما ألف كتاب (روض الأنس ونزهة النفس) بناءً على تكليف من غليوم الأول الذي خلف (روجر الثاني)[5]، وكان لحُكَّام صقلية النورمانديين مستشارون وموظَّفُون من العرب والمسلمين، وانضمَّ تحت لوائهم علماء من بغداد وسوريا، والأكثر من ذلك أن يتخذ ثلاثةٌ من ملوك النورمان في صقلية ألقابًا عربية؛ حيث حمل روجر الثاني لقب (المعتز بالله)، وحمل وليام الأول لقب (الهادي بأمر الله)،

---

(١) المستنجد بالله: هو أبو المظفر يوسف ابن المقتفي لأمر الله محمد ابن المستظهر ابن المقتدي العباسي (٥١٠ - ٥٦٦هـ = ١١١٦ - ١١٧٠م)، خليفة عباسي، كان موصوفًا بالعدل والرفق، وله نظم، ونثر، ومعرفة بالأسطرلاب، مات مقتولاً في الحمام. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤١٢- ٤١٨.

(٢) الإدريسي: هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (٤٩٣- ٥٦٠هـ=١١٠٠- ١١٦٥م) من أكابر العلماء بالجغرافيا، رحل رحلة طويلة انتهى بها إلى صقلية، فنزل على صاحبها روجر الثاني، ووضع له كتابًا سمَّاه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، والذي ظلَّ مصدرًا أساسيًّا لدارسي الجغرافيا الأوربيين على مدار أكثر من أربعة قرون. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ١٣٨.

(٣) روجر الثاني Roger II (١٠٩٥-١١٥٤م): ملك النورمان، وأحد أعظم ملوك أوربا في عهده، حكم صقلية ١١٣٠م، وقرب إليه الإدريسي العالم الجغرافي المسلم وألف له كتابًا سمَّاه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق».

(٤) نقلاً عن: مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص٢٨، وانظر في قصة تأليف (نزهة المشتاق) للإدريسي، كذلك زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص٤١٦، ٤١٧.

(٥) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٣٨٩.



وحمل وليام الثاني لقب (المستعز بالله)، وقد ظهرت هذه الألقاب في نقوشهم[1]. كما احتفظ النورمان بأصحاب المهن من المسلمين لثقتهم الكبيرة فيهم[2]، واحتفظوا كذلك بنفس النظم الإدارية المالية التي كان يستخدمها المسلمون، بدايةً من ديوان التحقيق[3]، وديوان المعمور[4]، وانتهاءً بديوان الفوائد[5]، وكانت سجلات هذه الدواوين تُكتب بالعربية[6]، **(انظر: صورة رقم ١٤ خريطة الإدريسي - جامع قرطبة)**.

وهذا التصرُّف الحضاري الحكيم جعل دَفَّة الأمور الآن تسير في اتجاه آخر؛ فالبعثات العلمية الآن -من دول العالم العربي خاصَّة والإسلامي عامَّة- تَتَّجِهُ إلى جامعات أميركا وأوربا واليابان، دليلاً على أن هذه دورة من دورات قيام الأمم وقوتها، ولكنها في النهاية وسيلةِ مهمَّة من وسائل التواصل بين الشعوب.

وهذا النموذج الناجح في محاولة التواصل الحضاري، هو عكس ما قام به الصليبيون خلال العصور الوسطى من حرق المكتبات، وطمس كل ما هو علمي إسلاميًّا كان أو غير إسلامي، تَمَثَّل هذا النموذج في حرق المكتبات العلمية، ودفن ما بها من ذخائر العلوم والمؤلفات؛ مما أحدث كارثة حضارية في مسيرة الإنسانية كلها.

فقد أحرق الصليبيون الأوروبيون في مكتبة طرابلس (ثلاثة ملايين) مجلد، عندما وقعت في أيديهم! وعندما سقطت قرطبة في يد نصارى الأندلس سنة ٦٣٦ هجرية (قبل سقوط بغداد بعشرين سنة فقط!) قاموا بحرق مكتبة قرطبة تمامًا.. وقام بذلك أحد قساوسة النصارى بنفسه.. وكان اسمه (كمبيس)، وحرق كل ما وقعت عليه يده من كُتب بُذِلَتْ فيها آلاف الأعمار وآلاف الأوقات، وأُنفق في سبيل كتابتها الكثير من المال والعَرَق والجهد.

---

(١) عزيز أحمد: تاريخ صقلية، ص٧٦.

(٢) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص٢٩٨.

(٣) هو ديوان الإدارة المالية للجزيرة.

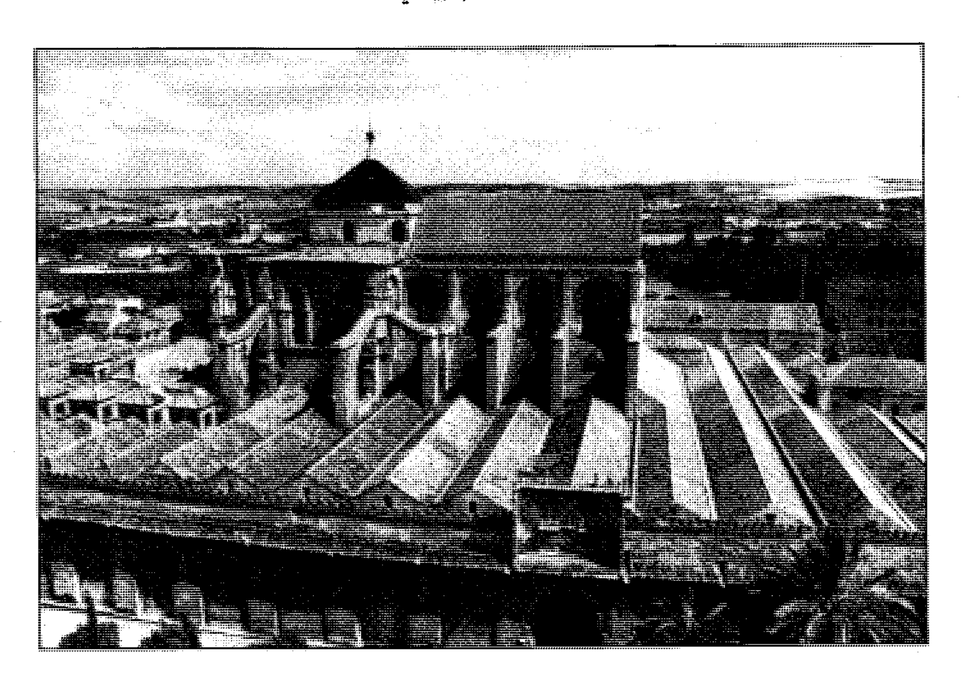
(٤) وهو ديوان ينبثق من ديوان التحقيق، ويختص ببيت المال (الخزانة).

(٥) وهو ديوان يختص بتسجيل بيع الأراضي.

(٦) ل. جينواردي: الدفاتر النورمانية، ١/ ١٥٩-١٦٤.

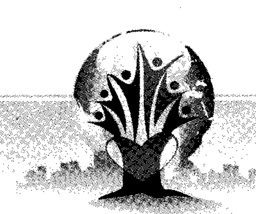


خريطة الإدريسي



جامع قرطبة

صورة رقم (١٤)





وفعلها الصليبيون في الأندلس أكثر من مرَّة في مكتبات طُلَيْطلَةَ وإِشْبِيلِيَة وبَلَنْسِيَة وسَرَقُسْطَة.. وغيرها، ثم بعد ذلك في مكتبة غرناطة عند سقوطها، فأحرقوا مليون كتاب في أحد الميادين العامة!

وفعلها الصليبيون النصارى في فلسطين في مكتبات غزة والقدس وعسقلان.

ولعلَّ أبشع صور طمس المعالم الإنسانية ما قام به التتار في مكتبة بغداد، لقد حمل التتار الكتب الثمينة.. ملايين الكتب الثمينة... وألقوا بها جميعًا في نهر دجلة! حتى تحوَّل لون مياه نهر دجلة إلى اللون الأسود من أثر مداد الكتب.. وحتى قيل: إن الفارس التتري كان يعبر فوق المجلدات الضخمة من ضفة إلى ضفة أخرى[1]!

إن هذه النماذج وغيرها من نتيجتها تعمُّق روح الكراهية والحقد بين الشعوب، ولن يقوم بذلك تواصل حضاري أبدًا، على عكس ما رأيناه في صقلية.

هذا؛ وقد أدَّت الترجمة دورًا بارزًا في مسيرة الالتقاء الحضاري، خاصَّة في مجال العلوم الإنسانية والحياتية؛ حيث تذكر المصادر التاريخية أنه بعد وفاة أردشير الفارسي تولَّى الحكم ابنه شابور، الذي اهتمَّ بالعلوم فأمر بترجمة الكثير من الكتب الإغريقية في شتَّى العلوم؛ كالطب والفلك والفلسفة[2]، وابن سينا -مثلاً- قد تُرجمت كتبه في الطب إلى اللاتينية ومعظم لغات العالم، وظلَّت حوالي ستة قرون المرجع العالمي في الطب، واستُخْدِمَتْ كأساس للتعليم في جامعات فرنسا وإيطاليا جميعًا، وظلَّت تُدَرَّس في جامعة مونبلييه حتى أوائل القرن التاسع عشر[3]، كما كان لمدارس الترجمة التي أنشأها الملوك والأساقفة في طليطلة عقب سقوطها بأيدي النصارى عام (٤٧٨هـ=١٠٨٥م)، مثل الأسقف رودريجو خيمينث دي رادا[4]، وملك قشتالة ألفونسو العاشر، الملقب بالحكيم -أثر كبير في نقل الثقافة الإسلامية

---

(١) راغب السرجاني: قصة التتار من البداية إلى عين جالوت ص١٥٨-١٦٢.

(٢) حسن برنيا: تاريخ إيران القديم، ص٢٣٠.

(٣) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٤٩٠.

(٤) رودريجو خيمينث (أو Ximénez) دي رادا (١١٧٠ - ١٢٤٧م): كبير الأساقفة في طليطلة، وكبير مستشاري ألفونسو الثامن ملك قشتالة، وهو مَنْ أمر بترجمة القرآن إلى اللاتينية، وتوفي بالقرب من ليون.



من بلاد الأندلس إلى أوربا، وقد أَدَّتْ هذه المدارس إلى استقطاب أعداد غفيرة من رجال الفكر الأوربيين، والمنتمين إلى الأديان السماوية المختلفة (الإسلامية، والنصرانية، واليهودية)، إلى شبه الجزيرة، وبرزت منهم أسماء لامعة؛ منها: جيرار دي كريمونا[١]، وروبرت دي شستر[٢]، ومايكل سكوت[٣][٤].

ولو تَتَبَّعْنَا تاريخ الالتقاء العلمي بطرقه المختلفة بين الحضارات لأخذنا الوقت الكثير بين دفتي الكتب والمراجع العربية والغربية، فحسب ذلك تدليلاً على أن العلم يمثل نقطة تواصل مهمَّة وواضحة بين الشعوب، ومن ثم فهو مشترك إنساني عام.

***

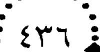
---

(١) جيرار دي كريمونا Gerard de Gremona (١١١٤-١١٨٧م): إيطالي، قصد طليطلة وهو أشهر المترجمين في إسبانيا، ترجم ما لا يقل عن ٨٧ مصنفًا في الفلسفة والطب والفلك.

(٢) روبرت شستر Robert of Chester: مستشرق لاتيني، ترجم العديد من الكتب العربية إلى اللاتينية، خاصة في الكيمياء والجبر، وأشهرها ترجمته كتب الجبر للخوارزمي حوالي سنة ١١٤٥م.

(٣) مايكل سكوت Michael Scot (١١٧٥-١٢٣٢م): عالم رياضيات وفلكي ومنجم وطبيب أسكتلندي، ترجم عددًا من أعمال أرسطو من العربية والعبرية إلى اللاتينية.

(٤) مارغريتا لوبيز غوميز: إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوربا عبر الأندلس، نقلاً عن موسوعة الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي ٢/ ١٤٧٨، ١٤٧٩. بتصرف.



العمـــــل

العمل مشترك إنساني عام:

العملُ قيمةٌ إنسانية سامية؛ ففطرة الإنسان منذ أن خُلق تُقَدِّر قيمة العمل، وحاجةُ الإنسان إلى العيش الكريم، وحاجته إلى الحصول على احتياجاته الأساسية من الطعام والشراب والمسكن تدفعه إلى أن يحترم قيمة العمل، وبالتالي تقدير كلِّ مَنْ يُقَدِّر تلك القيمة التي بها يستطيع العيش هو وزوجه وأولاده وأهله ومجتمعه، ومن ثَمَّ التقدُّم والرقي لحضارته.

والواقع أن قصة العمل في الدنيا هي قصة الإنسان منذ بداية وجوده؛ ففي العصور الحجرية الأولى تميَّز الإنسان بتقدُّمه في تقنية قشر الأدوات الحجرية، واستخدامها في مهامِّه اليومية؛ فلقد أعانته هذه الأدوات على توفير الجهد الكبير الذي بذله في العصور التي سبقت ذلك العصر، ثم تَمَّ له على الأقلِّ ثلاثة اختراعات رائدة، كان لها دورها الكبير في تطوُّر مسيرة العمل؛ وهي: تدجين[(١)] الكلب، والرمي بالقوس وتصوير الحيوانات والأحياء البشرية وصناعة نماذج لها[(٢)]؛ فنجاح صيادي العصر الحجري القديم في تأنيس الكلاب؛ بحيث أصبحت للإنسان خادمته المطيعة، بعد أن كانت الخصم المزاحم له، كان أوَّل نجاح للإنسان في أن يجعل الحيوانات تقوم على خدمته، ولَمَّا اخترع الإنسان القوس سخَّر قوَّة طبيعية غير حيَّة، وهي مرونة الخشب لتُمَكِّن قوَّة عضلاته، وذلك بشدِّ القوس من أن تُطلق سهمًا إلى مسافة أبعد مما يمكن للذراع البشري من إطلاقه دون عون، كل هذا ساعده بشكل لافت وملحوظ في تطوُّر أعماله، وتحصيل ثمرات أجود وأكثر مما كان يحصل عليها من قبل[(٣)].

---

(١) التدجين؛ أي: جعله يألف البيوت ويقيم بها. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة دجن ١٣/ ١٤٧، والمعجم الوسيط ١/ ٢٧٢.

(٢) يقصد النحت على جدران الكهوف والسطوح الخشبية.

(٣) أرنولد توينبي: تاريخ البشرية ص٦٢.

ومع تقدُّم إنسان ما قبل التاريخ إلى مرحلة جديدة بفضل العمل والجهد، بدأت الحضارات العالمية الأولى في الظهور؛ كالحضارة المصرية؛ فالحضارة المصرية القديمة التي «ظهرت منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد ثمرة للبيئة الطبيعية الإفريقية، ولقد ازدادت هذه الحضارة غنًى بما جاءها من القارة الآسيوية»[١]، وذلك عن طريق التجار والصناع الآسيويين، فازدهار الصناعة والتجارة في تلك القرون الغابرة في مصر القديمة يُدَلِّل بكل وضوح على الانفتاح العالمي الذي شهدته مصر وقتئذٍ، بل يُؤَكِّد على دور العمل في نهضة تلك الحضارة التي كانت خليطًا من عُمَّال آسيا وإفريقيا، وكأن الطبقة العمَّالية العالمية هي التي أسهمت بشكل لافت ومباشر في ازدهار الحضارة المصرية، كما يرى دنيس بولم.

الأديان السماوية وقيمة العمل:

إننا نلاحظ مما سبق أن كل الشعوب والأمم على مدار التاريخ أيقنوا أن العمل قيمة مهمَّة من قيم الحياة، بل إنه أكبر دليل على اعتماد الإنسان على نفسه في سدِّ احتياجاته ومتطلَّباته، والأديان السماوية تُؤَكِّد وتحضُّ على قيمة العمل، بل تُدَلِّل على أنه مشترك عامٌّ بين البشر، فمن خلاله تحبُّ البشرية بعضها؛ ففي العهد الجديد: «وأمَّا مَنْ كان له معيشة العالم، ونظر أخاه محتاجًا، وأغلق أحشاءه عنه، فكيف تَثْبُتُ محبَّةُ الله فيه؟ يا أولادي؛ لا نُحِبُّ بالكلام ولا باللِّسان، بل بالعمل والحقِّ!»[٢].

كما أن الإسلام رفع كثيرًا من قيمة العمل، وحثَّ عليه وربطه بالأجر والمثوبة في الدنيا والآخرة؛ بل إن الإسلام جعل الإيمان والعمل قرينين، وربطهما برباط وثيق؛ فالإيمان الصادق ليس مجرَّد إدراك ذهني أو تصديق قلبي غير متبوع بأثر عملي في الحياة.. كلاَّ؛ إنه اعتقاد وعمل وإخلاص.

وإن العمل المقصود هنا، هو كل عمل فيه نفع للبشرية وسعادة للإنسانية؛ سواء العمل الإيماني والتعبُّدي أو العمل الحياتي الدنيوي، فكلاهما حثَّ الإسلام عليه وربطه بالإيمان.

---

(١) دنيس بولم: الحضارات الإفريقية، ص٢٩.

(٢) رسالة يوحنا الرسول الأولى ٣/ ١٧، ١٨.

وقد ذكر القرآن الكريم الإيمان مقرونًا بالعمل في أكثر من سبعين آية من آياته، ولم يكتفِ بمجرَّد العمل، ولكنه يطلب عمل الصالحات؛ ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١- ٣]، وعمل الصالحات هي كلمة جامعة من جوامع القرآن، تشمل كلَّ ما تصلح به الدنيا والدين، وما يصلح به الفرد والمجتمع، وما تصلح به الحياة الروحية والمادية معًا.

وقد حثَّ الإسلام على استغلال الموارد البيئية، وبذل الجهود في استصلاحها وتوظيفها بما يُحقِّق الرخاء والنماء البشري، يقول الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وقد وردت أحاديث عن رسول الله محمد ﷺ تحثُّ على العمل والسعي في طلب الرزق؛ فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ؛ وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»[1]. وقال ﷺ: «لأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ»[2]. كما أن الإسلام حفَّز على بعض المهن والصناعات؛ فقال رسول الله ﷺ: «لاَ يَغْرِسُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ غَرْسًا وَلاَ زَرْعًا، فَيَأْكُلَ مِنْهُ سَبُعٌ أَوْ طَائِرٌ أَوْ شيءٌ إِلاَّ كَانَ لَهُ فِيهِ أَجْرٌ»[3].

فالعمل إذًا مشترك بين البشر، بل إنه في الإسلام قيمة يُحاسب الله البشر عليها إذا قصَّروا أو تقاعسوا عن أدائها.

العمل وسيلة للتواصل بين الشعوب:

منذ القدم كان العمل عاملاً رئيسًا في تفعيل العلاقات بين الدول والحضارات، ومن ذلك العلاقات التجارية المتبادلة بين مصر والسودان النيلي، وكانت هذه العلاقات تعتمد على العمل في تجارة الذهب والعاج والرقيق والصبغ والحيوانات الغريبة، وكانت لهذه الأعمال

(١) البخاري: كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده (١٩٦٦) عن المقدام بن معديكرب.
(٢) البخاري: كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده (١٩٦٨) عن أبي هريرة، ومسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس (١٠٤٢).
(٣) مسلم: كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع (١٥٥٢) عن جابر بن عبد الله، وأبو يعلى (٢٢٤٥).

التجارية أثر كبير في خلق اتصالات منظَّمة بين الكوردوفان ودارفور والمناطق المجاورة لبحيرة تشاد.

على أن مقدار التواصل بين الشعوب والأمم قد تَعَدَّى الاكتساب المادي، إلى تبادل التأثير بالعادات والتقاليد والطقوس في الملبس والمأكل والمشرب، وأدوات الزينة، وطرق دفن الموتى؛ فقد دلَّت بعض الحفريات المصرية القديمة على وجود طقوس في دفن الموتى قريبة من الطقوس التي يمارسها حكام غانا في قلب القارة الإفريقية، ومن بين الأدوات البرونزية التي اكتشفت حديثًا في نيجيريا، نرى بعض القبعات الملكية التي تُذَكِّرنا بتيجان حكام النوبة بمصر الجنوبية.

وكان للعمل التجاري الذي اشتهرت به الحضارة الفينيقية أثر كبير في تعميق الاتصالات بين شعوب الأفارقة وشعوب حوض البحر الأبيض المتوسط، فأقاموا علاقات مع شعوب الجارامانت[1]، وكان لهم مملكة في منطقة الفزَّان وعاصمتها جارما وهي موجودة حتى الآن.

وفي أيام الحكم القرطاجني كانت قوافل الجارامنت تحمل إلى المدن الساحلية على البحر الأبيض المتوسط الريش والنعام، المجلوب من إفريقيا الوسطى، ومسحوق الذهب من السودان، وربما معدن القصدير من هضبة باوتشي في نيجيريا الحالية، كما كانت تتمُّ بينهم مبادلات تجارية حتى القرون الوسطى؛ إذ كان التجار يحطون رحالهم في مراكز مؤقَّتة على طرف الصحراء قرب المقاطعات المجاورة؛ حيث يُقَدِّمُون الملح والأقمشة والنحاس والمصنوعات الزجاجية، مقابل الذهب الذي جاءوا ينشدونه.

وبلا شكٍّ فإن تلك المبادلات التجارية والعمالية -التي دامت زهاء عدَّة قرون- تجعلنا نعتقد أن القرطاجيين ومِنْ قبلهم المصريين قد أدخلوا إلى إفريقيا بعض معالم الحضارة، وقد ظهرت ملامح التواصل بين المصريين القدماء وشعوب الأفارقة في انتقال زراعة القطن وعمل الخيطان ونسج القطن، واستعمال طرق النسج العمودية إلى شعوب إفريقيا، مقابل

(١) الجارامانت: شعوب كانت تسكن في سهول فزان بليبيا حوالي الألف قبل الميلاد.



انتقال صناعة القوارب من القصب وصناعة الكلاليب بين الصيادِين المصريين.

وفي القرون الأولى قبل الميلاد هرب بعض اليهود خوفًا من الظلم والاضطهاد من إفريقيا الشمالية ولجأوا إلى منطقة واحات توات، وبما أنهم من العمال الفنيين والتجار فقد تمكَّنُوا من أن يُؤَدُّوا دورًا مهمًّا في تجارة الذهب، حتى وصل بعضهم إلى السودان، وظلَّ الأمر كذلك حتى سنة ١٤٨٦م؛ حيث أمر ملك البرتغال بنقل اليهود إلى شاطئ غينيا، بعد أن رفضوا تغيير عقيدتهم، وهناك تزوَّجُوا واختلطوا بأهل البلاد، وكوَّنوا مستعمرة في جزيرة سان تومي، وكان اليهود أوَّل مَنْ بذر بذور شجر الكاكاو، الذي يُعَدُّ ثروة غينيا إلى الآن(١).

وقد كان للعمل دور بارز في مسيرة التواصل بين المعماريين الرومانيين والمعماريين اليونانيين والمصريين، وإن أهمَّ ما اقتبسه الرومان عن اليونان عمل الأعمدة الدورية والأيونية، كما أن الرومان أخذوا عن العمال في آسيا الصغرى صناعة العقود والأقواس والقباب، وإن هذا التأثُّر المتنوِّع من حضارات الأمم الأخرى جعل من روما أعظم عواصم العالم(٢).

في نظرة حول دور العمالة في الواقع المعاصر؛ نجد أن معظم اقتصاديات العالم في أوربا وأميركا وإفريقيا تقوم على العمالة الوافدة أو المهاجرة، فضلاً عن العمالة الداخلية من أبناء البلد الأصليين؛ حتى إننا لنجد في الشركة الواحدة أكثر من عامل تتنوَّع أجناسهم وألوانهم وعقيدتهم، ولم يجمعهم إلاَّ رباط واحد وهو العمل، وإن هذه العمالة من جانبها تُعَمِّق رُوح التواصل بين الشعوب المختلفة، ومعرفة ثقافة الآخر من خلال الاحتكاك المباشر في ساحات العمل.

لقد فرضت ثقافة التعاون العُمَّالي وتشجيع العمالة المهاجرة نفسها على الدول الاقتصادية العملاقة، ولقد لجأت دول عملاقة كالصين إلى فتح باب الاستثمار الخارجي إلى بلادها دون معوقات؛ حتى إنه في فبراير ٢٠٠٨م وحده وافقت الصين على تأسيس ١٤٥٤ مؤسسة

---

(١) دنيس بولم: الحضارات الإفريقية، ترجمة: علي شاهين، ص٣٠-٤٠، بتصرف.
(٢) علي عكاشة، وشحادة الناطور: اليونان والرومان ص٢٣٧.

أجنبية[١]، وقد أدَّى ذلك إلى ارتفاع معدلات النموِّ الصيني، وهذا من جانبه يُعطي فرصة أكبر لمعدلات الاستثمار الصيني في دول العالم الخارجي؛ إذ تُعَدُّ الصين من أكبر الدول المتملكة لاستثمارات في دول حوض النيل، ويحتلُّ الاتحاد الأوربي المرتبة الأولى في الاستثمار في إثيوبيا بـ١٩٤٢ مليون دولار، وتحتلُّ الولايات المتحدة المرتبة الخامسة بين المستثمرين بـ٣٧٦ مليون دولار عام ٢٠٠٨م[٢].

وفي تقرير خاصٍّ صادر عن وزارة القوي العاملة والهجرة المصرية، وضَّح أن هناك ٢٥ ألف عامل أجنبي يعملون في مصر ويتمركزون في قطاعات: الغزل والنسيج، والبترول، وشركات الأموال، والسياحة، وتتنوَّع جنسياتهم بين العرب والإنجليز والأميركان والأفارقة.

لم يُصبح العمل في عالم الواقع سوى وسيلة عملية دولية تُعَزِّز بها الدول علاقاتها، وخاصَّة بين الدول ذات الاقتصاد القوي، حتى وصل الأمر إلى أن أعلنت بولندا اعتمادها على شركات الإنشاء الصينية خلال الإعداد لبطولة كأس الأمم الأوربية ٢٠١٢م، التي تستضيفها مع أوكرانيا، فقد قال وزير الرياضة البولندي ميروسلاف درزيفتشكي: إن الشركات الصينية مُعَدَّة بشكل جيِّد يُؤَهِّلُها لإقامة محطات قطارات واستادات وخطوط سكك حديدية في بولندا قبل بطولة يورو ٢٠١٠م[٣].

وإن من أبرز الأمثلة المعاصرة ما يُعرف بالشركات متعدِّدَة الجنسيات، التي تخضع ملكيتها لسيطرة جنسيات متعدِّدَة، كما يتولَّى إدارتها أشخاص من جنسيات متعدِّدة، وتمارس نشاطها في بلاد أجنبية متعدِّدة، كما أن استراتيجياتها وقراراتها ذات طابع دولي وعالمي؛ ولهذا فهي تكون شركات متعدِّدة الجنسيات، حيث تتعدَّى القوميات والأعراق، ولقد ازداد عدد الشركات متعدِّدة الجنسيات حيث أصبحت في أواسط التسعينيات ٣٥ ألف شركة تتوزع على: الولايات المتحدة الأميركية، وأوربا الغربية، واليابان، وفي مستوى

---

(١) موقع الأنباء العربية لشبكة شينخوا باللغة العربية، على الرابط: www.arabic.xinhuanet.com.

(٢) مجلة السياسة الدولية، يوليو ٢٠١٠م، عدد (١٨١)، ص٨٦، ٨٧.

(٣) شبكة صحيفة الوسط الإلكترونية، ٢٧/ ٨/ ٢٠٠٨م: www.alwasatnews.com.



هذه الشركات تُسيطر مائة شركة الأكبر فيما بينها على معظم الإنتاج العالمي، ولعلَّ أشهرها شركة كوكاكولا وبيبسي وماكدونالد.. وغيرها[١]، **(انظر: صورة رقم ١٥ العمل كمشترك إنساني يجمع أعراقًا مختلفة).**

إن الحقائق السابقة وغيرها كثير لتُبَيِّنُ بوضوح قيمة العمل كمشترك إنساني بارز، والذي جعل الأمم والشعوب في عولمة متكاملة متعاونة ومتواصلة، وجدير بالذكر أن العمل حقٌّ مكفول لكل إنسان بموجب الإعلان العالمي لحقوق الإنسان؛ ففي المادة (٢٣) فقرة (١): لكل شخص الحقُّ في العمل، وله حرية اختياره بشروط عادلة مرضية، كما أن له حقُّ الحماية من البطالة[٢].

إن العمل هو سمة الشعوب المتحضرة؛ فقد عدَّه هيجل أهمَّ مؤسِّس لشخصية الإنسان، والعامل الأبرز في تنظيم المجتمعات البشرية، حتى اقترن دائمًا بالشعوب الحيَّة، تلك التي جعلت من العمل شعارًا أساسيًّا لوجودها، ولعلَّ الأمم والشعوب بعد أن وعت قيمة العمل، أخذت تتسابق من أجل خَلق أكبر قدر ممكن من فرص العمل؛ حتى تمكِّن أبناءها من بناء شخصياتهم، وزرع رُوح الكدِّ والتفاني في نفوسهم، وحتى تصل بواقعها إلى الأفضل، وتطرح أنموذجها الحضاري بين الآخرين[٣].

***

---

(١) انظر موقع: www.america.gov.

(٢) الإعلان العالمي لحقوق الإنسان: www.un.org/ar/documents/udhr.

(٣) باسم محمد حبيب: قيمة العمل، مقال على موقع جريدة الصباح: www.alsabaah.com.

العمل كمشترك إنساني يجمع أعراقًا مختلفة

صورة رقم (١٥)



المشتركات الإنسانية الخاصة

" وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ"

القرآن الكريم (سورة الروم: ٢٢)







الفصل الرابع

المشتركات الإنسانية الخاصة

كان تناولنا للمشتركات الإنسانية العامة يهدف إلى أن تلك المشتركات تُعَبِّر بصورة من الصور عن فطرة الإنسان وغريزته، وقد ألمحنا أن التعرُّض لهذه المشتركات هو تعرُّض للإنسان ذاته، فهي الضرورات التي لا يستطيع الإنسان أن يحيا بدونها، أمَّا المشتركات الإنسانية الخاصة فهي التي تُعَبِّر بكل وضوح عن هوية الإنسان وكينونته، وانتفاء هذه المشتركات أو الاعتداء عليها يجعل الحياة البشرية تعيسة نكدة، قد لا يُستطاع تحمُّل مشاقِّهَا، وهذه المشتركات في الوقت ذاته من أكبر المحفزات على التواصل والتعايش بين الأمم والشعوب، والرابطة المترتبة على هذه المشتركات قد تكون أقوى من المشتركات العامة، وسوف نُدَلِّل على ذلك من خلال تناولنا للمشتركات الآتية:

أولاً: الثقافة.

ثانيًا: الأرض.

ثالثًا: العِرق.

رابعًا: التاريخ المشترك.

خامسًا: اللغة.

سادسًا: العادات والتقاليد.

سابعًا: القانون.

ثامنًا: الأخلاق السامية.

الثقافـــــة

لا يمكن لنا في هذا المقام السريع أن نُناقش أو نتناول قضية الثقافة بجميع أبعادها أو حتى معظمها؛ ذلك أن مشكلة الثقافة موغلة في الفكر الإنساني، ولهذا لم يخلُ جيل من الأجيال المتعاقبة -في أي بلد كان- من تعريف للثقافة أو تَنَاوُلها أو طَرْحِها ومعالجتها بما يعنُّ له، وما يستخلصه من نتائج وعبر؛ فالثقافة تجربة حيَّة «معاشة» لا نستطيع الفكاك منها أو التجزُّؤ عليها؛ لأمر في غاية البساطة يتمثَّل في كوننا أجزاءً من المنظومة الثقافية في أي مجتمع نعيش فيه؛ ولذلك كان من الطبيعي أن نطرح هذه القيمة الإنسانية العالمية من منظورنا، الذي يرى -بلا ريب- الثقافة مشتركًا إنسانيًّا يُساعد على التقارب والتعارف ومن ثَمَّ التعايش، صحيح أن الثقافات الإنسانية لا حصر لها، لكن هذا التنوُّع في غاية الإفادة لعملية التواصل الإنسانية، وهذا ما سنراه بعد قليل.

والواقع أن الثقافة تُعتبر على نحو ما مُتَّفِقَة بين المجتمعات، وعلى نحو آخر مختلفة كذلك؛ فإذا نظرنا إليها على قدر عالٍ من التجريد، نجد قدرًا كبيرًا من التشابه بين الثقافات، أو بمعنًى آخر: إنه الاتفاق في العموميات، والاختلاف في التفاصيل؛ وإذا كانت الثقافة قد حظيت في الماضي باهتمام علماء الأنثروبولوجيا، الذين عكفوا على دراسة المجتمعات البدائية، فإن هذه الظاهرة قد أصبحت موضوعًا للعديد من العلوم الاجتماعية في مقدِّمتها علم الاجتماع؛ نسبةً للارتباط بين الثقافة والمجتمع؛ إذ تُؤَدِّي الثقافة دورًا مهمًّا في حياة الإنسان، بل هي جزء مهمٌّ في حياة الإنسان كعضو في مجتمع، ومن هنا تحتلُّ الثقافة مكانًا بارزًا في دراسات علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية[1].

ولذلك تشعَّبت التعريفات ودلالات العلماء والمفكِّرين لهذه القضية الإنسانية العالمية،

(١) مجموعة من الباحثين: نظرية الثقافة، ترجمة علي سيد الصاوي، ص٩.



التي حفزتهم واستنفرتهم للكتابة فيها؛ فمالك بن نبي[١] يرى أنها علاقة متبادلة بين شِقَّين متَّحِدَين -وإن كانا منفصلين- في وظيفة محدَّدة: أحد عضويها الفرد، والثاني المجتمع، ويقول: «والفروق الموجودة بين تفسيرات الثقافة مختلفة باختلاف المدارس من جانب، وباختلاف أساتذة المدرسة الواحدة من جانب آخر، هذه الفروق إنما ترجع في جوهرها إلى هذا التبادل، الذي يبتغي كل فرد في نطاقه أن يُعطي الأسبقية لأحد الجانبين حسب استعداده وأفكاره، فبعض الناس يُقَدِّم الجانب النفسي وبالتالي الفردي، معتبرين الثقافة قضية الإنسان، وآخرون يُقَدِّمُون الجانب الاجتماعي ذاهبين إلى أن الثقافة قضية المجتمع؛ إذ هي تُمَثِّل في نظرهم صورة اشتراكية بالمعنى التكويني للكلمة»[٢].

وليس ثمة غبار على ما قاله المفكِّر الراحل مالك بن نبي؛ فالإنسان بطبيعته السوية لديه استعداد وقابلية هائلة للتنوُّع والتغيُّر في حركة حيَّة دينامية، وهذا هو ما أفضى إلى تباين أشكال الحياة، وأشكال فهم الحياة، وصور التعبير عن الحياة، وسُبل الأخذ بالحياة والتعامل معها.. تنوُّعٌ في النظر إلى الكون والوجود وعناصر الحياة، ففي التنوُّع والتعدُّد والاختلاف حياة الإنسانية وارتقاؤها؛ ومن ثَمَّ تنوُّع في فهم أبعاد وتجليات المكونات الثقافية للثقافة ذاتها[٣].

ولعلَّ من أقدم التعريفات للثقافة وأكثرها ذيوعًا حتى الآن لقيمته التاريخية، تعريف إدوارد تايلور[٤] الذي قدَّمه في أواخر القرن التاسع عشر في كتابه عن «الثقافة البدائية»، والذي ذهب فيه إلى أن الثقافة هي: «كل مُرَكَّب يشتمل على المعرفة والمعتقدات، والفنون والأخلاق، والقانون

---

(١) مالك بن نبي (١٩٠٥-١٩٧٣م): مفكر جزائري، من أبرز المفكرين الإسلاميين في العصر الحديث، تخصَّص في الكتابة عن الحضارة والنهضة الإسلامية، عاش بين باريس والقاهرة والجزائر، أبرز مؤلفاته: (شروط النهضة)، و(الظاهرة القرآنية)، و(وجهة العالم الإسلامي).

(٢) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص٤٣.

(٣) مايكل كاريذرس: لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة، ص٩.

(٤) السير إدوارد تايلور Sir Edward Burnett Tylor (١٨٣٢-١٩١٧م): عالم أنثروبولوجي بريطاني، أستاذ لعلم الإنسان في جامعة أكسفورد، أسهم إسهامًا كبيرًا في دراسة الثقافة، ويرجع الفضل إليه في نشأة علم التطور الثقافي، وعلم الإنسان الثقافي (Cultural anthropology)، وذلك عام ١٨٧٨م، من مؤلفاته: (الثقافة البدائية)، و(علم الإنسان).

والعرف، وغير ذلك من الإمكانيات أو العادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوًا في مجتمع». ونلاحظ أن هذا التعريف يُبرز العناصر اللامادية لحياة الناس في جماعة؛ كالأخلاق والقانون والعرف، التي تنشأ نتيجةً للتفاعل الاجتماعي، وتأخذ طابعًا إلزاميًّا، إلى جانب العنصر المادي للثقافة، علاوة على العلاقات بين الناس، وبين العناصر المكوِّنة للثقافة[1].

وهناك بالطبع ما لا يُحصى من التعريفات الأخرى للثقافة؛ منها التعريف الشهير البسيط الذي قاله عالم الاجتماع روبرت بريستيد، وقد ظهر في أوائل الستينيات من القرن العشرين؛ حيث قال: «إن الثقافة هي ذلك الكل المركَّب، الذي يتألَّف من كل ما نُفَكِّر فيه، أو نقوم بعمله، أو نتملَّكه كأعضاء في مجتمع»[2].

على أننا يجب ألاَّ نَنْجَرَّ خلف هذه الجدالات والرؤى للثقافة دون نتائج أو فعاليات؛ بل يمكن أن نستفيد بما سبق للتأكيد على رحابة رؤية العقلية العالمية للثقافة؛ ولذلك فإننا نرى أن الثقافة هي الفكر الذي يترتَّب عليه سلوك العامة والخاصة، وهنا تتمثَّلُ الأهمية الكبرى للثقافة؛ فاقتناع القادة والساسة بفكر ما يترتَّب عليه بلا ريب تغيير في أنماط وسلوكيات الشعوب؛ خاصة إذا كان النهج الفكري والثقافي قد تبنَّتْهُ الدول والحكومات.

والأمثلة على ذلك لا تُحصى؛ فالشيوعية التي أذعنت تحت لوائها عشرات الدول والأقاليم هي في مبدئها فكر الألماني هيجل، ومن بعده ماركس وإنجلز، ثم جاء لينين لِيُنَفِّذ هذه الرؤية الفكرية الجديدة، وجاءت نهاية الحرب العالمية الأولى وهزيمة روسيا فيها إلى تفجُّر الثورة البلشفية على الأفكار النمطية التي أَدَّت إلى تخلُّف الدولة الروسية عن ركب الدول الإمبريالية، وقد أدَّى انتصار البلاشفة عام ١٩١٧م، وإعلان السلطة الثورية حقَّ تقرير المصير لشعوب المستعمرات وأشباهها، لتختار بين الاستقلال والاتحاد الفيدرالي مع الدولة المركزية (جمهورية روسيا السوفيتية الاشتراكية) وتفضيل شعوب المستعمرات الاختيار الثاني القائم على الانضمام إلى الاتحاد الفيدرالي، الذي تغيَّر اسمه إلى «اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية» والذي تشكَّل من ١٥ جمهورية، عُرف اختصارًا بالاتحاد

(١) مجموعة من الباحثين: نظرية الثقافة، ص٩.
(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.



السوفيتي، واستطاع الفكر الاشتراكي الجديد أن يضمَّ ١٢٦ قومية مختلفة، وامتدَّت مساحته الشاسعة إلى أكثر من ٢٢ مليون كيلو متر مربع مشكلاً نصف مساحة القارة الأوربية، و٤٠٪ من مساحة القارة الآسيوية، ليستمرَّ الاتحاد السوفيتي ما يقرب من ٧٣ سنة متصلة تلتئم هذه الأمم والقوميات حول هذا الفكر الاشتراكي الجديد، بل إن هناك أممًا أخرى قد آمنت بالفكر الاشتراكي واتخذته ثقافة وأيديولوجية لها مثل الصين وكوبا ومصر وغيرهم[1].(انظر: **خريطة رقم ٣ اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية**).

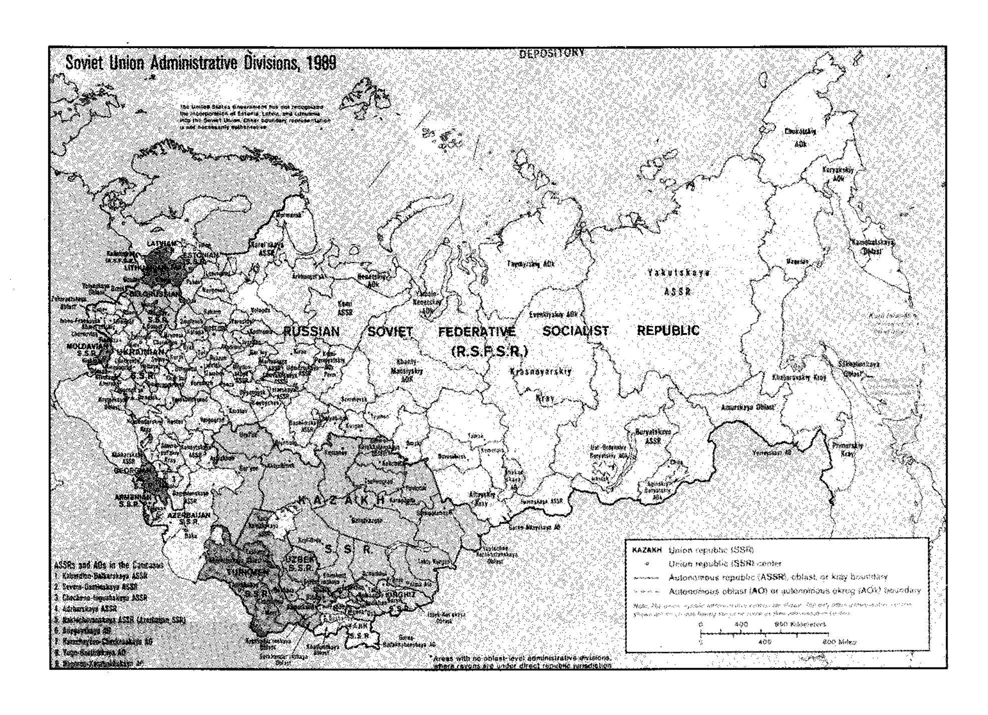
إذًا ساعدت الثقافة الجديدة -بصرف النظر عن قناعتنا بها- على تجميع عشرات الدول تحت لوائها، كما ساعدت على التقريب بينهم، فأضحت الثقافة الاشتراكية نموذجًا للمشترك الخاصِّ بين عشرات الدول، فأن تكون اشتراكيًّا فذلك يعني أن هناك روابط قوية بينك وبين الروسي والصيني والكوبي، ولو لم تكن عوامل اللغة والعرق والجنس والدين واحدة، وهذا أكبر دليل على كون الثقافة رأس المشتركات الخاصَّة.

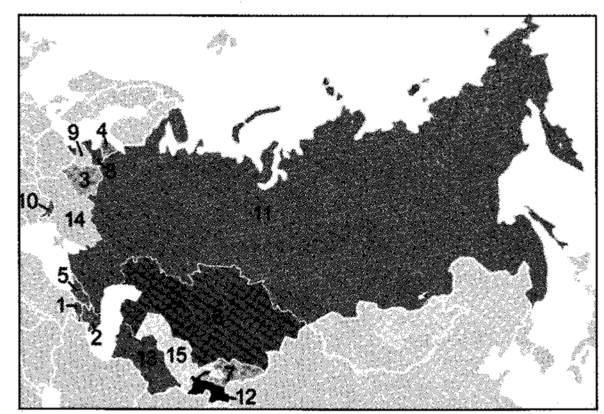
والأمر ذاته نراه في الفكر الغربي الرأسمالي الذي تجلَّى في المعسكر الغربي: الولايات المتحدة وغرب أوربا منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا، هذا الفكر القائم على القطبية الأميركية ينضوي تحت لوائه عشرات الدول والحكومات، التي تُطَبِّق السياسة الإمبريالية الأميركية، وبعيدًا عن السلبيات والإيجابيات التي ترتَّبت على اعتناق الدول لهذا الفكر وتلك الثقافة، فيجب أن نُصَرِّح بأن الثقافة الأميركية أضحت ثقافة عالمية عامَّة تتمسَّك بها كثير من الشعوب، ويظهر ذلك في المظاهر السلوكية والاجتماعية، حتى أضحى العالم كأنه الشركة الكبيرة بثقافتها ومنظومتها وإدارتها التقليدية المعهودة، وقد أفرز هذا الفكر والثقافة بفضل التكنولوجيا الحديثة مصطلحًا جديدًا تمثَّل في «العلمانية»، هذا المصطلح الذي لا يمكن أن يتجاهله الفكر التحليلي للواقع المعاصر.

وفي ظلِّ العلمانية تذوب الثقافات، وتُصبح الثقافة الكبرى هي الثقافة المستمدَّة من الأقطاب الكبرى وعلى رأسها أميركا، ولا شكَّ أن هذه الثقافة عملت في العشرين عامًا الأخيرة على تبعية الشعوب للإدارة والفكر والرؤية الأميركية، ولا يمكن أن نتجاهل نجاحها الذي حقَّقته وما زالت في بلداننا.

---

(١) مجموعة من المؤلفين: النار والجليد، الإمبراطورية الحمراء من المهد إلى اللحد ص٢٢.







اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية

خريطة رقم (٣)



وبعيدًا عن تقييمنا لهذه التجربة المعيشة؛ فقد استطاعت هذه الثقافة الرأسمالية أن تُقَرِّب بين عشرات من الأمم والشعوب؛ سواء من باب التجارة أو التكنولوجيا أو من ناحية الفكر والثقافة، فترى عشرات الأمم والشعوب لا ينفكُّون عن مدح التجربة الأميركية، ومحاولة تحقيق هذا الحلم[1].

وفي ظلِّ هذه القوى الثقافية الكبرى، وقدرتها الهائلة على استقطاب واستجلاب الشعوب، فإنَّ الثقافة مشترك خاصٌّ له قدرة كبيرة على تكوين صلات فكرية وسلوكية واجتماعية واقتصادية وسياسية.. بين الأمم والشعوب؛ لذلك لا يمكن تغافل أو تجاهل الفكرة القائلة بتصارع الثقافات، بل قد يترتَّب على هذا التصارع نُذُر حرب أو حروب طاحنة بالفعل.

وما الحرب الباردة التي قامت بين الولايات المتحدة حاملة لواء الفكر الرأسمالي الإمبريالي وبين الاتحاد السوفيتي حامل لواء الفكر الشيوعي الاشتراكي، إلاَّ أكبر دليل على تصارع الثقافات، ومحاولة نشر الفكر بين أكبر قدر ممكن من البشر، وقد رأينا أنه بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سعت هاتان القوتان إلى نشر أفكارهما، ومحاولة السيطرة على أكبر مساحة ممكنة من العالم، والعمل على ضمِّ أكبر عدد من الدول إلى صفوفهما، وأصبح الصراع بين المبادئ التي تؤمن بها كلٌّ من القوتين والتي تتحكم في سياستها واقتصادها.

وقد دفع هذا الصراع إلى سباق بين الكتلتين في ميدان التسلُّح -خاصة فيما يتعلَّق بالأسلحة النووية والأقمار الصناعية- وهكذا دخلت العلاقات بين الولايات المتحدة ممثِّلة المعسكر الغربي، والاتحاد السوفيتي ممثِّل المعسكر الشرقي فيما عُرف بالحرب الباردة، وصرف كلٌّ من المعسكرين ملايين الدولارات لنشر نفوذه في العالم، وامتدَّ هذا الصراع وهذه المحاولات لنشر النفوذ إلى مختلف قارات العالم، وبدا أشدَّ خطرًا من الحروب السابقة[2].

ومما يلفت الانتباه أن النتائج التي تمخَّضت أثناء هذه الحرب كانت متنوِّعة، ولكن

---

(١) للاستزادة انظر: عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة.

(٢) شوقي الجمل وعبد الله عبد الرازق: تاريخ أوربا من النهضة حتى الحرب الباردة ص٣٠٣.

أبرزها تمثَّل في انكفاء كل معسكر على نفسه، عاملاً على زيادة الروابط الثقافية والفكرية لكونفيدراليته، حتى أصبح الأفراد متشبِّعين بهذه الثقافة أو تلك، وهو ما قوَّى من الرابطة التعارفية فيما بينهم، فكما ظهر حلف الأطلنطي في المعسكر الغربي، ظهر حزب وارسو ومن بعده بغداد في المعسكر الشرقي، والحرب دائرة في إفشال قدرة كل منهما للآخر على استجلاب أو استقطاب أو حتى إخراج العناصر الأساسية من اللعبة.

وعلى كلٍّ فالذي أردتُ التنبيه إليه أن للثقافة - وأقصد بها الفكر الذي يترتَّب عليه سلوك الخاصة والعامة باتجاه ما - دورها المحوري الكبير في تقارب الشعوب أو حتى تصادمها، وقد مرَّت بنا تجربتان في غاية الأهمية لا شكَّ أنهما النموذجان اللذان تجمَّعت حولهما الثقافات الإنسانية وارتضته في النصف الثاني من القرن العشرين؛ ومن ثَمَّ كانت هذه الإطلالة -وإن كانت سريعة- مهمة من حيث التأكيد على ما استخلصناه من نتائج.

وثمة تجربة تدور رحاها هذه الأيام لا بُدَّ من التنويه بها، والإشارة إليها، وهي محاولات العلمانية والإمبريالية الغربية الوقوف أمام الفكر السلفي الإسلامي، والفكر السلفي الإسلامي المعاصر له أنصار ومُؤَيِّدون لا يمكن أن يتنحوا عنه أو يتركوه؛ ذلك أن له جذورًا لا يمكن استئصالها، أو حتى مجرَّد التشكيك فيها.

والحقُّ أن تاريخ الفلسفة الغربية لا يخلو من فلاسفة وقفوا أمام السلفية بمعناها العامِّ؛ فقد ورد لفظ «السلفية» صراحة في كتابات أرنولد توينبي[١] وبعض الفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عشر الميلادي؛ كردِّ فعلٍ لمآسي الثورة الفرنسية وآثارها المدمِّرة على المجتمع والدين والأخلاق، ولكن ظهر المعنى مستورًا في افتراضات أوجست كونت، فإن تقسيمه للمراحل التي مرَّت بها الإنسانية وفقًا لقانون الأحوال الثلاث يحمل مدلول افتراض أن تاريخ العالم يسير قدمًا إلى الأمام، وأن المرحلة القادمة أرقى من الحالية أو السابقة، وبتأثير ذلك الافتراض ظهر اصطلاحات «إنسان القرن العشرين والحادي والعشرين»، والرقِّيّ

(١) أرنولد توينبي Arnold Toynbee (١٨٨٩-١٩٧٥م): مؤرخ بريطاني، وأحد أهم المؤرخين في العصر الحديث، وكان مديرًا لدائرة الدراسات في وزارة الخارجية البريطانية، انصبت معظم دراساته على تاريخ الحضارات، وكان أبرزها كتابه: (دراسة للتاريخ).



المتوقع في هذه القرون، وكأنَّ السنوات المقبلة باعتبارها مُعَبِّرة عن المستقبل كفيلة بحلِّ المشكلات، ونجد المدلول ذاته في الفلسفة الماركسية، التي تتوقَّع تحقيق نظامها الاقتصادي والسياسي في المجتمع وفقًا لقانون التناقض الهيجلي، الذي يفترض أن كل ما هو آتٍ متطوِّر عن سلفه.. وهكذا[1].

وقد ترتَّب على هذه الحروب الفكرية -التي لم تستطع أن تستأصل شأفة وقوة السلفية الإسلامية- أن وقعت الصدامات المسلَّحة، والتي نرى آثارها في العراق وأفغانستان والصومال.. فهذه الصدامات والحروب هي في أعماقها حروب ثقافية، كان من الأولى تجنُّبها والابتعاد عنها؛ لأن إقناع الآخر بثقافة مغايرة عن ثقافته بواسطة القهر والعنف والإبادة لا يمكن أن ينتج عنه شيء ذو قيمة تُذْكَر، اللهم إلاَّ ما نراه من قتل وحرب ودمار؛ ومن ثَمَّ فإن الثقافة من أقوى المشتركات الخاصة بين الشعوب المقتنعة بها والمعتنقة لها، ومع ذلك فقد تترتَّب عليها حروب طاحنة قد تمتدُّ لأعوام لا يعلم مداها إلاَّ الله.

ومع أننا نقول: إن الفكر قد يُوَحِّد عدَّة شعوب داخل كيان كبير. إلاَّ أنَّ هذا الفكر من الممكن أن يُفَرِّق عدَّة شعوب داخل الأُمَّة الواحدة، وأبرز مثال على ذلك التيارات الفكرية والثقافية داخل الإسلام ذاته، خاصة في العصر الحاضر الذي شهد صراعات وصلت في بعض الأوقات إلى صدامات مسلَّحة بغرض نشر الفكر بالقوَّة؛ ولذلك كان الحوار أحد أهمِّ السبل المؤدِّيَة إلى التقارب، وأن الثقافة الكبرى قد تحوي في طيَّاتها ثقافات متنوِّعة وجب احتواؤها من خلال التحاور والتقارب.

---

(١) مصطفى حلمي: السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية، ص١٠.

الأرض

الأرض هي العنصر الذي لا يمكن تجاهله أو القفز عليه، والجغرافيا هي الثابت الذي لا يتغير، حتى إن «العمل السياسي يستبعد العوامل العاطفية من صداقة وعداوة وحب وكراهية، وتقتصر على المصالح، بل حتى المصالح قد تتغير ويُصبح الصديق عدوًّا، والعدوُّ صديقًا.. كل شيء متغيِّر ما عدا العوامل الجغرافية»[١].

ولقد قيل بحقٍّ: إن التاريخَ ظلُّ الإنسانِ على الأرض، بمثْلِ ما أن الجغرافيا ظِلُّ الأرض على الزمان، ومعظم التاريخ إن لم يكن «جغرافيا متحركة»، فإن بعضه على الأقل «جغرافيا متنكِّرة»[٢].

حين ذهب النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، وَقَّع مع أهلها وثيقة عُرِفَتْ في التاريخ باسم «وثيقة المدينة»، وتُعدُّ أول وثيقة مدنية في التاريخ تُقِرُّ التعايش بين أناس على قاعدة المواطنة، التي ترتكز على الاشتراك في الأرض.

وهذه السياسية هي النموذج الذي استقرَّتْ عليه البشرية بعد تجارب طويلة، والقائم على أساس قاعدة المواطنة؛ وهي القاعدة التي تعترف وتحترم الاختلافات الثقافية واللغوية والعرقية والدينية وغيرها، وتضع الجميع تحت مظلَّة الوطن الواحد المحدَّد بهذه المساحة من الأرض.

وكانت هذه الوثيقة هي الأساس النبوي الذي قامت وانطلقت عليه الحضارة الإسلامية، التي استطاعت أن تُجذِّر هذه الفكرة كقاعدة أساسية في التعامل، وهذا ما مَكَّنها من استيعاب كل الطاقات المتاحة، فالثابت -كما يقول مونتجمري وات[٣]- هو أن المسلمين

---

(١) أمين هويدي: أزمة الخليج.. أزمة الأمن القومي العربي ص٣٩.

(٢) جمال حمدان: شخصية مصر ص١٣.

(٣) مونتجمري وات William Montogmery Watt (١٩٠٩-٢٠٠٦م): مستشرق إنجليزي، متخصِّص في الدراسات الإسلامية، وعميد لقسم الدراسات العربية في جامعة (أدنبرا) وصاحب العديد من المؤلفات في الفلسفة الإسلامية، ومقارنة الأديان، والتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، منها: (عوامل انتشار الإسلام)، و(محمد في مكة).



والمسيحيين واليهود في الدولة العربية أثناء تلك الحقبة اختلطوا بعضهم ببعض في حُرِّيَّة تامَّة، وكان لكل فئة منهم نصيب كامل من الثقافة المشتركة[١].

حتى إن برنارد لويس[٢] -وهو المعروف بتعصُّبه ضد المسلمين- لا يسعه إلاَّ أن يُقِرَّ بأنه «عندما انتهى الحكم العثماني في أوربا، كانت الأمم المسيحية -التي حكمها العثمانيون خلال عدَّة قرون- لا تزال هناك بلغاتها وثقافاتها ودياناتها، وحتى -إلى حَدٍّ ما- بمؤسساتها، كل هذه الأمور بقيت سليمة وجاهزة لاستئناف وجودها الوطني المستقلّ، أمَّا إسبانيا وصقلية فليس فيهما اليوم مسلمون أو ناطقون بالعربية»[٣].

لقد كانت تجربة الحضارة الإسلامية هي الأسبق تاريخيًّا والأكثر غناء وقدرة على استيعاب الاختلافات الواسعة بين الأطياف البشرية، التي لم يكن ليجمعها شيء سوى «الأرض» الإسلامية، التي أضحت وطنًا جديدًا لكل هذه التنوُّعات، فحتى اللغة العربية برغم سيادتها وتفوُّقها لم تكن هي اللغة الوحيدة في البلاد الإسلامية، بل إنَّ بعض الإمبراطوريات الإسلامية لم تتعرب مثل الدولة العثمانية وسلاطين المغول وغيرهم، لقد كانت الأرض -بمعنى الوطن- هو العامل الأساسي الذي التقت عليه كل هذه التعدُّدِيَّات.

وفي واقعنا المعاصر تبدو كثير من الكيانات السياسية لا يربط بينها إلاَّ رابط الأرض؛ فإذا أردنا أن نضرب مثالاً على التنوُّع اللغوي فلعله من المناسب أن نتحدَّث عن الهند؛ ففي الهند بلغت عدد اللغات أكثر من ١٨٠٠ لغة، بالإضافة إلى آلاف اللهجات المحلية الأخرى، من هذه اللغات توجد ١٥ لغة معترفًا بها كلغات كبرى للهند، وهي اللغات التي يصحُّ أن نسميها «لغات مليونية»؛ لأن المتحدثين بها يزيدون على المليون، فالأردية يتحدثُ بها ٢٠٠ مليون، والتلجو ١٦٠ مليونًا، والتاملية ١٤١ مليونًا، والمراثية ١٥٠ مليونًا، والمليالم ٨٠

---

(١) مونتجمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ص٦٧.

(٢) برنارد لويس Bernard Lewis: عالم إنجليزي شهير، وُلِدَ عام ١٩١٦م، يهودي الأصل، وكان يعيش في أميركا، عمل أستاذًا للتاريخ الإسلامي في جامعات لندن وكاليفورنيا، ثم استقر في جامعة برنستون الأميركية، من أشهر كتبه: (العرب في التاريخ).

(٣) برنارد لويس: السياسة والحرب، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام)، بإشراف شاخت، وبوزوروث، ص٢٢٨.

مليونًا، والكنادية ٧٦ مليونًا، والأورية ٦٦ مليونًا، والبنجابية ٦٠ مليونًا، والأسامية ٢٧ مليونًا، والكشميرية ١٠ ملايين، والسندية ٧ ملايين[١].

حتى ليُقال في سخرية: في الهند تستطيع أن تستغني عن أذنيك، فكل الذي تسمعه لا معنى له، فإنهم يتكلمون لغات كثيرة، ولهجات كثيرة جدًّا؛ حتى اللغة الإنجليزية تُنْطَق بلهجة تجعلها لغة أخرى يصعب فهمها[٢].

ونحن إذا نظرنا إلى خريطة العائلات اللغوية وتوزعها على المناطق الجغرافية، سنكتشف اختلافًا واسعًا للغات في الأرض الواحدة، بل اختلافًا في العائلات اللغوية؛ ففي روسيا تتواجد أربع عائلات لغوية، هي الألطية، والهندوأوربية، والصينية التبتية، والأورالية[٣]. (انظر: خريطة رقم ٤ توزع العائلات اللغوية الإنسانية).

كما نجد تنوُّعًا في العائلات اللغوية في كل من أستراليا والصين وإندونيسيا ومنطقة وسط إفريقيا وجنوب إفريقيا والبرازيل وكندا.

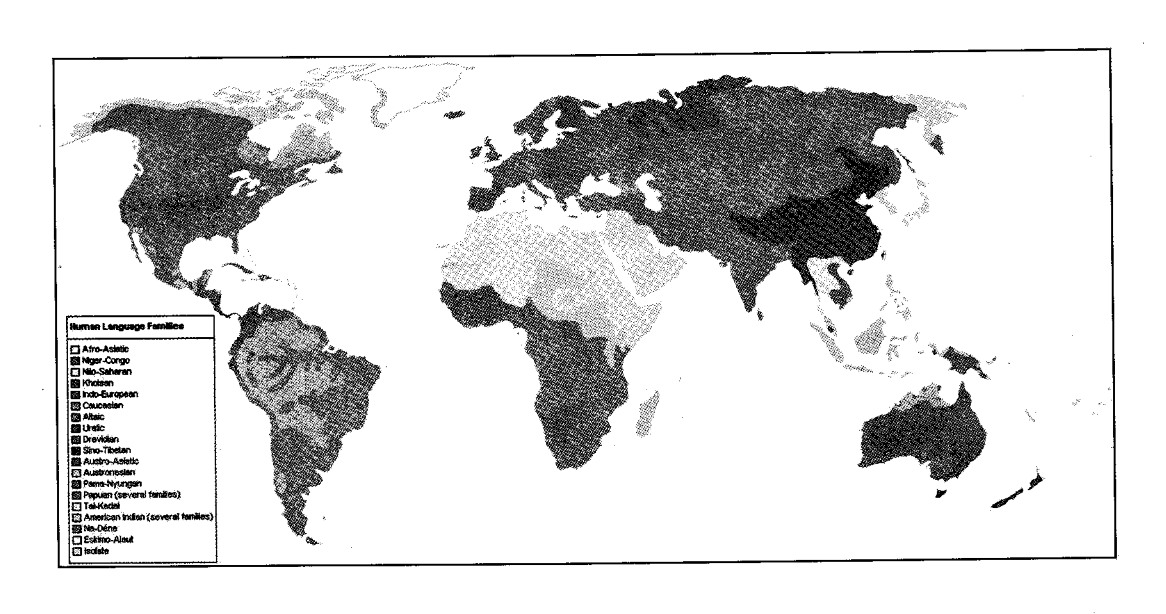
وإذا أردنا مثالاً عن تنوُّع عرقي استطاع من خلال ارتباطه وانتمائه بالأرض -الوطن- أن يصنع نهضة ناجحة، فلعله من المناسب أن نتحدَّث عن ماليزيا؛ ففيها يتَّسم التركيب العرقي للسكان بالتعدُّد، وقد جاء هذا انعكاسًا للعوامل الجغرافية، فماليزيا قطعتان من اليابسة، يفصل بينهما بحر الصين الجنوبي، ويُحيط بكل قسم منها عدد من الدول المختلفة في حضارتها وأديانها وأعراقها، فضلاً عن كونها مُعْبَرًا بين دول الإقليم، وعندما استقلَّت في عام ١٩٥٧م كان من المتوقَّع أن تُصبح دولة غير مستقرَّة بسبب هذا التنوُّع العرقي واللغوي والثقافي؛ فماليزيا تضمُّ أعراق المالاويين الهنود والصينيين والإيبان والكازان، إضافة إلى أعراق أخرى هامشية.

---

(١) جلال الحفناوي: الهند، منشور في الأطلس الآسيوي، تحرير: محمد السيد سليم، رجاء إبراهيم سليم، ص٤٤٢.

(٢) أنيس منصور: حول العالم في ٢٠٠ يوم ص٥١.

(٣) العائلة اللغوية الألطية التي تشمل اللغات: التركية والمغولية والمنشورية، ويضاف إليها اللغتان اليابانية والكورية؛ (لأن البعض يفصلها في عائلة مستقلة)، وأما اللغات الهندوأوربية فهي تشمل: اللغة الروسية، واللغات الرئيسية لأفغانستان، وشمال الهند، وإيران، وباكستان، وسريلانكا، وتشمل العائلة اللغوية الصينية التبتية اللغات: الصينية، والبورمية، واللاوية، والطاوية، كما تشمل الأورالية: اللغات الفنلندية والمجرية. انظر: الموسوعة العربية العالمية «اللغة». وكذلك: الموسوعة الحرة «ويكيبيديا» الإنجليزية والعربية.



توزّع العائلات اللغوية الإنسانية

خريطة رقم (٤)

هذا التنوُّع الموحي -لأول وهلة- بمجتمع غير مستقرٍّ هو ما دفع بروناي للخروج من الاتحاد منذ البداية، إلاَّ أنَّ ماليزيا خالفت التوقُّعات، وأصبحت اليوم نموذجًا مثاليًّا للتعاون والاتحاد الوطني، وطبقا لإحصاء عام ٢٠٠٥م يُشَكِّل المالاويون ٥٨٪ من السكان، والصينيون ٣١٪، والهنود ٩٪، والأعراق الأخرى ٢٪[1].

والتجربة الأميركية، وهي تجربة ناجحة على مستوى النهوض العلمي والحضاري المادي، إنها التجربة التي استطاعت بالفعل تجاوز العنصرية القائمة في أوربا، ففي حين تتجدَّد قضية المهاجرين وغير الأوربيين على برامج الأحزاب مع كل انتخابات، وتُسمع في كل مرَّة العبارات العنصرية، استطاعت أميركا تجاوز هذه العنصرية حتى لقد تحقَّق -على هذا الصعيد- إنجاز لم يتوقَّعْه كثيرون، وهو دخول رئيس أسود ذو أصول إفريقية إلى البيت الأبيض[2].

وكثيرًا ما افتخر الساسة الأميركان بهذا الانتماء لأميركا المتعدِّد الأعراق؛ كتب نيوت جينجريش[3] رئيس الأغلبية الجمهورية بغرفة النواب الأميركيين مقالاً في جريدة لوموند الفرنسية بتاريخ ٢/ ٥/ ١٩٩٠م جاء فيه: «أميركا هي الأُمَّة العظمى الوحيدة ذات الأعراق المتعدِّدة... أليس من المذهل أن يتمتَّع المجتمع (الأميركي) بهذا القدر من الحظوظ إلى جانب الإرادة في التعاون المثمر في عالم غارق في الأحقاد العنصرية وإراقة الدماء؟!». ومثل هذا ما قاله أنتوني ليك[4] مستشار الأمن القومي للرئيس كلينتون في بداية فترته الأولى: «تمتلك أميركا أعتى قوَّة عسكرية، وأعظم اقتصاد، ومجتمعًا متعدِّد الأعراق الأكثر ديناميكية»[5].

---

(١) كمال المنوفي وآخرون: الأطلس الماليزي ص٣٧، وما بعدها.

(٢) الرئيس رقم (٤٤): باراك أوباما، ووالده «حسين أوباما» من كينيا.

(٣) نيوت جينجريش Newt Gingrich (١٩٤٣م-..): أستاذ جامعي، ومؤرخ وسياسي أميركي، شغل منصب رئيس مجلس النواب في الولايات المتحدة (١٩٩٥ - ١٩٩٩م)، وهو من السياسيين الأميركيين الذين أعلنوا الحرب على الشريعة الإسلامية، وأنها تمثل تهديدًا للحرية الأميركية.

(٤) أنتوني ليك William Anthony Kirsopp Lake (١٩٣٩م-..): المدير التنفيذي لبرنامج الأمم المتحدة للطفولة (اليونيسيف)، عمل سابقًا في عدة مناصب في حكومة الولايات المتحدة؛ منها: مساعد الرئيس لشئون الأمن القومي، ومدير تخطيط السياسات في وزارة الخارجية، والمبعوث الخاص للولايات المتحدة، من مؤلفاته: «الأنظمة الراديكالية في العالم الثالث.. سياسة الولايات المتحدة تحت كارتر وريجان».

(٥) بيير بيارنس: القرن الحادي والعشرون لن يكون أميركيًّا ص١٨.



أما إذا أردنا أن نضرب مثالاً على التنوُّع الديني، الذي لم يصنع اصطفافًا طائفيًّا، ولم يَعُقْ وجود انتماء إلى الأرض، ولم تتغلَّبْ فيه مصلحة الفئة على مصلحة الوطن، فإننا لن نجد أفضل من الحالة المصرية التي عاش فيها الأقباط والمسلمون عبر التاريخ في وفاق يُعَدُّ مثالاً تتطلع إليها الشعوب المتنوِّعة دينيًّا على أرض الوطن الواحد.

وإلى ما قبل سبعينيات القرن الماضي؛ حيث حدثت تحوُّلات مُؤَثِّرة في قيادة الكنيسة القبطية المصرية، كان الاندماج والتعاون مثار دهشة واستغراب من الجميع، بما فيهم قوى الاحتلال، الذين حاولوا اللعب على هذا الوتر؛ بل إن مقاومة الاحتلال تمَّت بالتعاون القوي والاشتراك المثمر بين المسلمين والأقباط.

لقد سارع الشاب القبطي عريان سعد بالتطوُّع لاغتيال الباشا القبطي يوسف وهبة[١]، الذي قَبِل أن يُشَكِّل الحكومة تحت سلطة الاحتلال الإنجليزي خارجًا عن إجماع الأُمَّة، التي قاطعت سلطات الاحتلال؛ لئلاَّ يكون اغتياله على يد مسلم ذريعة لفتنة طائفية، وخطب القس سرجيوس ملطي[٢] من على منبر الأزهر في ثورة ١٩١٩م هاتفًا: «إذا كان الإنجليز هم الذين سيحمون الأقباط، فليمت كل الأقباط ولتحيا مصر حرَّة مستقلة». ومن العبارات التي حفظها التاريخ للزعيم القبطي مكرم عبيد[٣] قوله: «نحن مسلمون وطنًا ونصارى دينًا، اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك وللوطن أنصارًا، واللهم اجعلنا نحن النصارى لك وللوطن مسلمين»[٤].

وحين اغتيل الوزير القبطي الموالي للإنجليز بطرس غالي[٥]، حاول الإنجليز استغلال

---

(١) يوسف باشا وهبة (١٨٥٢ - ١٩٣٤م): عمل كاتب سرِّ لجنة التحقيق مع رجال الثورة العرابية، شغل منصب وزارة الخارجية والمالية، ثم رئيسًا للوزراء سنة ١٩١٩ - ١٩٢٠م.

(٢) سرجيوس (١٨٨٣-١٩٦٤م): أول قسيس يعتلي منبر الأزهر للخطابة أثناء ثورة ١٩١٩م، وكان يُسَمَّى بخطيب الثورة.

(٣) مكرم عبيد باشا (١٨٨٩ - ١٩٦١م): محام شهير، وأحد مفكري الأقباط ورموزهم الوطنية في حقبة الخمسينيات، عمل وزيرًا للمالية والاتصالات، وكان من أقطاب حزب الوفد ثم انشق عنه.

(٤) محمد عمارة: في المسألة القبطية حقائق وأوهام ص١٢، ١٣.

(٥) بطرس غالي: هو بطرس بطرس غالي ناروز (١٨٤٦-١٩١٠م): أوَّل مَنْ يحصل على رتبة الباشوية من الأقباط، تولَّى وزارة الخارجية والمالية، ورئاسة الوزراء من (١٩٠٨-١٩١٠م)، اشتهر بتعاونه مع الإنجليز، وخاصة في قضية اتفاق السودان ١٨٩٩م، ومحكمة دنشواي، فقام الشاب إبراهيم الورداني باغتياله في ٢٠ فبراير ١٩١٠م.

هذا الاغتيال في إثناء ابنه واصف غالي[١] عن مقاومتهم، فقالوا له: «كيف تضع يدك في يد مَنْ قتلوا والدك؟! فقال لهم: أُفَضِّل أن أضع يدي في يد مَنْ قتل والدي على أن أضع يدي في يد مَنْ قتلوا وطني»[٢]، **(انظر: صورة رقم ١٦ أقباط مصر نموذج للتعايش داخل الوطن الواحد)**.

إن حالة أقباط مصر هي حالة خاصة فعلاً من بين كل الأقليات الدينية في العالم؛ وذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى تاريخ الكنيسة القبطية كأعرق وأقدم كنائس العالم، وككنيسة مستقلَّة لا تتبع أي كنيسة أوربية، ولقد كان من أهمِّ عوامل نجاح الفتح الإسلامي، والسرعة المدهشة التي تمَّ بها الاندماج في المُتَّحِدِّ العربي الذي أقامه الإسلام، هو دور المخلِّص الذي لعبه الفاتحون العرب بالنسبة للأقباط، ويكفي أن يذكر التاريخ أن بطريرك الأقباط الهارب في الصحراء عشر سنوات كاملة، لم يَعُدْ إلى كرسي البطريركية ويأمن على نفسه ويستقرّ إلاَّ بعد الفتح الإسلامي، وبسيوف المسلمين وفي حمايتهم، بل لقد وضع هذا الفتح نهاية للمذابح والاضطهادات التي شَنَّتْهَا أوربا على أقباط مصر، طوال عصر الشهداء؛ لذلك كانت الكنيسة المصرية أقوى القلاع العربية صمودًا في وجه الغرب وخداعه، والأقباط المصريون هم أكثر الأقليات اندماجًا وأخوة مع الأغلبية المسلمة[٣].

هذه ثلاثة أمثلة ظهر فيها -بوضوح- عنصر الأرض المشترك الذي التقت عليه الاختلافات اللغوية، والاختلافات العرقية، والاختلافات الدينية، فكل تجربة ناجحة استطاعت أن تجتمع حول الأرض، وأن تبحث عن صيغ تعايش توافقية بين سائر الاختلافات الأخرى.

---

(١) واصف غالي: هو واصف بطرس غالي (١٨٧٨ - ١٩٥٨م)، الابن الثاني لبطرس غالي، عمل بالمحاماة وكان أول قبطي ينضمُّ إلى الوفد المصري، عمل وزيرًا للخارجية في وزارات مصطفى النحاس (زعيم حزب الوفد) الأربع.

(٢) إدوارد غالي الذهبي: أقول لدعاة الفتنة الطائفية ص١٣.

(٣) محمد جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر ص٣٢١، ٣٢٢.



بطرس غالي



اغتيال بطرس غالي



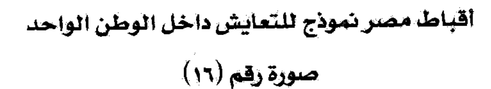
واصف غالي



مكرم عبيد



عريان يوسف سعد



أقباط مصر نموذج للتعايش داخل الوطن الواحد

صورة رقم (١٦)



أمَّا الكيانات السياسية التي لم تستطع أن تُحَقِّقَ هذه الصيغة من التعايش والتوافق على خلفية الأرض أو الوطن، فإنها ظلَّت تعاني الاضطرابات والأزمات بين الحين والآخر، ثم تكتمل دائرة السوء بفعل التدخُّل الأجنبي، واستقطاب بعض الأقليات، التي تُفَضِّل الاحتماء بالأجنبي، أو حتى التلويح والتهديد به لنيل مكاسب ضيقة في الداخل[(١)].

وأبرز الأمثلة على هذا ما يحدث في السودان ولبنان والعراق، وما حدث منذ أعوام في حروب البوسنة وكوسوفا وألبانيا، وما ينشب بين الحين والآخر من اضطرابات في الهند بين المسلمين والهندوس، وفي لحظة كتابة هذه السطور تشتعل حرب عرقية في قيرغيزستان بين القيرغيز والأوزبك، أسفر حتى اللحظة عن ١١٧ قتيلاً على الأقل وأكثر من ١٤٨٠ جريحًا، ونزوح عشرات الآلاف إلى أوزبكستان[(٢)].

في لبنان يبدو التنوُّع الديني والمذهبي بوضوح؛ فهناك المسلمون والمسيحيون والدروز، وفي داخل المسلمين هناك السُّنَّة والشيعة، وداخل الشيعة شيعة إمامية وعلوية – نُصَيْرية – وإسماعيلية، ثم في داخل المسيحيين هناك الموارنة والأرثوذكس والكاثوليك والإنجيليون، وهناك الروم والأرمن واللاتين والكلدان، وبعد كل هذا فإن جماعات وأحزابًا تتقاسم هذه الطوائف، ولهذا قال سليم الحص رئيس الوزراء الأسبق للبنان: «التعدُّدية المذهبية والطائفية وحتى الإثنية هي ضعف لبنان؛ من حيث إن اللبنانيين فشلوا منذ الاستقلال في اجتراح صيغة للعيش المشترك تُؤمن استقرارًا مقيمًا»[(٣)].

واندلعت حرب أهلية مدمِّرة في لبنان استمرَّت خمسة عشر عامًا بدأت في ١٩٧٥م، شهدت دخول الطوائف اللبنانية المختلفة بسلاحها لفرض رُؤَاها، ولم يكن الخارج بالذي يقف متفرجًا، فنزلت إلى الميدان مساعدات عسكرية ولوجستية ومالية من الغرب والشرق

---

(١) بل يستطيع التدخُّل الأجنبي في ظروف ضاغطة أن يقوم بالتفريق بين المتوحدين في كل شيء، كما هي حالة الانقسام الفلسطيني الحالي، الذي أنتج حكومة شرعية منتخبة تعيش على أرض محررة، وأخرى تعيش برعاية ودعم الخارج وعلى أرض محتلة.

(٢) شبكة الجزيرة نت، بتاريخ ١٤/ ٦/ ٢٠١٠م.

(٣) سليم الحص: تعالوا إلى كلمة سواء ص٣٠٥، (وهنا يتكلم عن الواقع، وهو لا يتناقض مع قوله الذي أوردناه فيما قبل في «أصل القصة» من أن التنوع في لبنان مصدر قوته؛ فهو يتكلم حينئذٍ عن المأمول).

والعرب والعجم، وتحوَّلت الساحة اللبنانية إلى نافذة أخرى خلفية للصراع بين القوى الكبرى[١].

وحتى برغم انتهاء الحرب باتفاق الطائف[٢] برعاية سعودية في ١٩٨٩م إلاَّ أن الاحتقانات والاصطفافات الطائفية لم تنتهِ، وظلَّت الأمور تسير بين شدٍّ وجذب بين الأطراف الداخلية، ومن ورائها الأطراف الخارجية، حتى كانت لحظة قاصمة، قُصِم فيها لبنان إلى ما يُشبه المعسكرين، تلك هي لحظة اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري[٣] في ١٤ فبراير ٢٠٠٥م، وهو الاغتيال الذي كان الشرارة لكثير من الحوادث أدَّت إلى تصفية الوجود السوري في لبنان، وتعاظم النفوذ الغربي، وأُعيد ترتيب الوضع السياسي المذهبي؛ ليتحوَّل إلى طائفتين هما (٨ آذار) و(١٤ آذار)، وتوتَّرت العلاقات بين المعسكرين، حتى في ظلِّ الحرب التي قام بها الكيان الصهيوني على لبنان صيف عام ٢٠٠٦م، والتي انتصر فيها حزب الله -القوة الرئيسية في فريق ٨ آذار- وما أن انتهت الحرب حتى أعلن حزب الله أنه طُعن في ظهره أثناء الحرب، وأن التوزيع الحالي للمناصب الوزارية غير عادل، وطالب بزيادة حصة المعارضة منعًا لانفراد الأغلبية بالقرارات المصيرية، ودخل لأجل هذا في اعتصام مفتوح لأكثر من عام، ثم تطوَّر الحال إلى أن وصل إلى حمل السلاح[٤]، وهي المرحلة التي يتفوَّق فيها حزب الله على سائر الآخرين، ثم دارت محادثات برعاية قطرية، انتهت إلى اتفاق الدوحة[٥] في ٢١ مايو ٢٠٠٨م، والحقُّ أنه ليس أكثر تماسكًا من اتفاق الطائف، وما يزال شبح الخلافات يُؤَشِّر نحو شبح حرب أخرى.

وفي السودان توجد ٥٠ مجموعة عرقية، وهي مجموعات متداخلة، ولكن بالعموم

---

(١) للتفاصيل الموسعة انظر: آلان مينارغ: أسرار حرب لبنان، وباختصار: فواز طرابلسي: تاريخ لبنان الحديث ص٣٢٤ وما بعدها.

(٢) انظر بنود اتفاقية الطائف من «ويكي مصدر»، على الرابط: http://ar.wikisource.org، ومن أرشيف شبكة الجزيرة نت بتاريخ ١٠/ ٣/ ٢٠٠٥.

(٣) رفيق الحريري: هو رفيق بهاء الدين الحريري (١٩٤٤ - ٢٠٠٥م)، زعيم لبناني ورئيس وزراء لبنان الأسبق، وأحد أغنياء العالم، لعب دورًا مهمًّا في إنهاء الحرب الأهلية اللبنانية وإعمار لبنان بعدها، رأس الحكومة اللبنانية فترتين: الأولى من ١٩٩٢ وحتى ١٩٩٨م، والثانية من ٢٠٠٠ وحتى ٢٠٠٤م، اغتيل في ١٤ فبراير ٢٠٠٥م.

(٤) راجع وكالات الأنباء وصحف أيام ٥- ٨/ ٥/ ٢٠٠٨.

(٥) للمزيد عن الاتفاق ومطالعة أطرافه ونصوصه: موقع اتفاق الدوحة www.qatar-conferences.org/lebanon.

فالعرب في الشمال، والأفارقة في الجنوب[١]، ولم تَسْلَم -أيضًا- من الحروب الأهلية، فقد اندلعت الحرب الأهلية السودانية في ١٩٥٥م، وهي الحرب التي مَثَّل جنوب السودان فيها عنصرًا فاعلاً، فالجنوب الذي تعرَّض إلى عزلة منذ عهد الاحتلال البريطاني طالب منذ اللحظات الأولى لاستقلال السودان عام ١٩٥٦م بالحكم الذاتي، ولم تهدأ الأمور نسبيًّا إلاَّ بعد توقيع اتفاق أديس أبابا في عام ١٩٧٢م، الذي أعطى للجنوب حكمًا ذاتيًّا واسع الصلاحيات، لكن ما لبثت أن تجدَّدَت الحرب مَرَّة أخرى في ١٩٨٣م، حينما حاول الرئيس جعفر نميري[٢] تقسيم الجنوب إلى ثلاثة أقاليم، ثم زاد النارَ ضرامًا إعلانُ النميري تطبيق الشريعة الإسلامية في السودان[٣]، فيما عُرف باسم «قوانين سبتمبر».

وحينما أفضت مجهودات الحلِّ إلى اتفاقية الميرغني - جارانج التي كان أهمُّ بنودها تجميد قوانين سبتمبر في نوفمبر ١٩٨٨م، قام انقلاب ١٩٨٩م لاستباق تنفيذ هذه الاتفاقية، لكن توالي الأيام كان يُعَمِّق ويُجَذِّر من خيار «تقرير المصير» للجنوب، والقوى الخارجية لم تكن متفرجة بطبيعة الحال، وبعد سلاسل من الاتفاقيات والمعاهدات استقرَّ عند توقيع اتفاقية ماشاكوس في ٢٠ يوليو ٢٠٠٢م، والذي يقضي بمنح الجنوب حقَّ تقرير المصير في خلال ست سنوات، ولا يخلو من عبارات التفافية، تمثِّل ثغرات للترهيب والترغيب والتدخُّل الخارجي، كما نشأ عن الاتفاقيات منطقة متنازع عليها هي «إيبي»، وهي مُؤَهَّلة لتكون «كشمير جديدة» في إفريقيا، ثم ظهرت بعد اتفاقية ماشاكوس دعوات انفصالية في الشمال، ثم انفجرت أزمة دارفور في الغرب، وهي الأزمة التي تدخَّلت فيها القوى الخارجية، إلى الحدِّ الذي أصدر فيه المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية قرارًا باعتقال الرئيس السوداني عمر البشير، ثم دعوات أخرى في الشرق ما زالت في بداية أمرها، ولا أحد يدري ماذا يكون نهاية أمرها[٤].

---

(١) محمد عتريس: معجم بلدان العالم ص٧٤.

(٢) جعفر النميري: هو جعفر محمد النميري (١٩٣٠-٢٠٠٩م)، رئيس السودان بالفترة من (١٩٦٩- ١٩٨٥م)، تولى الحكم بانقلاب عسكري.

(٣) وكان مطلبًا شعبيًّا كبيرًا في السودان.

(٤) هانئ رسلان: حق تقرير المصير لجنوب السودان، جدلية المسار والتداعيات، سلسلة كراسات استراتيجية، العدد (١٣٨) إبريل ٢٠٠٤م. ص٣-٢٤.

ومن اللافت للنظر أن الصراع في دارفور ليس صراعًا دينيًّا ولا عرقيًّا ولا لغويًّا، فكل الأطراف من المسلمين، والأعراق متداخلة إلى حدِّ الاندماج بين القبائل العربية والإفريقية، وكلهم يتكلَّمُون اللغة العربية، ومن العجيب أن الصراع الذي لم يبدأ إلاَّ لاختلافات متعلِّقة بالجانب الاقتصادي بين الرعاة والزُّرَّاع، أو -بعبارة أهل البلد- بين «الأَبَّالة والبقَّارة»؛ أي: أصحاب الإبل وأصحاب البقر، هذا الصراع جرى تدويله، واكتسب صفة النزاع على اقتسام السلطة وتوزيع المناصب في السودان[1].

إن الصراع في دارفور يُعَدُّ مثالاً نادرًا للصراعات التي افتقدت عنصر الأرض (الوطن)، برغم الاتفاق القائم في جميع العناصر الأخرى، وهذا ما أدَّى إلى نشوب أزمة لم تفلتها -لمرَّة أخرى- القوى الدولية.

ومن الأمثلة الساخنة -أيضًا- مثال العراق، وهو المثال الذي تَفَجَّر بعد الاحتلال الأميركي في عام ٢٠٠٣م ليشتعل الموقف الطائفي والعرقي، ويتحوَّل العراق من دولة مُوَحَّدة ذات سلطة موحَّدة كذلك عبر تاريخه، إلى دولة تتنازعها «المحاصصة الطائفية» على المستوى السياسي، وتتقاسمها الحروب المذهبية على أرض الواقع، كما أن الشمال الكردي يحظى بالحكم الذاتي، إلا أنه غير آمن من أجواء التفجيرات المروعة.

* * *

حين يفتقد أبناء الأرض الواحدة الصيغة الأعدل والأنسب للتوافق فيما بينهم؛ فإنهم يغلقون باب المواطنة، وهم حين يغلقون هذا الباب يفتحون على أنفسهم -لا محالة- حربًا مستعرة، قد تتخذ الحرب أسبابها من اختلاف الدين أو العرق أو المذهب أو اللغة، أو حتى المكتسبات السياسية والاقتصادية، الحاصل أن حربًا ستحدث مهما كان شعارها، وهم حين يُغلقون أبوابهم فيما بينهم يفتحون أبوابهم -لا محالة- نحو الخارج الذي لن يكتفي بالمتابعة من بعيد، بل هو يدس أنفه، أو قل: ينشب مخالبه، يُريد أن يظفر من هذه البقعة بما استطاع، وحيث إن فوزه رهين ببقاء الصراع مشتعلاً، فهو يجاهد لتأجيجه إن بدا أنه ليس ملتهبًا بالقدر الكافي.

---

(١) أحمد كامل خميس: دارفور بين الضغوط الخارجية والاستجابة الداخلية، مجلة السياسة الدولية، العدد (١٧٧)، يوليو ٢٠٠٩م، ص٨-٢٧.

ويظلُّ توقُّف هذه الحرب المستعرة رهينًا بإدراك أبناء هذه الأرض ضرورة التعالي على ما بينهم من خلافات، والخروج من النظرة إلى مصلحة الطائفة نحو مصلحة الوطن بجميع طوائفه، في هذه اللحظة فقط يمكن تصحيح الوضع، إن البلاد التي عانت حروبًا أهلية هي أكثر البلاد شعورًا بضرورة التوحُّد على مشترك «الأرض».

وبتوسيع رقعة النظر، سنجد أن عامل الأرض كان العنصر الذي قام عليه ولأجله التعاون بين الدول المتجاورة، فهو تعاون جغرافي بحت فرضته عوامل الطبيعة، فثمة منظمات وهيئات لدولٍ بينها كل ما يُمكن تصوُّره من الاختلافات البينية، فعلى سبيل المثال؛ مجموعة دول حوض النيل، إنما هي مجموعة من الدول لا يُتصوَّر أن يكون بينها ثمة التقاء أو تعاون، إنْ لم يكن يجري في أرضها جميعًا هذا النهر، كذلك مجموعة دول حوض البحر المتوسط، ومجموعة دول بحر قزوين، ومنظمة التعاون الاقتصادي[1].. إلى آخر هذه الأشكال التعاونية التي أَمْلَتْهَا ظروف الجغرافيا.

وما يجري نفسه في الوطن الواحد يجري بين الأقطار المتجاورة، فكما يمكن -في حال التفاهم- أن تنشأ منظمات ومؤسَّسات ومعاهدات تعاونية بين الدول المتجاورة، كذلك يمكن للنزاع أن يشتعل إذا قرَّر أحد الأطراف أن يُفكِّر في مصلحته الذاتية فحسب؛ ومن ثَمَّ يجور على أرض دولة مجاورة، فيكون هذا بداية نزاع وحرب قد تطول، ويهلك فيها من الأموال والأنفس والثمرات ما الله به عليم، ثم تُورث الحروب ثارات، وتصنع تاريخًا من العداء، ثم ينتهي هذا الاعتداء إن عاجلاً أو آجلاً، فلم يكتب التاريخ البقاء لمستعمرٍ من قبلُ.

***

---

(١) تضم دول وسط آسيا: أذربيجان، أفغانستان، أوزبكستان، إيران، باكستان، تركيا، تركمانستان، طاجيكستان، قيرغيزستان وكازاخستان.

العِرْق

في واحدة من أحدث الدراسات العلمية -صادرة في ٢٠٠٤م- جاءت دراسة أميركية حديثة أجراها مجموعة من علماء جامعة هوارد في واشنطن حول الجينات البشرية وعلاقتها بالعرق واللون، وشارك فيها فرانسيس كولينز[1] المهندس القائد لكل مشروع الجينوم (الأطلس الوراثي) البشري، وخلصت الدراسة إلى أن كل إنسان يُشارك أي إنسان آخر بـ ٩٩,٩ في المائة من الحامض النووي، الذي هو المادة الجينية للإنسان، وأنَّ ما يتبقَّى من تلك النسبة ضئيل جدًّا يختلف بين الأشخاص من العرق نفسه أكثر من اختلافه بين عموم البشر؛ ولذا فمن المستحيل التعرُّف على عِرْق الشخص من خلال دراسة جيناته فقط، وتدحض هذه النتائج نظريات التفوُّق العرقي لجنس على آخر، أو النظريات التي تربط بين الذكاء أو الجريمة وبين أعراق محدَّدة[2].

فهذا تأكيد آخر جديد لما جاء في إعلان هيئة الأمم المتحدة بالقضاء على التمييز العرقي بجميع أشكاله من أن «كل نظرية للتفريق العرقي كاذبة على الصعيد العلمي، وجديرة بالشجب على الصعيد الأخلاقي، وجائرة وخطيرة على الصعيد الاجتماعي»[3].

لطالما استُخْدِم العرق كأساس انطلقت منه العنصرية البغيضة، التي قَسَّمت العالم إلى أعراق مختلفة، حتى جعلت منها أعراقًا عُلْيَا، وأعراقًا دُنْيَا؛ ومن ثَمَّ سمحت للأعراق العليا باستغلال واستعمار واستعباد الأعراق الدنيا، وقيل هذا بصراحة ووضوح، بل قيل باعتباره

---

(١) فرانسيس كولينز (Francis Sellers Collins 1950 م -..): عالم وراثة أميركي، له اكتشافات تاريخية في علم الجينات، وهو قائد مشروع الجينوم البشري، الذي يُعَدُّ من أكبر إنجازات العصر الحديث، يعمل حاليًا رئيس المعاهد الوطنية للصحة في أميركا، له كتاب: لغة الله، ولغة الحياة.

(٢) جريدة الشرق الأوسط ٢٨/ ١٠/ ٢٠٠٤م، ومن نتائج هذه الدراسة إسقاط النظريات القائلة بتطور الإنسان عن كائنات أخرى، فهذه النسبة تُثبت أن النوع الطبيعي للإنسان هو الأكثر تجانسًا من مختلف الأنواع الطبيعية الأخرى؛ لأن مجموعات من قرود الشمبانزي والطيور تختلف بنسبة أكبر في جيناتها.

(٣) صدر في ٢٠ نوفمبر ١٩٦٣م، بموجب قرار الجمعية العامة رقم ١٩٠٤ (د-١٨).

نظرية علمية[١]، أما الآن فهناك اتفاق عامٌّ على عدم وجود اختلافات طبيعية في القدرة العقلية أو الذكاء سببها الاختلافات العرقية، أو بالأحرى لم يثبت وجود مثل تلك الاختلافات[٢].

ولئن كان العلم إلى لحظة كتابة هذه السطور لم يستطع أن يكشف عن نظرية عرقية واضحة، تستطيع تفسير الاختلافات الواضحة بين المجموعات البشرية، فإن الفكرة المنتشرة بين عموم الناس تقول بأن أصول البشر راجعة إلى ثلاثة من أبناء نبي الله نوح عليه السلام؛ وهم: سام، وحام، ويافث. وأصل هذه الفكرة مأخوذ من الكتاب المقدس، وعليها جرى المؤرخون القدامى الذين اهتموا بذكر أخبار البشرية الأولى ووقائع تلك الدهور، وبها ومنها فسَّروا ونسجوا بعض الواقع والوقائع، وهذا ما زاد في انتشار الفكرة ووضعها في مكانة الثقافة العامة المعروفة[٣].

ولا نرى بأسًا -ونحن في سياق مخاطبة الإنسانية- أن نخاطب هذه الثقافة العامة، التي ترجع بأصول الأعراق الإنسانية إلى سام وحام ويافث، وأن نُذَكِّر هذه الإنسانية بأنها تعود إلى ثلاثة أعراق كبرى، وهذا ما يجعل كل الشعوب المندرجة في عرق واحد تجد مساحة من التقارب والتواصل فيما بينها.

وبعيدًا عن أي تصورات عرقية عنصرية، فإنه من الطبيعي أن يشعر الأبيض بقرب وانسجام مع مثيله في اللون والخصائص الجسمية، أكثر من الأصفر أو الأسود، وكذلك الزنجي الأسود مع مثيله، وهكذا بين كل المتشابهين الذين يُمَيِّزهم هذا النوع من التشابه عن غيرهم، وهذا في حدِّ ذاته لا ضير فيه إذا لم يصاحبه احتقار أو انتقاص من الأعراق الأخرى، ولقد تكاثرت الانقسامات العرقية من هذه الأصول الثلاثة الكبرى إلى أكثر من هذا، فصار من الطبيعي -أيضًا- أن يكون بين كل عرق منها مساحة أعلى من التقارب والتواصل.

***

---

(١) عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف، بحث في نقد المركزيات الثقافية، ص٢٤٣.

(٢) أشلي مونتاجيو: البدائية، ص٢٨.

(٣) نادر كاظم: تمثيلات الآخر.. صورة السُّودِ في المتخيل العربي الوسيط، ص٦٣.

وفي السيرة النبوية نرى النبي ﷺ يراعي هذا الجانب العرقي، واستند إليه في الإصلاح بين أهل المدينة، فقد حدث -بعد أن فشلت قريش في إيقاف الهجرة النبوية إلى المدينة، وتمَّ استقرار النبي ﷺ فيها- أن أرسلت إلى رأس المنافقين عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول[1] -وقد كان الشخصية التي تتهيأ لِتَزَعُّم المدينة- ومَنْ كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج رسالة، هذا نصُّها: «إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نُقسم بالله لتقاتلُنَّه أو لتخرجُنَّه، أو لنسيرنَّ إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم». واستطاعت الرسالة أن تبلغ أثرها بالفعل؛ إذ لما بلغ ذلك عبد الله بن أُبَيّ ومَنْ كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال: «**لَقَدْ بَلَغَ وَعِيدُ قُرَيْشٍ مِنْكُمُ الْمَبَالِغَ، مَا كَانَتْ تَكِيدُكُمْ بِأَكْثَرَ مِمَّا تُرِيدُونَ أَنْ تَكِيدُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ؛ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا أَبْنَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ**». فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تَفَرَّقُوا[2].

لقد كان الخطاب النبوي في هذه الحالة مرتكزًا إلى حالات القرابة القائمة بين الطرفين، أي العرق، وخلا تمامًا من جانب التذكير بالله أو العامل الإيماني، فلم يكن ذلك من «المشترك» بينهم؛ فمنهم المسلمون ومنهم الكافرون؛ لذا كان الخطاب باحثًا ومستندًا إلى هذا الجانب المشترك، ولقد فعل هذا الخطاب فِعْله -أيضًا- وتمَّ نزع فتيل الحرب.

***

تستطيع الأعراق أن تكون الأساس الذي يستند إليه المصلحون في إنهاء الحروب الأهلية، وما أكثر الحروب الأهلية التي تنشأ؛ كما في القارة الإفريقية على وجه الخصوص، التي شهدت أعنف درجة من الحروب الأهلية في نصف القرن الأخير؛ ففي إفريقيا نستطيع أن نتحدَّث عن اختلافات في كل شيء تقريبًا، اختلافات في الأديان واللغات والثقافات، والعادات والتقاليد، والمؤثرات التي ساهمت في تكوُّن المسار التاريخي والحضاري لكل بلد، غير أنه يمكن التوقُّف وبوضوح أمام عنصر العرق الزنجي كعامل من عوامل الوحدة بين القارة الإفريقية.

---

(١) عبد الله بن أبي ابن سلول: وسلول المذكورة هي أمه، وعبد الله هو رأس النفاق في المدينة المنورة، وهو الذي رجع بثلاثمائة من المنافقين في أحد، وتوفي سنة ٩هـ، وكفن في قميص الرسول ﷺ.

(٢) أبو داود: كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في خبر النضير (٣٠٠٤)، وقال الألباني: صحيح الإسناد.

وفي الجدول الذي وضعه الأستاذ محمد بديع رسلان للحروب الأكثر دموية في القرن العشرين نجد ما يُثير الدهشة لأول وهلة، أن أقسى الحروب وأكثرها دموية هي التي تمَّت في داخل العرق الواحد؛ فالحرب العالمية الثانية التي سقط فيها من العسكريين فقط أكثر من ١٥ مليونًا كانت في مجملها أوربية من العرق الآري (٦ من ٧): أميركا - روسيا - إنجلترا - فرنسا في مقابل: ألمانيا - إيطاليا، ويضاف إليهم اليابان، تليها الحرب العالمية الأولى وسقط فيها من العسكريين أكثر من ثمانية ملايين ونصف، كانت آرية -أيضًا- بخلاف طرف وحيد هو الدولة العثمانية، التي تنتمي إلى العرق التركي، وهو أحد سلالات العرق المغولي، ثم الحرب الكورية بين عامي (١٩٥٠-١٩٥٣م)، وسقط فيها مليون من العسكريين، ثم الحرب بين الصين واليابان (١٩٣٧-١٩٤١م)، ثم الحرب الأهلية النيجيرية (١٩٦٧-١٩٧٠م)، ثم الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦-١٩٣٩م) [١].

***

يمكن -أيضًا- لعنصر العرق أن يكون مساحة للتواصل بين الدول التي تشترك في حكمها لعرق من الأعراق، فقبائل البشتون المنتشرة فيما بين باكستان وأفغانستان يمكنها أن تُشَكِّل مساحة مهمة للتواصل بين البلدين، فالبشتون هم الجماعة العرقية السائدة في أفغانستان، ويمثِّلون ٣٨٪ من مجموع السكان؛ أي: حوالي عشرة ملايين من السكان[٢]، بل إن البشتون يُمَثِّلُون أكبر تجمُّع قبلي موجود في العالم[٣]؛ ذلك أن باكستان يعيش فيها حوالي اثنين وعشرين مليونًا ونصف المليون من البشتون[٤] الذين يُمَثِّلُون ١٣٪ من مجموع السكان[٥].

---

(١) محمد بديع رسلان: من أجل فكر عالمي موحد ص٩٢.

(٢) بلغ تعداد السكان في أفغانستان ٢٦,٣ مليون، طبقًا لإحصاء عام ٢٠٠٧م. انظر: تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٩م، الصادر عن الأمم المتحدة، على الرابط:
http://hdrstats.undp.org/en/indicators/135.html

(٣) عاطف سعداوي: أفغانستان، منشور في الأطلس الآسيوي، تحرير: محمد السيد سليم، رجاء إبراهيم سليم، ص٨٧.

(٤) بلغ تعداد السكان في باكستان ١٧٣,٢ مليون، طبقًا لإحصاء عام ٢٠٠٧م، انظر: تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٩م، الصادر عن الأمم المتحدة.

(٥) جلال الحفناوي: باكستان، منشور في الأطلس الآسيوي، تحرير: محمد السيد سليم، رجاء إبراهيم سليم، ص١٤٣



ولعله يكون درسًا مفيدًا للسياسيين ما وقع فيه الرئيس الباكستاني برفيز مشرف[١] من خطأ فادح؛ حين عاون القوات الأميركية على احتلال أفغانستان في عام ٢٠٠١م؛ إذ إنه في الحقيقة قد فَجَّر في نفسه وفي بلاده مشكلة حقيقية كان عمادها تجاهله أو محاولته لتجاهل التقارب العرقي بين طالبان -التي هي من قبائل البشتون المنتشرة في أفغانستان- وباكستان، والبشتون هم أصلاً أفغان أو باكستانيون، ويَتَّسِمُون بنهج محافظ متشدِّد؛ سواء دينيًّا أو اجتماعيًّا، وبالتالي التغيير وسطهم صعب، ولهذا تجد التيارات الدينية بينهم شعبية كبيرة، وكانت دراسةُ عددٍ من قادة طالبان في باكستان في المعاهد الدينية الباكستانية من ضمن العوامل التي عَمَّقت من الروابط العرقية والقبلية بين أفغانستان وباكستان.

كما أن عددًا من المؤسسات الحكومية الباكستانية قَدَّمت دعمًا لوجستيًّا لحركة طالبان في مرحلة تشكيلها، وكثيرًا ما يقول مسئولو استخبارات وأمن باكستانيون: إنه من المستحيل تقريبًا التعرُّف على عناصر طالبان من بين الباكستانيين في منطقة القبائل. وقال مسئول أمني باكستاني كبير يعمل في منطقة القبائل: إنه لا فرق في الملامح بين عناصر طالبان وسكان المنطقة من قبائل البشتون في باكستان. وأَكَّد -أيضًا- أنه من الصعب رصد حركاتهم خلال التحرُّك عبر الحدود بين البلدين، وكان الرئيس الباكستاني قد اعترف خلال زيارة له إلى كابل، بأن مسلحين من الجانب الباكستاني يعبرون الحدود بين البلدين باتجاه أفغانستان، ويُشاركون في القتال والتفجيرات التي تستهدف قوات الأمن الدولية هناك، وقال: إنه يعترف بأن ذلك يحدث، إلاَّ أن الحكومة الباكستانية لا تدعمه أو أجهزة استخباراتها. وبسبب قوة القبائل البشتونية وتأثير المواجهات على استقرار باكستان، وَقَّع مشرف على اتفاق سلام مع طالبان الباكستانية، التي تنشط في منطقة القبائل، بعد أن تدخَّل الجيش الباكستاني في المنطقة عسكريًّا، وكَبَّده هذا حوالي ٨٠٠ من جنوده خلال السنوات الثلاث السابقة، وفي النهاية اضطر مشرف إلى عقد اتفاق مع العناصر القبلية البشتونية التي تنتمي إلى طالبان[٢].

---

(١) برفيز مشرف (١٩٤٣م -..): وُلِدَ في نيودلهي بالهند، وأصبح رئيسًا لباكستان في ٢٠ يونيو ٢٠٠١م، قدَّم استقالته في يوم ١٨ أغسطس ٢٠٠٨م، عُرف بموالاته للأميركان خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر.

(٢) عمر فاروق: البشتون.. النقطة الملتهبة في آسيا، جريدة الشرق الأوسط، بتاريخ ٦/ ١٠/ ٢٠٠٦.

كذلك هو درسٌ بليغ ذلك الذي أدَّت إليه سياسة الرئيس العراقي السابق صدام حسين تجاه الأكراد، ما جعل مطلب الانفصال الكردي من خلال الحكم الذاتي الكامل أزمة تتجاوز الحدود حتى الآن؛ فتركيا لا تتحمَّل أن يستولي الأكراد في شمال العراق على مقدرات الثروة، لا سيما نفط كركوك، وهو الذي سينعكس بالتبعية على تقوية الحركات الانفصالية الكردية في تركيا، لا سيما حزب العمال الكردستاني حامل السلاح؛ لذا فعند لحظة حرجة تستطيع تركيا أن تجتاح شمال العراق بقوات برية[١]، وهذا بخلاف القصف الجوي بين الحين والآخر، وكل هذا يُشعل مزيدًا من التوتُّر على الساحة العراقية المتوترة أساسًا من بعد عام ٢٠٠٣م[٢].

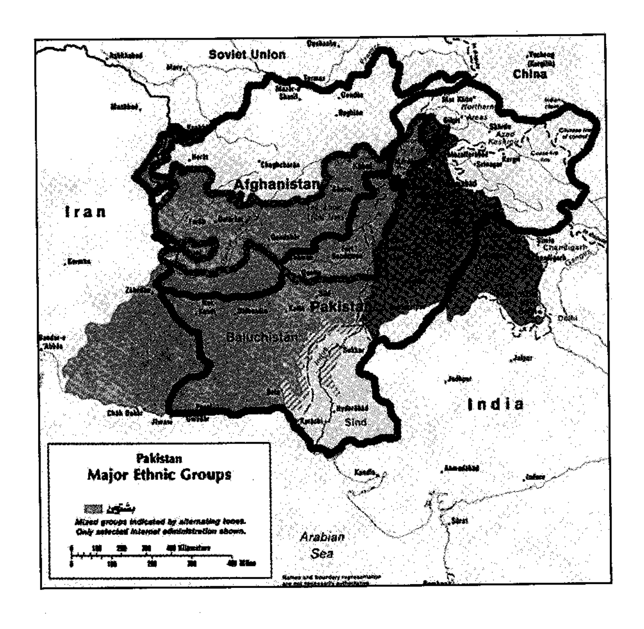
ولكن السياسة الجديدة التي انتهجها حزب العدالة والتنمية الحاكم في تركيا، استطاع أن يلمس بذكاء ملف العرق في التعامل مع المسألة الكردية؛ فلقد سارت السياسة في مسار احترام العرق الكردي، والالتفات بعناية إلى الأقلية الكردية، وقد بدت نتائج هذه السياسة في الانتخابات البلدية التركية ٢٠٠٩م، فلقد أشارت النتائج إلى تنامي الشعور القومي الكردي في المحافظات الشرقية، لكن يتوقَّع المراقبون أن خسارة حزب العدالة والتنمية في المحافظات الكردية أمام حزب التجمُّع الديمقراطي صاحب التوجهات الكردية، إنما يُمَثِّل دفعة للجهود السلمية التي تبذلها الحكومة، ويكشف -بشكل لا لبس فيه- عن أن دعوة السلم والعمل السياسي القانوني تلقى استجابة متزايدة وسط الأكراد، وهذا ما يُمَهِّد لنشوء تيار كردي معتدل، يمكن أن يُشَكِّل شريكًا حقيقيًّا وقويًّا للحكومة التركية، وهو ما يُمَكِّنهم من احتواء التوتر، أو حتى سحب البساط من تحت أقدام حزب العمال الكردستاني الذي يحمل السلاح، كما أن العلاقات الطيبة بين حزب التجمُّع الديمقراطي وأكراد العراق سيمنح تركيا مساحة أخرى من التواصل الفعال في محيطها الإقليمي[٣]. **(انظر: خريطة رقم ٥ البشتون والأكراد).**

---

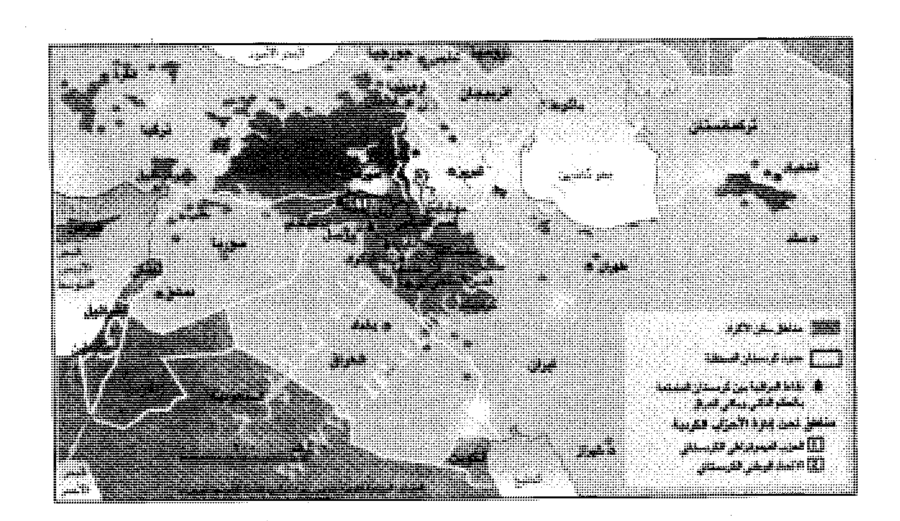
(١) وقد حدث هذا بالفعل في عملية كبيرة في فبراير ٢٠٠٨م، شن فيها الجيش التركي هجومًا بريًّا شارك فيه عشرة آلاف جندي.

(٢) مصطفى اللباد: العامل الكردي في السياسة التركية، مجلة السياسة الدولية، العدد (١٦٩)، يوليو ٢٠٠٧م، ص١٩٣.

(٣) عبد الله صالح: تركيا.. هل تتغير قواعد اللعبة الداخلية، مجلة السياسة الدولية، العدد (١٧٧)، يوليو ٢٠٠٩م، ص٢٨٧.



توزع عرق البشتون بين باكستان وأفغانستان



توزع الأكراد بين خمسة دول

البشتون والأكراد

خريطة رقم (٥)





ولقد لعب الانتماء العرقي دورًا كبيرًا في أزمة دارفور، ذلك أن قبيلة الزغاوة من الأطراف الأساسية للأزمة، وقبائل الزغاوة تنتشر في ليبيا وتشاد؛ فثلثا قبيلة الزغاوة توجد في تشاد وبعض مناطق ليبيا بينما الثلث الآخر موجود في غرب السودان، وبالرغم من أن الزغاوة ليست قبيلة كبيرة العدد، وهي لا تُمَثِّل أكثر من ٥٪ من سكان تشاد، إلاَّ أنها تَتَّسم بالحيوية والاهتمام بالتعليم والتجارة، بل إن الرئيس التشادي وكبار رجال حكومته ينتمون إليها، وفي ظلِّ هذه الخريطة العرقية فلا بُدَّ أن نتوقَّع دخول تشاد على خطِّ الأزمة؛ فالرئيس إدريس ديبي[(١)] - في رواية المدافعين عنه - كان يشعر بخطر التمرُّد في دارفور على نظامه، وكان أول مَنْ نَبَّه السودان إليه، بل إنه أرسل كتيبة من الجيش التشادي لمساعدة الجيش السوداني في القضاء على التمرُّد، إلاَّ أن قائد الكتيبة الطاهر قاسي - وهو زغاوي - سَلَّم الذخيرة والأسلحة إلى عبد الله أبكر -وهو الزغاوي الذي قاد أول تمرُّد عسكريّ في دارفور- فكان دعمًا قويًّا ومؤثرًا، ولما عرف الرئيس ديبي بهذا عاقب الطاهر قاسي فعزله من الجيش وعَيَّنه سفيرًا في فرنسا، ولم يكن يملك معاقبته للاعتبارات القبلية في تشاد، أما رواية الخصوم فتعتبر أن هذه المساعدة كانت أول دعم خارجي يصل إلى المتمرِّدين، وأن سلوك ديبي مع الطاهر قاسي إنما هي مكافأة وليست عقابًا[(٢)].

ونحن هنا غير مَعْنِيِّينَ بتمحيص الحقيقة التاريخية، بل بالاستشهاد على خطورة عامل العرق والانتماء القبلي والعشائري في إنشاء أزمة بين دولتين.

وتوترت العلاقات السودانية التشادية إلى حَدٍّ كبير، لم تُفلح معه سلسلة من الوساطات الليبية والسعودية والسنغالية والقطرية، التي أثمرت بدورها سلسلة من الاتفاقات، التي بلغت سبعة في الفترة بين (٢٠٠٦-٢٠٠٩م)، حتى إن كثرتها لتدلُّ على هشاشتها وانهيارها المتكرِّر[(٣)].

---

(١) إدريس ديبي (١٩٥٢م-..): رئيس تشاد ورئيس حركة الإنقاذ الوطنية، ينتمي لقبيلة الزغاوة التشادية-السودانية، استولي على حكم تشاد في عام ١٩٩٠م بانقلاب عسكري.

(٢) هانئ رسلان: أزمة دارفور والعلاقات السودانية التشادية، مجلة السياسية الدولة، العدد (١٧٧)، يوليو ٢٠٠٩م، ص٢٧١، وما بعدها.

(٣) عبده مختار موسى: دارفور.. من أزمة دولة إلى صراع القوى العظمى ص١١٣، وما بعدها، وهانئ رسلان: السابق ص٢٧٠، ٢٧١.

ومن اليسير -إذا نظرنا من المنظور العرقي- أن نفهم كيف كانت تركيا الأعلى صوتًا، والأقوى موقفًا إزاء الأزمة التي حدثت في تركستان الشرقية (يوليو ٢٠٠٩م)، حين تدخَّلت القوات الصينية وتعاملت بعنف وقسوة مع مطالبات سكان التركستان الإيجور[١].

***

إن الملف العرقي حاضر بقوَّة في كل حوار بين دولتين جارتين يتقاسمان قبيلة أو عرقًا، وبقليل من الجهد يمكن تحويل هذا الملف من نقطة صراع مشتعلة دائمًا إلى نقطة تواصل وتفاهم، تضاف إلى نقاط المشترك الإنساني العام والخاص؛ فما أيسر أن يكون الملف الكردي هو الجامع لتركيا والعراق وسوريا وإيران وأرمينيا! وأن يكون الملف العرقي نقطة تواصل أخرى بين أفغانستان وباكستان بعدما ثبت بالواقع وبعد عشر سنوات أنه ملف لا يمكن تمزيقه، وأن العلاقة العرقية لا يمكن القفز عليها، والكلام نفسه يُقال عن التواصل بين دول المغرب العربي، وبينها وبين الدول الإفريقية عبر ملف الأمازيغ المنتشرين فيها، ومثل ذلك بالنسبة إلى جمهوريات آسيا الوسطى التي تفكك إليها الاتحاد السوفيتي.. وهكذا.

بل نزيد على هذا بالقول بأن هذا الملف إن لم يكن نقطة تواصل، فهو بالضرورة سيتحوَّل إلى نقطة اشتعال حين يُقابلها حدث تفجيري، أو حين يتدخَّل طرف خارجي يُريد تحقيق مكاسب عبر الإمساك أو اللعب في هذا الملف، ولعلَّ المثال الكردي -وقصته طويلة- من أوضح الأمثلة على هذا؛ ففي عام ١٩٧٥م كانت الثورة الكردية في العراق في أوجها، والمساعدات تنهمر عليها من أميركا وإيران، ولما شاءت تحوُّلات السياسة الأميركية أن تُنهي التوتر العراقي الإيراني[٢]، أسفر هذا عن اتفاقية الجزائر في مارس ١٩٧٥م، وإذا بالمساندة الإيرانية تتحوَّل إلى عداء؛ يقول مسعود البرزاني[٣] عن هذه الأحداث: «الخدعة الكبرى

(١) لمزيد من التفاصيل في مشكلة دارفور وتركستان الشرقية وغيرهما، انظر: راغب السرجاني: بين التاريخ والواقع (٤). وكذلك كان لنا برنامج تليفزيوني في رمضان ١٤٣٠هـ على قناة «الناس» الفضائية، بعنوان: «نقطة صدام». تناولنا فيه العديد من الأزمات.

(٢) كان التوتر العراقي الإيراني في ذلك الوقت دائرًا حول ترسيم الحدود، وهي من بقايا المشكلات المتخلفة عن الاحتلال الإنجليزي، وكذلك أزمة تقسيم مياه الخليج العربي.

(٣) مسعود البرزاني: هو مسعود ملا مصطفى بارزاني (١٩٤٦م-..)، رجل سياسة وحكم عراقي كردستاني، رئيس إقليم كردستان العراق، ورئيس الحزب الديمقراطي الكردستاني وهو حزب علماني ليبرالي.

والمؤثِّرة جاءت من هنري كيسنجر[١]، ولولا ذلك لما كان الشاه في موقف يسمح له بخداعنا». ثم في عام ١٩٩١م بعد انتهاء حرب الخليج الثانية انتفض الشعب العراقي في الجنوب والشمال ضد النظام العراقي، ولكن الرؤية الأميركية قدَّرت أن نظامًا قد تمَّ تقليم أظافره هو الأنسب في هذا الوقت، فتركت النظام العراقي يسحق ثورة الجنوب الشيعي والشمال الكردي بما استطاع من أسلحة، رغم قدرتها التامَّة على التدخُّل والمنع[٢]، وهذه هي المذابح التي يتذكَّرها حتى الآن أبناء الجنوب والشمال، وما تزال تأثيراتها قائمة حتى اليوم في اتجاه دعم مطالب الانفصال أو الحكم الذاتي.

ولأن ملف الأكراد لم يكن نقطة تواصل وبناء بين العراق وإيران، فقد تحوَّل إلى جبهة اشتعال أخرى أثناء الحرب العراقية الإيرانية، فلقد رأى العراق -حين بدأت الحرب العراقية الإيرانية في عام ١٩٨٠م- في الصراع بين قوَّات الثورة الإيرانية وأكراد إيران نقطة إيجابية في صالحه، ووعد بمساعدتهم ودعمهم، وحاول بعض قادة أكراد إيران استغلال الموقف لصالحهم، فعرضوا على إيران إيقاف القتال بينهما، والانضمام إلى جانب القوات الإيرانية ضد القوات العراقية مقابل ضمان حقوق الأكراد، إلاَّ أن إيران لم تأمن للأكراد، فلم تُعِرْ هذا العرض اهتمامًا، لكن تطورات الحرب فرضت على إيران تغيير لهجتها، فدعا الخميني[٣] في نوفمبر ١٩٨٠م إلى التفاهم وحلِّ المشكلة الكردية سلميًّا، لكن هذا لم يُفلح إلاَّ إلى حينٍ عادت بعده التوترات، كما أن إيران من ناحيتها تحالفت مع قسم من أكراد العراق بقيادة طالباني[٤]، ثُمَّ لم يستمرّ هذا التحالف[١].

---

(١) هنري كيسنجر: هو هنري ألفريد كسنجر Henry Alfred Kissinger (١٩٢٣م-..)، من أبرز السياسيين الأميركيين، شغل منصب وزير الخارجية الأميركية من ١٩٧٣ إلى ١٩٧٧م، وكان مستشار الأمن القومي في حكومة ريتشارد نيكسون.

(٢) رجائي فايد: المأزق العراقي، مشكلات بناء الدولة في مجتمع تعددي، سلسلة كراسات استراتيجية، العدد ١٣٧، مارس ٢٠٠٤م. ص١١، ١٢.

(٣) الخميني: هو مصطفى أحمد الموسوي الخميني (بالفارسية: روح الله خمئني)، رجل دين سياسي إيراني (١٩٠٢-١٩٨٩م)، حكم إيران في الفترة من (١٩٧٩-١٩٨٩م)، وكان فيلسوفًا ومرجعًا دينيًّا شيعيًّا، وقائد الثورة الإسلامية الإيرانية، ويُعَدُّ الأب الروحي لملايين من الشيعة داخل إيران وخارجها.

(٤) جلال الطالباني (١٩٣٣م -..): رئيس جمهورية العراق، وزعيم حزب الاتحاد الوطني الكردستاني، وهو واحد من أبرز الشخصيات الكردية في التاريخ العراقي المعاصر.

ومن الناحية الأخرى قام العراق بتوقيع اتفاقية مع تركيا، تسمح لجيش تركيا بالدخول إلى المناطق العراقية لضرب الأكراد؛ وهذا لكي يتخلَّص من الأكراد المتحالفين مع إيران، ولأن تركيا هي الأخرى تحتاج لتعقُّب حزب العمال الكردستاني، وبذل العراق في مقابل هذا نفطه بسعر زهيد لمصلحة تركيا[٢].

وللقصَّة فصول دامية أخرى، وقد خرج منها الكل خاسرًا، فيما عدا الطرف الأجنبي، وقد كان من الممكن -وبسهولة- معالجة المسألة الكردية، والتي أنشأها الاستعمار في الأصل، بما يزيد من التواصل والبناء بين هذه الدول.

***

ربما نحتاج في سبيل ترسيخ الالتقاء والتفاهم بين الإنسانية أن نعود إلى مرحلة متقدِّمة من الجذور، فلا نتوقَّف عند الانتماء القبلي العشائري القريب، ولا عند الأفخاذ والبطون المنحدرة من القبيلة، بل نرتفع ونغوص في المراحل الأولى من تشكُّل هذه الأعراق الإنسانية، إنه عنصر ما زال في حاجة إلى تسليط الضوء، وإذا كنا في سبيل الحديث عن المساواة الإنسانية نتحدَّث عن الأصل الواحد المنحدر من أبي البشرية آدم عليه السلام، فنحقق بهذا قاعدة «المشترك الإنساني العام»، فإن النزول إلى ذرية آدم عليه السلام يُتيح لنا آفاقًا جديدة من «المشتركات الإنسانية الخاصة».

نحتاج -أيضًا- أن نستثمر ماخُلقنا به ولم نختره -كعنصر العرق الذي نحن بصدده- في تنمية وتكثير المشتركات فيما بيننا؛ فالإنسان الذي يستطيع تغيير أرضه ولغته وثقافته.. وما إلى ذلك، يَظَلُّ عاجزًا عن العبث في جيناته الوراثية، التي تضعه -وإن أبى- داخل عائلة إنسانية كبرى، هي جزء من الوجود الإنساني العام، فتجعله أقرب إلى البعض منه في ملامحه وتكوينه من البعض الآخر.

---

(١) حامد محمود عيسى: المشكلة الكردية في الشرق الأوسط ص٤٣٦-٤٤١.

(٢) مصطفى اللباد: العامل الكردي في السياسة التركية، مجلة السياسة الدولية، العدد (١٦٩)، يوليو ٢٠٠٧م، ص١٩١، ١٩٢.

التاريخ المشترك

روى ابن الأعرابي أن أعرابيًّا أخذ جرو ذئب، وكان قد التقطه التقاطًا، فقال: أخذته وهو لا يعرف أبويه ولا عملهما، وهو غِرٌّ لم يصد شيئًا، فهو إذا رَبَّيْنَاه وأَلَّفْنَاه، أنفع لنا من الكلب، فلمَّا شبَّ عدا على شاة له فقتلها وأكل لحمها، فقال الأعرابي:

فَرَسْتَ شُوَيْهَتِي وَفَجَعْتَ طِفْلاً ... وَنِسْوَانًا وَأَنْتَ لَهُمْ رَبِيبُ

نَشَأْتَ مَعَ السِّخَالِ وَأَنْتَ طِفْلٌ ... فَمَا أَدْرَاكَ أَنَّ أَبَاكَ ذِيبُ

إِذَا كَانَ الطِّبَاعُ طِبَاعَ سَوْءٍ ... فَلَيْسَ بِمُصْلِحٍ طَبْعًا أَدِيبُ[1]

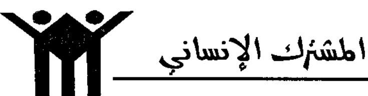
كان الأعرابي يُنكر في أبياته هذه انقلاب الذئب على «التاريخ المشترك» مع الغنم، ويندهش من قتله واحدة ممن رُبِّي معهنَّ وعاش بينهن، ثم لا يجد أيَّ مُبَرِّر لهذا إلاَّ أن طباع الذئب «طباع السوء» تلك التي لا يصلح فيها التربية ولا التأديب غلبت عليه.

وليس هذا بعيدًا عن أخلاق البشر؛ فالإساءة إلى الصديق وذي العشرة أفدح من الإساءة إلى غيره، بل تكتسب تلك الإهانة ثوب «الغدر»؛ لأنها في حقِّ صديق، ولا يتميَّز الصديق عن غيره إلاَّ بهذا العنصر.. «التاريخ المشترك»، وعلى حسب قوَّة الانسجام والتقارُب والحب في هذا «التاريخ» تكون قوَّة الصداقة، ثم تكون درجة «الغدر»، ودرجة استهجان الناس له، والحال بين الأمم لا يختلف كثيرًا عن الحال بين الأفراد، ولئن اعتمد البعض مقولة: «في السياسة لا صداقة دائمة، ولا عداوة دائمة». فإن هذا يظلُّ محصورًا في نطاق السياسيين، أمَّا الناس على مستوى الشعوب فيشعرون بالقرب نحو «الأصدقاء التاريخيين».

***

التاريخ من حيث المبدأ يمثل مشتركًا عامًّا من المشتركات الإنسانية؛ فمن الغرائز البشرية

(١) الجاحظ: الحيوان ٦/ ٢٤، وأبو الهلال العسكري: جمهرة الأمثال ٢/ ٣٠.



الفخر بالتاريخ والأسلاف، ورسم صور الأبطال التاريخيين، ونحت التماثيل والجداريات التي تمثِّل إنجازاتهم.

وكانت عقبة التاريخ والآباء والأجداد من أبرز العقبات التي واجهها الأنبياء والمصلحون؛ لأن الرسالات السماوية كانت ترفض وتُصَحِّح أوضاعًا وظروفًا، صنعها أو أَقَرَّها الآباء والأجداد، الذين هم موضع فخار واعتزاز؛ فقوم نوح عليه السلام كان الملأ منهم يُذَكِّر الناس بتاريخهم وأبطالهم وأجدادهم، ﴿**وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ۞ وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا**﴾ [نوح: ٢٢، ٢٣]، وهذه الأسماء: وَدّ، سواع، يغوث، يعوق، نسر هي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما ماتوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن يصنعوا لهم تماثيل في أماكنهم التي كانوا يجلسون فيها؛ ليتذكَّرهم الناس بالخير، فنصبوا أنصابًا، وسَمَّوْهَا بأسمائهم، ولم يكونوا يعبدونها، فلما مات هذا الجيل عبدها الجيل التالي[1].

وكذلك قوم إبراهيم عليه السلام: ﴿**إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۞ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ**﴾ [الأنبياء: ٥٢، ٥٣]، وكذلك قوم شعيب عليه السلام: ﴿**قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا**﴾ [هود: ٨٧]، وسائر الأنبياء كذلك، فلمثل هذا التاريخ تَعَصَّب كلُّ قوم، ونابذوا دعوة المصلحين: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾ [البقرة: ١٧٠]، ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾ [المائدة: ١٠٤]؛ حتى إنهم التمسوا في تاريخهم ما يُبَرِّر لهم فعل الفواحش: ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا**﴾ [الزخرف: ٢٣].

لقد كانت هذه ظاهرة عامَّة، وواحدًا من القوانين التاريخية التي واجهها كل المصلحين ﴿**وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ**﴾ [الزخرف: ٢٣].

---

(١) انظر: البخاري (٤٦٣٦) ٤/ ١٨٧٣، عن ابن عباس، بتصرف.

ورصد الفيلسوف الإنجليزي الشهير توماس كارليل[١] - في محاضراته عن البطولة والأبطال التي ألقاها بين عامي (١٨٣٧-١٨٤١م) ثم جُمِعَتْ بعدئذٍ في كتاب- كيف أن البشرية منذ فجر تاريخها عَمِلَتْ على تخليد أبطالها، وأن العصور الأولى كان البطل فيها يحتلُّ مقامَ ومكانة الإله، ثم مع التقدُّم الإنساني بدأ البطل ينزل عن هذه المرتبة الإلهية ليكون بشرًا: نبيًّا أو شاعرًا أو قائدًا أو مفكِّرًا[٢].

والحضارات المختلفة - مهما كانت بدائيتها - رسمت ونحتت وكتبت تاريخها وانتصاراتها وأبطالها، على الصخور والورق والحجارة.. وما سوى ذلك، ومَنْ لم يكن له تاريخ اضطر لأن يستلهم تاريخًا ليعتبر نفسه امتدادًا لجذور قديمة[٣]، واهتمَّت الأمم والشعوب بكتابة تاريخها وتصحيحه، والتعرُّض لمن يحاول تشويهه، بل في بعض الأحيان حرص المستعمرون على تغيير تواريخ البلدان المستعمَرَة، وإجبار الشعوب على التنكُّر لهذا التاريخ، وصارت تحمي هذا التزوير للتاريخ بالقوة أحيانًا[٤].

---

(١) توماس كارليل Thomas Carlyle (١٧٩٥-١٨٨١م): كاتب إسكتلندي، وناقد ساخر ومؤرخ، من مؤلفاته: (الأبطال) -وقد عقد فيه فصلاً رائعًا عن النبي محمد ﷺ، وله أيضًا (الثورة الفرنسية). انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون ٢/ ٥٣.

(٢) انظر: كتاب «الأبطال» لتوماس كارليل، وقد عربه الأستاذ الأديب محمد السباعي في أوائل القرن العشرين.

(٣) كما في حالة أميركا، التي استلهمت تاريخ أوربا وعقائدها وفلسفتها، ومن الملاحظ أن الحديث إن كان عن التفوق الحضاري في التجربة الأميركية فإنه يكثر مصطلح «الحضارة الأميركية»، أما إن كان الحديث عن التاريخ والجذور فإن الأميركي نفسه يتحدث وبالحماس نفسه عن الجذور الغربية وعن تاريخ الإغريق واليونان وأوربا، بل إنهم لا يتردَّدُون في الحديث عن تاريخ الهنود الحمر، الذين أُبيدوا على أيدي الأميركان؛ باعتبار أن جذور الهنود الحمر عميقة جدًّا في التاريخ، وهذا يُعْطِي بُعدًا أفضل لأميركا.

(٤) في سبتمبر عام ١٩٨٢م نشبت أزمة عنيفة بين الصين واليابان، هدَّدت الصين عندها بقطع العلاقات، كان السبب في هذه الأزمة هو الخلاف حول بضعة أسطر في كتب التاريخ المدرسية علمت الصين أن اليابان قد غيرتها؛ لقد حاولت اليابان أن تحذف السطور التي تُسيء إلى قادة اليابان في أقوى فتراتها، وتصفهم بالدكتاتورية، وبأنهم سبب نكبة اليابان في الحرب العالمية الثانية، وهي الإساءات التي فرضتها أميركا على اليابان، في هذه الفترة كانت اليابان من القوة بحيث أنها سيطرت على منشوريا وكوريا، واحتلت ما يقرب من نصف الصين، وفي الحرب العالمية الثانية انضمت إلى هتلر، وحطمت الأسطول الأميركي في (بيرل هاربور)، وظلت تقاتل وحدها نحو ثلاثة أشهر بعد سقوط ألمانيا، ولم تستسلم إلاَّ بعد أن ضُربت بالقنابل الذرية، وحين بدا لليابان أن ترفع هذه السطور من كتبها المدرسية، هاجت الصين وماجت، حتى اضطرت اليابان إلى التراجع. انظر: عبد العظيم الديب: إنهم يعرفون قيمة التاريخ، مقال منشور بموقع الشبكة الإسلامية بتاريخ ١١/ ١٠/ ٢٠٠٤م.



في مرحلة تأسُّس القوميات الحديثة، نشأت هذه القوميات على أكتاف عاملين رئيسين؛ هما: اللغة الواحدة والتاريخ المشترك؛ يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري: «بتفسُّخ النظام الإقطاعي في أواخر القرن الثامن عشر، ظهرت الدولة العلمانية القومية المركزية، وهي دولة تستمدُّ شرعيتها من التاريخ المشترك، ومن مقدرتها على إدارة المجتمع بكفاءة، كما أن هذه الشرعية تستند أيضًا إلى مدى تعبيرها عن روح الشعب وإرادته»(١).

ويرى البعض أن من أهمِّ أسباب نموِّ الشعور القومي في إيطاليا وتميُّزه عن غيره من القوميات رغم تَوَزُّع السكان على كيانات سياسية متعدِّدة -هو ذلك التاريخ المشترك الطويل، الذي امتدَّ لسبعة قرون، بالإضافة إلى توحدهم في اللغة الإيطالية(٢).

وبأثر من عامل «التاريخ المشترك» يُفَسِّر المسيري جانبًا من الاضطهاد الذي وقع لليهود في أوربا؛ ذلك أنهم كانوا يُمَثِّلُون طائفة مستقلَّة خارجة عن العقد الاجتماعي للدولة، يقول: «تكتسب الدولة القومية شرعيتها من التاريخ المشترك والثقافة المشتركة، ويستند النقد الاجتماعي العلماني (للمجتمع الإقطاعي والديني) إلى هذين العنصرين؛ ومن ثَمَّ يتحدَّد الانتماء أو عدم الانتماء بمقدار مشاركة المواطن في هذا التاريخ والثقافة، وقد كانت الجماعات اليهودية عادةً ذات هوية مستقلَّة نوعًا عن محيطها الثقافي، الأمر الذي كان يجعلها تقع معنويًّا خارج دائرة العقد الاجتماعي، مع أنها كانت فعليًّا داخل دائرة المجتمع، وهو ما وَلَّد كثيرًا من العداء تجاه أعضاء الجماعات اليهودية»(٣).

ولعلَّ هذا ما استفاد منه ماكس نورداو(٤) الذي يُعَدُّ نموذجًا للفكر الصهيوني العلماني؛ حتى إنه ليتمسَّكُ بالتاريخ المشترك كعامل من عوامل التقريب، أكثر من تمسُّكه بالدين اليهودي نفسه، فيقول: «أن تكون يهوديًّا لا يعني اعتناق الدين، أو القبول بالمعتقد الأخلاقي، إننا لسنا طائفة ولا مدرسة فكرية، بل عائلة واحدة ولنا تاريخ مشترك، وإن أفكار التعاليم

---

(١) عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٢/ ٨٢.

(٢) محمد عدنان البخيت وآخرون: نقولا زيادة في ميزان التأريخ ص٢٨٩.

(٣) عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٢/ ٣٤٩.

(٤) ماكس نورداو: هو ماكس سيمون Nordau (١٨٤٩-١٩٢٣م)، زعيم صهيوني، وأحد المؤسسين للمنظمة الصهيونية العالمية مع تيودور هرتزل.

اليهودية لا تضع الفرد خارج الجماعة، كما أن قبولها لا يجعل من الشخص يهوديًّا، وباختصار ليس من الضروري أن يُؤمن الفرد بالدين اليهودي أو بالنظرة الروحية العامة لليهود كي يُصبح جزءًا من الأمة»[1].

التاريخ المشترك بين الوفاق والشقاق:

تاريخ البشر مُعَبِّر عنهم وعن طبائعهم، ولأن البشر ليسوا من الملائكة؛ فلذا لم يكن بينهم تاريخ كله من الوئام والسلام والوفاق، ثُمَّ وكما أنهم ليسوا شياطين فإن تاريخهم لم يكن نارًا مستعرة مشتعلة لا تهدأ أبدًا؛ فالتاريخ يحكي قصة سلام، ويحكي كذلك قصة حرب، وكل صاحب رؤية أو رسالة يمارس عملية انتقائية من فصول التاريخ، فيختار الفصول التي تدعم رؤيته ورسالته؛ فنحن إذا قرأنا عن «صراع الحضارات»، سنقرأ في طياته فصولاً من التاريخ، وإذا قرأنا عن «حوار الحضارات» فسنقرأ فيه تاريخًا كذلك.

ونحن لا نريد أن نكون من الانتقائيين، وإن كانت الرسالة سامية وتستهدف صناعة التعايش بين الشعوب وقبول الآخر المختلف والمخالف؛ لذا لم نضع عنصر «التاريخ المشترك» ضمن المشتركات العامة بين الشعوب؛ لأن الحقيقة التاريخية تقول بأن ثمة شعوبًا لا يمكن أن تلتقي أبدًا على تاريخ مشترك، فتاريخها يغلب عليه الصراع والحروب، ولكن وضعه في «المشترك الخاص» سيُفْرِزُ لنا كثيرًا من التصنيفات؛ فبوسعنا أن نجد لكل شعب تاريخًا مشتركًا يغلب عليه الوفاق والسلام مع شعب آخر على الأقل، فيكون هذا التاريخ من عوامل التواصل والتقارب واللقاء بينهما.

لكن المؤسف أن يُوجد من بين الناس من يبحث عن تاريخ الأزمات والاضطهادات، والحروب الأهلية التي دارت بين الشعب الواحد، وهو التاريخ الذي يُمَثِّل شذوذًا في مسار تاريخ التوافق العام بين مكوِّنات هذا الشعب، ولا يكتفي «دعاة التصادم» هؤلاء -في كثير من الأحيان- بممارسة الانتقاء فقط من التاريخ، بل يكتبونه بمزيد من الإضافات أو الحذف أو التكلُّف في التفسير والتأويل، وكثير من الدخول في النوايا، «ومن المُسَلَّمات التي لا يختلف

(١) عاطف عودة الرفوع: الإعلام الإسرائيلي ومحددات الصراع ص٤٩، ٥٠.



فيها اثنان أن في كل أُمَّة وكل حكومة عادلين وظالمين، وأن الظالم قد يظلم القريب والموافق، كما يظلم البعيد والمخالف، وأن من الناس مَنْ لا يرضى من مخالفه في الدين والسياسة بالحقِّ ولا بالعدل، وأن من أخبار التاريخ الصادق والكاذب؛ فعلى هذا يسهل على كل مُطَّلع على التاريخ المشترك بين الأمم والمِلَلِ أن يجمع منه ما يُنكره بعضهم على بعض»[١].

من أين نبدأ؟

هذا سؤال قد يثور في الخاطر: من أين نبدأ؟ ما النقطة الصحيحة من هذا المسار التاريخي للبدء في نقاش التوافق والتعايش؟ ومَنِ الذي يُحَدِّد هذه النقطة؟

الإجابة -بواقعية شديدة- هي أن الهوية مع الطموحات المستقبلية يحددان معًا من أين نبدأ؛ وهذان العاملان واضحان في إنتاج المفكِّرين في كل حضارة، فصمويل هنتنجتون حين تحدَّث عن الغرب الواحد، الذي يجب أن يتكتَّل ضد غيره كان يُحَدِّد الهويةَ وهي المسيحية الكاثوليكية، والطموحَ وهو الحفاظ على التفوُّق الغربي؛ ولذلك تحدَّث عن «الخط التاريخي»، وبدأ من لحظة تقسيم الإمبراطورية إلى شرقية وغربية[٢]، رغم أنه كان يستطيع أن يبدأ من أفلاطون وأرسطو، كما فعل رونالد سترومبرج وهو يُؤَرِّخ للفلسفة الغربية فخورًا بها، ومؤكدًا أن كل الحضارات الأخرى لم تُقَدِّم شيئًا ذا بال؛ لأنها حضارات «فاترة الهمَّة، بطيئة الخطى، مُكَبَّلة بأغلال العادات والتقاليد»[٣]، وسترومبرج أيضًا لم يفعل مثل ول ديورانت الذي بدأ «قصة الحضارة» من الشرق؛ مُوقِنًا أن المدنية لا تتوقَّف «على جنس دون جنس، فقد تظهر في هذه القارة أو تلك، وقد تنشأ عن هذا اللون من البشرة أو ذاك»[٤].

لكنهم اختلفوا، وكان اختلافهم هذا بوحي من اختيارهم للهوية ورؤيتهم للمستقبل، فهذا فارق ما بين مَنْ رأى هويته في «الغرب المسيحي الكاثوليكي»، ومن رأى هويته في «الغرب العقلاني»، ومن فَضَّل أن يتحدث عن الإنسان.

(١) محمد رشيد رضا: مجلة المنار ٢٥/ ٧٠٩.

(٢) صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات ص٢٥٨.

(٣) رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث ص١٩.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ١/ ٦.

وكذلك في الحضارات الأخرى، ففي مصر يبدأ من يرى هويته «مصرية» من التاريخ الفرعوني، كما قال أحدهم[١] في مقال له: «مِنْ حَقِّ المصريين ومن الواجب عليهم أن يستثيروا دفائن الفراعنة جميعًا، وأن يربطوا حاضرهم وماضيهم رباطًا ظاهرًا لكل عين، وإنهم إذًا لَيُضيفون إلى قوتهم قوَّة، ولَيُضَاعفون من مجدهم أضعافًا، ولَيَزْدَادون لذلك بالحياة استمتاعًا ولها تذوُّقًا»[٢]. ومَنْ أراد أن يرى مصر عربية إسلامية بدأ بالنظر منذ تاريخ تعربها ودخولها في دين الله[٣].

دور التاريخ في التقريب بين الشعوب:

ثمة ثلاث درجات لاستعمال التاريخ في التقريب بين الأمم والشعوب:

الأولى في حالة وجود تاريخ من التوافق، فحينئذٍ يتمُّ استعمال هذه الورقة لتكون من ضمن خطوط التواصل بين الشعبين.

الثانية في حالة عدم وجود تاريخ مشترك، فحينئذٍ يكون انعدام التاريخ العدائي من الأسباب التي تُتيح مساحة إضافية -مع المشتركات العامة والخاصة- للتقارب بين هذين الشعبين.

الثالثة في حالة وجود تاريخ عدائي بين الدولتين، فحينئذٍ يكون من واجب المتعرِّضين للتقريب والحوار بين الشعبين أن يتجاوزوا هذه النقطة، وألاَّ يكون هذا التاريخ مثار حوار على مائدة التقارب، فإنه إنْ أُثِير نكأ جروح الماضي، ونسف آمال التقارب والتواصل والالتقاء.

ثم تأتي مساحة أخرى يصنعها التاريخ المشترك؛ لزيادة التقريب بين أبناء الشعب الواحد، فيكون إضافة إلى ما بينهم من الروابط والمشتركات العامة والخاصة، وهذا المعنى يلتقطه الفقيه القانوني عبد الرزاق السنهوري[٤] فيقول: «المدنية الإسلامية هي ميراث حلال

---

(١) هو الدكتور محمد حسين هيكل، وقد عاش شطرًا كبيرًا من حياته في الدعوة إلى الفرعونية، ولكنه عدل عن ذلك إلى الاتجاه الإسلامي فيما بعد.

(٢) مجلة السياسة الأسبوعية بتاريخ ٢٧/ ١١/ ١٩٢٦م، نقلاً عن: محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/ ١٤٩.

(٣) انظر: محمد عمارة: عندما أصبحت مصر عربية إسلامية ص٥، وما بعدها.

(٤) عبد الرزاق السنهوري (١٨٩٥-١٩٧١م): أشهر فقهاء القانون في العالم العربي والإسلامي، عمل وزيرًا للمعارف أكثر من مرة، من أهم أعماله أنه وضع المقدمات الدستورية والقانونية في العديد من الدول العربية؛ أهمها: مصر، والسودان، والكويت، والإمارات.



للمسلمين والمسيحيين واليهود من المقيمين في الشرق، فتاريخ الجميع مشترك، والكل تضافروا على إيجاد هذه المدنية»[١].

هذه العبارة التي قالها الفقيه القانوني المسلم لا يُشبهها إلاَّ أختها التي قالها المفكِّر القومي المسيحي الأرذوكسي نقولا زيادة[٢]، قال: «وبتعريب العناصر الأخرى بالاختلاط والتزاوُج والجوار، وبنشر الإسلام واللغة العربية، أصبح تاريخ البلاد العربية تاريخًا مشتركًا للعرب من المسلمين والنصارى، وخلَّف هذا التاريخ المشترك ذكريات قومية، واختبارات وطنية، وأدبًا قوميًّا، وقَصَصًا شعبيًّا، وشعرًا حماسيًّا كُتب بلغة عربية واحدة، هذا التاريخ المشترك هو الذي وحَّد تقاليد العرب وعاداتهم، وقرَّبهم بعضهم من بعض»[٣].

لقد استطاعت الحضارة الإسلامية أن تضرب المثل في هذا الباب أيضًا؛ فحيث خلا تاريخ الحضارة الإسلامية في عمومه من الاستعلاء والعنصرية والاضطهاد للطوائف غير المسلمة، كان البديل أن نتج «تاريخ مشترك» بين كل هذه الأطياف والطوائف.

لا تاريخ عدائي:

الشعوب في هذا عالمنا ينحصر تاريخها العدائي مع عدد قليل من الشعوب: شعب أو شعبين أو ثلاثة، أما باقي الشعوب فإما كان التاريخ الواصل بينها تاريخًا طيبًا ومثمرًا، وإلا لم يكن بينهما تاريخ مشترك، وبهذا تكون الغالبية العظمى من العلاقات بين شعوب العالم علاقات تستند إلى التاريخ الخالي من العداوات فيما بينها، وهذه العلاقات ستكون بطبيعة الحال بين الشعوب المتباعدة جغرافيا؛ حيث تقل فرص نشوب نزاعات على الأرض أو الموارد، وتنعدم محاولات الاحتلال والتوسُّع من أحدها على حساب الآخر.

وعلى سبيل المثال، نأخذ العلاقة بين مصر وأرمينيا، فنحن لا نكاد نجد بين الدولتين تاريخًا

---

(١) نادية السنهوري، توفيق الشاوي: عبد الرزاق السنهوري من خلال أوراقه الشخصية ص١١٨. نقلاً عن: محمد عمارة: في المسألة القبطية ص١١.

(٢) نقولا زيادة: (١٩٠٧ – ٢٠٠٦م)، مؤرخ ومفكر عربي، فلسطيني الأصل، سوري النشأة، لبناني الجنسية، وهو مسيحي الديانة، وكان مؤرخًا موسوعيًّا، من أهم كتبه: (رواد الشرق العربي في العصور)، (وثبة العرب)، (قمم من الفكر العربي الإسلامي).

(٣) محمد عدنان البخيت وآخرون: نقولا زيادة في ميزان التأريخ ص٢٩٥.

من التوافق والتآزر، كما لا نجد تاريخًا من العداء والتنافر، ثم إن الجغرافيا لا تُؤَهِّل قيام علاقة وثيقة بين البلدين، غير أنه بالنظر إلى تاريخ العلاقات بينهما سنجدها بدأت من القرن الثاني الميلادي؛ حيث تمت هجرة أرمينية كبرى إلى مصر، ثم أُنشئت أول كنيسة للأرمن في مصر في القرن العاشر الميلادي[١]، فكانت هذه الكنيسة وراء هجرة الأرمن في الحقب التالية، والتي تكاثرت فيما بعدُ، وتولَّى بعض الأرمن مناصب مهمة؛ مثل نوبار باشا[٢] الذي كان أول رئيس للوزراء في مصر؛ لقد ساعد هذا التاريخ على قيام علاقات ثقافية وفنية وعلمية واقتصادية وسياحية بين البلدين[٣].

بل وقد نجد حالات أخرى تنعدم فيها العلاقة التاريخية حتى على مستوى الشعوب، فإذا تتبَّعْنَا -على سبيل المثال- العلاقة بين مصر وكمبوديا فسنجدها قد بدأت مؤخَّرًا (فبراير ١٩٥٨م)، ولا شكَّ أن خلوَّ التاريخ المشترك من الصبغة العدائية كان محفزًا لنموٍّ سريع في العلاقات، فبعد سنتين (١٩٦٠م) ارتفع التمثيل الدبلوماسي بين البلدين إلى السفارة، واعترفت كمبوديا بالجمهورية العربية المتحدة[٤]، وتمَّ توقيع معاهدتين للتجارة والثقافة، وتواصلت مجهودات كثيرة بين البلدين تصبُّ في مصلحتيهما[٥].

تاريخ من التوافق:

يُمَثِّل التاريخ الإسلامي عنصرًا مشتركًا بين كل الدول الإسلامية، وكما ذكرنا من قبل في أن الهوية والطموحات هي التي تُحَدِّد من أين يبدأ التاريخ، فإن وجود الهوية الإسلامية التي بدورها تدفع المسلمين دائمًا إلى التحالف والتكتُّل بل والتوحُّد، يجعل التاريخ الإسلامي منذ بُعث النبي ﷺ نقطة تبدأ من عندها الشعوب الإسلامية، واستنادًا إلى هذه الحقيقة سيُمَثِّل هذا التاريخ المشترك عنصرًا إضافيًّا بين الدول الإسلامية، لا سيما المتباعدة جغرافيًّا.

---

(١) أي: الثالث الهجري وفي ظلِّ الحكم الإسلامي.

(٢) نوبار باشا (١٨٢٥ - ١٨٩٩م): مسيحي أرمني، وهو أول رئيس لوزراء مصر، تولى منصبه هذا ثلاث مرات.

(٣) انظر التفاصيل في: إبراهيم حامد المغازي: أرمينية، منشور في الأطلس الآسيوي، تحرير: محمد السيد سليم، رجاء إبراهيم سليم، ص٨٢، ٨٣.

(٤) في سنة ١٩٥٨ تم التوافق بين مصر وسوريا على الاتحاد في دولة واحدة، وسميت «الجمهورية العربية المتحدة»، غير أن هذا الاتحاد لم يستمر أكثر من ثلاث سنوات وانتهى في ٢٨ سبتمبر ١٩٦١م.

(٥) انظر التفاصيل: رضا هلال: كمبوديا، منشور في الأطلس الآسيوي، تحرير: محمد السيد سليم، رجاء إبراهيم سليم، ص٣٦٠-٣٦٢.



وكمثال على هذه الحالة نأخذ العلاقة بين مصر وباكستان؛ فهي علاقة ترتكز على محورين: الدين الذي يصنع تاريخًا مشتركًا بين الشعبين، ثم التاريخ الخالي من العداء، فكانت مصر من الدول التي سارعت للاعتراف بباكستان، وتبادلت معها العلاقات الدبلوماسية، وأيّدتها في الأمم المتحدة بشأن قضية الجلاء البريطاني، واشتركت باكستان ومصر في تأسيس المؤتمر الإسلامي ١٩٥٦م، الذي كان نواة لمنظمة المؤتمر الإسلامي، ورفضت مصر موقف الهند في حرب ١٩٦٥م، كما رفضت انفصال باكستان الشرقية ١٩٧١م، وصوَّتت ضد الغزو الهندي في الأمم المتحدة، وكانت باكستان قد رفضت قيام دولة الكيان الصهيوني ١٩٤٨م، وعدوانها على مصر ١٩٥٦م، وعدوانها التالي في ١٩٦٧م، وأيّدت مصر في حرب ١٩٧٣م، وشهدت العلاقات بين البلدين نموًّا وتطورًا كبيرًا في المراحل التالية، كما لا يزال الشعب المصري - مع باقي الشعوب الإسلامية - يُؤَيِّد باكستان في قضية كشمير[١].

وإذا كانت الحالة المصرية الباكستانية نموذجًا لتاريخ بلا عداء، إضافة لاشتراكهما في الدين، فإن الحالة المصرية الجزائرية -كمثال- هي الحالة التي يُمَثِّل فيها التاريخ عنصرًا أقوى، فثمة تاريخ من التعاون المشترك يُضاف إلى الاشتراك في الدين واللغة.

«فمنذ خمسينيات القرن العشرين، وضعت مصر كل إمكانياتها المادية والمعنوية لمناصرة ثورة الجزائر عام ١٩٥٤م إلى أن حصلت على استقلالها، كما كانت أولى الدول التي شاركت بأبنائها في تحقيق عملية التعريب لمناهج التعليم بالجزائر، واستعادة هويتها العربية، وبالنسبة للجزائر، فقد شاركت مصر بكل قوّة في حربها مع إسرائيل عامي ١٩٦٧م و١٩٧٣م، وسال الدم الجزائري مع الدماء المصرية على أرض سيناء.. وخلال العقد الأخير من القرن العشرين شهدت العلاقات بين البلدين آفاقًا جديدة من التعاون واتفاق الرؤى بشأن مختلف القضايا الدولية والإقليمية، ويأتي على رأسها الصراع العربي الإسرائيلي»[٢].

---

(١) انظر التفاصيل: جلال الحفناوي: باكستان، منشور في الأطلس الآسيوي، تحرير: محمد السيد سليم، رجاء إبراهيم سليم، ص١٥٠-١٥٢.

(٢) العلاقات المصرية الجزائرية، النشرة الرسمية للهيئة العامة المصرية للاستعلامات، من موقعها على الإنترنت، على الرابط: www.sis.gov.eg.

وحَلَّ هذا التاريخُ كعنصر ملطِّف للأجواء بعدما نشبت أزمة بين مصر والجزائر بسبب مباراة كرة القدم في أواخر عام ٢٠٠٩م، واستخدمه العقلاء في كلا البلدين للتذكير به، كما استخدمه الدبلوماسيون في سعيهم لتهدئة الأجواء، ونرى هذا بوضوح في تصريح وزير الخارجية المصري أحمد أبو الغيط: «لا يجب أن ننسى أن الجيش الجزائري حارب على الأرض المصرية، ولا يجب أن ينسى الإخوة في الجزائر أن مصر كانت السند الأساسي لمساعدة جيش التحرير الجزائري للانتصار على الاستعمار الفرنسي»(١).

وتظلُّ أقوى الحالات التي يحُلُّ فيها عنصر «التاريخ المشترك» كعنصر تقريبي، هي حالات الدول التي كانت متوحِّدة ثم انقسمت أو انفصلت لعديد من الأسباب والظروف التاريخية، سواء الخاصة بالاستعمار أو التي أدَّت إليها بعض النزاعات.

ومن أوضح هذه الأمثلة أرض الشام، التي ظلَّتْ أرضًا واحدة عبر تاريخها، حتى تمَّ الاتفاق بين المستعمرين الإنجليز والفرنسيين على تقسيم هذه البلاد في إطار السعي لتمزيق الدولة العثمانية، التي كانت تحكم هذه الأراضي، فتحوَّلت أرض الشام إلى أربع دول؛ هي: فلسطين والأردن وسوريا ولبنان(٢).

وكذلك بلاد السند والهند، التي تمثِّل الآن دول الهند وباكستان وأفغانستان؛ فهذه البلاد تمثِّل وَحدة بشرية برغم تنوُّعها البديع في الأعراق واللغات والثقافات، ورغم توزُّعها على الدول التي تنازعت السيطرة على هذه المناطق، إلاَّ أنها ظَلَّتْ تُمَثِّل كيانًا واحدًا، وكثيرًا ما حُكم هذا الكيان ككتلة واحدة -ما عدا المناطق الجنوبية من الهند- كما حدث مع الغزنويين والغوريين وسلاطين المغول، حتى في عهد الاحتلال الإنجليزي كان الإنجليز يحتلُّون هذه المنطقة.

لقد انفصلت أفغانستان وأصبحت كيانًا وحدها منذ عهد نادر خان في القرن الثامن

---

(١) تصريح بتاريخ ٦/٦/ ٢٠١٠م، عقب لقاء مع وزير الخارجية الجزائري مراد مدلسي على هامش مشاركتهما في قمة فرنسا - إفريقيا بمدينة نيس الفرنسية يومي (٣١/ ٥، ١/٦/ ٢٠١٠م).

(٢) رأفت غنيمي الشيخ وآخرون: تاريخ آسيا الحديث والمعاصر ص٣٠٩، وما بعدها.

عشر[(١)]، أمَّا انفصال باكستان عن الهند فقد كان في عام ١٩٤٧م، بعد مزيد من النزاعات الدينية بين المسلمين والهندوس، والتي يشار بأصابع الاتهام في إشعالها وتغذيتها إلى الاستعمار الإنجليزي، وهذا ما جعل الانفصال على أساس ديني مطلبًا ملحًّا، وهو الانفصال الذي لم يخلُ من أحداث دموية[(٢)].

والقصد أن التاريخ المشترك لهذه المنطقة يمكن أن يكون الورقة الأقوى على مائدة اللقاء والتحاور، بالإضافة إلى التداخل العرقي واللغوي والاشتراك في الأرض والمصالح المشتركة.

التاريخ العدائي:

وأخيرًا، فإذا كان التاريخ بين بلدين تاريخًا عدائيًّا في مجمله، فإنه ينبغي في هذه الحالة على المتحاورين أن يرفعوا هذه الورقة من على مائدة الحوار، وأن يحاولوا تجاوزها؛ لأنها ورقة إذا دار حولها حديث نُكِئَت فيها الجراح واستُثِيرَت فيها النفوس واستُعْلِنَت العداوات، فآخر ما يمكن أن يُقال في حوار بين الجزائر وفرنسا هو ذلك الذي يُذَكِّر بقرن ونصف من الاحتلال، الذي سقط فيه أكثر من مليون شهيد، والحال نفسه عند الحوار بين إسبانيا والمغرب، أو بين ليبيا وإيطاليا، أو بين مصر وبريطانيا أو بين العراق وأميركا.. وهكذا.

ويمكن الاستفادة بالتجربة التركية الأرمينية التي بدأ الأتراك والأرمن يتجاوزون فيها المشكلات التاريخية، «فأرمينيا تريد من تركيا شريكًا تجاريًّا قويًّا وطريقًا للانفتاح على الغرب، وسندًا في نزاعاتها الإقليمية الأخرى، كما ترى تركيا مصلحة استراتيجية في إنهاء خصوماتها التاريخية مع أرمينيا وقبرص وكردستان العراق، ونزع ما يمكن أن يكون سبيلاً لتدخُّلات خارجية بجانب ممارسة دور إقليمي أكثر حيوية»[(٣)].

---

(١) عاطف سعداوي: أفغانستان، منشور في الأطلس الآسيوي، تحرير: محمد السيد سليم، رجاء إبراهيم سليم، ص٩٣.

(٢) انظر التفاصيل: محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ١٩/ ٣٥-١٨٢.

(٣) تقرير مجموعة الأزمات الدولية ١٤/ ٤/ ٢٠٠٩، عرض ماهيتاب مكاوي: مجلة السياسة الدولية يوليو ٢٠٠٩م، بتصرف.

اللغــــة

كل بني البشر يتكلَّمُون، ويستطيعون التعبير عمَّا في صدورهم بألسنتهم، وهذه من المميزات التي تُمَيِّز الكائن الإنساني، وهي ميزة أعطاها الله إيَّاه: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤].

فاللغة من أهم خصائص الإنسان، وهي خاصية يتمتَّع بها كل البشر، فهي -من حيث مبدأ النطق والبيان والتعبير- مشترك إنساني عامٌّ، ومما له دلالة في هذا السياق أن كثيرًا من علماء اللغويات لا يَرَوْنَ وجود لغة يمكن أن يُطلق عليها «اللغة البدائية»، وهذا ما يُؤَكِّد أن اللغة ليست بالشيء الذي يجري عليه معيار التقدُّم والتخلُّف، بل معيار التطوُّر والتنوُّع، بمعنى أن اللغة كانت خاصية إنسانية تامَّة موجودة فيه منذ خُلق، ولم تكن شيئًا معدومًا ثم اكتسبه مع تقدُّم الزمن.

فمثلاً: يتحدث جرينبرج[١] - أحد علماء اللغة- عن اللغات البدائية ليُشِير بها إلى اللغات غير المكتوبة، بينما يضع بيلز وهويجر الكلمة بين علامتي اقتباس في معرض حديثهما عن اللغات البدائية، ثم يمضيان ليُثبتا حقيقة عدم وجود لغات من هذا النوع[٢] (أي لغات بدائية)، والواقع أننا عندما نقارن خصائص في الثقافات اللاكتابية؛ كاللغة والدين والأساطير، ونظام القربى، وحبك الروايات، وتأليف الأشعار.. فإن أعضاء الثقافات اللاكتابية لن يقفوا على قدم المساواة، مع أعضاء المجتمعات المتمدِّنة فحسب، بل سيتفوَّقُون عليهم في أحيان كثيرة[٣].

لكن -ومع التسليم بمبدأ عمومية اللغة- فإن التعمُّق في التفاصيل يُظهر لنا أن البشر

---

(١) هارولد جرينبرج Joseph Harold Greenberg (١٩١٥-٢٠٠١م): عالم لغة أميركي، متخصص في التصنيف اللغوي والجيني، ومتخصص في اللسانيات الإفريقية والأنثروبولوجيا.

(٢) أشيلي مونتاجيو: البدائية ص٨٨.

(٣) المرجع السابق ص١٩٤.



الذين يتكلَّمون، إنما تختلف ألسنتهم ولغاتهم ولهجاتهم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]؛ فلئن كان «البيان» هو الجامع الإنساني، وهو المشترك العام، فإن ثمَّة مشتركات خاصة لأهل اللسان الواحد، ثم مشتركات أكثر خصوصية لأهل اللهجة الواحدة.

يبلغ عدد اللغات التي أُحصيت في العالم فيما بين خمسة آلاف إلى ستة آلاف لغة، وما زال ثمة اكتشافات جديدة لأقوام آخرين؛ ومن ثَمَّ للغات أخرى، وتتعدَّد اللغات في المنطقة الجغرافية الواحدة؛ فعلى سبيل المثال يُقَدَّر عدد اللغات في إفريقية عادة بثمانمائة لغة، بينما تُقدِّرها خريطة مدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن بنحو ١٥٠٠ لغة، فضلاً عن اللغات الأوربية وأبرزها الإنجليزية والفرنسية[١].

إلاَّ أن هذه اللغات الكثيرة إنما تجتمع فيما يُسَمَّى بـ «اللغة الأم»، وهي التي يَفْتَرِض علماء اللغة وجودها؛ لتفسير الظواهر المشتركة بين مجموعة من اللغات المتقاربة؛ مثل: اللغة العربية والعبرية والسريانية، التي تشترك جميعها في عائلة واحدة، هي عائلة اللغات السامية[٢]، وكذلك السكان في إفريقية جنوب خط الاستواء تنتشر بينهم (٣٥٠ لغة)، يُطلق عليها البانتو وهي تُشَكِّل أسرة لغوية واحدة، وكلمة «البانتو» معناها الناس[٣].

وفي ظلِّ السيطرة البريطانية على الهند، لاحظ البريطانيون الذين كانوا يعيشون هناك أن الهندستانية -وهي إحدى اللغات المستخدمة في الهند- تشبه اللغتين اللاتينية والإغريقية، واستنتجوا أن اللغات اللاتينية والإغريقية والسنسكريتية (الشكل القديم للهندستانية) نشأت جميعها من لغة واحدة أكثر قِدَمًا، ثم بدأ الباحثون بعد ذلك بدراسة اللغات الأوربية الحديثة، وإجراء المقارنات بينها، فاكتشفوا أن جميع اللغات الأوربية تقريبًا، وكذا لغات فارس وأفغانستان وشمالي الهند نشأت من لغة واحدة، تُوصف باللغة الأصل، وقد أطلق علماء اللغة على تلك اللغة البدائية اسم الهندو-أوربية، ولا يوجد اليوم شيء مدون من

(١) مجلة البحوث الإسلامية ٢٧/ ٢٢٨.
(٢) الموسوعة العربية العالمية، «اللغة الأم».
(٣) مجلة البحوث الإسلامية ٢٧/ ٢٢٤، ٢٢٥.

الهندو-أوربية، ولكن يُعتقد بأنها كانت لغة الحديث المتداولة في أوربا الشرقية قبل عام ٢٠٠٠ ق.م[(١)].

وعلى هذا؛ فإذا نظرنا للغة من أعلى نجد عائلات لغوية، كل لغة فيها تكون «اللغة الأم» لعديد من اللغات الأخرى، ثم كل لغة منها تكون الأم للعديد من اللهجات المختلفة؛ أي أن ثمة أربعة مستويات للالتقاء بين البشر في الساحة اللغوية: الاشتراك في اللهجة، الاشتراك في اللغة، الاشتراك في اللغة الأم، الاشتراك في العائلة اللغوية.

لقد تفرَّعت عن اللغة العربية القديمة لهجات عديدة أصبحت كل منها -قبل الإسلام- لغة منفصلة، عاش منها حتى الآن اللغتان العربية والعبرية، وعن اللغة اللاتينية تفرَّعت خمس لهجات، أصبحت فيما بعد اللغات الإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية والرومانية، وعن اللغات الجرمانية الأم تفرَّعت سبع لهجات أصبحت اليوم اللغات الهولندية والإنجليزية والألمانية والدنمركية والنرويجية والسويدية والأيسلندية، ومن أمثلة ذلك -أيضًا- اللهجات العربية الحديثة، التي يكاد أن يُصبح بعضها غير مفهوم بين أفراد الأُمَّة العربية، والتي لولا وجود لغة القرآن الكريم كعنصر مُوَحِّد في غاية القوَّة، لأصبحت لكل منها لغة مستقلَّة كما حدث في الأمثلة السابقة[(٢)].

وإذا أعدنا النظر إلى خريطة توزُّع الأسر اللغوية (انظر: خريطة رقم ٤ توزع العائلات اللغوية الإنسانية ص ٤٥٩)، سيمكننا أن نرى مساحات تقاربية أخرى لا نراها في غير هذه الخريطة.

فمن الخريطة يبدو لنا أن الأميركتين وأوربا وغرب آسيا ومساحة الوسط من روسيا والهند وأستراليا تنتمي إلى العائلة اللغوية «الهندو-أوربية»، وهذه المساحة المنسجمة في هذه الخريطة لا تكاد تنسجم في أي خريطة أخرى.

كما تنسجم منطقة العالم العربي مع منطقة وسط وشرق إفريقيا في العائلة اللغوية

---

(١) الموسوعة العربية العالمية، «علم اللغة المقارن».

(٢) نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ص١٨٥.

«الأفرو-آسيوية»، وتمثِّل منطقة وسط وجنوب وغرب إفريقيا -ما عدا جنوب إفريقيا- كتلة لغوية منسجمة، وكذلك الصين.

وبالنزول أكثر إلى التفاصيل نجد أن ثمة لغات ينطق بها عدد كبير من البشر، فبحسب قائمة اللغات بحسب تعداد الناطقين بها؛ تأتي اللغة الصينية في المركز الأول، ثم العربية، ثم الإسبانية، فالإنجليزية، فالبنغالية، فالهندية، فالبرتغالية، فالروسية، ثم اليابانية، فهذه هي اللغات العشر الأولى بحسب عدد المتحدثين الأصليين بها؛ يتحدَّث بها قرابة ثلاثة مليارات من البشر (٢٧٨٢,٥ مليون)، أي تقريبًا نصف بني الإنسان، ثم تأتي في مراحل تالية لغات مثل: الألمانية والفرنسية والبنجابية والجاوية والكورية... وغيرها[١].

وعلى هذا نستطيع أن نقول: إن نصف البشر الذين يسكنون هذه الأرض يمكن تقسيمهم في عشر مجموعات كبرى، بمعنى أن شعب أي دولة -في هذا النطاق اللغوي- سيجد نفسه في حالة تفاهم والتقاء مع عدد كبير من الشعوب تشاركه في اللغة؛ أليس شيئًا عظيمًا أن نجمع عددًا لا حصر له من الاختلافات بين هذه الشعوب تحت مظلَّة الانسجام اللغوي، فنصنع بهذا أرضية جديدة للتواصل والالتقاء والتعاون؟!

ويزداد هذا القياس أثرًا بضمِّ اللغات التالية في القائمة، فبدخول كل لغة يدخل معها عدد أكبر من المتحدِّثين بها فيما تظلُّ تتأخَّر اللغات ذات الأعداد القليلة، وعندها سنرى أن ما يقرب من ثلاثة أرباع البشر يمكن أن يُجمعوا في ثلاثين لغة، وبهذا تستطيع اللغة -وحدها- أن تُقَلِّص الاختلافات البشرية إلى ثلاثين اختلافًا فقط.

وربما كان من المهم أن نتوقَّفَ -في هذا السياق- أمام التجربة الصهيونية، التي استطاعت من خلال الرابط اللغوي أن تصنع أرضية قوية وثابتة من الالتقاء بين اليهود، الذين هاجروا إلى فلسطين من كل بلاد العالم، وأن تتجاوز -بهذه الوحدة- العديد من المزالق والمشكلات الكبرى، التي كان من الطبيعي أن يُوَاجهها مجتمع غير متجانس، تَشَكَّل من خليط لبيئات وثقافات وأجناس وعادات كثيرة، فلم يَلْتَقِ إلاَّ على الدين اليهودي، ثم كان

(١) الإحصاء مأخوذ من موقع ويكيبيديا «الإنجليزية».

المخططون للدولة على وعي أَهَّلَهم لأن يُفكِّرُوا في ضرورة «صناعة» لغة للمجتمع الصهيوني، ونقول: «صناعة». لأن عملية إحياء اللغة العبرية من بعد موتها كان يُشبه صناعة شيء جديد.

ولولا أن الأقليات اليهودية احتفظت في عزلتها «الجيتو[1]» بتشدُّد في تعلُّم اللغة؛ لكانت العبرية في عداد اللغات المنقرضة، ولقد وصل هذا التمسُّك إلى حدِّ أن «الحديث اليومي بين اليهود في المجتمع لم يكن يتمُّ بلغة البلاد، وإنما برطانة يهودية خاصة تُسَمَّى باليديش، وحين كان يهودي الجيتو يتعلَّم لغة جديدة، فإنه كان يتعلَّم «لشون هاقدوش»؛ أي: اللسان المقدس أو اللغة العبرية، لأن **مجرَّد النظر إلى أبجدية الأغيار كان يُعَدُّ كفرًا ما بعده كفر**، يستحقُّ اليهودي عليه حرق عينيه»[2].

غير أن هذا التشدُّد في الانعزال جعل اللغة بعيدة عن التطوُّر؛ إذ كان من المحرَّم النظر في علوم الآخرين المكتوبة بأبجديات أخرى، لا سيما العلوم الحياتية؛ كالطب والهندسة.. وما إلى ذلك، بل حتى العلوم الإنسانية كالتاريخ كانت مقصورة على تاريخ اليهود وتراثهم، وهكذا احتفظ الجيتو بالعبرية كلغة لا هي تموت ولا هي تتطوَّر.

لقد اختفت اللغة العبرية كلغة حيَّة منذ القرن الخامس قبل الميلاد؛ لأن اليهود -خارج الجيتو- كانوا يتبنَّوْن في كل بلد يُقيمون فيه لغة شعبه، فتكلَّمُوا الآرامية ثم الإغريقية، لكن هذا التبنِّي اتَّخَذ -لضرورة إحياء اللغة من جديد- شكل لهجة لغوية عبرية جديدة، امتلأت بالتعابير العبرية المستمدَّة من اللغة العربية، واللغة الفارسية، والبروفنكالية (نسبة إلى مقاطعة بروفنكال في فرنسا) والإسبانية، والألمانية.. وغيرها[3].

بل إن متخصصًا في اليهودية والصهيونية مثل العلامة الدكتور عبد الوهاب المسيري يرى أن المجتمع الصهيوني القائم حاليًا لا يتَّفِقُ في أي شيء إلاَّ في هذا المستوى اللغوي،

---

(١) الجيتو: قطاع من مدينة تسكنه أقلية عرقية، أو دينية، أو مجموعة قومية، والمصطلح أصلاً يُشير إلى قطاعات في المدن الأُوربية، استوطن فيها اليهود، أو أُجبروا على العيش فيها، واليوم يُطلق المصطلح على المناطق الفقيرة؛ حيث أُجبرت الأقليات القومية على العيش فيها بسبب الضغوط الاجتماعية والاقتصادية.

(٢) عبد الوهاب المسيري: الأيديولوجية الصهيونية ١/ ٣١، ٣٢.

(٣) حسني عايش: أميركا الإسرائيلية وإسرائيل الأميركية ص٨٢.



يقول: «لا يمكن الحديث في الوقت الحاضر عن أية خصوصية إسرائيلية؛ ولكن حتى إن ظهرت مثل هذه الخصوصية، فإنها لن تكون خصوصية يهودية عالمية، وإنما خصوصية التجمُّع البشري الاستيطاني في الشرق الأوسط، **ذلك المجتمع الذي يتحدَّث سكانه اللغة العبرية، مع أنهم جاءوا من تشكيلات حضارية شتى،** وأحضروا معهم خصوصياتهم الحضارية المختلفة»[١].

ولا نجد عبر التاريخ مثالاً على التوحيد اللغوي أفضل من تجربة الحضارة الإسلامية مع اللغة العربية، فبالرغم من أن الإسلام لم يُجْبر أحدًا على اعتناق عقيدة معينة، أو التحدُّث بلغة مُعَيَّنَة، وبالرغم من أن الإسلام ضمَّ في إمبراطوريته الواسعة أغلب اللغات واللهجات المعروفة في العالم وقتذاك، إلاَّ أن الإقبال على اعتناق الإسلام كان يحمل في طيَّاته إقبالاً على تعلُّم اللغة العربية[٢]، وحتى غير المسلمين قد اتخذوا من العربية لسانًا لهم[٣].

كما أن سيادة اللغة العربية باعتبارها لغة العلوم في العصر الوسيط، أضاف مزيدًا من الإقبال عليها، إلى الحدِّ الذي يُصَرِّح فيه بول ألفارو -وهو علماني إسباني- فيقول وهو متأسِّف: «المسيحيون مولعون بقراءة الأشعار والقصص العربية، وهم يدرسون فقهاء الإسلام وفلاسفته، لا ليدحضوا ما يقولون؛ بل لتصحيح لغتهم العربية وتنميق أسلوبهم، وهل لدينا اليوم من غير رجال الدين مَنْ يقرأ التفاسير اللاتينية للكتاب المقدس، أو مَنْ يدرس الأناجيل، أو كتابات الأنبياء والرسل؟ وا أسفاه! إن جميع شباب المسيحيين من ذوي المواهب يعكفون على قراءة الكتب العربية ودراستها بحماس»[٤]. ذلك أن اللغة العربية كانت لغة أدبية متقدِّمة في ساحة الفكر تقدُّمًا واضحًا[٥].

وعن هذه الحقيقة يقول ول ديورانت: «قَوَّى علماء الإسلام في ذلك العهد دعائم الأدب العربي الممتاز بدراساتهم الواسعة للنحو، الذي جعل اللغة العربية لغة النطق والقياس، وبها

(١) عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٢/ ٧٥.
(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص١٥١.
(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ١٣٣.
(٤) كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد ص٣٢، ٣٣.
(٥) ف. بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٦٣.

وضعوه من المعاجم التي جمعوا فيها ثروة هذه اللغة من المفردات في دقَّة ونظام، وبموسوعاتهم ومختصراتهم، وكتبهم الجامعة، والتي جمعت كثيرًا من أشتات الآداب والعلوم لولاها لخسرها العالم، وبمؤلفاتهم في النصوص والأدب، والنقد التاريخي، ولا حاجة بنا إلى ذِكْرِ أسماء هؤلاء العلماء الأعلام»(١).

وكلا العاملين: اعتناق الإسلام، والإقبال على تعلُّم العربية؛ لأنها لغة العلوم، أنتج -فيما بعد- انسياح اللغة العربية التي لم تكن تتعدَّى حدود الجزيرة العربية إلى حدود العالم العربي المعروف حاليًا، بعد إضافة كل الشمال الإفريقي، وكذلك مناطق أخرى كانت عربية ذات يوم، ثم جرت عليها ظروف تاريخية جعلت العربية تنحسر عنها، كالهند وأواسط آسيا وشبه الجزيرة الأيبيرية وبعض مناطق وسط إفريقيا وغربها.

فكل الإنتاج العلمي المكتوب باللغة العربية -في ذلك الوقت- كان يُقرأ في أقصى الشرق كما يُقرأ في أقصى الغرب؛ كنتيجة لهذا التوحيد اللغوي، الذي يجمع بين كل الاختلافات من الأعراق والأديان والأجناس والبلاد.

وحتى الآن، تُمَثِّل اللغة العربية مجالاً متينًا من مجالات التفاهم والتواصل عبر الشعوب التي تتحدَّث بها من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي، والإنتاج الأدبي أو الفني المصنوع باللغة الفصحى يُسَوَّق له في كل هذه الأرجاء، على العكس مما هو مصنوع باللهجات المحلية، كما أنه أكثر بقاء من الناحية الزمنية(٢).

كما تُمَثِّل اللغة العربية وسيلة التواصل بين المغتربين العرب في البلاد غير العربية، ومن خلال بحث بسيط على شبكة الإنترنت باللغة العربية عن الصحف والمجلات العربية، التي تصدر من خارج الوطن العربي، وتُعَبِّر عن حالة من حالات التواصل القائم على الأساس

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ١٧١، ١٧٢.

(٢) صرَّح الممثل نور الشريف لبرنامج تلفازي بأن مسلسل «عمر بن عبد العزيز» الذي قام ببطولته، والذي كان باللغة العربية الفصحى، هو كعادة هذه النوعية من المسلسلات يظل دائمًا معروضًا ومطلوبًا للمشاهدين العرب، وأن كل القنوات العربية تتناوب إذاعته، وهذه -يواصل- خاصية لا تمتلكها المسلسلات الأخرى.



اللغوي، نستطيع أن نعدُّ أكثر من أربعين صحيفة ومجلة بعضها متخصصة[١].

وثمة أمر ينبغي أن يُذكر في سياق قوة اللغة كعامل من عوامل التواصل والتقارب والالتقاء، ذلك الأمر هو ما تَمَثَّل في حرص دول الاستعمار على كسر هذه الرابطة اللغوية، في الدول التي احتلتها؛ لأن ثمة إدراكًا عميقًا بأثر اللغة في التواصل بين الشعوب الناطقة بها.

فبريطانيا -على سبيل المثال- اتبعت سياستها المعروفة «فرِّق تَسُدْ» في مجال الصراع السياسي المباشر، وعمدت في المجال الثقافي والإعلامي إلى إثارة الخلافات اللغوية والإثنية، وكانت نتيجة ذلك تشجيعها للهجات المحلية؛ كجزء من تشجيعها للخلافات القبلية والطائفية، ومن هنا جاءت محاولتها لضرب اللغة العربية الفصحى، من خلال تشجيع إصدار صحف باللغات المحلية، وقد تَنَبَّهَت القوى الوطنية العربية لهذه المؤامرة في وقت مُبَكِّر، وحرصت على محاربة هذا الاتجاه بالإكثار من إصدار الصحف الناطقة بالعربية الفصحى، وذات الطابع الأدبي في الأساس[٢].

ولهذا فلقد كان من الأمور المميزة لنشأة القوميات الحديثة هو أمر إحياء اللغة القومية، بعد المحافظة عليها جيلاً بعد جيل، في ظروف قاسية تعمل في بعض الأحيان على طمسها أو القضاء عليها، ومن أمثلة ذلك محاولة اتخاذ اللغة الهندية لغة رسمية في جميع أرجاء الهند المستقلَّة، وبعث اللغة العبرية لغة رسمية ولغة حديث في فلسطين المحتلَّة كما بيَّنَّا، ولعلَّ أبلغ مثال على ذلك محافظة شعوب شمال إفريقيا على لغتهم العربية؛ رغم السياسات المرسومة للقضاء عليها، ثم بعثها من جديد لغة قومية للدول المستقلَّة بعد أن تحرَّرت من نير الاستعمار الأوربي الطويل، وكثيرًا ما يبلغ الاهتمام والاعتزاز باللغة القومية مبلغ محاولة تنقيتها من الشوائب الأجنبية العالقة بها، كما حصل مع اللغة الألمانية، وما تحاول الأكاديميات والمجامع اللغوية أن تفعله في أماكن مختلفة من العالم[٣].

---

(١) راجع مواقع: دليل الخيمة للمواقع: (www.khayma.com)، دليل نسيج (www.naseej.com)، دليل نسناس (www.nesnas.com).

(٢) عواطف عبد الرحمن: قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث ص٨٧، ٨٨.

(٣) نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ص١٨٧، ١٨٨.

وذلك مظهر يُؤَكِّد أن التواصل اللغوي كان شيئًا لا غنى عنه للشعوب، التي تشعر بوحدة الانتماء، بل حتى الشعوب التي ليست لها لغات مكتوبة، ما أن تتحوَّل إلى دول مستقلَّة حتى تبدأ في صناعة لغتها وكتابتها؛ ومن أمثلة ذلك؛ ما فعلته إندونيسيا حين اتخذت لغة الباهاسا المستمدَّة من الملاوية المحكية في سومطرة مع شيء من الهولندية المحوَّرة، واتخذت تنجانيقا[١] اللغة السواحلية، ومثل هذا ما فعله من قبلُ اليابانيون والمنشوريون والروس والمغول[٢].

***

ثمة حقيقة لا يمكن تجاهلها، ونُعيد التأكيد عليها، وهي أن التواصل عبر المشتركات الخاصة يتطلَّب احترامًا للمشتركات العامَّة، فعند احترام المشتركات العامة تتحوَّل كل المشتركات الخاصة تلقائيًّا إلى عوامل تواصل والتقاء وتفاهم واحترام، فإذا سادت أجواء الاحترام والمراعاة للعدالة والحرية والكرامة والأخلاق الأساسية، لم تكن مشكلة في أن يتعلَّم مجتمع لغة قوم آخرين، وأن يتواصل معهم من خلالها.

إنما يُؤَدِّي انتهاك هذه المشتركات العامة إلى بزوغ المشتركات الخاصَّة كعوامل مقاوِمة، وهي عوامل ملتهبة مشتعلة لا يمكن إطفاؤها؛ ذلك أنها عميقة متجذِّرة في الشعوب، وحينئذٍ يصير تعلُّم لغة المحتلِّ -إلاَّ لهدف مقاومته- عملاً مُحتقرًا، ويصير التواصل معه -إلاَّ لهدف التحرُّر منه- خيانة وعمالة، وحتى الشعوب التي نجح الاستعمار في زرع لغته بينها، وإجهاض لغاتها الأصلية ما تزال ترى في لغته عنوانًا للأزمة، وعلامة على تاريخ الإذلال البغيض.

وقد روى رئيس وزراء سنغافورة لي كوان يو[٣] وصانع تجربة نهضتها المتميزة، في

---

(١) هي الجزء القاري الذي اتحد مع جزيرة زنجبار عام ١٩٦٤م ليكونا معًا جمهورية تنزانيا الاتحادية، استقلت عن بريطانيا في ٩ ديسمبر ١٩٦١م، وأصبحت عضوًا في منظمة الكومنويلث.

(٢) أشيلي مونتاجيو: البدائية ص٧٥.

(٣) لي كوان يو Lee Kuan Yew (١٩٢٣م-..): أول رئيس وزراء لجمهورية سنغافورة من ١٩٥٩ إلى ١٩٩٠م، يُعَدُّ واحدًا من أكثر الشخصيات السياسية نفوذًا في جنوب شرق آسيا، ويشغل حاليًا منصبًا الوزير المفكر.



مذكراته أنه كان مثل نهرو[١] في شعوره تجاه اللغة، فكتب في يومياته القديمة: «أنا رجل عاطفي بدرجة أقلَّ، فأنا عادة لا أبكي أو أشدَّ شعري أو أمزق قميصي، ولكن هذا لا يعني أن شعوري تجاه اللغة يقلُّ عن شعور نهرو، لن يذهب ابني إلى مدرسة إنجليزية، ولن يكون أنموذجًا لرجل بريطاني، ولكني آمل بالطبع أن يعرف الإنجليزية معرفة كافية، بحيث يتحدَّث مع أبيه في شئون أخرى غير الطقس»[٢].

فهذا كلام أناس فقدوا لغتهم الأم بفعل المستعمر، لكن هذا لم ينجح في جعلهم يخضعون للُّغة، بل أَجَّج من شعور مقاومتهم لها، ومن تمسُّكهم بلغاتهم التي لا يُجيدونها، وفي العالم العربي تنظر الجماهير بتأفُّف لمن يتَّخذ من لغة غير اللغة العربية شعارًا له، حتى يصير حديثه مشحونًا بالألفاظ الأجنبية، وما زال المتغرِّبُون والمتفرنسون والمتأمركون -وكل هذه ألقاب يقصد بها التقليل من الشأن[٣]- لا يحظون باحترام لدى الجماهير العريضة.

بينما لا تُطْلَق مثل هذه المصطلحات على المتشبِّعين بالثقافة اليابانية أو الصينية أو الهندية، أو غير ذلك من الثقافات التي لم يكن بينها وبين العالم العربي تاريخ من الاحتلال، أو محاولات طمس الهوية، ولا يُنظر بعين التوتُّر إلى مَنْ يُجيد لغات هذه البلاد ويقرأ آدابها وفنونها، إن خلوَّ التاريخ من فترات عدائية يجعل تقبُّل هذه الثقافات واللغات والتواصل معها أمرًا ميسورًا.

وفي هذه الحالة فقط -حال وجود احترام للمشتركات العامة- يمكن أن يُنظر إلى كل مَنْ أجاد لغة -إلى جانب لغته الأم- بحسبانه جسرًا بين شعبين، وحينها نستطيع إقناع كل مَنْ يتعلَّم لغة جديدة بأنه -بهذا- يُمَثِّل جسرًا جديدًا بين شعبين، فتتكوَّن القاعدة التقاربية اللغوية بين الشعوب الإنسانية.

---

(١) كان نهرو يبكي؛ لأنه لا يجيد لغته الأم «الهندية»، مثلما يجيد الإنجليزية.

(٢) لي كوان يو: قصة سنغافورة ص٢٢٤.

(٣) لفظ: «المتغربون - المتفرنسون - المتأمركون» هي بمعنى «المتشبه بـ..»، ويدور مدلولها حول أنه يحاول أن يكون مثلهم، غير أنه لن يكون، فلا هو انتمى إلى أصله، ولا هو وصل إلى ما يريد، كقول الشاعر ساخرًا: «كَـالْهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صَوْلَةَ الأَسَدِ».

العادات والتقاليد

تنشأ العادات والتقاليد بعد أن تركن الأُمَّة وتستقرُّ في منطقة بعينها؛ فتبدأ في سلوك طرائق معيشتها؛ ومع هذا نجد أُمَّة كالغجر -مثلاً- تصنع لنفسها عادات وتقاليد برغم أنها أُمَّة من الرُّحَّل، حتى إنهم يُسَمُّون أنفسهم «أبناء الرياح»؛ وذلك إن دلَّ فإنما يدلُّ على أن الطبيعة البشرية تستلزم وجود عادات وتقاليد، أو بعبارة أخرى أن العادات والتقاليد هي من ناحية الأصل والوجود تمثِّل جزءًا من المشترك الإنساني العامِّ؛ فكل شعب رُصدت له مجموعة من العادات والتقاليد.

أمَّا من حيث التفاصيل، فإننا نجد قدرًا هائلاً من التنوُّع والاختلاف بين البشر في العادات والتقاليد، ربما نجد صعوبة بالغة تصل إلى حدِّ الاستحالة إذا حاولنا البحث عن قبيلتين تتحدان تمامًا في العادات والتقاليد، إنَّ هذا عسير حتى على التصوُّر؛ لأنه حتى في المناطق المتجاورة جغرافيًّا، والتي لها الاحتياجات الاقتصادية نفسها، وتمتلك اللغة نفسها، وتعتنق الدين ذاته، نجد بينها -رغم كل هذا- قدرًا من الاختلاف في العادات والتقاليد؛ من حيث طرق الزواج والطلاق، والاحتفال بالمناسبات والأعياد، أو طقوس الموت والدفن.

غير أن ما نُريد قوله في هذه السطور القادمة هو أن (العادات والتقاليد) إذا نظرنا إليها بمنظور التعارف والتعايش والتواصل، فسنجد فيها قاعدة أخرى من قواعد الالتقاء بين الإنسان وأخيه الإنسان؛ الأمر لا يحتاج أكثر من تغيير النظرة بالبحث عن المشترك لا عن المختلف، ثم طَرْحِ هذا المشترك والإلحاح عليه في محافل ومناسبات الالتقاء، مع الحرص والحذر الشديد من الاصطدام في الجانب المختلف، بل (تجميده) في خانة الخصوصيات التي تُحترم، ولا يُحاوَل تغييرها إلاَّ في نطاق الحوار «بالحكمة والموعظة الحسنة»، وتحت مظلَّة الحرية الكاملة في الاستجابة لهذه النصيحة الهادئة، أو رفضها دون أن يُؤَثِّر هذا على مساحة المشترك، التي تُوَصِّل لمجالات التعاون والتفاهم والبناء.

إذًا؛ فالشعوب لها عادات وتقاليد، وهذا على مستوى الشعوب جميعًا؛ تلك التقاليد ذات قدر غير محدود من الثراء والتنوُّع والاختلاف، يمكن لمن أحب التصادم واتخذ النظرة الأُحادية للأمور أن لا يتوقَّف إلا عند جوانب الاختلاف بما يُثمر الرفض والكراهية والتعالي ثم العنصرية، ويمكن لمن يبحث عن التعايش أن يتوقَّف عند مساحات الاتفاق ليبني جسورًا من التوافق والتفاهم، تستطيع أن تُثمر إمكانية من الحوار في مناطق الاختلاف في ظلِّ المودَّة والاحترام.

وثمة ملاحظة ذات أهمية؛ وهي أن تلك العادات والتقاليد في الغالب الأعمِّ لا معنى لها ولا فائدة بالقياس المادي، بما يُؤَكِّد أن الإنسان ليس مجرَّد كائن مادي فقط، يتحرَّك بوحي من غرائزه، أو حاجاته الاقتصادية، بل هو كائن مركَّب مُتجاوز للبُعد المادي، فهو ذو أبعاد أخرى رُوحية أو نفسية، ما يجعلنا نضع هذا الواقع أمام أعيننا ونحن نحاول الالتقاء أو الحوار، فليست الأمور ذات تفسير مادي، إذًا فالحلُّ والتعاون والتفاهم لا يقتصر على الجانب المادي فقط.

في السطور القادمة نضرب بعضًا من الأمثلة على هذا النوع من التشابه بين الشعوب المختلفة والمتباعدة في مجال العادات والتقاليد؛ وهي أمثلة تُشير إلى المنهج فحسب، فهي لا تزال تنتظر العلماء المتخصِّصين والباحثين في هذا المجال ليعودوا عليها بالتصحيح والتفسير والتطوير والتوسيع.

كما لا بُدَّ في إطار هذا الهدف أن يتمَّ التفريق بين العادات الدينية والعادات الشعبية، فالعادات الدينية -التي تُصاحب الاحتفالات بالأيام والمواسم الدينية، التي لها ارتباط بالعقيدة وذِكْر في الكتب المقدسة أو شروحها- يظلُّ التعامل معها ذا حساسية خاصة، وقد لا تكون مطروحة -ولا يجب أن توضع- على طاولة الحوار؛ بينما العادات الشعبية يمكن أن تكون مجالاً أرحب للأخذ والعطاء والحوار والتطوير والتغيير.

* * *

العادة في اللغة: هي كل ما اعتيد حتى صار يُفْعَل من غير جهد[١]، وأمَّا التقاليد فهي: العادات المتوارثة التي يُقَلِّد فيها الخلفُ السلفَ[٢]، وقريب من هذه المعاني ودلالتها -أيضًا- كلمة «العُرْف»، وتعريفها في اللغة يكاد يتطابق مع ما سبق؛ فهو خلاف النُّكْر وما تعارف عليه الناس في عاداتهم ومعاملاتهم[٣].

ويقول أحد فلاسفة الإسلام وهو الشريف الجرجاني[٤] في كتابه (التعريفات) وهو من أوائل المعاجم التي اهتمَّتْ بذكر أسماء واصطلاحات الألفاظ في العلوم، يقول: «العرف ما استقرَّت النفوس عليه بشهادة العقول، وتلقَّتْه الطبائع بالقبول، وهو حجَّة أيضًا؛ لكنه أسرع إلى الفهم، وكذا العادة؛ وهي ما استقرَّ الناس عليه على حُكْم العقول، وعادوا إليه مرَّة بعد أخرى»[٥].

لذا فالكلام في هذه الصفحات دائر على ما يفعله الناس بالتلقائية والطبع؛ لأنه في أعينهم طبيعي منطقي يُشير إلى دلالات بعينها، وعكسه هو ما يُثير الاستغراب والاستهجان والنفور.

***

طرح المفكر المصري الدكتور ميلاد حنا هذا السؤال: ما الأسباب والعوامل التي تُشَكِّل المشاعر الإنسانية الجماعية؛ أي: المشاعر العامة المتكرِّرة في جماعة أو أُمَّة أو شعب؟ وهذا سؤال يُعطي مدخلاً آخر لرصد التشابهات بين الشعوب المختلفة.

يقول: قد يعود بعضها إلى عوامل جغرافية بيئية، فالطبيعة والمناخ يؤثِّران في التركيبة

(١) المعجم الوسيط ٢/ ٦٣٥، وانظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عود ٣/ ٣١٥، الزبيدي: تاج العروس، باب الدال المهملة فصل العين ٨/ ٤٤٣.

(٢) المعجم الوسيط ٢/ ٧٥٤.

(٣) المعجم الوسيط ٢/ ٥٩٥، وانظر: الجوهري: الصحاح، باب الفاء فصل العين ٤/ ١٤٠١، وابن منظور: لسان العرب، مادة عرف ٩/ ٢٣٦.

(٤) الشريف الجرجاني: هو علي بن محمد بن علي، المعروف بالشريف الجرجاني (٧٤٠-٨١٦هـ=١٣٤٠-١٤١٣م)، فيلسوف، من كبار العلماء بالعربية، تلقى تعليمه في شيراز وبها توفي، من مؤلفاته: التعريفات، رسالة في فن أصول الحديث. انظر: الزركلي: الأعلام ٥/ ٧.

(٥) الجرجاني: التعريفات ص١٩٣.



النفسية للجماعات الإنسانية؛ حيث سكان الوديان والحضارات الزراعية أميل إلى الهدوء النفسي، والتعاون بين الأهل والجيران والاطمئنان للآخر، بينما الصحراء وامتدادها اللانهائي يدفع لانطلاق الخيال، والخوف من الغريب القادم من بعيد؛ ولذا فلا بُدَّ أن يرفع الغريب يده واضحة بالسلام؛ حتى يطمئنَّ صاحب المكان إلى أنه ليس عدوًّا أو يحمل سلاحًا، ولأن سكان الغابات معرَّضون لمخاطر الافتراس من الحيوانات والزواحف التي قد تنقضُّ عليهم في لحظة غير متوقَّعة، ولأن الرعد والأمطار ظواهر متكرِّرة تحدث دون انقطاع أو دون إنذار، فيترتَّبُ على ذلك حالة دائمة من الترقُّب وعدم الاستقرار؛ أي: القلق المستمرّ لأهل هذه المناطق؛ لذلك فالحياة رخيصة والموت موجود عند أي منعطف وفي أي لحظة، ولا يُفَرِّق بين كبير السنِّ أو يافعه، أمَّا سكان المناطق الثلجية فإنهم يجتمعون في أماكن محصَّنة طلبًا للدفء، ولمقاومة الطبيعة القاسية لأشهر طويلة؛ لذلك فالتماسك الأسري للعائلة الصغيرة والتعاون الأكيد فيما بينها هو الضمان لاستمرار الحياة[1].

إن هذا يجعلنا نتوقَّع أن سكان المناطق المتشابهة في البيئة والمناخ سيجدون بينهم فرصًا أكبر للتشابه في الطبائع والعادات والتقاليد وطرائق السلوك والتعامل؛ إن هذا تشابه وثيق ومتين، ولكن قليلاً ما يُنْظر إليه باعتباره مدخلاً من مداخل الاقتراب والالتقاء بين الشعوب المتباعدة الديار المتقاربة الأرض والرياح والأمطار.

***

الاحتفاء بالموتى:

في مدغشقر يُقِيمُون كل عام -في أواخر الصيف وأوائل الخريف بعد موسم حصاد الأرز- احتفالات كبيرة؛ يقومون فيها بإخراج عظام الموتى من القبور والاحتفال بالموتى؛ فهم يعتقدون أن أرواح الموتى ما زالت تعيش بينهم، ومن مراسم الاحتفال أن يتحدث أفراد العائلة إلى العظام، ويُعَرِّفُونهم بأنفسهم، ويقصُّون عليهم الأعمال المجيدة والحسنة التي قاموا بها مع تجنُّب ذكر الأعمال السيئة؛ لكي تسعد رُوح الميت ولا تبتئس، وهم يُنفقون في هذه

(١) ميلاد حنا: قبول الآخر ص٢١، ٢٢.

الاحتفالات الأموال الطائلة، التي ربما أتت على كل حصاد الغلال، وكلما استكثروا في الاحتفال والإنفاق كان أفضل وأكثر إسعادًا للميت، ثم يُعيدون دفن العظام بعد لفِّها بالحرير والطواف بها، ويضعون معها التبغ والنقود والذهب؛ لكي ترتاح رُوح الميت، ولا شكَّ أن قومًا على مثل هذا الحال في الاعتناء بالموتى تكون أضرحتهم مثالاً في الإنفاق والضخامة؛ فهم يعتقدون ويؤمنون بأن الموت ليس نهاية الإنسان[1].

وهذا الاحتفاء بالموتى مرتبط عند التايوانيين باحتفالهم بأول السنة القمرية، وهو الاحتفال المشهود الذي يتوقَّف عنده كل شيء، وتكون الاستعدادات قائمة في كل بيت، والكل مشغول بتنظيف البيت، وإعادة صباغته وتلوينه، وتزيين الغرف بالزهور، وعند غروب شمس الليلة الأخيرة من السنة القمرية تجتمع العائلة داخل البيت، وتُغلق الأبواب بالشمع والورق الأحمر، وقبل تناول طعام المأدبة الكبيرة يحني كبير العائلة رأسه ويتبعه الآخرون فهذه هي تحية التكريم للأسلاف، وعند انتصاف الليل ينطلق التايوانيون إلى الشوارع وتستمرُّ الألعاب النارية حتى الصباح[2].

ولا يَبْعُد اليابانيون عن هذه الصورة الاحتفائية بالموتى؛ إذ يحتفلون في شهر يوليو من كل عام بيوم (أرواح الأهل)، وفيه يعود الناس إلى قراهم ومواطنهم الأصلية؛ إذ يعتقدون أن أرواح الموتى تعود في هذه الفترة إلى مواطنها الأرضية، فيستقبلونها بالترحاب والاحتفالات، فيُضيئون المشاعل، ويُقَدِّمون الهبات إلى نموذج المعبد الصغير المقام داخل المنزل، وهو المعبد الذي تلتفُّ حوله أرواح الموتى فتعيش معهم ليومين، وفي هذا العيد يجتمع شمل العائلات اليابانية[3].

بينما يلتقي الكوريون مع التايوانيين في الاحتفال بأول السنة القمرية، ويلتقون مع كل مَنْ يُمَجِّد الأسلاف في مراسيم وطقوس الحفل؛ إذ يبدو الحرص على تكريم وشكر الأجداد، فيُوضع الطعام أمام صورة أحد الأسلاف، وينحني أصغر أفراد العائلة انحناءً شديدًا أمام

(١) أديب أبي ضاهر: عادات الشعوب وتقاليدها ص٣٩-٤١.
(٢) المرجع السابق ص٨٣-٨٥.
(٣) عبد الفتاح شبانة: اليابان.. العادات والتقاليد وإدمان التفوق ص١٣.

أجداده وأبويه وإخوته الأكبر سنًّا، واجتماع شمل العائلة الكورية في اليوم الثامن من ظهور القمر بين شهري أغسطس وسبتمبر من كل عام لا يختلف عن اجتماع شمل العائلة اليابانية في شهر يوليو[١].

الخاطبة:

ومن أوجه التلاقي الطريفة في مجال العادات والتقاليد، هذا التلاقي في نظام (الخاطبة) التي تقوم بدور الوسيط بين الشاب الراغب في الزواج والفتاة التي بلغت سنَّ الزواج، وهو نظام موجود في كثير من الدول العربية، كما هو موجود -أيضًا- عند اليابانيين وعند الكوريين، ويصل التشابه إلى عرض الصور على الأسرتين، ثم ترتيب لقاء للتعارف بين هاتين الأسرتين في مكان عامٍّ[٢].

الشاي:

شعوب كثيرة تشرب الشاي وتدمنه من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب؛ اليابانيون والصينيون، والهنود والسيلان، والإندونيسيون والفيتناميون، والأتراك -وهم يحققون المركز الأول في شرب الشاي- والفرنسيون والألمان، والإنجليز والأميركان، والمصريون وكثير من العرب، والكينيون والأوغنديون وكثير من الأفارقة، ولكل شعب من هؤلاء طقوسه وعاداته في شرب الشاي؛ ثقيل، باللبن، بالنعناع، ساخن، مثلج، أخضر، أسود... ولكن البلجيكيين لا يشربونه[٣]، ومثلهم الإيطاليون والإثيوبيون[٤]، ومعهم أتباع المذهب المسيحي المورموني[٥] الذين يتفرَّقُون في أنحاء العالم[٦].

---

(١) كيفين كيتنج: كوريا.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١٠٩.

(٢) عبد الفتاح شبانة: اليابان.. العادات والتقاليد وإدمان التفوق ص٢٦، وكيفين كيتنج: كوريا.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١١٢، ١١٣.

(٣) عبد الوهاب مطاوع: سائح في دنيا الله ص٧٥.

(٤) قائمة الدول حسب استهلاك الفرد للشاي، من الموسوعة الحرة ويكيبديا.

(٥) المورمون: عبارة عن مصطلح يُطلق على أتباع كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة، وهي كنيسة لها أكثر من ١٢ مليون عضو في العالم.

(٦) مقال «لماذا لا يشرب المورمونيون القهوة»، منشور على الرابط:
http://mormonism.suite101.com/article.cfm/why_mormons_dont_drink_coffee.

الاسم الأول:

ينصح عبد الفتاح شبانة -السفير المصري الأسبق- في اليابان قُرَّاءه بألاَّ يتعجَّل أحدهم مناداة زميله الياباني باسمه الأول، فإن ذلك يُشعره بالحرج وعدم الارتياح، وينبغي التريُّث إلى أن يأذن الياباني بهذا المستوى من رفع الكلفة(١)، وهذه النصيحة نفسها يُسديها كيفين كيتنج لمن أحب أن يزور كوريا؛ إذ إن الاسم الأول لا يُستخدم إلاَّ بين الأصدقاء والمقرَّبِينَ وتحت ظروف محدَّدة، وأيُّ مخالفة لهذا يُعَدُّ سلوكًا بعيدًا عن الذوق والأدب، وربما يُعَدُّ سلوكًا عدوانيًّا(٢)، كما يُسدي النصيحةَ ذاتها تشارلز ميتشل لمن يحبُّون أن يتعاملوا مع الروس(٣)، وكذلك جيني لي لمن يتعامل مع الصينيين(٤).

درجة الصوت:

في اليابان كما في كوريا يتميز الكلام عمومًا بالرقَّة والتهذُّب، ويُعتبر الصياح وارتفاع الصوت دليلاً على فقدان السيطرة على النفس(٥)، وليس هذا ببعيد عن الضيق الذي يشعر به الإنجليز من الصوت المرتفع ومن الثرثرة؛ باعتبارهما مصدري ضوضاء(٦).

هذا في الوقت الذي يُمَثِّل الصوت العالي في الحوار شيئًا طبيعيًّا لدى كثير من الأفارقة، وعند البدو وأهل الصحراء، بل ربما عُدَّ الصوت الخفيض نوعًا من الضعف أو الجبن أو الخجل غير المحمود؛ لذا فالتقاء هؤلاء وحوارهم لا يُمَثِّل مشكلة، بينما التقاء ذوي الصوت الخفيض مع ذوي الصوت العالي يُمَثِّل أزمة -قد تكون بالغة- لكليهما.

زيارة الصديق:

ويتوجَّب على الزائر لبيت صديقه في روسيا أن يخلع حذاءه عند عتبة الباب، وسيُقَدِّم له

---

(١) عبد الفتاح شبانة: اليابان.. العادات والتقاليد وإدمان التفوق ص٩٣.
(٢) كيفين كيتنج: كوريا.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص٩٧.
(٣) تشارلز ميتشل: روسيا.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١١١.
(٤) جيني لي: الصين.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١٠١.
(٥) عبد الفتاح شبانة: اليابان.. العادات والتقاليد وإدمان التفوق ص٩٣، وكيفين كيتنج: كوريا.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١٠٣، ١٠٤.
(٦) تيموثي هاربر: المملكة المتحدة.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١٠١.



المضيف زوجًا من الشباشب المنزلية؛ يلبسها داخل البيت[١]، وإن هذه العادة نفسها موجودة -أيضًا- عند اليابانيين[٢].

النكتة:

ويحسُن بك إذا كنت في اليابان أو كوريا أو الصين ألاَّ تُحاول إلقاء نكتة أو مزحة؛ فهي -عادةً- لا تُفهم؛ لأنه من المستحيل ترجمة الكلام ذي المعنيين -خاصَّة إلى مثل هذه اللغات- بشكل صحيح؛ لذا فقد تحدث الكارثة وتُفهم النكتة بشكل حرفي[٣].

أمَّا إذا كنتَ في روسيا أو في مصر فمن الطريف والمحفِّز لإنشاء علاقة طيبة أن تُلقي النكتة مع أيِّ أحد، ويبدو هنا مظهر تشابهٍ بين الروس وبين المصريين؛ فكلا الشعبين يمتاز برُوح الدعابة، ومثلما هو الشأن في حالة المصريين يحبُّ الروس إطلاق النكات على بلدهم، إلاَّ أنهم لا يقبلون أن يفعل الأجنبي هذا الأمر[٤].

ما وراء الكلام:

حين يُنصت الكوري أو الياباني إليك ثم يُرَدِّد: «نعم (Hai)». فإنها لا تعني أنه موافق، ولكن تعني أنه ما يزال مستمعًا لك ويتفهَّم ما تقول، وهم حريصون دائمًا على تجنُّب كلمة (لا)، أو وصف الشيء السيِّئ بشكل مباشر؛ ولذا فإنهم يستعملون الجمل الطويلة، التي توصل المعنى بشكل غير مباشر[٥]، ويقترب منهم في هذا الشعب الصيني الذي يتبنَّى أسلوب المعنى بين السطور؛ فالمعنى الحقيقي في الحوار -سواء كان سلبيًّا أو إيجابيًّا- يُقال -دائمًا- بشكل ضمني وبأسلوب غير مباشر، والأشياء التي لم يُفصح عنها بالكلام قد تكون أكثر أهمية مما قيل بالفعل، وحين يُقال: «سنقوم بإجراء بعض البحث ونتناقش فيها بعد». فالمعنى

(١) تشارلز ميتشل: روسيا.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١٣٦.

(٢) عبد الفتاح شبانة: اليابان.. العادات والتقاليد وإدمان التفوق ص٨٩.

(٣) المرجع السابق ص٣٩، ٤٠، وكيفين كيتنج: كوريا.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١٠٣، ١٠٤، وجيني لي: الصين.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١٢٣.

(٤) تشارلز ميتشل: روسيا.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١٢٠.

(٥) عبد الفتاح شبانة: اليابان.. العادات والتقاليد وإدمان التفوق ص٣٩، ٤٠، وكيفين كيتنج: كوريا.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١٠٣، ١٠٤.

أن هذا العرض أو الاقتراح مرفوض، وكلمة «بحث» هنا لا تعني إلاَّ «نحن لا نبالي بالموضوع»، وهم -أيضًا- يستخدمون الصمت كبديل عن قول «لا»؛ لذا فإن الصمت قد يعني: «ما زالت هناك مشكلات، ونحن نود إعادة التفكير»[١].

الرجل والأنثى:

يُعَدُّ من مظاهر الأدب في اليابان أن تضع الفتاة أو السيدة يدها على فمها وهي تضحك، وهو المظهر المنتشر في البلاد العربية والإسلامية، خاصة في المناطق التي لم تتأثَّر بالتيار الغربي، وهي عادةٌ تُعَبِّرُ عن خُلق الحياء أو الخجل الأنثوي الجميل، كما أنه من غير المستغرب أن يتزوَّج الرجل العربي من الفتاة اليابانية، وكثيرًا ما يسعد بهذا جدًّا؛ لما تُبديه له الزوجة اليابانية من الطاعة والاحترام الذي يصل إلى حدِّ التقديس[٢].

الاحتفاء بالضيف:

وتتشابه كثير من الشعوب في الاحتفاء بالضيف وإظهار أبلغ سلوكيات الأدب والكرم معه، فالهولنديون أكثر استعدادًا لمساعدة الغريب عن باقي الأوربيين، فإذا ضللتَ الطريق وسألتَ أحدَهم عن العنوان الذي تقصده تَوَقَّف بترحيب، وقرأ معك العنوان باهتمام، وبذل جهده لإرشادك، وقد يترك زوجته ويسير معك بضعة أمتار ليدُلَّك على الطريق الصحيح، ولو كان وحيدًا فليس من المستبعد أن يسير معك إلى العنوان المطلوب[٣]، هذا الاحتفاء -أيضًا- لا تُخطئه العين بالنسبة للعرب لا سيما أهل البادية والصحراء، وهو ملموس كذلك عند المصريين، والكرم يسيل إليك بشكل غير متوقَّع إذا دخلت لدى القبائل البدائية ما داموا قد أمنوا جانبك[٤]، وفي أستراليا يتعاملون مع الغريب برقَّة بالغة حتى في أبعد الأماكن عن المجاملات؛ فإنك إذا دخلت إلى بنك لتطلب تحويل أي مبلغ، تتقدَّم إليك السكرتيرة فتفتح الباب، ثم تسحب لك مقعدًا، وتظلُّ واقفة حتى تجلس وكأنك في طائرة، ثم تذهب بك إلى

---

(١) جيني لي: الصين.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١٠٥، ١٠٦.
(٢) عبد الفتاح شبانة: اليابان.. العادات والتقاليد وإدمان التفوق ص٩١-٩٢.
(٣) عبد الوهاب مطاوع: سائح في دنيا الله ص٧٦.
(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ١/ ٩٤.



الموظف المختصّ، الذي يفعل الشيء نفسه ثم يُنهي لك ما تُريد، ثم يسبقك إلى الباب فيفتحه لك، ويُوَدِّعك بأدب شديد، ولاحظ أنيس منصور -الصحفي والرحَّالة المصري- حين دخل محلاًّ تجاريًّا كبيرًا ظلَّت إحداهن تتبعه طوال تجواله، فلمّا لم يصل إلى الشيء الذي يُريده وهَمَّ بالخروج سألته: لِمَ لَمْ يشترِ؟ فأجابها: إنه لا يدري أين يُباع الصابون. فأخذته مرَّة أخرى إلى الطابق الثالث فاشترى، ثم تبعته تُوَدِّعُه حتى الخروج(١).

وفي كوريا يقوم الكوريون بالابتسام إذا فُتحت الموضوعات الجدلية، أو أخذ الحوار شكل المواجهة؛ محاولين إضفاء مسحة من السعادة في الظروف المتوتِّرة في سبيل المحافظة على الانسجام والتوافق(٢)، أمَّا اليابانيون فيصلون في الأدب والرقَّة والاحتفاء بالغريب إلى (حدِّ التوحُّش) -كما يقول ول ديورانت- الذي يُخَفِّف من حدَّة العداوة مهما بلغ استيلاؤها على النفوس(٣)، حتى لقد أعلن أنيس منصور أنه سيموت «من شدَّة الأدب» في اليابان(٤).

آداب الإشارة:

حين تكون في كوريا فتجنَّب الإشارة إلى الشخص أو إلى الشيء بالأصابع، وأمَّا إذا اضطررتَ فبفتح الكفِّ كلها والإشارة إلى الأعلى(٥)، وإذا كنتَ في بريطانيا فإنه عليك أن تستعمل كفكَّ -أيضًا- ليكون باطنه في وجه المشار إليه؛ لأن الإشارة بالأصابع حتى للنادل تُعتبر من الحركات السوقية الوقحة(٦)، والحال نفسه بالنسبة للإشارة في الصين، فلا تُشِرْ إطلاقًا إلى شخص بأصبعك أو رأسك أو قدمك، وإذا أحببت أن تُشير إلى شخص فإن الحركة المعتادة هناك هي مدُّ الذراع مع وضع كف اليد إلى أسفل، وتحريك الأصابع مثل حركة النبش(٧).

(١) أنيس منصور: حول العالم في ٢٠٠ يوم ص٢٩٥.
(٢) كيفين كيتنج: كوريا.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١٠٥.
(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ٥/ ١٧٩.
(٤) أنيس منصور: حول العالم في ٢٠٠ يوم ص٤٢٩.
(٥) كيفين كيتنج: كوريا.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١٠٧.
(٦) تيموثي هاربر: المملكة المتحدة.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١٠٢.
(٧) جيني لي: الصين.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١٢٣.

فهذه شعوب في الشرق الآسيوي والغرب الأوربي تستنكر الإشارة باليد، في حين أن شعوب الشرق الأدنى وأميركا الشمالية لا ترى أي إهانة في هذا الأسلوب من الإشارات، ولكنهم يَتَّفقون في أن وضع أصبع السبابة على الشفاه يعني: «اسكت»[(١)].

التحية والمصافحة:

في اليابان لا مجال للسلام باليد، والتحية تكون بالانحناء مع وجود مسافة مناسبة[(٢)]؛ ذلك ما ينصح به -أيضًا- كيفين كيتنج غيرَ الكوريين إذا زاروا كوريا؛ إذ إن الكوريين لا يحبُّون التلامس الجسدي، ويشعرون إزاءه بعدم الراحة[(٣)]، وهذا قريب من الإنجليز الذين يُفَضِّلون بدورهم الابتعاد وعدم الملامسة، غير أنهم قد يُصافحون باليد هذه المصافحة المتحفِّظة المعروفة عنهم، ويُعَبِّر التلامس لديهم عن مرحلة حميمة لا يصلون إليها بسرعة[(٤)].

والإنجليز قريبون -في هذا- من الصينيين الذين لا ينحنون كما يفعل اليابانيون، ولكنهم يستبدلون هذا بالمصافحة المختصرة، فيما يقترب الصينيون من اليابانيين إذا كانت المصافحة لرجل أكبر في السنِّ أو أقدم في المنصب؛ لأنه يصحبها انحناءة لطيفة، وفي حالات الودِّ والدفء يُصافح الصيني بكلتا يديه[(٥)]، وهنا نكون قد اقتربنا من الروس والشعوب العربية والإسلامية؛ فيميل الروس وشعوب المنطقة العربية والشعوب الإسلامية عامَّة إلى الملامسة في التحية، وأقلُّها المصافحة باليد، وقد تتطوَّر حسب حميمية العلاقة إلى العناق أو التقبيل، بل ويوجد في الإسلام حثٌّ على هذه المصافحة من خلال الحديث الشريف الذي رواه البراء بن عازب[(٦)] ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إِلاَّ غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ**

---

(١) كيفين كيتنج: كوريا.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١٢٤.

(٢) عبد الفتاح شبانة: اليابان.. العادات والتقاليد وإدمان التفوق ص٨٧، ٨٨.

(٣) كيفين كيتنج: كوريا.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١٠٥، ١٠٦.

(٤) تيموثي هاربر: المملكة المتحدة.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١٠١.

(٥) جيني لي: الصين.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١٠٤.

(٦) البراء بن عازب: هو أبو عمارة البراء بن عازب بن حارث الأوسي، وقيل: الخزرجي الأنصاري. له ولأبيه صحبة، ردَّه رسول الله ﷺ في بدر لصغره، وغزا مع رسول الله ١٤ غزوة، فتح الري سنة ٢٤هـ في خلافة عثمان، وسكن الكوفة، وبها توفي سنة ٧٢هـ. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ١٥٦، وابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ٢٧٨.



أَنْ يَفْتَرِقَا»[١]. والمسافة بين المتحدِّثَيْنِ -والحديث ما زال عن الروس- هي دائمًا قريبة جدًّا، وتعطي مظهرًا من الحميمية في العلاقة[٢].

العمل.. العمل:

إن الشعوب متشابهة إلى حدٍّ متشابك جدًّا؛ فالياباني الذي يعمل بجدٍّ واجتهاد، فكأنه الآلة التي صنعها، يُعطي الصورة نفسها للألماني الذي يعمل مثل الآلة التي صنعها، أو ذلك الفنلندي الصارم في العمل، في حين أن الياباني من بعد أوقات العمل يتحوَّل إلى الرومانسية الممتعة في حياته الأسرية بما تحمله من تهذُّب وذوق رفيع يُذكِّر بالفرنسيين حيث «الإتيكيت» والذوق والأجواء العاطفية، فها نحن أمام شعب يتلاقى في النهار مع آخر، ثم يتلاقى في الليل مع ثالث[٣].

الهدية:

وفي اليابان[٤] وأيضًا في كوريا ينتشر الإهداء في المناسبات؛ إلاَّ أن الهدية لا تُفتح في حضور الذي أهداها؛ لئلاَّ يُمَثِّل هذا حرجًا له، كما أن فتحها في حضوره يُشير إلى الطمع، وينبغي أن تكون الهدية في سعر معقول؛ لكي يستطيع الذي أُهديت له أن يرُدَّها بالمثل، وإلاَّ فإنه يعتذر عن قبولها مع الترديد المُلِحِّ لكلمات الشعور والامتنان والتقدير[٥]، وهذا التقليد نفسه الخاص بالهدية نجده لدى الشعب الروسي[٦].

***

---

(١) أبو داود: كتاب الأدب، باب في المصافحة (٥٢١٢)، والترمذي (٢٧٢٧) وقال: هذا حديث حسن غريب. وابن ماجه (٣٧٠٣)، وصححه الألباني في التعليق على أصحاب السنن.

(٢) تشارلز ميتشل: روسيا.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١١١، ١١٧.

(٣) من العبارات الشائعة في علم الاجتماع أن الإنجليز باردون هادئون محافظون، بينما الفرنسيون عاطفيون رومانسيون يتذوَّقون الحياة باستمتاع، ويُغرمون بالعطور والفنون والأكلات، بينما الألمان صارمون متجهِّمون يعملون كالآلات. عبد الوهاب مطاوع: سائح في دنيا الله ص١٠٢، وميلاد حنا: قبول الآخر ص٢٠.

(٤) عبد الفتاح شبانة: اليابان.. العادات والتقاليد وإدمان التفوق ص٩٠.

(٥) كيفين كيتنج: كوريا.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١١٠، ١١١.

(٦) تشارلز ميتشل: روسيا.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك ص١٣٧.

القانـــــون

حاجة البشرية إلى القانون:

يتحكَّم في الإنسان منذ ظهوره على وجه الأرض عدَّة غرائز تُشَكِّل سلوكه في الحياة، كما أن تقدُّم البشرية رهين بتنمية ما كان نافعًا وصالحًا من هذه الغرائز، والقضاء على ما كان منها ضارٌّ أو على الأقل تهذيبه؛ ومن هذه الغرائز: حبُّ البقاء في الحياة والمحافظة على الجنس، وحبُّ الاجتماع بغيره من بني البشر، والأثرة والأنانية، والخضوع للنظام.

فالإنسان مدفوعًا بغريزته الطبيعية في حب البقاء في الحياة والعمل إلى تحسين حالته؛ يحاول السيطرة على الطبيعة ومواردها؛ ليحصل على قُوتِه ورزقه، وليرتفع بمستواه المادي والحضاري، وهو في الوقت نفسه لا يحب العيش في عزلة؛ فهو بغريزته اجتماعي؛ ومن ثَمَّ لا يعيش إلاَّ في مجتمع من بني جنسه؛ خوفًا من العزلة وابتغاءً لما تجلبه إليه حياته مع الآخرين من منافع وفوائد، غير أنه في الوقت نفسه أناني بطبعه؛ ومن ثَمَّ يعمل على إشباع حاجاته ورغباته دون الاهتمام بحاجات ورغبات غيره، وهذا ما يُؤَدِّي إلى تنازعه مع غيره على الوسائل التي تُمَكِّنه من الحياة، ولو أَدَّى به الأمر إلى الالتجاء إلى القوَّة لإزاحة خصمه أو منافسه من طريقه، غير أن الإنسان لمس بتجربته وأحسَّ بغريزته أن الالتجاء إلى القوَّة لفضِّ ما قد يثور من منازعات ينتهي بالمجتمع إلى الفوضى؛ لأن المجتمع الذي يستطيع فيه كل فرد فِعْل كلِّ ما يُريد ينتهي إلى استحالة قيام أيِّ فرد بفعل شيء مما يُريد؛ ولذلك تقوم غريزة الإنسان في حبِّ الخضوع للنظام بدورها في تهذيب سلوك الإنسان والحدِّ من أنانيته، فتظهر مجموعة من التقاليد تُحَدِّد قواعد السلوك في المجتمع، ويضبط الناس سلوكهم على غرارها فيستتب الأمن في المجتمع ويسوده النظام؛ ونتيجة لذلك يُصبح القانون في أي مجتمع - مهما تدنَّى مستواه في مضمار الرقي - ضرورة لا غنى عنها، مثله في ذلك مثل اللغة التي يتخاطب بها الناس؛ لأن الغرض الأسمى للمجتمع هو حفظ النظام، بما يُؤَدِّي إليه من استقرار مع



ضمان تقدُّم المجتمع[١].

ومن هنا كان القانون ظاهرة اجتماعية تعكس حضارة مجتمع مُعَيَّن في بيئة مُعَيَّنة، وهذا المعنى ما عبَّر عنه الرومان بقولهم: «لا مجتمع بلا قانون، ولا قانون بلا مجتمع (*ubi societas ibi jus*). أو قولهم: «حيث يوجد مجتمع يوجد قانون»[٢].

القانون مشترك خاص:

من هنا يمكن القول بأنه لا توجد أُمَّة أو حضارة من الحضارات بلا قانون؛ إذ هذه طبيعة المجتمعات التي تجنح نحو الاستقرار والرقي، ويستوي في ذلك المجتمعات المختلفة سواء القديم منها أو الحديث، وسواء المجتمعات الدينية أو المجتمعات المدنية، وسائر المجتمعات البدائية أو المجتمعات التقدمية؛ حيث يختلف كل هذا باختلاف طبيعة المجتمع.

وهذا التطوُّر المستمرُّ في مسيرة القانون يجعلنا نُقَرِّر أن القانون كان عاملاً أساسيًّا من عوامل الالتقاء الحضاري بين الثقافات المختلفة والجنسيات المتعدِّدة، وهو ما يُؤَيِّد أن القانون ضمن المشتركات الإنسانية الخاصة، التي تُشارك في مسيرة الالتقاء الحضاري والإنساني بين المجتمعات وبعضها.

والناظر في تاريخ الدول والحضارات في العالم القديم والمعاصر يجد أن القانون من أهم العناصر المكوِّنة لشخصية تلك الدول والحضارات؛ ففي الشعوب البدائية شكَّلت العادات والتقاليد البدائية -التي انتشرت في هذه الجماعات- تنظيمًا قانونيًّا بدائيًّا، شمل نظم الأسرة والملكية والحكم والعقوبات داخل الجماعة الواحدة، بالإضافة إلى ظهور نظم قانونية خارج حدود الجماعة الواحدة[٣].

ومع تطوُّر الزمن أخذت العادات والتقاليد شكل العقائد الدينية الواجبة الاتباع، ولكن ما لبث هذه الأحكام القانونية ذات الصبغة الدينية أن تتطوَّر وتنتقل إلى مرحلة أخرى هي مرحلة التقاليد العرفية، وكان من نتيجة ذلك التطوُّر أن تعدَّدت مصادر القاعدة القانونية على السواء بين

---

(١) صوفي حسن أبو طالب: تاريخ النظم القانونية والاجتماعية ص١٩، ٢٠.
(٢) المرجع السابق ص٤.
(٣) محمد سليمان شبير: تاريخ النظم القانونية ١/ ٢٨.

الشعوب الشرقية والغربية، ومنها العرف والفقه، ومما ترتَّب على ذلك -أيضًا- أن أصبح القانون تعبيرًا عن إرادة الشعب، وليس عن إرادة الآلهة، التي يَدَّعي الكهنة أنهم يتحدَّثُون باسمهم، وظهر مبدأ الأُمَّة مصدر السلطات، فلم يَعُد المشرِّع يتكلَّم باسم الآلهة بل باسم الشعوب؛ إذ ظهرت مرحلة أخرى من مراحل تطوُّر القانون بين الشعوب، وهي مرحلة التدوين القانوني في الشرق والغرب على السواء[1].

***

المدونات القانونية:

إن ظاهرة التدوين هذه لم تكن خاصة بشعب دون آخر، بل كانت ظاهرة عامة شملت جميع الشعوب القديمة، التي اتجهت نحو كتابة تقاليدها العرفية التي انتشرت وسادت في مجتمعاتها، ففي مصر ظهرت مدونة قانون بوخوريس[2]، وفي بلاد العراق ظهرت مدونة حمورابي، وفي بلاد الهند ظهرت مدونة قانون مانو[3]، بينما ظهرت في بلاد الإغريق أو اليونان القديمة مدونة قانون دراكون[4] وكذلك قانون صولون[5]، في حين صدرت في بلاد روما القديمة مدونة قانون الألواح الاثني عشر، كما يُلاحظ أن هناك بعض الشعوب استقرَّ فيها قانونها في صورة تقاليد دينية؛ مثل: الهنود واليهود، وبعضها الآخر ظهر قانونها في صورة تقاليد عرفية؛ مثل: أثينا وروما وبابل وآشور، وبعض الشعوب دوَّنت قانونها وأصدرته في صورة تشريع، كما حدث في روما وبلاد الإغريق وبابل ومصر، وهذه هي المدونات الرسمية

---

(١) صوفي حسن أبو طالب: تاريخ النظم القانونية والاجتماعية ص١٠٣-١٠٥.

(٢) بوخوريس: هو الملك بوخوريس مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين في مصر، ومدة حكمه بدأت عام ٧١٨ق. م، وانتهت عام ٧١٢ق. م، ومدونته أشهر مدونة صدرت في مصر الفرعونية، وهي الصورة الأخيرة التي استقر عليها القانون المصري.

(٣) مانو: حكيم هندي أصدر مدونة باسمه، واختلف العلماء في تحديد تاريخ صدورها، فبعضهم يُرجع تاريخها إلى القرن ١٣ق. م، وكثير منهم يرجع تاريخها إلى القرون الأولى قبل المسيح، والرأي الراجح أنها صدرت حوالي ٢٠٠ ق. م. انظر: صوفي حسن أبو طالب: تاريخ النظم القانونية والاجتماعية ص١٣٣.

(٤) دراكون Draco: مُشرِّع إغريقي وضع أول مجموعة قوانين مكتوبة في أثينا القديمة خلال القرن السابع قبل الميلاد، وذلك عام ٦٢١ق. م.

(٥) صولون Solon (٦٤٠ - ٥٦٠ق.م): شاعر ومُشرِّع وحكيم من حكماء اليونان، سياسي يوناني، قام بإصلاحات تشريعية، عُرفت بتشريعات صولون، قام بأول إصلاح دستوري في تاريخ اليونان هو إلغاء نظام الرق.



(Codes)، وبعضها الآخر دوَّنته في سجلات من وضع الأفراد المهتمين بالقانون، ولم يصدر به تشريع كما حدث من السلطة الحاكمة، فأخذ صورة السجلات العرفية (Coutumiers)، كما حدث بالنسبة للآشوريين والحيثيين، ومع ذلك جرى الباحثون على إطلاق تعبير مدونة (Code) على هذه السجلات، وتمييزًا لها عن المدونات الرسمية سميت المدونات العرفية[1].

أما الديانات السماوية الثلاث فقد نزل قانونها من عند الله ﷻ، وبَلَّغ الرسل الكرام هذا القانون لشعوبهم، ووصل إلى ذروة التفصيل والدقَّة في القانون الإسلامي، الذي يعتمد على القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة.

فالقانون بمراحله المتطوِّرة في تاريخ البشرية وإلى يومنا هذا لم يكن من نصيب شعب دون آخر، بل كان لكل شعب ولكل حضارة فيه نصيب.

***

القانون والتفاعل الحضاري:

إذا كانت المجتمعات البدائية جنحت بطبيعتها نحو القانون كسبيل لإقامة مجتمع منظَّم، يحفظ الحقوق ويُقيم العلاقات فيما بينهم، فإنه -بلا شكٍّ- لن تخلو حضارة من الحضارات العالمية من تشريعات قانونية، وهذه الدراسة لا تُعطي المعلومات الكافية لكلِّ مَنْ يُريد معرفة تاريخ الرومان وقانونهم مثلاً، وإنما هي محاولة لإثبات المشترك بين تلك الحضارات العالمية، وبعض المشتركات فيما بينها فيما يخصُّ القواعد القانونية، وخاصة أنه قد وضح لكل باحثٍ أن المدونات القانونية ثم القانون المنظَّم قد ظهر -تقريبًا- في كل التجمعات العالمية، في مصر والعراق وبلاد فارس والشام والهند والصين وبلاد اليونان والرومان.. وغيرها، وبتتبُّع تاريخ القانون يتبين أن القانون لم يظهر دفعة واحدة متماسكًا ومتكاملاً، بل خضع للتطوُّر المستمرِّ.

ويتأثَّر التغيير الذي يُحْدِثه القانون بتفاعل الحضارة التي انطلقت على أرضيتها مبادئ القانون مع الحضارات المعاصرة لها، وقد تجلَّى ذلك -مثلاً- في تفاعل الحضارة المصرية القديمة

(١) صوفي حسن أبو طالب: تاريخ النظم القانونية والاجتماعية ص١١٨، ١١٩، ومحمد سليمان شبير: تاريخ النظم القانونية ص٥٨.

مع الحضارتين اليونانية والرومانية وتأثيره على مسيرة النظم القانونية في ظلِّ هذه الحضارات؛ ففي الحضارة المصرية القديمة كان القانون الفرعوني -وهو من أقدم القوانين المعروفة في تاريخ البشرية- دالاً على مدى التقدُّم الحضاري الذي كان يعيشه المجتمع المصري، وقد استمرَّ هذا القانون زمنًا يقرب من ثلاثين قرنًا، ورغم فتح الإسكندر الأكبر لمصر في عام ٣٣٢ ق. م، وضمّها إلى إمبراطوريته، إلاَّ أن القانون المصري ظلَّ مطبقًا على المصريين، وظهر بجانبه قانون جديد هو القانون الإغريقي، الذي طُبِّقَ على المواطنين الإغريقيين الذين استوطنوا مصر، ونتج عن تطبيق القانونين معًا في بلد واحد حدوث تفاعل بينهما، أدَّى إلى ظهور قانون مشترك بين المصريين والإغريق، اصْطُلِح على تسميته بالقانون المصري الإغريقي، وحينما ضمَّ الرومان مصر إلى إمبراطوريتهم عام ٣١ق. م ظهر القانون الروماني في مصر، وقد طُبق هذا القانون على الرومان وحدهم، وبقي القانون (المصري الإغريقي) مُطَبَّقًا على المصريين والإغريق، وقد تأثَّر القانون الروماني بالقانون (المصري الإغريقي)؛ مما أدى إلى ظهور قانون مختلط اصْطُلِحَ على تسميته باسم القانون (المصري الروماني)، وقد أخذ القانون الروماني الذي قُنِّن في عهد جستنيان[1] بكثير من أحكام هذا القانون.

ولا شكَّ أن هذا التطوُّر القانوني يعكس مسيرة التقاء مختلف الحضارات، والتي انعكست في حركة التشريع في عدد كبير من بلدان العالم.

ولا شكَّ أن التقاء الحضارات في عالم القانون يكشف عن القيم الأساسية التي تعتنقها كل حضارة، والتي يعمل القانون على حمايتها، والتي تتَّفق عليها مختلف النظم القانونية، مهما تغيَّرت أساليب هذه الحماية[2].

***

أمَّا عن دور القانون في تفعيل مسيرة التواصل الحضاري بين الشعوب في الواقع

---

(١) جستنيان الأول Justinian I (٤٨٣-٥٦٥م): إمبراطور بيزنطي حكم من سنة ٥٢٧م حتى وفاته، اشتهر بإصلاحاته التشريعية أو ما يعرف بقانون جستنيان، كما اشتهر ببناء كنيسة أياصوفيا بتركيا، وقد بلغت الإمبراطورية البيزنطية في عهده أقصى اتساعها.

(٢) أحمد فتحي سرور: «القانون والعولمة وحوار الحضارات»، مقال منشور على موقع: www.weghatnazar.com.

المعاصر، فإن هناك العديد من القوانين الدولية الموحَّدة في العالم، والتي كان لها دور كبير في سبيل تعزيز سبل التواصل والانسجام بين شعوب العالم؛ منها على سبيل المثال:

قانون التجارة الدولي (الأونسيترال UNCITRAL)وقد أقرَّت الجمعيةُ العامة للأمم المتحدة لجنةَ القانون التجاري الدولي (الأونسيترال) في عام ١٩٦٦م (القرار ٢٢٠٥ (د-٢١) المؤرَّخ ١٧ ديسمبر ١٩٦٦م)، وتتكوَّن اللجنة من ستين دولة عضوًا، تنتخبها الجمعية العامة، وقد نظّمت العضوية بحيث تكون ممثِّلة للأقاليم الجغرافية المختلفة في العالم ونُظُمِه الاقتصادية والقانونية الرئيسية، وهناك خمس مجموعات إقليمية ممثَّلة في اللجنة؛ هي: الدول الإفريقية؛ والدول الآسيوية؛ ودول أوربا الشرقية؛ ودول أميركا اللاتينية والكاريبي؛ ودول أوربا الغربية، ودول أخرى، ويُنتخب أعضاء اللجنة لفترة ولاية مدتها ستُّ سنوات، وتنتهي فترة ولاية نصف الأعضاء كل ثلاث سنوات[1]، فهذه الاتفاقية تُعَزِّز رُوح التواصل والانسجام بين الدول الأعضاء، وخاصة تفعيل رُوح التواصل بين الدول النامية وغيرها.

كما أن هناك العديد من القوانين الدولية المشتركة؛ كالقوانين الدولية لحماية البيئة، والقوانين الدولية الخاصة بالألعاب الرياضية والأولمبية المختلفة، وقوانين تنظيم حركة المرور والسير في الطرق وقوانين الملاحة الجوية وغيرها، وإن مثل هذه القوانين وغيرها -بلا شكٍّ- كفيل بتحقيق التواصل بين الشعوب.

***

وإذا كانت القوانين الدولية المشتركة سبيلًا لتعزيز رُوح التفاهم والانسجام بين الشعوب المختلفة، فإن إقرار بعض القوانين الدولية، التي تخدم شعبًا معينًا على حساب شعوب أخرى، لهو طريقٌ من طرق التنازع الدولي والسيطرة الأحادية على العالم؛ مما يجعل وسائل الاتصال والتعارف بين الشعوب معقَّدة ومتوتِّرة؛ وعلى سبيل المثال:

أ- **قانون حظر الأسلحة النووية**: الذي أيَّدته كلٌّ من الولايات المتحدة وروسيا وبريطانيا وفرنسا والصين؛ أي: الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن، والذي نصَّ اتفاقهم

(١) موقع الأونسيترال، على الرابط: www.uncitral.org.

على جعل الشرق الأوسط منطقة خالية من الأسلحة النووية[١].

أمَّا ما يتعلَّق بمسألة السماح بإنتاج الأسلحة النووية وتخصيب اليورانيوم، فنذكر أن السماح لبعض الدول بالإنتاج النووي وحرمان دول أخرى سيُؤَدِّي إلى احتقان عالمي، وشعور كراهية بين الشعوب، فإمَّا أن يُمْنَع الجميع بما فيهم أميركا والغرب، وإمَّا أن يُسمح للجميع بما فيهم المسلمون وغيرهم، وبهذا يعيش الجميع في أمان وسلام، **(انظر: شكل رقم ١٠ الترسانات النووية في العالم)**.

ب- قانون الاحتباس الحراري:

ففي عام ١٩٩٧م عُقد مؤتمر عالمي في مدينة كيوتو في اليابان للحدِّ من تسريب الغازات الصناعية وأخطرها ثاني أكسيد الكربون، والذي يتسبَّب بطريقة مباشرة في ارتفاع درجة الحرارة؛ حيث ينبعث من دول العالم حاليًا حوالي ٦,٨ جيجا طن من ثاني أكسيد الكربون سنويًّا، ٢٢,٤ ٪ منها تصدر عن الولايات المتحدة الأميركية، يليها الصين بـ١٣,٤ ٪[٢]، وقد أُبرم اتفاق رسمي هو ميثاق كيوتو الدولي يُلزم الدول بتقليل تسريب الغازات بنسب محدَّدة، ولكي تخرج هذه الوثيقة إلى حيِّز التطبيق اقتضى أن يتمَّ التصديق عليها من قِبَل ٥٥ دولة، إلاَّ أنه في عام ٢٠٠١م أعلن الرئيس الأميركي بوش الابن رفض الولايات المتحدة التوقيع على ميثاق كيوتو؛ مُعَلِّلاً ذلك بأن نمط الحياة الأميركي غير قابل للمساومة، متجاهلاً كون نمط الحياة هذا يُشَكِّل خطرًا على العالم وعلى أميركا نفسها.

وحين يتكلَّم الرئيس بوش عن نمط الحياة الأميركي فهو يعني الشركات الكبرى، التي تنمو وتتضخم على حساب البيئة وصحَّة المواطنين، فهذه الشركات الرأسمالية لا تتردَّد في إبادة شعب كامل من أجل الاستيلاء على خزينته من النفط أو الذهب، فعندما قصفت القوات الأميركية العراق باليورانيوم المنضَّب لم تكن تكترث لما يتركه من أثر على البيئة والبشر لآلاف السنين.

---

(١) موقع رويترز باللغة العربية، على الرابط: http://ara.reuters.com.

(٢) موقع إسلام أون لاين على الرابط: www.islamonline.net.

الترسانات النووية في العالم

أعلن رئيس الوزراء البريطاني غوردون براون انه مستعد لخفض عدد الغواصات الرادعة المزودة بصواريخ ترايدنت النووية.
عدد الغواصات الجديدة التي تنوي بريطانيا طلبها بمبلغ قدره 33 مليار دولار لتستوعب الجيل الجديد من صواريخ ترايدنت يمكن خفضه من أربع إلى ثلاث غواصات في إطار صفقة عالمية لتقليص عدد الأسلحة النووية في العالم

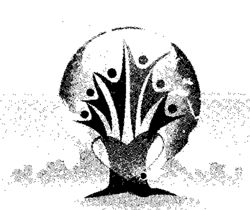
الدولة	رؤوس حربية استراتيجية	رؤوس حربية غير استراتيجية	إحتياطي/ مزمع تفكيكه	مجموع الرؤوس الحربية
روسيا	2.787	2.050	8.150	12.987
الولايات المتحدة الأميركية	2.202	500	6.700	9.402
فرنسا	300	–	–	300
الصين	180	مجهول	60	240
بريطانيا	160	–	25	185
اسرائيل	80	–	–	80
باكستان	60	–	10 - 30	70-90
الهند	60	–	إلى 20	60-80
كوريا الشمالية	مجهول*	–	–	مجهول
المجموع	5.829	2.550	14.985	23.364

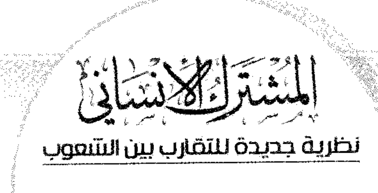
* على الرغم من اختبارين نوويين أجرتهما كوريا الشمالية، لم يتوفر بعد دليل معلن على أن كوريا الشمالية فعّلت قدرتها النووية

الصور: وزارة الدفاع   المصدر: نشرة علماء الذرة   © GRAPHIC NEWS

الترسانات النووية في العالم

شكل رقم (١٠)





ومع ذلك فهناك من الكُتَّاب مَنْ يعتقد أن موقف الولايات المتحدة الأخلاقي لا يسمح لها بمغادرة العراق؛ إن موقف الولايات المتحدة من ميثاق كيوتو دليل قاطع على عدم اكتراثها للإنسانية ومستقبلها[١].

وختامًا.. فإن القانون واحدٌ من أهم طرق تفعيل مسيرة التفاعل الحضاري بين الشعوب والحضارات؛ لكونه واحدًا من المشتركات الإنسانية الخاصة، التي تتَّفق فيها حضارات الشعوب؛ ولذلك فإننا ندعو العالم إلى إنتاج قوانين عالمية جديدة تُساعد على تواصل الشعوب، وكذلك إلى إيجاد آليات لتفعيل هذه القوانين دون استثناءات.

(١) صلاح عودة الله: «ظاهرة الاحتباس الحراري.. وموقف أميركا!»، مقال منشور على موقع أجراس العودة بتاريخ ٨/٦/٢٠٠٧م: www.ajras.org.

الأخلاق السامية

ذكرنا في الفصل الثالث -عندما تحدثنا عن المشتركات الإنسانية العامة- أن الإنسانية جميعًا اتفقت في عصورها وباختلاف حضاراتها على أخلاق، سميناها أخلاقًا أساسية، تُمَثِّل القاعدة التي ينبغي على البشرية أن تقف عليها، وتُؤَسِّس لها كي يُصبح العيش على هذا الكوكب ممكنًا؛ تلك هي أخلاق الصدق والأمانة والعدالة.

ثمة أخلاق أخرى ترتفع على هذا الحدِّ الأدنى؛ لتُؤَسِّس «حياة إنسانية راقية»، وليس حياة ممكنة فقط؛ لأنها تتجاوز دائرة العدل والحقِّ، لتدخل في دائرة الفضل والإحسان، إنه من الرقيِّ والحضارة والسموِّ الإنساني أن تتحلَّى البشرية كلها بمثل هذه الأخلاق، ولكن من غير الطبيعي أن نتمنَّى وجود هذه الأخلاق في كل الناس، وليس من الطبيعي كذلك أن يُطالب بها كل الناس.

لعلَّه مما يتفق مع طبيعة البشر وطبيعة الحياة، أن تكون هناك أسس لا ينبغي التهاون فيها، وأن يكون فيها -كذلك- جمال وزخارف وإضافات تُضفي مزيدًا من السحر والحيوية والإبداع عليها؛ فلا بُدَّ لكل إنسان من مخٍّ وقلب وأجهزة هضمية وعصبية لكي يستمرَّ حيًّا، ولكن مِنَ الساحر أن يكون له فوق ذلك عينان مبصرتان، وأذنان سامعتان، ولسان ذواق، وشَعْر مسترسل، ويدان سليمتان، وساقان قائمتان، وأجمل من هذا أن تكون العينان جميلتين، والشعر ناعمًا، واليدان قويتين.. وهكذا.

إن الأخلاق السامية -أو بتعبير آخر «أخلاق الفضل»- تمثِّل هذا الجمال الزائد، الذي يجعل الحياة أحلى وأسعد، وهي لهذا أخلاق لم يشترك فيها كل البشر، فبحسب كل قوم منها يكون سحر حضارتهم وخلودها.

وأرى أن الأمة الإسلامية هي الأمة التي اجتمعت فيها هذه الأخلاق السامية، أو أخلاق الفضل؛ فهي الأمة التي صدرت عن آخر وحي من السماء إلى الأرض، فكانت بهذا

خاتمة الأمم، وكان منهجها آخر حجر في بناء الكمال، وإن هذا ما يُعَبِّر عنه الحديث الشريف؛ إذ يقول النبي ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ»[1]. فكأنَّ الرسالة التي خطَّتْ مجراها في تاريخ الحياة، وبذل صاحبها جهدًا كبيرًا في مدِّ شُعاعها، وجمع الناس حولها لا تنشد أكثر من تدعيم فضائلهم، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم؛ حتى يسعوا إليها على بصيرة[2].

وانطلاقًا من هذا أقول: إن الرؤية الإسلامية تعترف بوجود أخلاق كريمة عند السابقين من الأمم. فنحن نعترف بنبوَّات الرسل السابقين أجمعين، وهؤلاء لهم جهودهم وآثارهم الكريمة في غرس وتنمية الأخلاق الإنسانية، ثم يأتي الإسلام فيسعى نحو «إتمام» و«تكميل» ما وُجد من مكارم الأخلاق؛ ولهذا فإننا سنجد أن الأمة الإسلامية ذات اشتراك مع كل أمة من الأمم في خُلق واحد على الأقل؛ إذ لا تخلو أمة من خُلق كريم واحد على الأقل، وذلك الخلق الكريم هو من صميم الرسالة الإسلامية، ثم سنجد دائرةً تتسع وتضيق بين الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم في هذه الأخلاق السامية -أخلاق الفضل- بحسب ما عند تلك الأمة من هذه الأخلاق.

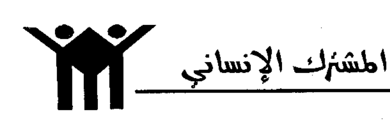
كذلك لن تعدم أُمَّتان أن تشتركا في شيء من الأخلاق الفاضلة، وأن تُمَثِّل لديهما هذه المساحة من الاشتراك - إضافة إلى مساحة الأخلاق الأساسية - مجالاً للتعاون والتفاهم والحوار والإيثار، فما دام وُجد الإنسان فقد وُجد في الأمة حُبُّ الارتقاء والسموِّ والإعجاب بالجمال الإنساني، الذي تُمَثِّله أخلاق الفضل هذه.

وعلى العكس بالنسبة للأخلاق الأساسية، فإننا لن نستطيع هنا حصر الأخلاق السامية؛ لأنها باب واسع وجمال ممتدٌّ فسيح، ومن ذا الذي يجمع الجمال في نقاط، أو يحبسه في وصف من ألفاظ وعبارات بكلمات وحروف؟! إننا هنا نفتح الباب الواسع أمام الأمم جميعًا لتنظر في أخلاقها وفي أخلاق الأمم المنتشرة على هذه الأرض، ثم تلتقط مناطق التوافقات فتبني عليها التفاهمات وأشكال التعاون المتبادل.

---

(١) الحاكم (٤٢٢١) عن أبي هريرة، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والبيهقي: السنن الكبرى (٢٠٥٧١)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٤٥).

(٢) محمد الغزالي: خلق المسلم ص٧.



خصوصيات الأديان:

في إطار الحديث عن الأخلاق ثمة خصوصية تبدو واضحة؛ ذلك أن النظام الأخلاقي في الأديان هو نظام نازل من السماء من عند الإله الحكيم الخبير، خالق هذا الكون والأعلم بتفاصيله، والأقدر على صياغة النظام الذي يُصلحه، كما أنه هو الذي يُراقب ويُحاسب، ثم هو يوم القيامة يُجازي بالثواب والعقاب على اتِّباع وتنفيذ هذا النظام الأخلاقي؛ فهو بهذا نظام متجاوزٌ للمصلحة والمنفعة، وأقوى من سطوة العادات والتقاليد والأعراف، وهو نظام مطلَق لا يتغيَّر بتغيُّر الزمان والمكان، والأخلاق فيه تتمتَّع بالثبات والسمو، وتُكسى بثوب الترغيب.

وفي ظلِّ وجود فكرة الآخرة، نرى أخلاق الزهد في الدنيا والتسامح والعفو والإحسان إلى الناس -خاصة الفقراء والمحتاجين والضعفاء- وأمثالها من الأخلاق التي يثمرها الإيمان بالآخرة، ونراها في غاية القوَّة في الإسلام والمسيحية على وجه الخصوص.

إننا نقرأ في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تدعو إلى الزهد في الدنيا، وعدم التعلُّق بها، نجد هذا في قوله تعالى: ﴿لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، وفي قوله ﷻ: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، وفي قوله ﷻ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]، وكذلك قوله ﷻ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦- ١٧].

ومما يترتَّب على هذا الزهد اختفاء التحاسد وتمنِّي ما في يد الآخرين، قال ﷻ: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١]، وقال ﷻ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤].

وقريبًا هذا المعنى ما جاء في الكتاب المقدَّس، ورد في سِفْر الخروج من العهد القديم: «لا تَشْتَهِ بيتَ قريبك. لا تَشْتَهِ امرأةَ قريبك ولا عبده ولا أمته، ولا ثوره ولا حماره، ولا شيئًا مما لقريبك»[١].

---

(١) سفر الخروج ٢٠/ ١٧.

وحين جاء شاب إلى المسيح ﷺ وقد حفظ الوصايا؛ ليسأله ماذا بعد حفظ الوصايا، أجابه قائلاً: «إن أردت أن تكون كاملاً، فاذهب وبع أملاكك وأعطِ الفقراء فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني»[١]. فلما مضى الشاب الغني حزينًا لهذه الإجابة، قال المسيح ﷺ لتلاميذه: «الحقُّ أقول لكم: إنه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السموات. وأقول لكم أيضًا: إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله»[٢].

والمسيحية كلها قائمة على فكرة الزهد في ملكوت الأرض والتطلُّع إلى ملكوت السماء، ويمثِّل المسيح ﷺ هذه الصورة النموذجية في الزهد التامِّ، كما أن الرهبانية المسيحية تمثِّل الصورة الأخيرة من التيارات التي تقوم على الزهد الكامل في الدنيا، وهي ترتكز على أسس أربعة: البتولية، الوِحدة، التجرُّد، الطاعة[٣]، وبرغم هذه الأسس التي تتحدَّى أقوى الغرائز البشرية إلاَّ أن تيار الرهبنة بفعل كونه «عقيدة دينية» ما يزال تيارًا قويًّا ومنتشرًا على مساحة واسعة بين المسيحيين.

ولا يمنع هذا بطبيعة الحال أن تُوجد مثل هذه الصفات -صفات الزهد والتسامح والعفو- في أمم أخرى، أو عند فلسفات أخرى، حتى وإن لم يكن الإيمان بالآخرة موجودًا فيها، لكنها بالقطع لا تُوجد بمثل هذه القوَّة والاطراد والتأثير؛ إن الأمر لا يعدو أن يكون بعض أفراد حكماء ومعهم بعض أتباعهم، الذين لا يبلغون -في أحسن الأحوال- إلاَّ أن يكونوا طائفة صغيرة، ويمكن لصفات الزهد والتسامح والعفو أن تُوجد لغرض تجميل الحياة، أو تحقيق السعادة، أو الفوز بالرضا النفسي والصفاء الروحي.. وغيرها من الغايات، فاختلاف الغايات هو ما يُميز بين الأديان السماوية وبين غيرها من الأديان والفلسفات.

لكن الشاهد الذي أقصده بالتحديد هو أن الأديان السماوية، ومعها الأمم التي تُؤمن بصفات الزهد والتسامح، لا سيما البوذية وبعض ديانات الهند وشرق آسيا، هذه الأمم تتَّسع فيما بينها مساحاتُ التوافق والتفاهم؛ ومن ثَمَّ التعاون والبناء.

---

(١) إنجيل متى ١٩/ ٢١، وإنجيل مرقس ١٠/ ٢١، وإنجيل لوقا ١٨/ ٢٢.

(٢) إنجيل متى ١٩/ ٢٣، ٢٤، وإنجيل مرقس ١٠/ ٢٣-٢٥، وإنجيل لوقا ١٨/ ٢٤، ٢٥.

(٣) الأنبا يؤانس: مذكرات في الرهبنة المسيحية، ص١٤.



أمَّا ما تتفرَّد به الأديان في المجال الأخلاقي، ويُمَثِّل دائرة أشدَّ خصوصية فيما بينها، فهو أن هذه الأخلاق - التي يُغَذِّيها الإيمان- تدور حول الإله، أو بتعبير آخر يُشترط فيها «الإخلاص لله»، فالمؤمن يتحلَّى بهذه الأخلاق لا لشيء على الإطلاق إلاَّ لأن الله أمره بهذا، وهو حذر دائمًا من أن يختلط بهذا غرض آخر غير أن يقصد بهذا العمل إرضاء الله ﷻ.

ففي الإسلام لا معنى لأن تُعطي الفقير ما يحتاجه من المال إذا أنت فعلتَ ذلك وفي داخلك رغبة في أن يراك الناس تفعل هذا؛ إنَّ هذا يُضيع الأجر عند الله، كما أنه لا أجر من الله ﷻ إذا أخرجتَ من مالك ثم أعقبت هذا بكلمة تَفَضُّل تجرح شعور الفقير؛ يقول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، ووصف القرآن المنفق الذي لا يفعل هذا لوجه الله ﷻ بوصف في غاية البشاعة، أنه «قرين الشيطان»؛ قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨].

بل لا معنى لأن تُجاهد وتبذل رُوحك ودماءك إن لم يكن لأجل الله وحده؛ فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قال: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»[1].

والرياء في نظر الإسلام خُلق في غاية الخطورة؛ إذ تعتبره الشريعة نوعًا من أنواع الشرك بالله ﷻ؛ ففي الحديث القدسي يقول النبي ﷺ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[2].

ولقد تكرَّرت إدانة الرياء في الكتاب المقدس، لا سيما في العهد الجديد، ففي إنجيل متى: «ويل لكم أيها الكتبة وَالْفَرِّيسِيُّونَ المراءون! لأنكم تشبهون قبورًا مُبَيَّضَةً، تظهر من خارج جميلة، وهي من داخل مملوءة عظامَ أموات وكلَّ نجاسة. هكذا أنتم أيضًا: من خارج تَظهرون

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (٢٦٥٥) عن أبي موسى الأشعري، ومسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (١٩٠٤).

(٢) مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥) عن أبي هريرة، وابن ماجه (٤٢٠٢)، وأحمد (٧٩٨٦)، وابن حبان (٣٩٥).

للناس أبرارًا؛ ولكنكم من داخل مشحونون رياءً وإثمًا»[١].

وجاء في رسالة بولس إلى أهل رومية: «المحبَّة فلتكن بلا رياء، كونوا كارهين الشرَّ ملتصقين بالخير»[٢]. والمعنى نفسه نراه في رسالته الثانية لأهل كورنثوس: «في طهارة في علم في أناة في لطف في الروح القدس في محبة بلا رياء»[٣]. وكذا في رسالة بطرس الأولى: «طهِّروا نفوسكم في طاعة الحق بالروح للمحبة الأخوية العديمة الرياء، فأحبوا بعضكم بعضًا من قلب طاهر بشدَّة»[٤].

ومن السمات المميزة -أيضًا- والتي وُجدت في الشرائع الثلاثة -شريعة موسى، وشريعة عيسى، وشريعة محمد عليهم السلام- هو التأسيس للعدل ثم الدعوة إلى الفضل، وفي هذا فهم عميق للطبيعة البشرية، التي تحتاج إلى العدل بشكل أساسي ضروري، ثم هي قابلة للسموِّ إلى الفضل ومَدْعُوَّة إلى ذلك، فلا يُجبر أحد على السموِّ إلى منزلة الفضل وترك الحقِّ، ولا يُلام مَنْ ترك العدل إلى الفضل، وفي القرآن الكريم قال ﷻ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «الشرائع ثلاثة: شريعة عدل فقط، وشريعة فضل فقط، وشريعة تجمع العدل والفضل؛ فتُوجب العدل وتندب إلى الفضل، وهذه أكمل الشرائع الثلاث، وهي شريعة القرآن، الذي جُمع فيه بين العدل والفضل، مع أنَّا لا نُنكر أن يكون موسى عليه السلام أوجب العدل وندب إلى الفضل، وكذلك المسيح عليه السلام -أيضًا- أوجب العدل وندب إلى الفضل، وأمَّا مَنْ يقول: إن المسيح عليه السلام أوجب الفضل، وحرَّم على كل مظلوم أن يقتصَّ من ظالمه، أو أن موسى عليه السلام لم يندب إلى الإحسان. فهذا فيه غضاضة بشريعة المرسلين، لكن قد يُقال: إنَّ ذِكْرَ العدل في التوراة أكثر، وذِكْرَ الفضل في الإنجيل أكثر، والقرآن جمع بينهما على غاية الكمال»[٥].

---

(١) إنجيل متى ٢٣/ ٢٧، ٢٨.
(٢) رسالة بولس إلى أهل رومة ١٢/ ٩.
(٣) رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس ٦/ ٦.
(٤) رسالة بطرس الأولى ١/ ٢٢.
(٥) ابن تيمية: الجواب الصحيح ٥/ ٥٨، ٥٩.

ما الأخلاق السامية؟

نتناول هنا بعضًا من الأخلاق السامية، أخلاق الفضل، التي تجعل الحياة حياةً إنسانية راقية، واختيارنا هنا هو على سبيل المثال، فإن الحصر يخرج بنا عن غاية هذا الكتاب.

الإحسان:

في القرآن الكريم: نجد قول الله ﷻ: ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦]، كما نقرأ في القرآن الكريم دعوة للإحسان ولو على حساب النفس وفي وقت الحاجة والشدَّة، فلقد أثنى الله على هؤلاء، فقال ﷻ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وصَرَّح القرآن الكريم بأن الخوف من الفقر شعور يَبُثُّه الشيطان في النفس الإنسانية؛ ليمنعها من الإنفاق، بينما الحقيقة التي يُقَرِّرها الله ﷻ، أن الإنفاق يعود على الإنسان بالمغفرة والثواب في الحياة الآخرة، كما يعود بمزيد من الفضل والغنى في الحياة الدنيا؛ قال ﷻ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

[البقرة: ٢٦٨].

وحين تحدثنا عن الأخلاق الأساسية ذكرنا قول الله ﷻ: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦]، أما في مجال الحديث عن الأخلاق السامية فإن القرآن الكريم يأتي بهذا التوسُّع في قوله ﷻ: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦]، فهنا اتسعت دائرة الإحسان فتجاوزت دائرة الحقوق، كما شملت طوائف أخرى غير الأقارب، والمساكين، وابن السبيل (وهو المسافر الذي فَقَد ماله)، لقد دخلت في دائرة الإحسان طائفة الجيران، وخاصة ذوي القربي منهم، حتى إذا كان الجار يعتنق دينًا آخر، فهذا هو «الجار الجُنُب»، وطائفة «الصاحب بالجنب»؛ أي: الصديق الملازم، مثل الصاحب الأثير، أو التلميذ، أو رفيق السفر، ثم تأتي طائفة أخرى وهي طائفة «ملك اليمين»، ويقوم مقامهم - في وقتنا هذا - الخدم والبستاني والسائق وعامل النظافة.. وما إلى ذلك.

وفي توصيات النبي محمد ﷺ ما يُفَصِّل هذه التعاليم القرآنية؛ ففي مسألة الجار -مثلاً- قال رجلٌ: يا رسول الله؛ إنَّ فلانة يُذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها، غير أنَّها تُؤذي جيرانها بلسانها. قال: «هِيَ فِي النَّارِ». قال: يا رسول الله؛ فإنَّ فلانة يُذكر من قلَّة صيامها وصدقتها وصلاتها، وإنَّها تصدَّق بالأَثْوَارِ من الأَقِطِ[1]، ولا تؤذي جيرانها بلسانها قال: «هِيَ فِي الْجَنَّةِ»[2].

بل لقد نَفَى النبي ﷺ الإيمان عن الذي لا يطمئن إليه جاره، فضلاً عن الذي يُؤذيه، فعن أبي هريرة ﷺأن رسول الله ﷺ قال: «وَاللهِ! لا يُؤْمِنُ، وَاللهِ! لا يُؤْمِنُ، وَاللهِ! لا يُؤْمِنُ». قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: «الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ[3]»[4].

وحين نزل المسيح عليه السلام -كما يروي إنجيل لوقا- لدى بيت زكا، قال الرجل: «أنا يا رب أُعطي نصف أموالي للمساكين، وإن كنت قد وشيت بأحد أَرُدُّ أربعة أضعاف. فقال له يسوع: اليوم حصل خلاص لهذا البيت»[5].

وجاء في وصايا المسيح عليه السلام: «وإن أقرضتم الذين ترجون أن تستردُّوا منهم، فأي فضل لكم؟! فإن الخطاة -أيضًا- يقرضون الخطاة؛ لكي يستردوا منهم المثل. بل أَحِبُّوا أعداءكم وأحسنوا، وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئًا؛ فيكون أجركم عظيمًا، وتكونوا بَنِي الْعَلِيِّ، فإنه منعم على غير الشاكرين والأشرار»[6].

---

(١) أثوار أقط: الأثوار جمع ثور وهي القطعة من الشيء، والأقط: اللبن الجامد المستحجر. انظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٢٢٨، وابن منظور: لسان العرب، مادة ثور ٤/ ١٠٨.

(٢) أحمد (٩٦٧٣)، والحاكم (٧٣٠٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وابن حبان (٥٨٥٨)، وذكره البخاري في الأدب المفرد ص٥٤ (١١٩)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٩٠).

(٣) البوائق جمع بائقة: وهي الداهية والشيء المهلك، والأمر الشديد الذي يوافي بغتة. وفي رواية أحمد بن حنبل: «قالوا: وما بوائقه؟ قال: شره». مسند أحمد بن حنبل (٧٨٦٥). وانظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١٠/ ٤٤٣، والنووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٢/ ١٧.

(٤) البخاري: كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه (٥٦٧٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار (٤٦).

(٥) إنجيل لوقا ١٩/ ٨، ٩.

(٦) إنجيل لوقا ٦/ ٣٤، ٣٥.



وقد وُجد خُلق الإحسان في كثير من الأمم والحضارات القديمة، فلقد كان الإحسان والعطاء من القيم التي وُجدت عند قدماء المصريين، فمما وصل إلينا من ذلك التراث قصيدة وعظية فيها:

«إن الفقر بيد الله لَخَيْرٌ من الغنى في المخازن؛ وإن الرغيف والقلب مبتهج لَخَيْرٌ من الغنى مع الشقاء»(١).

ومن ملامح خيرية الفرد التي حدَّدها كونفوشيوس أن يكون كريمًا، وبهذا فسوف يكون صالحًا لدرجة تُؤَهِّله للسيادة على الآخرين(٢).

وكذلك كان الهنود يتَّصفون بسخاء لا يقف عند حدٍّ، وهم -على حدِّ تعبير ول ديورانت- أكرم أهل الأرض للضيف، فحتى أعداؤهم لا يسعهم إلاَّ الاعتراف بحسن مجاملتهم(٣).

واحتل خُلُق الإحسان إلى الوالدين -بشكل خاصٍّ- مكانة ذات قيمة في التاريخ الأخلاقي للإنسانية؛ ففي الهند القديمة كانت الصورة العامة التي نستمدُّها من أسفار الفيدا ومن الملاحم، تدلُّ على مستوًى رفيع في العلاقات بين الجنسين وفي حياة الأسرة، ولقد كان الأبناء يَعُولون آباءهم وأمهاتهم في شيخوختهم بغير أدنى تردُّد في هذا الواجب؛ بل لقد كان الأبناء يعبدون آباءهم وأسلافهم(٤).

وعند كونفوشيوس كانت إطاعة الأبناءِ آباءهم؛ والزوجة زوجها هي الضمانات التي تمنع المجتمع من الفوضى، ولا يتفوَّق شيء على هذه الطاعة إلاَّ «القانون الأخلاقي»، وفي هذا قَرَّر كونفوشيوس أن في وسع الابن وهو في خدمة أبويه أن يُجادلهما بلطف؛ فإذا رأى أنهما لا يميلان إلى اتِّباع نصيحته زاد احترامه لهما، من غير أن يتخلَّى عن قصده؛ فإذا أمر الوالد ابنه أمرًا خطأً وجب عليه أن يُقاومه(٥)؛ ولذلك كان الصيني مثلاً يحتذى في طاعة الأبناء للآباء

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ١٠٠.
(٢) هالة أبو الفتوح: فلسفة الأخلاق والسياسة المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس ص٨٣.
(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ٣/ ١٩١.
(٤) المرجع السابق ٣/ ٢٨، ١٧٢، ٢٢٨.
(٥) هالة أبو الفتوح: فلسفة الأخلاق والسياسة المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس ص٨٨-٩١.

وإخلاصهم ووفائهم لهم، وفي احترام الصغار للكبار وعنايتهم بهم عن رضًا واختيار[(١)].

وجاء في الوصايا من الكتاب المقدس: «أكْرِم أباك وأمك». وجاء في رسالة القديس بولس إلى أهل أفسس: «أيها الأولاد أطيعوا والديكم في الرب لأن هذا حق. أكرم أباك وأمك، التي هي أول وصية بوعد. لكي يكون لكم خير، وتكونوا طوال الأعمار على الأرض»[(٢)]. وفي رسالته -أيضًا- إلى أهل كولوسي: «أيها الأولاد أطيعوا والديكم في كل شيء؛ لأن هذا مرضيٌّ في الرب»[(٣)].

وفي القرآن الكريم نقرأ قول الله ﷻ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ۞ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

إن خُلق الإحسان -والإحسان إلى الوالدين بشكل خاصٍّ- نفتقده في العديد من المناطق والفلسفات خاصة في عصرنا الحديث، وما ثَمَّ مكانٌ وُجدت فيه الرأسمالية الطاغية التي تجعل الإنسان كائنًا اقتصاديًّا بحتًا، إلاَّ وينسحب منه خُلق الإحسان، حتى وصل الحال إلى معدلات تُثير الفزع، حتى أصدر مجلس الشيوخ الفرنسي قانونًا يقضي بدفع ٤٩ يورو يوميًّا لكل مَنْ يرعى عجوزًا في أيامه الأخيرة؛ وذلك بعد أن أصبح أولئك يُعانون من وِحدة قاتلة، بعد انفضاض الأولاد والبنات والأهل والأصدقاء من حولهم، حتى تكرَّرت الوفيات التي لا تُكتشف إلاَّ بعد مرور فترة من الزمن، إلى الحدِّ الذي جعل الحلَّ الأكثر شيوعًا هو اقتناء الحيوانات الأليفة، ولقد بلغ عدد الحيوانات المنزلية في بلد مثل بلجيكا يزيد على عدد السكان؛ إذ وصل عددها إلى ١١ مليون حيوان مقابل عشرة ملايين شخص، يُنْفَق عليها ما يقرب من ٤٠ مليون دولار في العام، بينما يُنفق الأميركان على حيواناتهم المنزلية نحو ٢٥ بليون دولار، ولم يكن غريبًا أن تطلب عجوز كرواتية أن يُدفن ببغاؤها الراحل إلى جوارها؛ لأنه ظلَّ الأنيس والجليس الوحيد لها لأكثر من ١٢ سنة[(٤)]!

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ٦٠، ٢٧٤.

(٢) رسالة القديس بولس إلى أهل أفسس ٦/ ١-٣.

(٣) رسالة القديس بولس إلى أهل كولوسي ٣/ ٢٠.

(٤) فهمي هويدي مقال بعنوان: «الكلاب والقطط هي الحل!»، صحيفة الشروق المصرية ١٤/ ٢/ ٢٠١٠م.



العفـة:

في موضوع العفة والزنا نرى أنفسنا أمام أربع دوائر متقاطعة ومختلفة؛ فالنادر جدًّا إلى درجة الشذوذ هو أن تسمح الحضارة أو الأمة أو القوم بإباحة الاتصال الجنسي الجماعي فيما قبل الزواج وفيما بعده بلا ضابط، وفي المقابل من هذه الدائرة نجد الحضارة التي تمنع الزنا وتحرِّمه قبل الزواج وبعده وعلى الرجال والنساء والشباب والفتيات على حدٍّ سواء، وتكون العقوبة أكثر تشديدًا على الزاني المتزوِّج أو الزانية المتزوِّجة.

في دائرة أخرى نجد كثيرًا من الحضارات تعاملت مع الزنا باعتباره جريمة إذا كان مقترفها متزوجًا فقط، بينما تسامحت مع مرحلة ما قبل الزواج، وقريب منها دائرة أخرى اعتُبِر الزنا فيها جريمة في حالة المرأة فقط، بينما كان التسامح قائمًا في حالة الرجل.

أما حالة الإباحية المطلقة فإنها لم تُوجد إلاَّ عند بعض القبائل البدائية والمنعزلة، والتي لم نكن لنعرف أخبارها إلاَّ من خلال الرحَّالة المدقِّقين المهتمِّين بالبحث عن الغريب والمختلف، وهذه القبائل نستطيع أن نقول: إنها خارج دائرة بحثنا الآن؛ لندرتها وهامشيتها في مسرح الحياة.

وأمَّا حالة المنع المطلق والتجريم فيما قبل الزواج وبعده للرجل والمرأة على حدٍّ سواء، فهو أمر موجود داخل الأديان كالإسلام والمسيحية، ويُشَكِّل هذا إطارًا أخلاقيًّا إضافيًّا للالتقاء بينهما؛ ففي القرآن الكريم نهي عن مجرَّد الاقتراب من الزنا، ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢]، ومثل هذا قول الله ﷻ: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۞ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

وشبيه من هذا الاحتراس ما ورد في إنجيل متى: «قد سمعتم أنه قيل للقدماء: لا تزن. وأما أنا فأقول لكم: إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه. فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك؛ لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك

كله في جهنم»[١].

كما وجد هذا -أيضًا- في مرحلة من التاريخ الهندي القديم؛ فقد كانوا غاية في رقَّة الحاشية والاحتشام والمجاملة؛ فلو غضضت النظر عن عدد قليل -هن زانيات المعابد- لوجدتَ البغاء نادرًا في الهند، وألفيت العفَّة الجنسية مصونة إلى حدٍّ يستوقف النظر؛ يقول (دِبْوَا) الذي لا يعطف على الهنود في كتابته: «لا بُدَّ من الاعتراف بأن آداب السلوك واحترام المعاملة الاجتماعية أوضح في قواعدها وأكثر اتباعًا لدى طبقات الهنود كلها، حتى أدنى هذه الطبقات منزلة»[٢].

ومن أقوال ماني[٣] وهو أحد أشهر فلاسفة فارس: «إن المرأة نزاعة بطبعها دائمًا أن تغري الرجل؛ ومن ثَمَّ كان واجبًا على الرجل ألاَّ يجلس في عزلة مع امرأة، حتى إن كانت من أقرب ذوات قرباه. ولا ينبغي لرجل أن ينظر إلى أعلى من عَقِبَيْ فتاة عابرة»[٤].

وفي الديانة الزرادشتية يُعاقَب على الزنا بالقتل، بل ويُقتل الولد الذي هو ثمرة الزنا، إمَّا وهو في بطن أمه، وإمَّا بعد ولادته، وتُعاقَب الزانية في الآخرة بأن تُعَلَّق من ثدييها في النار، وأمَّا الزاني فتلدغه الأفاعي[٥].

وأمَّا التفريق في الجريمة بين المتزوِّج وغيره فقد وُجد قديمًا لدى البابليين، الذين كانوا يسمحون بقسط كبير من العلاقات الجنسية قبل الزواج، أمَّا بعد الزواج فهناك إرغام شديد على الاستمساك بالوفاء الزوجي بعده، وكان القانون ينصُّ على إغراق الزوج الزاني ومَنْ زنت معه، كما وُجدت لدى الآشوريين -أيضًا- الذين وإن كانوا يرون البغاء أمرًا لا بُدَّ منه

(١) إنجيل متى ٥/ ٢٧-٢٩.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ٣/ ١٨٥.

(٣) ماني: حكيم فارسي، ظهر في زمن الملك الفارسي سابور بن أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى ابن مريم عليه السلام، أحدث دينًا بين المجوسية والنصرانية، فسمى ديانته بالمانوية، وهي ديانة ثنوية؛ أي أن العالم مركب من أصلين قديمين: أحدهما نور والآخر ظلمة، ويطلق على أتباعه الزنادقة. انظر: الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ٢٤٣، وابن النديم: الفهرست ١/ ٤٥٦.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ٣/ ١٨٥.

(٥) Maganlal Amritlal Buch M. A. Zoroastrain Ethics, BiblioLife, October 3, 2009 p. 123, 124



فكانت له قوانين، إلاَّ أن الزواج كان يجعل الزنا جريمة عقوبتها القتل[١].

وأمَّا التفريق بين الرجل والمرأة فقد وُجد لدى السومريين، الذين كانوا يعدُّون زنا الزوج نزوة عادية، بينما يُعدمون الزوجة الزانية، كذلك في الصين؛ فقد كان الآباء يحرصون على العفَّة أشدَّ الحرص في بناتهم، وقد نجحوا في غرس هذه الفضيلة في البنات نجاحًا منقطع النظير، يدلُّ عليه أن البنات الصينيات كُنَّ في بعض الأحيان يقتلن أنفسهن إذا اعتقدن أن شرفهن قد تلوَّث؛ بأن مَسَّهنَّ رجل مصادفة، غير أنهم لم يبذلوا أي مجهود يرمي إلى أن يحتفظ غير المتزوِّج بعفَّته، بل كان يُعَدُّ من الأمور العادية المشروعة أن يتردَّد على المواخير[٢]، وكان الزنا عند الرجال من الشهوات المألوفة وواسعة الانتشار، يستمتع به الرجل كما يشتهي من غير أن يناله من ورائه أيّ عار، إلاَّ ما ينال المفرط في أي عادة من العادات[٣].

العفـو:

ذكرنا في خُلق العدل من الأخلاق الأساسية جزءًا من قول الله ﷻ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى﴾**، ولكن الآية لم تتوقَّف عند هذا الحدِّ، حدّ العدل وهو من الأخلاق الأساسية، بل أضافت: **﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [البقرة: ١٧٨].

لقد أسَّس القرآن الكريم لأخلاق العفو، بعد إقراره وتأسيسه لخُلق العدل؛ فلكل إنسان الحقُّ في أن يقتصَّ ممن ظلمه، أو يستردَّ الحقَّ ممن آذاه، ولكن -وفي الوقت ذاته- كان من السموِّ والتفضُّل والخير أن يعفوَ صاحب الحقِّ ويُسامح ويتنازل، فهذه مرحلة أعلى وأرقى في الإنسانية والفضل من استرداد الحقِّ وتنفيذ العدل، قال ﷻ: **﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾** [البقرة: ١٧٨].

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٢٣١، ٢٣٢، ٢٨١.

(٢) المواخير جمع الماخور: وهو بيت الرِّيبة ومجمع أهل الفسق والفساد، ومجلس الخَمَّارين. ابن منظور: لسان العرب، مادة مخر ٥/ ١٦٠، والزبيدي: تاج العروس، باب الراء فصل الميم ١٤/ ٩٢، والمعجم الوسيط ٢/ ٨٥٧.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٣٢، ٣٣، ٤/ ٢٦٧.

والقرآن الكريم يُثني على من يُمْسِك نفسه ويتحكَّم في غضبه مع القدرة على إنفاذه، ثم يُثني أكثر على مَنْ يسمو أكثر فيُصَفِّي نفسه من الغضب، قال ﷺ: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

ثم يدعو القرآن إلى مرحلة أعلى؛ وهي ردُّ السيئة بالحسنة: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ذلك أن مثل هذا الخُلق يُزيل العداوات والمشكلات من النفوس، ويجعلها أنقى وأصفى، حتى لو كانت متعادية ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

هذا الخلق نجده كذلك في الكتاب المقدس، لا سيما العهد الجديد منه؛ ففي إنجيل لوقا، يقول المسيح عليه السلام: «لكني أقول لكم أيها السامعون: أحبوا أعداءكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، باركوا لاعنيكم، وصلُّوا لأجل الذين يُسيئون إليكم»[1]. والمعنى نفسه نجده في إنجيل متى بتوسُّع؛ إذ يقول المسيح عليه السلام: «سمعتم أنه قيل: تحب قريبك وتُبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلُّوا لأجل الذين يُسيئون إليكم ويطردونكم. لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات، فإنه يُشرق شمسَه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين. لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأي أجر لكم؟! أليس العشَّارون[2] -أيضًا- يفعلون ذلك؟ وإن سَلَّمتم على إخوتكم فقط فأي فضل تصنعون؟ أليس العشارون -أيضًا- يفعلون هكذا؟»[3].

وجاء في رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كولوسي، يقول: «ونتعب عاملين بأيدينا، نُشْتَم فنُبَارِك، نُضَّطَهد فنحتمل»[4].

ولقد فطن حكماء البشرية منذ القديم إلى هذا الأثر الملموس؛ فلقد كان بوذا يردُّ السيئة

---

(١) إنجيل لوقا ٦/ ٢٧، ٢٨.

(٢) العشَّار: مَنْ يأخذ على السلع ضريبة. المعجم الوسيط ٢/ ٦٠٢.

(٣) إنجيل متى ٥/ ٤٣-٤٧.

(٤) رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كولوسي ٤/ ١٢.



بالحسنة، والكراهية بالحب؛ وإذا أُسِيء إليه في النقاش أو أُسيء التفاهم بينه وبين مَنْ يحاوره، آثر الصمت وكان يقول: «إذا أساء إليَّ إنسان عن حُمق، فسأردُّ عليه بوقاية من حُبِّي إيَّاه حبًّا مخلصًا، وكلما زادني شرًّا، زدته خيرًا». فإذا جاءه غِرٌّ وأهانه، استمع إليه بوذا وهو صامت، حتى إذا ما فرغ الرجل من حديثه، سأله بوذا: «إذا رفض إنسان يا بني أن يقبل منحة تُقَدَّم إليه، فمن يكون صاحبها؟» فيُجيبه الرجل: «إنَّ صاحبها عندئذٍ هو مَنْ قدَّمها». فيقول له بوذا: «إني أرفض يا بني قبول إهانتك، وألتمس منك أن تحفظها لنفسك». ومن أقواله: «على الإنسان أن يتغلَّب على غضبه بالشفقة، وأن يُزيل الشرَّ بالخير... إن النصر يُوَلِّد المقت؛ لأن المهزوم في شقاء... إن الكراهية يستحيل عليها في هذه الدنيا أن تزول بكراهية مثلها؛ إنما تزول الكراهية بالحبِّ»[١].

ومما وُجد في تراث النصائح للمصريين القدماء قول الحكيم بتاح حتب: «إذا كنتَ قد تسامحت في سابق الأيام فصفحت عن شخص بغية هدايته، فدعه وشأنه، ولا تُذَكِّره بفضلك في الغد»[٢].

كذلك من أقوال لو - ذره[٣]: «إذا لم تُقاتل الناس فإن أحدًا على ظهر الأرض لن يستطيع أن يُقاتلك.. قابل الإساءة بالإحسان. أنا خَيِّر للأخيار، وخَيِّر -أيضًا- لغير الأخيار؛ وبذلك يصير الناس جميعًا أخيارًا؛ وأنا مخلص للمخلصين، ومخلص -أيضًا- لغير المخلصين؛ وبذلك يصير الناس جميعًا مخلصين.. وأَلْيَنُ الأشياء في العالم تصدم أصلبها وتتغلَّبُ عليها.. وليس في العالم شيء ألين أو أضعف من الماء، ولكن لا شيء أقوى من الماء في مغالبة الأشياء الصلبة القوية»[٤].

وقد ذكرنا في حديثنا عن الأخلاق الأساسية أن هذا الكلام لم يُرْضِ كونفوشيوس، الذي قال: «لتكن العدالة جزاء الإساءة، وليكن الإحسان جزاء الإحسان». والحقُّ أنه لا

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٣/ ٧٤، ٧٧.

(٢) كمال محرم: الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء ص٤٠.

(٣) لو – ذره: مُعَلِّم الصين القديم، وأول فلاسفتها المعروفين، وأعظمهم قبل كونفوشيوس.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ٣٥.

يسعنا أن نرفض هذا الكلام، غير أننا نرى أن يكون للفرد هذا الخيار، الذي يُرَقِّيه في مدارج الإنسانية، ويُوَصِّل لديه أخلاق الحياة الأجمل.

الـذوق:

ربما يكون الذوق أبرز الأخلاق السامية؛ فهو السلوك الذي لا هدف له إلاَّ أن يُرَقِّق الطبع الإنساني، ويُضفي لمسة الجمال على الحياة، والذوق مرتبط بالرقي الحضاري دائمًا؛ ذلك أن الرقي في الحضارة هو مرحلة تلي مرحلة التأسيس والبناء، إنها مرحلة البحث عن تجميل الحياة وتحسينها في الفنِّ والأدب والبناء، وحتى في شكل المنتجات الصناعية، ولا بُدَّ أن تشمل هذه اللمسة مجال السلوك الإنساني، وبإمكاننا أن نرى مستوى عاليًا من التهذيب في المعاملات، مهما بلغ جوهر هذه الحضارة من الجدية والعنف واعتصار الإنسان، كما في الرأسمالية الحديثة.

وفي نصيحة من تراث المصريين القدماء نقرأ كثيرًا من مظاهر الذوق واللطف؛ مثل: «إذا وجدتَ رجلاً يتكلَّم، وكان أكبر منك وأشدَّ حكمة، فأصغِ إليه، واحْنِ ظهرك أمامه... وإذا وجدتَ رجلاً مساويًا لك يتجادل، وأثار حديث السوء فلا تسكت، بل أظهر حكمتك وحُسن أدبك؛ فإن الكل سيُثْنُون عليك، وسيحسن ذكرك عند العظماء. إذا وجدتَ رجلاً يتكلَّم وكان فقيرًا؛ أي: ليس مساويًا لك، فلا تحتقره لأنه أقلُّ منك، بل دَعْه وشأنه، ولا تحرجه لتُسِرّ قلبك، ولا تصب عليه جام[1] غضبك... عندما تجلس إلى مائدة أحد الكبراء فخُذْ -إذا أعطاك- مما هو موجود أمامك، ولا تنظر إلى ما وُضع أمامه، بل انظر إلى ما وُضع أمامك أنت، ولا تصوب إليه نظراتك الكثيرة؛ لأن النفس تشمئزُّ عندما يصطدم المرء بها، وغضّ من بصرك حتى يُحَيِّيك، ولا تتكلَّم إلاَّ إذا حيَّاك، اضحك عندما يضحك؛ فإن هذا يُبهج قلبه، ويجعل ما تفعله مقبولاً لديه؛ لأن الإنسان لا يعلم ما في القلب»[2].

ولقد كان الفرس يتحلَّوْنَ بالصراحة والكرم وحفظ الودِّ وسخاء اليد، يُراعون آداب المجالس ويحرصون عليها حرصًا لا يكاد يقلُّ عن حرص الصينيين، وكانوا إذا تقابل منهم

---

(١) الجام: إناء للشراب والطعام، ويقال: صب عليه جامه، غضب عليه واستفزه. المعجم الوسيط ١/ ١٤٩.
(٢) كمال محرم: الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء ص٢٩-٣١.



شخصان متساويان في المرتبة تعانقا وقَبَّل كل منهما الآخر في شفتيه؛ فإذا قابل الواحد منهم مَنْ هو أعلى منه منزلة انحنى له انحناءة كبيرة تُشعر بالخضوع والاحترام، وإذا التقى بمَنْ هو أقلَّ منه قدَّم له خدَّه ليُقبِّله، فإذا قابل أحد السوقة اكتفى بإحناء رأسه، وكانوا يستنكرون تناول شيء من الطعام أو الشراب على قارعة الطريق، كما يسوءهم أن يبصق الإنسان أو يتمخَّط أمام الناس(١).

واليابانيون حتى الآن نموذج مثالي في أخلاق الذوق، حتى اللغة اليابانية قلَّ أن يدخلها لفظ فاحش، وتَرَاهم يُكْسَوْن بغطاء ظاهري من التواضع احترامًا للنفس يبلغ - في رأي ديورانت- «حدَّ التوحُّش»، وآداب السلوك قد تبلغ من رقَّتها حدًّا يلطف من حدَّة العداوة مهما بلغت من استيلائها على النفوس(٢).

والمدن الأوربية في مجملها نموذج من النظام والرقي وانتشار الابتسامة بين الجمهور، والحفاظ على هدوء المكان، والالتزام بالتعليمات والإرشادات البيئية، والتجاوُز الظريف لما يمكن أن يحدث من اصطدام غير مقصود بين شخصين أو سيارتين أو ما شابه، حتى حين يُريد صاحب العمل طرد أحد موظَّفيه فإنه يفعل هذا بكل ما يمكنه من تهذُّب، ما أجمل هذه الطباع الحضارية! لولا قليل من مظاهر عنصريةٍ حينًا، وغلبةٍ لتطرفِ مصطلحاتِ السوق المالية على السلوك الأخلاقي حينًا آخر.

ونجد في الإسلام كَمًّا هائلاً من التعاليم في جانب الذوق هذا؛ فمن الوصايا القرآنية قوله ﷻ: ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٨- ١٩]، وإذا كان لا بُدَّ من الجلوس في الطرقات فلا بُدَّ من أداء «حقِّ الطريق»؛ وهو -كما بَيَّنه النبي ﷺ- «غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلاَمِ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ»(٣). وكَانَ ﷺ إِذَا عَطَسَ وَضَعَ يَدَهُ أَوْ ثَوْبَهُ عَلَى فِيهِ، وَخَفَضَ بِهَا صَوْتَهُ(١). كما كان ﷺ

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٤٣٩.

(٢) المرجع السابق ٥/ ١٧٩.

(٣) البخاري: كتاب المظالم، باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات (٢٣٣٣) عن أبي سعيد الخدري، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه (١١٤).

إذا صافح رجلاً لم يترك يده حتى يكون هو التارك ليدِ رسول الله[٢]، ونهى ﷺ أن يجلس الرجل بين الرجلين إلاَّ بإذنهما[٣]. ومن وصاياه ﷺ قوله: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا»[٤]. وإننا لنقرأ في سُنَّتِه ﷺ أنه «لا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ»[٥].

ونقرأ في القرآن الكريم: ﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، فمن اللافت للنظر أن الآية أدانت، ليس فعل الإفساد فحسب، بل أدانت الكلام في غير الإصلاح والمعروف، وأعلنت أن الخير في الاجتماع والتداول والتباحث في هذه الأمور، ثم من اللافت للنظر أن هذه الأمور مطروحة لجميع الأمم ليس للمسلمين فقط؛ لأن الآية تُعَقِّب بعد ذلك بالأجر والثواب العظيم لمن يفعلها ابتغاء مرضاة الله وحده، بما يعني أن الخير في فعلها، ولو اختلفت النوايا لدى الفاعلين.

***

إن أخلاق الإحسان والعفَّة والعفو والذوق هي مجرَّد نماذج أحببت أن أُقَدِّمها في إطار شرح المراد من الفكرة، والفكرة -لمرَّة أخرى- هي تلك المساحة القائمة بين الإنسانية من المشتركات الأخلاقية، والتي إذا وُضِعت في بُؤْرة الاهتمام لاستطاعت الإنسانية أن تبني آفاقًا واسعة من التفاهم والتعاون والتنافس الخلاَّق، غير أن أخلاق الفضل، أو الأخلاق السامية

---

(١) أبو داود: كتاب الأدب، باب في العطاس (٥٠٢٩) عن أبي هريرة، والترمذي (٢٧٤٥) وقال: حسن صحيح. وأحمد (٩٦٦٠)، والحاكم (٧٧٩٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٥٥).

(٢) الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٩٠)، وابن ماجه (٣٧١٦)، وابن حبان (٦٤٣٥)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٤٨٥).

(٣) أبو داود: كتاب الأدب، باب في الرجل يجلس بين الرجلين بغير إذنهما (٤٨٤٤) عن عبد الله بن عمرو، والترمذي (٢٧٥٢)، وأحمد (٦٩٩٩)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٣٨٥).

(٤) أبو داود: كتاب الأدب، باب في الرحمة (٤٩٤٣)، والترمذي (١٩١٩) واللفظ له عن أنس بن مالك، وقال الترمذي: هذا حديث غريب. وأحمد (٦٧٣٣)، والحاكم (٤٢١).

(٥) أبو داود: كتاب الأدب، باب في شكر المعروف (٤٨١١) عن أبي هريرة، والترمذي (١٩٥٤)، وقال: حديث حسن صحيح. وأحمد (٧٤٩٥)، وابن حبان (٣٤٠٧)، وحسنه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٣٠١٤).

كثيرة جدًّا، وهي تُمَثِّل كمًّا إضافيًا بين العديد من الأمم فوق القاعدة الأولى التي تُمَثِّلها الأخلاق الأساسية.

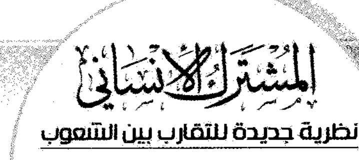
لا بد لكل أُمَّتَيْنِ ولكل مجموعة من الأمم أن تنظر فيما بينها إلى هذه المشتركات الأخلاقية، وحينها ستكتشف الأمم أن تاريخها وقيمها وأخلاقها تدفعها إلى مستوى أعلى من السلوك الإنساني الجميل، غير هذا السلوك القائم في عالم اليوم بمراحل كبيرة.

* * *

المشتركات الإنسانية الداعمة

لقد وجدنا مشتركات عميقة في النفس البشرية، لكن من النادر أن تنشأ عليها صراعات، فهي بطبيعتها مساحات للتواصل وحسب







الفصل الخامس
المشتركات الإنسانية الداعمة

من خلال النظر في المشتركات الإنسانية العامَّة، التي تمثِّل مساحات الالتقاء البشري، كانت ثمة علاقة قوية تظهر دائمًا بين كَوْن العنصر من المشتركات الإنسانية العامَّة، وبين ضراوة وشراسة الأزمة أو الحرب التي تشتعل، إذا ما تَمَّ انتهاك هذا المشترك العام.

كان البحث يجري أوَّلاً حول التثبُّت من كون هذه العناصر حقًّا من المشترك الإنساني العام، ثم يجري البحث محاوِلاً اختبار التجارِب التاريخية والواقعية التي تَمَّ فيها مراعاة هذا العنصر، وكذلك التجارِب التاريخية والواقعية التي تَمَّ فيها انتهاك هذا العنصر؛ فظهر بوضوح أن المشتركات العامَّة الموجودة عند كل البشر يتحتَّم أن تُراعى وتُحترم، وإلاَّ كانت عاملاً تفجيريًّا لصراع قوي.

غير أن ثمة عناصر أخرى ثبت لدينا أنها موجودة وعميقة في النفس البشرية، ويَثْبُت من التاريخ والواقع أنها قامت في كل الحضارات والتجارِب البشرية، فهذا ما يُرَشِّحها لأن تكون ضمن المشتركات العامَّة، غير أن النظر في هذه التجارِب التاريخية والمعاصرة أضاف -أيضًا- بأنها عناصر ليس من المعتاد أن تنشأ حروب وصراعات قوية بسبب الجور عليها وعدم احترامها، إلاَّ أن تكون كالقشَّة التي قصمت ظهر البعير؛ وعلى هذا فهي مساحات تواصلية فحسب، لا تسمح طبيعتها بأن تنشأ حولها الصراعات أو أن تُنتهك، وانطلاقًا من كونها مساحات ينشأ حولها التواصل ولا تنشأ حولها الحروب، ومن كونها موجودة في الطبيعة البشرية أعطيناها اسم «المشتركات الداعمة»، مع ملاحظة أن هذه العناصر -أيضًا- ليست على سبيل الحصر، بل هو فتح لزاوية جديدة من النظر تنتظر مزيدًا من الاجتهاد والإضافة؛ وهذه المشتركات كما رأيناها هي:

* **الفنون.**
* **الرياضة.**
* **السياحة.**

الفنـــــون

كلمة «فنٌّ» كما يُوردها المعجم الفلسفي يُقصد بها: «تعبير خارجي عمّا يحدث في النَّفْس من بواعث وتأثرات بواسطة الخطوط أو الألوان، أو الحركات، أو الأصوات، أو الألفاظ، ويشمل الفنون المختلفة كالنحت والتصوير»[١]. وواضح أنه تعريف فردي ينطلق من الإنسان الفرد، ولا يُعَبِّر إلاَّ عن دواخله، ولا يستهدف غاية بعينها، ولا محلَّ فيه لجمهور أو مستقبلين، ويُعَرِّف المعجم الوسيط الفنَّ على أنه: «جملة الوسائل التي يستعملها الإنسان لإثارة المشاعر والعواطف، وبخاصة عاطفة الجمال كالتصوير والموسيقى والشعر»[٢]. ففي هذا التعريف ذهب الفرد وجاءت الجماعة، وصار المعنى منصرفًا عن عواطف الفنان إلى عواطف الجمهور.

***

الحاجة إلى الجمال شعور غريزي في طبيعة الإنسان؛ فالإحساس بالجمال يدفع كل النفس الإنسانية بمشاعرها ورغباتها وفكرها نحو الموضوع الجميل، نحو الموضوع الذي حَكَمَتْ على جماله من أجل تمثُّله، والتوحُّد معه من أجل البهجة والسعادة، التي يتضمَّنها الحصول على كل جميل[٣]؛ ولهذا ففي داخل كل إنسان سعيٌ نحو الجمال، وعلى المستوى الفردي يبدو هذا من الوضوح بحيث لا يُحتاج معه إلى إثبات، وحيث إن المجتمعات ليست إلاَّ مجموعات من الأفراد، فمن الطبيعي أن تكون لكل تجمُّع من هذه التجمعات طرائق وأساليب وعادات في تحقيق هذا الجمال؛ لذا نجد أن البحث عن الجمال -وهو الشعور الذي كان دائمًا المُوَلِّد لأساليب الفنون المختلفة- موجود في كل التجمُّعات البشرية المعروفة؛ سواء كانت بدائية واستقرَّت في بدائيتها، أم تطوَّرت لتُصبح حضارات كبرى.

(١) مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، ص١٤٠.
(٢) المعجم الوسيط ٢/ ٧٠٣.
(٣) هاني نصري: الفكر والوعي بين الجهل والوهم والجمال والحرية، ص١٩٧.



فبالنسبة للبدائيين، فبرغم انعزالهم عن التيارات الحضارية في الصحارى والغابات، إلاَّ أن لهم «لمسات فنية» واضحة؛ فالهنود الحمر يستعملون الريش الزاهي الألوان، والقبائل الإفريقية البدائية تستعمل الأقراط والعقود الملونة بكثافة، وبنات البدو يُحِبُّون الأقراط والخلاخيل لا سيما ما كان كبير الحجم، وتتميَّز كثير من النساء بالوشوم المطبوعة على الجبهات وتحت الشفاه وعلى ظاهر الأيدي، وحبُّ البدائيين للجمال نتيجة محقَّقة تَوَصَّلت إليها الدراسات التي تناولت هذه المجتمعات؛ «فالبدائيون يُحِبُّون الفنَّ حُبًّا جَمًّا، وهو شائع جدًّا بينهم، ويُحَوِّل الاتصالُ الدائم بالأشياء اليومية الجميلة الصنع البيئةَ البدائية إلى بيئة شخصية مليئة بالمعاني»[١].

وأمَّا بالنسبة للحضارات؛ فلا ريب أن النشاط الفني بمختلف جوانبه ونواحيه مظهر متفوِّق من مظاهر الحضارة، وهو عنصر له أهميته الكبيرة، وقيمته العميمة في تقدير الشعوب والأمم، وبه يُقاس التقدُّم في المجتمعات الإنسانية[٢].

ظهر علم الجمال أو «الإستاطيقا» كمصطلح لأول مرَّة خلال القرن الثامن عشر من خلال الفيلسوف بومجارتن، وأصبح هدف هذا العلم محاولة وصف وفهم وتفسير الظواهر الجمالية والخبرة الجمالية؛ إنه ذلك الفرع الذي نشأ أساسًا في أحضان الفلسفة، وترعرع وبلغ أَشُدَّه في ظلالها، ثُمَّ جاءت فروع معرفية أخرى بعد ذلك، كي تنعم بهذه الظلال، وتساهم في سقاية هذه الشجرة الوارفة المتألِّقَة لعلم الجمال، وأن تُضيف إليها فروعًا جديدة[٣].

ورغم قوَّة العلاقة بين الجمال والفنِّ إلاَّ أنَّ مجال الدراسة لكل منهما مختلف؛ حيث إن مجال دراسة الفنِّ هو الفنان: إبداعاته وحياته الفنية، بينما مجال علم الجمال هو تصنيف الأعمال الفنية جماليًّا، وبيان كيفية تحقيقها للقيم الجمالية، التي تدلُّ على إحساس صاحب العمل الفني بالجمال[٤].

---

(١) أشيلي مونتاجيو: البدائية، ص١٦١.

(٢) أنا ماري شيمل: الجميل والمقدس، ص١٣.

(٣) شاكر عبد الحميد: التفضيل الجمالي، ص٨.

(٤) هديل بسام زكارنة: المدخل في علم الجمال، ص٨.

إلاَّ أننا في هذا الكتاب الذي يتناول الجوانب المشتركة بين الإنسانية، ويسعى للتقريب بين البشر لن نهتمَّ بالفروق الأكاديمية الدقيقة، بقدر ما نهتمُّ بالمحصِّلات النهائية المتمثلة في المنتجات الفنية للشعوب، وكيف يمكن أن تكون مساحة أخرى من مساحات الالتقاء والتفاهم.

***

بعض الأساليب الفنية أضحت عالمية، تستعملها الشعوب جميعًا في التعبير عن نفسها؛ مثل: النحت، والرسم، والغناء، والتمثيل، وربما كان الرسم والغناء أقدم هذه الأساليب جميعًا، غير أن اختفاء الوسائط -التي تحفظ هذه الأعمال- قد حال دون وصولها إلينا منذ بدأت مع الإنسان القديم، في حين أن النحت الذي هو -بلا شكٍّ- تطوُّر عن الرسم، بل هو في الحقيقة ليس إلاَّ رسمًا على المادة الأصعب، ذلك النحت هو الذي بقي لقوَّة المادَّة التي نُقِشَ عليها.

وقد بلغت الأعمال الفنية البدائية درجة عالية من الجودة دفعت السير هربرت ريد[(١)] لأن يقول: «إن أفضل رسومات كهوف ألتاميرا[(٢)] ونيو[(٣)] Niaux ولاسكو تكشف عن مهارة لا تقلُّ عن مهارة بيزانيلو أو بيكاسو»، وكلُّ مَنْ رأى الرسوم الأصلية، أو نسخًا مأخوذة عنها، سيُوَافق على أن هذا القول غير مبالغ فيه[(٤)].

لكن مَنْ بيزانيلو ومَنْ بيكاسو أولئك الذين تُطلق أسماؤهم في الكتابات دون الشعور بالحاجة إلى تعريفهم، وكأنهم شخصيات يعرفها القارئ بالبديهة؟!

الحقيقية أنهم ليسوا إلاَّ رسامين ونحاتين مهرة مبدعين، فبيزانيلو هو «صانع أجمل المدليات في

---

(١) السير هربرت ريد Sir Herbert Edward Read (١٨٩٣-١٩٦٨م): شاعر وناقد وروائي بريطاني، متخصص في الأمور الأكاديمية للفنون الجميلة، له خبرة طويلة في ميدان التعليم والتأليف، من أهم أعماله وأشهرها: (العين البريئة) وهي سيرة ذاتية له.

(٢) كهوف ألتاميرا Altamira: كهوف صُنِعَتْ في العهد المجدلي في شمالي إسبانيا في سنة ١٦٠٠٠ ق. م، وهي تعود إلى العصر الحجري القديم، عمقها نحو ١٥٠م، ويراوح عرضها بين ٥ و١٥م.

(٣) نيو Niaux: مجموعة من الكهوف تقع في جبال البرانس (البرينيه) في فرنسا.

(٤) أشيلي مونتاجيو: البدائية، ص١٧.

عصر النهضة، بل لعلَّه صانع أجملها في جميع العصور... كان يوقع باسم بكتور Pictor (أي المصوِّر) ويرى أنه مصور بحقٍّ، وقد بقيت له نحو ستٍّ من صوره، وهي صور ممتازة، ولكن ليست هي التي خَلَّدت اسمه على مدى القرون؛ ذلك أنه أولع بها في رسوم النقود اليونانية والرومانية من حذق ونزعة واقعية وإحكام في التصوير، فصنع نقوشًا مستديرة صغيرة قلَّما يَزيد قطر الواحد منها على بوصتين، جمعت بين دقَّة الصناعة والصدق والأمانة؛ مما جعل مدلياته أصدق ما لدينا تصويرًا لعدد من أعيان عصر النهضة، وليست هذه المدليات من الأعمال التي تتطلَّب عمق التفكير، وليس فيها نزعة فلسفية، ولكنها كنوز من الصناعة التي تشهد بالدأب والصبر الطويل على العمل، وإيضاح عظيم القيمة للتاريخ»[١].

وأمَّا بيكاسو فهو الإسباني الذي يُعَدُّ أحد أشهر الرسامين في العالم، وسحر قلوب الملايين من عُشَّاق الفنِّ في الشرق والغرب، ومن قبله أسماء أخرى حفرت نفسها في التاريخ الإنساني بما أنتجته من نحت ورسم؛ مثل ليوناردو دا فنشي[٢]، الذي يعرفه الناس بما تركه من نحت ورسم، بينما لا يعرف إلاَّ القليل أنه كان مهندسًا ومعماريًّا وميكانيكيًّا، وله إسهامات بارزة في علم التشريح والبصريات، وهذا تأكيد أي تأكيد على انجذاب الناس إلى الفنون واهتمامهم بها.

وآخرون مثل رفائيل ومايكل أنجلو[٣] ودوناتيلو وفان جوخ وغيرهم، كلها أسماء خُلِّدَت بسبب ما أنتجوا من فنون الرسم والنحت، فصاروا بهذا علامات عالمية تستحوذ على قلوب محبي الرسم والنحت في كل أرجاء العالم، وهذا ما جعلهم مركزًا ووسيلة للتواصل يلتقي حولها أناس لا يلتقون على غيرها.

***

الآن تطوَّرت الوسائل التي يمكن بها إنتاج هذه الأنواع من الفنون؛ فالرسم صارت له

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٩/ ٢٧٤.

(٢) ليوناردو دا فنشي Leonardo di ser Piero da Vinci (١٤٥٢-١٥١٩م): فنان ورسام ونحات إيطالي، يعدُّ من أشهر فناني النهضة الإيطاليين على الإطلاق، وتعد لوحة العشاء الأخير أحد أعظم إبداعاته الفنية.

(٣) مايكل أنجلو Michel angelo (١٤٧٥-١٥٦٤م): رسام ونحات ومهندس وشاعر إيطالي، من أعظم نحاتي ورسامي أوربا، من أشهر أعماله الفنية: لوحة يوم القيامة، وصلب المسيح.

فروع كثيرة بحسب الخامات التي يُرسم عليها؛ كالورق والزجاج والجلد والرخام والقماش.. وغيرها، وبحسب المدارس التعبيرية وطرقها واتجاهاتها، وكذلك الغناء ذهب في سَيْره مذاهب عدَّة؛ فهناك -على مستوى الكلمات- الأهازيج والأراجيز، والمقطوعات والموشحات، والأغاني الخفيفة السريعة القصيرة، والمواويل الطويلة الدرامية الروائية، وأمَّا على مستوى الوسائل المساعدة فمدارس الموسيقى وآلاتها قد تنوَّعت تنوُّعًا هائلاً، والتمثيل الآن يُؤَدَّى عبر المسرح وعبر الإذاعة، وعبر الصورة المعالجة بالسينما أو التلفاز، وفي كلٍّ من هذه مدارس ومذاهب فنية كبرى.

إن الواقع يقول بأننا نستطيع فهم الحضارات التي مرَّ على اندثارها آلاف السنين؛ التي تكون آثارها المنحوتة هي السبيل لكي نفهمها، فمن باب أولى أن تكون الفنون بابًا كبيرًا للتقارب بين الشعوب التي تعيش في الزمن نفسه؛ ذلك أن الفن -كما يقول الفيلسوف المعروف ميرلو بونتي[١]- وحده «هو الفلسفة الحقَّة التي تتناول العالم؛ فالمصوِّر وحده هو الذي يُدرك العالم، ويجعلنا ندرك العالم»[٢].

ولقد أدَّت الثورة التقنية الحديثة إلى أن صارت الأعمال الفنية تستطيع الانتشار بسرعة غير مسبوقة في كل أرجاء الأرض، وصارت الأفلام والمسلسلات الأميركية -لا سيما الواقعية والاجتماعية- من أكثر الوسائل الفعَّالة في نقل صورة وثقافة المجتمع الأميركي، كما أن المسلسلات اليابانية كانت الطريق الأقصر للتعريف باليابانيين وآدابهم وتهذبهم وإنسانيتهم[٣]، والمسلسلات التركية هي التي فتحت -مؤخرًا- عهدًا جديدًا في علاقة

---

(١) موريس ميرلو بونتي (١٩٠٨-١٩٦١م): فيلسوف فرنسي، وأحد أعلام الفلسفة الوجودية الفرنسية بعد جان بول سارتر، من أهم كتبه: (بنية السلوك)، و(فينومينولوجيا الإدراك).

(٢) ميرلو بونتي: العين والعقل، ص٧.

(٣) كانت التجربة الأولى للمسلسلات اليابانية على الشاشات العربية متمثلة في عرض المسلسل الياباني «أوشين» على التليفزيون المصري والسعودي، وحقق نجاحًا مدهشًا، ولفت النظر إلى العالم الياباني إلى الحدِّ الذي تَعْرِف فيه الأوساطُ الشعبية المصرية اليابانيات باسم «أوشين»، عُرِضَ هذا المسلسل في ٥٩ دولة عبر العالم. للمزيد انظر: حسام تمام: عن الاستثناء الياباني في السياحة! - شبكة إسلام أون لاين. نت (www.islamonline.net) بتاريخ ٢٨/ ٤/ ٢٠٠٩م.



الشعوب العربية بالشعب التركي[١]، وكذلك الأفلام الهندية التي تُحقِّق أرباحًا كبرى في العالم الغربي وفي أميركا، وفي العالم العربي تمثِّل هذه الأفلام السفير الأول للشعب الهندي، وأيضًا الأعمال الفنية الصينية التي تسحر الغربيين بما يرونه من حضارة مختلفة غريبة عن الذوق الغربي[٢].

إن هذا التأثير الخطير جعل مؤرِّخ الفن المعروف أرنولد هاوزر يُطلق على التاريخ الاجتماعي للفنِّ في القرن العشرين لقب «عصر الفيلم»، بل جعل لينين يُصرح بأن «السينما هي أهمُّ الفنون بالنسبة لنا». وليس بعيدًا عن هذا أن ينظر الرئيس الأميركي بيل كليتنون إلى الممثل الأميركي الشهير شين كونري -وهو الذي قام بتمثيل شخصية جيمس بوند- قائلاً له: «لولاك ما كسبنا الحرب الباردة»[٣].

إنه تأثير ليس بوُسع باحث جادٍّ أن يتجاهله وهو يرصد حركة المجتمعات، بل إن باحثًا مثل جوزيف براودي وهو يُحَلِّل المجتمع العراقي بُعيْد الحرب الأميركية التي سقط فيها نظام صدام حسين، لم يَسَعْه إلاَّ أن يُفرد فصلاً كبيرًا لتاريخ التأثير الفني في العراق، والذي كان مصريًّا خالصًا بادئ الأمر، وحتى المجهودات الأميركية في استخدام الإعلام لتوصيل رؤيتها للشعب العراقي[٤].

وتبدو الشعوب غير القادرة على صناعة الفنون وتقديم نفسها في أعمال مختلفة، هي الشعوب الأسوأ حظًّا والأكثر عرضة لتشويه صورتها، ونحن نرى بوضوح كيف كشفت

---

(١) نقلت صحيفة اليوم السابع المصرية الصادرة في ٢٥/ ٥/ ٢٠١٠م عن صحيفة «حريت» التركية، قولها: إن إسطنبول أصبحت المقصد الأول لإقامة حفلات الزفاف للأثرياء العرب، وذلك بفضل المسلسلات التركية التي حققت شعبية كبيرة في العالم العربي.

(٢) للمزيد عن السينما الصينية، انظر: محمد عبيدو: أضواء على السينما الصينية، منشور بمجلة الحوار المتمدن، العدد (١٥٣٦)، بتاريخ ٣٠/ ٤/ ٢٠٠٦م، وانظر: تقرير جريدة الشعب الصينية عن «السينما الصينية في مهرجان كان»، في عددها الصادر في ١٣/ ٥/ ٢٠١٠م، من نسختها العربية على الإنترنت (http://arabic.people.com.cn).

(٣) يحيى عزمي: التطور التكنولوجي لفن السينما عبر مائة عام، بحث منشور ضمن كتاب «حصاد القرن»، تحرير: محمد شاهين، وإشراف: فهمي جدعان، ص٣٢٠.

(٤) انظر: جوزيف براودي: العراق الجديد، فصل بعنوان: «إعادة تصوير المشهد البابلي: السينما العراقية ونشاطات الترفيه والتسلية». ص٢٤٧-٢٦٥.

أحداث الحادي عشر من سبتمبر عن جهل رهيب لدى الغربيين بطبيعة الإسلام والشعوب المسلمة، فضلاً عمّا أُنتج من أعمال فنية تُعَبِّر عن عمق الغياب العربي والإسلامي عن الشعوب الغربية[١].

ونتوقَّع أنه لو كانت الشعوب المسلمة قادرة على صناعة فنون ذات قيمة، وتُعَبِّر بأصالة عن نفسها، وتتحقَّق فيها شروط العمل الفني الجذَّاب لاستطاعت توقِّي الكثير من الآثار السلبية، وإزالة ما تَبَقَّى من آثار الكراهية المترسِّبَة حتى الآن منذ العصور الوسطى؛ ذلك أن الفن النابع عن طبيعتها الإسلامية فنٌّ متميِّز، منطلق من منظومة فكرية تشتاق إليها قلوب الذين سئموا المنظومات المادية، أو بعبارة الأستاذ محمد قطب[٢]: «الفن الإسلامي المعبِّر عن رُوح الإسلام الشاملة، لا يُحِبُّ هذا التمزيق المشوَّه لكيان البشر وكيان الحياة، بل يُحِبُّ أن يَعْرِضَ الحياة البشرية في شمولها المتكامل، الذي يشمل كل جوانب النفس الإنسانية الفاعلة في هذا الوجود، المنفعلة به، المتصلة دائمًا بما وراء حواجز الحسِّ القريبة، الواصلة بفطرتها إلى فطرة الوجود الكبير... تصوير الحياة البشرية على النطاق الواسع، الذي لا يقف عند حدود الأرض القريبة، وإنما يتعدَّاها إلى ناموس الوجود الأكبر، ويصلها بالله خالق الحياة والأحياء، يُضفي عليها -ولا شَكَّ- جمالاً لا تعرفه معظم الفنون الحديثة التي تقطع الأرض بالسماء»[٣].

وليس هذا توقُّعًا من قبيل التمنِّي والحلم، بل هو ما نجزم به على سبيل القطع؛ فالفن الإسلامي الذي أبدعته الحضارة الإسلامية، ما يزال حتى الآن وسيلة فاعلة في التأثير على مَنْ يُشاهدها، وإعطائه انطباعًا حسنًا عن الحضارة الإسلامية، بل ربما كان هذا مدخله لمعرفة عظمة هذه الحضارة، وفي كل الأحوال يُؤَدِّي هذا إلى إعادة الاعتبار لصانعيها، والتعرُّف عليهم وإعادة مراجعة الأفكار السلبية المترسِّخَة عنهم.

---

(١) نشر الباحث الأميركي من أصل لبناني جاك شاهين كتابه: «العرب الأشرار في السينما: كيف تُشَوِّه هوليود شعبًا Reel Bad Arabs: How Holly wood vilifies a people» في عام ٢٠٠١م، ومن قبله في مجلة الأكاديمية الأميركية للسياسة والعلوم الاجتماعية، وهذه الدراسة ترتكز على أكثر من تسعمائة فيلم منذ عام ١٨٩٦م، فكانت النتيجة صورة في الغاية من التشوه والسوء.

(٢) محمد قطب: هو محمد قطب إبراهيم (١٩١٩م-..)، أحد أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، وهو أخو الشهيد سيد قطب، من مؤلفاته: (الإنسان بين المادية والإسلام)، و(واقعنا المعاصر).

(٣) محمد قطب: منهج الفن الإسلامي، ص١٣٤.

لقد وقف كثير من الباحثين مبهورين أمام ما تَبَقَّى من آثار الفنون الإسلامية، وبدا ول ديورانت -على سبيل المثال- مشدوهًا، وهو يقول: «تَخَطَّى الفنُّ الإسلامي كل حدود الزمان والمكان، وكان يَسْخَرُ من التمييز بين العناصر والأجناس، وأنتج طرازًا فذًّا ولكنه متعدِّد الأنواع، وعبَّر **عن الروح الإنسانية بأناقة موفورة فيَّاضة**، لم يَفُقْهَا شيء من نوعها حتى ذلك الوقت»[(١)]. وماذا نتوقَّع أن يكون انطباع من يقرأ لجوستاف لوبون، وهو يقول بأن الفنون الصناعية شائعة بين العرب في كل مكان، وأن الأشياء التي يصنعها العرب صنعوها بروعةٍ تدلُّ على اتِّصَاف أحقر صناعتهم بالذوق الفني[(٢)].

وهذه الحال نفسها بالنسبة للشعوب الإفريقية، وكثير من الشعوب الآسيوية، وشعوب أوربا الشرقية -حتى روسيا- وأميركا الجنوبية، فكل هذه الشعوب لم تستطع بعدُ أن تُسَوِّق لنفسها بشكل واسع يُتَعَرَّف عليها من خلاله؛ مما يجعل عدد مَنْ يُفَكِّرون في التقارب بين شعوبهم والشعوب الغربية -ذات التأثير الفني- أكبر بكثير ممن يُفَكِّرون في التقارب بين شعوبهم وهذه الشعوب المجهولة، فمن النادر أن تجد إفريقيًّا يتحدَّث عن التقارب مع شعوب وسط آسيا، أو مع شعوب أميركا اللاتينية، والعكس صحيح، بينما يكثر عدد المتحدِّثين عن التقارب مع الشعوب الغربية.

***

إن غريزة «حب التعارف» التي خلقها الله في الناس هي الأساس العميق لنجاح الأعمال الفنية، التي صُنِعَتْ في بيئة وسياق ثقافي مُعَيَّنٍ؛ إذا ما عُرضت في بيئة أخرى وسياق ثقافي مختلف تمامًا، ومن هنا ينبغي الاهتمام بهذا الجانب لكلِّ مَنْ أراد التعايش والسلام بين الشعوب.

إن المفكِّرين والكُتَّاب حين يكتبون في أدب الرحلات، أو عن طبائع الشعوب لا يلفت نظرهم إلاَّ هذه المساحة من الاختلاف بين بيئته وبين مَنْ يكتب عنهم، وهذا الأمر في حدِّ ذاته يجعل من الآخر شيئًا غريبًا، وقد تكون الرسالة الضمنية أن «التعايش معه عسير»، وهذا في

---
(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٢٤٠.
(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٥٠٧.

أحسن الأحوال، ولكن من الوارد أن تبلغ الأحوال من السوء ما يجعل الآخر شيطانًا يجب محاربته وقهره والتخلُّص منه، لا سيما إن كان هذا يُكتب بوحي من تعصُّبٍ أو سياسةٍ أو لغرض آخر.

وبالطبع لا يمكننا أن نُعَمِّمَ هذا على كل كتاب الرحلات، فثمة رحلات كثيرة كانت أعمالاً علمية قوية؛ ككُتب الرحّالة المسلمين التي احتفظت لنا -كما يقول لويس سيديو[1]- بما «لا يُقَدَّر بثمن عن تاريخ القرون الوسطى»[2]. وثمة رحلات كانت فارقة في مسار العلاقة بين الشعوب، أو على الأقل فارقة في الرؤية والتفكير؛ مثل كتاب رفاعة الطهطاوي[3] «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، وغيره، ولكن القراءة في أدب الرحلات هو في عمومه قراءة لـ«مساحة الاختلاف»، لا لمساحة التشابه والالتقاء.

ولكن العمل الفني الذي يُرَكِّز في جوهره على التعبير عن المجتمع وأعماقه، فيُلامس بهذا الإنسانية الكامنة في كل البشر، يستطيع -ربما دون أن يقصد- أن ينشئ جسور التواصل مع الإنسان الآخر في أي منطقة على هذه الأرض، ومهما كانت البيئة الثقافية؛ لأنه صادق في التعبير عن المشترك وهو الإنسان وهمومه، ترى هل هذا السبب في أن الأفلام التسويقية والسياحية لا تُحَقِّق أي نجاح بالمقارنة بالأعمال السينمائية والتليفزيونية؟! هل لأنها مصنوعة من البلاستيك، ومملوءة بمساحيق الزينة، وليست من العنصر البشري الحيِّ؟ أستطيع أن أقول: نعم.

لقد استطاعت هذه الغريزة -غريزة حُبِّ التعارف- أن تُوَسِّعَ نطاق العمل الفني، فصار من الظواهر المعروفة الآن أن تتمَّ أفلام المغامرات أو الأفلام البوليسية في أراضي دول أخرى وبيئات أخرى، فيُصبح من العناصر الجذابة الإضافية ما تُمَثِّلُه هذه البيئة الأخرى من اختلاف وتنوُّع؛ وهذا مما يُحَقِّقُ قدرًا أكبر من الأرباح، ويُثبت أن الإنسان متشوِّق دائمًا للتعرُّف على

---

(١) لويس سيديو Sudaio (١٨٠٨-١٨٧٥م): مستشرق فرنسي، تعلَّم اللغات الشرقية والرياضيات، ونشر أبحاثًا عن تاريخ الرياضيات والفلك والجغرافيا عند العرب. انظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين ص٣٤٥.

(٢) لويس سيديو: تاريخ العرب العام، ص٤٢٥.

(٣) رفاعة الطهطاوي: هو رفاعة رافع الطهطاوي (١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ = ١٨٠١ - ١٨٧٣م)، أحد رواد النهضة العلمية العربية بل إمامها في مصر، أشهر كتبه: (تخليص الإبريز في تلخيص باريز).



الإنسان المختلف عنه، حتى لقد رصد تقرير لمجلة الصين المصوَّرة كيف انتقلت الصين بأطعمتها وملابسها وآثارها ورموزها إلى أوربا وأميركا، عبر عدد من الأفلام الأميركية، التي صُوِّرَتْ في الصين، أو استعانت بمشاهد تعرَّضت للثقافة الصينية(١).

بل تَطَوَّر الحال بصُنَّاع السينما إلى الخروج من الواقع الحقيقي، ومن كوكب الأرض لصناعة أفلام تعيش على كواكب أخرى؛ ومؤخَّرًا حدث تطوُّر جديد ومبشِّر، فلقد انتقل هذا الخيال العلمي من مرحلة الصراع مع الكائنات الخارجية -التي تُريد احتلال الأرض وتدمير حياة البشر- إلى مرحلة ورؤية جديدة أكثر التقاءً وبحثًا عن التعايش وفهم الآخر، تمثَّلت في فيلم «أفاتار Avatar»(٢)، الذي عُرِضَ أواخر ٢٠٠٩م، وحقَّق نجاحًا فنيًّا كبيرًا، وكذلك أرباحًا هي الأعلى في تاريخ السينما(٣)، برغم أنه نَقْد صريح وحادٌّ للرؤية الأميركية المركزية(٤).

***

لقد أصبح التقريب بين الشعوب عبر الأعمال الفنية من الحقائق الواقعية؛ فالعمل الفني الواحد قد يجمع بين أفراده عشرات الجنسيات، وقد يتكرَّر إنتاجه فيجمع غيرهم بعد سنين أخرى.

عُرِضَ في مصر مؤخَّرًا فيلم «الولد الخارق»، وهو الفيلم الذي بدأ يابانيًّا خالصًا؛ حيث بدأ كتابته أوسامو تزوكي كقصص في عام ١٩٥٢م، ثم تحوَّل إلى مسلسل رسوم متحرِّكة في

(١) تقرير بعنوان: «رموز صينية في السينما العالمية»، مجلة الصين المصورة، النسخة العربية، بتاريخ ٦/ ٢/ ٢٠٠٩م.

(٢) يحكي فيلم «أفاتار» عن تعرُّف البشرية على كوكب جديد به مخزون من الطاقة، وشعبه متخلف عن البشر، قامت القوات الأميركية بالنزول إلى هذا الكوكب واحتلاله، وفي محاولتهم فهم وإقناع هذا الشعب بالاستسلام وقبول الاحتلال تم زرع عملاء، ولكن ما يلبث التطور الدرامي يتحوَّل إلى أن يقع العميل في حب واحدة من أبناء هذا الشعب، ويقتنع بضرورة التعايش، وبأنَّ ما فعلته بلاده هو نوع من الاحتلال، فيقود مقاومة هذا الشعب إلى أن يتحقَّق جلاء الاحتلال الأميركي من هذا الكوكب.

(٣) حقق الفيلم أكثر من ملياري دولار منذ ديسمبر ٢٠٠٩م، ليُحَقِّق أعلى عائدات لفيلم في التاريخ متقدمًا على فيلم «تيتانيك»، وفاز بثلاث جوائز أوسكار. صحيفة الدستور المصرية، بتاريخ (٢، ٨/ ٣/ ٢٠١٠م).

(٤) رامي عبد الرازق: أفاتار.. عن الفلسطينيين والهنود الحمر والعراقيين في مواجهة المستعمر. صحيفة المصري اليوم، بتاريخ ٢/ ١/ ٢٠١٠م.

عام ١٩٦٣م، وبعدها بعام أُنتج كفيلم كارتون، ثم أُنتج كمسلسل في عام ١٩٨٠م، وكمسلسل آخر بعد ربع قرن تقريبًا عام ٢٠٠٣م، وما يهمنا في هذا أن نسخته الأخيرة في ٢٠١٠م كان أبطالها مجموعة من أشهر الممثلين الأميركان، وفي كل لغة يُدَبْلَجُ إليها يجمع إليه جنسيات أخرى(١).

وكذلك فيلم «الحاضرة Metropolis»، وهو من أفلام الرسوم المتحركة، أُنتج مؤخَّرًا، وكان من وحي المسلسل الكوميدي الياباني الذي أُنتج عام ١٩٤٩م، وكان يقتبس الأساطير البابلية العراقية القديمة، ومثل هذا ما يُرى من اندماج الأفكار السومرية القديمة مع الخيال العلمي في الأعمال الدرامية الإذاعية، التي تنتجها شركة المسرح المسموع ZBC، وفي روايات الكاتب نبيل ستيفنسون(٢).

***

ومن المساحات التي ساهمت بها الفنون في التقريب بين الشعوب المختلفة ما أحدثته من مهرجانات عالمية تعرض الأعمال الفنية من مختلف أنحاء العالم، ويتمُّ التحكيم فيها بواسطة شخصيات متعدِّدَة الجنسيات والثقافات والحضارات، ومن قواعدها أن تُكَرِّم الأعمال الفائزة والفنانين المتميزين، بغضِّ النظر عن الفوارق الجنسية والثقافية والعرقية.. وغيرها، وتكون المهرجانات فرصة متميِّزة للقاء هؤلاء البشر، الذين يُمَثِّلُون هذا التنوُّع البشري العريض؛ ومن ثَمَّ فهي فرصة لمزيد من التعاون والتقارب متعدِّد الثقافات.

وعلى سبيل المثال ففي الدورة الأخيرة من مهرجان كان السينمائي الفرنسي العالمي، فاز بجائزة «السعفة الذهبية» فيلم تايلاندي «العم بونمي»، وبالجائزة الثانية فيلم فرنسي «عن الآلهة والرجال»، وفاز بجائزة لجنة التحكيم فيلم تشادي «رجل يصرخ ليس دبًّا يرقص» للمخرج محمد صالح هارون، وفاز بجائزة التمثيل مناصفة إيطالي «إيليو جيرمانو» وإسباني «خافيير بارديم»، وبجائزة الممثلة فرنسية «جولييت بينوش»، وبجائزة السيناريو كوري

(١) جريدة اليوم السابع المصرية ١٨/ ٤/ ٢٠١٠م.
(٢) جوزيف براودي: العراق الجديد، ص٢٦١.

جنوبي «لي تشانج دونج»[١]، وإذا نظرنا في قائمة الفائزين بجوائز مهرجان كان منذ بدايته، فإننا نستطيع أن نَعُدَّ خمسًا وعشرين جنسية (أوربية وآسيوية وأميركية) فازت بالجائزة الأولى «السعفة الذهبية»، وهذا ما يضعنا أمام غابة من الحضارات والثقافات التي التقت في هذه الساحة العالمية[٢].

وهذا بخلاف المهرجانات الأخرى حول العالم؛ ومنها: المهرجان الدولي للفيلم بمَرَّاكُش، مهرجان برلين السينمائي، مهرجان الخليج السينمائي، مهرجان الرباط الدولي لسينما المؤلف، مهرجان بوسان السينمائي الدولي، مهرجان دبي السينمائي الدولي، مهرجان دمشق السينمائي الدولي، مهرجان صاندانس السينمائي (وهو أكبر مهرجان خاص في أميركا)، مهرجان فاميك للسينما العربية (يُقام في فرنسا)، مهرجان فيزول الدولي للسينما الآسيوية (يقام في مدينة فيزول الفرنسية) [٣].

إن هذه المساحة -مساحة المهرجانات العالمية- هي من حيث المبدأ مساحة ممتازة للتواصل، أمَّا ما يشوبها من بعض الممارسات والسلوكيات والإقصاء المتعمَّد لبعض الأطراف والثقافات والآراء، أو عرض ما هو مخالف للآداب الإنسانية، فهي تفاصيل ينبغي أن تُدَان وأن تُصَحَّح؛ حتى تقوم رسالة التعاون والالتقاء بواجبها على أفضل حال.

***

غير أنه ينبغي لهذه المساحة من المشترك العامِّ أن تُراعي بعض الضوابط؛ لكي لا تتحوَّل من ساحة التقاء إلى ساحة افتراق، وإشعال للمعارك؛ وأهم هذه الضوابط ألاَّ تتدخَّل الفنون في مهاجمة معتقدات وثقافات ومقدسات فريق من البشر، لا سيما في المحافل العامَّة والعالمية، وقد رأينا كيف اشتعلت الأجواء بين العالم الإسلامي وبين الدنمارك من أجل رسومات كاريكاتيرية أساءت لشخص النبي ﷺ، الذي هو أحب إلى المسلمين من آبائهم وأمهاتهم وأنفسهم، ووضعت الدنمارك نفسها في خانة العداوة مع العالم الإسلامي، ولم يكن ثمة ما

(١) وكالة رويترز للأنباء بتاريخ ٢٤/ ٥/ ٢٠١٠م.
(٢) انظر: أرشيف المهرجان، على موقع مهرجان كان (www.festival-cannes.fr).
(٣) الموسوعة الحرة «ويكيبيديا».

يُبَرِّر ذلك، فضلاً عن أن تكون ثمة مصلحة قد تحقَّقَتْ، والأغرب من ذلك أن تُكَرِّر النرويج الفعل نفسه، وكلتا الدولتين ليس بينهما وبين العالم الإسلامي سابق عداوة.

لقد كَلَّفت هذه الأزمة -وفي أيامها الأولى- الاقتصاد الدنماركي خسائر تُقَدَّر بـ ١٣٤ مليون يورو، وانخفضت الصادرات لأكبر سوق للدنمارك في العالم الإسلامي وهي المملكة العربية السعودية بما نسبته ٤٠٪، كما انخفضت بنسبة ٤٧٪ في إيران، ثالث أكبر أسواقها في المنطقة، كما شهدت حركة الصادرات لكل من ليبيا وسوريا والسودان واليمن تَقَلُّصًا شديدًا[١]، هذا غير التوتُّرات السياسية، ومسلسل سحب السفراء المتبادل مع السعودية وإيران وإندونيسيا وسوريا[٢].

ما الذي كان يستحقُّ كلَّ هذا؟!

إن مساحة المشترك الأسمى التي تتمثَّل في العقائد والمقدسات ينبغي أن تظلَّ بعيدة عن التناول، إلاَّ في أجواء الهدوء والبحث والنقد العلمي، مع توفُّر مظلَّة الحوار المتكافئ، الذي لا يرتفع فيه أحد ليرى نفسه جديرًا بالأمر والنهي، وتحديد ما يجوز وما لا يجوز؛ إن مساحة الفنِّ مساحة جماهيرية بطبيعتها، تستهدف الإثارة وتهتمُّ بتحقيق الصدمة والمفاجأة الفنية، وتُجيد التعامل في مساحة الأبيض والأسود، ولا تناسبها المساحات الرمادية، وتضيق عن مناقشة التفصيلات والتعقيدات؛ لذا فهي لا تصلح لأن تكون منبرًا يتناول الخصوصيات الثقافية والحضارية والمقدسات الدينية للشعوب الأخرى.

قد يناسب المجتمع المسيحي أن يعرض فيه فيلم مثل «آلام المسيح»[٣]، ولكنه يصنع أزمات حين يُعرض في مجتمعات ترفض الرواية التي يعتمدها الفيلم، وتؤمن بغيرها تبعًا لقناعاتها الدينية، كما قد يُناسب بعض المجتمعات أن تُعرض فيها أعمال لا تعني بالجانب الأخلاقي فتزيد فيها مساحات الجنس أو العنف، إلاَّ أن هذه الأعمال نفسها تمثل أزمات بالغة

(١) تقرير لشبكة BBC بتاريخ ٩/ ٩/ ٢٠٠٦م.
(٢) تقرير لشبكة الجزيرة نت ١١/ ٢/ ٢٠٠٦م.
(٣) أُنتج في عام ٢٠٠٤م، كتبه وأنتجه وأخرجه الممثل الأميركي ميل جيبسون.

في المجتمعات المحافظة، وهنا ينبغي أن تُحترم الخصوصيات الدينية والثقافية للشعوب الأخرى.

يمكن للفنِّ -كما لكل شي آخر- أن يكون مساحة تواصل بين الشعوب، مثلما يمكنه أن يكون سلاحًا فتَّاكًا يُشعل المعارك ويُؤَجِّجُها ويُحافظ عليها مشتعلة ملتهبة، المهمُّ هو ماذا نريد نحن بني البشر أن نفعل به؟! إن حوارًا كبيرًا يجب أن يقوم بين المفكِّرين والعقلاء في هذا العالم؛ لوضع ميثاق شرف يُمَثِّل الحدَّ الأدنى من الالتزامات، التي يجب على الساحة الفنية أن تُراعيها، وفي اعتقادنا أنها مساحة «المشترك العام»، التي يُمَثِّل انتهاكُها اختراقًا للطبيعة البشرية وحقوقها الفطرية، مضافًا إليها مساحة «المشترك الأسمى»، التي يُمَثِّل الاعتداء عليها اعتداءً على الخصوصية المقدسة العميقة الغائرة في وجدان الأُمَّة؛ إنه ليس من مصلحة أحد أن يكون الفنُّ سلاحًا في معركة.

***

الرياضة

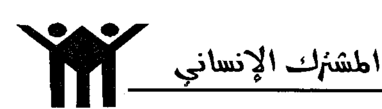
الرياضة من «المشتركات الداعمة»؛ ذلك أنها من المشتركات العامَّة التي تجمع بني الإنسان ولا تتسبب في نشوب صراعات إنسانية إلاَّ في حالات نادرة، فاللهو واللعب -الذي تطوَّر فيما بعدُ إلى الرياضة- شيء يُعلن عن نفسه في حياة الإنسان، حتى قبل أن يستعلن العقل نفسه؛ حتى الطفل الصغير يُثبت بسلوكه الفطري النقي والخالي من أي أفعال ذات نية أو مغزًى مقصود، أن الطبيعة الإنسانية تميل إلى اللهو واللعب، وهي الطبيعة التي تستمرُّ مع الإنسان حتى اللحظات الأخيرة؛ لكنها تدخل تحت سيطرة العقل في مراحل النضج.

وربما من المناسب أن نذكر قصة أحد الفلاسفة الكبار؛ كمثال في هذا الصدد، فحين حاول جيمس مِل[1] تلميذ بنثام -فيلسوف مذهب النفعية- أن يصنع ولده جون فيلسوفًا منذ صغره كبنثام، طَبَّق عليه فلسفة النفعية بلا رحمة، فحرمه من اللهو واللعب لحساب المعرفة والثقافة، وما أن بلغ الغلام أربعة عشر عامًا حتى كانت له معارف وثقافة ذي الثلاثين، ولكن «كان من الطبيعي أن تُؤَدِّي هذه التجربة المخيفة إلى إصابته بانهيار عصبي قبل أن يبلغ الحادية والعشرين»، ثم شكا في مرحلة أخيرة من حياته قائلاً: «لم أكن طفلاً أبدًا، ولم ألعب الكركيت في حياتي»[2].

لقد ثبت علميًّا ضرورة ممارسة الرياضة وأهميتها بالنسبة للإنسان، وهذه الضرورة تشمل الجانب الصحي المادِّيّ، كما تشمل -أيضًا- الجانب النفسي الروحي؛ فالتمرينات الرياضية الخفيفة كالمشي والسباحة من الأشياء التي تُساعد على التنظيم الفسيولوجي لأعضاء الجسم، كما أنها تزيد من حيوية الجسم والطاقة والنشاط، والمثابرةُ على التمرينات الرياضية تقوم بدور رئيس في تحقيق

(١) جيمس مل (١٧٧٣-١٨٣٦م): مؤرخ اقتصادي، ومنظر سياسي، وفيلسوف أسكتلندي، مؤسس علم الاقتصاد الكلاسيكي، والد الفيلسوف الشهير جون ستيوارت مل.

(٢) براترند راسل: حكمة الغرب، ٢/ ١٦١، وتوفيق الطويل: مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، ص١٣٧، وما بعدها.



الاسترخاء، الذي يُساعد بدوره على الهدوء والوقاية من الأمراض النفسية والجسمية والنوم الهادئ، وكما أن الرياضة تُساعد الجسم على امتصاص الفيتامينات والمعادن المختلفة؛ مما يُحسِّن قدرة الجهاز المناعي، فإن التمتُّع بلياقة بدنية عالية يَزيد من القدرة على مواجهة الضغوط والتوتُّر، ومن المعروف أن كثيرًا من الوظائف الجسمية ترتبط على نحو مباشر بالناحية النفسية؛ كوظائف القلب والرئة والدورة الدموية[(١)].

ونحن نجد موضوع الرياضة -ولو على سبيل الترفيه والتسلية- من الأمور المشتركة بين الأديان والفلسفات والحضارات الإنسانية، وفي الإسلام نقرأ أن النبي ﷺ مارس الرياضة، وقد مارسها في الجدِّ كما مارسها في الترفيه والمزاح؛ ومن أمثلة الجدِّ ما جاء عنه ﷺ أنه خرج على قوم من أسلم يَتَنَاضَلُونَ[(٢)] بالسوق، فقال: «**ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ؛ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا، وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ**». لأحد الفريقين، فأمسكوا بأيديهم فقال: «**مَا لَهُمْ؟**». قالوا: وكيف نرمي وأنت مع بني فلان؟ قال: «**ارْمُوا وَأَنَا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ**»[(٣)]. وعن عقبة بن عامر[(٤)] رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «**﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾** [الأنفال: ٦٠] **أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**»[(٥)]. وأمَّا في المزاح والتسلية، فقد روت عائشة رضي الله عنها أنها كانت مع النبي ﷺ في سفر، قالت: فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ على رجلي، فلما حَمَلْتُ اللحم سابقته فسبقني، فقال: «**هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَةِ**»[(٦)].

---

(١) عبد الستار إبراهيم: الاكتئاب، ص١٨٧، ١٨٨.

(٢) تَناضل القوم: رَمَوْا للسَّبْق، أي يتسابقون في الرمي. الجوهري: الصحاح، باب اللام فصل النون ٥/ ١٨٣١، وابن منظور: لسان العرب، مادة نضل ١١/ ٦٦٥، والمعجم الوسيط ٢/ ٩٢٩.

(٣) البخاري: كتاب المناقب، باب نسبة اليمن إلى إسماعيل (٣٣١٦) عن سلمة بن الأكوع، وأحمد (١٦٥٧٦)، وابن حبان (٤٦٩٣)، والبيهقي (١٩٥٣٩).

(٤) عقبة بن عامر: هو عقبة بن عامر بن عبس بن عمرو الجهني، صحابي مشهور، يُعرف برديف النبي ﷺ، شهد صفين مع معاوية، وحضر فتح مصر مع عمرو بن العاص، وولي مصر سنة ٤٤ هـ، وعُزل عنها سنة ٤٧هـ، وولي غزو البحر، كان شجاعًا فقيهًا شاعرًا قارئًا، من الرماة، وهو أحد مَنْ جمع القرآن، توفي بمصر سنة (٥٨هـ=٦٧٨م). انظر: ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٥٢٠، الزركلي: الأعلام ٤/ ٢٤٠.

(٥) مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه (١٩١٧)، وأبو داود (٢٥١٤)، والترمذي (٣٠٨٣)، وابن ماجه (٢٨١٣)، وأحمد (١٧٤٦٨).

(٦) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في السبق على الرجل (٢٥٧٨)، وأحمد (٢٦٣٢٠)، والبيهقي (١٩٥٤٣)، وابن حبان (٤٦٩١) وصححه الألباني في التعليق على سنن أبي داود، وقال شعيب الأرناءوط في التعليق على مسند أحمد: إسناده جيد.

ويصف الكتاب المقدس الرياضة بأنها نافعة؛ فقد جاء في رسالة القديس بولس الأولى إلى تيموثاوس تصريحٌ بأن الرياضة نافعة، ثم يستخدم هذه الحقيقة في الإشارة إلى النفع الأعلى؛ «لأن الرياضة الجسدية نافعة لقليل، ولكن التقوى نافعة لكل شيء»[١]. وبهذا المثل نفسه خاطب أهل كورنثوس في رسالته الأولى فقال: «ألستم تعلمون أن الذين يركضون في الميدان جميعهم يركضون، ولكنَّ واحدًا يأخذ الجعالة[٢]، هكذا اركضوا لكي تنالوا»[٣].

وفي هذه الرسالة نفسها توضيح لفلسفة العناية بالجسم، «الذي يزني يخطئ إلى جسده، أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للرُوح القدس الذي فيكم، الذي لكم من الله، وأنكم لستم لأنفسكم؛ لأنكم قد اشتريتم بثمن، فمجِّدُوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله»[٤]. ثم تأتي وصيته الواضحة في رسالته لأهل أفسس في قوله: «لم يُبغض أحد جسده قط، بل يَقُوتُهُ ويُرَبِّيه»[٥].

ولعلَّ من اللافت للنظر في تاريخ الإنسانية أن بعضًا من الضروريات الحياتية تحوَّلت بعد تطوُّر وسائل إشباعها إلى مادَّة للترفيه؛ ومثال ذلك الصيد؛ فلقد بدأ الصيد في حياة البشرية كضرورة تقتضيها الحاجات الأساسية للإنسان: الطعام والشراب والثياب، ثم لَمَّا استطاع الإنسان إشباع هذه الحاجات بغير طريق الصيد صارت هذه الضرورة نوعًا من الرياضة والهواية، بل نوعًا من الرياضات «الأرستقراطية»، التي تمارسها في الغالب الطبقات الاجتماعية الراقية[٦].

ولقد وضع المفكر الإنجليزي -المتخصِّص في فلسفة الرياضة- جون لوي (John Loy) إطارًا تصوُّرِيًّا لتوضيح العلاقة بين المفاهيم الثلاثة الرئيسية: اللعب play، الألعاب games، الرياضة sport، ولقد تصدَّر مفهوم اللعب -كمفهوم قَبْلِيٍّ- كلاًّ من الألعاب

---

(١) رسالة القديس بولس الأولى إلى تيموثاوس ٤/ ٨.

(٢) الجعالة: الأجر على الشيء فعلاً أو قولاً. ابن منظور: لسان العرب، مادة جعل ١١/ ١١٠.

(٣) رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ٩/ ٢٤.

(٤) رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ٦/ ١٨-٢٠.

(٥) رسالة القديس بولس إلى أهل أفسس ٥/ ٢٩.

(٦) ول ديورانت: قصة الحضارة ٦/ ٣٨٦.



والرياضة؛ باعتبار اللعب هو أصل الظاهرة الرياضية وجوهرها، وأن الألعاب ما هي إلاَّ طور وسيط بين اللعب بصورته الساذجة الفجَّة، والرياضة بصورتها النظامية المنضبطة[١].

فاللَّعِبُ هو الممارسة الشخصية غير المنتجة؛ مثل: الوثب، أو العبث في الماء، أو التزحلق، أو تسلق الأشجار، أمَّا الألعاب فهي التي تظهر فيها المشاركة وأجواء التنافس، وتحتاج إلى قدر أعلى من المهارة أو التفكير، وتحكمها قواعد؛ مثل: التحطيب، والتسابق.. وما شابه، وأمَّا الرياضة فهي الشكل الأكثر تنظيمًا وتقنينًا، والأكثر حاجة إلى المهارة والتدريب، والأكثر استعراضًا للمهارات والقدرات[٢].

وما يهمنا في هذا المقام أن نذكر أن هذه المراحل إنما تُعَبِّر عن التطوُّر الذي رُصد في مسيرة الشعوب تاريخيًّا، فهي -إذًا- تعبير عن «المشترك الإنساني العام»، الذي نراه في طبيعة الإنسان مهما اختلف العصر أو البيئة أو الثقافة، كما أنها مراحلُ تُفضي في تطوُّرها الأخير -وهو الرياضة- إلى مساحة واسعة من مجالات الالتقاء والتقارب بين الشعوب.

ومن أبرز ما نراه في التطوُّر الحضاري للرياضة ويُمَثِّل نقطة تاريخية مضيئة، ما كان في حضارة اليونان، وهي الحضارة الشهيرة بفنون الرياضات والألعاب؛ إذ كانت الحروب تتوقَّف في زمن انعقاد المباريات الكبرى في «أوليمبيا»، وهي المباريات التي تُعقد في كل أربع سنوات، ويشترك فيها لاعبون من جميع بلاد اليونان؛ وفي مرحلة لاحقة كان بين الفائزين لاعبون من جميع البقاع الممتدة من سينوب إلى مرسيلية؛ وأصبح عيد زيوس -حيث ذروة الاحتفالات الرياضية- على مرِّ الزمان يومًا مقدسًا دوليًّا، وكان الشهر الذي يقع فيه هذا العيد شهرًا حرامًا، يتهادن فيه المحاربون في جميع بلاد اليونان، ويفرض فيه الإيليون غرامات على كل دولة يونانية يلحق في أرضها أذى بأي قادم إلى هذه الألعاب، وقد أدَّى فيليب المقدوني[٣] هذه الغرامة عن يدٍ وهو صاغر؛ لأن بعض جنوده سرقوا مال أثيني وهو في طريقه

(١) أمين الخولي: الرياضة والمجتمع، ص١٥.

(٢) السابق ص١٦.

(٣) فيليب المقدوني: هو فيليبوس الثاني المقدوني (٣٨٢-٣٣٦ ق. م)، حكم مقدونيا القديمة من سنة ٣٥٩ ق. م إلى وفاته سنة ٣٣٦ق. م، وهو والد الإسكندر الأكبر.

إلى أوليمبيا[١].

إن هذا نموذج حضاري مُبَكِّر في استخدام «المشترك» القائم بين الناس في تعطيل وإيقاف الصراع الناشب والمشتعل حربًا.

***

لقد استطاعت الإنسانية في عصرنا الحديث أن تجتمع في مجال الرياضة على أكثر من مستوى؛ ففي كل بلد -يعيش الحدَّ الأدنى من أجواء الاستقرار- تُوجد فرق رياضية تمارس اللعبة المفضلة، وينمو التنافس بين هذه الفرق على المستوى المحلي، ثم على المستوى الإقليمي، ثم على مستوى القارات، ثم على مستوى العالم كله، وتستطيع بطولة كأس العالم أن تجتذب إليها عددًا هائلاً من متابعي هذه اللعبة عبر كل العالم، وتكاد كل هذه الشعوب أن تتوحَّد - ولو لساعات محدودة- وهي تُراقب هذه المنافسات، وهو تَوَحُّدٌ إنساني يتجاوز كل الاختلافات العرقية واللونية واللغوية والسياسية والدينية، وكلما ازدادت شعبية لعبة معينة كانت بطولة كأس العالم لهذه اللعبة حدثًا يتوقَّف له المزيد من الناس حول العالم.

ونحن نرى كيف أن كأس العالم لكرة القدم يُعَدُّ حدثًا عالميًّا يُؤَثِّر حتى على نشرة الأخبار السياسية، وكيف أنه حتى الدول التي لا تُشارك في البطولة تهتمُّ بقوَّة بكأس العالم؛ فعلى سبيل المثال: الإمارات التي لا تُشارك في كأس العالم ٢٠١٠م تُحَوِّل كلَّ شيء فيها إلى شاشات عرض حتى دور السينما والمنتجعات، بخلاف المؤسسات التي أُنشئت أو غيّرت أنشطتها خاصة بسبب المونديال[٢].

حتى لقد قام محرِّك البحث الشهير «جوجل» -الذي يُعَدُّ الموقع الأول في العالم- بإضافة خدمات تقنية خاصة بكأس العالم؛ مثل: جدول المباريات، ومعلومات عن المجموعات والفرق، إضافة إلى ملخَّص للمباريات، مع عرض المباريات بالتوقيت المحلي للدولة التي يعيش فيها المتصفِّح، وقدَّمت شركة جوجل عبر برنامجها جوجل إيرث صورًا ثلاثية الأبعاد

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٦/ ٣٨٨.

(٢) تقرير بعنوان: «أنفلونزا المونديال في كل مكان»، منشور في صحيفة الاتحاد الإماراتية بتاريخ ١١/ ٦/ ٢٠١٠م.

لملاعب كأس العالم ٢٠١٠م، إضافة إلى جولة رائعة بالفيديو على هذه الملاعب[١].

***

وهذه البطولات العالمية في الرياضة تَصْنَع مثل تأثير المهرجانات العالمية في الفنِّ، فهي لقاء بين ممثِّلين لشعوب وحضارات وثقافات متباينة على أرضية مشتركة، وهو اللقاء الذي يخلو تمامًا من الأغراض سيئة السمعة، فليس من نتائجه ضغوط سياسية، أو استغلال اقتصادي، أو إرهاب فكري، أو اضطهاد عرقي.. أو غير ذلك؛ بل مجرَّد منافسة رياضية لا أكثر، الربح والخسارة فيها -بالمقياس المادي- ليس إلاَّ مبلغًا عاديًّا من المال، غير أن الأرباح المعنوية تتفوَّق كثيرًا على المادية، مثلما يفعل التفوُّق الفنِّيُّ تمامًا؛ فالشعوب التي تستطيع أن تصنع اسمًا كبيرًا لها في لعبة رياضية إنما تخطُّ لها أثرًا في قلوب الملايين من عشَّاق هذه اللعبة، كما أن الموهوبين في رياضة يصلون إلى قلوب تنتشر في القارات الستِّ، ما كان لهم أن يصلوا إليها بغير هذا الطريق، وبهذا تصنع الرياضة طريقًا فريدًا من التعارف بين الشعوب.

فلن تجد البرازيل أو الأرجنتين -وهما الدولتان القابعتان في أقصى الجنوب الغربي من العالم وليس لهما أثرٌ سياسي أو اقتصادي أو فنِّيٍّ قويٍّ- سفيرًا لهما عند الشعوب العربية والإفريقية والآسيوية أفضل من تفوُّقها في كرة القدم، والأسماء البرازيلية لا تنطق في هذه الأراضي إلاَّ لأن حامليها كانوا من نجوم الكرة البارعين، ولو حاولنا أن نتخيَّل البرازيل والأرجنتين من غير بروزهما في كرة القدم، وكيف يُؤَثِّر هذا في معرفة الشعوب الشرقية والغربية لهما، لأمكننا ببساطة أن نتوقَّع أن تكونا في شهرة دولة مغمورة في إفريقيا أو آسيا، ثم لأمكننا بعدئذٍ أن نفهم كيف صنع لهما التفوُّق الرياضي مساحة واسعة من التواصل والنموِّ والالتقاء مع الثقافات الأخرى.

وبتأثير من هذه الحقيقة، فقد تسبَّب لاعب كرة القدم الشهير «بيليه» أن يصنع «أزمة» بين البرازيل وأميركا حين وَقَّع في عام ١٩٧٥م -بعد اعتزاله الرسمي ١٩٧٤م- للَّعب مع نادٍ أميركي، وإذا بالصحف تخرج بالعنوان الكبير قائلة: «أميركا تستولي على أهم مصادر الثروة القومية

---

(١) خبر منشور بشبكة ITP.net بتاريخ ١٣/ ٦/ ٢٠١٠.

للبرازيل». وكانت أزمة كبيرة تدخَّلت فيها السياسة ممثَّلة في مستشار الأمن القومي الأميركي هنري كيسنجر وفي الحكومة البرازيلية؛ لإيقاف هذه الصفقة حتى تمَّ إيقافها، وفي وقت لاحق عرض عليه الرئيس الأميركي كارتر أن يكون سفيرًا فوق العادة لأميركا، واعتذر له بيليه بأنه لا يستطيع أن يكون سفيرًا لدولتين، ورغم أنه ليس سياسيًّا ولا مفاوضًا ولا اقتصاديًّا، إلاَّ أنه كان الوسيط الذي نجح في تسوية أزمة ديون البرازيل المستحقَّة لصندوق النقد الدولي، ثم استغلَّ نفوذه وعلاقاته لمرَّة أخرى في تهدئة أزمة ثانية بين الطرفين في عام ١٩٩٢م[١]، ولقد صَوَّت البرلمان البرازيلي رسميًّا لاعتبار بيليه ثروة قومية للبرازيل[٢].

بل إنَّ التفوُّق الرياضي هو الذي يجعل كأس الأمم الأوربية في كرة القدم يحُلُّ كحدث عالمي ثانٍ بعد كأس العالم، لأن أوربا -كقارة- هي الأفضل كرويًّا؛ لذا فالبطولات الأوربية ودوري الدول الأوربية هو الأكثر مشاهدة حول العالم، ويستطيع الشخص غير المهتمِّ بالكرة في مصر أن يتذكَّر أسماء: مانشستر يونايتد، والأرسنال، وريال مدريد، وبرشلونة، وإيه سي ميلان، وهي أندية أوربية فيما لا يستطيع أن يتذكَّر أندية آسيوية أو في أميركا الشمالية أو الجنوبية، أمَّا المهتمُّ فهو قد يصل إلى درجة التعصُّب في الانتماء إلى فريق منها[٣].

وهذه حالة ينبغي أن لا تمرَّ على عقولنا ببساطة؛ فلقد استطاعت هذه المساحة من المشترك أن تتجاوز التاريخ والميراث العدائي، بل والواقع الزاخر بالمشكلات بين الشرق الإسلامي والغرب الأوربي، فهذا أبلغ دليل على أهمية هذه المساحة المشتركة بين الشعوب وقوَّة تأثيرها.

***

ومثلما حدث في الفنِّ من اجتماع الجنسيات والثقافات المختلفة في عمل واحد، اجتمع في الفرقة الرياضية الواحدة أجناس شتى، فلقد أدَّت ثورة التقنية الحديثة في التواصل وتقارب العالم إلى أن يخرج الموهوبون من إطاراتهم المحلية إلى الفضاء العالمي، حتى وصل الحال إلى أن

---

(١) سعيد وهبة: «أزمة سياسية بين البرازيل وأميركا بسبب بيليه!»، تقرير منشور بجريدة اليوم السابع بتاريخ ٢٢/ ٩/ ٢٠٠٩م.

(٢) ورد هذا في برنامج: «تحت المجهر.. البرازيل عملاق الجنوب»، الذي أذاعته قناة الجزيرة الفضائية بتاريخ ٥/ ٥/ ٢٠٠٥م، وكان «بيليه» أول أسباب شهرة البرازيل.

(٣) انظر: صحيفة روزاليوسف القاهرية بتاريخ ٢٩/ ٥/ ٢٠١٠م.

بعض الأندية -في بعض الأوقات- تتشكَّل من لاعبين جميعهم من المحترفين القادمين من دول أخرى، ثم تكون مهارة مُدَرِّب الفريق أن يستفيد من هذه الطاقات المختلفة؛ ليصنع منها نسيجًا واحدًا منسجمًا ومتآلفًا؛ ويُعَدُّ فريق الإنتر ميلان الإيطالي مثالاً على هذا النموذج، فهو لا يضمُّ بين جنباته لاعبًا واحدًا من إيطاليا، بل يحتوي الفريق على أربعة لاعبين من الأرجنتين، وثلاثة من البرازيل، ولاعب من كلٍّ من مقدونيا وهولندا والكاميرون ورومانيا، كما أن مقاعد البدلاء تكاد تكون دولية هي الأخرى، فيوجد عليها لاعب من كولومبيا، ولاعب من كينيا، ولاعب من صربيا، وآخر من غانا، وحتى مدرب الفريق «جوزيه مورينيو» برتغالي الجنسية[(١)]، وحين فاز هذا الفريق بدوري أبطال أوربا لعام ٢٠١٠م، ارتدى كل لاعب علم بلده الأصلي، التي لم يكن من بينها العلم الإيطالي، فتحوَّل الملعب إلى «خليط من الأعلام تُرفرف بعد البطولة»[(٢)].

إن هذا -من وجهة نظر الباحثين عن التعايش- نموذج فريد في التركيز على هذا المشترك الداعم والالتقاء عليه، وهو مرحلة متقدِّمَة في رحلة البحث عن التعاون بين الإنسانية.

***

نشأت من خلال الرياضة صلات ثقافية غير متوقَّعة، وإذا حاولنا تتبُّع هذه الصلات ورسمها على الخريطة والورق، فإننا نكون قد رسمنا مسارات أخرى مختلفة -ربما موازية- فيها أقطاب ومراكز تأثير ثم دوائر تأثُّر ومتابعة؛ فكل لعبة تشهد بروز ثلاثة أقطاب على الأقل يتطلَّع إليها عشَّاق هذه اللعبة، ويرتبطون بها، ويُتابعون فعالياتها بمزيد من الاهتمام، وهم في كل هذا يتعرَّفُون على هذه البلاد وأنشطتها وثقافتها وطبيعة شعوبها، من خلال القراءة أو المشاهدة أو السفر إليها للتعلُّم أو التدريب أو حتى لمتابعة المسابقات والبطولات، يتمُّ كلُّ هذا في عملية طبيعية هادئة، لا تكاد تلفت الأنظار أو تُثير الانتباه؛ فمثلاً تُمَثِّل البرازيل والأرجنتين وإيطاليا وإسبانيا أقطابًا في عالم كرة القدم، بينما يبرز في عالم كرة اليد السويد

---

(١) انظر: أسماء اللاعبين ومنتخباتهم في «منتدى الإنتر ميلان» على هذا الرابط:
(http://forums.intermilan.ae/showthread.php?t=135923)

(٢) جريدة الدستور الأردنية، بتاريخ ٢٧/ ٥/ ٢٠١٠م.

وألمانيا وروسيا، وفي كرة السلة نجد الأرجنتين والولايات المتحدة وإسبانيا واليونان، وتبرز الصين في عالم تنس الطاولة، واليابان في الكاراتيه.. وهكذا[١].

وحينئذٍ فإننا نرى أنفسنا أمام عالم موازٍ، تختلف خريطته عن الخريطة السياسية المعروفة، وهو عالم يتجاوز كل مناطق الاختلافات العرقية والثقافية والسياسية ويتوقف عند المساحة الرياضية المشتركة، وما يزال هذا النموذج العالمي في حاجة إلى المتابعة والاهتمام والاستفادة منه على مستوى التعايش بين الشعوب.

***

ومن الدلائل البارزة على أهمية الرياضة في التواصل بين الشعوب أن يكون الحرمان من المشاركة في البطولات الرياضية من العقوبات التي تُفرض على الدول، وقد فُرِض «حظر رياضي» على جنوب إفريقيا لم ينتهِ إلاَّ في العام ١٩٩٤م؛ بسبب سياسات التمييز العنصري التي كانت البلاد تنتهجها، ثم ما لبث هذا الحظر أن رُفع بعد انتهاء هذه السياسات لتُنَظِّم بعد سنتين من رفع الحظر الرياضي بطولة كأس الأمم الإفريقية عام ١٩٩٦م، وحتى كأس العالم في ٢٠١٠م.

وعلى الناحية الأخرى، يعتبر حصول دولة ما على حقِّ تنظيم بطولة رياضية «فوزًا كبيرًا» تتنافس فيه الدول المشاركة، وكلها حرص على هذا «الفوز»، كما أن الفشل في الحصول على الثقة لتنظيم بطولة ما يُعتبر «خسارة»؛ وهكذا صارت الرياضة وسيلة للثواب والعقاب، وليس هذا إلاَّ لأنها مشترك إنساني حيوي فعَّال.

***

لكن ثمة مشكلات تستطيع أن تعكِّر هذا المشترك الإنساني الحيوي؛ فحيث يبدأ النظر إلى مناطق الاختلاف وتغليبها على هذه المساحة المشتركة تبدأ الأزمات في الظهور، ويُفَضِّل البعض في ظلِّ المعارك والصراعات أن يُدَمِّر جسور التواصل بدل أن يحاول تصفية

---

(١) هذه النتائج مأخوذة من مواقع الاتحادات الدولية لهذه الرياضات، وبمطالعة الترتيب الصادر عنها للدول المشاركة.

الصراعات عبر هذه الجسور.

ومن أمثلة هذا ما حدث حين قاطعت الولايات المتحدة الأميركية مع بعض الدول الأوربية الدورة الأولمبية الثانية والعشرين، التي أُقيمت في موسكو عام ١٩٨٠م في أثناء تصاعد المواجهة الغربية الشيوعية، ثم الردُّ على هذا بالمقاطعة المضادَّة لروسيا وبعض دول أوربا الشرقية للدورة الأولمبية الثالثة والعشرين في لوس أنجلوس عام ١٩٨٤م، وتغلَّبت العنصرية على الإنسانية في الدورة الأولمبية الخامسة في ستكهولم عام ١٩١٢م، فشُطِب رياضي أميركي؛ لأنه من الهنود الحمر، وغادر هتلر منصة ملعب برلين عندما سجَّل الأميركي الزنجي «جونسون» رقمًا عالميًّا جديدًا في الوثب العالي، وللسبب نفسه امتنع عن مصافحة البطل الأولمبي جيسي أونيزا[١].

بل أدَّت تصفيات كأس العالم في عام ١٩٧٠م، لإشعال شرارة الحرب بين السلفادور والهندوراس؛ فازت هندوراس -في ملعبها- على السلفادور في مباراة الذهاب، واعتدت الجماهير الهندوراسية على أنصار السلفادور، ثم تطوَّرت الأمور إلى مهاجمة الأحياء التي يُقيم فيها السلفادوريون إلى الحدِّ الذي دفع السلفادوريين إلى الفرار إلى بلادهم تاركين ممتلكاتهم وبيوتهم، وبعد أسبوع واحد جاء موعد مباراة العودة، وفيها فازت السلفادور، ونال أنصار هندوراس نصيبهم من الاعتداءات، وفي ١٤ يوليو ١٩٦٩م كان موعد المباراة الفاصلة بينهما، وفازت فيها السلفادور، ولكن مع نهاية اللقاء كانت الدولتان قد نشرتا قواتهما على طول الحدود بينهما، واشتعلت الحربُ التي ظَلَّت لستة أيام مخلِّفة وراءها أكثر من ٤ آلاف قتيل، معظمهم من المدنيين، ومعهم ١٠ آلاف مشوَّه و١٢٠ ألف مشرَّدٍ، ودمار مئات البيوت والمنشآت التي تزيد قيمتها اليوم على ثمانية مليارات دولار[٢].

ومن أبرز المشكلات في ساحة الرياضة ما نراه في «ظاهرة التعصب»، التي تستولي على بعض الجماهير، فتتحوَّل الصورة من اللقاء الرياضي إلى المعركة الرياضية، وقد تخرج الأزمة

---

(١) محمد ماهر عطية: «تاريخ الرياضة» مقال منشور بتاريخ ١/ ٣/ ٢٠٠٨م: http://moh-ateea.nireblog.com.

(٢) موقع العربية نت، بتاريخ ١٧/ ١١/ ٢٠٠٩م.

حتى ينتج عنها القتلى والجرحى والخسائر البالغة.

ومن أسوأ المشكلات التي نشبت مؤخَّرًا وكادت تُؤَدِّي إلى أزمة مشابهة، ما حدث في التصفيات المؤهلة لكأس العالم ٢٠١٠م بين الشقيقتين العربيتين مصر والجزائر، واستطاعت وسائل الإعلام أن تُشعل نيران العداوة بين الجماهير الرياضية المتعصِّبة بطبيعتها، وكان يكفي عنوانًا ساخنًا لصحيفة رياضية لأن يبدأ مسلسل الاشتعال والعناوين المضادة، والبرامج الإعلامية التي تُرَكِّز على الإساءات المنطلقة من الجهة الأخرى، وهكذا في تسارع متصاعد إلى حدٍّ مخيف، حَدَا بالمراقبين إلى الاعتقاد بأن السياسة دخلت على الخطِّ وسخَّرت الإعلام لتنفيذ مهمة صرف أنظار الجماهير عن مشكلاتها الحقيقية؛ (السياسية والاجتماعية والاقتصادية)، وبدأت الأزمة حين تطوَّرت نتائج التصفيات بشكل وضع الفريقين في موضع أن أحدهما لا بُدَّ أن ينتصر على الآخر؛ لكي يصل إلى كأس العالم، فأدَّى استمرار الشحن الإعلامي والتركيز على إساءات الصحافة الرياضية إلى أن يتعرَّض الفريق الجزائري إلى رشق لحافلاته لدى وصوله القاهرة في مباراة العودة ١٤/ ١١/ ٢٠٠٩م، وأدَّى ذلك إلى إصابة بعض لاعبيه، ثم مضايقات أخرى من الجمهور المصري للفريق وللجزائريين فيما بعد المباراة، وهو ما أدَّى -تحت النيران الإعلامية- إلى الهجوم على مصريين وشركات مصرية بالجزائر، ثم وصلت الأزمة إلى ذروتها باللقاء الفاصل الذي جرى في السودان ١٨/ ١١/ ٢٠٠٩م، حيث اعتدت الجماهير الجزائرية المحمَّلة بالرغبة في «الثأر» على الجماهير المصرية، وهنا انتقلت الأزمة إلى دهاليز السياسة، وبدأ مسلسل سحب السفراء، وتوجيه الإدانات والاحتجاجات الرسمية، واستطاعت هذه الأزمة -بتأثير الإعلام والسياسة- أن تحدث شرخًا حقيقيًّا وكبيرًا وغير متوقَّع بين الشعبين المصري والجزائري، وبينهما من المشتركات الخاصة -فضلاً عن العامَّة- ما لا يكاد يُحْصَى[1].

(١) راجع في هذا أرشيف الوكالات والصحف والمواقع المتخصصة في تواريخ مباراة الذهاب ٨/ ٦/ ٢٠٠٩م وما بعده، ومباراة العودة ١٤/ ٩/ ٢٠٠٩م وما بعده، والمباراة الفاصلة ١٨/ ٩/ ٢٠٠٩م وما بعده، وقد استغلَّت الدوائر المعادية للرابطة العربية والرابطة الإسلامية في الفريقين هذه الحوادث أسوأ ما يكون الاستغلال، بل دعا البعض لطرد الجزائريين من مصر والمصريين من الجزائر، ووصلت فلتات اللسان لدى بعض الإعلاميين إلى الدعوة للقتل، ونُسي ما بين البلدين من روابط الدين واللغة والتاريخ والمصالح المشتركة والعلاقات الطيبة، إلى الحدِّ الذي لم يكد يُسمع فيه دعوات العقلاء والعلماء في البلدين.

وبعد أكثر من سبعة أشهر رصدت مجلة (فورين بوليسى Foreign Policy) الأميركية قبل ساعات من مباراة الجزائر الأولى في كأس العالم ٢٠١٠م أن القاهرة لا ترفع العلم الجزائري؛ أي: لا تُشَجِّع فريق الجزائر في كأس العالم، وقالت المجلة بأن الكرة أصبحت أداة للتفرقة بين الشعوب في منطقة الشرق الأوسط، وأن الإقليم أصبح في أشدِّ حالات انقسامه، وأنه خلافًا للاعتقاد السائد بأن الجزائر ستحمل «أحلام العرب» في المونديال فإن الكثير منهم لن يتمنَّى الفوز لها، بل نقلت عن محلل رياضي مصري شهير قوله في قناة رياضية مصرية: «اللعنة على الوَحدة العربية، يجب ألاَّ نتكلم عنها مرة أخرى»[(١)].

إنه لينبغي علينا جميعًا أن نبحث في كيفية نزع هذه القنابل من هذه الساحة المهمة من ساحات المشترك الإنساني العام، فلا يُعقل أن تُؤَدِّي هذه الساحات - التي تزيد من اللقاء بين الشعوب المتباعدة والمختلفة - لتدمير العلاقات المتينة ما بين الشعوب المتجانسة والمتقاربة.

***

(١) صحيفة المصري اليوم بتاريخ ١٣/ ٦/ ٢٠١٠م.

السياحة

السائح هو الشخص الذي يسافر بعيدًا عن بلده، سواء داخل وطنه أو خارجه، ليوم واحد على الأقلِّ، أو لليلة واحدة، وأسباب مثل هذا السفر عديدة؛ منها: الفراغ، الترويح، العطلات، العلاج، التعليم، الدين، الرياضة، والتجارة والشئون العائلية، وعليه فإن الذين يقضون عطلاتهم في بلد آخر، ووفود المؤتمرات، ورجال الأعمال المسافرين كلهم في عداد السائحين[1].

ويمكننا أن نرصد ثلاثة أمور لنستدلَّ بها على أن السياحة من المشتركات المهمة بين البشر والتي تدعم التواصل بينهم؛ وهي:

١- وجود رحَّالة من كل البلاد والحضارات والأزمان خرجوا من بلادهم لِيُطَالِعُوا البلاد الأخرى والبشر المختلفين والحضارات المتباينة.

٢- وجود عبادة أو شعيرة «الحج» في مختلف الديانات السماوية والوضعية.

٣- ما نراه في واقعنا المعاصر من رواج للسياحة إلى الحدِّ الذي يجعلها -أحيانًا- العمود الرئيس للاقتصاد في بعض الدول ذات المعالم الأثرية والسياحية المهمة.

هذه العناصر الثلاثة -التي تتناول العقيدة والتاريخ والواقع وكلها تشير إلى هذه الغريزة البشرية- تجعلنا نقول بأن السياحة والارتحال في أرجاء الأرض من المشتركات الإنسانية العامة، ثم إن كونها من الأمور التي لا تنشأ حولها عادةً حروب بين الناس يجعلنا نضعها ضمن المشتركات الداعمة.

١- رحالة من كل البلاد:

إن الرحلة قديمة قِدَم الإنسان ذاته؛ إذ عرفها منذ العصور الغابرة حتى وقتنا هذا، وإن اختلفت

---

(١) الموسوعة العربية العالمية «السياحة».



دوافع الرحيل، وتباينت وسائل السفر، وتنوَّعت مادَّة الرحلة، كما اختلف الرحَّالة كذلك؛ فلقد كان بين الرحَّالة رجال علم ودين، وكان بينهم -أيضًا- طوَّافون من هواة السفر والترحال، وآخرون استهوتهم المغامرة، ودفعتهم المخاطرة إلى كشف النقاب عن المجهول من الأرض والناس[1].

ففي القرن الخامس قبل الميلاد سافر هيرودوت[2] كثيرًا إلى كلٍّ من مصر، وبلاد ما بين النهرين، وجنوب روسيا، والطرف الشمالي لإفريقيا، وهذه الرحلات هي التي قَدَّمت لنا أدقَّ صورة معروفة لهذا الزمن، وأعطت لهيرودوت لقبًا غاليًا وهو «أبو التاريخ».

وفي القرن الرابع قبل الميلاد أرسل يونانيو مرسيليا عالمًا بالرياضيات مشهورًا يُدْعَى بَيْثيس لارتياد البحر غربي عَمُودَيْ هرقل[3]؛ رغبة في اكتشاف أرض جديدة يمكن الاتجار معها، فسار في المحيط مُتَّجهًا صوب الشمال حذاء الشاطئ، حتى خليج بسكاي ومن هناك سافر إلى بريطانيا حيث رست سفينته على شاطئ كِنْت، وفحص جزءًا عظيمًا من الشاطئ، غير أنه بالغ في تقدير طوله، ومن ثَمَّ سافر حتى مصبِّ نهر الراين، واستمرَّ شمالاً حتى بلغ أرضًا سماها ثول Thule، وقد وصفها بأنها أقصى بلاد الدنيا شمالاً[4].

كما اعتنى الكثير من القوَّاد الرومانيين عناية عظيمة بما وقع تحت أبصارهم؛ فيوليوس قيصر[5] الذي جاب أقاليم فرنسا وإسبانيا وألمانيا وبريطانيا كتب كتبًا كثيرة عن مشاهداته، ولم يصف بها أعمال جنوده فحسب، بل وصف التضاريس الطبيعية للأقاليم التي غزاها، ومن الأمثلة الحسنة لهذا الوصف شرحه لشكل الجزائر البريطانية ومناخها وسكانها[6].

وفي القرن الثاني الميلادي أنتج الرحالة والجغرافي الإغريقي باوسانياس أول دليل

(١) حسين محمد فهيم: أدب الرحلات ص١١، ١٥.

(٢) هيرودوت (٤٨٤- ٤٢٥ق. م): أول مؤرخ إغريقي أخذ على عاتقه كتابة تاريخ العالم حتى الوقت الذي عاش فيه، أطلق عليه الخطيب الروماني سيشرون أبا التاريخ. انظر: الموسوعة الكبرى.

(٣) عمودا هرقل: هما رمز لمنطقة جبل طارق، والبحر المقصود «غربي عمودي هرقل» هو المحيط الأطلنطي.

(٤) محمد عوض إبراهيم بك: قصص جوب الأقطار وكشفها ص٨، ٩.

(٥) يوليوس قيصر: هو جيوس يوليوس قيصر Gauis Julius Caesar (١٠٠-٤١ق. م)، قائد سياسي وعسكري بارع، واحد من أكثر الرجال نفوذًا في تاريخ العالم، ومؤسس الإمبراطورية الرومانية.

(٦) محمد عوض إبراهيم بك: قصص جوب الأقطار وكشفها.

سياحي لمساعدة الزائرين الرومان إلى بلاد الإغريق[(١)].

واستمرَّت الرحلات مع استمرار رحلة الإنسان، حتى شهدت الرحلات تيارًا كبيرًا من المؤلفات في عصر الحضارة الإسلامية؛ فلقد ظهر عدد غفير من الرحالة والجغرافيين، الذين تركوا تراثًا «لا يُقَدَّر بثمن»[(٢)] عن العصور الوسطى - واللفظ للمستشرق الفرنسي الكبير لويس سيديو- ولمعت أسماء مثل: ابن خرداذبه[(٣)] واليعقوبي[(٤)] والمسعودي[(٥)] وابن فضلان[(٦)] والإصطخري[(٧)] وابن حوقل[(٨)] والبيروني والإدريسي وابن جبير[(٩)] والقزويني[(١٠)] وابن بطوطة[(١١)]..

---

(١) الموسوعة العربية العالمية «السياحة».

(٢) لويس سيديو: تاريخ العرب العام، ص٤٢٥.

(٣) ابن خرداذبه: هو أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن خرداذبه (٢٠٤- ٢٧٢هـ=٨٢٠- ٨٨٥م) مؤرخ جغرافي، أسلم على أيدي البرامكة، من أشهر مصنفاته: (المسالك والممالك). انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١٩/ ٢٢٩.

(٤) اليعقوبي: هو أبو العباس أحمد بن إسحاق اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ=٩٠٥م)، مؤرخ جغرافي كثير الأسفار، من أهل بغداد، أشتهر بكتابه (تاريخ اليعقوبي)، وكتاب (البلدان). انظر: الزركلي: الأعلام ١/ ٩٥.

(٥) المسعودي: هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦ هـ=٩٥٧م)، مؤرخ، رحَّالة، بحَّاثة، من أهل بغداد، أقام بمصر وتوفي فيها، من تصانيفه: (مروج الذهب). انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٢١/ ٦، ٧، والزركلي: الأعلام ٤/ ٢٧٧.

(٦) ابن فضلان: هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، (ت ٣١٠هـ=٩٢٢م)، صاحب الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، المعروفة برسالة ابن فضلان. انظر: الرزركلي: الأعلام ١/ ١٩٥- ١٩٦.

(٧) الإصطخري: هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري، (ت ٣٤٦هـ=٩٥٧م)، جغرافي، رحالة، من العلماء، من أهل إصطخر (بإيران) قام بسياحة طاف بها بلاد العرب وبعض بلاد الهند، ويُعَدُّ من أوائل العلماء الذين جمعوا بين الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا السكانية في كتبهم، من كتبه: مسالك الممالك. انظر: الزركلي: الأعلام ١/ ٦١.

(٨) ابن حوقل: هو أبو القاسم محمد بن حوقل (ت ٣٥٠هـ)، رحَّالة وجغرافي ومؤرخ، أشهر مؤلفاته هو التعليق والتنقيح لكتاب المسالك والممالك للإصطخري، وتعليقه بنفس الاسم. انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ١١١.

(٩) ابن جبير: هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي (٥٤٠- ٦١٤هـ=١١٤٥- ١٢١٧م)، رحَّالة أديب، زار المشرق ثلاث مرات، ألَّف في إحداها كتابه (رحلة ابن جبير)، وُلد في بلنسية، ومات بالإسكندرية. انظر: الزركلي: الأعلام ٥/ ٣١٩، ٣٢٠.

(١٠) القزويني: هو زكريا بن محمد بن محمود القزويني (٦٠٥- ٦٨٢هـ = ١٢٠٨- ١٢٨٣م)، وُلِدَ بقزوين، ورحل إلى الشام والعراق، فولي القضاء في أيام المستعصم، صنف كتبًا؛ منها: (آثار البلاد وأخبار العباد)، و(عجائب المخلوقات). انظر: الزركلي: الأعلام ٣/ ٤٦.

(١١) ابن بطوطة: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الطنجي (٧٠٣- ٧٧٩هـ=١٣٠٤- ١٣٧٧م)، رحَّالة، مؤرخ، وُلِدَ ونشأ بغرناطة، وطاف بلادًا كثيرة، وتوفي في مراكش. انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ٢٣٥.

غيرهم كثير[١]، ذلك أنه «يحتاج إحصاء أهم جغرافيي العرب وما أَلَّفُوا من الكتب إلى بيان طويل»[٢].

وهذه الأسماء كانت من أصول وبلاد مختلفة؛ فمنهم مَنْ بدأ من الشرق وسعى نحو الغرب، أو ربما توغَّل في الشرق أكثر، ومنهم مَنْ بدأ من الغرب وسعى إلى الشرق، أو صَعِد إلى الشمال، ومنهم مَنْ قطع الأرض من شرقها إلى غربها، وجاب في شمالها وجنوبها كشيخ الرحالة ابن بطوطة.

ثم تخفت الحضارة الإسلامية، ويعود لواء النهضة إلى الغرب، وتستمرُّ رحلة الإنسان في البلاد، فبُعَيْد سقوط غرناطة سينطلق كريستوفر كولومبوس[٣] إلى اكتشاف «العالم الجديد»، كما ستصعد أسماء: ماجلان[٤] وفاسكو دي جاما[٥] ومن قبلهم ماركو بولو[٦].. وغيرهم، وتبدأ الحضارة الناهضة في إخراج رحالين كبار يُكملون المسيرة الإنسانية.

لكن عند النصف الثاني من القرن التاسع عشر، سيحدث تحوُّل مهمٌّ في موضوع الرحلات، وستبدأ مرحلة مهمة في تاريخ السياحة؛ إذ سيظهر توماس كوك[٧]، وهو الشخصية التي بدأت بها السياحة الجماعية الحديثة، ففي ٥ يوليو ١٨٤١م غادرت أول رحلة بالقطار نظَّمها توماس كوك محطة السكك الحديدية في ليستر بإنجلترا إلى لاوبرا، وقد أصبح

---

(١) راجع في هؤلاء وأعمالهم: كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي «مجلدان»، وعبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب (وهذا الكتاب لا يقتصر فيه على العرب، بل هو أقرب إلى أن يعني الحضارة العربية الإسلامية).

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤٧١.

(٣) كريستوفر كولومبوس (١٤٥١ - ١٥٠٦م): رحَّالة إيطالي مشهور، يُنسب إليه اكتشاف العالم الجديد (أميركا) والبهامس وجزر البحر الكاريبي، توفي في إسبانيا نتيجة اشتداد المرض عليه.

(٤) ماجلان: هو فرديناند ماجلان Ferdinand Magellan (١٤٨٠م - ١٥٢١م)، مستكشف إسباني، أوَّل من دار حول الكرة الأرضية، اكتشف جزيرة جوام في المحيط الهادي في إطار رحلته حول العالم التي انتهت به في الفلبين.

(٥) فاسكو دي جاما (١٤٦٩ - ١٥٤٢م): بحري ومستكشف برتغالي، يُنسب إليه اكتشاف الطريق البحري من أوربا إلى الهند، توفي بالهند.

(٦) ماركو بولو Marco Polo (١٢٥٤-١٣٢٤م): تاجر ومستكشف إيطالي، كان من أوَّل الأوربيين الذين زاروا الصين وبلاط قبلاي خان ملك المغول.

(٧) توماس كوك Thomas Cook (١٨٠٨-١٨٩٢م): رجل أعمال بريطاني، ورائد في السياحة، أسس مكتب السفريات ذا الشهرة العالمية توماس كوك.

كوك -بهذا- أول منظِّم رحلات، وكانت رحلاته لتلاميذ المدارس، ثم نظَّم أول رحلة بغرض تجاري في عام ١٨٤٥م، وكانت من ليستر إلى ليفربول وويلز الشمالية، وقد نظَّم الرحلات الأُوَل إلى أحداث رئيسية؛ مثل: المعرض الكبير في لندن عام ١٨٥١م، والمعرض العالمي في باريس عام ١٨٥٥م، كما نظَّم رحلة سير إلى جبال الألب السويسرية، وفي عام ١٨٦٧م نظَّم أول رحلة إلى الولايات المتحدة، وفي عام ١٨٧٢م نظَّم توماس كوك أول رحلة حول العالم؛ حيث وردت تفاصيل الرحلة في جريدة التايمز، بدأت الرحلة من لندن، وعبرت المحيط الأطلسي إلى نيويورك، ومنها بالقطار إلى سان فرانسيسكو، ثم عبر المحيط الهادي إلى اليابان، ومنها إلى القاهرة، وبهذه الرحلة اكتسبت رحلات كوك شهرة كبيرة[(١)].

ويستمرُّ الأمر متكاثرًا حتى يُنفق الناس في مجال السياحة ٨٥٢ بليون دولار في عام ٢٠٠٩م، بحسب تقديرات منظمة السياحة العالمية[(٢)].

٢. شعيرة الحج في الأديان:

عرف الهنود الحجَّ في الأزمنة القديمة، وهو عندهم قَصْدُ الأماكن والأنهر والينابيع المقدسة، ويتمُّ في زمن الأعياد، ويبلغ عدد الأماكن المقدَّسة في الهند عدَّة مئات، لكن بعضها حاز أهمية دينية عظمى؛ بسبب وقوعها على ضفة النهر المقدس، وخاصة نهر الجانج، ومن أشهر أماكن العبادة عند الهنود الهيكل القديم تحت الأرض في جزيرة أليفانتا، وهيكل جاغرنات، الذي يجتمع فيه سنويًّا أكثر من مليون ونصف مليون حاج[(٣)].

والحجُّ عند الشعوب البوذية من أعظم الطقوس الدينية؛ حيث يلتمس البوذي فيه رجاء الشفاء من الأمراض والمتعة الروحية، وهناك أربعة مراكز كبرى للحج: مسقط رأس بوذا في نيبال، ومكان استنارته - بحسب اعتقادهم- في غابة بوذاكيا، ومكان موعظته الأولى في مدينة بنارس، ثم قرية كوسي نارا Kusinara، حيث تمت له النيرفانا nirvana[(٤)]، وقد

---

(١) الموسوعة العربية العالمية «السياحة».

(٢) تقرير منظمة السياحة العالمية والمنشور في يونيو ٢٠١٠م على موقع المنظمة www.unwto.org.

(٣) الموسوعة العربية العالمية «الحج».

(٤) النيرفانا أو التَنَوُّر: هو ما يشبه البعثة أو نزول الوحي عند الأنبياء؛ أي: انتقاله إلى مرحلة حمل رسالة.

احتلَّت غابة بوذاكيا القداسة العظمى والمكانة الأسمى، وهي اليوم المركز الرئيس للحج، الذي يَؤُمُّه البوذيون من شتى أنحاء العالم، ويحج أهل الصين إلى مكان واحد، هو هيكل المعبود تيان الأعظم، أما اليابانيون من قبيلة شنتو Shinto فهم ملزمون بالحج إلى هيكل شهير في ولاية اسجى مرة واحدة في الحياة، يَؤُمُّونَه صيفًا مشيًا على الأقدام، ويلبسون ثيابًا بيضاء خاصة، كما يتوجَّبُ على البوذيين الحجّ إلى بركان فوجي ياما قرب طوكيو مرَّة واحدة سنويًّا[١].

وفي اليهودية يتحتَّم على كل يهودي ذكر رشيد أن يزور بيت المقدس مرتين في العام، وأن يبقى به أسبوعًا كل مرة، ويبدأ الأسبوع يوم الجمعة، وتُقام خلاله احتفالات يحضرها الوافدون، ويقودها الكهنة واللاويون[٢]، وقد قُصد بهذه الزيارة أن تتيح فرصة لليهود أيًّا كانت مناطقهم أن يتعارفوا ويتَّحِدُوا[٣]، ويحجُّ اليهود إلى الموضع الذي فيه تابوت العهد أي إلى هيكل أورشليم - فيما يزعمون- وهو المسجد الأقصى ثلاث مرات في السنة؛ ليذبحوا هناك القرابين، فإنها لا تصحُّ إلا هناك، ومن هذه المرَّات مرَّة في عيد الفصح[٤].

وفي المسيحية يُطْلَق لفظ الحجِّ عند المسيحيين على زيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، تلك الأماكن التي شرَّفها المسيح ﷺ، وتُشير الروايات التاريخية إلى أن أول حجٍّ للقدس كان في أوائل القرن الثاني الميلادي، وتبدأ رحلة الحجِّ لدى المسيحي عند وصوله إلى المدينة المقدسة بالصوم والصلاة، ثم زيارة القبر، ثم يزور جبل صهيون وجبل الزيتون ووادي يهوشافاط وبيت لحم وجبل تابور.. وغيرها من الأماكن المقدسة، التي تتعلَّق بمعجزات المسيح ﷺ، وبعد أن يستحمَّ في نهر الأردن يأخذ من أريحا غصنًا من النخل ليُقَدِّمه عند رجوعه إلى الخوري لوضعه على المذبح علامة لتكميل زيارته؛ ولذلك سُمِّيَ زوَّار فلسطين بالنخليين،

---

(١) الموسوعة العربية العالمية «الحج».

(٢) اللاويون: قبيلة يهودية قديمة، انحدروا -كما يحكي سفر الخروج ثاني أسفار العهد القديم- من نسْل ليفي (لاوي) بن يعقوب، وقد كان له ثلاثة بنين: جرشون وقهات ومراري، أسَّس كل منهم عشيرة لنفسه، وقد كان موسى ﷺ وهارون ﷺ لاويين من بيت عمرام وعائلة قهات.

(٣) أحمد شلبي: اليهودية، ص٣٠٢.

(٤) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ٢/ ٢١٤.

ويُسَمَّى الحاجُّ عند المسيحيين بالمقدسي نسبة إلى بيت المقدس، ويذهب بعض المسيحيين إلى مصر لزيارة الصوامع التي أقام فيها القديس أنطونيوس الكبير والقديس بولس؛ وإلى روما حيث ضريحي القديس بطرس والقديس بولس، وغير ذلك من الكنائس ذات المعنى التاريخي في ألمانيا وإسبانيا وروسيا(١).

ويقول العلامة الطاهر بن عاشور(٢): «واتخذت النصارى زيارات كثيرة حجًّا، أشهرها زياراتهم لمنازل ولادة عيسى ﷺ وزيارة أورشليم، وكذا زيارة قبر ماربولس وقبر ماربطرس برومة، ومِنْ حجِّ النصارى الذي لا يعرفه كثير من الناس وهو أقدم حجهم أنهم كانوا قبل الإسلام يحجون إلى مدينة عسقلان من بلاد السواحل الشامية، والمظنون أن الذين ابتدعوا حجها هم نصارى الشام من الغساسنة؛ لقصد صرف الناس عن زيارة الكعبة، وقد ذكره سحيم عبد بني الحسحاس وهو من المخضرمين في قوله يصف وحوشًا جرفها السيل:

كَأَنَّ الْوُحُوشَ بِهِ عَسْقَلا نُ صَادَفْنَ فِي قَرْنِ حَجٍّ ذِيَافَا

أي أصابهن سمٌّ فقتلهن، وقد ذكر ذلك أئمة اللغة، وقد كان للمصريين والكلدان حجٌّ إلى البلدان المقدسة عندهم، ولليونان زيارات كثيرة لمواقع مقدسة؛ مثل: أولمبيا وهيكل زفس، وللهنود حجوج كثيرة»(٣).

وأمَّا في الإسلام فالحجُّ إلى مكة المكرمة ركن من أركان الإسلام الخمسة، التي يتحتَّم على المسلم القادر أن يفعله، ويكون في الأيام العشرة الأولى من الشهر الأخير للسنة العربية، وهو شهر ذي الحجة، وأيام الحج الكبرى تكون في التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر، وهذا بخلاف أداء العمرة، وهو -أيضًا- ارتحال إلى مكة لكن لا يرتبط بوقت محدَّد من السَّنَة، ثم بخلاف مكة يزور المسلمون المدينة المنورة، التي كانت عاصمة الدولة الإسلامية أيام النبي

---

(١) الموسوعة العربية العالمية «الحج». باختصار.

(٢) الطاهر بن عاشور: هو محمد الطاهر بن عاشور (١٢٩٦ - ١٣٩٣ هـ = ١٨٧٩ - ١٩٧٣ م)، رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، مولده ووفاته ودراسته بها، له مصنفات أشهرها: (أصول النظام الاجتماعي في الإسلام)، وتفسير (التحرير والتنوير). انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ١٧٤.

(٣) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ٢/ ٢١٥.

ﷺ والخلفاء الراشدين، والتي تضمُّ قبره ﷺ وقبور أصحابه الكرام ﷺ وفيها المسجد النبوي، وفيما قبل الاحتلال الصهيوني لفلسطين كان الذهاب إلى بيت المقدس -أيضًا- بقصد الصلاة في المسجد الأقصى من الأماكن التي يرتحل إليها المسلمون، وهذه الأماكن الثلاثة وردت بشكل حصري في قوله ﷺ: «**لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى**»[١].

وقد كان الحجُّ هو المسبِّب الأول لصناعة السياحة؛ فانتقال البشر بأعداد كبيرة إلى مكان بعينه في وقت واحد، يُؤَدِّي بطبيعة الحال إلى خَلْق أسواق وخدمات ووظائف موسمية، وأنشطة خاصة أو دائمة، ومن هنا بدأت صناعة السياحة.

وقد نمت أول صناعة للسياحة -على ما يبدو- قبل حوالي ٣٠٠٠ عام، بتقديم السلع والخدمات لزائري المقدسات الهندوسية والبوذية في الهند، وما زالت بعض هذه الزيارات مستمرَّة حتى اليوم، وقد وضع الرومان الكثير من خصائص السياحة في الدول الغربية؛ حيث شكَّلت عطلاتهم الدينية، التي بلغت مائة يوم سنويًّا، أساس العطلات في الغرب اليوم، وكان للرومان -أيضًا- تذكاراتهم ومنتجعاتهم السياحية، وكانوا يهربون من ضغوط المدينة بزيارة نابولي والريفيرا الإيطالية، وكان المقتدرون منهم يُسافرون إلى مصر واليونان لزيارة المعابد ورؤية الثقافة المحلية، وفي العصور الوسطى كانت التجارة وزيارة الأماكن المقدَّسة أهم أسباب السفر، فقد كان النصارى يُسافرون إلى المراكز الدينية؛ مثل: روما وكانتربري في إنجلترا، وعلى امتداد الطرق بُنِيَت النزل والاستراحات، وكانت للتذكارات أهمية خاصة؛ حيث كان زوَّار الأماكن المقدسة يُوَثِّقُون بها الأماكن التي قصدوها بحثًا عن الخلاص، وما زال العديد من الطرق التي سلكها زوَّار المقدسات والأماكن التي زاروها شواهد سياحية مهمة حتى اليوم، وفي أواخر القرون الوسطى سافر كثير من الأوربيين بحثًا عن الترفيه[٢].

وبالنسبة للسعودية تُعَدُّ السياحة الدينية عنصرًا حاسمًا في توسيع القطاع السعودي غير النفطي، فمواسم الحجِّ والعمرة تمثِّل أحد أهم مصادر الدخل، بما يجعله نشاطًا حيويًّا بالنسبة لباقي

---

(١) البخاري: أبواب التطوع، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١١٣٢)، ومسلم: كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد (١٣٩٧).
(٢) الموسوعة العربية العالمية «السياحة».

قطاعات الاقتصاد السعودي؛ ففي كل سنة من السنوات السبع الأخيرة، أدَّى أكثر من مليوني مسلم فريضة الحجِّ، وفي عام ٢٠٠٨م أنفق السيَّاح من داخل وخارج المملكة خلال زيارة أماكنها السياحية أربعة وسبعين مليار ريال سعودي، وكان نصف هذه الرحلات السياحية تقريبًا ذا طبيعة دينية؛ مثل رحلات الحج والعمرة[١].

وإلى ما قبل الاحتلال الصهيوني للقدس في عام ١٩٦٧م كانت السياحة فيها مزدهرة جدًّا؛ إذ بلغ عدد الغرف الفندقية ٢٧٥٠ غرفة ضمن ٥١ فندقًا، وكان يعمل بها ٢٥٥٠ موظفًا، وبلغ عدد مكاتب السياحة والسفر في القدس ٢٧ مكتبًا، كما بلغ عدد تجَّار التحف الشرقية ١٢٦٧ تاجرًا مرخَّصًا، كما بلغ عدد شركات النقل السياحي ١٣ شركة، وكانت السياحة إلى المسجد الأقصى تدر على الأوقاف الإسلامية في القدس نحو أربعة ملايين دينار سنويًّا[٢].

كما أن مرور الزمن وتوالي الأيام على المسلمين أسفر عن نشوء كثير من الفرق والاتجاهات التي أضافت مزيدًا من التعظيم والتقديس لأعلامها - إمَّا بالحقِّ أو بالباطل - فبنت لهم القبور والمشاهد والمزارات، وأقامت لهم الموالد والاحتفالات، وهذا ما جعل كثيرًا من المناطق الأخرى -لا سيما تلك التي تزخر بالحركات الصوفية، أو ينتشر فيها المذهب الشيعي- تشهد مواسم أخرى شبيهة بالحج من حيث وجود حركة شعبية نحو مكان بعينه في أوقات بعينها، ينشأ عنه حركة سياحية بشكل تلقائي، هذه الحركة السياحية تمثِّل عنصر دخل مهمًّا للدول الكائنة فيها بحسب أهميتها الدينية وأعداد أتباع المذهب أو الطريقة.

وبخلاف الحج من حيث كونه عبادة دينية نجد أمر السير والارتحال في الأرض من الأمور التي ندب إليها الإسلام، ففي القرآن الكريم ذُكر معنى السياحة في الأرض في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة، فهو أمر إلهي مُؤَكَّد بهذا العدد من التكرار، وكان معنى السير في الأرض لهدفين: الاعتبار والاتعاظ بآثار الأمم، والتفكُّر في بديع خلق الله، قال سبحانه وتعالى في معنى

---

(١) تقرير اقتصادي صادر من البنك السعودي الفرنسي، أعده الدكتور جون اسفيكياناكيس، وتركي بن عبد العزيز الحقيل، عرضت له صحيفة الرياض السعودية بتاريخ ٢١/ ١١/ ٢٠٠٩م.

(٢) رائف نجم: القدس تحت الحصار، ورقة بحثية منشورة في: القصية الفلسطينية.. تحديات الوجود والهوية، مراجعة وتقديم: منذر الشرع، ص١٥٩.



الاتعاظ بالآثار: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، و﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢]، وفي معنى التفكُّر قال ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، و﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

والسياحة -لا شكَّ- نوع من المتعة، حتى إن شيخ الإسلام ابن تيمية كان يستشعر هذا المعنى فيقول في تلك الفترة التي اضطهد فيها: «ماذا يفعل أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة»[١].

وفسَّر بعض أهل التفسير كلمة «السائحون» التي هي من صفات المؤمنين، بأنها تعني «الجائلون بأفكارهم في توحيد ربهم وملكوته وما خلق من العبر، والسياحة في اللغة أصلها الذهاب على وجه الأرض كما يسيح الماء، وهي مما يُعِينُ العبد على الطاعة لانقطاعه عن الخَلْق، ولما يحصل له من الاعتبار بالتفكُّر في مخلوقات الله»[٢]، وبهذا الاختيار قطع القاسمي[٣] في تفسيره (محاسن التأويل) بعد تحقيق ومناقشة[٤]، وإليه كذلك مال الأستاذ سيد قطب[٥] في ظلال القرآن[٦].

---

(١) ابن القيم: الوابل الصيب ١/ ٦٧.

(٢) الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ٢/ ٥٩٢.

(٣) القاسمي: هو جمال الدين (أو محمد جمال الدين) بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ = ١٨٦٦ - ١٩١٤ م) إمام الشام في عصره، علمًا بالدين، وتضلُّعًا من فنون الأدب، مولده ووفاته في دمشق، له من التصانيف الكثير؛ منها: (شرح لقطة العجلان)، ومشهور بتفسيره (محاسن التأويل). انظر: الزركلي: الأعلام ٢/ ١٣٥.

(٤) القاسمي: محاسن التأويل ٨/ ٣٢٧٥ وما بعدها.

(٥) سيد قطب (١٩٠٦م - ١٩٦٦م): كاتب وأديب ومفكر إسلامي، له إسهامات مجيدة في قضايا الأدب والفكر الإسلامي والدعوة، فقد أعانه الله على إكمال تحفته الخالدة (في ظلال القرآن)، رغم المصاعب التي مرَّ بها في حياته، كما أَلَّف إلى جانب الظلال: (هذا الدين)، و(خصائص التصور الإسلامي)، و(المستقبل لهذا الدين)، وغيرها.

(٦) سيد قطب: في ظلال القرآن ٣/ ١٧١٩.

٣- السياحة في عالمنا المعاصر:

وهذه من أهم الدلائل على أن السياحة فطرة إنسانية؛ فنحن إذا وجدنا أن السياحة تمثِّل عمودًا من أعمدة الدخل في الدول السياحية، أمكننا أن نستنتج ببساطة أن هذا الإقبال بهذه الدرجة من الكثافة إنما يُعَبِّر عن رغبة إنسانية عامَّة لا تدفعها عوامل إجبارية على هذا، بل يحدوها مجرَّد التمتُّع وحبُّ المعرفة والمطالعة.

فالسياحة صناعة رئيسة في معظم الدول؛ وفي منتصف تسعينيات القرن العشرين أسهمت السياحة بما يزيد على ٦٪ من قيمة كل السلع والخدمات المنتجة في أنحاء العالم المختلفة، ومثَّلت - أيضًا- أكثر من ١٣٪ من المنصرفات الاستهلاكية العالمية، ويُقَدِّر الخبراء أن السياحة تدعم أكثر من ١٣٠ مليون وظيفة في مختلف أنحاء العالم، وتُسهم بما يزيد على ٦ ,٥٪ من إجمالي المدفوعات الضريبية، وبلغ معدَّل نموِّ السياحة بين عامي ١٩٧٠ و١٩٩٠م أكثر من ٢٦٠٪، وفي التسعينيات من القرن العشرين نمت السياحة العالمية بمعدَّل سنوي بلغ حوالي ٤٪[(١)].

ومما له دلالته أن نذكر أن السياحة تمثِّل الآن واحدًا من ثلاثة قطاعات تُشَكِّل أكبر مصادر الدخل في العالم، إلى جانب قطاع الصناعات العسكرية، والقطاع الإعلامي، وقد بلغ عدد السياح المسجَّلين عام ٢٠٠١م والذين تحرَّكُوا من دولة إلى أخرى ٦٩٣ مليون سائح، وبلغ معدَّل إنفاق كل سائح ما بين ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ دولار للرحلة، بمعنى أن إجمال الدخل السياحي بلغ نحو ٤٦٢ مليار دولار، بزيادة مئوية بلغت ١٨٪ في سنوات (١٩٩٦- ٢٠٠٠م)[(٢)].

السياحة.. للتعارف:

بنظرة سريعة إلى الدول التي تحتلُّ المقام الأول في حركة السياحة، سنجد أن هذه الدول هي نفسها الدول الأكثر تسويقًا لنفسها وقِيَمِها وحضارتها وخصوصياتها، وسنرى في كثير من التجارِب نماذج إبداعية في صُنْع معالم سياحية، ثم تسويقها وجذب الناس إليها.

---

(١) الموسوعة العربية العالمية «السياحة».

(٢) طالب الرفاعي: البعد الاقتصادي والثقافي للسياحة في الأردن، منشور بكتاب: قواعد وآفاق التحديث في الأردن، مراجعة: منذر واصف المصري، ص١٧٥.

وليس أدلّ على ذلك من النظر إلى ترتيب أشهر المعالم السياحية في العالم، وسنرى أنها ليست آثارًا تاريخية، بل معالم حديثة، أو مناطق طبيعية تمَّت تهيئتها ثم تسويقها لتكون منطقة جذب سياحية، فطبقًا لإحصائية عام ٢٠٠٧م تأتي ساحة التايمز في نيويورك في المركز الأول، يتلوها المنتزه القومي في واشنطن، ثم منتجع والت ديزني في ولاية أورلاندو، وكل هذه الأماكن تقع في أميركا، التي لا تحوي أية آثار أو معالم تاريخية، ثم تأتي ساحة ترافلجار في لندن، ثم ديزني لاند في كاليفورنيا بأميركا، ثم شلالات نيكاراجوا في كندا، ثم جسر البوابة الذهبية في سان فرانسيسكو بأميركا، ثم ديزني لاند طوكيو في اليابان، ثم كاتدرائية نوتردام ويورو ديزني وكلاهما في باريس بفرنسا(١).

فقط مكان واحد من التاريخ يأتي في العشرة أماكن السياحية الأولى في العالم، يأتي في المركز التاسع، وهو كاتدرائية نوتردام في باريس، وهذا ما يُؤكِّد أن الدول التي اهتمَّت بتسويق حضارتها وقيمها، وإثراء اقتصادها قد تجاوزت التحدِّي التاريخي، الذي حرمها من تاريخ ومن معالم أثرية ومزارات دينية، فصنعت بنفسها ما يكون بديلاً عن كل هذا، ونجحت بالفعل.

غير أن المعالم التاريخية والمزارات الدينية ما زالت تضع البلاد التي تحتويها في مصافِّ الدول السياحية الأكثر زيارة على مستوى العالم، وفي إحصائية منظمة السياحة العالمية الصادرة في ٢٠٠٨م، تأتي فرنسا في المركز الأول تليها إسبانيا، ثم أميركا، ثم الصين، ثم إيطاليا، ثم بريطانيا، ثم ألمانيا، ثم أوكرانيا، ثم تركيا، ثم المكسيك(٢).

وفي هذا التصنيف السابق نرى أميركا كشذوذ بين الدول الأكثر زيارة؛ حيث إنها الوحيدة التي لا تحتوي آثارًا تاريخية قديمة، أو مزارات دينية، فيما تأتي بقية الدول لتُعيد عرض تاريخها ومعالمها الحضارية القديمة، ففرنسا أهم البلاد الكاثوليكية في أوربا، وإسبانيا جمعت بين الحضارتين الرومانية ثم الإسلامية، وتزخر أرضها بالقصور والحصون الحافلة بفنِّ العمارة القوطي والإسلامي، والصين هي قلب الحضارة الصينية العريقة، وإيطاليا هي المتحف الروماني الكبير المفتوح في الميادين والشوارع، وهي التي بدأ منها فجر النهضة

---

(١) الموسوعة الحرة العالمية «ويكيبيديا».

(٢) تقرير منظمة السياحة العالمية الصادر في يونيو ٢٠٠٨م، ص١٠.

الأوربية الحديثة، وأخرجت أهم النحاتين والرسامين في هذا العصر.

ومن كل ما سبق نستطيع أن نُضيف إلى أسباب الجهل العالمي بالعالم العربي والإسلامي، تقصير هذه البلاد في استثمار مناطقها السياحية، حتى فيما يخصُّ السياحة الداخلية أحيانًا، فكثير من المعالم الإسلامية تعاني من الإهمال، بل كثير منها مهدَّدٌ بالسقوط والانهيار؛ وعلى سبيل المثال فإن مسجد أولو ديفري الذي بناه السلاجقة في تركيا، رغم أنه مسجَّل في قائمة الآثار العالمية في منظمة اليونسكو إلاَّ أنه يُعاني من التشقُّقَات والإهمال، هذا مع أنه يتميَّز ببعض سمات فريدة؛ إذ بُنِي الباب الغربي فيه بطريقة تجعل الظلَّ المتشكِّل من سقوط أشعة الشمس عليه تكون على هيئة رجل يقرأ القرآن، يتشكَّل هذا الظلُّ قبل صلاة العصر من كل يوم، ولمدَّة ربع ساعة طوال فصل الصيف، والمسجد هو في الأساس مسجد ومستشفى للأمراض العقلية، ومن العجيب أن زخارفه الكثيرة جدًّا صُمِّمَتْ بطريقة تُداعب الخيال البصري، فمن بَعِيدٍ تشعر أن الزخارف متناظرة، حتى إذا دقَّقتَ فيها وجدتَ أنه لا تُوجد زخرفة تشبه الأخرى في كل المسجد(١).

وأسوأ من هذا حالاً ما يكون من تجاهل الأثر؛ فالمدرسة العامرية في اليمن والتي بناها السلطان عامر الطاهري(٢) عام ٩١٠هـ، تُمَثِّل مَعْلَمًا مهمًّا جمع في فنونه المعمارية بين الطراز العثماني والمغربي والفارسي، وكانت المدرسة معلمًا حضاريًّا ومركز إشعاع ديني وثقافي، وكانت مقرَّ حكم السلطان عامر، وبرغم هذا التاريخ والتأثير ظلَّ هذا الأثر قرونًا يُعاني من التجاهل، حتى اكتُشف في عام ١٩٨٣م، فبدأت أعمال ترميم استغرقت ٢٢ عامًا، وانتهت في ٢٠٠٥م، ثم فازت بجائزة مؤسسة الأغاخان العالمية في العمارة الإسلامية(٣).

مثل هذه المعالم الفريدة والمجهولة للعالم، بل لكثير من المسلمين أنفسهم، تُساهم إذا أُحسن استغلالها في حركة النشاط السياحي التي تُمَثِّل بدورها أسلوبًا ممتازًا للتعارف بين

---

(١) تقرير الجزيرة نت بتاريخ ٧/ ٩/ ٢٠٠٩م.

(٢) عامر الطاهري: هو عامر بن داود، من بني طاهر: أمير عدن، وهو بقية بني طاهر ممن ملك اليمن، قتله الوزير سليمان باشا الذي وجهه السلطان سليمان العثماني لدفع البرتغال عن الهند، توفي سنة (٩٤٥هـ=١٥٣٨م). انظر: الزركلي: الأعلام ٣/ ٢٥٠- ٢٥١.

(٣) جريدة المؤتمر اليمنية ٢٠/ ٦/ ٢٠٠٥م.



البشر متعددي الثقافات والحضارات والأذواق، فيُشاهدون نمطًا آخر من السياقات والخصوصيات الحضارية والتاريخية، وقد تكون زيارات لها ما بعدها؛ فتحكي ليلى قنديل - النقيبة السابقة للمرشدين السياحيين بمصر - عن أستاذ جامعي بلجيكي أسلم بعد زيارة قام بها إلى مساجد القاهرة، وحصوله على نسخة مترجمة لمعاني القرآن الكريم[١]، وأسلمت سائحة كندية بعد مشاهدتها لعمال مسلمين في الفندق السعودي يُصَلُّون، ثم أثار هذا المشهد فضولها المعرفي فقرأت حتى أسلمت[٢].

وأهم الكتب المنصفة التي كتبها غير المسلمين كانت بعد سياحة ومشاهدات في العالم الإسلامي، ومعايشة لهذه الشعوب المسلمة، ومن أشهر هؤلاء محمد أسد (ليوبولد فايس[٣] سابقًا) بعد حياة في جزيرة العرب ثم في المغرب العربي، فأسلم ثم كتب (الطريق إلى مكة) و(الإسلام على مفترق الطرق)، وكذلك مراد هوفهان[٤] السفير الألماني في المغرب وغيره من البلاد الإسلامية أسلم -أيضًا- وكتب: (الإسلام كبديل) و(الرحلة إلى مكة) وغيرهما، ومنهم مَنْ لَمْ يُسلم، لكنه لَمَّا تعارف وتعايش في البيئة الإسلامية اكتسب نظرة جديدة؛ منهم - مثلاً- رونالد فيكتور بودلي[٥] الذي تأَثَّر بحياة البدويين وكتب (الرسول، حياة محمد)، وكذلك الكاتبة البريطانية الشهيرة كارين أرمسترونج التي بعدما زارت سمرقند وشاهدت روحانيات المباني الإسلامية في آسيا الوسطى، تغيَّرت نظرتها إلى المسلمين، ثم كتبت (سيرة

---

(١) تحقيق صحفي بعنوان: «في مصر.. المساجد الأثرية مراكز لدعوة السائحين»، منشور في موقع إسلام ويب بتاريخ ١٠/ ٦/ ٢٠٠٢م.

(٢) جريدة الرياض السعودية ٥/ ١٢/ ٢٠٠٨م.

(٣) ليوبولد فايس Leopold Weiss (١٩٠٠-١٩٩٦م): نمساوي يهودي الأصل، درس الفلسفة والفن في جامعة فيينا، ثم اتجه للصحافة فبرع فيها، وغدا مراسلاً صحفيًا في الشرق العربي والإسلامي.

(٤) مراد هوفهان: هو مراد ويلفريد هوفهان Murad Wilfried Hofmann (١٩٣١م - ٠٠)، مستشرق ألماني بارز، درس القانون في ميونخ، عمل منذ الخمسينيات في سفارة ألمانيا الاتحادية في الجزائر، عمل كمدير لقسم المعلومات في حلف الناتو في بروكسل، أعلن إسلامه عام ١٩٨٠م، من كتبه: (الإسلام كبديل).

(٥) رونالد فيكتور بودلي R.V.C. BODLLY: مستشرق بريطاني رائد، التحق بالجيش البريطاني عام ١٩٠٨م، وتدرَّج في رتبه إلى أن وصل إلى رتبة كولونيل، عمل في وحدة الجيش البريطاني بالعراق، وعمل مستشارًا لسلطنة مسقط عام ١٩٢٤م، كان أول مَنْ عبر الربع الخالي، وكشف عن أسراره المجهولة عامي ١٩٣٠، ١٩٣١م، عندما ترك الخدمة الحكومية ذهب ليعيش بين عرب الصحراء، وكتب كثيرًا عن الصحراء وعن الشرق، وأشهر كتبه: (الرسول، حياة محمد)، وهو مترجم للعربية.

النبي محمد)، والنماذج كثيرة جدًّا لا يستوعبها المقام، ولكن الشاهد المقصود هو أن السياحة كانت البداية للتعارف على الإسلام وحضارته وأبنائه.

ولكن برغم أن العالم العربي -وخاصة قلبه الشرقي- كان أرض النبوات والأديان، كما كان أرض التاريخ العريق وأرض الحضارات الأولى في التاريخ البشري المعروف، وهو ما يعني امتلاءها بالمشاهد والمزارات والمعالم، التي تستهوي الناس من مختلف مناطق العالم، إلاَّ أنَّ الواقع لا يُؤَيِّد هذا الافتراض.

فحصة السياحة لهذه المنطقة بلغت في عام ٢٠٠١م حوالي ٢٢ مليون سائح فقط، بما يُمَثِّل ٣٪ من حركة السياحة العالمية، وعند الحديث عن المدخولات السياحية، نجد أن -ومن أصل الرقم البالغ ٤٦٢ مليار دولار، الذي يمثل مجموع مدخولات السياحة في ٢٠٠١م- مدخولات المنطقة بلغت ١١ مليارًا فقط؛ أي: أقل من ٢,٥٪، وذلك في الوقت الذي تتوقَّع فيه منظمة السياحة العالمية وجميع خبراء السياحة في العالم أن تكون منطقة الشرق العربي هي المنطقة الأكثر جذبًا للسياحة في العالم على الإطلاق، ويمكن لنا بعد ذلك أن نُدرك حجم التقصير الذي نحن بصدده[١].

هذا التقصير يكشفه تقرير منظمة السياحة العالمية، ففي قائمة الدول الأكثر زيارة على مستوى العالم نجد اختفاء الدول التي تمثِّل قلب الحضارات من هذه القائمة، وتأتي السعودية في المركز الأول عربيًّا والحادي والعشرين عالميًّا؛ إذ يُقَدَّرُ عدد زائريها بأحد عشر مليونًا ونصف سنويًّا[٢]، وهو عدد في غاية الضآلة، إذا ما وضعنا في الاعتبار أنها تحتوي على الأماكن المقدسة، التي يحجُّ إليها المسلمون ويعتمرون؛ أي: إنها لا تبذل مجهودًا في جذبهم أو الدعاية لها.

ثم تأتي مصر في المركز الثاني عربيًّا والثالث والعشرين عالميًّا، فزوَّارها ١٠,٦ مليون

---

(١) طالب الرفاعي: البعد الاقتصادي والثقافي للسياحة في الأردن، منشور بكتاب: قواعد وآفاق التحديث في الأردن، مراجعة: منذر واصف المصري، ص١٧٥.

(٢) تقرير منظمة السياحة العالمية الصادر في يونيو ٢٠٠٨م، ص١٠.



سنويًّا[(١)]، وهو -أيضًا- عدد قليل إذا وضعنا في الاعتبار أنها البلد الوحيد الذي يحتوي آثار حضارة الفراعنة القدماء، وهي من أعظم الحضارات في كل العصور القديمة، ثم تحتوي بعضًا من حضارة اليونان والبطالمة، لا سيما في العاصمة القديمة الإسكندرية، ثم أكثر من ألف عام من الحضارة الإسلامية، التي كانت فيها القاهرة واحدة من أهم المدن الإسلامية كبغداد وقرطبة.

ثم تختفي الدول العربية حينًا لتظهر المغرب في المركز ٣١، والإمارات في المركز ٣٢، ثم تونس في المركز ٣٤، وهكذا لا نجد سوى خمس دول عربية فقط بين الدول الخمسين الأولى سياحيًّا، وبهذا فلا عجب أن ينتشر الجهل بالعالم العربي وحضارته وثقافته عالميًّا؛ ومن ثَمَّ فلا بُدَّ لنا أن نُفَكِّر في تنمية هذا المشترك الداعم؛ إذا أردنا أن ننشر قيمنا وحضارتنا وثقافتنا في أنحاء العالم، فنُقَدِّم الصورة الصحيحة في مقابل الصورة المشوَّهة المترسخة.

***

(١) تقرير منظمة السياحة العالمية الصادر في يونيو ٢٠٠٨م، ص ١٠.

الباب الثالث

الطريق إلى المشترك الإنساني

الفصل الأول : حتمية الحوار

الفصل الثاني : رابطة المعاهدات

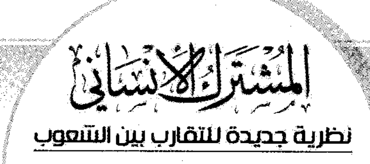
الفصل الثالث : التكتلات

الفصل الرابع : أخلاق التعارف في سورة الحجرات

الفصل الخامس : وقفة مع الفكر الغربي الحديث

الفصل السادس : هل يمكن أن نُعيد رسم التاريخ !!





الباب الثالث

الطريق إلى المشترك الإنساني

كيف السبيل إلى تفعيل نظرية المشترك الإنساني، وتنزيلها إلى واقع الحياة العملي؟

لقد تعرَّضنا في هذه النظرية إلى الأفكار، وبقي أن نقرأ في التجربة الإنسانية عبر التاريخ كيف كان السبيل الذي انتهجه العقلاء من بني الإنسان، لتحقيق قيم التعايش والتعارف والتعاون في ظلِّ وجود الاختلافات القائمة بين البشر؟

والحقيقة أن الميراث الإنساني حفل بكثير من التجارِب الناجحة في إمكانية إنهاء النزاعات، والانتقال من الأزمة الكائنة والقائمة إلى الوضع الأفضل المأمول، وفي أحيان كثيرة رُزقت الأمم بقيادات فكرية وسياسية استطاعت تحقيق هذا الحلم في ظروف عصيبة من بعد ما بدا أنه لا يتحقق.

في هذا الباب نتناول بعض الآليات والنماذج التي وضعها الإنسان في مسيرته من أجل التعارف والتعايش، وذلك عبر هذه الفصول:

- الفصل الأول: حتمية الحوار
- الفصل الثاني: رابطة المعاهدات
- الفصل الثالث: التكتلات
- الفصل الرابع: أخلاق التعارف في سورة الحجرات
- الفصل الخامس: وقفة مع الفكر الغربي الحديث
- الفصل السادس: هل يمكن أن نُعيد رسم التاريخ؟!

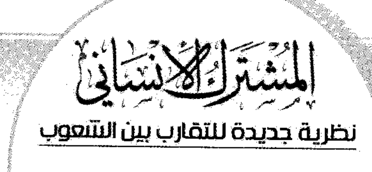
حتمية الحوار

قال تعالى :

" وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ "

القرآن الكريم (سورة العنكبوت: ٦٤)







الفصل الأول

حتمية الحوار

ذكرنا في الباب الأول أن الإنسان سائر في طريق الحياة بين اختيارين: إمَّا التعارف لتحقيق المصلحة المشتركة، وإمَّا التقاتل لتحقيق المصلحة الذاتية، وقلنا: إن الأسلوب الأوَّل هو أسلوب الأسوياء، وأن الثاني أسلوب الأشقياء.

ومن أبرز آليات التعارف لتحقيق المصلحة المشتركة: الحوار، ولسنا نعني هنا الحوار التقليدي؛ الذي هو مجرَّد تبادل الكلمات بين الطرفين، وإنما نقصد الحوار الإيجابي المثمر، الهادف إلى تحقيق نتائج عملية متمثِّلة في المصلحة المشتركة، حتى لو كانت هذه المصلحة مجرَّد المعرفة بالشعوب الأخرى، وسماع تعريفها لنفسها، فهذا في حدِّ ذاته مصلحة للإنسانية كلها.

إن الإنسان -كما يُقال بحقٍّ- عدوٌّ ما يجهل؛ لذا فالتعارف هو الضمانة دون أن يتحوَّل الإنسان المختلف إلى عدوٍّ، ولن يكون تعارف حقيقي ما لم يجرِ حوار حقيقي بين الشعوب.

والعقلاء الذين يُريدون صلاح الإنسانية لا يختلفون على قيمة الحوار وأهميته؛ حتى إن أفلاطون يعتبر الحوار هو «العلم الأعلى الذي ليس بعده مناقشة»؛ لأنه المنهج الذي به يرتفع العقل من المحسوس إلى المعقول، دون أن يستخدم شيئًا حسيًّا، بل الانتقال من معانٍ إلى معانٍ بواسطة معانٍ[1].

وفي هذا الفصل نتناول معنى الحوار الناجح وشروطه، ثم نضرب نموذجًا عمليًّا لحوار استطاع أن يُجنِّب أطرافه خسائر جمَّة، وذلك من خلال العنصرين الآتيين:

- الحوار الناجح.
- الحوار مع الخوارج «نموذجًا».

---

(١) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، ص٩٤ وما بعدها.

الحوار الناجح

لم يبدأ مذهب من المذاهب، ولم تنتشر فكرة من الأفكار، في بادئ الأمر إلاَّ عن طريق الحوار والإقناع، وبهذه الطريقة وحدها تجمعُ الفكرة الأتباعَ والمتحمسين والمعجبين، ثم تبدأ رحلتها في عقول البشر؛ إمَّا بالحوار إلى نهاية الأمر، وإمَّا أن تضطر إلى المواجهة والصدام لتنشر نفسها، أو أن تكون بطبعها فكرة صدامية فتبدأ بحمل السلاح، فتكون بهذا قد اختارت شكل الحوار والمواجهة التي تُريد، إلاَّ أن البداية الأولى كانت دائمًا من الحوار.

منذ أقدم المصلحين -وأسماهم الأنبياء عليهم السلام- لم يكن شأن أحدهم إلاَّ أن يقول وينصح، ويُبَيِّنُ ويُحاوِر قومه بألين عبارة وألطف حديث، ولقد سَجَّل القرآن الكريم كيف كان الأنبياء يسلكون كلَّ السُّبُل في دعوة قومهم بالحوار وحده، حتى إن نوحًا عليه السلام لبث في قومه ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، وبرغم هذا ﴿مَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وبمثل هذا كان حال أنبياء الله هود وصالح وإبراهيم ولوط وغيرهم، وظلَّ الأنبياء لا يستعملون غير الحوار مع أقوامهم، وكان الله يُهلك مَنْ لم يؤمن.

وحتى الحكماء الذين وضعوا - أو نُسبت إليهم- المذاهب والديانات الوضعية، كان سبيلهم الأول هو الحوار؛ يستوي في هذا بوذا وفلاسفة الهند، وكونفوشيوس وفلاسفة الصين، كذلك فلاسفة اليونان الذين كانوا من أبرز بني الإنسان تحليلاً لفنون الحوار؛ لأنهم كانوا في بيئة السوفسطائيين الذين «اخترعوا لأوربا النحو والمنطق، وهم الذين رَقَّوْا فنَّ الجدل، وحلَّلُوا أشكال الحوار، وعَلَّمُوا الناس كيف يكشفون الخطأ المنطقي، وكيف يمارسونه، وبفضل ما بعثوه في اليونان مِنْ حافز قوي، وما ضربوه بأشخاصهم من أمثلة، شُغِفَ مواطنوهم بالمناظرة والاستدلال»[1].

ولم يزل الفلاسفة والمصلحون في كل عصر يتخذون سبيل الحوار، حتى وصل الأمر إلى

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٧/ ٢١٧.

ما يُشبه الثورة عند هيجل، الذي اعتبر أن تاريخ البشرية إنما هو سلسلة من الحوار والجدال بين الأفكار، حتى لقد عُرف منهجه بالمنهج الجدلي، وعنده أن الوعي يسبق المادة، وأن الفكرة -مع استمرار الحوار والجدال- يتولَّد منها نقيضها ثم لا يزالان يتجادلان حتى يتولَّد منهما فكرة أخرى جديدة، هي نفسها -وبأثر من الحوار والجدال معها- ستلد نقيضتها... وهكذا[1].

ومن ثورة هيجل الذي جعل التاريخ كله تاريخًا من الحوار، حتى لحظتنا الحاضرة التي تعترف فيها الإنسانية بضرورة الحوار والتواصل بين البشر، وبحتمية هذا الحوار لعالم أفضل، لا سيما بعد ظهور نظريات تصادمية مثل نظرية هنتنجتون؛ ومن ثَمَّ كثر الحديث عن حوار الحضارات وتعايش الحضارات وتكامل الحضارات.. وما إلى ذلك[2].

الحوار في ظلال النظرية:

في ظلِّ نظرية «المشترك الإنساني» سنرى أن البشرية تحتاج إلى الحوار بشكل دائم، في كل المشتركات الإنسانية ثمة مساحات للحوار فيها الأخذ والردُّ.

المشترك الأسمى: وهو أعلى المراتب التي تعالَجُ بالحوار، بل هو -كما أوضحنا من قبل[3]- لا سبيل إلى معالجته بأي شكل آخر إلاَّ الحوار، فهو المنطقة الحساسة المشتعلة التي لا يقبل الإنسان أن تُنتهك أو تُهان، والعقيدة حين تُنتهك إنما تُفَجِّر طاقات المقاومة بكل عنفوانها وقوَّتها وقسوتها، والحرب الدينية هي أخطر وأشرس وأطول أنواع الحرب جميعًا.

من أجل ذلك كانت تعاليم الإسلام تُوصي أن يكون الحوار مع أهل الكتاب - ليس بالحسنى فقط بل- بالتي هي أحسن، قال تعالى: **﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** [العنكبوت: ٤٦]. ولا يقتصر هذا الأمر على أهل الكتاب فقط، بل حتى في الحوار مع

---

(١) انظر في تحليل فلسفة هيجل ومدى تأثيره على مسار الفلسفة الغربية، هربرت ماركيوز: العقل والثورة.. هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية. هذا برغم أن هيجل لم يكن أول القائلين بهذا بل سبقه الفيلسوف الألماني فيخته. انظر: رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوروبي الحديث، ص٣٦٠.

(٢) عبد الله العليان: حوار الحضارات في القرن الحادي والعشرين، ص٢١١.

(٣) راجع فصل «المشترك الأسمى» من الباب الثاني.

المشركين، الذين يعبدون غير الله تعالى حذَّر القرآن الكريم من التعرُّض إلى معتقداتهم بسوء، وهو تحذير يكشف عن أن مجرَّد التعرُّض بالسوء -ولو على مستوى الألفاظ- إلى العقائد الأخرى كفيل بأن يفتح باب اشتباك، قال ﷻ: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، ثم تأتي الحكمة الربانية لتكشف عن أنَّ كل قوم راضون عن معتقداتهم، ومتعلِّقون بها ويستحسنونها، وأن الفصل في هذا الأمر سيكون عند الله في يوم القيامة: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨]؛ لذا فالمنهج الإسلامي العامُّ للحوار في أمر العقيدة هو ما ورد في قوله ﷻ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وفي قوله ﷻ: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣].

بل نهج القرآن الكريم منهج النزول في الحوار فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ۞ قُلْ لاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٤- ٢٦]، فالرسول ﷺ يعلم على وجه اليقين أنه على الحقِّ والهدى، ومع ذلك أمره الله في تحاوره مع المشركين أن يقول لهم: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾، وإنها الأرضية المشتركة التي نقف عليها، أحدنا على حقٍّ والآخر على باطل، فلنتناقش ولنتحاور حتى نصل إلى الحقيقة الغائبة؛ إنها طريقة الحوار المثلى، وغاية الأدب، ومنتهى سموِّ الأخلاق، ثم يُعَلِّمه الله ﷻ أن يخاطبهم في أدب جمٍّ، فيقول لهم: ﴿لاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، فقد أُمر الرسول ﷺ بأن ينسب (الجُرْم) إلى نفسه، وهو عادة يأتي في الأخطاء والزَّلاَّت، وينسب لفظ (العمل) لهم، وهو يحتمل الصلاح أو الفساد، ثم يُسَلِّم الأمر كله بعد ذلك لله ﷻ، فيقول: إن الله ﷻ سيجمع بيننا جميعًا يوم القيامة، ويحكم بيننا بالحقِّ الذي يراه، فنعرف ساعتها مَنِ الذي أصاب، ومَنِ الذي أخطأ، وهذه -ولا شكَّ- أرقى وسيلة ممكنة من وسائل التحاور، لا تحمل أي صورة من صور العصبية والتَّزَمُّت، إنما فيها كل الأدب، وكل التقدير للطرف الآخر[1].

(١) راغب السرجاني: التعامل مع غير المسلمين في السنة النبوية، بحث غير منشور، ص٨٥.



ومن الأمثلة القيمة ذلك الموقف الرائع الذي دار بين النبي ﷺ وعتبة بن ربيعة[1] الذي جاء مساومًا رسول الله ﷺ على ترك الإسلام؛ إذ قال: «يا ابن أخي؛ إنك منَّا حيث قد علمتَ من السِّطَة[2] في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك أتيتَ قومك بأمر عظيم فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به مَن مضى مِن آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها؛ لعلَّك تقبل منها بعضها». فقال له رسول الله ﷺ: «**قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ**». قال: «يا ابن أخي؛ إنْ كنتَ إنما تُريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا؛ حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنتَ تُريد به شرفًا سوَّدناك علينا؛ حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإنْ كنت تريد به مُلكًا ملَّكناك علينا، وإنْ كان هذا الذي يأتيك رِئيًا[3] تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطبَّ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرِئك منه؛ فإنَّه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه».

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: «**أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟**» قال: نعم. قال ﷺ: «**فَاسْمَعْ مِنِّي**». قال: أفعل. فقرأ ﷺ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿**حم ۞ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ۞ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ**﴾ [فصلت: ١ - ٥]. ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: «**قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ فَأَنْتَ وَذَاكَ**».

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه

---

(١) عتبة بن ربيعة: من حكماء قريش، وكان سببًا في إنهاء حرب الفجار، إلا أنه اتبع هواه ولم يُسْلِم، وكان ممن آذى النبي ﷺ وأصحابه إيذاءً شديدًا، وضرب أبا بكر يومًا ضربًا شديدًا، حتى إن بني تيم (قبيلة أبي بكر) قالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلنَّ عتبة بن ربيعة. قُتل كافرًا في بدر ومعه ابنه الوليد، وأخوه شيبة.

(٢) السِّطة: الكرم والشرف والحسب. ابن منظور: لسان العرب، مادة وسط ٧/ ٤٢٦، والمعجم الوسيط ٢/ ١٠٣١.

(٣) الرَّئِيّ والرِّئِيّ: الجِنِّيُّ يراه الإنسان، ويتعرَّض له يُريه كهانة. ابن منظور: لسان العرب، مادة رأى ١٤/ ٢٩١، والمعجم الوسيط ١/ ٣٢٠.

الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعتُ قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشِّعْر ولا بالسِّحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش؛ أطيعوني، واجعلوها بي، وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليَكُونَنَّ لقوله الذي سمعتُ منه نبأٌ عظيم، فإن تُصِبْهُ العرب فقد كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وإن يظهر على العرب فمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وعِزُّه عِزُّكُمْ، وكنتم أسعدَ الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم[1].

وهذا الحوار في غاية الأهمية؛ بل يُعتبر دستورًا في الدبلوماسية والتفاوض، فعلى الرغم من أن عتبة بن ربيعة كان قد قدَّم كلامه بمجموعة من التُّهَم الموجَّهة لرسول الله ﷺ؛ إلاَّ أنَّ رسول الله ﷺ ظلَّ على هدوء أعصابه، ولم ينفعل، إنما واصل الاستماع في أدب واحترام، رغم أن عتبة عرض على النبي ﷺ التنازل عن دعوته مقابل ما يعرضه عليه من مغريات الدنيا، فقبِلَ أن يستمع النبي ﷺ إليه، بل وقال له: «**قُلْ يَا (أَبَا الْوَلِيدِ) أَسْمَعْ**». فهو يُكَنِّيه بِكُنْيَتِهِ؛ أي يُناديه بأحب الأسماء إليه ويُلاطفه ويُرَقِّق قلبه، ولَمَّا عرض عتبة بن ربيعة الأمور التي جاء بها لم يُقاطعه النبي ﷺ مع سفاهة العروض وتفاهتها، بل إنه صبر حتى النهاية، وقال في أدب رفيع: «**أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟**» قال: نعم. قال ﷺ: «**فَاسْمَعْ مِنِّي**».

لقد أعطى رسول الله ﷺ الفرصة كاملة لعتبة؛ لكي يتكلَّم ويعرض وجهة نظره، وبعد انتهائه تمامًا بدأ هو في الكلام؛ ليضرب لنا بذلك أروع الأمثلة في التحاور مع الآخرين، وإن كانوا مخالفين تمامًا في العقيدة والدين.

لقد أطلنا -عن عمد- في أمر الحوار حول المشترك الأسمى وهو العقيدة؛ لما لهذا الجانب من خصوصية تجعله لا يحتمل المعالجة إلاَّ بالحوار.

المشتركات العامة: برغم كون هذه المشتركات ثوابت أصيلة في الطبيعة الإنسانية،

---

(١) مسند أبي يعلى (١٨١٨)، وابن هشام في السيرة (١/ ٢٩٣-٢٩٤)، والبيهقي في الدلائل (١/ ٢٣١، ٢٣٠)، وأبو نعيم في الدلائل (١٨٢)، وابن أبي شيبة في مصنَّفه (١٤/ ٢٩٥-٢٩٦)، وعبد بن حميد في المنتخب (١١٢٣)، والحاكم (٢/ ٢٥٣)، وصححه ووافقه الذهبي. انظر: المطالب العالية (٤٢٨٥). وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٩-٢٠): رواه أبو يعلى، وفيه الأجل الكندي، وثَّقه ابن معين وغيره، وضعَّفه النسائي وغيره؛ فهو حسن الحديث إن شاء الله، وبقية رجال الحديث ثقات.

مستقرَّة في نفس كل البشر، إلاَّ أن تفاصيل كثيرة تندرج تحت هذه القيم تحتاج إلى أن تكون على مائدة الحوار؛ لمزيد من التعارف والالتقاء بين الشعوب.

فالعدل -على سبيل المثال- وهو من الأخلاق الأساسية المندرجة في المشتركات الإنسانية العامَّة، قيمة كبرى وأصيلة، غير أن معنى العدالة وتحقُّقها بالشكل الأمثل وشروط القائمين على تنفيذها ومدى سلطاتهم وصلاحيتهم موضوع نقاش، أين يقع الخط الفاصل بين العدل والرحمة؟ وأين هذا الخط بين العدل والقسوة؟

كيف نُوَفِّق بين الحرية -التي هي أيضًا معنى كبير وحقٌّ أصيل ومن المشتركات العامة- وبين إقرار النظام؟ أين يقع الخط الفاصل بين حريات الأفراد وسلطات الدولة؟ وكيف نضمن ألاَّ تتعدى الدولة على الحقوق الأصيلة للأفراد؟ ثم وفي الوقت نفسه كيف نضمن ألاَّ تتحوَّل حريات الأفراد إلى غول ضخم من الفوضى والهرج؟

كلها أسئلة يُجاب عنها في كل شعب بإجابات أصلها واحد وتفاصيلها متنوِّعة، وعند كل شعب إبداع في الإجابة أو طريقة في الحلِّ تستحقُّ أن تعمم على غيره من الشعوب، ثم لكل شعب ثقافة وخصوصيات أخرى تجعل إجابته عن السؤال أو طريقته في الحلِّ لا يمكن استنساخها في مكان آخر.

ولعلَّ من أبرز الأمثلة الدالة على هذا ما يتَّضح في الانقسام القائم على عقوبة الإعدام مثلاً، ففي حين يرى أُناس أن الإعدام هو العقوبة الوحيدة العادلة للقاتل المتعمِّد، وأن هذا المعنى من الوضوح إلى الحدِّ البدهي والمنطقي والفطري، يرى آخرون إلغاء عقوبة الإعدام حتى للقاتل المتعمِّد؛ ونظريتهم أنه لا يجوز مقابلة جريمة بجريمة أخرى مثلها.

التملك.. الكرامة.. العلم.. العمل، كلها أصول كبرى مُتَّفق عليها، إلاَّ أن لها أنماطًا متنوِّعة بتنوُّع الرؤية والثقافة والمعتقدات والأعراف والعادات والتقاليد، «ونستطيع القول: إن كل أُمَّة من الأمم كان لها إسهاماتها الكبيرة في إثراء التنوُّع الثقافي عبر العصور، وكانت كل أُمَّة مكمِّلة لغيرها، وكل تراث حضاري مهما كان تنوُّعه أو اختلافه فهو ناشئ بفعل التأثير

والتأثُّر، ويقع تحت مضمون الأخذ والعطاء»[١].

المشتركات الخاصة: ذكرنا من قبلُ أن ثمة ثابتًا ومتغيرًا في المشتركات الإنسانية، فالمشتركات العامَّة لا تتغيَّر؛ إذ لن يأتي زمان يتخلَّى فيه الإنسان عن الطعام والشراب، ولن يتخلَّى الإنسان عن كرامته -وإن أُهِينت- أو عقله.. وما إلى ذلك، إلاَّ أن المشتركات الخاصة مع المشترك الأسمى تتغيَّر بتغيُّر الزمان والمكان والظروف والقناعات، وذكرنا أنه يجب الحذر من أن تتغير هذه المشتركات بصورة قسرية غير مستساغة أو مقبولة من الشعوب؛ لأن التجارِب التاريخية تُثبت أن التغيير بالقوَّة يُؤَدِّي إلى حروب وصراعات.

إذًا؛ فإن سبيل الأسوياء لتغيير المشتركات الخاصة لا يكون إلاَّ بالحوار والتراضي، وهو حوار يستمرُّ طوال أجيال أو حقب، ويصحبها كثير من الأحداث والظروف والتغيرات التاريخية والسياسية والبيولوجية وما إلى ذلك، ونستطيع أن نضرب على هذا مثالاً بتاريخ الحضارة الإسلامية؛ ففي ظلِّ هذا التاريخ لا نجد قسرًا للشعوب على تغيير لغاتها أو ثقافتها أو عاداتها وتقاليدها أو أرضها؛ ومن ثَمَّ رأينا أن كثيرًا من الشعوب خرجت من لغاتها فاختارت اللغة العربية؛ مثل: المصريين، وشعوب الشمال الإفريقي، ثمة شعوبٌ أخرى لم تتكلَّم بالعربية واحتفظت بلغاتها مثل الأتراك، وفي كلا الحالين لا بأس، ولم يمثِّل هذا أمرًا ذا حساسية تخشى منه الدولة الإسلامية.

حدث تزاوج وانصهار عرقي بين العرب وسائر الشعوب المفتوحة، وبين هذه الشعوب وبعضها، نشأت أجيال ذات أعراق جديدة، نشأت عادات وتقاليد أخرى، وبقيت عادات وتقاليد قديمة كذلك، نشأ تاريخ جديد وعلاقات جديدة بين الأقطار، تَكَوَّنت ثقافة جديدة وبقيت ثقافات قديمة أيضًا.. كل هذا تمَّ دون قسر أو إجبار.

الخلاصة أن كل هذا تغيُّر عَبْرَ التاريخ والأجيال دون عُنف أو قهر أو إجبار إنما كان عن طريق الحوار؛ وذلك ما جعل كل هذه التغيُّرات عميقة وخالدة وراسخة في الوجدان الجمعي للشعوب الإسلامية.

---

(١) هدى درويش: تقارب الشعوب، ص٣٠، ٣١.

المشتركات الداعمة: وأمَّا المشتركات الداعمة فهي المجال الإنساني الأرحب والأوسع للحوار؛ فالفنُّ والسياحة والرياضة إنما هي -في التحليل الأخير- حوار خاصٌّ بين الشعوب المختلفة؛ الفنُّ حوار مع المواهب والإبداعات والأنماط الثقافية والاجتماعية والحضارية للشعوب المختلفة، والسياحة حوار مع التاريخ والجذور والماضي العريق للشعوب القديمة، وهي كذلك حوار مع الحاضر والحداثة والتقنية والتقدُّم التكنولوجي للشعوب الحديثة، تلك التقنيات التي خلقت من «الأرض البكر» -إن صحَّ التعبير- مزارات سياحية جذَّابة، والرياضة حوار مع القدرات والإمكانيات العضلية والذهنية وأساليب التفكير والتخطيط والمناورة.

فالمشتركات الداعمة مساحات مفتوحة للتعليم والتعلُّم، يأخذ كلُّ قوم من غيرهم أفضل ما لديهم من تطوُّرات، ثم يأخذ منهم غيرهم أفضل ما يملكون أيضًا، ومن المميزات التي تختصُّ بها هذه المشتركات أنها ساحة أبعد ما تكون عن التعصُّب، فلا بأس عند أي أحد أن يأخذ من الآخر ما يرى أنه مفيد له ما لم يكن مصطدمًا مع خصوصية دينية أو ثقافية أو اجتماعية.

جمال الحوار:

إن الحوار المقصود ليس مجرَّد تبادل الكلمات، ولا هو الحوار العقيم الذي يبدو وكأنه غاية في نفسه، إنما الحوار الذي نعنيه هو ما كان مُتَّصِفًا بالسمات التالية:

*** حوار هادف:**

وهو الحوار الحريص على أن يصل إلى غاية، وهو يعني رغبة المتحاورين في تحقيق نتائج، ومن المهمِّ أن نعلم أن الأصل اللغوي لكلمة «حوار» هو من الحَوْر، وهو: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، والمحاورة: المجاوبة، والتحاور: التجاوب، وهم يَتَحاوَرُون؛ أي: يتراجعون الكلام، والمُحاوَرَة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة[1]؛ ومن ثَمَّ فكل حوار هادف حقًّا

(١) الجوهري: الصحاح، باب الراء فصل الحاء ٢/ ٦٤٠، ابن منظور: لسان العرب، مادة حور ٤/ ٢١٧، والرازي: مختار الصحاح ص١٦٧.

إنما يحمل في طياته تراجعًا عن المواقف المسبقة الموجودة قبل الحوار.

وهذا على عكس الجدال الذي هو -كما ورد في المعاجم العربية- اللَّدَدُ في الخُصومة والقدرةُ عليها، ويقال جادَلْت الرجل فجَدَلته جَدْلاً أي غلبته، ورجل جَدِل: إذا كان أقوى في الخِصام، وجادَله: أي خاصمه، والجَدَل: شدَّة الخصومة[١].

ويُظْهِر المعنى اللغويُّ الفارقَ بين التعبيرين؛ فالحوار أخذ وردٌّ في ظلٍّ من التفاهم والتعاون وقصد التوصُّل إلى الحقِّ، وأمَّا الجدال فهو معركة بين متصارعين، كلاهما يبغي أن يغلب خصمه ويظهر عليه؛ ولهذا كان أكثر ورود الجدال في القرآن الكريم بهذا المعنى المذموم، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥]، وحين يتحوَّل الحوار إلى جدال يوصي القرآن الكريم بترك هذا النوع من الحديث: ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٨، ٦٩].

وهذا الحوار الهادف لا يكون إلاَّ بين طرفين لديهما إرادة الوصول إلى نتيجة، أو كما قال الإمام ابن تيمية: «المناظرة والمحاجة لا تنفع إلاَّ مع العدل والإنصاف»[٢].

ولأن وجود هدف من وراء الحوار شيء ضروري وحيوي؛ فقد احتفظت الذاكرة الإنسانية بالتقدير لأفلاطون؛ ذلك أن أفلاطون أخذ على عاتقه أن يتحدَّى السوفسطائيين، بنقل لفظ الجدل من معنى المناقشة المموَّهة إلى معنى المناقشة المخلصة التي تُوَلِّد العلم، وقد أجرى كتبه في صورة حوارات على لسان أستاذه سقراط[٣].

* حوار متواضع:

يتميز بالأدب واحترام الآخرين، «إن من الخطأ البيِّن أن تظن أنَّ الحقَّ لا يغار عليه إلاَّ

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة جدل ١١/ ١٠٣.

(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٤/ ١٠٩.

(٣) وبسبب من هذا يختلف الباحثون في نسبة الأقوال إلى سقراط وأفلاطون؛ إذ هو غير معروف على وجه الحقيقة ما إذا كانت هذه الأقوال من أفكار سقراط ينقلها تلميذه، أم هي من أفكار أفلاطون يُجريها على هيئة حوار على لسان أستاذه.



أنت، ولا يحبه إلاَّ أنت، ولا يدافع عنه إلاَّ أنت، ولا يتبناه إلاَّ أنت، ولا يخلص له إلاَّ أنت، ومن الجميل وغاية النبل، الصدق الصادق مع النفس، وقوة الإرادة، وعمق الإخلاص؛ أن تُوقِفَ الحوار إذا وَجَدْتَ نفسك قد تغير مسارها ودَخَلَتْ في مسارب اللجج والخصام، ومدخولات النوايا»[1].

إنَّ التكبُّر واعتقاد امتلاك الحقيقة المطلقة، وتمثيل الخير المطلق لا يُساهم في تشجيع الحوار؛ بل يُؤَجِّج الحقد والعداء، ومنطق «الأنا ضد الباقي» منطق يرفض الاعتراف بحقيقة التكامل والاعتماد المتبادل بين كل شعوب العالم[2].

وفي القرآن الكريم نجد الوصية بمراعاة هذه الحقيقة؛ ففي خطاب النبي ﷺ مع المشركين: ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ قُلْ لاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ**﴾ [سبأ: ٢٤- ٢٦]. فبرغم أن القرآن حقٌّ مطلق لا شبهة فيه، ونزل على رسول لا شكَّ في صدقه وأمانته ونزاهته وكفايته في التلقِّي والتبليغ، إلاَّ أنه في مجال الحوار يُراعي هذه الطبيعة، التي لو لم تتوفَّر في حوار لكان عبثًا مذمومًا، ولأثار القلوب والنفوس ودفعها باتجاه عدم السماع للكلام.

*** حوار محترم:**

ولا بُدَّ للحوار أن يحترم الآخرين: عقائدهم وثقافتهم وأعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم، لا يمكن أن ينشأ حوار لا يتحقَّق فيه هذا الاحترام، «ليس الحوار مجرَّد تبادل للرأي بين طرفين أو أكثر، إنما هو «سلوك» يقوم على مقوِّمَاتٍ تجعل منه عملية أخلاقية، وفكرية، هادفة، قد لا تنتهي بالضرورة إلى تبنِّي أحد الطرفين لرأي الآخر؛ حيث تقلُّ احتمالات تحقيق هذا في كثير من الأحوال؛ ومن ثَمَّ فإن ما لا يقلُّ عن ذلك أهمية أن يتحقَّق «تفاهم وتقدير» «وعمل مشترك»«لنزع فتيل» ما يصحب المواقف المتصارعة من انفعالات حادة»[3].

---

(١) صالح بن حميد: أصول الحوار، ص١٩.

(٢) محمد سعدي: مستقبل العلاقات الدولية ص٣٥٦.

(٣) سعيد إسماعيل علي: الحوار ثقافة ومنهجًا، ص٢٢٩.

إن الحوار وسيلة للتعارف أو التفاهم أو التعاون؛ تعارف بين أطراف تجهل بعضها، أو تفاهم بين أطراف متنازعة، أو تعاون بين أطراف متحالفة.. في كل هذه الحالات يحتاج جميع الأطراف إلى أن يُحافظوا على قدر من الاحترام لخصوصيات الأطراف الأخرى؛ ذلك أن إهانة هذه الخصوصيات إنما هو اعتداء على الهوية، وهو أمر كفيل بتفجير الحوار؛ ومن ثَمَّ إشعال النزاع.

***

بعد كل هذا يجب أن نُؤَكِّدَ على الأهمية البالغة للحوار، ثم نُؤَكِّد بعد ذلك بشكل خاصٍّ على أهمية الحوار في المجتمعات التي بُنِيَتْ على تنوُّعَات عديدة، عرقية أو دينية أو ثقافية أو لغوية، ففي هذه المجتمعات تحديدًا إمَّا الحوار وإمَّا خراب الديار.

كذلك لا غنى للحوار في كل فئة أو طبقة أو مستوى من البشر، إلاَّ أنه عند القادة والسياسيين وأصحاب القرار أكثر أهمية، ولا بُدَّ لهؤلاء -على وجه الخصوص- أن تترسَّخ عندهم ثقافة الحوار؛ إذ لو أنهم لم يُدِيرُوا بلادهم بمنطق الحوار فبلا شَكَّ سيُدِيرُونها بمنطق العنف والقهر، وهو ما يدخل بالأمم في نفق من الاستبداد، الذي يمارس القهر فيه فيُوَلِّد المقاومة والعنف، وهو ما يُنتج مزيدًا من القسوة في المقابل.. وهكذا، في هذه الدائرة الجهنمية التي تتكرَّر عبر التاريخ ولا يبدو أن أحدًا يُريد أن يَتَّعِظَ بها فلا يُكَرِّرها.

ولْيَعْلَم القادة وأصحاب القرار أن المعارضة فطرة إنسانية موجودة في كل البشر، وفي كل الدول وفي كل الأمم، فهي لا تُمَثِّل خطرًا ولا تعني أن وراءها مؤامرة، ولا تَنتج بالضرورة عن عداوة شخصية لهم، والاعتراف بأنها فطرة إنسانية؛ يعني أن القائد أو الرئيس أو صاحب القرار لا بُدَّ سيُواجه معارضة من آخرين، وعليه أن يختار -حينئذ- هل يُواجه هذه الفطرة بالحوار أم بالدمار.

وأشدُّ الناس احتياجًا للحوار هم طائفة العلماء والمفكرين؛ فهؤلاء هم العقول التي تتشكَّل أولاً بالحوار والأخذ والردِّ، ثم إنهم يُشَكِّلون العقول والقلوب، ويقودونها نحو تفعيل هذه الأفكار في الواقع العملي، ومثل هؤلاء الذين يُمَثِّلُون عقل الأمم إذا لم يكونوا على استعداد للحوار فنحن على شفا عالَمٍ تتحدَّث فيه الأسلحة والقنابل، ولا شيء آخر.

الحوار مع الخوارج.. نموذجًا

في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ حدثت مجموعة من الفتن السياسية في داخل الأُمَّة الإسلامية، وكان من أشدِّهَا فتنة الخوارج.

وسُمُّوا بالخوارج لأنهم خرجوا على عليٍّ ﷺ ورفضوا سياسته، ورأوا أنه لا يعمل وَفق الشريعة الإسلامية كما جاءت في كتاب الله وسُنَّة النبي ﷺ، ولقد كان الخوارج قومًا مجتهدين في العبادة إلى أقصى حدٍّ، متطرِّفين في فهم النصوص والأخذ بها، مشدِّدين على أنفسهم ومَنْ حولهم، حتى أَدَّى بهم هذا إلى أن رفعوا السلاح في مواجهة المسلمين وقتلوا منهم، وخاضوا تمرُّدًا ضد الدولة، ومثَّلُوا في هذه اللحظات خطرًا بالغًا، وبهذا وصلوا في مواجهة الدولة إلى المرحلة الأخيرة.

وهنا برز في المشهد العالم الفقيه عبد الله بن عباس ﷺ، ابن عمِّ النبي ﷺ، وابن عمِّ أمير المؤمنين عليٍّ ﷺ، واستأذن في أن يحاورهم، ولقد بدت هذه الخطوة وكأنها «عملية فدائية»، حتى إن عليًّا ﷺ تخوَّف على ابن عمه منهم، وفي هذا دليل على ما وصل إليه القوم من الحدَّة والتطرُّف، وسنرى كيف أن بعض مَنْ حملوا السلاح فوصلوا في مواجهة الدولة إلى المرحلة الأخيرة، كانوا على استعداد للسماع، بل ولتغيير المواقف؛ فهو لهذا حوار جدير بأن يتأمَّله كلُّ من استرعاه الله رعية.

قال ابن عباس: لما اعتزلت الحرورية[1] وكانوا على حِدَّتهم، قلتُ لعليٍّ: يا أمير المؤمنين أَخِّر الصلاة لَعَلِّي آتي هؤلاء القوم فأُكَلِّمهم قال: إني أتخوفهم عليك. قلتُ: كلاًّ، إن شاء الله. فلبستُ أُحسن ما قدرتُ عليه من هذه اليمانية، ثم دخلتُ عليهم، وهم قائلون في نحر الظهيرة، فدخلت على قوم لم أَرَ قومًا أشدَّ اجتهادًا منهم، أيديهم كأنها ثَفِنُ الإبل[2] ووجوههم معلنة من آثار السجود، فدخلت فقالوا: مرحبا بك يا ابن عباس، لا تحدثوه. قال بعضهم: لنحدِّثنَّه[3].

---

(١) الحرورية: فرقة من الخوارج.

(٢) أَيديهم كأَنها ثَفِنُ الإِبل: الثفنة ما ولي الأرض من كل ذات أربع إذا بركت كالركبتين وغيرهما، ويحصل فيه غلظ من أثر البروك. ابن منظور: لسان العرب، مادة ثفن ١٣/ ٧٨.

(٣) اختلافهم في قبول الحوار دليل على أن الفئات المتطرفة مهما بلغت تكون مستعدة للحوار والتجاوب، ويظلُّ الرافضون للحوار قلة صغيرة متطرفة في الفئة المتطرفة.

- قلتُ: أخبروني ما تنقمون على ابن عم رسول الله ﷺ وختنه، وأول من آمن به[(١)] وأصحاب رسول الله ﷺ معه؟

- قالوا: ننقم عليه ثلاثًا.

- قلتُ: ما هن؟ قالوا: أولهن: أنه حَكَّم الرجال في دين الله؛ وقد قال الله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ﴾ [الأنعام: ٥٧].

- قلتُ: وماذا؟ قالوا: قاتل، ولم يَسْب ولم يغنم؛ لئن كانوا كفارًا لقد حَلَّت أموالهم، وإن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم.

- قلتُ: وماذا؟ قالوا: ومحا نفسه من أمير المؤمنين[(٢)].

- قلتُ: أرأيتم إن قرأتُ عليكم من كتاب الله المُحْكَم، وحَدَّثْتُكم من سُنَّة نبيكم ﷺ ما لا تُنكرون أترجعون؟ قالوا: نعم[(٣)].

- قال: قلتُ: أمَّا قولكم: إنه حَكَّم الرجال في دين الله. فإنه تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾، إلى قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال في المرأة وزوجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥]. أنشدكم الله أفَحُكم الرجال في دمائهم وأنفسهم وصلاح ذات البين أحقُّ أم في أرنب ثمنها ربع درهم؟

- قالوا: اللهم في حقن دمائهم وصلاح ذات بينهم.

- قال: أخرجتُ من هذه؟ قالوا: نعم.

---

(١) وهنا نبصر تلطفًا وذكاء من ابن عباس في وصف علي ﷺ الذي هو خصمهم، فهو يؤكد على قربه ومكانته لدى النبي ﷺ الذي يجلونه ويوقرونه ويتبعونه، كما أنه لم يصف عليًّا بالأمير أو الخليفة ليخرج من عنصر يثير الأزمة، وإنما بدا الحوار وكأن عليًّا خصم عادي من عامة المسلمين يحاول ابن عباس أن يصلح بينهم ولو أنه قال: ماذا تنقمون على أميركم أو خليفتكم أو جابههم بوجوب طاعة ولي الأمر.. وما إلى ذلك، ما كان قد بلغ معهم شيئًا، ولا كان أحد قد ظلَّ ليسمعه.

(٢) لقد ظلَّ ابن عباس يسمعهم حتى فرغوا من كلامهم، وكانوا كلما قالوا سببًا طلب منهم أن يسمع الذي بعده حتى انتهوا، إنها رحابة صدر ينبغي أن يتحلى بها الإنسان في حواره مع المخالف له، وفي ذلك أثر من سنة النبي ﷺ وقوله: «أفرغت يا أبا الوليد؟».

(٣) وهنا وضع المرجعية التي يتقبلها الجميع، فيكون حوارًا هادفًا مثمرًا.

- وأمَّا قولكم: إنه قتل ولم يَسْب ولم يغنم. أتسبون أُمَّكم؟! أم تستحلُّون منها ما تستحلُّون من غيرها؟ إن قلتم: نعم. فقد كفرتم، وإن زعمتم إنها ليست بأُمِّكُم فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام؛ إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وأنتم تتردَّدون بين ضلالتين، فاختاروا أيهما شئتم، أخرجتُ من هذه؟ قالوا: اللهم نعم.

- قال: وأمَّا قولكم: محا نفسه من أمير المؤمنين. فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الحديبية عليًّا أن يكتب بينه وبين قريش كتابًا، فقال: «اكْتُبْ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله ﷺ». فقالوا: والله لو كُنَّا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله. فقال: «وَالله! إِنِّي لَرَسُولُ الله وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي. اكْتُبْ يَا عَلِيُّ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله». رسول الله ﷺ كان أفضل من عليٍّ. أخرجت من هذه؟!

قالوا: اللهم نعم.

فرجع منهم عشرون ألفًا، وبقي منهم أربعة آلاف[1].

ترى هل كان بالإمكان الوصول إلى مثل هذه النتيجة بغير الحوار؟ ويا ترى كم ضاعت من مقدَّرات البلاد ومن الأرواح والأموال والجهود؛ لأن أصحاب التفكير وأصحاب القرار لم يسلكوا مثل هذا السبيل؟!

صحيح أن الحوار لن يُنْهِيَ كل المشكلات، وأنه بعد هذا الحوار ظلَّ في القوم أربعة آلاف لم يقتنعوا، إلاَّ أن الحوار قد أخرج لنا أربعة أخماس المتمرِّدين؛ أي أنه نجح مع أربعة من كل خمسة من الفئة المستهدفة، ولم ينجح مع واحد فقط.

هذا والأمر لم يَعْدُ أن يكون حوارًا فقط، ولم يَرْقَ إلى اتفاق أو معاهدة، ما يعني أن الحوار - وهو أبسط مراحل التواصل- ينبغي أن يكون منهجًا وثقافة وأسلوبًا عامًّا في إدارة الخلافات.

(١) رواه أحمد (٣١٨٧) وقال شعيب الأرناءوط في تعليقه: إسناده حسن. والحاكم (٢٦٥٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والطبراني في المعجم الكبير (١٠٦٢٠)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني وأحمد ببعضه ورجالها رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٦/ ٣٥٩ (١٠٤٥٠).

رابطة المعاهدات

(معاهدة المدينة أقدم دستور مسجل في العالم)

محمد حميد الله









الفصل الثاني
رابطــة المعاهـــــدات

ومن الميراث الإنساني في تحقيق التواصل والتعايش بين الشعوب أسلوب المعاهدات، فهي صورة من الصور التي توصَّلَتْ إليها البشرية في توثيق علاقة بين الشعوب، وهي من أوثق الوسائل في تثبيت وترسيخ علاقة بين شعبين.

والمعاهدة توثيق لما يتمُّ التوصُّل إليه بعد حوار؛ سواء أكان هذا الحوار مبدئيًّا، أم كان بدوره نتيجة حرب ونزاع، وبقدر ما تتحقَّق في الحوار - السابق للمعاهدة- شروط نجاحه، فإنه يُسفر عن معاهدة ناجحة، والعكس بالعكس؛ فالمعاهدة - إذًا- حوار مشدّد وموثّق - إن جاز التعبير- يكون الإخلال به جريمة تمسُّ بشرف مرتكبها، وتُلحق به ما تستنكره الفطرة الإنسانية من صفات النكث ونقض العهد والإخلال بالمواثيق.

وفي هذا الفصل نتناول معنى المعاهدات وشروط المعاهدات الناجحة، ثم نتوقَّف عند معاهدة المدينة كنموذج للمعاهدة الناجحة، التي استطاعت أن تكون أساسًا لوطن جديد، يحتوي في داخله الاختلافات البشرية الدينية والقبلية والثقافية.. وما إلى ذلك، وهذا من خلال العنصرين الآتيين:

- المعاهدات الناجحة.
- معاهدة المدينة.. «نموذجًا».

المعاهدات الناجحة

المعاهدة - بحسب القانون الدولي- هي اتفاق أطرافه دولتان أو أكثر، أو غيرها من أشخاص القانون الدولي، وموضوعه تنظيم علاقة من العلاقات التي يحكمها هذا القانون، ويتضمن حقوقًا والتزامات تقع على عاتق أطرافه، ويكون هدفها تنظيم موضوعات تتصل بمصالح المجتمع الدولي. كما يُطلق لفظ «معاهدة» على الاتفاقات الدولية ذات الصبغة السياسية؛ كمعاهدات الصداقة والتحالف، ويُطلق لفظ «اتفاقية» على الاتفاقيات المتعدِّدَة الأطراف التي تُنَظِّم التعاون بين الدول[1]، وهي عادةً وثيقة مكتوبة، وقد تكون شفاهة بموافقة ممثلي الدول[2].

***

ما أكثر المعاهدات في التاريخ! ولكن ما أقل المعاهدات الناجحة! ذلك أن كثيرًا من المعاهدات إنما كانت صورة من صور الهيمنة لا التواصل، ونتيجة يفرضها منتصر على مهزوم، فهي إملاء شروط لا حوار بالمعنى المفهوم للكلمة، وبالتالي كانت المعاهدة تعبيرًا عن قهر يمارسه القوي على الضعيف؛ ولهذا لم تنجح معاهدة - بهذا الشكل- قطّ، ذلك أن الضعيف ما يلبث أن يقوى كما أن القوي ما يلبث أن يضعف، وحين ينهار ميزان القوة بين الطرفين تصبح المعاهدة القديمة غير معبرة عن الواقع، فتخترق وتنتهك لحساب معاهدة جديدة.

ليس هذا ما نعنيه في حديثنا عن المعاهدات، وإنما نعني المعاهدات التي تصلح لأن تكون رابطة وثيقة بين أُمَّتين أو شعبين أو دولتين، وهذه المعاهدات - برأينا- يجب أن تتوفر بها ثلاثة شروط كبرى: العدل، الوضوح، الإرادة والقدرة على التنفيذ.

١- العدل:

من البدهي لأي معاهدة تتمُّ بين أطراف غير متكافئة، وتصنع واقعًا يُغَلِّب مصلحة أحد

(١) مجموعة مؤلفين: الموسوعة السياسية ٦/ ٢٣٥، ٢٣٦.

(٢) الموسوعة العربية العالمية «معاهدة».

الأطراف على الأطراف الأخرى أن تكون مضطربة قلقة متوترة، مُعَرَّضة إلى الانتهاء عند لحظة تغيُّر ميزان القوة.

وأبرز ما يُثبت ضرورة أن تكون المعاهدة عادلة، أنه قد أُلغيت بالفعل المعاهدات التي عُرفت بأنها «غير متكافئة» (Unequivalent Treaties)، وقد أطلق هذا الاسم على نظام المعاهدات الذي بدأ بهزيمة الصين من بريطانيا، فيما عُرف بحرب الأفيون (١٨٣٩ - ١٨٤٢)، فقد عقدت الصين بعد هذه الحرب معاهدة غير متكافئة مع بريطانيا أعقبتها معاهدتان مماثلتان مع الولايات المتحدة وفرنسا، وأهم بنود هذه المعاهدات هي إعطاء امتيازات لرعايا بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا مع حق قنصليات هذه الدول في الصين بمحاكمة رعاياها دون الرجوع إلى السلطات الصينية، وإعفاء صادراتها إلى الصين من التعريفة الجمركية، ثم أُضيفت امتيازات أخرى كثيرة كحقّ الملاحة الحرَّة في الأنهار الصينية، وحق بناء السكك الحديدية، وإنشاء المؤسسات والمصارف المالية، ولقد وصف الصينيون هذه المعاهدات بأنها معاهدات غير متكافئة بسبب الإجحاف والغبن، اللذين حلاَّ بالصينيين جراء هذه النصوص، ثم ارتبط كثير من الأقطار الشرقية بمعاهدات أخرى غير متكافئة مع دول الاستعمار[١].

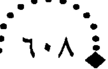
ومن المعاهدات غير العادلة أيضًا، معاهدة السلام الموقعة بين مصر والكيان الصهيوني في ١٩٧٩م برعاية أميركية، وبرغم أن هذه المعاهدة قد مرَّ عليها أكثر من ثلاثين عامًا، إلا أنها ما زالت على صفيح ساخن، يصر عليها السياسيون ولا تقبلها الشعوب.

ومن أبرز أسباب الرفض الشعبي الذي يُبقي المعاهدة على قلق ما ورد فيها من بنود؛ ومنها:

- إلزام مصر باستخدام المطارات التي تركها الصهاينة بعد انسحابهم من سيناء في الأغراض المدنية فقط.
- ألا تتمركز أكثر من فرقة واحدة ميكانيكية أو مشاة من القوات المصرية داخل منطقة

---

(١) مجموعة مؤلفين: الموسوعة السياسية ٦/ ٢٣٥.



تبعد قرابة ٥٠ كم شرقي خليج السويس وقناة السويس (أي ١٥٠ كم من الحدود بين مصر والكيان الصهيوني) في حين تتواجد أربع كتائب مشاة صهيونية على بعد ٣ كيلو مترات فقط من الحدود.

- وتتمركز قوات الأمم المتحدة في الجانب المصري فقط وبعمق ٢٠ إلى ٤٠ كم، في حين يتمركز في الجانب الصهيوني مراقبون من الأمم المتحدة بعمق ٣ كم(١).

هذا بالإضافة إلى ما حدث في خلال هذه الثلاثين سنة من انتهاكات خطيرة للاتفاقية من الجانب الصهيوني.

كما تعد اتفاقية أوسلو نموذجًا للاتفاقية التي تجاهلت المطالب الرئيسة والجوهرية وركزت على تسوية التفاصيل، بل تفاصيل التفاصيل، وامتلأت نصوصها بـ «الدهاليز» -إن صح التعبير- فهي تذكر بندًا ثم تحيله إلى بنود أخرى، والبنود الأخرى بدورها تعود إلى أخرى، ما يجعلها أشبه بالمتاهة(٢). ولهذا لم يُفلح الطرفان في تطبيق بنودها أبدًا، وقد تم استبدالها بكثير من الوثائق والاتفاقيات والتفاهمات في مراحل التفاوض المختلفة.

٣- الوضوح:

ثمة مثال مأساوي يمكننا التوقف عنده في أمر الوضوح، ذلك هو قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الذي صدر في ٢٢/ ١١/ ١٩٦٧، بعد قيام الكيان الصهيوني بحرب الخامس من يونيو، والتي استولت فيها على كل فلسطين وأجزاء من سوريا وشبه جزيرة سيناء من مصر.

نص قرار مجلس الأمن على:

«withdrawal of Israel armed forces from territories occupied in the recent conflict».(٣)

ومعناها بشكل دقيق «انسحاب قوات الجيش الصهيوني من أراضٍ محتلة في النزاع الأخير».

---

(١) جمال عبد الهادي: الطريق إلى بيت المقدس ٣/ ١٠١ وما بعدها.

(٢) انظر نص الاتفاقية منشورا على وكالة نبأ: www.islamicnews.net.

(٣) نص القرار من أرشيف قرارات مجلس الأمن. على موقع مجلس الأمن الدولي: http://daccess-dds-ny.un.org.

والمعنى في غاية الغموض، فهو يتحدث عن أراض محتلة، وليس عن «الأراضي المحتلة» ما يجعل انسحاب الكيان الصهيوني من أي منطقة احتلها تنفيذًا للقرار، هذا اللغم اللغوي – لاسيما أنه ترجم في النسخة العربية بإضافة أداة التعريف- يُستند إليه في الصراع الدبلوماسي المستمر حتى الآن.

هذا مع أن ديباجة القرار تؤكد على

«The Security Council, expressing its continuing concern with the grave situation in the Middle East, emphasizing the inadmissibility of the acquisition of territory by war and the need to work for a just and lasting peace in which every State in the area can live in security».

وترجمتها: «إن مجلس الأمن إذ يعرب عن قلقه المستمر بشأن الوضع الخطر في الشرق الأوسط، وإذ يؤكد على عدم جواز الاستيلاء على الأراضي بالحرب، وضرورة العمل من أجل سلام عادل ودائم، تستطيع فيه كل دولة في المنطقة أن تعيش بأمان».

وإن التناقض ليبدو واضحًا بين بند القرار الذي يسمح بالانسحاب من أراض محتلة، وبين الديباجة التي ترفض عدم شرعية الاستيلاء على الأراضي بالحرب.

ومثل هذا الغموض يبدو -أيضًا- في بعض التوصيفات الواردة في اتفاقيات جنيف[١]، وقد طالب رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر بضرورة مراجعة نصوص الاتفاقية للتمييز بوضوح بين المقاتلين وغير المقاتلين، بما أن المواجهات باتت تتعلق أكثر فأكثر بـ «فاعلين مسلحين غير تابعين للدولة» وفقًا للنعت الذي تعتمده اللغة الدبلوماسية لوصف هذا النوع من المجموعات المُسلحة النَّشطة[٢].

ومثله -أيضًا- يبدو في قرار مجلس الأمن رقم ١٨٣٨ الصادر في ٧/ ١٠/ ٢٠٠٨م، بخصوص القرصنة قبالة السواحل الصومالية، وتحديدًا في البند رقم ٤ الذي ينص على:

---

(١) اتفاقيات جنيف: معاهدات دولية أساسية في مجال القانون الإنساني الدولي، إذ تُحدِّد قواعد حماية الأشخاص في حالات النزاع المسلح: الجنود والجرحى وأسرى الحرب، والمدنيون وممتلكاتهم. ووقعت أولى اتفاقيات جنيف عام ١٨٦٤م، لكن النصوص السبعة السارية المفعول حاليًا هي معاهدات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩م، والبروتوكولان الملحقان بتاريخ ٨ يونيو ١٩٧٧م، والبروتوكول الإضافي الثالث لعام ٢٠٠٥م.

(٢) خبر منشور بوكالة الأنباء السويسرية بتاريخ ١١/ ٨/ ٢٠٠٩م.

Urges States that have the capacity to do so to cooperate with the TFG in the fight against piracy and armed robbery at sea in conformity with the provisions of resolution 1816 (2008)(1) .

وترجمتها «ويحث (مجلس الأمن) الدول التي لديها القدرة على القيام بذلك (استخدام القوة الحربية) للتعاون مع الحكومة الاتحادية الانتقالية في مكافحة القرصنة والسطو المسلح في البحر وفقًا لأحكام القرار ١٨١٦ (٢٠٠٨م)».

فهذا النص بصياغته العامة الفضفاضة يتيح لأي دولة مهما كان ابتعادها عن القرن الإفريقي أن تدخل بقواتها إليه تحت عنوان مكافحة القرصنة.

إذا وُجد الغموض في نص معاهدة أو اتفاقية، لا سيما إن كانت دولية ويترتب عليها تبعات مؤثِّرة، فإنه يكون أول المنافذ التي تُفشل هذه المعاهدة، وحينئذٍ تتحوَّل المعاهدة من كونها وسيلة لتثبيت وترسيخ علاقة تفاهمية تعاونية إلى قنبلة موقوتة، تنتظر لبعض الوقت قبل أن يحدث الانفجار(٢).

٣- وجود الإرادة والقدرة على تنفيذها:

إن التاريخ المعاصر، ولا سيما التاريخ العربي، يشهد كثيرًا من المعاهدات التي أُبرمت ثم لم تُنفَّذ، ما يجعلها مجرَّد حبر على ورق، ولعلَّ أشهرها معاهدات الدفاع العربي المشترك التي لم تدخل إلى حيِّز التنفيذ رغم ما تعرَّضت له الدول العربية من تعديات واحتلالات كثيرة ومؤثرة، حتى إن بعضًا من أهم المدن والعواصم العربية على طول التاريخ قد صارت في يد الاحتلال مثل: القدس وبغداد، ومنذ ١٧ يوليو ١٩٥٠م -تاريخ توقيع معاهدة الدفاع والتعاون الاقتصادي المشترك بين دول الجامعة العربية- بدأت اتفاقيات التعاون العربي، لكنها -حتى لحظة كتابة هذه السطور- لا تجد مَنْ يُنَفِّذها.

***

---

(١) منشور بأرشيف قرارات مجلس الأمن. على موقع مجلس الأمن الدولي http://daccess-dds-ny.un.org.

(٢) آثرنا في هذا المطلب أن نأتي بالنصوص الإنجليزية من مصادرها الأصلية لتوضيح الصيغ اللفظية التي أثارت الغموض.

لعلَّ من الدلائل الواضحة على أهمية المعاهدات ما أسفرت عنه المسيرة الإنسانية من معاهدات واتفاقيات في كل المجالات، و«يمكن تقسيم المعاهدات إلى عدة أنواع، وفقًا لأغراضها»[١]؛ فمنها:

المعاهدات **السياسية** التي تتعلَّق بالأحلاف بين الدول وتسوية النزاعات، المعاهدات **التجارية** التي تشمل الاتفاقات المتعلقة بالرسوم والملاحة ومناطق صيد الأسماك والخدمات القنصلية، معاهدات **الاتحاد** التي تنشأ بموجب اتحاد المنظمات الدولية؛ كاتحاد البريد العالمي، معاهدات **تبادل المجرمين** التي تعالج مسألة المجرمين الهاربين، معاهدات **العدالة المدنية** وتحمي هذه المعاهدات علامات البلد التجارية وحقوق الطبع وبراءات الاختراع في الدول الأجنبية، وتنظم بعضها حقوق الأجانب، المعاهدات التي تتعلق بالحقوق الدينية للمجموعات التي تعيش في أقطار أجنبية؛ فبعض الدول توقع معاهدات تجيز للأجانب ممارسة شعائرهم الدينية بحريه كما يمارسونها في أوطانهم[٢].

وإلى جوار ذلك ثمة معاهدات للتعاون الزراعي والصناعي والقضائي والسياحي والفني، ومعاهدات للتعاون الإقليمي وغير الإقليمي.. وهكذا.

وما زالت الإنسانية تكتشف وتبتكر أنواعًا أخرى من المعاهدات والاتفاقيات، التي تنظم وترسخ العلاقات بين الشعوب على أساس من المصلحة المشتركة وسبيلها التعارف والتواصل والتعاون، وهي مدعوة لابتكار المزيد من أنواع المعاهدات؛ فالمعاهدة رابطة وما أحوج البشرية إلى تنمية وإثراء الروابط فيما بينها.

إن عالمًا شديد التشابك والترابط هو عالم يشهد حروبًا أقل؛ ذلك أن الحرب في قطر مترابط مع غيره من الأقطار تلقي بتأثيراتها السلبية على الجميع، ما يجعل من مصلحة الجميع منع اندلاع الحرب أو إيقافها، بعكس ما لو كانت البلاد منعزلة لا ترابط بينها، فهنا لن تجد دافعًا لدى كثيرين لمنع وقوع الصدام.

---

(١) الموسوعة العربية العالمية «المعاهدة».

(٢) المرجع السابق.

معاهدة المدينة

هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة شمالاً بعد اضطهاد دام ثلاثة عشر عامًا متصلة، ذاق المسلمون فيها صنوف الألم والعذاب والضيم، وكانت المدينة المنورة (يثرب وقتئذٍ) بمثابة الملجأ الآمن، والمسكن الهادئ الذي ابتغى المهاجرون وعلى رأسهم النبي ﷺ فيه الاستقرار والأمن.

على أن النبي ﷺ ما كاد يحطُّ رحاله في هذه المدينة الجديدة إلاَّ ووجدها تتكوَّن من عناصر متفاوتة، وانتماءات مختلفة، وطوائف شتَّى، وتاريخ مشوب بالتوترات والحروب القديمة، وكانت هذه العناصر كما يلي: الأوس المسلمون (وهم بطون)، الخزرج المسلمون (وهم بطون)، يهود (طوائف: بنو عوف، بنو جشم، بنو ساعدة، بنو ثعلبة، بنو النجار، بنو الحارث، بنو الشطيبة، فضلاً عن اليهود الأصليين: قريظة والنضير وقينقاع وغيرهم..)، والأوس الكافرون (بطون)، والخزرج الكافرون (بطون)، والموالي، بالإضافة إلى المهاجرين القادمين من مكة، ثم علاقة المدينة بالمدن والقبائل المحيطة بها.

هذا التنوُّع العقدي والثقافي والعرقي الذي واجهه النبي ﷺ كان من الطبيعي أن يضعه أمام أحد خيارين لا ثالث لهما: إمَّا التعارف على ما اتَّفقوا عليه، واشتركوا فيه بينهم؛ ليضمنوا عيشًا مشتركًا هادئًا. وإمَّا التصادم والتناحر، وفرض السيطرة بالقوَّة والدم، وكلنا يعلم العواقب المترتِّبة على الحروب والصراعات.

على أن أخلاق النبوَّة والإسلام جعلت النبي ﷺ لا يتردَّد في أن يسلك سبيل التعارف والاتفاق من أجل تحقيق المصلحة المشتركة التي يبتغيها الجميع، وهي تحقيق المواطنة والتعايش، مع الإقرار بهذا التنوُّع العقدي والثقافي والعرقي، فكان مما لا مفرَّ منه أن يضع «دستور الدولة بالمدينة».

لقد رسمت «وثيقة المدينة» وأضرابها من المواثيق والعهود التي وقَّعها النبي ﷺ وخلفاؤه من

بعده، المعالم الرئيسة لكيفية التعامل والتعاقد والشراكة والتكامل والتعارف والتوافق مع الشركاء في الوطن الواحد، وهو اعتراف صريح مباشر بإقرار التنوُّع العقدي والفكري والقومي والعرقي في الإسلام، ودليل قوي على الفضاء الواسع للقيم الإسلامية وإنسانيتها، وهو فضاءٌ لا يحدُّه الزمان والمكان، ومن هنا تأتي أهمية هذه الوثيقة[(١)].

ولذلك قال كثير من علماء القانون الدولي، وفلاسفة الفكر العالمي: إن هذه الوثيقة نقلت الإنسانية من الإطار السياسي الضيق، ومن دولة العشيرة والقبيلة، ومن الدولة القومية والمذهبية إلى الدولة الإنسانية العالمية، التي تضمُّ شعوب الأرض على اختلاف أصولهم العرقية، وانتماءاتهم القومية، وعقائدهم الدينية، واستطاعت بنجاح أن تُحقِّقَ مبدأ التعارف والعيش المشترك[(٢)].

وقبل الوقوف مع الوثيقة، وتأمُّل كل الجوانب المتعلِّقَة بها، والتي هي نموذج لما نسعى إليه في الكتاب، نذكرها فيما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

١- هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومَنْ تبعهم فلَحِقَ بهم وجاهد معهم.

٢- إنهم أُمَّة واحدة من دون الناس.

٣- المهاجرون من قريش على رِبْعَتِهم[(٣)] يتعاقلون بينهم[(٤)] وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٤- وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

---

(١) أحمد قائد الشعيبي: وثيقة المدينة، المضمون والدلالة، مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة ص٢٨، ٢٩.

(٢) كامل سلامة الدقس: دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ص٤٠٣، ٤٠٤.

(٣) على رِبْعَتِهم؛ أي: على حالهِم الأوَّل. الزبيدي: تاج العروس ٢١/ ٥٧.

(٤) يتعاقلون بينهم؛ أي: يكونون على ما كانوا عليه من أخذ الديات وإعطائها. ابن منظور: لسان العرب، مادة عقل ١١/ ٤٥٨.

٥- وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٦- وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٧- وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٨- وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٩- وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٠- وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١١- وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٢- وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا[١] بينهم أن يُعطوه بالمعروف من فداء أو عقل.

١٣- وأن لا يحالف مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونه.

١٤- وإن المؤمنين المتقين أيديهم على كل مَنْ بغى منهم أو ابتغى دَسِيعة ظلم[٢] أو إثمًا أو عدوانًا أو فسادًا بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم.

١٥- ولا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن.

١٦- وإن ذمَّة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

---

(١) المفرح: هو المثقل بالديون. ابن منظور: لسان العرب، مادة فرح ٢/ ٥٤١.
(٢) دَسِيعَة ظُلْم؛ أي: طلب منهم أَن يَدْفعوا إليه عطية على وجه ظُلمهم. ابن منظور: لسان العرب، مادة دسع ٨/ ٨٤.

١٧- وإنه مَنْ تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

١٨- وإن سِلْمَ المؤمنين واحدة، لا يُسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلاَّ على سواء وعدل بينهم.

١٩- وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضًا.

٢٠- وإن المؤمنين يبيء[١] بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

٢١- وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

٢٢- وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن.

٢٣- وإنه من اعتبط[٢] مؤمنًا قتلاً عن بيِّنة قُوِّدَ به إلاَّ أن يرضى ولي المقتول بالعقل، وإن المؤمنين عليه كافَّة، ولا يحل لهم إلاَّ قيام عليه.

٢٤- وإنه لا يحل لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا أو يؤويه، وإن مَنْ نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

٢٥- وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ.

٢٦- وإن اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٢٧- وإن يهود بني عوف أُمَّة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلاَّ من ظلم نفسه وأثم فإنه لا يُوتغ[٣] إلاَّ نفسه وأهل بيته.

٢٨- وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

٢٩- وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

٣٠- وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

---

(١) يبيء: أي: يساوي ويكافئ، ابن منظور: لسان العرب، مادة بوأ ١/ ٣٦.

(٢) اعتبط مؤمنًا: أي قتله بلا جِناية كانت منه ولا جريرة تُوجِب قتله. ابن منظور: لسان العرب، مادة عبط ٧/ ٣٤٧.

(٣) يوتغ: أي يُهْلك، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة وتغ ٨/ ٤٥٨.



٣١- وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

٣٢- وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

٣٣- وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلاَّ من ظلم وأثم، فإنه لا يُوتغ إلاَّ نفسه وأهل بيته.

٣٤- وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

٣٥- وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف وإن البر دون الإثم.

٣٦- وإن موالي ثعلبة كأنفسهم.

٣٧- وإن بطانة يهود كأنفسهم.

٣٨- وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ.

٣٩- وإنه لا ينحجز[1] على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا مَنْ ظلم وإن الله على أبر من هذا.

٤٠- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

٤١- وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

٤٢- وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

٤٣- وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه.

٤٤- وإن النصر للمظلوم.

٤٥- وإن اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٤٦- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٤٧- وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

٤٨- وإنه لا تُجارُ حرمة إلاَّ بإذن أهلها.

---

(١) الحجز: المنع والحيلولة بينه وبين غرضه، والمعنى أنه لا يمنع من أخذ ثأره فالجروح قصاص.

٤٩- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يُخاف فساده فإن مردَّه إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرِّه.

٥٠- وإنه لا تُجار قريش ولا مَنْ نصرها.

٥١- وإن بينهم النصر من دهم يثرب.

٥٢- وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين إلاَّ من حارب في الدين.

٥٣- على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

٥٤- وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلاَّ على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

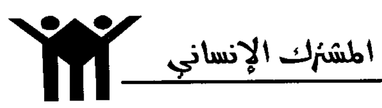
٥٥- وإنه لا يَحُول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه مَنْ خرج ومَنْ قعد آمنٌ بالمدينة، إلاَّ من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن برَّ واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ[1].

إن التأمُّل في هذه الوثيقة بعين فاحصة باحثة عما يمكن أن نستخلصه ونخرج به من نتيجة وفائدة، يلفت نظرنا إلى أنها ترنو إلى إقامة مجتمع مثالي لا يجحد التنوُّع ولا يُنكره، بل يسعى إلى الإحاطة به، والاستفادة منه، وهو مع هذا يُقِيم مبادئ التعارف والتعايش واقعًا فعَّالاً بين مختلف الانتماءات والطوائف والعقائد، لا كلامًا على الورق بلا فائدة أو نتيجة.

ولذلك لم يتجاهل النبي ﷺ السمات والمميزات الخاصَّة لكل فئة من هؤلاء، كما أنه حرص على إقامة المشتركات بين مَنْ كانوا أعداء متناحرين يقتل بعضهم بعضًا، ويتربَّص بعضهم بعضًا، وفي هذا من الإشارات والفوائد ما يُستخلص منه أن البشر قادرون على الاجتماع حول المشتركات التي تُقرِّبهم، وتجعلهم متعارفين متعايشين، إذا اتفقوا على ذلك

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٠٢- ٥٠٥، وابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والسير ١/ ٢٦٠- ٢٦٢، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢١ - ٣٢٣، والمباركفوري: الرحيق المختوم ص١٧٦، ومحمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص٥٧- ٦٤، وأكرم ضياء العمري: المجتمع المدني في عهد النبوة ص١١٩- ١٢٢، وإبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية ص١٤٥- ١٤٨.



بصيغ توافقية تُراعي السمات والمميزات لكلٍّ منهم.

***

يُقرِّر البند رقم (١) «أنهم أُمَّة واحدة من دون الناس»، أُمَّة تربط بين أفرادها رابطة العقيدة وليس الدم، فيتَّحد شعورهم وتتَّحد أفكارهم وتتَّحد قبلتهم ووجهتهم، ولاؤهم لله وليس للقبيلة، واحتكامهم للشرع وليس للعرف، وهم يتمايزون بذلك كله على بقية الناس «من دون الناس»، فهذه الروابط تقتصر على المسلمين، ولا تشمل غيرهم من اليهود والحلفاء[1].

ومن اللافت أن النبي ﷺ يضع هذا البند في قمة الوثيقة وعلى رأسها، ذلك أن العقيدة التي استطاعت أن تجمع هؤلاء المتفاوتين تحت ظلالها هي المشترك الأسمى الذي قد يتخلَّى الإنسان في سبيل التمسُّك به، والتحصّل عليه، على عوامل عدَّة كالأرض كما فعل المهاجرون؛ فقد هاجروا من مكة -حيث الوطن والأهل والعوامل الثقافية والتاريخية- إلى المدينة حيث المشترك الأسمى «العقيدة».

وحرص النبي ﷺ على تنفيذ هذا البند على اليهود أنفسهم، فكما أن للمسلمين مشتركهم الأسمى الذي يربطهم ويُقوِّي من الصلات والروابط، ومن ثَمَّ التعارف بينهم، فكذلك حرص على عدم المساس بعقيدة اليهود؛ ذلك أن كل إنسان يملك الحرية التامَّة في اعتناق ما يراه مناسبًا له من رؤًى وتصورات ومعتقدات؛ ومن ثَمَّ قال ﷺ في البند رقم (٢٧): «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم»، وهكذا أيقن النبي ﷺ أن المساس أو التصادم بالدين لا يخدم ما يصبو إليه من التعارف والتعايش بين الأطياف المختلفة في المجتمع الائتلافي الجديد؛ ذلك أن العقيدة هي أهم المكونات للهوية الفردية والجماعية، وإنه من الصعب أن يتخلَّى الإنسان عن هويته، لا سيما إذا حدث ذلك بالقهر والظلم.

بل، وأكثر من ذلك؛ فإن عظمة الإسلام، ومعرفته الراسخة بآليات التواصل والتقارب بين الناس والشعوب قد جعلت النبي ﷺ يُقِرُّ المشرك على شركه؛ شريطة ألاَّ يُهدِّد أمن

---

(١) أكرم العمري: المجتمع المدني ص١٢٩.

المجتمع؛ لذا قال ﷺ في البند رقم (٢٢) من الوثيقة: «**وإنه لا يجير مشركٌ مالاً لقريش ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن**»، وبهذا لم يَحُلِ الإسلام بين الفرد ومعتقده أيًّا كان هذا المعتقد؛ إيمانًا منه بأن الحرية فطرة إنسانية، وغريزة لا يمكن أن تُستأصل بالقوَّة والعنف؛ فضلاً عن كونها مشتركًا عامًّا بين جميع البشر، ولكن هذا لا يمنع أن ينضبط الجميع بانتماءات الدولة، فلا يجوز لهم بحال أن يتعاونوا مع أعدائها.

ويلفت نظرنا في الوثيقة أنها رسَّخت بكل وضوح مبدأ التعايش المشترك من خلال تطبيق فكرة المواطنة كما تُحَدِّدها المواثيق الحديثة؛ فقد أشارت دائرة المعارف البريطانية إلى أن المواطنة هي «علاقة بين فرد ودولة، كما يُحَدِّدها قانون تلك الدولة، وبما تتضمَّنه تلك العلاقة من واجبات وحقوق في تلك الدولة»، وتُؤَكِّد أن «المواطنة تدلُّ ضمنًا على مرتبة من الحرية وما يصحبها من مسئوليات»[1]، وطبقًا لوثيقة المدينة؛ فإن المواطنة لم تُحصر في المسلمين وحدهم -وهم عشائر وقبائل وبطون متفاوتة- بل امتدَّت لتشمل اليهود والمشركين، وهذا يعني أن اختلاف الدين ليس -بمقتضى بنود الوثيقة- سببًا للحرمان من مبدأ المواطنة والتعايش، كما كان ذلك مطبَّقًا في الدول التي عاصرت الدولة الإسلامية في بدء تكوينها، وهذه نتيجة تُحْسَب للشريعة الإسلامية المتفرِّدة.

ولهذا؛ فقد حدَّدت الوثيقة طبيعة الشعب الذي يحمل جنسية المدينة المنورة؛ فهو شعب مكوَّن من أصحاب الانتماء العقدي كالمسلمين واليهود، وأصحاب الانتماء العرقي كالأوس والخزرج والمهاجرين، وأصحاب الانتماء القومي وهم أهل المدينة جميعهم، وأصحاب الانتماء الجغرافي ونقصد الحجازيين المدنيين ومواليهم وأحلافهم داخل الرقعة الجغرافية التي حدَّدها النبي ﷺ وهي يثرب: ما بين الحرَّتين (الشرقية والغربية) وما بين الجبلين (عير وثور)، وهذا التنوُّع أقرَّه النبي ﷺ، وعَمِل بمقتضاه بعبقرية لافتة، ونجحت هذه التنوُّعات في تكوين مجتمع متجانس[2].

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ٣/ ٣٣٢.

(٢) حدَّد النبي ﷺ حُرم المدينة الأربعة في أكثر من حديث؛ منها ما قاله ﷺ: «**مَا بَيْنَ لابَتَيْهَا حَرَامٌ**». وقوله ﷺ: «**الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ..**». البخاري: كتاب أبواب فضائل المدينة، باب لابتي المدينة (١٧٧٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل المدينة (١٣٧٠).

وكما ضمنت الوثيقة لجميع الموقِّعين عليها الحرية في الاعتقاد والأفعال والأقوال، فإنها راعت ما قد يترتَّب على هذه الحرية من أمور سلبية توجب العقاب والمحاسبة، وكان الضابط في إنزال العقوبة على الجاني ملتزمًا بمبادئ العدل والقسط؛ فالعدل هو الخُلق الأساسي الذي تضمنته الوثيقة في أكثر من موضع منها؛ حرصًا من النبي ﷺ على ترسيخه في المجتمع الجديد، لا فرق في ذلك بين المؤمنين أو غيرهم، وأكَّد النبي ﷺ على المسئولية الفردية لا الجماعية إلاَّ إذا دعت الضرورة والواقعة لذلك، ففي البند رقم (١٤) يقول النبي ﷺ: «**إن المؤمنين المتقين أيديهم على كل مَنْ بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثمًا أو عدوانًا أو فسادًا بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم**». والأمر ذاته بالنسبة لليهود كما في البند رقم (٢٧)؛ إذ قال ﷺ: «**يهود بني عوف أُمَّة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، إلاَّ مَنْ ظلم نفسه وأثم فإنه لا يُوتغ إلاَّ نفسه وأهل بيته**». وقوله ﷺ في البند رقم (٣٣): «**إن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلاَّ مَنْ ظلم وأثم، فإنه لا يُوتغ إلا نفسه وأهل بيته**». وقوله ﷺ في البندين رقم (٤٣)، (٤٤) للتدليل على المسئولية الفردية، والعدل المتوخَّى من وراء ذلك: «**إنه لا يأثم امرؤ بحليفه وإن النصر للمظلوم**». وهكذا يُرَسِّخ النبي ﷺ العدل - وهو خُلق إنساني أساسي - كأساس للعيش المشترك، وكضمانة وصمام للأمان لاستمرارية هذا العيش.

ونجد أن النبي ﷺ لا يُمانع من أن ينصَّ في الوثيقة على معاملة اليهود المحالفين للمسلمين بالمعروف والعدل، وعدم التحريض عليهم وإيذائهم، فهذا يُعَبِّر عن ثبات القيم الأخلاقية في السياسة الإسلامية، وإنها لا تعرف الكيل بمكيالين، وهو ما يُقَرِّره النبي ﷺ في البند رقم (١٧) بقوله: «**إنه مَنْ تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم**». ولا شكَّ أن مثل هذه التصرفات الراقية لتُعِينُ بكل قوَّة على إيجاد عيش مشترك يحيا الجميع في ظلاله بأمان وهدوء.

وقد حرصت الوثيقة على أمر في غاية الأهمية، ووسيلة لا ريب في أثرها الكبير في التقارب والتعارف، ونقصد بذلك المساواة، فلا يمكن تحقيق عيش هانئ وادع إلاَّ بتحقيق المساواة بين الناس، دون الإخلال بالمميزات الخاصة، والفروق الفردية التي وُهبت لكل

منهم، وهذا عدل في التعامل مع كل الطوائف، وهكذا نجدُ النبي ﷺ يقول في البند رقم (١٦): «**إن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس**». وقوله في البند رقم (٢٠): «**إن المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله**».

كما أكّد النبي ﷺ في الوثيقة على أن الملكية مكفولة ومحترمة للجميع؛ فهي من المشتركات العامّة -كما بيّنّا في النظرية- ولا يجوز الاعتداء عليها أو التصرُّف فيها إلاّ بعد إذن أصحابها والقائمين عليها؛ إذ إنها فطرة إنسانية مترسِّخَة في الوجدان، وصبغة يتمايز بها أفراد المجتمع عن بعضهم، والحقُّ أنه لا يخلو مجتمع من هذه الملكيات الخاصة، بل يمكن القول: إن الملكيات الخاصة قد سبقت إقامة المجتمعات الإنسانية المنظمة؛ ولذلك قال النبي ﷺ في البند رقم (٤٨): «**إنه لا تُجار حرمة إلاّ بإذن أهلها**». حرصًا منه على أن احترام هذه الحُرُم، مما يزيد فرص التعايش والتوافق بين الناس جميعًا.

ثم كانت هناك آلية ووسيلة في غاية الأهمية حرص النبي ﷺ على إبرازها وكتابتها وتوضيحها والسعي إلى تطبيقها، حتى يتسنَّى استكمال عملية التعارف والتعايش المنوطة بتلك الوثيقة، ونقصد حلَّ جميع المشاكل العالقة بين المتعاونين الجدد -أعداء الأمس- والتي يأتي على رأسها دفع ديات القتلى (وهي عميلة التعاقل)، وفكُّ الأسارى (افتداء العاني)، ولا شكَّ أن لهذه المبادرة الإنسانية الأثر العظيم في إمكانية البدء والتلاقي على صفحة بيضاء ناصعة، يُمْحَى فيها التاريخ المشترك الأسود بكل سهولة ويُسر، لا فرق في ذلك بين المهاجرين والأنصار، ونجد هذا التحليل في البنود من (٣) كما في قوله ﷺ: «**المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين**» إلى البند رقم (١١) وهو قوله: «**وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين**». وقد ذُكر الشرط عينه على بني عوف وبني الحارث بن الخزرج، وبني ساعدة، وبني جشم، وبني النجار، وبني عمرو بن عوف، وبني النبيت، فضلاً عن المهاجرين من قريش وبني الأوس. وقد قُيِّد ضمان تحقيق هذا الشرط بخُلق أساسي يتعارفه الجميع ويُقِرُّونه وهو العدل والقسط المبتغى من وراء الشرط، ولعلَّ ذكاء النبي ﷺ يتَّضح بجلاء في هذه البنود (من ٣ إلى ١١)؛ فالقضية المراد الانتهاء منها نهائيًا

تتمثَّل في التصارع القبلي والتاريخ السيئ بين قبائل الأوس والخزرج، فضلاً عن بطونهما ومواليهما وحلفائهما، فلقد اشتهرت بينهم أيام (حروب طاحنة) قبل مقدم النبي ﷺ إليهم: كيوم بعاث وسُمير وغيرهما من الأيام التي تناحروا وتقاتلوا فيها؛ ولذلك فضمانة لتحقيق مبدأ السلم والعيش المشترك كان من الطبيعي أن تزول أذيال الماضي ومآسيه من خلال حلول عملية تُرضي جميع الأطراف، وكان ذلك من خلال عملية اجتماعية تُعَدُّ من عادات وتقاليد العرب في جاهليتهم ثم إسلامهم، تمثَّلت في العقل وفداء الأسارى، ويمكن أن يُقاس على هذا الأمر أن كل حلٍّ اجتماعي أو بالأحرى كل عادة أو تقليد يُؤَدِّي إلى التصالح والتعايش بين المتخاصمين لا بُدَّ من الأخذ به، والاعتماد عليه؛ وبذلك لم يتجاهل النبي ﷺ عادات وتقاليد المدينة، بل استثمرها فيما يُؤَدِّي إلى التعارف والتعايش.

ونلحظ كذلك أن الوثيقة قد رسَّخت مبدأً أخلاقيًّا كان لا بُدَّ منه في تقعيد التعايش المشترك، ونقصد بهذا الخُلق السامي: التكافل؛ فالتكافل يضمن وجود الحبِّ المترتِّب على التعارف الذي أكَّدته الوثيقة النبوية وسعت إلى تحقيقه؛ ففضلاً عن التعاقل وفداء الأسرى كما مَرَّ بنا، نجد النبي ﷺ في البند رقم (١٢) يُقَرِّرَ أن «**المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا بينهم أن يُعطوه بالمعروف من فداء أو عقل**». والمُفْرَح هو المثقل بالديون، وهذا الجانب الأخلاقي المشار إليه لا يجب بحال أن ننحيه جانبًا عند بحثنا عن القيم المشتركة، التي تجمع بين الشعوب وتؤلِّف بينها، فكم من الدول الفقيرة في عالمنا اليوم ينظر إليها الأغنياء والأقوياء على أنها مناطق وبائية يجب استئصالها والتخلُّص منها؟! وإن هؤلاء لو استعاضوا بهذه الأفكار المشوَّهة الجانبَ الأخلاقي الذي يدعو إلى التكافل ورفع الإصر عن المعوز لكان خيرًا لهم، ولَزالت البغضاء والشحناء من قلوب الفقراء تجاههم.

ومما يلفت النظر أيضًا أن البنود من (٣ إلى ١١) قد جاءت مُبقية للتشكيل القبلي كما هو، وكذلك البنود من (٢٧ إلى ٤٠)، وهذه الأخيرة إنما تناولت اليهود وتعاملت معهم وفقًا لارتباطاتهم القبلية لا الفردية، وهذا دليل على أن غاية التعارف والتعايش المشترك قد أبقت التكوين الاجتماعي كما هو؛ فنظام القبيلة والعشيرة لم يكن شرًّا، ويُستفاد من هذا أن التعارف والوسائل المفضية إليه لا يجب أن تهدم التنوُّعات الاجتماعية أو الثقافية للأمم والشعوب، بل

تُبقيها كما هي؛ ما دامت لا تُؤَسِّس للصدام والتحارب.

كما أكَّد النبي ﷺ على قانونية الدولة ودستوريتها، فهذه الوثيقة في ذاتها دليل على سيادة القانون وأهميته الكبرى في التقارب والتعايش، فهو المشترك الذي استطاع أن يُقَرِّب بينهم بصورة توافقية، لم يَرَوْا مثلها من قبلُ عند أي قبيلة أو مدينة، أو حتى دولة من الدول العظمى حينها كالفرس والروم، وأنه كان من المستحيل أن يجتمع هؤلاء المتنافرون القدامى حول المشتركات التي تجمعهم وتؤلِّف بينهم إذا لم يُوجد هناك رباط قوي يُوَحِّدهم ويجمعهم على ما اتَّفقُوا عليه، وكان من العبقرية الإسلامية أن «استطاعت الدولة الجديدة أن تجعل من المدينة -التي تضمُّ عددًا كبيرًا من الأحياء العربية واليهودية المختلفة المتنافرة، التي حكمتها الفوضى، وأنهكتها العصبية القبلية- مدينة موحدة، وحَّدَت السكان جميعًا على اختلاف دياناتهم وخصائصهم وأعراقهم حول إعلان دستوري مركزي هو الأول من نوعه في تاريخ الإنسانية، يخضع له الجميع، تسهر على تنفيذه حكومة مركزية، تملك السلطة العليا في المدينة، للحاكم فيها حقوقه ومسئولياته، وللمواطنين حقوقهم ومسئولياتهم، وللقانون كلمته وسيادته»(١).

ولذلك فإنه خوفًا من الفرقة والتشتُّت وتجدُّد الصراعات والإحن القديمة، أكَّد النبي ﷺ على وجود مرجعية كبرى يُلتجأ إليها وقت الأزمات والكوارث، تمثَّلت هذه المرجعية في النبي ﷺ باعتباره القائد الأعلى للدولة الجديدة، قال ﷺ في البند رقم (٢٥): «**وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردَّه إلى الله وإلى محمد**». وجاء في البند رقم (٣٨): «**إنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد**». وهذا ما جعل كل أحياء المدينة التي كانت تعيش في فُرقة كالجسد الواحد في الحُبِّ والمودَّة والقربى، حيث ينصُّ البند رقم (٤٧) على أن «**الجار كالنفس غير مضار ولا آثم**». أيًّا كان هذا الجار: عربيًّا أم يهوديًّا أم غير ذلك، ومن هنا علمنا أن للقانون دوره المهم، وضرورته المِلحَّة في تقارب الأمم والشعوب، خاصة إذا فُعِّل هذا القانون، وحُرِص على تطبيقه ومراقبته.

---

(١) محمد الطالبي: دستور المدينة، مقال في مجلة الهداية التونسية، نقلاً عن أحمد قائد الشعيبي ص٧٩.



ونَبَّهت الوثيقة إلى أن العيش المشترك الذي تُقِرُّه بنودها لا يمكن أن يتحقَّق إلاَّ في ظلِّ المحافظة والدفاع المشترك عن أرض المدينة؛ باعتبارها القاسم المشترك الذي يجتمع عليها كل هذا الكم من التنوعات العقدية والثقافية والعرقية، وجاء هذا التنبيه والتحذير في البند رقم (٤٦) الذي يقول: «**إن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة**». وفي البند رقم (٥١)، حيث قال ﷺ: «**إن بينهم النصر على مَنْ دهم يثرب**». وكذلك جاء في البند رقم (٢٦): «**إن اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين**». فالأرض إذًا مشترك ثابت لا يمكن الاعتداء عليه؛ ولهذا فإن النبي ﷺ يجعل الحرب الدفاعية عن الأرض حربًا عادلة مشروعة، بل حتمية لا يجب النكوص أو التقاعس في سبيل تحصينها من كل عدوٍّ غادر.

وبمناسبة الحرب العادلة، فإن الوثيقة حذَّرت من قيام الحروب الغوغائية التي تقوم لأسباب تافهة، ووضعت لها قيودًا وعراقيل تلافيًا لحدوثها، ومنعت الأسباب المفضية إلى التصادم وفي مقدمتها الغدر؛ ففي البند رقم (٣٩) يقول ﷺ: «**إنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه مَنْ فتك فبنفسه وأهل بيته إلاَّ من ظلم وإن الله على أبر من هذا**». فهذا البند يُعَدُّ استمرارًا للبند رقم (١٤) الذي جاء فيه: «**وإن المؤمنين المتقين أيديهم على كل مَنْ بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثمًا أو عدوانًا أو فسادًا بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم**». والبند رقم (٢٣) الذي جاء فيه: «**وإنه مَنِ اعتبط مؤمنًا قتلاً عن بينة قُوِّدَ به إلاَّ أن يرضى ولي المقتول (بالعقل)، وإن المؤمنين عليه كافَّة ولا يحلُّ لهم إلاَّ قيام عليه**». وهي بنود تتعلَّق بالبغي والفساد والغدر والقتل والثأر الجامح لأتفه الأسباب، فهو يُقَرِّر أن حق الثأر مرتبط بالقتل فقط، أمَّا ما عدى ذلك من جروح فعلاجه هيِّنٌ لا يرقى إلى سفك الدماء وإهلاك الحرث والنسل؛ لأن دماء البشر أغلى من أن تهدر ظلمًا نتيجة إرادة ظالمة وقوى متغطرسة، فالقضاء وحده هو الذي يُقَرِّر العقوبة ضد الجاني؛ بحيث إنها لا تسرى إلى الأقارب والعشيرة، والذي لا يلتزم بهذا القيد يكون قد أهلك نفسه وأهل بيته، وأصبح مهدور الدم إلاَّ إذا كان مظلومًا[1]، والحقُّ أن هذه الشروط أو البنود الوقائية قد حافظت على سلامة وأمن المجتمع الجديد، وأنها لو اتُّخِذَتْ نموذجًا للسير على نهجه لكان ذلك خيرًا للبشرية كلها.

---

(١) أحمد قائد الشعيبي: وثيقة المدينة ص١٣٥، ١٣٦.

كما حدَّدت الوثيقة العدوَّ المشترك، وهي الفئة الباغية الداعية إلى الشرِّ، واللاهثة خلف استئصال قيم الخير والعدل التي حملها النبي ﷺ والمؤمنون معه، هذا العدوُّ المشترك يتمثَّل في قريش؛ فقد جاء في الفقرة الثانية من البند رقم (٢٢) أن «**لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن**». لأن إجارة المال القرشي هو عون مباشر أو غير مباشر على المؤمنين في المدينة المنورة، وقد جاء التحذير بصورة مباشرة في البند رقم (٥٠) بقوله ﷺ: «**لا تُجار قريش ولا مَنْ نصرها**». وبهذا حَدَّدت الوثيقة بكل وضوح ماهية العدوِّ المشترك، وضوابط التعامل معه.

كما حرصت الوثيقة على تحديد الهوية الإسلامية والدينية للدولة الجديدة، في المؤمنين بالإسلام (العقيدة)، والقاطنين في المدينة (الأرض)، وقد تعاملت الوثيقة مع هذين المستويين بكل وضوح، وصرَّحت على محاربة كلِّ مَنْ يتجرَّأ على هذين المشتركين المهمين، كما في البندين رقم (٤١)، (٤٢)؛ حيث قال ﷺ: «**إن بينهم النصر على مَنْ حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم**». وفي البند رقم (٥١) حيث الدفاع عن الأرض كما مرَّ بنا آنفًا، وفي البند رقم (٥٢) حيث الدفاع المستميت عن الدين؛ حيث قال ﷺ مخاطبًا الجانبين المسلم واليهودي: «**إذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين إلاَّ مَنْ حارب في الدين**».

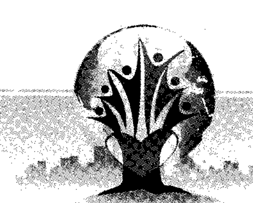
وبعدُ، فإن وثيقة المدينة تحتاج إلى دراسة متخصِّصَة لاستقصاء الجوانب المتعلِّقَة بالمشتركات الإنسانية، وما أكثرها فيها، وقد حاولنا في هذه الصفحات القليلة أن نُنبِّه على أهمية هذه الوثيقة، لكن لا شكَّ أن الأمر يحتاج إلى دراسة أعمق؛ فهي من أقدم الوثائق الدستورية في العالم، وقد استطاعت أن تُحَقِّقَ التعايش المشترك بين طوائف كانت متباعدة كل التباعد، متناحرة كل التناحر؛ وخاصة أن النبي ﷺ حرص على تفعيلها وتطبيقها منذ اليوم الأول من كتابتها، فكان ذلك دليلاً على دقَّتها وواقعيتها وأمانتها في التعامل مع جميع الأطياف في المدينة المنورة.



التكتلات

(يُعتبر ظهور الاتحاد الأوربي مُوَحَّدًا واحدًا من
أهم الأحداث الثورية في عصرنا)

هنري كيسنجر
وزير الخارجية، ومستشار الأمن القومي الأمريكي







الفصل الثالث

التكتلات

ومن الأساليب التي أمدتنا بها التجربة الإنسانية في سياق رحلة التعارف والتواصل بين الشعوب أسلوب التكتلات والاتحادات، وهي خطوة أقوى من الحوار ومن المعاهدات، ففي التحالفات والتكتلات تبلغ عملية التعاون حدًّا أعلى وبشكل أعمق وأكثر تأثيرًا.

ولهذا؛ فإن التكتلات - من حيث العملية نفسها، وبصرف النظر عن اعتبارات أخرى خاصة- دليل على إمكانية وجود أعلى علاقات التعاون بين كيانين مختلفين في الكثير من الأمور، بناء على المصلحة المشتركة، وهي بالتالي تأكيد على قدرة البشر على تجاوز ما بينهم من خلافات، إذا نظروا من زاوية التعاون المتبادل الذي يعود بالنفع على كلا الطرفين.

وفي مسار التاريخ وواقعنا المعاصر توجد الكثير من النماذج الناجحة للتكتلات، وبلغ بعضها من النجاح أن تم بناء اتحاد قوي برغم ما بين الأطراف من اختلاف في اللغة والثقافة، وبالرغم من قرون طويلة من التاريخ العدائي المرير، وأوضح مثال على هذا تجربة الاتحاد الأوربي في واقعنا المعاصر، وقد اخترنا من هذه النماذج نموذجين للتكتلات؛ هما:

- الاتحاد الأوربي.
- مجلس التعاون الخليجي.

الاتحاد الأوربي

تسعى الدول - الناجحة - دائمًا إلى القوة، وتبحث عن أسبابها، ومن أجل ذلك تُقَدِّم هذه الدول بعض التضحيات التي تُضطرُّ إليها؛ كي تصل إلى ذلك الهدف: القوة، ولمَّا كانت القوة مرادفة للوحدة - غالبًا - فإن القادة العقلاء الذين يبحثون عن القوة يحاولون دائمًا سلوك سبيل الوحدة والتعايش مع الدول التي توجد بينها وبين بلادهم عوامل مشتركة؛ كالدين، واللغة، والحوار، والتاريخ المشترك... وغير ذلك من المشتركات الإنسانية.

وقد استطاعت الدول الأوربية أن تضرب مثلاً رائعًا في القدرة على التعايش المشترك والوحدة، وذلك بعدما عاشت تاريخًا طويلاً حافلاً بالصراعات والانقسامات؛ مما جعلها تربة خصبة للجهل والتخلف، وقضى على أفكار التقدُّم التي حملها عددٌ من المصلحين في بعض عصورهم، وفي الوقت ذاته عاصرت أوربا أزهى عصور الوحدة الإسلامية، ورأت في الأقطار الإسلامية المتحدة تحت راية خلافة واحدة خير نموذج لأثر الاتحاد على قوة الدول؛ إذ ظلَّت أوربا - في ظلِّ عداوتها للإسلام - تحت وقع الهزائم المستمرَّة من الخلافة الإسلامية، وبينما كان العالم الإسلامي يعيش ذروة المجد والعلم والثقافة، كانت أوربا ترزح تحت وطأة الجهل والخرافة.

أدركت أوربا أثر الوحدة في انتصارات المسلمين، وأثر التمزُّق والتشتت في ضعفها هي؛ لذا بدأت في محاولات حثيثة لتحقيق الوحدة والترابط بين أقطارها[١]، وها نحن الآن نرى نتاج تلك المحاولات الجادَّة وقد تكللت بالنجاح، وأصبحت أهلاً للدراسة واستخلاص العبر والدروس؛ إذ أثمرت عن ولادة أول قوَّة عظمى اقتصادية، وهي في طريقها لتصبح أكبر قوة سياسية في عالمنا المعاصر[٢]، إلى الدرجة التي يصف فيها ثعلب السياسة الأميركية هنري كيسنجر تجربة الاتحاد الأوربي قائلاً: «يُعتبر ظهور الاتحاد الأوربي مُوَحَّدًا واحدًا من

---

(١) راغب السرجاني: بين التاريخ والواقع، ١/ ١٦٥.

(٢) محمد مصطفي كمال، وفؤاد نهرا: صنع القرار في الاتحاد الأوربي، ص٩.

أهم الأحداث الثورية في عصرنا»[١].

وسوف نتحدث فيما يلي بشيء من التفصيل عن هذه التجربة الثرية..

الدول الأوربية قبل الاندماج:

إذا أردنا أن نُلَخِّص التاريخ الأوربي في عنوان واحد فلن نجد أفضل من (تاريخ من العداء)؛ حيث لم تتمتَّع دول أوربا على مرِّ تاريخها بالوحدة والعيش في ظلِّ حكومة واحدة إلا في حقبة واحدة عاشتها تحت سيطرة الإمبراطورية الرومانية، التي استطاعت أن تُحكم قبضتها الحديدية على غالب دول أوربا لمدَّة ثلاثة قرون كاملة من الزمان، ثم انهارت وهلكت مخلِّفة انقسامات حادة وخلافات عميقة[٢].

ولقد مرَّت أوربا بأحداث وحروب كثيرة؛ أهمها الحروب الدينية التي انتهت بعقد صلح (وستفاليا) في عام ١٦٤٨م، الذي أرسى مبدأ الدول القومية في القارة الأوربية، ونصَّ على اعتماد التفاوض والحوار في حلِّ المشاكل والقضايا الناشبة بين الدول الأوربية، وحلِّ الأزمات بالطرق السلمية، والحفاظ على سيادة الدولة القومية باعتبارها كيانًا مقدسًا لا يجوز المساس به. ولكن الدول الأوربية لم تأخذ من هذه المبادئ غير مفهوم تعزيز قوتها ونفوذها؛ وهذا ما أدَّى إلى عودة الحروب الطاحنة[٣].

وقد صبت نتائج هذه الحروب بين القوى الكبرى في هذه الفترة -مثل: هولندا، وفرنسا، وإسبانيا في صالح بريطانيا، التي انتقلت إليها التجارة عبر البحار بالتدريج، حتى إذا ما حطمت فرنسا قوة هولندا نهائيًّا في أواخر القرن الثامن عشر، كانت بريطانيا قد ورثت بالفعل معظم دور هولندا التجاري[٤].

ثم اندلعت الثورة الفرنسية ولم يكتفِ نابليون بالسيطرة على فرنسا بكاملها، بل قادته أطماعه إلى التوسُّع وتكوين إمبراطورية فرنسية - تضاهي المارد البريطاني - عن طريق

(١) هنري كيسنجر: هل تحتاج أميركا إلى سياسة خارجية؟ ص٣٨.
(٢) هـ. أ. ل. فِشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، ص٦٣٥، ٦٣٦.
(٣) صدام مرير الجميلي: الاتحاد الأوربي ودوره في النظام العالمي الجديد، ص١٣، ١٤.
(٤) عبد العظيم رمضان: تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، ١/ ٢٥٩.

الحروب، ومضى نابليون في طريقه حتى أوقفته الهزيمة في معركة (واترلو) عام ١٨١٤م[١].

ولم تقتصر الأطماع الأوربية الحديثة في التوسُّع على الفرنسيين والبريطانيين؛ إذ أخذت تَجِيش في صدور الألمان مطامع السيطرة على العالم، وأثار تقسيم القارة الإفريقية وانهيار الخلافة العثمانية الأطماع وأسال اللعاب.

كما ساعدت الدعوات القومية طوال القرن التاسع عشر على تفكيك أوصال القارة الأوربية، واستعر لهب التمرُّد والثورة بين الأيرلنديين، والبولنديين، والرومانيين، والكرواتيين، والصربيين، وازدادت حِدَّة الفُرقة بين الأوربيين، وتقاطعت أطماعهم؛ مما دفع بالأوضاع إلى حافة الانفجار، وكان هذا الانفجار متمثلاً في نشوب الحرب العالمية الأولى، التي اندلعت شرارتها من القارة الأوربية على إثر قيام إمبراطورية النمسا والمجر بغزو مملكة صربيا؛ إثر حادثة اغتيال ولي عهد النمسا وزوجته من قِبَل طالب صربيٍّ أثناء زيارتهما لسراييفو في ٢٨ يونيو ١٩١٤م، وسرعان ما امتدَّت إلى أوربا كلها، ومنها إلى العالم أجمع[٢].

وقد شَهِد العالم في هذه الحرب الدموية أسلحة لم يعهدها من قَبْلُ؛ فاستُعْمِلَت الأسلحة الكيميائية، وتم قصف المدنيين من السماء لأول مرَّة في التاريخ؛ فرغم أن الحرب الجوية كانت في مهد طفولتها، إلا أن الحرب العالمية الأولى شهدت مباراة كريهة بين الدول المتحاربة في ضرب المدن ودكِّها بالقنابل والفتك بالمدنيين؛ فقنابل الطائرات تتساقط على أي مكان، لا تُفَرِّق بين الأطفال والنساء، ولا تستثني مدرسة أو مستشفى أو دورًا للعبادة، وبعدما كانت الحروب تخاض بتقابل جيشين متنازعين في ساحة المعركة بعيدًا عن المدينة، أصبحت المدن المأهولة بالسكان ساحاتٍ للمعركة؛ مما نتج عنه سقوط ملايين الضحايا، وكل هذا كان يصبُّ في اتجاه تعميق الكراهية بين أبناء القارة الأوربية[٣].

كانت كل دولة تهدف إلى تحقيق السيطرة الكاملة على منافسيها، وكان فهمهم -في هذه المرحلة السوداء من التاريخ الأوربي- أن هذه السيطرة والحسم السريع لن يحدثا إلا عن

---

(١) هـ. أ. ل. فِشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، ص١٠٥-١٠٨.

(٢) عبد العظيم رمضان: تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، ٢/ ٢٠٤.

(٣) هـ. أ. ل. فِشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، ص٥٤٢، ٥٤٣.

طريق العنف والدمار، ودَفْعِ الشعوب المحاربة إلى الإذعان والاستسلام بتهديد حاجاتهم الأساسية، من طعام وشراب ومسكن، وقبل ذلك العمل على سلبهم أدنى شعور بالأمن والأمان في بلادهم.

ولكن بمرور الأيام كانت هذه السياسة الإجرامية -التي تنكَّرت لأبسط المبادئ الخُلُقيَّة التي تعارف عليها البشر كبشرٍ وليسوا قطعانًا من البهائم- تتسبب في تأجيج نيران الحرب وزيادة اشتعالها.

انتهت الحرب العالمية الأولى في ١١ نوفمبر ١٩١٨م على واقع أوربي أليم؛ فقد انهار الاقتصاد في القارة الأوربية؛ إذ أودت الحرب بحياة ثمانية ملايين ونصف ممن تتراوح أعمارهم بين ٢٠ و٤٠ عامًا، أي ممن يُمَثِّلون القوَّة العاملة الأساسية، وكانت معظم الخسائر المادية والبشرية تتركَّز في فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا(١).

كذلك تُعَدُّ الحرب العالمية الأولى البذرة لنشأة الحركات والأفكار الهدامة؛ مثل: الشيوعية الروسية، والنازية الألمانية، والفاشية الإيطالية، هذه الأفكار التي مهَّدت الطريق أمام الحرب العالمية الثانية.

وقد بدأت الحرب العالمية الثانية في أول سبتمبر ١٩٣٩م، عندما قام جيش ألمانيا النازية العملاق -الذي بناه هتلر- بغزو بولندا، هذه الدولة الأوربية الضعيفة، فسحقها تمامًا في أسبوعين مروِّعَيْن، لم تَرَ لهما مدن بولندا مثيلاً في الخراب والدمار والرعب، وكانت بولندا هي البداية التي انفرط بعدها عقد الدول الأوربية؛ فتوالى سقوطها الواحدة تلو الأخرى في قبضة الجيوش الألمانية، فتبع سقوط بولندا الدنمارك، ثم النرويج فهولندا ولوكسمبرج وبلجيكا، وحينئذ دخلت بريطانيا وفرنسا الحرب واشتعلت القارة الأوربية(٢).

كانت الغلبة في البداية للقوات الألمانية، التي كانت سرعة تقدُّمها خارقة، مما شجَّع

---

(١) عبد العظيم رمضان: تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، ٢/ ٣١٠.
(٢) هـ. أ. ل. فِشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، ص٦٦٤-٦٧١.

الزعيم الإيطالي موسوليني[1] على الدخول في الحرب بجانب هتلر، وبالفعل سقطت العاصمة الفرنسية في أيدي الألمان في مايو ١٩٤٠م.

ويصرِّح المؤرخ الإنجليزي هربرت فشر[2] بأن هتلر في هذا الوقت تحديدًا وعقب انهيار فرنسا كان قادرًا على غزو بريطانيا والسيطرة على أوربا بكاملها، إلاَّ أنه فضَّل إكمال غزو فرنسا وتثبيت أقدامه فيها؛ مما أتاح الفرصة الذهبية للبريطانيين لالتقاط أنفاسهم وتعويض ما خسروه من عتاد وسلاح[3].

وكما هو معلوم بعد ذلك فقد دخلت الولايات المتحدة الأميركية الحرب واستعادت بريطانيا الكرَّة، وبدأت القوات الألمانية تذوق مرارة الهزائم، التي لم تتوقف حتى أعلنت ألمانيا استسلامها دون قيد أو شرط في مايو ١٩٤٥م، وانتحر هتلر، وقُسِّمت ألمانيا[4].

وقبل أن نختم حديثنا عن هذه الحقبة الدامية في التاريخ الأوربي نودُّ أن نلفت الانتباه إلى حجم العنف والدمار الذي خلَّفته الحرب في كامل المدن الأوربية، ونستشعر حجم الكراهية والشقاق الذي أحدثته هذه الحروب المتتالية في النفسية الأوربية؛ وسوف نستدلُّ على ذلك ببعض الأرقام التي أوردها هربرت فشر في تأريخه لإحدى مراحل الحرب العالمية الثانية؛ لنكشف عن ضخامتها سواء من ناحية العتاد أو من ناحية حجم الدمار:

فقد أرسلت القوتان البريطانية والأميركية إلى أراضي المعارك خلال الحرب ١,٤ مليون طلعة من قاذفات القنابل، و٢,٧ مليون طلعة أخرى للطائرات المقاتلة، وألقت هذه القاذفات ٢,٧ مليون طنٍّ من القنابل والمتفجرات على الأراضي الألمانية والأقطار التي احتلَّتْها، مع العلم أن أكثر من نصف هذه الكمية أُلقي على ألمانيا، ونحو السُبع على مراكز الألمان بفرنسا، وسُبع آخر أُلقي على المدن الإيطالية.

---

(١) موسوليني: ولد في ٢٩ يوليو ١٨٨٣ بشمال إيطاليا، وفي عام ١٩٠٢م هاجر إلى سويسرا هربًا من الخدمة العسكرية، ويُعَدُّ موسوليني الزعيم الروحي للفاشية الإيطالية ومؤسس الحزب الفاشي.

(٢) هربرت فشر Herbert Fisher: هو هربرت لورنس فيشر ألبرت (١٨٦٥- ١٩٤٠م)، مؤرخ بريطاني، وسياسي وتربوي، عمل رئيس المجلس البريطاني للتربية، أهم أعماله كتاب: (تاريخ أوربا).

(٣) هـ. أ. ل. فِشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، ص٦٧٣، ٦٧٤.

(٤) عبد العظيم رمضان: تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، ٢/ ١٦٤-١٦٧.



في حين بلغ مجموع الرجال من الطيارين والمهندسين والفنيين في هذه الطلعات الجوية قرابة المليون والنصف مليون رجل، فقدت دول الحلفاء منهم ١٥٨ ألف طيار، وأكثر من أربعين ألف طائرة.

كما خسِر الألمان خلال الحرب ٥٧ ألف طائرة، وقُتل منهم نحو ٣٠٠ ألف جندي، إضافة إلى قتل وإصابة قرابة المليون شخص من المدنيين الألمان، ودُمِّر ٣,٦ مليون منزل ومبنى تدميرًا كاملاً، وعمَّ الخراب في كل المدن الألمانية الكبرى بشكل شبه كامل(١).

ولعلنا في ثنايا حديثنا عن حجم الدمار والخراب الذي حلَّ بالمدن الأوربية، وقَدْر الخسائر البشرية والمادية، نرى -أيضًا- مدى التطوُّر الصناعي والقدرات الإنتاجية الهائلة التي تم توظيفها لخدمة الآلة الحربية.

كان من الممكن أن تُخَلِّف هذه الحروب مزيدًا من الكراهية والرغبة في الثأر لدى الشعوب الأوربية، بما يتجه بالقارة الأوربية إلى الفناء المحقق، ولكنَّها -وهذا هو المعجِز والمثير للإعجاب- فكَّرت في عكس هذا الاتجاه بالكلية؛ لقد فكَّرت أوربا في استثمار طاقاتها الصناعية الجبارة، ومواردها البشرية الماهرة والمتميزة، في الاتجاه الصحيح -ولو مرَّة واحدة على مدار التاريخ الأوربي- في اتجاه الوحدة والتكامل بعد عصور من الفُرقة والتنازع، في اتجاه تحقيق الرفاهية والحياة الكريمة للجميع.

ولكن كيف ستستطيع الدول الأوربية التغلُّب على جراح الماضي، والخروج من البرك والمستنقعات المليئة بالدماء والأحقاد إلى آفاق المحبة والتعاون الرحبة، إلى العيش المشترك؟

وكيف ستستطيع التغلب على مشكلة اختلاف العرق واللغة والدين؛ إذ يتحدث الأوربيون بالعديد من اللغات المختلفة؛ كمجموعة اللغات السلافية، واللغات الأورالية، واللغات الألطية، واللغات البلطية، واللغات الكلتية، واللغة اليونانية، واللغة الألبانية، واللغة الأرمينية، وكل مجموعة من هذه اللغات تتوزَّع في مناطق عديدة من القارة(٢).

---

(١) هـ. أ. ل. فِشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، ص٧٠٣، ٧٠٤.

(٢) الموقع الرئيسي للاتحاد الأوربي على الشبكة العالمية، الرابط: http://europa.eu/index_en.htm.

كذلك لا تدين أوربا بدين واحد؛ بل تتنوَّع فيها الأديان، وتتنوع المذاهب داخل الدين الواحد؛ فهناك مثلاً المسيحية الكاثوليكية، التي تنتشر في العديد من الدول والمناطق؛ مثل: البرتغال وإسبانيا وفرنسا وبلجيكا وجنوب ألمانيا وجنوب سويسرا وإيطاليا. وهناك -أيضًا- المسيحية البروتستانتية، التي تنتشر في بريطانيا والدنمارك وألمانيا وهولندا وسويسرا. كما تُوجد الأرثوذكسية المسيحية في ألبانيا وأرمينيا وروسيا البيضاء والبوسنة والهرسك وبلغاريا ورومانيا.

وذلك إضافة إلى الدين الإسلامي الذي يدين به نحو ٥٪ من سكان أوربا، واليهودية التي يتركز أتباعها في روسيا وفرنسا وألمانيا والمملكة المتحدة، والهندوسية في المملكة المتحدة وهولندا[1].

لا شكَّ أن هذا التاريخ إضافة إلى هذا القدر من التنوُّع يدعم الاتجاه الانفصالي بين دول أوربا؛ إذ تكاد لا تتَّفق في شيء من عوامل الوحدة، وليس بينها عامل مشترك واحد إلاَّ الموقع الجغرافي، ولكن العقول المنفتحة التي تنشد القوة لشعوبها ودولها، والقادة الساعين للتقدم والازدهار لبلادهم لا يتوقَّفُون عند الحواجز مهما صعُبَت، ولا يستكثرون الجهد مهما شقَّ عليهم؛ لذا بدأ حكام أوربا سعيهم نحو الاتحاد..

الاندماج:

خرجت أوربا من الحرب العالمية الثانية في حالة ضعف شديد من الناحية الاقتصادية والعسكرية، كما أدركت أنها فقدت مكانتها كمركز للعالم بعد تصاعد مكانة كلٍّ من الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفيتي، وقد ساهمت هذه العوامل في شحذ همم عقلاء القارة الأوربية للعمل الجادِّ في سبيل تحقيق حُلم الوحدة الأوربية، ومحاولة الاستفادة من الأصوات التي نادت بالوحدة، وخاصة بعدما تيَقَّن الجميع من عُقم نتائج الاقتتال بين الدول الأوربية.

وهذا الحلم الصعب، حلم الوحدة الأوربية، قدَّمه قبل ذلك المفكر فيكتور هوجو[2] في عام

---

(١) راغب السرجاني: بين التاريخ والواقع، ١/ ١٦٥.

(٢) فيكتور هوجو Victor Hugo: هو فيكتور ماري هوجو (١٨٠٢ - ١٨٨٥م)، شاعر وكاتب مسرحي وروائي وسياسي فرنسي شهير، من أنصار الحركة الرومانسية في فرنسا، أشهر أعماله الروائية هي: (البؤساء).

١٨٥١م، كأُولى أفكار التوحيد السلمي للقارة الأوربية من خلال التعاون والمساواة في العضوية، ولكنها خفتت – في ظلِّ حالة الحرب الدائمة بين الدول الأوربية – ولم تحظَ بفرصة جادَّة في التطبيق.

ثمَّ جاءت كارثة الحرب العالمية الأولى وما خلَّفته من ضحايا ودمار عمَّ الدول الأوربية، لتُمَثِّل محفِّزًا لجهود ودعوات التقارب الأوربي، والتخلِّي عن عوامل الفُرقة والتنابُذ، وكان من أهم هذه الجهود دعوة الكونت النمساوي (كودينهوف كاليرجي) عام ١٩٢٣م إلى إنشاء الولايات المتحدة الأوربية على غرار النموذج الأميركي، وكذلك دعوة وزير الخارجية الفرنسي (بريان) في خطابه أمام عصبة الأمم في ٢٩ ديسمبر ١٩٢٩م إلى قيام اتحاد أوربي في إطار عصبة الأمم من أجل تشجيع التعاون بين الدول الأوربية مع احتفاظها بكامل سيادتها الإقليمية[١]. **(انظر: صورة رقم ١٧ الحرب العالمية).**

ويبدو أن الدول الأوربية لم تكن قد وصلت بعدُ إلى النضج الكافي لتبنِّي هذه الدعوات؛ مما أدَّى إلى انجرافها إلى أَتُون الحرب العالمية الثانية، وكان للخراب الشامل الذي خلَّفته هذه الحرب أعظم الأثر في تهيئة الأجواء أمام دعوات الوحدة، وتحوُّل الأمر من مجرَّد آمال وأمنيات في تحقق الوحدة إلى خطط عملية ومرحلية ومسارات فعلية تدفع في اتجاهها.

الطريق إلى الوحدة:

شهد عام ١٩٥٠م وضع حجر الأساس الذي قامت عليه الجماعة الأوربية بعد ذلك؛ إذ دعا روبرت شومان[٢] وزير الخارجية الفرنسي إلى إنشاء الجماعة الأوربية للفحم والصلب، والواقع أن فكرة هذا المشروع كان وراءها جان مونيه[٣] رئيس قسم التخطيط الاقتصادي

---

(١) محمد مصطفى كمال، وفؤاد نهرا: صنع القرار في الاتحاد الأوربي، ص٢٢.

(٢) روبرت شومان Robert Schumann (١٨٨٦ – ١٩٦٣م): سياسي ألماني فرنسي، شغل منصب رئيس وزراء فرنسا ووزير خارجيتها، أعدَّ الطريق لإنشاء الجماعة الأوربية للفحم والصلب، وأصبح فيما بعد رئيسًا للبرلمان الأوربي.

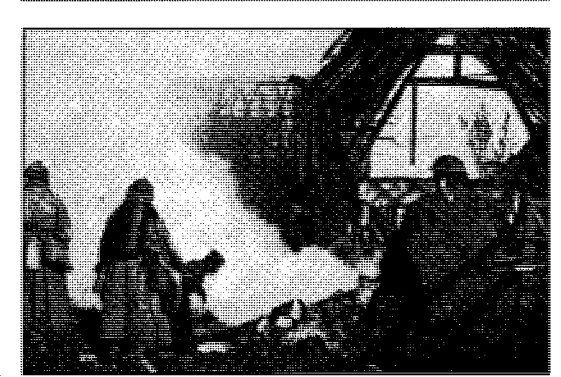
(٣) جان مونيه Jean Monnet (١٨٨٨-١٩٧٩م): رجل أعمال وسياسي فرنسي قاد حركة توحيد أوربا الغربية في خمسينيات وستينيات القرن العشرين الميلادي، أُطلق عليه اسم أبو المجموعة الأوربية.











الحرب العالمية الأولى

صورة رقم (١٧)

في الحكومة الفرنسية، وأحد مستشاري شومان؛ لذا يُعَدُّ جان مونيه الأب الروحي لعملية الاندماج الأوربي[(١)].

وقد أدرك مونيه بعد عمله في مجال تخطيط الاقتصاد الفرنسي لمدَّة خمس سنوات أنَّه لا سبيل أمام فرنسا لتحقيق نموٍّ اقتصادي مطرد، ورفع مستويات المعيشة لمواطنيها دون أن تتجاوز إطار الدولة القومية، وتُقيم تعاونًا اقتصاديًّا على مستوى جغرافي أوسع.

كان مونيه واقعيًّا ومن أنصار التدرُّج؛ فلم يتسرَّع في تبنِّي أحلام عريضة لا يمكن تحقيقها في الواقع؛ ومن ثَمَّ كانت الفكرة هي إنشاء الجماعة الأوربية للفحم والصلب، والتي يمكن التوسُّع منها إلى قطاعات أخرى بعد ذلك؛ وقد اختير الفحم والصلب على أساس أنهما مادتان أساسيَّتان في صناعة أدوات الحرب؛ وبالتالي فإن وضعهما تحت إشراف مشترك سيحول دون استخدامهما من إحدى الدول لمحاربة دولة أخرى.

ومن ثمَّ وُقِّعت معاهدة إنشاء الجماعة الأوربية للفحم والصلب في باريس عام ١٩٥١م، وبدأت بعضوية ألمانيا مع فرنسا ثم انضمَّت إليهما (إيطاليا، وبلجيكا، وهولندا، ولوكسمبرج)، وكانت الفكرة الأساسية من عضوية ألمانيا مع فرنسا محاولة إيجاد آلية للتعاون السِّلمي المشترك، ومنع قيام حرب أخرى بينهما، وقد رحَّبت ألمانيا بزعامة إديناور بالفكرة؛ لأنها كانت تعني عودة ألمانيا للاندماج في القارة الأوربية[(٢)].

ونَصَّت المعاهدة على أن الهدف منها هو خلق سوق مشتركة في الفحم والصلب، وضمان الإمدادات من هاتين السلعتين بسعر أقل وجودة أكبر، أمَّا عن الهيكل التنظيمي لهذه الجماعة فقد ضمَّ هيئة عليا ذات استقلالية، إضافة إلى مجلس يُعَبِّر عن مصالح الدول الأعضاء، وجمعية عامة كانت أقرب إلى المجلس الاستشاري، ومحكمة للعدل.

وتزامن إنشاء الجماعة الأوربية للفحم والصلب مع فكرة أخرى طرحتها فرنسا؛ وهي إنشاء جماعة الدفاع الأوربي، وذلك مع تزايد التوتر في العلاقات بين الشرق والغرب،

---

(١) صدام مرير الجميلي: الاتحاد الأوربي ودوره في النظام العالمي الجديد، ص ٣٩.
(٢) محمد مصطفى كمال، وفؤاد نهرا: صنع القرار في الاتحاد الأوربي، ص٢٣.

واندلاع الحرب الكورية، والضغط الأميركي على الدول الأوربية للقبول بفكرة إنشاء جيش ألماني للمساهمة في الدفاع عن المعسكر الغربي، ولكن هذه الفكرة لم تكتمل نظرًا للمعارضة الشديدة التي لاقتها خاصة من الجانب الفرنسي؛ لذا تقرَّر الاكتفاء - في هذه المرحلة - بالتعاون الاقتصادي[١].

ثم مرَّت سنوات على توقيع معاهدة باريس، واستقرَّت مشاعر الثقة بين أطرافها، ولمسوا الفائدة الاقتصادية المشتركة التي جلبها لهم الاتفاق؛ لذا كان من الطبيعي التفكير في الخطوة التي تليها، وتمثَّلت في توقيع معاهدة روما في عام ١٩٥٧م، التي تقضي بإنشاء المجموعة الاقتصادية الأوربية، والمجموعة الأوربية للطاقة النووية.

وتأسست أول وحدة جمركية أوربية عُرفت باسم المؤسسة الاقتصادية الأوربية (European Economic Community)، وسميت في بريطانيا -بشكل غير رسمي- «السوق المشتركة»[٢].

وتُعَدُّ هذه المعاهدة بمثابة التدشين الحقيقي للاتحاد الأوربي الذي نراه في أيامنا الحالية؛ حيث تعدَّت بنودها الجانب الاقتصادي، وبدأت تُلامس الجوانب الأخرى للدول الأوربية؛ الجوانب التي تُلامس فئات الشعب، وتجعله يشعر مع مرور الأيام بأهمية التعايش والعيش المشترك مع جيرانه في القارة الأوربية، ونضرب لذلك مثلاً بما نصَّت عليه المادة الثالثة من المعاهدة، التي تشرح أهداف المؤسسة الاقتصادية الأوربية (EEC) وتتلخص فيما يلي:

١- إزالة الرسوم الجمركية بين الدول الأعضاء، وجميع الحواجز الكمِّيَّة بالنسبة لتصدير واستيراد السلع.

٢- الاتفاق على سياسة تجارية مشتركة تجاه الأطراف الأخرى.

٣- إقامة سياسة زراعية مشتركة.

---

(١) صدام مرير الجميلي: الاتحاد الأوربي ودوره في النظام العالمي الجديد، ص٤٠.

(٢) الاتحاد الأوربي تجربة وحدوية ناجحة وقدوة رائدة، صحيفة الشرق الأوسط اللندنية، ٢٥ ديسمبر ٢٠٠٢م، العدد ٨٧٩٣.



٤- تبني سياسة مشتركة في مجال المواصلات.

٥- إنشاء صندوق اجتماعي أوربي لتحسين فرص توظيف العمالة، والمساهمة في رفع مستويات المعيشة في كل الدول الأعضاء[١].

ورغم اختلاف الأهداف بين الدول الستِّ المُؤَسِّسَة للجماعة الاقتصادية الأوربية، إلا أنَّهم سارعوا بعقد الاتفاقية المشتركة بينهم؛ لتأكُّدهم من النفع والمصلحة العائدة عليهم جميعًا، وهذا ما قد حدث؛ فألمانيا كانت في حاجة إلى الأسواق الأوربية لتصدير فائض منتجاتها، وقد أتاح انضمامها إلى المجموعة ضمان دخول منتجاتها إلى الدول الأعضاء دون أدنى تمييز ضدها؛ إذ أكَّدت عضوية ألمانيا للمجموعة على إعادة تأهيلها السياسي في المجتمع الأوربي، في حين كان الهدف الأساسي وراء انضمام فرنسا إلى المجموعة هو فتح سوقٍ أوسع لمنتجاتها الزراعية في الدول الأوربية، أمَّا بلجيكا فكان موقفها شبيهًا بألمانيا من حيث اعتماد اقتصادها على التصدير إلى الخارج؛ ومن ثَمَّ أتاحت لها المجموعة فرصة طيبة لتأمين تلك الأسواق، وأيضًا تنمية صناعات جديدة، وكذلك بالنسبة لإيطاليا -التي بدأت مسيرتها في التصنيع- وجدت في الجماعة الأوربية فرصة للنموِّ والتوسُّع، وفي حالة هولندا فبجانب رغبتها في دفع جهودها الصناعية، كان الشعب الهولندي توَّاقًا إلى إزالة العقبات أمام حرية الحركة بين البلدان الأوربية المختلفة، بينما كانت لوكسمبرج - العضو السادس في المجموعة- تهدف من وراء انضمامها تأمين مصالحها السياسية والاقتصادية؛ فبسبب موقعها الجغرافي كانت دائمًا واقعة تحت ضغط الصراعات بين جيرانها الأقوياء[٢].

وفي الوقت نفسه الذي كانت فيه العلاقات تزداد قوة بين دول المجموعة الأوربية، كانت هناك دول أوربية أخرى تراقب الأمر عن كثب، ولكن دون الدخول في إطار المجموعة؛ ونذكر منها بريطانيا التي ظَلَّت خارج إطار الجماعة الاقتصادية الأوربية؛ لتخوُّفها من المساس بسيادتها كدولة، وفضلَّت إقامة رابطة تجارة أوربية حُرَّة عام ١٩٥٩م؛ بحيث تتم إزالة الحواجز الجمركية بين الدول الأعضاء مع احتفاظ كل دولة بسيادتها، وضَمَّت الرابطة كلاًّ

---

(١) محمد مصطفي كمال، وفؤاد نهرا: صنع القرار في الاتحاد الأوربي، ص٢٥.

(٢) المرجع السابق، ص٢٥.

من بريطانيا، والنرويج، والسويد، والدنمارك، والنمسا، والبرتغال، وأيسلندا، وسويسرا، وفنلندا.

ولكن بمرور الوقت، ونتيجة للنجاحات التي بدأت الجماعة الاقتصادية الأوربية في تحقيقها، أعادت بريطانيا النظر في موقفها تجاه الجماعة الاقتصادية الأوربية، وقرَّرت الانضمام لها للاستفادة من الأسواق الواسعة في إطار الجماعة، وخوفًا من العزلة بالبقاء خارج الجماعة الأوربية، وبالفعل قدَّمت بريطانيا طلبها الأوَّل للعضوية في أغسطس ١٩٦١م، وقوبل الطلب البريطاني بالرفض من قِبَل فرنسا برئاسة ديجول؛ لخوفه من المنافسة البريطانية داخل الجماعة، ولكن مع الإصرار البريطاني على اللحاق بركب الوحدة الأوربية وتجديدها لتقديم الطلب في عام ١٩٧٢م، في عهد الرئيس الفرنسي جورج بومبيدو، تم قبول عضويتها وَوَقَّعت اتفاقية الانضمام في ٢٢ يناير ١٩٧٣م[1].

ولنا هنا وقفة للدرس والعبرة من الموقف البريطاني ثم الفرنسي؛ فلا مانع من التدرُّج في خطوات الاندماج بين الشعوب، وأن تُعْطَى كل خطوة ومرحلة فترةً زمنيةً، قد تطول، وتكون كل مرحلة مصحوبة بضمانات لكل الأطراف؛ فيطمئن الجميع، فلا يوجد تهديد يمسُّ سيادة دولة على أرضها، أو مسخ لهوية وتاريخ شعب، المقصود هنا هو التلاقي والتوافق على المشتركات مع حفاظ كل طرف على مكتسباته التاريخية الخاصة.

وقد كانت الشراكة الاقتصادية مرحلة بدأ بها القادة الأوربيون كخطوة مبدئية على طريق الوحدة، ولم يكتفوا بها؛ لذا فبعدما تَوَثَّقَتْ عُرى الصلات الاقتصادية بين تلك الدول، وصارت القوة الاقتصادية لكل دولة منها مرهونة بقوة اقتصاديات شريكاتها الأوربيات بدت الحاجة مُلِحَّة، والأجواء مُهَيَّأة لخطوة جديدة؛ ففي عام ١٩٨٦م تَمَّ البدء بإصدار جوازات السفر الأوربية، ورُفِعَ العلم الأوربي على أنغام السيمفونية التاسعة لبيتهوفن، وهي تمثِّل السلام الأوربي، كما دخل القانون الأوربي الموحَّد حَيِّزَ التنفيذ؛ ليُزِيل العوائق التجارية المصطنعة ما بين الدول الأعضاء؛ لكي تتمكن البضائع ورءوس الأموال والخدمات وكذلك الأفراد من التنقُّل والعيش

(١) صدام مرير الجميلي: الاتحاد الأوربي ودوره في النظام العالمي الجديد، ص١٠٠.



والعمل بحُرِّيَّة دون قيود في أيٍّ من الدول الأعضاء[(١)].

تأسيس الاتحاد الأوربي:

أمَّا على المسار السياسي فقد تمَّ في ٧ فبراير ١٩٩٢م توقيع معاهدة الاتحاد الأوربي في مدينة ماستريخت الهولندية، ودخلت هذه المعاهدة حَيِّزَ التنفيذ في الأول من نوفمبر ١٩٩٣م، ويرجع تأخُّر تطبيقها إلى تأخُّر قبول الدنماركيين المعاهدة وشروطها، وبسبب قضية دستورية أُقيمت ضدَّها في ألمانيا.

ولم يضع الاتحاد الأوربي بادئ الأمر أية شروط إضافية لانضمام الدول المرشحة للعضوية، عدا الشروط العامة التي تـمَّ تبنِّيها في الاتفاقيات المؤسِّسَة للاتحاد، لكن الفرق الشاسع في المستوى الاقتصادي والسياسي بين دول أوربا الوسطى والشرقية ودول الاتحاد دفع مجلس الاتحاد الأوربي عام ١٩٩٣م ليضع عدَّة شروط؛ تكفل حدًّا أدنى من المشتركات العامة؛ منها:

شروط سياسية: على الدولة المترشحة للعضوية أن تتمتع بمؤسسات مستقلَّة تضمن الديمقراطية والحرية، وأن تقوم على دولة القانون، وأن تحترم حقوق الإنسان، وحقوق الأقليات.

شروط اقتصادية: وجود نظام اقتصادي فعَّال، وقادر على تلبية الاحتياجات الأساسية لمواطنيه، ويعتمد على اقتصاد السوق، وقادر على التعامل مع المنافسة الموجودة ضمن الاتحاد.

شروط تشريعية: إذ على الدولة المترشِّحة للعضوية أن تقوم بتعديل تشريعاتها وقوانينها بما يتناسب مع التشريعات والقوانين الأوربية، التي تمَّ وضعها وتبنِّيها منذ تأسيس الاتحاد[(٢)].

ومن أهمِّ مبادئ الاتحاد الأوربي نقل بعض صلاحيات الدول القومية إلى المؤسسات الدولية الأوربية، لكن تظلُّ هذه المؤسسات محكومة بمقدار الصلاحيات التي منحتها كل دولة على حدة، بما يكفل لكل دولة أو مجموعة دول الحفاظ على مشتركاتهم الخاصة.

---

(١) راغب السرجاني: بين التاريخ والواقع، ١/ ١٦٥.
(٢) المرجع السابق، ١/ ١٦٥.

كما تم الاتفاق بين قادة الدول الأعضاء في الاتحاد الأوربي على وضع دستور لأوربا، وجاءت المبادرة من بلجيكا في عام ٢٠٠١م، خلال رئاستها للاتحاد، وتم تشكيل لجنة للقيام بهذه المهمة برئاسة الرئيس الفرنسي السابق ديستان[١].

وأصبح للاتحاد الأوربي نشاطات عديدة؛ أهمها كونه سوقًا موحدةً ذات عملة واحدة هي اليورو، وبدأ التداول الرسمي له في الأول من يناير ٢٠٠٢م.(انظر: **صورة رقم ١٨ علم الاتحاد الأوربي**).

ثم في يوم الجمعة ١٣ ديسمبر ٢٠٠٢م الذي يُعَدُّ يومًا مشهودًا في تاريخ أوربا الحديثة؛ حيث انعقدت في كوبنهاجن القمة الأوربية التي أسفرت عن توسيع دائرة العضوية للاتحاد بقبول انضمام ٨ دول من أوربا المركزية (أو الوسطى) وأوربا الشرقية؛ هي: بولندا، والمجر، والتشيك، وليتوانيا، وإيستونيا، وسلوفاكيا، وسلوفينيا، ثم إضافة دولتين هما قبرص ومالطا، على أن تلتحق هذه العشر بالاتحاد في مايو سنة ٢٠٠٤م، بينما تلتحق دولتان أُخْرَيان هما رومانيا وبلغاريا في عام ٢٠٠٧م[٢].

وقد تمَّ تنفيذ البنود المتفق عليها في قمة كوبنهاجن ليرتفع بذلك عدد الدول الأعضاء في الاتحاد الأوربي إلى ٢٧ دولة[٣]، ويصبح من القوى المرشحة لقيادة العالم في المستقبل القريب..

ثمرات الوحدة:

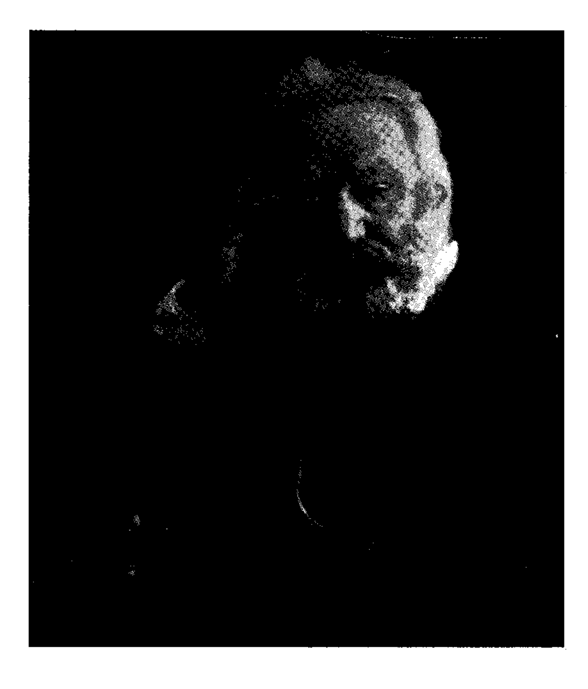
يقول (زبيجنيو بريجنسكي) مستشار الأمن القومي الأميركي في عهد الرئيس جيمي كارتر: «بعد أن أصبحت الإمكانات الاقتصادية للاتحاد الأوربي تضاهي إمكانات الولايات المتحدة الأميركية، وبعد تكرار التصادم بين الكيانين بشأن مسائل مالية وتجارية، فإن بروز

---

(١) محمد المجذوب: التنظيم الدولي.. النظرية والمنظمات العالمية والإقليمية، ص٥٥٦.

(٢) الاتحاد الأوربي تجربة وحدوية ناجحة وقدوة رائدة: صحيفة الشرق الأوسط اللندنية ٢٥ ديسمبر ٢٠٠٢م، العدد ٨٧٩٣.

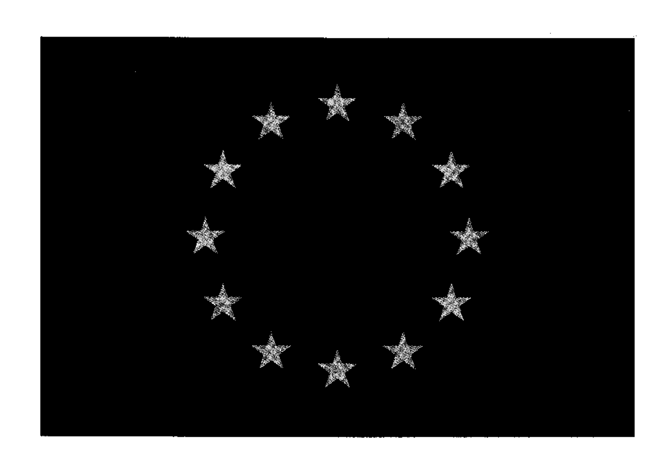
(٣) الموقع الرسمي للاتحاد الأوربي على الشبكة العالمية، الرابط: http://europa.eu/index_en.htm.



المفكر فيكتور هوجو



جان مونيه



علم الاتحاد الأوربي

صورة رقم (١٨)

أوربا من الناحية العسكرية قد يجعل منها منافسًا مرعبًا للأميركيين، وتحديًا خطيرًا للهيمنة الأميركية»[(١)].

فلم يأتِ منتصف التسعينيات من القرن الماضي، إلا وكان الاتحاد الأوربي يحتلُّ موقعَ أكبر قوة اقتصادية في العالم؛ إذ بلغ ناتجه المحلي الإجمالي ٧٢٩٤ مليار دولار، في مقابل ٦٦٣٨ مليار دولار في الولايات المتحدة الأميركية، واستحوذ على نسبة ٢٠٪ من إجمالي صادرات العالم، في مقابل ١٦٪ للولايات المتحدة الأميركية[(٢)].

وبالرغم من كونه لا يزال يُعاني من إجهاد وتكلفة عملية التوسُّع الأخيرة في مايو ٢٠٠٤م، التي انتقل بموجبها عدد أعضاء الاتحاد من ١٥ إلى ٢٥ دولة، وبالانضمام الأخير الذي أصبح بعده يشمل ٢٧ دولة، فقد أصبحت القوة الاقتصادية والعسكرية للاتحاد الأوربي ملموسة على مستوى العالم؛ إذ أنتجت دول الاتحاد ما يزيد على ٢٧ تريليون دولار من السلع والخدمات في سنة ٢٠٠٥م، وأنفقت ما يزيد على ٧٧٪ من إجمالي الإنفاق العسكري العالمي؛ حيث خصصت أكثر من ٧٨٠ مليار دولار لقواتها المسلحة في عام ٢٠٠٥م[(٣)].

وبمرور الأعوام يزداد الاتحاد الأوربي -الذي احتفل في مارس ٢٠٠٧م بمرور ٥٠ عامًا على إنشائه- قوة وتأثيرًا حيث أصبحت مساحته الإجمالية ٤,٣٢٥ مليون كم، وبلغ عدد سكانه ٤٩١,٦ مليون نسمة عام (٢٠٠٩م)[(٤)].

وعلى الجانب الاقتصادي قفز الناتج السنوي للاتحاد الأوربي إلى ١٤,٥ تريليون دولار (عام ٢٠٠٩م)، بمعدَّل نموٍّ بلغ ٤٪ سنويًّا، وتعدَّى الناتج المحلي الإجمالي للفرد ٣٢,٥ ألف دولار سنويًّا (عام ٢٠٠٩م)، وبلغ حجم قوته العاملة ٢٢٥ مليون فرد[(٥)].

---

(١) زبيجنيو بريجنسكي: الاختيار.. السيطرة على العالم أم قيادة العالم، ص١٠٦.
(٢) محمد مصطفي كمال، وفؤاد نهرا: صنع القرار في الاتحاد الأوربي، ص١٥.
(٣) صدام مرير الجميلي: الاتحاد الأوربي ودوره في النظام العالمي الجديد، ص٢٢٠.
(٤) الموقع الرسمي للاتحاد الأوربي على الشبكة العالمية، الرابط: http://europa.eu/index_en.htm.
(٥) كتاب الحقائق الأميركي ٢٠٠٩م، www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook.



وبذلك استطاع الاتحاد الأوربي تأكيد تخطِّيه للحاجز الأميركي كأكبر قوة اقتصادية في العالم؛ حيث بلغ الناتج الإجمالي للولايات المتحدة الأميركية ١٣,٧ تريليون دولار (عام ٢٠٠٩م)، وتلتها اليابان بدخل قومي بلغ ٤,٤ تريليون دولار، ثم الصين بـ ٣,٢ تريليون دولار، وفقًا لتقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة ٢٠٠٩م[1].

كما أصبحت قاعدة الاتحاد الأوربي الصناعية الأكبر في العالم وأكثرها تقدُّمًا من الناحية التكنولوجية، وصارت تضمُّ إنتاج المعادن وتجهيزها، والبترول والفحم والإسمنت والكيماويات، والصناعات الدوائية، والطيران، والسكك الحديدية ومعدات النقل، والمعدات الصناعية، وبناء السفن، والمعدات الكهربائية، وذلك بجانب نُظم التصنيع الآلي والإلكترونيات، ومعدات الاتصالات السلكية واللاسلكية، والصناعات الغذائية، والأثاث والورق والمنسوجات والسياحة، إضافة إلى تحقيق الاتحاد الأوربي لمعدل نموٍّ صناعي بلغ ٩,٩٪ (عام ٢٠٠٨) [2]. (انظر: صورة رقم ١٩ الصناعة الأوربية).

وتنوَّعت صادرات الاتحاد لتشمل الآلات والسيارات والطائرات، والمواد البلاستيكية والصناعات الدوائية.. وغيرها من المواد الكيميائية والوقود، والحديد والصلب، والمعادن غير الحديدية، ولبَّ الخشب والمنتجات الورقية والمنسوجات، واللحوم ومنتجات الألبان، والأسماك، لتقترب قيمة صادراته من الـ ٢٠٠٠ تريليون دولار (عام ٢٠٠٧م) [3].

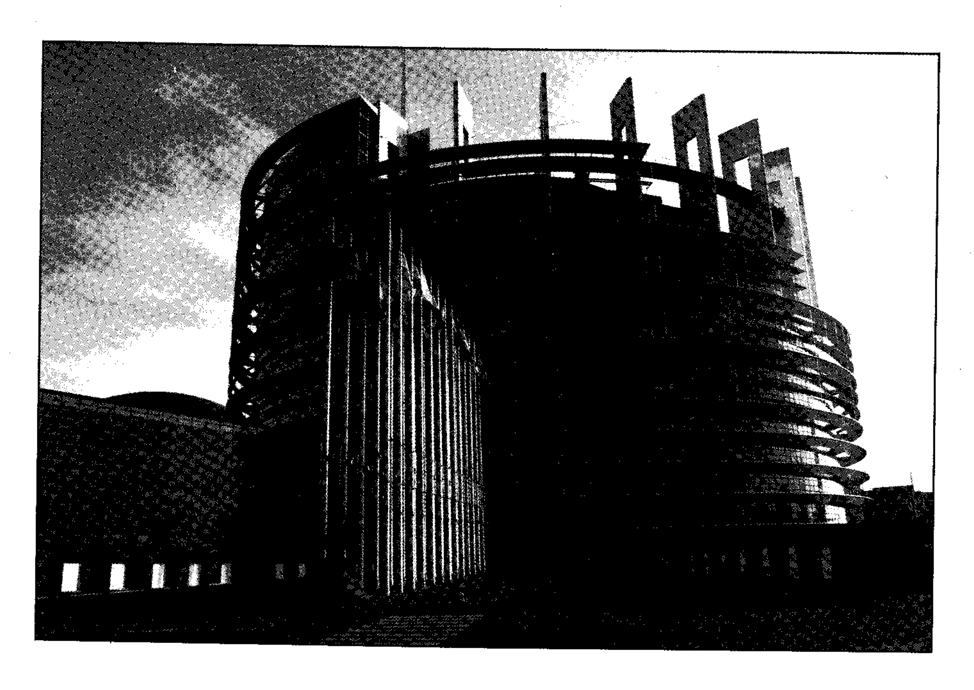
وفضلاً عن ذلك يُعَدُّ الأوربيون من أكثر الشعوب المتعلِّمة في العالم؛ حيث يستطيع ٩٠٪ من سكان أوربا القراءة والكتابة؛ باستثناء مالطا والبرتغال؛ إذ تَقِلُّ نسبة المتعلمين فيهما عن ٩٠٪.

---

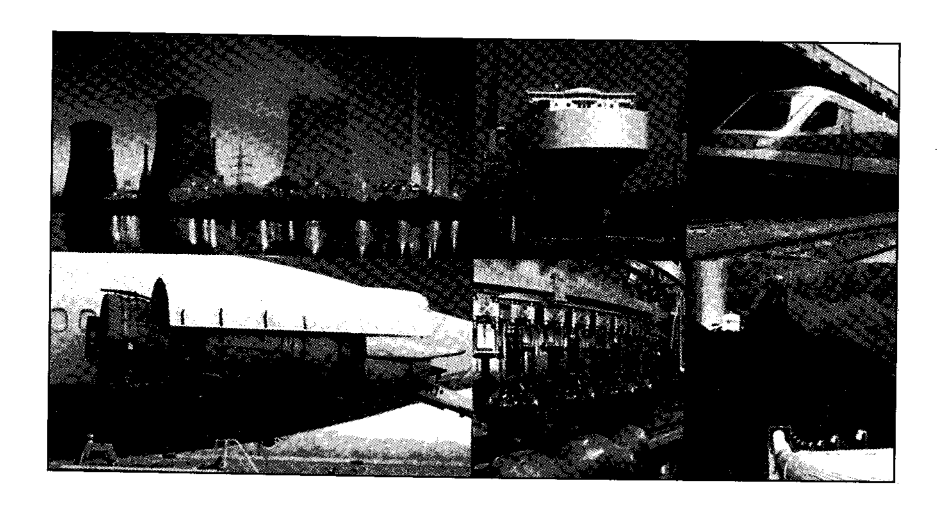
(١) تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة ٢٠٠٩م،
http://hdrstats.undp.org/en/indicators/150.html

(٢) كتاب الحقائق الأميركي ٢٠٠٩م، www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook.

(٣)كتاب الحقائق الأميركي ٢٠٠٩م، www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook.



مقر برلمان الاتحاد الأوربي بمدينة ستراسبورج (فرنسا)



الاتحاد الأوربي والنهضة الصناعية الشاملة

صورة رقم (١٩)





كما يُوجد بأوربا عدد من أشهر الجامعات في العالم؛ مثل: كمبردج وأدنبره ولندن وأكسفورد في بريطانيا، وجامعة باجلونيا في كراكاو ببولندا، وجامعات بولندا بإيطاليا، ودبلن بإيرلندا، وهايدلبرج بألمانيا، إضافة إلى جامعات موسكو وباريس وروما وفيينا[١].

ختامًا..

لا يسعنا إلا أن نُقِرَّ أنَّ هذه الخطوات الهائلة التي اتخذتها الدول الأوربية على طريق الوحدة لَتدلُّ على عزيمة جبارة، وَضعت الوحدة هدفًا أسمى يُبذَل من أجله الغالي والنفيس، كما تدلُّ على تخطيط دقيق ودراسة واعية لمقتضيات الوحدة، وتنفيذٍ واعٍ لما يُقَرَّر، إضافةً إلى مرونة عالية تسمح بالتنازل عن بعض الخصوصية القائمة لكل دولة في سبيل تحقيق التكامل والاتحاد مع بقية الدول الأوربية[٢].

وخير ما نختم به حديثنا عن هذه التجربة العظيمة ما جاء في الصفحة التعريفية للاتحاد الأوربي على شبكة المعلومات الدولية عن الرؤية المستقبلية للاتحاد؛ إذ جاء فيها: «سوف يأتي يوم تجتمع فيه جميع الدول الأوربية، دون أن تفقد خصائصها المميزة أو شخصيتها التاريخية، وسوف تلتحم مع بعضها لتُشَكِّل أعلى وحدة وطنية أوربية، وسوف يأتي يوم تكون فيه ساحة المعركة الوحيدة المتاحة هي الساحة الفكرية، حيث يتمُّ استبدال الرصاص والقنابل بالحجج والآراء»[٣].

***

(١) الموقع الرسمي للاتحاد الأوربي على الشبكة العالمية، الرابط: http://europa.eu/index_en.htm.

(٢) راغب السرجاني: بين التاريخ والواقع، ١/ ١٦٥.

(٣) About the EU - What future for Europe (http://europa.eu/index_en.htm)

مجلس التعاون الخليجي

استطاعت دول الخليج من خلال تجربة مجلس التعاون الخليجي تحقيق طفرات مشهودة في العديد من المجالات، لا سيما الاقتصادية والاجتماعية لسكان منطقة الخليج العربي؛ إذ بلغ دخل الفرد الخليجي ٢٨,٣ ألف دولار سنويًّا، بحسب إحصاءات ٢٠٠٨م.. كما تُقَدَّر مساحة دول مجلس التعاون الخليجي ٢,٦٧٢ مليون كم، مُشَكِّلة ما يناهز ١٥٪ من مساحة الوطن العربي، وبلغ عدد سكانه ٣٧,٥ مليون نسمة (٢٠٠٨م)[١].

ومع ذلك فنحن نعرف بداية أن تجربة مجلس التعاون الخليجي تُعتبر محدودة إذا ما قُورنت بالاتحاد الأوربي، ولكننا نراها تجربة ثرية، بنَّاءة، وقابلة للتوسُّع، ونودُّ أن تُصبح مصدر إلهام لباقي العالم العربي والإسلامي؛ إمَّا بالانضمام والمشاركة فيها أو بتكوين اتحادات أخرى مشابهة.. وسوف نعرض فيما يلي بشيء من التفصيل لأهم المراحل التي مرَّت بها تجربة مجلس التعاون الخليجي، ونُعرِّج على بعض أهم النجاحات التي حققَّها، وكذلك بعض العقبات التي يُواجهها.

مجلس التعاون لدول الخليج العربية هو منظمة إقليمية عربية مكوَّنة من ست دول أعضاء تطلُّ على الخليج العربي؛ هي: السعودية، والإمارات، والكويت، وقطر، وسلطنة عُمان، ومملكة البحرين.

كما يُعَدُّ كلٌّ من العراق باعتباره دولة عربية مطلَّة على الخليج العربي واليمن (الذي يُمَثِّل الامتداد الاستراتيجي لدول مجلس التعاون الخليجي) دولاً مرشحة للحصول على عضوية المجلس الكاملة؛ حيث يمتلك كلٌّ من العراق واليمن عضوية بعض لجان المجلس كالرياضية والصحية والثقافية[٢].

---

(١) الموقع الإلكتروني للمجلس على الشبكة الإلكترونية: www.gcc-sg.org.

(٢) بدرية عبد الله العوضي: دول مجلس التعاون الخليجي ومستويات العمل الدولية، ص٢٩.



وقد تأسس المجلس في ٢٥ مايو ١٩٨١م بالاجتماع الذي انعقد في (أبو ظبي) بالإمارات العربية المتحدة، وكان كل من الشيخ جابر الأحمد الصباح[١]، أمير الكويت السابق، والشيخ زايد بن سلطان[٢] آل نهيان، رئيس الإمارات السابق، من أصحاب فكرة إنشائه[٣]، وفي هذا الاجتماع -الذي حضره قادة الدول الست الأعضاء- تمَّ التوصُّل إلى صيغة تعاونية تهدف إلى تحقيق التنسيق والتكامل والترابط بين دولهم في جميع الميادين وصولاً إلى وحدتها، وَفق ما نصَّ عليه النظام الأساسي للمجلس في مادته الرابعة، التي أكَّدت أيضًا على تعميق وتوثيق الروابط والصلات وأوجه التعاون بين مواطني دول المجلس.

كما جاءت صياغة النظام الأساسي للمجلس مشدِّدَة على ما يربط بين الدول الست من علاقات خاصة، وسمات مشتركة، وأنظمة متشابهة أساسها العقيدة الإسلامية، وإيمان بالمصير المشترك ووحدة الهدف، وأن التعاون فيما بينها إنما يخدم الأهداف المشتركة للأمة العربية[٤].

ويُعَدُّ المجلس الأعلى هو السلطة العليا لمجلس التعاون، ويتكوَّن من رؤساء الدول الأعضاء، ورئاسته دورية حسب الترتيب الهجائي لأسماء الدول، ويجتمع في دورة عادية كل عام، ويعين الأمين العام، ويجوز عقد دورات استثنائية بِنَاء على دعوة أي دولة عضو، وتأييد عضو آخر، ويتولَّى رئاسة الأمانة العامة للمجلس حاليًا عبد الرحمن بن حمد العطية[٥]، ويتَّخذ المجلس من الرياض مقرًا له، إلى جانب تشكيل المجلس لهيئة خاصة بتسوية المنازعات بين الدول الأعضاء، وهي تتبع المجلس الأعلى مباشرة، إضافة إلى المجلس الوزاري الذي يتكوَّن

---

(١) جابر الأحمد الجابر الصباح (١٩٢٦ - ٢٠٠٦م): أمير دولة الكويت الثالث عشر، تولى الحكم في ٣١ ديسمبر ١٩٧٧م، وتبنَّى فكرة إنشاء مجلس التعاون الخليجي.

(٢) زايد بن سلطان آل نهيان (١٩١٨ - ٢٠٠٤م): أول رئيس لدولة الإمارات العربية المتحدة وحاكم إمارة أبو ظبي، انتخب لرئاسة الإمارات العربية المتحدة في ٢ ديسمبر ١٩٧١م، وكان من أصحاب فكرة إنشاء مجلس التعاون الخليجي.

(٣) محمدحسن العيدروس: الإمارات بين الماضي والحاضر، ص١٩٠.

(٤) النظام الأساسي لمجلس التعاون الخليجي، الموقع الإلكتروني للمجلس على الشبكة الإلكترونية: www.gcc-sg.org.

(٥) عبد الرحمن بن حمد العطية: الأمين العام الحالي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية منذ إبريل ٢٠٠٢م، وهو قَطَري الجنسية، ومن مواليد ١٥ إبريل ١٩٥٠م.

من وزراء خارجية الدول الأعضاء، ويعقد المجلس اجتماعاته مرَّة كل ثلاثة أشهر، ويجوز له عقد دورات استثنائية بناء على دعوة أي من الأعضاء وتأييد عضو آخر[١].

وقد حدَّد النظام الأساسي لمجلس التعاون أهداف المجلس في تحقيق التنسيق والتكامل والترابط بين الدول الأعضاء في جميع الميادين وصولاً إلى وحدتها، ووضع أنظمة متماثلة في مختلف الميادين الاقتصادية والمالية، والتجارية والجمارك، والمواصلات، وفي الشئون التعليمية والثقافية، والاجتماعية، والصحية، والإعلامية، والسياحية، والتشريعية، والإدارية، ودَفْع عجلة التقدُّم العلمي والتقني في مجالات الصناعة والتعدين، والزراعة، والثروات المائية والحيوانية، وإنشاء مراكز بحوث علمية وإقامة مشاريع مشتركة، وتشجيع تعاون القطاع الخاص[٢].

ويُعدُّ مثال الاتحاد الجمركي بين دول مجلس التعاون من أبرز الأمثلة التطبيقية للأهداف المنصوص عليها في النظام الأساسي للمجلس؛ إذ يُعتبر توحيد الأنظمة والإجراءات الجمركية في دول المجلس من أهمِّ الأهداف التي عملت إدارات الجمارك بالدول الأعضاء على إنجازها، والتي من بينها إيجاد نظام «قانون» موحَّد للجمارك لدول مجلس التعاون؛ يُوَحِّد الإجراءات الجمركية في جميع إدارات الجمارك بدول المجلس، ويُساهم في تعزيز التعاون في مجال الجمارك بين الدول الأعضاء، وقد بدأ العمل لتحقيق هذا الهدف منذ عام ١٩٩٢م، وعقدت اللجنة الفنية المكلَّفة بهذه المهمة من قِبَلِ مديري عامِّي الجمارك سبعة عشر اجتماعًا لهذا الغرض انتهت بالاتفاق على النظام «القانون» المشار إليه.

وحرصًا على أن يكون هذا النظام «القانون» غير متعارِض وأحكام الاتفاقيات الدولية ذات الصلة بعمل الجمارك ومنسجمًا معها، فقد قامت الأمانة العامة بإرسال نسخ مترجمة للغة الإنجليزية منه لكلٍّ من منظمة التجارة العالمية (WTO) ومنظمة الجمارك العالمية (WCO) لإبداء ما لهما من ملاحظات عليه، وتلقَّت الأمانة العامة ملاحظات من كلتا المنظمتين، تم

---

(١) محمد حسن العيدروس: الإمارات بين الماضي والحاضر، ص ١٩٤-١٩٦.

(٢) النظام الأساسي لمجلس التعاون الخليجي، الموقع الإلكتروني للمجلس على الشبكة الإلكترونية: www.gcc-sg.org.



عرضها على اللجنة الفنية المكلفة بمناقشته واتخذت الإجراء المناسب حيالها.

وقد أُقِرَّ النظام «القانون» الموحَّد للجمارك بدول المجلس في الدورة العشرين للمجلس الأعلى، التي عُقدت بالرياض خلال الفترة من ٢٧ – ٢٩ نوفمبر ١٩٩٩م، على أن يُطَبَّق بشكل استرشاديٍّ لمدَّة عام من تاريخ إقراره من المجلس الأعلى، وأن تتمَّ مراجعته وفق ما يَرِدُ للأمانة العامة من ملاحظات حوله من الدول الأعضاء تمهيدًا للعمل به بشكل إلزامي في جميع إدارات الجمارك للدول الأعضاء من نهاية عام ٢٠٠٠م[١].

نجحت فكرة الاتحاد الجمركي وتمَّ تطبيقها بشكلها النهائي من بداية يناير ٢٠٠٣م، لتفتح الطريق أمام إنجاز كبير آخر على طريق التواصل بين دول الخليج، وهو إقامة السوق الخليجية المشتركة، التي انطلقت في الأول من يناير لعام ٢٠٠٨م بِناءً على إعلان الدوحة الذي صدر عن الجلسة الختامية للدورة الـ٢٨ للمجلس الأعلى للتعاون بين دول الخليج العربي.

ولم تُولد تلك السوق من فراغ، بل جاءت تنفيذًا للبرنامج الزمني الذي أقرَّه المجلس الأعلى في دورته الثالثة والعشرين (ديسمبر ٢٠٠٢م) بشأن استكمال متطلَّبات السوق الخليجية المشتركة، كخطوة من الخطوات المتدرِّجة التي تهدف إلى تحقيق التكامل الاقتصادي بين دول المجلس[٢].

وتهدف السوق الخليجية المشتركة إلى إيجاد سوق واحدة، يتمُّ من خلالها استفادة مواطني دول المجلس من الفرص المتاحة في الاقتصاد الخليجي، وفتح مجال أوسع من الاستثمار البيني والأجنبي، كما تهدف السوق إلى تحسين الوضع التفاوضي لدول المجلس في المحافل الدولية كمفاوض واحد، وكقوة اقتصادية واحدة باسم واحد، وتعزيز مكانتها بين التجمعات الاقتصادية والدولية، إلى جانب تحقيق استفادة دول المجلس جميعها من أي امتيازات

---

(١) إجراءات وخطوات تطبيق الاتحاد الجمركي لدول مجلس التعاون، الموقع الإلكتروني للمجلس على الشبكة الإلكترونية، الرابط: www.gcc-sg.org.

(٢) أشرف محمد دوابه: السوق الخليجية المشتركة.. آفاق وتحديات، إسلام أون لاين، ١ يناير ٢٠٠٨م، www.islamonline.net.

اقتصادية تحصل عليها السوق المشتركة.

وتعتمد السوق الخليجية المشتركة على المبدأ الذي نصت عليه المادة الثالثة من الاتفاقية الاقتصادية الموحدة، بأن يُعامل مواطنو دول المجلس في أي دولة من الدول الأعضاء نفس معاملة مواطنيها دون تفريق أو تمييز في كل المجالات الاقتصادية، لا سيما مزاولة جميع الأنشطة الاقتصادية والاستثمارية والخدمية وممارسة المهن والحرف، وتداول وشراء الأسهم، وتأسيس الشركات والعمل في القطاعات الحكومية والأهلية، وتَنَقُّل رءوس الأموال والمعاملة الضريبية، بالإضافة إلى الاستفادة من الخدمات التعليمية والصحية والاجتماعية[1].

كما أفادت السوق الخليجية أُسس التعاون بين دول مجلس التعاون الخليجي بصورة بَنَّاءة، حيث تنحسر فيها النزعات القطرية لصالح الإقليمية، وتنتقل الجنسية من جنسية متعدِّدَة إلى جنسية خليجية واحدة تتيح لأصحابها الحصول على الحقوق والامتيازات نفسها التي يحصل عليها الفرد الخليجي في موطنه.

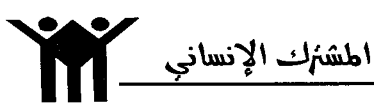
كذلك فقد حققت السوق إنجازات على المستوى الاقتصادي رغم قصر أمد انطلاقتها؛ فقد أشاد الدكتور خالد بن محمد العطية[2] وزير دولة قطر لشئون التعاون الدولي بإنجازات السوق الخليجية المشتركة، وأشار إلى أن التجارة البينية شهدت زيادة ملحوظة منذ قيام الاتحاد الجمركي الخليجي؛ حيث قفز حجم التجارة البينية لدول مجلس التعاون من حوالي ١٥ مليار دولار في عام ٢٠٠٢م إلى ٦٥ مليار دولار في عام ٢٠٠٨م؛ أي بزيادة بلغت ما نسبته ٣٢٥٪[3].

لا شكَّ أن دول الخليج مجتمعة هي أفضل حالاً، وأكثر قوة، وأعلى صوتًا، وأقدر على التأثير من بقائها مُفَتَّتَة؛ فدول مجلس التعاون الخليجي مجتمعة تمتلك ثروة نفطية تُقَدَّر بـ ٣,٤٨٤ مليار برميل، بجانب ٤,٤١ ألف مليار متر مكعب من الغاز الطبيعي، وهما

(١) للمزيد: السوق الخليجية المشتركة، حقائق وأرقام ٢٠٠٩م، إدارة الإحصاء التابعة لمجلس التعاون الخليجي، الكتاب متاح بصيغة pdf على الرابط: http://library.gcc-sg.org/Arabic/Books/book184.pdf.

(٢) خالد بن محمد العطية: وزير التجارة والتعاون الدولي لدولة قطر منذ ٢٠٠٨م.

(٣) صحيفة الراية القطرية، بتاريخ ٨ أبريل ٢٠١٠م.



يشكلان نسبة ٤٠٪ من الاحتياطي العالمي للنفط، و٢٣٪ من احتياطي الغاز.

إضافة إلى النمو المطَّرد لدول مجلس التعاون الخليجي بشكل عامٍّ؛ حيث أصبحت تحتلُّ مراكز متقدِّمَة في مؤشرات تحسُّن بيئة الاستثمار والحرية الاقتصادية والتنافسية العالمية، فجاءت قطر في المرتبة الـ٢٤ في مؤشِّر بيئة الاستثمار العالمية من مجموع ١٧٧ دولة، وتبعتها الإمارات في المرتبة الـ٢٥، ثم السعودية في المرتبة الـ٢٧، وعُمان الـ٣٢، والبحرين الـ٣٩[١].

لكن هذا بالطبع لا يعني خلوَّ الطريق أمام دول المجلس من أي تحديات أو عقبات، بل على العكس فإن تجربة مجلس التعاون الخليجي واجهها ويواجهها العديد من التحديات الخطيرة؛ منها:

أن منطقة الخليج منذ تأسيس المجلس لم تشهد استقرارًا سياسيًّا؛ إذ توافق تأسيس المجلس مع حرب الخليج الأولى التي استمرَّت حتى نهاية عقد الثمانينيات من القرن الماضي، تلاها فترة هدوء لبضع سنوات، إلى أن بدأت في العقد الأخير من القرن العشرين أزمة هزَّت منطقة الخليج العربي والعالم العربي بشكل عامٍّ، وهي أزمة غزو العراق للكويت في ٢ أغسطس ١٩٩٠م، التي أدخلت المنطقة في دوامة من الحرب والتدخل الأجنبي ما زالت مستمرَّة إلى يومنا هذا.

أمَّا على صعيد السياسة الدولية فإن تأثير دول مجلس التعاون الخليجي ما زال محدودًا، ومتشابهًا مع الحالة العربية، التي تُعاني من الضعف الشديد على المستوى الدولي، فلا يُوجد للدول الخليجية ثِقَل على المستوى السياسي الدولي، وحتى برأي الذين يعتبرون النفط وسيلة وأداة سياسية بيدها، فإن الدول المصدِّرة لهذا النفط تُدرك تمامًا أنها لا تستطيع أن تعيش سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا دون عوائده، وهذا يلفت أنظارنا إلى التحدي الاقتصادي الأكبر الذي يُواجه دول المجلس، وهو غياب التنويع لمصادر الدخل في معظم دول الخليج، واعتماد جُلِّ ميزانياتها على الموارد النفطية، بما ستكون له آثار سلبية على التعاون بين الدول المُشكِّلة للمجلس في إطار التنافس على أسواق النفط، خاصة في ظلِّ أي تَدَنٍ لأسعار النفط؛ مما

(١) مجلس التعاون الخليجي ودوله حقائق وأرقام، الجزيرة نت، ٤ ديسمبر ٢٠٠٧م.

سيخلق تحديات إضافية لهذه الدول، وفي ظلِّ ظهور قوى نفطية جديدة في سوق النفط العالمي، لا سيما في الدول المطلَّة على بحر قزوين[١].

ونختم بكارثة الوجود الأميركي في منطقة الخليج العربي التي أدَّت إلى تقليص الدور الإقليمي لدول الخليج، حيث كان عليها أن تختار إمَّا الوقوف في وجه المارد الأميركي أو الانكفاء على الذات، والاكتفاء بالشجب والتنديد كسائر بلاد العالم العربي؟!

إن تجربة مجلس التعاون الخليجي لا تخلو من نجاحات كبيرة تستحقُّ الإعجاب، خاصة في ما يخصُّ التقارب والتواصل بين أبناء الدول الأعضاء، لكنها تجربة ما زال أمامها الكثير من التطوير، ومن الوقفات الهادئة للمراجعة ولاكتشاف السلبيات والتفكير في كيفية التغلُّب عليها..

لكنها في النهاية تجربة جيدة، وننادي بتعميمها على مستوى العالم العربي والإسلامي.. فالوحدة بسلبياتها وأخطائها هي عندنا أفضل كثيرًا من الفُرقة، التي لا تخلو كذلك من السلبيات والأخطاء!

***

---

(١) عدنان الهياجنة: مجلس التعاون الخليجي.. العيش تحت هاجس الأمن، الجزيرة نت، ٣ أكتوبر ٢٠٠٤م، www.aljazeera.net.

أخلاق التعارف في سورة الحجرات

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا "

القرآن الكريم (سورة الحجرات : ١٣)









الفصل الرابع
أخلاق التعارف في سورة الحجرات

القرآن الكريم هو كتاب الله ﷻ، الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، وهو معجزة الله الخالدة، وهو الكتاب العزيز الذي ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، والقرآن الكريم هو شريعة الله ﷻ الصالحة لكل زمان ومكان، يقول الله ﷻ:﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]؛ فالله ﷻ أنزل في كتابه الخير والصلاح للبشرية، فهو ﷻ خالق البشر، يعلم ما فيه صلاحهم ونفعهم، والمتأمِّل لكتاب الله ﷻ يجد الإشارات الربَّانية التي تُرشد البشر إلى آليات التعارف وأخلاقياته؛ لذلك يقول رسول الله ﷺ: «كِتَابُ الله فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ»(١).

وبعد دراسة هذه النظرية وبعد أن بانت ملامحها فلننظر إلى سورة من سور القرآن الكريم، وهي سورة الحجرات، وذلك من منظور تطبيقي للنظرية.. ولكن لماذا سورة الحجرات؟

عندما تقرأ سورة الحجرات وتقف أمام قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، والتي أطلق العلماء عليها (آية التعارف)، تجد أن الغاية التي خلق الله البشر من أجلها وجَعْلهم شعوبًا وقبائل هي التعارف، وعند قراءتي للسورة -من منظور دعوتها إلى التعارف- وجدتُ أنها تضمَّنت آليات وأخلاقيات مُثْلَى للتعارف بين الشعوب؛ كان منها ما يلي:

---

(١) الترمذي: السنن، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن (٢٩٠٦)، والدارمي (٣٣٣٢)، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن.

أولاً: التثبُّت من المعلومة:

لتحقيق التعارف السليم بين الناس بعضهم البعض، وبين الشعوب المتقاربة أو المتباعدة، لا بُدَّ من البناء السليم القائم على المعلومة السليمة، فلا يقوم تعارف قويٌّ بين البشر حتى يكون كلٌّ منهما قد عرف صاحبه وخبره، واطمأنَّ إليه، وهو ما يكون بالمعلومة الصحيحة، وهذا ما تُرشدنا إليه الآية الكريمة في قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]. وفي قراءة حمزة والكسائيِّ: «فتثبتوا» من التثبُّت، وقرأ الباقون: «فَتَبَيَّنُوا» من التبين»[١]. وكلٌّ من التبيُّن والتثبُّت معناهما واحد؛ فالآية الكريمة تُرشدنا إلى أهمية المعلومة الصحيحة لتحقيق التعارف بين الناس، وقد تبيَّن من خلال النظرية أنَّ لكلِّ شعب سماته وصفاته الخاصة، فمن أراد التعرُّف على شعب من الشعوب فلا بُدَّ من معرفة الصفات المميزة له؛ لتحقيق التعارف السليم والقوي.

أما إن لم يتثبَّت قوم من معلومة أو خبر، فإنه يُحْدِثُ ما حذَّرتنا منه الآية الكريمة: ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾، وهذا يُوضِّح أن تناقل الأخبار والمعلومات آفة المجتمعات والشعوب، فقد يكون بعضها إشاعة أو كذبًا، وقد يكون هناك كثير من المبالغة، وغالبًا ما يكون نقل المعلومة أو الخبر بحاجة ماسة إلى الدقَّة في النقل، وضبط اللفظ، وفهم المراد، وتأويل المسموع، وقد يكون الخبر كله ملفَّقًا أو موضوعًا لدوافع سياسية أو مناصرة اتجاه معيَّن أو لبذر بذور الفرقة، وتأجيج نار الخلاف بين الناس (الأقارب أو الأباعد)؛ لذا أوجب القرآن التثبُّت من الأخبار والمعلومات؛ تحقيقًا للمصلحة العامة أو الخاصة، ومنعًا من إيقاع الفتنة وزرع الفُرقة[٢].

إنها دعوة قرآنية لمن يُريد التعارف البنَّاء: أن تثبَّتوا من المعلومات والأخبار، وتبيَّنوا صحَّتها أو فسادها، فكلُّ ذلك يُؤَثِّر في قوة التعارف أو ضعفه.

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٣١٢.

(٢) وهبة الزحيلي: التفسير الوسيط ٣/ ٢٤٧١.



ثانيًا: سرعة الإصلاح:

خلق الله ﷻ البشر، وجعل بينهم مشتركات عامة؛ لتكون سبيلاً إلى الاتفاق وتحقيق التعاون المشترك بين الناس جميعًا، وجعل بين البشر مشتركات خاصة وأخرى داعمة؛ كاللغة والعرق والأرض والسياحة والفنون وغيرها، على نحو ما بيَّناه في النظرية، وهذه المشتركات مع حُسن الاستغلال والانتباه إليها تكون سبيلاً واضحًا وقويًّا لتحقيق التفاهم بين الشعوب وبعضها، كما جعل الله ﷻ فيهم مشتركًا أسمى، غير قابل للمساس به أو القرب منه، وهو الدين.

وأمام هذه المشتركات المتنوِّعة تقف طبيعة الإنسان المنشطرة نحو الخير والشرِّ، ونحو السلام والحرب، ونحو الاتفاق والاختلاف، ونحو الوئام والتنازع، فإذا تغلَّبت طبيعة الخير والسلام والميل نحو المصلحة المشتركة -التي فيها النفع للإنسانية جميعًا- كان التعارف والحب، وأمَّا إذا تَغَلَّبت نزعة الشرِّ والحرب والميل نحو المصلحة الذاتية كان التقاتل والكراهية.

فإذا وقع الصدام يأتي النهج القرآني ليُخبرنا بضرورة وسرعة الإصلاح بين الفئتين المتنازعتين؛ حتى يجبر الصدع، وتعود الرغبة في التعارف والمشاركة، يقول الله ﷻ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]؛ إذ لم تخْلُ فترة من فترات التاريخ من حرب بين طائفتين، فإن حدثت هذه الحرب وجب على فرقة ثالثة لم تشترك في الحرب أن تقوم بالإصلاح بين المتقاتلين؛ لأن كلَّ طرفٍ تكون له رؤيته الخاصة، فإذا دخلت فرقة محايدة فلعلَّ الإصلاح يكون أرجى.

وهذه الدعوة وإن كانت خاصة بالمسلمين فهي دعوة للإنسانية جميعًا؛ فإن منهج القرآن صالح لكل البشر، ولكل زمان ومكان، كما أنها دعوة لنبذ التقاتل والعمل على إذكاء رُوح التعارف والمشاركة.

ثالثًا: الحزم في الإصلاح:

وهو من الأخلاقيات الرفيعة التي حثَّ القرآن الكريم عليها، فلو حدث وتقاتل الطرفان

واشتعلت الحروب بينهما، وجب الإسراع في الصلح بينهما، ولكن ماذا لو بغت إحدى الطائفتين على الأخرى، ولم ترضَ بالصلح؟ هنا يكون المنهج الرباني، وهو الحزم في الإصلاح بين الطرفين، يقول الله ﷻ بعد أن ذكر سرعة الإصلاح بينهما: ﴿**فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ**﴾ [الحجرات: ٩]؛ أي: إذا اعتدت أو تجاوزت إحدى الجماعتين على الأخرى، ولم تتقبَّل النصيحة والصلح، فعلى المسلمين أن يُقاتلوا الطائفة الباغية؛ حتى ترجع إلى حُكم الله وترك البغي، ويكون القتال بالسلاح وغيره؛ حيث يفعل الوسيط ما يُحقِّق المصلحة[1]؛ فالحزم ضرورة وآلة مُثْلَى لتجنُّب الأضرار الناتجة على الإنسانية كلها، إذا ما استمرَّت تلك الحروب على أشُدِّها قائمة، فلو بغت إحداهما فلم تقبل الرجوع إلى الحقِّ -ومثله أن تبغيَا معًا برفض الصلح أو رفض قبول حكم الله في المسائل المتنازع عليها- فعلى المؤمنين أن يُقاتلوا البغاة إذًا، وأن يظلُّوا يقاتلونهم حتى يرجعوا إلى أمر الله، وأمر الله هو وضع الخصومة بين المؤمنين، وقَبول حكم الله فيما اختلفوا فيه، وأدَّى إلى الخصام والقتال[2].

وهذا الأمر يُشبه قوَّات الأمن الدولية، التي يمكن لها أن تُقاتل طائفة باغية حتى تَرُدَّ الحقَّ لأصحابه، فالحزم في مثل هذه الأمور هو أسلم الحلول؛ فبه السلام، واتِّقاء البشرية شرَّ البغاة الظالمين.

رابعًا: العدل في الإصلاح:

لا يتحقَّق الإصلاح بين الطرفين المتنازعين إلاَّ بتوفُّر العدل من جانب الوسيط الذي ارتضاه الطرفان، وهذا هو المنهج الذي ارتضاه الله ﷻ لعباده المؤمنين، وخاصة في مثل تلك الأمور، التي قد تُفضي إلى شرٍّ ووبال على البشرية كلها؛ وذلك إذا شعرت إحدى الطائفتين بالظلم الواقع عليها، فإذا خضع الطرفان المتنازعان ورضيَا فلا بُدَّ من العدل؛ يقول الله تعالى: ﴿**فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [الحجرات: ٩]، فإن رجعت الفئة الباغية عن بغيها، ورضيت بأمر الله وحُكمه، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحُكم، ويتحرَّوا الصواب المطابق لحُكم الله، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم،

---

(١) وهبة الزحيلي: التفسير الوسيط ٣/ ٢٤٧٤.
(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٤٣.

وتُؤَدِّيَ ما يجب عليها للأخرى، حتى لا يتجدَّد القتال بينهما مرَّة أخرى، فاعدلوا أيها الوسطاء في الحكم بينهما، إن الله يحب العادلين ويجازيهم أحسن الجزاء، وهذا أمر بالعدل في كل الأمور، روى عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ﷻ... الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»[(١)].

فعلى الطائفة الثالثة الوسيطة أن تحكم بالعدل في الإصلاح بين المتنازعين؛ فهذا هو المنهج الذي ارتضاه الله ﷻ لعباده المؤمنين في فضِّ المنازعات، وهي دعوة عالمية لمن يتصدُّون لفضِّ المنازعات الدولية أن يتحرَّوا العدل في الإصلاح؛ فالعدل خُلق قويم وسبيل لإنهاء الحروب وتقوية التعارف بين الشعوب.

ويُعقِّب الله ﷻ على هذه الدعوة وهذا الحكم باستجاشة قلوب الذين آمنوا، واستحياء الرابطة الوثيقة بينهم، والتي جمعتهم بعد تفرُّق، وألَّفت بينهم بعد خصام وتذكيرهم بتقوى الله، والتلويح لهم برحمته التي تُنال بتقواه؛ بقوله ﷻ: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾** [الحجرات: ١٠]، ومما يترتَّب على هذه الأُخُوَّة أن يكون الحبُّ والسلام والتعاون والوَحدة هي الأصل، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء، الذي يجب أن يُرَدَّ إلى الأصل فور وقوعه، وأن يُستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليرُدُّوهم إلى الصفِّ، وليُزيلُوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة، وهو إجراء صارم وحازم كذلك.

والله تعالى يَذْكُر أن الأُخُوَّة بين المؤمنين في الدين لا في النسب؛ ولهذا قيل: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب؛ فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب[(٢)]، وعن سالم بن عبد الله بن عمر ﷺ عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: **«الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ**

(١) مسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر... (١٨٢٧)، والنسائي (٥٣٧٩)، وأحمد (٦٤٩٢).

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٣٢٢، ٣٢٣.

مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١].

وفي الآية تقرير لما ألزمه مَنْ تولَّى الإصلاح بين مَنْ وقعت بينهم المشاقَّة من المؤمنين، وقد جرت عادة الناس على أنه إذا نشب القتال، لزم السائر أن يتناهضوا في رفعه وإزاحته، ويركبوا الصعب والذلول مشيًا بالصلح وبثًّا للسفراء بينهما، إلى أن يقع الوفاق والاتفاق؛ فالأخوة في الدين أحقُّ بذلك وبأشدَّ منه، وقد خصَّ الله ﷻ الاثنين دون الجمع؛ لأن أقلَّ مَنْ يقع بينهم الشقاق اثنان؛ فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم؛ لأنَّ الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين[٢].

والأخوة في الآية وإن كانت خاصَّة بالمسلمين فإنها للناس أجمعين كذلك؛ فالتذكير بالإنسانية هو السبيل لتقوية الرابطة والتعارف، فليس لأحد الفضل على أحد، وإن هذه دعوة من الله ﷻ للبشر جميعًا أن يضعوا الإنسانية فوق كل اعتبار؛ فإن احترامها هو السبيل لتقوية الروابط وتحقيق التعارف؛ ومن ثَمَّ التغاضي عن المساوئ والحروب.

خامسًا: الاحترام المتبادل:

يمثِّل الاحترام المتبادل وتقدير كل طرف للآخر، ومراعاة كلٍّ من الطرفين لإنسانية أخيه السبيل القوي لتحقيق التعارف البنَّاء والمشاركة الفاعلة بين البشر جميعًا؛ فالاحترام قيمة إنسانية رفيعة تُعبِّر عن الذوق الرفيع والفطرة السوية، التي جُبِل عليها البشر جميعًا، فالعلاقة القوية الناجحة -بلا شكٍّ- قائمة على احترام متبادل بين الأطراف، وذلك لا يكون إلاَّ بعدم السخرية بالآخرين والتحقير من شأنهم، والتقليل من منزلتهم، وهذا المعنى هو ما تُرشدنا إليه الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، إنها دعوة صريحة في

---

(١) البخاري: كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يسلمه (٢٣١٠)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٨٠).

(٢) الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ٤/ ٣٦٩.



القرآن الكريم لكل شعوب الأرض أن يحتفظوا بالحدِّ الأدنى من الاحترام المتبادل، وهذا الحدُّ الأدنى هو عدم السخرية من الآخرين، ولاحِظْ أن الله ﷻ ذكر في الآية «القوم»، ولم يذكر الأفراد، دلالة على أهمية هذه الخاصية في العلاقة بين الشعوب، وفي ترسيخ التعارف، وإن كان الحُكْم ينطبق لا شَكَّ على الأفراد، ثم إن الله ﷻ لا يكتفي بالبُعد الأخلاقي في الأمر، بل يُضيف له بُعْدًا عقليًّا مهمًّا؛ وهو أن هؤلاء الذين يسخر منهم الناس قد يكونون أفضل من الساخرين، على الأقلِّ في أحد المجالات، ولقد رأينا أممًا في ظاهرها متخلِّفَة أو بسيطة في أمور التكنولوجيا والاختراعات، لكنها سامية جدًّا في أخلاقها، بل إنَّ عندها من الأخلاق ما لا يتحقَّق في أعلى شعوب الأرض تمدُّنًا.

وانظر إلى الروعة في قوله ﷻ: ﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، فهي تُحقِّق فائدتين عظيمتين؛ الأولى أن هذا الذي تسخر منه هو في واقع الأمر جزء منك! أليس بشرًا يُشاركك في هذا الكون، ويعيش معك فوق الأرض نفسها، وتحت السماء نفسها، وهو في الحقيقة أخوك فهو منك، فسخريتك منه هي سخرية من نفسك، ولا ترضاه، ثم الفائدة الثانية أن هذا اللمز سيرتدُّ عليك، فتكون بذلك قد عَرَّضْتَ نفسك لسخرية كنتَ في غنًى عنها.. فواقع الأمر أنك مستفيد باحترامك للآخرين.

ثم يصل معك الله ﷻ إلى الخط الأحمر الذي لا يجب أن يتعدَّاه أحد، وهو التلفُّظ بالسوء، فيقول: ﴿وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾، فلو كانت السخرية في نفسك ولم تُخْرِجْها إلى دائرة الضوء، فلعلَّ هذا لا يُحْدِث أثرًا سلبيًّا كبيرًا، لكن الحذر كل الحذر من الوقوع في الخطأ عن طريق القول أو الفعل، فإن هذا لا يُنْسَى، وقد تستمرُّ الحروب عشرات السنين، لكلمة نابية قيلت، أو لسخرية لاذعة أُعلِنَتْ.

هذه الدعوة الأخلاقية للسموِّ في التعايش مع الشعوب الأخرى هي دِعامة لا بديل عنها لترسيخ التعارف بين الناس، والوصول إلى درجة من التعايش الجميل، الذي يسعد فيه كل إنسان بصرف النظر عن عرقه أو جنسه أو عقيدته، ولا يخفى علينا أن الآية تحافظ على واحد من أهم المشتركات الإنسانية العامَّة، وهو مشترك الكرامة، الذي إذا تمَّ خدشه فإن الصدام يكون حتميًّا، وقد لا يتوقَّف.

سادسًا: اجتناب الظنِّ:

يقول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:

١٢]؛ والواقع أن الكثير من الأعمال تحتمل أكثر من تأويل، وإذا كانت العلاقة بين شعب وشعب قائمة على الظنون، فلا ريب أنها ستنتهي إلى الصدام والدمار، وليس معنى هذا عدم أخذ الحذر وتأمين البلاد والعباد، ولكن الأصل في الأمور أن نفترض حُسن النوايا، إلاَّ أن تكون الشواهد قوية تجعل هذا الظنَّ في حُكم اليقين، وحتى في هذه الحالة، فإننا يجب أن نُحَذِّر من أن نقع في الإثم، وهذا الظنُّ الذي تنبني عليه أعمال فيه ضرر على الآخرين.

ولا شكَّ أن الشعب الذي يتعامل بطيبة وحُسن خُلق مع الشعوب الأخرى، ينعكس هذا الأمر عليه في التعامل إنْ آجلاً أو عاجلاً، وسيدخل في دائرة التعارف والتعايش، أمَّا العلاقات القائمة على الظنون، فما أسرع أن تنهار، ولعلَّنا إذا أضفنا إلى هذه النقطة ما ذكرناه قبل ذلك في مسألة التثبُّت من المعلومة، فإننا سنصل إلى علاقة إيجابية قائمة على اليقين والحقائق، لا على الشكوك والأوهام.

سابعًا: عدم التجسس:

يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢]، وقد تبدو هذه النصيحة غريبة في عالم امتلأ بالجاسوسية، وتنوَّعت فيه شبكاتها وكثرت مجالات عملها.. وواقع الأمر أن الناس لا تُفَرِّق بين حالة حرب وحالة سلم، فلا شكَّ أن الاستخبارات العسكرية في زمن الحرب مهمة لمعرفة قدرات العدوِّ وخططه، وهذا لا تستنكره عامَّة الشعوب، إنما التجسُّس المستهجن في الآية، هو التجسُّس في حالة العلاقات السليمة الطيبة، والتي من المفترض أن تكون هي الأصل، فوجود مثل هذا السلوك يعني رغبة أحد الأطراف في اختراق خصوصيات الطرف الآخر، ومعرفة بعض الأمور التي لا يُريد الآخر أن يطَّلع عليها أحد، كما يعني كذبًا وتدليسًا وتزويرًا؛ لأن الجاسوس لا يكشف عن هويته الحقيقية، وكل هذا يتنافى مع علاقات التعارف السوية؛ ولذلك جاء الأمر واضحًا ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾، خاصة أن الأمم لا تنسى -عادةً- للأمم الأخرى جرائم التجسُّس، مما قد يُوَتِّر العلاقات لعدَّة أجيال.

ثامنًا: عدم تشويه صورة الآخرين:

إنه سلوك مُهين حقًّا أن أتكلَّم عن إنسان في غير وجوده بما يُسيء إليه، وقد حَرَّمْتُه -لغيابه-



فرصة الدفاع عن نفسه، وقد نستهجن هذا بشكل عامٍّ عند حديثنا عن الأفراد، لكن لا يُفكِّر كثير من الناس أن هذا السلوك مشين كذلك بالنسبة للشعوب والأمم، فحديثنا عن أُمَّة من الأمم بسوء دون وجود ممثِّل لها يَرُدُّ ويُدافع يُرَسِّخ عند السامعين صورة ذهنية سلبية عن هذه الأمم، وبالتالي تتعذَّر جدًّا بعد ذلك علاقات التعارف والتعايش المرجوَّة؛ لذلك قال ﷻ: ﴿**وَلاَ يَغْتَب بَعْضُكُم بَعْضًا**﴾، والحديث هنا يشمل الأفراد والجماعات، بل إن رسولنا ﷺ عند شرحه لمعنى هذه الكلمة التي جاءت في الآية وقد سأله عنها أحد الصحابة أضاف بُعْدًا آخر في غاية الأهمية، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟**». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**». قيل: أفرأيتَ إنْ كان في أخي ما أقول؟ قال:«**إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ**»[1]. فهو هنا يذكر أن ذِكْرَ الآخرين بالسوء في غيابهم أمر غير مُبَرَّر، حتى إذا كانوا مُتَّصِفين حقيقة بالأمر السيِّئ، وهو ما يتَّخذه كثير من الناس مسوِّغًا للطعن في الأفراد والجماعات، بحجة أنه لا يكذب، وأنهم فعلاً كما يصف، فهذه هي الغيبة المنهيُّ عنها، أمَّا إذا تطوَّر الأمر لما هو أفظع، وهو اتهام الآخرين بما ليس فيهم، وهو البهتان فإنَّ هذا يُدَمِّر العلاقات تمامًا، ويقود إلى صدام حتمي.

ولعلَّنا إذا حلَّلْنا حالة الاحتقان الشديدة الموجودة في عالمنا اليوم، خاصة ضدَّ الأُمَّة الإسلامية، لوجدنا أن جزءًا كبيرًا من هذا الاحتقان يعود إلى أن كثيرًا من الأفراد والأمم تتكلَّم عن أُمَّة الإسلام وعن ثوابتها كلامًا سلبيًّا في غياب مَنْ يَرُدُّ ويدفع الشبهات والتهم، بل يصل الأمر إلى البهتان؛ حيث يصفون أُمَّة الإسلام بصفات هي أبعد ما تكون عن طبيعتها، وقد يصل الأمر إلى تزوير بعض الأحداث أو تلفيق بعض الأمور.

إن عالمًا خاليًا من الغيبة والبهتان لهو عالم جدير بإقامة علاقات سوية تعايشية ناضجة، أمَّا الذي لا يُمْسِكُ لسانه عن أعراض الآخرين، فهو يسعى إلى صدام لا يتوقَّف وتوتُّر لا ينتهي.

***

(١) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة (٢٥٨٩)، وأبو داود (٤٨٧٤)، والترمذي (١٩٣٤)، وأحمد (٨٩٧٣)، والدارمي (٢٧١٤)، وابن حبان (٥٧٥٨).

وختامًا..

إن هذه الإشارات التي جاءت في كتاب الله ﷻ لِتَشْرَح للمسلمين كيف يمكن أن يتعاملوا مع بعضهم البعض، هي ليست في واقع الأمر خاصة بالمسلمين وحدهم، بل هي تتحدَّث عن دستور أخلاقي فريد يصلح للتطبيق على كل أمم الأرض، وهي قواعد واضحة بيِّنَة، وعلاقتُها بالتعارف والتعايش وثيقة ظاهرة؛ ولذلك فهي دعوة عالمية من القرآن الكريم لكل البشر أن يُحَقِّقوا إحدى الغايات الكبرى من خلقهم مختلفين، وهي غاية «التعارف»، ولم يكتفِ القرآن بالإشارات المجرَّدة إلى الغاية، بل وضع آليات محدَّدَة، وأُطرًا معروفة لتصل بعلاقة التعارف إلى أفضل نتائجها، فما أروع هذا المنهج وما أتمه! وما أحوج البشر إلى النظر فيه بإمعان، وإخراج ما يمكن أن يكون سببًا مباشرًا في سعادتهم وصلاحهم.

* * *



وقفة مع
الفكر الغربي الحديث

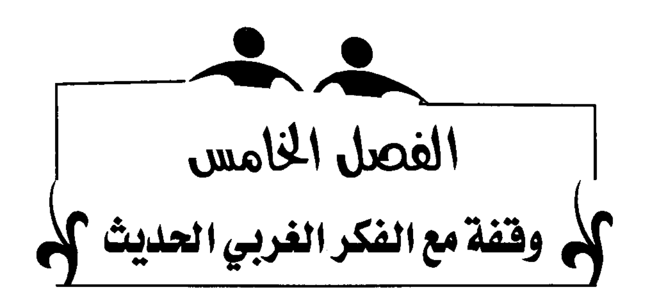
(قال مونتسكيو .. بأنه لا يريد أبدًا أن يعرف بأي شيء يكون نافعًا لفرنسا وضارًا بالإنسانية)

وقال فوكوياما: (سيظل استخدام القوة هو الحكم النهائي في العلاقات)









الفصل الخامس
وقفة مع الفكر الغربي الحديث

الفكر الغربي فِكْر إنساني، خرج من العقل الإنساني بإملاء من نظرات إنسانية في واقع إنساني، وفي ظلِّ مؤثِّرات بيئية إنسانية، فهو -لهذا- ليس فكرًا ملائكيًّا، ولا شيطانيًّا؛ فالغرب ليس هذا أو ذاك.

وكما نجد في الغرب فكرًا محافظًا نجد في المقابل فكرًا منفتحًا، وفي مقابل المذاهب الكلاسيكية التقليدية نجد المذاهب الرومانسية، ويكاد يكون لكل مذهب نشأ في الغرب نقيض في مذهب آخر نشأ في عصره أو في عصر تالٍ له، والقارئ في تاريخ الفلسفة الغربية يلمس هذا بوضوح شديد، إلى الحدِّ الذي حلا لبعض راصدي هذا التاريخ أن يُدرجوه في شكل مقارنات.

وفي سياق الحديث عن التعايش الإنساني، والمشترك بين الشعوب، سنجد في الغرب فكرًا إنسانيًّا رحبًا فسيحًا يقبل بالآخر، ويُطَالِب بالتعايش معه، وينظر إليه بعين الإنسانية الواسعة، كما سنجد -أيضًا- فكرًا تصادميًّا عنيفًا، يرى في ذاته الشخصية البشرية المثالية، وفي حضارته الحضارة الوحيدة الأرقى والأفضل؛ ومن ثَمَّ يتوصَّل -في نهاية الأمر- إلى أن يُبَرِّرَ تصادمه مع الآخرين، فيلتمس لرغبته هذه ثوبًا شرعيًّا، يجعل الصدام من طبيعة البشر، أو من طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب، أو من ضرورات التعامل بين المتقدِّم والمتخلِّف.

وفي هذا الفصل نقف وقفة في الفكر الغربي الحديث على أرضية المشترك الإنساني عبر هذين العنصرين:

- عقلاء الفكر الغربي والمشترك الإنساني.
- تعقيب على الفكر الصدامي.

عقلاء الفكر الغربي والمشترك الإنساني

يمتاز الفكر الإنساني بأنه كيان متطوِّر تبعًا لاختلافات الزمان والمكان والجنس، وإن أكبر دليل يُؤَكِّد على هذه الوجهة هو التاريخ؛ فالتاريخ بوتقة كبيرة تحوي في طيَّاتها أوضاع الإنسان الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية.

وإننا لو أردنا أن نستقصي المشتركات الإنسانية في الفكر الأوربي المعاصر، دون ربط هذا الفكر بجذوره وأصوله، لأحدثنا قطيعة من شأنها أن تُغَيِّب عنَّا بعض الحقائق المهمَّة؛ تلك التي تُغَيِّب بدورها الصورة العامَّة للمشترك الإنساني في الفكر الأوربي المعاصر.

إن تاريخ الفكر -أيًّا كان هذا الفكر- هو قصة الدورة الحضارية من نشوء وارتقاء وتدهور وسقوط، وبالأحرى ضياع وغفوة، فاستيقاظ فتثاؤب فتململ، فنهوض فتوثب، فانعطاف نحو اتجاه جديد، فانطلاق في مسارب جديدة، والاندماج والذوبان في مجرى يشقُّه سيل أشدُّ قوَّة، وأغزر دفقًا، ألا وهو مجرى حضارة الإنسان على ظهر هذا الكوكب[1].

وتاريخ الفكر الأوربي -وَفق التصوُّر التشريحي لتاريخ الفكر العالمي- هو أحد الروافد الأساسية المكوِّنة للفكر العالمي، وإنه بتنوُّعاته وجذوره وفلسفاته المتنوِّعة، وبفلاسفته الذين لا نكاد نحصيهم عددًا قد اتفقوا -كلٌّ حسب تصوُّره ومعتقده- بضرورة التوجُّه ناحية الإنسان لاستكشافه، وإبراز الخصائص العامَّة والخاصَّة له منذ أواخر القرن الخامس عشر، بعدما كان هدف الفلسفة الأوربية والفكر الغربي محصورًا في الدراسات اللاهوتية، التي كانت بعيدة كل البُعد عن الإنسان والكون والخالق.

ولقد كان النزوع إلى الإنسان والإنسانية، وقضية المشترك في الفكر الأوربي ناتجًا من عدَّة عوامل تاريخية وثقافية واقتصادية؛ تمثَّلت هذه العوامل في الحروب الصليبية، تلك التي كانت بمثابة الصدمة الحضارية لكافَّة الأوربيين، فضلاً عن نموِّ المدن وبروز الدول الغربية

---

(١) رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث، مقدمة المترجم أحمد الشيباني ص١٠.



البيروقراطية الأولى؛ ففي هذا القرن تألَّقَ الفنُّ الرومانيُّ، وبدأ الفنُّ الغوطي، وبرزت الآداب العامة، وتجدَّدت الكلاسيكيات اللاتينية والشعر اللاتيني، والقانون الروماني، واكتُشِفَت العلوم اليونانية والفلسفية وإغناء العرب لها، كما ظهرت الجامعات الأوربية الأولى؛ ومن ثَمَّ ترك القرن الثاني عشر أثرَه على التربية والأنظمة التشريعية الأوربية، والمعمار والنحت، والدراما الدينية والشعر اللاتيني والعامي[1].

ولذلك عَرَفت أوربا ثلاث نهضات في تاريخها الوسيط -ونقصد النهضة الفكرية التي تلتها نهضة عملية في مجال التمدُّن والتقدُّم الصناعي- فالنهضة الأولى: كانت في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين واهتمَّت -في فرنسا خاصة- بتحسين أوضاع الكتابة والخطِّ والتعليم، والثانية: نهضة القرن الثاني عشر والثالث عشر الناتجة عن التأثير الحضاري الإسلامي، وظهور فلاسفة أوربيين تَبَنَّوْا فكر ابن رشد[2] ونُسبوا إليه، والثالثة: النهضة الأوربية في القرن الخامس عشر والسادس عشر وما تلاهما، وسوف نقف معها بالتفصيل بعد قليل؛ إذ هي لُبُّ نقاشنا هنا.

ولكن يأتي مفهوم المصلحة المشتركة كمنطلق مهمٍّ وأساسي في التقاء الشعوب وتقاربها وتعارفها، فقد تتمثَّل المصلحة المشتركة في التبادل التجاري، أو التعاون السياسي، أو في سَنِّ قوانين دُوَلِيَّة تُتيح الالتقاء وتُمَهِّد له، أو حتى في الجوانب الفكرية والثقافية... ولقد رأى كثير من مُفَكِّرِي أوربا أن التعارف إنما يكون وَفقًا للمصلحة المشتركة.

وقد قسَّم فرانسيس بيكون (ت ١٦٢٦م) الناس إلى أقسام ثلاثة؛ ليكون أفضلهم -مِنْ وجهة نظره- مَنْ يسعى لسيادة العالم، دون تقطيع للأواصر الإنسانية، بمعنى مَنْ يستطيع أن يُكَوِّن مصالح مشتركة مع الآخر، قال: «إن هناك ثلاثة أنواع من البشر: الأول: أولئك الذين يطمعون في بسط نفوذهم وسلطانهم على بلادهم، وهم نوع سافل ومنحط. والثاني: أولئك

---

(١) محمد عابد الجابري: المثقفون في الحضارة العربية ص٢٦.

(٢) ابن رشد: هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (٥٢٠- ٥٩٥هـ = ١١٢٦- ١١٩٨م)، العلامة الفيلسوف، المعروف بابن رشد الحفيد، وُلِدَ بقرطبة، وتوفي بمراكش. انظر: الذهبي: سير الأعلام ٢١/ ٣٠٧- ٣٠٩، وابن العماد: شذرات الذهب ٤/ ٣٦٧.

الذين يسعون في بسط سلطان بلادهم وسيادتها على شعوب أخرى، وهؤلاء أكثر كرامة حتمًا من النوع الأول؛ ولكنهم ليسوا أقلَّ شرهًا ونهمًا. ولكن لو حاول إنسان إقامة وتوسيع سيادة الجنس البشري نفسه على الكون، فإن طُموحه -بلا شكٍّ- أعظم نفعًا، وأكثر نبلاً من النوعين الآخرين، لقد فرقت هذه المطامح -المكافحة من أجل السيطرة على روحه- مصيره إلى قطع، وحطمته إلى شظايا»[1].

وتحدَّث المفكر الإنجليزي توماس هوبز (ت ١٦٧٩م) عن المصلحة المشتركة المترتِّبَة على اتفاق الناس لإقامة حكومات مركزية؛ فهو يتناولُ المصلحة المشتركة داخل المجتمع الواحد؛ إذ يرى أن الناس يكونون في حالتهم الطبيعية متساوين، ويسعى كلٌّ منهم إلى المحافظة على ذاته على حساب الآخرين؛ بحيث تقوم بينهم حالة حرب للكل ضد الكل؛ ولكي يتخلَّص الناس من هذا الكابوس المزعج، يتجمَّعون سويًّا ويُفَوِّضُون قدراتهم الخاصة لسلطة مركزية[2]، وهو يُصَرِّح أن هذا الاتفاق الذي يَصِلُون إليه في نهاية المطاف إنما بُني على المصلحة المشتركة، ويُؤَكِّد ذلك بقوله: «لما كان الناس عقلاء ومَيَّالين إلى التنافس؛ فإنهم يَصِلُون إلى اتفاق أو ميثاق من صُنعهم، يَتَّفِقُون فيه على الخضوع لسلطة مُعَيَّنة من اختيارهم، وبمجرَّد قيام مثل هذا النظام، لا يكون لأحد الحقُّ في التمرُّد، ما دام المحكومون لا الحاكمون هم الملزمين بالاتفاق، ولا يحقُّ للناس أن يَفْسَخُوا الاتفاق، إلاَّ إذا عجز الحاكم عن توفير الحماية، التي اختير أصلاً من أجلها، ويُسَمَّى المجتمع الذي يرتكز على عقد من هذا النوع باسم الدولة القائمة على المصلحة المشتركة»[3].

ووجهة النظر هذه يُؤَكِّدها الفيلسوف الإنجليزي الشهير جون لوك (ت ١٧٠٤م)، من خلال تفسيره لتطوُّر المجتمع الأول، والحكومة المدنية الأولى؛ بقوله: «في البدء كان جميع البشر أحرارًا ومتساوين، ويعيشون (حال الطبيعة) وبدون حكومة مدنية... وإنَّ (حال الطبيعة) تلك لم تكن حالاً من حرب مستمرَّة؛ فلدى البشر من العقل الطبيعي ما يكفي

---

(١) ول ديورانت: قصة الفلسفة ص١٨٠، ١٨١.
(٢) برتراند راسل: حكمة الغرب ٢/ ٥١.
(٣) المرجع السابق ٢/ ٥٢.



ليُرشدهم إلى عدم ضرار بعضهم البعض، وذلك سواء بالحياة والصحَّة والحرية أو الممتلكات؛ فهناك قانون طبيعي أخلاقي، وهو قانون بسيط وواضح لكل إنسان يتمتَّع بقواه العقلية، وإن للناس طبيعة -في الحال المفترضة للطبيعة- في حياتهم وحرياتهم وممتلكاتهم، وقد وجد الناسُ حياتهم محتملة؛ لكنها لم تكن ملائمة أو مريحة بالنسبة إليهم، وكان افتقارهم إلى حَكَمٍ مَقبول لدى الجميع يحكم في القضايا المتعلِّقة بالممتلكات الخاصَّة، قد جعل تمتُّعهم بالملكية غير آمن تمامًا، ومحاطًا دائمًا بالأخطار... ولكن لما كان الناس غير ملزمين بأن تكون لهم حكومة؛ لذلك باستطاعتهم أن يعقدوا صفقة معها»[١].

ويُؤَكِّد المفكر الهولندي اسبينوزا (ت ١٦٧٧م) على أهمية المصلحة المشتركة وعلى النتائج المترتبة على تحقيقها في العالم كله، بقوله: «ولكن حاجة الناس بعضهم لبعض استدعت تبادل المساعدة فيما بينهم؛ وهذا أدَّى إلى استبدال الحالة الطبيعية -التي كانت السيادة فيها للقوَّة- إلى حياة المجتمع»[٢].

إذًا ساعدت المصلحةُ المشتركة على تطوُّر حياة الإنسان من مرحلة الفردية والتخلُّف إلى حياة المجتمع، حيث النظام والاستقرار والقانون والأمن.

***

يقول رونالد سترومبرج في كتابه (تاريخ الفكر الأوربي الحديث) عن نظرة الفلاسفة لذلك العصر، ودور العلم في تكوين هذه النظرة باعتباره مشتركًا ثقافيًّا التفَّ الأوربيون حوله، وتمكَّنُوا من التعارف على بعضهم من خلاله: «إن عصر التنوير (الثامن عشر الميلادي) كان بالفعل حركة كوسموبوليتية (عالمية)، ونادرًا ما سمعنا أيًا من الفلاسفة الفرنسيين أو غيرهم في ذاك العصر، يتحدَّثون بلهجة قومية، أو يكتبون في مواضيع تستقطب الأثرة الوطنية؛ فهم كانوا ينطلقون من نظريات لا تعرف حدودًا جغرافية ولا تقف عندها؛ نظرًا لأنهم كانوا يُؤمنون بالعقل وحده، وبأن له جنسية واحدة ووحيدة، ألا وهي الجنسية الإنسانية، ولقد قال مونتسكيو ذاك القول الشهير: إنه لا يريد أبدًا أن يعرف بأي شيء يكون

(١) سترومبرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث ص١٢٩، ١٣٠.
(٢) ول ديورانت: قصة الفلسفة ص٢٣٩.

نافعًا لفرنسا وضارًا بالإنسانية... وقد صَرَّح الفيلسوف الألماني ليسنج[١] بأنه شديد الغبطة لكونه قد استعاض عن وطنه بالجنس البشري»[٢].

وكان من الطبيعي أن نجدَ نظرية المشترك الإنساني بمختلف محاورها في فكر هؤلاء ومؤلَّفاتهم، صحيح أننا لا نستطيع أن نستقصيها كل محاورها وأعمدتها، لكننا نجد في فكر هؤلاء ما يُعَضِّد وجهة نظرنا في طبيعة المشترك الإنساني وضرورة الالتقاء حوله.

وقبل البدء والانطلاق في عرضنا، يجب أن نُؤَكِّد على أن الفكر الأوربي الذي أنتج هذا النوع من المعرفة القيمة التي تُرسِّخ مبدأ التعارف من خلال تحقيق المصالح المشتركة بين الأمم والشعوب، هذا الفكر ذاته لم يخلُ من مفكِّرين -وما أكثرهم- آمنوا بالتصادمية والتشاؤمية؛ بل كانت فلسفاتهم إلهامًا لكثير من الساسة الذين آمنوا بهذه الأفكار والرؤى، وكانت الطامَّة الكبرى حين نُفِّذَت هذه الأفكار، وما هيجل ومِنْ خلفه ماركس وإنجلز، ومِنْ خلفهم لينين وستالين[٣] إلاَّ مثالاً أليمًا من عشرات الأمثلة الشاذَّة التي آمنت بالصدام واتخذته سبيلاً!

نظرات في المشترك الأسمى:

ما من شعب إلاَّ والدين مسيطر في نفسه، متملِّك من أعماقه؛ فالدين أمر فطري يتحسَّسه كل إنسان في أعماق نفسه؛ إذ كلٌّ منا لا بُدَّ من أن يؤمن بإله يهديه ويُرشده إلى الحقِّ والصواب، وكلٌّ منا يسعى إلى قيمة روحية كبيرة، ومَثَلٍ أعلى يتمسَّك به، ويستعصم بأهدابه من براثن الحياة والنفس؛ ومن ثَمَّ كان من الطبيعي أن يتناول فلاسفة أوربا الدين؛ سواء من منظور اجتماعي أو من منظور عقدي مسيحي، ولكننا نلمح في كلامهم وتراثهم الفكري أهمية الدين في تكوين الروابط الثقافية والإنسانية بين أممهم وشعوبهم.

ولقد رآه الفيلسوف الفرنسي أوجست كونت (ت ١٨٥٧م) العامل الأول في توحيد

---

(١) ليسنج Lessing: هو جوتهولد إفرائيم ليسنج (١٧٢٩-١٧٨١م)، فيلسوف وشاعر، أول ناقد أدبي ألماني، وأول مؤسس للنقد المسرحي، وكان عضوًا في المحفل الماسوني لمدينة هامبورج.

(٢) سترومبرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث ص٢٤٧.

(٣) ستالين: هو جوزيف فيساريونوفيتش ستالين Joseph Vissarionovich Stalin 1878 - 1953م، زعيم شيوعي بارز، والدكتاتور الأحمر، يُعتبر المؤسس الحقيقي للاتحاد السوفيتي.

الأفراد تحت مظلَّة واحدة بقوله: «الدين خاصية النوع الإنساني، وتعريفه أنه المبدأ الأكبر الموحِّد لجميع قوى الفرد ولجميع الأفراد فيما بينهم؛ وذلك بنصب غاية واحدة لجميع الأفعال»(١).

وقال فولتير (ت ١٧٧٨م) عن أهمية الدين وضروريته لدى الشعوب: «إنه لو لم يكن يوجد إله لوجب علينا أن نبتدعه». وبطبيعة الحال فقد كان يُعارض بشدَّة مسيحية المؤسسة الدينية الرسمية؛ لكنه كان يؤمن بوجود قوَّة خارقة للطبيعة، يُحقِّق الناس غاياتها لو أنهم عاشوا حياة خيرة(٢).

ومن هنا فقد ألمح الأوربيون إلى أهمية الدين -رغم ضعف المؤسسة الدينية الآن- ليس لكونه المصدر الذي يستقي الإنسان منه قيمه الروحية ومثله العليا فقط، بل لكونه رمزًا أساسيًّا مُوَحِّدًا للأقطار الأوربية، والأمثلة الواقعية تُؤَيِّد هذا.

نظرات في المشتركات العامة:

نتناول هنا المشتركات العامة من خلال منظار الفكر الأوربي الحديث، صحيح أنه من الصعب أن نجد نظريتنا ورؤيتنا كاملة في هذا الفكر، لكنه رغم ذلك مليء بالأفكار الرائعة، التي رأينا من الضروري أن نعرضها فيما يلي:

الاحتياجات الأساسية:

لقد أوضحنا أن مفهوم الحاجات الأساسية، هو مفهوم عامٌّ ومشترك بين كل شعوب الأرض؛ ومن ثَمَّ فالطعام والشراب والأسرة وقضية الأمن والسلام هي قضايا كبرى، يطمح لتحقيقها الإنسان أيًّا كانت ثقافته ومجتمعه وكنهه.

ولقد علمنا أنَّ أيَّ تَعَدٍّ على هذه الحاجات الأساسية من شأنه أن يُؤَدِّيَ إلى نتائج خطيرة تُهَدِّد الأمن العالمي؛ ولذلك فقد نظر الفكر الأوربي الحديث لهذه القضية الجوهرية باعتبارها الأساس الذي يقوم عليه البنيان الإنساني الكبير، وما من حضارة إلاَّ وكان الغذاء أحد

---

(١) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٢٧.
(٢) راسل: حكمة الغرب ٢/ ١١٢.

العناصر الأوّلية في تكوينها؛ فهذا المؤرخ والفيلسوف الفرنسي فرناند برودويل[١] نراه متحدِّثًا عن احتياجات كل حضارة، وقد عَدَّ ذلك من الحتميات، بقوله: «... كما رأينا مجتمعات ذات منتجات غذائية كبيرة أساسها الأرز والذرة والقمح، وعلى ذلك تختلف التحديات وتتنوَّع، وبالتالي تتنوَّع وتختلف ردود الأفعال إزاءها؛ أليست الحضارة الغربية أو الأوربية حضارة القمح والخبز، بل والخبز الأبيض مع الضغوط التي تفترضها؟! ذلك أن القمح نبات يحتاج إلى متطلَّبات عديدة، ولنفكر فقط ما تحتاج إليه زراعته من وجوب انقضاء زمن في أعقاب زراعته، واحتياج الأرض لفترة من راحة، أما أراضي زراعة الأرز التي تغمر بالمياه لدى سكان الشرق الأدنى تفرض هي الأخرى على السكان مواجهات عديدة، وتحتاج إلى فترات راحة، وهكذا ردود أفعال الإنسان لا تفتأ في الوقت نفسه من تحريره من المجتمع الذي يحوطه، وإخضاعه للحلول التي تصورها للمواجهة»[٢].

فهذه النظرةُ الثاقبة التي يُبرزها برودويل في كتابه (تاريخ وقواعد الحضارات) لا يمكن أن يختلف عليها عقلاء العالم؛ فإذا كان الغذاء أساس الحضارة؛ فمحاربة هذا الغذاء في أي مجتمع؛ سواء لأسباب سياسية أو اقتصادية أو عسكرية.. لن تترتَّب عليها نتيجة إلاَّ الخراب والدمار والقتل.

وإذا كان الطعام والشراب هو الحدُّ الأدنى في سُلَّم الاحتياجات الأساسية؛ فإن الأسرة والتناسل وتوالي الأجيال لمن الأمور الفطرية والأساسية في جميع المجتمعات الإنسانية بمختلف مشاربها وأيديولوجياتها؛ فطبقًا لفلسفة المفكر الألماني هيجل (ت ١٨٣١م)، تلك الفلسفة التي تقوم على مبدأ التناقض والتعقيد؛ فقد ارتأى أن «المؤسسة الاجتماعية الأساسية هي الأسرة التي تُنَظِّم غريزة التناسل بالزواج، والزواج يكفل حُسن تربية البنين، وعلى الأسرة يقوم المجتمع المدني وتقوم الدولة، فلا يعتبر الزواج أمرًا عاطفيًّا فحسب، ولكنه واجب مقدس، ويجب أن يصدر عن الشعور بالواجب؛ لذا كان الطلاق منكرًا مبدئيًّا، ولا

---

(١) فرناند برودويل Fernand Braudel (١٩٠٢-١٩٨٥م): مؤرخ وفيلسوف فرنسي، ومن أبرز علماء الحضارات، من كتبه: (التاريخ والبيئة)، و(تاريخ وقواعد الحضارات).

(٢) فرناند برودويل: تاريخ وقواعد الحضارات ص١١.



يجب أن يُسمح به إلاَّ في حالات استثنائية يُعَيِّنها القانون»[١]. وإنه من اللافت حقًّا أن نجد هيجل أبًا لابن غير شرعي[٢]، لكنه في الوقت ذاته ينادي بضرورة وجود الأسرة التي هي المحضن الأساسي لإنجاب الأولاد، تلك الأسرة التي تقوم على الأخلاق والقيم؛ ونستقرئ من ذلك أنه حتى مع وجود مثل هذا التناقض العملي في حياة هيجل -كما في فلسفته- فإنه قرَّر أن الإنجاب والتناسل واجب مقدس وديني.

على أن مواطنه الفيلسوف الألماني ذا النزعة التشاؤمية شوبنهور[٣]، نظر إلى الزواج والتناسل باعتبارهما الحَلَّ الوحيد لمحاربة الموت، وفرض سيطرة الجنس الإنساني على الأرض، قال: «تستطيع أن تهزم الموت بالتناسل؛ إذ إن كل كائن عضوي عادي يُسارع إلى تضحية نفسه من أجل التناسل إذا ما بلغ حدَّ النضوج، من العَنْكَب الذي تلتهمه أنثاه بمجرَّد تلقيحه إيَّاها، والزنبور الذي يُكرِّس حياته في جمع القوت لنسل لن يراه أبدًا، إلى الإنسان الذي يُحمِّل نفسه أعباءً جسيمة ينوء تحت أثقالها ليُطعم أولاده ويُلبسهم ويُعَلِّمهم ويُثَقِّفهم؛ فالنسل هو الغرض النهائي لكل كائن عضوي، وهو أقوى الغرائز، وهو الوسيلة الوحيدة التي تُمكِّن الإرادة من قهر الموت، ولكي تضمن الإرادةُ قهر الموت فقد تعمدتْ ألاَّ تضع إرادة النسل تحت رقابة العقل أو المعرفة أو التأمُّل؛ وحتى الفلاسفة فقد تناسلوا وأنجبوا أولادًا»[٤].

ويأتي الأمنُ وإقرار السلام وحفظ الأرواح داخل المجتمعات في أعلى درجات سُلَّم الاحتياجات الأساسية؛ وهنا يُقرر الفيلسوف الإنجليزي الشهير فرانسيس بيكون (ت ١٦٢٦م) أن الله قد وهبنا أرواحًا «تساوي جميع العالم»، ثم ينادي الزمان قائلًا: «إن الزمن شابٌّ، أَعْطِنَا بضعة قرون من السنين، وبذلك نَسُود ونُعِيد بناء كل شيء وقد نتعلم على الأقلِّ أنبل وأعظم درس في الحياة، وهو ألاَّ يُحارب الإنسان أخاه الإنسان، ويشن الحرب فقط

---

(١) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص٢٨١.

(٢) نامق كامل: هيجل.. سنوات التكوين ومواقفه السياسية، جريدة الشرق الأوسط السعودية، ٧/ ٧/ ٢٠٠١م.

(٣) شوبنهور Schopenhauer: هو آرثر شوبنهور (١٧٨٨-١٨٦٠م)، فيلسوف ألماني تشاؤمي ملحد، من مؤلفاته: (الإرادة في الطبيعة)، و(المشكلتان الأساسيتان في فلسفة الأخلاق).

(٤) ول ديورانت: قصة الفلسفة ص٤٠٨.

على العقبات والعراقيل التي تحول بين الإنسان وانتصاره على الطبيعة»[١].

ولذلك كان فيلسوف عصر التنوير الفرنسي الشهير فولتير (ت ١٧٧٨م) يذمُّ الحرب ذمًّا مطلقًا، رغم الانتصارات الفرنسية التي وقعت في عصره؛ فكان يقول: «إن الحرب أمُّ الجرائم وأعظم الشرور، وكل دولة تحاول إلباسَ جريمتها ثوب العدل، إن القتل حرامٌ، وجميعُ أنواع القتل يُعَاقَب عليها في زمن السلم، أمَّا إذا نُفِخ في الصور وأُعلنت الحرب فيُصبح القتل بالألوف مباحًا»[٢].

نعم؛ هذا رأي فولتير ذاك المفكِّر الساخر، الذي نادى بالحرية الدينية في عصر التنوير؛ لقد رأى أن انتهاك حرمة الإنسان وقتله من أعظم الشرور، وهو إذ يقول ذاك؛ فقد كان معاصرًا للتنافس الاستعماري الأوربي، والأوضاع العسكرية في الولايات المتحدة، فضلاً عن علاقات الشدِّ والجذب بين فرنسا وبروسيا.

ومن ثَمَّ رأى معاصر لفولتير على الجهة الأخرى من الأزمة هو البروسي (ألماني) إيمانويل كانت (Kant) (ت ١٨٠٤م) الحرب من منظار أشدَّ عمقًا؛ فقد كتب في رسالته الفلسفية الرائعة «السلام الدائم» عن الحرب وشرورها، وآثارها داخل الأمة وخارجها، بقوله: «إنَّ حُكَّامنا لا يملكون المال للإنفاق على تعليم الشعب وتثقيفه؛ لأنهم حَوَّلوا كل مواردهم المالية في الاستعداد للحرب القادمة». ووصل به الأمر أن يدعو إلى تسريح الجيوش؛ فقال: «ولن تتمدَّن الشعوب حقًّا ما لم تعمل على تسريح الجيوش القائمة فيها وإلغائها». ولا شكَّ أن هذا الاقتراح حول تسريح الجيوش وتصفيتها كان ينطوي على جرأة بالغة؛ لأن بروسيا أول دولة بدأت في عهد والد فريدريك الكبير[٣] في فرض نظام التجنيد الإلزامي على الجميع.

ويقول في موضع آخر من رسالته عن الحرب وآثارها: «إن الجيوش تُثير المنافسة بين الدول وتدفعها إلى زيادة عدد جنودها الذي لا يقف عند حدٍّ، ويُصبح السلم في النهاية أشدَّ

(١) ول ديورانت: قصة الفلسفة ص١٨٠.
(٢) المرجع السابق ص٣٠٥.
(٣) فريدريك الكبير Frederick the Great (١٧١٢ - ١٧٨٦م): أعظم ملوك بروسيا، يُلَقَّب بقاهر الملكات؛ لأنه قهر ملكات روسيا والنمسا وإسبانيا وفرنسا، أصبحت بروسيا في عهده أعظم بلاد أوربا وقائدة النهضة العلمية والأدبية والفكرية فيها.

ظلمًا من حرب قصيرة؛ بسبب الإفراط في تسليح الجيوش، الذي يقع عبء الإنفاق عليها على عاتق الشعوب، وهكذا تُصبح هذه الجيوش القائمة سببًا في الدخول في حروب عدائية تخوضها الدول؛ لكي تتخلَّص من هذا العبء». وذلك لأن الجيش في زمن الحرب يعتمد في تزويد نفسه على البلد بإجبار الشعب على تقديم ما يلزمه من مئونة ومساكن، أو عن طريق السلب والنهب[1].

وقد تساءل الفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر[2] باستغراب وانفعال في الوقت ذاته: «إن الحرب ليست إلاَّ أكلاً للحوم البشر بالجملة، ما الذي يمنعنا من اعتبارها أكلاً للحوم البشر، فنُعلن تحريمها ومنعها واستنكارها؛ كما نُعلن تحريمنا لأكل لحوم البشر؟!»[3].

إذًا اتَّفَقَ أكبرُ فلاسفة أوربا على ضرورة احترام الحاجات الأساسية للإنسان من طعام وزواج وأمن، وكانت مؤلَّفاتهم الفكرية دساتير ألهمت رُوح الثقافة الأوربية في عصرها الفكري الحديث.

الأخلاق الأساسية:

لقد رأينا أن الأخلاق الأساسية تكمن في العدل والأمانة والصدق، فكل شعوب العالم قد تعارفت على هذه الأخلاق، وجعلتها من جملة دساتيرها المكتوبة والمنطوقة، فكيف رأى الفكر الأوربي هذه الأخلاق؟

لقد شهدت أوربا حركة فكرية لافتة للنظر؛ نشأت هذه الحركة نتيجة للتحركات الجماعية والفردية، فكان الفكر مُعَبِّرًا عن رُوح الثقافة والعصر في تلك القرون الحديثة، ومع هذه الحركات الفكرية والثقافية، تناول الأوربيون مفهوم الأخلاق بطرق مختلفة، كلٌّ يراها من منظوره الفكري؛ فالألماني كانت (Kant) (ت ١٨٠٤م) يتناول قضية الأخلاق الأساسية ومصادرها بقوله: «يجب أن نستمدَّ الأساس الأخلاقيَّ من باطن النفس بإدراك

---

(١) ول ديورانت: قصة الفلسفة ص٣٦٣.

(٢) هربرت سبنسر Herbert Spencer (١٨٢٠-١٩٠٣م): فيلسوف بريطاني، يُعَدُّ أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث، من أهم كتبه: (الرجل ضد الدولة).

(٣) ول ديورانت: قصة الفلسفة ص٤٩١.

وبصيرة مباشرة، يجب أن نجد أخلاقًا عامَّة وضرورية، مبادئ أخلاقية مسلم بها، ومطلقة ويقينية كالرياضيات... وإن الأخلاق فطرية فينا، ولم تُسْتَمَدّ من التجربة، وإن الأوامر الأخلاقية التي نحتاج لها لتكون أساسًا للدين، يجب أن تكون عامَّة ومطلقة، مستمدَّة من فطرة الإنسان، إن هذا الشعور الفطري للأخلاق حقيقةٌ تظهر في كل تجاربنا بشكل واضح يبعث الدهشة؛ فكلنا نشعر شعورًا لا مفرَّ منه إذا تعرَّضنا للإغراء؛ أن هذا أو ذلك العمل خطأ، قد نستسلم للخطأ، ولكن الشعور بالخطأ موجود فينا على أية حال؛ إذ لا يسعنا على الرغم من استسلامنا للخطأ إلاَّ أن نشعر بأننا قد أخطأنا؛ فقد أرتكبُ سخافة وأعرفُ أنني ارتكبتُ سخافة، وأعزمُ مرَّة ثانية على عدم ارتكاب مثل هذه السخافة»[(١)]. وهناك من ارتأى أن الأخلاق خاضعة للعقل كأرسطو ومَنْ تَبِعه من مُفكِّري العصور الوسطى، وهناك مَنْ حصر الأخلاق في القوَّة مثل مكيافيللي.

ورغم اختلافهم حول كُنه الأخلاق وماهيتها وينابيع استقائها، إلاَّ أنهم اتفقوا على ضرورة تحقُّق ما أسميناه بالأخلاق الأساسية؛ فالهوجونت (طائفة بروتستانتينية في القرن السادس عشر) أصدروا مبحث الهوجونت الصادر عام ١٥٧٦م عن العدل، والذي يحملُ عنوان «تبرير مقاومة الطغيان» جاء فيه: «إنَّ الله وحده هو الذي يأمرنا بطاعته طاعة لا حدود لها، وإن المَلِكَ خاضع لقوانين الله، وإن ثمة عقدًا بينه وبين الله، ويقضي ذاك العقد بأن يحكم بالعدل، وأن يُحافظ على الدين الصحيح؛ ولهذا فإذا لم يَقُم الملك بتنفيذ شروط العقد، فإن طاعة الناس للمَلِك لا تكون موجبة؛ وذلك لأن ثمة عقدًا قائمًا بين الملك والشعب»[(٢)].

صحيحٌ أن مثل هذا المبحث الصادر عن طائفة شعرت بالظلم وأحسَّت به، لدرجة أنهم كانوا يُقتلون ويُنْفَوْن من فرنسا، لكنهم في نهاية الأمر عَبَّرُوا عن العدل بفكرهم ورؤيتهم.

ومن اللافت أن نجد فلسفة المفكر الاشتراكي الفرنسي جوزيف برودون[(٣)] قائمة في

---

(١) ول ديورانت: قصة الفلسفة ص٣٤٩، ٣٥٠.

(٢) سترومبرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث ص١٢٤.

(٣) جوزيف برودون Joseph Proudhon: هو بيير جوزيف برودون (١٨٠٩ - ١٨٦٥م)، منظِّر اشتراكي فرنسي، وهو كاتب سياسي وأخلاقي واقتصادي، وهو من دعاة (الفوضوية)، وكانت نظرياته أساسًا لنظريات فوضوية كثيرة، من كتبه: (العدالة في الثورة وفي الكنيسة). انظر: الموسوعة العربية.



أساسها على فكرة العدالة، وهو يُعرِّفها بأنها: «حقيقة كلية تتجلَّى في الطبيعة بقانون التوازن، وفي المجتمع بتبادلٍ أساسُهُ تساوي الأشخاص»، ومن فكرة العدالة يستنبط نظامًا اقتصاديًّا يُسَمِّيه التعاون أو التبادل[١]؛ أي أن خُلق العدل الذي يُتَرْجَم إلى فكرة عملية تَسري في رُوح المجتمع، يمكن أن تُؤَدِّي بمنافع جمَّة أهمها التعاون والتبادل.

ورأى كانت (Kant) من خلال تساؤلاته المتكرِّرَة، أن الصدق من الأخلاق الأساسية التي يجب أن تسود المجتمع؛ قال متسائلاً: «ما هو الشيء الذي يُثير فينا الندم والتبكيت، ويدعونا إلى اعتزام تجنُّب الخطأ؛ إنه الآمر في نفوسنا؛ إنه الضمير الذي يأمرنا أن نعمل، وكأنَّ مبدأ عملنا سيصبح قانونًا عامًّا للطبيعة، نحن نعلم -لا بالتفكير- ولكن بشعورنا القوي المباشر أننا يجب أن نتجنَّب السلوك الذي لو اتبعه الناس جميعًا يُؤَدِّي إلى تعذُّر الحياة الاجتماعية واستحالتها، قد أقعُ في مأزق حرجٍ، ولا أستطيع الخروج من هذا المأزق إلاَّ إذا كذبتُ، ولكني في الوقت الذي أُريد التخلُّص فيه من هذا المأزق بالكذب، لا أحب أن يكون الكذب قانونًا عامًّا بأي حال من الأحوال؛ لأن تحت مثل هذا القانون تضيع الثقة، وتنتفي الوعود والعهود بين الناس؛ ولذلك فإني أحسُّ في نفسي أنه لا يجوز أن أكذب، حتى لو كان الكذب في صالحي ومنفعتي»[٢].

بهذا الأسلوب العقلي الواعي انطلق كانت (Kant) مقارِنًا بين الصدق والكذب، وأيهما أهم في المجتمع الإنساني، وبالأسلوب العقلي ذاته الذي يأخذنا من الجزئيات إلى الكليات، ومن الأسباب إلى النتائج تحدَّث عن الأمانة باعتبارها خُلقًا ضاربًا بجذوره في المجتمعات الإنسانية، قال: «إن الحكمة أمر افتراضي وشعارها الأمانة؛ إذا كانت الأمانة تُؤَدِّي إلى أفضل النتائج السياسية، ولكن القانون الأخلاقي في قلوبنا مطلق بلا قيد ولا شرط، وبموجب هذا القانون الأخلاقي المفطور في نفوسنا يكون العمل فاضلاً وصالحًا، لا بسبب ما يَنتج عن هذا العمل من نتائج حسنة وطيبة، أو بما فيه من حكمة، ولكن لأن هذا العمل قد أُدِّي وَفقًا لهذا الشعور الداخلي بالواجب؛ هذا القانون الأخلاقي الذي لم يأتِ عن طريق تجاربنا الشخصية،

---

(١) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٢٩.
(٢) ول ديورانت: قصة الفلسفة ص٣٥٠.

ولكنه فطري طبيعي فينا، والخير الوحيد في هذا العالم هو إرادة الخير، وهي الإرادة التي تتَّبع القانون الأخلاقي؛ بغضِّ النظر عما يعود علينا من كسب أو خسارة»[١].

ومما سبق نتأكَّد من أن الفكر الأوربي ناقش قضية الأخلاق من سياقات عدَّة، ورؤًى مختلفة، ومدارس متفاوتة، وخَلُص كثير من المفكِّرين والفلاسفة الأوربيين أن الحياة بلا أخلاق هي حياة مستحيلة، وأن الأخلاق هي السياج الحقيقي الذي يُحافظ على سلامة عيش الإنسان في هذه الأرض.

الحرية:

تسعى نفس الإنسان دائمًا إلى الانطلاق في أُفق الحياة اللا منتهي: في الفكر والثقافة والأدب والسياسة وغير ذلك، وفي أرض الواقع من خلال تعبير كلٍّ منا عن نفسه بطريقته التي يألفها، وحياته التي يراها مناسبة له؛ ولذلك فليس من المستغرب أن يجد القارئ في الفكر الأوربي مادة غزيرة عميقة تتناول الحرية من مناظير عدَّة، كل منها له وجاهته ودليله الذي يستند عليه، وليس من المستغرب -أيضًا- أن تكون الحرية أحد الشعارات الثلاثة التي رفعها جماهير الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م مع الإخاء والمساواة.

لقد كانت أوربا متعطشة للحرية، ساعية لها من خلال أبسط أبنائها من الفلاحين والعمال، واستطاع مفكِّرو أوربا أن يُعَبِّرُوا عنهم أفضل تعبير، فخرجت أفكارهم ومؤلَّفاتهم صادحة بالحرية، مطالِبة بتحقيقها في ظلِّ ذلك الجوِّ الإقطاعي الكئيب.

ولقد كان تعريف فلاسفة أوربا للحرية تبعًا لاتجاهاتهم وثقافاتهم ومداركهم؛ فالفيلسوف الألماني لايبنتز (ت ١٧١٦م) قال: «تتكون الحرية من قدرة المرء على أن يعمل ما يريد». ويقول فولتير: تتوفَّر الحرية بالنسبة لي حين أستطيع أن أفعل ما أشاء. ولكن كلا الكاتبين يختمُ قوله بجملة أخرى: أو من قدرته على ما يُريد ما يستطيع الحصول عليه. ويقول فولتير بصراحة: «لا أستطيع أن أمتنع عن الرغبة فيما أريده حقًّا»[٢].

---

(١) ول ديورانت: قصة الفلسفة ص٣٥٠.
(٢) سكينر: تكنولوجيا السلوك الإنساني ص٣٤.



ومن هنا كان تناول الحرية في المؤلفات الفلسفية الأوربية متنوِّعًا مختلفًا؛ بداية من الدعوة إلى حرية العقل كما عَبَّر الهولندي اسبينوزا (ت ١٦٧٧م) بقوله: «الحرية الحقَّة هي سيطرة العقل وفاعليته، وهي التخلُّص من أغلال العواطف العمياء، التي لا تسترشد بهدى العقل، ولن يكون الإنسان حرًّا إلاَّ بقدر ما هو عالم عاقل، ولكي تكون إنسانًا كاملاً لا ينبغي أن تتحرَّر من قيود المجتمع ونظامه؛ لأن سموَّ الإنسان هو في التحرُّر من فردية الغرائز وتحكُّمها، وبهذا وحده يكمل الإنسان الحكيم»[1]. وانتهاءً بحرية العمل كما عَبَّر الفيلسوف البريطاني جون ستيوارت مل (ت ١٨٧٣م) بقوله: «الحرية هي أن يعمل المرء ما يشاء»[2]، **(انظر: صورة رقم (٢٠) المشترك الإنساني وعقلاء الفكر الغربي).**

وبين الدعوة إلى حرية العقل والعمل، فقد تناول الأوربيون الحرية من اتجاهات مختلفة؛ فكتب جون لوك (ت ١٧٠٤م) عن طبيعة الحرية المتعارف عليها للشعب، قائلاً: «لَمَّا كان الناس غير ملزمين بأن تكون لهم حكومة؛ لذلك باستطاعتهم أن يعقدوا صفقة معها، ولذلك فهم غير مرغمين على التنازل للحكومة عن جميع حقوقهم. أمَّا أن ينصبوا طاغية يتمتَّع بسلطة استبدادية مطلقة، فهذا أمر شاذٌّ ومنافٍ للعقل؛ فهم عندما قاموا بتشكيل حكومة إنما فعلوا ذلك بغية حماية حقوقهم، أمَّا إذا أقدمت الحكومة على اغتصاب تلك الحقوق، فعندئذ تكون قد هدمت الأساس الذي استندت إليه، وانحرفت عن هدفها الذي تعهَّدت ببلوغه، فأنا عندما أنضم إلى المجتمع أتخلى فقط عن بعض حرياتي، وذلك بغية التمتُّع بحريات أفضل من تلك، وأنا أتنازل عن ذاك البعض من حرياتي فقط برضائي واختياري؛ ولهذا فإن البشر يتخلَّوْنَ للحكومة فقط عن سلطات محدودة، وإنَّ أحد حدود تلك السلطات هو أن السلطة العليا لا تستطيع أن تنتزع أيَّ جزء من ملكية أيِّ فرد بدون موافقته، وهكذا فإنه حالما تقوم الأكثرية بإقرار الاتفاق أو اشتراع الدستور للحكومة، فإنه ينبغي لتلك الحكومة ألاَّ تتجاوز سلطاتها المحدودة دستوريًّا، أمَّا إذا تجاوز أيُّ موظف أو حكومة القانون، وسلك سلوكًا غير مشروع، وقام بخرق الحقوق الطبيعية للناس بطريقة أو بأخرى، وضرب الدستور بعُرض

---

(١) ول ديورانت: قصة الفلسفة ص٢٣١.

(٢) ب. ف. سكينر: تكنولوجيا السلوك الإنساني ص٣٠.

الحائط - فعندئذٍ لا يعود قاضيًا أو حاكمًا - وهنا يتوجب على الناس مقاومته»[١]، **(انظر: صورة رقم ٢٠ المشترك الإنساني وعقلاء الفكر الغربي).**

ويُؤَكِّد الفرنسي مونتسكيو (ت ١٧٥٥م) في مؤلَّفه الفكري والسياسي الشهير «روح القوانين» ما ذهب إليه جون لوك؛ فأولاً فرَّق بين حرية الفرد أو الرعية وبين حرية الدستور، وتُشير الحرية الأولى -عنده- بكل وضوح إلى الحريات المدنية كأمن الفرد والحرية الدينية وحرية الفكر والتشريع وما أشبه، وعلى الرغم من أن الاهتمام الأول لمونتسكيو قد انصبَّ على تأمين هذه الحريات، إلاَّ أنه لم يرها مماثلة للحقوق الطبيعية والتشريع وما أشبه، وكان اهتمامه الأوَّل منصبًا على تأمين هذه الحريات؛ فهي حريات يضمنها المجتمع، وتُمَارَس في المجتمع، ويحدِّدها القانون تحديدًا دقيقًا؛ فالحرية كما يُقرر مونتسكيو: هي حقٌّ فعل كلِّ ما يسمح به القانون[٢].

ولم تكن مدافعة هؤلاء المفكرين عن الحرية على سبيل التنظير والدراسة الأكاديمية فقط، بل كانت واقعًا عمليًّا؛ حيث يذكر ول ديورانت (ت ١٩٨١م) موقف فولتير من إحراق كتب غريمه روسو، بقوله: «هاجم فولتير السلطات السويسرية لمصادرتها كتاب روسو وإحراقه، تمسُّكًا بمبدئه المعروف: أنا لا أتفق معك في كلمة واحدة مما قلتَه، ولكني سأدافع عن حقِّك في الكلام، وحرية التعبير عن أفكارك حتى الموت»[٣]، **(انظر: صورة رقم ٢٠ المشترك الإنساني وعقلاء الفكر الغربي).**

وكان الفيلسوف الأسكتلندي الشهير ديفيد هيوم[٤] غير متمسِّك بالدين، بل كان مستخفًّا بالكاثوليكية الرومانية بوجه خاصٍّ؛ ورغم ذلك كان معارضًا لأي قمع للمذاهب الدينية والفكرية أيًّا كان اتجاهها[٥].

---

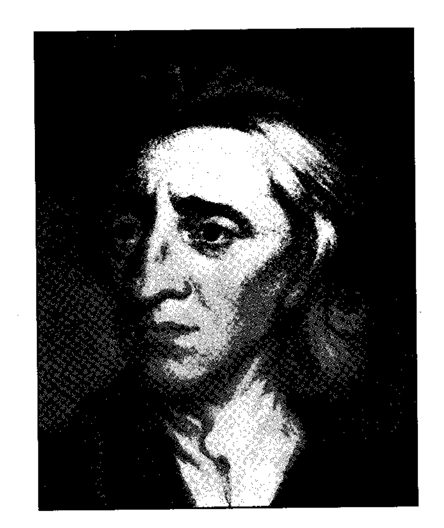
(١) سترومبرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث ص١٣٠.

(٢) فرانكلين باومر: الفكر الأوربي الحديث.. الاتصال والتغير في الأفكار من ١٦٠٠-١٩٥٠م، ٢/ ١٠٧.

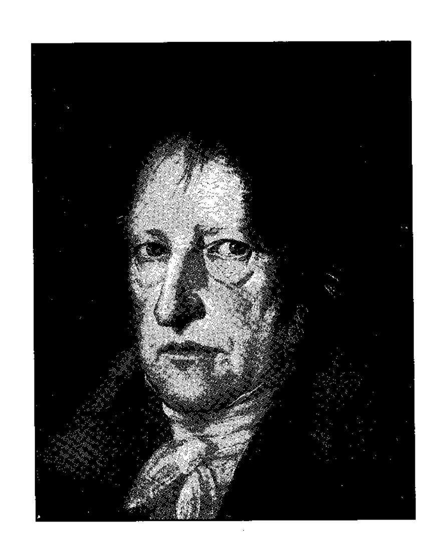
(٣) ول ديورانت: قصة الفلسفة ص٣٠٨.

(٤) ديفيد هيوم David Hume (١٧١١-١٧٧٦م): فيلسوف واقتصادي ومؤرخ اسكتلندي، من مؤلفاته: (تاريخ إنجلترا)، و(مقالات سياسية).

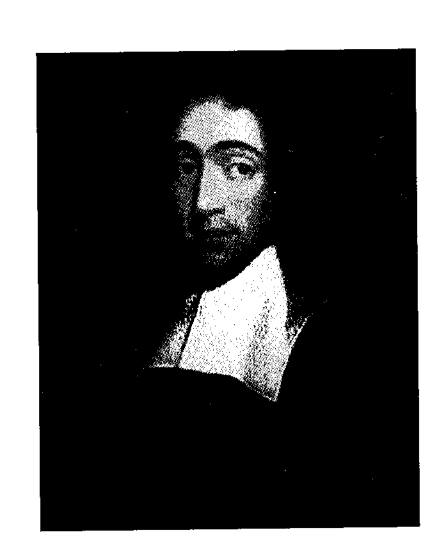
(٥) رسل: حكمة الغرب ٢/ ١٠٧.



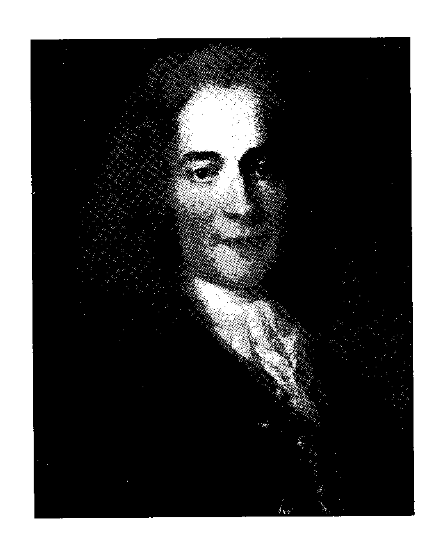
جون لوك



هيجل



باروخ اسبينوزا



فولتير

المشترك الإنساني وعقلاء الفكر الغربي

صورة رقم (٢٠)

وعلى كلٍّ، فقد رأى فلاسفة أوربا أهمية الحرية؛ لكونها وسيلة أساسية في تحقيق العدالة والوئام بين الشعوب، وهو الأمر الذي من شأنه تقريب الشعوب، وكان هذا رأي الإنجليزي سبنسر، الذي أكَّد على أن «العدالة لا يمكن أن تنمو وتزدهر إلاَّ إذا قلَّ الخصام والعداء بين الشعوب، وزاد التعاون والانسجام بين أفرادها، ولكن كيف السبيل إلى تنمية هذا التعاون والانسجام؟ كيف السبيل إلى ترقية هذا التعاون المنسجم؟ إن هذا الانسجام يأتينا عن طريق الحرية أكثر من التنظيم، وعلى هذا يكون تعريف العدالة هو: أن يكون الإنسان حرًّا في أن يفعل ما يشاء؛ شريطة ألاَّ يتعارض مع حرية الآخرين؛ وهذا التعريف للعدالة يتعارض مع نزعة الحرب؛ لأن الحرب تُمَجِّد السلطة والتنظيم والطاعة العمياء»[١].

ومن اللافت أن تَظْهَرَ في أوربا طبقات متعاقبة من الفلاسفة سُمُّوا بـ«فلاسفة الحرية»، تناولوا الحرية من جميع أبعادها: أسبابها، ومسبباتها، وما تحتاج إليه؛ فعلى سبيل المثال تناول أحد فلاسفة الحرية ويُدعى جول لكي (فرنسي ت ١٨٦٢م) العلاقة بين الحرية والمعرفة بقوله: «إن الحرية شرط المعرفة، أو أنها الحقيقة الأولى بين الحقائق التي نُوَفَّق إلى اكتسابها، ولكن لا باعتبارها ظاهرة وجدانية، على ما يذهب إليه الروحيون؛ أي أن الشعور بانتفاء القسر أو عدم الشعور بالقسر لا يُعَدُّ دليلاً على حرية الفعل»[٢].

وربط فيلسوف آخر من فلاسفة الحرية وهو الفيلسوف السويسري شارل سكرتان (ت ١٨٩٥م) الحرية بالأخلاق، فنراه قائلاً: «إن الأخلاق لا تستغني عن الحرية؛ فينبغي الفحص عن مبدأ أعلى كفيل بأن يكون لها أصلاً وقانونًا؛ هذا المبدأ هو الله»[٣].

وهناك مَنْ قال بوجوب تحديد الحرية، أو التحكُّم بطريقة جزئية فيها، يقول عالم النفس الأميركي ب. ف. سكينر (ت ١٩٩٠م): «كان جان جاك روسو، وهو من أعظم مَنْ كتبوا في أدب الحرية لا يخشى قوَّة التعزيز الإيجابي[٤]، وفي كتابه الرائع (إميل) يُقَدِّم للمعلمين

---

(١) ول ديورانت: قصة الفلسفة ص٤٩١.
(٢) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٧٤.
(٣) المرجع السابق ص٣٧٥.
(٤) السيطرة على الناس بوسائل ليس لها نتائج بغيضة.



النصيحة التالية: دع الطفل يعتقد أنه دائمًا المتحكِّم، مع أنك أنت (أي المعلم) مَنْ يُسيطر في الواقع، ليس ثمة إخضاع كامل كالإخضاع الذي يحفظ مظهر الحرية؛ لأن المرء بتلك الطريقة يأسر الإرادة نفسها؛ فالطفل المسكين الذي لا يعرف شيئًا، ولا يستطيع عمل شيء، ولم يتعلَّم شيئًا، أليس هو تحت رحمتك؟! ألا يمكنك أن تُرتِّب كل شيء في العالم الذي يُحيط به؟! أليس بمقدورك التأثير عليه كما تشتهي؟ أليس عمله ولعبه وأفراحه وأتراحه كلها في يديك، وبدون أن يعرف؟ ما من شَكٍّ أنه يجب أن لا يعمل إلاَّ ما يُريد، ولكن ينبغي أن لا يُريد ألاَّ ما تُريده أنت أن يعمله، وينبغي أن لا يَتَّخذ أية خطوة لا تتوقَّعها أنت، وينبغي أن لا يفتح فمه دون أن تكون على علم بما سيقول». وقد استطاع روسو الأخذ بهذا المنحنى؛ لأنه كان يؤمن إيمانًا مطلقًا بطيبة المعلمين... لكن على عكس روسو كان هناك من أدباء الحرية ومفكِّريها مَنِ اتخذوا منحنى آخر، تمثَّل في أن التحكُّم كله خاطئ[1].

وأخيرًا لخَّص اسبينوزا غاية الدولة في الحرية؛ إذ قال: إن هدف الدولة هو الحرية؛ لأن عمل الدولة هو ترقية النموِّ والتطوُّر، والنموُّ يتوقَّف على المقدرة وتوفُّر الحرية، ولكن ماذا يفعل الناس لو كَبَتَت القوانين النموَّ وخنقت الحرية؟ وماذا يفعل الناس لو اتجهت الدولة إلى إيثار مصلحة الطبقة الحاكمة والتسلط على الشعب واستغلاله، وسعى الحكَّام إلى الاستئثار بالمناصب والكراسي، وعدم إفساح المجال لغيرهم للوصول إلى الحكم؟، ويُجيب اسبينوزا عن هذه الأسئلة بوجوب إطاعة القوانين حتى ولو كانت جائرة وظالمة، ما دامت الحكومة لا تمنع الناس من حرية الكلام والاحتجاج؛ للوصول إلى تغيير الأوضاع بالوسائل السلمية، يعترف اسبينوزا ببعض المساوئ الناجمة عن مثل هذه الحرية، ولكنه يقول: لا يمكننا تجنُّب المساوئ في حلِّ قضية من القضايا مهما أُوتينا من حكمة، والناس غير معصومين عن الأخطاء. إن القوانين التي تُقيِّد حرية الكلام والفكر والنقد تهدم جميع القوانين في الدولة؛ لأن الناس لن يلبثوا زمنًا طويلاً على احترامهم للقوانين التي لا يجوز لهم نقدها، وكلما زادت الحكومة في مكافحة حرية الكلام وخنقها، زاد الشعب عنادًا في مقاومتها؛ لن يتصدَّى لمقاومة هذه القوانين أصحاب الشره والطمع من رجال المال، بل أولئك الذين تدفعهم ثقافتهم

(١) سكينر: تكنولوجيا السلوك الإنساني ص٣٧.

وأخلاقهم وفضائلهم إلى اعتناق الحرية؛ فقد جُبل الناس بوجه عامٍّ على ألاَّ يطيقوا كبت آرائهم، التي يعتقدون بأنها حقٌّ، وألاَّ يصبروا على محاربتها واعتبارها جرائم ضد القانون[1].

ولن نقف طويلاً عند مفهوم الحرية وأهميتها كمشترك إنساني عامٍّ من خلال مؤلفات المفكرين الأوروبيين، فمثل هذا الموضوع يحتاج إلى مؤلَّف خاص به، على أننا يمكن أن نستنتج مما سبق أن الحرية مبدأ أساسي تناولته تلك المؤلَّفات، وقد اعتبرته كثير من هذه المؤلفات من المشتركات العامة، التي يجب أن تسود بين الشعوب.

العلم:

لا تخلو أمةٌ على وجه الأرض من العلم والاشتغال به؛ سواء كان هذا العلم راسخًا عميقًا مهتمًّا بتفاصيل الحياة، أم ساذجًا سطحيًّا توارثه الأبناء عن الآباء، ولقد تناول فلاسفة الفكر الأوربي العلم، واهتمُّوا بقضيته باعتباره المخلِّص الأول من براثن التخلُّف والسطحية التي وصلت إليها مجتمعاتهم في تلك الآونة.

وانطلاقًا من هذه الرؤية العالمية للعلم والفكر، رسم بعضهم صورًا ألهبت الجماهير عن المدينة الفاضلة، التي يكون العلم أحد أركانها، وكان من هؤلاء فرانسيس بيكون في كتابه «أطلنطس الجديدة»، يقول ديورانت عن بيكون ومدينته في كتابه «أطلنطس الجديدة»: «لقد رسم لنا بيكون في هذا الكتاب صورة لمجتمع وجد فيه العلم أخيرًا مكانه الجدير كسيد للأشياء، لقد كانت هذه المدينة الفاضلة التي وصفها بيكون روعة ملوكية في الخيال، أوحت بالكثير للعلماء الذين يكافحون في سبيل الوصول إلى المعرفة والاختراع، والقضاء على الجهل والمرض، وكانت هدفًا لهم طيلة قرون ثلاثة»[2].

ويبدو أن حركة الإصلاح الأوربي العلمي قد سارت على منوال بيكون؛ ففي مستهلِّ القرن الثامن عشر بدأت أوربا في الاهتمام بفلسفة رجل كان له أكبر الأثر في لفت انتباه الأوربيين إلى أهمية العلوم في حياتهم، والبعد عن الفلسفات الوهمية التي لم تؤتِ أُكلها، أو

---

(١) ول ديورانت: قصة الفلسفة ص٢٤١، ٢٤٢.
(٢) المرجع السابق ص١٧١.



تعطى شيئًا ذا قيمة في المجتمع الأوربي كفلسفة ديكارت وغيره.

لقد كان الرجل الذي نتكلم عنه هو نيوتن (ت ١٧٢٧هـ)؛ فقد أحدث النجاح الفائق لميكانيكا نيوتن السماوية خلخلة قوية في قواعد الفلسفات الأوربية؛ إذ تميزت ميكانيكا نيوتن بِسِمَتَيْنِ معاكستين تمامًا للسمات الديكارتية؛ من حيث دقتها اللامتناهية في تطبيق الرياضيات على الظواهر الكونية الكبرى؛ كحركة الكواكب، وجاذبية الأرض، والمدِّ والجزر فحسبها حسابًا دقيقًا إذا ما توفرت معطياتها الأولية؛ وتَرْكِها هامشًا واسعًا جدًّا لما لا يقبل التفسير، وهذا ما لم يكن عند ديكارت(١).

وثمة مَنْ رأى أن العلم هو اللغة الصحيحة للتعبير عن الأشياء، بل انتقد لغة الفلاسفة التي أصابت المجتمعات الأوربية ببلبلة لم يُؤْتَ من ورائها بطائل، إنه الفيلسوف الفرنسي كونديياك(٢) الذي آمن بقاعدة كان لها دورها الكبير في تقديم العلم، بل جعله مشتركًا عامًّا تُفهم من خلاله المعاني الإنسانية فضلاً عن العلوم التجريبية؛ إذ قال: إن العلم ليس إلاَّ لغة حسنة البناء(٣).

أمَّا من الناحية العملية، فقد وُجدت مظاهر تُؤَكِّد على أهمية العلوم ودورها في تلك المجتمعات الأوربية؛ فقد بدأ الاهتمام بكتابة «الإنسكلوبيديا» أو الموسوعات العلمية، التي تناقش كل شيء تقريبًا من العلوم المحضة إلى الأدب والفلسفة، ومن اللافت أن هذا المشروع الفكري المبتكر في البيئة الأوربية وقتئذٍ كان ظاهرة فكرية فريدة تستوجب التوُّقف والتأمُّل.

وكانت قد ظهرت موسوعات قليلة في القرن الثامن عشر؛ مثل موسوعة المفكر الأسكتلندي فرايم تشامبرز عام (١٧٢٨م)، والحقُّ أن الموسوعة الفرنسية التي أشرف عليها دينيس ديدرو كانت أكثر شمولاً وتَوَسُّعًا، وقد كانت هذه الموسوعات دليلًا على تطوُّر العلوم في أوربا، بل قيل: إن هذه الموسوعات لها كثير من الفضل في نشر أفكار عصر التنوير

---

(١) إيميل برهييه: تاريخ الفلسفة ٤/ ٦، ٧.

(٢) كونديياك Condillac: هو إيتين بونوت دي كونديياك (١٧١٥-١٧٨٠م)، فيلسوف فرنسي مشهور من فلاسفة عصر التنوير.

(٣) إيميل برهييه: تاريخ الفلسفة ٥/ ١٠٦.

وفلسفاته[١].

ومهما يكن؛ فقد أصبح العلم في أوربا في تلك القرون مشتركًا إنسانيًّا وثقافيًّا عامًّا بين الأوربيين؛ وهذا ما أكَّده لنا سترومبرج، وما نلمسه من خلال قراءتنا في الفكر الأوربي الحديث.

العمل:

لا ريب أن العمل مشترك إنساني يستطيع كلٌّ منَّا أن يُلاحظه بسهولة ويُسر؛ فأينما تضع رحالك، وتأخذك قدماك تجد العرَق والجهد، بل يُقاس درجة تقدُّم المجتمع من عدمه بقدر الجهد والطاقة والعمل المبذول؛ ومن ثَمَّ اهتمَّ الفكر الأوربي بقضية العمل، وظهرت الثورة الصناعية الكبرى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؛ حتى إن القارئ للتاريخ الأوربي يمكن له أن يصف أوربا بالقارة العاملة، على صعيد الزراعة والصناعة والتجارة.

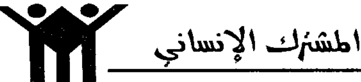
وليس من المستغرب إذًا أن يبني بعض أولئك الفلاسفة فكرهم على قضية العمل؛ فقد بسط المفكر الفرنسي الاشتراكي لويس بلان[٢] مذهبه في أن لكل إنسان حقًّا طبيعيًّا في أن يحيا، ولا يتحقَّق هذا الحقُّ إلاَّ بإحدى وسيلتين؛ هما: الملكية الخاصة والعمل... وعلى الدولة أن تُوَفِّر عملاً لكل مواطن[٣].

ومِنْ قبله تناول رائد المدرسة التجريبية الإنجليزية فرانسيس بيكون قضية العمل والعلم، وضرورة تحقُّق الجانب العملي في العلم في كل مكان، فقد قال: «إن إنفاقك في الدراسة النظرية وقتًا طويلاً ضرب من الكسل والخمول، والتحلِّي بها تصنُّع وتكلُّف ومحبَّة في الظهور، واستنادك في حكمك دائمًا على أحكام الدراسة النظرية وقواعدها ضرب من مجون العلماء ومزاجهم... إن رجال الأعمال يذمُّون الدراسة، والبسطاء يُكبرونها، والحكماء

(١) رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث ص١٩٢-١٩٤.

(٢) لويس بلان Louis Blanc (١٨١١-١٨٨٢م): مفكر فرنسي اشتراكي كتب في التاريخ والفلسفة والاقتصاد وعمل في الصحافة، أحد الاقتصاديين الاشتراكيين الفرنسيين الذين كانوا يَدْعُون إلى المذهب الاشتراكي قبل ظهور كارل ماركس.

(٣) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٣٠.



يستخدمونها؛ لأن الذين يتلقَّوْنَ الدراسة النظرية لا يتعلَّمُون طريقة استخدامها عمليًّا؛ لأن الدراسة النظرية لا تعلم وسيلة استخدامها؛ لأنها نظرية في حدِّ ذاتها، وهناك حكمة خارجة عن الدراسة النظرية؛ وهي أفضل منها، وهي حكمة تُكتسب بالملاحظة»[1].

ومهما يكن؛ فقد كان العمل قيمة تناولها كثير من فلاسفة الفكر الأوربي، وعلى رأسهم الاشتراكيون والشيوعيون؛ حتى إنهم قرَّروا بوجوب تولِّي الطبقة العاملة مقاليد السياسة في أوربا والعالم كلِّه، ولنا أن نُراجع كتابات كارل ماركس وفردريك إنجلز للتأكُّد من ذلك.

نظرات في المشتركات الخاصة:

إن المشتركات الخاصَّة هي تلك المشتركات التي تخصُّ فئتين أو أكثر من الأمم والشعوب؛ لكنها لا تشمل كل شعوب العالم، وهي وإن كانت مخصوصة بأمم بعينها إلاَّ أن لها شأن في غاية الأهمية في تقريب هذه الشعوب.

ولقد تناول مفكِّرو أوربا هذه المشتركات باعتبارها قيمًا كبرى تخصُّ الإنسان والمجتمع، ودارت مناقشات نتج عنها في نهاية الأمر مؤلَّفات ذات قيمة حقيقية، لا يمكن للباحث عن هذه القيم -باعتبارها من وجهة نظرنا مشتركات خاصة- أن يتغافلها أو يتجاهلها، لكننا لا يمكن في نهاية المطاف أن نستقصي كل المشتركات الخاصة؛ لأنه لا سبيل إلى تحقيق ذلك.

الأخلاق السامية:

إن الأخلاقَ قضيةٌ كبرى من قضايا الفكر الإنساني عامَّة؛ فلقد تناولها الإنسان بالتفكير والتعقيب ثُمَّ بالدراسة والمناقشة؛ فسلوك الإنسان أمرٌ يحتاج إلى الدراسة والمقارنة بين الشعوب، صحيح أن الديانات السماوية اعتُبرت دساتير يستقي منها الإنسان كل خُلق حميد، ويتجنَّب من خلالها كل خُلق مذموم مرذول، لكن في نهاية المطاف تتَّفق الشعوب على أهمية الأخلاق باعتبارها أمرًا حتميًّا مُسَلَّمًا به، فضلاً عن كونها طبيعة فطرية في أعماق الإنسان.

وقد تناول الفكر الأوربي قضية الأخلاق باعتبارها فكرًا إنسانيًّا يُرَكِّز على الإنسان والخالق والكون، مكملاً في ذلك نظرات الإنسانية في تراثها الفكري والعقدي والقِيَمي

---

(١) ول ديورانت: قصة الفلسفة ص١٤٣.

والأخلاقي، وقد رأينا أثناء تناولنا الأخلاق السامية أن الإحسان والعفة والعفو تأتي على القمة منها، وقد أقررنا بعدم حصرية هذه الأخلاق.

يقول اسبينوزا: هناك ثلاث صور للمُثل العليا والحياة الأخلاقية؛ أولها: ما دعا إليه بوذا والمسيح من فضل الرحمة واللين والمحبة، التي تدعو إلى المساواة بين الناس، وتدفع الشرَّ بالخير، وتعتبر الحبَّ هو الفضيلة، وتميل في السياسة إلى الديمقراطية المطلقة. وثانيها: ما دعا إليه مكيافيللي ونيتشه من فضائل العنف والرجولة، التي تدعو إلى عدم المساواة بين الناس، وتُمَجِّد الحرب والفتح والحكم، وتعتبر القوة هي الفضيلة، وتُعَظِّم الأرستقراطية الوراثية في الحكم. وثالثها: أخلاق سقراط وأفلاطون وأرسطو، التي تُنكر إمكانية تطبيق النوعين الأوَّلين من الأخلاق تطبيقًا شاملاً، وتعتقد أن العقل الناضج المثقَّف وحده هو الذي يستطيع أن يحكم تبعًا للظروف المختلفة: متى يجب أن يسود الحب، ومتى ينبغي أن تتحَّكم القوة، وبذلك تكون الفضيلة في نظر سقراط وأفلاطون وأرسطو هي العقل، ويدعو هؤلاء الفلاسفة إلى نظام من الحكم يجمع بين الأرستقراطية والديمقراطية في الحكومة[1].

فالفضيلة الأولى هي الحب، والفضيلة الثانية هي القوة، والثالثة هي العقل، ويجيء اسبينوزا ويُوَفِّق بين هذه الصور الفلسفية المتنافرة المتضاربة، ويحبكها في وَحدة منسجمة، ويُقَدِّم لنا نظامًا أخلاقيًّا يُعَدُّ أسمى ما وصل إليه الفكر الحديث -كما يرى ول ديورانت- وذلك في مؤلفه الشهير «الأخلاق».

لكن مثل هذه الأخلاق -التي تحدَّث عنها اسبينوزا وأيَّده فيها ديورانت- تختلف من أُمَّة لأخرى، ومن شعب لآخر، ونختلف نحن معه في أن القوَّة والسطوة والجبروت يجب ألا تكون من الأخلاق السامقة، لأنها إذا طُبقت – وغالبًا ما تُطبَّق بطرق غير إنسانية – ستكون عواقبها وخيمة جدًّا، لكن على الجانب المقابل لموطن الهولندي اسبينوزا وجدنا في إنجلترا جون لوك (ت ١٧٠٤م) ذاك الفيلسوف التجريبي الكبير، الذي يُقَرِّر أن التسامح والعفو من جملة الأخلاق التي يجب أن تتحلَّى بها الأمم والشعوب متمثِّلة في أفرادها، بل نراه وقد أفرد لها

(١) ول ديورانت: قصة الفلسفة ص٢٢٥، ٢٢٦.



مؤلفًا مستقلاً هو «رسالة في التسامح»؛ إذ يقول في مستهلِّها: «سيدي الموقر؛ حيث إنك تشعر بالغبطة لأنك تتساءل عن أفكاري الخاصة بالتسامح المتبادل بين المسيحيين المختلفين في مللهم، فأنا من أجل ذلك أُجيبك بلا تحفظ، وهو أنني أنظر إلى التسامح على أنه العلامة المميزة للكنيسة الحقَّة؛ فالبعض يتباهى بقدم الأماكن والألقاب، أو بعظمة الطقوس، والبعض يزهو بصلاح إيمانه، بينما يُفاخر الجميع بما يعتقدون أنه الإيمان الحقُّ، الذي لا يشاركهم فيه أحد، هذه كلها وغيرها مما على شاكلتها إنما هي علامات على شهوة البشر في تسلُّط كلٍّ منهم على الآخر، أكثر مما هي علامات على حبِّ كنيسة الله، فلْنُسَلِّم بأن لكل فردٍ الحقَّ في التوجُّه نحو كل هذه الأمور، لكنه إذا تجرَّد من المحبة والتواضع وإرادة الخير للبشرية بمن فيها من غير المسيحيين، فإنه – في هذه الحالة – لا يمكن أن يكون مسيحيًّا حقًّا»[1]. ولا شكَّ أننا نتفق مع لوك في أن التسامح فضيلة سامية من شأنها التقارب الكبير بين الشعوب، ولقد كان رأيه هذا واقعًا عمليًّا في حياته؛ فهو يُقَرِّر أن «التسامح ينبغي أن يمتدَّ بلا تمييز حتى إلى الكاثوليك[2]»[3].

ومن ثَمَّ يمكن أن نلاحظ أن من أهمِّ القيم التي سعى إليها كبار فلاسفة أوربا في تلك الآونة هي قيمة التسامح، ولا شكَّ أن للعصر الذي عاشوا فيه دوره الكبير في إعادة صياغة وتعريف هذه القيمة، وإبرازها في الوجود.

القانون:

أيقن الإنسان بعد مشاهداته وتجاربه واحتكاكه المتواصل بالآخرين أنه لا بُدَّ من وجود نظام يُحَدِّد علاقته بالآخرين، وينظم طبيعة العلاقة العامَّة بهم، فضلاً عن حمايته وحماية أملاكه الخاصة، ومن هنا برزت فكرة القانون كعامل أساسي لتنظيم وتوحيد الشعوب.

ولذلك قال اسبينوزا (ت ١٦٧٧م): «إن النزعة الفردية تسود معظم الناس، وهي متأصِّلة في قلوبهم، وفي نفوسهم ثورة على القانون والعرف والتقاليد، والغرائز الاجتماعية

---

(١) جون لوك: رسالة في التسامح ص١٩.
(٢) يبدو أن لوك كان من البروتستانت.
(٣) راسل: حكمة الغرب ٢/ ١٠٧.

أضعف من الغرائز الفردية ومتأخِّرة عنها، وتحتاج إلى تقويتها وتعزيزها، والإنسان ليس خيِّرًا وصالحًا بطبيعته... وأخذ الإنسان تدريجيًّا يتنازل عن قوَّته وسيادته الفردية، التي كانت لديه في حياته البدائية الطبيعية إلى سلطة الجماعة القانونية في المجتمع المنظم، وما زالت القوة هي الحقّ، ولكن قوة الجماعة كلها حدَّدَت من قوَّة الفرد، بأن يتفق استخدامه لقوته مع حرية الآخرين من أفراد المجتمع. لقد تنازل الفرد عن جزء من قوَّته وسيادته الطبيعية إلى الجماعة المنظمة، مقابل توسيع مدى ما تبقَّى له من القوَّة والسيادة؛ فقد تخلَّينا عن حقِّ العنف والغضب لتأمين أنفسنا من خطر أعمال العنف من جانب الآخرين، أو بعبارة أوضح فقد تنازلنا عن أعمال العنف مقابل تنازل الآخرين عن أعمال العنف؛ إن القانون ضروري لأنَّ الناس تُسيطر عليهم العواطف والأهواء»[١].

إن هذه الفلسفة الحكيمة التي تُؤَيِّد فكرة القانون في التعامل الإنساني، لهي فكرة جديرة بالدراسة والتطبيق، صحيح أن هناك قانونًا دُوَليًّا تلتجئ إليه الشعوب في حالة الخصومات والتعديات، إلاَّ أن هذه القوانين تحتاج إلى تفعيل أكثر.

ولقد رأى الفيلسوف الألماني فيخته (ت ١٨١٤م) الأهمية القصوى للقانون؛ فبه يعلو شأن المجتمع - وهو في نظره المتَّحِدِ القومي غير المنظم - علوًّا كبيرًا على شأن الدولة، التي لا تعدو أن تكون تعبيرًا مؤقتًا عنه، وإنما من المجتمع يأتي مطلب القانون الذي يتعيَّن على الدولة أن تُحَقِّقه[٢].

فإذا كان فيخته هنا يبحث عن القانون، لكنه يُحَدِّد صلاحيات هذا القانون لقومية ما، وليس لدولة؛ لأنه غالبًا لا تستطيع الدولة أن تجمع القومية في كنفها، إلاَّ قليلاً والعكس صحيح كذلك، وإن كانت نظرة فيخته توسُّعية أو أقلية، إلا أنها من أحد الجوانب تخدم قضية المشترك الإنساني، فمفهوم القانون من هذه الزاوية من شأنه التقريب بين القوميات المتقاربة والمتشابهة، وهذا مطلوب ومرجوٌّ في واقعنا المعاصر.

---

(١) ول ديورانت: قصة الفلسفة ص٢٤٠.

(٢) إميل برهييه: تاريخ الفلسفة ٦/ ١٦٠.

ونظر الإنجليزي جيمس هارينجتون[١] (ت ١٦٧٧م) إلى القوانين نظرةً مغايرة تنبع من ضرورة إحكام هذا القانون على كل طوائف المجتمع بمن فيهم الأغنياء؛ فلقد كان هارينجتون يعتقد بوجوب اشتراع قوانين تكبح من جماح الأغنياء؛ كيلا يزدادوا غنى؛ فالطبقة الثرية لا تقل خطرًا عن الطبقة الشعبية إذا ما سمحنا بأن تكون لها سلطة مفرطة في قوتها... والحقُّ أن دولة هارينجتون دولة لا يشترع القوانين قطاع واحد منها، بل جميع قطاعاتها؛ إذ إنه أراد لها أن تكون تعبيرًا عن المصلحة والإرادة العامتين[٢]، فهارينجتون يبحث عن توحيد الأمة الواحدة، التي قد تُمزِّقها الطبقية إلى أشتات يحارب بعضها بعضًا، ولا ريب أن هذه الخطوة لا بُدَّ من تحقُّقها أولاً قبل الحديث عن أي مشترك إنساني مأمول.

وبعدُ؛ فهذه لمحة سريعة عن نظرة الفكر الأوربي إلى قضية المشترك الإنساني، ولقد استفدنا من آراء هؤلاء الفلاسفة، الذين أراد الكثيرون منهم أن تتوحَّد أوربا، وأن تبتعد عن خطر الحروب والمجاعات والصراعات؛ فكانت مؤلَّفاتهم قائمة على أساس الإصلاح في تلك المجتمعات، ثم ما لبثت هذه المؤلفات أن أضحت أحد الروافد الأساسية، التي تعتمد عليها أوربا في رؤيتها الوحدوية الجديدة، والمتمثِّلة في الاتحاد الأوربي.

***

---

(١) جيمس هارينجتون James Harrington (١٦١١-١٦٧٧م): منظر سياسي إنجليزي، من أشهر أعماله المثيرة للجدل: رابطة أوشينا The Commonwealth of Oceana سنة ١٦٥٦م.

(٢) رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث ص١٢١.

تعقيب على الفكر الصدامي

مثلما كان في الغرب فكر إنساني، فقد وُجد -أيضًا- الفكر الصدامي، والواقع أن الصداميين كانوا الأعلى صوتًا والأقرب إلى صُنَّاع القرار في الغرب، ففي حقبة تشهد تفوقًا غربيًّا واضحًا، ونزوعًا إلى السيطرة والاحتلال والاستيلاء على الأراضي والثروات، بل والبشر -أيضًا- كما في تاريخ العبودية المرير، في مثل هذه الحقبة يحتاج صُنَّاع القرار إلى تنظير يُسَوِّغ لهم هذا الصدام، ويتوسَّع في شرح أسبابه والفلسفة له وبيان حتميته، وخطورة التراجع عنه.

وكما هي الدائرة المغلقة في العلاقة بين الأفكار والواقع؛ فالواقع يُنتج الأفكار ثم تُنتج الأفكار الواقع، كذلك تُثمر الأفكار الصدامية أجواءً من الأزمات، ثم تُنتج هذه الأزمات بدورها أفكارًا صدامية أخرى.

وقد اخترنا في هذا الحديث عن الفكر الصدامي نموذجين؛ لما لهما من شهرة وتأثير في السنوات الأخيرة في ميداني الفكر والسياسة، فكلاهما صكَّ نظرية استطاعت أن تُثير نقاشًا واسعًا، هذان هما:

- فوكوياما.. ونظرية نهاية التاريخ.
- هنتنجتون.. ونظرية صدام الحضارات.

فوكوياما.. ونظرية نهاية التاريخ

فيما بعد انتهاء الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفيتي ساد في العالم الغربي، لا سيما في أميركا التي كانت رأس الحربة وقائدة المعسكر الغربي في المعركة مع الشيوعية، ساد خطاب الانتصار الإمبراطوري الكبير، وسَرَتْ نشوة «النصر» هذه حتى وصلت إلى حدٍّ بعيد، كان من أحد تجلياته أن خرج المفكر الأميركي ذو الأصول اليابانية فرانسيس فوكوياما بمقاله عن

«نهاية التاريخ» الذي تحوّل فيما بعدُ إلى كتاب يحمل هذا الاسم[١].

ونظرية فوكوياما أقرب إلى السذاجة منها إلى الواقعية والعلمية، وتُعتبر نظرية صمويل هنتنجتون «صدام الحضارات» والتي صدرت بعدها وتمثل ردًّا عليها[٢]، أقرب إلى التماسك والواقعية ورصد العوامل كما هي على الأرض لا كما يتمنَّاها المفكر من نظرية فوكوياما، ذلك أن فوكوياما كان متفائلاً إلى الحدِّ الأقصى، إلى الحدِّ الذي رأى في هذه اللحظة نهاية التاريخ الإنساني كله، ثم بدأ يُفكِّر في عالم ما بعد التاريخ، وإنسان ما بعد الإنسان، وبدا مندفعًا في هذا الاتجاه إلى حدٍّ دعا بعض المعلِّقين لأن يقولوا -بحقٍّ- بأن نظرية فوكوياما تعبير عن «استنفاد التاريخ الغربي لأُفقه النظري، وانغلاق إمكاناته الفكرية لدخوله عصر فراغ فكري وأيديولوجي حادٍّ»[٣].

وخلاصة نظرية فوكوياما كالآتي:

بعد انتهاء الحرب الباردة وسقوط المعسكر الشيوعي بدا واضحًا أن الفكر الليبرالي هو الفكر الوحيد الذي استحقَّ أن يبقى في العالم؛ فلقد انهارت -عبر التاريخ البشري- النظم الملكية والأرستقراطية والثيوقراطية والفاشية والشيوعية، ولم يبقَ إلاَّ النظام الليبرالي.

ويستلهم فوكوياما من فلسفة هيجل (Hegel) أن ثمة روحًا أو عقلًا كامنًا في التاريخ الإنساني يُطَوِّره دائمًا من الأسوأ إلى الأفضل، فهو لا بُدَّ واصل يومًا إلى اللحظة الأفضل التي هي لحظة النهاية، ومن فلسفة كَانْت(Kant) الحلم بالانتهاء نحو سلام عالمي ودولة عالمية واحدة وتَحَوُّل الإنسان إلى مواطن عالمي.

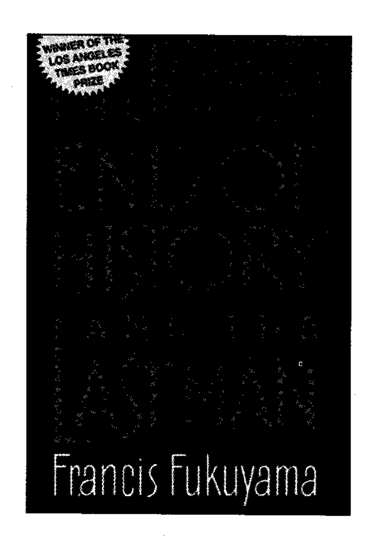
وكما كان هيجل وكَانْت (Kant) متأثِّرَيْن بالثورة الفرنسية فألهمتهما أفكار المثالية الحالمة، وعلَّقا عليها آمالاً في تطوُّر التاريخ والأفكار البشرية؛ كذلك كان فوكوياما في لحظة انهيار المعسكر الشيوعي وانتهاء الحرب الباردة.

---

(١) نُشرت هذه المقالة في سنة ١٩٨٩ في مجلة «المصلحة القومية» الأميركية (National Interest)، ثم صدر الكتاب بعدها بعام في ١٩٩٠م.

(٢) سنناقش نظرية هنتنجتون فيما بعد.

(٣) محمد سعدي: مستقبل العلاقات الدولية ص٦١.





فوكوياما.. ونظرية (نهاية التاريخ)

صورة رقم (٢١)



ولذا توقَّع فوكوياما أن يكون عالم ما بعد هذه اللحظة عالمًا مختلفًا، فهو العالم الذي ستنتشر فيه الأفكار الليبرالية والنظام الديمقراطي، والنموُّ الاقتصادي المستمرُّ وإشباع الحاجات الإنسانية؛ ومن ثَمَّ ستختفي بالتدريج الحروب والعلاقات التصادمية؛ إذ ستهتمُّ المجتمعات بالحفاظ على مكتسباتها الاقتصادية، إلى الحدِّ الذي لن يكون العالم فيه محتاجًا إلى ساسة وعسكريين بل إلى موظفين إداريين فقط يُسَيِّرُون الحياة العادية.

هذه الحياة ستكون رتيبة بطبعها، بل ستكون حزينة - وهذا كلام فوكوياما نفسه- إذ إن إشباع الحاجات الإنسانية، واختفاء الأهداف والغايات (لأنها تحقَّقت) سيقعد بالإنسان عن خوض المعارك، كما أن تحقُّقَ المساواة بين البشر سيجعل إنسان ما بعد التاريخ فاقدًا لحسِّ المغامرة والشجاعة والتطلُّع نحو الأسمى، ولن يكون هناك غايات عظيمة، وبالتالي سينتهي التفوُّق والإبداع والانتصارات الكبرى، وسيتراخى الإنسان، وسيهتمُّ بالرفاهية والمتعة[1].

وحتى لا تكون اللحظة بهذه المأساوية، فإن فوكوياما يستدعي أفكار نيتشه على استحياء؛ إذ إن نيتشه - وهو المعروف بفيلسوف القوَّة- رافض للأخلاق، كاره للرحمة والشفقة، مندفع في أطروحاته نحو تحقيق الفرد السوبر مان، ويرى بأن هذا هو غاية المجتمعات وهدفها النهائي.

إلاَّ أن فوكوياما مضطر إلى أن يستدعي نيتشه - وإن كان على وَجَلٍ- لكي يحول دون أن تصير نهاية التاريخ بهذه المأساوية، إذ لا بُدَّ أن نعترف بأن ثمة فروقًا بين البشر، ولا بُدَّ من التعامل مع هذه الفروق بما يُشبع ميل كل إنسان إلى الاعتراف به، فلا بُدَّ من النظام الليبرالي الرأسمالي أن يضع ثمة منافذ تخرج فيها هذه الطاقات الإنسانية الساعية لتحقيق الذات، وليكن هو المجال الاقتصادي والتجاري كما يقترح فوكوياما.

***

إن نظرية فوكوياما غير صدامية، على الأقل في شكلها الخارجي، إلاَّ أنها تُرَسِّخ بعض المفاهيم التي تتطوَّر تلقائيًّا نحو الصدام، ولقد حدث هذا مع فوكوياما نفسه - وربما دون أن

---

(١) فوكوياما: نهاية التاريخ ص٢٧٣ وما بعدها.

يشعر- إذ أدَّت به أفكاره إلى الصدام في لحظة من اللحظات إلاَّ أنها لحظة كاشفة.. كيف؟

نظرية فوكوياما تُرَسِّخ التفوُّق الغربي، والشعور بالمركزية والأنا، وتُثبت على طول الخط أنها التجربة الوحيدة التي تنجح، والتي ينبغي على البشرية أن تتطلَّع إليها وتلهث وراءها في محاولة اللحاق بها والسير على منوالها.. نحن هنا أمام نوع من العنصرية في تمام الوضوح، وهي عنصرية لا تلبث أن تُترجم نفسها إلى أفعال وأفكار على الأرض، كما لا تلبث أن تصنع لنفسها أعداء، وهم بطبيعة الحال مَنْ لا يقبلون هذه الأفكار أو يُقاومونها.

ولهذا؛ فحين نزل فوكوياما من عالم أفكاره المثالية إلى أرض الواقع، قسَّم الدول في العالم إلى قسمين: دول تاريخية، ودول ما بعد التاريخ؛ الدول التاريخية هي الدول المتخلِّفة التي لم تصل بعد إلى الليبرالية الرأسمالية، وأما دول «ما بعد التاريخ» فهي الدول المتقدِّمة.

وكان لا بُدَّ أن يحلَّ مشكلات الواقع بطريقة صدامية؛ ذلك أن الدول التاريخية تُنَغِّص حياة الدول ما بعد التاريخ بثلاث مشكلات:

١- النفط: «إنتاج النفط لا يزال مُرَكَّزًا في العالم التاريخي، وهو حيوي بالنسبة للرخاء الاقتصادي لعالم ما بعد التاريخ... إن النفط لا يزال السلعة الوحيدة التي يتركَّز إنتاجها بصورة كافية في منطقة معينة، بحيث يمكن التلاعب في سوقه أو زعزعته لأسباب سياسية، وهو ما قد يُؤَدِّي على الفور إلى عواقب اقتصادية مدمِّرة بالنسبة لعالم ما بعد التاريخ»[(١)].

٢- الهجرة: «فهناك الآن سيل مطَّرد من أناس من دول فقيرة غير مستقرَّة يتدفَّق على الدول الغنية الآمنة، وهو ما أثَّر في كل الدول تقريبًا في العالم المتقدِّم... سيضمن هذا السيل من الناس استمرار اهتمام دول ما بعد التاريخ بالعالم التاريخي، إمَّا للوقوف في وجه هذا السيل، أو لأنَّ هؤلاء المهاجرين الجدد قد دلفوا إلى النظام السياسي، وبدءوا يدفعون مضيفيهم الجدد إلى التورُّط بصورة أكبر في شئون الدول التي قَدِمُوا منها»[(٢)].

٣- التسلُّح: «بصرف النظر عمَّا تُشَكِّله دول تاريخية معينة من خطر على جيرانها، سيكون

---

(١) فوكوياما: نهاية التاريخ ص٢٤٣.
(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها.



لدول كثيرة من دول ما بعد التاريخ مصلحة مجرَّدة في منع انتشار تكنولوجيات معينة إلى العالم التاريخي، على أساس أن ذلك العالم هو أكثر عرضة لحدوث الصراعات والعنف فيه... ستكون لدى ديمقراطيات ما بعد التاريخ مصلحة مشتركة في حماية نفسها من الأخطار الخارجية، وفي نشر قضية الديمقراطية في الأقطار التي لا تُوجد بها الآن نظم ديمقراطية»[١].

وما كان من فوكوياما وهو يُفَكِّر في هذه المشكلات -بوحي من نظريته- إلاَّ أن يقول: «ستظلُّ العلاقة بين النظم الديمقراطية والنظم غير الديمقراطية تتميَّز بالشكِّ والتخوُّف، وسيظلُّ استخدام القوَّة هو الحكم النهائي في العلاقات بينها»[٢].

إن فكر فوكوياما هذا هو الذي أدَّى إلى احتلال العراق، فبالمقياس الفوكويامي، تُعتبر العراق دولة تاريخية: لديها بترول تحتاجه الدول المتقدمة، ويتدفَّق منها عدد كبير من المهاجرين، وتحاول الحصول على أسلحة!

* * *

وفوكوياما إذ يُقَسِّم العالم إلى دول تاريخية ودول ما بعد التاريخ كان يتَّفق مع الرأي الذي قال به كثير من الباحثين، ومنهم هنتنجتون وبروس روسيت[٣] Brucet Russett وغيرهما، وهو الرأي القائل بأن الدول الديمقراطية لا تحارب مثيلاتها في الديمقراطية؛ ومن ثَمَّ -حسب هذه الرؤية- يكون انتشار الديمقراطية في العالم سبيلاً نحو تحقُّق السلام العالمي[٤].

ونحن نتَّفق مع هذا الرأي؛ ذلك أن الحكم الدكتاتوري مرهون برأي شخص قد يدفع لقيام حرب؛ ولذلك كانت أميركا تسعى، في مرحلة من المراحل، أن تنشر الديمقراطية في العالم، لكن.. للأسف الشديد، وبأثر من غياب البعد الأخلاقي وتسلُّط المصالح، فإن أميركا لا تتردَّد في تمويل ودعم دول دكتاتورية لتحقيق مصالحها.

---

(١) المرجع السابق ص٢٤٤.

(٢) فوكوياما: نهاية التاريخ ص٢٤٤.

(٣) بروس روسيت Brucet Russett (١٩٣٥م-..): عالم أميركي شهير، أستاذ العلوم السياسية وأستاذ في الدراسات الدولية بجامعة بيل الأميركية، عمل رئيس تحرير مجلة حل النزاعات (١٩٧٣-٢٠٠٩م). من كتبه: الاتجاهات في عالم السياسة الدولية، والأمن الدولي والصراع.

(٤) فوكوياما: نهاية التاريخ ص٢٤٥ وما بعدها.

وليس أدل على هذا مما حدث في الجزائر في الوقت ذاته الذي خرجت فيه نظرية فوكوياما إلى الوجود، حيث فازت الجبهة الإسلامية للإنقاذ بالانتخابات النزيهة في الجزائر، ثم أوحى عالم ما بعد التاريخ إلى أوليائه في العالم التاريخي، فانقلب الجيش الجزائري على الانتخابات النزيهة وتسبَّب في مجازر مروِّعَة، وتمَّ سحق الديمقراطية لحساب الحكم العسكري، الذي لا تحبذه دول ما بعد التاريخ.

أيضًا ما حدث مؤخَّرًا في فلسطين عام ٢٠٠٦م؛ حيث فازت حركة المقاومة الإسلامية حماس في الانتخابات النيابية التي تمَّت بنزاهة، غير أن هذا «التحوُّل الديمقراطي» وُوجه من قبل أميركا، ومن ورائها «عالم ما بعد التاريخ» بالصدود، بل بالحصار والمواجهة وسلوك كل سبيل نحو إضعاف حماس وإسقاطها من الحكم.

***

كان فوكوياما متفائلاً في نظريته إلى أبعد الحدود، وكان يتحدَّث عن انتهاء كل النظم غير الليبرالية، وحين أتى على الحديث عن الإسلام لم يستطع أن يقول بأنه انتهى، وإنما قال بأن انتهاءه في حاجة إلى المزيد من الوقت.

قال: «صحيح أن الإسلام يُشَكِّل أيديولوجيا متسقة ومتماسكة شأن الليبرالية والشيوعية، وأن له معاييره الأخلاقية الخاصَّة به، ونظريته المتصلة بالعدالة السياسية والاجتماعية، كذلك فإن للإسلام جاذبية يمكن أن تكون عالمية، داعيًا إليه البشر كافَّة باعتبارهم بشرًا لا مجرَّد أعضاء في جماعة عرقية أو قومية معينة، وقد تمكَّن الإسلام في الواقع من الانتصار على الديمقراطية الليبرالية، حتى في الدول التي لم يصل فيها إلى السلطة السياسية بصورة مباشرة، وقد تلا نهاية الحرب الباردة في أوربا على الفور تحدِّي العراق للغرب، وهو ما قيل - عن حقٍّ أو عن غير حقٍّ - عنه: إن الإسلام كان أحد عناصره.

غير أنه بالرغم من القوَّة التي أبداها الإسلام في صحوته الحالية، فبالإمكان القول: إن هذا الدين لا يكاد تكون له جاذبية خارج المناطق التي كانت في الأصل إسلامية



الحضارة[١]... ورغم أن نحو بليون نسمة يدينون بدين الإسلام؛ أي خمس تعداد سكان العالم، فليس بوسعهم تحدِّي الديمقراطية الليبرالية على المستوى الفكري، بل إنه قد يبدو أن العالم الإسلامي أشدَّ عرضة للتأثُّر بالأفكار الليبرالية على المدى الطويل من احتمال أن يحدث العكس؛ حيث إن مثل هذه الليبرالية قد اجتذبت إلى نفسها أنصارًا عديدين وأقوياء لها من بين المسلمين على مدى القرن ونصف القرن الأخيرين، والواقع أن أحد أسباب الصحوة الأصولية الراهنة هو قوَّة الخطر الملموس من جانب القيم الغربية الليبرالية على المجتمعات الإسلامية التقليدية»[٢].

وبعد عشرين سنة من صدور هذا الكلام عن فوكوياما يبدو أن الحقيقة أبلغ من الكلام، فلا تزال الصحوة الإسلامية تكتسب أرضًا جديدة في كل يوم، كما لا تزال الليبرالية والتغريب يُعانيان الأزمة في المجتمعات الإسلامية، وما توقَّع فوكوياما أن يحدث بعد مزيد وقت، توقَّع هنتنجتون -عن حقٍّ- أنه لن يحدث أبدًا، وأن المسلمين لن يتغرَّبوا أبدًا.

غير أن هنتنجتون فسَّره في إطار صدامي كامل، وهذا ما نناقشه في الصفحات القادمة.

---

(١) وهذا ما يثبت الواقع في كل يوم أنه غير صحيح، حتى في العالم الغربي وفي أميركا نفسها، يظل الإسلام أكثر الديانات انتشارًا.

(٢) فوكوياما: نهاية التاريخ ص٥٦، ٥٧.

هنتنجتون.. ونظرية صدام الحضارات

يقول روبرت جرين[١]: «ظلَّ صانعو السياسات الأميركية تائهين في البحث عن معالم ذلك النظام الجديد من دون العثور على أية مؤشِّرات ملموسة لها، بل فُوجئوا بلطمة الأحداث في البوسنة والصومال وكشمير وطاجيكستان ومناطق أخرى في العالم، ولم يتمكَّن هؤلاء من وضع استراتيجية يمكن اتباعها عند التعامل مع كل حدث من تلك الأحداث أو جميعها، ولذلك لجأوا إلى التحذير من حقبة حالكة، حقبة تسود فيها الفوضى والاضطرابات، ولقد وجد هؤلاء ضالتهم في نظرية صمويل هنتنجتون»[٢].

***

كان هنتنجتون أبصر بالواقع وأكثر عملية من فوكوياما، وكان أكثر صدامية كذلك، بل إنه وضع الأساس الفلسفي للصدام، ما جعل عملية الصدام نفسها تكتسب نوعًا من الشرعية.

يرى هنتنجتون في عالم ما بعد الحرب الباردة، أن الشعوب تبحث عن هويتها وتتعلَّق بها، كذلك رموز الهوية؛ مثل: الصليب والهلال وغطاء الرأس؛ إذ إن الهوية الثقافية هي الأهم بالنسبة لمعظم الناس؛ ذلك أنها تُعَرِّفهم بأنفسهم وبأعدائهم وتُحَدِّد لهم رسالتهم ومعاركهم وأعداءهم في الحياة، وإذًا فعالم ما بعد الحرب الباردة هو عالم منقسم إلى «حضارات»، عامل التقسيم فيه هو «الهوية الثقافية». هذه هي خلاصة مدخل الكتاب الذي قَسَّمه إلى خمسة أبواب.

ناقش في الباب الأول ذلك الشيء المستجدَّ، وهو وجود أقطاب وحضارات متعدِّدَة

---

(١) روبرت جرين Robert Greene (١٩٥٩م-..): كاتب أميركي معروف من أسرة يهودية، تتمركز كتبه حول فن استراتيجيات الحروب والإغراء، من كتبه: فن الإغراء.

(٢) روبرت جرين: أزمة الحضارات في القرن العشرين، ترجمة: عمر ديوب، مجلة المجتمع. نقلاً عن: محمد سعدي: مستقبل العلاقات الدولية ص٨٨.

تصنع «ثقافة كونية متعدِّدَة الأقطاب»؛ ففي القديم لم يكن هذا ليحدث لانقطاع الاتصالات بين الحضارات، ومنذ عام ١٥٠٠م كانت «السياسة الكونية» ذات قطبين (بريطانيا / فرنسا - النمسا / بروسيا - أميركا / الاتحاد السوفيتي).

وهو يقول بأنه لا بُدَّ للعالم أن يتشكَّل وَفق العوامل الثقافية والحضارية، فالدول التي تحاول جمع الاختلافات الثقافية تحت سلطة واحدة تنهار كما في الاتحاد السوفيتي والاتحاد اليوغوسلافي، أو تتعرَّض لتوتُّر شديد ودائم كما في السودان والهند، بينما الدول «التي بينها صلات قربى ثقافية»[١] ناجحة سياسيًّا واقتصاديًّا؛ ولذا فخطُّ الصراع الحضاري العالمي الآن هو الخطُّ الفاصل بين الشعوب الغربية من جهة، وبين الشعوب الإسلامية والأرثوذكسية من جهة أخرى، صحيح أنه يمكن للثقافات والحضارات أن تتطوَّر وتُنتج أنظمة سياسية واقتصادية، لكن تظلُّ الاختلافات بين الحضارات ذات جذور عميقة؛ فالتطوُّر الاقتصادي في آسيا له جذور في الثقافات الآسيوية (!)، وفشل الديمقراطية في العالم الإسلامي راجع إلى الثقافة الإسلامية (!!!!)، وبينما تتقدَّم الشعوب المسيحية الغربية سياسيًّا واقتصاديًّا فإن المسيحية الأرثوذكسية لا يبدو تقدُّمها مؤكدًا (!!!!!)[٢].

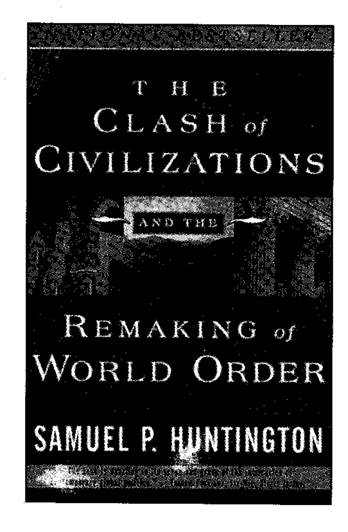
ويرفض هنتنجتون الوهم القائل بإمكانية الوصول إلى عالم واحد تحكمه ثقافة واحدة، فهو يرفض مقولة فوكوياما عن «نهاية التاريخ» وسيادة الليبرالية كأسلوب عالمي في الحكم، كما يُؤَكِّد على فشل نمط التحديث الغربي في جعل المجتمعات غربية.

ويُناقش في **الباب الثاني** تدهور الغرب وتناقص تأثيره من بعد مرحلة السيطرة الكاملة، التي استمرَّت في القرنين السابقين، بالشواهد التي تُؤَكِّدها الأرقام عن التراجع في النفوذ والأرض والاقتصاد، في مقابل النموّ المتزايد لدى الحضارات الأخرى بشريًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا وعلميًّا، لا سيما الهند والصين، و«الانفجار» السكاني الإسلامي، كل هذا يُضَيِّق الفجوة بين الغرب وغيره.

---

(١) إن تلاعبه بالألفاظ مثير للدهشة، فهو يريد أن يقول: إن شعب السودان أو الهند في توتر شديد ودائم؛ لأنه غير متجانس ثقافيًّا. ويُريد في الوقت نفسه أن يَدَّعِيَ أن الغرب متجانس ثقافيًّا، بينما الفروق الواضحة والاختلافات الواسعة في الغرب كاللغة والحروب والتيارات الفلسفية تمنعه من أن يَدَّعِيَ هذا، فهو يتلاعب باللفظ ليقول: إنها «صلات قربى ثقافية». ثم يستند إلى هذا في دعوته للتكتل الغربي الحضاري.

(٢) هذا نوع معقَّد من الاعتساف والخطأ معًا، ودليل على جهل الرجل بالثقافات أولاً.





هنتنجتون .. ونظرية صدام الحضارات

صورة رقم (٢٢)





كذلك نموّ الثقافات المحلية في مقابل انحسار التأثر بالغرب، واتخاذ الجامعات اللغات المحلية في التدريس إذلم تَعُدْ محتاجة إلى ما اضطر إليه الجيل الأول من احتكاك بالغرب لينشئوا هذه الجامعات، ثم إن الجيل الثاني تمرَّد على الجيل الأول المتأثِّر بالغرب، بل حتى الجيل الأول ظهر منهم مَنِ استطاع أن يستوعب الغرب ويتمرَّد عليه ويتبنَّى الهوية المحلية، والحكومات الموالية للغرب هي دائمًا عرضة للانقلاب عليها، وحين تُطَبَّق الديمقراطية يصل المتمرِّدون على الغرب إلى السلطة.

الحضارات غير الغربية تُؤَكِّد على هويتها، لا يُفكِّر المسلمون في «تحديث الإسلام»، وإنما في «أسلمة الحداثة»، كذلك في الكونفوشيوسية، وفي الهند، بل في الاتحاد السوفيتي الذي –بعدما كان معقل الشيوعية– يجتاحه مدٌّ ديني كبير، هذه الصحوات –بحسب هنتنجتون– هي ردُّ فعل على التغريب، وأطلق عليها مصطلح «ثأر الله».

وباعتباره مخطِّطًا استراتيجيًّا، فهو لم يقف عند حدِّ التحليل، بل حدَّد مناطق الخطر والمشكلة، أو قُلْ: بؤرة الصراع القادمة. وقد انحصر هذا لدى هنتنجتون في الحضارتين الآسيوية والإسلامية: أمَّا الآسيوية فللنموِّ الاقتصادي الكبير الذي حقَّقُوه دون أن يتغرَّبُوا، بل حقَّقُوه بعد زوال الاستعمار الغربي، ما يجعلهم يُوقنون بعدم الحاجة إلى التغرُّب، وأمَّا الإسلامية فلأنَّ المسلمين –وهم أعداد غفيرة تُمَثِّل خمس العالم– تجتاحهم صحوة إسلامية كبرى، حتى لقد أصبح فشل الليبرالية ظاهرة متكرِّرة في المجتمعات الإسلامية.

والمؤشر الأظهر على ثورة قادمة هو تلك الزيادة الرهيبة في أعداد المسلمين لا سيما الشباب، ودائمًا ما ارتبطت الثورات بزيادة طبقة الشباب في المجتمع.

وفي **الجزء الثالث** يُريد –لا أقول يناقش ولا يستعرض، بل يُريد ويعتصر المُشَاهد عصرًا ويمتصُّ الأدلة امتصاصًا لتُؤَيِّد رؤيته– للغرب أن يصنع النظام العالمي الجديد بالاستناد إلى اشتراكه في «علاقات قربى ثقافية» (انظر الاعتصار) ويجتمع حول دولة المركز القائدة في حضارته (أميركا)؛ وذلك ضروري للغرب؛ إذ إن الصراعات لن تنتهي، فلا المسلمون والهندوس يستطيعون الاتفاق على بناء مسجد أو معبد، ولا الفلسطينيون والصهاينة يمكنهم

أن يتوصَّلوا إلى حلول مرضية للطرفين، كذلك في كوسوفا وألبانيا، ذلك أن الصراعات المرتبطة بالهوية لا تقبل الحلول الوسط، إما نعم وإما لا، لا يمكن لفرنسا أن تسمح بارتداء المسلمات الزي الإسلامي في المدرسة، كما لن تقبل المسلمة أن تلبس ثوبين أحدهما للمدرسة والآخر لفترة الصيف.

ثم -يُضيف هنتنجتون- إن الكره شيء إنساني، لا بُدَّ من وجود كره، وإذًا فلا بُدَّ من وجود الآخر، لا بُدَّ لتعريف النفس من وجود أعداء، وإذا اختفى عدوٌّ فلا بُدَّ من صناعة عدوٍّ آخر، وهذا يتمُّ في عالم اليوم بناءً على الصيغة الحضارية؛ لأنه حتى القرب المكاني مع الاختلاف الثقافي لا يُنتج تعاونًا متينًا معتمدًا على الثقة.

وفي الجزء الرابع يَنْهَى الغرب عن محاولاته صُنع حضارة عالمية؛ لأن هذا يضعه في توتُّر مستمرٍّ مع الحضارات الأخرى، «وأخطرها الإسلام والصين»، كما أن هذه المحاولات ستُؤَدِّي إلى «تجمع الدول المتقاربة» أمام التهديد الحضاري الغربي، بما سيُؤَدِّي إلى تصعيد أوسع وحروب وجهود أكبر[1].

وفي الجزء الخامس يرسم خريطة طريق لتكتل الغرب الحضاري، فعلى الأميركيين أن يُؤَكِّدوا على هويتهم الغربية، وعلى الغربيين أن يؤمنوا بأن حضارتهم حضارة فريدة وليست عامة (لا يمكن تعميمها).

***

لكي يصنع هنتنجتون نظريته، ويُدلل عليها استخلص بعض الصفات «المميزة» للغرب، ولم يمانع في أن كل صفة من هذه الصفات إنما يشترك فيها الغرب مع حضارة أخرى، غير أن اجتماعها معًا في توليفة واحدة هو ما «يميز» الغرب، الثغرة الكبرى أن هذه السمات المميزة إنما ترجع لعصر النهضة الغربية الذي بدأ في إيطاليا، فهو -إذًا- غير مترسِّخ ولا متجذِّر في تاريخ الإنسان الأوربي.

---

(١) وبعد وصوله إلى هذه النتيجة لا يُفكِّر في دعوة الغرب لاحترام خصوصيات الآخر، والكف عن تهديداته الحضارية، بل هو يقف على هذه النتيجة ليدعو إلى التكتل الغربي الحضاري؛ ليكون أقوى وأقدر في جولة الصراع القادمة.

إن هنتنجتون لم يكن فيلسوفًا أو باحثًا نزيهًا حين كان يتحدَّث عن صراع الحضارات، بل هو «مخطط استراتيجي»؛ أي: إنه لم يبحث عن «الحقيقة» أو عن «هدف إنساني»، بل انصب تركيزه على البحث عن نظرية تستفيد منها الولايات المتحدة الأميركية في تحقيق مصالحها الذاتية الآنية الأنانية بغضِّ النظر عن أي اعتبار آخر. وأوضح دليل على هذا ما كتبه هنتنجتون في مقاله بعدد أكتوبر ١٩٩٧م من مجلة «الشئون الخارجية»، والذي عَبَّر فيه عن قلقه الكبير من أن المجتمع الأميركي متعدِّد ثقافيًّا، بما يُشير إلى أن التناقضات الثقافية ستُؤَدِّي إلى السقوط؛ لذا فلا بُدَّ من البحث عن شيء يُوَحِّد الشعب الأميركي ويشغله عن تناقضاته الداخلية؛ ولذا فهو يأسف أنه لا يوجد عدوٌّ خارجي لأميركا في هذه اللحظة؛ فالعالم الإسلامي ضعيف ومشتَّت، والصين لا تبلغ أن تكون عدوًّا في هذه اللحظة. وإذًا فما العمل؟

هنا يجيب هنتنجتون هذه الإجابة المتوحشة المعبِّرَة عن مستعمر انتهازي لا يهمُّه إلاَّ مصلحته الشخصية الأنانية الآنية العاجلة فيقول: «نحن بالأحرى في حاجة للبحث عن أهداف لاستخدام القوة الأميركية للقيام بدورها في العالم، والخطر هو فَقْدُ الهيمنة الفعلية، والمصلحةُ القوميةُ هي القمع القومي (!!)، وهذه فيما يبدو هي المصلحة القومية الوحيدة التي يرغب الشعب الأميركي في دعمها في هذا الوقت من تاريخهم»(١).

***

خطورة هذه النظرية في أنها نابعة من رجل كان يُؤَثِّر في السياسة الخارجية الأميركية، فتحوَّلت النظرية بنفسها إلى أفعال، أو حتى إلى مبرِّر لهذه الأفعال وغطاء لها، ومن الخطورة - أيضًا- أنها جاءت في اللحظة المتفائلة التي انهار فيها المعسكر الشيوعي فَكَثُر فيها الحديث عن «السلام الدولي»، وعن «النظام الدولي الجديد»، وعن «الشرعية الدولية»... وما إلى ذلك من مصطلحات تحمل ثقافة التعايش، جاءت لتُهَيِّئ العالم الغربي إلى عداء حتمي مستقبلي مع أعداء جدد، فترشّح الإسلام والصين.

فالمشكلة في نظرية هنتنجتون ليست في توقُّع الصدام بين الحضارات بقدر ما هي في تهيئة

---

(١) صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات ص٢٦، ٢٧ (مقدمة صلاح قنصوه).

النفس لقبول الصراع، بل الدعوة إلى الصراع، وليس هذا فحسب، بل إنها تستنتج عبر مغالطات كثيرة أن الإسلام صدامي بطبيعته، وأن على الغرب أن يتوقَّع منه الصدام.

وهو يُدَلِّل على صدامية الإسلام بأن حدود العالم الإسلامي حدود دموية[١]، ولو أنه توقَّف وسأل مَن المعتدِي ومَن المعتدَى عليه عند هذه الحدود؟ ومَنِ الذي جعلها دموية؟ فلربما كان له رأي آخر إن كان حقًّا نزيهًا متجرِّدًا للمعرفة.

***

ومن ثغرات النظرية -أيضًا- تبسيط موضوع الصراع وجعله «ثقافيًّا» فقط، مهملاً عوامل أخرى تُنتج صراعات، وخاصة مع طغيان المادة وبالتالي النظر إلى العوامل الاقتصادية، ولا شكَّ أن العوامل الثقافية مهمَّة في موضوع الصدام بين الشعوب، لكنها ليست العامل الوحيد، فمن ضمن ما وقع فيه من تناقضات ما رآه من «تحالف إسلامي كونفوشيوسي» في مواجهة الغرب في مجال التسليح وحقوق الإنسان[٢]، فالناظر إلى الثقافة فقط سيرى تباعد ما بين هاتين الثقافتين، ولكن الأَوْلى أن يُفَسَّر هذا في إطار «المصلحة المشتركة»، ولو أننا أحصينا المرَّات التي تمَّ فيها استيراد السلاح فسنجد أن العالم الإسلامي يستورد الكمية الأكبر من مخزونه التسلحي من العالم الغربي، فأين نذهب بالعامل الثقافي في كل هذا؟

حتى تقسيمه للحضارة على اعتبار العامل الثقافي أمر لا يرتفع عن الشكِّ، كما أنه ليس أمرًا مطردًا ولا مستويًا في تقسيمه هذا، فهو يُقَسِّم على أُسس متباينة، فتارة يستخدم الدين (الحضارة الإسلامية)، وتارة يستخدم العرق (الحضارة الصينية)، وتارة يستخدم الجغرافيا (الحضارة الهندية)!!

لكن حقيقة التقسيم أنه نظر إلى القوى الحالية، واعتبر كل قوَّة حضارة منفصلة، ولا نتوقَّع أن لو كانت اليابان ضعيفة أن يُفردها كحضارة من بين تقسيمته للحضارات.

---

(١) صمويل هنتجتون: صدام الحضارات ص٤١٦ وما بعدها.
(٢) المرجع السابق ص٣٠٢ وما بعدها.

كذلك بدا هنتنجتون غافلاً تمامًا في تقسيمته للحضارات عن دور الدولة، والواقع أن الدول والكيانات السياسية تبحث عن مصالحها الذاتية والعاجلة بأكثر من بحثها عن المصلحة الحضارية، والحقُّ أن أيَّ تحليل يُهمل عامل «المصلحة المشتركة» في تتبُّعه لسياسات الدولة إنما هو تحليل ناقص.

ومع ذلك فنحن نقول: إن المصلحة الحضارية كثيرًا ما تكون فاعلة في تفسير بعض التوجُّهات للدول والكيانات السياسية، لا سيما لدى المتدينين والمتمسكين بالهوية والخصوصيات الثقافية؛ ذلك أن هؤلاء قد يتصارعون من أجل المصلحة الحضارية، حتى لو تعارض مع مصالحهم الذاتية والعاجلة، يستوي في هذا المتدينون في كل دين: المسلمون، اليمين المسيحي، اليهود الأرثوذكس، وكذلك أصحاب الديانات الوثنية، ولعلَّنا نرى ذلك في وقوف اليمين الأميركي البروتستانتي بكل قوَّة خلف اليهود منذ إقامة وطن قومي لهم في فلسطين وحتى هذه اللحظة، خاصَّة أن هذا الوقوف قد يتعارض في كثير من اللحظات مع المصلحة الأميركية، إلاَّ أن المنطلق العقدي المؤمن بعودة المسيح مرَّة أخرى بشروط يُحَقِّقُهَا وجود الكيان الصهيوني يعلو فوق أي منطلق آخر.

***

من المؤسف أن هنتنجتون ينظر إلى التاريخ البشري من باب الصراع والصدام، فهو لا يرى التفاعلات الحضارية الأخرى؛ العلمية والثقافية والاقتصادية، بل يرى الصراع فقط، ثم إنه يُعَمِّقه ويُرَسِّخه ويجعله من «ضرورات الحياة» ومن «قوانين الطبيعة»[1]؛ ومن ثَمَّ فإن الضرورة المترتبة على هذا هو أن «تأكل قبل أن تُؤكل».

(١) يستشهد هنتنجتون بفقرة من رواية ديبون «البحيرة الميتة» تقول: «لا يمكن أن يكون هناك أصدقاء حقيقيون دون أعداء حقيقيين، إن لم نكره ما ليس نحن، فلن يمكننا أن نحب ما هو نحن، تلك هي الحقائق القديمة التي نعيد اكتشافها بألم بعد قرن أو أكثر من النفاق العاطفي، والذين يُنكرونها إنما يُنكرون أسرتهم وتراثهم الثقافي وحق الميلاد. إنهم ينكرون ذواتهم نفسها. ولن يُعفى عنهم ببساطة». صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات ص٣٦، ٣٧.

وهذه النظرة السوداء للإنسان لا بُدَّ أن تُنتج الكوارث، وكان الأَوْلى به أن يقول بأن الحب مشترك إنساني عام، وأن الإنسان لكي يجد نفسه ويسعد حياته لا بُدَّ له من أصدقاء، وليس أعداء.

هذه المقولة نشرها الإعلام الغربي بكثافة، ومن المعروف أن القارئ الغربي ذو ثقافة محدودة، فإذا قامت مثل هذه النظرية بشحن هذا القارئ ضد الحضارات الأخرى وتحفيزه للصدام، فإن ذلك واقع لا محالة، المثير في الأمر أن هنتنجتون حشد نظريته بأدلة مغلوطة تُركِّز على نقاط التصادم، مهملاً عن عمد نقاط التعايش.

***

ومن الواضح في النظرية اعتمادها على التضخيم والتهويل لإثارة الفزع، ومن ثَمَّ يكون هناك مبرِّر للصدام المروِّع، وهذه -في الحقيقة- رؤية يُفَضِّلها الكثير من السياسيين في الدول العسكرية، كما كان في الاتحاد السوفيتي والعراق وكوريا الشمالية.

لقد قدَّم هنتنجتون صورة مروِّعة للعالم في ٢٠١٠م توقَّع فيها الآتي: «تتعاظم ثقة الصين بنفسها فتعلن أنها سوف تفرض سيطرتها على البحر بكامله، وعلى كل ما كانت تطالب بالسيادة عليه. الفيتناميون يقاومون، وينشب القتال بين السفن الحربية الصينية والفيتنامية، الصينيون المتلهِّفون للانتقام بسبب الإذلال الذي لحق بهم في سنة ١٩٧٩م يقومون باحتلال فيتنام. الفيتناميون يطلبون المساعدة من أميركا. الصينيون يُحَذِّرون الولايات المتحدة لكي تظلَّ بعيدة. اليابان ودول آسيا الأخرى يرتعدون خوفًا. الولايات المتحدة تُعلن أنها لن تقبل أن تقهر الصينُ فيتنامَ، وتطالب بفرض عقوبات اقتصادية على الصين، وتدفع بقواتها المحمولة الباقية إلى بحر الصين الشمالي. الصينيون يستنكرون ذلك، ويعتبرونه انتهاكًا لمياههم الإقليمية ويُوَجِّهون ضربات جوية للقوة الأميركية. جهود السكرتير العام للأمم المتحدة ورئيس وزراء اليابان لوقف إطلاق النار تفشل، وينتشر القتال ليعمَّ مناطق أخرى في آسيا، اليابان تحظر استخدام القواعد الأميركية الموجودة على أراضيها في العمل ضد الصين، ولكن الولايات المتحدة تتجاهل هذا الحظر. اليابان تُعلن حيادها وتقوم بعزل القواعد. الغواصات

والطائرات التي تعمل من قواعد في تايوان والبر الرئيسي تُنزل خسائر فادحة بالسفن الأميركية وتسهيلاتها في شرق آسيا. في الوقت نفسه تدخل القوات البرية الصينية هانوي وتحتلُّ أجزاء كبيرة من فيتنام. وحيث إن كلاً من الصين وفيتنام لديها صواريخ قادرة على توجيه الأسلحة النووية إلى أراضي الآخر، يحدث تحفُّظ ضمني، ولا تُستخدم هذه الأسلحة في المراحل الأولى من الحرب، إلاَّ أن الخوف من مثل هذه الهجمات موجود في كلا المجتمعين، وهو أقوى في الولايات المتحدة؛ لذا يبدأ الكثير من الأميركيين في التساؤل: لماذا يتعرَّضون لهذا الخطر؟ وما الفرق إذا سيطرت الصين على بحر الصين الجنوبي وفيتنام، أو حتى على جنوب شرق آسيا بالكامل؟

معارضة الحرب قوية وبخاصة في الولايات المتحدة... وبعد أن يُعَزِّز الصينيون انتصاراتهم الأولية في شرق آسيا يبدأ الرأي العام الأميركي في الضغط باتجاه انتهاء الحرب.. إلاَّ أن هذه الحرب لها تأثير في الوقت نفسه على الدول الرئيسة في حضارات أخرى؛ فالهند تنتهز الفرصة التي تُتيحها لها الصين بتقيدها بشرق آسيا؛ لكي تشنَّ هجومًا ساحقًا على باكستان، وفي ذهنها تجريد تلك الدولة من قدراتها العسكرية النووية والتقليدية، الهند تنجح في البداية، ولكن التحالف العسكري بين باكستان وإيران والصين ينشط، وتهرع إيران لمساعدة باكستان بقوات عسكرية حديثة ومتقدِّمَة. الهند تغوص في مستنقع الحرب مع قوات إيرانية وعصابات باكستانية من جماعات إثنية كثيرة مختلفة، كلٌّ من الهند وباكستان يلجأ إلى الدول الإسلامية طلبًا للمساعدة...»[(١)].

ويستمرُّ هنتنجتون متوقِّعًا أن الانتصارات الصينية تُثير تحرُّكَات معادية للغرب في العالم الإسلامي فتسقط الحكومات الموالية للغرب في العالم العربي وتركيا تباعًا، ثم تُؤَدِّي مجموعة هذه التفاعلات إلى هجوم عربي شامل على الكيان الصهيوني الذي يُعتبر الصورة المصغَّرة للولايات المتحدة، ثم ومع استمرار الانتصارات الصينية سيتحوَّل موقف اليابان من الحياد إلى الانحياز إلى الصين فتهاجم القواعد الأميركية التي على أرضها، فما تلبث أن تسحبها

---

(١) هنتنجتون: صدام الحضارات ص٥٠٦ وما بعدها.

أميركا على عجل، ثم تشتبك السفن الأميركية واليابانية، ولكن روسيا التي يُخيفها التوسُّع الصيني تبدأ في التحرُّك باتجاه معادٍ ضد الصين، فتبدأ اشتباكات روسية صينية... وهكذا استمرَّ هنتنجتون في التوقُّع حتى أدخل العالم كله في الحرب.

هذا الترويع والتفزيع والتنبُّؤ بالصدام الكارثي الكبير مدخل ممتاز لتغطية وتسهيل الزيادة في التسلح، وإقناع الشعوب بالحاجة الضرورية إليه، وهذا يُؤَدِّي إلى معاناة الشعب وتأثُّر الاقتصاد؛ ولذلك فلا بُدَّ من ممارسة قدر كبير من التخويف من المستقبل الرهيب.

كما أن التهويل في حجم الأعداء يصنع إنجازًا كبيرًا في لحظة النصر، كما يصنع بطولة للزعماء، ولقد أصبح هذا متجذِّرًا في الثقافة الأميركية، فالإعلام والأفلام والروايات والقصص وألعاب الكمبيوتر دائمًا ما تبحث عن عدوٍّ: السوفيت، الصينيين، المافيا، العرب. ثم تخرج من عالم البشر إلى الأعداء في عالم الطيور والحيوانات والحشرات والجراثيم، ثم تخرج من عالم الأرض إلى عالم الفضاء فتخلق الأعداء القادمين من كواكب أخرى.

ولهذا كان انتفاء العدوِّ شيئًا خطيرًا، حتى إن جون كريستوف روفان يقول بعد انهيار الاتحاد السوفيتي: «لقد أُصِبْنَا بخوف شديد، انهيار العدوِّ السوفيتي -الذي كنا نعتمد عليه كثيرًا منذ خمسة وأربعين عامًا- أدخل الديمقراطيات في كآبة كبيرة»[١].

ويبدو أن جيورجي أرباتوف (GeorgiyArbatov) وهو مستشار الرئيس السوفيتي جورباتشوف[٢] فَهِم هذا حين قال: «نحن نقوم بأمر مروِّع لكم، فنحن نحرمكم من عدوٍّ»[٣].

***

وإذًا، فلا بُدَّ من البحث عن عدوٍّ، ولقد خلا العالم في هذه اللحظة من عدوٍّ قوي، فليكن ثمة عدوٌّ آخر محتمل، ولقد اتفق الجميع على أنه «الإسلام».

---

(١) محمد سعدي: مستقبل العلاقات الدولية ص١٩٠.

(٢) ميخائيل جورباتشوف (١٩٣١م-..): الرئيس السابع والأخير للاتحاد السوفيتي، أمين عام الحزب الشيوعي، ورئيس الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٨٥م خلفًا لتشرنينكو.

(٣) هنتنجتون: صدام الحضارات ص٢٧، (مقدمة صلاح قنصوه)، ومحمد سعدي: مستقبل العلاقات الدولية ص١٩١.



وصورة الإسلام لدى هنتنجتون يُغَذِّيها -فيما نرى- رافدان؛ الأول: هو التراث الاستشراقي الغربي، والثاني: عقلية هنتنجتون نفسه المهتمَّة بالبحث عن الصدام؛ إذ إنه حتى التراث الاستشراقي الغربي حفل بالكثير من الكتابات والدراسات المنصفة والقيِّمة عن الإسلام وتاريخه وحضارته، لكن هذا النوع لم يكن بالذي يُناسب هنتنجتون وهو يكتب عن الصدام، فمارس انتقائيته التاريخية ليخرج بالصورة النمطية الدموية المتوحِّشَة عن الإسلام؛ إذ إنها الصورة المثلى لكي توضع في نظرية تتوقَّع الصدام وتتنبَّأ به.

ولذا فكثيرًا ما يستشهد هنتنجتون بأقوال برنارد لويس، المستشرق المعروف بتعصُّبِه وميوله الصهيونية، وربما كان لويس هو الذي أوحى إلى هنتنجتون بمصطلح صدام الحضارات؛ إذ يقول: «يجب أن يكون واضحًا الآن أننا نُواجه حالة وحركة تتخطَّى بكثير مستوى القضايا والسياسات والحكومات التي تُتابعها، وهذا ليس أقلَّ من صدام حضارات، والذي ربما كان غير منطقي، ولكنه بالتأكيد ردُّ فعل تاريخي لتنافسٍ قديم ضد تراثنا اليهودي والمسيحي وحاضرنا العلماني وانتشار كل منهما على مستوى العالم»[١].

يُصَرِّح هنتنجتون بأن مشكلة الغرب ليست مع الإرهاب الإسلامي، بل مع «الإسلام: فهو حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بتفوُّق ثقافته وهاجسه ضآلة قوته»، كما أن مشكلة الإسلام ليست مع المخابرات الأميركية أو الأنظمة الغربية بل مع «الغرب: حضارة مختلفة شعبها مقتنع بعالمية ثقافته، ويعتقد أن قوَّته المتفوِّقة -إذا كانت ثقافته متدهورة[٢]- تفرض عليه التزامًا بنشر هذه الثقافة في العالم»[٣].

وعند هنتنجتون فإن الصدام والعنف موجودان في طبيعة الإسلام نفسه؛ لأن الإسلام نشأ في قبائل بدوية متناحرة، ولأن محمدًا كان قائدًا عسكريًّا ماهرًا، ولأن القرآن لا يحتوي على نهي عن العنف، بل إن تعاليم الإسلام تُنادي بقتل غير المؤمنين به، كما أن الإسلام عقيدة

---

(١) هنتنجتون: صدام الحضارات ص٣٤٤، وهو ينقل عن كتاب برنارد لويس «جذور الغضب الإسلامي».

(٢) كان النص المترجم هكذا: «ويعتقد أن قوته المتفوقة إذا كانت متدهورة فإنها تفرض عليه..». وتمَّ تصحيح الألفاظ كما في المتن بعد الرجوع إلى النص الإنجليزي.

(٣) هنتنجتون: صدام الحضارات ص٣٥٢.

استبدادية ترفض الفصل بين الدين والدنيا، وتضع حدًّا بين «دار الإسلام» و«دار الحرب»، ولهذا يمكن للمسيحيين والبوذيين والكونفوشيوسيين والهندوس أن يتعايشوا معًا بسهولة أكبر من تلك التي يتعايش بها المسلمون مع غيرهم. فهذه الأسباب -وهي من طبيعة الإسلام- تُفَسِّر ميل الإسلام للصدام كما يقول هنتنجتون.

ورغم أنه لا ينسى أن يَذْكُر أن من بين الأسباب: الاستعمار الغربي، والضعف الإسلامي الذي استغلَّته جماعات غير إسلامية فقامت تجاه المسلمين بمذابح واسعة، وعدم وجود دولة مركزية إسلامية تقوم مقام القائد الذي يتوسَّط في النزاعات.. إلاَّ أنه يعتبر هذه الأسباب ثانوية وجانبية.

من المؤسف حقًّا أن تكون هذه هي قناعات المفكرين الذين يُؤَثِّرون في مجرى السياسة العالمية، وأن يكون هذا هو مستواهم في البحث عن الحقيقة وتحريها من مصادرها، أو حتى من المصادر الأخرى. ولعلنا ننصح مثل هؤلاء الذين يعتقدون بالطبيعة الدموية للإسلام بأن يقرءوا كتابًا مثل «الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية»، والذي ألفه المستشرق الإنجليزي المعروف توماس أرنولد.

لقد بذل توماس أرنولد جهدًا عظيمًا في تتبُّع كيفية دخول الإسلام إلى كل بلد دخل إليها، فلم يجد حادثة واحدة تقول بالإكراه على الدخول في الإسلام، أو بمحاولة تصفية وإبادة الأقليات غير الإسلامية، أو حتى إنهاء الديانات الأخرى في الأرض الإسلامية؛ يقول: «إن الفكرةَ التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدةٌ عن التصديق... إن نظرية العقيدة الإسلامية تلتزم التسامح وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى»[1].

ويقول: «لم نسمع عن أية محاولة مُدَبَّرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد مُنظَّم قُصِد منه استئصالُ الدين المسيحي، ولو اختار الخلفاء

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص٨٨.

تنفيذ إحدى الخُطَّتَيْنِ لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها (فرديناند[١] وإيزابيلا) دين الإسلام من إسبانيا، أو التي جعل بها (لويس الرابع عشر[٢]) المذهب البروتستانتي مذهبًا يُعاقَبُ عليه مُتَّبِعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظلَّ بها اليهود مُبْعَدين عن إنجلترا مدَّة خمسين وثلاثمائة سنة، وكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انعزلت انعزالاً تامًّا عن سائر العالم المسيحي، الذي لم يُوجد في جميع أنحائه أحدٌ يقف في جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين؛ ولهذا فإن مجرَّد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل في طَيَّاته الدليل القوي على ما أَقْدَمَتْ عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عامٍّ من تسامح نحوهم»[٣].

ولعلَّه كان يردُّ على كل مَنْ يعتبر أن الدموية من طبيعة الإسلام نفسه حين قال: «التسامح إلى أقصى حَدٍّ هو القاعدة المستمدَّة من الأصول الإسلامية»[٤].

***

نظريتا فوكوياما وهنتنجتون، قد تبدوان متعارضتين للوهلة الأولى، إلا أنهما في الجذور وفي الثمار واحد؛ فجذورهما غربية متكبِّرة، ترى في نفسها المركزية العالمية، والقطب المتفوِّق الذي يُمَثِّل أفضل ما أبدع الإنسان في كل تاريخه وفي كل مساحة الأرض شرقًا وغربًا، وبأن كل الحضارات الأخرى لا تبلغ أن تصل إلى القمة التي وصلت إليها الحضارة الغربية، وبأن كل الأفكار المؤثِّرة في تاريخ البشرية والصالحة للحياة إنما نشأت في العالم الغربي.

ثم يتفقان في الثمار، أو في النتائج، فكلا النظريتين يتوصَّل في نهاية الأمر إلى أن ثمة «نحن» و«الآخرين الأعداء»، وأنه لا بُدَّ من امتلاك القوة الكافية والتدخُّل في شئون هؤلاء الآخرين؛ لمنع وصول أحد منهم إلى أن يُهَدِّد مصالحنا، دون أن يتمَّ التوقُّف أمام هذه الكلمة

---

(١) فرديناند الخامس Ferdinand V (١٤٥٢-١٥١٦م): ملك قشتالة، وأراجون. تزوج ابنة عمه إيزابيلا الأولى Isabella I (١٤٥١-١٥٠٤م)، في عام ١٤٦٩م. وقد أدى هذا الزواج إلى اتحاد قشتالة وأراجون أكبر مملكتين في إسبانيا النصرانية، أعلن الحاكمان الحرب الصليبية على غرناطة، وهي آخر معاقل المسلمين في الأندلس، حتى سقطت عام ٨٩٧هـ=١٤٩٢م.

(٢) لويس الرابع عشر (١٦٣٨- ١٧١٥م): من أشهر ملوك فرنسا، وهو الملقب بالملك الشمس؛ لسطوته وهيبته، استمرت فترة حكمه اثنتين وسبعين سنة.

(٣) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص٩٨، ٩٩.

(٤) المرجع السابق، هامش ص٤٦٢.

الفضفاضة المطاطة «مصالح»، ودون أن يُناقش ما إذا كانت هذه المصالح عادلة أم ظالمة؟ مُضِرَّة بشئون الآخرين أم لا؟ هل يمكن أن تتمَّ بالاتفاق والتعاون وتحقيق المصالح المشتركة للأطراف المعنية، أم لا بُدَّ أن تُؤخذ بأقلِّ التكاليف أو بالقوَّة والقهر؟

فمثلما قال فوكوياما من قبل: «سيظلُّ استخدام القوة هو الحكم النهائي في العلاقات»[١]. يقول هنتنجتون بأنه لا بُدَّ من «كبح القوَّة العسكرية التقليدية وغير التقليدية للدول الإسلامية والصينية»[٢].

***

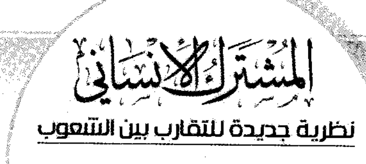
(١) فوكوياما: نهاية التاريخ ص٢٤٤.
(٢) هنتنجتون: صدام الحضارات ص٥٠٤.

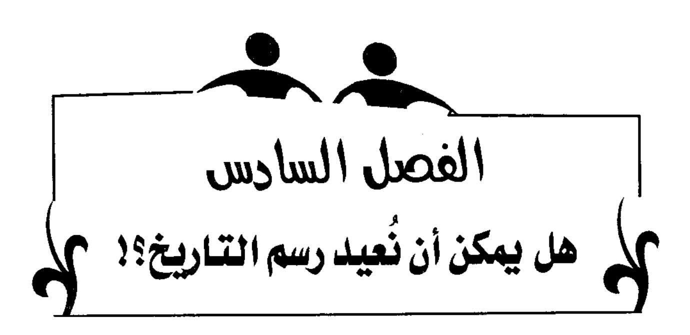
هل يمكن
أن نُعيد رسم التاريخ !!

(الإنسان كائن متجاوز للمادة وللحتميات التاريخية)

عبد الوهاب المسيري







الفصل السادس

هل يمكن أن نُعيد رسم التاريخ؟!

في حياة الشعوب كثير من المنعطفات التي غَيَّرت مسار التاريخ؛ صعدت بها إلى الأعلى، أو هبطت بها إلى الأسفل، والتاريخ -في نهاية الأمر- ما هو إلاَّ رجل وموقف، وعبر سلسلة من الرجال والمواقف يكتب التاريخ أحداثه.

لذا فنحن قادرون على رسم التاريخ، وأن نُوَرِّث لأبنائنا تاريخًا خيرًا من الذي ورثناه عن أجدادنا؛ فلقد ورثنا عنهم من الخبرة ما لم يتوفر لهم، كما سنورث أبناءنا من الخبرات ما يجعلهم قادرين على أن يورثوا أولادهم تاريخًا خيرًا مما ورثوه منا، كل ذلك شريطة أن يتولَّى رسم المسار رجال يؤمنون بالتعايش بين بني الإنسان؛ فيتصرَّفُون في المواقف بما يمليه عليهم الواجب الإنساني.

وهذا ليس من قبيل الأماني؛ فكثير من التجارِب والنماذج استطاعت أن تُعيد رسم مسارها في التاريخ، وأن تنتقل من خضمِّ المشكلات إلى آفاق التعاون والتواصل والتفاهم، وقد اخترنا نموذجين كمثال على هذا الانتقال؛ هما:

- النموذج الإيطالي.
- النموذج التركي.

النموذج الإيطالي

شهد التاريخ الإنساني العديد من النظم الحاكمة التي تُعَدُّ فاشلة بحقٍّ في التعايش السلمي؛ سواء مع شعوبها أو مع جيرانها، ثم ما لبثت أن تغيَّرت الظروف، وتحوَّلت هذه الأنظمة إلى قمَّة النجاح في التعارف والتعايش..

وفي تاريخنا الحديث، وتحديدًا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) ظهر نجم عدَّة نظم نحسبها من أفشل النظم في قضية التواصل والعيش المشترك مع الدول والحضارات المجاورة مما أفرز جوًّا متوترًا أدَّى للأسف الشديد إلى انهيار كل العلاقات الدبلوماسية، وأدَّى كذلك إلى «فقدان ذاكرة» أنست هذه النظم ويلات الحرب العالمية الأولى؛ ومن ثَمَّ دخلوا بعد حوالي عشرين سنة في حرب عالمية ثانية، أشدَّ وأعتى، ومع ذلك فمن بين هذه النظم الفاشلة هناك نموذج استطاع النجاح في الالتقاء الحضاري والتعايش المشترك -سواء على مستوى فئات الشعب أو على المستوى الأعلى- إلى مرحلة التواصل الناجح مع سائر الشعوب والحضارات في العالم بكامله، والنجاح بل والتميُّز في تقديم نموذج جيِّد للالتقاء الحضاري، ذلك هو النموذج الإيطالي..

وسوف نعرض فيما يلي لهذه التجربة المتميزة..

واجهت إيطاليا عقب الحرب العالمية الأولى أزمة اقتصادية واجتماعية ونفسية حادة، عجزت الحكومات المتعاقبة عن علاجها وفقدت الدولة هيبتها؛ إذ تعاقبت على إيطاليا خمس وزارات في أربع سنوات فقط، لم تكن لأي منها سياسة مرسومة في الداخل أو الخارج، وتفشَّت البطالة، وفشل الجنود العائدون من الحرب في الحصول على أي فرصة عمل[1].

في هذا الوقت وبفعل هذه الظروف القاسية برز على الساحة الإيطالية شخص يدعى

---

(١) عبد العظيم رمضان: تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، ٣/ ٦٨.

(بنيتو موسوليني) الذي سيكون له أعظم الأثر في مرحلة الفشل الإيطالي في التعايش الحضاري والإنساني.

استشعر موسوليني مزاج الشعب وحالته النفسية، وكان يرى غضب الجنود بسبب إهمال أمرهم بعد انتهاء الحرب؛ ولذا فقد وجد فيهم وبسهولة العديد من الأتباع والمريدين، الذين تشكَّلت منهم النواة الأولى للحزب الفاشي[١]، والفِرَق الفاشية المسلحة التي كانت ترتدي القمصان السود كعلامة مميزة لهم، وكانت هذه الفرق تقوم بدور مهم بالنسبة لموسوليني؛ حيث كانت تُؤَدِّب المعارضين له؛ سواء بالضرب أو بنهب بيوتهم وتخريبها، وأحيانًا بالاغتيال[٢].

وبهذه الطرق الملتوية لم تَخْلُ نهاية عام ١٩٢٠م حتى كانت الفاشية قد حقَّقت لنفسها تأييدًا سياسيًّا كبيرًا[٣]؛ وذلك إمَّا بدافع الخوف من بطش الفاشيين، أو بسبب مشاعر الإحباط واليأس في ظلِّ حالة الفوضى السياسية، التي جعلت المواطن الإيطالي يفقد شعوره بالأمان في وطنه، إضافة إلى ضيق ذات اليد، وعجزه عن الوفاء بالحد الأدنى من احتياجاته الأساسية، التي تكفل له الحياة الكريمة.

في ظلِّ هذه الحالة من الضعف نجح موسوليني في مغازلة الشعب الإيطالي واللعب على وتر إشباع احتياجاته الأساسية، إضافة إلى إذكاء نزعته القومية باستدعاء ذكريات الإمبراطورية الرومانية الغابرة؛ ولذا نجده يعترف صراحة ودون مواربة بطموحات حزبه المتطرف؛ فيقول: «الفاشية حشد ممتد من الطاقات المادية والمعنوية هدفها صراحة هو الحكم، وبرنامجها هو القيام بكل ما يلزم لضمان عظمة الشعب الإيطالي المادية والأدبية»[٤].

وفي احتفال بمدينة نابولي الإيطالية في أكتوبر من ١٩٢٢م وقف موسوليني يصرخ: «إما

---

(١) الفاشية: كلمة مستمدة من الكلمة اللاتينية (Faseism)، ومعناها العصبة أو الاتحاد، ومذهب الفاشية له صورتان، صورة سياسية وأخرى اقتصادية، ويُلَخِّص موسوليني الفاشية بأن إرادة الشعب ليست الوسيلة للحكم، وإنما الوسيلة هي القوة، وهي التي تفرض القانون.

(٢) هـ. أ. ل. فِشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، ص٦٠١.

(٣) عبد العظيم رمضان: تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، ٣/ ٧٢.

(٤) جوسيبي دي لونا: موسوليني، ص٥٩.

أن تستسلم لنا الحكومة أو نستولي عليها بالزحف على روما»[١].

ثم قام بالفعل بتسيير مسيرة ضخمة من أتباعه إلى العاصمة الإيطالية للاستيلاء على الحكم بالقوة، فيما سمّي بـ«مسيرة روما[٢]»، ومن ثَمَّ دَعَا الملك الإيطالي (فيتوري مانويلي الثالث) موسوليني لتأليف حكومة جديدة، وكان عمره آنذاك ٣٩ سنة، وأصبح أصغر رئيس وزراء في تاريخ إيطاليا في ٣١ أكتوبر ١٩٢٢م[٣].

وما أن تولَّى موسوليني وأتباعه السلطة إلا وعاث فيها فسادًا، أو تطهيرًا من وجهة نظره، وراح يُفرِّغ جهاز الدولة الإيطالية من كل العناصر التي لا تؤمن بالفاشية، أو لا تُقَدِّم السمع والطاعة للحزب الفاشي الحاكم، بغضِّ النظر عن معيار الكفاءة، وبدأ بتطبيق سياسة الفصل الجماعي للمعارضين، فقام على سبيل المثال بفصل ٣٦ ألف عاملٍ من عمال السكك الحديدية فقط، فزادت معدلات البطالة، وفقدت جماهير الشعب الإيطالي نتيجة للقمع الوحشي قدرتها على التعبير عن غضبها بأي وسيلة احتجاج[٤].

وهكذا استطاع موسوليني أن يفرض النظام الفاشي الدكتاتوري المطلق على البلاد؛ وأدى ذلك إلى خنق الحريات في إيطاليا وإرهاب الناس، وعاشت البلاد ظروفًا عصيبة، وعمَّ الخوف الناس، فلم يَعُدْ أحد يستطيع أن يُعَبِّر عن آرائه بحرية؛ نقول ذلك ونحن نعلم أن الإيديولوجية الفاشية تقوم أساسًا على عبادة الزعيم الأوحد، وعلى تقديس الهيبة العليا للسلطة، والخضوع لها بشكل كامل من قِبَلِ الشعب، ومن لا يخضع تتم تصفيته جسديًّا إذا لزم الأمر[٥].

وأصبح النظام الفاشي مفروضًا على إيطاليا بشكل رسمي؛ إذ أُلغِيَ البرلمان والانتخابات

---

(١) عبد العظيم رمضان: تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، ٣/ ٧٣.

(٢) كانت في يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٢٢م، وفيها قام الفاشيون بالزحف إلى روما من كل أنحاء إيطاليا بالقطارات والحافلات، ونتيجة الذعر الذي شعرت به الحكومة عُرض على موسوليني منصب وزير في الحكومة، وناشد رئيس الوزراء الملك إعلان حالة الطوارئ، لكن الأخير رفض خوفًا من نشوب حرب أهلية.

(٣) عبد العظيم رمضان: تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، ٣/ ٧٣.

(٤) جوسيبي دي لونا: موسوليني، ص٦٢.

(٥) ريتشارد بوسورث: إيطاليا في عهد موسوليني.. الحياة في ظل الدكتاتورية، دار بنجوين، لندن، ٢٠٠٦م.

الحرة في البلاد[١]. فالديمقراطية هي ألد أعداء الفاشية.

ولم يكتفِ موسوليني بهذا؛ فقام بإلغاء أي حق سياسي للمعارضة، وأصدر قانونًا في ٢٦ فبراير ١٩٢٥م يمنع أي شكل من أشكال التجمهر، واستمر قمع الحكومة لمؤسسات الحكم المنتخبة وقُتل القادة الذين عارضوا الفاشيين، كما قام بحملة إعدامات طالت العديد من معارضيه، ليختفي بعدها أي أثر لأحزاب المعارضة في إيطاليا الفاشية، ليقول في ٢٨ أكتوبر ١٩٢٥م في ذكرى استيلائه على السلطة في إيطاليا: «إن النظام الفاشي لن يسقط إلاَّ بالقوة»[٢].

بل وأكثر من ذلك؛ إذ عمد موسوليني إلى سلب سلطة مجلس الوزراء لنفسه، بأن تولَّى ثمانية مناصب وزارية من خمسة عشر! ولم تَعُدِ الدولة الإيطالية سوى «الدوتشي»؛ أي: الزعيم الذي أصبح القائد الأعلى للجيش[٣].

بذلك تركزت السلطة في يد شخص واحد؛ الذي يُعَدُّ بمثابة القائد الملهم -وفقًا للمبادئ الفاشية- وهذا الشخص هو موسوليني بطبيعة الأمر، الذي أَتْبَعَ حَلَّ البرلمان بإعداد قانون انتخابي جديد يعطي الحزب الفائز في الانتخابات ثلثي مقاعد البرلمان وتُقسَّم نسبة الثلث المتبقية على أحزاب المعارضة؛ ليضمن بذلك أن قراراته ستحظى دومًا بمباركة الأغلبية البرلمانية[٤].

وانتشرت في المجتمع الإيطالي ثقافة فرض الرأي الأوحد على الجميع، وكراهية كل القيم الإنسانية القائمة على التسامح وحق الاختلاف في الرأي، واختفت السياسة العقلانية من إيطاليا وحَلَّت محلَّها الثقافة الاستبدادية؛ واضطر معظم المثقفين إلى الخضوع لموسوليني وحزبه الفاشي، بل إن بعضهم فعل ذلك عن طيب خاطر؛ معتقدًا بأن الفاشية هي مستقبل إيطاليا؛ لأنها إيديولوجيا جديدة تضرب على وتر الغرائز القومية.

---

(١) جوسيبي دي لونا: موسوليني، ص٦٥.
(٢) المرجع السابق، ص٧٣.
(٣) عبد العظيم رمضان: تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، ٣/ ٧٤.
(٤) جوسيبي دي لونا: موسوليني، ص٦٥.

وهكذا خسر الشعب الإيطالي الكثير من قيمه الراقية، وتحوَّل إلى شعب مُسْتَعْبَد، يُصَفِّق للدكتاتور؛ إما حُبًّا أحيانًا، وإما خوفًا منه في أكثر الأحيان[١].

وللأسف فإن هذه السياسات كانت تحظى برضا من الدول الكبرى في هذه الفترة المظلمة من التاريخ؛ فأيَّدت الولايات المتحدة الأميركية وإنجلترا الفاشيةَ الإيطالية، كما ساهمت القروض الأميركية لإيطاليا في عام ١٩٢٦م في تدعيم الحكم الفاشي.

وعبَّر موسوليني عن امتنانه للدعم الأميركي قائلاً: «الأميركيون شعب عظيم ونظام حُكْمِه نظامٌ «صارم»، وبالرغم من وجود تمثال للحرية على شاطئ بلاده فكل شيء في داخل بلادهم يخضع لضوابط، وهذا ما يفسر تعاطفهم مع حكام إيطاليا الجدد»[٢].

فشل في الداخل والخارج:

وقد تجنَّبت السياسة الخارجية التي اتبعها النظام الفاشي خِيار السلام بشكل قطعي، واعتبرته ظاهرة متعفنة، وبالمقابل دعمت فكرة إعادة مجد الإمبراطورية الرومانية القديمة، وطمحت في توسيع مناطق نفوذ إيطاليا[٣]؛ إذ كان موسوليني يحلم علنًا بأن يُسيطر على كل حوض البحر الأبيض المتوسط، ويُحَوِّله إلى بحيرة إيطالية، وأن يُنشئ إمبراطورية تمتدُّ من الحبشة إلى ساحل غينيا الغربي، وكان يدعو إلى زيادة النسل؛ ليزيد عدد الإيطاليين، فيُمْكِنُهم بالتالي استعمار واستيطان هذه الإمبراطورية الشاسعة.

وفي سبيل هذه الأحلام راح آلاف الضحايا الأبرياء؛ فأثناء محاولاته ترسيخ الاستيطان الاستعماري في ليبيا، قُتِلَ ٢٠٠ ألف نسمة من المواطنين الليبيين خلال ثلاث سنوات فقط، قبل عثوره على المجاهد عمر المختار[٤] واعتقاله وإعدامه، رغم سنه الذي جاوز الخامسة والسبعين، وقد واصل الإيطاليون استباحتهم للشعب الليبي، فوصل عدد الشهداء إلى ما

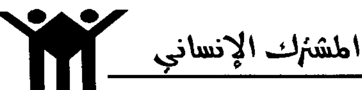
---

(١) ريتشارد بوسورث: إيطاليا في عهد موسوليني.. الحياة في ظل الدكتاتورية، دار بنجوين، لندن، ٢٠٠٦م.

(٢) جوسيبي دي لونا: موسوليني، ص٧٤.

(٣) عبد العظيم رمضان: تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، ٣/ ٧٥.

(٤) عمر المختار: هو عمر بن مختار بن عمر المنفي (١٢٧٥ - ١٣٥٠هـ = ١٨٥٨ - ١٩٣١م)، أشهر مجاهدي طرابلس الغرب في حربهم مع المستعمرين الايطاليين، ملقب بشيخ الشهداء أو أسد الصحراء، استشهد رحمه الله بعد أن حُكم عليه بالإعدام شنقًا في مركز «سلوق» ببنغازي. انظر: الزركلي: الأعلام ٥/ ٦٥، ٦٦.



يزيد على ٥٧٠ ألف شهيد، إضافة إلى مصادرتهم الأراضي الليبية من أصحابها.

وفي أكتوبر عام ١٩٣٥م بدأت إيطاليا الفاشية عدوانها على إثيوبيا، الذي يعتبر نموذجًا لحرب الإبادة[١]، وذلك دون إعلان حرب على اعتبار أنها أقل من أن تستحق هذا الشرف؛ إذ كان موسوليني يُريد تقدُّمًا سريعًا يرفع مكانته ويضعه بين كبار السفَّاحين في العالم، ولتحقيق هذا الهدف قام بتعيين «بادوليو»، الذي ذاع صيت وحشيته في ليبيا، كقائد لأركان قواته، ولم يُخَيِّب بادوليو ظنَّ الدوتشي؛ حيث جعل هدفه المعلن إبادة القوات الإثيوبية بالكامل واحتلال إثيوبيا برمتها، واستخدم لذلك كل ما أُوتي من قوة حربية، من القصف الجوي وغاز الخردل بصورة مروعة لتحقيق هدفه، وانهارت المقاومة الحبشية تمامًا، ودخل بادوليو العاصمة أديس أبابا في مايو ١٩٣٦م[٢].

وفقدت إثيوبيا خلال العدوان الفاشي عليها من عام ١٩٣٥ إلى ١٩٣٦م ٢٧٥ ألف قتيل، بالإضافة إلى ٧٥ ألف إثيوبي قُتلوا في حرب العصابات التي استمرَّت في السنوات التالية، و١٨ ألفًا في عمليات التطهير، التي كان يقوم بها الجيش الإيطالي، و٣٥ ألفًا في معسكرات الاعتقال، و٢٤ ألفًا أعدموا رميًا بالرصاص؛ وفقًا لأحكام المحاكم العسكرية الإيطالية، التي كانت تقام للمقاومين[٣].

ثمَّ في عام ١٩٣٧م أعلن الدوتشي خروج إيطاليا من عصبة الأمم[٤]؛ معلنًا بذلك كفره بأي فرصة للتواصل الإنساني مع العالم الخارجي.

وفي ٩ نوفمبر ١٩٣٨ -أي: قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية بتسعة أشهر- أصدر موسوليني مرسومًا بضمِّ ليبيا وجعلها جزءًا من الوطن الأم، مع منح السكان الجنسية الإيطالية، وإلزامهم بتعلُّم اللغة، ومن عارض ذلك هُتِكَ عِرْضُه، إضافة إلى إلقائه كثيرًا من الناس من الطائرة وهم أحياء.. إلى غير ذلك من الأعمال الوحشية.

---

(١) هـ. أ. ل. فِشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، ص٦٤٦.
(٢) جوسيبي دي لونا: موسوليني، ص١٠٧ - ١٠٩.
(٣) المرجع السابق ص١١١.
(٤) عبد العظيم رمضان: تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، ٣/ ٧٥.

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م حاول هتلر النازي إقناع حليفته إيطاليا الفاشية بخوض الحرب، ولكن القوَّاد الإيطاليين أكَّدوا أن إيطاليا لن تكون مستعدَّة قبل ثلاث سنوات، وقَبِل هتلر أن يُحِل حليفته من الاتفاق، وفي هذه الأثناء بذل الحلفاء (بريطانيا، وفرنسا) جهودًا دبلوماسية لإبقاء إيطاليا بعيدة عن الحرب، واشتركت الولايات المتحدة الأميركية في هذه الجهود.

لكن موسوليني -الذي كان يرقب انتصارات هتلر المتلاحقة بانبهار- ضرب بآراء العسكريين وبالجهود الدبلوماسية ومعارضة الرأي العام الإيطالي عُرْض الحائط؛ وانطلق إلى هتلر معلنًا دخول إيطاليا الحرب في العاشر من يونيو ١٩٤٠م، ممنِّيًا نفسه بنصيب من الغنائم؛ غير مكترثٍ بما ستُحْدِثُه هذه الحرب من تفسُّخٍ للعلاقات بين الدول والشعوب، وما ستُخَلِّفه من ملايين الضحايا وأنهار الدماء[1]، (**انظر: صورة رقم ٢٣ تحالف موسوليني مع هتلر**).

لكن سرعان ما تبخَّرت أحلام موسوليني؛ حيث لم تأتِ نهاية عام ١٩٤٢م إلا والصورة قد تغيَّرت، واستعادت الولايات المتحدة الأميركية توازنها أمام اليابان؛ فأوقعت بالأسطول الياباني هزيمة ثقيلة في المحيط الهادي[2]، وتلقَّى القائد الألماني روميل[3] ضربة قاصمة في معركة العلمين الشهيرة، ثمّ حدثت مفاجأةُ استسلامِ الجيش الألماني في معركة ستالينجراد مع الجيش الروسي[4].

وبدأت دول الحلفاء تسترد الكَرَّة على دول المحور (ألمانيا، واليابان، وإيطاليا) وبالطبع ركَّزت على أضعف الدول الثلاثة وهي إيطاليا الفاشية؛ فبدأت في تقليم أظافرها في القارة الإفريقية، وطُرِدَ الجيش الإيطالي من المستعمرة تلو الأخرى، وبمرور الوقت أصبحت إيطاليا مهدَّدة بالغزو في عقر دارها؛ مما اضطر الألمان إلى إرسال قوات عسكرية لحمايتها، فتحولَّت

---

(١) هـ. أ. ل. فِشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، ص٦٧٢.

(٢) عبد العظيم رمضان: تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، ٣/ ١٠٨.

(٣) روميل: هو إرفين روميل Erwin Rommel (١٨٩١-١٩٤٤م)، كان يُلَقَّب بثعلب الصحراء؛ حيث كان يُرى أنه أحد أمهر القادة في حرب الصحراء، حصل على رتبة مشير أثناء الحرب العالمية الثانية في شمال إفريقيا، توفي في ١٤ أكتوبر عام ١٩٤٤م بعد أن أجبره أدولف هتلر على الانتحار.

(٤) شوقي الجمل، وعبد الله عبد الرازق: تاريخ أوربا من النهضة حتى الحرب الباردة، ص٢٨٦.

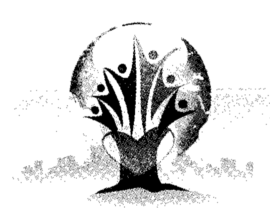


موسوليني وهتلر ١٩٤٠م



الهزيمة الإيطالية

صورة رقم (٢٣)



الدولة الإيطالية من الحليف إلى مجرَّد تابعٍ ذليل[١].

وفي ١٠ يوليو ١٩٤٣م بدأ غزو دول الحلفاء لجزيرة صقلِّية الإيطالية، ولم يمر شهر إلا وكانت الجزيرة تحت سيطرتهم، بعد طرد القوات الإيطالية وقوات دول المحور الداعمة لها[٢].

أصبحت إيطاليا على الهاوية؛ جيشها مهزوم وجائع، ولديهم نقص في العتاد والسلاح، وكان هناك نقص في المؤن داخل إيطاليا نفسها.

وأخيرًا استيقظ الإيطاليون..

غضب الشعب الإيطالي ووقف ضد استمرار الحرب، ورأوا أن موسوليني قد كذب عليهم؛ حتى وصل الأمر أن بلادهم قد احْتُلَّت من قِبَلِ الجيوش البريطانية والأميركية، وأصبح موسوليني عدوَّ الشعب الأول.

وتمرَّد أبناء الشعب الإيطالي على الطاغية موسوليني فخلعوه من رئاسة الحكومة والحزب، وطالبوا باعتقاله، فقام المَلِكُ بعزله، وتم تشكيل حكومة جديدة برئاسة المارشال بادوليو، الذي قرَّر خروج إيطاليا من الحرب، وعَقَد هدنة مع دول الحلفاء تقضي باستسلام إيطاليا دون قيد أو شرط[٣].

عند هذه النقطة أمر هتلر جنوده بغزو إيطاليا؛ كمحاولة أخيرة للحَوْل دون وقوعها في أيدي أعدائه، وبالفعل دخل الجيش الألماني العاصمة الإيطالية روما في العاشر من سبتمبر ١٩٤٣م، فانحازت حكومة بادوليو إلى الحلفاء، واستطاع الألمان «خَطْف» موسوليني وعاونوه على تكوين حكومة في الشمال الإيطالي باسم «جمهورية إيطاليا الاشتراكية».

هكذا انقسمت إيطاليا ودخل أبناؤها في حرب أهلية طاحنة؛ بين فريقين أحدهما موالٍ للحلفاء كأملٍ أخير للتحرُّر من طغيان الفاشية، وآخَر تابع لموسوليني وحلفائه.

---

(١) عبد العظيم رمضان: تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، ٣/ ١٤٩-١٥١.

(٢) هـ. أ. ل. فِشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، تعريب أحمد نجيب هاشم، ص٦٩٨.

(٣) شوقي الجمل، وعبد الله عبد الرازق: تاريخ أوربا من النهضة حتى الحرب الباردة، ص٢٩٤، ٢٩٥.

وقد استمرَّ هذا الوضع المزري ولم يبلغ نهايته الحاسمة إلا مع انتهاء الحرب العالمية الثانية؛ إذ تم اعتقال الدوتشي في ٢٦ أبريل ١٩٤٥م في منطقة بحيرة كومو شمال البلاد، في اليوم التالي أتت الأوامر من مجلس جبهة التحرير الشعبية بإعدام موسوليني، وأُعْدِم هو ورفاقه في ٢٨ أبريل ١٩٤٥م، وعُرضت جثته مع جثث خمسة قادة فاشيين آخرين معلَّقة من الأرجل في ميدان ميلانو المقرِّ القديم لرئاسة الحزب الفاشي[١].

وأخيرًا انهارت خطوط الدفاع الألمانية في إيطاليا واستسلمت قواتها في شهر مايو ١٩٤٥م[٢].

وكان ذلك إيذانًا بنهاية الفاشية والنازية في آن معًا، وتَوْق إيطاليا وأوربا إلى عصرٍ جديد تعلو فيه قيم الحرية والإنسانية.

* * *

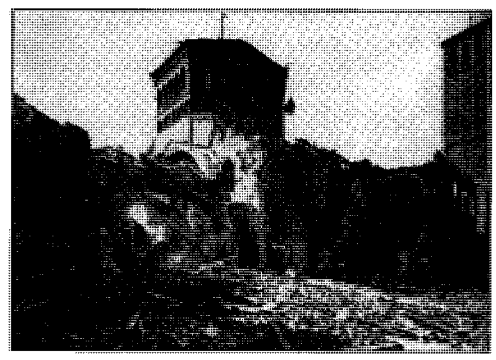
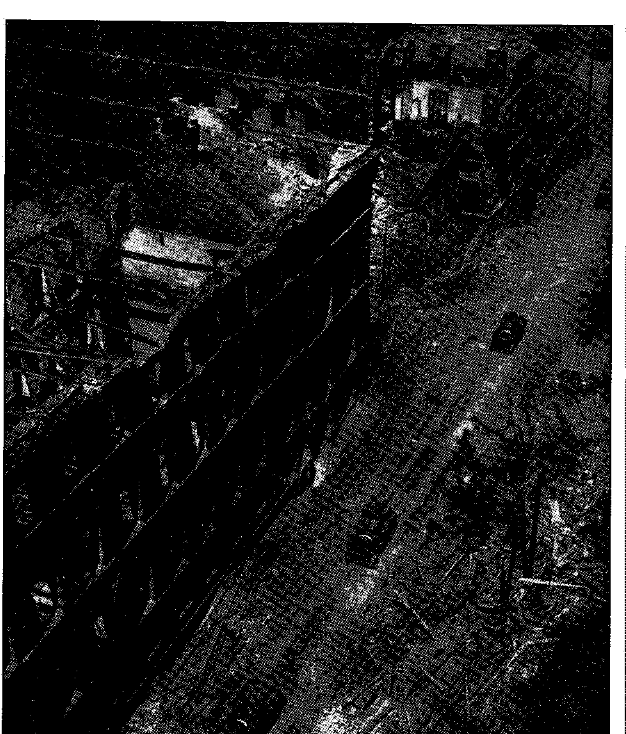
تركت فترة الحكم الفاشي العديد من الآثار السلبية في نفوس الشعب الإيطالي، الذي عاني من تقييد حريته ومن القهر والظلم والاستبداد بالرأي، ولم ينزح الفاشيون عن كاهل الشعب الإيطالي إلاَّ بعدما أذاقوه مرارة الهزيمة والانكسار، **(انظر: صورة رقم ٢٤ الدمار الذي خلفته الحرب العالمية الثانية)**.

أفاق الإيطاليون بعد انتهاء الحرب والهزيمة الساحقة -التي مُنيَت بها إيطاليا- على واقع مرير وأليم؛ بلد محطم واقتصاد منهار، وفوق ذلك رصيد هائل من الكراهية الموروثة لدى معظم دول العالم لإيطاليا الفاشية، ورغم إدراك الشعب الإيطالي لصعوبة إصلاح ما أفسدته الأفكار الفاشية المتطرفة، إلاَّ أنهم قرَّرُوا المضي في طريق الإصلاح والتعايش الإنساني إلى نهايته.

---

(١) هـ. أ. ل. فِشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، ص٧٠٠.

(٢) عبد العظيم رمضان: تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، ٣/ ١٥١- ١٥٣.




الدمار الذي خلّفته الحرب العالمية الثانية

صورة رقم (٢٤)



ويلاحظ الباحث المدقّق للتجربة الإيطالية الحديثة تركيزها على عاملين أساسيين لتحقيق نهضتها وخروجها من الآثار السلبية للهزيمة: العامل الأول كان في توفير مناخ داخلي صحّي يكفل الاحتياجات الأساسية لأبنائها، ويُحافظ على كرامتهم وحريتهم.

وأمّا العامل الآخر فهو إصلاح الأخطاء القاتلة التي سبَّبتها الحقبة الفاشية على السياسة الخارجية لإيطاليا، والعمل بقوة على علاج مشاعر الكراهية تجاه الإيطاليين، واستبدالها بمشاعر الودِّ والتآلف، ومحاولة إقناع دول العالم بإمكانية التعايش السلمي مع الدولة الإيطالية الجديدة.

فعلى صعيد الإصلاح الداخلي قام الإيطاليون في يناير ١٩٤٧م بالتصويت على إلغاء الملكية، وإعلان قيام الجمهورية الإيطالية، ووضعت دستورًا جديدًا يُعلي مبادئ الحرية الشخصية، ويُتيح المشاركة السياسية في صنع القرار الإيطالي لكلِّ الإيطاليين؛ وأصبح لكلِّ إيطالي تجاوَزَ الثامنة عشرة من عمره الحقُّ في الانتخاب[١].

أمّا على الصعيد الخارجي فقد انضمت إيطاليا إلى معاهدة إنشاء الجماعة الأوربية للفحم والصلب في باريس عام ١٩٥١م، التي كانت تُعدُّ الأساس الذي قام عليه الاتحاد الأوربي[٢].

ومع بداية عام ١٩٦٠م أصبح من الواضح تحوُّل إيطاليا من بلد زراعي فقير إلى دولة صناعية وقوة اقتصادية أوربية واعدة، وانخفضت معدَّلات البطالة نتيجة للتزايد المستمرِّ في أعداد المنشآت الصناعية، وبحلول عام ١٩٨٠م توقَّفت ظاهرة الهجرة خارج إيطاليا بحثًا عن فرص عمل، هذه الظاهرة التي كانت متأصِّلة في المجتمع الإيطالي، بل أصبحت إيطاليا تستقبل المهاجرين لها من سائر دول العالم[٣].

انعكست النهضة الاقتصادية والتكنولوجية والثقافية على الحياة اليومية الإيطالية، واستطاع المواطن الإيطالي تلبية احتياجاته الأساسية؛ وخاصة الشعور بالأمن في وطنه، نتيجة اعتماد سياسة السلم محلَّ الحرب، وكذا احترام الحريات الشخصية واعتماد مبادئ الشورى

---

(١) مسعود الخوند: الموسوعة التاريخية الجغرافية، ص٢٨٠.

(٢) محمد مصطفى كمال، وفؤاد نهرا: صنع القرار في الاتحاد الأوربي، ص٢٣.

(٣) الموسوعة البريطانية: www.britannica.com.

بدلاً من الدكتاتورية.

وسادت المشاعر الإيجابية بين الإيطاليين، وتَعَدَّتْهم لتشمل الزائرين لإيطاليا من خارجها؛ حيث ازدهر قطاع السياحة الإيطالي، وأصبح يحتلُّ المرتبة الخامسة عالميًّا، بعد فرنسا والولايات المتحدة وإسبانيا والصين[١]، ويعمل فيه مليون ومائة ألف إيطالي[٢].

وبمرور الأعوام ازدادت التجربة الإيطالية نضجًا، واستطاعت تغيير الصورة الذهنية السلبية المرسومة لها، ليس في أذهان الأوربيين فقط، بل في العالم بكامله، فبعدما كان العالم ينظر للإيطاليين كمجموعة من الهمجيين والمستعمرين، أصبح الآن يراهم شعبًا متحضِّرًا، مهتمًّا بالمشتركات الحضارية والإنسانية، وأستشهد هنا بواقعة حدثت خلال إحدى زياراتي للولايات المتحدة الأميركية عندما ألمَّ مرض بأحد الأصدقاء من المسلمين في الولايات المتحدة فقمنا- أنا وبعض الزملاء - ثمانية أفراد- بزيارته في المستشفى، وهناك حدث موقف غريب لفت انتباهي بشدَّة؛ فحينما قابلتنا إحدى المرضات -مبدية دهشتها من عددنا الكبير- سألتنا:

هل أنتم من المسلمين أم من أبناء الجالية الإيطالية؟

فالأميركان لا يرون مثل هذا التجمُّع والحرص على زيارة المرضى إلا من المسلمين أو من الإيطاليين، وهذا أمر يُوَضِّح التطوُّر الذي استطاع الإيطاليون تحقيقه في معاملاتهم الإنسانية.

هذا على الجانب الإنساني، أمَّا عن جانب المصالح المادية والاقتصادية التي جناها الشعب الإيطالي بعدما تعايش مع نفسه ومع الآخر، فيكفينا في هذا المجال أن إيطاليا اليوم تُشَكِّل اليومَ سادسَ أقوى اقتصاد بالعالم، بجانب عضويتها في مجموعة الثمانية G8؛ مجموعة الدول الصناعية الثمانية الكبرى في العالم، التي تضمُّ الولايات المتحدة الأميركية، واليابان، وألمانيا، وروسيا الاتحادية، وبريطانيا، وفرنسا، وكندا،

(١) «UNTWO World Tourism Barometer Interim Update»UNTWO (April 2010). (PDF).
www.unwto.org/facts/eng/pdf/barometer/UNWTO_Barom10_update_april_en . excerpt.pdf. Retrieved_2010-05-07

(٢) مسعود الخوند: الموسوعة التاريخية الجغرافية، ٤/ ٢٦٦.

وتمتلك نحو ٦٥٪ من الاقتصاد العالمي[١].

وشهدت الصناعة الإيطالية طفرات متلاحقة بمعدل نموٍّ يصل إلى ١٢٪ سنويًّا، وتعددت مجالاتها من الآلات والحديد والصلب، والكيماويات، إلى الصناعات الغذائية، والمنسوجات والملابس، والأحذية والسيراميك[٢]، فضلاً عن صناعة السيارات التي تحتلُّ مكانة متقدِّمة في الصناعات الإيطالية؛ حيث تُعَدُّ إيطاليا هي أكبر منتج للسيارات في أوربا منذ عام ٢٠٠٦م[٣].

كما أصبحت إيطاليا اليوم بلدًا متقدِّمًا، بشهادة خبراء الاقتصاد، وتُعَدُّ من الدول الأعلى في الرفاهية ونوعية الحياة في العالم؛ حيث تكفل لمواطنيها مستوى عاليًا جدًّا من المعيشة، يتجاوز ألمانيا وبريطانيا واليونان[٤]؛ إذ بلغ الناتج المحلي الإجمالي لإيطاليا ١,٧٦ تريليون دولار في عام ٢٠٠٩م، بمعدل نموٍّ سنوي ٤,٨٪، وتجاوز نصيب الفرد في إيطاليا ٣٠ ألف دولار وفقًا لتقديرات عام ٢٠٠٩م[٥].

وذلك إلى جانب النتائج الباهرة التي استطاعت إيطاليا الجديدة تحقيقها على جميع الأصعدة؛ من قضائها على أُمِّيَّة شعبها، حيث بلغ معدَّل معرفة القراءة والكتابة للبالغين في إيطاليا ٩٩٪[٦]، إلى جانب اهتمامها بالصحَّة والعدالة والثقافة، فضلاً عن قضايا البيئة[٧].

كما تحرص إيطاليا على إقامة علاقات جيدة مع مختلف دول العالم، بما فيها الدول التي كانت خاضعة للاحتلال الإيطالي وحصلت على استقلالها، مثل ليبيا التي نالت استقلالها في عام ١٩٥١م[٨]؛ ونجد فيها الآن أكثر من ١٠٠ شركة إيطالية تستثمر في مختلف القطاعات

---

(١) صحيفة الجارديان البريطانية، ٨ يوليو ٢٠٠٩م: www.guardian.co.uk/world/g8.

(٢) www.cia.gov/library/publications/the-world-factbookFact Book 2009.

(٣) تقرير الرابطة الأوربية لمصنِّعي السيارات عام ٢٠٠٨م، التقرير منشور على موقع الرابطة: www.acea.be.

(٤) تقرير العالم في عام ٢٠٠٥م، صحيفة الإيكونومست البريطانية،
www.economist.com/media/pdf/QUALITY_OF_LIFE.PDF«

(٥) Fact Book 2009, www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook.

(٦) تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٩م - http://hdrstats.undp.org.

(٧) تقرير المعهد الوطني الإيطالي للإحصاء عام ٢٠٠٩م،
http://en.istat.it/dati/catalogo/20090511_00/italyinfigures2009.pdf

(٨) عبد الله عبد الرازق إبراهيم، شوقي الجمل: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ص ٢٨٦- ٢٨٨.

الاقتصادية، وتُعَدُّ إيطاليا الشريك الأول لليبيا حيث تستورد منها ٢٥ ٪ من احتياجاتها من الطاقة والغاز.

وقد كَلَّلت إيطاليا جهودها للانفتاح على ليبيا باعتذار رسمي قدَّمه رئيس الوزراء الإيطالي سلفيو برلسكوني[١] مُعرِبًا عن اعتذار بلاده عن فترة استعمارها لليبيا، معترفًا بالضرر الذي ألحقته تلك الحقبة بهذا البلد، وقام بتوقيع معاهدة «الصداقة» مع ليبيا؛ التي تَعَهَّدت إيطاليا فيها بدفع تعويضات تصل قيمتها إلى خمسة مليارات دولار في شكل استثمارات تشمل شقَّ طريق سريع عبر ليبيا من الحدود التونسية إلى جمهورية مصر العربية[٢].

كل هذا في ظلِّ مناخ داخلي مستقرٍّ يحتضن العديد من الأديان والطوائف؛ ففي عام ٢٠٠٩م بلغ عدد المسلمين المقيمين في إيطاليا ما بين تسعمائة ألف ومليون مسلم[٣]، وينتظم أكثر من نصفهم على ارتياد المساجد في حرية ملموسة[٤]، وهناك أكثر من ٢٠٠ ألف من أتباع العقائد الناشئة في شبه القارة الهندية، منهم ٧٠ ألفًا من السيخ، ولهم ٢٢ معبدًا في أنحاء إيطاليا[٥]، طبقًا لإحصائية صادرة في ٢٠٠٤م، كما يوجد ٧٠ ألفًا من الهندوس، و٥٠ ألفًا من البوذيين[٦]..

هذه الطوائف وغيرها يعيشون في سلام مع الشعب الإيطالي البالغ عدده ٥٨ مليون نسمة، ويعتنق ٩٠٪ من أبنائه المذهب الكاثوليكي[٧].

حتى في بطولة كأس العالم لكرة القدم، التي عقدت بجنوب إفريقيا في يونيو ٢٠١٠م،

---

(١) سيلفيو برلسكوني Silvio Berlusconi: رئيس الوزراء الإيطالي، تولى في أبريل ٢٠٠٨م، وهو سياسي ورجل أعمال، مواليد سبتمبر ١٩٣٦م.

(٢) أخبار الجزيرة، ١٣ أغسطس ٢٠٠٨م، www.aljazeera.net.

(٣) من تقرير لوكالة الأنباء الفرنسية بتاريخ ١٠/ ٤/ ٢٠٠٩، وتقرير «المسلمون في أوربا؛ دليل الدول» نشرته شبكة بي بي سي بتاريخ ٢٣/ ١٢/ ٢٠٠٥.

(٤) موقع المسلم الإلكتروني، ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٥م، http://almoslim.net/node/42082.

(٥) تقرير «السيخ في إيطاليا» منشور بموقع inrinternet.com بتاريخ ١٥/ ١١/ ٢٠٠٤م.

(٦) من تقرير «(Most Baha'i Nations 2005)» منشور بموقع (ARDA) Association of Religion Data Archives.

(٧) Fact Book 2009, www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook.

والتي شهدت مشاركة ٣٨٦ لاعبًا من المحترفين الدوليين في أندية خارج بلادهم، كان منهم ٨٠ لاعبًا محترفًا في الأندية الإيطالية؛ حيث تُعَدُّ إيطاليا ثالث دول العالم جذبًا للمحترفين في رياضة كرة القدم(١)..

لقد اختار الشعب الإيطالي طريق التعايش والمشاركة بوضوح وإصرار، وتجتهد الحكومات الإيطالية المتعاقبة منذ سقوط النظام الفاشي لتحقيق الرغبة الشعبية، وعملت بجهد واضح على بناء إيطاليا الجديدة، التي تعلَّمت الكثير من الدروس من الفترة الفاشية؛ لذا قرَّرت المضي في طريق السلام والتعايش والتنمية؛ سواء في داخل المجتمع الإيطالي أو مع الدول المجاورة لإيطاليا أو مع العالم بكامله..

***

(١) العربية نت، ٥ يونيو ٢٠١٠م، www.alarabiya.net.

النموذج التركي

كانت تركيا مركزًا لحكم الخلافة العثمانية حتى عام ١٩٢٢م، إلى أن تمَّ إنشاء الجمهورية التركية عام ١٩٢٣م على يد مصطفى كمال أتاتورك[١]، الذي أراد السير ببلاده في طريق الغرب باعتباره مصدر النهضة والتقدم، وقرر التنكُّر لتعاليم الإسلام باعتبارها سبب التأخُّر الذي حاق بتركيا في أواخر عهد الخلافة العثمانية[٢]..

وقد سارت الحكومات التركية المتعاقبة على هذا النهج «الخاطئ» نفسه، بما تسبب في إحداث شرخ عميق في نفسية الشعب التركي، الذي يعتنق ٩٩٪ من أبنائه الديانة الإسلامية، والذي كانت دولته هي القلعة الحامية للإسلام على مدار قرون عديدة!

كذلك تسببت الرؤية الأتاتوركية في العديد من الأضرار على مستوى السياسة الخارجية التركية وعلاقاتها مع دول العالم؛ فمنذ عام ١٩٤٩م تحديدًا وعندما اختارت تركيا الانحياز الكامل للغرب، غير مبالية بأثر ذلك على علاقاتها الإقليمية، فاعترفت بإسرائيل -دولة الكيان الصهيوني- ثمَّ قامت في مارس ١٩٥٠م بافتتاح أول سفارة لتركيا في تل أبيب[٣]، ضاربة عُرض الحائط بمشاعر وتوجهات جيرانها من العرب والمسلمين[٤]!

فإذا أضفنا إلى طامة إقرار اليهود الصهاينة على ما اغتصبوه من أراض وممتلكات فلسطينية، إعلاء السياسة التركية للقومية التركية فوق أي قومية أخرى، مما نتج عنه ولادة أخطر المشكلات التركية الداخلية والخارجية، وهي المشكلة الكردية؛ فالأكراد يُشَكِّلون نحو ١٥٪ من عدد السكان، وهم في حالة ثورة شبه دائمة، وقد انتهجت الحكومات التركية

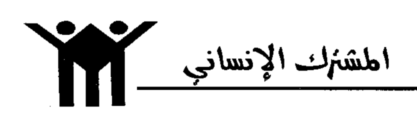
---

(١) مصطفى كمال أتاتورك (١٨٨١ - ١٩٣٨م): وُلِدَ في مدينة سالونيك باليونان من آباء يهود الدونمة، ألغى الخلافة العثمانية في ٣ مارس ١٩٢٤م، وأعلن أن تركيا دولة علمانية، وحوَّل مسجد آيا صوفيا الشهير إلى كنيسة، وجعل الأذان باللغة التركية، واستخدم الأبجدية اللاتينية في كتابة اللغة التركية بدلاً من الأبجدية العربية.

(٢) الصفصافي أحمد القطوري: التجربة الديموقراطية في تركيا الحديثة، ص٨٥.

(٣) مدينة يافا الفلسطينية المحتلة.

(٤) وليد رضوان: تركيا بين العلمانية والإسلام، ص ٩٠.



المتعاقبة سياسات متشدِّدة لإجبارهم على الصمت، لكن دون جدوى.

إلى جانب استفحال التوتر على مدى أربعين سنة ونيفٍ بين الدولة التركية من جهة، والأرمن وقبرص من جهة أخرى؛ فالأرمن يتهمون الأتراك بأنهم أَوقعوا بهم مذابح كبرى منذ تسعينيات القرن التاسع عشر، دفعت أكثريتهم إلى الهجرة باتجاهات مختلفة، وعندما فشل مشروعهم لتكوين دولة قومية، انصرفوا من مهاجرهم للنضال ضد تركيا.

أمَّا المشكلة التركية مع قبرص؛ فتتمثَّل في أن ربع سكان قبرص من أصول تركية، وعندما توتَّرت العلاقات بين القبارصة اليونان والقبارصة الأتراك مطلع السبعينيات على خلفية انقلاب عسكري يوناني بجزيرة قبرص؛ تدخَّل الجيش التركي عام ١٩٧٥م واحتلَّ وحمى الجزء التركي من الجزيرة[(١)].

كذلك لم تكن العلاقات التركية مع جارتها السورية في حالة طبيعية منذ استقلال سوريا عام ١٩٤٦م، وصولاً إلى نهاية القرن الماضي، بل سادت حالة من العداء والتأزُّم مجمل هذه الفترة المديدة، وذلك على خلفية أسباب عديدة، أهمها ضمُّ تركيا لواء إسكندرونة عام ١٩٣٨م بمؤازرة الاحتلال الفرنسي، وخلال هذه الفترة دخل البلدان -في أكثر من مرَّة- حالة من النزاع، كادت تُفضي إلى حرب مدمِّرة بينهما، وكان يُجسِّدها على الأرض تعزيز الوجود العسكري على الحدود، وزراعة المزيد من الألغام على الجانب التركي، بحيث لا يستطيع أي كائن عبورها.

وانتقل التأزُّم إلى مرحلة خطيرة من تنامي التعاون العسكري بين تركيا والكيان الصهيوني، حيث نظرت القيادة السياسية السورية إليه بوصفه يهدف إلى وضع سوريا بين فكَّيْ كماشة، وأن الحلف العسكري والسياسي والأمني بين تركيا والصهاينة يُشَكِّل ضغطًا إستراتيجيًّا عليها في مختلف المجالات.

ثمَّ بلغ النزاع أوجه عام ١٩٨٨م بين البلدين حين هدَّد القادة الأتراك باجتياح الأراضي

---

(١) رضوان السيد: النهوض التركي ومواجهة المشكلات التاريخية، صحيفة الاتحاد الإماراتية، ١٨ أكتوبر ٢٠٠٩م.

السورية بحجة وقف هجمات حزب العمال الكردستاني[١].

تصحيح المسار وإعادة رسم التاريخ:

ظلَّ هذا الوضع المؤسف للسياسة التركية إلى أن وصل للحكم في تركيا حزبٌ سياسيٌّ جديدٌ، قرَّر أن يتصالح مع نفسه ومع تاريخه ومع جيرانه، ومع العالم جميعه؛ فقد استطاع حزب العدالة والتنمية التركي -الإسلامي التوجُّه- أن يُحقِّق فوزًا ساحقًا في الانتخابات العامة التي أُجريت في تركيا في نوفمبر ٢٠٠٢م[٢].

وقد استطاع الحزب تحقيق طفرات في عدَّة مجالات، ولفتت تجربته الأنظار على مستوى العالم أجمع، ولكننا في هذا الكتاب سنُركِّز على تجربة الحزب الناجحة في تحقيق التواصل بين الشعوب، وكيف استطاع معالجة أخطاء الماضي، وإذابة الجليد المتراكم في العلاقات التركية مع جيرانها..

لقد بدأت تركيا في عهد حزب العدالة والتنمية سياسةً -خارجية- لافتة للانتباه، تستحقُّ كلَّ إعجاب وتقدير؛ وهي سياسة «تصفير النزاعات»، بالعمل على الوصول بالنزاعات إلى درجة الصفر؛ بمعنى التغاضي عن ميراث كبير من الكراهية مع بعض دول الجوار، والعمل على بدء صفحة جديدة تجعل من تركيا مكانًا آمنًا مقبولاً عند عامَّة الناس، وليس مكانًا مليئًا بالمشكلات والأزمات.

ولعلَّ من أهمِّ نتائج هذه السياسة العجيبة أن أذابت تركيا الجليد الذي بينها وبين سوريا؛ حيث بدأ مشهد العلاقات السورية التركية بالتغيُّر في عهد حزب العدالة والتنمية، فبرز توجُّه نحو الحوار والتفاهم لدى الحكومتين السورية والتركية، يحذوه السعي نحو إقامة علاقات أفضل وأكثر استقرارًا بين البلدين، فبدأ التوافق في الجانب الأمني، ثم انتقل إلى الجانب الاقتصادي والسياسي، وجرى توقيع عدَّة اتفاقيات في جميع مجالات الاختلاف، نفِّذ معظمها في أوانه.

وأعلن هذا التوجُّه بداية عهد التقارب الذي سيقلب حالة العداء التاريخي إلى حالة من

---

(١) عمر كوش: العلاقات السورية التركية.. من التأزم إلى التعاون، الجزيرة نت، ١٢ نوفمبر ٢٠٠٩م، www.aljazeera.net.

(٢) هيئة الإذاعة البريطانية، ٤ نوفمبر ٢٠٠٢م: http://news.bbc.co.uk.

اللقاء والتفاهم والتعاون، خاصة أن قادة حزب العدالة والتنمية رفضوا المشاركة في سياسة العزل والحصار التي حاول الرئيس الأميركي السابق جورج دبليو بوش فرضها على سوريا، بل قام الساسة الأتراك بدور الوسيط بين سوريا ومختلف الحكومات الأوربية، وهذا الذي أسهم في مساعدة النظام السوري على عبور تلك المرحلة الصعبة(١).

ووصل الأمر إلى إلغاء التأشيرات بين البلدين؛ فأصبح للسوري أن يذهب إلى تركيا، والعكس كذلك لمدَّة تسعين يومًا دون احتياج لتأشيرة زيارة، وهذا تَقَدُّم مذهل في علاقات تركيا وسوريا، وليست سوريا فقط هي المعنية بسياسة تصفير المنازعات، بل فعلت تركيا ذلك -أيضًا- مع دولة ذات تاريخٍ عدائي كبير لها، وهي دولة أرمينيا! فعقدت معها اتفاقًا تاريخيًّا؛ يقضي بفتح الحدود بين البلدين، وهو خطوة لم يكن يحلم بها أشدُّ المتفائلين على الساحة السياسية(٢).

كما تحسَّنت العلاقات اليونانية- التركية خلال العقد الماضي؛ ومال الأتراك إلى حلِّ المشكلة بقبرص -أيضًا- وإعادة توحيد الجزيرة في نظامٍ فيدرالي، واقترحت الأمم المتحدة حلاًّ للمشكلة وافق عليه الأتراك في بداية عهد رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوجان.

وما تردد أردوجان في المبادرة في الملف الكردي -أيضًا- فقد أعطى الأكراد حقوقًا ثقافية وتربوية، وفي البرلمان التركي الآن كتلة نُوَّاب أكراد صغيرة، ولا يلقى حراكهم غير العنيف اعتراضًا كما في السابق(٣).

ويعود الفضل في هذه السياسية البنَّاءة إلى وزير الخارجية التركي أحمد داود أوغلو(٤)، الذي يُعَدُّ منظِّر حزب العدالة والتنمية التركي؛ فبحسب ما جاء في التقرير الذي نشرته

(١) عمر كوش: العلاقات السورية التركية.. من التأزم إلى التعاون، الجزيرة نت، ١٢ نوفمبر ٢٠٠٩م، www.aljazeera.net.

(٢) راغب السرجاني: بين التاريخ والواقع، ٤/ ١٥٣، ١٥٤.

(٣) رضوان السيد: النهوض التركي ومواجهة المشكلات التاريخية، صحيفة الاتحاد الإماراتية، ١٨ أكتوبر ٢٠٠٩م.

(٤) أحمد داود أوغلو (١٩٥٩م-..): وزير خارجية تركيا، وهو أستاذ للعلوم السياسية التركية، اشتهر برحلاته المكوكية لتسوية النزاعات التركية مع جيرانها، ويُعَدُّ كتابه الشهير (العمق الاستراتيجي) أهم ما أُلِّف في هيكلة السياسة الخارجية التركية.

مؤسسة (سيتا) البحثية في أنقرة على موقعها الإلكتروني[١] عن رؤية داود أوغلو للسياسة الخارجية التركية عقب تعيينه وزيرًا للخارجية في مايو ٢٠٠٩م، قال التقرير: إن مهمة داود أوغلو ستكون التحوُّل من التصميم الفكري للسياسات إلى انخراط أكثر واقعية في السياسة الخارجية، إضافة إلى أن عهده سيُعَمِّق انخراط تركيا في السياسة الإقليمية والمنظمات الدولية والسياسة العالمية، وهناك إجماع على أن داود أوغلو هو الذي غيَّر بصورة كبيرة في خطاب سياسة تركيا الخارجية وممارستها، بحيث جعلها تَتَّسم بالحراك وتعدُّد الأبعاد، فقد وضع لها رؤيةً وأسلوبًا جديدين وإطارًا لتنفيذهما.

لقد نجحت رؤية داود أوغلو في الميدان ونالت سياستُه مشروعيةً لدى المنتقدين المشكِّكين داخل تركيا وخارجها، وساعده ما يحظى به من تقدير في جوار تركيا ولدى اللاعبين الرئيسين في النظام الدولي[٢][٣].

تَستنِد رؤيةُ داود أوغلو في السياسة الخارجية إلى التحوُّل الداخلي في تركيا، لا سيَّما توطيد الاستقرار السياسي والاقتصادي في البلاد، فقد سَمح الإصلاحُ الداخلي في تركيا وقدراتُها الاقتصادية المتناميةُ للبلاد بالبروز كراعٍ للسلام في المناطق المجاورة.

كما قام أوغلو بصياغة سياسته الخارجية على أساس تصوُّرٍ جغرافيٍّ جديد وَضَع حدًّا لما يُسميه «إبعاد» البلدان المجاورة لتركيا، ويكمنُ أحدُ المكونات الأساسية لرؤيته في جعل الصورِ السلبية والأفكار المسبقة -لا سيما تلك المتعلِّقة بالشرق الأوسط- شيئًا من الماضي، وسمحَ هذا التحوُّل لتركيا بتحرير سياستها الخارجية تمامًا من أغلال الاعتبارات الداخلية[٤].

ومَهَّدت رؤية داود أوغلو الطريقَ لبروز تصوُّر جديد يضع مختلفَ الفرضيات عن البلدان الإقليمية في أذهان صانعي السياسة، وتكمن المسألةُ الأساسيةُ في التحوُّل المشارِ إليه

---

(١) يمكن الاطلاع على الورقة الأصلية، والمراجع التي اعتمدت عليها على الموقع الإلكتروني لمؤسسة «سيتا» للأبحاث السياسية والاقتصادية والاجتماعية: www.setav.org.

(٢) بولنت أراس: داود أوغلو والسياسة الخارجية الجديدة لتركيا، ١٥/ ٦/ ٢٠٠٩م، www.aljazeera.net.

(٣) انظر: صورة رقم ٢٥ أحمد داود أغلو.

(٤) Ahmet Davutoğlu, Stratejik Derinlik, (İstanbul: Küre, 2001), p. 49 and p. 409

آنفًا، والذي أعاد تحديد خيارات السياسة الخارجية، فاتخذت شكلاً جديدًا متأثِّرَةً بما قام به أوغلو من إعادةٍ لتحديد دور تركيا في المناطق المجاورة وفي السياسة الدولية، أي في «عمقها الاستراتيجي»؛ بحيث توسَّعت الحدود إلى ما وراء البلادِ في الخريطة المعرفية لأذهان صانعي السياسة، وزالت في الذهنية الجديدة الحدودُ الإقليميةُ أمام الانخراط التركي في البلدان المجاورة، واكتسبت العلاقة بين «الجوار والآخر» معنى جديدًا بعد التخلُّص من ضغوط تصوُّرات التهديد الداخلية في السياسة الإقليمية(١). **(انظر: خريطة رقم ٦ تركيا ودول الجوار).**

وتخطَّت الطموحات التركية في التعايش دائرة دول الجوار إلى ما هو أبعد؛ فيُشير داود أوغلو إلى أن تركيا تتعهَّد بالمساهمة في أمن واستقرار ورفاهة مجموعةٍ واسعة من الأقاليم البعيدة عن جوار تركيا المباشر، ويقول معلِّقا على نشاط تركيا المستقبلي في إفريقيا: «إن البلد الذي يُقَلِّل من شأن إفريقيا لا يمكن أن يكون له موقع عالمي»(٢).

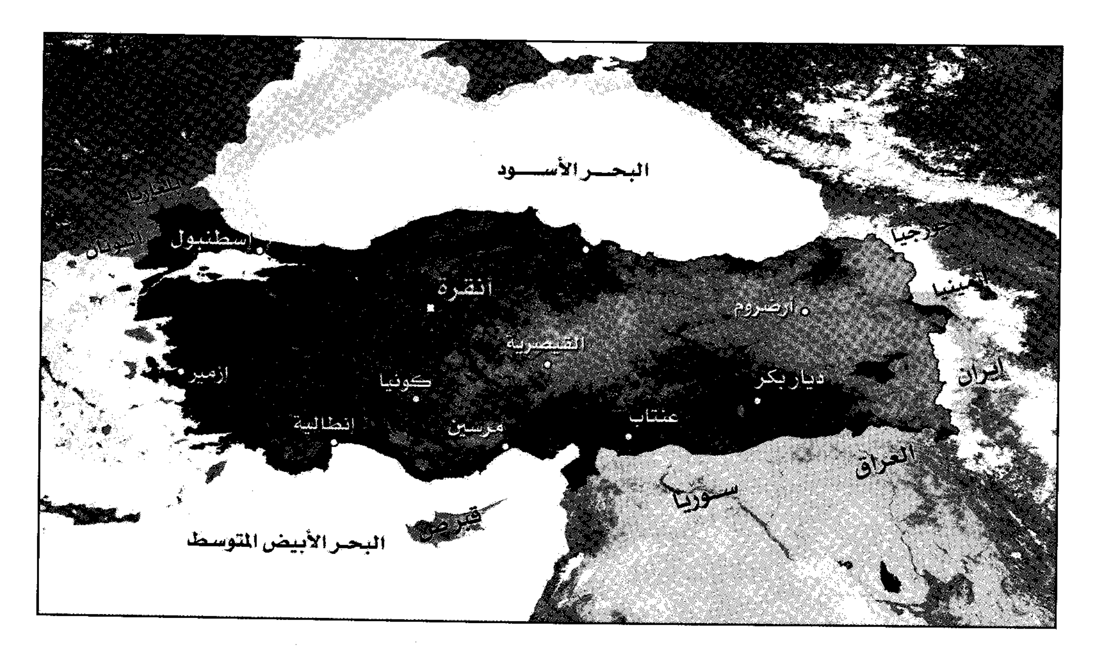
بل إن تركيا تنظر الآن إلى العالم أجمع على أنه فرصة للمشاركة والتعاون، فيقول أوغلو: «ستكون التزامات تركيا من تشيلي إلى إندونيسيا، ومن إفريقيا إلى آسيا الوسطى، ومن الاتحاد الأوربي إلى منظمة المؤتمر الإسلامي جزءًا من مقاربة شاملة للسياسة الخارجية، وستجعل المبادراتُ تركيا فاعلاً عالميًّا ونحن نقترب من العام ٢٠٢٣م، الذكرى المئوية الأولى لإقامة الجمهورية التركية»(٣).

---

(١) H. V. Houtum, The Geopolitics of Borders and Boundaries, Geopolitics, 10(4), 2005, p. 674

(٢) Ties with Africa Help Ties with EU, Hürriyet Daily News, 28 February 2009

(٣) Davutoğlu, Turkey's New Foreign Policy Vision, p.96



تركيا ودول الجوار

خريطة رقم (٦)



أحمد داود أوغلو

صورة رقم (٢٥)



وتَبرُز تركيا في هذه الذهنية باعتبارها لاعبًا مؤثِّرا في جغرافيةٍ تمتدُّ من إفريقيا إلى الشرق الأوسط وما وراءهما، ولا تَفترضُ سياسة تركيا الخارجية في المناطق المجاورة دورًا مهيمنًا لتركيا بل تهدفُ إلى مقاربة شاملةٍ لبناء السلام والأمن، مقاربة قائمةٍ على الحراك داخلَ هذه المناطق، وتبعًا لهذا التفكير اكتسب صانعو السياسة الخارجية التركية ثقةً في النفس وإرادةً سياسية جديدتين؛ للسعي وراء محاولات السلام في المناطق المجاورة، فها هي ذي تركيا تستقبل زعماءَ الشرق الأوسط وأوراسيا وإفريقيا إلى جانب سياسيين ومسئولين كبار من البلدان الغربية، كما تقومُ بتيسير الأرضيات لحلِّ النزاعات في أماكنَ عديدة.

ويحاولُ صانعو السياسة الأتراك التغلُّب على الخلافاتِ بين البلدان المتنازعة؛ من خلال تدابيرِ بناء الثقة، وأداء دور الوسيط والمسهِّل لإيجاد الحلول للمشكلات الإقليمية المزمنة.

وقد تمكَّنت تركيا بفضل مقاربتهم من البروز في دور صانعِ السلام على أطراف النظام الدولي، وبما أنَّ رؤية داود أوغلو هي القوةُ الدافعة الكامنة وراء هذه التطوُّرات، فإنها تهدفُ إلى إعداد الأرضيةِ لوعي جديد بالسلام في جغرافيا واسعةٍ، تمتدُّ من الشرق الأوسط إلى أراضي الاستبس في أوراسيا[1].

فكما يرى أوغلو أن تركيا كانت بلدًا يقومُ على الأولويات في سياسته الخارجية في حقبة الحرب الباردة، حينما كان هناك نوعٌ من التراتبية في الأولويات في أذهان صانعي السياسةِ الخارجية، الذين اتَّبعوا سياسةً مرتبطةً بهذه الأولويات الثابتة.

غير أن هذه التراتبية لم تعُدْ صالحة في الحقبة الحالية في نظر داود أوغلو، وعِوَض ذلك ثمة حاجة إلى وضع سياسةٍ جديدة، تقوم على دمج قضايا السياسة الخارجية في إطارٍ واحد لصياغة السياسات، ولا يمكن لتركيا أن تُديرَ ظهرَها لبعض المناطق أو تفاديها مثلما فَعلت في الماضي، فهي تملك هوياتٍ إقليميةً متعدِّدَة؛ ومن ثَمَّ لها القدرة على اتِّباع سياسةٍ خارجية متكاملة؛ لإدراج قضايا متعدِّدةٍ في الإطار نفسه، من مسار السلام في الشرق الأوسط إلى الاستقرار في القوقاز، مع منح الأولوية للقضايا الحالَّة، دون أن تتجاهلَ الانشغالاتِ

---

(١) بولنت أراس: تركيا الجديدة–حقبة أحمد داود اغلو–، مجلة شئون الأوسط، مركز الدراسات الاستراتيجية، لبنان، ربيع ٢٠١٠م، العدد ١٣٥، ص٤٩–٥٥.

السياسة الخارجية الأخرى.

وعلى سبيل المثال فإن الخلافَ بشأن الاتحاد الأوربي وقبرص كان على الأجندة في النصف الأول من عام ٢٠٠٤م، وركَّزت السياسة الخارجية على العراق في النصف الثاني منه، بينما جاءت مأساة غزة على رأس الأجندة في أواخر ٢٠٠٨م[١].

وأخيرًا فمن الملاحظ أنه منذ تولِّي حزب العدالة والتنمية الحكم، والعلاقات بين تركيا والعديد من دول العالم تشهد تحسُّنًا مطَّردًا؛ فمثلاً على محور جمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز يعود تحسُّن العلاقات إلى أن حزب العدالة والتنمية غيَّر فلسفة تعامله مع روسيا؛ فعوضًا عن النظر إليها على أنها «منافس»، أصبح يتعامل معها على أنها «شريك»، آخذًا بعين الاعتبار معطى الجوار الجغرافي وارتباط المصالح، فعلى سبيل المثال أصبحت روسيا تُمثِّل بالنسبة لتركيا ثاني أكبر شريك تجاري، ويبلغ حجم التبادل التجاري بينهما عام ٢٠٠٨م حوالي ٢٥ مليار دولار، وهذا الرقم مرشَّح للزيادة المستمرَّة.

ولتكتمل دائرة تحسين العلاقات بين تركيا والقوقاز وآسيا الوسطى، تبذل الدبلوماسية التركية جهودًا كبيرة لتطوير علاقاتها مع أرمينيا وتجاوز العُقَد التاريخية التي تحول دون ذلك، وتنتهج تركيا عدَّة أساليب دبلوماسية واقتصادية وأمنية لتحقيق هذا الهدف؛ منها: تنشيط «منتدى الاستقرار والتعاون في القوقاز»، الذي تمَّ تدشينه في أعقاب الاشتباك المسلَّح الذي نشب عام ٢٠٠٨م بين روسيا وجورجيا على خلفية أوسيتيا الجنوبية، فضلاً عن الزيارات المتبادلة على أعلى المستويات بين البلدين[٢].

لقد استطاعت السياسة الخارجية التركية أن تضرب مثالاً نال الإعجاب، ونراه جديرًا بالدراسة والاستفادة منه في الكثير من دول عالمنا المعاصر.

---

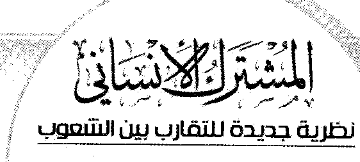
(١) بولنت أراس: داود أوغلو والسياسة الخارجية الجديدة لتركيا، ترجمة: الطاهر بوساحية – مركز الجزيرة للدراسات - ١٥/ ٦/ ٢٠٠٩م، www.aljazeera.net.

(٢) محرم أكشي: تركيا في آسيا الوسطى والقوقاز.. تأمين لجسور الطاقة، مركز الجزيرة للدراسات، ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٩م، www.aljazeera.net.



خاتمة..
نداء إلى عقلاء العالم





خاتمة

(نداء إلى عقلاء العالم)

وعقلاء العالم هم عقوله المفكِّرة، وهؤلاء هم قوَّاده الحقيقيون، فليس من إنسان إلاَّ وهو يتصرَّف بوحي من قناعاته وأفكاره، هذه القناعات والأفكار تشكَّلت بتأثير من العلماء والمفكِّرين، أولئك الذين انتشرت أفكارهم وترسَّخت حتى وصلت إلى الأب والأم، وإلى المربية وإلى المعلمة في الحضانة والمدرسة، وإلى الصحفي والإعلامي.. إلى آخره، ثم انتقلت إلى الإنسان، فأخذت طريقها نحو التنفيذ، والتنفيذ أقوى ما يكون إذا وصل هذا الإنسان إلى منصب سياسي أو عسكري مؤثِّر.

ثمة أشخاص يرجع إليهم في النهاية منبعُ الأفكار، هؤلاء هم القادة الحقيقيون لمسارات الشعوب، فبوحي من نتاج عقولهم تشكَّلت عقول وقلوب، ورُسِمَت طموحات وأفكار وخطط واستراتيجيات، وتحرَّكت حشود وجيوش وأساطيل؛ لذا فهم الصُّنَّاع الحقيقيون للتاريخ؛ فأصحاب الأفكار هم الذين يُشَكِّلُون الرؤى التي يعتنقها السياسيون والعسكريون وقادة الدول، وكثيرًا ما يُنسب إلى المستبدِّين والأشرار أنهم تتلمذوا على كتاب (الأمير) لمكيافيللي، فهتلر كان لا ينام إلاَّ إنْ قرأه، وفيه أعدَّ موسوليني رسالته للدكتوراه، وكان مِن قُرَّائه -أيضًا- لينين وستالين[١].

وسواء صحَّ هذا الكلام أم لم يصحّ، إلا أنه يُعَبِّر عن حقيقة أن المفكِّرين هم الذين يُشَكِّلُون الرؤى والقناعات التي يُحَوِّلها السياسيون والعسكريون إلى تاريخ حقيقي، إن مما يُذكر بالاستحسان للإسكندر الأكبر أنه كان تلميذًا لأرسطو، ومما نذكره في تاريخنا بالخير أن عمر بن عبد العزيز كان من بطانته رجاء بن حيوة[٢]، وكان أبو يوسف القاضي من بطانة

---

(١) انظر: ميكيافيللي: الأمير، ص٥ (مقدمة المترجم).

(٢) رجاء بن حيوة: هو أبو المقدام رجاء بن حيوة بن جرول الكندي الفلسطيني الفقيه، من جلة التابعين، كان ثقة، عالمًا، فاضلاً، كثير العلم، قال مسلمة بن عبد الملك: برجاء بن حيوة وبأمثاله ننصر. توفي سنة ١١٢هـ. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١٤/ ٧٠.

هارون الرشيد، كذلك اشتعلت الأزمة الفكرية في عصر المأمون لأن أحمد بن أبي دُاوَد -إمام المعتزلة- كان من بطانة المأمون، وضاعت بغداد بلا مقاومة أمام المغول؛ لأن ابن العلقمي[١] ونصير الدين الطوسي[٢] -وهما وزيران وعالمان- كانا في بطانة المستعصم العباسي.

وحتى اليوم لا تنسى الديمقراطيات فضل الجهود الفكرية لجون لوك، كما لا تنسى الثورة الفرنسية فضل جان جاك روسو، كما لا يمكن أن نُفَسِّر سياسة الولايات المتحدة الحالية بعيدًا عن برنارد لويس وصمويل هنتنجتون وجون كريستوف روفان.

***

وإذا ما غاب القادة الفكريون الممثَّلون في العلماء والخبراء والمتخصِّصين، فإن المشهد سيبدو مأساويًّا؛ إذ سيتصدَّر للتعليم والتدريس والتربية والتوجيه الجهلة والسفهاء والتافهون، وهؤلاء حريٌّ بهم أن يقودوا شعوبهم ورعيتهم نحو الكوارث والمآسي، وكم تكرَّر ذلك في التاريخ! لذا فإن من علامات الفساد التي يُحْذَر منها أن يُوضع في المنصب مَنْ لم يكن كُفئًا له، وفي هذا يقول النبي ﷺ: «**إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَّاعَةٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ**». قيل: وما الرويبضة؟ قال: «**السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**»[٣].

---

(١) ابن العلقمي: أبو طالب مؤيد الدين محمد بن أحمد بن علي، المعروف بابن العلقمي البغدادي الرافضي (٥٩٣-٦٥٦هـ/ ١١٩٧-١٢٥٨م): وزير المستعصم العباسي، وصاحب الجريمة النكراء في ممالأة «هولاكو» على غزو بغداد، وأُهين على أيدي التتار، ومات غمًّا في قلة وذلة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٦١، ٣٦٢، الزركلي: الأعلام ٥/ ٣٢١.

(٢) نصير الدين الطوسي: هو أبو جعفر محمد بن محمد بن الحسن (٥٩٧-٦٧٢هـ/ ١٢٠١-١٢٧٤م) كان رأسًا في العلوم العقلية، علاّمة بالأرصاد والرياضيات، علت منزلته عند (هولاكو)، فكان يطيعه فيما يشير به عليه. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ١٤٧.

(٣) رواه ابن ماجه (٤٠٣٦)، وأحمد (٧٨٩٩، ٨٤٤٠، ١٣٣٢٢)، وأبو يعلى (٣٧١٥)، والطبراني في الأوسط (٣٢٥٨)، والحاكم (٨٤٣٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال شعيب الأرناءوط في التعليق على مسند أحمد: حديث حسن. وقال سليم أسد في التعليق على أبي يعلى: رجاله ثقات. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢٥٣). والرويبضة: تصغير رابضةٍ وهو الذي يرعى الغنم، وقيل هو العاجز الذي رَبَضَ عن معَالي الأُمور وقَعَد عن طَلَبها، والغالب أنه قيل للتافه من الناس رابضة ورويبضة لربوضه في بيته وقلة انبعاثه في الأُمور الجسيمة. ابن منظور: لسان العرب، مادة ربض ٧/ ١٤٩.

ومما يُنسب إلى عليٍّ بن أبي طالب ﷺ قوله: «الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلِّم على سبيل النجاة، وهمج رعاع أتباع لكلِّ ناعق، يميلون مع كل ريح»[١].

فإذا لم يكن العالِم في موضع القيادة الفكرية، فأهون الأحوال أن يتصدَّر المشهد متعلِّم يتعثَّر ويتعسَّر، وأسوأها أن يتصدَّره الجاهل الذي لا يعلم ولا يتعلَّم.

ولهذا تحتفظ الذاكرة الإنسانية بأسماء العلماء وسيرهم أكثر مما تحتفظ بأسماء الملوك والقادة، برغم أن الآخرين هم الأظهر في مجال صناعة التاريخ وتغيير حدود الممالك والدول ونشأة الإمبراطوريات وسقوطها، فمَنْ يعرف الآن قادة الإغريق السياسيين والعسكريين؟ قد يكون بقيت في الذاكرة أسماء القليل منهم ممن يُعَدُّون على أصابع اليد، لكن مَنْ لا يعرف في التاريخ أسماء سقراط وأفلاطون وأرسطو وإقليدس وفيثاغورث[٢] وبطليموس[٣] وأرشميدس وجالينوس[٤]؟! وهكذا قد يغيب عن الذاكرة أسماء الذين حكموا إيطاليا في عصر النهضة، لكن مَنْ لا يعرف رُوَّاد عصر النهضة الإيطاليين، ليوناردو دا فنشي، مايكل أنجلو، مكيافيللي، برونو، جاليليو، ماركو بولو، كولومبوس.. وغيرهم.

وفي التاريخ الإسلامي إذا سُئل الجمهور عن أسماء الحكَّام والقادة السياسيين والعسكريين فلن يذكروا إلاَّ عددًا قليلاً، لكن الذاكرة مشحونة بكثير من أسماء العلماء عبر كل التاريخ الإسلامي، فمَنْ في المسلمين لا يعرف أسماء مثل: الحسن البصري[٥]،

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ١/ ١٢١.

(٢) فيثاغورث: (٥٨٠-٥٠٠ق. م)، فيلسوف يوناني ورياضي إغريقي عاش في القرن السادس قبل الميلاد، ومؤسس الحركة الدينية المسماة فيثاغورية، وتُنسب إليه مبرهنة فيثاغورث.

(٣) بطليموس: هو كلاوديوس بطليموس (٨٣- ١٦١م) أشهر الفلكيين الإغريق، وهو فلكي ورياضي وفيلسوف، ويعرف ببطليموس الحكيم، اختلف في نسبته إلى اليونان أو مصر، أشهر كتبه المجسطي في الفلك.

(٤) جالينوس: (١٣٠- ٢٠٠م) طبيب يوناني من أشهر الأطباء في التاريخ، ويعدُّ من مؤسسي الطب الكبار، خصوصًا علم التشريح.

(٥) الحسن البصري: هو أبو سعيد الحسن بن يسار البصري (٢١-١١٠هـ=٦٤٢-٧٢٨م)، كان من سادات التابعين وكبرائهم، وجمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة، وُلِدَ بالمدينة، وتوفي بالبصرة. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٦٩-٧٢.

وأبي حنيفة، ومالك[١]، والشافعي، وأحمد بن حنبل[٢]، والبخاري، ومسلم، والترمذي[٣]، والنسائي[٤]، والفارابي[٥]، وابن سينا، والرازي، والحسن بن الهيثم[٦]، والنووي[٧]، وابن رشد، وابن تيمية، وابن القيم، والذهبي[٨]، وابن حجر العسقلاني[٩]، وغيرهم وغيرهم!

إن ثمة قاعدة تبدو واضحة في مسار التاريخ الإنساني؛ تلك هي: أن عصور النهضة هي عصور الثراء في العلماء، وأمَّا عصور النكبة فهي التي تذهب بالعلماء إلى السجن أو إلى الموت؛ يمكننا أن نحقِّق هذه القاعدة بالنظر إلى عصور النهضات وعصور النكبات، لقد كانت بغداد

---

(١) مالك: هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري (٩٣- ١٧٩هـ): إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه تنسب المالكية. ولد وتوفي في المدينة. كان صُلبًا في دينه، بعيدًا عن الأمراء والملوك. ومن أشهر مصنفاته: مسند الموطأ. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٨، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ١٣٥، الزركلي: الأعلام ٥/ ٢٥٧.

(٢) أحمد بن حنبل: هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (١٦٤-٢٤١هـ)، إمام المحدثين، صنَّف كتابه المسند، وجمع فيه من الحديث ما لم يتَّفِق لغيره، وقيل: إنه كان يحفظ ألف ألف حديث. وكان من أصحاب الإمام الشافعي وخواصِّه، ولم يزل مصاحبه إلى أن ارتحل الشافعيُّ إلى مصر، ولد وتوفي ببغداد. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ٦٤.

(٣) محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (٢١٠- ٢٧٩هـ): محدث، حافظ، مؤرخ، فقيه، تتلمذ لمحمد بن إسماعيل البخاري. من تصانيفه: الجامع الصحيح، والشمائل في والعلل في الحديث، ورسالة في الخلاف والجدل والتاريخ. رضا كحالة: معجم المؤلفين ١١/ ١٠٤، ١٠٥.

(٤) النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (٢١٥- ٣٠٣هـ/ ٨٣٠- ٩١٥م)، أحد أئمة الحديث الكبار، ومن أصحاب السنن. ولد في نسا بخراسان، وتوفي بمكة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٤/ ١٢٥.

(٥) الفارابي: هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي (٢٦٠-٣٣٩هـ=٨٧٤-٩٥٠م)، التركي الحكيم المشهور، وهو أكبر فلاسفة المسلمين، وُلِدَ في فاراب، وتوفي بدمشق. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٥٣-١٥٦.

(٦) الحسن بن الهيثم: هو أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم (٣٥٤- ٤٣٠هـ/ ٩٦٥- ١٠٣٩م)، ويلقَّب ببطليموس الثاني: رياضي، مهندس، طبيب، حكيم. ولد بالبصرة، وتوفي بالقاهرة. انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٣/ ٣٧٢- ٣٧٦، كحالة: معجم المؤلفين ٩/ ٢٢٥، ٢٢٦.

(٧) النووي: هو أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، محيي الدين (٦٣١- ٦٧٦هـ/ ١٢٣٣- ١٢٧٧م): علاَّمة بالفقه والحديث، مولده ووفاته في نوا بسوريا، وإليها نسبته. من أشهر كتبه: المنهاج في شرح صحيح مسلم، ورياض الصالحين. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٢٧٨، الزركلي: الأعلام ٨/ ١٤٩.

(٨) الذهبي: هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (٦٧٣- ٧٤٨هـ/ ١٢٧٤- ١٣٤٨م): حافظ، مؤرخ، علامة محقق، تركماني الأصل، مولده ووفاته في دمشق، تصانيفه كثيرة تقارب المائة. انظر: الزركلي: الأعلام ٥/ ٣٢٦.

(٩) ابن حجر العسقلاني: هو أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناني (٧٧٣- ٨٥٢هـ/ ١٣٧٢- ١٤٤٩م): من أئمة العلم والتاريخ، مولده بعسقلان ووفاته بالقاهرة. من كتبه: فتح الباري. انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٧/ ٢٧٠- ٢٧٣.

عاصمة الدنيا يوم أن كانت تموج بالعلماء في كل فنٍّ، حينما كانت عاصمة الرشيد والمأمون، وكانت تُحْمَل إليها الكتب من كل مكان، ثم هي تُخْرِج الكتب إلى كل مكان، ثم مرَّ الزمان على بغداد وهي قافرة مقفرة محطَّمة، قد سُلب منها حسنها وبهاؤها حين كان بلاطها مهتمًّا بالتوافه والتافهين والمنافقين، وكان يضع خيرة عقولها في السجون أو المنافي أو المشانق.. كذلك كانت القاهرة، وكذلك كانت قُرْطُبَة، وكذلك كل عاصمة ثقافية حضارية في هذه الدنيا.

لقد استفادت من هذا الدرس مدن أخرى، باريس وبرلين وواشنطن وروما ومدريد، فخرجت من عصورها الوسطى المظلمة؛ حيث كان العلماء في السجون أو في المحارق، لتدخل عصر النهضة، الذي أنتج أمواجًا هائلة من الفلاسفة والمفكرين والفنانين والأدباء والفلكيين والمهندسين والرحالة؛ فتحوَّلت من عصور الظلام الوسطى إلى عصور السيادة الثقافية والحضارية.

إن القادة الفكريين هم القادة الحقيقيون لمسار النهضة وصناعة التاريخ، ولأجل هذا نتوجَّه إليهم تحديدًا بهذه السطور القادمة؛ لأنهم وحدهم يملكون -بداية- فهمها واستيعابها، ثم تطويرها وتنميتها وتصحيحها، ثم العمل على تحويلها إلى برامج عمل فعلية على أرض الواقع.

***

إلى عقلاء العالم..

أول الواجبات التي يُفترض أن ينتبه لها ويحرص عليها عقلاء العالم تجنُّب قيام نزاع له طابع ديني، أو يمثِّل اعتداء -ولو في أحد جوانبه- على الدين، فتلك هي النقطة التي يأخذ عندها الصراع أبعادًا أخرى في غاية الخطورة؛ فالبداية تجييشٌ للجماهير يضرب على أوتار عاطفتهم الدينية، فيُنسى السبب الفعلي الذي قامت له الحرب؛ ومن ثَمَّ يُنسى معيار العدالة الذي يجب أن تتوقَّف الحرب عنده، فتصير الحرب في حدِّ ذاتها رسالة، ويُصبح استمرار القتل عبادة، ثم إن الأجيال تتوارث الثارات إلى مئات السنين، فلا تكاد الحرب تهدأ وتتوقَّف

بسبب من التعب والإنهاك، الذي أصاب الطرفين حتى تكون النار مشتعلة تحت الرماد، فتنتظر حدثًا آخر أو تغيرًا في ميزان القوى لدى أحد المعسكرين فتنشب من جديد.

في أحداث الحادي عشر من سبتمبر تمَّ إلباس النزاع ثوبًا دينيًّا لحشد الشعب الأميركي، ومن خلفه الشعوب الأوربية تحت شعار المسيحية، التي تحارب الإرهاب الإسلامي، ورُفع الشعار الأشهر: «من ليس معنا فهو ضدنا». وتمَّ الإعلان بأنها حملة صليبية[1]؛ ومن ثَمَّ نُسي أن سبب الحادث كان مقتل حوالي ثلاثة آلاف أميركي؛ ليصير الصراع رسالة دينية تقضي بوقف ومحاربة الإرهاب الإسلامي كله، فتختفي صيغة العدالة المنطقية لتأتي صيغ أخرى رسالية.

ذلك ما سَخِرَتْ منه الكاتبة الهندية أرونداي روي[2]، التي رصدت التفرقة التعسُّفية بين الحضارة والبربرية، فحينما يُقْتَل «المتحضرون» يُقال بأنه: «قتل الأبرياء». أمَّا حين يُقْتَل «المتخلفون» يُبَرَّر هذا بأنها من «الأضرار المصاحبة للحروب»، تقول: «هذه السفسطة وطريقة الحسابات المتعسِّفة للعدالة المطلقة: كم عراقيًّا يجب أن يموت حتى يتغير العالم إلى الأفضل؟! كم ميتًا في أفغانستان مقابل كل ميت أميركي؟! كم عدد القتلى من النساء والأطفال مقابل رجل ميت؟! وكم عدد القتلى من المجاهدين مقابل رجل أعمال؟!»[3].

إنَّ إلباس المصالح ثوبًا دينيًّا يجعلنا أمام حروب لا تنتهي، حروب تختفي فيها العدالة لحساب التعصب، الذي لا يشبع أبدًا من الضحايا، ولا يتوقف أبدًا عند لحظة من عقل، حتى لو ثبت بعد كل التجارب التاريخية أن نزاعًا دينيًّا لم يؤدِّ إلى تقدُّم أو مصلحة؛ تقول كارين أرمسترونج - التي كانت راهبة مسيحية، ثم ابتعدت عن الأديان واشتغلت بالبحث فيها ومقارنتها- في لحظة كأنها تمثِّل خلاصة حياتها: «قد ظللت لسنوات عديدة لا أُريد أن تكون

---

(١) لم يُغَيِّر من الأمر شيئًا أن اعتذرت الإدارة الأميركية عن هذه اللفظة: «حملة صليبية». باعتبارها زلة لسان، فلسان الحال يقول هذا بأبلغ مما يقوله لسان المقال، كما أن سلوك الرئيس بوش الابن وخطاباته وتصريحاته الممتلئة بجو الحرب الدينية الرسالية تجعل هذه اللفظة من فلتات اللسان التي تعبر عن مكنونات الصدور.

(٢) سوزانا أروينداي روي Arundhati Roy: كاتبة هندية، ناشطة في مجال العدالة الاجتماعية والاقتصادية، مواليد ٢٤ نوفمبر ١٩٦١م، لها العديد من المقالات المهمة.

(٣) أروينداي روي: حسابات العدالة المطلقة، ص٨، نقلاً عن: محمد سعدي: مستقبل العلاقات الدولية، ص٣٤٢.

لي أية علاقة بالدين، ومن المؤكَّد أن بعضًا من كتبي الأولى بها اتجاهات دوكينزية[١]، لكن دراستي لأديان العالم على مدى العشرين عامًا الأخيرة أجبرتني على مراجعة آرائي المبكِّرة، فَتَحَتْ تلك المراجعةُ عيني على أوجه دينية يمارسها معتنقو الأديان الأخرى؛ مما أدَّى إلى تعديل عقيدتي الطفولية الضيقة الدوجماتية[٢]، هذا إضافة إلى أن التقييم الدقيق الواعي للأدلة جعل نظرتي للمسيحية ذاتها تتغير، **أحد الأشياء التي تعلمتها هي أن الشجار حول الدين مُضِرٌّ وغير مُجْدٍ ولا يُؤَدِّي إلى الاستنارة**»[٣].

ولهذا يجب مناهضة الاعتداء على الأديان، ومحاربة كل محاولة تسير في طريق إشعال حرب على أساس ديني؛ ومن ثَمَّ فإنه يجب وبشكل أكبر مقاومة بعض السياسيين المجانين، الذين لا يعبأون في سبيل الحصول على مصالحهم القاصرة والعاجلة والذاتية أن يستخدموا العاطفة الدينية في تعبئة الجماهير وتحميسها، فهذه نقطة البداية في طريق الكارثة.

في اليوم نفسه الذي أكتب فيه هذه السطور، نشرت جريدة الشروق المصرية نبأ عن دعوة كنيسة أميركية إلى اعتماد يوم الـ١١ من سبتمبر يومًا عالميًّا لإحراق القرآن الكريم؛ وذلك إحياء لذكرى ضحايا الاعتداء الذي تعرَّض له مركز التجارة العالمي، والذي يُصادف العام الحالي ذكراه العاشرة، وأعلن قساوسة إنجيليون أنهم سوف يحرقون القرآن مُوَجِّهين دعواتهم للآخرين كي يحذوا حذوهم، وأسسوا لهذا الغرض صفحة على موقع التواصل الاجتماعي «فيس بوك» تحت شعار «اليوم العالمي لحرق القرآن»[٤].

هذا مجرد أثر من آثار تحويل ما حدث في سبتمبر إلى حرب دينية، لكن.. ترى ما الذي يرجوه مَنْ أعلنوا عن هذا اليوم العالمي لحرق القرآن؟ إنه ليس إلاَّ إشعال مزيد من الفتن في

---

(١) نسبة إلى ريتشارد دوكينز (Richard Dawkins) أحد أشهر فلاسفة الإلحاد في وقتنا هذا.

(٢) الدوجماتية: مصطلح غير عربي يتردد كثيرًا حتى في الكتابات العربية كأحد المصطلحات التي دخلت إلى الساحة العربية عبر الصحافة والكتابات الفلسفية، التي لم تهتم بتعريب المصطلحات ونقل المعنى؛ مثل: الأيديولجية والراديكالية والإمبريالية والإمبريقية وهكذا، وهي -أي الدوجماتية- تعني: الجمود والتشدد والتعصب وما إلى ذلك.

(٣) كارين أرمسترونج: الله لماذا؟ ص٢٠.

(٤) جريدة الشروق المصرية ٢٥/ ٧/ ٢٠١٠م.

داخل الوطن الواحد بين فئاتٍ كان الأولى بها أن تتعايش في وفاق.

***

لقد طرحنا «نظرية المشترك الإنساني» طرحًا نظريًّا، وهذا ما استطعنا أن نفعله في حدود ما نملك من طاقات وإمكانيات، إلاَّ أن خروجها إلى حيز التطبيق يحتاج إلى تفعيلٍ بوضع ورش عمل ولجان ومناهج تربوية سيُنفق عليها الوقت والجهد، وإذا كنا وضعنا هذا الإطار النظري في بعض سنة من الزمن، فإن ثمرتها العملية تحتاج إلى مجهود متواصل على مدار سنين، سيكون - لا شَكَّ- مجهودًا كبيرًا، إلاَّ أنها ستعود بالنفع الأقوى على العالم في السنوات المقبلة.

أعلم أن المشاكل والأزمات -التي حدثت على مدار قرن أو اثنين- لا يمكن أن تُحَلَّ في لحظات، ولكن يجب علينا أن نَتَبَيَّن الطريق، ونعرف الوجهة والهدف، ثم نرسم بعد ذلك ملامح الحركة، وخطة العمل لتحقيق الأهداف المنشودة.

***

السعي إلى منع تربية العنف..

التربية العنيفة هي السبب الكامن داخل الأعماق، الذي يعود إليه ارتفاع حدَّة الصراعات، ومن الطبيعي أن الصراع يشتدُّ ويشتعل إذا كان أطرافه من المتعصِّبين، أولئك المتعصِّبُون هم الذين تَشَكَّلُوا من خلال التربية.

يُؤَكِّد إعلان المبادئ حول التسامح في نوفمبر ١٩٩٥م في مادته الرابعة على أن «التربية هي الأداة الأكثر فعالية للوقاية من التعصُّب، وأول خطوة في هذا الإطار تكمن في تعليم الأفراد معرفة حقوقهم وحرياتهم؛ لضمان احترامها ولحماية حقوق وحريات الآخرين. التربية على التسامح يمكن اعتبارها واجبًا أَوَّليًّا؛ لذلك من الضروري تطوير مناهج نظامية عقلانية، لتعلُّم التسامح على أساس التركيز على المصادر الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية للتعصُّب، والتي تُشَكِّل الأسباب العميقة للعنف والإقصاء، وسياسات وبرامج التربية يجب أن تُساهم في تنمية التفاهم والتضامن، والتسامح بين الأفراد، وكذا بين الجماعات



الإثنية، والاجتماعية، والثقافية، والدينية، واللغوية، وبين الأمم... والهدف هو تكوين مواطنين متضامنين، ومسئولين منفتحين على الثقافات الأخرى... قادرين على اتِّقاء النزاعات أو حلِّها بوسائل سلمية»(١).

وفي عالمنا المعاصر يتمُّ تشكيل الوجدان من خلال طريقين رئيسين: الأنظمة التربوية سواء في البيت والحضانة والمدرسة، والسياسات الإعلامية؛ وللأسف الشديد فإن اللحظة الحاضرة تشهد ازديادًا في العنف على المستويات الثلاثة المؤثِّرة في العملية التربوية: في البيت والمدرسة والدولة؛ جاء في تقرير اليونيفام لسنة ٢٠٠٦م أن العنف «يهدم مواهب وقدرات عدد كبير من الفتيات والنساء، وينجم عنه كلفة صحية واجتماعية واقتصادية باهظة». ويبين التقرير أن النساء لسن بمنأًى عن العنف الزوجي في أي مكان من العالم؛ ففي بريطانيا على سبيل المثال تتعرَّض ٣٠٪ من النساء لممارسات عنيفة من قِبَل الزوج أو القرين، الحالي أو السابق، وتصل هذه النسبة إلى ٥٢ ٪ في الضفة الغربية و٢١ ٪ في نيكاراجوا، و٢٩ ٪ في كندا، و٢٢٪ في الولايات المتحدة الأميركية، وفي دراسة معمَّقَة أُنجزت بالتعاون بين اللجنة الأممية لحقوق الإنسان والمنظمة العالمية للصحة واليونيسيف، وقُدِّمت نتائجها إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة في سنة ٢٠٠٦م، أن هنالك حوالي ٢٧٥ مليون طفل في العالم كانوا شهود عيان لأعمال عنف متكرِّرَة في أسرهم(٢).

وأمَّا خارج المنزل فتُشير دراسة إحصائية أُجريت في أميركا وبلدان أوربا، أن في أميركا وحدها يوجد مليونا طفل يُعانون من أشكال متعدِّدَة من العنف والاضطهاد من قِبَلِ الكبار، وحوالي ٣٠٠ ألف طفل قد تعرَّضُوا للاعتداء الجنسي (ذكورًا وإناثًا)، وأكَّد مصدر طبي مختصٌّ لوكالة أنباء القدس (قدس برس) أن ٨٠٪ من الأطفال الذين يتعرَّضُون للمعاملة السيئة سيتصرفون مستقبلاً بشكل سيِّئ مع أطفالهم أيضًا، وقَدَّرت الرابطة المهنية لأطباء الأطفال والناشئة في ألمانيا نسبة الأطفال الذين يتعرَّضُون لسوء المعاملة والامتهان بما يتراوح

(١) نقلاً عن: محمد سعدي: مستقبل العلاقات الدولية، ص٣٦٠.

(٢) الجازية الهمامي: العنف الأسري في بلدان المغرب العربي، ورقة بحثية مقدمة في مؤتمر كرامة حول العنف الأسري، البحرين ٢-٤ ديسمبر ٢٠٠٨م، ص٢، ٣.

بين ٥-١٠٪ في ألمانيا الاتحادية، وفي المقابل حذَّرت الشرطة الألمانية من تنامي ظاهرة جريمة الأطفال والناشئة في البلاد[١].

وأمَّا بخصوص السياسات الإعلامية، وهي الرافد الرئيس الثاني لزرع تربية العنف في الناشئة، فهي تتبدَّى اليوم أوضح من أي فترة سابقة، ولنضرب مثلاً بالكارتون المسمى «توم وجيري»، الذي يصوغ وجدان أطفالنا؛ حيث يقوم الفأر اللذيذ الماكر باستخدام كل الحيل - التي لا تتمُّ مناقشتها أخلاقيًّا، فالمهم أنها لذيذة وذكية وناجحة- للقضاء على خصمه القطِّ الغبي ثقيل الظلِّ، لنلاحظ أن القيم المستخدمة هنا نسبية وظيفية برجماتية، لا علاقة لها بالخير أو الشرِّ، بل بالنجاح أو الفشل في المعركة، ثم إن المعركة بينهما لا تنتهي، تبدأ في أول الفيلم ولا تنتهي في آخره، والصراع بينهما لا يحمل أي معنًى أو رسالة أخلاقية، كذلك هذه اللقطة الشهيرة المتكرِّرَة في أفلام رعاة البقر، لقطة لحظة المواجهة التي يقف فيها اثنان من رعاة البقر متواجهين، وتكون الغلبة لمن يصل إلى مسدسه أسرع من الآخر، هذه لقطة تزرع قيمة العنف والبقاء للأقوى، وتُجرِّد الحياة من المعنى القيمي[٢].

ومع تطوُّر الوسائل الإعلامية والترفيهية لم يَعُد الأمر مجرَّد أفلام أو لقطات، بل ظهرت ألعاب (البلاي ستيشن)، التي يُشارك فيها الطفل بنفسه في «مهمات» عنيفة: حروب أو مطاردات، أو محاولة الوصول إلى الكنز الكبير، الذي تحول دونه مراحل كثيرة مليئة بالمسلَّحِين أو المخلوقات الأسطورية، ولقد بَدَت هذه الآثار في حياتنا الواقعية حتى وصل الأمر إلى قتل بعض الأطفال لأصدقائهم أو لحيواناتهم الأليفة، بل قتل أحدهم شرطيًّا في الولايات المتحدة بتأثير من هذه الألعاب[٣].

إن تغيير هذين الرَّافدين: الأنظمة التربوية والإعلامية، أمر لا مناص من أن يأخذه عقلاء هذا العالم على محمل الجدِّ والعناية.

---

(١) نادر الملاح: العنف ضد الأطفال، شبكة الوسط أون لاين، بتاريخ ٧/ ٨/ ٢٠٠٣م.

(٢) عبد الوهاب المسيري، وعبد العزيز العظمة: العلمانية تحت المجهر ص٢٢، ٢٣.

(٣) انظر: «كيف نجعل (البلاي ستيشن).. وسيلة إمتاع هادف؟!»، تحقيق صحفي منشور بمجلة الدعوة السعودية، عدد (٢١٦٧)، بتاريخ ٨ ذو القعدة ١٤٢٩ هـ = ٢٧/ ١٠/ ٢٠٠٩م.

***

ينبغي على العقلاء السعي نحو الدعوة إلى التعارف على الآخرين، والدعوة إلى نبذ الفكرة القائلة بأن الأشرار هم الآخرون الذين لا يشتركون معنا في هويتنا.

إن الاختلاف هو العامل الذي يدفع باتجاه التعارف واللقاء والتعاون؛ ومن ثَمَّ السعي نحو التكامل بين هذه الاختلافات، فلو كان كل الناس متشابهين لا خلاف بينهم، فلن يكون ثمة دافع لكي يتعارفوا أو يتعاونوا أو يتكاملوا؛ إذ سيقوم التشابه والتطابق حائلاً دون وجود الداعي والدافع إلى التعارف؛ ومن ثَمَّ جاء قول الله ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾ [الحجرات: ١٣].

إن الإنسان مهيَّأ بطبيعته ليكون خيِّرًا أو شريرًا، لا يختلف هذا الاستعداد في إنسان الشرق عن إنسان الغرب، عن إنسان الشمال والجنوب، وهو استعداد لا يرتبط باللون ولا العرق ولا الجنس ولا اللغة ولا الدين، في كل المجتمعات يُوجد الأخيار والأشرار، وقد قال النبي ﷺ: «**النَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا**»[١].

ولا يليق بأحد -لا سيما ونحن في عصرنا هذا الذي تلاشت فيه الحدود البعيدة بين الناس- أن يعتنق حتى الآن أفكارًا تُشيطن الآخر وتجعله منبوذًا لمجرَّد وجود خلافات في الدين أو العرق أو اللون أو اللغة أو العادات، لا يليق هذا بأحد في وقت صارت فيه معرفة المعلومات الحقيقية ومن على لسان صاحبها أمرًا يسيرًا لا يستلزم كثير جهد.

ولقد أثبت واقع الحياة، وقبله تاريخ الحضارات، أن الإمبراطوريات حين تستوعب الاختلافات الداخلية بين الأمم المنضوية تحتها تستطيع أن تُحقِّق حضارة ذات شأن، فمما يُذْكَرُ في هذا الأمر ما سَجَّله المؤرِّخُون من أن الناصر صلاح الدين الأيوبي عندما دخل مصر، كان بصحبته ثمانية عشر طبيبًا؛ من بينهم ثمانية من المسلمين، وخمسة من اليهود، وأربعة من النصارى، وسامريٌّ واحد[٢]!

---

(١) البخاري: كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ**﴾ (يوسف: ٧) (٣٢٠٣) عن أبي هريرة، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب خيار الناس (٢٥٢٦).

(٢) راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، ص٣٨.

ومثل هذا يحدث الآن -أيضًا- في الفرق العلمية في الجامعات الأوربية والأميركية واليابانية وغيرها، ومثله -أيضًا- من هذا الوجه ما يتمُّ في الفرق الفنية والرياضية.. وما إلى ذلك.

إننا في عصر هو أكثر اللحظات المناسبة لكي تنتهي فكرة شيطنة الآخر، وأن يسعى العقلاء في دعوة الناس إلى التعارف على هذا الإنسان الشريك.

***

لِيَسْعَ عقلاء العالم إلى تحسين - ليس فقط - صورتهم ولكن صورة الآخرين: فالغرب شوَّه صورة الإسلام والصين، ولا بُدَّ لهذا التشويه من أثر، وواقع الأمر أن كثيرًا من المسلمين كذلك شوهوا صورة الغرب والصين.

ونحن -من موقع النقد الذاتي- ينبغي أن نعترف أننا لم نُفَرِّق بين الحكومات والشعوب، وبين مَنْ يعرفنا ومَنْ لا يعرفنا، لقد تعاملنا مع الغرب ككتلة واحدة، وهو ليس كذلك في الحقيقة، ولا أي شعب يمكن أن يكون كذلك؛ أَتَذَكَّر حين وقعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر، لقد ظهر بوضوح أن المسلمين كانوا شامتين في هذه الكارثة التي نزلت بأميركا، برغم أنه عمل يرفضه الإسلام رفضًا واضحًا قاطعًا، إلاَّ أن واقع الأمر أن المسلمين كانوا مُعَبَّئِين ضد الأميركان؛ لذلك لم يكن غريبًا أن ترى هذه الشماتة.

صحيح أن كثيرًا من التصريحات والسياسات الغربية والأميركية تقود إلى هذا، بل إن ملخَّص هذه السياسة -كما عَبَّر عنها بوضوح ويليام كوهين[1] وزير الدفاع الأميركي في عام ١٩٩٩م- هي أن «الولايات المتحدة مُلْزَمة بالاستخدام الفردي للقوَّة العسكرية؛ كي تُدَافع عن مصالح حيوية تشمل ضمان دخولٍ غير ممانَعٍ إلى أسواق رئيسية، ومصادر الطاقة، ومصادر استراتيجية»[2].

وذلك ما دفع الجارديان البريطانية أن تصف الولايات المتحدة -في ربيع ٢٠٠١م بعد

---

(١) ويليام كوهين William Cohen: وزير الدفاع الأميركي في الفترة (١٩٩٧ - ٢٠٠١م)، وهو كاتب وسياسي، من مواليد ٢٨ أغسطس ١٩٤٠م بولاية ماين الأميركية.

(٢) ناعوم تشومسكي: الدول المارقة ص١٧.



رفض الولايات المتحدة التوقيع على معاهدة كيوتو للاحتباس الحراري[(١)]- بأنها «الدولة المارقة المطلقة.. فبدلاً من قيادة أسرة الأمم والدول تبدو أميركا بوش ميالة أكثر فأكثر إلى مجابهة هذه الأسرة... تقول: نحن نفعل ما نريده، وإذا لم يَرُقْ لكم ذلك، فلكم أن تنطحوا في الجدار»[(٢)]. إلاَّ أن هذا لا يُمَثِّل سوى السياسة الأميركية، فمن واقع تجربتي الشخصية أقول بأن الشعب الأميركي ليس شعبًا مثقفًا، وهو لا يكاد يدري القدر البسيط عن أوضاع العالم خارج الأرض الأميركية؛ لذا فهو لا يحفل كثيرًا بما يجري خارج الحدود فيما وراء المحيطات.

وعلى الجانب الآخر يقوم محبُّو الحروب ومثيرو الفتن وأصحاب المصالح باستغلال أي فرصة، أو شبه فرصة لنصب معركة تساهم في تشويه صورة الشعوب الأخرى، ويتمُّ خلط كثير من الباطل بالقليل والضئيل من الواقع، كما يتمُّ -أيضًا- تزييف الصورة، بدءًا من تصوير المقاومة التي تُوَاجِه الاحتلال بأنها إرهاب، وحتى تصوير الحجاب بأنه قيد على العقل والفكر!

***

لا بُدَّ من الحذر من مسألة التعميم، فلا يُؤخذ شعب بجريرة فردٍ، ولا يُظلم تاريخ بحدث منفرد من أحداثه، ولا يُقتطع نصٌّ ديني من سياقه، ثم يُوضع في سياق آخر ليُؤَدِّيَ معنًى مخالفًا، ولا تُضَخَّم لقطة واحدة لتُسَيْطر رُوحها على المسار كله، ولا يُنتزع مشهد من سلسلة الحوادث فيُسَلَّطُ الضوء عليه ليوصل مفهومًا غير مقصود.. وهكذا.

هذه أمور يُريدها أصحاب الأغراض السيئة، فهم يقترفون جريمة التعميم ليُحَقِّقُوا مصالحهم الضيقة، إن التعميم في حدِّ ذاته أمر يُخَالِف الطبيعة الإنسانية؛ لأنها طبيعة تتجاوز التنميط والقولبة والجمود، وهي طبيعة مبدعة، تستطيع في كل يوم أن تأتي بالجديد والمختلف، وأن يتفاعل كل جديد ومختلف فيتولَّد من تفاعلهما ما هو جديد ومختلف أيضًا، إنه شيء ملحوظ ويمثِّل حقيقة كونية؛ حتى إن فلسفة هيجل وقراءته للتاريخ قائمة على هذه المتوالية: الفكرة تلد فكرتها النقيضة، ثم تتصارع معها حتى يتولَّد من صراعهما فكرة ثالثة،

---

(١) أي قبل وقوع أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.

(٢) الجارديان بتاريخ ٣٠/ ٣/ ٢٠٠١م، نقلاً عن: كلايد برستوفتز: الدولة المارقة ص١٠.

هذه الثالثة تحمل في أحشائها نقيضتها التي ستلدها بعد حين، ثم تدخل معها في صراع يلد فكرة أخرى جديدة.. وهكذا.

إلاَّ أننا لا نرى أنه «صراع» كما يراه هيجل، نحن نقول بأن الخلاف شيء ثري، وعند كل فكرة تنمو فكرة أخرى تُطَوِّرها أو تُنَمِّيها أو تُصَحِّحها، وهي طوال هذا المسار تلد أفكارًا ذات اليمين وذات الشمال، ثم هي على طول المسار -أيضًا- تُوَاجِهها أفكار ذات اليمين وذات الشمال تُؤَدِّي الدور نفسه.

كل هذا يتمُّ في المجتمع الواحد، في الأرض الواحدة بين أشخاص من نفس العرق واللون والدين واللغة والجنس، فكيف إذا كنَّا نتحدَّث عن عالم يجمع كل هذا القدر من الاختلافات، هل يصحُّ -والحال هكذا- أن نتحدَّث في إطار تعميمي يسعى إلى تنميط الإنسان وقولبته في شكل واحد؟!

لقد شاء الله أن يخلقنا في عالم يتجاوز التعميم حتى الحقائق الرياضية الثابتة، التي تمثِّل الحدَّ الأعلى في الثبات والسكون؛ فنجد من بينها قوانين شاذَّة لا تخضع للقاعدة المعروفة، ثم تكون لها قاعدتها الخاصة، ونمطها الخاص، وسلوكها الخاص.. هذا في عالم الأشياء والحقائق المجرَّدة، فكيف بعالم النفوس والأرواح والأمور النسبية؟!

***

هناك خطران داهمان لا بُدَّ من التوسُّط بينهما: العولمة الإجبارية، والتقوقع على النفس بهدف الحفاظ على الهوية.

العولمة الإجبارية تحاول تنميط العالم وصبَّه في قالب واحد، ومسخ هويات الشعوب الثقافية، والقضاء على الخصوصيات المميزة لكل شعب وأمَّة وحضارة، وهي تُعَبِّر عن استعلائية ترى ذاتها، ولا ترى في ثقافات وخصوصيات الآخرين ما يستحقُّ أن يبقى بَلْه أن يستفاد منه، وصحيح أن العولمة ظاهرة حديثة نشأت بعد ثورة المعلومات والاتصالات التي جمعت أطراف العالم بسهولة، إلاَّ أنها عولمة لا تسلك هذا الطريق السهل والشرعي، بل هي تفرض نفسها بالقوة القاهرةِ، إن لم يكن بالبوارج والطائرات والحشود العسكرية، فعبر

مؤسسات الضغط الاقتصادية؛ مثل: البنك الدولي وصندوق النقد، والعقوبات الاقتصادية، وفرض الحظر.. وما إلى ذلك.

إلاَّ أنَّ الأيام تُثبت في كل يوم فشل الحصاد الذي تجنيه العولمة؛ فالشعوب الأوربية التي هي أقرب الأنماط والثقافات إلى الأميركان ترفض العولمة بشكل قاطع، وتقاومها بعنف، وتصل حركاتها الاحتجاجية إلى الاعتراض على إنشاء المطاعم ذات الصبغة الثقافية الأميركية؛ باعتبارها مسخًا للهوية الثقافية المتمثِّلة في الأطعمة المحلية[1].

أمَّا خارج أوربا فلا تكاد العولمة تنجح في بلد واحد إلاَّ في بعض المظاهر القشرية، التي لا تتجاوز طلاء المجتمعات، وتتعدَّد أشكال المواجهة التي تُبديها الشعوب من القتال المسلح كما في المناطق المحتلة عسكريًّا، وحتى حركات المقاومة على الإنترنت، ذلك أن التهديد الثقافي ومحاولة طمس الهوية اعتداء على أمور هي في صميم الفطرة الإنسانية.

وفي المقابل يأتي الخطر الآخر من الانغلاق والتقوقع على النفس بهدف الحفاظ على الهوية، وكما أن العولمة شعار القوي المهيمن، فإن التقوقع والانغلاق هو شعار الضعيف؛ ولهذا فإن الدعوة إلى الانغلاق تحمل لواءها التيارات المتشدِّدة في كل الأديان والثقافات، ويكون هذا هو الحلّ في مواجهة العواصف، التي تحملها رياح القوي أو حتى جيوشه، إلاَّ أن هذا ليس الطريق الأسلم بمقياس الأديان نفسها؛ فالأديان في أصلها تدعو إلى الاختلاط بالناس والانفتاح عليهم.

ففي القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، ويقول النبي ﷺ: «الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ مُخَالِطًا النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لاَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَلاَ يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»[2]. فهذا الحديث دليل لمن قال: إن

---

(١) انظر: مقال فهمي هويدي «قاطعوهم ما استطعتم»، بجريدة الأهرام المصرية ١٤/ ١١/ ٢٠٠٠م.

(٢) الترمذي: كتاب صفة القيامة، باب مخالطة المسلم الناس (٢٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٣٢)، وأحمد (٥٠٢٢)، وصححه الألباني في التعليق على أصحاب السنن، وقال شعيب الأرناءوط في التعليق على مسند أحمد: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين.

الخلطة أفضل من العزلة[١]. وورد عن الأحنف بن قيس[٢] أنه قال: الكلام بالخير أفضل من السكوت، والسكوت خير من الكلام باللغو والباطل، والجليس الصالح خير من الوحدة، والوحدة خير من جليس السوء[٣].

وفي إنجيل متى نجد الدعوة نفسها التي تنفتح على الناس لتدعوهم إلى تعاليم المسيحية: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس. وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به»[٤].

***

لا يجب أن نسعى إلى السلام فقط، ولكن إلى خَلْق بيئة تسمح باستمرار السلام. هذا الخَلْق هو احترام المشتركات الإنسانية، وترسيخ هذا الاحترام بشكل يصنع منه خطًّا أحمر، ويصنع من انتهاكه جريمة ليس لها مبرر.

أمَّا محاولة صنع سلام مع وجود انتهاكات، فهي حالة لا يمكن أن تستمرَّ، وهو ما أُسميه «تدليس الزعماء»، ويجب علينا ألاَّ نُضيع الوقت في محاولة إقرار المستحيل، فلن يكون ثمة سلام في فلسطين يُطالَب فيه الفلسطينيون بالقبول باغتصاب أراضيهم وثرواتهم، وبأن تكون دولتهم قطعًا ممزقة الأوصال ليس لها جيش، ولا سيطرة على حدودها البرية والبحرية والجوية، هذا إذا نحَّيْنَا جانبًا جوهر هذه القضية؛ وهو احتلال المسجد الأقصى، الذي يُمَثِّل عمقًا دينيًّا غائرًا في الوجدان الإسلامي، فكيف إذا كان هذا العمق يُعطي الأزمة بُعْدًا ثائرًا من المقاومة والجهاد؟!

حتى حالة السلام بين مصر والكيان الصهيوني، وهي التي أكملت حوالي ثلث قرن، ليست إلاَّ حالة سلام قلق مضطرب، لا يُؤْمَن انهياره في أي لحظة؛ ذلك أنه يتجاوز عن

---

(١) المباركفوري: تحفة الأحوذي ٧/ ١٧٧.

(٢) الأحنف بن قيس، السعدي المنقري التميمي (٣ق هـ - ٧٢هـ): سيِّد تميم، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء، الشجعان الفاتحين، كان من سادات التابعين وأكابرهم، وكان سيِّد قومه، موصوفًا بالعقل والدهاء والعلم والحلم، أدرك عهد النبي ولم يصحبه. الزركلي: الأعلام ١/ ٢٧٦، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٤٩٩.

(٣) ابن عبد البر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ١٧/ ٤٤٧.

(٤) إنجيل متى ٢٨/ ١٩، ٢٠.

انتهاكات قائمة، ويُحاول تجميدها أو نسيانها أو القفز عليها؛ لذا فهو سلام على المستوى السياسي فحسب، أمَّا على المستوى الشعبي فثمة أمور أخرى!

ومثل هذا يُراد من الأفغان والعراقيين، القبول بوجود أميركي يمتصُّ الثروات ويحكم من وراء الستار، ويتحكَّم بشكل فعلي في مسار ومصير البلاد.

كذلك سيظلُّ التوتر قائمًا بين كلٍّ من ألمانيا واليابان وبين أميركا؛ إذ فُرِض عليهما البقاء بثروة دون قوَّة، وهذا في الواقع ضد الطبيعة الإنسانية؛ لذا سيظلُّ هذا الملف مصدر توتُّر شعبي وسياسي وإن كان مكتومًا[1].

***

على عقلاء العالم إدراك أن الإنسانية واحدة، وأن النفس البشرية لها القيمة نفسها في الغرب والشرق والشمال والجنوب، في البلاد المتخلِّفة والبلاد المتحضِّرة، وأن أي محاولة تفريق بين إنسان في الشرق أو في الغرب إنما هي خطوة في طريق التقاتل والصراع.

إن أحداث نيويورك كشفت حقيقة نفاق الغرب، ووهمية كونية القيم الإنسانية التي طالما رفعها العديد من السياسيين والمفكرين في الغرب، لقد ظهر بوضوح أن الإنسانية درجات ومراتب، وحياة الإنسان ليست لها القيمة نفسها في كل بقاع العالم، فما أثاره مقتل حوالي ٣ آلاف أميركي تجاوز بكثير حدود المعقول، في حين يُقتل آلاف بل ملايين البشر في صمت وجهل تامٍّ، ودون أية ضجة أو اهتمام من قِبَل الإعلام أو المراكز السياسية العالمية، والصورة التي منحتها هذه الأحداث هي أن الإنسان الأميركي هو سوبر إنسان، كلما أصابته مأساة كان محلَّ معاملة متميزة وعطف فائق من قِبَلِ العالم كله، وكأنه مركز العالم الذي تتجسَّد فيه كل القيم الإنسانية، والباقي هو لا شيء، لقد بدا أن بعض البشر أكثر إنسانية من الباقي، وضحايا انفجارات نيويورك هم أكثر إنسانية من ٨٠٠ ألف إنسان رواندي سقط في المعارك الوحشية في رواندا أمام أنظار الدول الغربية المتفرجة على المجازر، (أكَّدَت العديد من التقارير أن الولايات المتحدة كانت على علم بإمكانية وقوع مثل هذه المجازر) ومن ٨ آلاف مسلمٍ

(١) عبد الفتاح شبانة: اليابان.. العادات والتقاليد وإدمان التفوق، ص١٢٨ وما بعدها.

بوسني تمّت تصفيتهم بسربرينيتشا على يد الميليشيات الصربية، ومن مئات القتلى بجروزني، ومن ضحايا مجزرة قانا، ومن نصف مليون طفل ماتوا بسبب الحصار المفروض على العراق، ومن آلاف الضحايا الأفغان(١).

يقول جونتر جراس(٢): «الطريقة التي نُحصي بها الموتى تمثِّل إهانة دائمة للموتى في العالم الثالث؛ إن الهجمات الإرهابية التي وقعت في نيويورك وواشنطن وأسفرت عن عددٍ من القتلى... هي جريمة بشعة، ولا يمكن تبريرها، ولكن عندما قتل الصرب والكروات خلال عامين أو ثلاثة نحو ربع مليون مسلمٍ من البوسنة، فإن الحزن الذي أصابنا آنذاك والتأمُّل في العواقب التي أعقبته لا يمكن بأي حال أن يُقارن بها أثاره مقتل ٣ آلاف شخص في نيويورك وواشنطن، في رواندا حيث تخلى الغرب عن مسئوليته بطريقة يُعاقب عليها القانون، قُتل حسب تقديرات تقريبية حوالي ٨٠٠ ألف إنسان لم يكد العالم يعلم من مصيرهم شيئًا... إذا لم نتعلَّم أن ننظر إلى هؤلاء الموتى على أن لهم القيمة نفسها، فسوف نخسر الكفاح الذي نخوضه من أجل حقوقنا الديمقراطية الأساسية»(٣).

ولقد جاء في القرآن الكريم هذا المعنى نفسه في مواضع كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]، ويقول النبي ﷺ «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ لآدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ، وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ فَضْلٌ عَلَى عَجَمِيٍّ إِلاَّ بِالتَّقْوَى»(٤).

****

الاهتمام بقضايا الحرية داخل الأوطان؛ فالشعوب التي تُربَّى على الاستعباد لا يمكن أن تُربَّى على ثقافة السلام.. فليس من الطبيعي أن يُولَد الحب من الكراهية،

---

(١) محمد سعدي: مستقبل العلاقات الدولية، ص٣٤٠، ٣٤١.

(٢) جونتر جراس: أديب ألماني عالمي حاصل على جائزة نوبل في الأدب.

(٣) حوار جونتر جراس مع مجلة فكر وفن، يناير ٢٠٠٢م. ص٢٨، نقلاً عن: محمد سعدي: مستقبل العلاقات الدولية، ص٣٤١.

(٤) أحمد (٢٣٥٣٦) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والطبراني: المعجم الكبير (١٤٤٤)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠).

أو أن يُولَد الصفاء من العداء.

إن البلاد التي تعاني من الاستبداد تمثِّل مصدرًا دائمًا لوجود التطرُّف؛ ذلك أن كبت الحريات هو في نفسه سلوك متطرِّف يعتدي على خصيصة إنسانية من خصائص الطبيعة الإنسانية؛ ومن ثَمَّ فإنه يُنْشِئ ردَّ فعل متطرِّفًا أيضًا، وإذا كان التعدِّي على الحرية عبر الاستبداد ينحصر نطاقه في داخل الدولة، فإن ردَّ الفعل لا يلتزم بالحدود السياسية، بل ينطلق في حربه ضدَّ المستبدِّ، ثم مَنْ وراء هذا المستبدِّ في الشرق أو الغرب.

ولا مناص من أن تعترف القوى الكبرى بأن دعمها للأنظمة المستبدَّة في سبيل تحقيق مصالحها، وأن إغضاء الطرف عن التعديات والجرائم المرتكبة ضدَّ الأفراد والجماعات من قِبَل الأنظمة الدكتاتورية صنع أزمة، كان مركزها في مواطن الاستبداد، لكن دوائر تأثيرها كانت في ديار هذه القوى الكبرى نفسها.

إن الإنسان المقهور المعتدَى على حريته هو دائمًا إنسان قابل للاشتعال، وهو اشتعال لا يلتزم بالقوانين ولا يعترف بها، ومن العبث أن نتوقَّع أن نُخاطب مثل هذا الإنسان بثقافة السلام والتعايش والمحبة؛ ذلك أنه لم يَرَ ولم يَذُقْ شيئًا من هذا على وجه الحقيقة؛ لذا فمثل هذه المصطلحات عن السلام والتعايش والمحبة ليس لها معنًى سوى أن يتنازل عن نفسه وعن حقوقه، وعن هويته في سبيل التعايش والمحبة والسلام.. وطبيعيٌّ أن نسمع منه الرفض الكامل لهذه المعادلة.

لقد فَجَّر دعم الدول الكبرى للدكتاتوريات أزمات كبرى، أسفرت في كثير من الأحيان عن مذابح هائلة، أو عن موت ملايين الأشخاص حول العالم، ثم إنَّ الأمور صارت تُؤْخَذْ ببساطة وسخرية تُثير الدهشة؛ حتى إن كثيرًا من صُنَّاع القرار يكتبون جرائمهم هذه بفخر! دانييل باتريك موينيهان Daniel Patrick Moynihan -سفير أميركا في الأمم المتحدة- يفخر بأن الأمور في تيمور الشرقية سارت كما أرادتها أميركا؛ إذ أرادت أن تُثبت للأمم المتحدة أنها غير فعالة بشكل مطلق في أية إجراءات تتَّخذها، ويفخر بأنه كُلِّف بهذه المهمة وقام بها بنجاح.. هذا النجاح -الذي يراه موينيهان- هو مقتل مائتي ألف شخص في

إندونيسيا حتى عام ١٩٨٧م، وتشريد ٧٥٠ ألف شخص يصلون إلى ٨٥٪ من نسبة السكان في الجزيرة، فضلاً عن تدميرها، كان الدكتاتور سوهارتو[١] -كما قالت إدارة كلينتون فيما بعد- «نوع الشخص الذي نريده»[٢].

وصرَّحت مادلين أولبرايت[٣] -وزيرة الخارجية الأميركية- في ١٩٩٦م، لقناة سي بي إس (CBS) بأن «قرار الحظر (على العراق) اختيار صعب للغاية، إلاَّ أن الثمن الإجمالي لم يكن مرتفعًا»[٤]. وهذا الثمن الذي لم يكن مرتفعًا هو موت نصف مليون طفل في العراق نتيجة هذا الحظر، والقصة بالأساس هي قصة دعم الدكتاتور العراقي صدام حسين، ثم الانقلاب عليه بُغية الدخول عسكريًّا إلى المنطقة[٥].

تُرَى ماذا يمكن أن يكون ردُّ الفعل لضحايا هذه السياسات؟!

* * *

ترسيخ ونشر قيمة الاحترام المتبادل..

إنه لا بُدَّ للبشرية لكي تجد أرضًا تتوافق عليها أن يُؤْمَن جميع البشر بأنهم متساوون في الحقوق والواجبات، وفي المسئوليات والتكاليف، وإذا كانت الأزمنة القديمة تسمح لبعض الحضارات أن تعيش منعزلة عن المسيرة الإنسانية لابتعاد المسافة، فإن الثورة التقنية الحديثة جعلت أمرًا مثل هذا في عداد المستحيل، لقد أصبح العالم بالفعل قرية صغيرة، وربما أصغر مما يتخيَّل، وصارت المسافة بين الإنسان وأخيه في عالم الهاتف المحمول والإنترنت، أقل بكثير من المسافة بين رجلين في قرية صغيرة في عصر ما قبل هذه الثورة.

---

(١) سوهارتو Suharto (١٩٢١-٢٠٠٨م): ثاني رؤساء إندونيسيا، تولى الحكم في ١٩٦٧م، وحكم إندونيسيا بيدٍ من حديد على مدى ٣٢ عامًا.

(٢) ناعوم تشومسكي: الدول المارقة، ص١٢، ١٣.

(٣) مادلين كوربل أولبرايت Madeleine Albright: هي ماري آنا كوربولوفا، أول امرأة تتسلم منصب وزير الخارجية في الولايات المتحدة الأميركية، واستمرت في المنصب من يناير ١٩٩٧م إلى يناير ٢٠٠١م، وهي أميركية من أصول يهودية، مواليد ١٥ مايو ١٩٣٧م.

(٤) محمد سعدي: مستقبل العلاقات الدولية، ص٣٤٢.

(٥) انظر تفاصيل القصة: محمد جلال كشك: الجنازة حارة.. يوميات مراقب لأزمة الخليج، ص٢٢ وما بعدها.



هذا التباعد الذي كان قائمًا في الحضارات القديمة يمكن أن يُجيز للناس في هذه العصور ألاَّ يحفلوا بأمر «الاحترام المتبادل» بينهم وبين الآخرين في الحضارات البعيدة، غير أن هذا لم يَعُدْ من الممكن أن يستمرَّ؛ ذلك أن إنسانًا لا يمكن أن يتعايش مع آخر وبينهما شعور مفقود من «الاحترام المتبادل»، ولهذا لا تستطيع العنصريات أن تتعايش مع غيرها أبدًا، كما لا تستقرُّ المجتمعات التي تمارس التمييز العنصري.

وهذه الحقيقة أدركها الحكماء منذ الأزمنة القديمة؛ ففي التقاليد الصينية التي ترجع إلى خمسمائة عام قبل الميلاد سؤال جونج – جونج للمعلم كونفوشيوس عن «الفضيلة الكاملة»، فإذا به يقول: «الفضيلة الكاملة ألاَّ تفعل بغيرك ما لا تحب أن يُفعل بك»[١].

كذلك نجدها في قول الطبيب والفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون[٢]: «لا تتعامل باللامبالاة مع ما يُهدِّد الآخرين»[٣].

وفي الإنجيل نقرأ في رسالة القديس بولس إلى أهل رومية أنه «لا فرق بين اليهودي واليوناني؛ لأن ربًّا واحدًا للجميع غنيًّا لجميع الذين يدعون به»[٤].

وفي القرآن الكريم نجد قول الله ﷻ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** [الحجرات: ١١]. كما تحدَّث النبي ﷺ عن هذا المعنى -أيضًا- فقال: **«لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ -أَوْ قَالَ لِجَارِهِ- مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»**[٥].

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ٥٨.

(٢) موسى بن ميمون بن عبيد الله القرطبي (١١٣٥ – ١٢٠٤م): اشتهر عند العرب بالرئيس موسى، وهو فيلسوف يهودي، وُلد في قرطبة ببلاد الأندلس في القرن الثاني عشر الميلادي، واستقر في مصر حتى وفاته، وكان طبيبًا وله معرفة واسعة بعلم الفلسفة.

(٣) محمد سعدي: مستقبل العلاقات الدولية ص٣٥٦.

(٤) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١٠/ ١٢.

(٥) البخاري: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه... (٤٥)، عن أنس بن مالك، واللفظ له.

إنه مبدأ أساسي للأخلاق، كما يقول إريك فروم[1]: ألا تُعامل الغير بما لا تريد أن تُعامَل به؛ فإن ما تفعله من سوء للغير، هو كما لو أنك تفعله لنفسك ولإنسانيتك[2].

***

وآخر ما نرى أنه من واجبات العقلاء في هذا العالم، هو وضع آليات لتفعيل ما ذكرناه من مشتركات عامة وخاصة، وهذا أمر متروك للمتخصِّصين كلٌّ في فرعه، فعلى المتخصِّص يقع عبء تحويل الأفكار السابحة في الفضاء النظري إلى مشاريع عملية، فتتنزل الأفكار من عالم الخيال إلى عالم الواقع، وتصير خطة ذات أهداف ومراحل وآليات وإجراءات، ولها مستهدفات وخطوات وأساليب تقييم، وهذه أمور لا يُحسنها إلاَّ أهلها.

ولذلك فإننا ندعو المتخصِّصِين لوضع هذه الآليات التي تُفَعِّل نظرية المشترك الإنساني، وتنزل بها إلى أرض الواقع الحيِّ، فهي دعوة إلى علماء النفس والاجتماع والتربية، وسائر فروع العلوم الإنسانية إلى أن يضعوا بصمتهم في هذا المشروع، فهم الأقدر على فهم وتحليل الطبيعة الإنسانية، ومفردات السلوك الإنساني؛ ومن ثَمَّ فهم الأصلح في التعامل معه من خلال ما يضعونه من برامج تستفيد من هذه الطبيعة، ثم تُوَجِّهُها نحو نشر فكرة تَقَبُّل الإنسان الشريك مهما كان موقعه من الاختلاف مع الذات.

كما هي دعوة للإعلاميين -وهم أصحاب نصيب الأسد من حيث التأثير في وقتنا الحالي- إلى فتح هذا الملف الكبير، ملف المشترك الإنساني بين الشعوب، وأن تُنَاقَش الأزمات المثارة على قاعدة من رُوح التقريب، وبوحي من إرادة التعايش بين الناس؛ الإعلاميون القريبون من مواطن الصراع يستطيعون أن يكونوا عاملاً فعالاً في تحليل أسباب النزاعات والصراعات، وإبصار مواطن الاختلافات، التي أدَّى تطوُّرها إلى اشتعال الأزمة بدل أن تكون بابًا يُفضي إلى التعاون والتكامل على قاعدة من المصلحة المشتركة؛ إن رسالة التعايش

---

(١) إريك فروم Erich Fromm (١٩٠٠-١٩٨٠م): عالم نفس وفيلسوف ألماني أميركي، ولد في مدينة فرانكفورت وهاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية، له العديد من المؤلفات أهمها: الخوف من الحرية (١٩٤١م)، المجتمع العاقل (١٩٥٥م)، تشريح نزوع الإنسان إلى التدمير (١٩٧٣م).

(٢) نقلاً عن: محمد سعدي: مستقبل العلاقات الدولية، ص٣٥٦.



حين يحملها الإعلامي تستطيع أن تُقَدِّم معالجة جديدة للمادة الإخبارية الخام نفسها، فتُحَوِّل مسار التقارير المكتوبة والمسموعة والمرئية إلى جهة تنمية الوفاق بدلاً من زرع الشقاق، كما أن رسالة الإعلامي حين يُدَافع عن الحقيقة وعن المظلومين تمثِّل واحدًا من أفعل الأسلحة الناعمة في مواجهة الظالم المعتدي، وفي ردِّه عن هذا الظلم، وإننا دائمًا ما نجد العلاقة متوترة بين الإعلام الحرِّ النزيه المدافِع عن الحقيقة وبين المعتدي، الذي لا يحفل إلاَّ بمصلحته الذاتية فيُمارس الاعتداء على الشعوب، وإن تضحيات الإعلاميين الأحرار هي جزء من المعركة التي يخوضها الأحرار في سبيل تثبيت رسالة التعايش بسلام بين الشعوب[١].

وقبل كل هؤلاء وبعدهم، لا بُدَّ من مخاطبة الزعامات الدينية في كل الشعوب؛ فإن سلطان الدين على النفوس في ازدياد بعد الحقبة الشيوعية والمادية، وتكاد كل الجهود تذهب هباء إذا لم يكن رجال الدين على قدر المسئولية الإنسانية والأخلاقية، وإذا لم يستشعروا واجبهم الكبير في إقرار السلام والتفاهم والتعايش بين الأديان، يجب أن نتذكَّر أن متطرِّفًا مثل البابا أوربان الثاني استطاع أن يُشعل حربًا دينية، استمرَّت أكثر من مائتي عام، وما زالت آثارها تتبدَّى في كثير من المظاهر حتى اليوم، بعد مرور ألف عام على اشتعالها الأول.

وهنا يجب أن نضرب مثالين: الأول هو البابا بنديكت السادس عشر[٢] الذي يبدو في كثير من الأحيان وكأنه يحمل رسالة للعداء مع الأديان، وهو يختار لتصريحاته مناسبات جماهيرية لا مؤتمرات أكاديمية مغلقة؛ مما يُعِيدُ إلى الذاكرة ما فعله أوربان الثاني في خطبته الشهيرة، فهو خلال محاضرة يذكر نصًّا يقول: «أرني ما الجديد الذي جاء به محمد؟ لن تجد إلاَّ

---

(١) نستطيع من خلال متابعة التقرير السنوي لمنظمة «مراسلون بلا حدود»، والذي يرصد أوضاع الصحافة في الدول المختلفة أن نرصد حالة الأنظمة -صعودًا أو هبوطًا- بشأن الصحافة؛ مما نستنتج منه حالة هذه الأنظمة في التعدِّي على المشتركات الإنسانية أو رعايتها؛ إذ تميل الدول المعتدية إلى حجب وإخفاء الحقائق عن أنظار العالم، وكتم أي صوت يمكن أن يفضح انتهاكاتها. انظر: التقرير السنوي من موقع (مراسلون بلا حدود) (http://ar.rsf.org).

(٢) بنديكت السادس عشر Pope Benedict XVI: هو جوزيف راتزنجر، بابا الفاتيكان ورئيس الكنيسة الرومانية الكاثوليكية الـ٢٦٥، مواليد ١٦ إبريل عام ١٩٢٧م، ويُعدُّ أول بابا ألماني منذ ٤٨٠ عامًا، ومعروف بآرائه المتشددة.

أشياء شريرة وغير إنسانية»[١]. فينشأ عن هذا غضب واسع في العالم الإسلامي، كان من آثاره أن يُوقف الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين مؤتمرات حوار الأديان مع الفاتيكان، وهذا ما جعله مضطرًّا إلى ما يُشبه الاعتذار قائلاً: «أشعر بأسف بالغ عن ردود الفعل في بعض الدول تجاه فقرات محدودة وردت في خطابي بجامعة رجينسبرج، والتي اعتبرت مهينة لمشاعر المسلمين، كانت تلك في واقع الأمر اقتباسات من نصٍّ من العصور الوسطى، والتي لا تُعَبِّر بأي حال عن رأيي الشخصي»[٢]. لكن بعد شهور أخرى أصدر الفاتيكان وثيقة تقول عن الطوائف المسيحية الأخرى بأنها «ليست كنائس حقيقية بالمعنى الكامل للكلمة»[٣]؛ وهذا ما سبب غضبًا واسعًا لدى أتباع الكنائس الأخرى.

وعلى الجانب الآخر نرى القس هانس كونج (Hans Kueng)، الذي عُيِّن مستشارًا لمجلس الفاتيكان بقرار من البابا يوحنا الثالث والعشرين، وهو -للطرافة صديق قديم للبابا بنديكت السادس عشر- يبذل كل جهده في مشروع أخلاقي يُسميه «الأخلاق العالمية»؛ حيث يُؤَكِّد على أنه من الممكن، بل ومن الواجب الوصول إلى دستور أخلاقي بين البشر، وهو -بعد دراسات واسعة في الأديان- يُؤَكِّد على أن جميع الأديان السماوية والوضعية تحوي تراثًا أخلاقيًّا ممتازًا، يمكن أن يكون قاعدة للتوافق والالتقاء، وقد خطا في هذا المشروع خطوات واسعة؛ فأسس مؤسسة الأخلاق العالمية (Global Ethic Foundation)، إلى جانب العديد من الفعاليات الأخرى، وتُعَدُّ مُؤَلَّفاته شرحًا على شعاره الأثير: «لن يكون هناك سلام بين الأمم بدون سلام بين الأديان، ولن يكون هناك سلام بين الأديان بدون حوار بين الأديان»[٤].

إن رجال الدين حجر أساس في تجنيب الإنسانية حروبًا دينية، وفي إقرار السلام والتعايش

---

(١) من نص المحاضرة التي ألقاها في جامعة ريجينسبرج بولاية بافاريا الألمانية، الثلاثاء ١٢/ ٩/ ٢٠٠٦م، تحت عنوان: «الإيمان والعقل والجامعة ذكريات وانعكاسات».

(٢) من نص خطاب له في مقره الصيفي في «كاسيلجندولفو» بإيطاليا، الأحد ١٧/ ٩/ ٢٠٠٦م.

(٣) بتاريخ ١٠/ ٧/ ٢٠٠٧م.

(٤) انظر: هانس كونج: الإسلام رمز الأمل، وهو نص محاضرة عن مشروع «الأخلاق العالمية» الذي يتبناه، ألقاها هانس كونج في ٣١ مارس ٢٠٠٥م في افتتاح ملتقى أديان العالم بجامعة سانتا كلارا، وأضيف إليها فصل «الإسلام رمز الأمل» من كتابه «الإسلام: الماضي والحاضر والمستقبل».

بين الأديان؛ ومن ثَمَّ فَهُمْ في الصف الأوَّل من الفئات المتخصِّصَة المنوط بها تحويل المشترك الإنساني إلى آليات وفعاليات عملية من خلال خطبهم، ورسائلهم، ومواعظهم المتكرِّرَة، وإنهم لوسيلة إعلام يسعى إليها الناس ولا يَمَلُّون من الاستماع إليها، والتحرُّك في حياتهم بوحي من نصائحهم وتعاليمهم.

***

إنَّ ما ذُكر في الأبواب والفصول السابقة ليس إلاَّ اجتهادًا بشريًّا؛ وحيث كان الأمر هكذا فلا بُدَّ أن النقص يتناوله، وهي قاعدة يلمسها كل كاتب في حياته العلمية، وهذا ما سجَّله القول المُوَفَّق للعماد الأصبهاني[١]: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلاَّ قال في غَدِه: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زِيد كذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل.. وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر»[٢].

ولقد ظلَّتْ هذه النظرية تتعرَّض للنموِّ والتطوير والأخذ والعطاء حتى اللحظات الأخيرة من خروجها في هذه السطور، وكانت كلما تفكَّرنا فيها أمدَّتْنا بمزيد من الرؤى والأفكار والتفسيرات، ومن مجموع تفاعلات كل هذه المستجدات كانت تخرج من النظرية أشياء وتدخل فيها أشياء أخرى؛ فلهذا وضعنا هنا غاية ما استطعناه من جهد موقنين أن الوقت لو طال أكثر لكان ثمة تطوير أكثر وأكثر، فهذا ما نضعه الآن أمانة عند عقلاء هذا العالم؛ ليتدخَّلُوا بالنظر والنقد والتصحيح والتطوير والإكمال، وسدِّ ما يمكن أن يكون من خلل، أو إكمال ما لم يصل إلى نهايته، أو إصلاح ما يكون من خطأ.

العنصر الأهم في هذه العملية أن تُجْرَى ويكون الهدف القائم أمام العين هو إيجاد القاعدة العامَّة ثم القواعد الخاصة، التي يمكن أن تقف عليها الشعوب؛ فتلتقي وتتقارب وتتعاون بها

(١) العماد الأصبهاني: هو أبو عبد الله محمد بن صفي الدين محمد، ولد بأصبهان، وتعلم ببغداد، وعمل في (ديوان الإنشاء) زمن السلطان نور الدين، ثم لحق بصلاح الدين، له تصانيف عديدة؛ منها: (خريدة القصر)، و(الفتح القسي القدسي)، وقد استوطن دمشق، وتوفي بها سنة ٥٩٧هـ. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢١٤.

(٢) القنوجي: أبجد العلوم ١/ ٧٠.

يفتح أفقًا جديدًا أمام عالَمٍ أفضل.

***

هذا نداء إلى عقلاء العالم، آمُل أن يأخذ طريقه إلى عقولهم وقلوبهم، على اختلاف أماكنهم وقناعاتهم ورُؤاهم وتخصُّصَاتهم، إنني أدعوهم جميعًا للإدلاء بدلوهم في هذا المجال؛ فإنه يحتاج إسهام المفكرين المخلصين من شتى أجناس الأرض.

***

المصادر والمراجع





المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانيًا: أسفار العهد القديم.

ثالثًا: أسفار العهد الجديد.

رابعًا: كتب تفاسير القرآن وعلومه.

- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.
- أبو البركات النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- البغوي: معالم التنزيل، تحقيق محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.
- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الشرعية الحادية عشرة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر - بيروت، ١٩٩٣م.
- الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تصحيح وضبط أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- محمد جمال الدين القاسمي: محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م.
- وهبة الزحيلي: التفسير الوسيط، دار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

خامسًا: كتب العقيدة والأديان والفرق:

- ابن الجوزي: تلبيس إبليس، تحقيق محمد الحسن، دار الكتب العلمية - بيروت، ٢٠٠٢م.
- ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، تحقيق علي حسن ناصر، وعبد العزيز إبراهيم العسكر، وحمدان محمد، دار العاصمة - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي - القاهرة.
- الشوكاني: إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

سادسًا: كتب الحديث وعلومه:

- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي: المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوى، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.
- ابن حبان: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق شعيب الأرناءوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.
- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، تحقيق غنيم عباس غنيم، وياسر إبراهيم محمد، دار الوطن - الرياض، ١٤١٨هـ.
- ابن رجب: جامع العلوم والحكم، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ابن عبد البر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي، ومحمد عبد الكبير البكري، مؤسسة القرطبة.
- ابن ماجه، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت.
- أبو داود: سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر - بيروت، ١٩٨٦م.
- أبو نعيم الأصفهاني: دلائل النبوة، تحقيق محمد رواس قلعة جي، وعبد البر عباس، دار النفائس - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.
- أبو يعلى: مسند أبي يعلى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.
- أحمد بن حنبل: المسند، مؤسسة قرطبة - القاهرة.
- أحمد بن حنبل: كتاب الزهد، تحقيق نور سعيد، دار الفكر - بيروت، ١٩٩٢م.
- الألباني: السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف - الرياض.
- الألباني: صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف - الرياض، الطبعة الخامسة.

- الألباني: صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي.
- البخاري: الأدب المفرد، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.
- البخاري: الجامع الصحيح المختصر، تحقيق مصطفى ديب البُغَا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م.
- البغوي: شرح السنة، تحقيق شعيب الأرناءوط، ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - دمشق، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.
- البغوي: معجم الصحابة، تحقيق محمد الأمين بن محمد الجكني، مكتبة دار البيان - الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.
- البيهقي: السنن الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت.
- البيهقي: دلائل النبوة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- البيهقي: شعب الإيمان، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- الترمذي: الجامع الصحيح، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- الحاكم: المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ = ١٩٩٠م.
- الدارمي: سنن الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- الصنعاني: سبل السلام، مكتبة البابي الحلبي - القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٣٧٩هـ = ١٩٦٠م.
- الطبراني: المعجم الأوسط، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة، ١٤١٥هـ.
- الطبراني: المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم - الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٣م.
- عبد بن حميد: المنتخب من مسند عبد بن حميد، تحقيق صبحي البدري السامرائي، ومحمود محمد خليل الصعيدي، مكتبة السنة - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.
- العظيم آبادي، محمد شمس الحق أبو الطيب: عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.
- مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي: الموطأ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- المباركفوري، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، دار

الكتب العلمية - بيروت.

- مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- المعافى بن عمران: الزهد، تحقيق عامر حسن، دار البشائر، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
- المناوي، محمد عبد الرءوف بن علي: فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م.
- النسائي، أحمد بن شعيب: سنن النسائي الكبرى، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ = ١٩٩١م.
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.
- الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر - بيروت، ١٤١٢هـ.

سابعًا: كتب الفقه والشريعة:

- ابن القيم: إعلام الموقعين عن رب العالمين، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م.
- ابن تيمية: مجموع الفتاوى، تحقيق عامر الجزار، دار ابن حزم - بيروت، ١٩٩٨م.
- ابن قدامة المقدسي: المغني، طبع إدارة المنار، الطبعة الثالثة، ١٣٦٧هـ.
- أبو يوسف: كتاب الخراج، المطبعة السلفية - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٥٢هـ.
- الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق سيد الجميلي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: المستصفى من علم الأصول، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.
- مالك بن أنس: المدونة الكبرى، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- مجموعة: الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت، الطبعة الأولى، مطابع دار الصفوة - مصر.
- يوسف القرضاوي: الحلال والحرام في الإسلام، مكتبة وهبة - القاهرة، الطبعة الثانية والعشرون، ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م.

ثامنًا: كتب السيرة:

- إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية، دار القلم - دمشق.
- ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والسير، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٤٠٦هـ.
- ابن كثير: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٣٩٦هـ = ١٩٧١م.

- ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق محمد فهمي السرجاني، المكتبة التوفيقية - القاهرة.
- أكرم ضياء العمري: المجتمع المدني في عهد النبوة، المجلس العلمي لإحياء التراث، ضمن سلسلة منشورات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.
- السهيلي: الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام، دار الكتب العلمية - بيروت.
- صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، دار الوفاء - المنصورة، الطبعة السابعة عشرة، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.
- كامل سلامة الدقس: دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، دار عمار، عمان - الأردن، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م.

تاسعًا: كتب التاريخ والتراجم والبلدان والفهارس:

- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق عامر النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.
- ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر - بيروت.
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرناءوط، ومحمود الأرناءوط، دار ابن كثير - دمشق، ١٤٠٦هـ.
- ابن النديم: الفهرست، دار المعرفة - بيروت، ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م.
- ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتاب العربي - بيروت.
- ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة.
- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ١٩٩٤م.
- ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، دار الكتاب العربي - بيروت.
- ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، طبعة ليدن، ١٩٢٠م.
- ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، عالم الكتب - بيروت، ١٩٨٠م.
- ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.
- أبو العباس الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب - الدار البيضاء، ١٩٩٧م.
- الذهبي: تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي.
- الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق حسين الأسد، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

- الزركلي: موسوعة الأعلام، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الخامسة، أيار (مايو) ١٩٨٠م.
- السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو، دار هجر للطباعة والنشر، ١٤١٣هـ.
- السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.
- السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، دار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
- الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة - بيروت، ١٤٠٤هـ.
- الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق تركي فرحان المصطفى، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م.
- القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تصحيح محمد أمين الخانجي، دار السعادة - القاهرة، ١٣٢٦هـ.
- القنوجي، محمد صديق خان بن حسن بن علي: أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تحقيق عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٧٨م.

عاشراً: كتب اللغة والمعاجم والآداب:

- إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، تحقيق مجمع اللغة العربية، دار الدعوة - مصر.
- ابن القيم: الوابل الصيب، تحقيق محمد عبد الرحمن عوض، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- ابن جبير: رحلة ابن جبير، دار صادر - بيروت.
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م.
- ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- أبو الهلال العسكري: جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.
- الجاحظ: التبصرة بالتجارة، تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب، دار الكتاب الجديد - تونس، ١٩٦٦م.
- الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل - بيروت، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.
- الجرجاني: التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- الجوهري: الصحاح، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٠م.
- الرازي: مختار الصحاح، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، دار ابن حزم - بيروت.
- عنترة بن شداد: ديوان عنترة بن شداد، مطبعة الآداب - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٨٣٩م.

- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، دار المعرفة - بيروت.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب: أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ = ١٩٧٨م.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد: الكامل في اللغة والأدب، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- محمد عتريس: معجم بلدان العالم، الدار الثقافية للنشر - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٢م.
- المرزوقي: شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل - بيروت.
- الميداني، أحمد بن محمد النيسابوري: مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت.

حادي عشر: المراجع العربية الحديثة:

- أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مكتبة الإيمان، المنصورة - مصر.
- أبو اليسر فرج: تاريخ مصر في عصر البطالمة والرومان، عين للدراسات والبحوث الإنسانية - القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.
- أحمد الرشيدي: حقوق الإنسان.. دراسة مقارنة في النظرية والتطبيق، مكتبة الشروق الدولية - القاهرة، ٢٠٠٣م.
- أحمد بن علي تمراز، وحسين عمر سباهيتش: جمهورية البوسنة والهرسك قلب أوربا الإسلامي، دار الأرض للنشر والخدمات الإعلامية، ١٤١٣هـ.
- أحمد رأفت عبد الجواد: مبادئ علم الاجتماع، مكتبة نهضة الشرق - جامعة القاهرة.
- أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، الطبعة السادسة، ١٩٨١م.
- أحمد شلبي: اليهودية، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة.
- أحمد فهمي: لماذا يكرهون حماس، الناشر مجلة البيان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.
- أحمد قائد الشعيبي: وثيقة المدينة.. المضمون والدلالة، سلسلة منشورات كتاب الأمة - العدد ١١٠ - قطر، ١٤٢٦هـ.
- أحمد كنعان: ذاكرة القرن العشرين، دار النفائس للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- أحمد محمد عوف: صناع الحضارة العلمية في الإسلام، دار المعارف - القاهرة، ١٩٨٤م.
- إدوار غالي الدهبي: أقول لدعاة الفتنة الطائفية، دار أنباء للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- أديب أبي ضاهر: عادات الشعوب وتقاليدها، دار الكاتب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.
- أمل خليفة: هزيمة أمريكا في فيتنام، مكتبة مدبولي - القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- أمين الخولي: الرياضة والمجتمع، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، ١٩٩٦م.

- أمين هويدي: أزمة الخليج، أزمة الأمن القومي العربي، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
- الأنبا يؤانس: مذكرات في الرهبنة المسيحية، مطبوعات الكلية الإكليريكة اللاهوتية للأقباط الأرثوذكس - القاهرة.
- أنور الجندي: مقدمات العلوم والمناهج، محاولة لبناء منهج إسلامي متكامل، دار الأنصار - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.
- أنيس منصور: حول العالم في ٢٠٠ يوم، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الخامسة والعشرون، ٢٠٠٠م.
- إيليا أبو ماضي: ديوان إيليا أبي ماضي، دار العودة - بيروت.
- بهاء شاهين: الإنترنت والعولمة، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
- توفيق الطويل: مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، الطبعة الأولى، نوفمبر ١٩٥٣م.
- جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، مكتبة الخانجي - القاهرة، ١٩٧٤م.
- جمال حمدان: شخصية مصر، دار الهلال - القاهرة.
- جمال عبد الهادي: الطريق إلى بيت المقدس، دار الوفاء، الطبعة الخامسة، ١٩٩٧م.
- جمال عبد الهادي، وعلي لبن: المجتمع الإسلامي الإفريقي المعاصر، دار الوفاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
- جمال عبد الهادي، ووفاء محمد رفعت: إفريقيا يُراد لها أن تموت جوعًا، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ١٩٩١م.
- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، دار الساقي، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.
- جورج حنا: قصة الإنسان، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٧٩م.
- حامد محمود عيسى: المشكلة الكردية في الشرق الأوسط، مكتبة مدبولي - القاهرة، ١٩٩٢م.
- حسن برنيا: تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العهد الساساني، ترجمة دكتور محمد السباعي محمد السباعي، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة، ١٩٧٩م.
- حسن حمدان العليم: قضايا إسلامية معاصرة، مركز الدراسات الآسيوية - القاهرة، ١٩٩٧م.
- حسن نافعة: الأمم المتحدة في نصف قرن، سلسلة عالم المعرفة، رقم (٢٠٢)، أكتوبر ١٩٩٥م.
- حسني عايش: أمريكا الإسرائيلية وإسرائيل الأمريكية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
- حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، ١٩٨٩م.
- حميد الهاشمي: العرب وهولندا، الأحوال الاجتماعية للمهاجرين العرب في هولندا، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- خزعل الماجدي: أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، دار الشروق للنشر والتوزيع - الأردن، ١٩٩٧م.
- راغب السرجاني: أخلاق الحروب في السُّنَّة النبوية، مؤسسة اقرأ للطباعة والنشر - القاهرة، الطبعة الأولى.

- راغب السرجاني: التعامل مع غير المسلمين في السنة النبوية، بحث غير منشور.
- راغب السرجاني: العلم وبناء الأمم.. دراسة تأصيلية في بناء الدولة وتنميتها، مؤسسة اقرأ - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م.
- راغب السرجاني: بين التاريخ والواقع، مؤسسة اقرأ للطباعة والنشر - القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- راغب السرجاني: قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، مؤسسة اقرأ - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.
- راغب السرجاني: قصة الحروب الصليبية، مؤسسة اقرأ - القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، مؤسسة اقرأ للطباعة - القاهرة، الطبعة الأولى.
- راغب السرجاني: ماذا قدم المسلمون للعالم، إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية، مؤسسة اقرأ - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م.
- راغب السرجاني: وشهد شاهد من أهلها، نهضة مصر للطباعة والنشر - مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.
- رأفت غنيمي الشيخ وآخرون: تاريخ آسيا الحديث والمعاصر، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية - القاهرة، ٢٠٠٤م.
- زكريا إبراهيم: المشكلة الخلقية، مكتبة مصر.
- زكريا إبراهيم: مشكلة الفلسفة، مكتبة مصر - القاهرة، ١٩٧١م.
- سامي بن عبد الله المغلوث: أطلس الأديان، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٧م.
- سعد البشري: الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - الرياض، ١٤١٤هـ.
- سعيد إسماعيل علي: الحوار ثقافة ومنهجًا، دار السلام للنشر - القاهرة، ٢٠٠٨م.
- سليم الحصّ: تعالوا إلى كلمة، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
- سهيل حسن الفتلاوي: حقوق الإنسان في الإسلام، دار الفكر العربي - بيروت، ٢٠٠١م.
- سيد قطب: دراسات إسلامية، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الحادية عشرة، ٢٠٠٦م.
- السيد محمد بدوي: الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية - القاهرة، ٢٠٠٠م.
- شاكر عبد الحميد: التفضيل الجمالي؛ دراسة في سيكولوجية التذوق الفني، سلسلة عالم المعرفة (٢٦٧)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، مارس ٢٠٠١م.
- شوقي أبو خليل، وهاني المبارك: دور الحضارة العربية والإسلامية في النهضة الأوربية، دار الفكر - دمشق، ١٩٩٦م.
- شوقي الجمل، وعبد الله عبد الرازق: تاريخ أوربا من النهضة حتى الحرب الباردة، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ط ٢٠٠٠م.

- شوقي الجمل، وعبد الله عبد الرازق إبراهيم: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، دار الثقافة للنشر - القاهرة، ٢٠٠١م.
- صالح بن حميد: أصول الحوار، دار المنارة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م.
- صبري الدمرداش: قطوف من سير العلماء، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ٢٠٠٦م.
- صدام مرير الجميلي: الاتحاد الأوربي ودوره في النظام العالمي الجديد، دار المنهل اللبناني، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.
- صفاء محمد صبره: إقليم جامو وكشمير، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- صلاح الدين عبد اللطيف الناهي: الخوالد من آراء أبي الحسن البصري البغدادي الماوردي، دار الجيل، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.
- صوفي حسن أبو طالب: تاريخ النظم القانونية والاجتماعية، دار نهضة مصر - القاهرة، ١٩٨٤م.
- طاهر أبو فاشا: في معركة المصير العربي، القاهرة، ١٩٦٣م.
- عاطف عودة الرفوع: الإعلام الإسرائيلي ومحددات الصراع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
- عايدة العزب موسى: تجارة العبيد في إفريقيا، مكتبة الشروق الدولية - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- عبد الحليم أبو غزالة: الحرب العراقية الإيرانية، القاهرة، ١٩٩٣م.
- عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر المعاصر - بيروت، ١٩٨٤م.
- عبد الستار إبراهيم: الاكتئاب، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، ١٩٩٨م.
- عبد العظيم رمضان: تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٧م.
- عبد الفتاح شبانة: اليابان.. العادات والتقاليد وإدمان التفوق، مكتبة مدبولي - القاهرة، ١٩٩٦م.
- عبد القادر طاش: تركستان المسلمة وأهلها المنسيون، دار الفتح للإعلام العربي - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
- عبد اللطيف عامر: أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية، دار الكتاب المصري اللبناني - القاهرة.
- عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف، بحث في نقد المركزيات الثقافية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت، ٢٠٠٥م.
- عبد الله العليان: حوار الحضارات في القرن الحادي والعشرين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
- عبد الله مختار يونس: الملكية في الشريعة الإسلامية ودورها في الاقتصاد الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.



- عبد الهادي مصباح: الأسلحة الكيميائية والجرثومية، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- عبد الوهاب المسيري: الأيديولوجية الصهيونية؛ دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة، سلسلة عالم المعرفة (٦٠)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، ديسمبر ١٩٨٢م.
- عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.
- عبد الوهاب المسيري، ورفيق العظمة: العلمانية تحت المجهر، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.
- عبد الوهاب مطاوع: سائح في دنيا الله حول العالم في ٣٠ عامًا، مدبولي الصغير - القاهرة.
- عبده مختار موسى: دارفور.. من أزمة دولة إلى صراع القوى العظمى، الدار العربية للعلوم ناشرون، ومركز الجزيرة للدراسات، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.
- عدنان سعد الدين: البعد الإنساني في الرسالة الإسلامية، دار المنار للنشر والتوزيع - الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
- عزيز أحمد: تاريخ صقلية، ترجمة أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٠م.
- علي بن إبراهيم الحمد النملة: المستشرقون ونشر التراث، مكتبة الملك فهد الوطنية - الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
- علي بن عبد الله الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.
- علي بن عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم، عالم الكتب للنشر والتوزيع - الرياض، ١٩٩١م.
- علي عكاشة، وشحادة الناطور: اليونان والرومان، دار الأمل - الأردن.
- عواطف عبد الرحمن: قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث، سلسلة عالم المعرفة (٧٨)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، يونيو ١٩٨٤م.
- فؤاد سُزكين: تاريخ التراث العربي، طبع على نفقة سلمان بن عبد العزيز آل سعود - الرياض، ١٩٩١م.
- فوَّاز طرابلسي: تاريخ لبنان الحديث.. من الإمارة إلى اتفاق الطائف، رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٨م.
- كامل سعفان: معتقدات آسيوية، دار الندى - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م.
- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر - سوريا، الطبعة الرابعة، ١٩٨٤م.
- مانع بن حماد الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي - الرياض، ٢٠٠١م.
- مجموعة: الأطلس الآسيوي، تحرير: د. محمد السيد سليم، ود. رجاء إبراهيم سليم، مركز الدراسات

الآسيوية - جامعة القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
- مجموعة: الأطلس الماليزي، تحرير: د. كمال المنوفي، ود. جابر سعيد عوض، ود. هدى ميتكيس، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة، برنامج الدراسات الماليزية، ٢٠٠٦م.
- مجموعة: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.
- مجموعة: العلاقات الآسيوية الآسيوية، تحرير: د. هدى ميتيكس، مركز الدراسات الآسيوية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة، ٢٠٠٧م.
- مجموعة: القضية الفلسطينية تحديات الوجود والهوية، مراجعة وتقديم منذر الشرع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- مجموعة: المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية - القاهرة، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.
- مجموعة: الموسوعة السياسية، تحرير د. عبد الوهاب الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان.
- مجموعة: الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي، تقديم د. راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.
- مجموعة: أوربا وحوار الثقافات الأورمتوسطية، نحو رؤية عربية للتفعيل، الناشر جامعة القاهرة - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - مركز البحوث والدراسات السياسية، ٢٠٠٧م.
- مجموعة: حصاد القرن، تحرير: محمد شاهين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- مجموعة: قواعد وآفاق التحديث في الأردن، مراجعة: منذر واصف المصري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- محرم كمال: الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء، سلسلة الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م.
- محسن محمد صالح: دراسات منهجية في القضية الفلسطينية، مركز الإعلام العربي - مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
- محفوظ عزام: الأخلاق في الإسلام بين النظرية والتطبيق، دار الهداية - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م.
- محمد إبراهيم نقد: علاقات الرق في المجتمع السوداني؛ النشأة- السمات- الاضمحلال، دار الثقافة الجديدة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
- محمد أبو زهرة: الديانات القديمة، دار الفكر العربي.
- محمد أبو زهرة: المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية،

١٤٠١هـ = ١٩٨١م.

- محمد السيد سليم ورجاء إبراهيم سليم: الأطلس الآسيوي، مركز الدراسات الآسيوية - جامعة القاهرة.
- محمد السيد سليم ومحمد سعد أبو عامود: قضية كشمير، مركز الدراسات الآسيوية - جامعة القاهرة، ٢٠٠٢م.
- محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين، مكتبة الخانجي - القاهرة، ١٩٧٧م.
- محمد الغزالي: الإسلام في وجه الزحف الأحمر، دار نهضة مصر - القاهرة، يناير ٢٠٠٥م.
- محمد الغزالي: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، دار نهضة مصر - القاهرة، الطبعة الرابعة، أغسطس ٢٠٠٥م.
- محمد الغزالي: خلق المسلم، دار الريان - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م.
- محمد المجذوب: التنظيم الدولي.. النظرية والمنظمات العالمية والإقليمية، منشورات الحلبي الحقوقية - بيروت، ٢٠٠٧م.
- محمد بديع رسلان: من أجل فكر عالمي موحد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
- محمد بن أحمد بن صالح: حقوق الإنسان في القرآن والسنة وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية، وزارة الأوقاف - المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٥م.
- محمد جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر، الزهراء للإعلام العربي - القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.
- محمد حميد السلمان: الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة ما بين ١٥٠٧م إلى ١٥٢٠م، مركز زايد للتراث والتاريخ - الإمارات، ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م.
- محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس للطباعة والنشر - بيروت، الطبعة السابعة، ٢٠٠١م.
- محمد سعدي: مستقبل العلاقات الدولية من صراع الحضارات إلى أنسنة الحضارة وثقافة السلام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، فبراير ٢٠٠٨م.
- محمد سليمان شبير: تاريخ النظم القانونية، منشورات كلية الحقوق جامعة الأزهر - غزة، الطبعة الثانية، ٢٠١٠م.
- محمد عابد الجابري: المثقفون في الحضارة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية.
- محمد عدنان البخيت وآخرون: نقولا زيادة في ميزان التأريخ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- محمد عمارة: الإسلام في مواجهة التحديات، دار نهضة مصر - القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
- محمد عمارة: الإسلام والأمن الاجتماعي، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.
- محمد عمارة: الإسلام وحقوق الإنسان، سلسلة عالم المعرفة (٨٩)، المجلس الوطني للثقافة والفنون

والآداب - الكويت، مايو ١٩٨٥م.

- محمد عمارة: عندما أصبحت مصر عربية إسلامية، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.
- محمد عمارة: في المسألة القبطية حقائق وأوهام، مكتبة الشروق - القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
- محمد عوض إبراهيم بك: قصص جوب الأقطار وكشفها، دار الفكر العربي.
- محمد قطب: منهج الفن الإسلامي، دار الشروق - القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.
- محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة السابعة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م.
- محمد مصطفي كمال، وفؤاد نهرا: صنع القرار في الاتحاد الأوربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
- محمود شاكر: محنة المسلمين في كوسوفا، مكتبة العبيكان - السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.
- محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي - دمشق، الطبعة السابعة، ١٤١١هـ = ١٩٩١م.
- محمود عبد الرحمن: تاريخ القوقاز- نسور الشيشان في مواجهة الدب الروسي، دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
- مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، دار الوراق، ودار السلام - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.
- مصطفى النشار: حقوق الإنسان المعاصر بين الخطاب النظري والواقع العملي، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر - القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
- مصطفى النشار: نظرية المعرفة عند أرسطو، مؤسسة دار المعارف للطباعة والنشر - القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٥م.
- مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٤م.
- مصطفى حلمي: السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية، دار الدعوة، الإسكندرية - مصر، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ = ١٩٩١م.
- مصطفى محمد الطحان: فلسطين والمؤامرة الكبرى، المركز العالمي للكتاب الإسلامي - الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.
- مصطفى وهبة، نوابغ المسلمين، مكتبة جزيرة الورد - مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م.
- منصور عبد الحكيم: الإمبراطورية الأميريكية، البداية والنهاية، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان،

٢٠٠٥م.

- ميلاد حنا: قبول الآخر، فكر واقتناع وممارسة، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م.
- نادر كاظم: تمثيلات الآخر.. صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
- ناريمان درويش: المشكلات السياسية المعاصرة، دار المعارف - القاهرة، ١٩٨٥م.
- نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، سلسلة عالم المعرفة (٩)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، سبتمبر ١٩٧٨م.
- نبيلة محمد عبد الحليم: معالم التاريخ الحضاري والسياسي في مصر الفرعونية، منشأة معارف الإسكندرية - مصر.
- نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف - القاهرة، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٦م.
- هالة أبو الفتوح: فلسفة الأخلاق والسياسة.. المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس، دار قباء للطبع والنشر والتوزيع - القاهرة، ٢٠٠٠م.
- هاني نصري: الفكر والوعي بين الجهل والوهم والجمال والحرية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.
- هدى درويش: تقارب الشعوب؛ موعد الحضارات، دار السلام - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م.
- هديل بسام زكارنة: المدخل في علم الجمال، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨م.
- هشام عبد الرءوف حسن: تاريخ اليابان الحديث والمعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٣م.
- وليد رضوان: تركيا بين العلمانية والإسلام، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
- وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر - دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.
- يوسف حامد الشين: الفلسفة المثالية.. قراءة جديدة لنشأتها وتطورها وغاياتها، منشورات جامعة قاريونس - بنغازي، ١٩٩٨م.
- يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف - القاهرة، الطبعة الخامسة.
- يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٥٥هـ = ١٩٣٦م.

ثاني عشر: المراجع الأجنبية المترجمة:

- إدوار ويسترمارك: موسوعة تاريخ الزواج، ترجمة: مصباح الصمد وآخران، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م
- أرسطو: دعوة للفلسفة، دار التنوير للطباعة والنشر - بيروت، ٢٠٠٣م.
- أرنولد توينبي: تاريخ البشرية، ترجمة نيقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.
- أشيلي مونتاجيو: البدائية، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، ١٩٨٢م.
- ألكسندر ستيبتشفتش: تاريخ الكتاب، ترجمة محمد الأرناءوط، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، ١٩٩٣م.
- أنا ماري شيمل: الجميل والمقدس، ترجمة عقيل يوسف عيدان، الدار العربية للعلوم - الكويت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- أندريه إيمار، وجانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام.. الشرق واليونان القديمة، منشورات عويدات - بيروت.
- إيميل برهييه: تاريخ الفلسفة، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت.
- ب. راوين: الحضارات الهندية في أمريكا (الأنتيك، المايا، الإنكا)، ترجمة يوسف شلب الشام، دار المنارة للدراسات والترجمة - دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.
- ب. ف. سكينر: تكنولوجيا السلوك الإنساني، ترجمة عبد القادر يوسف، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، ١٩٨٠م.
- بازيل ديفيدسون: إفريقيا تحت أضواء جديدة، دار الثقافة - بيروت، ١٩٦١م.
- براترند راسل: حكمة الغرب، ترجمة فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، ١٩٨٣م.
- برتلومي دي لاس كازاس: المسيحية والسيف، وثائق إبادة هنود القارة الأميريكية على أيدي المسيحيين الإسبان، ترجمة سميرة عزمي الزين، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية.
- برونوفسكي: ارتقاء الإنسان، ترجمة موفق شخاشيرو، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، ١٩٨١م.
- بيتر فارب: بنو الإنسان، ترجمة زهير الكرمي، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، ١٩٨٣م.
- بيير بيارنس: القرن الحادي والعشرون لن يكون أمريكيًّا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.
- توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٠م.
- توماس كارليل: الأبطال، ترجمة محمد السباعي، مطبعة مكتبة مصر - القاهرة.
- تيموثي هاربر: المملكة المتحدة.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك، ترجمة شويكار زكي، مجموعة النيل العربية - القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

- جارودي: حوار الحضارات، ترجمة عادل العوا، دار عويدات للنشر - بيروت.
- جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، ١٩٩٣م.
- جنفياف روديس لويس: ديكارت والعقلانية، ترجمة عبدو الحلو، عويدات للنشر والطباعة - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٨م.
- جواهر لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم، ترجمة عبد العزيز عتيق، دار المعارف، القاهرة - مصر، ١٩٥٨م.
- جوزيف براودي: العراق الجديد، ترجمة نمير عباس مظفر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
- جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ٢٠٠٠م.
- جوسيبي دي لونا: موسوليني، ترجمة عادل دمرداش، سلسلة الألف كتاب الثاني، رقم ٣٥١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م.
- جولدا مائير: اعترافات جولدا مائير، ترجمة عزيز عزمي، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر - القاهرة.
- جون كولر: الفكر الشرقي القديم، ترجمة كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، ١٩٩٥م
- جون لوك: الحكومة المدنية، ترجمة محمود شوقي الكيال، الدار القومية للطباعة والنشر - مصر، ١٩٨٨م.
- جون لوك: رسالة في التسامح، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي - بيروت.
- جيني لي: الصين.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك، ترجمة شويكار زكي، مجموعة النيل العربية - القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
- دنيس بولم: الحضارات الإفريقية، ترجمة علي شاهين، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت، ١٩٧٤م.
- دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة أحمد فؤاد باشا، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، ٢٠٠٤م.
- ديكارت: مقال عن المنهج، ترجمة محمود محمد الخضيري، دار الكاتب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- روبرت هندي وجوزيف روتبلات: أوقفوا الحرب، ترجمة أمل حمود، الحوار الثقافي - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- روبين ميريديث: الفيل والتنين صعود الهند والصين، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، العدد (٣٥٩)، يناير ٢٠٠٩م.
- روسو: العقد الاجتماعي، الهيئة العامة المصرية للكتاب - القاهرة، ١٩٩٤م.
- رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث، دار القارئ العربي - مصر، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٤م.
- ريتشارد بوسورث: إيطاليا في عهد موسوليني.. الحياة في ظل الديكتاتورية، دار بنجوين - لندن، ٢٠٠٦م.
- ريتشارد نيكسون: أمريكا والفرصة التاريخية، ترجمة محمد زكريا إسماعيل، دار بيسان، بيروت - لبنان،

١٩٩٢م.

- زبيجنيو بريجنسكي: الاختيار.. السيطرة على العالم أم قيادة العالم، دار الكتاب العربي - بيروت.
- زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون، دار صادر - بيروت، الطبعة العاشرة، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.
- ستيوارت هامبشر: عصر العقل، ترجمة ناظم الطحان، دار الحوار.
- سيريل ألدريد: الحضارة المصرية من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة، ترجمة مختار السويفي، الدار المصرية اللبنانية - القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م.
- صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات.. إعادة صنع النظام العالمي، دار سطور للنشر، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.
- ف. بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف - القاهرة، الطبعة الخامسة.
- فرانسس مور لابيه وجوزيف كولينز: صناعة الجوع؛ خرافة الندرة، ترجمة أحمد حسان، سلسلة عالم المعرفة (٦٤)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، إبريل ١٩٨٣م.
- فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.
- فرانكلين باومر: الفكر الأوربي الحديث، الاتصال والتغير في الأفكار من ١٦٠٠ - ١٩٥٠م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م.
- فرناند بروديل: تاريخ وقواعد الحضارات، ترجمة وتعليق سفير. د. حسين شريف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.
- فيليسيان شالي: موجز تاريخ الأديان، ترجمة حافظ الجمالي، طلاس للترجمة والنشر - دمشق.
- كارل سيميلروث: عادة الغضب في تربية الأولاد، ترجمة فاطمة عصام صبري، مكتبة العبيكان، الرياض - السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م.
- كارين أرمسترونج: القدس.. مدينة واحدة وعقائد ثلاث، ترجمة: د. فاطمة نصر، ود. محمد عناني، دار سطور، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- كارين أرمسترونج: الله لماذا؟ مسعى البشرية الأزلي، ترجمة: د. فاطمة نصر، ود. هبة محمود عارف، دار سطور، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.
- كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد، ترجمة: د. فاطمة نصر، ود. محمد عناني، دار سطور، القاهرة - مصر، ١٩٩٧م.
- كرس هدجز: الحرب حقيقتها وآثارها، تعريب: أيمن الأرمنازي، شركة الحوار الثقافي - بيروت، ٢٠٠٥م.
- كلايد برستوفتز: الدولة المارقة الدفع الأحادي في السياسة الخارجية الأميركية، تعريب: فاضل جتكر،



شركة الحوار الثقافي، بيروت - لبنان، ٢٠٠٣م.

- كيفين كيتنج: كوريا.. دليلك إلى المعاملات التجارية والعادات وقواعد السلوك، ترجمة شويكار زكي، مجموعة النيل العربية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.
- ل. أ. سيديو: تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة - مصر، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م.
- لي كوان يو: قصة سنغافورة، نقله إلى العربية: د. هشام الدجاني، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
- مارجريت روتن: تاريخ بابل، عويدات للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٩٨٤م.
- مايكل كاريذرس: لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؛ الثقافات البشرية نشأتها وتنوعها، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة (٢٢٩)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، يناير ١٩٩٨م.
- مجموعة: النار والجليد، الإمبراطورية الحمراء من المهد إلى اللحد، دار الحسام، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.
- مجموعة: تراث الإسلام، إشراف: جوزيف شاخت، وكليفورد بوزوروث، ترجمة: مجموعة، سلسلة عالم المعرفة (٨)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت.
- مجموعة: نظرية الثقافة، ترجمة علي سيد الصاوي، سلسلة عالم المعرفة (٢٢٣)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، يوليو ١٩٩٧م.
- مونتجمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ترجمة حسين أحمد أمين، مكتبة مدبولي، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.
- ميرلو بونتي: العين والعقل، تقديم وترجمة: د. حبيب الشاروني، منشأة المعارف، الإسكندرية - مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- ميكيافيللي: الأمير، ترجمة أكرم مؤمن، مكتبة ابن سينا - القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
- نفتالي لويس: الحياة في مصر في العصر الروماني، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، منشورات عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- هـ. أ. ل. فِشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، ترجمة: أحمد نجيب هاشم، ووديع الضبع، دار المعارف - القاهرة، الطبعة التاسعة، ١٩٩٣م.
- هانس كونج: الإسلام رمز الأمل، القيم الأخلاقية المشتركة للأديان، ترجمة رانيا خلاف، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
- هربرت جورج ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة، القاهرة - مصر، ١٩٦٧م.
- هنري كيسنجر: هل تحتاج أمريكا إلى سياسة خارجية، دار الكتاب العربي - بيروت، ٢٠٠٣م.
- هيجل: العقل في التاريخ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار الفارابي.

• والتر رودني: أوربا والتخلف في إفريقيا، ترجمة أحمد القصير، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، ١٩٨٨م.
• ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة مجموعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ٢٠٠١م.
• ول ديورانت: قصة الفلسفة، ترجمة د. فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت - لبنان، ١٩٦٠م.
• ولتر فيرسزفس: أصول الحضارة الشرقية، ترجمة رمزي يسّي، دار الكرنك للنشر والطبع - القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

ثالث عشر: المراجع الأجنبية غير المترجمة:

• Abraham H.masow, motivation and personality.
• William Z. Foster,Out Line Political History of Amricans, International Publishers, New York, 1951.،

رابع عشر: مجلات ودوريات وصحف:

• إلهام محمد علي: التغلغل الفرنسي في النيجر، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث الإفريقية - جامعة القاهرة، ١٩٧٧م.
• تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة ٢٠٠٩م.
• حالة اللاجئين في العالم، خمسون عامًا من العمل الإنساني، مركز الأهرام للترجمة والنشر - القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
• رجائي فايد: المأزق العراقي، مشكلات بناء الدولة في مجتمع تعددي، سلسلة كراسات استراتيجية، العدد ١٣٧، مارس ٢٠٠٤م.
• صحفية لوموند الفرنسية.
• صحيفة الاتحاد الإماراتية.
• صحيفة الأخبار اللبنانية.
• صحيفة الأهرام المسائي.
• صحيفة الأهرام المصرية.
• صحيفة الثورة السورية.
• صحيفة الدستور الأردنية.
• صحيفة الرياض السعودية.
• صحيفة الشرق الأوسط اللندنية.
• صحيفة الشرق الأوسط.
• صحيفة الشروق المصرية.
• صحيفة الصباح العراقية.
• صحيفة المؤتمر اليمنية.

- صحيفة المصري اليوم.
- صحيفة اليوم السابع المصرية.
- صحيفة روز اليوسف القاهرية.
- مجلة أخبار المغربية.
- مجلة البحوث الإسلامية.
- مجلة الجزيرة الإلكترونية.
- مجلة الحوار المتمدن.
- مجلة الدعوة السعودية.
- مجلة السياسة الدولية، أعداد: يناير ٢٠٠٧م، يوليو ٢٠٠٧م، ويوليو ٢٠٠٩م، وإبريل ٢٠١٠م، ويوليو ٢٠١٠م.
- مجلة الصين المصورة.
- مجلة المجتمع الكويتية.
- مجلة المنار.
- مجلة النبأ.
- مجلة أنوال الثقافية، يوليو ١٩٩٦م.

خامس عشر: مؤتمرات وندوات:

- الجازية الهمامي: العنف الأسري في بلدان المغرب العربي، مؤتمر كرامة حول العنف الأسري، البحرين ديسمبر ٢٠٠٨م.
- ديفيد أدمز: بيان إشبيلية عن العنف، التمهيد لبناء السلام، منشورات المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو – باريس ١٩٨٩م.

سادس عشر: مواقع إنترنت:

- http://ar.wikipedia.org.
- http://en.wikipedia.org.
- http://pewforum.org.
- Journal of Energy Security www.ensec.org.
- www.cia.gov.
- www.newamericancentury.org/Bushletter.
- www.unwto.org.

- دليل الخيمة للمواقع: www.khayma.com.

- صحيفة «الشعب الصينية» باللغة العربية، على الرابط: http://arabic.people.com.cn.
- صحيفة أخبار العالم التركية الإلكترونية، على الرابط: www.akhbaralaalam.net.
- صحيفة أخبار الوطن المصرية: www.egyptiangreens.com.
- صحيفة الاقتصادية الإلكترونية: www.aleqt.com.
- صحيفة الإيكونومست البريطانية: www.economist.com.
- صحيفة الجارديان البريطانية: www.guardian.co.uk.
- صحيفة الشعب الصينية: http://arabic.people.com.cn.
- صحيفة دنيا الوطن: www.alwatanvoice.com.
- مؤشرات البنك الدولي عام ٢٠٠٩م: http://data.albankaldawli.org.
- مجلة أوان الإلكترونية: www.alawan.org.
- مدونة محمد ماهر عطية: http://moh-ateea.nireblog.com.
- مواقع دليل نسيج: www.naseej.com.
- موقع «عن بوذا»: www.aboutbuddha.org.
- موقع «فرنسا ٢٤» الإخباري الفرنسي: www.france24.com/ar.
- موقع «ويكي مصدر»: http://ar.wikisource.org.
- موقع Adherents.com
- موقع http://hd.rstats.undp.org.
- موقع www.aboutdivorce.org.
- موقع اتفاق الدوحة: www.qatar-conferences.org/lebanon.
- موقع أجراس العودة: www.ajras.org.
- موقع الاتحاد الأوربي: http://europa.eu
- موقع الإسلام اليوم: http://islamtoday.net.
- موقع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان: www.un.org.
- موقع الأمم المتحدة باللغة العربية: www.un.org.
- موقع الأمم المتحدة على الإنترنت، على الرابط: www.unicef.org.
- موقع الأنباء العربية لشبكة شينخوا باللغة العربية: www.arabic.xinhuanet.com.
- موقع الأونسيترال، على الرابط: www.uncitral.org.

- موقع البنك الدولي: web.worldbank.org.
- موقع البيت الأبيض الأمريكي: www.whitehouse.gov.
- موقع الحكومة الأميريكية: www.america.gov
- موقع الدليل التدريبي لدعاة الحقوق، على الرابط: http://www1.umn.edu.
- موقع الرابطة الأوربية لمصنِّعي السيارات: ww.acea.be.
- موقع الشبكة الإسلامية: www.islamweb.net.
- موقع الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان: www.anhri.net.
- موقع العربية نت: www.alarabiya.net.
- موقع الفسطاط: www.fustat.com.
- موقع المركز العربي للمصادر والمعلومات (أمان): www.amanjordan.org.
- موقع المعهد الوطني الإيطالي:en.istat.it
- موقع الموسوعة العربية المسيحية: http://198.62.75.1/www1/ofm/1god/index.html.
- موقع الهيئة العامة المصرية للاستعلامات: www.sis.gov.eg.
- موقع اليونيسيف: www.unicef.org/arabic.
- موقع بوابة الاقتصاد السوداني: www.sudaneconomy.com.
- موقع بي بي سي العربي: www.bbc.co.uk/arabic.
- موقع رويترز باللغة العربية، على الرابط: http://ara.reuters.com.
- موقع شبكة CNN الأميريكية: www.cnn.com.
- موقع شبكة إسلام أون لاين. نت: www.islamonline.net.
- موقع شبكة الأمان الإخبارية: www.amanjordan.org.
- موقع شبكة الجزيرة الإخبارية: www.aljazeera.net.
- موقع شبكة راصد الإخبارية: www.rasid.com.
- موقع صحيفة الصباح: www.alsabaah.com.
- موقع صحيفة الوسط الإلكترونية: www.alwasatnews.com.
- موقع صحيفة روز اليوسف: www.rosaonline.net.
- موقع صحيفة صنداي تايمز الأميريكية: www.timesonline.co.uk.
- موقع صحيفة صنداي تليجراف البريطانية: www.telegraph.co.uk.

- موقع قاعدة رامشتاين: www.ramstein.af.mil.
- موقع كتاب الحقائق الأمريكي ٢٠٠٩م: www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook
- موقع مؤسسة «تيد» الأميريكية: www.ted.com.
- موقع مؤسسة جالوب، على الرابط: www.gallup.com.
- موقع مجلة (nationalgeographic): http://magma.nationalgeographic.com.
- موقع مجلس الأمن الدولي: www.un.org/Docs/sc.
- موقع مراسلون بلا حدود: http://ar.rsf.org.
- موقع مركز النور الثقافي» www.alnoor.se.
- موقع مركز بيو لأبحاث الدين والسكان بواشنطن: http://pewforum.org.
- موقع معهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام: www.sipri.org.
- موقع مفكرة الإسلام: www.islammemo.cc.
- موقع منتدى مشجعي فريق إنتر ميلان الإيطالي: http://forums.intermilan.ae.
- موقع منظمة الأغذية والزراعة: www.fao.org.
- موقع منظمة السياحة العالمية: www.unwto.org.
- موقع منظمة الصحة العالمية على الإنترنت، على الرابط: www.emro.who.int/arabic.
- موقع منظمة الصحة العالمية، www.who.int.
- موقع منظمة العدل الدولية: www.amnesty.org/ar.
- موقع منظمة دار الحرية، الولايات المتحدة الأميريكية: www.freedomhouse.org.
- موقع مهرجان كان: www.festival-cannes.fr.
- موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: www.55a.net.
- موقع وجهات نظر: www.weghatnazar.com.
- موقع وزارة الثورة الحيوانية والسمكية السودانية: www.marf.gov.sd.
- موقع وزارة الزراعة والغابات السودانية: www.sudagric.gov.sd.
- موقع: www.itp.net.
- وكالة الأنباء السويسرية: www.swissinfo.ch/ara/index.html.
- وكالة رويترز للأنباء: http://ara.reuters.com.

- وكالة نبأ: www.islamicnews.net.

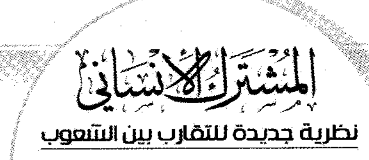
سابع عشر: الموسوعات ودوائر المعارف:

- دائرة المعارف البريطانية.
- عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين - لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣م.
- عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
- مسعود الخوند: الموسوعة التاريخية الجغرافية، دار رواد النهضة - لبنان، الطبعة الأولى، يناير ١٩٩٤م.
- الموسوعة البريطانية: www.britannica.com.
- الموسوعة الحرة العالمية «ويكيبيديا العربية»: ar.wikipedia.org.
- الموسوعة العربية العالمية، الإصدار الرقمي الإلكتروني - السعودية، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.
- هيثم هلال: موسوعة الحروب، دار المعرفة - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.

* * *

الفهارس







الفهـــــارس

فهرس الآيات

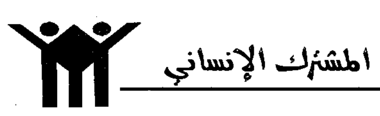
فهرس الأحاديث

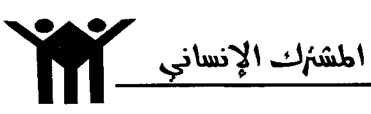
فهرس الأعلام



فهرس الأعلام المترجم لها

فهرس الأماكن





فهرس الغزوات والمعارك

فهرس الخرائط

فهرس الأشكال

فهرس الجداول

فهرس الصور

* * *

فهرس الموضوعات

* * *

الأستاذ الدكتور راغب السرجاني



الأستاذ الدكتور راغب السرجاني: وُلِدَ عام ١٩٦٤م بمصر، وتخرَّج في كلية الطب جامعة القاهرة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف عام ١٩٨٨م، أتمَّ حفظ القرآن الكريم عام ١٩٩١م. ثم نال درجة الماجستير عام ١٩٩٢م من جامعة القاهرة بتقدير امتياز، ثم الدكتوراه بإشراف مشترك بين مصر وأمريكا عام ١٩٩٨م (في جراحة المسالك البولية والكلى).

- أستاذ بكلية الطب جامعة القاهرة.
- رئيس مجلس إدارة مركز الحضارة للدراسات التاريخية بالقاهرة.
- صاحب فكرة موقع قصة الإسلام والمشرف عليه (أكبر موقع للتاريخ الإسلامي) www.islamstory.com.
- باحث ومفكر إسلامي، وله اهتمام خاص بالتاريخ الإسلامي.
- ينطلق مشروعه الفكري «معًا نبني خير أمة» من دراسة التاريخ الإسلامي دراسة دقيقة مستوعبة، تحقق للأمة عدة أهداف؛ منها:

  - استنباط عوامل النهضة والاستفادة منها في إعادة بناء الأمة.
  - بعث الأمل في نفوس المسلمين، وحثهم على العلم النافع والعمل البناء؛ لتحقيق الهدف.
  - تنقية التاريخ الإسلامي وإبراز الوجه الحضاري فيه.

- وعلى مدار سنوات عديدة كانت له إسهامات علمية ودعوية؛ ما بين محاضراتٍ وكتبٍ ومقالاتٍ وتحليلاتٍ؛ عبر رحلاته الدعوية إلى شتى أنحاء العالم.
- صَدَرَ له حتى الآن ٣١ كتابًا في التاريخ والفكر الإسلامي؛ هي:

١. (من هو محمد ﷺ): الحائز على جائزة المركز الإسلامي لدعاة التوحيد والسُّنَّة عام ٢٠١٠م.
٢. (ماذا قدم المسلمون للعالم.. إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية): الحائز على جائزة مبارك للدارسات الإسلامية عام ٢٠٠٩م.
٣. (الرحمة في حياة الرسول ﷺ): الحائز على جائزة المركز الأول في مسابقة البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ عام ٢٠٠٧م.
٤. المشترك الإنساني.. نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب
٥. قصة الإمام محمد بن عبد الوهاب ؒ
٦. قصة التتار من البداية إلى عين جالوت
٧. قصة الحروب الصليبية من البداية إلى عهد عماد الدين زنكي
٨. العلم وبناء الأمم - دراسة تأصيلية في بناء الدولة وتنميتها
٩. روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية
١٠. أخلاق الحروب في السنة النبوية
١١. قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية
١٢. فلسطين.. واجبات الأمة
١٣. وشهد شاهد من أهلها
١٤. رحماء بينهم - قصة التكافل والإغاثة في الحضارة
١٥. بين التاريخ والواقع - أربعة أجزاء
١٦. رمضان ونصر الأمة
١٧. أمة لن تموت
١٨. رسالة إلى شباب الأمة
١٩. كيف تحافظ على صلاة الفجر
٢٠. كيف تحفظ القرآن الكريم
٢١. القراءة منهج حياة
٢٢. المقاطعة.. فريضة شرعية وضرورة قومية
٢٣. أخي الطبيب قاطع
٢٤. أنت وفلسطين
٢٥. فلسطين لن تضيع.. كيف؟
٢٦. لسنا في زمان أبرهة

٢٧. **إلا تنصروه ﷺ**

٢٨. **التعذيب في سجون الحرية**

٢٩. **رمضان وبناء الأمة**

٣٠. **الحج ليس للحجاج فقط**

٣١. **من يشتري الجنة**

- يقدم عدة برامج وحوارات على الفضائيات والإذاعات المختلفة؛ منها: اقرأ، الرسالة، الحوار، الناس، القدس، المستقبل، العربية، الجزيرة، الجزيرة مباشر، والسودان، وإذاعة أم القوين، وإذاعة القرآن الكريم بفلسطين والأردن ولبنان والسودان والإمارات، وغيرها.

- له مئات المحاضرات والأشرطة الإسلامية؛ يتحدث فيها عن السيرة النبوية والصحابة، وتاريخ الأندلس، وقصة التتار، وغير ذلك.